

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة آل عمران

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

2	الفهرس
24	مقدمة كتاب تأملات ابن تيمية في القرآن الكريم
27	مقدمة سورة ال عمران
30	ال عمران 1-9
122	ال عمران 10-17
145	آل عمران 18-25
198	ال عمران 26-32
263	آل عمران 33-63
339	ال عمران 64-85
441	ال عمران 86-92
459	آل عمران 93-97
501	ال عمران 98-108
577	ال عمران 109-115
616	ال عمران 116-129
654	آل عمران 130-136
693	ال عمران 137-158
764	ال عمران 159-164
801	آل عمران 165-175
856	آل عمران 176-188
890	ال عمران 189-200

الفهرس (2)

2	الفهرس
3	الفهرس (2)
24	مقدمة كتاب تأملات ابن تيمية في القرآن الكريم
27	مقدمة سورة ال عمران
30	ال عمران 1-9
30	فواتح السور
31	الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه
33	أصل الإيمان توحيد الله والإيمان برسله
35	الله بين الفرقان بين الحق والباطل
37	أمرنا أن نؤمن بما أوتي النبيون مطلقا
38	أصل الدين التوحيد وضده هو الذنب الذي لا يغفر
39	ليس من أسماء الله الحسنى أسم يتضمن الشر
41	التشابه امر نسبي
42	{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ}
45	"إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم "
47	{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}
81	معرفتنا معرفة معينة مخصوصة
84	" ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها "
89	ذم الله الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات
91	كان السلف ينكرون التأويلات التي تخرج الكلام عن مراد الله ورسوله
93	الرد على تفسير صاحب الفصوص لقوله {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}
94	نفي علم التأويل ليس نفيا لعلم المعنى
108	التأويل هو الحقيقة التي يؤول اليها الكلام
115	العلم الحقيقي يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه
115	يقال في الدعاء يارب
116	المنذب إذا استغفر فقد تأسى بالسعداء
116	معاد الابدان في اليوم الاخر
117	لطائف لغوية
122	ال عمران 10-17
122	سنة الله وعادته

- 124 السنة لا تتبدل ولا تتحول
- 126 الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب
- 126 الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة
- 127 قص الله علينا قصص من قبلنا عبرة لنا
- 128 سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد
- 129 مدح الله العلم والعقل والفقهاء
- 129 الله سبحانه بين كل ما يحتاج إليه في أصول الدين
- 130 لا يمكن في الأصل المعتبر فيه تعديد ما يعتبر به
- 131 كل عاص لله تعالى جاهل
- 131 {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاً وَرِئِيَاً}
- 132 جعل المزين حب الشهوات
- 133 الوسيلة التامة الى سعادة الدنيا والآخرة
- 133 جميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب
- 134 {كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}
- 136 العبد مأمور ان يتوب الى الله تعالى دائما
- 136 توبة الانسان من حسناته
- 137 العبد يحتاج دائما الى الشكر والاستغفار
- 139 المؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور
- 140 يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله
- 141 لطائف لغوية

آل عمران 18-25

- 145 الله سبحانه يشهد لنفسه بالوحدانية
- 146 "ان الله جميل يحب الجمال "
- 146 دلالة لفظ الشهادة
- 155 {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ}
- 157 الدلائل الدالة على صدق محمد أعظم من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى
- 158 السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه
- 159 الله تعالى هو الحكم العدل القائم بالقسط
- 164 جميع الحسنات لا بد فيها من شيتين
- 165 دين الأنبياء واحد
- 167 ان الله لا يقبل من أحد ديناً سوى الحنيفية
- 169 أمر الله اهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين

- 170 الرد على من قال ان النظر في الدليل هو أصل الايمان
- 170 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته
- 172 " سمي الله إقام الصلاة ديناً قيماً وسمى الدين إسلاماً "
- 173 صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال
- 174 الاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسماً
- 174 من أسباب الاختلاف
- 174 1- إذا انقطع عن الناس نور النبوة و قعوا في ظلمة الفتن و حدثت البدع و الفجور
- 176 2- أن المختلفين جاءتهم البينة وجاءهم العلم وإنما اختلفوا بغياً
- 178 3- ان نسيانهم حظاً مما ذكروا به كان سبباً لإغراء العداوة والبغضاء بينهم
- 181 بعض الوسائل لمعالجة أسباب الخلاف
- 181 1- ان الله سبحانه وتعالى هو الحكم
- 182 2- بكمال العبودية لله ببراء من الكبر والشرك
- 183 3- الإجماع والأنتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله
- 185 4- نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القتال في الفتنة
- 185 5- أعظم السيئات جحود الخالق والشرك به
- 186 جعل الأميين مقابلين لأهل الكتاب
- 189 "الخصومة في الدين بدعة"
- 189 الإخلاص هو حقيقة الإسلام
- 191 اليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله
- 191 القسط الذي أرسل الله له الرسل
- 191 لكل صفة تأثير في الحكم
- 192 سبب ما اصاب بني اسرائيل
- 192 لا تحبط الاعمال بغير الكفر
- 193 الدين هو التعاهد والتعاقد
- 194 الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى
- 194 لطائف لغوية

ال عمران 26- 32

- 198 في شرع من قبلنا فإن الملك جانز
- 199 الرب تعالى له المثل الأعلى
- 200 لله سبحانه فيما خلقه حكمة بالغة
- 203 أن لله تعالى يدين ذاتيتان له كما يليق بجلاله
- 207 قطب رحي الدين

- 208 أصل صلاح القلب هو حياته واستنارته
- 208 لا يصح كفر المكره بغير حق
- 209 رأس مال الرافضة التقية
- 211 الأمر بالإتقاء من الكفار لا الأمر بالنفاق والكذب
- 212 الخلق كلهم مصيرهم إلى الله
- 212 نفس الله هي ذاته المتصفة بصفاته
- 214 لا يقول على الله ما لم يعلم
- 214 محمد خاتم النبيين وامام المتقين
- 216 محبة الله عز وجل وموجباتها وعلاماتها
- 217 " من احب الله وابعض لله واعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان "
- 224 لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله
- 233 الله سبحانه وتعالى فرض طاعة رسوله على كل أحد في كل حال
- 242 صور ممن يدعون محبته وهم خارجون عن شريعته
- 242 1- ظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له
- 242 2- يستحبون السماع بالغناء ويروونه قربة
- 243 3- الزعم بأن كلام الله ومحبته مخلوقات له
- 243 4- الذي يقول أنه من المرادين لله وهو لا يقصد إتباع الرسول
- 245 الذنوب تنقص من محبة الله تعالى لكن لا تزيل
- 245 أن الله يحب ويحب
- 247 قد يكون الرجل عدوا لله ثم يصير و ليا لله
- 249 محبة التوحيد
- 250 محبة لله موجبة لمتابعة رسوله
- 250 الرسل هم الوسائط بين الله وبين عباده
- 252 بقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه
- 256 من الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه
- 258 العلم والإرادة أصل لطريق الهدى والعبادة
- 259 العبادات مبناها على التوقيف
- 260 لطائف لغوية

أل عمران 33-63

- 264 يجب اجراء الاسم على عمومه الا اذا قام دليل يوجب الخصوص
- 265 الرسول الذى ينشأ بين أهل الكفر يكون أكمل من غيره
- 265 لم يثن الله على أحد بنسبه أصلا

- 265 ذكر سبحانه قصة مريم والمسيح في سورة مريم المكية وفي سورة ال عمران المدنية
- 267 وليس الذكر كالأنثى
- 268 الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان الى عباده
- 268 {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} يقتضى التخصيص بهذا السمع
- 269 لفظ الدعاء والدعوة فى القرآن يتناول معنيين
- 270 ذكره الله اثباتا لقدرته لا نفيا لحكمته وعدله
- 271 الله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة
- 272 الذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين
- 273 دلائل نبوة الأنبياء
- 275 العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب
- 276 تقرب العبد الى الله وتقريبه له
- 278 أصل عظيم فى باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال
- 278 ففي الآيات وجوه تبين ان عيسى بن مريم عليه السلام مخلوق
- 278 1-المسيح ليس هو صفة الله نفسها بل هو مخلوق بكلمة الله
- 281 2-المسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة
- 281 3-عيسى هو عبد الله فعل التصوير والنفخ بإذن الله
- 282 4-الله سبحانه وتعالى لما ذكر المسيح فى القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء
- 283 5-لم يشهد للمسيح بأنه الله
- 283 6-الرد على تحريف النصارى للقرآن
- 285 7-يجوز أن يضاف الفعل إلى الوسائط تارة وإلى الرب أخرى
- 286 8- الله سبحانه لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع
- 287 لا يشفع عند الله سبحانه أحد الا بإذنه
- 288 الرد على من يدعي ان القرآن مخلوق
- 288 القدر يؤمن به ولا يحتج به
- 290 الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة
- 291 ملة الإسلام وسط في المثل
- 292 قرر سبحانه معاد الأبدان بأنواع من التقرير
- 293 توحيد الله وإخلاص الدين له
- 295 لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب
- 295 الاسلام دين جميع المرسلين
- 296 من أتى الله عليه بالإسلام كانوا مؤمنين
- 297 "الاسلام علانية والايمان فى القلب "

- 299 من شهد للرسول بالتصديق فهو من الشاهدين
- 300 يقال في الدعاء يارب يارب
- 301 " لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته "
- 302 الله رفع عيسى بن مريم حياً
- 303 ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدر في إيمانه
- 304 الإيمان بما وصف الله به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل
- 305 بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله على العرش
- 308 " النسخ لا يجوز في الأخبار "
- 309 كتاب الله وسنة رسوله مملوء بما هو في أن الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى
- 312 من آيات الأنبياء الإخبار بالمستقبلات
- 313 النصرى غيروا شريعة المسيح قبل مبعث محمد
- 315 الهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل
- 316 لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الإيمان
- 317 أسماء القرآن
- 317 شبه المسيح بآدم عليهما السلام
- 319 الله سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته
- 320 الصفات الاختيارية
- 321 الرد على دعوى النصرى لقوله تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}
- 323 حديث المباهلة
- 325 أسماء القرآن
- 325 " لاتدعوا على أنفسكم إلا بخير "
- 326 الرد على دعوى الرافضى إن علي بن أبي طالب كان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
- 329 القرآن المنزل الى الأرض فيه علم الله
- 330 لطائف لغوية

339 آل عمران 64-85

- 340 التوحيد أعظم العدل
- 342 توحيد الدين الملى دون الشرعى
- 343 هدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه
- 344 العبادة المأمور بها
- 345 اليهود موصوفون بالكبر والنصرى بالشرك
- 347 {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}
- 348 إن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يضعها في مواضع تناسبها

- 350 إبراهيم الخليل إمام الحنفاء حيث بعث
351 لفظ العقل فى القرآن
352 {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}
354 النهي عن الجدل بغير علم
355 امتناع تماثل العلمين
355 {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا }
356 شرع من قبلنا شرع لنا
357 أهل البدع بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل
358 من لبس الحق بالباطل لزم أن يكتم الحق
358 التقديم والتأخير والفصل بين المعطوف والمعطوف لا ينكره إلا من لم يعرف اللغة
359 تخصيصه سبحانه لمن هداه تخصيصه بفضله
362 يدا الله صفتان من صفات ذاته
362 الانتفاع بآثار الكفار والمنافقين فى أمور الدنيا جائز
364 " على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة والكذب "
365 اداء الامانة هو الوفاء بموجب العقود
367 " التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله "
367 الله سبحانه محبوب لذاته
369 اليمين الغموس من الكبائر الموجبة للنار
370 نفى الايمان والجنة لا يكون إلا عن كبيرة
371 التحريف قد فسر بتحريف التنزيل وبتحريف التأويل
371 الدين الذي بعث الله به رسله
374 من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر
375 من يتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون
377 الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله
378 المسلمون وسط
379 النهي عن اتخاذ المساجد على القبور
382 الناس فى الشفاعة على ثلاثة أقسام
383 شرك الفلاسفة شر من شرك مشركي العرب
386 الرافضة يدعون من لا ينفع دعاؤه
388 الرباني لفظة عربية
388 "ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لنن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به "
391 " اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا "

- 392 الإيمان والعمل قرينان
- 393 الكتب الإلهية نزهت الله عن صفات النقص
- 394 على جميع الخلق إتباع محمد صلى الله عليه وسلم
- 398 الإسلام هو الدين الذى لا يقبل الله ديناً غيره
- 402 الصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان
- 403 المعرفة بالحق مع الاستكبار يكون عذاباً على صاحبه
- 407 فقر المخلوقات الى الخالق وشهادتها له أمر فطرى
- 409 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته
- 412 الله هو المعبود والمسئول الذى يخاف ويرجى
- 413 ليست عبادة المخلوقات لله قبولها لتدبيره وخلقه
- 415 ضلالات المبتدعة الايمان ببعض النصوص دون بعض
- 417 الانبياء معصومون
- 420 "الإسلام علانية والإيمان فى القلب "
- 424 الرد على تفسير النصارى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} بأن مراده قومه
- 428 ارادة الله وحده بالعمل الصالح هو الاسلام العام
- 430 أصل الدين هو الأمور الباطنة
- 431 {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}
- 432 الغاية التي فيها صلاح للنفس
- 433 لطائف لغوية

441 ال عمران 86-92

- 441 القرآن بين توبة الكافر
- 443 {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ}
- 444 الإيمان والعمل لا ينفع أحدهما بدون صاحبه
- 445 تقبل توبة المرتد في الجملة
- 449 المرتد يستتاب
- 450 الردة على قسمين
- 452 دلت الآية على قبول توبة من كفر بعد ايمانه
- 453 التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله
- 454 النفاق يتبع الكفر ويتبع
- 454 غالب الاستثناءات التي تعقبت جملاً عائداً الى الجميع
- 455 إبدال الواجب بخير منه جائز بل يستحب فيما وجب
- 457 اذا وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى

- 459 ليس لأحد أن يحرم بيمينه ما أحله الله
- 460 النبي أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود
- 463 " فلم يلتفتوا عنه يمينه ولا يسرة "
- 463 " إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس "
- 464 أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدا آمنا
- 464 عتق المسجد مما يحمد لبه
- 465 أن الله فرض في كتابه حج البيت
- 468 " من ملك زاد أو راحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا "
- 469 الحج شعار الحنيفية
- 470 المناسك التي أمر الله بها هي التي فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم
- 470 الناس متنازعون في مسمى الإستطاعة والقدرة
- 471 جمهور أهل السنة يثبتون للعبد قدرة
- 472 الإستطاعة نوعان
- 474 الإستطاعة المنفية ليست هي الإستطاعة المشروطة
- 476 الأفعال المأمور بها مشروطة بالإستطاعة و القدرة
- 478 كيف يكون العبد مختارا لأفعاله وهو مجبور عليها ؟ ؟ ؟
- قوله تعالى { وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } هل المراد به أمنه عند الموت من الكفر عند عرض الأديان أم المراد به
- 479 إذا أحدث حدثا لا يقتص منه ما دام في الحرم ؟
- 479 " الأعمال بخواتيمها "
- 480 الواجب بأصل الشرع الحج مرة واحدة
- 481 لا يجب الحج على الكافر
- 481 الوجوب يعتمد كمال الفاعل
- 487 " تعجلوا إلى الحج يعني الفريضة فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له "
- 494 القدرة الشرعية
- 495 مذهب أهل السنة لا يكفرون احدا من أهل القبلة بذنب
- 496 " من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله "
- 496 عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق
- 497 لطائف لغوية

الله شهيد على العباد بأعمالهم

- 501 سبب نزول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ {
- 502 " تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة "
- 502 كلما كان القلب أتم حياة كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى أتم
- 503 أصل العلم والهدى
- 504 ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذى هو مبدأ كل كفر وفسق
- 504 المعاني المستفادة من قوله تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ {
- 505 1-حق تقاته التى أمركم بها
- 505 2-قوله تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ {و{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ {ليس بين الآيتين تناقض
- 505 3-الواجب تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها
- 506 4-"ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا"
- 506 5-قال ابن مسعود حق تقاته ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر
- 507 أمرنا الله سبحانه وتعالى ان لا نكون {كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ {
- 509 أعظم أصول الإسلام
- 511 إمتياز أهل النجاة عن أهل العذاب بالسنة والجماعة
- 512 " تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة "
- 514 الجماعة رحمة والفرقة عذاب
- 515 "لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"
- 517 "من قتل تحت راية عمية يغضب لعصبيه ويدعو لعصبيه فهو فى النار"
- 518 " إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابهه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم"
- 519 " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل "
- 520 المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا
- 521 هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة
- 523 الواجب رد التنازع الى الكتاب و السنة
- 525 "من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة "
- 526 " أن للاسلام صوى ومنازا كمنار الطريق "
- 528 قلب الإيمان
- 529 أهل البدع يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم
- 530 محركات القلوب الى الله عز وجل ثلاثة
- 531 {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {31} مِّنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا {32}
- 532 من جماع الدين تأليف القلوب
- 533 {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ {

- 533 اذا نظر إلى ما فعله ربه شكر و إذا نظر إلى نفسه إستغفر
- 534 الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة
- 535 وصف الواجب بصفات متلازمة
- 535 العي عي القلب لا عي اللسان
- 536 الإجماع دليل على النص
- 538 {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ }
- 540 حاجة العبد الى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض الى الطب
- 541 ان المعصية اذا خفيت لم تضر الا صاحبها ولكن اذا ظهرت فلم تنكر ضرت العامة
- 542 مناط الوجوب هو القدرة
- 543 " كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الاقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة "
- 549 {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ }
- 551 ان الله لم يأمر بأمر الا وقد خلق سببه ومقتضيه
- 551 حزب الله المفلحون
- 553 كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة فإن ذلك من المنكر
- 554 القيام بالواجبات من الدعوة الواجبة
- 556 اجماع هذه الامة حجة
- 557 "فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم"
- 558 الإختلاف في كتاب الله نوعان
- 561 "إنما هلك من كان قبلكم بهذا أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض"
- 562 تفرق أهل الكتاب في النبي صلى الله عليه وسلم
- 562 سبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به والبغى بينهم
- 565 الأمر بمخالفة الكفار والنهي عن مشابهتهم
- 566 لا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ بل مع نوع بغى
- 567 "إن للحسنة نورا في القلب وإن للسيئة ظلمة في القلب "
- 568 {أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ }
- 570 حرم الله الظلم على نفسه
- 573 لم يجيء في أسماء الله الحسنى المأثورة المتكلم والمريد
- 573 لطائف لغوية

ال عمران 109-115

- 577 "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة"
- 578 ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص
- 579 {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }

- 580 إن مجموع الأمة الاسلامية خير للناس مجتمعين ومنفردين
- 581 العزة مشروطة بالايمان
- 581 المقصود بالجهد هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد
- 582 " سن رسول الله وولاية الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله ليس لأحد تغييرها "
- 583 أفضل الامم امة محمد وأفضل أمة محمد القرن الأول
- 584 الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفسد وتقليلها
- 586 الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ولم يعصم آحادها
- 587 إن العقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله بعباده
- 588 الله سبحانه خلق عباده على الفطرة
- 589 "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك ان يعمهم الله بعقاب منه"
- 590 المسلمون هم الوسط في التوحيد والأنبياء والشرائع والحلال والحرام والأخلاق
- 592 الجهد تمام الايمان وسنام العمل
- 595 التقصير والاعتداء هو الذي استحق به أهل الكتاب العقوبة
- 597 يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله
- 597 السينة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى
- 598 "من فسد من علمانا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى"
- 599 اليهود فيهم كبر والمستكبر معاقب بالذل
- 600 اليهود من اسوء الكفار عند الله
- 600 اليهود من حين ضربت عليهم الذلة إلا بحبلى لم يكونوا بمجردهم ينتصرون
- 601 الله تعالى إنما أتى على من آمن من أهل الكتاب
- 604 من كان في دار الكفر لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها
- 607 {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }
- 608 {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ }
- 608 {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} {17} {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ} {18}
- 610 "لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم إن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه"
- 611 المسارعة إلى الخيرات مأمور بها
- 612 الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده
- 613 لطائف لغوية

ال عمران 116-129

- 616 أن الله لم يهلك أحدا ولم يعذبه إلا بذنب
- 617 الأمثال و التشبيهات لا توجب التماثل من كل وجه
- 617 الأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له سبحانه

- 618 النعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء
- 619 كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل
- 620 ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب
- 621 "من احب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد إستكمل الإيمان"
- 622 {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}
- 625 " لا تعزوهم بعد أن أدلهم الله ولا تأمنوهم بعد ان خونهم الله "
- 627 مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم
- 628 لفظ العقل يتضمن ما يجلب به المنفعة
- 629 عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين
- 629 الحسنات والسينات في الآية المراد بها المسار والمضار
- 630 اذا وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى
- 630 لم يعذر الله أحدا قط بالقدر
- 632 {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}
- 633 السلوك سلوكان
- 635 {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}
- 637 انزل الله في غزوة احد قوله {وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ}
- 638 أمر سبحانه بالجهاد وذم المثبطين
- 640 نزول الملائكة لنصر الانبياء وتأييدهم
- 641 التوكل فله وحده لا شريك له
- 642 "الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع"
- 643 إن نفس التقوى والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة
- 644 {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}
- 644 شهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار يغلق باب الشر
- 646 دعوى أن القطب الفرد الغوث الجامع ينطبق علمه وقدرته على علم و قدرة الله تعالى كفر صريح
- 647 الدعاء من العبادات فلا يعبد الله إلا بمأمور به واجب أو مستحب
- 648 الأمر كله لله
- 648 إذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء
- 650 لطائف لغوية
- 654 آل عمران 130- 136**
- 654 المراباة حرام بالكتاب و السنة و الاجماع
- 655 تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة

- 656 الامام مالك والامام أحمد يحرمان الربا و يمنعان الاحتيال عليه
رجل اشترى قمحا بثمن معلوم الى وقت معلوم ثم إنه ما حصل لصاحب القمح شيء ثم داره عقدا و ارتهن
657 عليه ملكا و أنه أخذ ذلك بيعا و شراء بذلك العقد فهل البيع جائز ؟
- 660 لفظ الربا يتناول كل ما نهى عنه من ربا النساء و ربا الفضل والقرض الذى يجبر منفعة
660 وتوحيد الله وإخلاص الدين له هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره
661 القرآن جمع بين العدل والفضل على غاية الكمال
661 العذاب إنما أعد للكافرين فإن جهنم لهم خلقت
662 التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله
663 لا سعادة للعباد ولا نجاته في المعاد الا باتباع رسوله
666 الله تعالى جعل طاعة الله ورسوله شيئا واحدا
667 من رحمة الله بعباده لا يجعلهم مصرين على الباطل
668 الجنة أعدت للمتقين
668 {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ }
668 العاقبى عن الناس قد أحسن إلى نفسه والى الناس
672 {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }
673 لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع إستغفار
674 لا يخلد فى النار احد من أهل التوحيد
676 مثل المؤمن كمثل الفرس فى آخيته يجول ثم يرجع الى آخيته
677 محبة الرب لعبده
677 افضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة
679 من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله
680 الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن
680 "من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة وان زنا وان سرق "
682 "كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون "
685 {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ }
686 ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب
687 {تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا }
688 خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب
688 الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله لا تطلب إلا منه
689 الظلم ثلاثة أنواع
690 {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ }
691 لطائف لغوية

- 694 سنة الله وعادته
- 696 تعريف عقوبة الظالمين بالعيان
- 697 من اتبع الرسول كان مهديا منصورا
- 698 السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى
- 698 الطريق الشرعي
- 699 " تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة "
- 700 سماع فقه و قبول
- 701 طريق أهل الهدى و السنة
- 702 المقصود ببيان الكلام
- 703 النظر المفيد للعلم فهو ما كان في دليل هاد
- 705 أصل العلم والهدى
- 705 أنمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب
- 707 الحزن لم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه
- 708 الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله
- 709 تقوية الإرادة الصالحة وتضعيف الإرادة الفاسدة بحسب الإمكان
- 709 بالاستغفار تتم الطاعة وبالصبر يتم اليقين بالوعد
- 713 العزة مشروطة بالايمان
- 714 الذين يخرجون عن الدين يأخذون بعضه ويدعون بعضه
- 716 من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس
- 717 {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ}
- 718 الحكمة من الابتلاء
- 722 معنى قوله لنعلم
- 723 "لا تتمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا"
- 725 العزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق
- 726 "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم "
- 727 "من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات "
- 729 بين سبحانه وتعالى أنه ليس بموته ولا قتله ينتقض حكم رسالته
- 729 أن أبا بكر كان أشجع الناس
- 731 القسم الممدوح هم أهل الصبر و الشكر
- 732 الأمور العامة التي يفعلها الله عز وجل تكون لحكمة عامة
- 732 أعظم نعمة إرسال محمد صلى الله عليه وسلم

- 733 " الربيون هم الفقهاء المعلمون "
- 735 الحسنة من إحسان الله تعالى والمصائب من نفس الإنسان
- 736 محبة الرب لعبده حق
- 737 ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب
- 737 مدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما
- 738 آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة
- 739 الذنوب المعصية والإسراف الاعتداء
- 739 الشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره
- 740 جميع ما يفعل الله بعبد من الخير من مقتضى اسمه الرب
- 741 المعاصي سبب المصائب و الطاعة سبب النعمة
- 742 { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ }
- 742 من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه
- 743 الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين
- 743 الخوف الذى يحصل فى قلوب الناس هو الشرك الذى فى قلوبهم
- 744 سيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال
- 744 "الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح فى الشرع"
- 745 من أحب شيئا كما يحب الله فقد أشرك
- 746 أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسلطان
- 746 هذه الآية في اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه بأحد وهم افضل الخلق
- 747 طلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله
- 748 الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله
- 749 الله وصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية
- 750 انتصار العدو إنما هو بذنوب المسلمين
- 752 " هو ذنب هممت به فى شرك و لم تفعله فجزيت هما به "
- 752 الحزن لم يأمر به بل قد نهى عنه وإن تعلق بأمر الدين
- 753 { قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ }
- 754 "كل من عمل سوءا فهو جاهل "
- 755 قد عفا الله عن جميع المتولين يوم أحد
- 755 { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }
- 756 المنايا محتومة
- 756 عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين

- 764 "لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم"
- 765 الحكمة من الأمر بالعتف
- 767 "امروا بالاستغفار لأصحاب محمد فسبواهم"
- 768 الأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع
- 770 الله محبوب لذاته محبة حقيقة
- 771 { فَأِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ }
- 771 يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها
- 772 فكل من دعا غير الله فهو مشرك
- 773 انقسم الناس في موضوع التوكل الى أربعة اقسام
- 775 أمر الله بالتوكل أعظم مما أمر بالوضوء
- 776 "لا يخافن عبد إلا ذنبه"
- 777 "إذا سألت فاسئلي الله وإذا استعنت فاستعني بالله"
- 777 حكمة الله أنه لا يبعث نبيا كاذبا ولا فاجرا
- 778 "درجات الجنة تذهب علوا ودرجات النار تذهب سفولا"
- 779 الرسالة ضرورية في اصلاح العبد في معاشه ومعاده
- 781 الأمر باتباع الكتاب يوجب الأمر باتباع الحكمة
- 783 المسلمون عندهم منقولا عن نبيهم نقلات متواترة ثلاثة أمور
- 784 النبي سمعه من جبريل وهو الذي نزل عليه به
- 785 كل ما يحتاج الناس إليه من أصول الدين فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا
- 786 { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ }
- 787 { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }
- 788 المنة على جميع المؤمنين عربهم و عجمهم
- 790 إمتن سبحانه على العباد بإرساله
- 791 "إلا واني أوتيت الكتاب ومثله معه"
- 792 المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح
- 793 أصحاب محمد أبر هذه الأمة
- 793 ذكر الله طاعة الرسول في نحو من أربعين موضعا من القرآن
- 796 زكاة النفس
- 797 اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه
- 797 الرد على احتجاج النصارى بقوله تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ }

798

798

801

801

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾

802

حيث ظهر الكفار فإتاما ذاك لذنوب المسلمين

804

الذنوب ترفع عقوبتها بالتوبة والاستغفار

804

الشر عدم و هو من لوازم النفس

808

لا يذكر الشر إلا على أحد و جوه ثلاثة

809

على العبد أن يؤمن بالقدر و ليس له أن يحتج به على الله

811

الأعمال بخواتيمها

812

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

814

الاذن نوعان

815

من حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق

816

كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجرى ذلك لأسباب

817

أن القلب قد يكون فيه ايمان ونفاق

819

شعار دين الرافضة التقية

820

سنة الله أنه يبغى المؤمنين بالسراء والضراء

821

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ

821

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

822

مدار النصر والظهور مع متابعة النبي من غير سبب يزاحم ذلك

823

الموت المثبت غير الموت المنفى

823

دخول الأرواح الجنة ليس مختصا بالشهيد

824

حياة القلب هي المانعة من القبائح

825

محركات القلوب الى الله عز وجل

826

القرآن قد بين في غير موضع بقاء النفس في البرزخ

828

يوم احد يوم بلاء وفتنة وتمحيص

829

دعاء الله والتوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب

831

بين الله التوحيد وحسم مواد الإشراف به

831

"إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله"

834

التوكل هو سبب هذا الانقلاب

834

﴿إِنَّمَا دَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾

836

أولياء الله هم المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله

- 838 " ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة "
- 839 أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن
- 841 اليقين ينتظم منه أمران
- 841 الايمان يتبعض ويزيد وينقص
- 843 الرد على من يقول بتخليد أهل الكبائر فى النار
- 846 انقسم الناس فى موضوع التوكل
- 850 قصد المؤمن رضى ربه واجتناب سخطه
- 850 اوجب الله على عباده ان لا يخافوا حزب الشيطان
- 852 " أن لقلب ابن آدم لمة من الملك ولمة من الشيطان "
- 852 لطائف لغوية

856 آل عمران 176-188

- 856 الحزن لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة
- 857 "يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني "
- 858 ليس كل من متعه الله برزق ونصر يكون ممن يحبه الله ويواليه
- 858 لم يجيء اعداد العذاب المهين فى القران الا فى حق الكفار
- 859 سنة الله فى الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم لينالوا درجة الشكر والصبر
- 860 أن المظهريين للإيمان لا بد أن يمتحنهم
- 862 الايمان والنفاق اصله فى القلب
- 862 من أعظم أسباب ظهور الدين ظهور المعارضين له
- 863 ذم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة فى سبيله
- 864 " شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع "
- 865 فلا يتم رعاية الخلق وسياستهم الا بالجود
- 866 الإيماى بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل
- 866 ملة الإسلام وسط فى الملل
- 867 تمثيل الخالق بالمخلوق فى الصفات باطل
- 868 استعمال لفظ الذوق فى إدراك الملانم والمنافر
- 869 الرد على الملحدىن الذين يجعلون وجود الله سبحانه وتعالى مشروطا بوجود العالم
- 870 {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}
- 870 ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيا الا بأية تبين صدقه
- 871 أهل الكتاب كفروا من وجهين
- 871 تسلية الرسول وتعزيته لما أصابهم من المكذبين يوم احد
- 873 ان إراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع و العبادة له

- 873 الرسل تتناول الذين ذكرهم الله في القرآن ومن لم يسمهم
- 874 الموت المثبت هو فراق الروح البدن
- 874 { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ }
- 874 المؤمن يجمع بين طاعة الامر والصبر على المصائب
- 875 الامر بالصبر على اذى المشركين ذلك تنبيه على الصبر على اذى المؤمنين
- 875 الامر بالصبر على اذاهم وبتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكنة
- 878 لا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور
- 878 القيام بالدعوة الواجبة يحتاج إلى شروط يقام بها
- 880 الكامل هو من كان لله اطوع وعلى ما يصيبه اصبر
- 881 مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين
- 881 " إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم "
- 883 "إحرص على ما ينفعك و استعن بالله "
- 884 لم يعذر الله أحدا قط بالقدر
- 885 أخذ الله على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم
- 885 من كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا
- 886 "إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد"
- 886 "لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه"
- 888 قول القلب وعمله هو الأصل
- 888 لطائف لغوية

890 ال عمران 189-200

- 890 { وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
- 892 العلم الحقيقي يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه
- 893 أخبر سبحانه بخلقه الزمان في غير موضع
- 893 الله هو مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه
- 894 الله سبحانه في كل ما يخلقه حكمة
- 895 الليل والنهار الذي هو حاصل بالشمس هو تبع للسموات والارض
- 896 العبادة غاية مقصودة والاستعانة وسيلة إليها
- 897 الأمر والنهي و الثواب والعقاب و المعاد مما لا بد منه
- 898 لا يكون شر محض لا خير فيه
- 899 العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى
- 900 الباطل ضد الحق والله هو الحق المبين

- 900 الصلاة أعظم التسبيح
901 السؤال بالأعمال الصالحة
902 الإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله
903 لفظ الأبرار اذا أطلق
904 وعد الله من كلماته التي لا مبدل لها
904 إجابته على نفسه سبحانه ما أخبر به من قسمه ليفعلن
905 المهاجرون كانوا مؤمنين به باطنا وظاهرا
906 من فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه
910 توحيد الله وإخلاص الدين له هو قلب والإيمان
910 لطائف لغوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة كتاب تأملات ابن تيمية في القرآن الكريم

قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحديد 25

من رحمة الله بالبشرية ان أنزل اليها الكتاب { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } يونس 57 وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراف المستقيم الذي لا تزيع به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا يخلق عن كثرة الترديد ولا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى الى صراط مستقيم ومن تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .
وأنزل الميزان العقلي والمنطقي العادل الذي به نرى الامور وبه نحكم بين الاشياء وبه نزن الاشياء وبه نقيمها .

فصلاح الأمة ونهضتها وسعادة البشرية وتحقيق العدل والكرامة والحرية والرحمة بالانسانية يتوقف على العودة الى الكتاب والسنة بالميزان العقلي والمنهجية العلمية وطريقة التفكير الصحيحة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } الشورى 17 فبذلك نستطيع ان نفقه مراد الكتاب والسنة وان نخطو الخطوات الصحيحة الواثقة نحو الفلاح والنصر والسعادة في الدنيا والآخرة .

كما اننا بذلك نستطيع ان نرسم ملامح خريطةنا ونحدد معالم منهجنا قال تعالى { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ } فاطر 10

كان ابن تيمية رحمه الله يشير دائما الى هذه المنهجية العلمية والميزان العقلي وطريقة التفكير الصحيحة مستلهما لها من الكتاب والسنة ويستطيع القارئ من خلال القراءة بتعمق وانتباه في المواضيع ان يستقرئ هذه المنهجية وهذا الميزان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وعلى من اتبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين .

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل 53 فبرحمة من الله ألهمت فكرة هذا الكتاب وسهل الأمور بطريقة لم أتوقعها ووهبني الصبر والمثابرة للقيام بهذا الجهد الذي استغرق مني سنوات من العمل فالحمد لله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب هو جزء من كتاب تأملات ابن تيمية في القران وهو مقتطفات قمت بجمعها من كتب ابن تيمية المختلفة تتعلق بالآيات وهي تلقي ضوءا على تأملات ابن تيمية في القران وهي ليست تفسيراً كاملاً لكنها تتكلم عن بعض مضامين الآيات كما إنها ليست في مجال محدد بل تارة تتكلم عن جانب عقائدي أو فقهي أو روهي أو لغوي أو علمي . . الخ ، وهي تشكل وتوضح الرؤية الفكرية والعقدية والفقهية لابن تيمية ، ورؤيته هذه تؤسس لنا قاعدة في الفهم والنظر والفكر والقياس رؤية معتدلة لا تشدد فيها ولا تهاون رؤية تنظر إلى الغايات والمصالح تحكم الشرع والعقل والمنطق . كما سيجد القارئ في هذا الكتاب رداً لابن تيمية خاضعا لمقاييس الشرع والعقل والمنطق على اغلب الشبهات والانحرافات والبدع التي اكتنفت دعاوى بعض الجاهلين والضالين والفرق التي ضلت عن جادة الطريق في فهم القران .

قمت بنقل ما كتبه ابن تيمية من دون أي تدخل يذكر مني في الصياغة إلا ما ندر كتوضيح أو ذكر إلى من يعود الكلام فقط لاني اردت ان انقل رأي الشيخ ابن تيمية رحمه الله للقارئ بطريقة سهلة ميسرة .

لم يكن بالأمر السهل جمع هذه المادة من بين كتب ابن تيمية الكثيرة وتنسيقها لاتساعها ودقتها ونقل ما يناسب بدون تدخل في الصياغة ولكون همتي كانت منصرفة لتكميل هذه المادة وجمعها وعدم التوسع في عرض المواضيع بهدف تقليل حجم المادة بقدر الامكان قد يكون لذلك اثر في مستوى المادة لذا رأيت ان اضع هذا الجزء من كتاب تأملات ابن تيمية في القران الكريم بين يدي القارئ لأستثير بفكره ونصائحه وتنبيهاته لتؤخذ بعين الاعتبار في تعديل الكتاب ومهما تكن الملاحظة صغيرة سيكون لها وزن عندي لان ما يهمنا ان تصل الفائدة المرجوة من الكتاب بافضل صورة .

rogiagh@hotmail.com

~ §§ آل عمران (مدنية) 200 §§ ~

مقدمة سورة آل عمران

سورة آل عمران وهي من السور المدينة التي يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} {33} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {34} إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {35} فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {36} آل عمران 33-36¹

وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد مثلما ذكره محمد بن جرير الطبري في تفسيره قال حدثنا المثنى حدثنا إسحاق حدثنا ابن أبي جعفر يعني عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع في قوله تعالى {الم} {1} {الله لا إله إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ} {2} آل عمران 1-2 قال إن النصارى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاصموه في عيسى بن مريم وقالوا له من أبوه وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدا فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه قالوا نعم قال أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء قالوا بلى قال أستم تعملون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه قالوا بلى فهل يملك عيسى من ذلك شيئا قالوا لا قال أستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم قالوا لا قال فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء قال أستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث قالوا بلى قال أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعت كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يتغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى قال فكيف يكون هذا كما زعمتم قال فعرفوا ثم أبوا إلا الجحود فأنزل الله {الم} {1} {الله لا إله إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ} {2} آل عمران 1-2²

¹دقائق التفسير ج: 1 ص: 308

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 195-196

ومن علماء النصارى الذين هداهم الله بينوا ما وقع من النصارى من تحريفهم لمعاني الكتب التي عندهم وذكروا مما عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله ما يتبين به بطلان قولهم وأنهم ممن تركوا المحكم من الآيات واتبعوا المتشابه ولهذا أنزل الله فيهم {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} {7} ال عمران 7¹

وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه ويكفر من لم يتبعه منهم ويذمه ويلعنه والوعيد له كما في تكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه والوعيد كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} النساء 47 وفي القرآن من قوله يا أهل الكتاب يا بني اسرائيل ما لا يحصى إلا بكلفة وقال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} البينة 1 إلى قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} {7} البينة 7 ومثل هذا في القرآن كثير جدا وقد قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} {الأعراف 158} وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ} سبأ 28 واستفاض عنه فضلت على الأنبياء بخمس ذكر فيها أنه قال كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة بل تواتر عنه أنه بعث إلى الجن والإنسان فإذا علم بالإضطرار بالنقل المتواتر الذي تواتر كما تواتر ظهور دعوته أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وأنه حكم بكفر من لم يؤمن به منهم وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه وأنه ضرب الجزية عليهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم فحاصر بني قينقاع ثم أجلاهم إلى أذرعات وحاصر بني النضير ثم أجلاهم إلى خيبر وفي ذلك أنزل الله سورة الحشر ثم حاصر بني قريظة لما نقضوا العهد وقتل رجالهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وقد ذكره الله تعالى في سورة الأحزاب وقاتل أهل خيبر حتى فتحها وقتل من رجالهم وسبى من سبى من حريمهم وقسم أرضهم بين المؤمنين وقد ذكرها الله تعالى في سورة الفتح وضرب الجزية على النصارى وفيهم أنزل الله سورة آل عمران وغزا النصارى عام تبوك وفيها أنزل الله سورة براءة وفي عامة السور المدنية مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغير ذلك من السور المدنية من دعوة أهل الكتاب وخطابهم مالا تتسع هذه الفتوى لعشره ثم خلفاؤه بعده أبو بكر وعمر ومن معهما من المهاجرين والأنصار الذي يعلم أنهم

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 415

كانوا أتبع الناس له وأطوعهم لامره وأحفظهم لعهدده وقد غزوا الروم كما غزوا فارس وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس فقاتلوا من قاتلهم وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يد وهم صاغرون ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار قال سعيد بن جبير تصديق ذلك في كتاب الله تعالى {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} {هود 17} ومعنى الحديث متواتر عنه معلوم بالإضطرار فإذا كان الامر كذلك لزم بأنه رسول الله إلى كل الطوائف فإنه يقرر بأنه رسول الله لا يكذب ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر الله ولا يستحل دماءهم وأموالهم وديارهم بغير إذن الله¹

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 206

ال عمران 1-9

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم} {1} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ {2} نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {3} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ {4} إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ {5} هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {6} هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {7} رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ {8} رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ {9}

فواتح السور

قال تعالى {الم} آل عمران 1 وليس فى القرآن من حروف الهجاء التى هي أسماء الحروف إلا نصفها وهي أربعة عشر حرفا وهي نصف أجناس الحروف نصف المجهورة والمهموسة والمستعلية والمطبقة والشديدة والرخوة وغير ذلك من أجناس الحروف وهو أشرف النصفين والنصف الآخر لا يوجد فى القرآن إلا فى ضمن الأسماء أو الأفعال أو حروف المعانى التى ليست باسم ولا فعل فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة فى القرآن لكن نفس حروف المعجم التى هي أبعاض الكلام موجودة فى القرآن بل قد اجتمعت فى آيتين إحداهما فى آل عمران و الثانية فى سورة الفتح {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً} آل عمران 154 الآية و {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} الفتح 29 الآية¹

أن المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الإسمية و الفعلية و انما هي أسماء موقوفة و لهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد و التركيب و إنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث و

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 448-449

لهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها في النطق أسماء و لهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا ز ا قال نطقتم بالإسم و إنما النطق بالحرف زه فهي في اللفظ أسماء و في الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي صلى الله عليه و سلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم حرف و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و الح لغة الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسما و فعلا و حرفا و لهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام إسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الإسم حرف و الفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل و هذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام و أما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد و ينطق بها غير معربة و لا يقال فيها معرب و لا مبنى لأن ذلك إنما يقال في المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم ثم يقال هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا و هي المتشابهة كان ما سواها معلوم المعنى و هذا المطلوب وأيضا فإن الله تعالى قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 و هذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء و إنما يعدها آيات الكوفيون و سبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابهة و لكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء¹

الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه

ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لأبي بن كعب يا أبا المنذر أتدري أي آية فى كتاب الله معك أعظم فقال { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } البقرة 255 فقال ليهنك العلم أبا المنذر و هنا إفتتحها بقوله { اللَّهُ } البقرة 255 و هو أعظم من قوله و ربك و لهذا إفتتح به أعظم سورة فى القرآن فقال { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الفاتحة 2 و قال { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } البقرة 255 إذا كان المشركون قد اتخذوا إليها غيره و إن قالوا بأنه الخالق ففى قوله خلق لم يذكر نفي خالق آخر إذ كان ذلك معلوما فلم يثبت أحد من الناس خالقا آخر مطلقا خلق كل شيء و خلق الإنسان و غيره بخلاف الإلهية قال تعالى { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ لَشِيءٍ يُرَادُ } ص 6 و قال تعالى { أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ } الأنعام 19 و قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 420-421

سَبِيلًا {الإسراء 42} فابتغوا معه آلهة أخرى و لم يثبتوا معه خالفاً آخر فقال في أعظم الآيات {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 ذكره في ثلاثة مواضع من القرآن كل موضع فيه أحد أصول الدين الثلاثة و هي التوحيد و الرسل و الآخرة هذه التي بعث بها جميع المرسلين و أخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} الأنعام 150 فقال هنا {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 قرنها بأنه لا إله إلا هو و زاد في آل عمران {نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} {3} مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} {4} آل عمران 3-4 و هذا إيمان بالكتب و الرسل و قال في طه {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} {109} {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} {110} وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} {111} طه 109-111¹

وقال أبو عبدالله محمد بن أبي زمنين الإمام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي صنفه في أصول السنة قال فيه في الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه قال وأعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به انبيأؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما والعجز عن ما لم يدع إليه ايماننا وأنهم انما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه الى حيث انتهى في كتابه على لسان نبيه وقد قال وهو اصدق القائلين {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} آل عمران 2 ومثل هذا في القرآن كثير فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه وله وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه ويسمع ويرى ويتكلم هو الأول لا شيء قبله والآخر الباقي الى غير نهاية ولا شيء بعده والظاهر العالى فوق كل شيء والباطن بطن علمه بخلقه فقال {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} البقرة 29 قيوم حتى لا تأخذه سنة ولا نوم وذكر أحاديث الصفات وذكر أحاديث الصفات ثم قال فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها نبيه وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الشورى 11 لم تره العيون فتحده كيف هو ولكن رأته القلوب في حقائق الايمان²

وقال الإمام أبو عبدالله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه اعتقاد التوحيد باثبات الاسماء والصفات إلى أن قال فأول ما نبتدىء به ما أوردنا هذه المسألة من أجلها ذكر أسماء الله عز وجل في كتابه وما بين صلى الله عليه وسلم من صفاته في سنته وما وصف به عز وجل مما سنذكر قول القائلين بذلك مما لا يجوز لنا في ذلك أن نرده الى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك ومما قد امرنا بالاستسلام له الى أن قال ثم ان الله تعرف الينا بعد اثبات الوحدانية والاقرار بالالوهية ان

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 370-372

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 57

ذكر تعالى في كتابه بعد التحقيق بما بدأ من اسمائه وصفاته وأكد عليه السلام بقوله فقبلوا منه كقبولهم لأوائل التوحيد من ظاهر قوله لا إله إلا الله ثم قال ومما ورد به النص أنه حي وذكر **قوله تعالى {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} آل عمران 2** والحديث يا حي يا قيوم برحمتك استغيث¹ فالحي نفسه مستلزم لجميع الصفات وهو أصلها ولهذا كان أعظم آية في القرآن {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} البقرة 255 وهو الاسم الأعظم لأنه ما من حي إلا وهو شاعر مرید فاستلزم جميع الصفات فلو إكتفى في الصفات بالتلازم لإكتفى بالحي وهذا ينفع في الدلالة والوجود² قال الخليل {لا أحب الأفلين} الأنعام 76 فإن الكواكب في حال أفولها قد إنقطع أثرها عنا بالكلية فلم تبق شبهة يستند إليها المتعلق بها والرب الذي يدعى ويسأل ويرجى ويتوكل عليه لا بد أن يكون قيوما يقيم العبد في جميع الأوقات والأحوال كما قال {وتوكل على الحي الذي لا يموت} الفرقان 58 وقال **{الله لا إله إلا هو الحي القيوم} آل عمران 2** فهذا وغيره من أنواع النظر والإعتبار يوجب أن العبد لا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا عليه أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء وسمى بعض عبادته وصفاته بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى فسمى نفسه حيا كقوله **{الله لا إله إلا هو الحي القيوم} آل عمران 2** وسمى بعض عبادته حيا كقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} الأنعام 95 مع العلم بأنه ليس الحي كالحي³

أصل الإيمان توحيد الله والإيمان برسله

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 وتقرير الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء 165 ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 74

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 311

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 422

المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التي هي القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا كقوله **{وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} {3} {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ} {4} {ال عمران 3-4}**¹

و أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله كما قال تعالى **{فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {92} {عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {93}** الحجر 92-93 قال أبو العالية خلتان تسأل العباد يوم القيامة عنهما عما كانوا يعملون وعما اجابوا الرسل ولهذا يقرر الله هذين الأصلين في غير موضع من القرآن بل يقدمهما على كل ما سواهما لأنهما أصل الأصول مثلما ذكر في آل عمران قال **{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} {2} {نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} {3} {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} {4} {آل عمران 2-4}** فذكر التوحيد أولا ثم الإيمان بما جاءت به الرسل ثانيا وذكر انه أنزل الكتاب والفرقان كما قال **{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ} {البقرة 53}** ولفظ **{الْفُرْقَانَ}** يتناول ما يفرق بين الحق والباطل مثل آليات التي بعث بها الأنبياء كالحية واليد البيضاء وإنفلاق البحر والقرآن فرقان بين هذا الوجه من جهة أنه آية عظيمة لنبوة محمد وعلم عظيم وهو أيضا فرقان باعتبار أنه فرق بينه بين الحق والباطل كما قال **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} {الفرقان 1}** ولهذا فسر جماعة الفرقان هنا به ولفظ الفرقان أيضا يتناول نصر الله لأنبيائه وعباده المؤمنين وإهلاك أعدائهم فإنه فرق به بين أوليائه وأعدائه وهو أيضا من الأعلام قال تعالى **{إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْأَجْمَعَانَ} {الأفعال 41}** والآيات التي يجعلها الله دلالة على صدق الأنبياء هي مما ينزله كما قال **{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً} {الأنعام 37}** وقال **{إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} {الشعراء 4}** وقال تعالى **{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} {البقرة 59}** وبسط هذا له موضع آخر²

الإختلاف في تنزيله بين المؤمنين والكافرين فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل والكافرون كفروا بالكتاب وبما ارسل الله به رسله فسوف يعلمون فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم فمن آمن بالرسل آمن بما بلغوه عن الله ومن كذب بالرسل كذب بذلك فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده والكفر بذلك هو الكفر بهذا فتدبر هذا الأصل فإنه فرقان هذا الاشتباه ولهذا كان من يكفر بالرسل تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر كما أنه قد يكفر برب

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 4

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 277

العالمين مثل فرعون وقومه قال الله تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} يونس 2 الآية وقال {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} الأنعام 91 إلى آخر الكلام فإن في هذه الآيات تقرير قواعد وقال عن الوحيد {إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} المدثر 25 ولهذا كان أصل الإيمان الايمان بما أنزله قال تعالى {الم} {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ {3} البقرة 1-3 إلى قوله {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} {4} البقرة 4 وفي وسط السورة {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 الآية وفي آخرها {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} البقرة 285 الآيتين وفي السورة التي تليها {الم} {1} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ {2} نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {3} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ {4} آل عمران 1-4¹

الله بين الفرقان بين الحق والباطل

وان الله بين الفرقان بين الحق والباطل بكتابه ونبيه فمن كان أعظم اتباعا لكتابه الذي أنزله ونبيه الذي أرسله كان أعظم فرقانا ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول كان أبعد عن الفرقان واشتبه عليه الحق بالباطل كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان والنبي الصادق بالمتنبيء الكاذب وآيات النبيين بشبهات الكذابين حتى إشتبه عليهم الخالق بالمخلوق فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ففرق به بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغي والصدق والكذب والعلم والجهل والمعروف والمنكر وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء وبين ما عليه الناس من الاختلاف وكذلك النبيون قبله قال الله تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} البقرة 213 وقال سبحانه وتعالى {الم} {1} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ {2} نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {3} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ {4} آل عمران 1-4 قال جماهير المفسرين هو القرآن روى ابن أبي حاتم باسناده عن الربيع بن أنس قال هو الفرقان فرق بين الحق

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 8

والباطل قال وروى عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك وروى بإسناده عن شيبان عن قتادة فى قوله وأنزل الفرقان قال هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ففرق به بين الحق والباطل وبين فيه دينه وشرع فيه شرائعه وأحل حلاله وحرم حرامه وحد حدوده وأمر بطاعته ونهى عن معصيته وعن عباد بن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى {وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} آل عمران 4 قال هو كتاب بحق و {الْفُرْقَانَ} مصدر فرق فرقانا مثل الرجحان والكفران والخسران وكذلك القرآن هو فى الأصل مصدر قرأ قرأنا ومنه قوله {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} {17} فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {18} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ {19} القيامة 17-19 ويسمى الكلام المقروء نفسه قرأنا وهو كثير كما فى قوله {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} النحل 98 كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تكليما وتكلم تكلماً ويراد به الكلام نفسه وذلك لأن الانسان اذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة هى مسمى المصدر وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفس التكلم بالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعاً من العمل اذا أريد به المصدر وتارة يجعل قسيماً له اذا أريد ما يتكلم به وهو يتناول هذا وهذا وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع والمقصود هنا أن لفظ الفرقان اذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل وهذا منزل فى الكتاب فإن فى الكتاب الفصل وأنزال الفرق هو انزال الفارق وأن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً فهما فى المعنى سواء وأن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون انزاله كانزال الايمان وانزال العدل فإنه جعل فى القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن كما جعل فيها الايمان والعدل وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان والميزان قد فسر بالعدل وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل وهو كالفرقان يفسر بالفرق ويفسر بما يحصل به الفرق وهما متلازمان فاذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسه هو الفارق ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هى الصفة الاخرى سمي كتاباً باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب وسمى فرقاناً باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم كما سمي هدى باعتبار أنه يهدى الى الحق وشفاء باعتبار أنه يشفى القلوب من مرض الشبهات والشهوات ونحو ذلك من اسمائه وكذلك أسماء الرسول كالمقفى والماحى والحاشر وكذلك أسماء الله الحسنى كالرحمن والرحيم والملك والحكيم ونحو ذلك والعطف يكون لتغاير الاسماء والصفات وان كان المسمى واحداً كقوله {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {3} الاعلى 1-3 وقوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} الحديد 3 ونحو ذلك وهنا ذكر أنه نزل الكتاب فإنه نزله متفرقاً وأنه أنزل التوراة والانجيل وذكر أنه أنزل الفرقان وقد أنزل سبحانه وتعالى الايمان فى القلوب وأنزل الميزان والايمان و الميزان مما يحصل به الفرقان ايضاً كما يحصل بالقرآن واذا أنزل القرآن حصل به الايمان والفرقان ونظير هذا قوله {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً} الانبياء 48 قيل الفرقان هو التوراة وقيل هو الحكم بنصره على فرعون كما فى قوله {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا

يَوْمَ الْفُرْقَانِ { الأنفال 41 وكذلك قوله { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ } المائدة 15 قيل النور هو محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هو الإسلام وقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا } النساء 174 قيل البرهان هو محمد وقيل هو الحجة والدليل وقيل القرآن والحجة والدليل تتناول الآيات التي بعث بها محمد لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم وهنا قال { وَأَنْزَلْنَا الْفُرْقَانَ } آل عمران 4 جاء بلفظ الانزال فلماذا شاع بينهم أن القرآن والبرهان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ويعذب هؤلاء فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالاحسان الى هؤلاء وعقوبة هؤلاء وهذا كقوله في القرآن في قوله { إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ } الأنفال 41 قال الوالبي عن ابن عباس يوم الفرقان يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد ومقسم وعبيدالله بن عبدالله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك¹

أمرنا أن نؤمن بما أوتى النبيون مطلقا

وقد أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الأنبياء مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه²

قال تعالى { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ } الأنعام 91 الى قوله { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } الأنعام 92 فهذا وما أشبهه مما فيه إقتران التوراة بالقرآن وتخصيصها بالذكر يبين ما ذكره من أن التوراة هي الأصل والإنجيل تبع لها في كثير من الأحكام وإن كان مغايرا لبعضها فلماذا يذكر الإنجيل مع التوراة والقرآن في مثل قوله { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ } {3} من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان {4} آل عمران 3-4 وقال { وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ } التوبة 111 فيذكر الثلاثة تارة ويذكر القرآن مع التوراة وحدها تارة لسر وهو أن الإنجيل من وجه أصل ومن وجه تبع بخلاف القرآن مع التوراة فإنه أصل من كل وجه بل هو مهيم على ما بين يديه من الكتاب وإن كان موافقا للتوراة في أصول الدين وكتبه من الشرائع والله أعلم³

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 11-7

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 368

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 44

قد تقدم الحديث الصحيح لما قيل لعبد الله بن عمرو وروي أنه عبد الله بن سلام أخبرنا ببعض صفة رسول الله في التوراة فقال إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن وذكر صفته موجودة في نبوة أشعيا وليست موجودة في نفس كتاب موسى وتقدم أن لفظ التوراة يقصدون به جنس الكتب التي عند أهل الكتاب لا يخصون بذلك كتاب موسى وإذا كان هذا معروفا عندهم في التوراة والإنجيل يراد بالتوراة جنس الكتب التي عند أهل الكتاب يتناول ذلك كتاب موسى وزبور داود وصحف سائر الأنبياء سوى الإنجيل فإنه ليس عند أهل الكتاب وإنما هو عند النصارى خاصة وأما سائر كتب الأنبياء فالأمتان تقر بها ويؤيد ذلك أن الله كثيرا ما يقرن في القرآن بين التوراة والإنجيل وبين القرآن وإنما يذكر الزبور مفردا كقوله تعالى {الم} {1} {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} {2} {نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل} {3} {من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام} {4} {ال عمران 4-1} فإذا أريد بالتوراة جنس الكتب فلا يستريب عاقل في كثرة ذكره ونعته ونعت أمته في تلك الكتب ومعلوم أن الله أراد بذلك الاستشهاد بوجوده في تلك الكتب وإقامة الحجة بذكره فيها فإذا كان ذكره في غير كتاب موسى أكبر وأظهر عندهم كان الاستدلال بذلك أولى من تخصيص الاستدلال بكتاب موسى فإذا حمل لفظ التوراة في هذا على جنس الكتب كما هو موجود في لغة من تكلم بذلك من الصحابة والتابعين كان هذا في غاية البيان والمدح للقرآن والكتب المتقدمة وتصديق بعضها بعضا وقد أمرنا أن نؤمن بما أوتي النبيون مطلقا كما قال تعالى {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} البقرة 136¹

أصل الدين التوحيد وضده هو الذنب الذي لا يغفر

قال تعالى {الم} {1} {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} {2} {نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل} {3} {من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام} {4} {إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء} {5} {هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم} {6} {ال عمران 1-6} وقال تعالى

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 242

{أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} {الأعراف 29} أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء 48 وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء 25 وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف 45 وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجنا في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} الأنعام 82 شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} الفرقان 68 وقد جاء عن غير واحد من السلف وروى مرفوعا¹

ليس من أسماء الله الحسنى أسم يتضمن الشر

و قد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعاء الإستفتاح و الخير ببيدك و الشر ليس إليك و سواء أريد به أنه لا يضاف إليك و لا يتقرب به إليك أو قيل إن الشر إما عدم و إما من لوازم العدم و كلاهما ليس إلى الله فهذا يبين أنه سبحانه إنما يضاف إليه الخير و أسماؤه تدل على صفاته و ذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر و إنما وقع الشر في المخلوقات قال تعالى {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {49} وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} {50} الحجر 49-50 و قال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 98 وقال تعالى {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} الأنعام 165 فجعل المغفرة و الرحمة من معاني أسمائه الحسنى التي يسمى بها نفسه فتكون المغفرة و الرحمة من صفاته و أما العقاب الذي يتصل بالعباد فهو مخلوق له و ذلك هو الأليم فلم يقل و إني أنا المعذب و لا في أسمائه الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم إسم المنتقم و إنما جاء المنتقم في القرآن مقيدا كقوله {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} السجدة 22 و جاء معناه مضافا إلى الله في قوله {وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} آل عمران 4 وقال {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 416

انتقام إبراهيم 47 و هذه نكرة في سياق الإثبات و النكرة في سياق الإثبات مطلقة ليس فيها عموم على سبيل الجمع و ذلك أن الله سبحانه حكيم رحيم¹

قالت طوائف من المسلمين و أهل الكلام و الفقه و غيرهم من الحنفية و الحنبلية و غيرهم و من الكرامية و الصوفية و كثير من المتفلسفة جميع ما يحدثه الله عز وجل في الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال الله تعالى {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ} النمل 88 و قال {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} السجدة 7 و الضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقا و إن كان شرا بالنسبة إلى من تضرر به و لهذا لا يجيء في كلام الله تعالى و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم إضافة الشر و حده إلى الله بل لا يذكر الشر إلا على أحد و جوه ثلاثة إما أن يدخل في عموم المخلوقات فإنه إذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة و المشيئة و الخلق و تضمن ما إشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم و إما أن يضاف إلى السبب الفاعل و إما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} الزمر 62 و نحو ذلك و من هذا الباب أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع و الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع فلا يفرد الإسم المانع عن قرينه و لا الضار عن قرينه لأن إقترانهما يدل على العموم و كل مافى الوجود من رحمة و نفع و مصلحة فهو من فضله تعالى و ما فى الوجود من غير ذلك فهو من عدله فكل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل و النهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض فإنه لم يغيض ما فى يمينه و بيده الأخرى القسط يخفض و يرفع فأخبر أن يده اليمنى فيها الإحسان إلى الخلق و يده الأخرى فيها العدل و الميزان الذى به يخفض و يرفع فحفضه و رفعه من عدله و إحسانه إلى خلقه من فضله و أما حذف الفاعل فمثل قول الجن {وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} الجن 10 و قوله تعالى في سورة الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 و نحو ذلك و إضافته إلى السبب كقوله {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} الفلق 2 و قوله {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} الكهف 79 مع قوله {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا} الكهف 82 و قوله تعالى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} النساء 79 و قوله {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} الأعراف 23 و قوله تعالى {أَوَلَمْ آصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} آل عمران 165 و أمثال ذلك ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى أسم يتضمن الشر و إنما يذكر الشر فى مفعولاته كقوله {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} 49 {وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} الحجر 49-50 و قوله {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} الأعراف 167 و قوله {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} المائدة 98 و قوله {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 94-95

لَشَدِيدٍ {12} إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّلُ وَيُعِيدُ {13} وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ {14} البروج 12-14 فبين سبحانه أن بطشه شديد و أنه هو الغفور الودود وإسم المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه و سلم و إنما جاء في القرآن مقيدا كقوله تعالى {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} السجدة 22 و قوله {وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} آل عمران 4 وقوله {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} إبراهيم 47 و الحديث الذي في عدد الأسماء اللّحسنى الذى يذكر فيه المنتقم فذكر في سياقه البر التواب المنتقم العفو الرؤوف ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي صلى الله عليه و سلم بل هذا ذكره الوليد ابن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز أو عن بعض شيوخه و لهذا لم يروه أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذى رواه عن طريق الوليد بن مسلم بسياق و رواه غيره باختلاف فى الأسماء و فى ترتيبها يبين أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه و سلم و سائر من روى هذا الحديث عن أبى هريرة ثم عن الأعرج ثم عن أبى الزناد لم يذكروا أعيان الأسماء بل ذكروا قوله صلى الله عليه و سلم إن لله تسعة و تسعين إسما مائة إلا و احدا من أحصاها دخل الجنة و هكذا أخرجه أهل الصحيح كالبخارى و مسلم و غيرهما و لكن روى عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة و رواه ابن ماجه و إسناده ضعيف يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه و سلم و ليس فى عدد الأسماء الحسنى عن النبي صلى الله عليه و سلم إلا هذان الحديثان كلاهما مروى من طريق أبى هريرة و هذا مبسوط فى موضعه و المقصود هنا التنبيه على أصول تنفع فى معرفة هذه المسألة فإن نفوس بني آدم لا يزال يحوك فيها من هذه المسألة أمر عظيم و إذا علم العبد من حيث الجملة أن لله فيما خلقه و ما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا ثم كلما ازداد علما و إيمانا ظهر له من حكمة الله و رحمته ما يبهر عقله و يبين له تصديق ما أخبر الله به فى كتابه حيث قال {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} فصلت 53 فإنه صلى الله عليه و سلم قال فى الحديث الصحيح لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها و فى الصحيحين عنه أنه قال إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة أنزل منها رحمة و احدة فيها يترحم الخلق حتى أن الدابة لترفع حافرها عن و لدها من تلك الرحمة و إحتبس عنده تسعا و تسعين رحمة فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها عباده أو كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم هؤلاء الجمهور من المسلمين و غيرهم كأئمة المذاهب الأربعة و غيرهم من السلف و العلماء الذين يثبتون حكمته فلا ينفونها¹

التشابه امر نسبي

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 79-95

وقد ذكرنا فى غير هذا الموضوع أن فى قوله تعالى { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرٌ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 فى المتشابهات قولان أحدهما أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس والثانى وهو الصحيح ان التشابه امر نسبي فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد وتلك المتشابهات اذا عرف معناها صارت غير متشابهة بل القول كله محكم كما قال { أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } هود 1 وهذا كقوله الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس وكذلك قولهم { إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا } البقرة 70 وقد صنف أحمد كتابا فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله وفسر تلك الآيات كلها ودمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء فى تفسيرها مثل الآيات التى سأل عنها نافع بن الأزرق ابن عباس قال الحسن البصرى ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها ومن قال من السلف ان المتشابه لا يعلم تأويله الا الله فقد أصاب أيضا ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه مثل وقت الساعة ومجىء اشراطها ومثل كيفية نفسه وما أعده فى الجنة لأولياءه وكان من اسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم كقوله إنا و نحن وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذى له أعوان لم يرد به أن الآلهة ثلاثة فتأويل هذا الذى هو تفسيره يعلمه الراسخون ويفرقون بين ما قيل فيه { وَإِيَّايَ } وما قيل فيه إنا لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه اذ كانوا رسله وأما كونه هو المعبود الاله فهو له وحده ولهذا لا يقول فايانا فاعبدوا ولا ايانا فارهبوا بل متى جاء الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص واذا ذكر الافعال التى يرسل فيها الملائكة قال { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا } الفتح 1 { فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } القيامة 18 { نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } القصص 3 ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية ارسال الرب لهم لا يعلمه الا الله كما قد بسط فى غير هذا الموضوع و المقصود هنا أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ويتدبر معناه ويعقل ويعرف برهانه ودليله اما العقلى واما الخبرى السمعى ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا وتجعل أقوال الناس التى قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة فيقال لأصحاب هذه الالفاظ يحتمل كذا وكذا ويحتمل كذا وكذا فان أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل وان أرادوا بها ما يخالفه رد¹

{ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ }

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 144-146

فالعلم الضروري اليقيني لا يعارضه شيء ولكن هذا شأن الذين في قلوبهم زيغ من أهل البدع
النصارى وغيرهم يتبعون المتشابه ويدعون المحكم وبسبب مناظرة النصارى للنبي صلى الله عليه
وسلم بالمتشابه وعدولهم عن المحكم أنزل الله تبارك وتعالى فيهم {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ
آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ
الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا
يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {7} سورة آل عمران الآية 7¹

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله يقول سيخرج قوم في آخر
الزمان حداد الاسنان سفهاء الاحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز ايمانهم حناجرهم يمرقون
من الدين كما يمرق السهم من الرمية فاینما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم اجرا لمن قتلهم يوم القيامة
وروى النسائي عن ابي برزة قال اتى رسول الله بمال فقسمه فاعطى من عن يمينه ومن عن شماله
ولم يعط من ورائه شيئا فقام رجل من وراه فقال يا محمد ما عدلت في القسمة رجل اسود مطموم
الشعر عليه ثوبان ابيضان فغضب رسول الله غضبا شديدا وقال والله لا تجدون بعدي رجلا هو
اعدل مني ثم قال يخرج في آخر الزمان قوم كان هذا منهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون
من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق لا يزالون يخرجون حتى يخرج اخرهم مع
المسيح الدجال فاذا لقيتموهم فاقتلوهم هم شر الخلق والخليقة فهذه الاحاديث كلها دليل على ان
النبي امر بقتل طائفة هذا الرجل العائب عليه واخبر ان في قتلهم اجرا لمن قتلهم وقال لئن ادركتم
لاقتلهم قتل عاد وذكر انهم شر الخلق والخليقة وفيما رواه الترميذي وغيره عن ابي امامة انه قال
هم شر قتلى تحت اديم السماء خير قتلى من قتلوه وذكر انه سمع النبي يقول ذلك مرات متعددة وتلا
فيهم قوله تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} آل
عمران 106 وقال هؤلاء الذين كفروا بعد ايمانهم وتلا فيهم قوله تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} آل عمران 7 وقال زاغوا فزيغ بهم ولا يجوز ان يكون امر بقتلهم لمجرد
قتالهم الناس كما يقاتل الصائل من قاطع الطريق ونحوه وكما يقاتل البغاة لان اولئك انما يشرع قتالهم
حتى تنكسر شوكتهم وكفوا عن الفساد ويدخلوا في الطاعة ولا يقتلون اينما لقوا ولا يقتلون قتل عاد
وليسوا شر قتلى تحت اديم السماء ولا يؤمر بقتلهم وانما يؤمر في آخر الامر بقتالهم فعلم ان هؤلاء
اوجب قتلهم مروقه من الدين لما غلوا فيه حتى مرقوا منه كما دل عليه قوله في حديث علي يمرقون
من الدين كما يمرق السهم من الرمية فاینما لقيتموهم فاقتلوهم فرتب الامر بالقتل على مروقه فعلم
انه الموجب له ولهذا وصف النبي الطائفة الخارجة وقال ولو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضي
لهم علي لسان محمد لنكلوا عن العمل واية ذلك ان فيهم رجلا له عضد ليس له ذراع على راس

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 376-377

عضده مثل حمة الثدي عليه شعيرات بيض وقال انهم يخرجون علي خير فرقة من الناس يقتلهم ادنى الطائفتين الى الحق وهذا كله في الصحيح فثبت ان قتلهم لخصوص صفتهم لا لعموم كونهم بغاة او محاربيين وهذا القدر موجود في الواحد منهم كوجوده في العدد منهم وانما لم يقتلهم علي رضي الله عنه اول ما ظهوروا لانه لم يتبين له انهم الطائفة المنعوتة حتى سفكوا دم ابن خباب واغاروا على سرح الناس فظهر فيهم قوله يقتلون اهل الاسلام ويدعون اهل الاوثان فعلم انهم المارقون ولانه لو قتلهم قبل المحاربة له لربما غضبت لهم قبائلهم وتفرقوا على علي رضي الله عنه وقد كان حاله في حاجته الى مداراة عسكره واستئلافهم كحال النبي في حاجته في اول الامر الى استئلاف المنافقين وايضا فان القوم لم يعترضوا لرسول الله بل كانوا يعظمونه ويعظمون ابا بكر وعمر ولكن غلوا في الدين غلوا جازوا به حده لنقص عقولهم وعملهم فصاروا كما تاوله علي فيهم من قوله عز وجل {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} {103} {الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهم يُحْسَبُونَ صُنْعًا} {104} الكهف 103-104 ووجب ذلك لهم عقائد فاسدة ترتب عليها افعال منكرة كفرهم بها كثير من الامة وتوقف فيها اخرون فلما راي النبي الرجل الطاعن عليه في القسمة المناسب له عدم العدل بجهله وغلوه وظنه ان العدل هو ما يعتقد من التسوية بين جميع الناس دون النظر الى ما في تخصيص بعض الناس وتفضيله من مصلحة التاليف وغيرها من المصالح علم ان هذا اول اولئك فانه اذا طعن عليه في وجهه فهو على سنته بعد موته وعلى خلفائه اشد طعنا وقد حكى ارباب المقالات عن الخوارج انهم يجوزون على الانبياء الكبار ولهذا لا يلتفتون الى السنة المخالفة في رايهم لظاهر القران وان كانت متواترة فلا يرجمون الزاني ويقطعون يد السارق فيما قل او كثر زعما منهم على ما قيل ان لاحجة الا القران وان السنة الصادرة عن الرسول ليست حجة بناء على ذلك الاصل الفاسد قال من حكى ذلك عنهم انهم لا يطعنون في النقل لتواتر ذلك وانما بينونه على هذا الاصل ولهذا قال النبي في صفتهم انهم يقرؤون القران لا يجاوز حناجرهم يتاولونه بريهم من غير استدلال على معانيه بالسنة وهم لا يفهمونه بقلوبهم انما يتلونه بالسنتهم والتحقيق انهم اصناف مختلفة فهذا راي طائفة منهم وطائفة قد يكذبون النقلة وطائفة لم يسمعوا ذلك ولم يطلبوا علمه وطائفة يزعمون ان ما ليس له ذكر في القران بصريحه ليس حجة على الخلق اما لكونه منسوخا او مخصوصا بالرسول او غير ذلك وكذلك ما ذكر من تجويزهم الكبار فاضنه والله اعلم قول طائفة منهم وعلى كل حال فمن كان يعتقد ان النبي جائر في قسمه يقول انه يفعلها بامر الله فهو مكذب له ومن زعم ان يجوز في حكمه او قسمه فقد زعم انه خائن وان اتباعه لا يجب وهو مناقض لما تضمنه الرسالة من امانته ووجوب طاعته وزوال الحرج عن النفس من قضائه بقوله وفعله فانه قد بلغ عن الله انه اوجب طاعته والانقياد لحكمه ولانه لا يحييف على احد فم طعن في هذا فقد طعن في صحة تبليغه وذلك طعن في نفس الرسالة وبهذا يتبين صحة رواية من روى الحديث ومن يعدل اذا لم يعدل لقد خبت وخسرت ان لم اكن اعدل لان هذا الطاعن يقول انه رسول الله وانه يجب عليه تصديقه وطاعته فاذا قال انه لم يعدل فقد لزم انه صدق غير عدل ولا امين ومن اتبع مثل ذلك فهو خائب

خاسر كما وصفهم الله تعالى بانهم من الاخسرين اعمالا وان حسبوا انهم يحسنون صنعا ولانه من لم يؤتمن على المال يؤتمن على ماهو اعظم منه ولهذا قال الا تامنون وانا امين من في السماء ياتيني خبر السماء صباحا ومساء وقال لما قال له اتق الله اولست احق اهل الارض ان يتق الله وذلك لان الله قال فيما بلغه اليهم الرسول { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا } الحشر 7 بعد قوله { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } الحشر 7 الاية فيبين سبحانه انه ما نهى عنه من مال الفياء فعلينا ان ننتهي عنه فيجب ان يكون احق اهل الارض ان يتق الله اذ لولا ذلك لكانت الطاعة له ولغيره ان تساويا او لغيره دونه ان كان دونه وهذا كفر بما جاء به وهذا ظاهر وقوله شر الخلق والخليفة وقوله شر قتلى تحت اديم السماء نص في انهم من المنافقين لان المنافقين اسوا حالا من الكفار كما ذكر ان قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } التوبة 58 نزلت فيهم وكذلك في حديث ابي امامة ان قوله تعالى { أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } آل عمران 106 نزلت فيهم وهذا مما لاخلاف فيه اذا صرحوا بالطعن في الرسول والعيب عليه كفعل اولئك اللامزيين له ¹

" إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم "

فمن الناس ضلوا بعدولهم عن صريح كلام الأنبياء وظاهره إلى ما تأولوه عليه من التأويلات التي لا يدل عليها لفظه لا نصا ولا ظاهرا فعدلوا عن المحكم واتبعوا المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله²

كان نسخ ما نسخه الله وإنزال القرآن وانهزام المسلمين يوم احد وغير ذلك من مصائب الدنيا رزية في حق من في قلبه مرض **قال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ } آل عمران 7** وإن كانت هذه الأمور في حق من هداه الله مما يزيدهم الله به علما وإيمانا وهذا كوجود الشياطين من الجن والإنس يرفع الله به درجات أهل الإيمان بمخالفتهم ومجاهدتهم مع ما في وجودهم من الفتنة لمن أضلوه وأغروه وهذا كقوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيِّقَنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا } المدثر 31 وقوله { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ } البقرة 143 وقول موسى { إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ } الأعراف 155 وقوله { إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ } القمر 27 وقوله { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْفِي الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { 52 } لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ { 53 } وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 345-353

² الجواب الصحيح ج: 4 ص: 446

أوثوا العِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {54} الحج 52-54¹

ومن الأمور التي نهى الله عنها في كتابه الفرق والاختلاف كقوله {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103 إلى قوله {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ {106} آل عمران 105-106 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} الأنعام 159 وقال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} الروم 30 إلى قوله تعالى {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً} {32} الروم 30-32 وقد ذم أهل التفرق والاختلاف في مثل قوله {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ} البينة 4 وفي مثل قوله {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} {119} هود 118-119 وفي مثل قوله {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} البقرة 176 وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم توافقت كتاب الله كالحديث المشهور عنه الذي رواه مسلم بعضه عن عبد الله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول ألم يقل الله كذا ورجل يقول ألم يقل الله كذا فكانما فقيء في وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً لا ليكذب بعضه بعضاً انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه هذا الحديث أو نحوه وكذلك قوله المراء في القرآن كفر وكذلك ما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ قوله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ} {آل عمران 7} إلى قوله {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} {آل عمران 7} فقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم وأما أن يكون الكتاب والسنة نهياً عن معرفة المسائل التي تدخل فيما يستحق أن يكون من أصول الدين فهذا لا يجوز اللهم إلا أن ينهيا عن بعض ذلك في بعض الأحوال مثل مخاطبة شخص بما يعجز عن فهمه فيضل كقول عبدالله بن مسعود ما من رجل يحدث قوما حديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم وكقول علي حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله أو مثل قول حق يستلزم فساداً أعظم من تركه فيدخل في قوله صلى الله عليه وسلم

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 573-574

عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان رواه مسلم¹

{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}

وتم طائفة كثرت في المتأخرين المنتسبين الى السنة يقولون ما يتضمن أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف معاني ما أنزل عليه من القرآن كآيات الصفات بل لازم قولهم أيضا أنه كان يتكلم بأحاديث الصفات ولا يعرف معانيها و هؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة و التابعين لهم بإحسان أن الوقف التام عند قوله **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 7** و افقوا السلف و أحسنوا في هذه الموافقة لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو معنى اللفظ و تفسيره أو هو التأويل الإصطلاحى الذي يجري فى كلام كثير من متأخري أهل الفقه و الأصول و هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح إلى الإحتمال المرجوح لدليل يقترب به فهم قد سمعوا كلام هؤلاء و هؤلاء فصار لفظ التأويل عندهم هذا معناه و لما سمعوا قول الله تعالى **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 7** ظنوا أن لفظ التأويل فى القرآن معناه هو معنى لفظ التأويل فى كلام هؤلاء فلزم من ذلك أنه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص إلا الله لا جبريل و لا محمد و لا غيرهما بل كل من الرسولين على قولهم يتلو أشرف ما فى القرآن من الأخبار عن الله بأسمائه و صفاته و هو لا يعرف معنى ذلك أصلا ثم كثير منهم يذمون و يبطلون تأويلات أهل البدع من الجهمية و المعتزلة و غيرهما و هذا جيد لكن قد يقولون تجرى على ظواهرها و ما يعلم تأويلها إلا الله فإن عنوا بظواهرها ما يظهر منها من المعانى كان هذا مناقضا لقولهم إن لها تأويلا يخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله و إن عنوا بظواهرها مجرد الألفاظ كان معنى كلامهم أنه يتكلم بهذه الألفاظ و لها باطن يخالف ما ظهر منها و هو التأويل و ذلك لا يعلمه إلا الله و فيهم من يريد بإجرائها على ظواهرها هذا المعنى و فيهم من يريد الأول و عامتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث و قد يريدون به الثانى فإنه أحيانا قد يفسر النص بما يوافق ظاهره و تبين من هذا أنه ليس من التأويل الثالث فيأبون ذلك و يكرهون تدبر النصوص و النظر فى معانيها أعني النصوص التى يقولون إنه لم يعلم تأويلها إلا الله ثم هم فى هذه النصوص بحسب عقائدهم فإن كانوا من القدرية قالوا النصوص المثبتة لكون العبد فاعلا محكمة و النصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريدا لكل ما وقع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله إذا كانوا ممن لا يتأولها فإن عامة الطوائف منهم من يتأول ما يخالف قوله و منهم من لا يتأوله و إن كانوا من الصفاتية المثبتين للصفات التى زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخري الكلابية كأبي المعالي فى آخر عمره و ابن عقيل فى كثير من كلامه قالوا عن النصوص المتضمنة للصفات التى لا تعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لا

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 453 و درء التعارض ج: 1 ص: 49-51 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 311

يعلم تأويلها إلا الله و كثير منهم يكون له قولان و حالان تارة يتأول و يوجب التأويل أو يجوزه و تارة يحرمه كما يوجد لأبي المعالي و لإبن عقيل و لأمثالهما من إختلاف الأقوال و من أثبت العلو بالعقل و جعله من الصفات العقلية كأبي محمد إبن كلاب و أبي الحسن بن الزاغوني و من و افقه و كالقاضي أبي يعلى فى آخر قوليه و أبى محمد أثبتوا العلو و جعلوا الإستواء من الصفات الخبرية التى يقولون لا يعلم معناها إلا الله و إن كانوا ممن يري أن الفوقية و العلو أيضا من الصفات الخبرية كقول القاضي أبى بكر و أكثر الشعريه و قول القاضي أبى يعلى فى أول قوليه و إبن عقيل فى كثير من كلامه و أبى بكر البيهقي و أبى المعالي و غيرهم و من سلك مسلك أولئك و هذه الأمور مبسوطه فى موضعها و المقصود هنا أن كل طائفة تعتقد من الآراء ما يناقض ما دل عليه القرآن يجعلون تلك النصوص من المتشابهة ثم إن كانوا ممن يرى الوقف عند قوله و ما يعلم تأويله إلا الله قالوا لا يعلم معناها إلا الله فيلزم أن لا يكون محمد و جبريل و لا أحد علم معانى تلك الآيات و الأخبار و إن رأوا أن الوقف على قوله {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} آل عمران 7 جعلوا الراسخين يعلمون ما يسمونه هم تأويلا و يقولون إن الرسول صلى الله عليه و سلم إنما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس فى معرفة الحق من غير جهته بعقولهم و أذهانهم و يجتهدون فى تخريج ألفاظه على اللغات العربية فيجتهدون فى معرفة غرائب اللغات التى يتمكنون بها من التأويل و هذا إن قالوا أنه قصد بالقرآن و الحديث معنى حقا فى نفس الأمر و إن قالوا بقول الفلاسفة و الباطنية الذين لا يرون التأويل قالوا لم يقصد بهذه الألفاظ إلا ما يفهمه العامة و الجمهور و هو باطل فى نفس الأمر لكن أراد أن يخيل لهم ما ينتفعون به و لم يمكنه أن يعرفهم الحق فإنهم كانوا ينفرون عنه و لا يقبلونه و أما من قال من الباطنية الملاحدة و فلاسفتهم بالتأويل فإنه يتأول كل شيء مما أخبرت به الرسل من أمر الإيمان بالله و اليوم الآخر ثم يؤولون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية و أبو حامد فى الأحياء ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة و قال أنهم أسرفوا فى التأويل و أسرفت الحنابلة فى الجمود و ذكر عن أحمد بن حنبل كلاما لم يقله أحمد فإنه لم يكن يعرف ما قاله أحمد و لا ما قاله غيره من السلف فى هذا الباب و لا ما جاء به القرآن و الحديث و قد سمع مضافا إلى الحنابلة ما يقوله طائفة منهم و من غيرهم من المالكية و الشافعية و غيرهم فى الحرف و الصوت و بعض الصفات مثل قولهم إن الأصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية و إن الحروف المتعاقبة قديمة الأعيان و أنه ينزل إلى سماء الدنيا و يخلو منه العرش حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه و بعضها تحته إلى غير ذلك من المنكرات فإنه ما من طائفة إلا و فى بعضهم من يقول أقوالا ظاهرها الفساد و هي التى يحفظها من ينف عنهم و يشنع بها عليهم و إن كان أكثرهم ينكرها و يدفعها كما فى هذه المسائل المنكرة التى يقولها بعض أصحاب أحمد و مالك و الشافعي فإن جماهير هذه الطوائف ينكرها و أحمد و جمهور أصحابه منكرون لها و كلامهم فى إنكارها و ردها كثير جدا لكن يوجد فى أهل الحديث مطلقا من الحنبلية و غيرهم من الغلط فى الإثبات أكثر مما يوجد فى أهل الكلام و يوجد فى أهل الكلام من الغلط فى النفي أكثر مما يوجد فى أهل الحديث لأن الحديث إنما جاء بإثبات

الصفات ليس فيه شيء من النفي الذي انفرد به أهل الكلام و الكلام المأخوذ عن الجهمية و المعتزلة مبني على النفي المناقض لصرائح القرآن و الحديث بل و العقل الصريح أيضا لكنهم يدعون أن العقل دل على النفي و قد ناقضهم طوائف من أهل الكلام و زادوا في الإثبات كالهشامية و الكرامية و غيرهم لكن النفي في جنس الكلام المبتدع الذي ذمه السلف أكثر و المنتسبون إلى السنة من الحنابلة و غيرهم الذين جعلوا لفظ التأويل يعم القسامين يتمسكون بما يجدونه في كلام الأئمة في المتشابه مثل قول أحمد في رواية حنبل و لا كيف و لا معنى ظنوا أن مراده أنا لا نعرف معناها و كلام أحمد صريح بخلاف هذا في غير موضع و قد بين أنه إنما ينكر تأويلات الجهمية و نحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله و صنف كتابه في الرد على الزنادقة و الجهمية فيما أنكرته من متشابه القرآن و تأويلته على غير تأويله فأنكر عليهم تأويل القرآن على غير مراد الله و رسوله و هم إذا تأولوه يقولون معنى هذه الآية كذا و المكيفون يثبتون كيفية يقولون أنهم علموا كيفية ما أخبر به من صفات الرب فنفي أحمد قول هؤلاء و قول هؤلاء قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية و قول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون معناه كذا و كذا و قد كتبت كلام أحمد بألفاظه كما ذكره الخلال في كتاب السنة و كما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك في غير هذا الموضع و بين أن لفظ التأويل في الآية إنما أريد به التأويل في لغة القرآن كقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } الأعراف 53 و عن ابن عباس في قوله { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ } الأعراف 53 تصديق ما و عد في القرآن و عن قتادة تأويله ثوابه و عن مجاهد جزاءه و عن السدي عاقبته و عن ابن زيد حقيقته قال بعضهم تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب و ورود النار و قوله تعالى { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } يونس 39 قال بعضهم تصديق ما و عدوا به من الوعيد و التأويل ما يؤول إليه الأمر و عن الضحاك يعني عاقبة ما و عد الله في القرآن أنه كائن من الوعيد و التأويل ما يؤول إليه الأمر و قال الثعلبي تفسيره و ليس بشيء و قال الزجاج لم يكن معهم علم تأويله و قال يوسف الصديق عليه السلام { يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ } يوسف 100 فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه و قال قبل هذا { لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } يوسف 37 أي قبل أن يأتیکما التأویل و المعنى لا يأتیکما طعام ترزقانه في المنام لما { قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا } يوسف 36 إلا نباتكما بتأويله في اليقظة { قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } يوسف 37 الطعام هذا قول أكثر المفسرين و هو الصواب و قال بعضهم لا يأتیکما طعام ترزقانه تطعمانه و تأكلانه إلا نباتكما بتأويله بتفسيره و ألوانه أي طعام أكلتم و كم أكلتم و متى أكلتم فقالوا هذا فعل العرافين و الكهنة فقال ما أنا بكاهن و إنما ذلك العلم مما يعلمني ربي و هذا القول ليس بشيء فإنه قال { إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ } يوسف 37 و قد { قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا

بِتَأْوِيلِهِ {يوسف} 36 فطلبا منه تأويل ما رآياه و أخبرهما بتأويل ذلك و لم يكن تأويل الطعام في اليقظة و لا في القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه في اليقظة فكيف يقول قولاً عاماً {لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ} يوسف {37 و هذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا الله و الأنبياء يخبرون ببعض ذلك لا يخبرون بكل هذا و أيضا فصفة الطعام و قدره ليس تأويلاً له و أيضا فالله إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا قال يعقوب عليه السلام {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} يوسف {6 و قال يوسف عليه السلام {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} يوسف {101 و قال {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} يوسف {100 و لما رأي الملك الرؤيا قال له الذي أذكر بعد أمة {أَنَا أَنْبَأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} يوسف {45 و الملك قال {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} {43} قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ} {44} يوسف {43-44 فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى واحد و قال تعالى {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء {59 قال مجاهد و قتادة جزاء و ثوابا و قال السدي و ابن زيد و ابن قتيبة و الزجاج عاقبة و عن ابن زيد أيضا تصديقا كقوله {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} يوسف {100 و كل هذه الأقوال صحيحة و المعنى واحد وهذا تفسير السلف أجمعين و منه قوله {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} الكهف {78 فلما ذكر له ما ذكر قال {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} الكهف {82 و هذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله و المراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول إليه ما فعلته من مصلحة أهل السفينة و مصلحة أبوي الغلام و مصلحة أهل الجدار و أما قوله بعضهم ردمكم إلى الله و الرسول أحسن من تأويلكم فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم و هذا من جنس ما ذكر في تلك الآية في لفظ التأويل و هو تفسير له بالإصطلاح الحادث لا بلغة القرآن فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل و التفسير عندهم سواء كما يقول ابن جرير القول في تأويل هذه الآية أي في تفسيرها و لما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد و هو إمام التفسير جعل الوقف على قوله **{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} آل عمران 7** فإن الراسخين في العلم يعلمون تفسيره و هذا القول إختيار ابن قتيبة و غيره من أهل السنة و كان ابن قتيبة يميل إلى مذهب أحمد و إسحاق و قد بسط الكلام على ذلك في كتابه في المشكل و غيره و أما متأخروا المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير و التأويل قال فمعنى التفسير هو التنوير و كشف المغلق من المراد بلفظه و التأويل صرف الآية إلى معنى تحتمله يوافق ما قبلها و ما بعدها و تكلم في الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه إلا أن التأويل الذي ذكره هو المعنى الثالث المتأخر و أبو الفرج ابن الجوزي يقول إختلف العلماء هل التفسير و التأويل بمعنى واحد أم يختلفان فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنهما بمعنى واحد و هذا قول جمهور المفسرين المتقدمين و ذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى إختلافهما فقالوا التفسير إخراج الشيء عن مقام الخفاء إلى مقام التجلي و التأويل نقل الكلام عن وضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ فهو مأخوذ من قولك آل الشيء إلى كذا أي صار إليه فهو لاء لا يذكر للتأويل إلا المعنى الأول و الثاني و أما التأويل في

لغة القرآن فلا يذكرونه و قد عرف أن التأويل في القرآن هو الموجود الذي يؤول إليه الكلام و إن كان ذلك موافقا للمعنى الذي يظهر من اللفظ بل لا يعرف في القرآن لفظ التأويل مخالفا لما يدل عليه اللفظ خلاف إصطلاح المتأخرين و الكلام نوعان إنشاء و إخبار فالإنشاء الأمر و النهي و الإباحة و تأويل الأمر و النهي نفس فعل المأمور و نفس ترك المحذور كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في ركوعه و سجوده سبحانك اللهم ربنا و بحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن فكان هذا الكلام تأويل قوله فسبح بحمد ربك و استغفره قال ابن عيينة السنة تأويل الأمر و النهي و قال أبو عبيد لما ذكر إختلاف الفقهاء و أهل اللغة في نهى النبي صلى الله عليه و سلم عن إشتغال الصماء قال و الفقهاء أعلم بالتأويل يقول هم أعلم بتأويل ما أمر به و ما نهى عنه فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التي أمر بها و أعيان الأفعال المحظورة التي نهى عنها و تفسير كلامه ليس هو نفس ما يوجد في الخارج بل هو بيانه و شرحه و كشف معناه فالتفسير من جنس الكلام يفسر الكلام بكلام يوضحه و اما التأويل فهو فعل المأمور به و ترك المنهى عنه ليس هو من جنس الكلام و النوع الثاني الخبر كإخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه و صفاته و إخباره عما ذكره لعباده من الوعد و الوعيد و هذا هو التأويل المذكور في قوله {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {52} هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق {53} الاعراف 52-53 و هذا كقولهم {يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} يس 52 و مثله قوله {انظفوا إلى ما كنتم به تكذبون} المرسلات 29 و قوله {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} {25} قل إنما العلم عند الله وإنا أنذير مبين {26} فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون {27} الملك 25-27 و نظائره متعددة في القرآن و كذلك قوله {أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استظعنتم من دون الله إن كنتم صادقين} {38} بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله {39} يونس 38-39 فإن ما و عدوا به في القرآن لما ياتهم بعد و سوف ياتهم فالتفسير هو الإحاطة بعلمه و التأويل هو نفس ما و عدوا به إذا أتاهم فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه و لما ياتهم تأويله و قد يحيط الناس بعلمه و لما ياتهم تأويله فالرسول صلى الله عليه و سلم يحيط بعلم ما أنزل الله عليه و إن كان تأويله لم يأت بعد و في الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم لما نزل قوله {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم} الأنعام 65 الآية قال إنها كائنة و لم يأت تأويلها بعد قال تعالى {وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل} {66} لعل نبأ مستقر و سوف تعلمون {67} الاتعام 66-67 قال بعضهم موضع قرار و حقيقة و منتهى ينتهي إليه فيبين حقه من باطله و صدقه من كذبه و قال مقاتل لكل خبر يخبر به الله و قت و مكان يقع فيه من غير خلف و لا تأخير و قال ابن السائب لكل قول و فعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه و ما كان منه في الآخرة فسوف يبدو لكم و سوف تعلمون و قال الحسن لكل عمل جزاء فمن عمل عملاً من الخير جوزي به في الجنة و من عمل عملاً سوء

جوزي به في النار و سوف تعلمون و معنى قول الحسن أن الأعمال قد و قع عليها الوعد و الوعيد فالوعد و الوعيد عليها هو النبأ الذي له المستقر فبين المعنى و لم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ و عن السدي قال {لَكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ} الأنعام 67 أي ميعاد و عدتكموه فسيأتاكم حتى تعرفونه و عن عطاء {لَكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ} الأنعام 67 تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه فإذا عمل ذنبه عاقبه أي لا يعاقب بالوعد حتى يفعل الذنب الذي توعدده عليه و منه قول كثير من السلف في آيات هذه ذهب تأويلها و هذه لم يأت تأويلها مثل ما روى أبو الأشهب عن الحسن و الربيع عن أبي العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ} المائدة 105 الآية فقال ابن مسعود ليس هذا بزمانها قولها ما قبلت منكم فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال إن القرآن نزل حيث نزل فمنه أي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن و منه أي و قع تأويلهن على عهد النبي صلى الله عليه و سلم و منه أي و قع تأويلهن بعد النبي صلى الله عليه و سلم بيسير و منه أي يقع تأويلهن بعد اليوم و منه أي يقع تأويلهن في آخر الزمان و منه أي يقع تأويلهن يوم القيامة ما ذكر من الحساب و الجنة و النار فما دامت قلوبكم و أهواؤكم و أحده و لم تلبسوا شيئا و لم يذق بعضكم بأس بعض فأمرؤا و انهوا فإذا اختلفت القلوب و الأهواء و ألبستم شيئا و ذاق بعضكم بأس بعض فأمرؤ و نفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية فابن مسعود رضي الله عنه قد ذكر في هذا الكلام تأويل الأمر و تأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر و ما ذكر من الحساب و القيامة من باب الخبر و قد تبين أن تأويل الخبر هو و جود المخبر به و تأويل الأمر هو فعل المأمور به فالآية التي مضى تأويلها قبل نزولها هي من باب الخبر يقع الشيء فيذكره الله كما ذكر ما ذكره من قول المشركين للرسول و تكذيبهم له و هي و إن مضى تأويلها فهي عبرة و معناها ثابت في نظيرها و من هذا قول ابن مسعود خمس قد مضين و منه قوله تعالى {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} القمر 1 وإذا تبين ذلك فالمتشابه من الأمر لا بد من معرفة تأويله لأنه لا بد من فعل المأمور و ترك المحذور و ذلك لا يمكن إلا بعد العلم لكن ليس في القرآن ما يقتضي أن في الأمر متشابهها فإن قوله {وَأَخْرَجْنَا مُتَشَابِهَاتٍ} آل عمران 7 قد يراد به من الخبر فالمتشابه من الخبر مثل ما أخبر به في الجنة من اللحم و اللبن و العسل و الماء و الحرير و الذهب فإن بين هذا و بين ما في الدنيا تشابه في اللفظ و المعنى و مع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا و تلك الحقيقة لا نعلمها نحن في الدنيا و قد قال الله تعالى {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} السجدة 17 و في الحديث الصحيح يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر فهذا الذي وعد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله و كذلك و قت الساعة لا يعلمه إلا الله و أشراطها و كذلك كفيات ما يكون فيها من الحساب و الصراط و الميزان و الحوض و الثواب و العقاب لا يعلم كفيته إلا الله فإنه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة و لا له نظير مطابق من كل و جه حتى يعلم به فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله و كذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل إستوائه على عرشه و سمعه و بصره و كلامه و غير ذلك فإن كفيات ذلك لا يعلمها إلا الله

كما قال رببعة بن أبي عبدالرحمن و مالك بن أنس و سائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه5 كيف استوى فقال الإستواء معلوم و كيف مجهول و الإيمان به و اجب و السؤال عنه بدعة هذا لفظ مالك فأخبر أن الإستواء معلوم و هذا تفسير اللفظ و أخبر أن كيف مجهول و هذا هو الكيفية التي استأثر الله بعلمها و كذلك سائر السلف كابن الماجشون و أحمد بن حنبل و غيرهما يبينون أن العباد لا يعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فالكيف هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله و أما نفس المعنى الذي بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فإنهم يفهمون معنى السمع و معنى البصر و أن مفهوم هذا ليس هو مفهوم هذا و يعرفون الفرق بينهما و بين العليم و القدير و إن كانوا لا يعرفون كيفية سمعه و بصره بل الروح التي فيهم يعرفونها من حيث الجملة و لا يعرفون كيفيتها كذلك يعلمون معنى الإستواء على العرش و أنه يتضمن علو الرب على عرشه و إرتفاعه عليه كما فسره بذلك السلف قبلهم و هذا معنى معروف من اللفظ لا يحتمل في اللغة غيره كما قد بسط في موضعه و لهذا قال مالك الإستواء معلوم و من قال الإستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه فإنهم يقولون استوى فقط و لا يصلونه بحرف و هذا له معنى و يقولون استوى على كذا و له معنى و استوى الى كذا و له معنى و استوى مع كذا و له معنى فتنوع معانيه بحسب صلاته و أما استوى على كذا فليس في القرآن و لغة العرب المعروفة إلا بمعنى و احد قال تعالى {فَازَرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ} الفتح29 و قال {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} هود44 و قال {لِنَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} الزخرف13 و قال {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} المؤمنون28 و قد أتى النبي صلى الله عليه و سلم بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الغرز قال بسم الله فلما استوى على ظهرها قال الحمد لله و قال ابن عمر أهل رسول الله صلى الله عليه و سلم بالحج لما استوى على بعبيره و هذا المعنى يتضمن شيئين علوه على ما استوى عليه و إعتداله أيضا فلا يسمون المائل على الشيء مستويا عليه و منه حديث الخليل بن أحمد لما قال استووا و قوله ثم استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق هو من هذا الباب فإن المراد به بشر بن مروان و استواؤه عليها أي على كرسي ملكها لم يرد بذلك مجرد الإستيلاء بل إستواء منه عليها إذ لو كان كذلك لكان عبدالملك الذي هو الخليفة قد استوى أيضا على العراق و على سائر مملكة الإسلام و لكان عمر بن الخطاب قد استوى على العراق و خراسان و الشام و مصر و سائر ما فتحه و لكان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد استوى على اليمن و غيرها مما فتحه و معلوم أنه لم يوجد في كلامهم إستعمال الإستواء في شيء من هذا و إنما قيل فيمن استوى بنفسه على بلد فإنه مستو على سرير ملكه كما يقال جلس فلان على السرير و قعد على التخت و منه قوله {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا} يوسف100 و قوله {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} النمل23 و قول الزمخشري و غيره استوى على كذا بمعنى مالك دعوى مجردة فليس لها شاهد في كلام العرب و لو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلا في إستواء الله على العرش لأنه

أخبر أنه خلق السموات و الأرض فى ستة أيام ثم إستوى على العرش و قد أخبر أن العرش كان موجودا قبل خلق السموات و الأرض كما دل على ذلك الكتاب و السنة و حينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه فكيف يكون الإستواء عليه مؤخرا عن خلق السموات و الأرض وأيضا فهو مالك لكل شيء مستول عليه فلا يخص العرش بالإستواء و ليس هذا كتخصيصه بالربوبية فى قوله {رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} التوبة 129 فإنه قد يخص لعظمته و لكن يجوز ذلك فى سائر المخلوقات فيقال {رَبُّ الْعَرْشِ} التوبة 129 و {رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} الأنعام 164 و أما الإستواء فمختص بالعرش فلا يقال إستوى على العرش و على كل شيء و لا إستعمل ذلك أحد من المسلمين فى كل شيء و لا يوجد فى كتاب و لا سنة كما إستعمل لفظ الربوبية فى العرش خاصة و فى كل شيء عامة و كذلك لفظ الخلق و نحوه من الألفاظ التى تخص و تعم كقوله تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} 1 { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} 2 {العلق} 1-2 فالإستواء من الألفاظ المختصة بالعرش لا تضاف الى غيره لا خصوصا و لا عموما و هذا مبسوط فى موضع آخر و إنما الغرض بيان صواب كلام السلف فى قولهم الإستواء معلوم و إنما الغرض بيان صواب كلام السلف فى قولهم الإستواء معلوم بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى كما ذكر ذلك ابن عربى المعافري يبين هذا أن سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران و مناظرتهم للنبي صلى الله عليه و سلم فى أمر المسيح كما ذكر ذلك أهل التفسير و أهل السيرة و هو من المشهور بل من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه و سلم و دعاهم إلى المباهلة المذكورة فى سورة آل عمران فأقروا بالجزية و لم يباهلوه و صدر آل عمران نزل بسبب ما جرى و لهذا عامتها فى أمر المسيح و ذكروا أنهم إحتجوا بما فى القرآن من لفظ و إنا و نحن و نحو ذلك على أن الآلهة ثلاثة فاتبعوا المتشابه و تركوا المحكم الذى فى القرآن من أن الإله و احد {إِبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ} و {إِبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} آل عمران 7 فإنهم قصدوا بذلك الفتنة و هي فتنة القلوب بالكفر و إبتغاء تأويل لفظ إنا و نحن و ما يعلم تأويل هذه إلا الله لأن هذه الأسماء إنما تقال للواحد الذى له أعوان إما أن يكونوا شركاء له و إما أن يكونوا مماليك له و لهذا صارت متشابهة فإن الذى معه شركاء يقول فعلنا نحن كذا و أنا نفعل نحن كذا و هذا ممتنع فى حق الله تعالى و الذى له مماليك و مطيعون يطيعونه كالملك يقول فعلنا كذا أي أنا فعلت بأهل ملكى و ملكى و كل ما سوى الله مخلوق له مملوك له و هو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه و ملائكته التى هى رسله فى خلقه و أمره و هو سبحانه أحق من قال إنا و نحن بهذا الإعتبار فإن ما سواه ليس له ملك تام و لا أمر مطاع طاعة تامة فهو المستحق أن يقول إنا و نحن و الملوك لهم شبه بهذا فصار فيه أيضا من المتشابه معنى آخر و لكن الذى ينسب لله من هذا الإختصاص لا يماثله فيه شيء و تأويل ذلك معرفة ملائكته و صفاتهم و أقدارهم و كيف يدبر بهم أمر السماء و الأرض و قد قال تعالى {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} المدثر 31 فهذا التأويل لهذا المتشابه لا يعلمه إلا هو و إن علمنا تفسيره و معناه لكن لم نعلم تأويله الواقع فى الخارج بخلاف قوله {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ} إبراهيم 32

فإنها آية محكمة ليس فيها تشابه فإن هذا الإسم مختص بالله ليس مثل إنا و نحن التي تقال لمن له شركاء و لمن له أعوان يحتاج إليهم و الله تعالى منزه عن هذا و هذا كما قال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ} سبأ 22 و قال {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا} الإسراء 111 فالمعنى الذي يراد به هذا في حق المخلوقين لا يجوز أن يكون نظيره ثابتا لله فلهذا صار متشابها يخرج من بين فرث و دم و إذا بقي أياما يتغير طعمه و لا نعرف عسلا إلا من نحل تصنعه في بيوت الشمع المسدسة فليس هو عسلا مصفى و لا نعرف حريرا إلا من دود القز و هو يبلى و قد علمنا أن ما و عد الله به عباده ليس مماثلا لهذه لا فى المادة و لا فى الصورة و الحقيقة بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه و ذلك هو من التأويل الذي لا نعلمه نحن قال ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء لكن يقال فالملائكة قد تعلم هذا فيقال هي لا تعلم ما لم يخلق بعد و لا تعلم كل ما فى الجنة و أيضا فمن النعم ما لا تعرفه الملائكة و التأويل يتناول هذا كله و إذا قدرنا أنها تعرف ما لا نعرفه فذاك لا يكون من المتشابه عندها و يكون من المتشابه عندنا فإن المتشابه قد يراد به ما هو صفة لازمة للآية و قد يراد به ما هو من الأمور النسبية فقد يكون متشابها عند هذا ما لا يكون متشابها عند هذا و كلام الإمام أحمد و غيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فإن أحمد ذكر فى رده على الجهمية أنها إحتجت بثلاث آيات من المتشابه قوله تعالى {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} الأنعام و قوله {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الشورى 11 و قوله {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} الأنعام 103 و قد فسر أحمد قوله {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} الأنعام 3 فإذا كانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهة عندنا و هي متشابهة عند من إحتج بها و كان عليه أن يردّها هو الى ما يعرفه من المحكم و كذلك قال أحمد فى ترجمة كتابه الذي صنفه فى الحبس و هو الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شككت فيه من متشابه القرآن و تأولته على غير تأويله ثم فسر أحمد تلك الآيات آية آية فبين أنها ليست متشابهة عنده بل قد عرف معناها و على هذا فالراسخون فى العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذي هو تفسيره و أما التأويل الذي هو الحقيقة الموجودة فى الخارج فتلك لا يعلمها إلا الله و لكن قد يقال هذا المتشابه الإضافى ليس هو المتشابه المذكور فى القرآن فإن ذلك قد أخبر الله أنه لا يعلم تأويله إلا الله و إنما هذا كما يشكل على كثير من الناس آيات لا يفهمون معناها و غيرهم من الناس يعرف معناها و على هذا فقد يجاب بجوابين أحدهما أن يكون فى الآية قراءتان قراءة من يقف على قوله {إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 7 و قراءة من يقف عند قوله {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} آل عمران 7 و كلتا القراءتين حق و يراد بالأولى المتشابه فى نفسه الذي إستأثر الله بعلم تأويله و يراد بالثانية المتشابه الإضافى الذي يعرف الراسخون تفسيره و هو تأويله و مثل هذا يقع فى القرآن كقوله {وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلنَّزُولِ مِنْهُ الْجِبَالُ} إبراهيم 46 و لتزول فيه قراءتان مشهورتان بالنفى و الإثبات و كل قراءة لها معنى صحيح و كذلك القراءة المشهورة {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ

أفك {9} الذاريات 8-9 فإن هذا التشابه يعم القرآن كما أن إحكام آياته تعمه كله و هنا قد قال
{ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 فجعل بعضه محكما و بعضه
متشابهها فصار التشابه له معنيان و له معنى ثالث و هو الإضافي يقال قد إشتبه علينا هذا كقول بني
إسرائيل { إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا } البقرة 70 و إن كان في نفسه متميزا منفصلا بعضه عن بعض و هذا
من باب إشتباه الحق بالباطل كقوله صلى الله عليه و سلم في الحديث الحلال بين و الحرام بين و
بين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها فليست
مشتبهة على جميع الناس بل على بعضهم بخلاف ما لا يعلم تأويله إلا الله فإن الناس كلهم مشتركون
في عدم العلم بتأويله و من هذا ما يروى عن المسيح عليه السلام أنه قال الأمور ثلاثة أمر تبين رشده
فاتبعوه و أمر تبين غيه فاجتنبوه و أمر إشتبه عليكم فكلوه الى عالمه فهذا المشتبه على بعض
الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه و يبينوا الفرق بين المشتبهين و هذا هو الذي أراده من
جعل الراسخين يعلمون التأويل فإنه جعل المشتبهات في القرآن من هذا الباب الذي يشتبه على بعض
الناس دون بعض و يكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه ما يعرفه بعض الناس و هذا المعنى
صحيح في نفسه لا ينكر و لا ريب أن الراسخين في العلم يعلمون ما إشتبه على غيرهم و قد يكون
هذا قراءة في الآية كما تقدم من أنه يكون فيها قراءتان لكن لفظ التأويل على هذا يراد به التفسير و
وجه ذلك أنهم يعلمون تأويله من حيث الجملة كما يعلمون تأويل المحكم فيعرفون الحساب و الميزان
و الصراط و الثواب و العقاب و غير ذلك مما أخبر الله به و رسوله معرفة مجملة فيكونون عالمين
بالتأويل و هو ما يقع في الخارج على هذا الوجه و لا يعلمونه مفصلا إذ هم لا يعرفون كيفيته و
حقيقته إذ ذلك ليس مثل الذي علموه في الدنيا و شاهدهوه و على هذا يصح أن يقال علموا تأويله و هو
معرفة تفسيره و يصح أن يقال لم يعلموا تأويله و كلا القراءتين حق و على قراءة النفي هل
يقال أيضا إن المحكم له تأويل لا يعلمون تفصيله فإن قوله و ما يعلم تأويل ما تشابه منه **{ إِلَّا اللَّهُ } آل**
عمران 7 لا يدل على أن غيره يعلم تأويل المحكم بل قد يقال أن من المحكم أيضا ما لا يعلم تأويله
إلا الله و إنما خص المتشابه بالذكر لأن أولئك طلبوا علم تأويله أو يقال بل المحكم يعلمون تأويله لكن
لا يعلمون و قت تأويله و مكانه و صفته وقد قال كثير من السلف إن المحكم ما يعمل به و
المتشابه ما يؤمن به و لا يعمل به كما يجيء في كثير من الآثار و نعمل بحكمه و نؤمن بمتشابهه و
كما جاء عن ابن مسعود و غيره في قوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ } البقرة 121
قال يحللون حلاله و يحرمون حرامه و يعملون بمحكمه و يؤمنون بمتشابهه و كلام السلف في ذلك
يدل على أن التشابه أمر إضافي فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على هذا فعلى كل أحد أن يعمل بما
إستبان له و يكل ما إشتبه عليه الى الله كقول أبي بن كعب رضي الله عنه في الحديث الذي رواه
الثوري عن مغيرة و ليس بشيء عن أبي العالية قال قيل لأبي بن كعب أوصني فقال إتخذ كتاب الله
إماما إرض به قاضيا و حاكما هو الذي إستخلف فيكم رسوله شفيع مطاع و شاهد لا ينهم فيه خبر ما
قبلكم و خبر ما بينكم و ذكر ما قبلكم و ذكر ما فيكم و قال سفيان عن رجل سماه عن ابن أبيزي عن

أبي قال فما إستبان لك فاعمل به و ما شبه عليك فأمن به و كله الى عالمه فمنهم من قال المتشابه هو المنسوخ و منهم من جعله الخبريات مطلقا فعن قتادة و الربيع و الضحاك و السدي المحكم الناسخ الذي يعمل به و المتشابه المنسوخ يؤمن به و لا يعمل به و كذلك فى تفسير العوفى عن ابن عباس و أما تفسير الوالى عن ابن عباس فقال محكمات القرآن ناسخه و حلاله و حرامه و حدوده و فرائضه و ما يؤمن به و يعمل به و المتشابهات منسوخه و مقدمه و مؤخره و أمثاله و أقسامه و ما يؤمن به و لا يعمل به أما القول الاول فهو والله اعلم ماخوذ من قوله {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ} الحج 52 فقابل بين المنسوخ وبين المحكم وهو سبحانه انما أراد نسخ ما ألقاه الشيطان لم يرد نسخ ما أنزله لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابهها لانه يشبه غيره فى التلاوة و النظم و انه كلام الله و قرآن و معجز و غير ذلك من المعانى مع أن معناه قد نسخ و من جعل المتشابه كل ما لا يعمل به من المنسوخ و الأقسام و الأمثال فلأن ذلك متشابه و لم يؤمر الناس بتفصيله بل يفهم الإيمان المجمل به بخلاف المعمول به فإنه لابد فيه من العلم المفصل و هذا بيان لما يلزم كل الأمة فإنهم يلزمهم معرفة ما يعمل به تفضيلا ليعلموا به و ما أخبروا به فليس عليهم معرفته بل عليهم الإيمان به و إن كان العلم به حسنا أو فرضا على الكفاية فليس فرضا على الأعيان بخلاف ما يعمل به فرض على كل انسان معرفة ما يلزمه من العمل مفصلا و ليس عليه معرفة العمليات مفصلا وقد روى عن مجاهد و عكرمة المحكم ما فيه من الحلال و الحرام و ما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضا فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور فى قوله {كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي} الزمر 23 و الحلال مخالف للحرام و هذا على قول مجاهد إن العلماء يعلمون تأويله لكن تفسير المتشابه بهذا مع أن كل القرآن متشابه و هنا خص البعض به فيستدل به على ضعف هذا القول وكذلك قوله {فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ} آل عمران 7 لو أريد بالمتشابه تصديق بعضه بعضا لكان اتباع ذلك غير محذور و ليس فى كونه يصدق بعضه بعضا ما يمنع ابتغاء تأويله و قد يحتج لهذا القول بقوله متشابهات فجعلها أنفسها متشابهات و هذا يقتضى أن بعضها يشبه بعضا ليست مشابهة لغيرها و يجب عن هذا بأن اللفظ إذا ذكر فى موضعين بمعنيين صار من المتشابه كقوله إنا و نحن المذكور فى سبب نزول الآية و قد ذكر محمد بن أسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران و نزول الآية قال المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا و جها و احدا و المتشابه ما إحتمل فى التأويل أوجها و معنى هذا أن ذلك اللفظ المحكم لا يكون تأويله فى الخارج الا شيئا و احدا و أما المتشابه فيكون له تأويلات متعددة لكن لم يرد الله إلا و احدا منها و سياق الآية يدل على المراد و حينئذ فالراسخون فى العلم يعلمون المراد من هذا كما يعلمون المراد من المحكم لكن نفس التأويل الذي هو الحقيقة و وقت الحوادث و نحو ذلك لا يعلمونه لا من هذا و لا من هذا و قد قيل إن نصارى نجران إحتجوا بقوله كلمة الله و روح منه و لفظ كلمة الله يراد به الكلام و يراد به المخلوق بالكلام و روح منه يراد به ابتداء الغاية و يراد به التبويض فعلى هذا إذا قيل تأويله لا يعلمه إلا الله المراد به الحقيقة أي لا يعلمون كيف خلق عيسى

بالكلمة و لا كيف أرسل إليها روحه فتمثل لها بشرا سويا و نفخ فيها من روحه و فى صحيح البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم والمقصود هنا أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاما لا معنى له و لا يجوز أن يكون الرسول صلى الله عليه و سلم و جميع الأمة لا يعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين و هذا القول يجب القطع بأنه خطأ سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما و لا يعلمون الآخر و إذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن و بين أن يقال الراسخون في العلم يعلمون كان هذا الإثبات خيرا من ذلك النفي فإن معنى الدلائل الكثير من الكتاب و السنة و أقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه و فهمه و تدبره و هذا مما يجب القطع به و ليس معناه قاطع على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه فإن السلف قد قال كثير منهم أنهم يعلمون تأويله منهم مجاهد مع جلاله قدره و الربيع بن أنس و محمد بن جعفر بن الزبير و نقلوا ذلك عن ابن عباس و أنه قال أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله و قول أحمد فيما كتبه فى الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن و تأويله على غير تأويله و قوله عن الجهمية أنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ثم تكلم على معناها دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه و أن المذموم تأويله على غير تأويله فأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم و هذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده و هو التفسير فى لغة السلف و لهذا لم يقل أحمد و لا غيره من السلف إن فى القرآن آيات لا يعرف الرسول و لا غيره معناها بل يتلون لفظا لا يعرفون معناه و هذا القول إختيار كثير من أهل السنة منهم ابن قتيبة و أبو سليمان الدمشقي و غيرهما و ابن قتيبة هو من المنتسبين الى أحمد و إسحاق و المنتصرين لمذاهب السنة المشهورة و له فى ذلك مصنفات متعددة قال فيه صاحب كتاب التحديث بمناقب أهل الحديث و هو أحد أعلام الأئمة و العلماء و الفضلاء أجودهم تصنيفا و أحسنهم ترصيفا له زهاء ثلاثمائة مصنف و كان يميل إلى مذهب أحمد و إسحاق و كان معاصرا لإبراهيم الحربي و محمد بن نصر المروزي و كان أهل المغرب يعظمونه و يقولون من إستجاز الواقعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة و يقولون كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه قلت و يقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فإنه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة و قد نقل عن ابن عباس أيضا القول الآخر و نقل ذلك عن غيره من الصحابة و طائفة من التابعين و لم يذكر هؤلاء على قولهم نصا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فصارت مسألة نزاع فترد إلى الله و إلى الرسول و أولئك إحتجوا بأنه قرن إبتغاء الفتنة بإبتغاء تأويله و بأن النبي صلى الله عليه و سلم ذم مبتغي المتشابه و قال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم و لهذا ضرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه صبيغ بن عسل لما سأله عن المتشابه و لأنه قال { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ } {العمران 7} و لو كانت الواو و او عطف مفرد على مفرد لا و او الإستئناف التى تعطف جملة على جملة لقال و يقولون فأجاب الآخرون

عن هذا بأن الله قال {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً} {الحشر 8} ثم قال {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ} {الحشر 9} ثم قال {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} {الحشر 10} قالوا فهذا عطف مفرد على مفرد و الفعل حال من المعطوف فقط و هو نظير قوله {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا} {آل عمران 7} قالوا ولانه لو كان المراد مجرد الوصف بالايمان لم يخص الراسخين بل قال والمؤمنون يقولون امنا به فان كل مؤمن يجب عليه ان يؤمن به فلما خص الراسخين فى العم بالذكر علم انهم امتازوا بعلم تاويله فعلموه لانهم عالمون وامنوا به لانهم يؤمنون وكان ايمانهم به مع العلم اكمل فى الوصف وقد قال عقيب ذلك {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} {آل عمران 7} وهذا يدل على ان هنا تذكرنا يختص به اولوا الالباب فان كان ما ثم الا الايمان بالفاظ فلا يذكر لما بدلهم على ما اريد بالمتشابهة ونظير هذا قوله فى الاية الاخرى {لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} {النساء 162} فلما وصفهم بالرسوخ فى العلم وانهم يؤمنون قرن بهم المؤمنين فلو اريد هنا مجرد الايمان لقال والراسخون فى العلم والمؤمنون يقولون امنا به كما قال فى تلك الاية لما كان مراده مجرد الاخبار بالايمان جمع بين الطائفتين و أما الذم فانما وقع على من يتبع المتشابهة لإبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله و هو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح فى القرآن فلا يطلبون إلا المتشابهة لإفساد القلوب و هي فتنتها به و يطلبون تأويله و ليس طلبهم لتأويله لأجل العلم و الإهتمام بل هذا لأجل الفتنة و كذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر لأن قصده بالسؤال عن المتشابهة كان لإبتغاء الفتنة و هذا كمن يورد أسئلة و إشكالات على كلام الغير و يقول ماذا أريد بكذا و غرضه التشكيك و الطعن فيه ليس غرضه معرفة الحق و هؤلاء هم الذين عناهم النبى صلى الله عليه و سلم بقوله إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه و لهذا يتبعون أي يطلبون المتشابهة و يقصدونه دون المحكم مثل المتبع للشيء الذي يتحراه و يقصده و هذا فعل من قصده الفتنة و أما من سأل عن معنى المتشابهة ليعرفه و يزيل ما عرض له من الشبه و هو عالم بالمحكم متبع له مؤمن بالمتشابهة لا يقصد فتنة فهذا لم يذمه الله و هكذا كان الصحابة يقولون رضى الله عنهم مثل الأثر المعروف الذي رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني و قد ذكره الطلمنكي حدثنا يزيد بن عبدربه ثنا بقية ثنا عتبة بن أبى حكيم ثنى عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى و نية يفليه فلي الرأس يلتمس أن يجد فيه أمرا يخرج به على الناس أولئك شرار أمتهم أولئك يعمى الله عليهم سبل الهدى و رجل يقرؤه ليس فيه هوى و لا نية يفليه فلي الرأس فما تبين له منه عمل به و ما إشتهه عليه و كله إلى الله ليتفقهن فيه فقها ما فقهاه قوم قط حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة فليبعثن الله له من يبين له الآية التى أشكلت عليه أو يفهمه إياها من قبل نفسه قال بقية أشهدنى ابن عيينة حديث عتبة هذا فهذا معاذ يذم من إتبع المتشابهة لقصد الفتنة و أما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لا بد أن يفقهه بفهمه المتشابهة فقها ما فقهاه قوم قط قالوا و الدليل على ذلك

أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك كما سأله عمر فقال ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت و تطوف به و سأله أيضا عمر ما بالنا نقصر الصلاة و قد أمنا و لما نزل قوله {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} الأنعام 82 شق عليهم و قالوا أينما لم يظلم نفسه حتى بين لهم و لما نزل قوله {وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} البقرة 284 شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك و لما قال النبي صلى الله عليه و سلم من نوقش الحساب عذب قالت عائشة ألم يقل الله {فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} الانشقاق 8 قال إنما ذلك العرض قالوا و الدليل على ما قلناه إجماع السلف فإنهم فسروا جميع القرآن و قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته أفقه عند كل آية و أسأله عنها و تلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه و سلم كما قال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان و عبدالله بن مسعود و غيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم و العمل قالوا فتعلمنا القرآن و العلم و العمل جميعا و قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس رضى الله عنهما من فاتحته الى خاتمته أفق عند كل آية و أسأله عنها و قال الشعبي ما ابتدع أحد بدعة الا و فى كتاب الله بيانها و قال مسروق ما سئل أصحاب محمد عن شىء الا و علمه فى القرآن ولكن علمنا قصر عنوه كلام أهل التفسير من الصحابة و التابعين شامل لجميع القرآن إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه لا لأن أحدا من الناس لا يعلمه لكن لأنه هو لم يعلمه و أيضا فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقا و لم يستثن منه شيئا لا يتدبر و لا قال لا تدبروا المتشابه و التدبر بدون الفهم ممتنع و لو كان من القرآن ما لا يتدبر لم يعرف فإن الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره و هذا أيضا مما يحتجون به و يقولون المتشابه أمر نسبي إضافي فقد يشتبه هذا ما لا يشتبه على غيره قالوا و لأن الله أخبر أن القرآن بيان و هدى و شفاء و نور و لم يستثن منه شيئا عن هذا الوصف و هذا ممتنع بدون فهم المعنى قالوا و لأن من العظيم أن يقال أن الله أنزل على نبيه كلاما لم يكن يفهم معناه لا هو و لا جبريل بل و على قول هؤلاء كان النبي صلى الله عليه و سلم يحدث بأحاديث الصفات و القدر و المعاد و نحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم و لم يكن يعرف معنى ما يقوله و هذا لا يظن بأقل الناس و أيضا فالكلام إنما المقصود به الإفهام فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثا و باطلا و الله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل و العبث فكيف يقول الباطل و العبث و يتكلم بكلام ينزله على خلقه لا يريد به إفهامهم و هذا من أقوى حجج الملحدين و أيضا فما فى القرآن آية إلا و قد تكلم الصحابة الصحابة و التابعون لهم بإحسان فى معناها و بينوا ذلك و إذا قيل فقد يختلفون فى بعض ذلك قيل كما قد يختلفون فى آيات الأمر و النهي و آيات الأمر و النهي مما إتفق المسلمون على أن الراسخين فى العلم يعلمون معناها و هذا أيضا مما يدل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تفسير المتشابه فإن المتشابه قد يكون فى آيات الأمر و النهي كما يكون فى آيات الخبر و تلك مما إتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها فكذلك الأخرى فإنه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه إلا الله لا ملك و لا رسول و لا عالم و هذا خلاف إجماع المسلمين فى

متشابه الأمر و النهي و أيضا فلفظ التأويل يكون للمحكم كما يكون للمتشابه كما دل القرآن و السنة و أقوال الصحابة على ذلك و هم يعلمون معنى المحكم فكذلك معنى المتشابه و أي فضيلة في المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه و المحكم أفضل منه و قد بين معناه لعباده فأى فضيلة في المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه و ما إستأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل به خطابا و لم يذكر في القرآن آية تدل على و قت الساعة و نحن نعلم أن الله إستأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها و إنما النزاع في كلام أنزله و أخبر أنه هدي و بيان و شفاء و أمر بتدبره ثم يقال أن منه ما لا يعرف معناه إلا الله و لم يبين الله و لا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه و لهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران و قد إحتجوا بقوله إنا و نحن و بقوله كلمة منه و روح و هذا قد إتفق المسلمون على معرفة معناه فكيف يقال أن المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة و لا الأنبياء و لا أحد من السلف و هو من كلام الله الذي أنزله إلينا و أمرنا أن نتدبره و نعقله و أخبر أنه بيان و هدى و شفاء و نور و ليس المراد من الكلام إلا معانيه و لولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له و قد قال الحسن ما أنزل الله آية إلا و هو يحب أن يعلم فيما ذا أنزلت و ماذا عنى بها و من قال أن سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم في ألم بحساب الجمل فهذا نقل باطل أما أولا فلأنه من رواية الكلبى و أما ثانيا فهذا قد قيل أنهم قالوه فى أول مقدم النبى صلى الله عليه و سلم إلى المدينة و سورة آل عمران إنما نزل صدرها متأخرا لما قدم و قد نجران بالنقل المستفيض المتواتر و فيها فرض الحج و إنما فرض سنة تسع أو عشر لم يفرض فى أول الهجرة بإتفاق المسلمين و أما ثالثا فلأن حروف المعجم و دلالة الحرف على بقاء هذه الأمة ليس هو من تأويل القرآن الذي إستأثر الله بعلمه بل إما أن يقال أنه ليس مما أراه الله بكلامه فلا يقال أنه إنفرد بعلمه بل دعوي دلالة الحروف على ذلك باطل و إما أن يقال بل يدل عليه فقد علم بعض الناس ما يدل عليه و حينئذ فقد علم الناس ذلك 2 أما دعوي دلالة القرآن على ذلك و أن أحدا لا يعلمه فهذا هو الباطل و أيضا فإذا كانت الأمور العلمية التى أخبر الله بها فى القرآن لا يعرفها الرسول كان هذا من أعظم قدح الملاحظة فيه و كان حجة لما يقولونه من أنه كان لا يعرف الأمور العلمية أو أنه كان يعرفها و لم يبينها بل إذا القول يقتضي أنه لم يكن يعلمها فإن ما لا يعلمه إلا الله لا يعلمه النبى و لا غيره و بالجملة فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول إن فى القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول و لا غيره نعم قد يكون فى القرآن آيات لا يعلم معناها من العلماء فضلا عن غيرهم و ليس ذلك فى آية معينة بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا و ذلك تارة يكون لغرابة اللفظ و تارة لإشتباه المعنى بغيره و تارة لشبهة فى نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق و تارة لعدم التدبر التام و تارة لغير ذلك من الأسباب فيجب القطع بأن قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ } آل عمران 7 أن الصواب قول من يجعله معطوفا و يجعل الواو لعطف مفرد على مفرد أو يكون كلا القولين حقا و هي قراءتان و التأويل المنفي غير التأويل المثبت و إن كان

الصواب هو قول من يجعلها و او إستئناف فيكون التأويل المنفي علمه عن غير الله هو الكيفيات التي لا يعلمها غيره و هذا فيه نظر و ابن عباس جاء عنه أنه قال إنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وجاء عنه أن الراسخين لا يعلمون تأويله وجاء عنه أنه قال التفسير على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها و تفسير لا يعذر أحد بجهالته و تفسير يعلمه العلماء و تفسير لا يعلمه إلا الله من إدعى علمه فهو كاذب و هذا القول يجمع القولين و يبين أن العلماء يعلمون من تفسيره ما لا يعلمه غيرهم و أن فيه ما لا يعلمه إلا الله فأما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عند قوله **{إلا الله}** و جعل التأويل بمعنى التفسير فهذا خطأ قطعاً و أما التأويل بالمعنى الثالث و هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح الى الإحتمال المرجوح فهذا الإصطلاح لم يكن بعد عرف في عهد الصحابة بل و لا التابعين بل و لا الأئمة الأربعة و لا كان التكلم بهذا الإصطلاح معروفا في القرون الثلاثة بل و لا علمت أحدا منهم خص لفظ التأويل بهذا و لكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعا في عرف كثير من المتأخرين فظنوا أن التأويل في الآية هذا معناه صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معاني تخالف ما يفهم منه و فرقوا دينهم بعد ذلك و صاروا شيعا و المتشابه المذكور الذي كان سبب نزول الآية لا يدل ظاهره على معنى فاسد و إنما الخطأ في فهم السامع نعم قد يقال أن مجرد هذا الخطاب لا يبين كمال المطلوب و لكن فرق بين عدم دلالاته على المطلوب و بين دلالاته على نقيض المطلوب فهذا الثاني هو المنفي بل و ليس في القرآن ما يدل على الباطل ألبتة كما قد بسط في موضعه و لكن كثير من الناس يزعم أن لظاهر الآية معنى إما معنى يعتقدده و إما معنى باطلا فيحتاج الى تأويله و يكون ما قاله باطلا لا تدل الآية على معتقده و لا على المعنى الباطل و هذا كثير جدا و هؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيرا ما يحتاج إلى التأويل المحدث و هو صرف اللفظ عن مدلوله إلى خلاف مدلوله و مما يحتج به من قال الراسخون في العلم يعلمون التأويل ما ثبت في صحيح البخارى وغيره عن ابن عباس ان النبي دعا له وقال اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل فقد دعا له بعلم التأويل مطلقا وابن عباس فسر القرآن كله قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من اوله الى اخره اقفه عند كل اية واساله عنها وكان يقول انا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله وايضا فالتقول متواترة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه تكلم في جميع معانى القرآن من الامر والخبر فله من الكلام فى الاسماء والصفات والوعد والوعيد والقصص ومن الكلام فى الامر والنهى والاحكام ما يبين انه كان يتكلم فى جميع معانى القرآن وايضا قد قال ابن مسعود ما من اية فى كتاب الله الا وانا اعلم فيما ذا انزلت وايضا فانهم متفقون على ان آيات الاحكام يعلم تأويلها وهى نحو خمسمائة اية وسائر القرآن عن الله واسمائه وصفاته او عن اليوم الاخر والجنة والنار او عن القصص وعاقبة اهل الايمان وعاقبة اهل الكفر فان كان هذا هو المتشابه الذى لا يعلم معناه الا الله

فجمهور القرآن لا يعرف احد معناه لا الرسول ولا احد من الامة ومعلوم ان هذا مكابرة ظاهرة وايضا فمعلوم ان العلم بتاويل الرؤيا اصعب من العلم بتاويل الكلام الذى يخبر به فان

دلالة الرؤيا على تاويلها دلالة خفية غامضة لا يهتدى لها جمهور الناس بخلاف دلالة لفظا لكلام على معناه فاذا كان الله قد علم عباده تاويل الاحاديث التي يرونها فى المنام فلان يعلمهم تاويل الكلام العربى المبين الذى ينزله على انبيائه بطريق الاولى والاحرى قال يعقوب ليوسف {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} يوسف6 وقال يوسف {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} يوسف101 وقال {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا} يوسف37 وايضا فقد ذم الله الكفار بقوله {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {38} بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} {39} يونس38-39 وقال {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مَّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ} {83} حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {84} النمل83-84 وهذا ذم لمن كذب بما لم يحيط بعلمه فما قاله الناس من الاقوال المختلفة فى تفسير القران وتاويله ليس لاحد ان يصدق بقول دون قول بلا علم ولا يكذب بشيء منها الا ان يحيط بعلمه وهذا لا يمكن الا اذا عرف الحق الذى اريد بالاية فيعلم ان ماسواه باطل فيكذب بالباطل الذى احاط بعلمه واما اذا لم يعرف معناها ولم يحيط بشيء منها علما فلا يجوز له التكذيب بشيء منها مع ان الاقوال المتناقضة بعضها باطل قطعاً ويكون حينئذ المكذب بالقران كالمكذب بالاقوال المتناقضة والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم وايضا فانه ان بنى على ما يعتقد من انه لا يعلم معانى الايات الخبرية الا الله لزمه ان يكذب كل من احتج باية من القران خبرية على شيء من امور الايمان بالله واليوم الآخر ومن تكلم فى تفسير ذلك وكذلك يلزم مثل ذلك فى احاديث الرسول وان قال المتشابه هو بعض الخبريات لزمه ان يبين فصلاً يبين به ما يجوز ان يعلم معناه من آيات القران وما لا يجوز ان يعلم معناه بحيث لا يجوز ان يعلم معناه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا احد من الصحابة ولا غيرهم ومعلوم انه لا يمكن احداً ذكر حد فاصل بين ما يجوز ان يعلم معناه بعض الناس وبين ما لا يجوز ان يعلم معناه احد ولو ذكر ما ذكر انتقض عليه فعلم ان المتشابه ليس هو الذى لا يمكن احداً معرفة معناه وهذا دليل مستقل فى المسألة وايضا فقوله {لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} يونس39 {أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا} النمل84 ذم لهم على عدم الإحاطة مع التكذيب و لو كان الناس كلهم مشتركين في عدم الإحاطة بعلم المتشابه لم يكن في ذمهم بهذا الوصف فائدة و لكان الذم على مجرد التكذيب فإن هذا بمنزلة أن يقال أكذبتم بما لم تحيطوا به علماً و لا يحيط به علماً إلا الله و من كذب بما لا يعلمه إلا الله كان أقرب إلى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس فلو لم يحط بها علماً الراسخون كان ترك هذا الوصف أقوى في ذمهم من ذكره و يبين هذا بوجه آخر هو دليل فى المسألة و هو أن الله ذم الزائغين بالجهل و سوء القصد فإنهم يقصدون المتشابه بيتغون تأويله و لا يعلم تأويله إلا الراسخون فى العلم و ليسوا منهم و هم يقصدون الفتنة لا يقصدون العلم و الحق و هذا و هذا كقوله تعالى {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ} الأنفال23 فإن المعنى بقوله {لَّأَسْمَعَهُمْ} الأنفال23 فهم القران

يقول لو علم الله فيهم حسن قصد و قبولاً للحق لأفهمهم القرآن لكن لو أفهمهم لتولوا عن الإيمان و قبول الحق لسوء قصدهم فهم جاهلون ظالمون كذلك الذين في قلوبهم زيغ هم مذمومون بسوء القصد مع طلب علم ما ليسوا من أهله و ليس إذا عيب هؤلاء على العلم و منعه يعاب من حسن قصده و جعله الله من الراسخين في العلم فإن قيل فأكثر السلف على أن الراسخين في العلم لا يعلمون التأويل و كذلك أكثر أهل اللغة يروى هذا عن ابن مسعود و أبي ابن كعب و ابن عباس و عروة و قتادة و عمر بن عبدالعزيز و الفراء و أبي عبيد و ثعلب و ابن الأنباري قال ابن الأنباري في قراءة عبدالله إن تأويله إلا عند الله و الراسخون في العلم و في قراءة أبي و ابن عباس و يقول الراسخون في العلم قال و قد أنزل الله في كتابه أشياء إستأثر بعلمها كقوله تعالى {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ} الأحزاب 63 و قوله {وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا} الفرقان 38 فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد و يكفر به الكافر فيشقى قال ابن الأنباري و الذي روى القول الآخر عن مجاهد هو ابن أبي نجيح و لا تصح روايته التفسير عن مجاهد فيقال قول القائل أن أكثر السلف على هذا قول بلا علم فإنه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قال أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه و عن ابن أبي مليكة عن عائشة أنها قالت كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه و بمتشابهه و لا يعلمونه فقد روى البخاري عن ابن أبي مليكة عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها الحديث المرفوع في هذا و ليس فيه هذه الزيادة و لم يذكر أنه سمعها من القاسم بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون كما تقدم حديث معاذ بن جبل في ذلك و كذلك نحوه عن ابن مسعود و ابن عباس و أبي بن كعب و غيرهم و ما ذكر من قراءة ابن مسعود و أبي بن كعب ليس لها إسناد يعرف حتى يحتج بها و المعروف عن ابن مسعود أنه كان يقول ما في كتاب الله آية إلا و أنا أعلم فيما ذا أنزلت و ماذا عني بها و قال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان و عبدالله بن مسعود و غيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم و العمل و هذا أمر مشهور رواه الناس عن عامة أهل الحديث و التفسير و له إسناد معروف بخلاف ما ذكر من قراءتها و كذلك ابن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله و قد صح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه دعا له يعلم تأويل الكتاب فكيف لا يعلم التأويل مع أن قراءة عبدالله إن تأويله إلا عند الله لا تناقض هذا القول فإن نفس التأويل لا يأتي به إلا الله كما قال تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} الأعراف 53 و قال {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} يونس 39 وقد إشتهر عن عامة السلف أن الوعد و الوعيد من المتشابه و تأويل ذلك هو مجيء الموعد به و ذلك عند الله لا يأتي به إلا هو و ليس في القرآن إن علم تأويله إلا عند الله كما قال في الساعة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {187} قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ {188} الأعراف 187-188 و كذلك لما قال فرعون لموسى {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} {51} قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى {52} طه 52-521 فلو كانت قراءة ابن مسعود تقتضي نفي العلم عن الراسخين لكانت إن علم تأويله إلا عند الله لم يقرأ أن تأويله إلا عند الله فإن هذا حق بلا نزاع و أما القراءة الأخرى المروية عن أبي و ابن عباس فقد نقل عن ابن عباس ما يناقضه و أخص أصحابه بالتفسير مجاهد و على تفسير مجاهد يعتمد أكثر الأئمة كالثوري و الشافعي و أحمد بن حنبل و البخاري قال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به و الشافعي في كتبه أكثر الذي ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد و كذلك البخاري في صحيحه يعتمد على هذا التفسير و قول القائل لا تصح رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد جوابه أن تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير بل ليس بأيدي أهل التفسير كتاب في التفسير أصح من تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد إلا أن يكون نظيره في الصحة ثم معه ما يصدقه و هو قوله عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية و أسأله عنها و أيضا فأبي بن كعب رضي الله عنه قد عرف عنه أنه كان يفسر ما تشابه من القرآن كما فسر قوله {فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} مريم 17 و فسر قوله {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} النور 35 و قوله {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ} الأعراف 172 و غير ذلك و نقل ذلك معروف عنه بالإسناد أثبت من نقل هذه القراءة التي لا يعرف لها إسناد و قد كان يسئل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر و سئل عن ليلة القدر و أما قوله أن الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن فيقال هذا حق لكن هل في الكتاب و السنة أو قول أحد من السلف أن الأنبياء و الملائكة و الصحابة لا يفهمون ذلك الكلام المجمل أم العلماء متفقون على أن المجمل في القرآن يفهم معناه و يعرف ما فيه من الإجمال كما مثل به من و قت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذي أخبر الله به عن الساعة و أنها آتية لا محالة و أن الله إنفرد بعلم و قتها فلم يطلع على ذلك أحدا و لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم لما سأله السائل عن الساعة و هو في الظاهر أعرابي لا يعرف قال له متى الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل و لم يقل أن الكلام الذي نزل في ذكرها لا يفهمه أحد بل هذا خلاف إجماع المسلمين بل و العقلاء فإن أخبار الله عن الساعة و أشراتها كلام بين و اضح يفهم معناه و كذلك قوله {وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا} الفرقان 38 قد علم المراد بهذا الخطاب و أن الله خلق قرونا كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله كما قال {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ} المدثر 31 فأى شيء في هذا مما يدل على أن ما أخبر الله به من أمر الإيمان بالله و اليوم الآخر لا يفهم معناه أحد لا من الملائكة و لا من الأنبياء و لا الصحابة و لا غيرهم و أما ما ذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقه أنه كان لا يفسر عامة أي القرآن إلا آيات قليلة رواها عن عائشة و معلوم أنه إذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم أنه لا يعرفه غيره من الخلفاء الراشدين و علماء الصحابة كإبن مسعود و أبي بن كعب و ابن عباس و غيرهم و أما اللغويون الذين يقولون أن الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون في ذلك فإن هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء في القرآن و يتوسعون في القول في

ذلك حتى ما منهم أحد إلا و قد قال فى ذلك أقوالا لم يسبق إليها و هي خطأ و ابن الأنباري الذي بالغ فى نصر ذلك القول هو أكثر الناس كلاما فى معاني الآي المتشابهات يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف و يحتج لما يقوله فى القرآن بالشاذ من اللغة و قصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة و ليس هو أعلم بمعانى القرآن و الحديث و إتبع للسنة من ابن قتيبة و لا أفاقه فى ذلك و إن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة و قد نعم هو و غيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسيره غريب الحديث و ابن قتيبة قد إعتذر عن ذلك و سلك فى ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم و هو و أمثاله يصيبون تارة و يخطئون أخرى فإن كان المتشابه لا يعلم معناه إلا الله فهم كلهم يجترئون على الله يتكلمون فى شيء لا سبيل إلى معرفته و إن كان ما بينوه من معانى المتشابه قد أصابوا فيه و لو فى كلمة و احدة ظهر خطوهم فى قولهم أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله و لا يعلمه أحد من المخلوقين فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا و معلوم أنهم أصابوا فى شيء كثير مما يفسرون به المتشابه و أخطأوا فى بعض ذلك فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقيني فإنهم أصابوا فى كثير من تفسير المتشابه و كذلك ما نقل عن قتادة من أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه فكتابه فى التفسير من أشهر الكتب و نقله ثابت عنه من رواية معمر عنه و رواية سعيد بن أبي عروبة عنه و لهذا كان المصنفون فى التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل عنه و مع هذا يفسر القرآن كله محكمه و متشابهه و الذي إقتضى شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع كالجهمية و القدرية من المعتزلة و غيرهم فصار أولئك يتكلمون فى تأويل القرآن برأيهم الفاسد و هذا أصل معروف لأهل البدع أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلي و تأويلهم اللغوي فتفاسير المعتزلة مملوءة بتأويل النصوص المثبتة للصفات و القدر على غير ما أراد الله و رسوله فإنكار السلف و الأئمة هو لهذه التأويلات الفاسدة كما قال الإمام أحمد فى ما كتبه فى الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن و تأويلته على غير تأويله فهذا الذي أنكره السلف و الأئمة من التأويل ف جاء بعدهم قوم إنتسبوا إلى السنة بغير خبرة تامة بها و بما يخالفها ظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله فظنوا أن معنى التأويل هو معناه فى إصطلاح المتأخرين و هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح الى المرجوح فصاروا فى موضع يقولون و ينصرون أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ثم يتناقضون فى ذلك من و جوه أحدها أنهم يقولون النصوص تجري على ظواهرها و لا يزيدون على المعنى الظاهر منها و لهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر و يقرون المعنى الظاهر و يقولون مع هذا أن له تأويلا لا يعلمه إلا الله و التأويل عندهم ما يناقض الظاهر فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر و قد قرر معناه الظاهر و هذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ذلك ابن عقيل على شيخه القاضي أبي يعلى و منها أنا و جدنا هؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بنص يخالف قولهم لا فى مسألة أصلية و لا فرعية إلا تأولوا ذلك النص بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات الجهمية و

القدرية للنصوص التي تخالفهم فأين هذا من قولهم لا يعلم معاني النصوص المتشابهة إلا الله تعالى و
إعتبر هذا بما تجده في كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة في مسائل الصفات و القرآن و القدر إذا إحتجت
المعتزلة على قولهم بالآيات التي تناقض قول هؤلاء مثل أن يحتجوا بقول {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْفَسَادَ} البقرة 205 {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} الزمر 7 {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} الأنعام 103 {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ} يس 82 {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ} البقرة 30 و نحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص
بتأويلات غالبها فاسد و إن كان في بعضها حق فإن كان ما تأولوه حقا دل على أن الراسخين في
العلم يعلمون تأويل المتشابه فظهر تناقضهم و إن كان باطلا فذلك أبعد لهم و هذا أحمد بن
حنبل إمام أهل السنة الصابر في المحنة الذي قد صار للمسلمين معيارا يفرقون به بين أهل السنة و
البدعة لما صنف كتابه في الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن
و تأويلته على غير تأويله تكلم على معاني المتشابه الذي إتبعه الزائغون إبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله
آية آية و بين معناها و فسر لها ليبين فساد تأويل الزائغين و إحتج على أن الله يري و أن القرآن غير
مخلوق و أن الله فوق العرش بالحجج العقلية و السمعية و رد ما إحتج به النفاة من الحجج العقلية و
السمعية و بين معاني الآيات التي سماها هو متشابهة و فسر لها آية آية و كذلك لما ناظره و إحتجوا
عليه بالنصوص جعل يفسرها آية آية و حديثا حديثا و يبين فساد ما تأولها الزائغون و يبين هو معناها
و لم يقل أحمد إن هذه الآيات و الأحاديث لا يفهم معناها إلا الله و لا قال أحد له ذلك بل الطوائف كلها
مجتمعة على إمكان معرفة معناها لكن يتنازعون في المراد كما يتنازعون في آيات الأمر و النهي و
كذلك كان أحمد يفسر المتشابه من الآيات و الأحاديث التي يحتج بها الزائغون من الخوارج و غيرهم
كقوله لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن و لا يسرق السارق حين يسرق و هو مؤمن و لا
يشرب الشارب الخمر حين يشرب و هو مؤمن و أمثال ذلك و يبطل قول المرجئة و
الجهمية و قول الخوارج و المعتزلة و كل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها و لم يقل
أحد لا من أهل السنة و لا من هؤلاء لما يستدل به هو أو يستدل به عليه منازعه هذه آيات و أحاديث
لا يعلم معناها أحد من البشر فأمسكوا عن الإستدلال بها و كان الإمام أحمد ينكر طريقة أهل البدع
الذين يفسرون القرآن برأيهم و تأويلهم من غير إستدلال بسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم و
أقوال الصحابة و التابعين الذين بلغهم الصحابة معاني القرآن كما بلغوهم ألفاظه و نقلوا هذا كما نقلوا
هذا لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله و رسوله و يدعون أن هذا هو
التأويل الذي يعلمه الراسخون و هم مبطلون في ذلك لا سيما تأويلات القرامطة و الباطنية الملاحدة و
كذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية و القدرية و غيرهم و لكن هؤلاء يعترفون بأنهم لا يعلمون
التأويل و إنما غايتهم أن يقولوا ظاهر هذه الآية غير مراد و لكن يحتمل أن يراد كذا و أن يراد كذا و
لو تأولها الواحد منهم بتأويل معين فهو لا يعلم أنه مراد الله و رسوله بل يجوز أن يكون مراد الله
و رسوله عندهم غير ذلك كالتأويلات التي يذكرونها في نصوص الكتاب كما يذكرونه في قوله

{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} الفجر 22 و ينزل ربنا و {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} النساء 164 {وَوَضِعَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْفَتْحَ 6} و {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82 و أمثال ذلك من النصوص فإن غاية ما عندهم يحتمل أن يراد به كذا و يجوز كذا و نحو ذلك و ليس هذا علما بالتأويل و كذلك كل من ذكر في نص أقوالا و احتمالات و لم يعرف المراد فإنه لم يعرف تفسير ذلك و تأويله و إنما يعرف ذلك من عرف المراد و من زعم من الملاحظة أن الأدلة السمعية لا تفيد العلم فمضمون مدلولاته لا يعلم أحد تفسير المحكم و لا تفسير المتشابه و لا تأويل ذلك و هذا إقرار منه على نفسه بأنه ليس من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه فضلا عن تأويل المحكم فإذا انضم إلى ذلك أن يكون كلامهم في العقليات فيه من السفسطة و التلبيس ما لا يكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لا معرفة بالسمعيات و لا بالعقليات و قد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} الملك 10 و مدح الذين إذا ذكروا بآياته لم يخروا عليها صما و عميانا و الذين يفقهون و يعقلون و ذم الذين لا يفقهون و لا يعقلون في غير موضع من كتابه و أهل البدع المخالفون للكتاب و السنة يدعون العلم و العرفان و التحقيق و هم من أجهل الناس بالسمعيات و العقليات و هم يجعلون ألفاظا لهم مجملة متشابهة تتضمن حقا و باطلا يجعلونها هي الأصول المحكمة و يجعلون ما عارضها من نصوص الكتاب و السنة من المتشابه الذي لا يعلم معناه عندهم إلا الله و ما يتأولونه بالإحتمالات لا يفيد فيجعلون البراهين شبهات و الشبهات براهين كما قد بسط ذلك في موضع آخر و قد نقل القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد أنه قال المحكم ما استقل بنفسه و لم يحتج الى بيان و المتشابه ما احتج الى بيان و كذلك قال الإمام أحمد في رواية و الشافعي قال المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا و جها و احدا و المتشابه ما احتمل من التأويل و جوها و كذلك قال الإمام أحمد و كذلك قال ابن الأنباري المحكم ما لم يحتمل من التأويل إلا و جها و احدا و المتشابه الذي تعتوره التأويلات فيقال حينئذ فجميع الأمة سلفها و خلفها يتكلمون في معاني القرآن التي تحتمل التأويلات و هؤلاء الذين ينصرون أن الراسخين في العلم لا يعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاما فيه و الأئمة كالشافعي و أحمد و من قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معاني و يرجحون بعضها على بعض بالأدلة في جميع مسائل العلم الأصولية و الفروعية لا يعرف عن عالم من علماء المسلمين أنه قال عن نص إحتج به محتج في مسألة أن هذا لا يعرف أحد معناه فلا يحتج به و لو قال أحد ذلك لقل له مثل ذلك و إذا إدعى في مسائل النزاع المشهورة بين الأئمة أن نصه محكم يعلم معناه و أن النص الآخر متشابه لا يعلم أحد معناه قوبل بمثل هذه الدعوى و هذا بخلاف قولنا أن من النصوص ما معناه جلى و اضح ظاهر لا يحتمل إلا و جها و احدا لا يقع فيه إشتباه و منها ما فيه خفاء و إشتباه يعرف معناه الراسخون في العلم فإن هذا تفسير صحيح و حينئذ فالخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال أنه يعرف معناه يبين حجته على ذلك و أيضا فما ذكره السلف و الخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال أن المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف و

هذا القول مأثور عن ابن مسعود و ابن عباس و قتادة و السدي و غيرهم و ابن مسعود و ابن عباس و قتادة هم الذين نقل عنهم أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله و معلوم قطعا باتفاق المسلمين أن الراسخين يعلمون معنى المنسوخ و أنه منسوخ فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل و يدل على أنه كذب إن كان هذا صدقا و إلا تعارض النقلان عنهم و المنقول عنهم أن الراسخين يعلمون معنى المتشابهة و القول الثاني مأثور عن جابر بن عبد الله أنه قال المحكم ما علم العلماء تأويله و المتشابهة ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة و معلوم أن وقت قيام الساعة مما إتفق المسلمون على أنه لا يعلمه الا الله فإذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به لا يعلم و وقت تأويله إلا الله و هذا حق و لا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك و كذلك إن أريد بالتأويل حقائق ما يوجد و قيل لا يعلم كيفية ذلك إلا الله فهذا قد قدمناه و ذكر أنه على قول هؤلاء من و قف عند قوله **{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7** هو الذي يجب أن يراد بالتأويل و إما أن يراد بالتأويل التفسير و معرفة المعنى و يوقف على قوله إلا الله فهذا خطأ قطعا مخالف للكتاب و السنة و إجماع المسلمين و من قال ذلك من المتأخرين فإنه متناقض يقول ذلك و يقول ما يناقضه و هذا القول يناقض الإيمان بالله و رسوله من و جوه كثيرة و يوجب القبح في الرسالة و لا ريب أن الذي قالوه لم يتدبروا لوازمه و حقيقته بل أطلقوه و كان أكبر قصدهم دفع تأويلات أهل البدع للمتشابهة و هذا الذي قصدوه حق و كل مسلم يوافقهم عليه لكن لا ندفع باطلا بباطل آخر و لا نرد بدعة ببدعة و لا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بأن يقال الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة كانوا لا يعرفون تفسير ما تشابه من القرآن ففي هذا من الطعن في الرسول و سلف الأمة ما قد يكون أعظم من خطأ طائفة في تفسير بعض الآيات و العاقل لا يبني قصرا و يهدم مصرا و القول الثالث أن المتشابهة الحروف المقطعة في أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الإسمية و الفعلية و انما هي أسماء موقوفة و لهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد و التركيب و إنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث و لهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها في النطق أسماء و لهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا ز ا قال نطقتم بالإسم و إنما النطق بالحرف زه فهي في اللفظ أسماء و في الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي صلى الله عليه و سلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول ألم حرف و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و الح لغة الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسما و فعلا و حرفا و لهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام إسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الإسم حرف و الفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل و هذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام و أما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد و ينطق بها غير معربة و لا يقال فيها معرب و لا مبنى لأن ذلك إنما يقال في

المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم ثم يقال هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا و هي المتشابهة كان ما سواها معلوم المعنى و هذا المطلوب وأيضا **فإن الله تعالى قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7** و هذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء و إنما يعدها آيات الكوفيون و سبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابهة و لكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء و الرابع أن المتشابهة ما إشتبهت معانيه قال مجاهد و هذا يوافق قول أكثر العلماء و كلهم يتكلم في تفسير هذا المتشابهة و يبين معناه و الخامس أن المتشابهة ما تكررت ألفاظه قاله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال المحكم ما ذكر الله تعالى في كتابه من قصص الأنبياء ففصله و بينه و المتشابهة هو ما إختلفت ألفاظه في قصصهم عند التكرير كما قال في موضع من قصة نوح { **أَحْمِلْ فِيهَا** } هود 40 و قال في موضع آخر { **فَأَسْأَلُكَ فِيهَا** } المؤمنون 27 و قال في عصي موسى { **فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى** } طه 20 و في موضع آخر { **فَإِذَا هِيَ تُعْبَأُنُ مُبِينٌ** } الأعراف 107 و صاحب هذا القول جعل المتشابهة إختلاف اللفظ مع إتفاق المعنى كما يشتهبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ و قد صنف بعضهم في هذا المتشابهة لأن القصة الواحدة يتشابه معناها في الموضوعين فإشتبه على القارئ أحد اللفظين بالآخر و هذا التشابه لا ينفى معرفة المعاني بلا ريب و لا يقال في مثل هذا أن الراسخين يختصون بعلم تأويله فهذا القول إن كان صحيحا كان حجة لنا و إن كان ضعيفا لم يضرنا و السادس أنه ما إحتاج إلى بيان كما نقل عن أحمد و السابع أنه ما إحتمل و جوها كما نقل عن الشافعي و أحمد و قد روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن و جوها و قد صنف الناس كتب الوجوه و النظائر فالنظائر اللفظ الذي إتفق معناه في الموضوعين و أكثر و الوجوه الذي إختلف معناه كما يقال الأسماء المتواطئة و المشتركة و إن كان بينهما فرق و لبسطه موضع آخر و قد قيل هي نظائر في اللفظ و معانيها مختلفة فتكون كالمشتركة و ليس كذلك بل الصواب أن المراد بالوجوه و النظائر هو الأول و قد تكلم المسلمون سلفهم و خلفهم في معاني الوجوه و فيما إحتاج إلى بيان و ما إحتمل و جوها فعلم يقينا أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه و علم أن من قال إن من القرآن ما لا يفهم أحد معناه و لا يعرف معناه إلا الله فإنه مخالف لاجماع الأمة مع مخالفته للكتاب و السنة و الثامن أن المتشابهة هو القصص و الأمثال و هذا أيضا يعرف معناه و التاسع أنه ما يؤمن به و لا يعمل به و هذا أيضا مما يعرف معناه و العاشر قول بعض المتأخرين إن المتشابهة آيات الصفات و أحاديث الصفات و هذا أيضا مما يعلم معناه فإن أكثر آيات الصفات إتفق المسلمون على أنه يعرف معناها و البعض الذي تنازع الناس في معناه إنما ذم السلف منه تأويلات الجهمية و نفوا علم الناس بكيفيته كقول مالك الإستواء معلوم و الكيف مجهول و الإيمان به و اجب و السؤال عنه بدعة و كذلك قال سائر أئمة السنة و حينئذ ففرق بين المعنى المعلوم و بين

الكيف المجهول فإن سمي الكيف تأويلاً ساغ أن يقال هذا التأويل لا يعلمه إلا الله كما قدمناه أولاً و أما إذا جعل معرفة المعنى و تفسيره تأويلاً كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلاً و قيل أن النبي صلى الله عليه و سلم و جبريل و الصحابة و التابعين ما كانوا يعرفون معنى قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه5 و لا يعرفون معنى قوله {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ} ص75 و لا معنى قوله {وَوَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} الفتح6 بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمي الذي لا يفهمه العربي و كذلك إذا قيل كان عندهم قوله تعالى {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الزمر67 و قوله {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} الأنعام103 و قوله {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً} النساء134 و قوله {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} المائدة119 و قوله {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} محمد28 و قوله {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} البقرة195 و قوله {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} التوبة105 و قوله {إِنَّا جَعَلْنَاها قُرْآنًا عَرَبِيًّا} الزخرف3 و قوله {فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} التوبة6 و قوله {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها} النمل8 و قوله {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ} البقرة210 و قوله {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} الفجر22 و قوله {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} الأنعام158 و قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} فصلت11 و قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس82 الى أمثال هذه الآيات فمن قال عن جبريل و محمد صلوات الله و سلامه عليهما و عن الصحابة و التابعين لهم بإحسان و أئمة المسلمين و الجماعة أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني هذه الآيات بل إستاثر الله بعلم معناها كما إستاثر بعلم و قت الساعة و إنما كانوا يقرأون ألفاظاً لا يفهمون لها معنى كما يقرأ الإنسان كلاماً لا يفهم منه شيئاً فقد كذب على القوم و النقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا و أنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن و إن كان كنه الرب عز و جل لا يحيط به العباد و لا يحصون ثناء عليه فذاك لا يمنع أن يعلموا من أسمائه و صفاته ما علمهم سبحانه و تعالى كما أنهم إذا علموا أنه بكل شيء عليم و أنه على كل شيء قدير لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه و قدرته و إذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته و هذا مما يستدل به على أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فإن الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم و معلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لا ينفي العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام و بيان معناه بل يعلمون تأويل المحكم و المتشابه و لا يعرفون كيفية الرب لا في هذا و لا في هذا فإن قيل هذا يقدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذي يراد به التفسير و بين التأويل الذي في كتاب الله تعالى قيل لا يقدح في ذلك فإن معرفة تفسير اللفظ و معناه و تصور ذلك في القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة في الخارج المرادة بذلك الكلام فإن الشيء له و جود في الأعيان و وجود في الأذهان و وجود في اللسان و وجود في البنان فالكلام لفظ له معنى في القلب و يكتب ذلك اللفظ بالخط

فإذا عرف الكلام و تصور معناه فى القلب و عبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة فى الخارج و ليس كل من عرف الأول عرف عين الثانى مثال ذلك أن أهل الكتاب يعلمون ما فى كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه و سلم و خبره و نعته و هذا معرفة الكلام و معناه و تفسيره و تأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام و كذلك الإنسان قد يعرف الحج و المشاعر كالبيت و المسجد و منى و عرفة و مزدلفة و يفهم معنى ذلك و لا يعرف أعيان الأمكنة حتى يشاهدها فيعرف أن الكعبة المشاهدة المذكورة فى قوله {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} آل عمران 97 و كذلك أرض عرفات هي المذكورة فى قوله {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ {البقرة 198} و كذلك المشعر الحرام هي المزدلفة التى بين مازمي عرفة و وادي محسر يعرف أنها المذكورة فى قوله {فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} البقرة 198 وكذلك الرؤيا قد يراها الرجل و يذكر له العابر تأويلها فيفهمه و يتصوره مثل أن يقول هذا يدل على أنه كان كذا و يكون كذا و كذا ثم إذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا ليس تأويلها نفس علمه و تصوره و كلامه و لهذا قال يوسف الصديق {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} يوسف 100 و قال {لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا} يوسف 37 فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن يأتى التأويل و الأنباء ليس هو التأويل فالنبي صلى الله عليه و سلم عالم بالتأويل و إن كان التأويل لم يقع بعد و إن كان لا يعرف متى لا يقع فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله فى القرآن من الوعد و الوعيد و إن كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور فى قوله سبحانه و تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ} الأعراف 53 الآية و قال تعالى {لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ} الأنعام 67 فنحن نعلم مستقر نبا الله و هو الحقيق التى أخبر الله بها و لا نعلم متى يكون و قد لا نعلم كيفيتها و قدرها و سواء فى هذا تأويل المحكم و المتشابه كما قال الله تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} الأنعام 65 قال النبي صلى الله عليه و سلم أنها كائنة و لم يأت تأويلها بعد فقد عرف تأويلها و هو و قوع الاختلاف و الفتن و إن لم يعرف متى يقع و قد لا يعرف صفته و لا حقيقته فإذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذى دلت عليه الآية و غيره قد لا يعرف ذلك أو ينسأه بعد ما كان عرفه فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن فإنه لما نزل قوله تعالى {وَإِنظُرُوا فِتْنَةً لِّأَنْ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} الأنفال 25 قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا و ما أرانا من أهلها و إذا نحن المعنيون بها {وَإِنظُرُوا فِتْنَةً لِّأَنْ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} الأنفال 25 وأيضا فإن الله قد ذم فى كتابه من يسمع القرآن و لا يفقه معناه و ذم من لم يتدبره و مدح من يسمعه و يفقهه فقال تعالى {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} محمد 16 الآية فأخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم ماذا قال الرسول فى هذا الوقت المتقدم فدل على أن أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معانى كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم ما لا يعرفه غيرهم و هؤلاء هم الراسخون فى العلم الذين يعلمون معانى القرآن محكمه و متشابهه و هذا كقوله تعالى {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا

لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ { العنكبوت 43 } فدل على أن العالمين يعقلونها و إن كان غيرهم لا يعقلها والأمثال هي المتشابهة عند كثير من السلف و هي الى المتشابهة أقرب من غيرها لما بين المثل و الممثل به من التشابه و عقل معناها هو معرفة تأويلها الذي يعرفه الراسخون فى العلم دون غيرهم و يشبه هذا قوله تعالى { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } سبأ 6 فلولا أنهم عرفوا معنى ما أنزل كيف عرفوا أنه حق أو باطل و هل يحكم على كلام لم يتصور معناه أنه حق أو باطل و قال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } محمد 24 و قال { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } النساء 82 و قال تعالى { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ } المؤمنون 68 و قال تعالى { فَبَشِّرْ عِبَادِ {17} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } الزمر 17-18 و قال { وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا } الفرقان 73 و قال { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 و قال { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } هود 1 و قال { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } {3} بَشِيرًا وَنَذِيرًا {4} فَصَلَتْ 3 الى قوله { وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } فصلت 5 فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم احد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا بعضه و هذا خلاف ما دل عليه القرآن لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه كآيات الخبرية و الأخبار عن اليوم الآخر أو الجنة و النار و عن نفي الشركاء و الأولاد عن الله و تسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيًا و إثباتًا و ما يخبرهم به عن اليوم الآخر و قد ذم الله من لا يعقل ذلك و لا يفقهه و لا يتدبره فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك و تدبره و قد قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ } {42} وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ } {43} يونس 42-43 و قال { وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } الأنعام 25 الآية و قال تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا } {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } {46} الإسراء 45-46 الآية و قد استدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا كان منفردا به كقوله { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } النمل 65 و قوله { لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ } الأعراف 187 و قوله { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } المدثر 31 فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفى فإن كان مما استأثر الله به قيل فيه ذلك و إن كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ } البقرة 255 و قوله { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا } الجن 26 الى قوله { رَصَدًا } الجن 27 و قوله { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } الرعد 43 و قوله { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ } آل عمران 18 و قوله { لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ } النساء 166 الى قوله { شَهِيدًا } النساء 166 و قوله { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ } الكهف 22 و قال

للملائكة {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 30 و قالت الملائكة {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} البقرة 32 و في كثير من كلام الصحابة الله و رسوله أعلم و في الحديث المشهور أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وقد قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} النساء 59 و أول النزاع النزاع في معاني القرآن فإن لم يكن الرسول عالما بمعانيه إمتنع الرد إليه و قد إتفق الصحابة و التابعون لهم بإحسان و سائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن و تبينه و تدل عليه و تعبر عن مجمله و أنها تفسر مجمل القرآن من الأمر و الخبر و قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} البقرة 213 الى قوله {فِيمَا اختلفوا فيه} البقرة 213 و من أعظم الإختلاف الإختلاف في المسائل العلمية الخيرية المتعلقة بالإيمان بالله و اليوم الآخر فلا بد أن يكون الكتاب حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيه من ذلك و يمتنع أن يكون حاكما إن لم يكن معرفة معناه ممكنا و قد نصب الله عليه دليلا و إلا فالحاكم الذي يبين ما في نفسه لا يحكم بشيء و كذلك إذا قيل هو الحاكم بالكتاب فإن حكمه فصل يفصل به بين الحق و الباطل و هذا إنما يكون بالبيان و قد قال تعالى في القرآن {إِنَّهُ أَقْبَلُ فَصْلٌ} الطارق 13 أي فاصل يفصل بين الحق و الباطل فكيف يكون فصلا إذا لم يكن الى معرفة معناه سبيل وأيضا فإن الله قال {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} البقرة 78 فذم هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى كما ذم الذين يحرفون معناه و يكذبون فقال تعالى {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} البقرة 75 الى قوله {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} البقرة 76 فهذا الصنفين ثم قال تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي} البقرة 78 أي تلاوة {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} البقرة 78 ثم ذم الذين يفترون كتبا يقولون هي من عند الله و ما هي من عند الله فقال {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} البقرة 79 و هذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال و البدع فإن أهل البدع الذين ذمهم الله و رسوله نوعان أحدهما عالم بالحق يتعمد خلافه و الثاني جاهل متبع لغيره فالأولون يبتدعون ما يخالف كتاب الله و يقولون هو من عند الله إما أحاديث مفتريات و إما تفسير و تأويل للنصوص باطل و يعضدون ذلك بما يدعونه من الرأي و العقل و قصدهم بذلك الرياسة و المآكل فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل و ويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك و هؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية و قيل لهم هذه تخالفكم حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة قال الله تعالى {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} البقرة 75 و أما النوع الثانى الجهال فهؤلاء الأميون الذين {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} البقرة 78 فعن ابن عباس و قتادة فى قوله {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ} البقرة 78 أي غير عارفين بمعاني الكتاب يعلمونها حفظا و قراءة بلا فهم و لا يدرون ما فيه و قوله {إِلَّا}

أَمَانِيَّ {البقرة 78} أي تلاوة فهم لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعون يتلى عليهم
قاله الكسائي و الزجاج و كذلك قال ابن السائب لا يحسنون قراءة الكتاب و لا كتابته إلا أمانى إلا ما
يحدثهم به علماءهم و قال أبو روق و أبو عبيدة أي تلاوة و قراءة عن ظهر القلب و لا يقرأونها فى
الكتب ففي هذا القول جعل الأمانى التى هى التلاوة تلاوة الأُميين أنفسهم و فى ذلك جعله ما يسمعون
من تلاوة علمائهم و كلا القولين حق و الآية تعمهما فإنه سبحانه و تعالى قال {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ
{البقرة 78} لم يقل لا يقرأون و لا يسمعون ثم قال {إِلَّا أَمَانِيَّ} {البقرة 78} و هذا إستثناء منقطع لكن
يعلمون أمانى إما بقراءتهم لها و إما بسماعهم قراءة غيرهم و إن جعل الإستثناء متصلاً كان التقدير
لا يعلمون الكتاب إلا علم أمانى لا علم تلاوة فقط بلا فهم و الأمانى جمع أمنية و هى التلاوة و منه
قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ
مَا يُقْيِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {الحج 52} قال الشاعر تمنى كتاب الله أول
ليلة و آخرها لاقى حمام المقادر و الأُميون نسبة الى الأمة قال بعضهم الى الأمة و ما
عليه العامة فمعنى الأُمى العامى الذى لا تمييز له و قد قال الزجاج هو على خلق الأمة التى لم تتعلم
فهو على جبلته و قال غيره هو نسبة الى الأمة لأن الكتابة كانت فى الرجال دون النساء و لأنه على
ما و لدته أمه و الصواب أنه نسبة الى الأمة كما يقال عامى نسبة الى العامة التى لم تتميز عن
العامة بما تمتاز به الخاصة و كذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة و القراءة
و يقال الأُمى لمن لا يقرأ و لا يكتب كتاباً ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرأونه و إن كان
قد يكتب و يقرأ ما لم ينزل و بهذا المعنى كان العرب كلهم أُميين فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من
الله قال الله تعالى {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا} آل عمران 20
و قال {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} {الجمعة 2} و قد كان فى العرب كثير ممن يكتب و
يقرأ المكتوب و كلهم أُميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أُميين بإعتبار أنهم لا يقرأون كتاباً من
حفظهم بل هم يقرأون القرآن من حفظهم و أنا جيلهم فى صدورهم لكن بقوا أُميين بإعتبار أنهم لا
يحتاجون الى كتابة دينهم بل قرأنهم محفوظ فى قلوبهم كما فى الصحيح عن عياض بن حمار
المجاشعي عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال خلقت عبادى يوم خلقتهم حنفاء و قال فيه إنى
مبتليك و مبتل لك و أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً و يقظاناً فأمتنا ليست مثل أهل
الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم فى قلوبهم بل لو عدت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً فى قلوب
الأمة و بهذا الإعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن و حفظه كما فى الصحيح عن ابن عمر
رضي الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إنا أمة أمية لا نحسب و لا
نكتب الشهر هكذا و هكذا فلم يقل إنا لا نقرأ كتاباً و لا نحفظ بل قال لا نكتب و لا نحسب فديننا لا
يحتاج أن يكتب و يحسب كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم و فطرهم بكتاب و
حساب و دينهم معلق بالكتب لو عدت لم يعرفوا دينهم و لهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن
و الحديث أكثر من أهل البدع و أهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه و قوله

{فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ} الأعراف 158 هو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب و لا يقرأ ما في الكتب لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ و الأمي إصطلاح الفقهاء خلاف القارئ و ليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول و يعنون به في الغالب من لا يحس الفاتحة فقوله تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ} البقرة 78 أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة لا يفهمون معناها و هذا يتناول من لا يحسن الكتابة و لا القراءة من قبل و إنما يسمع أمانى علما كما قال ابن السائب و يتناول من يقرأه عن ظهر قلبه و لا يقرأه من الكتاب كما قال أبو روق و أبو عبيدة وقد يقال ان قوله {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ} البقرة 78 أي الخط أي لا يحسنون الخط وإنما يحسنون التلاوة ويتناول أيضا من يحسن الخط والتلاوة ولا يفهم ما يقرأه ويكتبه كما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معانى الكتاب يعلمونها حفظا وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه والكتاب هنا المراد به الكتاب المنزل وهو التوراة ليس المراد به الخط فانه قال {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} البقرة 78 فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعانى الكتاب ولا فكون الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم ان يكون لا علم عنده بل يظن ظنا بل كثير ممن يكتب بيده لا يفهم ما يكتب وكثير ممن لا يكتب يكون عالما بمعانى ما يكتبه غيره وأيضا فإن الله ذكر هذا فى سياق الذم لهم و ليس فى كون الرجل لا يخط ذم إذا قام بالواجب و إنما الذم على كونه لا يعقل الكتاب الذي أنزل إليه سواء كتبه و قرأه أو لم يكتبه و لم يقرأه كما قال النبي صلى الله عليه و سلم هذا أو أن يرفع العلم فقال له زياد بن ليبيد كيف يرفع العلم و قد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه و لنقرئنه نساءنا فقال له إن كنت لأحسبك من أئمة أهل المدينة أو ليست التوراة و الإنجيل عند اليهود و النصارى فماذا تغني عنهم و هو حديث معروف رواه الترمذي و غيره و لأنه قال تعالى قبل هذا {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} البقرة 75 فأولئك عقلوه ثم حرفوه و هم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم و يكتبونه و يقرأونه حفظا و كتابة أو لم يكونوا كذلك فكان من المناسب أن يذكر الذين لا يعقلونه و هم الذين لا يعلمونه إلا أمانى فإن القرآن أنزله الله كتابا متشابها مثنائى و يذكر فيه الأقسام و الأمثال فيستوعب فيكون مثنائى و يذكر الأمثال فيكون متشابها و هؤلاء و إن كانوا يكتبون و يقرأون فهم أميون من أهل الكتاب كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمي و ساذج و عامي و إن كان يحفظ القرآن و يقرأ المكتوب إذا كان لا يعرف معناه و إذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لا يعرفون الكتاب إلا تلاوة دون فهم معانيه كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون دل على أن كلا النوعين مذموم الجاهل الذي لا يفهم معانى النصوص و الكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه و هذا حال أهل البدع فإنهم أحد رجلين إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه و يتكلم برأيه و يؤوله بما يضيفه الى الله فهو لاء يكتبون الكتاب بأيديهم و يقولون هو من عند الله و يجعلون تلك المقالات التى ابتدعوها هي مقالة الحق و هي التى جاء بها الرسول و التى كان عليها السلف و نحو ذلك ثم يحرفون النصوص التى تعارضها فهو لاء إذا تعمدوا ذلك و علموا أن الذي يفعلونه مخالف للرسول فهم من جنس هؤلاء اليهود و هذا يوجد فى كثير من الملاحدة و يوجد فى بعض الأشياء فى غيرهم و أما

الذين قصدهم أتباع الرسول باطنا و ظاهرا و غلطوا فيما كتبوه و تأولوه فهؤلاء ليسوا من جنسهم لكن قد و قع بسبب غلطهم ما هو من جنس ذلك الباطل كما قيل إذا زل العالم زل بزنته عالم و هذا حال المتأولين من هذه الأمة و أما رجل مقلد أمني لا يعرف من الكتاب إلا ما يسمعه منهم أو ما يتلوه هو و لا يعرف إلا أمانى و قد ذمه الله على ذلك فعلم أن الله ذم الذين لا يعرفون معاني القرآن و لا يتدبرونه و لا يعقلونه كما صرح القرآن بزمهم فى غير موضع فيمتنع مع هذا أن يقال إن أكثر القرآن أو كثيرا منه لا يعلمه أحد من الخلق إلا أمانى لا جبريل و لا محمد و لا الصحابة و لا أحد من المسلمين فإن هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به فإن قيل أفلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية قيل نعم لكن معرفة معانى الجميع فرض على الكفاية و على كل مسلم معرفة ما لابد منه و هؤلاء ذمهم الله لأنهم لا يعلمون معانى الكتاب إلا تلاوة و ليس عندهم إلا الظن و هذا يشبه قوله {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} هود 110 فإن قيل فقد قال بعض المفسرين {إِلَّا أَمَانِي} البقرة 78 إلا ما يقولونه بأفواههم كذبا و باطلا و روى هذا عن بعض السلف و إختاره الفراء و قال الأمانى الأكاذيب المفتعلة قال بعض العرب لابن دأب و هو يحدث أهذا شيء رويته أم تمنيته أي إفتعلته فأراد بالأمانى الأشياء التى كتبها علماءهم من قبل أنفسهم ثم أضافوها الى الله من تغيير صفة محمد صلى الله عليه و سلم و قال بعضهم الأمانى يتمنون على الله الباطل و الكذب كقولهم {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً} البقرة 80 و قولهم {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} البقرة 111 و قولهم {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} المائدة 18 و هذا أيضا يروى عن بعض السلف قيل كلا القولين ضعيف و الصواب الأول لأنه سبحانه قال {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي} البقرة 78 و هذا الإستثناء إما أن يكون متصلا أو منقطعا فإن كان متصلا لم يجز إستثناء الكذب و لا أمانى القلب من الكتاب و إن كان منقطعا فالإستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور و شبيها له من بعض الوجوه فهو من جنسه الذى لم يذكر فى اللفظ ليس من جنس المذكور و لهذا لا يصلح المنقطع حيث يصلح الإستثناء المفرغ و ذلك كقوله {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} الدخان 56 ثم قال {إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} الدخان 56 فهذا منقطع لأنه يحسن أن يقال لا يذوقون إلا الموتة الأولى و كذلك قوله تعالى {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنِ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ} النساء 29 لأنه يحسن أن يقال لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارة و قوله {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ} النساء 157 يصلح أن يقال و ما لهم إلا إتباع الظن فهنا لما قال {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي} البقرة 78 يحسن أن يقال لا يعلمونه إلا أمانى فإنهم يعلمونه تلاوة يقرأونها و يسمعونها و لا يحسن أن يقال لا يعلمون إلا ما تتمناه قلوبهم أو لا يعلمون إلا الكذب فإنهم كانوا يعلمون ما هو صدق أيضا فليس كل ما علموه من علمائهم كان كذبا بخلاف الذى لا يعقل معنى الكتاب فإنه لا يعلم إلا تلاوة و أيضا فهذه الأمانى الباطلة التى تمنوها بقلوبهم و قالوها بألسنتهم كقوله تعالى {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} البقرة 111 قد إشتراكوا فيها كلهم فلا يخص بالذم الأميون منهم و ليس لكونهم أميين مدخل فى الذم بهذه و لا لنفي العلم بالكتاب مدخل فى الذم بهذه بل الذم بهذه مما يعلم

أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل و لهذا لما ذم الله بها عمم و لم يخص فقال تعالى
 {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} البقرة 111 الآية و أيضا فإنه
 قال {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} البقرة 78 فدل على أنه ذمهم على نفي العلم و على أنه ليس معهم إلا الظن
 و هذا حال الجاهل بمعانى الكتاب لا حال من يعلم أنه يكذب فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين
 يقولون بأفواههم الكذب و الباطل و لو أريد ذلك لقليل لا يقولون إلا أمانى لم يقل لا يعلمون الكتاب إلا
 أمانى بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه و يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من
 الكتاب و ما هو من الكتاب و يقولون هو من عند الله و ما هو من عند الله و يكتبون الكتاب بأيديهم
 ليشتروا به ثمنا قليلا فهم يحرفون معانى الكتاب و هم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه و يكذبون فى
 لفظهم و خطهم و قد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لتتبعن سنن من
 كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلموه قالوا يا رسول الله اليهود و النصارى
 قال فمن و فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم قال لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها
 شبرا بشبر و ذراعا بذراع قالوا يا رسول الله فارس و الروم قال و من الناس إلا أولئك
 فهذا دليل على أن ما ذم الله به أهل الكتاب فى هذه الآية يكون فى هذه الأمة من يشبههم فيه و هذا حق
 قد شوهد قال تعالى {سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يُكْفِ بِرَبِّكَ
 أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} فصلت 53 فمن تدبر ما أخبر الله به و رسوله رأى أنه قد وقع من ذلك
 أمور كثيرة بل أكثر الأمور و دله ذلك على و قوع الباقي فصل فقد تبين أن الواجب طلب
 علم ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه و سلم من الكتاب و الحكمة و معرفة ما أراد بذلك كما
 كان على ذلك الصحابة و التابعون لهم بإحسان و من سلك سبيلهم فكل ما يحتاج الناس إليه فى دينهم
 فقد بينه الله و رسوله بيانا شافيا فكيف بأصول التوحيد و الإيمان ثم إذا عرف ما بينه الرسول نظر فى
 أقوال الناس و ما أرادوه بها فعرضت على الكتاب و السنة و العقل الصريح دائما موافق
 للرسول صلى الله عليه و سلم لا يخالفه قط فإن الميزان مع الكتاب و الله أنزل الكتاب بالحق و
 الميزان لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن
 معرفته و حاروا فيه لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه فالرسل صلوات الله و سلامه عليهم تخبر
 بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول فهذا سبيل الهدى و السنة و العلم و أما سبيل الضلال و
 البدعة و الجهل فعكس ذلك أن يبتدع بدعة برأى رجال و تأويلاتهم ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعا
 لها و يحرف ألفاظه و يتأول على و فق ما أصلوه و هؤلاء تجدهم فى نفس الأمر لا يعتمدون على
 ما جاء به الرسول و لا يتلقون الهدى منه و لكن ما و افقهم منه قبلوه و جعلوه حجة لا عمدة و ما
 خالفهم تأولوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أو فوضوه كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى و
 هؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول إما عجزا و إما تفريطا فإنه يحتاج الى مقدمتين أن الرسول
 قال كذا و أنه أراد به كذا أما الأولى فعامتهم لا يرتابون فى أنه جاء بالقرآن و إن كان من غلاة أهل
 البدع من يرتاب فى بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها و هم يظنون أن هذه رواها آحاد

يجوزون عليهم الكذب و الخطأ و لا يعرفون من كثرة طرقها و صفات رجالها و الأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث فإن هؤلاء يقطعون قطعاً يقينا بعمامة المتون الصحيحة التي في الصحيحين كما قد بسطناه في غير هذا الموضوع وأما المقدمة الثانية فإنهم لا يعرفون معانى القرآن و الحديث و منهم من يقول الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم و قد بسطنا الكلام على فساد ذلك في غير هذا الموضوع و كثير منهم إنما ينظر من تفسير القرآن و الحديث فيما يقوله موافقه على المذهب فيتأول تأويلاتهم فالنصوص التي توافقهم يحتجون بها و التي تخالفهم يتأولونها و كثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر إتباع نص أصلاً و هذا في البدع الكبار مثل الرافضة و الجهمية فإن الذي وضع الرفض كان زنديقاً ابتدأ تعدد الكذب الصريح الذي يعلم أنه كذب كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب و هم يعلمون ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ما إفتراه أولئك و هم في شك منه كما قال تعالى {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} الشورى 14 و كذلك الجهمية ليس معهم على نفي الصفات و علو الله على العرش و نحو ذلك نص أصلاً لا آية و لا حديث و لا أثر عن الصحابة بل الذي ابتدأ ذلك لم يكن قصده إتباع الأنبياء بل و وضع ذلك كما وضعت عبادة الأوثان و غير ذلك من أديان الكفار مع علمهم بأن ذلك مخالف للرسول كما ذكر عن مبدلة اليهود ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا أصل ذلك و هذا بخلاف بدعة الخوارج فإن أصلها ما فهموه من القرآن فغلطوا في فهمه و مقصودهم إتباع القرآن باطنياً و ظاهراً ليسوا زنادقة و كذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر و النهي و الوعد و الوعيد الذي جاءت به الرسل و يتبعون من القرآن ما دل على ذلك فعمرو ابن عبيد و أمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول صلى الله عليه و سلم كالذي ابتدع الرفض و كذلك الإرجاء إنما أحدثه قوم قصدهم جعل أهل القبلة كلهم مؤمنين ليسوا كفاراً قابلوا الخوارج و المعتزلة فصاروا في طرف آخر و كذلك التشيع المتوسط الذي مضمونه تفضيل علي و تقديمه على غيره و نحو ذلك لم يكن هذا من إحداث الزنادقة بخلاف دعوى النص فيه و العصمة فإن الذي ابتدع ذلك كان منافقاً زنديقاً و لهذا قال عبدالله بن المبارك و يوسف بن اسباط و غيرهما أصول البدع أربعة الشيعة و الخوارج و القدرية و المرجئة قالوا و الجهمية ليسوا من الثنتين و سبعين فرقة و كذلك ذكر أبو عبدالله بن حامد عن أصحاب أحمد في ذلك قولين هذا أحدهما و هذا أرادوا به التجهم المحض الذي كان عليه جهم نفسه و متبعوه عليه و هو نفي الأسماء مع نفي الصفات بحيث لا يسمى الله بشيء من أسمائه الحسنى و لا يسميه شيئاً و لا موجوداً و لا غير ذلك و إنما نقل عنه أنه كان يسميه قادراً لأن جميع الأسماء يسمى بها الخلق فزعم أنه يلزم منها التشبيه بخلاف القادر فإنه كان رأس الجبرية و عنده ليس للعبد قدرة و لا فعل و لا يسمى غير الله قادراً فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً و شر منه نفاة الأسماء و الصفات و هم الملاحدة من الفلاسفة و القرامطة و لهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود و النصارى و هؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين و سبعين فرقة و إذا أظهروا الإسلام فغايتهم أن يكونوا منافقين كالمنافقين

الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و أولئك كانوا أقرب الى الإسلام من هؤلاء فإنهم كانوا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة و هؤلاء قد يقولون برفعها فلا صوم و لا صلاة و لا حج و لا زكاة لكن قد يقال إن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء و أما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة و نحوهم الذين يتدينون بدين الإسلام باطنا و ظاهرا فهؤلاء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بلا ريب و كذلك من هو خير منهم كالكلابية و الكرامية و كذلك الشيعة المفضلين لعلي و من كان منهم يقول بالنص و العصمة مع إعتقاده نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باطنا و ظاهرا و ظنه أن ما هو عليه هو دين الإسلام فهؤلاء اهل ضلال و جهل ليسوا خارجين عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بل هم من الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعة و عامة هؤلاء ممن يتبع ما تشابه من القرآن إبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله كما أن من المنافقين و الكفار من يفعل ذلك و لهذا قال طائفة من المفسرين كالربيع بن أنس هم النصارى كنصاري نجران و قالت طائفة كالكلبي هم اليهود و قالت طائفة كابن جريج هم المنافقون و قالت طائفة كالحسن هم الخوارج و قالت طائفة كقتادة هم الخوارج و الشيعة و كان قتادة إذا قرأ هذه الآية { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ } آل عمران 7 يقول إن لم يكونوا الحرورية و السبائية فلا أدري من هم و السبائية نسبة الى عبدالله بن سبأ رأس الرافضة¹

معرفة معينة مخصوصة

انك تعلم انا لا نعلم ما غاب عنا الا بمعرفة ما شهدناه فنحن نعرف اشياء بحسنا الظاهر أو الباطن و تلك معرفة معينة مخصوصة ثم انا بعقولنا نعتبر الغائب بالشاهد فيبقى في اذهاننا قضايا عامة كلية ثم اذا خوطبنا بوصف ما غاب عنا لم نفهم ما قيل لنا الا بمعرفة المشهود لنا فلولا أنا نشهد من أنفسنا جوعا و عطشا و شيبا و ريبا و حبا و بغضا و لذة و ألما و رضى و سخطا لم نعرف حقيقة ما نخاطب به اذا وصف لنا ذلك و أخبرنا به عن غيرنا و كذلك لو لم نعلم ما فى الشاهد حياة و قدرة و علما و كلاما لم نفهم ما نخاطب به اذا وصف الغائب عنا بذلك و كذلك لو لم نشهد موجودا لم نعرف وجود الغائب عنا فلا بد فيما شهدناه و ما غاب عنا من قدر مشترك هو مسمى اللفظ المتواطىء في هذه الموافقة و المشاركة و المشتبهة و المواطأة نفهم الغائب و نثبتة و هذا خاصة العقل و لولا ذلك لم نعلم الا ما نحسه و لم نعلم أمورا عامة و لا أمورا غائبة عن أحساسنا الظاهرة و الباطنة ولهذا من لم يحس الشئ

¹ مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 358-449 و مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 69-71 و مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 35-38 و الجواب الصحيح ج: 4 ص: 72-73 و مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 234 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 415 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 448 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 329

ولا نظيره لم يعرف حقيقته ثم ان الله تعالى أخبرنا بما وعدنا به فى الدار الآخرة من النعيم والعذاب واخبرنا بما يؤكل ويشرب وينكح ويفرش وغير ذلك فلو لا معرفتنا بما يشبه ذلك فى الدنيا لم نفهم ما وعدنا به ونحن نعلم مع ذلك ان تلك الحقائق ليست مثل هذه حتى قال ابن عباس رضى الله عنه ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء وهذا تفسير قوله { وَأَنْتُمْ بِهِ مُتَشَابِهَاتٌ } البقرة 25 على أحد الأقوال فبين هذه الموجودات فى الدنيا وتلك الموجودات فى الآخرة مشابهة وموافقة واشتراك من بعض الوجوه وبه فهمنا المراد واحبيناه ورجبنا فيه أو أبغضناه ونفرنا عنه وبينهما مباينة ومفاضلة لا يقدر قدرها فى الدنيا وهذا من التأويل الذى لا نعلمه نحن بل يعلمه الله تعالى ولهذا كان قول من قال ان المتشابه لا يعلم تأويله الا الله حقا وقول من قال ان الراسخين فى العلم يعلمون تأويله حقا وكلا القولين مأثور عن السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان فالذين قالوا انهم يعلمون تأويله مرادهم بذلك أنهم يعلمون تفسيره ومعناه والا فهل يحل لمسلم أن يقول أن النبى ما كان يعرف معنى ما يقوله ويبلغه من الآيات والاحاديث بل كان يتكلم بألفاظ لها معان لا يعرف معانيها ومن قال انهم لا يعرفون تأويله ارادوا به الكيفية الثابتة التى اختص الله بعلمها ولهذا كان السلف كربيعة ومالك بن أنس وغيرهما يقولون الاستواء معلوم والكيف مجهول وهذا قول سائر السلف كابن الماجشون والامام أحمد بن حنبل وغيرهم وفى غير ذلك من الصفات فمعنى الاستواء معلوم وهو التأويل والتفسير الذى يعلمه الراسخون والكيفية هى التأويل المجهول لبنى آدم وغيرهم الذى لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى وكذلك ما وعد به فى الجنة تعلم العباد تفسير ما أخبر الله به وأما كيفيته فقد قال تعالى { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } السجدة 17 وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى اعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فما اخبرنا الله به من صفات المخلوقين نعلم تفسيره ومعناه ونفهم الكلام الذى خوطبنا به ونعلم معنى العسل واللحم واللبن والحريير والذهب والفضة ونفرق بين مسميات هذه الأسماء واما حقائقها على ما هي عليه فلا يمكن ان نعلمها نحن ولا نعلم متى تكون الساعة وتفصيل ما اعد الله عز وجل لعباده لا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل بل هذا من التأويل الذى لا يعلمه الا الله تبارك وتعالى فاذا كان هذا فى هذين المخلوقين فالأمر بين الخالق والمخلوق اعظم فان مباينة الله لخلقه وعظمته وكبريائه وفضله اعظم واكبر مما بين مخلوق ومخلوق فاذا كانت صفات ذلك المخلوق مع مشابهتها لصفات هذا المخلوق بينهما من التفاضل والتباين ما لا نعلمه فى الدنيا ولا يمكن أن نعلمه بل هو من التأويل الذى لا يعلمه الا الله تبارك وتعالى فصفات الخالق عز وجل أولى أن يكون بينها وبين صفات المخلوق من التباين والتفاضل ما لا يعلمه الا الله تبارك وتعالى وأن يكون هذا من التأويل الذى لا يعلمه كل أحد بل منه ما يعلمه الراسخون ومنه ما يعلمه الانبياء والملائكة ومنه ما لا يعلمه الا الله كما روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال ان التفسير على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير تعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله من ادعى علمه فهو كاذب ولفظ

التأويل في كلام السلف لا يراد به الا التفسير أو الحقيقة الموجودة في الخارج التي يؤول اليها كما في قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } الأعراف 53 واما استعمال التأويل بمعنى أنه صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به أو متأخر أو لمطلق الدليل فهذا اصطلاح بعض المتأخرين ولم يكن في لفظ أحد من السلف ما يراد منه بالتأويل هذا المعنى ثم لما شاع هذا بين المتأخرين صاروا يظنون ان هذا هو التأويل في قوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7 ثم طائفة تقول لا يعلمه الا الله وقالت طائفة بل يعلمه الراسخون وكلتا الطائفتين غالطة فان هذا لا حقيقة له بل هو باطل والله يعلم انتفائه وانه لم يردده وهذا مثل تأويلات القرامطة الباطنية والجهمية وغيرهم من أهل الالحاد والبدع وتلك التأويلات باطلة والله لم يرددها بكلامه وما لم يردده لا نقول أنه يعلم أنه مراده فان هذا كذب على الله عز وجل والراسخون في العلم لا يقولون على الله تبارك وتعالى الكذب وان كنا مع ذلك قد علمنا بطريق خبر الله عز وجل عن نفسه بل وبطريق الاعتبار أن الله المثل الاعلى ان الله يوصف بصفات الكمال موصوف بالحياة والعلم والقدرة وهذه صفات كمال والخالق أحق بها من المخلوق فيمتنع أن يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ولولا أن هذه الاسماء والصفات تدل على معنى مشترك كلى يقتضى من المواطأة والموافقة والمشابهة ما به تفهم وتثبت هذه المعانى لله لم نكن قد عرفنا عن الله شيئا ولا صار في قلوبنا ايمان به ولا علم ولا معرفة ولا محبة ولا ارادة لعبادته ودعائه وسؤاله ومحبته وتعظيمه فان جميع هذه الامور لا تكون الا مع العلم ولا يمكن العلم الا باثبات تلك المعانى التي فيها من الموافقة والمواطأة ما به حصل لنا ما حصل من العلم لما غاب عن شهودنا ومن فهم هذه الحقائق الشريفة والقواعد الجليلة النافعة حصل له من العلم والمعرفة والتحقيق والتوحيد والايمان وانجاب عنه من الشبه والضلال والحيرة ما يصير به في هذا الباب من افضل الذين انعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ومن سادة أهل العلم والايمان وتبين له أن القول في بعض صفات الله كالقول في سائرهما وان القول في صفاته كالقول في ذاته وان من أثبت صفة دون صفة مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مع مشاركة أحدهما الاخرى فيما به نفاها كان متناقضا فمن نفى النزول والاستواء أو الرضى والغضب أو العلم والقدرة أو اسم العليم أو القدير أو اسم الموجود فرارا بزعمه من تشبيه وتركيب وتجسيم فانه يلزمه فيما أثبته نظير ما ألزمه لغيره فيما نفاه هو واثبت المثبت فكل ما يستدل به على نفى النزول والإستواء والرضى والغضب يمكن منازعة أن يستدل بنظيره على نفى الارادة والسمع والبصر والقدرة والعلم وكل ما يستدل به على نفى القدرة والعلم والسمع والبصر يمكن منازعه أن يستدل بنظيره على نفى العليم والقدير والسميع والبصير وكل ما يستدل به على نفى هذه الاسماء يمكن منازعه أن يستدل به على نفى الموجود والواجب ومن المعلوم بالضرورة أنه لا بد من موجود قديم واجب بنفسه يمتنع عليه العدم فان الموجود اما ممكن ومحدث واما واجب وقديم

والممكن المحدث لا يوجد الا بواجب قديم فاذا كان ما يستدل به على نفي الصفات الثابتة يستلزم نفي الموجود الواجب القديم ونفي ذلك يستلزم نفي الموجود مطلقا علم أن من عطل شيئا من الصفات الثابتة بمثل هذا الدليل كان قوله مستلزما تعطيل الموجود المشهود ومثال ذلك أنه اذا قال النزول والاستواء ونحو ذلك من صفات الاجسام فانه لا يعقل النزول والاستواء الا لجسم مركب والله سبحانه منزّه عن هذه اللوازم فيلزم تنزيهه عن الملزوم أو قال هذه حادثة والحوادث لا تقوم الا بجسم مركب وكذلك اذا قال الرضا والغضب والفرح والمحبة ونحو ذلك هو من صفات الاجسام فانه يقال له وكذلك الارادة والسمع والبصر والعلم والقدرة من صفات الاجسام فانا كما لا نعقل ما ينزل ويستوى ويغضب ويرضى الا جسما لم نعقل ما يسمع ويبصر ويريد ويعلم ويقدر الا جسما فاذا قيل سمعه ليس كسمعنا وبصره ليس كبصرنا و ارادته ليست كرادتنا وكذلك علمه وقدرته قيل له وكذلك رضاه ليس كرضانا وغضبه ليس كغضبنا وفرحه ليس كفرحنا ونزوله واستواؤه ليس كنزولنا واستوائنا فاذا قال لا يعقل في الشاهد غضب الا غليان دم القلب لطلب الانتقام ولا يعقل نزول الا الانتقال والانتقال يقتضى تفريغ حيز وشغل آخر فلو كان ينزل لم يبق فوق العرش رب قيل ولا يعقل في الشاهد ارادة الا ميل القلب الى جلب ما يحتاج اليه وينفعه ويفتقر فيه الى ما سواه ودفع ما يضره والله سبحانه وتعالى كما أخبر عن نفسه المقدسة في حديثه الالهى يا عبادى انكم لن تبلغوا نفعى فتنفَعونى ولن تبلغوا ضرى فتَضرونى فهو منزّه عن الارادة التى لا يعقل فى الشاهد الا هى وكذلك السمع لا يعقل فى الشاهد الا بدخول صوت فى الصماخ وذلك لا يكون الا فى أجوف والله سبحانه أحد صمد منزّه عن مثل ذلك بل وكذلك البصر والكلام لا يعقل فى الشاهد الا فى محل اجوف والله سبحانه أحد صمد منزّه عن ذلك قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وخلق من السلف الصمد الذى لا جوف له وقال آخرون هو السيد الذى كمل فى سؤده وكلا القولين حق فان لفظ الصمد فى اللغة يتناول هذا وهذا والصمد فى اللغة السيد والصمد أيضا المصمد والمصمد المصمت وكلاهما معروف فى اللغة¹

" ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها "

قوله { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 فإن الله تعالى أمر الرسول بالبلاغ المبين وهو أطوع الناس لربه فلا بد أن يكون قد بلغ البلاغ المبين ومع البلاغ المبين لا يكون بيانه ملتبسا مدلسا والآيات التي ذكر الله فيها أنها متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله إنما نفي عن غيره علم تأويلها لا علم تفسيرها ومعناها والله تعالى قد أمرنا أن نتدبر القرآن وأخبر أنه أنزله لنعقله ولا يكون التدبر والعقل إلا لكلام بين المتكلم

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 347-353

مراده به فأما من تكلم بلفظ يحتمل معاني كثيرة ولم يبين مراده منها فهذا لا يمكن أن يتدبر كلامه ولا يعقل ولهذا تجد عامة الذين يزعمون أن كلام الله يحتمل وجوها كثيرة وأنه لم يبين مراده من ذلك قد اشتمل كلامهم من الباطل على ما لا يعلمه إلا الله بل في كلامهم من الكذب في السمعيات نظير ما فيه من الكذب في العقليات وإن كانوا لم يتعمدوا الكذب كالمحدث الذي يغلط في حديثه خطأ بل منتهى أمرهم القرمطة في السمعيات والسفسطة في العقليات وهذان النوعان مجمع الكذب والبهتان¹

لا ريب أنه يجب الإيمان بكل ما أخبر به الرسول و تصديقه فيما أخبر به و إن كان الشخص لم يفقه بالعربية ما قال ولا فهم من الكلام شيئاً فضلاً عن العرب فلا يشترط في الإيمان المجمل العلم بمعنى كل ما أخبر به هذا لا ريب فيه فكل من اشتبه عليه آية من القرآن و لم يعرف معناها و جب عليه الإيمان بها و أن يكل علمها إلى الله فيقول الله أعلم و هذا متفق عليه بين السلف و الخلف فما زال كثير من الصحابة يمر بأية و لفظ لا يفهمه فيؤمن به و إن لم يفهم معناه لكن هل يكون في القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس بل و لا الرسول عند من يجعل التأويل هو معنى الآية و يقول إنه لا يعلمه إلا الله فيلزم أن يكون في القرآن كلام لا يفهمه لا الرسول و لا أحد من الأمة بل ولا جبريل هذا هو الذي يلزم على قول من يجعل معاني هذه الآيات لا يفهمه أحد من الناس وليس هذا بمنزلة ما ذكر في الملائكة و النبيين و الجنة فإننا قد فهمنا الكلام الذي خوطبنا به و أنه يدل على أن هناك نعماً لا نعلمه و هذا خطاب مفهوم و فيه إخبارنا أن من المخلوقات ما لا نعلمه و هذا حق كقوله {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} المدثر 31 و قوله لما سأله عن الروح {وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} الإسراء 85 فهذا فيه إخبارنا بأن الله مخلوقات لا نعلمها أو نعلم جنسهم و لا نعلم قدرهم أو نعلم بعض صفاتهم دون بعض و كل هذا حق لكن ليس فيه أن الخطاب المنزل الذي أمرنا بتدبره لا يفقه و لا يفهم معناه لا الرسول و لا المؤمنون فهذا هو المنكر الذي أنكره العلماء فإن الله قال {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} الزخرف 3 و قال {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} محمد 24 و قال {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} المؤمنون 68 و قال {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهُوَاءَهُمْ} محمد 16 و فرق بين ما لم يخبر به أو أخبرنا ببعض صفاته دون بعض فما لم يخبر به لا يضرنا أن لا نعلمه و بين ما أخبرنا به وهو الكلام العربي الذي جعل هدى و شفاء للناس و قال الحسن ما أنزل الله آية إلا و هو يحب أن يعلم فيما أنزلت و ما عنى بها²

¹مجموع الفتاوى ج : 16 ص : 410-411

²درء التعارض ج: 1 ص: 278-279

أن يقال غاية ما ينتهي إليه هؤلاء المعارضون لكلام الله ورسوله بأرائهم من المشهورين بالإسلام هو التأويل أو التفويض فأما الذين ينتهون إلى أن يقولوا الأنبياء أو هموا وخيلوا ما لا حقيقة له في نفس الأمر فهؤلاء معروفون عند المسلمين بالإلحاد والزندقة والتأويل المقبول هو ما دل على مراد المتكلم والتأويلات التي يذكرونها لا يعلم أن الرسول أرادها بل يعلم بالإضطرار في عامة النصوص أن المراد منها نقيض ما قاله الرسول كما يعلم مثل ذلك في تأويلات القرامطة والباطنية من غير أن يحتاج ذلك إلى دليل خاص وحينئذ فالتأويل إن لم يكن مقصوده معرفة مراد المتكلم كان تأويله للفظ بما يحتمله من حيث الجملة في كلام من تكلم بمثله من العرب هو من باب التحريف والإلحاد لا من باب التفسير وبيان المراد وأما التفويض فإن من المعلوم أن الله تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله وأيضا فالخطاب الذي أريد به هدايتنا والبيان لنا وإخراجنا من الظلمات إلى النور إذا كان ما ذكر فيه من النصوص ظاهره باطل وكفر ولم يرد منا أن نعرف لا ظاهره ولا باطنه أو أريد منا أن نعرف باطنه من غير بيان في الخطاب لذلك فعلى التقديرين لم نخاطب بما بين فيه الحق ولا عرفنا أن مدلول هذا الخطاب باطل وكفر وحقيقة قول هؤلاء في المخاطب لنا أنه لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقه وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه بل دل ظاهره على الكفر والباطل وأراد منا أن لا نفهم منه شيئا أو أن نفهم منه ما لا دليل عليه فيه وهذا كله مما يعلم بالإضطرار تنزيه الله ورسوله عنه وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد وبهذا احتج الملاحدة كابن سينا وغيره على مثبتي المعاد وقالوا القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص التشبيه والتجسيم وزعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين ما الأمر عليه في نفسه لا في العلم بالله تعالى ولا باليوم الآخر فكان الذي استطلوا به على هؤلاء هو موافقتهم لهم على نفي الصفات وإلا فلو آمنوا بالكتاب كله حق الإيمان لبطلت معارضتهم ودحضت حجتهم وأيضا فالخطاب الذي أريد به هدايتنا والبيان لنا وإخراجنا من الظلمات إلى النور إذا كان ما ذكر فيه من النصوص ظاهره باطل وكفر ولم يرد منا أن نعرف لا ظاهره ولا باطنه أو أريد منا أن نعرف باطنه من غير بيان في الخطاب لذلك فعلى التقديرين لم نخاطب بما بين فيه الحق ولا عرفنا أن مدلول هذا الخطاب باطل وكفر وحقيقة قول هؤلاء في المخاطب لنا أنه لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقه وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه بل دل ظاهره على الكفر والباطل وأراد منا أن لا نفهم منه شيئا أو أن نفهم منه ما لا دليل عليه فيه وهذا كله مما يعلم بالإضطرار تنزيه الله ورسوله عنه وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد وبهذا احتج الملاحدة كابن سينا وغيره على مثبتي المعاد وقالوا القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص التشبيه والتجسيم وزعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين ما الأمر عليه في نفسه لا في العلم بالله تعالى ولا باليوم الآخر فكان الذي استطلوا به على هؤلاء هو موافقتهم لهم على نفي الصفات وإلا فلو آمنوا بالكتاب كله حق الإيمان لبطلت معارضتهم ودحضت حجتهم ولهذا كان ابن النفيس

المتطيب الفاضل يقول ليس إلا مذهبان مذهب أهل الحديث أو مذهب الفلاسفة فأما هؤلاء المتكلمون فقولهم ظاهر التناقض والإختلاف يعني أن أهل الحديث أثبتوا كل ما جاء به الرسول وأولئك جعلوا الجميع تخييلا وتوهيما ومعلوم بالأدلة الكثيرة السمعية والعقلية فساد مذهب هؤلاء الملاحدة فتعين أن يكون الحق مذهب السلف أهل الحديث والسنة والجماعة ثم إن ابن سينا وأمثاله من الباطنية المتفلسفة والقرامطة يقولون إنه أراد من المخاطبين أن يفهموا الأمر على خلاف ما هو عليه وأن يعتقدوا ما لا حقيقة له في الخارج لما في هذا التخييل والإعتقاد الفاسد لهم من المصلحة والجهمية والمعتزلة وأمثالهم يقولون إنه أراد أن يعتقدوا الحق على ما هو عليه مع علمهم بأنه لم يبين ذلك في الكتاب والسنة بل النصوص تدل على نقيض ذلك فأولئك يقولون أراد منهم اعتقاد الباطل وأمرهم به وهؤلاء يقولون أراد اعتقاد ما لم يدلهم إلا على نقيضه والمؤمن يعلم بالإضطرار أن كلا القولين باطل ولا بد للنفاة أهل التأويل من هذا أو هذا وإذا كان كلاهما باطلا كان تأويل النفاة للنصوص باطلا فيكون نقيضة حقا وهو إقرار الأدلة الشرعية على مدلولاتها ومن خرج عن ذلك لزمه من الفساد ما لا يقوله إلا أهل الإلحاد وما ذكرناه من لوازم قول أهل التفويض هو لازم لقولهم الظاهر المعروف بينهم إذ قالوا إن الرسول كان يعلم معاني هذه النصوص المشككة المتشابهة ولكن لم يبين للناس مراده بها ولا أوضحه إيضاها يقطع به النزاع وأما على قول أكابرهم إن معاني هذه النصوص المشككة المتشابهة لا يعلمه إلا الله وأن معناها الذي أراده الله بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها فعلى قول هؤلاء يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص ولا الملائكة ولا السابقون الأولون وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن أو كثير مما وصف الله به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه بل يقولون كلاما لا يعقلون معناه وكذلك نصوص المثبتين للقدر عند طائفة والنصوص المثبتة للأمر والنهي والوعد والوعيد عند طائفة والنصوص المثبتة للمعاد عند طائفة ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء إذ كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدى وبيانا للناس وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين وأن يبين للناس ما نزل إليهم وأمر بتدبر القرآن وعقله ومع هذا فأشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته أو عن كونه خالقا لكل شيء وهو بكل شيء عليم أو عن كونه أمر ونهى ووعد وتوعد أو عما أخبر به عن اليوم الآخر لا يعلم أحد معناه فلا يعقل ولا يتدبر ولا يكون الرسول بين للناس ما نزل إليهم ولا بلغ البلاغ المبين وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع الحق في نفس الأمر ما علمته برأبي وعقلي وليس في النصوص ما يناقض ذلك لأن تلك النصوص مشككة متشابهة لا يعلم أحد معناها وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به فيبقى هذا الكلام سدا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء وفتحا لباب من يعارضهم ويقول إن الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء لأننا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية والأنبياء لم يعلموا ما يقولون فضلا عن أن يبينوا مرادهم فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد فإن قيل أنتم تعلمون أن كثيرا من السلف رأوا أن الوقف عند قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7 بل كثير

من الناس يقول هذا هو قول السلف ونقلوا هذا القول عن أبي بن كعب وابن مسعود وعائشة وابن عباس وعروة بن الزبير وغير واحد من السلف والخلف وإن كان القول الآخر وهو أن السلف يعلمون تأويله منقولاً عن ابن عباس أيضاً وهو قول مجاهد ومحمد بن جعفر وابن إسحاق وابن قتيبة وغيرهم وما ذكرتموه قدح في أولئك السلف وأتباعهم قيل ليس الأمر كذلك فإن أولئك السلف الذين قالوا لا يعلم تأويله إلا الله كانوا يتكلمون بلغتهم المعروفة بينهم ولم يكن لفظ التأويل عندهم يراد به معنى التأويل الإصطلاحي الخاص وهو صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه المفهوم منه إلى معنى يخالف ذلك فإن تسمية هذا المعنى وحده تأويلاً إنما هو اصطلاح طائفة من المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم ليس هو عرف السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم لا سيما ومن يقول إن لفظ التأويل هذا معناه يقول إنه يحمل اللفظ على المعنى المرجوح لدليل يقترب به وهؤلاء يقولون هذا المعنى المرجوح لا يعلمه أحد من الخلق والمعنى الراجح لم يرده الله وإنما كان لفظ التأويل في عرف السلف يراد به ما أراده الله بلفظ التأويل في مثل قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ } الأعراف 53 وقال { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } يونس 39 وقال تعالى { ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء 59 وقال يوسف { يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ } يوسف 100 وقال يعقوب له { وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } يوسف 6 وقال { وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } يوسف 45 وقال يوسف { لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } يوسف 37 فتأويل الكلام الطلبي الأمر والنهي هو نفس فعل المأمور به وترك المنهى عنه كما قال سفيان بن عيينة السنة تأويل الأمر والنهي وقالت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك الله اغفر لي يتأول القرآن وقيل لعروة بن الزبير فما بال عائشة كانت تصلي في السفر أربعاً قال تأولت كما تأول عثمان ونظائره متعددة وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التي أخبر عنها وذلك في حق الله هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره ولهذا قال مالك وربيعه وغيرهما الإستواء معلوم والكيف مجهول وكذلك قال ابن الماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما من السلف يقولون إننا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وإن علمنا تفسيره ومعناه ولهذا رد أحمد بن حنبل على الجهمية والزنادقة فيما طعنوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله فرد على من حمله على غير ما أريد به وفسر هو جميع الآيات المتشابهة وبين المراد بها وكذلك الصحابة والتابعون فسروا جميع القرآن وكانوا يقولون إن العلماء يعلمون تفسيره وما أريد به وإن لم يعلموا كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وكذلك لا يعلمون كيفية الغيب فإن ما أعده الله لأولياته من النعيم لا عين رأت ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر فذاك الذي أخبر به لا يعلمه إلا الله فمن قال من السلف إن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله بهذا المعنى فهذا حق وأما من قال إن التأويل الذي هو تفسيره وبيان المراد به لا يعلمه إلا الله فهذا ينافي فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله وقالوا إنهم يعلمون معناه كما قال مجاهد عرضت المصحف على ابن

عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها وقال ابن مسعود ما في كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فيم أنزلت وقال الحسن البصري ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها ولهذا كانوا يجعلون القرآن يحيط بكل ما يطلب من علم الدين كما قال مسروق ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن علمنا قصر عنه¹

ذم الله الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات

ذم الله أهل الكتاب و عاب الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات و الهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب و قال { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } البقرة 140 و هذه حال أهل الكتاب في كتمان ما في كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم و يجعلها بعضهم متشابهة و هي دلائل على نبوة محمد صلى الله عليه و سلم و غير ذلك فإن ألفاظ التوراة و الإنجيل و سائر كتب الأنبياء و هي بضع وعشرون كتابا عند أهل الكتاب لا يمكنهم جحد ألفاظها لكن يحرفونها بالتأويل الباطل و يكتمون معانيها الصحيحة عن عامتهم كما قال تعالى { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي } البقرة 78 فمن جعل أهل القرآن كذلك و أمرهم أن يكونوا فيه أميين لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة فقد أمرهم بنظير ما ذم الله عليه أهل الكتاب و صبيغ بن عسل التميمي إنما ضربه عمر لأنه قصد باتباع المتشابهة إبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله و هؤلاء الذين عابهم الله في كتابه لأنهم جمعوا شيئين سوء القصد و الجهل فهم لا يفهمون معناه و يريدون أن يضربوا كتاب الله بعضه ببعض ليقعوا بذلك الشبهة و الشك و في الصحيح عن عائشة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم فهذا فعل من يعارض النصوص بعضها ببعض ليقع الفتنة و هي الشك و الريب في القلوب كما روى أنه خرج على القوم و هم يتجادلون في القدر هؤلاء يقولون ألم يقل الله كذا و هؤلاء يقولون ألم يقل الله كذا فكأنما فقىء في و جهه حب الرمان ثم قال أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض أنظروا ما أمرتم به فافعلوه فكل من إتبع المتشابهة على هذا الوجه فهو مذموم و هو حال من يريد أن يشكك الناس فيما علموه لكونه و إياهم لم يفهموا ماتوهموا أنه يعارضه هذا أصل الفتنة أن يترك المعلوم لغير معلوم كالسفسطة التي تورث شبهة يقدر بها فيما علم و تيقن فهذه حال من يفسد قلوب الناس و عقولهم بإفساد ما فيها من العلم و العمل أصل الهدى فإذا شككهم فيما علموه بقوا حيارى و الرسول صلى الله عليه و سلم قد أتى بالآيات البينات الدالة على صدقه و القرآن فيه الآيات المحكمات اللاتي هي أم الكتاب قد علم معناها و علم أنها حق و بذلك يهتدي الخلق و ينتفعون فمن اتبع المتشابهة ابتغى الفتنة و ابتغى تأويله و الأول قصدهم فيه فاسد و الثاني ليسوا من أهله بل يتكلمون في تأويله بما يفسد معناه إذ كانوا ليسوا

¹درء التعارض ج: 1 ص: 201-211

من الراسخين في العلم و إنما الراسخ في العلم الذي رسخ في العلم بمعنى المحكم و صار ثابتاً فيه لا يشك و لا يرتاب فيه بما يعارضه من المتشابه بل هو مؤمن به قد يعلمون تأويل المتشابه و أما من لم يرسخ في ذلك بل إذا عارضه المتشابه شك فيه فهذا يجوز أن يراد بالمتشابه ما يناقض المحكم فلا يعلم معنى المتشابه إذ لم يرسخ في العلم بالمحكم و هو يبتغي الفتنة في هذا و هذا فهذا يعاقب عقوبة تردعه كما فعل عمر بصبيغ و أما من قصده الهدى و الحق فليس من هؤلاء و قد كان عمر يسأل و يسأل عن معاني الآيات الدقيقة و قد سأل أصحابه عن قوله {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} النصر 1 فذكروا ظاهر لفظها و لما فسرهما ابن عباس بأنها إعلام النبي صلى الله عليه و سلم بقرب و فاتة قال ما أعلم منها إلا ما تعلم و هذا باطن الآية الموافق لظاهرها فإنه لما أمر بالإستغفار عند ظهور الدين و الإستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال و بظهور الدين حصل مقصود الرسالة علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور آخر و فوق كل ذي علم عليم و الإستدلال على الشيء بملزوماته و الشيء قد يكون له لازم و للزومه لازم و هلم جرا فمن الناس من يكون أفطن بمعرفة اللوازم من غيره يستدل بالملزوم على اللازم و من الناس من لا يتصور اللازم و لو صوره لم يعرف الملزوم بل يقول يجوز أن يلزم و يجوز أن لا يلزم و يحتمل و يحتمل و تردد الإحتمل هو من عدم العلم و إلا فالواقع هو أحد أمرين فحيث كان إحتمال بلا ترجيح كان لعدم العلم بالواقع و خفاء دليله و غيره قد يعلم ذلك و يعلم دليله و من ظن أن ما لا يعلمه هو لا يعلمه غيره كان من جهله فلا ينفي عن الناس إلا ما علم إنتفاؤه عنهم و فوق كل ذي علم عليم أعلم منه حتى ينتهي الأمر إلى الله تعالى و هذا قد بسط في مواضع ثم أنهم يقولون المأثور عن السلف هو السكوت عن الخوض في تأويل ذلك و المصير إلى الإيمان بظاهره و الوقوف عن تفسيره لأننا قد نهينا أن نقول في كتاب الله برأينا و لم ينبهنا الله و رسوله على حقيقة معنى ذلك فيقال أما كون الرجل يسكت عما لا يعلم فهذا مما يؤمر به كل أحد لكن هذا الكلام يقتضى أنهم لم يعلموا معنى الآية و تفسيرها و تأويلها و إذا كان لم يتبين لهم فمضمونه عدم علمهم بذلك و هو كلام شك لا يعلم ما أريد بالآية ثم إذا ذكر لهم بعض التأويلات كتأويل من يفسره بإتيان أمره و قدرته أبطلوا ذلك بأن هذا يسقط فائدة التخصيص و هذا نفي للتأويل و إبطال له فإذا قالوا مع ذلك و لا يعلم تأويله إلا الله أثبتوا تأويلاً لا يعلمه إلا الله و هم ينفون جنس التأويل و نقول ما الحامل على هذا التأويل البعيد و قد أمكن بدونه أن نثبت إتياننا و مجيئنا لا يعقل كما يليق به كما أثبتنا ذاتاً لها حقيقة لا تعقل و صفات من سمع و بصر و غير ذلك لا تعقل ولأنه إذا جاز تأويل هذا و أن نقدر مضمراً محذوفاً من قدرة أو عذاب و نحو ذلك فما منعكم من تأويل قوله ترون ربكم كذلك و هذا كلام في إبطال التأويل و حمل للفظ على ما دل عليه ظاهره على ما يليق بجلال الله فإذا قيل مع هذا إن له تأويلاً لا يعلمه إلا الله و أريد بالتأويل هذا الجنس كان تناقضاً كيف ينفي جنس التأويل و يثبت له تأويل لا يعلمه إلا الله فعلم أن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله لا يناقض حمله على ما دل عليه اللفظ بل هو أمر آخر يحقق هذا و يوافق لا يناقضه و يخالفه كما قال مالك الإستواء معلوم و الكيف مجهول و إذا كان

كذلك أمكن أن من العلماء من يعلم من معنى الآية ما يوافق القرآن لم يعلمه غيره و يكون ذلك من تفسيرها و هو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم كمن يعلم أن المراد بالآية مجيء الله قطعا لا شك في ذلك لكثرة ما دل عنده على ذلك و يعلم مع ذلك أنه العلى الأعلى يأتي إتيانا تكون المخلوقات محيطة به و هو تحتها فإن هذا مناقض لكونه العلى الأعلى و الجد الأعلى أبو عبد الله رحمه الله قد جرى في تفسيره على ما ذكر من الطريقة و هذه عادته و عادات غيره¹

كان السلف ينكرون التأويلات التي تخرج الكلام عن مراد الله ورسوله

فإن البدعة ما لم يشره الله من الدين فكل من دان بشئ لم يشره الله فذاك بدعة وإن كان متأولا فيه وهذا موجود من جميع أهل التأويل المفترقين من الأولين والآخرين فإنهم إذا رأوا ما فعلوا مأمورا به ولم يكن كذلك فليس ما فعلوه سنة بل هو بدعة متأولة مجتهد فيها من المنافقين سواء كانت في الدنيا أو في الدين كما قال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا} آل عمران 7 وتجد أئمة أهل العلم من أهل البدعة والفرقة من أهل الإيمان والنفاق يصنفون لأهل السيف والمال من الملوك والوزراء في ذلك ويتقربون إليهم بالتصنيف فيما يوافقهم²

فالذين في قلوبهم زيغ يدعون النصوص المحكمة الصريحة البينة الواضحة التي لا تحتمل إلا معنى واحدا ويتمسكون بالمتشابه المحتمل وإن كان فيه ما يدل على خلاف مرادهم كما قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ} آل عمران 7 فالذين في قلوبهم زيغ اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله³

وكثير من المنتسبين إلى السنة وغيرهم ظنوا أن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو معنى الكلام الذي أنزل القرآن لبيانه فصاروا يجعلون كثيرا من القرآن كلاما خوطب به الناس وأنزل إليهم وأمروا بتلاوته وتدبره وهو كلام لا يفهم معناه ولا سبيل إلى معرفة مراد المتكلم به وقد يحكى عن بعضهم أنه سمع كلام لا معنى له في نفس الأمر كما حكى الرازي في محصولة عن سماهم

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 415-420

²الاستقامة ج: 1 ص: 43

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 125 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 87

بحشوية أنهم قالوا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعني به شيئاً لكن هذا القول لا أعرف به قائلاً بل لم يقل هذا أحد من طوائف المسلمين ولهذا كنا مرة في مجلس فجرت هذه المسألة فقلت هذا لم يقله أحد من طوائف المسلمين وإن كان أحد ذكره فليس فيما ذكره حجة على إبطاله فقال بعض الذابيين عنه هذا قالته الكرامية فقلت هذا لم يقله لا كرامي ولا غير كرامي ولا أحد من أهل المذاهب الأربعة ولا غيرهم وبتقدير أن يكون قولاً فإنما احتج على فساده بأن هذا عبث والعبث على الله محال وهذه الحجة فاسدة على أصله لأن النزاع إنما هو في الحروف المؤلفة هل يجوز أن ينزل حروفاً لا معنى لها والحروف عنده من المخلوقات وعنده يجوز أن يخلق الله كل شيء لأن فعله لا يتوقف على الحكمة والمصلحة فليس فيما ذكره حجة على بطلان هذا وإنما النزاع المشهور هل يجوز أن ينزل الله تعالى ما لا يفهم معناه والرازي ممن يجوز هذا في أحد قوليه ووافق من قال أن التأويل لا يعلمه إلا الله مع قولهم أن التأويل هو المعنى وأصل الخطأ في هذا أن لفظ التأويل مجمل يراد به ما يؤول إليه الكلام فتأويل الخبر نفس المخبر عنه وتأويل أسماء الله وصفاته نفسه المقدسة بما لها من صفات الكمال ويراد بالتفسير التأويل وهو بيان المعنى المراد وإن لم نعلم كيفيته وكنهه كما أنا نعلم أن في الجنة خمراً ولبناً وماء وعسلاً وذهباً وحريراً وغير ذلك وإن كنا لا نعرف كيفية ذلك ويعلم أن كيفيته مخالفة لكيفية الموجود في الدنيا ويراد بلفظ التأويل صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح إلى الإحتمال المرجوح وهذا لا يوجد الخطاب به إلا في اصطلاح المتأخرين وأما خطاب الصحابة والتابعين فإنما يوجد فيه الأولان ولهذا قال أكثرهم أن الوقف على قوله **{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ }** **{ آل عمران 7 }** بناء على أن التأويل هو ما استأثر الله بعلمه وهو الكيف الذي لا نعلمه نحن كما قال الإمام مالك الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وكذلك سائر الأئمة قولهم مثل قول مالك ينفون علم الخلق بالكيف وعلمهم بالحكمة فلا يقولون في صفاته كيف ولا في أفعاله لم لأنهم لا يعلمون كيفية صفاته ولا لمية أفعاله وكثير من المتأخرين نفوا ثبوت ذلك في نفس الأمر لم ينفوا علم المخلوق به فالأولون يقولون لا تجري ماهيته في مقال ولا تخطر كيفيته ببال ويقولون منع الخلق أن يتفكروا في ماهية ذاته كما يقول مثل ذلك أبو محمد بن أبي زيد والشريف أبو علي بن أبي موسى وأبو الفرج المقدسي وغيرهم وكلام السلف كله موافق لقول هؤلاء كما في كلام عبدالعزيز بن الماجشون نظير مالك بالمدينة قال أما بعد فقد فهمت ما سألت عنه فيما تتباعت الجهمية ومن خلفها في صفة الرب العظيم الذي فاتت عظمتها الوصف والتقدير وكلت الألسن عن تفسير صفته وانحسرت العقول دون معرفة قدره إلى أن قال فأما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو فكيف يعرف والذين نازعواهم من المتأخرين قالوا لا ماهية فتجري في مقال ولا كيفية له فتخطر ببال والنزاع موجود في أصحاب الأئمة الأربعة والمقصود هنا أن السلف كان أكثرهم يقفون عند قوله وما يعلم تأويله إلا الله بناء على أن التأويل الذي هو الحقيقة التي استأثر الله بعلمها لا يعلمها إلا هو وطائفة منهم كمجاهد وابن قتيبة وغيرهما قالوا بل الراسخون يعلمون التأويل ومرادهم بالتأويل المعنى الثاني وهو التفسير فليس بين

القولين تناقض في المعنى وأما التأويل بمعنى صرف اللفظ عن مفهومه إلى غير مفهومه فهذا لم يكن هو المراد بلفظ التأويل في كلام السلف اللهم إلا أنه إذا علم أن المتكلم أراد المعنى الذي يقال أنه خلاف الظاهر جعلوه من التأويل الذي هو التفسير لكونه تفسيرا للكلام وبيانا لمراد المتكلم به أو جعلوه من النوع الآخر الذي هو الحقيقة الثابتة في نفس الأمر التي استأثر الله بعلمها لكونه مندرجا في ذلك لا لكونه مخالفا للظاهر وكان السلف ينكرون التأويلات التي تخرج الكلام عن مراد الله ورسوله التي هي من نوع تحريف الكلم عن مواضعه فكانوا ينكرون التأويل الباطل الذي هو التفسير الباطل كما ننكر قول من فسر كلام المتكلم بخلاف مراده وقد ينكرون من التأويل الذي هو التفسير ما لا يعلم صحته فننكر الشيء للعلم بأنه باطل أو لعدم العلم بأنه حق ولا ينكرون ترجمة الكلام لمن لا يحسن اللغة وربما أنكروا من ذلك ما لا يفهمه المستمع أو ما تضره معرفته كما ينكرون تحديث الناس بما تعجز عقولهم عن معرفته أو بما تضرهم معرفته كما قال علي عليه السلام حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله¹

الرد على تفسير صاحب الفصوص لقوله {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}

أن أفضل الذكر لا إله إلا الله كما رواه الترمذي وابن أبي الدنيا وغيرهما مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وفي الموطأ وغيره عن طلحة بن عبد الله بن كثير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ومن زعم أن هذا ذكر العامة وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضممر فهم ضالون غالطون واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله {قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرْهُمُ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} {الأنعام 91} من أبين غلط هؤلاء فإن الاسم هو المذكور في الأمر بجواب الاستفهام وهو قوله {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} {الأنعام 91} إلى قوله {قُلِ اللَّهُ} {الأنعام 91} أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى فالاسم مبتدأ وخبره قد دل عليه الاستفهام كما في نظائر ذلك تقول من جاره فيقول زيد وأما الاسم المفرد مظهرا أو مضمرا فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة ولا شرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة ولا حالا نافعا وإنما يعطيه تصورا مطلقا لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد بنفسه وإلا لم يكن فيه فائدة والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد وأنواع من الاتحاد كما قد بسط في غير هذا الوضع وما

¹الصفدية ج: 1 ص: 287-292

يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال أخاف أن أموت بين النفي والإثبات حال لا يقتدى فيها بصاحبها فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به إذ لو مات العبد في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه إذ الأعمال بالنيات وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتلقين الميت لا إله إلا الله وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ولو كان ما ذكره محذورا لم يلحق الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتا غير محمود بل كان يلحق ما اختاره من ذكر الاسم المفرد والذكر بالاسم المضمرة المفرد أبعد عن السنة وأدخل في البدعة وأقرب إلى إضلال الشيطان فإن من قال يا هو يا هو أو هو هو ونحو ذلك لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوره قلبه والقلب قد يهتدي وقد يضل وقد صنّف صاحب الفصوص كتاباً سماه كتاب الهو وزعم بعضهم أن قوله **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}** آل عمران 7 معناه وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو الهو وقيل هذا وإن كان مما اتفق المسلمون بل العقلاء على أنه من أبين الباطل فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء حتى قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك لو كان هذا كما قلته لكنبت وما يعلم تأويل هو منفصلة ثم كثيراً ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل الله بقوله **{قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ}** {الأنعام 91} ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد وهذا غلط باتفاق أهل العلم فإن قوله **{قُلِ اللَّهُ}** {الأنعام 91} معناه الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وهو جواب لقوله **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى رد بذلك قول من قال ما أنزل الله على بشر من شيء فقال **{مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}** {الأنعام 91} ثم قال **{قُلِ اللَّهُ}** {الأنعام 91} أنزله **{ثُمَّ ذَرْهُمْ}** {الأنعام 91} هؤلاء المكذبين **{فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ}** {الأنعام 91}**

نفي علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى

قوله تعالى **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ}** {52} {الحج 52} الى قوله **{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}** {53} **{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** {54} {الحج 53-54} جعل الله القلوب ثلاثة أقسام قاسية وذات مرض ومؤمنة مخبئة وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلتين للحق اعترافاً وإذعانا أو لا تكون يابسة جامدة ف الأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الايمان ولا يرتسم فيه العلم لأن ذلك يستدعى محلاً لنا قابلاً و الثاني لا يخلو إما

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 405-407

أن يكون الحق ثابتا فيه لا يزول عنه لقوته مع لينة او يكون لينة مع ضعف وانحلال فالثاني هو الذي فيه مرض والأول هو القوى اللين وذلك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلا فاما أن تكون جامدة يابسة لا تلتوى ولا تبطش أو تبطش بعنف فذلك مثل القلب القاسي أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها فذلك مثل الذي فيه مرض أو تكون باطشة بقوة ولين فهو مثل القلب العليم الرحيم فبالرحمة خرج عن القسوة وبالعلم خرج عن المرض فان المرض من الشكوك والشبهات ولهذا وصف من عدا هؤلاء بالعلم والايمن والابخات وفي قوله {وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} {54} الحج 54 دليل على أن العلم يدل على الايمان ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الايمان كما يتوهمه طائفة من المتكلمة بل معهم العلم والايمن كما قال تعالى {لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} النساء 162 وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} الروم 56 الآية وعلى هذا فقوله {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا} آل عمران 7 نظير هذه الآية فانه أخبر هنا أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم وأخبر هناك أنهم يقولون في المتشابهة {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا} آل عمران 7 وكلا الموضعين موضع ريب وشبهة لغيرهم فان الكلام هناك في المتشابهة وهنا فيما يلقي الشيطان مما ينسخه الله ثم يحكم الله آياته وجعل المحكم هنا ضد الذي نسخه الله مما ألقاه الشيطان ولهذا قال طائفة من المفسرين المتقدمين ان المحكم هو الناسخ و المتشابه المنسوخ أرادوا والله أعلم قوله {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ} الحج 52 والنسخ هنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الله وقد أشرت الى وجه ذلك فيما بعد وهو أن الله جعل المحكم مقابل المتشابهة تارة ومقابل المنسوخ أخرى والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف العام كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقيد المطلق فان هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين ويدخل فيه المجمل فانه متشابهة وإحكامه رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذي ليس بمراد وكذلك ما رفع حكمه فإن في ذلك جميعه نسخا لما يلقيه الشيطان في معانى القرآن ولهذا كانوا يقولون هل عرفت الناسخ من المنسوخ فاذا عرف الناسخ عرف المحكم وعلى هذا فيصح أن يقال المحكم والمنسوخ كما يقال المحكم والمتشابهة وقوله بعد ذلك {ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ} {52} الحج 52 جعل جميع الآيات محكمة محكمها ومتشابهها كما قال {الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} هود 1 وقال {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} لقمان 2 على أحد القولين وهناك جعل الآيات قسمين محكما ومتشابهها كما قال {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} آل عمران 7 وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله فصار المحكم في القرآن تارة يقابل بالمتشابهة والجميع من آيات الله وتارة يقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان ومن الناس من يجعله مقابلا لما نسخه الله مطلقا حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ويجعل المنسوخ ليس محكما وإن كان الله أنزله أولا اتباعا لظاهر قوله {فَيَنْسَخُ اللَّهُ} {52} الحج 52 و {يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ} {52} الحج 52 فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ينبغي التفطن لها وجماع ذلك أن

الأحكام تارة يكون فى التنزيل فىكون فى مقابله ما يلقيه الشيطان فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ما ليس منه فان الأحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشئ ويحصل اتقانه ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل فى الحد فالمنع جزء معناه لا جميع معناه وتارة يكون الأحكام فى ابقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذى هو رفع ما شرع وهو اصطلاحى أو يقال وهو أشبه بقول السلف كانوا يسمون كل رفع نسخا سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة وإلقاء الشيطان فى أمنيته قد يكون فى نفس لفظ المبلغ وقد يكون فى سمع المبلغ وقد يكون فى فهمه كما قال {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} {الرعد17} الآية ومعلوم أن من سمع النص الذى قد رفع حكمه أو دلالة له فانه يلقي الشيطان فى تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به يحصل رفع الحكم وبيان المراد وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار والله أعلم وتارة يكون الأحكام فى التأويل والمعنى وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها وفى مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا فتكون محتملة للمعنيين قال أحمد بن حنبل المحكم الذى ليس فيه اختلاف والمتشابه الذى يكون فى موضع كذا وفى موضع كذا ولم يقل فى المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه الا الله وانما قال {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران7 وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين فى هذا الموضع فان الله اخبر أنه لا يعلم تأويله الا هو والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة وعليه اصحاب رسول الله وجمهور التابعين و جماهير الأمة ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره بل قال {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} ص29 وهذا يعنى الآيات المحكمات والآيات المتشابهات وما لا يعقل له معنى لا يتدبر وقال {أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ} النساء82 ولم يستثن شيئا منه نهى عن تدبره والله ورسوله انما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله بل أمر بذلك ومدح عليه يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم كحبي بن أخطب وغيره من طلب من حروف الهجاء التى فى أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصابئة المنجمين وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاما لأن ذلك هو عدد ما للحروف فى حساب الجمل بعد اسقاط المكرر وهذا من نوع تأويل الحوادث التى أخبر بها القرآن فى اليوم الآخر وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم فى وفد نجران من تأويل إنا و نحن على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع وهذا تأويل فى الايمان بالله فأولئك تأولوا فى اليوم الآخر وهؤلاء تأولوا فى الله ومعلوم أن إنا و نحن من المتشابه فانه يراد بها الواحد الذى معه غيره من جنسه ويراد بها الواحد الذى معه أعوانه وان لم يكونوا من جنسه ويراد بها الواحد المعظم نفسه الذى يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التى كل اسم منها يقوم مقام مسمى فصار هذا متشابها لأن اللفظ واحد والمعنى متنوع و الأسماء المشتركة فى اللفظ هى من المتشابه وبعض

المتواطئة أيضا من المتشابه ويسميتها أهل التفسير الوجوه والنظائر و صنفوا كتب الوجوه والنظائر فالوجوه فى الأسماء المشتركة والنظائر فى الأسماء المتواطئة وقد ظن بعض اصحابنا المصنفين فى ذلك أن الوجوه والنظائر جميعا فى الأسماء المشتركة فهى نظائر باعتبار اللفظ ووجوه باعتبار المعنى وليس الأمر على ما قاله بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله والذين فى قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذى لا اشتباه فيه مثل {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} النحل 22 {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي} طه 14 {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ} المؤمنون 91 {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} الفرقان 2 {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} 3 {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 4 الاخلاص 3-4 ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتتوا به الناس اذا وضعوه على غير مواضعه وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التى أخبر عنها وذلك أن الكلام نوعان إنشاء فيه الأمر واخبار فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به كما قال من قال من السلف ان السنة هى تأويل الأمر قالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن تعنى قوله {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} النصر 3 وأما الاخبار فتأويله عين الأمر المخبر به اذا وقع ليس تأويله فهم معناه وقد جاء اسم التأويل فى القرآن فى غير موضع هذا معناه قال الله تعالى {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 52 {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} 53 {الاعراف 52-53 فقد أخبر أنه فصل الكتاب وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشتهه ثم قال {هَلْ يَنْظُرُونَ} 53 {الاعراف 53} أى ينتظرون {إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ} 53 {الاعراف 53 الى آخر الآية وانما ذلك مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراتها كالدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجىء ربك والملك صفا صفا وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك فحينئذ يقولون {قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} 53 {الاعراف 53 وهذا القدر الذى أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته الا الله فان الله يقول {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} السجدة 17 ويقول أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الأسماء فان الله قد أخبر أن فى الجنة خمرا ولبنا وماء وحريرا وذهبا وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعا أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما فى قوله {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} البقرة 25 على أحد القولين أنه يشبه ما فى الدنيا وليس مثله فأشبهه اسم تلك الحقائق اسماء هذه الحقائق كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه فنحن نعلمها اذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها فى الدنيا ولا سبيل الى ادراكها لعدم ادراك عينها أو نظيرها من كل وجه وتلك الحقائق على ما هى عليه هى تأويل ما أخبر الله به المتشابه {ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ} آل عمران 7 بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن تكون فى الجنة

هذه الحقائق **{وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}** آل عمران 7 ليردوه الى المعهود الذى يعلمونه فى الدنيا قال الله تعالى **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}** آل عمران 7 فان تلك الحقائق قال الله فيها **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}** السجدة 17 لا ملك مقرب ولا نبي مرسل وقوله **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ}** آل عمران 7 اما أن يكون الضمير عائدا على الكتاب أو على المتشابه فان كان عائدا على الكتاب كقوله منه و منه **{فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}** آل عمران 7 فهذا يصح فان جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التى فيها اخبار عن الغيب الذى أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع الا الله وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع اخباره أنه مفصل بقوله **{وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** {52} هل يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ {53} الاعراف 52-53 فجعل التأويل الجائى للكتاب المفصل وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتا وقدرنا ونوعا وحقيقة إلا الله وانما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا وكذلك قوله **{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}** يونس 39 وإذا كان التأويل للكتاب كله والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة وصار هذا بمنزلة قوله **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** الاعراف 187 الى قوله **{إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ}** الاعراف 187 وكذلك قوله **{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}** الأحزاب 63 فأخبر أنه ليس علمها الا عند الله وانما هو علم وقتها المعين وحقيقتها والا فنحن قد علمنا من صفاتها ما اخبرنا به فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله وهذا واضح بين ولا ينافى كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه وأن نفس النصوص المبينة لأحوالها فهذا وإن كان الضمير عائدا الى ما تشابه كما يقوله كثير من الناس فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهى ولهذا فى الآثار العمل بمحكمه والايمان بمتشابهه لأن المقصود فى الخبر الايمان وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه بخلاف الأمر والنهى ولهذا قال بعض العلماء المتشابه الأمثال والوعد والوعيد و المحكم الأمر والنهى فانه متميز غير مشتبه بغيره فانه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع وأمور نتركها لابد أن ومما جاء من لفظ التأويل فى القرآن قوله تعالى **{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}** يونس 39 والكناية عائدة على القرآن أو على ما لم يحيطوا بعلمه وهو يعود الى القرآن قال تعالى **{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** {37} أم يَقُولُونَ افْتِرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {38} بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ {39} وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ {40} يونس 37-40 فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله **{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ}** هود 117 وقوله **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ**

فِيهِمْ {الأنفال 33م لأن الخلق عاجزون عن الاتيان بمثله كما تحداهم وطالبهم لما قال {أَمْ يَقُولُونَ
أَفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَنْطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} يونس 38 فهذا تعجيز
لجميع المخلوقين قال تعالى {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} يونس 37 أى مصدق الذى بين يديه
{وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ} يونس 37 أى مفصل الكتاب فأخبر أنه مصدق الذى بين يديه ومفصل الكتاب
والكتاب اسم جنس وتحدى القائلين {أَفْتَرَاهُ} يونس 38 ودل على أنهم هم المفترون قال {بَلْ كَذَّبُوا
بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} يونس 39 أى كذبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم
تأويله ففرق بين الاحاطة بعلمه وبين اتيان تأويله فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والايمان بعلمه
ولما يأتهم تأويله وأن الاحاطة بعلم القرآن ليست اتيان تأويله فإن الاحاطة بعلمه معرفة معانى الكلام
على التمام واتيان التأويل نفس وقوع المخبر به وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به فمعرفة
الخبر هى معرفة تفسير القرآن ومعرفة المخبر به هى معرفة تأويله و نكتة ذلك أن الخبر
لمعناه صورة علمية وجودها فى نفس العالم كذهن الانسان مثلا ولذلك المعنى حقيقة ثابتة فى الخارج
عن العلم واللفظ انما يدل ابتداء على المعنى الذهنى ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة الخارجة
فالتأويل هو الحقيقة الخارجة وأما معرفة تفسيره ومعناه فهو معرفة الصورة العلمية وهذا هو الذى
بيناه فما تقدم أن الله انزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه محكمه ومتشابهه وان لم
يعلم تأويله ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا} {45} {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا
ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّأْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} {46} {الإسراء 45- 46} فقد أخبر نما
للمشركين أنه اذا قرىء عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور وجعل على
قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا فلو كان أهل العلم والايمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه
لشاركوهم فى ذلك وقوله {أَنْ يَفْقَهُوهُ} {الإسراء 46} يعود الى القرآن كله فعلم أن الله يحب أن يفقه
ولهذا قال الحسن البصرى ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم فيما ذا أنزلت وماذا عنى بها وما
استثنى من ذلك لا متشابهها ولا غيره وقال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من
أوله الى آخره مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها فهذا ابن عباس حبر الأمة وهو أحد من كان يقول
لا يعلم تأويله الا الله يجيب مجاهدا عن كل آية فى القرآن وهذا هو الذى حمل مجاهدا ومن وافقه
كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} آل عمران 7 فجعلوا الراسخين
يعلمون التأويل لأن مجاهدا تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه فظن أن هذا هو
التأويل المنفى عن غير الله وأصل ذلك أن لفظ التأويل فيه اشتراك بين ما عناه الله فى القرآن
وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين فبسبب الاشتراك فى
لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور فى القرآن ومجاهد امام التفسير قال
الثورى اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به وأما التأويل فشان آخر ويبين ذلك أن
الصحابه والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ولا قال هذه من المتشابه الذى لا

يعلم معناه ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين ان فى القرآن آيات لا يعلم معناها ولا يفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم والايمان جميعهم وانما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس وهذا لا ريب فيه وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام فى آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك فلقبوها هل يجوز أن يشتمل القرآن على ما لا يعلم معناه وأما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية وبأن الله يمتحن عباده بما شاء ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك الى تاويلاتهم الفاسدة التى هى تحريف الكلم عن مواضعه والغالب على كلا الطائفتين الخطأ أولئك يقصرون فى فهم القرآن بمنزلة من قيل فيه {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ} البقرة 78 وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ومن المتأخرين من وضع المسألة بلقب شنيع فقال لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعنى به شيئاً خلافاً للحشوية وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له وانما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه وبين نفي المعنى عند المتكلم ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم ثم احتج بما لا يجرى على أصله فقال هذا عبث والعبث على الله محال وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً بل يجوز أن يفعل كل شيء وليس له أن يقول العبث صفة نقص فهو منتف عنه لأن النزاع فى الحروف وهى عنده مخلوقة من جملة الأفعال ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة فلا نقل صحيح ولا عقل صريح ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم أن مدعى التأويل أخطأوا فى زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل وفى دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذى هو تحريف الكلم عن مواضعه فان الأولين لعلمهم بالقرآن والسنن وصحة عقولهم وعلمهم بكلام السلف وكلام العرب علموا يقيناً أن التأويل الذى يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن فانهم حرفوا الكلم عن مواضعه وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر حتى عن أكثر احوال الانبياء وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء فى اليوم الآخر وفى آيات القدر ويتأولون آيات الصفات وقد وافقهم بعض متأخرى الأشعرية على ما جاء به فى بعض الصفات وبعضهم فى بعض ما جاء فى اليوم الآخر وآخرون من اصناف الأمة وان كان تغلب عليهم السنة فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة وأكثر أهل الكلام والبدع رأوا ايضاً أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن ورأوا عجزاً وعيباً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرأونه ويتلونه وهم لا يفهمونه وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل لكن أخطأوا فى معنى التأويل الذى نفاه الله وفى التأويل الذى أثبتوه وتسلق بذلك مبتدعتهم الى تحريف الكلم عن مواضعه وصار الأولون أقرب الى السكوت والسلامة بنوع من الجهل وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ولكن بفرية على الله قول عليه ما لا يعلمونه والحاد فى اسمائه وآياته فهذا هذا ومنشأ الشبهة الاشتراك فى لفظ التأويل فإن التأويل فى عرف المتأخرين من المتفهمة والمتكلمة والمحدثه والمتصوفة ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى

المرجوح لدليل يفترن به وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف فاذا قال أحدهم هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا قال الآخر هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج الى دليل والمتأول عليه وظيفتان بيان احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه وبيان الدليل الموجب للصرف اليه عن المعنى الظاهر وهذا هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات اذا صنف بعضهم فى ابطال التأويل أو ذم التأويل أو قال بعضهم آيات الصفات لا تؤول وقال الآخر بل يجب تأويلها وقال الثالث بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة أو يصلح للعلماء دون غيرهم الى غير ذلك من المقالات والتنازع وأما التأويل فى لفظ السلف فله معنيان أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفا وهذا والله اعلم هو الذى عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله ومحمد بن جرير الطبرى يقول فى تفسيره القول فى تأويل قوله كذا وكذا واختلف أهل التأويل فى هذه الآية ونحو ذلك ومراده التفسير والمعنى الثانى فى لفظ السلف وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقا هو نفس المراد بالكلام فان الكلام ان كان طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب وان كان خبرا كان تأويله نفس الشئ المخبر به وبين هذا المعنى والذى قبله بون فان الذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام كالتفسير والشرح والايضاح ويكون وجود التأويل فى القلب واللسان له الوجود الذهنى واللفظى والرسمى وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج سواء كانت ماضية أو مستقبلية فاذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا نفس طلوعها ويكون التأويل من باب الوجود العينى الخارجى فتأويل الكلام هو الحقائق الثابتة فى الخارج بما هى عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها وتلك الحقائق لا تعرف على ما هى عليه بمجرد الكلام والايضاح الا أن يكون المستمع قد تصورها أو تصور نظيرها بغير كلام وايضاح لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب اما بضرب المثل واما بالتقريب واما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها واما بغير ذلك وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التى نزل بها وقد قدمنا التبيين فى ذلك ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوסף {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} {يوسف 6} وقوله {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} {36} قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا} {37} {يوسف 36-37} وقول الملائكة {قَالُوا أَضْعَافُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ} {44} وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} {45} {يوسف 44-45} وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر {أَوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} {99} {يوسف 99} وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} {100} {يوسف 99-100} فتأويل الأحاديث التى هى رؤيا المنام هى نفس مدلولها التى تؤول اليه كما قال يوسف {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ} {يوسف 100} والعالم بتأويلها الذى يخبر به كما قال يوسف {لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ} {يوسف 37} أى فى المنام {إِلَّا

نَبَأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ} يوسف 37 أى قبل أن يأتيتكما التأويل وقال الله تعالى {فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء 59 قالوا أحسن عاقبة ومصيرا فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذى هو الرد الى الكتاب والسنة والتأويل فى سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا والتأويل فى الأعراف ويونس تأويل القرآن وكذلك فى سورة آل عمران وقال تعالى فى قصة موسى والعالم {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} الكهف 78 الى قوله {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} الكهف 82 فالتأويل هنا تأويل الأفعال التى فعلها العالم من خرق السفينة بغير اذن صاحبها ومن قتل الغلام ومن اقامة الجدار فهو تأويل عمل لا تأويل قول وانما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلا مثل حول تحويلا وعول تعويلا واول يؤول تعديه آل يؤول أولا مثل حال يحول حوللا وقولهم آل يؤول أى عاد الى كذا ورجع اليه ومنه المأل وهو ما يؤول اليه الشئ ويشاركة فى الاشتقاق الأكبر المائل فانه من وأل وهذا من أول والمائل المرجع قال تعالى لن يجدوا من دونه مؤثلا ومما يوافقه فى اشتقاقه الأصغر الال فإن آل الشخص من قال تعالى {لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِلًا} الكهف 58 ومما يوافقه فى اشتقاقه الأصغر الال فإن آل الشخص من يؤول اليه ولهذا لا يستعمل الا فى عظيم بحيث يكون المضاف اليه أعظم من المضاف يصلح أن يؤول اليه الال كآل ابراهيم وآل لوط وآل فرعون بخلاف الأهل والأول أفعل لأنهم قالوا فى تانيته أولى كما قالوا جمادى الأولى وفى القصص {لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ} القصص 70 ومن الناس من يقول فوعل ويقول أوله الا أن هذا يحتاج الى شاهد من كلام العرب بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل فان فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف سمي المتقدم أول والله اعلم لأن ما بعده يؤول اليه ويبنى عليه فهو أس لما بعده وقاعدة له والصيغة صيغة تفضيل لا صيغة مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى لا من باب أحمر وحمراء ولهذا يقولون جنته من أول أمس وقال {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} التوبة 108 {وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ} الأنعام 163 {وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} البقرة 41 فاذا قيل هذا أول هؤلاء فهو الذى فضل عليهم فى الأول لأن كل واحد يرجع الى ما قبله فيعتمد عليه وهذا السابق كلهم يؤول اليه فان من تقدم فى فعل فاستن به من بعده كان السابق الذى يؤول الكل اليه فالأول له وصف السؤدد والاتباع ولفظ الأول مشعر بالرجوع والعود والأول مشعر بالابتداء والمبتدأ خلاف العائد لأنه انما كان أولا لما بعده فغنه يقال أول المسلمين و أول يوم فما فيه من معنى الرجوع والعود هو للمضاف اليه لا للمضاف وإذا قلنا آل فلان فالعود الى المضاف لأن ذلك صيغة تفضيل فى كونه مآلا ومرجعا لغيره لأن كونه مفضلا دل على أنه مأل ومرجع لا آيل راجع اذ لا فضل فى كون الشئ راجعا الى غيره آيلا اليه وانما الفضل فى كونه هو الذى يرجع اليه ويؤول اليه فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل فى كونه مآلا ومرجعا والتفضيل المطلق فى ذلك يقتضى أن يكون هو السابق المبتدىء والله أعلم فتأويل الكلام ما أوله اليه المتكلم أو ما يؤول اليه الكلام أو ما تأوله المتكلم فان التفعيل يجرى على غير فعل

كقوله { وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً } المزمّل 8 فيجوز أن يقال تأول الكلام الى هذا المعنى تأويلاً وتأولت الكلام تأويلاً وأولت الكلام تأويلاً والمصدر واقع موقع الصفة اذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل كعدل وصوم وفطر وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير وهذا خلق الله فالتأويل هو ما أول اليه الكلام أو يؤول اليه أو تأول هو اليه والكلام انما يرجع ويعود ويستقر ويؤول ويؤول الى حقيقته التي هي عين المقصود به كما قال بعض السلف في قوله { لَكُلِّ نَبَاً مُسْتَقَرًّا } الأنعام 67 قال حقيقة فانه ان كان خبرا فالى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع والا لم تكن له حقيقة ولا مأل ولا مرجع بل كان كذبا وان كان طلبا فالى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع وان لم يكن مقصوده موجودا ولا حاصلًا ومتى كان الخبر وعدا أو وعيدا فالى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول كما روى عن النبي أنه تلا هذه الآية { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا } الأنعام 65 قال انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد وعن عبدالله قال خمس قد مضين البطشة والزام والدخان والقمر والروم فصل وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله الا الله أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذى استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم فانهم وان أصابوا فى كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا من وجهين الأول من قال ان هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه فنقول أما الدليل على بطلان ذلك فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخلى فى هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمى الذى لا يفهم ولا قالوا ان الله ينزل كلاما لا يفهم أحد معناه وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة قالوا فى أحاديث الصفات تمر كما جاءت ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها التى مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة فى أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ويفهمون منها بعض ما دلت عليه كما يفهمون ذلك فى سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك وأحمد قد قال فغير أحاديث الصفات تمر كما جاءت وفى أحاديث الوعيد مثل قوله من غشنا فليس منا وأحاديث الفضائل ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلاً بالعرف المتأخر فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل وكذلك نص أحمد فى كتاب الرد على الزنادقة والجهمية أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية وجرى فى ذلك على سنن الأئمة قبله فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويفسر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه أو الحاد فى أسماء الله وآياته ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب أن أهل السنة متفقون على ابطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين و التأويل المرود هو صرف الكلام عن ظاهره الى ما يخالف ظاهره فلو قيل ان هذا هو التأويل المذكور فى الآية وأنه لا

يعلمه الا الله لكان فى هذا تسليم للجهمية أن لآية تأويلا يخالف دلالتها لكن ذلك لا يعلمه الا الله وليس هذا مذهب السلف والأئمة وانما مذهبهم نفي هذه التأويلات وردها لا التوقف فيها وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى لا تحرف ولا يلحد فيها والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه أن نقول لا ريب أن الله سمي نفسه فى القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزير والجبار والعليم والقدير والرءوف ونحو ذلك ووصف نفسه بصفات مثل سورة الاخلاص و آية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وقوله {أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} البقرة 231 و {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 وأنه يحب المتقين و المقسطين و المحسنين وأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات {فَلَمَّا آسَفُونَا اننَقَمْنَا مِنْهُم} الزخرف 55 {وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} التوبة 46 {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} الحديد 4 {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر 10 {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} طه 46 {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} الأنعام 3 {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ} ص 75 {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} المائدة 64 {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} الرحمن 27 {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} الأنعام 52 {وَلَتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي} طه 39 الى امثال ذلك فيقال لمن ادعى فى هذا أنه متشابه لا يعلم معناه أتقول هذا فى جميع ما سمي الله ووصف به نفسه أم فى البعض فان قلت هذا فى الجميع كان هذا عنادا ظاهرا وجحدا لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام بل كفر صريح فاننا نفهم من قوله {أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} البقرة 231 معنى ونفهم من قوله {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 معنى ليس هو الأول ونفهم من قوله {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} الأعراف 156 معنى ونفهم من قوله {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} إبراهيم 47 معنى وصبيان المسلمين بل وكل عاقل يفهم هذا وقد رأيت بعض من ابتدع وجدد من أهل المغرب مع انتسابه الى الحديث لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة من يقول إنا نسمى الله الرحمن العليم القدير علما محضا من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط وكذلك فى قوله {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} البقرة 255 يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم وهذا الغلو فى الظاهر من جنس غلو القرامطة فى الباطن لكن هذا أبيض وذاك أكفر ثم يقال لهذا المعاند فهل هذه الأسماء دالة على الاله المعبود وعل حق موجود أم لا فان قال لا كان معطلا محضا وما اعلم مسلما يقول هذا وان قال نعم قيل له فلم فهمت منها دلالتها على نفس الرب ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعانى من الرحمة والعلم وكلاهما فى الدلالة سواء فلا بد أن يقول نعم لأن ثبوت الصفات محال فى العقل لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث بخلاف الذات فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثانى كما سنذكره وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض فيقال له ما الفرق بين ما أثبتته وبين ما نفيتته أو سكت عن اثباته ونفيه فان الفرق اما أن يكون من جهة السمع لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة بخلاف الآخر أو من جهة العقل

بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب اثباته دون الآخر وكلا الوجهين باطل في أكثر المواضع أما الأول فدلالة القرآن على أنه رحيم ودود سميع بصير على عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ليس بينهما فرق من جهة النص وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وارادته وأما الثانى فيقال لمن أثبت شيئاً ونفى آخر لم نفيت مثلاً حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك الى ارادته فان قال لأن المعنى المفهوم من الرحمة فى حقنا هى رقة تمتنع على الله قيل له والمعنى المفهوم من الإرادة فى حقنا هى ميل يمتنع على الله فإن قال ارادته ليست من جنس ارادة خلقه قيل له ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه وكذلك محبته وان قال وهو حقيقة قوله لم اثبت الارادة وغيرها بالسمع وانما أثبت العلم والقدرة والارادة بالعقل وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين لأن الفعل دل على القدرة والأحكام دل على العلم والتخصيص دل على الارادة قيل له الجواب من ثلاثة أوجه أحدها أن الأنعام والاحسان وكشف الضر دل أيضا على الرحمة كدلالة التخصيص على الارادة والتقريب والادناء وأنواع التخصيص التى لا تكون الا من المحب تدل على المحبة أو مطلق التخصيص يدل على الارادة وأما التخصيص بالانعام فتخصيص خاص والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص وما سلكه فى مسلك الارادة يسلك فى مثل هذا الثانى يقال له هب أن العقل لا يدل على هذا فانه لا ينفىه الا بمثل ما ينفى به الارادة والسمع دليل مستقل بنفسه بل الطمأنينة اليه فى هذه المضايق أعظم ودلالته أتم فلأى شىء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها الى الارادة مع أن النصوص لم تفرق فلا يذكر حجة الا عورض بمثلها فى اثباته الارادة زيادة على الفعل الثالث يقال له اذا قال لك الجهمى الارادة لا معنى لها الا عدم الاكراه أو نفس الفعل والأمر به وزعم أن اثبات ارادة تقتضى محذورا ان قال بقدورها ومحذورا ان قال بحدوثها وهنا اضطربت المعتزلة فانهم لا يقولون بارادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم ولا يقولون بتجدد صفة له لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم مع تناقضهم فصاروا حزبين البغداديون وهم أشد غلوا فى البدعة فى الصفات وفى القدر نفوا حقيقة الارادة وقال الجاحظ لا معنى لها الا عدم الاكراه وقال الكعبى لا معنى لها الا نفس الفعل اذا تعلقت بفعله ونفس الأمر اذا تعلقت بطاعة عباده والبصريون كأبى على وأبى هاشم قالوا تحدث ارادة لا فى محل فلا ارادة فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير محل وكلاهما عند العقلاء معلوم الفساد بالبديهة كان جوابه أن ما ادعى احالته من ثبوت الصفات ليس بمحال والنص قد دل عليها والعقل ايضا فاذا أخذ الخصم ينازع فى دلالة النص أو العقل جعله مسفسطا أو مقرمطا وهذا بعينه موجود فى الرحمة والمحبة فان خصومه ينازعونه فى دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعى ثم يقال لخصومه بم اثبتتم أنه عليم قدير فما اثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الارادة وما عارضوا به من الشبه عارضوا بمثله فى العليم والقدير واذا انتهى الأمر الى ثبوت المعانى وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار كان الجواب ما قررناه فى غير هذا الموضع فان ذلك لا يستلزم حدوثا ولا تركيبا مقتضيا حاجة الى غيره ويعارضون أيضا بما ينفى به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ويلزمون بوجود الرب الخالق

المعلوم بالفطرة الخلقية والضرورة العقلية والقواطع العقلية واتفاق الأمم وغير ذلك من الدلائل ثم يطالبون بوجود من جنس ما نعهده أو بوجود يعلمون كيفية فلا بد أن يفروا الى اثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق فالقول فى سائر ما سمي ووصف به نفسه كالقول فى نفسه سبحانه وتعالى و نكتة هذا الكلام أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة لا بد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى وانتفاء المانع وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى أو يتوقف اذا لم يكن له عنده مقتضى ولا مانع فيبين له أن المقتضى فيما نفاه قائم كما أنه فيما أثبتته قائم اما من كل وجه أو من وجه يجب به الاثبات فان كان المقتضى هناك حقا فكذاك هنا والا فدرء ذلك المقتضى من جنس درء هذا

1

أن نفي علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى ونزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} {27} قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} {28} الزمر 27-28 وقال تعالى {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} {1} إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} {2} يوسف 1-2 فأخبر أنه أنزله ليعقلوه وأنه طلب تذکرهم وقال أيضا {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} الحشر 21 فحضر على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكر فيه ولم يستثن من ذلك شيئاً بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} محمد 24 وقوله {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء 82 ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون الا بتدبره كله والا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفى مخالفه ما لم يتدبر لما تدبر وقال على رضى الله عنه لما قيل له هل ترك عندكم رسول الله شيئاً فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة الا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه وما فى هذه الصحيفة فأخبر أن الفهم فيه مختلف فى الأمة والفهم أخص من العلم والحكم قال الله تعالى {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} الأنبياء 79 وقال النبى رب مبلغ أوعى من سامع وقال بلغوا عنى ولو آية وأيضا فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا فى جميع نصوص القرآن آيات الصفات وغيرها وفسروها بما يوافق دلالتها وبيانها ورووا عن النبى احاديث كثيرة توافق القرآن وأمة الصحابة فى هذا أعظم من غيرهم مثل عبدالله بن مسعود الذى كان يقول لو أعلم أعلم بكتاب الله منى تبلغه أباط الابل لأتيتيه وعبدالله بن عباس الذى دعا له النبى صلى الله عليه وسلم وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين اثباتاً للصفات ورواية لها عن النبى ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا وما فى التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين بل وثالثهما فى عليّة التابعين من جنسهم أو قريب منهم ومثلهما فى جلالة جلاله اصحاب زيد بن ثابت لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس ولو كان معانى هذه الآيات منفياً أو مسكوتاً عنه لم يكن

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 278-302 و درء التعارض ج: 1 ص: 14-19

ربانيوا الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاما فيه ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية قال أبو عبدالرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه5 كيف استوى فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وكذلك ربعة قبله وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول فليس في أهل السنة من ينكره وقد بين أن الاستواء معلوم كما أن سائر ما أخبر به معلوم ولكن الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها لا يقال كيف استوى ولم يقل مالك الكيف معدوم وإنما قال الكيف مجهول وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة غير أن أكثرهم يقولون لا تخطر كيفيته ببال ولا تجرى ماهيته في مقال ومنهم من يقول ليس له كيفية ولا ماهية فإن قيل معنى قوله الاستواء معلوم ان ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه قيل هذا ضعيف فان هذا من باب تحصيل الحاصل فإن السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن وقد تلا الآية وأيضا فلم يقل ذكر الاستواء في القرآن ولا اخبار الله بالاستواء وإنما قال الاستواء معلوم فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم لم يخبر عن الجملة وأيضا فإنه قال والكيف مجهول ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول أو تفسير الاستواء مجهول أو بيان الاستواء غير معلوم فلم ينف الا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه لو قال في قوله {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} طه46 كيف يسمع وكيف يرى لقلنا السمع والرؤيا معلوم والكيف مجهول ولو قال كيف كلم موسى تكليما لقلنا التكليم معلوم والكيف غير معلوم وأيضا فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة وأن ذاته فوق ذات العرش لا ينكرون معنى الاستواء ولا يرون هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة قال بعضهم ارتفع على العرش علا على العرش وقال بعضهم عبارات أخرى وهذه ثابتة عن السلف قد ذكر البخارى في صحيحه بعضها في آخر كتاب الرد على الجهمية وأما التأويلات المحرفة مثل استوى وغير ذلك فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية وأيضا قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس في خصوص الصفات بل في صحيح البخارى أن النبي قال لعائشة يا عائشة إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذريهم وهذا عام وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن حتى رآه عمر فسأل عمر عن الذاريات ذروا فقال ما اسمك قال عبدالله صبيغ فقال وأنا عبدالله عمر وضربه الضرب الشديد وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس يقول ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ وهذا لأنهم

رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام
إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه **وكما قال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ
مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ {آل عمران 7}** فعاقبهم على هذا القصد الفاسد كالذى يعارض بين آيات القرآن وقد
نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فان ذلك
يوقع الشك في قلوبهم ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذى لا يعلمه الا الله فكان مقصودهم مذموما
ومطلوبهم متعذرا مثل أغلوطات المسائل التى نهى رسول الله عنها ومما يبين الفرق بين
المعنى و التأويل أن صبيغا سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات وقد تكلم
الصحابة فى تفسيرها مثل على بن أبى طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها كره سؤاله لما رآه من
قصده لكن على كانت رعيته ملتوية عليه لم يكن مطاعا فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه و الذاريات
و الحاملات و الجاريات و المقسمات فيها اشتباه لأن اللفظ يحتمل الرياح
والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك اذ ليس فى اللفظ ذكر الموصوف والتأويل الذى لا
يعلمه الا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ومتى تهب وأعيان السحاب وما تحمله من
الأمطار ومتى ينزل المطر وكذلك فى الجاريات و المقسمات فهذا لا يعلمه الا الله
وكذلك فى قوله إنا و نحن ونحوهما من أسماء الله التى فيها معنى الجمع كما اتبعه
النصارى فان معناه معلوم وهو الله سبحانه لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعانى بمنزلة الأسماء
المتعددة مثل العليم والقدير والسميع والبصير فإن المسمى واحد ومعانى الأسماء متعددة فهكذا
الاسم الذى لفظه الجمع وأما التأويل الذى اختص الله به حقيقة ذاته وصفاته كما قال مالك والكيف
مجهول فاذا قالوا ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره قيل هذا هو التأويل الذى لا يعلمه الا الله
وما أحسن ما يعاد التأويل الى القرآن كله فان قيل فقد قال النبي لابن عباس اللهم فقهم فى
الدين وعلمه التأويل قيل أما تأويل الأمر والنهى فذاك يعلمه واللام هنا للتأويل المعهود لم يقل
تأويل كل القرآن فالتأويل المنفى هو تأويل الاخبار التى لا يعلم حقيقة مخبرها الا الله والتأويل المعلوم
هو الأمر الذى يعلم العباد تأويله وهذا كقوله {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} الأعراف 53
وقوله {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} يونس 39 فان المراد تأويل الخبر الذى أخبر
فيه عن المستقبل فانه هو الذى ينتظر ويأتى و لما يأتهم وأما تأويل الأمر والنهى فذاك
فى الأمر وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى ان أدخل فى التأويل لا ينتظر والله سبحانه أعلم وبه
التوفيق¹

التأويل هو الحقيقة التى يؤول اليها الكلام

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 306-313

قال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } النساء 82
فأمر بتدبر الكتاب كله وقد قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ } آل عمران 7 وجمهور سلف الأمة وخلفها على ان الوقف على قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ
إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7 وهذا هو المأثور عن أبي بن كعب وإبن مسعود إبن عباس وغيرهم وروى
عن إبن عباس انه قال التفسير على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر احد
بجهالته وتفسير تعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله من ادعى علمه فهو كاذب وقد روى عن
مجاهد وطائفة أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله وقد قال مجاهد عرضت المصحف على إبن
عباس من فاتحته الى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها ولا منافاة بين القولين عند التحقيق
فإن لفظ التأويل قد صار بتعدد الإصطلاحات مستعملا في ثلاثة معان أحدهما وهو
اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين في الفقه وأصوله أن التأويل هو صرف اللفظ عن
الإحتمال الراجح الى الإحتمال المرجوح لدليل يقترن به وهذا هو الذي عناه أكثر من تكلم من
المتأخرين في تأويل نصوص الصفات وترك تأويلها وهل ذلك محمود أو مذموم أو حق أو باطل
الثانى أن التأويل بمعنى التفسير وهذا هو الغالب على إصطلاح المفسرين للقرآن كما يقول إبن
جرير وأمثاله من المصنفين فى التفسير واختلف علماء التأويل ومجاهد إمام المفسرين قال الثورى
إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به وعلى تفسيره يعتمد الشافعى وأحمد والبخارى وغيرهما فاذا
ذكر انه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به معرفة تفسيره الثالث من معانى التأويل هو الحقيقة
التي يؤول اليها الكلام وإن وافق ظاهره وهذا هو المعنى الذي يراد بلفظ التأويل في الكتاب والسنة
كما قال الله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ
رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ } الأعراف 53 فتأويل ما فى القرآن من أخبار المعاد هو ما اخبر الله به فيه مما
يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار ونحو ذلك كما قال الله تعالى فى قصة يوسف لما
سجد أبواه وإخوته قال { يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ } يوسف 100 فجعل عين ما وجد
فى الخارج هو تأويل الرؤيا الثانى هو تفسير الكلام وهو الكلام الذى يفسر به اللفظ حتى يفهم
معناه أو تعرف علتة أو دليله وهذا التأويل الثالث هو عين ما هو موجود فى الخارج ومنه
قول عائشة كان النبى يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى
يتأول القرآن يعنى قوله فسبح بحمد ربك واستغفره وقول سفيان بن عيينة السنة هى تأويل
الامر والنهى فإن نفس الفعل المأمور به هو تأويل الامر به ونفس الموجود المخبر عنه هو تأويل
الخبر والكلام خبر وأمر ولهذا يقول أبو عبيد وغيره الفقهاء أعلم بالتأويل من اهل اللغة كما ذكروا
ذلك فى تفسير اشتمال الصماء لأن الفقهاء يعلمون تفسير ما أمر به ونهى عنه لعلمهم بمقاصد
الرسول كما يعلم أتباع بقراط وسيبويه ونحوهما من مقاصدهما ما لا يعلم بمجرد اللغة ولكن تأويل

الأمر والنهي لا بد من معرفته بخلاف تأويل الخبر إذا عرف ذلك فتأويل ما أخبر الله تعالى به عن نفسه المقدسة المتصفة بما لها من حقائق الاسماء والصفات هو حقيقة لنفسه المقدسة المتصفة بما لها من حقائق الصفات وتأويل ما أخبر الله تعالى به من الوعد والوعيد هو نفس ما يكون من الوعد والوعيد ولهذا ما يجيء فى الحديث نعمل بمحكمة ونؤمن بمتشابهه لأن ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فيه ألفاظ متشابهة يشبه معانيها ما نعلمه فى الدنيا كما أخبر أن فى الجنة لحما ولبنا وعسلا وخمرا ونحو ذلك وهذا يشبه ما فى الدنيا لفظا ومعنى ولكن ليس هو مثله ولا حقيقته بالاسماء الله تعالى وصفاته أولى وإن كان بينهما وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه أن لا يكون لأجلها الخالق مثل المخلوق ولا حقيقته كحقيقته والاعبار عن الغائب لا يفهم ان لم يعبر عنه بالاسماء المعلومة معانيها فى الشاهد ويعلم بها ما فى الغائب بواسطة العلم بما فى الشاهد مع العلم بالفارق المميز وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم فى الشاهد وفى الغائب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فنحن اذا أخبرنا الله بالغيب الذى اختص به من الجنة والنار علمنا معنى ذلك وفهمنا ما أريد منا فهمه بذلك الخطاب وفسرنا ذلك وأما نفس الحقيقة المخبر عنها مثل التى لم تكن بعد وإنما تكون يوم القيامة فذلك من التأويل الذى لا يعلمه الا الله ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 قالوا الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وكذلك قال ربيعة شيخ مالك قبله الإستواء معلوم والكيف مجهول ومن الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا الايمان فبين ان الاستواء معلوم وان كيفية ذلك مجهول ومثل هذا يوجد كثيرا فى كلام السلف والأئمة ينفون علم العباد بكيفية صفات الله وأنه لا يعلم كيف الله إلا الله فلا يعلم ما هو إلا هو وقد قال النبى لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وهذا فى صحيح مسلم وغيره وقال فى الحديث الآخر اللهم انى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو إستأثرت به فى علم الغيب عندك وهذا الحديث فى المسند وصحيح أبى حاتم وقد أخبر فيه ان لله من الاسماء ما استأثر به فى علم الغيب عندهمفمعانى هذه الاسماء التى إستأثر بها فى علم الغيب عنده لا يعلمها غيره والله سبحانه أخبرنا أنه عليم قدير سميع بصير غفور رحيم الى غير ذلك من اسمائه وصفاته فنحن نفهم معنى ذلك ونميز بين العلم والقدرة وبين الرحمة والسمع والبصر ونعلم ان الاسماء كلها اتفقت فى دلالتها على ذات الله مع تنوع معانيها فهى متفقة متواطئة من حيث الذات متباينة من جهة الصفات وكذلك أسماء النبى مثل محمد وأحمد والماحى والحاشر والعاقب وكذلك أسماء القرآن مثل القرآن والفرقان والهدى والنور والتنزيل والشفاء وغير ذلك ومثل هذه الاسماء تنازع الناس فيها هل هى من قبيل المترادفة لإتحاد الذات او من قبيل المتباينة لتعدد الصفات كما اذا قيل السيف والصارم والمهند وقصد بالصارم معنى الصرم وفى المهند النسبة الى الهند والتحقيق أنها مترادفة فى الذات متباينة فى الصفات ومما يوضح هذا ان الله وصف القرآن كله بأنه محكم وبأنه متشابه وفى موضع آخر جعل منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه فينبغى أن يعرف الأحكام

والتشابه الذى يعمه والإحكام والتشابه الذى يخص بعضه قال الله تعالى {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود 1 فأخبر أنه أحكم آياته كلها وقال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} الزمر 23 فأخبر انه كله متشابه والحكم هو الفصل بين الشيين فالحاكم يفصل بين الخصمين والحكم فصل بين المتشابهات علما وعملا اذا ميز بين الحق والباطل والصدق والكذب والنافع والضار وذلك يتضمن فعل النافع وترك الضار فيقال حكمت السفية وأحكمتها اذا أخذت على يديه وحكمت الدابة وأحكمتها اذا جعلت لها حكمة وهو ما أحاط بالحنك من اللجام واحكام الشيء اتقانه فإحكام الكلام إتقانه بتمييز الصدق من الكذب فى أخباره وتمييز الرشد من الغى فى أوامره والقرآن كله محكم بمعنى الإتقان فقد سماه الله حكيما بقوله {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} لقمان 2 فالحكيم بمعنى الحاكم كما جعله يقص بقوله {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} النمل 76 وجعله مفتيا فى قوله {قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُنَلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} النساء 127 أى ما يتلى عليكم يفتيكم فيهن وجعله هاديا ومبشرا فى قوله {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} الإسراء 9 وأما التشابه الذى يعمه فهو ضد الإختلاف المنفى عنه فى قوله {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء 82 وهو الاختلاف المذكور فى قوله {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} {8} {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} {9} الذاريات 8-9 فالتشابه هنا هو تماثل الكلام وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا فاذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه فى موضع آخر بل يأمر به أو بنظيره أو بملزوماته واذا نهى عن شيء لم يأمر به فى موضع آخر بل ينهى عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته إذا لم يكن هناك نسخ وكذلك إذا اخبر بثبوت شيء لم يخبر بنقيض ذلك بل يخبر بثبوته أو بثبوت ملزوماته واذا اخبر بنفى شيء لم يثبت بل ينفى أو ينفى لوازمه بخلاف القول المختلف الذى ينقض بعضه بعضا فيثبت الشيء تارة وينفيه أخرى أو يأمر به وينهى عنه فى وقت واحد ويفرق بين المتماثلين فيمدح أحدهما ويذم الآخر فالأقوال المختلفة هنا هى المتضادة والمتشابهة هى المتوافقة وهذا التشابه يكون فى المعانى وان اختلفت الألفاظ فاذا كانت المعانى يوافق بعضها بعضا ويعضد بعضها بعضا ويناسب بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض ويقضى بعضها بعضا كان الكلام متشابهها بخلاف الكلام المتناقض الذى يصاد بعضه بعضا فهذا التشابه العام لا ينافى الإحكام العام بل هو مصدق له فإن الكلام المحكم المتن يصدق بعضه بعضا لا يناقض بعضه بعضا بخلاف الإحكام الخاص فإنه ضد التشابه الخاص والتشابه الخاص هو مشابهة الشيء لغيره من وجه مع مخالفته له من وجه آخر بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله وليس كذلك والإحكام هو الفصل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر وهذا التشابه إنما يكون بقدر مشترك بين الشيين مع وجود الفاصل بينهما ثم من الناس من لا يهتدى للفصل بينهما فيكون مشتبهها عليه ومنهم من يهتدى الى ذلك فالتشابه الذى لا يتميز معه قد يكون من الامور النسبية الإضافية بحيث يشتبه على بعض الناس دون بعض ومثل هذا يعرف منه أهل العلم ما يزيل عنهم هذا الإشتباه كما اذا

اشتبه على بعض الناس ما وعدوا به فى الآخرة بما يشهدونه فى الدنيا فظن أنه مثله فعلم العلماء أنه ليس مثله وان كان مشبها له من بعض الوجوه ومن هذا الباب الشبه التى يضل بها بعض الناس وهى ما يشتبه فيها الحق والباطل حتى تشتبه على بعض الناس ومن أوتى العلم بالفصل بين هذا وهذا لم يشتبه عليه الحق بالباطل والقياس الفاسد إنما هو من باب الشبهات لأنه تشبيه للشئ فى بعض الأمور بما لا يشبهه فيه فمن عرف الفصل بين الشئيين إهتدى للفرق الذى يزول به الإشتباه والقياس الفاسد وما من شئيين إلا ويجتمعان فى شئ ويفترقان فى شئ فبينهما اشتباه من وجه وإفتراق من وجه فلهذا كان ضلال بنى آدم من قبل التشابه والقياس الفاسد لا ينضبط كما قال الإمام أحمد أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس فالتأويل فى الأدلة السمعية والقياس فى الأدلة العقلية وهو كما قال والتأويل الخطأ إنما يكون فى الألفاظ المتشابهة والقياس الخطأ إنما يكون فى المعانى المتشابهة وقد وقع بنو آدم فى عامة ما يتناوله هذا الكلام من أنواع الضلالات حتى آل الأمر الى من يدعى التحقيق والتوحيد والعرفان منهم الى أن إشتبه عليهم وجود الرب بوجود كل موجود فظنوا انه هو فجعلوا وجود المخلوقات عين وجود الخالق مع انه لا شئ أبعد عن مماثلة شئ وأن يكون إياه أو متحدا به أو حالا فيه من الخالق مع المخلوق فمن اشتبه عليه وجود الخالق بوجود المخلوقات كلها حتى ظنوا وجودها وجوده فهم اعظم الناس ضلالا من جهة الإشتباه وذلك ان الموجودات تشترك فى مسمى الوجود فرأوا الوجود واحدا ولم يفرقوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع وآخرون توهموا أنه إذا قيل الموجودات تشترك فى مسمى الوجود لزم التشبيه والتركيب فقالوا لفظ الوجود مقول بالإشتراك اللفظى فخالفوا ما اتفق عليه العقلاء مع اختلاف اصنافهم من ان الوجود ينقسم الى قديم ومحدث ونحو ذلك من أقسام الموجودات وطائفة ظنت انه إذا كانت الموجودات تشترك فى مسمى الوجود لزم أن يكون فى الخارج عن الأذهان موجود مشترك فيه وزعموا أن فى الخارج عن الأذهان كليات مطلقة مثل وجود مطلق وحيوان مطلق وجسم مطلق ونحو ذلك فخالفوا الحس والعقل والشرع وجعلوا ما فى الأذهان ثابتا فى الاعيان وهذا كله من نوع الإشتباه ومن هداه الله فرق بين الأمور وإن إشتراك من بعض الوجوه وعلم ما بينهما من الجمع والفرق والتشابه والإختلاف وهؤلاء لا يضلون بالمتشابه من الكلام لأنهم يجمعون بينه وبين المحكم الفارق الذى يبين ما بينهما من الفصل والإفتراق وهذا كما ان لفظ إنا و نحن وغيرهما من صيغ الجمع يتكلم بها الواحد له شركاء فى الفعل ويتكلم بها الواحد العظيم الذى له صفات تقوم كل صفة مقام واحد وله أعوان تابعون له لا شركاء له فإذا تمسك النصرانى بقوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} الحجر 9 ونحوه على تعدد الآلهة كان المحكم كقوله تعالى {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} النحل 22 ونحو ذلك مما لا يحتمل إلا معنى واحدا يزيل ما هناك من الإشتباه وكان ما ذكره من صيغة الجمع مبينا لما يستحقه من العظمة والاسماء والصفات وطاعة المخلوقات من الملائكة وغيرهم وأما حقيقة ما دل عليه ذلك من حقائق الاسماء والصفات وماله من الجنود الذين يستعملهم فى أفعاله فلا يعلمهم إلا هو {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} المدثر 31 وهذا من تأويل المتشابه الذى

لا يعلمه إلا الله بخلاف الملك من البشر إذا قال قد أمرنا لك بعباء فقد علم أنه هو وأعوانه مثل كاتبه وحاجبه وخادمه ونحو ذلك أمروا به وقد يعلم ما صدر عنه ذلك الفعل من إعتقاداته وإرادته ونحو ذلك والله سبحانه وتعالى لا يعلم عباده الحقائق التي اخبر عنها من صفاته وصفات اليوم الآخر ولا يعلمون حقائق ما أراد بخلقه وأمره من الحكمة ولا حقائق ما صدرت عنه من المشيئة والقدرة وبهذا يتبين ان التشابه يكون في الالفاظ المتواطئة كما يكون في الالفاظ المشتركة التي ليست بمتواطئة وان زال الإشتباه بما يميز احد النوعين من اضافة أو تعريف كما اذا قيل فيها انهار من ماء فهناك قد خص هذا الماء بالجنة فظهر الفرق بينه وبين ماء الدنيا لكن حقيقة ما امتاز به ذلك الماء غير معلوم لنا وهو مع ما أعده الله لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله وكذلك مدلول أسمائه وصفاته الذي يختص بها التي هي حقيقة لا يعلمها إلا هو ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد وغيره ينكرون على الجهمية وأمثالهم من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه تأويل ما تشابه عليهم من القرآن على غير تأويله كما قال احمد في كتابه الذي صنفه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله وإنما ذمهم لكونهم تأولوه على غير تأويله وذكر في ذلك ما يشتبه عليهم معناه وان كان لا يشتبه على غيرهم وذمهم على انهم تأولوه على غير تأويله ولم ينف مطلق لفظ التأويل كما تقدم من أن لفظ التأويل يراد به التفسير المبين لمراد الله به فذلك لا يعاب بل يحمد ويراد بالتأويل الحقيقة التي استأثر الله بعلمها فذاك لا يعلمه الا هو وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضوع ومن لم يعرف هذا اضطربت أقواله مثل طائفة يقولون إن التأويل باطل وأنه يجب إجراء اللفظ على ظاهره ويحتجون بقوله تعالى **{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7** ويحتجون بهذه الآية على إبطال التأويل وهذا تناقض منهم لأن هذه الآية تقتضى ان هناك تأويلا لا يعلمه إلا الله وهم ينفون التأويل مطلقا وجهة الغلط ان التأويل الذي استأثر الله بعلمه هو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو وأما التأويل المذموم والباطل فهو تأويل أهل التحريف والبدع الذين يتأولونه على غير تأويله ويدعون صرف اللفظ عن مدلوله الى غير مدلوله بغير دليل يوجب ذلك ويدعون ان في ظاهره من المحذور ما هو نظير المحذور اللازم فيما اثبتوه بالعقل ويصرفونه الى معان هي نظير المعانى التي نفوها عنه فيكون ما نفوه من جنس ما اثبتوه فان كان الثابت حقا ممكنا كان المنفى مثله وان كان المنفى باطلا ممتنعا كان الثابت مثله وهؤلاء الذين ينفون التأويل مطلقا ويحتجون بقوله تعالى **{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7** قد يظنون أنا خوطبنا في القرآن بما لا يفهمه أحد أو بما لا معنى له أو بما لا يفهم منه شيء وهذا مع أنه باطل فهو متناقض لانا إذا لم نفهم منه شيئا لم يجر لنا ان نقول له تأويل يخالف الظاهر ولا يوافقه لا مكان أن يكون له معنى صحيح وذلك المعنى الصحيح لا يخالف الظاهر المعلوم لنا فانه لا ظاهر له على قولهم فلا تكون دلالاته على ذلك المعنى دلالة على خلاف الظاهر فلا يكون تأويلا ولا يجوز نفى دلالاته على معان لا نعرفها على هذا التقدير فان تلك المعانى التي دل عليها قد لا تكون عارفين بها ولأنا اذا لم نفهم اللفظ ومدلوله فلأن لا نعرف المعانى التي لم يدل عليها اللفظ أولى

لأن إشعار اللفظ بما يراد به أقوى من اشعاره بما لا يراد به فاذا كان اللفظ لا اشعار له بمعنى وأما التأويل المذموم والباطل فهو تأويل أهل التحريف والبدع الذين يتأولونه على غير تأويله ويدعون صرف اللفظ عن مدلوله الى غير مدلوله بغير دليل يوجب ذلك ويدعون ان في ظاهره من المحذور ما هو نظير المحذور اللازم فيما اثبتوه بالعقل ويصرفونه الى معان هي نظير المعانى التى نفوها عنه فيكون ما نفوه من جنس ما اثبتوه فان كان الثابت حقا ممكنا كان المنفى مثله وان كان المنفى باطلا ممتنعا كان الثابت مثله وهؤلاء الذين ينفون التأويل مطلقا ويحتجون بقوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } آل عمران 7 قد يظنون أنا خوطبنا فى القرآن بما لا يفهمه أحد أو بما لا معنى له أو بما لا يفهم منه شيء وهذا مع أنه باطل فهو متناقض لانا إذا لم نفهم منه شيئا لم يجز لنا ان نقول له تأويل يخالف الظاهر ولا يوافقه لا مكان أن يكون له معنى صحيح وذلك المعنى الصحيح لا يخالف الظاهر المعلوم لنا فانه لا ظاهر له على قولهم فلا تكون دلالاته على ذلك المعنى دلالة على خلاف الظاهر فلا يكون تأويلا ولا يجوز نفى دلالاته على معان لا نعرفها على هذا التقدير فان تلك المعانى التى دل عليها قد لا تكون عارفين بها ولأنا اذا لم نفهم اللفظ ومدلوله فلأن لا نعرف المعانى التى لم يدل عليها اللفظ أولى لأن إشعار اللفظ بما يراد به أقوى من اشعاره بما لا يراد به فاذا كان اللفظ لا اشعار له بمعنى من المعانى لا يفهم منه معنى أصلا لم يكن مشعرا بما اريد به فلأن لا يكون مشعرا بما لم يرد به أولى فلا يجوز ان يقال إن هذا اللفظ متأول بمعنى انه مصروف عن الإحتمال الراجح الاحتمال المرجوح فضلا ع يقال إن هذا التأويل لا يعلمه إلا الله اللهم إلا ان يراد بالتأويل ما يخالف ظاهره المختص بالخلق فلا ريب ان من أراد بالظاهر هذا لا بد وان يكون له تأويل يخالف ظاهره لكن اذا قال هؤلاء إنه ليس لها تأويل يخالف الظاهر أو انها تجرى على المعانى الظاهرة منها كانوا متناقضين وان ارادوا بالظاهر هنا معنى وهناك معنى فى سياق واحد من غير بيان كان تلبيسا وان ارادوا بالظاهر مجرد اللفظ أى تجرى على مجرد اللفظ الذى يظهر من غير فهم لمعناه كان إبطالهم للتأويل أو إثباته تناقضا لأن من أثبت تأويلا أو نفاه فقد فهم معنى من المعانى وبهذا التقسيم يتبين تناقض كثير من الناس من نفاة الصفات ومثبتيها فى هذا الباب¹

قال الإمام أحمد في خطبته فيما صنفه من الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله قال الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من تائه ضال قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس واقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون فى الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم فنعود بالله من فتن المضلين ويروى نحو هذه الخطبة عن عمر بن

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 56-68 و مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 69-71

الخطاب رضي الله تعالى عنه كما ذكر ذلك محمد بن وضاح في كتاب الحوادث والبدع فقد وصفوا في هذا الكلام بأنهم مع اختلافهم في الكتاب فهم كلهم مخالفون له وهم مشتركون في مفارقتهم يتكلمون بالكلام المتشابه ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم حيث لبسوا الحق بالباطل¹

العلم الحقيقي يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} آل عمران 7 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون²

يقال في الدعاء يارب

{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} آل عمران 8 فالسؤال كقول السائل لله أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته وليس ذلك إقساما عليه فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم وعفوه من مقتضى اسمه العفو ولهذا لما قالت عائشة للنبي إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول قال قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادي وفي الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلا أن

¹درء التعارض ج: 1 ص: 14-19

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

يقول يا دليل الحيارى دنى على طريق الصادقين واجعلنى من عبادك الصالحين وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ولهذا يقال فى الدعاء يارب يارب¹

المذنب إذا استغفر فقد تأسى بالسعداء

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين كآدم وغيره وإذا أصر واحتج بالقدر فقد تأسى بالأشقياء كإبليس ومن اتبعه من الغاوين فكان من ذكره أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه بعد أن ذكر أن الجميع من عند الله تنبيها على الاستغفار والتوبة والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله والدعاء بذلك فى الصباح والمساء وعند المنام كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر الصديق أفضل الأمة حيث علمه أن يقول اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن اقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم فيستغفر مما مضى ويستعيز مما يستقبل فيكون من حزب السعداء وإذا علم أن الحسنه من الله الجزاء والعمل سألته أن يعينه على فعل الحسنات بقوله **{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}** آل عمران²

معاد الأبدان فى اليوم الآخر

قال تعالى **{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** التوبة 29 مع ان النصرارى يقرون بمعاد الأبدان لكن لما انكروا ما اخبر به الرسول من الأكل والشرب ونحو ذلك صاروا ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر وهؤلاء الفلاسفة لا يقرون بمعاد الأبدان ولهم فى معاد النفوس ثلاثة اقوال والثلاثة تذكر عن الفارابى نفسه انه كان يقول تارة هذا وتارة هذا وتارة هذا منهم من يقر بمعاد الأنفس مطلقا ومنهم من يقول انما تعاد النفوس العالمه دون الجاهله فان العالمه تبقى بالعلم فان النفس تبقى ببقاء معلومها والجاهله التي ليس لها معلوم باق تفسد وهذا قول طائفة من اعيانهم ولهم فيه مصنفات ومنهم من ينكر معاد الأنفس كما ينكر معاد الأبدان وهو قول طوائف منهم وكثير منهم يقول بالتناسخ وليس شيء من ذلك ايمانا باليوم الآخر فان اليوم الآخر هو الذي ذكره

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 207

²الحسنه والسيئه ج: 1 ص: 43

الله في قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ } آل عمران 9 وقوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ {49} لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ {50} الواقعة 49-50 ¹

لطائف لغوية

1- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} آل عمران 2 فالحي يدل على الحياة²

2- ان الله حي منزه عن الموت³

3- فالحي نفسه مستلزم لجميع الصفات وهو أصلها ولهذا كان أعظم آية في القرآن {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 وهو الإسم الأعظم لأنه ما من حي إلا وهو شاعر مرید فاستلزم جميع الصفات فلو إكتفى في الصفات بالتلازم لإكتفى بالحي وهذا ينفع في الدلالة والوجود⁴

4- قال {وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} آل عمران 4 ولفظ {الْفُرْقَانَ} يتناول ما يفرق بين الحق والباطل مثل آيات التي بعث بها الأنبياء كالحية واليد البيضاء وإنفلاق البحر والقرآن فرقان بين هذا الوجه من جهة أنه آية عظيمة لنبوة محمد وعلم عظيم وهو أيضا فرقان باعتبار أنه فرق بينه وبين الحق والباطل كما قال {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} الفرقان 1 ولهذا فسر جماعة الفرقان هنا به ولفظ الفرقان أيضا يتناول نصر الله لأنبيائه وعباده المؤمنين وإهلاك أعدائهم فإنه فرق به بين أوليائه وأعدائه وهو أيضا من الأعلام قال تعالى {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنْفِي الْجَمْعَانِ} الأنفال 41 والآيات التي يجعلها الله دلالة على صدق الأنبياء هي مما ينزله كما قال {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً} الأنعام 37 وقال {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} الشعراء 4 وقال تعالى {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّن السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} البقرة 59 وبسط هذا له موضع آخر⁵

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 458

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 294

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 311

⁵مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 277

5- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} آل عمران 2 فمعنى القيوم أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم ولا يفنى بوجه من الوجوه¹

6- وعطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذي ذكر لهما والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزأه ولا يعرف لزومه له كقوله {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} الفرقان 59 ونحو ذلك وقوله {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة 98 وقوله {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} {3} من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} {4} آل عمران 3-4 وهذا هو الغالب ويليهِ أن يكون بينهما لزوم كقوله {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ} البقرة 42 وقوله {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} النساء 115 وقوله {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} النساء 136 فان من كفر بالله فقد كفر بهذا كله فالمعطوف لازم للمعطوف عليه وفي الآية التي قبلها المعطوف عليه لازم فانه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وفي الثانى نزاع وقوله {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ} البقرة 42 هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا وهكذا أهل البدع لا تجد أحدا ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل الا وقع فى بدعة ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئا من السنة كما جاء فى الحديث ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها رواه الامام أحمد²

7- وإنما خرج الكلام في صورة اثنين بذكر نعتين لشيء واحد كما في قوله تعالى {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} {3} من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} {4} آل عمران 3-4 قال قتادة والربيع هو القرآن فرق فيه بين الحلال والحرام والباطل وهذا لأن الشيء الواحد إذا كان له وصفان كبيران فهو مع وصف كالشيء الواحد وهو مع الوصفين بمنزلة الاثنين حتى لو كثرت صفاته لتتزل منزلة أشخاص ألا ترى أن الرجل الذي يحسن الحساب والطب بمنزلة حاسب وطبيب والرجل الذي يحسن النجارة والبناء بمنزلة نجار وبناء³

8- {وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} آل عمران 4 عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 25

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 173

³الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 337 و مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 314

⁴الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

9- {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ} آل عمران 4 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله {وَاجْتَنِبْنَا هُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الأنعام 87 وكما في قوله {شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ} النحل 121 {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} الشورى 13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا¹

10- والفرقان إنما هو الفرقان الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم فهو {الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} الفرقان 1 وهو الذى فرق الله به بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال وبين الرشاد والغى وبين طريق الجنة وطريق النار وبين سبيل أولياء الرحمن وسبيل أولياء الشيطان²

11- {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} آل عمران 4 وعذابه اسم جامع لكل شر ودار العذاب الخالص هي النار³

12- لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 6 عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزه عن السفه⁴

13- وذلك أن لفظ التأويل قد صار بسبب تعدد الاصطلاحات له ثلاث معان أحدها أن يراد بالتأويل حقيقة ما يؤول إليه الكلام وإن وافق ظاهره وهذا هو المعنى الذي يراد بلفظ التأويل في الكتاب والسنة كقوله تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} الأعراف 53 ومنه قول عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 415

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

⁴الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

يقول في ركوعه وسجوده سبحانه اللهم ربنا ولك الحمد اللهم اغفر لي يتأول القرآن والثاني يراد بلفظ التأويل التفسير وهو اصطلاح كثير من المفسرين ولهذا قال مجاهد إمام أهل التفسير إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه فإنه أراد بذلك تفسيره وبيان معانيه وهذا مما يعلمه الراسخون والثالث أن يراد بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره الذي يدل عليه ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل منفصل يوجب ذلك وهذا التأويل لا يكون إلا مخالفا لما يدل عليه اللفظ ويبينه وتسمية هذا تأويلا لم يكن في عرف السلف وإنما سمي هذا وحده تأويلا طائفة من المتأخرين الخائضين في الفقه وأصوله والكلام وظن هؤلاء أن قوله تعالى **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}** إراد به هذا المعنى ثم صاروا في هذا التأويل على طريقين قوم يقولون إنه لا يعلمه إلا الله وقوم يقولون إن الراسخين في العلم يعلمونه وكلا الطائفتين مخطئة فإن هذا التأويل في كثير من المواضع أو أكثرها وعامتها من باب تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات القرامطة والباطنية وهذا هو التأويل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على نفيه وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ورموا في آثارهم بالشهب¹

14- قوله **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}** إراد به ما يؤول إليه الكلام من الحقائق التي لا يعلمها إلا الله و من قال إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فالمراد به تفسير القرآن الذي بينه الرسول و الصحابة و إنما الخلاف في لفظ التأويل على المعنى المرجوح و أنه حمل اللفظ على الإحتمال المرجوح دون الراجح لدليل يقترن به فهذا اصطلاح متأخر و هو التأويل الذي أنكره السلف و الأئمة تأويلات أهل البدع و كذلك يقول أحمد في رده على الجهمية الذين تأولوا القرآن على غير تأويله و قد تكلم أحمد على متشابه القرآن و فسره كله و منه تفسير متفق عليه عند السلف و منه تفسير مختلف فيه²

15- قال تعالى **{وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}** آل عمران 7 قال تعالى **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى}** طه 54 أي العقول وقال تعالى **{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ}** الفجر 5 أي لذي عقل وقال تعالى **{وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}** البقرة 197 وقال **{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}** الأنفال 22 وقال تعالى **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار **{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** الملك 10 وقال تعالى

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 69-71

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 408

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} الأعراف 179 وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} الفرقان 44¹

16- فيقال اسم الايمان تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الاسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما وتارة يذكر مقرونا اما بالاسلام كقوله في حديث جبرائيل ما الاسلام وما الايمان وكقوله تعالى {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} الأحزاب 35 وكذلك ذكر الايمان مع العمل الصالح وذلك في مواضع من القرآن كقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 82 واما مقرونا بالذين أوتوا العلم كقوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ} الروم 56 وقوله {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} المجادلة 11 وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم فانهم خيارهم قال تعالى {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} آل عمران 7 وقال {لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} النساء 162²

17- قال تعالى {وَأَخْرَجْنَا مُتَشَابِهَاتٍ} آل عمران 7 وقول جمهور الناس إنه قد يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه فرق بينهما عند الإطلاق فإن العقل يعلم أن الأعراض مثل الألوان تشته في كونها ألوانا مع أن السواد ليس مثل البياض وكذلك الأجسام والجواهر عند جمهور العقلاء تشته في مسمى الجسم والجوهر وإن كانت حقائقها ليست متماثلة فليست حقيقة الماء مماثلة لحقيقة التراب ولا حقيقة النبات مماثلة لحقيقة الحيوان ولا حقيقة النار مماثلة لحقيقة الماء وإن اشتركا في أن كلا منهما جوهر وجسم وقائم بنفسه وأيضا فمعلوم في اللغة أنه يقال هذا يشبه هذا وفيه شبه من هذا إذا أشبهه من بعض الوجوه وإن كان مخالفا له في الحقيقة³

18- {وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} آل عمران 8 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 14

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 445

⁴مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

ال عمران 10-17

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} {10} كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ {11} قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَابُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ {12} قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِيهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ {13} زَيْنٌ لِّلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ {14} قُلْ أَوْسَبُّكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {15} الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {16} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَاتِنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ {17}

سنة الله وعادته

وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِيهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 13 وإنما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الاصابع هن سواء واعتبروها بدية الاسنان فإذا عرفت قصص الانبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الامر في المستقبل مثلما كان في الماضي فعلم أن من صدقهم كان سعيدا ومن كذبهم كان شقيا وهذه سنة الله وعادته ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته وأنه لا ينقضها ولا يبدها قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} {10} كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ {11} ال عمران 10-11 قال ابن قتيبة وغيره الدأب العادة ومعناه كعادة آل فرعون يريد كفر اليهود كل فريق بنبيهم وقال الزجاج هو

الاجتهاد أي دأب هؤلاء وهو اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي كتظاهر آل فرعون على موسى وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة كسنة آل فرعون وقال النضر بن شميل كعادة آل فرعون يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون وقال طائفة نظم الآية أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الامم الخالية أخذناهم مثل آل فرعون وكفار الامم الخالية أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم وفي تفسير أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس كدأب فرعون قال كصنيع آل فرعون قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد والضحاك وأبي مالك وعكرمة نحو ذلك قال وروى عن الربيع بن أنس كشبه آل فرعون وعن السدي قال ذكر الذين كفروا كمثل الذين من قبلهم في التكذيب والجحود قلت فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل فإن لفظ الدأب يدل عليه قال الجوهري دأب فلان في عمله أي جد وتعب دأبا ودعوبا فهو دئب وأدأبته أنا والدائبان الليل والنهار قال والدأب يعني بالتسكين العادة والشأن وقد يحرك قال الفراء أصله من دأبت إلا أن العرب حولت معناه إلى الشأن قلت الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب الذي هو الاجتهاد والصواب ما قاله الجمهور أن الدأب بالتسكين هو العادة وهو غير الدأب بالتحريك إذا زاد اللفظ زاد المعنى والذي في القرآن مسكن ما علمنا أحدا قرأه بالتحريك وهذا معروف في اللغة يقال فلان دأبه كذا وكذا أي هذا عادته وعمله الملازم له وإن لم يكن في ذلك تعب واجتهاد ومنه قوله تعالى {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ} إبراهيم 33 والدائب نظير الدائم والباء والميم متقاربان ومنه اللازب واللازم قال ابن عطية دائبين أي متماديين ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه ان هذا الجمل شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه أي تديمه في العمل له والخدمة قال وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثرة قال وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفعه الى ابن عباس أنه قال معناه دائبين في طاعة الله قال وهذا قول ان كان يراد به أن الطاعة انقيادهما للتسخير فذلك موجود في طاعة قوله وسخر وإن كان يراد أنها طاعة مقدورة كطاعة العبادة من البشر فهذا بعيد قلت ليس هذا ببعيد بل عليه دلت الأدلة الكثيرة كما هو مذكور في مواضع وقالت طائفة منهم البغوي وهذا لفظه دائبين يجريان فيما يعود الى مصالح عباد الله لا يفتران قال ابن عباس دعوبهما في طاعة الله ولفظ أبي الفرج داءبين في اصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتران قال ومعنى الدعوب مرور الشيء على عادة جارية فيه قلت واذا كان دأبهم هو عادتهم وعملهم الذي كانوا مصريين عليه فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل فيشبهونهم في الجزاء فيحقيق بهم ما حاق بأولئك هذا هو المقصود ليس المقصود التشبيه في الجزاء كقوله { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ } {10} كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب {11} ال عمران 10-11 أي فهؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله اذا جاءهم كدأب آل فرعون فهذا كله يقتضي التشبيه في العذاب وأما الطائفة الاخرى فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم وعقوبته لهم قال مكى بن أبي طالب الكاف في

كدأب في موضع نصب نعت لمحذوف تقديره غيرناهم كما غيروا تغييرا مثل عادتنا في آل فرعون ومثلها الآية الأولى إلا أن الأولى العادة في العذاب تقديره فعلنا بهم ذلك فعلا مثل عادتنا في آل فرعون وقد جمع بعضهم بين المعنيين فقال أبو الفرج كدأب آل فرعون أي كعادتهم والمعنى كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك قلت الدأب العادة وهو مصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى فإذا أضيف إلى الفاعل كان المعنى كفعل آل فرعون وإذا أضيف إلى المفعول كان المعنى كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم يقال هذه عادة هؤلاء لما فعلوه ولما يصيبهم وهي عادة الرب وسنته فيهم والتحقيق أن اللفظ يتناول الأمرين جميعا وقد تقدم عن الفراء والجوهري أن الدأب العادة والشأن وهذا كقوله {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} آل عمران 137 روى ابن أبي حاتم بالاسناد المعروف عن مجاهد قد خلت من قبلكم سنن من الكفار والمؤمنين في الخير والشر وعن أبي اسحاق أي قد مضت مني وقائع نعمة في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين فرأوا مثلات قد مضت مني فيهم فقد فسرت السنن بأعمالهم وجزائهم¹

السنة لا تتبدل ولا تتحول

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} {10} كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {11} آل عمران 10-11 وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع و السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الأصابع بالاسنان فإذا قال {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} الحشر 2 وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} آل عمران 137²

¹النبوات ج: 1 ص: 265-268

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 23

وقوله **{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ النَّقَاتِ} آل عمران 13 إلى قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل**

عمران 13 فإنه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول بل هو سبحانه لا يفوت بين المتماثلين وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل وهذا القول أشبه بأصول الجمهور القائلين بالحكمة في الخلق والأمر وأنه سبحانه كما ينكر التسوية بين المختلفات فهو يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين كما دل القرآن على هذا في مواضع كقوله تعالى **{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} القلم 35** وقوله **{أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} القمر 43** وقوله **{كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} آل عمران 11** ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الإعتبار بها والإعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن وهي كثيرة¹

وقال تعالى **{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ النَّقَاتِ فَمِنَ النَّقَاتِ الَّتِي أَتَتْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْآخَرَى الَّتِي أَتَتْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 13** يذكر الله تعالى قصص رسله ومن آمن

بهم وما حصل لهم من النصر والسعادة وحسن العاقبة وقصص من كفر بهم وكذبهم وما حصل لهم من البلاء والعذاب وسوء العاقبة وهذا من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم وكذب من خالفهم وفجوره ثم إنه سبحانه بين أن ذلك يعلم بالبصر أو السمع أو بهما فانه سبحانه وتعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة²

ومن اعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف فاذا رأى الشيين المتماثلين علم ان هذا مثل هذا فجعل حكمها واحد كما اذا رأى الماء والماء والتراب والهواء والهواء ثم حكم بالحكم الكلي على القدر المشترك واذا حكم على بعض الاعيان ومثله بالنظير وذكر المشترك كان احسن في البيان فهذا قياس الطرد واذا رأى المختلفين كالماء والتراب فرق بينهما وهذا قياس العكس وما أمر الله به من الاعتبار في كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس فانه لما اهلك المكذبين للرسول بتكذيبهم كان من الاعتبار ان يعلم ان من فعل مثل ما فعلوا اصابه مثل ما اصابهم فيتقى تكذيب الرسل حذرا من العقوبة وهذا قياس الطرد ويعلم ان من لم يكذب الرسل لا يصيبه ذلك وهذا قياس العكس وهو المقصود من الاعتبار بالمعذبين فان المقصود أن ما ثبت في الفرع عكس حكم الاصل لا نظيره والاعتبار يكون بهذا وبهذا وقال تعالى **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111** وقال **{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ} آل عمران 13 إلى قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 13** وقد قال تعالى **{اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} الشورى 17** وقال **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} الحديد 25** والميزان فسره السلف بالعدل وفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان وقد أخبر تعالى انه انزل ذلك كما

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 89 ورسالة في لفظ السنة في القرآن ج: 1 ص: 55

² العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 132

انزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط فما يعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو من الميزان وكذلك ما يعرف به اختلاف المختلفات¹

الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب

الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب وأنه قدر ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة وأنه علم ذلك كان هذا كذبا و بهتاناً بخلاف ما إذا قال {فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} البقرة 37 فأكلاً منها فبدت لهما سواتهما و طفقاً يخصفان عليهما من ورق الجنة فإنه يكون صادقاً في ذلك و الله سبحانه علم ما يكون من آدم قبل أن يكون و هو عالم به بعد أن كان و كذلك كل ما أخبر به من قصص الأنبياء فإنه علم أنه أهلك نوح و عاد و ثمود و فرعون و لوط و مدين و غيرهم بذنوبهم و أنه نجى الأنبياء و من إتبعهم بإيمانهم و تقواهم كما قال {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} الأعراف 165 و قال {فَكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} العنكبوت 40 الآية و قال {ذَلِكَ جَزَايَاهُمْ بِبِغْيِهِمْ} الأنعام 146 و قال {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} آل عمران 11²

الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة

فإنه أتاهم بجلية ما في الصحف الأولى كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئاً فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبي وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مقربين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولاً بالتواتر وكان مما أقر به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكنفه هذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك وقد أخبر بالغيوب المستقبلية وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَّيْسَ لَهُمْ شُرَكَاءُ فِي شَرِّهِمْ وَالَّذِينَ هُمْ يُشْرِكُونَ} المائدة 12 فكان كما أخبرهم غالبوا في الدنيا كما شاهدته الناس وهذا يصدق الخبر الأخير وهو أنهم يحشرون إلى

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 239 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 371

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 278

جهنم وبئس المهاد وقد أيده تأييدا لا يؤيد به إلا الأنبياء بل لم يؤيد أحد من الأنبياء كما أيد به كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع وجعله سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم¹

قص الله علينا قصص من قبلنا عبرة لنا

فان نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي او بالعموم المعنوي وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت اولها وانما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا فنشبه حالنا بحالهم ونقيس او اخر الامم بأوائلها فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة واجمل قصص الانبياء ثم قال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ} يوسف 111 اي هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفتري من القصص المكذوبة كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ} {25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ} {26} النازعات 25-26 وقال في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع اعدائه ببدر وغيرها {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلِيهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 13 وقال تعالى في محاصرته لبنى النضير {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} الحشر 2 فأمرنا ان نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الامم وذكر في غير موضع ان سنته في ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة فقال تعالى {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً} {60} ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً} {61} سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً} {62} الأحزاب 60-62 وقال تعالى {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأذبار ثم لا يجِدُونَ وِلياً وَلَا نَصيراً} {22} سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً} {23} الفتح 22-23 واخبر سبحانه ان دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المتقدمين فينبغي للعلاء ان يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده ودأب الامم وعاداتهم²

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 409-410

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 425-427

قال تعالى {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} {35} فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ} {36} وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} {37} الذاريات 35-37 و قال فى سفينة نوح {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} القمر 15 فأخبر أنه أبقي آيات و هي العلامات و الدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين و حسن عاقبتهم فى الدنيا و أخبار الكفار و سوء عاقبتهم فى الدنيا هو من باب الآيات و الدلالات التى يستدل بها و يعتبر بها علما و وعظا فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل و يفيد الترغيب و التهيب و يدل ذلك على أن الله يرضي عن أهل طاعته و يكرمهم و يغضب على أهل معصيته و يعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل و يستدل بأحكام الأفعال على علمه لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل و بالتخصيص على مشيئته لأن التخصيص مستلزم لإرادته فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته لأن تخصيص الفعل بما هو محمود فى العاقبة مستلزم للحكمة و يستدل بتخصيص الأنبياء و إتباعهم بالنصر و حسن العاقبة و تخصيص مكذبيهم بالخزي و سوء العاقبة على أنه يأمر و يحب و يرضي ما جاءت به الأنبياء و يكره و يسخط ما كان عليه مكذبوهم لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام و النجاة و الذكر الحسن و الدعاء و تخصيص الآخر بالعذاب و الهلاك و قبح الذكر و اللعنة يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول و بغض ما فعله الصنف الثانى¹

سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد

وقد أيد الله سبحانه وتعالى تأييدا لا يؤيد به إلا الأنبياء بل لم يؤيد أحد من الأنبياء كما أيد به كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع وجعله سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره وكل من أيد به الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقا كما أيد نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان بل وأيد شعيبا وهودا وصالحا فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهذا هو الواقع فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وسنته يعرف بها ما يصنع ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب على تأييدا لا يمكن أحدا معارضته وهكذا أخبرت الانبياء قبله أن الكذاب لا يتم الله أمره ولا ينصره ولا يؤيده فصار هذا معلوما من هذه الجهات ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله فى الأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم **قال تعالى {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلِيهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}** آل عمران 13²

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 121
²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 416

أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث وحين المبعث في حياتهم وبعد موتهم فقبل المبعث مثل إخبار من تقدم من الأنبياء به ومثل الإرهاصات الدالة عليه وأما حين المبعث فظاهر وأما في حياته فمثل نصره وإنجائه وإهلاك أعدائه وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه وإهلاك أعدائه كما قال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر 51 ومحمد صلى الله عليه وسلم جعلت له الآيات البيّنات قبل مبعثه وحين مبعثه وفي حياته وبعد موته إلى الساعة وإلى قيام الساعة فإن ذكره وذكر كتابه والبشارة بذلك موجود في الكتب المتقدمة كما قد بسط في موضعه والخليل دعا به فقال في دعائه لذريته { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } البقرة 129 ولما ولد اقترن بمولده من الآيات ما هو معروف وجرى ذلك العام قصة أصحاب الفيل المشهورة وكان يحصل له في مدة نشأته من الآيات والدلائل أمور كثيرة قد ذكر طرف منها في كتب دلائل النبوة والسيره وغيرها مثل الآيات التي حصلت لمرضعته لما صار عندها ومثل ما شوهد من أحواله في صغره وأما انتصار الله له ولأتباعه وإعلاء ذكره ونشر لسان الصدق له وإهلاك أعدائه وإذلال من يحاده ويشاقه وإظهار دينه على كل دين باليد واللسان والدليل والبرهان فهذا مما يطول وصف تفصيله قال تعالى { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ } آل عمران 13¹

مدح الله العلم والعقل والفقہ

*قد مدح الله العلم والعقل والفقہ وهذا كثير في القرآن يأمر ويمدح التفكير والتدبر والتذكر والنظر والاعتبار والفقہ والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق ونحو ذلك من انواع العلم واسبابه وكماله ويذم اصدقاء ذلك²

الله سبحانه بين كل ما يحتاج إليه في أصول الدين

*قال تعالى { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } فصلت 53 والضمير عائد على القرآن كما قال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {52} سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } فصلت 52-53 وأما قول طائفة

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 411

²الاستقامة ج: 2 ص: 158

من المتفلسفة ومن تبعهم من المتكلمة والمتصوفة أن الضمير عائد إلى الله وأن المراد ذكر طريق من معرفته بالإستدلال بالعقل فتفسير الآية بذلك خطأ من وجوه كثيرة وهو مخالف لما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها فبين سبحانه أنه يرى الآيات المشهورة ليبين صدق الآيات المسموعة مع أن شهادته بالآيات المسموعة كافية لأنه سبحانه لم يدل عباده بالقرآن بمجرد الخبر كما يظنه طوائف من أهل الكلام يظنون أن دلالة القرآن إنما هو بطريق الخبر والخبر موقوف على العلم بصدق المخبر الذي هو الرسول والعلم بصدقه موقوف على إثبات الصانع والعلم بما يجب ويجوز ويمتنع عليه والعلم بجواز بعثه الرسل والعلم بالآيات الدالة على صدقهم ويسمون هذه الأصول العقلية لأن السمع عندهم موقوف عليها وهذا غلط عظيم وهو من اعظم ضلال طوائف من أهل الكلام والبدع فإن الله سبحانه بين في كتابه كلما يحتاج إليه في أصول الدين قرر فيه التوحيد والنبوة والمعاد بالبراهين التي لا ينتهي إلى تحقيقها نظر خلاف المتكلمين من المسلمين والفلاسفة وأتباعهم واحتج فيه بالأمثال الصمدية التي هي المقاييس العقلية المفيدة لليقين وقد بسطنا الكلام في غير هذا الموضوع وأما الآيات المشهودة فإن ما يشهد وما يعلم بالتواتر من عقوبات مكذبي الرسل ومن عصاهم ومن نصر الرسل واتباعهم على الوجه الذي وقع وما علم من إكرام الله تعالى لأهل طاعته وجعل العقاب له وانتقامه من أهل معصيته وجعل الدائرة عليهم فيه عبرة تبين أمره ونهيه ووعدته ووعدته وغير ذلك مما يوافق القرآن ولهذا قال تعالى {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ التَّقَىٰ فِنَّهُ تَقَاتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ} آل عمران 13 إلى قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 13¹

لا يمكن في الأصل المعتبر فيه تعديد ما يعتبر به

* وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع كقوله {أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} البقرة 266 فإن هذا يحتاج إلى تفكير و لهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس بالجواب الذي ارضاه ونظير ذلك ذكر القصص فإنها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار و لا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب فيقال فيها {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 و يقال عقب حكايتها {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} الحشر 2 و يقال {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ التَّقَىٰ} آل عمران 13 إلى قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 13 و الاعتبار هو القياس بعينه كما قال ابن عباس لما سئل عن دية

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 331-332

الأصابع فقال هي سواء و اعتبروا ذلك بالأسنان أي قيسوها بها فإن الأسنان مستوية الدية مع اختلاف المنافع فكذلك الأصابع و يقال اعتبرت الدراهم بالصنجة إذا قدرتها بها ¹

كل عاص لله تعالى جاهل

*الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن والسارق لا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن كامل الإيمان فإنه لو كان اعتقاده بقبح ذلك الفعل اعتقاداً تاماً لم يفعله بحال ولهذا كان كل عاص لله تعالى جاهلاً كما قال ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لو كان عالماً حق العلم بما فعله لم يفعل القبيح ولم يترك الواجب بل قد زين لكل أمة عملهم لكن العاصي إذا كان معه أصل الإيمان فإنه لا يزين له عمله من كل وجه بل يستحسنه من وجه ويبغضه من وجه ولكن حين فعله يغلب تزيين الفعل ولذلك قال **{زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ}** آل عمران 14 فإن هنا شيئين حب الشهوات وأنه زين ذلك الفحش وحسن فأوأ تلك المحبة حسنة فلذلك استقرت هذه المحبة عندهم وتمتعوا بهذه المحبات فإذا رأوا ذلك الحب قبيحاً لما يتبعه من الضرر لم يستقر ذلك في قلوبهم فإن رؤية ذلك الحب حسناً يدعو إليه قبيحاً ينفر عنه ²

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاً وَرَبِيّاً}

*قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم وقد قال تعالى عن المنافقين {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} المنافقون 4 وقال تعالى {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاً وَرَبِيّاً} مريم 74 والأثاث المال من اللباس ونحوه والرئى المنظر فأخبر أن الذين أهلكهم قبلهم كانوا أحسن صوراً وأحسن أثاثاً وأموالاً ليبين أن ذلك لا ينفع عنده ولا يعبأ به وقال النبي لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى وفي السنن عنه أنه قال البذاذة من الإيمان وأيضاً فقد حرم علينا من لباس الحرير والذهب وأنية الذهب والفضة ما هو من أعظم الجمال في الدنيا وحرم الله الفخر والخيلاء واللباس الذى فيه الفخر والخيلاء كإطالة الثياب حتى ثبت في الصحيح عنه أنه قال من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ومثل ذلك ما فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً وفى الصحيح عن ابن عمر أن النبي

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 57-58

²الاستقامة ج: 1 ص: 368

قال بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة وقال تعالى {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ اتِّكُم وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} الأعراف 26 فأخبر أن لباس التقوى خير من ذلك وقال تعالى {أَوْ مَنْ يُنشأ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} الزخرف 18 وقال تعالى في حق قارون {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ} القصص 79 قالوا بثياب الأرجوان ولهذا ثبت عن عبدالله ابن عمرو قال رأى رسول الله على ثوبين معصفرين فقال إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسهما قلت أغسلهما قال أحرقهما ولهذا كره العلماء الأحمر المشبع حمرة كما جاء النهى عن الميثرة الحمراء وقال عمر بن الخطاب دعوا هذه البراقات للنساء والآثار في هذا ونحوه كثيرة وقال تعالى {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} النور 30 إلى قوله {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} النور 31 وقال النبي في الحديث الصحيح عن جرير بن عبدالله قال سألت رسول الله عن نظرة الفجأة فقال أصرف بصرك وفي السنن أنه قال لعلى يا على لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة وقد قال تعالى {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} طه 131 وقال {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} الحجر 88 وقال **{زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ} آل عمران 14** إلى قوله **{قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} آل عمران 15** وقد قال تعالى مع ذمه لما ذمه من هذه الزينة {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الأعراف 32 فنقول اعلم أن ما يصفه النبي من محبته للأجناس المحبوبة وما يبغضه من ذلك هو مثل ما يأمر به من الأفعال وينهى عنه من ذلك فإن الحب والبغض هما اصل الأمر والنهى وذلك نظير ما يعده على الأعمال الحسنة من الثواب ويتوعد به على الأعمال السيئة من العقاب فأمره ونهيه ووعد ووعده وحبه وبغضه وثوابه وعقابه كل ذلك من وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذه القاعدة في غير موضع لتعلقها بأصول الدين وفروعه فإن من أكبر شعبها¹

جعل المزين حب الشهوات

* ذكر في الإيمان أنه حبه إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم حتى رأوه حسنا فإن الشيء إذا حبب وزين لم يترك بحال قال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} {7} الحجرات 7 وهنا أخبر سبحانه أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وفي الشهوات قال **{زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ} آل**

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 128-129

عمران 14 ولم يقل المزين بل ذكر العموم وقال تعالى {كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ} الأنعام 108 وكما حذف المزين هناك قال {زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ} آل عمران 14 فجعل المزين نفس الحب لها لم يجعل المزين هو المحبوب كما أخبر أنه زين لكل أمة عملها فإن المزين نفس الحب لها لم يجعل المزين هو المحبوب بل هو حب الشهوات فإن المزين إذا كان نفس الحب والعمل لم ينصرف القلب عن ذلك بخلاف ما لو كان المزين هو المحبوب فقد زين الشيء المحبوب ولكن الإنسان لا يحبه لما يقوم بقلبه من العلم بحاله والبغض¹

الوسيلة التامة الى سعادة الدنيا والآخرة

* وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوه في الغار بأعمالهم فانه سأله هذا بيره العظيم لوالديه وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة لأن هذه الأعمال أمر الله بها ووعد الجزاء لأصحابها فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله {قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} {15} الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} {16} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} {17} آل عمران 15-17 وكان ابن مسعود يقول في السحر اللهم دعوتى فأجبت وأمرتتى فأطعت وهذا سحر فاغفر لى²

* فإن الأعمال الصالحة التى أمر بها الرسول هى الوسيلة التامة الى سعادة الدنيا والآخرة ومثل هذا كقول المؤمنين {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} آل عمران 16 فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء³

* {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} آل عمران 16 فالذنوب المعصية والمعصية تضییع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي⁴

جميع ما يفعل الله بعبد من الخير من مقتضى اسمه الرب

* {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} آل عمران 16 فالسؤال كقول السائل لله أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض إذا الجلال والإكرام وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأسألك بكل اسم هو لك سميت به

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 369

² مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 288

³ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 309

⁴ مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 362

نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته وليس ذلك إقساما عليه فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم وعفوه من مقتضى اسمه العفو ولهذا لما قالت عائشة للنبي إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول قال قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني وهدايتة ودلالته من مقتضى اسمه الهادي وفي الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلا أن يقول يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين واجعلني من عبادك الصالحين وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ولهذا يقال في الدعاء يارب يارب¹

{كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}

* قد ذكر الله قيام الليل في عدة آيات تارة بالمدح وتارة بالأمر أمر ايجاب ثم نسخه بأمر الاستحباب اذا لم تدخل صلاة العشاء فيه بل أريد القيام بعد النوم فانه قد قال سعيد بن المسيب وغيره من صلى العشاء في جماعة فقد أخذ بنصيبه من قيام ليلة القدر فقد جعل ذلك من القيام وقد روى عن عبيدة السلماني أن قيام الليل واجب لم ينسخ ولو كحلب شاة وهذا اذا أريد به ما يتناول صلاة الوتر فهو قول كثير من العلماء والدليل عليه أن في حديث ابن مسعود لما قال اوتروا يا اهل القرآن قال أعرابي ما يقول رسول الله فقال انها ليست لك ولا لأصحابك فقد خاطب أهل القرآن من قيام الليل بما لم يخاطب به غيرهم وعلى هذا قوله {فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} {المزمل 20} فسر بقراءته بالليل لئلا ينساه وقال نظرت في سيئات امتي فوجدت فيها الرجل يؤتبه الله آية فينام عنها حتى ينساها وفي الصحيح عن النبي أنه قال من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله أى الصبح مع العشاء فهذا يدل على أنهما ليسا من قيام الليل ولكن فاعلها كمن قام الليل قال تعالى {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} {15} أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} {16} كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} {17} **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} آل عمران 17** وهذا على أصح الأقوال معناه كانوا يهجعون قليلا ف قليلا منصوب ب يهجعون و ما مؤكدة وهذا مثل قوله {بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} {البقرة 88} وقوله {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} {الذاريات 17} هو مفسر في سورة المزمل بقوله {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} {2} نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا} {3} أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} {4} {المزمل 2-4} فهذا المستثنى من الأمر هو القليل المذكور في تلك السورة وهو قليل بالنسبة الى مجموع الليل والنهار فانهم اذا هجعوا ثلثه أو نصفه أو ثلثاه فهذا قليل بالنسبة الى ما لم

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 207

يهجوه من الليل والنهار وسواء ناموا بالنهار أو لم يناموا وقد قيل لم يأت عليهم ليلة الا قاموا فيها فالمراد هجوع جميع الليلة وهذا ضعيف لأن هجوع الليل محرم فان صلاة العشاء فرض وقال تعالى {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} {15} تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {16} فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {17} السجدة 15-17 وفي حديث معاذ الذي قال فيه يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل ثم تلى {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} السجدة 16 حتى بلغ {يَعْمَلُونَ} السجدة 17 ثم قال لا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله ثم قال الا اخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى قال فأخذ بلسانه فقال اكف عنك هذا فقلت يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو قال على مناخرهم الا حصائد السنتهم وقال تعالى {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ} الزمر 9 وقال تعالى {مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} آل عمران 113 وقال تعالى بعد قوله {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} {78} وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} {79} الإسراء 78-79 وقال فى سورة المزمّل {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} المزمّل 2 الى قوله {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} المزمّل 6 واذا نسخ الوجوب بقى الاستحباب قال أحمد وغيره و الناشئة لا تكون الا بعد نوم يقال نشأ اذا قام وقال تعالى {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} {63} وَالَّذِينَ يَبِيئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} {64} الفرقان 63-63 وقوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} {23} فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} {24} وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} {25} وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} {26} الإنسان 23-26 فان هذا يتناول صلاة العشاء والوتر وقيام الليل لقوله {وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} الإنسان 26 وقوله تعالى {وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صَدْرًا بِمَا يَقُولُونَ} {97} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} {98} الحجر 97-98 مطلق لم يخصه بوقت آخر والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وأصحابه وسلم تسليمًا¹

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 84-88

العبد مأمور ان يتوب الى الله تعالى دائما

*والعبد مأمور ان يتوب الى الله تعالى دائما قال الله تعالى {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} النور 31 وفي صحيح البخارى عن النبي انه قال أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسى بيده انى لا استغفر الله واتوب إليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم انه قال إنه ليغان على قلبى وانى لا استغفر الله فى اليوم مائة مرة وفى السنن عن ابن عمر قال كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لى وتب على انك انت التواب الرحيم مائة مرة او قال أكثر من مائة مرة وقد أمر الله سبحانه عباده ان يهتموا الأعمال الصالحات بالاستغفار فكان النبي إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثا ويقول اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والاکرام كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح عنه وقد قال تعالى {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} آل عمران 17 فأمرهم ان يقوموا بالليل ويستغفروا بالاسحار¹

توبة الانسان من حسناته

*توبة الانسان من حسناته على أوجه احدهما أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها والثانى أن يتوب مما كان يظنه حسنات ولم يكن كحال أهل البدع والثالث يتوب من اعجابه ورؤيته أنه فعلها وانها حصلت بقوته وينسى فضل الله واحسانه وانه هو المنعم بها وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور ولهذا قيل تخلص الأعمال مما يفسدها اشد على العالمين من طول الاجتهاد وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائما ولهذا قيل هى مقام يستصعبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره ولا بد منه لجميع الخلق فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وان يستديموا التوبة قال تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} {73} الاحزاب 72-73 فغاية كل مؤمن التوبة وقد قال الله لأفضل الأنبياء وأفضل الخلق بعد الأنبياء وهم السابقون الأولون {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} التوبة 117 ومن اواخر ما انزل الله قوله {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} {2} فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} {3} النصر 1-3 وقد ثبت فى الصحيحين انه كان يقول فى

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 254 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 79 و رسالة فى التوبة ج: 1 ص: 258

ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن وفي لفظ لمسلم عن عائشة قالت كان رسول الله يكثر أن يقول قبل أن يموت سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك قالت فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قولك سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك فقال أخبرني ربي أنى سأرى علامة فى أمتى فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك فقد رأيتها {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} {1} النصر 1 فتح مكة {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} {2} فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} {3} النصر 2-3 وأمره سبحانه له بالتسبيح بحمده والاستغفار فى هذه الحال لا يقتضى انه لا يشرع فى غيرها أو لا يؤمر به غيره بل يقتضى أن هذا سبب لما أمر به وان كان مأمورا به فى مواضع أخر كما يؤمر الانسان بالحمد والشكر على نعمه وإن كان مأمورا بالشكر عليها وكما يؤمر بالتوبة من ذنب وان كان مأمورا بالتوبة من غيره لكن هو أمر أن يختم عمله بهذا فغيره أحوج إلى هذا منه وقد يحتاج العبد إلى هذا فى غير هذه الحال كما يحتاج إلى التوبة فهو محتاج إلى التوبة والاستغفار مطلقا كما ثبت فى الصحيح أن النبى كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثا قال تعالى {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} آل عمران 17 قاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون وقد ختم الله سورة المزمل وفيها قيام الليل بقوله {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {20} الزمل 20¹

* أن المغفرة نهاية الخير و لهذا أمر الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار بقوله {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} {2} فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} {3} النصر 1-3 وقد غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و كان ذلك خصوصا خصه به دون سائر الأنبياء و ندب قوام الليل إلى الاستغفار بالأسحار²

العبد يحتاج دائما الى الشكر والاستغفار

* قال تعالى {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ} {16} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} {17} آل عمران 17 وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى أنه قال يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى مأل ذكرته فى مأل خير منه ومن تقرب الى شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة وفى بعض الآثار يقول الله تعالى أهل ذكرى أهل مجالستى وأهل شكرى أهل زيارتى وأهل طاعتى أهل كرامتى وأهل معصيتى لا أؤيسهم

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 688-689

²شرح العمدة ج: 4 ص: 137

من رحمتى وان تابوا فانا حبيبيهم لأن الله يحب التوابين وان لم يتوبوا فانا طبيبيهم ابتليهم بالمصائب حتى اطهرهم من المعائب

وقد قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن ينقض من حسنات نفسه وقال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} النحل 118 وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى قال يقول الله تعالى يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى اهدكم عبادى كلكم جائع الى من اطعمته فاستطعمونى اطعمكم يا عبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى اكسكم يا عبادى انكم تذنبون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب ولا ابالى فاستغفرونى اغفر لكم يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم اجتمعوا فى وصعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى الا كما ينقص المخيط الا اذا غمس فى البحر يا عبادى انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ومن ذلك رواه البخارى فى صحيحة عن شداد بن اوس قال قال رسول الله سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم انت ربي لاله الا الله أنت خلقتنى وأنا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ما ضعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا انت من قالها اذا اصبح موقنا بها فمات فى يومه دخل الجنة ومن قالها اذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها الى شكر وذنوب منه يحتاج فيه الى الاستغفار وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما فانه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا الى التوبة والاستغفار ولهذا كان سيد آدم وامام المتقين محمد يستغفر فى جميع الاحوال وقال فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ايها الناس توبوا الى ربكم فانى لأستغفر الله واتوب اليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة وفى صحيح مسلم انه قال انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وقال عبد الله بن عمر كنا نعد لرسول الله فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لى وتب على انك انت التواب الغفور مائة مرة ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال قال تعالى {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ} **بِالْأَسْحَارِ** آل عمران 17 وقال بعضهم احيوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر امروا بالاستغفار وفى الصحيح ان النبى كان اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت باذا الجلال والاكرام وقال تعالى {فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} البقرة 198 الى قوله {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} البقرة 198 وقد امر الله نبيه بعد ان بلغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده واتى بما امر الله به مما لم يصل اليه احد غيره فقال تعالى {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} 1 { وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} 2

فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً {3} النصر 1-3 ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال الله تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3} هود 1-3 الآية وقال تعالى {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ} فصلت 6 وقال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد 19 ولهذا جاء في الحديث يقول الشيطان اهلكت الناس بالذنوب واهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار وقد قال يونس {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} الأنبياء 87 وكان النبي إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثا ويقول لا اله الا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي وكفارة المجلس التي كان يختم بها المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ان لا اله الا أنت استغفرك واتوب اليك والله اعلم وصلى الله على محمد وسلم¹

المؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور

* والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور كما قال تعالى في قصة يوسف {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} غافر 55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لا بد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبي في الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى ربكم فوالذي نفسي بيده إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطيئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهواه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبهه أباه ومن أشبهه أباه فما ظلم قال الله تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} {73} الأحزاب 72-73 ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والإستغفار فى غير آية كما قال تعالى {أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ} فصلت 6 {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد 19 وفى الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم وغيره يقول الشيطان اهلكت الناس بالذنوب واهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثنت فيهم

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 87-90 وأمراض القلوب ج: 1 ص: 79

الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وقد ذكر سبحانه عن ذى النون انه {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} {87} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ} {88} الانبياء 87-88 قال النبي دعوة أخى ذى النون ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربه وجماع ذلك انه لا بد له فى الأمر من أصليين ولا بد له فى القدر من أصليين فى الأمر عليه الإجتهد فى الإمتثال علما وعملا فلا تزال تجتهد فى العلم بما أمر الله به والعمل بذلك ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفریطه فى المأمور وتعيده الحدود ولهذا كان من المشروع أن يختم جميع الاعمال بالإستغفار فكان النبي اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقد قال الله تعالى {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْرُ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ} {16} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} {17} آل عمران 17 فقاموا بالليل وختموه بالإستغفار وآخر سورة نزلت قول الله تعالى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا } {2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } {3} النصر 1-3 وفى الصحيح انه كان يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن وأما فى القدر فعليه أن يستعين بالله فى فعل ما أمر به ويتوكل عليه ويدعوه ويرغب اليه ويستعيذ به ويكون مفتقرا اليه فى طلب الخير وترك الشر و عليه أن يصبر على المقدور ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه واذا آذاه الناس علم أن ذلك مقدر عليه¹

يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله

فان الله تعالى سمي نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمي نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميها بصيرا غفورا رحيفا الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ} آل عمران 15 وامثال ذلك فالقول فى بعض هذه الصفات كالقول فى بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الشورى 11 ليس كمثلته شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الشورى 11 رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الشورى 11 رد على أهل النفي والتعطيل فالممثل اعشى والمعتل أعمى الممثل يعبد صنما والمعتل يعبد عدما

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 122

وقد اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} {16} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} {17} آل عمران 17 عامة الأسماء
يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الذنوب اذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما فى قوله {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} الزمر 53 ثم قد يقرن بغيره كما فى قوله {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} آل عمران 147²

2- قال تعالى {كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} آل عمران 11 آل فلان إذا أطلق فى الكتاب والسنة دخل فيه فلان كما فى قوله {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} آل عمران 33 وقوله {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسِحْرِ الْقَمَرِ} القمر 34 وقوله {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} غافر 46 وقوله {سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ} الصافات 130 ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبى أوفى وكذلك لفظ أهل البيت كقوله تعالى {رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} هود 73 فإن إبراهيم داخل فيهم وكذلك قوله من سره ان يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل الله صل على محمد النبى الحديث وسبب ذلك أن لفظ الآل أصله أول تحركت الواو وإفتح ما قبلها فقلبت ألفا فقليل آل ومثله باب وناب وفى الأفعال قال وعاد ونحو ذلك ومن قال أصله أهل فقلبت الهاء الفاء فقد غلط فإنه قال ما لا دليل عليه وإدعى القلب الشاذ بغير حجة مع مخالفته للأصل وأيضا فإن لفظ الأهل يضيفونه إلى الجماد وإلى غير المعظم كما يقولون أهل البيت وأهل المدينة وأهل الفقير وأهل المسكين وإما الآل فإنما يضاف إلى معظم من شأنه أن يؤول غيره أو يسوسه فيكون مآله إليه ومنه الإيالة وهى السياسة فال شخص هم من يؤوله ويؤول إليه ويرجع إليه ونفسه هى أول وأولى من يسوسه ويؤول إليه فلهذا كان لفظ آل فلان متناولا له ولا يقال هو مختص به بل يتناوله ويتناول من يؤوله³

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 195

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 463

3- وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقيصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك¹

4- والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد كثيرة متنوعة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميتها من يسميها من النظار معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن كقوله تعالى **{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الْأَنْفَقَاتِ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ}** آل عمران 13²

5- والاحكام المرتبة على الأسماء العامة نوعان أحدهما ما يثبت لكل فرد من أفراد ذلك العام سواء قدر وجود الفرد الآخر أو عدمه والثاني ما يثبت لمجموع تلك الأفراد فيكون وجود كل منها شرطا في ثبوت الحكم للآخر مثال الأول قوله تعالى **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}** البقرة 21 **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ}** المائدة 6 ومثال الثاني قوله تعالى **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** آل عمران 110 **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** البقرة 143 فإن الخلق ثابت لكل واحد من الناس وكلا منهم مخاطب بالعبادة والطهارة وليس كل واحد من الأمة أمة وسطا ولا خير أمة ثم العموم المقابل بعموم آخر قد يقابل كل فرد من هذا بكل فرد من هذا كما في قوله **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ}** البقرة 285 فإن كل واحد من المؤمنين آمن بكل واحد من الملائكة والكتب والرسل وقد يقابل المجموع بالمجموع بشرط الاجتماع منهما كما في قوله **{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الْأَنْفَقَاتِ}** آل عمران 13 فإن الالتقاء ثبت لكل منهما حال اجتماعهما وقد يقابل شرط الاجتماع من أحدهما كقوله **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** آل عمران 110 فإن مجموع الأمة خير للناس مجتمعين ومنفردين وقد يقابل المجموع بالمجموع بتوزيع الأفراد على الأفراد فيكون لكل واحد من العمومين واحد من العموم الآخر كما يقال لبس الناس ثيابهم وركب الناس دوابهم فإن كل واحد منهم ركب دابته ولبس ثوبه وكذلك إذا قيل الناس يحبون أولادهم أى كل واحد يحب ولده ومن هذا قوله سبحانه **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ}** البقرة 233 أى كل والدة ترضع ولدها بخلاف ما لو قلت الناس يعظمون الأنبياء فإن كل واحد منهم يعظم كل واحد من الأنبياء³

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 46

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 417

³مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 128

6- وقد يراد باللقاء الوصول الى الشيء والوصول الى الشيء بحسبه ومن دليل ذلك أن الله تعالى قد قال {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} آل عمران 13 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا¹

7- {وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} آل عمران 14 سمي الأرض المزروعة حرثاً²

8- {وَاللَّهِ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ} آل عمران 15 ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها³

9- {لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ} آل عمران 15 عامة الأسماء ينتوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ} {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} {55} القمر 54- 55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً} {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} {3} الطلاق 2- 3 وقوله {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ} يوسف 90 وقوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ} النساء 1⁴

10- {وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ} آل عمران 15 بصير منزه عن العمى⁵

11- قوله تعالى {جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} آل عمران 15 فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان في مثل قوله {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} يوسف 82 وتارة في المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال⁶

12- {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} آل عمران 16 عامة الأسماء ينتوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الذنوب اذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 463

²مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 124

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 43

⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

⁵الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁶مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

الدُّنُوبَ جَمِيعاً { الزمر 53 ثم قد يقرن بغيره كما فى قوله { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } آل عمران 147¹

13- { الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ } آل عمران 17 والقنوت دوام الطاعة لله عز وجل سواء كان فى حال الإنتصاب أو فى حال السجود كما قال تعالى { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } الزمر 9²

14- القنوت هو دوام الطاعة وهو الذى يطيع الله دائماً و الثبات عليه³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

²مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 548

³شرح العمدة ج: 4 ص: 157 و مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 240 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 224

آل عمران 18-25

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {19} فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {20} إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {21} أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {22} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ {23} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {24} فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {25}

الله سبحانه يشهد لنفسه بالوحدانية

فهو سبحانه يشهد لنفسه بالوحدانية والملائكة يشهدون وأولوا العلم من عباده يشهدون والشهادات متطابقة متوافقة وقد يقال هذه الشهادة هي هذه بمعنى أنها نوعها وليس نفس صفة المخلوق هي نفس صفة الخالق¹

فإنه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم كما قال تعالى آل عمران {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18²

وعلى مذهب السلف له الملك وله الحمد تامين وهو محمود على حكمته كما هو محمود على قدرته ورحمته وقد قال {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 374

² (R) أمراض القلوب ج: 1 ص: 16

إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {آل عمران 18} فله الوجدانية في الهيئة وله العدل وله العزة والحكمة وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه¹ أما من أيقن أنه من عند الله فإنه يمتنع أن يقصد معارضته لعلمه بان الخلق عاجزون عن ذلك والله تعالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات فادعوا من يشهد لكم وهؤلاء يشهدون من دون الله لا يشهدون بما شهد الله به فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله كما قال **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** {آل عمران 18}²

"ان الله جميل يحب الجمال"

ان فعل الله كله حسن جميل قال الله عز وجل **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** {السجدة 7} وقال تعالى **{صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ}** {النمل 88} وقال تعالى **{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** {الأعراف 180} وقال النبي ان الله جميل يحب الجمال وهو حكم عدل قال الله تعالى **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** {آل عمران 18} وقال تعالى **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا}** {النساء 40} وقال تعالى **{وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}** {الأنعام 18}³

دلالة لفظ الشهادة

في قوله تعالى **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** {18} **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}** {19} {آل عمران 18-19} قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ شهد فقالت طائفة منهم مجاهد و الفراء و أبو عبيدة أي حكم و قضي و قالت طائفة منهم ثعلب و الزجاج أي بين و قالت طائفة أي أعلم و كذلك قالت طائفة معنى شهادة الله الاخبار و الاعلام و معنى شهادة الملائكة و المؤمنين الاقرار و عن ابن عباس أنه شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان و لم يكن سماء و لا أرض و لا بر و لا بحر فقال **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** {آل عمران 18} وكل هذه الأقوال وما في معناها صحيحة و ذلك أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد و قوله و خبره عما شهد به و هذا قد يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك و يقوله و يذكره و إن لم يكن معلما به لغيره و لا مخبرا به لسواه فهذه أول مراتب الشهادة ثم قد يخبره و يعلمه بذلك فتكون

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 76

²النبوات ج: 1 ص: 231

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 351

الشهادة إعلاماً لغيره و إخباراً له و من أخبر غيره بشيء فقد شهد به سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن كما فى قوله تعالى {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَّ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَنَّكُنَّ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ} الزخرف 19 و قوله تعالى {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا} يوسف 81 الآية فى كلا الموضوعين إنما أخبروا خبراً مجرداً و قد قال {وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} {30} حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ {31} الحج 30- 31 و فى الصحيحين عن النبى صلى اله عليه و سلم قال عدلت شهادة الزور الاشرار بالله قالها مرتين أو ثلاثاً ثم تلى هذه الآية و إنما فى الآية {وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} الحج 30 و هذا يعم كل قول زور بأي لفظ كان و على أبى صفة و جد فلا يقوله العبد و لا يحضره و لا يسمعه من قول غيره و الزور هو الباطل الذي قد ازور عن الحق و الاستقامة أي تحول و قد سماه النبى صلى الله عليه و سلم شهادة الزور و قد قال فى المظاهرين من نسائهم {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} المجادلة 2 و فى الصحيحين عن ابن عباس قال شهد عندي رجال مرضيون و أرضاهم عندي عمر أن النبى صلى الله عليه و سلم نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس و بعد العصر حتى تغرب الشمس و هؤلاء حدثوه أنه نهى عن ذلك و لم يقولوا نشهد عندك فإن الصحابة لم يكونوا يلتزمون هذا اللفظ فى التحديث و ان كان أحدهم قد ينطق به و منه قولهم فى ما عز فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه النبى صلى الله عليه و سلم و لفظه كان إقراراً و لم يقل أشهد و منه قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ} النساء 135 و شهادة المرء على نفسه هي إقراره و هذه لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء و إنما تنازعوا فى الشهادة عند الحكام هل يشترط فيها لفظ أشهد على قولين فى مذهب أحمد و كلام أحمد يقتضي أنه لا يعتبر ذلك و كذلك مذهب مالك و الثانى يشترط ذلك كما أبحى عن مذهب أبى حنيفة و الشافعي و المقصود هنا الآية فالشهادة تضمنت مرتبتين إحداهما تكلم الشاهد و قوله و ذكره لما شهد فى نفسه به و الثانى إخباره و اعلامه لغيره بما شهد به فمن قال حكم و قضى فهذا من باب اللزوم فإن الحكم و القضاء هو الزام و أمر و لا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد و أمرهم به و قضى به و حكم فقال {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} الإسراء 23 و قال {أَنْ أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} النحل 2 و قال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 الآية و قال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} النحل 51 و قال {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنْفَاءَ} البينة 5 و هذا كثير فى القرآن يوجب على العباد عبادته و توحيده و يحرم عليهم عبادة ما سواه فقد حكم و قضى أنه لا إله الا هو و لكن الكلام فى دلالة لفظ الشهادة على ذلك و ذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر و بين و أعلم أن ما سواه ليس باله فلا يعبد و أنه وحده الاله الذى يستحق العبادة و هذا يتضمن الأمر بعبادته و النهي عن عبادة ما سواه فإن النفي و الاثبات فى مثل هذا يتضمن الأمر و النهي كما إذا استفتى شخص شخصاً فقال له قائل هذا ليس بمفتى و هذا هو المفتى

ففيه نهي عن استفتاء الأول و أمر و إرشاد الى استفتاء الثانى وكذلك إذا تحاكم الى غير حاكم أو طلب شيئاً من غير ولى الأمر فقيل له ليس هذا حاكماً و لا هذا سلطاناً هذا هو الحاكم و هذا هو السلطان فهذا النفي و الإثبات يتضمن الأمر و النهي و ذلك أن الطالب إنما يطلب من عنده مراده مقصوده فإذا ظنه شخصاً فقيل له ليس مرادك عنده و إنما مرادك عند هذا كان أمراً له بطلب مراده عند هذا دون ذلك و العابدون إنما مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة فإذا قيل لهم كل ما سوى الله ليس باله إنما لاله هو الله وحده كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه و أمراً بعبادته و أيضاً فلو لم يكن هناك طالب للعبادة فلفظ الإله يقتضى أنه يستحق العبادة فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمراً بما يستحقه و ليس المراد هنا بالاله من عبده عابد بلا استحقاق فإن هذه الآلهة كثيرة و لكن تسميتهم آلهة و الخبر عنهم بذلك و اتخاذهم معبودين أمر باطل كما قال تعالى {إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} النجم 23 و قال {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} الحج 62 فالآلهة التى جعلها عابدها آلهة يعبدونها كثيرة لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً و هو لا يحسن شيئاً من ذلك و لا بد لكل إنسان من إله يألهه و يعبده تعس عبد الدينار و عبد الدرهم فإن بعض الناس قد آله ذلك محبة و ذلاً و تعظيماً كما قد بسط فى غير هذا الموضوع فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم و قضى بأن لا يعبد إلا إياه و أيضاً فلفظ الحكم و القضاء يستعمل فى الجمل الخبرية فيقال للجمل الخبرية قضية و يقال قد حكم فيها بثبوت هذا المعنى و انتفاء هذا المعنى و كل شاهد و مخبر هو حاكم بهذا الاعتبار قد حكم بثبوت ما أثبتته و نفي مانفاه حكماً خبرياً قد يتضمن حكماً طلبياً شهادة الرب و بيانه و اعلامه يكون بقوله تارة و بفعله تارة فالقول هو ما أرسل به رسله و أنزل به كتبه و أوحاه الى عباده كما قال {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} النحل 2 الى غير ذلك من الآيات و قد علم بالتواتر و الاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد و يشهد أن لا إله إلا هو بقوله و كلامه و هذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه و لهذا قال تعالى {أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً فَلْهَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي} الأنبياء 24 و أما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التى تعلم دلالتها بالعقل و إن لم يكن هناك خبر عن الله و هذا يستعمل فيه لفظ الشهادة و الدلالة و الارشاد فإن الدليل يبين المدلول عليه و يظهره فهو بمنزلة المخبر به الشاهد به كما قيل سل الأرض من فجر أنهارها و غرس أشجارها و أخرج ثمارها و أحيا نباتها و أغطش ليلها و أوضح نهارها فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً و هو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو و هو سبحانه الذى جعلها دالة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه و بين ذلك فهو الشاهد المبين بها أنه لا إله إلا هو و هذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة قال ابن كيسان شهد الله بتدبيره العجيب و أموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو وقوله {قَائِمًا بِالْقِسْطِ} آل عمران 18 هو

نصب على الحال وفيه و جهان قيل هو حال من شهد أي شهد قائماً بالقسط وقيل من هو أي لا إله إلا هو قائماً بالقسط كما يقال لا إله إلا هو وحده و كلا المعنيين صحيح وقوله **{قَائِمًا بِالْقِسْطِ} آل عمران 18** يجوز أن يعمل فيه كلا العاملين على مذهب الكوفيين في أن المعمول الواحد يعمل فيه عاملان كما قالوا في قوله **{هَآؤُمُ أَقْرُؤُوا كِتَابِيَةَ}** الحاقة 19 **{أثوني أَقْرِعْ عَلَيْهِ قِطْرًا}** الكهف 96 و **{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}** ق 17 و نحو ذلك و سيبويه و أصحابه يجعلون لكل عامل معمولاً و يقولون حذف معمول أحدهما لدلالة الآخر عليه و قول الكوفيين أرجح كما قد بسطته في غير هذا الموضوع و على المذهبيين فقوله **{بِالْقِسْطِ} آل عمران 18** يخرج على هذا إما كونه يشهد قائماً بالقسط فإن القائم بالقسط هو القائم بالعدل كما في قوله

قوله **{كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ}** النساء 135 فالقيام بالقسط يكون في القول و هو القول العدل و يكون في الفعل فإذا قيل شهد **{قَائِمًا بِالْقِسْطِ} آل عمران 18** أي متكلماً بالعدل مخبراً به أمراً به كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل و قسط و هي أعدل من كل شهادة كما أن الشرك أظلم من كل ظلم و هذه الشهادة أعظم الشهادات و قد ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما يوافق ذلك فذكر ابن السائب أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي صلى الله عليه و سلم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا على النبي صلى الله عليه و سلم عرفاه بالصفة فقالا أنت محمد قال نعم قالوا و أحمد قال نعم قالوا نسألك عن شهادة فإن أخبرتنا بها آمنة بك فقال سلاني فقالا أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت هذه الآية و لفظ القيام بالقسط كما يتناول القول يتناول العمل فيكون التقدير يشهد و هو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً و عملاً فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد و أن غيره لا يستحق العبادة و أن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء و أن المشركين به في النار فإذا شهد قائماً بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة و جزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة و كان قوله **{قَائِمًا بِالْقِسْطِ} آل عمران 18** تنبيهاً على جزاء المخلصين و المشركين كما في قوله **{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}** الرعد 33 قال طائفة من المفسرين منهم البغوي نظم الآية شهد الله قائماً بالقسط و معنى قوله **{قَائِمًا بِالْقِسْطِ} آل عمران 18** أي بتدبير الخلق كما يقال فلان قائم بأمر فلان أي يدبره و يتعاهد أسبابه و قائم بحق فلان أي مجاز له فالله تعالى مدبر رزاق مجاز بالأعمال و إذا اعتبر القسط في الإلهية كان المعنى لا إله إلا هو قائماً بالقسط أي هو وحده الإله قائماً بالقسط فيكون و وحده مستحقاً للعبادة مع كونه قائماً بالقسط كما يقال أشهد أن لا إله إلا الله إلهاً واحداً صمداً و هذا الوجه أرجح فإنه يتضمن أن الملائكة و أولي العلم يشهدون له مع أنه لا إله إلا هو و أنه قائم بالقسط و الوجه الأول لا يدل على هذا و لأن كونه قائماً بالقسط كما شهد به أبلغ من كونه حال الشاهد و قيامة بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق و يعمل بالعدل كما قال **{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}** الأنعام 115 و قال هود

{إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هو 56 فأخبر أن الله على صراط مستقيم و هو العدل الذي لا عوج فيه وقال {هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} النحل 76 و هو مثل ضربه الله لنفسه و لما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ} يونس 35 الآية و قال {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} النحل 17 الآيات الى قوله {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} النحل 21 فأخبر أنه خالق منعم عالم و ما يدعون من دونه لا تخلق شيئاً و لا تنعم بشيء و لا تعلم شيئاً و أخبر أنها ميتة فهل يستوى هذا و هذا فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه و لهذا كان هذا أعظم الظلم و الافك و من هذا الباب قوله تعالى {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ} النمل 59 فقوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {76} النحل 75-76 كلاهما مثل بين الله فيه أنه لا يستوي هو و ما يشركون به كما ذكر نظير ذلك في غير موضع و إن كان هذا الفرق معلوما بالضرورة لكل أحد لكن المشركون مع اعترافهم بأن آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه و بينها في المحبة و الدعاء و العبادة و نحو ذلك و المقصود هنا أن الرب سبحانه على صراط مستقيم وذلك بمنزلة قوله **{قَائِمًا بِالْقِسْطِ}** آل عمران 18 فإن الاستقامة و الاعتدال متلازمان فمن كان قوله و عمله بالقسط كان مستقيماً و من كان قوله و عمله مستقيماً كان قائماً بالقسط و لهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و صراطهم هو العدل و الميزان ليقوم الناس بالقسط و الصراط المستقيم هو العمل بطاعته و ترك معاصيه فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط و العدل والله سبحانه أعلم ثم قال تعالى **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** آل عمران 18 ذكر عن جعفر بن محمد انه قال الأولى وصف وتوحيد والثانية رسم وتعليم أى قوله **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** آل عمران 18 ومعنى هذا أن الأولى هو ذكر أن الله شهد بها فقال **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** آل عمران 18 والتالى للقرآن انما يذكر أن الله شهد بها هو والملائكة واولوا العلم وليس فى ذلك شهادة من التالى نفسه بها فذكرها الله مجردة ليقولها التالى فيكون التالى قد شهد بها أنه لا اله الا هو فلأولى خبر عن الله بالتوحيد لنفسه بشهادته لنفسه وهذه خبر عن الله بالتوحيد وختمها بقوله **{الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** آل عمران 18 والعزة تتضمن القدرة والشدة والامتناع والغلبة تقول العرب عز يعز بفتح العين اذا صلب وعز يعز بكسرها اذا امتنع وعز يعز بضمها اذا غلب فهو سبحانه فى نفسه قوى متين وهو منيع لا ينال وهو غالب لا يغلب والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله فاذا امر بأمر كان حسناً وإذا أخبر بخبر كان صدقاً وإذا أراد خلق شىء كان صواباً فهو حكيم فى ارادته وافعاله واقواله وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة اصول شهادة ان لا اله الا الله وانه قائم بالقسط وانه العزيز الحكيم فتضمنت وحدانيته

المنافية للشرك وتضمنت عدله المنافى للظلم وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ففيها اثبات التوحيد واثبات العدل واثبات الحكمة واثبات القدرة والمعتزلة قد تحتج بها على ما يدعونه من التوحيد والعدل والحكمة ولا حجة فيها لهم لكن فيها حجة عليهم وعلى خصومهم الجبرة أتباع الجهم بن صفوان الذين يقولون كل ما يمكن فعله فهو عدل وينفون الحكمة فيقولون يفعل لا لحكمة فلا حجة فيها لهم فانه اخبر انه لا اله الا هو وليس في ذلك نفى الصفات وهم يسمون نفى الصفات توحيدا بل الاله هو المستحق للعبادة والعبادة لا تكون الا مع محبة المعبود والمشركون جعلوا لله أندادا {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 فدل ذلك على أن المؤمنين يحبون الله أعظم من محبة المشركين لأناداهم فعلم أن الله محبوب لذاته ومن لم يقل بذلك يشهد في الحقيقة ان لا اله الا هو والجهمية والمعتزلة يقولون ان ذاته لا تحب فهم في الحقيقة منكرون الهيته وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع وقيامه بالقسط مقرون بأنه لا اله الا هو فذكر ذلك على أنه لا يماثله أحد في شيء من أموره والمعتزلة تجعل القسط منه مثل القسط من المخلوقين فما كان عدلا من المخلوقين كان عدلا من الخالق وهذا تسوية منهم بين الخالق والمخلوق وذلك قدح في انه لا اله الا هو والجهمية عندهم أى شيء أمكن وقوعه كان قسطا فيكون قوله {قَائِمًا بِالْقِسْطِ} آل عمران 18 كلاما لا فائدة فيه ولا مدح فانه اذا كان كل مقدور قسطا كان المعنى انه قائم بما يفعله والمعنى أنه فاعل لما يفعله وليس في هذا مدح ولا هو المفهوم من كونه قائما بالقسط بل المفهوم منه أنه يقوم بالقسط لا بالظلم مع قدرته عليه لكنه سبحانه مقدس منزه ان يظلم احدا كما قال {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} الكهف 49 وقد أمر عباده ان يكونوا قوامين بالقسط وقال {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} الرعد 33 فهو يقوم عليها بكسبها لا بكسب غيرها وهذا من قيامه بالقسط وقال {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} الأنبياء 47 الاية وايضا فمن قيامه بالقسط وقيامه على كل نفس بما كسبت انه لا يظلم مثقال ذرة كما قال {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} الزلزلة 7 الى اخرها والمعتزلة تحبط الحسنات العظيمة الكثيرة بكبيرة واحدة وتحبط ايمانه وتوحيده بما هو دون ذلك من الذنوب وهذا مما تفردوا به من الظلم الذى نزه الله نفسه عنه فهم ينسبون الله الى الظلم لا الى العدل والله أعلم وقوله {هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18 اثبات لعزته وحكمته وفيها رد على الطائفتين الجبرية والقدرية فان الجبرية أتباع جهم ليس له عندهم في الحقيقة حكمة ولهذا لما أرادت الأشعرية ان تفسر حكمته فسروها اما بالقدرة واما بالعلم واما بالارادة ومعلوم أنه ليس في شيء من ذلك اثبات لحكمته فان القادر والعالم والمريد قد يكون حكيما وقد لا يكون والحكمة أمر زائد على ذلك وهم يقولون ان الله لا يفعل لحكمة ويقولون أيضا الفعل لغرض انما يكون ممن ينتفع ويتضرر ويتألم ويلتذ ذلك ينفي عن الله والمعتزلة اثبتوا انه يفعل لحكمة وسموا ذلك غرضا هم وطائفة من المثبتة لكن قالوا الحكمة امر منفصل عنه لا يقوم به كما قالوا في كلامه وارادته فاستطال عليهم المجبرة بذلك فقالوا الحكيم من يفعل لحكمة تعود الى نفسه فان لم تعد الى نفسه لم يكن حكيما بل كان سفيها فيقال للمجبرة ما

نفيتم به الحكمة هو بعينه حجة من نفى الارادة من المتفلسفة ونحوهم قالوا الارادة لا تكون الا لمن ينتفع ويتضرر ويتألم ويلتذ واثبات ارادة بدون هذا لا يعقل وأنتم تقولون نحن موافقون للسلف وسائر اهل السنة على اثبات الارادة فما كان جوابا لكم عن هذا السؤال فهو جواب سائر اهل السنة لكم حيث اثبتتم ارادة بلا حكمة يراد الفعل لها وقد بسط هذا في غير هذا الموضوع وبين ما في لفظ هذه الحجة من الكلمات المجملة والله أعلم وإثبات شهادة أولي العلم يتضمن أن الشهادة له بالوحدانية يشهد بها له غيره من المخلوقين الملائكة و البشر و هذا متفق عليه يشهدون أن لا إله إلا الله و يشهدون بما شهد به لنفسه وزعم طائفة من الاتحادية أنه لا يوحده أحد الله و أنشدوا ما و حد الواحد من و احد إذ كل من وحده جاحد و هؤلاء حقيقة قولهم من جنس قول النصارى في المسيح يدعون أن حقيقة التوحيد أن يكون الموحد هو الموحد فيكون الحق هو الناطق على لسان العبد و الله الموحد لنفسه لا العبد و هذا في زعمهم هو السر الذي كان الحلاج يعتقد و هو بزعمهم قول خواص العارفين لكن لا يصرحون به و حقيقة قولهم انهم اعتقدوا في عموم الصالحين ما اعتقدته النصارى في المسيح لكن لم يمكنهم إظهاره فإن دين الاسلام يناقض ذلك مناقضة ظاهرة فصاروا يشيرون إليه و يقولون إنه من السر المكتوم و من علم الاسرار الغيبية فلا يمكن ان يباح به و إنما هو قول ملحد و هو شر من قول النصارى فإن النصارى إنما قالوا ذلك في المسيح لم يقولوه في جميع الصالحين و قد بسط الكلام على ذلك في غير موضع إذ المقصود التنبيه على ما في هذه الآية من أصول الايمان و التوحيد و إبطال قول المبتدعين و إذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد و دلالاته لهم و تعريفهم بما شهد به لنفسه فلا بد أن يعرفهم أنه شهد فان هذه الشهادة أعظم الشهادات و إلا فلو شهد شهادة لم يتمكن من العلم بها لم ينتفع بذلك و لم تقم عليهم حجة بتلك الشهادة كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها و لم تقم بها حجة ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله و ما فيه من الشهادة كما قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } البقرة 140 أي عنده شهادة من الله و كتمها و هو العلم الذي بينه الله فإنه خبر من الله و شهادة منه بما فيه و قد ذم من كتمه كما كتم بعض أهل الكتاب ما عندهم من الخبر و الشهادة لابراهيم و أهل بيته و كتموا إسلامهم و ما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد صلى الله عليه و سلم و بصفته و غير ذلك قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } البقرة 159 و قال تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } البقرة 146 و الشهادة لا بد فيها من علم الشاهد و صدقه و بيانه لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور و لهذا ذم من يكتم و يحرف فقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } النساء 135 و في الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي صلى الله عليه و سلم قال البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا و بينا بورك لهما في بيعهما و ان كذبا و كتما

محقت بركة بيعهما وإذا كان لابد من بيان شهادته للعباد ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بينها بالطريقين بالسمع و البصر فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة و البصير يعاين آياته المخلوقة الفعلية و ذلك أن شهادته تتضمن بيانه و دلالاته للعباد وتعريفهم ذلك و ذلك حاصل بآياته فان آياته هي دلالاته و براهينه التي بها يعرف العباد خبره و شهادته كما عرفهم بها أمره و نهييه و هو عليم حكيم ف خبره يتضمن أمره و نهييه و فعله يبين حكمته فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية و لابد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه و ذلك قد عرفه بآياته التي أيد بها الأنبياء و دل بها على صدقهم فإنه لم يبعث نبيا إلا بأية تبين صدقه إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز كما قال {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ {الحديد25} أي بالآيات البينات و قال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {44} النحل 43- 44} و قال {قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ} آل عمران 183 و قال {فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} آل عمران 184 وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ما من نبى من الأنبياء إلا و قد اوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذي أوتيته و حيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة فالآيات و البراهين التي أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم دل بها للعباد و هي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه و الذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به و لهذا قال بعض النظار أن المعجزة تصديق الرسول و هي تجري مجرى المرسل صدقت فهي تصديق بالفعل تجري مجرى التصديق بالقول إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه و تصديقه إخبار بصدقته و شهادة له بالصدق و شهادة له بأنه أرسله و شهادة له بأن كلما يبلغه عنه كلامه و هو سبحانه إسمه المؤمن و هو في أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دل بها على صدقه و أما الطريق العياني فهو أن يرى العباد من الآيات الاقضية و النفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق كما قال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} فصلت 53 أي أولم يكف بشهادته المخبرة بما علمه و هو الوحي الذي أخبر به الرسول فان الله على كل شيء شهيد و عليم به فاذا أخبر به و شهد كان ذلك كافيا و ان لم يرى المشهود به و شهادته قد علمت بالآيات التي دل بها على صدق الرسول فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج أن ينظر الآيات المشاهدة التي تدل على أن القرآن حق بل قد يعلم ذلك بما علم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى وكلامه وكذلك ذكر الكتاب المنزل فقال {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} العنكبوت 46 الآيات الى قوله {إِلَّا الظَّالِمُونَ} {49} العنكبوت 49 فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم فانه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به و قد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره فانه هو الدعوة و الحجة و هو الدليل و المدلول عليه و الحكم و هو الدعوى و هو البينة

على الدعوى و هو الشاهد و المشهود به وقوله {فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} العنكبوت 49 سواء أريد به أنه بين في صدورهم أو أنه محفوظ في صدورهم أو أريد به الأمران و هو الصواب فانه محفوظ في صدور العلماء بين في صدورهم يعلمون أنه حق كما قال {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ} سبأ 6 و قال {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} الرعد 19 {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الحج 54 وقال تعالى {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} {50} {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {51} {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} {52} العنكبوت 50-52 فيها بيان ما يوجب السعادة للمؤمنين و ينجيهم من العذاب ثم قال {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} العنكبوت 52 فانه إذا كان عالما بالأشياء كانت شهادته بعلم و قد بين شهادته بالآيات الدالة على صدق الرسول و منها القرآن و الله أعلم و أما كونه سبحانه صادقاً فهذا معلوم بالفطرة الضرورية لكل أحد فان الكذب من أبغض الصفات عند بني آدم فهو سبحانه منزه عن ذلك و كل إنسان محمود يتنزه عن ذلك فان كل أحد يذم الكذب فهو وصف ذم على الاطلاق و أما عدم علم الانسان ببعض الاشياء فهذا من لوازم المخلوق و لا يحيط علماً بكل شيء إلا الله فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصاً كالكذب فلهذا يبين الرب علمه بما يشهد به و أنه أصدق حديثاً من كل أحد و أحسن حكماً و أصدق قيلاً لأنه سبحانه أحق بصفات الكمال من كل أحد {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الروم 27 و هو {وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} الأحزاب 4 و هو سبحانه يتكلم بمشيئته و قدرته و {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} الرعد 43 و هم أهل الكتاب فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أتى به كالأمر بعبادة الله و حده و النهي عن الشرك و الاخبار بيوم القيامة و الشرائع الكلية و يشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذكر صفاته و رسالته و كتابه و هذان الطريقتان بهما تثبت نبوة النبي و هي الآيات و البراهين الدالة على صدقه أو شهادة نبي آخر قد علم صدقه له بالنبوة فذكر هذين النوعين بقوله {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا} العنكبوت 52 {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} الرعد 43 فتلك يعلم بها صدقه بالنظر العقلي في آياته و براهينه و هذه يعلم بها صدقه بالخبر السمعي المنقول عن الأنبياء قبله و كذلك قوله {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} الأنعام 19 فقوله {قُلِ اللَّهُ} الأنعام 19 فيها وجهان قيل هو جواب السائل و قوله {شَهِيدٌ} الأنعام 19 خبر مبتدا أي هو شهيد وقيل هو مبتدا و قوله {شَهِيدٌ} الأنعام 19 خبره فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام و الأول على قراءة من يقف على قوله {قُلِ اللَّهُ} الأنعام 19 و الثاني على قراءة من لا يقف و كلاهما صحيح لكن الثاني أحسن و هو أتم وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة فلما قال {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً} الأنعام 19 علم أن الله أكبر شهادة من كل شيء فقيل له {قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي

وَبَيِّنْكُمْ {الأنعام19} و لما قال {اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} {الأنعام19} كان فى هذا ما يغني عن قوله أن الله أكبر شهادة و ذلك أن كون الله أكبر شهادة هو معلوم و لا يثبت بمجرد قوله {أَكْبَرُ} شَهَادَةٌ {الأنعام19} بخلاف كونه شهيدا بينه و بينهم فان هذا مما يعلم بالنص و الاستدلال فينظر هل شهد الله بصدقه و كذبهم فى تكذيبه أم شهد بكذبه و صدقهم فى تكذيبه و إذا نظر فى ذلك علم أن الله شهد بصدقه و كذبهم بالنوعين من الآيات بكلامه الذي أنزله و بما بين أنه رسول صادق ولهذا أعقبه بقوله {وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} {الأنعام19} فإن هذا القرآن فيه الانذار و هو آية شهد بها أنه صادق و بالآيات التي يظهرها فى الآفاق و فى الأنفس حتى يتبين لهم أن القرآن حق وقوله فى هذه الآية {قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} {الأنعام19} و كذلك قوله {قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} {الرعد43} {قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} {الإسراء96} و كذلك قوله {قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا} {العنكبوت52} و كذلك قوله {هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} {الأحقاف8} فذكر سبحانه أنه شهيد بينه و بينهم و لم يقل شاهد علينا و لا شاهد لي لأنه ضمن الشهادة الحكم فهو شهيد يحكم بشهادته بيني و بينكم و الحكم قدر زائد على مجرد الشهادة فان الشاهد قد يؤدي الشهادة و أما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل و يأخذ حقه منه و يعامل المحق بما يستحقه و المبطل بما يستحقه

وهكذا شهادة الله بين الرسول و متبعيه و بين مكذبيه فانها تتضمن حكم الله للرسول و أتباعه يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق و تلك الآيات أنواع متعددة و يحكم له أيضا بالنجاة و النصر و التأييد و سعادة الدنيا و الآخرة و لمكذبيه بالهلاك و العذاب و شقاء الدنيا و الآخرة كما قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} {التوبة33} فيظهره بالدلائل و الآيات العلمية التي تبين أنه حق و يظهره أيضا بنصره و تأييده على مخالفه و يكون منصورا كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} {الحديد25} فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك فى قوله {شَهَدَ اللّٰهُ} {آل عمران18} قال مجاهد والفراء و أبو عبيدة {شَهَدَ اللّٰهُ} {آل عمران18} أي حكم و قضى لكن الحكم فى قوله {بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} {الأنعام19} أظهر و قد يقول الانسان لآخر فلان شاهد بيني و بينك أي يتحمل الشهادة بما بيننا فالله يشهد بما أنزله و يقوله و هذا مثل الشهادة على أعمال العباد و لكن المكذبون ما كانوا ينكرون التكذيب و لا كانوا يتهمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة فيكون الشهيد بتضمن الحكم أثبت و أشبه بالقرآن و الله أعلم¹

{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ}

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 168-195

قد مدح الله العلم والعقل والفقہ وهذا كثير في القرآن يأمر ويمدح التفكير والتدبر والتذكر والنظر والاعتبار والفقہ والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق ونحو ذلك من انواع العلم واسبابه وكماله ويذم اضرار ذلك¹

وقوله تعالى {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} المجادلة [1] خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان وهم الذين إستشهد بهم في قوله تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ} آل عمران 18 وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ} سبأ 6 فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها كما قال تعالى {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّسَاءٍ} يوسف 76 قال زيد بن أسلم بالعلم فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين وآخر لا ينام الليل وآخر لا يفطر وغيرهم أقل عبادة منهم وأرفع قدرا في قلوب الأمة فهذا كرز بن وبرة وكهمس وابن طارق يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع وكذلك ترى كثيرا ممن لبس الصوف ويهجر الشهوات ويتقشف وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب وأحلى عند النفوس وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة وصفائها وخصوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول وكمال تصديقه في قلوبهم ووده ومحبته وأن يكون الدين كله لله فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول وإبتهاجها وسرورها كما قال تعالى {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} الرعد 36 وقال تعالى {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} يونس 58 الآية ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه فإذا استقر في القلب وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده وبره به وإحسانه إليه على الدوام أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه فلا يزال مترقيا في درجات العلو والإرتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف هذا في باب معرفة الأسماء والصفات وأما في باب فهم القرآن فهو دائم التفكير في معانيه والتدبر لألفاظه وإستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس وإذا سمع شيئا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها

¹الاستقامة ج: 2 ص: 158

وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه وكذلك شغل النطق ب أنذرتهم وضم الميم من عليهم ووصلها بالواو وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهه التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم وكذلك تأويل القرآن على قول من قلده دينه أو مذهبه فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه كل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات وما يجب لله وينزه عنه بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمتهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة وهؤلاء أغلظ الناس حجاباً عن فهم كتاب الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم¹

الدلائل الدالة على صدق محمد أعظم من الدلائل الدالة على صدق موسى

وعيسى

فإن الدلائل الدالة على صدق محمد أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ومعجزاته أعظم من معجزات غيره والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام وأتمه أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو في القرآن أو مثله أو منه وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى وهذه جملة مبسوطه في موضع آخر لم نيسطها هنا لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلى ذلك فيمتنع الإقرار بنبوته موسى وعيسى عليهما السلام مع التكذيب بنبوته محمد ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل الناس وأضلهم أو من أعظمهم عنادا واتباعاً لهواه وذلك أن هؤلاء القوم احتجوا بما نقلوه عن الأنبياء ولم يذكروا الأدلة الدالة على صدقهم بل أخذوا ذلك مسلماً وطلبوا أن يحتجوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله وبما نقلوه عنه على صحة دينهم وهذه حجة داحضة سواء صدقوه أو كذبوه فإن صدقوه بطل دينهم وإن كذبوه بطل دينهم فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل وأنه أبطل ما هم عليه من الاتحاد وغيره وكفرهم في غير موضع ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمداً رسول الله ولو إلى العرب يوجب بطلان دين النصارى واليهود وكل دين يخالف دينه فإن من كان رسولا لله فإنه لا يكذب على الله ومحمد قد علم منه أنه دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم وأنه كفر من

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 48-50

لم يؤمن به ووعده النار وهذا متواتر عنه تواترا تعلمه العامة والخاصة وفي القرآن من ذلك ما يكثر ذكره كما قال تعالى وقال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {19} فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} {20} ال عمران 18-20¹

السنة تفسر القرآن و تبينه و تدل عليه

فله الوجدانية في إلهيته و له العدل و له العزة و الحكمة وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف و أتباعهم فمن قصر عن معرفة السنة فقد نقص الرب بعض حقه² و قد استدلل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا كان منفردا به كقوله {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} {النمل 65} و قوله {لَا يُجَلِّئُهَا لَوَقْتَهَا إِلَّا هُوَ} {الأعراف 187} و قوله {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} {المدثر 31} فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفى فإن كان مما استأثر الله به قيل فيه ذلك و إن كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} {البقرة 255} و قوله {عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا} {الجن 26} الى قوله {رَصَدًا} {الجن 27} و قوله {قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} {الرعد 43} و قوله {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ} {آل عمران 18} و قوله {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} {النساء 166} الى قوله {شَهِيدًا} {النساء 166} و قوله {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} {الكهف 22} و قال للملائكة {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {البقرة 30} و قالت الملائكة {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} {البقرة 32} و فى كثير من كلام الصحابة الله و رسوله أعلم و فى الحديث المشهور أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك وقد قال تعالى {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} {النساء 59} و أول النزاع النزاع فى معاني القرآن فإن لم يكن الرسول عالما بمعانيه إمتنع الرد إليه و قد إتفق الصحابة و التابعون لهم بإحسان و سائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن و تبينه و تدل عليه و تعبر عن مجمله و أنها تفسر مجمل القرآن من الأمر و الخبر³

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 6-8

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 310 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 211

³مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 430-432

تعالى له أنتكر من هذا شيئاً فيقول لا يارب فيقول الله عز وجل ألك عذرا أو حسنة فيهاب الرجل فيقول لا يارب فيقول الله تعالى بلى إن لك عندنا حسنات و أنه لا ظلم عليك فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول أنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة و البطاقة في كفة فطاشت السجلات و ثقلت البطاقة وقال تعالى {الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} غافر 17 و قال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} النحل 118 و مثل هذه النصوص كثيرة و معلوم أن الله تعالى لم ينف بها الممتنع الذي لا يقبل الوجود كالجمع بين الضدين فإن هذا لم يتوهم أحد و جوده و ليس في مجرد نفيه ما يحصل به مقصود الخطاب فإن المراد بيان عدل الله و أنه لا يظلم أحدا كما قال تعالى {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} الكهف 49 بل يجازيهم بأعمالهم و لا يعاقبهم إلا بعد إقامه الحجة عليهم كما قال الله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} الإسراء 15 و قال {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} النساء 165 و قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} القصص 59 و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل و أنزل الكتب له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول أنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة و البطاقة في كفة فطاشت السجلات و ثقلت البطاقة وقال تعالى {الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} غافر 17 و قال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} النحل 118 و مثل هذه النصوص كثيرة و معلوم أن الله تعالى لم ينف بها الممتنع الذي لا يقبل الوجود كالجمع بين الضدين فإن هذا لم يتوهم أحد و جوده و ليس في مجرد نفيه ما يحصل به مقصود الخطاب فإن المراد بيان عدل الله و أنه لا يظلم أحدا كما قال تعالى {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} الكهف 49 بل يجازيهم بأعمالهم و لا يعاقبهم إلا بعد إقامه الحجة عليهم كما قال الله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} الإسراء 15 و قال {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} النساء 165 و قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} القصص 59 و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل و أنزل الكتب و مثل هذه النصوص كثيرة و هي تبين أن الظلم الذي نزه الله نفسه عنه ليس هو ما تقوله القدرية و لا ما تقوله الجبرية و من و افقهم و قد بسط الكلام على تحقيق هذا المقام في مواضع آخر و بين فيها حكمة الله و عدله فإن هذا المقام هو من أعظم المقامات التي اضطرب فيها كثير من الأولين و الآخرين و البسط الكثير الذي ينتهي به إلى

تفصيل أقوال الناس و حقيقة الأمر فى ذلك ببيان الدلائل و الجواب عن المعارضات لا يناسب جواب هذا النظم و هو مذكور فى موضع آخر وفى الحديث الصحيح الذي رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه و سلم فيما يروى عن ربه تبارك و تعالى أنه قال يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى و جعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم يا عبادى إنكم تخطئون بالليل و النهار و أنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل و احد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل و احد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا فى صعيد و احد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادى إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من و جد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه قال سعيد كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه فذكر فى أول هذا الحديث الإلهي الذي قال فيه الإمام أحمد هو أشرف حديث لأهل الشام أنه حرم الظلم على نفسه و التحريم ضد الإيجاب و بين فى القرآن أنه كتب على نفسه الرحمة و هذا على قول الطائفة الثانية المراد به مجرد خبره بمجرد الوعد و الوعيد و على قول الآخرين بل هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة و حرم على نفسه الظلم كما أخبر عن نفسه فقال تعالى {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} الروم 47 فهو حق أحقه سبحانه على نفسه لا أن أحدا من الخلق يوجب عليه حقا و لا يحرم عليه شيئا و ختم الحديث بقوله إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من و جد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه كما ثبت فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى و غيره عن شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال سيد الإستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على و أبوء بذنبي فأغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة و من قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة و فى هذا الحديث قوله أبوء لك بنعمتك على و أبوء بذنبي و من نعمه على عبده المؤمن ما يبسر له من الإيمان و الحسنات فإنها من فضله و إحسانه و رحمته و حكمته و سيئات العبد من عدله و حكمته إذ كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و هو لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته و رحمته و عدله لا لمجرد قهره و قدرته كما يقوله جهم و أتباعه و قد بسط الكلام على هذا و بين حقيقة قوله و الخير بيدك و الشر ليس إليك و إن كان خالق كل كل شيء و بين أن الشر لم يصف الى الله فى الكتاب و السنة إلا على أحد و جوه ثلاثة إما بطريق العموم كقوله {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} الزمر 62 و أما بطريقة إضافته الى السبب كقوله {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} الفلق 2

وإما أن يحذف فاعله كقول الجن {وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} الجن 10 و قد جمع في الفاتحة الأصناف الثلاثة فقال {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الفاتحة 2 و هذا عام و قال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} الفاتحة 7 فحذف فاعل الغضب و قال {وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 فأضاف الضلال الى المخلوق و من هذا قول الخليل {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} الشعراء 80 و قول الخضر {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} الكهف 79 {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} الكهف 81 {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} الكهف 82 و قد بسط الكلام على حقائق هذه الأمور و بين أن الله لم يخلق شيئا إلا لحكمة قال تعالى {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} السجدة 7 و قال {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ} النمل 88 فالمخلوق باعتبار الحكمة التي خلق لأجلها خير و حكمة و إن كان فيه شر من جهة أخرى فذلك أمر عارض جزئي ليس شرا محضا بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح هو خير من الفاعل الحكيم و إن كان شرا لمن قام به و ظن الظان أن الحكمة المطلوبة التامة قد تحصل مع عدمه إنما يقوله لعدم علمه بحقائق الأمور و إرتباط بعضها ببعض فإن الخالق إذا خلق الشيء فلا بد من خلق لوازمه فإن وجود الملزوم بدون وجود اللازم ممتنع و لا بد من ترك خلق أضداده التي تنافيه فإن إجتماع الضدين المتنافيين في وقت واحد ممتنع و هو سبحانه على كل شيء قدير لا يستثنى من هذا العموم شيء لكن مسمى الشيء ما تصور و جوده فأما الممتنع لذاته فليس شيئا بإتفاق العقلاء و القدرة على خلق المتضادات قدرة على خلقها على البديل فهو سبحانه إذا شاء أن يجعل العبد متحركا جعله و إن شاء أن يجعله ساكنا جعله و كذلك في الإيمان و الكفر و غيرهما لكن لا يتصور أن يكون العبد في الوقت الواحد متصفا بالمتضادات فيكون مؤمنا صديقا من أولياء الله المتقين كافرا منافقا من أعداء الله و إن كان يمكن أن يجتمع فيه شعبة من الإيمان و شعبة من النفاق والذي يجب على العبد أن يعلم أن علم الله و قدرته و حكمته و رحمته في غاية الكمال الذي لا يتصور زيادة عليها بل كلما أمكن من الكمال الذي لا نقص فيه فهو واجب للرب تعالى و قد يعلم بعض العباد بعض حكمته و قد يخفى عليهم منها ما يخفى و الناس يتفاضلون في العلم بحكمته و رحمته و عدله و كلما إزداد العبد علما بحقائق الأمور إزداد علما بحكمة الله و عدله و رحمته و قدرته و علم أن الله منعم عليه بالحسنات عملها و ثوابها و أن ما يصيبه من عقوبات ذنوبه فبعدل الله تعالى و أن نفس صدور الذنوب منه و إن كان من جملة مقدرات الرب فهو لنقص نفسه و عجزها و جهلها الذي هو من لوازمها و أن ما في نفسه من الحسنات فهو من فعل الله و إحسانه و جوده و أن الرب مع أنه قد خلق النفس و سواها و ألهما فجورها و تقواها فالهيام الفجور و التقوى وقع بحكمة بالغة لو إجتمع الأولون و الآخرون من عقلاء الأدميين على أن يروا حكمة أبلغ منها لم يروا حكمة أبلغ منها لكن تفصيل حكمة الرب مما يعجز كثير من الناس عن معرفتها و منها ما يعجز عن معرفته جميع الخلق حتى الملائكة و لهذا قالت الملائكة لما قال الله تعالى لهم {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} البقرة 30 قال

{إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 30 فتكفيهم المعرفة المجملة و الإيمان العام و الله سبحانه قد أمرهم أن يطلبوا منه جميع ما يحتاجون إليه من هدى و رشاد و صلاح فى المعاش و المعاد و مغفرة و رحمة و كان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى الحديث الصحيح اللهم إني أسالك الهدى و التقى و العفة و الغنى و يقول اللهم آت نفسي تقواها و زكها أنت خير من زكاها أنت و ليها و مولاها و يقول اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري و أصلح لي دنياي التي فيها معاشي و اصلح لي آخرتى التي فيها معادي و اجعل الحياة زيادة لي فى كل خير و اجعل الموت راحة لي من كل شر و كل هذا فى الأحاديث التي فى الصحيح و فى صحيح مسلم أنه كان يقول إذا قام من الليل اللهم رب جبريل و ميكائيل و إسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم و قد أمرنا الله تعالى أن نقول فى صلاتنا {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 و هذا أفضل الأدعية و أوجبها على العباد و من تحقيق بهذا الدعاء جعله الله من أهل الهدى و الرشاد فإنه سميع الدعاء لا يخلف الميعاد و الله أعلم¹

قال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {76} النحل 75-76 و المثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة و لما يعبد من دونه فان الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع و لا على كلام ينفع فاذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شئ و آخر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا و جهرا هل يستوى هذا المملوك العاجز عن الاحسان و هذا القادر على الاحسان المحسن إلى الناس سرا و جهرا و هو سبحانه قادر على الاحسان إلى عباده و هو محسن إليهم دائما فكيف يشبه به العاجز المملوك الذى لا يقدر على شئ حتى يشرك به معه و المثل الثانى إذا قدر شخصان أحدهما ابكم لا يعقل و لا يتكلم و لا يقدر على شئ و هو مع هذا كل على مولاة اينما يوجهه لا يأت بخير فليس فيه من نفع قط بل هو كل على من يتولى أمره و آخر عالم عادل يأمر بالعدل و يعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم و قد ضرب ذلك مثلا لنفسه فإنه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل و هو قائم بالقسط على صراط مستقيم كما قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18 و قال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هود 56²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 505-515

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 115-116

أن السيئة إذا كانت من النفس و السيئة خبيثة مذمومة و وصفها بالخبت في مثل قوله {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ} النور 26 قال جمهور السلف الكلمات الخبيثة للخبيثين و قال بعضهم الأقوال و الأفعال الخبيثة للخبيثين و قال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً} إبراهيم 24 الى قوله {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} إبراهيم 26 و قال {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر 10 و الأقوال و الأفعال صفات القائل الفاعل فإذا كانت النفس متصفة بالسوء و الخبت لم يكن محلها إلا ما يناسبها فمن أراد أن يجعل الحيات و العقارب يعاشرون الناس كالسنانير لم يصلح و من أراد أن يجعل الكذاب شاهدا لم يصلح و كذلك من أراد أن يجعل الجاهل معلما أو الأحمق سائسا فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة بل إذا كان في النفس خبت طهرت و هذبت كما في الصحيح إن المؤمنين إذا نجوا من النار و قفوا على قنطرة الحديث فان الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب و التنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط وأيضا فإذا كان سببها ثابتا فالجزاء كذلك بخلاف الحسنات فإنها من إنعام الحي القيوم الباقي الأول الآخر فسببها دائم فيدوم بدوامه وإذا علم أن السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر بل علم تحقيق قوله {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} النساء 123 و قوله {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} 7 {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 8 {الزلزلة 7-8 و علم أن الرب جارية أفعاله على قانون العدل و الإحسان و في الصحيح يمين الله ملأى الحديث و علم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب و العقاب بلا حكمة و هو سبحانه قد شهد أن لا إله إلا هو و الملائكة و أولوا العلم قائما بالقسط و هم قصدوا مناقضة المعتزلة في القدر و الوعيد¹

جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين

وإذا كانت جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين ان يراد بها وجه الله وان تكون موافقة للشريعة فهذا في الاقوال والافعال في الكلم الطيب والعمل الصالح في الامور العلمية والامور العملية العبادية ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ان اول ثلاثة تسجر بهم جهنم رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن وأقرأه ليقول الناس هو عالم وقارئ ورجل قاتل وجاهد ليقول الناس هو شجاع وجرئ ورجل تصدق واعطى ليقول الناس هو جواد وسخي فإن هؤلاء الثلاثة الذين يريدون الرياء والسمعة هم بإزاء الثلاثة الذين بعد النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين فإن من تعلم العلم الذي بعث الله به رسله وعلمه لوجه الله كان صديقا ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وقتل كان شهيدا ومن تصدق بيتغي بذلك وجه الله كان صالحا ولهذا يسأل المفرط في ماله الرجعة وقت الموت كما

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 346 و الحسنات والسيئة ج: 1 ص: 102 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 226

قال ابن عباس رضي الله عنهما من اعطي مالا فلم يحج منه ولم يترك سأل الرجعة وقت الموت وقرأ قوله تعالى وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين سورة المنافقون 10 ففي هذه الامور العلمية الكلامية يحتاج المخبر بها ان يكون ما يخبر به عن الله واليوم الاخر وما كان وما يكون حقا وصوابا وما يأمر به وما ينهي عنه كما جاءت به الرسل عن الله فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة المتبع لكتاب الله وسنة رسوله كما ان العبادات التي يتعبد العباد بها اذا كانت مما شرع الله وامر الله به ورسوله كانت حقا صوابا موافقا لما بعث الله به رسله وما لم يكن كذلك من القسمين كان من الباطل والبدع المضلة والجهل وان كان يسميه من يسميه علوما ومعقولات وعبادات ومجاهدات وادواقا ومقامات ويحتاج ايضا ان يؤمر بذلك لأمر الله به وينهى عنه لنهي الله عنه ويخبر بما اخبر الله به لأنه حق وايمان وهدى كما اخبرت به الرسول كما تحتاج العبادة إلى أن يقصد بها وجه الله فاذا قيل ذلك لاتباع الهوى والحمية او لإظهار العلم والفضيلة او لطلب السمعة والرياء كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء ومن هنا يتبين لك ما وقع فيه كثير من اهل العلم والمقال واهل العبادة والحال واهل الحرب والقتال من لبس الحق بالباطل في كثير من الاصول فكثيرا ما يقول هؤلاء من الاقوال ما هو خلاف الكتاب والسنة او ما يتضمن خلاف السنة ووافقها وكثيرا ما يتعبد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها بل قد نهى عنها او ما يتضمن مشروعا ومحظورا وكثيرا ما يقاتل هؤلاء قتالا مخالفا للقتال المأمور به او متضمنا لمأمور به ومحظور ثم كل من الاقسام الثلاثة المأمور به والمحظور والمشتغل على الامرين قد يكون لصاحبه نية حسنة وقد يكون متبعا لهواه وقد يجتمع له وهذا وهذا فهذه تسعة اقسام في هذه الامور في الاموال المنفقة عليها من الاموال السلطانية الفئ وغيره والاموال الموقوفة والاموال الموصى بها والاموال المنذورة وانواع العطايا والصدقات والصلوات وهذا كله من لبس الحق بالباطل وخط عمل صالح واخر شيء والسيء من ذلك قد يكون صاحبه مخطئا او ناسيا مغفورا له كالمجتهد المخطيء الذي له اجر وخطؤه مغفور له وقد يكون صغيرا مكفرا باجتناب الكبائر وقد يكون مغفورا بتوبة او بحسنات تمحو السيئات او مكفرا بمصائب الدنيا ونحو ذلك الا ان دين الله الذي انزل به كتبه وبعث به رسله ما تقدم من ارادة الله وحده بالعمل الصالح وهذا هو الاسلام العام الذي لا يقبل الله من احد غيره قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {19} ال عمران 18-19¹

دين الأنبياء واحد

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 302

فى توحى الملة وتعدى الشرائع وتتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعى وما فى ذلك من اقرار ونسخ وجرىان ذلك فى اهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعبار قال الله تعالى {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} البقرة 124 فهذا نص فى انه امام الناس كلهم وقال {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} النحل 120 وهو القدوة الذى يؤتم به وهو معلم الخير وقال تعالى فى آل عمران بعد ان قص امر المسيح ويحيى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64 وهى التى كتبها النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم لما دعاهم الى الاسلام وقال {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ النَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {65} هَانْتُمْ هُوَ لَاءَ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {66} مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {67} إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} {68} آل عمران 65-68 الى قوله {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لْتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَتَّصِرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 81 الى قوله {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} آل عمران 83 فانكر على من يبغى غير دين الله كما قال فى اول السورة {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} {19} آل عمران 18-19 فاخبر ان الدين عند الله الاسلام وان الذين اختلفوا من اهل الكتاب وصاروا على ملل شتى ما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم وفيه بيان ان الدين واحد لا اختلاف فيه وهذا فى القرآن مذکور فى مواضع كثيرة وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مثل ما ترجم عليه البخارى فقال باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة عن النبى قال انا معاشر الأنبياء اخوة لعلات ومثل صفته فى التوراة لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا ولهذا وحد الصراط والسبيل فى مثل قوله تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 والاسلام دين جميع المرسلين¹

ان الحنفاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له وهم مسلمون وجميع الانبياء وامهم كانوا مسلمين مؤمنين {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85 لان {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران 19 فى كل زمان ومكان وقد اخبر الله عن نوح و ابراهيم واسرائيل وغيرهم الى

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 108-111

الحواريين انهم كانوا مسلمين ونوح اول رسول بعث الى اهل الارض كما ثبت ذلك في الحديث المتفق على صحته حديث الشفاعة عن النبي صلى الله عليه وسلم¹

ان الله لا يقبل من أحد ديناً سوى الحنيفية

وأما الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فناطقة بأن الله لا يقبل من أحد ديناً سوى الحنيفية وهي الإسلام العام عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان بكتبه ورسوله واليوم الآخر كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة 62 وبذلك أخبرنا عن الأنبياء المتقدمين وأمامهم قال نوح {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يونس 72 وقال في آل إبراهيم {وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {131} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {132} البقرة 130-132 وقال {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} يونس 84 وقال {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} المائدة 44 وقالت بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} النمل 44 وقال في الحواريين {وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} المائدة 111 وقد قال مطلقاً {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} {19} آل عمران 18-19 وقال {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85²

أن دين الله الذي أنزل به كتبه وبعث به رسوله ما تقدم من إرادة الله وحده بالعمل الصالح وهذا هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد غيره قال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 وقال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} {19} آل عمران 18-19 والإسلام يجمع معنيين أحدهما الاستسلام والانقياد فلا يكون متكبراً والثاني الاخلاص من قوله تعالى {وَرَجُلًا سَلَمًا لَّرَجُلٍ} الزمر 29 فلا يكون مشركاً وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين كما قال

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 544 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 132

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 400 و مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 189 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 390

تعالى { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } {130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {131} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {132} البقرة 130-132 وقال تعالى { قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {161} قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {162} لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } {163} الاتعام 161-163 والاسلام يستعمل لا زما معدى بحرف اللام مثل ما ذكر فى هذه الآيات ومثل قوله تعالى { وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ } الزمر 54 ومثل قوله تعالى { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 44 ومثل قوله { أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 ومثل قوله { قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {71} وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } {72} الأنعام 71-72 ويستعمل متعديا مفرونا بالاحسان كقوله تعالى { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {111} بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {112} البقرة 111-112 وقوله { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء 125 فقد انكر أن يكون دين أحسن من هذا الدين وهو اسلام الوجه لله مع الاحسان وأخبر ان كل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يخزنون أثبتت هذه الكلمة الجامعة والقضية العامة ردا لم زعم من زعمه أن لا يدخل الجنة الا متهود او متنصر وهذان الوصفان وهما اسلام الوجه لله والاحسان هما الأصلان المتقدمان وهما كون العمل خالصا لله صوابا موافقا للسنة والشريعة وذلك ان اسلام الوجه لله هو متضمن للقصد ونبيه لله¹ دين الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له فإن هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره وكذلك الإسلام العام وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي ولهذا ترجم البخاري على ذلك باب من جاء في أن دين الأنبياء واحد وقال تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {213} البقرة

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 174-175

213 قال ابن عباس وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وقوله كان الناس أمة واحدة أي علالحق وهو دين الإسلام فاختلّفوا كما ذكر ذلك في سورة يونس هذا قول الجمهور وهو الصواب وقد قيل كانوا أمة واحدة على الباطل وهو من الباطل فدين الله تعالى الذي ارتضاه لنفسه دين واحد في الأولين والآخرين وهو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو دين الإسلام وتنوع الشرائع كتنوع الشريعة الواحدة للشيء الواحد فإن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأفضل المرسلين لا نبي بعده وقد بعث بدين الإسلام ما زال الإسلام دينه وقد أمر أولا باستقبال صخرة بيت المقدس ثم أمر ثانيا باستقبال الكعبة والدين واحد وإن تنوعت الشريعة وقال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {19} {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} {20} آل عمران 20 18 فأخبر سبحانه أن الدين عنده هو الإسلام أولا وأخرا وهو دين واحد ثم بين أن أهل الكتاب إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم من بعضهم على بعض لا لأجل طلب الحق¹

أمر الله أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين

قال تعالى في أول سورة آل عمران {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {19} {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} {20} آل عمران 20-18 فقد أمره تعالى بعد قوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران 19 أن يقول {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} آل عمران 20 وأن يقول للذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى والأميين وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم {أَسْلَمْتُمْ} آل عمران 20 فالعرب الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس وأما من سواهم فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إليهم جميع الناس قال {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} آل عمران 20 فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين وإن لم يسلموا فقد قال إنما عليك البلاغ أي تبليغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم فدل بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب الذي كتبه إلى هرقل ملك النصارى من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين يا أهل

¹الصفدية ج: 2 ص: 307-308 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 15
169

الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون الإسلام دين جميع الأنبياء وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم ويعقوب وأتباعهم إلى الحواريين وهذا تحقيق لقوله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85 وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان¹ وقد أمر أهل الكتاب بالإخلاص وكذلك دعاهم إلى الإسلام وتوعدهم على التولي عنه²

الرد على من قال ان النظر في الدليل هو أصل الايمان

أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وأنه من لم ينظر في هذا الدليل فاما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافرا على قول طائفة منهم وإما أن يكون عاصيا على قول آخرين وأما إن يكون مقلدا لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمنا غير عاص والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والايان هو هذا النظر في هذا الدليل فان علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم فامتنع أن يكون هذا شرطا في الايمان والعلم وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وأنهم عالمون بصدق الرسول وبما جاء به وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين كما قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18³

الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

الدين هو التعاهد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاهد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات

¹دقائق التفسير ج: 1 ص: 336-337 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 127

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 76

³النبوات ج: 1 ص: 43

ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} {1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ} {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} {6} {الكافرون 1-6} وقال تعالى {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} {يوسف 76} وقال تعالى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} {التوبة 29} الدين الحق هو طاعة الله وعبادته والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبيننا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لا ينفع صاحبه وقد قال سبحانه {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} {البينة 5} وقال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} {البقرة 193} وقال تعالى {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلُمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ} {التوبة 36} وقال تعالى {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {الأنعام 161} وقال تعالى {فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} {التوبة 122} وفي الصحيحين عن النبي انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالى {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {البقرة 217} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} {المائدة 54} وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره كما قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} {آل عمران 19} وقال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} {آل عمران 85} وقال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} {آل عمران 83} وقال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} {الشورى 13} وقال تعالى {إِنَّ الدِّينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَبِيعًا أَلَسْتُمْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} {الأنعام 159} كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه

تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} هود7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالى {وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا} المائدة3 وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به¹

" سمي الله إقام الصلاة دينا قيما وسمى الدين إسلاما "

قال محمد بن نصر وقال الله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} البينة5 وقال {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران19 فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة دينا قيما وسمى الدين إسلاما فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم الذي أخبر الله أنه عنده وهو الإسلام بعضا قال وقد جاء معنا هذه الطائفة التي فرق بين الإسلام والإيمان على أن الإيمان قول وعمل وأن الصلاة والزكاة من الإيمان وقد سماهما الله دينا وأخبر أن الدين عنده الإسلام فقد سمي الله الإسلام بما سمي به الإيمان وسمى الإيمان بما سمي به الإسلام وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي فمن زعم أن الإسلام هو الإقرار وأن العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الإيمان إقرار بلا عمل فيقال أما قوله إن الله جعل الصلاة والزكاة من الدين والدين عنده هو الإسلام فهذا كلام حسن موافق لحديث جبريل ورده على من جعل العمل خارجا من الإسلام كلام حسن وأما قوله إن الله سمي الإيمان بما سمي به الإسلام وسمى الإسلام بما سمي به الإيمان فليس كذلك فإن الله إنما قال {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران19 ولم يقل قط إن الدين عند الله الإيمان ولكن هذا الدين من الإيمان وليس إذا كان منه يكون هو إياه فإن الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه وقوله والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمنا إلا بهما وأما الإسلام فهو عمل محض مع قول والعلم والتصديق ليس جزء مسماه لكن يلزمه جنس التصديق فلا يكون عمل إلا بعلم لكن لا يستلزم الإيمان المفصل الذي بينه الله

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36-40

ورسوله كما قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } {15} الحجرات 15 وقوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } الأنفال 2 وسائر النصوص التي تنفي الايمان عن لم يتصف بما ذكره فإن كثيرا من المسلمين مسلم باطنا وظاهرا ومعه تصديق مجمل ولم يتصف بهذا الايمان والله تعالى قال { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } آل عمران 85 وقال { وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا } المائدة 3 ولم يقل ومن يبتغ غير الإسلام علما ومعرفة وتصديقا وإيمانا ولا قال رضيت لكم الإسلام تصديقا وعلما فإن الإسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع فمن ابتغى غير الإسلام دينا فلن يقبل منه والايمن طمأنينة ويقين أصله علم وتصديق ومعرفة والدين تابع له يقال آمنت بالله واسلمت لله قال موسى { يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 فلو كان مساهما واحدا كان هذا تكريرا وكذلك قوله { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } الأحزاب 35 كما قال والصادقين والصابرين والخاشعين فالمؤمن متصف بهذا كله لكن هذه الأسماء لا تطابق الإيمان في العموم والخصوص وكان النبي يقول اللهم لك أسلمت وبك آمنت و عليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت كما ثبت في الصحيحين أنه كان يقول ذلك إذا قام من الليل وثبت في صحيح مسلم وغيره أنه كان يقول في سجوده اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت وفي الركوع يقول لك ركعت ولك

اسلمت وبك آمنت ولما بين النبي خاصة كل منهما قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم واموالهم ومعلوم أن السلامة من ظلم الانسان غير كونه مأمونا على الدم والمال فإن هذا أعلى والمأمون يسلم الناس من ظلمه وليس من سلموا من ظلمه يكون مأمونا عندهم قال محمد بن نصر فمن زعم أن الاسلام هو الاقرار وأن العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة وهذا صحيح فإن النصوص كلها تدل على أن الأعمال من الإسلام¹

صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال

وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمن ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايمن بالإيمان بالاصول

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 377-379

الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي وأما اذا أفرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الايمان وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران 19¹

الاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان

والاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان أحدهما أنه يذم الطائفتين جميعا كما في قوله {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} آل عمران 19 وأما القسم الثاني من الاختلاف المذكور في كتاب الله فهو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وهم المؤمنون وذم فيه الأخرى كما في قوله تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} البقرة 253²

من اسباب الاختلاف

1- اذا انقطع عن الناس نور النبوة و قعوا في ظلمة الفتن و حدثت البدع و

الفجور

فاذا انقطع عن الناس نور النبوة و قعوا في ظلمة الفتن و حدثت البدع و الفجور و وقع الشر بينهم كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين و منعتني الثالثة سألته ان لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها و سألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها و البأس مشتق من البؤس قال الله تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 259-260

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 39

وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ {الأنعام 65} و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه لما نزل قوله تعالى {قُلْ هُوَ الْقَائِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ} {الأنعام 65} قال أعوذ بوجهك {أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} {الأنعام 65} قال أعوذ بوجهك {أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} {الأنعام 65} قال هاتان اهون فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيئا و يذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول في هذه الحال و هم فيها في جاهلية و لهذا قال الزهري و قعت الفتنة و أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر انزلوهم منزلة الجاهلية و قد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية تعنى قوله تعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} {الحجرات 9} فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة و جاهلية وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول و الفروع اذا لم ترد إلى الله و الرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضا و لم يبيغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة في خلافة عمر و عثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضا و لا يعتدى عليه و ان لم يرحموا و وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض إما بالقول مثل تكفيره و تفسيره و إما بالفعل مثل حبسه و ضربه و قتله و هذه حال أهل البدع و الظلم كالخوارج و أمثالهم يظلمون الأمة و يعتدون عليهم اذا نازعواهم في بعض مسائل الدين و كذلك سائر أهل الأهواء فانه يبتدعون بدعة و يكفرون من خالفهم فيها كما تفعل الرافضة و المعتزلة و الجهمية و غيرهم و الذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء إبتدعوا بدعة و كفروا من خالفهم فيها و استحلوا منع حقه و عقوبته فالناس اذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول صلى الله عليه و سلم إما عادلون و اما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما و صل اليه من آثار الأنبياء و لا يظلم غيره و الظالم الذي يعتدي على غيره و هؤلاء ظالمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} {آل عمران 19} و الا فلو سلخوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضا كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله و رسوله في تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول و قالوا هذه غاية ما قدرنا عليه فالعادل منهم لا يظلم الآخر و لا يعتدى عليه بقول و لا فعل مثل أن يدعى أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يديها و يذم من يخالفه مع أنه معذور¹

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 311-312

* ان الإعراض عن الكتاب والسنة وطلب الهدى في مقالات المختلفين المتقابلين في النفي والإثبات للعبارات
المجملات المشتبهات الذين قال الله فيهم **{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**
{آل عمران 19} ¹

2- أن المختلفين جاءتهم البينة وجاءهم العلم وإنما اختلفوا بغيا

أن الله تعالى ذكر أن المختلفين جاءتهم البينة وجاءهم العلم وإنما اختلفوا بغيا ولهذا ذمهم الله
وعاقبهم فإنهم لم يكونوا مجتهدين مخطئين بل كانوا قاصدين البغي عالمين بالحق معرضين عن
القول وعن العمل به ونظير هذا قوله **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ**
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ {آل عمران 19} قال الزجاج اختلفوا للبغي لا لقصد البرهان
وقال تعالى **{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} {يونس 93} وقال تعالى **{وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي**
إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} {16} **{وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ**
مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} {17} **{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** {18}
{إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} {19} **{هَذَا بَصَائِرُ**
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} {20} **{الجاثية 16- 20}** فهذه المواضع من القرآن تبين أن
المختلفين ما اختلفوا حتى جاءهم العلم والبيئات فاختلّفوا للبغي والظلم لا لأجل اشتباه الحق بالباطل
عليهم وهذا حال أهل الاختلاف المذموم من أهل الأهواء كلهم لا يختلفون إلا من بعد أن يظهر لهم
الحق ويجيئهم العلم فيبغى بعضهم على بعض ثم المختلفون المذمومون كل منهم يبغى على الآخر
فيكذب بما معه من الحق مع علمه أنه حق ويصدق بما مع نفسه من الباطل مع العلم أنه باطل
وهؤلاء كلهم مذمومون ولهذا كان أهل الاختلاف المطلق كلهم مذمومين في الكتاب والسنة فإنه ما
منهم إلا من خالف حقا واتبع باطلا ولهذا أمر الله الرسل أن تدعوا إلى دين واحد وهو دين الإسلام
ولا يتفرقوا فيه وهو دين الأولين والآخرين من الرسل واتباعهم قال تعالى **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ**
مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا
تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
يُنِيبُ} {الشورى 13} **{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** {51} **{وَإِنَّ**
هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} {52} **{فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ**

¹ ابرء التعارض ج: 1 ص: 73

فَرِحُونَ {53} المؤمنون 51- 53 أي كتبنا اتبع كل قوم كتابا مبتدعا غير كتاب الله فصاروا متفرقين مختلفين لأن أهل التفرق والاختلاف ليسوا على الحنيفية المحضة التي هي الإسلام المحض الذي هو إخلاص الدين لله الذي ذكره الله في قوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} البينة 5 وقال في الآية الأخرى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 30- 32 فنهاه أن يكون من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وأعاد حرف من ليبين أن الثاني بدل من الأول والبدل هو المقصود بالكلام وما قبله توطئة له وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِبِّبٍ} هود 110 إلى قوله {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} {119} هود 118- 119 فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون وقد ذكر في غير موضع أن دين الأنبياء كلهم الإسلام كما قال تعالى عن نوح {وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} النمل 91 وقال عن إبراهيم وقال عن إبراهيم {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {131} {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {132} البقرة 131- 132 وقال يوسف {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} يوسف 101 {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} يونس 84 وقال عن السحرة {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} الأعراف 126 وقال عن بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} النمل 44 وقال {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} المائدة 44 وقال {وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} المائدة 111 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحدا وهو الإسلام كالدين الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم فإنه هو دين الإسلام أولا وأخرا وكانت القبلة في أول الأمر بيت المقدس ثم صارت القبلة الكعبة وفي كلا الحالين الدين واحد وهو دين الإسلام فهكذا سائر ما شرع للأنبياء قبلنا ولهذا حيث ذكر الله الحق في القرآن جعله واحدا وجعل الباطل متعددا كقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الأنعام 153 وقوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6- 7 وقوله {شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} النحل 121 وقوله {وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} الفتح 2 وقوله {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} البقرة 257 وهذا يطابق ما في كتاب الله من أن الاختلاف المطلق كله مذموم بخلاف المقيد الذي

قيل فيه {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا} البقرة 253 فهذا قد بين أنه اختلاف بين أهل الحق والباطل كما قال {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} الحج 19 وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت المقتتلين يوم بدر في حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي ابن عمه وعبيدة بن الحارث ابن عمه والمشركين الذين برزهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة وقد تدبرت كتب الإختلاف التي يذكر فيها مقالات الناس إما نقلا مجردا مثل كتاب المقالات لأبي الحسن الأشعري وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ولأبي عيسى الوراق أو مع انتصار لبعض الأقوال كسائر ما صنفه أهل الكلام على اختلاف طبقاتهم فرأيت عامة الإختلاف الذي فيها من الاختلاف المذموم وأما الحق الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وكان عليه سلف الأمة فلا يوجد فيها في جميع مسائل الإختلاف بل يذكر أحدهم في المسألة عدة أقوال والقول الذي جاء به الكتاب والسنة لا يذكرونه وليس ذلك لأنهم يعرفونه ولا يذكرونه بل لا يعرفونه ولهذا كان السلف والأئمة يذمون هذا الكلام¹

جعل الله مصدر الإختلاف البغي في قوله {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} آل عمران 19 لأن البغي مجاوزة الحد وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة وقريب من هذا الباب ما خرجاه في الصحيحين عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فانتوا منه ما استطعتم فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به معللا ذلك بأن سبب هلاك الأولين إنما كان لكثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية كما أخبرنا الله عن بني إسرائيل من مخالفتهم أمر موسى في الجهاد وغيره وفي كثرة سؤالهم عن صفات البقرة التي أمرهم بذبحها لكن هذا الاختلاف على الأنبياء هو والله أعلم مخالفة للأنبياء كما يقال اختلف الناس على الأمير إذا خالفوه²

3-ان نسيانهم حقا مما ذكروا به كان سببا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم

{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} آل عمران 19 والبغى مجاوزة الحد كما قال ابن عمر الكبر والحسد وهذا بخلاف التفرق عن إجتهد ليس فيه علم ولا قصد به البغى كتنازع العلماء السائغ والبغى إما تضييع للحق وإما تعد للحد فهو إما ترك واجب وإما فعل محرم فعلم أن موجب التفرق هو ذلك وهذا كما قال عن أهل الكتاب {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 263-268 و درء التعارض ج: 1 ص: 48

² اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 43

نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ { المائدة 14 فأخبر أن نسيانهم حظاً مما ذكروا به وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به كان سبباً لإغراء العداوة والبغضاء بينهم وهكذا هو الواقع في أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها وكثير من فروعها من أهل الأصول والفروع ومثلما نجده بين العلماء وبين العباد ممن يغلب عليه الموسوية أو العيسوية حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة ليست الأخرى على شيء كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة كل منهما ينفى طريقة الآخر ويدعى أنه ليس من أهل الدين أو يعرض عنه إعراضاً من لا يعده من الدين فتقع بينهما العداوة والبغضاء وذلك أن الله أمر بطهارة القلب وأمر بطهارة البدن وكلا الطهارتين الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجهه قال تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } المائدة 6 وقال { فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ } التوبة 108 وقال { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } البقرة 222 وقال { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103 وقال { أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ } المائدة 41 وقال { إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } التوبة 28 وقال { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } الأحزاب 33 فنجد كثيراً من المتفقهة والمتعبدة إنما همته طهارة البدن فقط ويزيد فيها على المشروع اهتماماً وعملاً ويترك من طهارة القلب ما أمر به إيجاباً أو استحباباً ولا يفهم من الطهارة إلا ذلك ونجد كثيراً من المتصوفة والمتفكرة إنما همته طهارة القلب فقط حتى يريد فيها على المشروع اهتماماً وعملاً ويترك من طهارة البدن ما أمر به إيجاباً أو استحباباً فالأولون يخرجون إلى الوسوسة المذمومة في كثرة صلب الماء وتنجيس ما ليس بنجس واجتناب ما لا يشرع اجتنابه مع اشتغال قلوبهم على أنواع من الحسد والكبر والغل لإخوانهم وفي ذلك مشابهة بينة لليهود وآخرون يخرجون إلى الغفلة المذمومة فيبالغون في سلامة الباطن حتى يجعلون الجهل بما تجب معرفته من الشر الذي يجب اتقائه من سلامة الباطن ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعرفة المأمور بها ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات ويطهرون الطهارة الواجبة مضاهاتاً للنصارى وتقع العداوة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به والبغى الذي هو مجاوزة الحد إما تفريطاً وتضييعاً للحق وإما عدواناً وفعلاً للظلم والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض وتارة يكون في حقوق الله وهما متلازمان ولهذا قال بغياً بينهم فإن كل طائفة بغت على الأخرى فلم تعرف حقها الذي بأيديها ولم تكف عن العدوان عليها وقال تعالى { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة 4 وقال تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة 213 وقال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

وَالنَّبُوءَةَ {الجاثية 16} الآية وقال تعالى في موسى بن عمران مثل ذلك وقال {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 105 وقال {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} الأنعام 159 وقال {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} {الروم 30-32} لأن المشركين كل منهم يعبد إلها يهواه كما قال في الآية الأولى {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} الشورى 13 وقال {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} {52} {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {53} المؤمنون 51-53 فظهر أن سبب الإجماع والألفة جمع الدين والعمل به كله وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما أمر به باطنا وظاهرا وسبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به والبغى بينهم ونتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه وصلواته وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه ونتيجة الفرقة عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه وبراءة الرسول منهم وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة فإنهم إذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين فلا تكون طاعة الله ورحمته بفعل لم يأمر الله به من إعتقاد أو قول أو عمل فلو كان القول أو العمل الذى اجتمعوا عليه لم يأمر الله به لم يكن ذلك طاعة لله ولا سببا لرحمته وقد إحتج بذلك أبو بكر عبد العزيز فى أول التنبيه نبه على هذه النكته وقال قال فى الحديث المشهور فى السنن من رواية فقيهى الصحابة عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولات الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وفى حديث أبى هريرة المحفوظ إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تتاصحوا من ولاة الله أمركم فقد جمع فى هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث إخلاص العمل لله ومناصحة أولى الأمر ولزوم جماعة المسلمين وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التى لله ولعباده وتتنظم مصالح الدنيا والآخرة وبيان ذلك أن الحقوق قسمان حق لله وحق لعباده فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئا كما جاء لفظه فى أحد الحديثين وهذا معنى إخلاص العمل لله كما جاء فى الحديث الآخر وحقوق العباد قسمان خاص وعام أما الخاص فمثل بر كل إنسان والديه وحق زوجته وجاره فهذه من فروع الدين لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه ولأن مصلحتها خاصة فردية وأما الحقوق العامة فالناس نوعان رعاة ورعية فحقوق الرعاة مناصحتهم وحقوق الرعية لزوم جماعتهم فإن مصلحتهم لا تتم إلا بإجتماعهم وهم لا يجتمعون على ضلالة بل مصلحة دينهم ودنياهم فى إجتماعهم وإعتصامهم بحبل الله جميعا فهذه الخصال تجمع أصول الدين وقد جاءت مفسرة فى الحديث الذى رواه مسلم عن تميم الدارى قال قال رسول الله الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال الله وكتابه ولسوله ولأئمة المسلمين

وعامتهم فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله تدخل في حق الله وعبادته وحده لا شريك له والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هي مناصحة ولزوم الأمر ولزوم جماعتهم فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة وأما النصيحة الخاصة لكل واحد واحد منهم بعينه فهذه يمكن بعضها ويتعذر إستيعابها على سبيل التعيين¹

فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله وسنة خلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والاجماع وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا فان مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والاجماع ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف فان الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله²

بعض الوسائل لمعالجة اسباب الخلاف

1- ان الله سبحانه وتعالى هو الحكم

فان الله سبحانه وتعالى هو الحكم الذي يحكم بين عباده والحكم له وحده وقد أنزل اللمة الكتب وارسل الرسل ليحكم بينهم فمن اطاع الرسول كان من أوليائه المتقين وكانت له سعادة الدنيا والآخرة ومن عصى الرسول كان من اهل الشقاء والعذاب قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} البقرة 213 وفي صحيح مسلم عن عائشة أن النبي كان إذا قام يصلى من الليل يقول اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} آل عمران 19 فبين سبحانه وتعالى أنه هداهم وبين لهم الحق لكن بعضهم يبغي على بعض مع معرفته بالحق فيتبع هواه ويخالف أمر الله وهو الذي يعرف الحق ويزيغ عنه كما قال تعالى {وَأَوَّلُ عَلِيمٍ نَبَأٌ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ} {175}

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 15-19

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 237

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يُلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يُلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْفَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {176}

الاعراف 175-176 فقد بين سبحانه وتعالى أنه بعث الرسل وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقال تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} الشورى 10 وقال يوسف {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ أُرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {40} يوسف 39-40

فالحكم لله وحده ورسله يبلغون عنه فحكمهم حكمه وأمرهم أمره وطاعتهم طاعته فما حكم به الرسول وأمرهم به وشرعه من الدين وجب على جميع الخلائق إتباعه وطاعته فإن ذلك هو حكم الله على خلقه والرسول يبلغ عن الله قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا {64} فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا {65} النساء 64-65 فعلى جميع الخلق أن يحكموا رسول الله خاتم النبيين وأفضل المرسلين وأكرم الخلق على الله ليس لأحد أن يخرج عن حكمه فى شيء سواء كان من العلماء أو الملوك أو الشيوخ أو غيرهم ¹

2-بكمال العبودية لله يبرء من الكبر والشرك

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات الا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا اياه ولا يستعين الا به ولا يتوكل الا عليه ولا يفرح الا بما يحبه ويرضاه ولا يكره الا ما يبغضه الرب ويكرهه ولا يوالي الا من والاه الله ولا يعادى الا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئاً الا الله ولا يعطى الا الله ولا يمنع الا الله فكلما قوى اخلاص دينه الله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك والشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود قال تعالى فى النصارى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 وقال فى اليهود {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} البقرة 87 وقال تعالى {سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} الأعراف 146 ولما كان الكبر مستلزماً للشرك والشرك ضد الاسلام وهو الذنب الذى لا يغفره الله {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 361-363

يُشْرِكُ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا {النساء 48} وقال {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ اضْطَلَّ سَبِيلًا لِلنَّاسِ الْمُنْكَرِينَ} كان الانبياء جميعهم مبعوثين بدين الاسلام فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الاولين ولا من الآخرين قال في حق ابراهيم {وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ اِبْرَاهِيمَ اِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَاِنَّهُ فِي الْاٰخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ} {130} اذ قال له رَبُّهُ اَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ {131} البقرة 130-131 الى قوله {فَلَا تَمُوْنَنَّ اِلَّا وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ} البقرة 132 وقال {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران 19¹

3- الإجماع والأنتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله

ففي صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين الأمة في الرواية والرأى مثل الأذان والجهر بالسلمة والقنوت في الفجر والتسليم في الصلاة ورفع الأيدي فيها ووضع الأكف فوق الأكف ومثل التمتع والإفراد والقران في الحج ونحو ذلك فإن التنازع في هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعا من الفساد الذي يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون احدها التفرق والإختلاف المخالف للإجماع والأنتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه ويحب بعضا ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضى الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز وبعضهم إلى الإقتتال بالأيدي والسلاح وبعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلى بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الأمور التي حرّمها الله ورسوله والإجماع والأنتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوْنَنَّ اِلَّا وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ} {102} وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا {103} آل عمران 102-103 إلى قوله {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} يَوْمَ تَبْيَضُ وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُ وُجُوهٌُ {106} آل عمران 105-106 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السنة التي شرعها رسول الله لأمتة ومن أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ اِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} آل عمران 19 وقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} {الأنفال 1} وقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} الحجرات 10 وقال {إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} النساء 114 وهذا الأصل العظيم وهو الإعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي في مواطن عامة وخاصة مثل قوله عليكم

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 198-199

بالجماعة فإن يد الله على الجماعة وقوله فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد وقوله من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وقوله ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين وقوله من جاءكم وامرهم على رجل واحد منكم يريد أن يفرق جماعتكم فإضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان وقوله يصلون لكم فإن أصابوا فلکم ولهم وإن أخطأوا فلکم وعليهم وقوله ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية وإثنان وسبعون في النار وقيل ومن الفرقة الناجية قال هي الجماعة يد الله على الجماعة و باب الفساد الذى وقع فى هذه الأمة بل وفى غيرها هو التفرق والإختلاف فإنه وقع بين امرائها و علمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وإن كان بعض ذلك مغفوراً لصاحبه لإجتهاده الذى يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم أن رعايته من اعظم أصول الإسلام ولهذا كان إمتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة ويذكرون فى كثير من السنن والآثار فى ذلك ما يطول ذكره وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذى يجب تقديم العمل به هو الإجماع فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة¹

وقال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء 59 وقال تعالى {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} الحشر 10 اذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الامر منا وامرنا عند التنازع فى شىء أن نرده الى الله والى الرسول وامرنا بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف وامرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالايمن وسمانا المسلمين وامرنا ان ندوم عليه الى الممات فهذه النصوص وما كان فى معناها توجب علينا الاجتماع فى الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا فى الدين وولاية الأمور فينا هم خلفاء الرسول قال النبى فى الحديث الصحيح إن بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى قام نبى و إنه لا نبى بعدى وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال اوفوا ببيعة الأول فالأول وأدوا لهم الذى لهم فان الله سألهم عما استرعاهم وقال ايضا العلماء ورثة الأنبياء وروى عنه أنه قال وددت أنى قد رأيت خلفائى قالوا ومن خلفائك قال الذين يحيون سنتى يعلمونها الناس فهؤلاء هم ولاية الأمر بعده وهم الأمراء والعلماء وبذلك فسرها السلف ومن تبعهم من الأئمة كالامام احمد وغيره وهو ظاهر قد قررناه فى غير هذا الموضوع فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والاجماع هي بمنزلة

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 358-360

الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الاسلام المحض وهم أهل السنة والجماعة¹

4- نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القتال في الفتنة

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القتال في الفتنة وكان ذلك من أصول السنة وهذا مذهب أهل السنة والحديث وأئمة أهل المدينة من فقهاءهم وغيرهم ومن الفقهاء من ذهب إلى أن ذلك يكون مع وجود العلم التام من أحدهما والبغي من الآخر فيجب القتال مع العادل حينئذ وعلى هذا الفتنة الكبرى بين أهل الشام والعراق هل كان الأصوب حال القاعدين أو حال المقاتلين من أهل العراق والنصوص دلت على الأول وقالوا كان ترك قتال أهل العراق أصوب وإن كانوا أقرب إلى الحق وأولى به من الشام إذ ذاك كما بسطنا الكلام في هذا في غير هذا الموضع وتكلمنا على الآيات والاحاديث في ذلك ومن أصول هذا الموضع أن مجرد وجود البغي من إمام أو طائفة لا يوجب قتالهم بل لا يبيحه بل من الأصول التي دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم يؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ولا يقاتلونه كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في غير حديث فلم يأذن في دفع البغي مطلقا بالقتال بل إذا كانت فيه فتنة نهى عن دفع البغي به وأمر بالصبر²

5- أعظم السيئات جحود الخالق والشرك به

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس وإن كانت بقدر الله فأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به وطلب النفس أن تكون شريكة وندا له أو أن تكون إلها من دونه فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة بحسب إمكانها فتجد أحدهم يوالي من يوافقها على هواه ويعادي من يخالفه في هواه وإنما معبوده ما يهواه ويريده قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا} الفرقان 43 والناس عنده في هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم يقولون يا رباعي أي صديق وعدو فمن وافق هواهم كان وليا وإن كان كافرا مشركا ومن لم يوافق هواهم كان عدوا وإن كان من أولياء الله المتقين وهذه هي حال فرعون والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الإلهية وجحود الصانع وهؤلاء وإن كانوا يقرون بالصانع لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه كما عادى فرعون موسى وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان لا يطلب هذا الحد بل يطلب لنفسه ما هو عنده فإن كان مطاعا مسلما طلب أن يطاع في أغراضه وإن

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 116-117

²الاستقامة ج: 1 ص: 32

كان فيها ما هو ذنب ومعصية الله ويكون من أطاعه في هواه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسول وإن كان عالماً أو شيخاً أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها كالصلوات الخمس فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله والاعتداء به أكثر من غيره وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى **قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } آل عمران 19**¹

جعل الأميين مقابلين لأهل الكتاب

لفظ المشركين قد يقرب بأهل الكتاب فقط وقد يقرب بالملل الخمس كما في قوله تعالى **{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17** و الأول كقوله **{ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } آل عمران 20** وليس أحد بعد مبعث محمد إلا من الذين أوتوا الكتاب أو الاميين وكل أمة لم تكن من الذين أوتوا الكتاب فهم من الاميين كالأمييين من العرب ومن الخزر والصقالبة والهند والسودان وغيرهم من الأمم الذين لا كتاب لهم فهؤلاء كلهم أميون والرسول مبعوث اليهم كما بعث الى الأميين من العرب وقوله **{ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } آل عمران 20** وهو انما يخاطب الموجودين في زمانه بعد النسخ والتبديل يدل على أن من دان بدين اليهود والنصارى فهو من الذين أوتوا الكتاب لا يختص هذا اللفظ بمن كانوا متمسكين به قبل النسخ والتبديل ولا فرق بين أولادهم وأولاد غيرهم فان أولادهم اذا كانوا بعد النسخ والتبديل ممن أوتوا الكتاب فكذلك غيرهم اذا كانوا كلهم كفاراً وقد جعلهم الذين أوتوا الكتاب بقوله **{ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } آل عمران 20** وهو لا يخاطب بذلك الا من بلغته رسالته لا من مات²

الأميون نسبة الى الأمة قال بعضهم الى الأمة و ما عليه العامة فمعنى الأمي العامي الذي لا تمييز له و قد قال الزجاج هو على خلق الأمة التي لم تتعلم فهو على جبلته و قال غيره هو نسبة الى الأمة لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء و لأنه على ما ولدته أمه و الصواب أنه نسبة الى الأمة كما يقال عامي نسبة الى العامة التي لم تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة و كذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة و القراءة و يقال الأمي لمن لا يقرأ و لا يكتب كتاباً

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 86-87

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 55

ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرأونه و إن كان قد يكتب و يقرأ ما لم ينزل و بهذا المعنى كان العرب كلهم أميين فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله قال الله تعالى **{وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا}** آل عمران 20 و قال **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}** الجمعة 2 و قد كان في العرب كثير ممن يكتب و يقرأ المكتوب و كلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتابا من حفظهم بل هم يقرأون القرآن من حفظهم و أنا جيلهم في صدورهم لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون الى كتابة دينهم بل قرأنهم محفوظ في قلوبهم كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال **خلقت عبادي يوم خلقتهم حنفاء و قال فيه إني مبتليك و مبتل لك و أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما و يقظانا فأممتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم بل لو عدت المصاحف كلها كان القرآن محفوظا في قلوب الأمة و بهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن و حفظه كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال **إنا أمة أمية لا نحسب و لا نكتب الشهر هكذا و هكذا فلم يقل إنا لا نقرأ كتابا و لا نحفظ بل قال لا نكتب و لا نحسب فديننا لا يحتاج أن يكتب و يحسب كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم و فطرهم بكتاب و حساب و دينهم معلق بالكتب لو عدت لم يعرفوا دينهم و لهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن و الحديث أكثر من أهل البدع و أهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه و قوله **{فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ}** {الأعراف 158 هو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب و لا يقرأ ما في الكتب لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ و الأمي اصطلاح الفقهاء خلاف القارئ و ليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول و يعنون به في الغالب من لا يحسن الفاتحة¹****

وانما الامي هو في الاصل منسوب الى الامة التي هي جنس الاميين وهو من لم يتميز عن الجنس بالعلم المختص من قراءة او كتابة كما يقال عامي لمن كان من العامة غير متميز عنهم بما يختص به غيرهم من علوم وقد قيل انه نسبة الى الام أي هو الباقي على ما عودته أمه من المعرفة والعلم ونحو ذلك ثم التميز الذي يخرج به عن الامية العامة الى الاختصاص تارة يكون فضلا وكما لا في نفسه كالتميز عنهم بقراءة القرآن وفهم معانيه وتارة يكون بما يتوصل به الى الفضل والكمال كالتميز عنهم بالكتابة وقراءة المكتوب فيمدح في حق من استعمله في الكمال ويذم في حق من عطله او استعمله في الشر ومن استغنى عنه بما هو انفع له كان اكمل وافضل وكان تركه في حقه مع حصول المقصود به اكمل وافضل فإذا تبين أن التميز عن الاميين نوعان فالامة التي بعث فيها النبي اولاهم العرب وبواستطهم حصلت الدعوة لسائر الامم لأنه انما بعث بلسانهم فكانوا أميين

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 435-436

عامة ليست فيهم مزية علم ولا كتاب ولا غيره مع كون فطرهم كانت مستعدة للعلم اكمل من استعداد سائر الامم بمنزلة أرض الحرث القابلة للزرع لكن ليس لها من يقوم عليها فلم يكن لهم كتاب يقرأونه منزل من عند الله كما لأهل الكتاب ولا علوم قياسية مستنبطة كما للصابئة ونحوهم وكان الخط فيهم قليلا جدا وكان لهم من العلم ما ينال بالفطرة التي لا يخرج بها الانسان عن الاموة العامة كالعلم بالصانع سبحانه وتعظيم مكارم الاخلاق وعلم الأنواء والأنساب والشعر فاستحقوا اسم الامية من كل وجه كما قال فيهم { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ } الجمعة 2 وقال تعالى { وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنِ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ } آل عمران 20 فجعل الأميين مقابلين لأهل الكتاب فالكتابي غير الأمي فلما بعث فيهم ووجب عليهم اتباع ما جاء به من الكتاب وتدبره وعقله والعمل به وقد جعله تفصيلا لكل شيء وعلمهم نبيهم كل شيء حتى الخراءة صاروا أهل كتاب وعلم بل صاروا أعلم الخلق وأفضلهم في العلوم النافعة وزالت عنهم الامية المذمومة الناقصة وهي عدم العلم العلم والكتاب المنزل الى ان علموا الكتاب والحكمة وأورثوا الكتاب كما قال فيهم { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } الجمعة 2 فكانوا أميين من كل وجه فلما علمهم الكتاب والحكمة قال فيهم { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِذْنِ اللَّهِ } فاطر 32 وقال تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } { 155 } { أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } { 156 } { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } { 157 } { الانعام 155-157 واستجيب فيهم دعوة الخليل حيث قال { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } البقرة 129 وقال { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } آل عمران 164 فصارت هذه الامية منها ما هو محرم ومنها ما هو مكروه ومنها ما هو نقص وترك الافضل فمن لم يقرأ الفاتحة او لم يقرأ شيئا من القرآن تسميه الفقهاء في باب الصلاة أميا ويقابلونه بالقارىء¹

ومن الناس من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى أو موسى والمسيح معه دون محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا يخاطب الله في القرآن الأميين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين ببعض الرسل كما في قوله { وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ } آل عمران 20 وفي قوله { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ } البينة 1²

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 167

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 336

"الخصومة في الدين بدعة"

قال أبو يوسف والخصومة في الدين بدعة و ما ينقض أهل الأهواء بعضهم على بعض بدعة محدثة لو كانت فضلاً لسبق إليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم و أتباعهم فهم كانوا عليها أقوى و لها أبصر و قال الله تعالى **{ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ }** آل عمران 20 و لم يأمره بالجدال و لو شاء لأنزل حججا و قال له قل كذا و كذا و قال أبو يوسف دعوا قول أصحاب الخصومات و أهل البدع في الأهواء من المرجئة و الرافضة و الزيدية و المشبهة و الشيعية و الخوارج و القدرية و المعتزلة و الجهمية قالوا و روى عن محمد قال أبو بكر و عمر أفضل من علي قلت ما ذكر أبو يوسف في أمر الجدال هو يشبه كلام كثير من أئمة السنة يشبه كلام الإمام أحمد و غيره و فيه بسط و تفصيل ليس هذا موضعه و لهذا كان بشير بن الوليد صاحب أبي يوسف يحب أحمد و يميل إليه فإن أبا يوسف كان أميل إلى الحديث من غيره و الله أعلم و أحكم¹

الإخلاص هو حقيقة الإسلام

الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى **{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }** الزمر 29 فمن لم يستسلم له فقد استكبر و من استسلم لله و لغيره فقد أشرك و كل من الكبر و الشرك ضد الإسلام و الإسلام ضد الشرك و الكبر و ذلك في القرآن كثير و لهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله و هي متضمنة عبادة الله و ترك عبادة ما سواه و هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين و الآخرين ديناً سواه كما قال تعالى **{ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }** **{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }**²

قال تعالى **{ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }** {111} **{ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ }** {112} البقرة 111- 112 و قال تعالى **{ وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا }** النساء 125 قال المفسرون و أهل اللغة معنى الآية أخلص دينه و عمله لله و هو محسن في عمله و قال الفراء في قوله **{ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ }** آل عمران 20 أخلصت عملي و قال الزجاج قصدت بعبادتي إلى الله و هو كما قالوا

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 476

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 41 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 41 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 14

كما قد ذكر توجيهه في موضع آخر وهذا المعنى يدور عليه القرآن فإن الله تعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه وعبادته فعل ما أمر وترك ما حظر والأول هو إخلاص الدين والعمل لله والثاني هو الإحسان وهو العمل الصالح ولهذا كان عمر يقول في دعائه اللهم أجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وهذا هو الخالص الصواب كما قال الفضيل بن عياض في قوله {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} {هود7} قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة والأمر بالسنة والنهي عن البدعة هو أمر بمعروف ونهي عن منكر وهو من أفضل الأعمال الصالحة فيجب أن يبتغي به وجه الله وإن يكون مطابقا للأمر وفي الحديث من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فينبغي أن يكون عليما بما يأمر به عليما بما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالعلم قبل الأمر والرفق مع الأمر والحلم بعد الأمر فإن لم يكن عالما لم يكن له أن يقفو ما ليس له به علم وإن كان عالما ولم يكن رفيقا كان كالطبيب الذي لا رفق فيه فيغلظ على المريض فلا يقبل منه وكالمؤدب الغليظ الذي لا يقبل منه الولد¹

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} {النحل36} وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ} {آل عمران20}²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 253

² مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

اليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } آل عمران 21 فاليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله فقصروا في حق الانبياء وكانوا يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس¹

القسط الذي أرسل الله له الرسل

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } آل عمران 21 القسط الذي أرسل الله له الرسل و أنزل له الكتب و هو مقابلة الحسنة بمثلها و السيئة بمثلها كما قال تعالى { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } الرحمن 60 و قال { وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ نَبِيَّةٌ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا } النساء 86 و قال { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } الشورى 40 و قال { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } البقرة 178 و قال { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } البقرة 194 و قال { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } النحل 126 لكن مقابلة الحسنة بمثلها عدل و اجب و الزيادة إحسان مستحب و النقص ظلم محرم و مقابلة السيئة بمثلها عدل جائز و الزيادة محرم و النقص إحسان مستحب فالظلم للظالم و العدل للمقتصد و الاحسان المستحب للسابق بالخيرات و الأمة ثلاثة ظالم لنفسه و مقتصد و سابق بالخيرات²

لكل صفة تأثير في الحكم

لا ريب انه لا بد ان يكون لكل صفة تأثير في الحكم والا فالوصف العديم التأثير لا يجوز تعليق الحكم به كمن قال من زنى واكل جلد ثم قد تكون كل صفة مستقلة بالتاثير لو انفردت كما يقال يقتل هذا لانه مرتد زان وقد يكون مجموع الجزاء مرتبا على المجموع ولكل وصف تاثير في البعض كما قال { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا } الفرقان 68 وقد تكون تلك الصفات متلازمة كل منها لو فرض تجرده لكان مؤثرا على سبيل الاستقلال او الاشتراك فيذكر ايضاحا وبيانا للموجب كما يقال كفروا بالله وبرسوله و عصى الله ورسوله وقد يكون بعضها مستلزما للبعض من غير عكس كما قال { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ

¹ الجواب الصحيح ج: 2 ص: 262

² مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 521

بآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {آل عمران 21} ¹

سبب ما اصاب بني اسرائيل

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ {3} البقرة 1-3 ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا وقال تعالى (وَالْعَصْرِ {1} إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ {3} العصر 1-3 فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما شائعا متواترا اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته وربط السعادة مع إصلاح العمل به في مثل قوله {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} الإسراء 19 وأحبط الأعمال الصالحة بزواله في مثل قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} {21} أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ} آل عمران 21-22 ²

وقد جعل الله عامة ما اصاب بني اسرائيل من الذلة والمسكنة والغضب حتى سفك منهم من الدماء ما شاء الله ونهبت الاموال وزال الملك عنهم وسبيت الذرية وصاروا تحت ايدي غيرهم الى يوم القيامة انما هو بأنهم كانوا يكفرون بايات الله ويقتلون النبيين بغير الحق وكل من قتل نبيا فهذا حاله ³

لا تحبط الاعمال بغير الكفر

¹ الصارم المسلول ج : 2 ص : 37

² مجموع الفتاوى ج : 2 ص : 5

³ الصارم المسلول ج : 3 ص : 859

وما قد يفضي الى حبوط العمل يجب تركه غاية الوجوب والعمل يحبط بالكفر قاله سبحانه
 {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} البقرة 217 وقال تعالى {وَمَنْ
 يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} المائدة 5 وقال {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} الأنعام 88
 وقال {لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ} الزمر 65 وقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ
 أَعْمَالَهُمْ} محمد 9 وقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ
 أَعْمَالَهُمْ} محمد 28 كما ان الكفر اذا قارنه عمل لم يقبل لقوله تعالى {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ
 الْمُتَّقِينَ} المائدة 27 وقوله {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} محمد 1 وقوله {وَمَا
 مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} التوبة 54 وهذا ظاهر ولا تحبط الاعمال
 بغير الكفر لان من مات على الايمان فانه لا بد من ان يدخل الجنة ويخرج من النار ان دخلها ولو
 حبط عمله كله لم يدخل الجنة قط ولان الاعمال انما يحبطها ما ينافيها ولا ينافي الاعمال مطلقا الا
 الكفر وهذا معروف من اصول اهل السنة نعم قد يبطل بعض الاعمال بوجود ما يفسده كما قال
 تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} البقرة 264 ولهذا لم يحبط الله الاعمال
 في كتابه الا بالكفر¹

الدين هو التعاقد والتعاقد

{وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} آل عمران 24 الدين هو التعاقد والتعاقد وإذا كان
 كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون
 أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاقد والتعاقد
 ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك
 بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان
 فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال
 تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} {1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا
 عَبَدْتُمْ} {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} {6} الكافرون 1-6 وقال تعالى {مَا
 كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} يوسف 76 وقال تعالى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} التوبة 29 الدين
 الحق هو طاعة الله وعبادته²

¹الصارم المسلول ج: 2 ص: 114

²قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36

الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى

*والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى بإتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته¹

لطائف لغوية

1- فاسم العلم يستعمل مطلقاً ويستعمل مضافاً الى العبد كقوله {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18 ويستعمل مضافاً الى الله كقوله {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} البقرة 255 فإذا اضيف العلم الى المخلوق لم يصلح أن يدخل فيه علم الخالق سبحانه ولم يكن علم المخلوق كعلم الخالق وإذا اضيف الى الخالق كقوله {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} النساء 166 لم يصلح أن يدخل فيه علم المخلوقين ولم يكن علمه كعلمهم²

2- {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18 عزيز منزّه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزّه عن السفه³

3- {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران 19 و الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان أى ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين الله أى يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له⁴

أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديناً اذا خضع وذل و دين الاسلام الذى إرتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلماً ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 200

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 152

يكن مسلماً والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح¹

4- {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ اُوتُوا الْكِتَابَ اِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ} آل عمران 19 ولفظ

الاختلاف فى القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله {وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء 82 وقوله {انَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ} {8} {يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ اُفِكَ} {9} {الذاريات 8-9} وقوله {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ اٰمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} البقرة 253²

5- ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} الزمر 29 فلا بد فى الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر 60 وثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جده ودفعه وغمط الناس ازدرأؤهم واحتقارهم³

6- لفظ الإسلام يستعمل على وجهين متعديا كقوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ

وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} النساء 125 وقوله {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ} آل عمران 20 الآية وقوله فى دعاء المنام أسلمت نفسي إليك

ويستعمل لازما كقوله {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} البقرة 131

وقوله {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} آل عمران 83 وقوله عن بلقيس

{وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} النمل 44 وهو يجمع معنيين أحدهما الإنقياد

والإستسلام و الثانى إخلاص ذلك وإفراده كقوله {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ

مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ} الزمر 29 وعنوانه قول لا إله إلا الله وله معنيان أحدهما

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 19

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

الدين المشترك وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء كما دل على إتحاد دينهم نصوص الكتاب والسنة والثاني ما إختص به محمد من الدين والشرعة والمنهاج وهو الشريعة والطريقة والحقيقة وله مرتبتان أحدهما الظاهر من القول والعمل وهي المباني الخمس والثاني أن يكون ذلك الظاهر مطابقاً للباطن فبالترسيخ الأول جاءت الآيتان في كتاب الله والحديثان عن رسول الله وهو أعم من الإيمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً وبالتفسير الثاني يقال **{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ }** آل عمران 19 وقوله **{ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ }** البينة 5

1

7- والكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والإنجيل كقوله تعالى يا أهل الكتاب²

8- قال تعالى **{ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ }** آل عمران 20 **{ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ**

مُعْرِضُونَ } آل عمران 23 قال تعالى **{ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى }** {15} **{ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى }** {16}

الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون **{ فَكَذَّبَ وَعَصَى }** {النازعات 21} وقال عن جنس الكافر **{ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى }** {31} **{ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى }** {32} {القيامة 31-32} فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الإيمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله **{ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا }** {15} **{ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً }** {16} {المزمل 15-16} ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله **{ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }** {الفتح 16} ودمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق الدم بمطلق المعصية فى مثل قوله **{ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ }** {المزمل 16}

3

9- **{ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ }** آل عمران 20 فالحجة اسم لما يحتج به من حق وباطل

كقوله **{ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ }** {البقرة 150} فإن الظالمين يحتجون عليكم بحجة باطلة كقول المشركين لما حولت القبلة إلى الكعبة قد عاد إلى قبلكم فسوف يعود إلى ملتكم فهذه حجة داحضة من الظالمين⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 636

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 354

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

⁴الجواب الصحيح ج: 3 ص: 70

- 10- {وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} آل عمران 20 بصير منزه عن العمى¹
- 11- قوله {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} آل عمران 21 فهذا مع التقييد و مع الإطلاق فالبشارة بالخير²
- 12- {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} آل عمران 25 أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضرر كما قال تعالى {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} البقرة 286 فبين سبحانه أن كسب النفس لها أو عليها و الناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك³

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 573

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 387

ال عمران 26-32

{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {26} تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {27} لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ {28} قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {29} يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ {30} قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {31} قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ {32}

فى شرع من قبلنا فإن الملك جائز

قد ذكرت فيما تقدم الكلام على الملك هل هو جائز فى شريعتنا و لكن خلافة النبوة مستحبة وأفضل منه أم خلافة النبوة واجبة و انما تجوز تركها الى الملك للعذر كسائر الواجبات تكلمت على ذلك و أما فى شرع من قبلنا فإن الملك جائز كالغنى يكون للأنبياء تارة و للصالحين أخرى قال الله تعالى فى داود {وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} البقرة 251 و قال عن سليمان {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} ص 35 و قال عن يوسف {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} يوسف 101 فهؤلاء ثلاثة أنبياء أخبر الله أنه آتاهم الملك و قال {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} {54} فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} {55} النساء 54-55 فهذا ملك لآل إبراهيم و ملك لآل داود و قد قال مجاهد فى قوله {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ} آل عمران 26 قال النبوة فجعل النبوة نفسها ملكا و التحقيق أن من النبوة ما يكون ملكا فإن النبى له ثلاثة أحوال إما أن يكذب و لا يتبع و لا يطاع فهو نبي لم يؤت ملكا و إما أن يطاع فنفس كونه مطاعا هو ملك لكن إن كان لا يأمر إلا بما أمر به فهو عبد رسول ليس له ملك و إن كان يأمر بما يريد مباحا له ذلك بمنزلة الملك كما قيل لسليمان {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ص 39 فهذا نبي

ملك فالملك هنا قسيم العبد الرسول كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم اختر إما عبدا رسولا وإما نبيا ملكا وأما بالتفسير الأول وهو الطاعة والاتباع فقسم من النبوة والرسالة وهؤلاء أكمل وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم فإنه كان عبدا رسولا مؤيدا مطاعا متبوعا فأعطى فائدة كونه مطاعا متبوعا ليكون له مثل أجر من اتبعه ولينتفع به الخلق ويرحموا به ويرحم بهم ولم يختار أن يكون ملكا لئلا ينقص لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال عن نصيبه في الآخرة فإن العبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم أفضل من داود وسليمان ويوسف حتى إن من أهل الكتاب من طعن في نبوة داود وسليمان كما يطعن كثير من الناس في ولاية بعض أهل الرياسة والمال وليس الأمر كذلك وأما الملوك الصالحون فقوله سبحانه {إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {247} وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ {248} {البقرة 247-248} وقوله سبحانه {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا} {83} {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} {84} {الكهف 83-84} الآية قال مجاهد ملك الأرض مؤمنان وكافران فالمؤمنان سليمان وذو القرنين والكافران بختنصر ونمرود وسيملكها خامس من هذه الأمة وقوله تعالى {يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} {المائدة 20} وأما جنس الملوك فكثيرة كقوله {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} {الكهف 79} وقوله {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ} {يوسف 43} ¹

الرب تعالى له المثل الأعلى

والرب تعالى له المثل الأعلى وهو أعلى من غيره وأحق بالمدح والثناء من كل ما سواه وأولى بصفات الكمال وأبعد عن صفات النقص فمن الممتنع أن يكون المخلوق متصفا بكمال لا نقص فيه والرب لا يتصف إلا بالكمال الذي لا نقص فيه وإذا كان يأمر عبده أن يفعل الأحسن والخير فيمتنع أن لا يفعل هو إلا ما هو الأحسن والخير فإن فعل الأحسن والخير مدح وكمال لا نقص فيه فهو أحق بالمدح والكمال الذي لا نقص فيه من غير هو قد قال تعالى في مدح نفسه {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ} **ال عمران 26** إلى قوله {بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} **ال عمران 26** ²

وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى كما وصف نفسه بذلك في قوله {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 33-35

²رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: 1 ص: 136

تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {26} تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {27} ال عمران 26-27¹

الله سبحانه فيما خلقه حكمة بالغة

إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقاً كأنما يصعد فى السماء و هو يقرب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذى جعل المسلم مسلماً و المصلي مصلياً قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} البقرة 128 و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُّقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} إبراهيم 40 و قال تعالى {وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} السجدة 24 و قال عن آل فرعون {وَاجْعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} القصص 41 و قال تعالى {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً} 19 {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً} 20 {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً} 21 {المعارج 19-21} و قال {وَاصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} هود 37 و قال {وَاصْنَعِ الْفَلَكَ} هود 38 و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} يس 42 و قال {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ} النحل 80 الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنُتُونَ} 95 {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} 96 {الصافات 95-96} فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} الكهف 17 و قال {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} الأنعام 125 و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكامل علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ} النمل 88 و قد خلق

¹النبيات ج: 1 ص: 65

الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164 و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف 57 و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16¹

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا و قد بسطت الكلام فى الرد على من أنكر قدرة الرب فى غير موضع كما قد كتبناه على الأربعين و المحصل و فى شرح الأصبهانية و غير ذلك و تكلمنا على ما ذكره الرازى و غيره فى مسألة كون الرب قادرا مختارا و ما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه و المقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون الرسل فنقول هنا مسائل المسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير و الناس فى هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين و كذلك دخل فى المقذور كما قال ذلك طائفة منهم ابن حزم و طائفة تقول هذا عام مخصوص يخصص منه الممتنع لذاته فإنه و إن كان شيئا فإنه لا يدخل فى المقذور كما ذكر ذلك ابن عطية و غيره و كلا القولين خطأ و الصواب هو القول الثالث الذى عليه عامة النظار و هو أن الممتنع لذاته ليس شيئا ألبتة و أن كانوا متنازعين فى المعدود فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه فى الخارج و لا يتصوره الذهن ثابتا فى الخارج و لكن يقدر اجتماعهما فى الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع فى الخارج إذ كان يمتنع تحققه فى الأعيان و تصوره فى الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة و السكون فى الشيء فهل يمكن فى الخارج أن يجتمع السواد و البياض فى محل واحد كما تجتمع الحركة و السكون فىقال هذا غير ممكن فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه و أما نفس اجتماع البياض و السواد فى محل واحد فلا يمكن و لا يعقل فليس بشيء لا فى الأعيان و لا فى الأذهان فلم يدخل فى قوله و هو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدود ليس بشيء فى الخارج عند الجمهور و هو الصواب و قد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون وقادرا إلا على موجود و ما لم يخلقه لا يكون قادرا عليه و هذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادرا إلا على ما أراده دون ما لم يردده و يحكى هذا عن تلميذ النظام و الذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبتة كالأشعرى و من و افقه من أتباع الأئمة أحمد و غير أحمد كالقاضى أبى يعلى و ابن الزاغوني و غيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود و هؤلاء قالوا هو قادر على الموجود و المعدوم و التحقيق أن الشيء اسم لما يوجد فى الأعيان و لما يتصور فى الأذهان فما قدره الله و علم أنه سيكون هو شيء فى التقدير و العلم و الكتاب و أن لم يكن شيئا فى الخارج و منه قوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 78-80

أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس82 و لفظ الشيء في الآية يتناول هذا و هذا فهو على كل شيء ما و جد و كل ما تصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء و لا يزداد عليه شيء كما قال تعالى {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} القيامة4 و قال {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} الأنعام65 و قد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم أعود بوجهك فلما نزل {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} الأنعام65 الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين و إن لم يفعلهما و قال {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} المؤمنون18 قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا و تهلك مواشيكم و تخرب أراضيكم و معلوم أنه لم يذهب به و هذا كقوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} الواقعة68 إلى قوله و {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ} الواقعة82 و هذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا و هو لم يفعله و مثل هذا و {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} السجدة13 {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ} يونس99 {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا} البقرة253 فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء و هو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد و غير أفعال العباد و أكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه و قد نطقت النصوص بهذا و هذا كقوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} يس81 {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} القيامة40 {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} القيامة4 و نظائره كثيرة و القدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ} المؤمنون12 {أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} البلد5 و جاءت منصوصا عليها في الكتاب و السنة أما الكتاب فقوله {فَأِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} الزخرف41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم و هذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة و قوله {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} ق45 و {أَلَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} الغاشية22 و نحو ذلك و هو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر و ذلك يستلزم قدرته عليهم و قوله {فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} الأنبياء87 على قول الحسن و غيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه و على أمثاله و كذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى و قال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له و هو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث و أن الله قدر عليه لكن لخشيته و إيمانه غفر الله له هذا الجهل و الخطأ الذي وقع منه و قد يستدل بقوله {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} المرسلات20 إلى قوله {فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ} المرسلات23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين و إن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه و القدرة عليه قدرة على خلقه و جاء أيضا الحديث منصوصا في مثل

قول النبي صلى الله عليه و سلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده الله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد و أنه أقدر عليه منه على عبده و فيه إثبات قدرة العبد¹

أن لله تعالى يدين ذاتيتان له كما يليق بجلاله

وقد قال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُّ اللَّهُ مَغْلُوبَةً غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} المائدة 64 وقال تعالى لابليس {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي} ص75 وقال تعالى {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الزمر 67 وقال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} الملك 1 وقال {بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} آل عمران 26 وقال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} يس 71 وقد تواتر في السنة مجيء اليد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم فالفهم من هذا الكلام أن لله تعالى يدين متخصتان به ذاتيتان له كما يليق بجلاله وأنه سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة و ابليس وأنه سبحانه يقبض الارض ويطوى السموات بيده اليمنى وان {يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} المائدة 64 ومعنى بسطهما بذل الجود وسعة العطاء لان الاعطاء والجود في الغالب يكون ببسط اليد ومدها وتركه يكون ضمنا لليد الى العنق صار من الحقائق العرفية اذا قيل هو مبسوط اليد فهم منه يد حقيقة وكان ظاهره الجود والبخل كما قال تعالى {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} الإسراء 29 ويقولون فلان جعد البنان وسبط البنان قلت له فالقائل ان زعم أنه ليس له يد من جنس ايدي المخلوقين وأن يده ليست جارحة فهذا حق وان زعم أنه ليس له يد زائدة على الصفات السبع فهو مبطل فيحتاج الى تلك المقامات الاربعة أما الأول فيقول أن اليد تكون بمعنى النعمة والعطية تسمية للشئ باسم سببه كما يسمى المطر والنبات سماء ومنه قولهم لفلان عنده أياد وقول ابى طالب لما فقد النبي يا رب رد راكبي محمدا رده على واصطنع عندي يداقول عروة بن مسعود لابي بكر يوم الحديبي لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك وقد تكون اليد بمعنى القدرة تسمية للشئ باسم مسببه لأن القدرة هي تحرك اليد يقولون فلان له يد في كذا وكذا ومنه قوله زياد لمعاوية اني قد امسكت العراق باحدى يدي ويدي الاخرى فارغة يريد نصف قدرتي ضبط العراق ومنه قوله {بِيَدِهِ عُنْدُ النَّكَاحِ} البقرة 237 والنكاح كلام يقال وانما معناه انه مقتدر عليه وقد يجعلون اضافة الفعل اليها اضافة الفعل الى الشخص نفسه لان غالب الافعال لما كانت باليد جعل ذكر اليد اشارة الى أنه فعل بنفسه قال الله تعالى {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} {181} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ} آل عمران 181- 182 أى بما قدمتم فان بعض ما قدموه كلام تكلموا به

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 12-7

وكذلك قوله تعالى {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} {49} وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُفُوفًا عَذَابِ الْحَرِيقِ} {50} الانفال 50 الى قوله {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ} {51} الانفال 51 والعرب تقول يداك أوكتا وفوك نفخ توبيخا لكل من جر على نفسه جريرة لأن اول ما قيل هذا لمن فعل بيديه وفمه قلت له ونحن لا ننكر لغة العرب التي نزل بها القرآن فى هذا كله والمتأولون للصفات الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وأحدوا فى أسمائه وآياته تأولوا قوله {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} المائدة 64 وقوله {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} ص 75 على هذا كله فقالوا ان المراد نعمته أى نعمة الدنيا ونعمة الآخرة وقالوا بقدرته وقالوا اللفظ كناية عن نفس الجود من غير ان يكون هناك يد حقيقة بل هذه اللفظة قد صارت حقيقة فى العطاء والجود وقوله {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} ص 75 أى خلقته انا وان لم يكن هناك يد حقيقة قلت له فهذه تأويلاتهم قال نعم قلت له فننظر فيما قدمنا المقام الاول أن لفظ اليدين بصيغة التثنية لم يستعمل فى النعمة ولا فى القدرة لان من لغة القوم استعمال الواحد فى الجمع كقوله {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ} العصر 2 ولفظ الجمع فى الواحد كقوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ أَلْ عَمْرَانِ 173} ولفظ الجمع فى الاثنين كقوله {صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} التحريم 4 لأن هذه الالفاظ عدد وهى نصوص فى معناها لا يتجوز بها ولا يجوز أما استعمال لفظ الواحد ان يقال عندى رجل ويعنى رجلين ولا عندى رجلان ويعنى به الجنس لان اسم الواحد يدل على الجنس والجنس فيه شياع وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس والجنس يحصل بحصول الواحد فقوله {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} ص 75 لا يجوز أن يراد به القدرة لان القدرة صفة واحدة ولا يجوز أن يعبر بالاثنيين عن الواحد ولا يجوز أن يراد به النعمة لان نعم الله لا تحصى فلا يجوز أن يعبر عن النعم التى لا تحصى بصيغة التثنية ولا يجوز أن يكون لما خلقت أنا لانهم اذا أرادوا ذلك اضافوا الفعل الى اليد فتكون اضافته الى اليد اضافة له الى الفعل كقوله {بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ} الحج 10 و {قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ} آل عمران 182 ومنه قوله {مِمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} يس 71 اما اذا اضاف الفعل الى الفاعل وعدى الفعل الى اليد بحرف الباء كقوله {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} ص 75 فانه نص فى أنه فعل الفعل بيديه ولهذا لا يجوز لمن تكلم أو مشى أن يقال فعلت هذا بيدك ويقال هذا فعلته يداك لان مجرد قوله فعلت كاف فى الاضافة الى الفاعل فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة ولست تجد فى كلام العرب ولا العجم ان شاء الله تعالى ان فصيحاً يقول فعلت هذا بيدي او فلان فعل هذا بيديه الا ويكون فعله بيديه حقيقة ولا يجوز ان يكون لا يد له أو أن يكون له يد والفعل وقع بغيرها وبهذا الفرق المحقق تتبين مواضع المجاز ومواضع الحقيقة ويتبين أن الايات لا تقبل المجاز البتة من جهة نفس اللغة قال لى فقد اوقعوا الاثنين موقع الواحد فى قوله {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ} ق 24 وانما هو خطاب للواحد قلت له هذا ممنوع بل قوله القيا قد قيل تثنية الفاعل لتثنية الفعل والمعنى الق الق وقد قيل انه خطاب للسانك والشهيد ومن قال أنه خطاب للواحد قال ان الانسان يكون معه اثنان أحدهما عن يمينه والاخر عن شماله فيقول خليلي خليلي ثم أنه يوقع هذا الخطاب وان لم يكونا

موجودين كأنه يخاطب موجودين فقله القيا عند هذا القائل انما هو خطاب لاثنين يقدر وجودهما فلا حجة فيه البتة قلت له المقام الثانى ان يقال هب أنه يجوز ان يعنى باليد حقيقة اليد وان يعنى بها القدرة أو النعمة أو يجعل ذكرها كناية عن الفعل لكن ما لموجب لصرفها عن الحقيقة فان قلت لأن اليد هى الجارحة وذلك ممتنع على الله سبحانه قلت لك هذا ونحوه يوجب امتناع وصفه بأن له يدا من جنس ايدى المخلوقين وهذا لا ريب فيه لكن لم لا يجوز ان يكون له يد تناسب ذاته تستحق من صفات الكمال ما تستحق الذات قال ليس فى العقل والسمع ما يحيل هذا قلت فاذا كان هذا ممكنا وهو حقيقة اللفظ فلم يصرف عنه اللفظ الى مجازه وكل ما يذكره الخصم من دليل يدل على امتناع وصفه بما يسمى به وصحت الدلالة سلم له ان المعنى الذى يستحقه المخلوق منتف عنه وانما حقيقة اللفظ وظاهره يد يستحقها الخالق كالعلم والقدرة بل كالذات والوجود المقام الثالث قلت له بلغك ان فى كتاب الله او فى سنة رسول الله او عن أحد من ائمة المسلمين أنهم قالوا المراد باليد خلاف ظاهره او الظاهر غير مراد او هل فى كتاب الله آية تدل على انتفاء وصفه باليد دلالة ظاهرة بل أو دلالة خفية فان اقصى ما يذكره المتكلف قوله (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } الاخلاص 1 وقوله { أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 وقوله { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } مريم 65 وهؤلاء الايات انما يدلن على انتفاء التجسيم والتشبيه واما انتفاء يد تليق بجلاله فليس فى الكلام ما يدل عليه بوجه من الوجوه وكذلك هل فى العقل ما يدل دلالة ظاهرة على أن البارى لا يد له البتة لا يدا تليق بجلاله ولا يدا تناسب المحدثات وهل فيه ما يدل على ذلك اصلا ولو بوجه خفى فاذا لم يكن فى السمع ولا فى العقل ما ينفى حقيقة اليد البتة وان فرض ما ينافيها فانما هو من الوجوه الخفية عند من يدعيه والا ففى الحقيقة انما هو شبهة فاسدة فهل يجوز ان يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد وان الله تعالى خلق بيده وان يداه مبسوطتان وان الملك بيده وفى الحديث ما لا يحصى ثم أن رسول الله واولى الامر لا يبينون للناس ان هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره حتى ينشأ جهنم بن صفوان بعد انقراض عصر الصحابة فيبين للناس ما نزل اليهم على نبيهم ويتبعه عليه بشر بن غياث ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليه بالنفاق وكيف يجوز ان يعلمنا نبينا كل شىء حتى الخراءة ويقول ما تركت من شىء يقربكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به ولا من شىء يبعدكم عن النار الا وقد حدثتكم به تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك ثم يترك الكتاب المنزل عليه وسنته الغراء مملوءة مما يزعم الخصم أن ظاهره تشبيهه وتجسيمه وان اعتقاد ظاهره ضلال وهو لا يبين ذلك ولا يوضحه وكيف يجوز للسلف أن يقولوا امروها كما جاءت مع أن معناها المجازى هو المراد وهو شىء لا يفهمه العرب حتى يكون ابناء الفرس والروم اعلم بلغة العرب من ابناء المهاجرين والانصار المقام الرابع قلت له أنا انكر لك من الادلة الجلية القاطعة والظاهرة ما يبين لك أن الله يدين حقيقة فمن ذلك تفضيله لأدم يستوجب سجود الملائكة وامتناعهم عن التكبر عليه فلو كان المراد انه خلقه بقدرته او بنعمته او مجرد اضافة خلقه اليه لشاركه فى ذلك ابليس

وجميع المخلوقات قال لى فقد يضاف الشيء الى الله على سبيل التشريف كقوله ناقة الله وبيت الله قلت له لا تكون الاضافة تشريفا حتى يكون فى المضاف معنى أفرده به عن غيره فلو لم يكن فى الناقة والبيت من الايات البيئات ما تمتاز به على جميع النوق والبيوت لما استحقا هذه الاضافة والامر هنا كذلك فاضافة خلق آدم اليه أنه خلقه بيديه يوجب أن يكون خلقه بيديه انه قد فعله بيديه وخلق هؤلاء بقوله كن فيكون كما جاءت به الآثار ومن ذلك انهم اذا قالوا بيده الملك او عملته يداك فهما شيان أحدهما اثبات اليد والثانى اضافة الملك والعمل اليها والثانى يقع فيه التجوز كثيرا اما الاول فانهم لا يطلقون هذا الكلام الا لجنس له يد حقيقة ولا يقولون يد الهوى ولا يد الماء فهب أن قوله بيده الملك قد علم منه ان المراد بقدرته لكن لا يتجوز بذلك الا لمن له يد حقيقة والفرق بين قوله تعالى {لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} ص75 وقوله {مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا} يس71 من وجهين أحدهما انه هنا اضاف الفعل اليه وبين انه خلقه بيديه وهناك أضاف الفعل الى الايدى الثانى ان من لغة العرب انهم يضعون اسم الجمع موضع التثنية اذا أمن اللبس كقوله تعالى {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} المائدة38 أى يديهما وقوله {فَقَدْ صَعَتُ قُلُوبُكُمْ} التحريم4 أى قلباكما فكذلك قوله {مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا} يس71 واما السنة فكثيرة جدا مثل قوله المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون حكمهم واهليهم وما ولوا رواه مسلم وقوله يمين الله ملى لا يغيظها نفقة سحاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم يغض ما فى يمينه والقسط بيده الاخرى يرفع ويخفض الى يوم القيامة رواه مسلم فى صحيحه والبخارى فيما أظن وفى الصحيح ايضا عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله قال تكون الارض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفوها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم بيده خبزته فى السفر وفى الصحيح أيضا عن ابن عمر يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يأخذ الرب عز وجل سماواته وأرضه بيديه وجعل يقبض يديه ويبسطهما ويقول أنا الرحمن حتى نظرت الى المنبر يتحرك اسفل منه حتى أنى اقول اساقط هو برسول الله وفى روايه أنه قرأ هذه الاية على المنبر {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الزمر67 قال يقول انا الله انا الجبار وذكره وفى الصحيح ايضا عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله يقبض الله الارض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول انا الملك أين ملوك الارض وما يوافق هذا من حديث الحبر وفى حديث صحيح ان الله لما خلق آدم قال له ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت قال اخترت يمين ربى وكلتا يدي ربى يمين مباركة ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته وفى الصحيح أن الله كتب بيده على نفسه لما خلق الخلق ان رحمتى تغلب غضبى وفى الصحيح أنه لما تحاج ادم وموسى قال ادم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده وقد قال له موسى انت ادم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وفى حديث آخر انه قال سبحانه وعزتى وجلالى لا اجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان وفى حديث آخر فى السنن

لما خلق آدم ومسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره بیده الاخرى فقال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون فذكرت له هذه الاحاديث وغيرها ثم قلت له هل تقبل هذه الاحاديث تأويلا ام هي نصوص قاطعة وهذه احاديث تلقتها الامة بالقبول والتصديق ونقلتها من بحر غزير فأظهر الرجل التوبة وتبين له الحق فهذا الذى اشرت اليه احسن الله اليك ان اكتبه وهذا باب واسع ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور و من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته¹

وهنا أضاف الأيدى الى صيغة الجمع في قوله {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} القمر 14 وهذا فى الجمع نظير قوله {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} الملك 1 {بِيَدِكَ الْخَيْرُ} آل عمران 26 فى المفرد فانه سبحانه وتعالى يذكر نفسه تارة بصيغة المفرد مظهرا أو مضمرا وتارة بصيغة الجمع كقوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} الفتح 1 وأمثال ذلك ولا يذكر نفسه بصيغة التثنية قط لأن صيغة المفرد و الجمع تقتضى التعظيم الذى يستحقه وربما تدل على معانى أسمائه وأما صيغة التثنية فتدل على العدد المحصور وهو مقدس عن ذلك²

قطب رحي الدين

*فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحي الدين وذلك أن العبد بل كل حى بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحى هي من جنس النعيم واللذة والمضرة هي من جنس الألم والعذاب فلا بد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع ويلتذ به والثانى هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيطان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثانى أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حى لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحى فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذى يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 362-365

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 45

الذي يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثاني من معنى الربوبية إذ الاله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذي يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} هود88 وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود123 وقوله {عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} الممتحنة4 وقوله تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} الفرقان58 وقوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} الرعد30 وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} {9} المزمّل8-9 فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين¹

أصل صلاح القلب هو حياته واستنارته

أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو انحراف المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ولكن الأمثل فالأفضل فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس و الظلم ثلاثة أنواع والظلم كله من أمراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها قال أحمد بن حنبل لبعض الناس لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع قال تعالى {وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} آل عمران27 ومن أنواعه أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وفي الحديث الصحيح مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت وفي الصحيح أيضا اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذها قبورا²

لا يصح كفر المكره بغير حق

ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيد الايجاب بالاستطاعة والوسع وابعح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى {انقُوا اللَّهَ حَقَّ نُقَاتِهِ} آل عمران102 وقال {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن16 وثبت في الصحيح

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 20

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 8

عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطاع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث آخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا وهذا العام المجمل فصله فقال في محذور الكلام بالكفر {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} آل عمران 28 فأباح سبحانه عند الاكراه ان ينطق الرجل بالكفر بلسانه اذا كان قلبه مطمئنا بالإيمان بخلاف من شرح بالكفر صدرا وأباح للمؤمنين ان يتقوا من الكافرين تقاة مع نهيه لهم عن موالاتهم وعن ابن عباس ان التقية باللسان ولهذا لم يكن عندنا نزاع في ان الاقوال لا يثبت حكمها في حق المكروه بغير حق فلا يصح كفر المكروه بغير حق ولا ايمان المكروه بغير حق كالذمي الموفى بزمته كما قال تعالى فيه {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} البقرة 256 بخلاف المكروه بحق كالمقاتلين من اهل الحرب حتى يسلموا ان كان قتالهم الى الاسلام او اعطاء الجزية ان كان القتال على احدهما¹

رأس مال الرافضة التقية

رأس مال الرافضة التقية وهي أن يظهر خلاف ما يبطن كما يفعل المنافق وقد كان المسلمون في أول الإسلام في غاية الضعف والقلّة وهم يظهرون دينهم لا يكتُمونه والرافضة يزعمون أنهم يعملون بهذه الآية قوله تعالى {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} آل عمران 28 ويزعمون أنهم هم المؤمنون وسائر أهل القبلة كفار مع أن لهم في تكفير الجمهور قولين لكن قد رأيت غير واحد من أئمتهم يصرح في كتبه وفتاويه بكفر الجمهور وأنهم مرتدون ودارهم دار ردة يحكم بنجاسة مائعها وأن من أنتقل إلى قول الجمهور منهم ثم تاب لم تقبل توبته لأن المرتد الذي يولد على الفطرة لا يقبل منه الرجوع إلى الإسلام وهذا في المرتد عن الإسلام قول لبعض السلف وهو رواية عن الإمام أحمد قالوا لأن المرتد من كان كافرا فأسلم ثم رجع إلى الكفر بخلاف من يولد مسلما فجعل هؤلاء هذا في سائر الأمة فهم عندهم كفار فمن صار منهم إلى مذهبهم كان مرتدا وهذه الآية حجة عليهم فإن هذه الآية خوطب بها أولا من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم من المؤمنين فقبل لهم {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} آل عمران 28 وهذه الآية مدنية

¹الاستقامة ج: 2 ص: 319-320

باتفاق العلماء فإن سورة آل عمران كلها مدنية وكذلك البقرة والنساء والمائدة ومعلوم أن المؤمنين بالمدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن أحد منهم يكتُم إيمانه ولا يظهر للكفار أنه منهم كما يفعله الرافضة مع الجمهور وقد اتفق المفسرون على أنها نزلت بسبب أن بعض المسلمين أراد إظهار مودة الكفار فنهوا عن ذلك وهم لا يظهرون المودة للجمهور وفي رواية الضحاك عن ابن عباس أن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود فقال يا رسول الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو فنزلت هذه الآية وفي رواية أبي صالح أن عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين كانوا يتولون اليهود ويأتونهم بالأخبار يرجون لهم الظفر على النبي صلى الله عليه وسلم فنهى الله المؤمنين عن مثل فعلهم وروى عن ابن عباس أن قوما من اليهود كانوا يباطنون قوما من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فنهاهم قوم من المسلمين عن ذلك وقال اجتنبوا هؤلاء فأبوا فنزلت هذه الآية وعن مقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره كانوا يظهرون المودة لكفار مكة فنهاهم الله عن ذلك والرافضة من أعظم الناس إظهارا لمودة أهل السنة ولا يظهر أحدهم دينه حتى إنهم يحفظون من فضائل الصحابة والقصائد التي في مدحهم وهجاء الرافضة ما يتوددون به إلى أهل السنة ولا يظهر أحدهما دينه كما كان المؤمنون يظهرون دينهم للمشركين وأهل الكتاب فعلم أنهم من أبعد الناس عن العمل بهذه الآية وأما قوله تعالى {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} آل عمران 28 قال مجاهد إلا مصانعة والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي فإن هذا نفاق ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فبقلمه مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وأمرأة فرعون وهو لم يكن موافقا لهم على جميع دينهم ولا كان يكذب ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه بل كان يكتُم إيمانه وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر فهذا لم يبحه الله قط إلا لمن أكره بحيث أبيح له النطق بكلمة الكفر والله تعالى قد فرق بين المنافق والمكره والرافضة حالهم من جنس حال المنافقين لا من جنس حال المكره الذي أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فإن هذا الإكراه لا يكون عاما من جمهور بني آدم بل المسلم يكون أسيرا أو منفردا في بلاد الكفر ولا أحد يكرهه على كلمه الكفر ولا يقولها ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه وقد يحتاج إلى أن يلين لناس من الكفار ليظنوه منهم وهو مع هذا لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه بل يكتُم ما في قلبه وفرق بين الكذب وبين الكتمان فكتمان ما في النفس يستعمله المؤمن حيث يعذره الله في الإظهار كمؤمن آل فرعون وأما الذي يتكلم بالكفر فلا يعذره إلا إذا أكره والمنافق الكذاب لا يعذر بحال ولكن في المعاريض مندوحة عن الكذب ثم ذلك المؤمن الذي يكتُم إيمانه يكون بين الكفار الذين لا يعلمون دينه وهو مع هذا مؤمن عندهم يحبونه ويكرمونه لأن الإيمان الذي في قلبه يوجب أن يعاملهم بالصدق

والأمانة والنصح وإرادة الخير بهم وإن لم يكن موافقا لهم على دينهم كما كان يوسف الصديق يسير في أهل مصر وكانوا كفارا وكما كان مؤمن آل فرعون يكتنم إيمانه ومع هذا كان يعظم موسى ويقول {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} غافر 28 وأما الرافضي فلا يعاشر أحدا إلا استعمل معه النفاق فإن دينه الذي في قلبه دين فاسد يحمله على الكذب والخيانة وغش الناس وإرادة السوء بهم فهو لا يألوهم خبالا ولا يترك شرا يقدر عليه إلا فعله بهم وهو ممقوت عند من لا يعرفه وإن لم يعرف أنه رافضي تظهر على وجهه سيما النفاق وفي لحن القول ولهذا تجده ينافق ضعفاء الناس ومن لا حاجة به إليه لما في قلبه من النفاق الذي يضعف قلبه والمؤمن معه عزة الإيمان فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ثم هم يدعون الإيمان دون الناس والذلة فيهم أكثر منها في سائر الطوائف من المسلمين وقد قال تعالى {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر 51 وهم أبعد طوائف أهل الإسلام عن النصر وأولاهم بالخذلان فعلم أنهم أقرب طوائف أهل الإسلام إلى النفاق وأبعدهم عن الإيمان وآية ذلك أن المنافقين حقيقة الذين ليس فيهم إيمان من الملاحدة يميلون إلى الرافضة والرافضة تميل إليهم أكثر من سائر الطوائف وقد قال صلى الله عليه وسلم الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقال ابن مسعود رضي الله عنه اعتبروا الناس بأخدانهم فعلم أن بين أرواح الرافضة وأرواح المنافقين اتفاقا محضا قدرا مشتركا وتشابها وهذا لما في الرافضة فإن النفاق شعب كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا أؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وفي رواية لمسلم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم والقرآن يشهد لهذا فإن الله وصف المنافقين في غير موضع بالكذب والغدر والخيانة وهذه الخصال لا توجد في طائفة أكثر منها في الرافضة ولا أبعد منها عن أهل السنة المحضة المتبعين للصحابة فهؤلاء أولى الناس بشعب الإيمان وأبعدهم عن شعب النفاق والرافضة أولى الناس بشعب النفاق وأبعدهم عن شعب الإيمان وسائر الطوائف قريبهم إلى الإيمان وبعدهم عن النفاق بحسب سنتهم وبدعتهم¹

الأمر بالإتقاء من الكفار لا الأمر بالنفاق والكذب

والنفاق والزندقة في الرافضة أكثر منه في سائر الطوائف بل لا بد لكل منهم من شعبة نفاق فإن أساس النفاق الذي بنى عليه الكذب وأن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه كما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم والرافضة تجعل هذا من أصول دينها وتسميه

¹ منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 421-426

التقية وتحكى هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله عن ذلك حتى يحكوا عن جعفر الصادق أنه قال التقية دينى ودين آبائي وقد نزه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك بل كانوا من أعظم الناس صدقا وتحقيقا للإيمان وكان دينهم التقوى لا التقية وقول الله تعالى **{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً}** آل عمران 28 إنما هو الأمر بالإتقاء من الكفار لا الأمر بالنفاق والكذب والله تعالى قد أباح لمن أكره على كلمة الكفر أن يتكلم بها إذا كان قلبه مطمئنا بالإيمان لكن لم يكره أحد من أهل البيت على شيء من ذلك حتى أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكره أحدا لا منهم ولا من غيرهم على مبايعته فضلا أن يكرههم على مدحه والثناء عليه بل كان علي وغيره من أهل البيت يظهرهم ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم والترحم عليهم والدعاء لهم ولم يكن أحد يكرههم على شيء منه باتفاق الناس¹

الخلق كلهم مصيرهم إلى الله

فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أى طريق سلكوا كما قال تعالى **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** الانشقاق 6 وقال **{وَالَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}** آل عمران 28 **{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ}** الغاشية 25 أي إلينا مرجعهم فأى سبيل سلكها العبد فالى الله مرجعه ومنتهاه لا بد له من لقاء الله **{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}** النجم 31²

نفس الله هي ذاته المتصفة بصفاته

يراد بنفس الشيء ذاته وعينه كما يقال رأيت زيدا نفسه وقد قال تعالى **{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}** المائدة 116 وقال **{كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}** الأنعام 54 وقال تعالى **{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}** آل عمران 28 وفي الحديث الصحيح انه قال لأم المؤمنين لقد قلت بعدك اربع كلمات لو وزن بما قلتيه لوزنتهن سبحان الله عدد خلقه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله رضا نفسه سبحان الله مداد كلماته وفي الحديث الصحيح الالهي عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم فهذه المواضع المراد المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء الله نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته ليس المراد بها ذاتا منفكة عن الصفات ولا

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 46-47

² مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 211 و دقائق التفسير ج: 3 ص: 152

المراد بها صفة للذات وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات كما يظن طائفة انها الذات
المجردة عن الصفات وكلا القولين خطأ¹

وقال أبو عبدالله محمد بن أبي زمنين الإمام المشهور من أئمة المالكية فى كتابه الذى
صنّفه فى أصول السنة قال فيه فى الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه قال وأعلم بأن
أهل العلم بالله وبما جاءت به انبياءه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما والعجز عن
ما لم يدع اليه ايماننا وأنهم انما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه الى حيث انتهى فى كتابه على
لسان نبيه وقد قال وهو اصدق القائلين {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} القصص 88 وقال {قُلْ أَيُّ
شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} الأنعام 19 وقال {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} آل عمران 28
وذكر أحاديث الصفات ثم قال فهذه صفات ربنا التى وصف بها نفسه فى كتابه ووصفه بها نبيه
وليس فى شىء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ} الشورى 11 لم تره العيون فتحده كيف هو ولكن رأته القلوب فى حقائق الإيمان²

وقال الإمام أبو عبدالله محمد بن خفيف فى كتابه الذى سماه اعتقاد التوحيد باثبات الاسماء
والصفات إلى أن قال فأول ما نبتدىء به ما أوردنا هذه المسألة من أجلها ذكر أسماء الله عز وجل
فى كتابه وما بين صلى الله عليه وسلم من صفاته فى سنته وما وصف به عز وجل مما
سنذكر قول القائلين بذلك مما لا يجوز لنا فى ذلك أن نرده الى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك ومما
قد امرنا بالإستسلام له الى أن قال ثم ان الله تعرف الينا بعد اثبات الوحدانية والاقرار بالالوهية ان
ذكر تعالى فى كتابه بعد التحقيق بما بدأ من اسمائه وصفاته وأكد عليه السلام بقوله فقبلوا منه كقبولهم
لأوائل التوحيد من ظاهر قوله لا إله الا الله الى أن قال باثبات نفسه بالتفصيل من المجمل فقال
لموسى عليه السلام {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} طه 41 وقال {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} آل عمران 28
ولصحة ذلك واستقرار ما جاء به المسيح عليه السلام فقال {تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ
{المائدة 116 وقال عز وجل {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} الأنعام 54 وأكد عليه السلام صحة
اثبات ذلك فى سنته فقال يقول الله عز وجل من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسه وقال كتب
كتابا بيده على نفسه ان رحمتى غلبت غضبى وقال سبحان الله رضى نفسه وقال فى محاجة
آدم لموسى أنت الذى اصطفاك الله واصطنعك لنفسه فقد صرح بظاهر قوله أنه اثبت لنفسه
نفسا واثبت له الرسول ذلك فعلى من صدق الله ورسوله اعتقاد ما أخبر به عن نفسه ويكون ذلك مبينا
على ظاهر قوله {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الشورى 11 ثم قال فعلى المؤمنين خاصتهم وعامتهم
قبول كل ما ورد عنه عليه السلام بنقل العدل عن العدل حتى يتصل به وان مما قضى الله علينا

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 296

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 57

فى كتابه ووصف به نفسه ووردت السنة بصحة ذلك ان قال { اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } النور 35 ثم قال عقيب ذلك {نُورٌ عَلَى نُورٍ} النور 35 وبذلك دعاه صلى الله عليه وسلم أنت نور السموات والأرض ثم ذكر حديث أبى موسى حجابة النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وقال سبحات وجهه جلاله ونوره نقله عن الخليل وأبى عبيد وقال قال عبدالله بن مسعود نور السموات نور وجهه¹

لا يقول على الله ما لم يعلم

وقال تعالى {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} آل عمران 28 ودل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الامة وما علمه قال به وما لم يعلمه امسك عنه ولا يقفو ما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لم يعلم فان الله تعالى قد حرم ذلك كله²

محمد خاتم النبيين وامام المتقين

وأفضل أولي العزم محمد خاتم النبيين وامام المتقين وسيد ولد آدم وامام الأنبياء اذا اجتمعوا وخطيبهم اذا وفدوا صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد وصاحب الحوض المورود وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة والفضيلة الذى بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه وجعل أمته خير أمة اخرجت للناس وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم وهم آخر الأمم خلقا وأول الامم بعثا كما قال فى الحديث الصحيح نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد انهم اوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناهم من بعدهم فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه يعنى يوم الجمعة فهدانا الله له الناس لنا تبع فيه غدا لليهود وبعد غد للنصارى وقال صلى الله عليه وسلم أنا اول من تنتشق عنه الأرض وقال صلى الله عليه وسلم أتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول أنا محمد فيقول بك امرت ان لا أفتح لأحد قبلك وفضائله صلى الله عليه وسلم وفضائل أمته كثيرة ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه فلا يكون وليا لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه باطنا وظاهرا ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله بل من خالفه كان من اعداء الله وأولياء الشيطان قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 قال الحسن البصرى رحمه الله ادعى قوم انهم

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 74-73

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 335

يحبون الله فانزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها ان من اتبع الرسول فان الله يحبه ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول فليس من اولياء الله وان كان كثير من الناس يظنون في انفسهم او في غيرهم انهم من اولياء الله ولا يكونون من اولياء الله فاليهود والنصارى يدعون انهم اولياء الله واحباؤه قال تعالى {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ} المائدة 18 الآية وقال تعالى {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} البقرة 111 إلى قوله {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة 112 وكان مشركوا العرب يدعون انهم اهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت وكانوا يستكبرون به على غيرهم كما قال تعالى {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ} {66} مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ} {67} المؤمنون 66-67 وقال تعالى {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتُوكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ} الأنفال 30 إلى قوله {وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُهِ إِلَّا الْمُتَّفُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} الأنفال 34 فبين سبحانه ان المشركين ليسوا اولياءه ولا اولياء بيته انما اولياؤه المتقون وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهارا من غير سر ان آل فلان ليسوا لى باولياء يعنى طائفة من اقاربه انما ولى الله وصالح المؤمنين وهذا موافق لقوله تعالى {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} التحريم 4 الآية وصالح المؤمنين هو من كان صالحا من المؤمنين وهم المؤمنون المتقون اولياء الله ودخل فى ذلك ابو بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر اهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا الفا وأربعمائة وكلهم فى الجنة كما ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ومثل هذا الحديث الآخر ان اوليائى المتقون ايا كانوا وحيث كانوا كما ان من الكفار من يدعي انه ولى الله وليس وليا لله بل عدو له فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الاسلام يقرون فى الظاهر بشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وانه مرسل الى جميع الانس بل الى الثقلين الإنس والجن ويعتقدون فى الباطن ما يناقض ذلك مثل ان لا يقروا فى الباطن بأنه رسول الله وإنما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك أو يقولون انه رسول الله الى الاميين دون اهل الكتاب كما يقوله كثير من اليهود والنصارى أو أنه مرسل الى عامة الخلق وان الله اولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه بل لهم طريق الى الله من غير جهته كما كان الخضر مع موسى أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها واما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها أو لم يكن يعرفها أو هم اعرف بها منه أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته وقد يقول بعض هؤلاء ان اهل الصفة كانوا مستغنين عنه ولم يرسل إليهم ومنهم من يقول ان الله اوحى الى اهل الصفة فى الباطن ما اوحى اليه ليلة المعراج فصار اهل الصفة بمنزلته وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون ان الاسراء كان بمكة كما قال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} الإسراء 1 وان الصفة

لم تكن الا بالمدينة وكانت صفة فى شمالى مسجده ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم فان المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فمن امكنه ان ينزل فى مكان نزل به ومن تعذر ذلك عليه نزل فى المسجد الى ان يتيسر له مكان ينتقل اليه ولم يكن أهل الصفة ناسا بأعيانهم يلازمون الصفة بل كانوا يقلون تارة ويكثرون اخرى ويقيم الرجل بها زمانا ثم ينتقل منها والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين ليس لهم مزية فى علم ولا دين بل فيهم من ارتد عن الاسلام وقتله النبى كالعربيين الذين اجتروا المدينة اى استوخموها فأمر لهم النبى بلقاح أى ابل لها لبن وامرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فلما صحوا قتلوا الراعى واستاقوا الذود فأرسل النبى فى طلبهم فأتى بهم فأمر بقطع ايديهم وارجلهم وسمرت أعينهم وتركهم فى الحرة يستسقون فلا يسقون وحديثهم فى الصحيحين من حديث انس وفيه انهم نزلوا الصفة فكان ينزلها مثل هؤلاء ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبى وقاص وهو أفضل من نزل بالصفة ثم انتقل عنها ونزلها ابو هريرة وغيره وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمى تاريخ من نزل الصفة واما الانصار فلم يكونوا من أهل الصفة وكذلك اكابر المهاجرين كأبى بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وأبى عبيدة وغيرهم لم يكونوا من أهل الصفة¹

محبة الله عز وجل وموجباتهما وعلاماتها

أن الله سبحانه وتعالى بين فى كتابه محبته وذكر موجباتهما وعلاماتها وذلك أن الله يقول فى كتابه {وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} البقرة 165 وقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31 ويقول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} المائدة 54 فهذه ثلاثة أصول لاهل محبة الله إخلاص دينهم ومتابعة رسوله والجهاد فى سبيله فإنه اخبر عن المشركين الذين يتخذون الأنداد أنهم يحبونهم كما يحبون الله ثم قال {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 فالمؤمنون أشد حبا لله من المشركين الذين يحبون الأنداد كما يحبون الله فمن أحب شيئا غير الله كما يحب الله فهو من المشركين لا من المؤمنين ومحبة رسوله من محبته ويقتضى الأصل الثانى وهو ان يكون الجهاد فى سبيله أحب إليهم من الأهل والمال فإن ذلك هو تمام الإيمان الذى ثوابه حب الله ورسوله كما قال تعالى إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا إيماناً لا يكون بعده ريب {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 162-167

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ { الحجرات 15 } وبذلك وصف أهل المحبة في قوله { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ { المائدة 54 } فأخبر سبحانه بذلهم للمؤمنين وعزهم على الكافرين وجهادهم في سبيله وأنهم لا يخافون لومة لائم فلا يخافون لوم الخلق لهم على ذلك وأما الأصل الثالث وهو متابعة السنة والشريعة النبوية قال الله تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ { آل عمران 31 } قال طائفة من السلف ادعى قوم على عهد النبي ص أنهم يحبون الله فانزل الله هذه الآية فجعل حب العبد لربه موجبا ومقتضيا لاتباع رسوله وجعل اتباع رسوله موجبا ومقتضيا لمحبة الرب عبده فأهل اتباع الرسول يحبهم الله ولا يكون حبا لله إلا من يكون منهم¹

" من احب لله وابعض لله واعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان "

وأن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله فإنه لا دين إلا ما شرعه الله قال الله تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْتَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ { الشورى 21 } ولهذا قال { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ { آل عمران 31 } فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم قال أبي بن كعب رضي الله عنه عليكم بالسبيل والسنة فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحانت عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من مخافة الله إلا لم تمسه النار أبدا وإن اقتصادا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصادا واجتهادا على منهاج الأنبياء وسنتهم كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان مالا يحيط به بيان ومما ينبغي التفتن له أن الله سبحانه قال في كتابه { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ { آل عمران 31 } قال طائفة من السلف ادعى قوم على عهد النبي صلى اله عليه وسلم أنهم يحبون الله فانزل الله هذه الآية { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ { آل عمران 31 } الآية فبين سبحانه ان محبته توجب اتباع الرسول وان اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد وهذه محبة امتحن الله بها اهل دعوى محبة الله فان هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه ولهذا يروى عن ذى النون المصرى انهم تكلموا فى مسألة المحبة عنده فقال اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها وقال بعضهم من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حرورى ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد وذلك لأن الحب المجرى تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع فى

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 262-265 وزيارة القبور ج: 1 ص: 76

اهوائها اذا لم يزعها وازع الخشية لله حتى قالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحبائه
ويوجد فى مدعى المحبة من مخالفة الشريعة مالا يوجد فى أهل الخشية ولهذا قرن الخشية بها فى
قوله { هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ } {32} مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ } {33}
ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود } {34} ق 32-34 وكان المشائخ المصنفون فى السنة يذكرون فى
عقائدهم مجانية من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية لما فى ذلك من الفساد الذى وقع
فيه طوائف من المتصوفة وما وقع فى هؤلاء من فساد الاعتقاد والاعمال أوجب انكار الطوائف
لأصل طريقة المتصوفة بالكلية حتى صار المنحرفون صنفين صنف يقر بحقها وباطها وصنف
ينكر حقها وباطها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقهاء والصواب إنما هو الاقرار بما فيها وفى
غيرها من موافقة الكتاب والسنة والانكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة وقال
تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } آل عمران 31 فاتباع سنة
رسوله صلى الله عليه وسلم وشريعته باطنا وظاهرا هى موجب محبة الله كما ان الجهاد فى سبيله
وموالاة اوليائه ومعاداة اعدائه هو حقيقتها كما فى الحديث اوثق عرى الايمان الحب فى الله
والبغض فى الله وفى الحديث من احب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الايمان
وكثير يدعى المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
والجهاد فى سبيل الله ويدعى مع هذان ان ذلك اكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه ان طريق المحبة
الله ليس فيه غيره ولا غضب لله وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة ولهذا فى الحديث المأثور
يقول الله تعالى يوم القيامة اين المتحابون بجلالى اليوم اظلمهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى فقوله
اين المتحابون بجلال الله تنبيه على ما فى قلوبهم من اجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه وبذلك
يكونون حافظين لحدوده دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الايمان فى قلوبهم وهؤلاء الذين جاء
فيهم الحديث حققت محبتى للمتحابين فى وحقت محبتى للمتجالسين فى وحقت محبتى للمتزاورين
فى وحقت محبتى للمتباذلين فى والاحاديث فى المتحابين فى الله كثيرة وفى الصحيحين عن
النبي من حديث ابى هريرة رضى الله عنه سبعة يضلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل
وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يرجع اليه ورجلان تحابا فى
الله اجتمعا وتفرقا عليه ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله
خاليا ففاضت عيناه ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال انى اخاف الله رب العالمين
واصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى ولها اصلان احدهما وهو الذى يقال له محبة
العامة لأجل احسانه الى عباده وهذه المحبة على هذا الاصل لا ينكرها احد فان القلوب مجبولة على
حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها والله سبحانه هو المنعم المحسن الى عبده بالحقيقة فانه
المتفضل بجميع النعم وان جرت بواسطة إذ هو ميسر الوسائط ومسبب الاسباب ولكن هذه المحبة فى
الحقيقة اذا لم تجذب القلب الى محبة الله نفسه فما أحب العبد فالحقيقة الا نفسه وكذلك كل من احب
شيئا لأجل احسانه اليه فما أحب فى الحقيقة الا نفسه وهذا ليس بمذموم بل محمود وهذه المحبة

هي المشار إليها بقوله احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله واحبوا اهلى بحبى
والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب انه يحبه الا احسانه اليه وهذا كما
قالوا ان الحمد لله على ونوعين حمد هو شكر وذلك لا يكون إلا على نعمته و
حمد هو مدح وثناء عليه ومحبة له وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه فكذلك الحب فإن الأصل الثانى
فيه هو محبته لما هو له اهل وهذا حب من عرف من الله ما يستحق ان يحب لاجله وما من وجه من
الوجوه التى يعرف الله بها مما دلت عليه اسماءه وصفاته الا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك
الوجه حتى جميع مفعولاته اذ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ولهذا استحق ان يكون محمودا
على كل حال ويستحق ان يحمد على السراء والضراء وهذا اعلى وأكمل وهذا حب الخاصة
وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر الى وجهه الكريم ويتلذذون بذكره ومناجاته ويكون لهم أعظم من
الماء للسماك حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم مالا يطيقون وهم السابقون كما فى صحيح
مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال مر النبي بجبل يقال له جمدان فقال سيروا هذا جمدان
سبق المفردون قالوا يارسول الله من المفردون قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات وفى رواية
اخرى قال المستهترون وبذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافا
والمستهتر بذكر الله يتولع به ينعم به كلف لا يفتر منه وفى حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن
ابن عباس رضى الله عنهما قال قال موسى يارب اى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا
ينسانى قال أى عبادك أعلم قال الذى يطلب علم الناس الى علمه ليجد كلمة تدله على هدى او ترده
عن ردى قال أى عبادك احكم قال الذى يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم
لنفسه فذكر فى هذا الحديث الحب والعلم والعدل وذلك جماع الخير ومما ينبغى التفطن له أنه
لا يجوز ان يظن فى باب محبة الله تعالى ما يظن فى محبة غيره مما هو من جنس التجنى والهجر
والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس حتى يتمثلون فى حبه بجنس ما
يتمثلون به فى حب من يصد من يصد ويقطع بغير ذنب او يبعد من يتقرب اليه وان غلط فى ذلك من
المصنفين فى رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم اقامة الحجة على الله بل الله الحجة البالغة وقد
ثبت فى الصحيحى عن أبى هريرة عن النبي أنه قال يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى
نفسى ومن ذكرنى فى مأل ذكرته فى مأل خير منه ومن تقرب الى شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب
الى ذراعا تقرب اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة وفى بعض الآثار يقول الله تعالى أهل
ذكرى أهل مجالستى وأهل شكرى أهل زيارتى وأهل طاعنى أهل كرامتى وأهل معصيتى لا أؤيسهم
من رحمتى وان تابوا فانا حبيبهم لأن الله يحب التوابين وان لم يتوبوا فانا طيبهم ابتليهم بالمصائب
حتى اطهرهم من المعائب وقد قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا
هَضْمًا} طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن ينقض من حسنات نفسه وقال
تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} النحل 118 وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر
رضى الله عنه عن النبي قال يقول الله تعالى يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم

محرما فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى اهدكم عبادى كلكم جائع الى من
 اطعمته فاستطعمونى اطعمكم يا عبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى اكسكم يا عبادى انكم
 تذبون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب ولا ابالى فاستغفرونى اغفر لكم يا عبادى لو ان اولكم وأخركم
 وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى لو ان اولكم
 وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادى
 لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم اجتمعوا فى وصعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم
 مسألته ما نقص ذلك من ملكى الا كما ينقص المخيط الا اذا غمس فى البحر يا عبادى انما هي
 اعمالكم احصيتها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه
 ومن ذلك رواه البخارى فى صحيحة عن شداد بن اوس قال قال رسول الله سيد الاستغفار ان يقول
 العبد اللهم انت ربي لا اله الا الله أنت خلقتنى وأنا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك
 من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا انت من قالها
 اذا اصبح موقنا بها فمات فى يومه دخل الجنة ومن قالها اذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل
 الجنة فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها الى شكر وذنوب منه يحتاج فيه الى الاستغفار
 وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما فانه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا
 الى التوبة والاستغفار ولهذا كان سيد آدم وامام المتقين محمد يستغفر فى جميع الاحوال وقال فى
 الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ايها الناس توبوا الى ربكم فانى لأستغفر الله واتوب اليه فى
 اليوم اكثر من سبعين مرة وفى صحيح مسلم انه قال انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى
 اليوم مائة مرة وقال عبد الله بن عمر كنا نعد لرسول الله فبالمجلس الواحد يقول رب اغفر لى
 وتب على انك انت التواب الغفور مائة مرة ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال قال تعالى
 {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} آل عمران 17 وقال بعضهم احيوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر امروا
 بالاستغفار وفى الصحيح ان النبى كان اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم انت السلام
 ومنك السلام تباركت باذا الجلال والاکرام وقال تعالى {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ
 الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} البقرة 198 الى قوله {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} البقرة 198
 وقد امر الله نبيه بعد ان بلغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده واتى بما امر الله به مما لم يصل اليه
 احد غيره فقال تعالى {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} 1 {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} 2
 فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} 3 {النصر 1-3} ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار
 كما قال الله تعالى {الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} 1 {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي
 لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} 2 {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ
 كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} 3 {هود 1-3 الآية وقال تعالى
 {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ} فصلت 6 وقال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد 19 ولهذا جاء فى الحديث يقول الشيطان اهلكت الناس بالذنوب

واهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار وقد قال يونس {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} الأنبياء 87 وكان النبي إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثا ويقول لا اله الا أنت سبحانك ظلمت نفسى فاغفر لى وكفارة المجلس التى كان يختم بها المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ان لا اله الا أنت استغفرك واتوب اليك والله اعلم وصلى الله على محمد وسلم¹

وانما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما احبه الله ورسوله ويبغض ما ابغضه الله ورسوله ويوالي اولياء الله ويعادى اعداء الله تعالى وهذا هو الذى استكمل الايمان كما فى الحديث من احب الله وابغض الله واعطى الله ومنع الله فقد استكمل الايمان وقال اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله وفى الصحيح عنه ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه فكان الله ورسوله احب اليه مما سواهما واحب المخلوق لله لا لغرض آخر فكان هذا فكان من تمام حبه لله فان محبة محبوب من تمام محبة المحبوب فاذا احب أنبياء الله واولياء الله لأجل قيامهم بمحوبات الحق لا لشيء آخر فقد احبهم الله لا لغيره وقد قال تعالى {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} المائدة 54 ولهذا قال تعالى **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}** آل عمران 31 فان الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به فمن كان محبا لله لزم ان يتبع الرسول فيصدقه فيما اخبره ويطيعه فيما امره ويتأسى به فيما فعله ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله فجعل الله لأهل محبته علامتين اتباع الرسول والجهاد فى سبيله وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد فى حصول ما يحب الله من الايمان والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان وقد قال تعالى **{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ}** التوبة 24 الى قوله **{حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}** التوبة 24 فتوعد من كان اهله وماله احب اليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد بل قد ثبت نه فى الصحيح انه قال والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين وفى الصحيح ان عمر بن الخطاب قال له يا رسول الله والله لأنت احب الي من كل شيء الا من نفسى فقال لا يا عمر حتى اكون احب اليك من نفسك فقال فوالله لأنت احب الي من نفسى فقال الآن يا عمر فحقيقة المحبة لا تتم الا بموالاتة المحبوب وهو موافقته فى حب ما يحب وبغض ما يبغض والله يحب الايمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان ومعلوم ان الحب يحرك ارادة القلب فكلما قويت المحبة فى القلب طلب القلب

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 81-88 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 75-76 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 73-77

فعل المحبوبات فاذا كانت المحبة تامة استلزمت ارادة جازمة في حصول المحبوبات فاذا كان العبد قادرا عليها حصلها وان كان عاجزا عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل كما قال النبي من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل اجور من اتبعه من غير ان ينقص من اجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل اوزار من اتبعه من غير ان ينقص من اوزارهم شيئا وقال ان بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال هم بالمدينة حسبهم العذر و الجهاد هو بذل الوسع وهو القدرة في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق فاذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه ومعلوم ان المحبوبات لا تنال غالبا الا باحتمال المكروهات سواء كانت محبة سالحة فاسدة فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم الا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة فالمحب لله ورسوله اذا لم يتحمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله اذا كان ما يسلكه اولئك هو الطريق الذي يشير به العقل ومن المعلوم ان المؤمن اشد حبا لله كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقا لالا يحصل بها المطلوب فمثل هذه الطريق لا تحمد اذا كانت المحبة سالحة محمودة فكيف اذا كانت المحبة فاسدة والطريق غير موصل كما يفعله المتهورون في طلب المال والرئاسة والصور في حب امور توجب لهم ضرر ولا تحصل لهم مطلوبا وانما المقصود الطرق التي يسلكها العقل حصول مطلوبه واذا تبين هذا فكلمنا ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه والقلب فقير بالذات الى الله من وجهين من جهة العبادة وهي العلة الغائبة ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلية فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر لا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن الا بعبادة ربه وحبه والانابة اليه ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن اذ فيه فقر ذاتي الى ربه ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة وهذا لا يحصل له إلا باعانة الله له لا يقدر على تحصيل ذلك له الا الله فهو دائما مفتقر الى حقيقة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فانه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهي ويريده ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو الحبوب له بالقصد الأول وكل ما سوا انما يحبه لأجله لا يحب شيئا لذاته الا الله متى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة لا اله الا الله ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة وكان فيه من النقص والعييب بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينا بالله متوكلا عليه مفتقرا اليه في حصوله لم يحصل له فانه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهو مفتقر الى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه فهو الهه لا اله له غيره وهو ربه لا رب سواه ولا تتم عبوديته لله الا بهذين فمتى كان يحب غير الله لذاته او يلتفت الى غير الله انه

يعينه كان عبدا لما احبه وعبدا لما رجاه بحسب حبه له ورجائه اياه واذا لم يحب لذاته الا الله وكما احب سواه فانما احبه له ولم يرج قط شيئا الا الله واذا فعل ما فعل من الأسباب او حصل ما حصل منها كان مشاهدا ان الله هو الذي خلقها وقدرها وان كل ما فى السموات والارض فالله ربه ومليكه وخالقه وهو مفتقر اليه كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك والناس فى هذا على درجات متفاوتة لا يحصى طرفيها الا الله فأكمل الخالق وأفضلهم واعلاهم واقربهم الى الله واقواهم واهداهم اتمهم عبودية لله من هذا الوجه وهذا هو حقيقة دين الاسلام الذى أرسل به رسله وانزل به كتبه وهو ان يستسلم العبد لله لا لغيره فالمستسلم له ولغيره مشرك والممتنع عن الاستسلام له مستكبر وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الجنة لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من كبر كما أن النار لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فجعل الكبر مقابلا للإيمان فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعني واحدا منهما عذبتة فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية والكبرياء أعلى من العظمة ولهذا جعلها بمنزلة الرداء كما جعل العظمة بمنزلة الازار ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير وكان مستحبا فى الأمكنة العالية كالصفا والمروة وإذا علا الإنسان شرفا أو ركب دابة ونحو ذلك¹

ونفس ولأية الله مخالفة لعداوته واصل الولاية والعداوة الحب والبغض فأولياء الله هم الذين يحبون ما احب ويبغضون ما ابغض واعدائه الذين ما يحب ويحبون ما يبغض وقد قال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ} المجادلة 22 وقال تعالى {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} المائدة 54 وقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} آل عمران 31 وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب الى عبدي بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشي ولئن سألتني لاعطينه ولئن استعاذني لاعدته وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه²

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 191-195 و مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 476 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 385-388 و العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 66 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 94 و الاستقامة ج: 1 ص: 262-263 و زيارة القبور ج: 1 ص: 76

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 519-520

*فمحببة اولياء الله من اوثق عرى الايمان واعظم حسنات المتقين ولو احب الرجل لما ظهر له من الخير الذى يحبه الله ورسوله اثابه الله تعالى على محبة ما يحبه الله ورسوله وان لم يعلم حقيقة باطنه فان الاصل هو حب الله وحب ما يحبه الله فمن احب الله واحب ما يحبه الله كان من اولياء الله لكن كثيرا من الناس يدعى المحبة من غير تحقيق قال الله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} آل عمران 31 قال بعض السلف ادعى قوم على عهد رسول الله أنهم يحبون الله فانزل الله هذه الآية فمحببة الله ورسوله وعباده المتقين تقتضى فعل محبوباته وترك مكروهاته والناس يتفاضلون فى هذا تفضلا عظيما فمن كان اعظم نصيبا من ذلك كان اعظم درجة عند الله واما من احب شخصا لهواه مثل ان يحبه لذنيا يصيبها منه او لحاجة يقوم له بها او لمال يتاكله به او بعصبية فيه ونحو ذلك من الاشياء فهذه ليست محبة لله بل هذه محبة لهوى النفس وهذه المحبة هى التى توقع اصحابها فى الكفر والفسوق والعصيان وما اكثر من يدعى حب مشائخ الله ولو كان يحبهم الله لاطاع الله الذى احبهم لاجله فان المحبوب لاجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير وكيف يحب شخصا الله من لا يكون محبا لله وكيف يكون محبا لله من يكون معرضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبيل الله وما أكثر من يحب شيوخا أو ملوكا وغيرهم فيتخذهم اندادا يحبهم كحب الله والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهرة فاهل الشرك يتخذون اندادا يحبونهم كحب الله والذين امنوا اشد حبا لله واهل الايمان يحبون وذلك ان اهل الايمان اصل حبه هو حب الله ومن احب الله احب من يحبه الله ومن احبه الله احب الله فمحبوب المحبوب محبوب لله يحب الله فمن احب الله احبه الله فيحب من احب الله¹

لا سعادة للعباد ولا نجاة فى المعاد الا باتباع رسوله

قد أمرنا الله تعالى باتباع ما أنزل إلينا من ربنا وبتباع ما يأتى منه من الهدى وقد أنزل علينا الكتاب والحكمة كما قال تعالى {وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ} البقرة 231 والحكمة من الهدى قال تعالى {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} النور 54 والأمر باتباع الكتاب والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التى بعث بها الرسول وبتابعه وطاعته مطلقا وقال تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وقال تعالى {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} البقرة 129 وقال تعالى {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} البقرة 151 وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران 164

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 315-316 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 520

وقال تعالى { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } الجمعة 2 { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } 2 { وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } 3 { الجمعة 2-3 } وقد أمر بطاعة الرسول في نحو أربعين موضعا كقوله تعالى { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } آل عمران 32 وقوله تعالى { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ } المائدة 92 وقوله تعالى { وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا } 27 { يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا } 28 { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا } 29 { الفرقان 27-29 } فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه في الكتاب كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما في الكتاب منصوصا بعينه في حديث عن الرسول غير الكتاب فعلينا أن نتبع الكتاب وعلينا أن نتبع الرسول واتباع أحدهما هو اتباع الآخر فإن الرسول بلغ الكتاب والكتاب أمر بطاعة الرسول ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضا قال تعالى { وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } النساء 82 والأحاديث كثيرة عن النبي في وجوب اتباع الكتاب وفي وجوب اتباع سنته كقوله لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال حللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه ألا واني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا وانه مثل القرآن أو أعظم هذا الحديث في السنن والمسائيد مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة جهات من حديث أبي ثعلبة وأبي رافع وأبي هريرة وغيرهم وفي صحيح مسلم عنه من حديث جابر أنه قال في خطبة الوداع وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده كتاب الله تعالى وسنة نبيه وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قيل له هل أوصى رسول الله قال لا قيل فكيف كتبه على الناس الوصية قال أوصى بكتاب الله وسنة رسول الله تفسر القرآن كما فسرت أعداد الصلوات وقدر القراءة فيها والجهر والمخافتة وكما فسرت فرائض الزكاة ونصبها وكما فسرت المناسك وقدر الطواف بالبيت والسعي ورمي الجمار ونحو ذلك وهذه السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتباعها وقد يكون من سنته ما يظن أنه مخالف لظاهر القرآن وزيادة عليه كالسنة المفسرة لنصاب السرقة والموجبة لرجم الزاني المحصن فهذه السنة أيضا مما يجب اتباعه عند الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر طوائف المسلمين إلا من نازع في ذلك من الخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قاتلهم يوم القيامة وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة في وصفهم وذمهم والأمر بقتالهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أحمد بن حنبل صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وقد روى مسلم في صحيحه حديثهم

من عشرة أوجه كأنها هي التي أشار إليها احمد بن حنبل فإن مسلماً أخذ عن أحمد وقد روى البخاري حديثهم من عدة أوجه وهؤلاء أولهم قال للنبي يا محمد اعدل فانك لم تعدل فمن جوز عليه أن يظلمه فلا يعدل كمن يوجب طاعته فيما ظلم فيه لكنهم يوجبون اتباع ما بلغه عن الله وهذا من جهلهم وتناقضهم ولهذا قال النبي ويحك ومن يعدل إذا لم اعدل وقال لقد خبت وخسرت إن لم اعدل أي إن اتبعت من هو غير عادل فأنت خائب خاسر وقال أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني يقول إذا كان الله قد ائتمنى على تبليغ كلامه أفلا تأمنوني على أن أودي الأمانة إلى الله قال تعالى { وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ } آل عمران 161 وفي الجملة فالقرآن يوجب طاعته في حكمه وفي قسمه ويذم من يعدل عنه في هذا أو هذا كما قال تعالى في حكمه { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } النساء 65¹

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {13} وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } {14} النساء 13- 14 فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله فلا عبادة الا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد أخرجاه في الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن سارية الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي أنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثان الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعاً من القرآن كقوله تعالى { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } النساء 80 وقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } {64} فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } {65} النساء 64- 65 وقوله تعالى { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } آل عمران 32 وقال تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 31 فجعل محبة العبد لربه

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 82-87

موجبة لاتباع الرسول وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده وقد قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} الشورى 52 فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده كما أنه بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 وقال تعالى {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} 15 {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} المائدة 15-16 فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدي من الضلال والنجاة من الوبال والغي من الرشاد والزيغ من السداد وأهل الجنة من أهل النار والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين فالنفوس أحوج الى معرفة ما جاء به واتباعه منها الى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا وذاك إذا مات حصل العذاب فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم والطريق الى ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى الا مع ظهور نور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي الا إذا طلعت عليه شمس الرسالة فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الاسلام وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة وبهما أتم على أمته الأمة قال تعالى {وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {150} كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} {151} فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} {152} البقرة 150-152 وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} آل عمران 164 قال تعالى {وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِهِ} البقرة 231 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} الجمعة 2 وقال تعالى عن الخليل {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ} البقرة 129 وقال تعالى {وَادْكُرْ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} الأحزاب 34 وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم الحكمة هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والكتاب القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة وأبي ثعلبة وغيرهما أنه قال لا ألفين أحدكم متكاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه إلا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وفي رواية ألا وإنه مثل الكتاب ولما كان القرآن متميزاً بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى {قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} الإسراء 88 وكان منقولاً بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدى والسداد فدحروا حزب الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث وكان من ذلك الظاهر الجلي الذي لا يسوغ عنه العدول ومنه الخفى الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعلماء العدول وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والاسناد فسافروا في ذلك الى البلاد وهجروا فيه لذيق الرقاد وفارقوا الأموال والأولاد وأنفقوا فيه الطارف والتلاد وصبروا فيه على النوائب وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصص المأثورة ما هو عند أهله معلوم ولمن طلب معرفته معروف مرسوم بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيق الطعام والشراب وترك معاشره الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الإغتراب ومقاساة الأهوال الصعاب أمر حبيبه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله كما جعل البيت مثابة للناس وأمانا يقصدونه من كل فج عميق ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق وكما حبيب الى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ويظهر به الهدى ودين الحق الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون فمن كان مخلصا في أعمال الدين يعملها لله كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم كما قال تعالى {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} {63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {64} يونس 62-64 وقد فسر النبي البشري في الدنيا بنوعين أحدهما ثناء المثنيين عليه الثاني الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له فقيل يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشري المؤمن وقال البراء بن عازب سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشري في الحياة الدنيا فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الربان الحافظون له من الزيادة والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} {المجادلة 11} قال ابن عباس يرفع الله وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد وجعله سلما الى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد له يأترون به المنقولات وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الاسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأترونها بغير إسناد وعليها من دينهم الإعتقاد وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ولا الحالي من العاطل وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين فظهر لهم الصدق من المين كما يظهر الصبح لذي عينين عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين

الله معقول أو منقول وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء 59 فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقا ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي والله تعالى يليهم الصواب في هذه القضية كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية فإن الله كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه لما صدقوا في موالاته الله ورسوله ومادة من عدل عنه قال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} المجادلة 22 وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظم الناس قياما بهه الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصددهم عن سبيل الله العظام بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُوتُوا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} النساء 135 وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المائدة 8 ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيانتها عن إحداث المفترين وهم في ذلك على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه وقد أمر النبي الأمة أن يبلغ عنه من شهد لم غاب ودعا للمبلغين بالدعاء المتجاب فقال في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بين اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع الا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال أيضا نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من روائهم وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيهها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ لما أعطى المبلغون من النضرة ولهذا قال سفيان بن عيينة لا تجد أحد من أهل الحديث الا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي يقال نضر ونضر والفتح أفصح ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأنني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإنما قال الشافعي هذا لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي وقال الشافعي أيضا أهل الحديث حفظوا فلمهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا أه وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى قاعدة في الجماعة والفرقة وسبب ذلك ونتيجته قال الله تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِّن

الدِّينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ { الشورى 13 } أخبر سبحانه أنه شرع لنا ما وصى به نوحا والذي أوحاه الى محمد وما وصى به الثلاثة المذكورين وهؤلاء هم أولوا العزم المأخوذ عليهم الميثاق فى قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} الأحزاب 7 وقوله {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} الشورى 13 فجاء فى حق محمد باسم الذى وبلفظ الإيحاء وفى سائر الرسل بلفظ الوصية {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ} الشورى 13 وهذا تفسير الوصية و أن المفسرة التى تأتى بعد فعل من معنى القول لا من لفظه كما فى قوله {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ {النحل 123} وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ {النساء 131} والمعنى قلنا لهم اتقوا الله فكذلك قوله {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ} الشورى 13 فى معنى قال لكم من الدين ما وصى به رسلا قلنا أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه فالمشروع لنا هو الموصى به والموحى وهو أقيموا الدين فأقيموا الدين مفسر للمشروع لنا الموصى به الرسل والموحى الى محمد فقد يقال الضمير فى أقيموا عائد الينا ويقال هو عائد الى المرسل ويقال هو عائد الى الجميع وهذا أحسن ونظيره أمرتك بما أمرت به زيدا أن أطع الله ووصيتكم بما وصيت بنى فلان أن افعلوا فعلى الأول يكون بدلا من ما أى شرع لكم أن أقيموا وعلى الثانى شرع ما خاطبهم أقيموا فهو بدل أيضا وذكر ما قيل للأولين وعلى الثالث شرع الموصى به أقيموا فلما خاطب بهذه الجماعة بعد الإخبار بأنها مقولة لنا ومقولة لهم علم أن الضمير عائد الى الطائفتين جميعا وهذا أصح إن شاء الله والمعنى على التقديرين الأولين يرجع الى هذا فإن الذى شرع لنا هو الذى وصى به الرسل وهو الأمر بإقامة الدين والنهى عن التفرق فيه ولكن التردد فى أن الضمير تناولهم لفظه وقد علم أنه قيل لنا مثله أو بالعكس أو تناولنا جميعا وإذا كان الله قد أمر الأولين والآخرين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وقد أخبر أنه شرع لنا ما وصى به نوحا والذي أوحاه الى محمد فيحتمل شيئين أحدهما أن يكون ما أوحاه إلى محمد يدخل فيه شريعته التى تختص بنا فإن جميع ما بعث به محمد قد أوحاه اليه من الأصول والفروع بخلاف نوح وغيره من الرسل فإنما شرع لنا من الدين ما وصوا به من إقامة الدين وترك التفرق فيه والدين الذى اتفقوا عليه هو الأصول فتضمن الكلام أشياء أحدها أنه شرع لنا الدين المشترك وهو الإسلام والإيمان العام والدين المختص بنا وهو الإسلام والإيمان الخاص الثانى أنه أمرنا بإقامة هذا الدين كله المشترك والمختص ونهانا عن التفرق فيه الثالث أنه أمر المرسلين بإقامة الدين المشترك ونهاهم عن التفرق فيه الرابع أنه لما فصل بقوله {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} الشورى 13 بين قوله {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} الشورى 13 وقوله {وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} الشورى 13 أفاد ذلك ثم قال بعد ذلك {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} الشورى 14 فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم الذى بين لهم ما يتقون فإن الله ما كان ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغيا والبغى

مجازرة الحد كما قال ابن عمر الكبر والحسد وهذا بخلاف التفرق عن إجتهد ليس فيه علم ولا قصد به البغى كتنزاع العلماء السائغ والبغى إما تضييع للحق وإما تعد للحد فهو إما ترك واجب وإما فعل محرم فعلم أن موجب التفرق هو ذلك وهذا كما قال عن أهل الكتاب {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} المائدة 14 فأخبر أن نسيانهم حظا مما ذكروا به وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به كان سببا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم وهكذا هو الواقع في أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها وكثير من فروعها من أهل الأصول والفروع ومثلما نجده بين العلماء وبين العباد ممن يغلب عليه الموسوية أو العيسوية حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة ليست الأخرى على شيء كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة كل منهما ينفى طريقة الآخر ويدعى أنه ليس من أهل الدين أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين فتقع بينهما العداوة والبغضاء وذلك أن الله أمر بطهارة القلب وأمر بطهارة البدن وكلا الطهارتين الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجهه قال تعالى {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} المائدة 6 وقال {فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} التوبة 108 وقال {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} البقرة 222 وقال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} التوبة 103 وقال {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ} المائدة 41 وقال {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} التوبة 28 وقال {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} الأحزاب 33 فنجد كثيرا من المتفقهة والمتعبدة إنما همته طهارة البدن فقط ويزيد فيها على المشروع اهتماما وعملا ويترك من طهارة القلب ما أمر به إيجابا أو استحبابا ولا يفهم من الطهارة الا ذلك ونجد كثيرا من المتصوفة والمتفكرة إنما همته طهارة القلب فقط حتى يريد فيها على المشروع اهتماما وعملا ويترك من طهارة البدن ما أمر به إيجابا أو استحبابا فالأولون يخرجون الى الوسوسة المذمومة في كثرة صلب الماء وتنجيس ما ليس بنجس واجتناب ما لا يشرع اجتنابه مع اشتغال قلوبهم على أنواع من الحسد والكبر والغل لإخوانهم وفي ذلك مشابهة بينة لليهود وآخرون يخرجون الى الغفلة المذمومة فيبالغون في سلامة الباطن حتى يجعلون الجهل بما تجب معرفته من الشر الذي يجب اتقائه من سلامة الباطن ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعرفة المأمور بها ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات ويقىمون الطهارة الواجبة مضاهات للنصارى وتقع العداوة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به والبغى الذي هو مجاوزة الحد إما تفريط وتضييعا للحق وإما عدوانا وفعلا للظلم والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض وتارة يكون في حقوق الله وهما متلازمان ولهذا قال بغيا بينهم فإن كل طائفة بغت على الأخرى فلم تعرف حقها الذي بأيديها ولم تكف عن العدوان عليها وقال تعالى {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} البيئ 4 وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {البقرة 213} وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} {الجاثية 16} الآية وقال تعالى في موسى بن عمران مثل ذلك وقال {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 105 وقال {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} {الأأنعام 159} وقال {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} {الروم 30-32} لأن المشركين كل منهم يعبد إلها يهواه كما قال في الآية الأولى {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} {الشورى 13} وقال {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} {51} {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} {52} {فَنَقَطُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {53} المؤمنون 51-53 فظهر أن سبب الإجتماع والألفة جمع الدين والعمل به كله و هو عبادة الله وحده لا شريك له كما أمر به باطنا وظاهرا وسبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به والبغى بينهم ونتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه وصلواته وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه ونتيجة الفرقة عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه وبراءة الرسول منهم وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة فإنهم اذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين فلا تكون طاعة الله ورحمته بفعل لم يأمر الله به من إعتقاد أو قول أو عمل فلو كان القول أو العمل الذى اجتمعوا عليه لم يأمر الله به لم يكن ذلك طاعة لله ولا سببا لرحمته وقد إحتج بذلك أبو بكر عبد العزيز فى أول التنبيه نبه على هذه النكته وقال قال فى الحديث المشهور فى السنن من رواية فقيهى الصحابة عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلص العمل لله ومناصحة ولات الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وفى حديث أبى هريرة المحفوظ إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم فقد جمع فى هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث إخلص العمل لله ومناصحة أولى الأمر ولزوم جماعة المسلمين وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التى لله ولعباده وتتنظم مصالح الدنيا والآخرة وبيان ذلك أن الحقوق قسمان حق لله وحق لعباده فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئا كما جاء لفظه فى أحد الحديثين وهذا معنى إخلص العمل لله كما جاء فى الحديث الآخر وحقوق العباد قسمان خاص وعام أما الخاص فمثل بر كل إنسان والديه وحق زوجته وجاره فهذه من فروع الدين لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه ولأن مصلحتها خاصة فردية وأما الحقوق العامة فالناس نوعان رعاة ورعية فحقوق الرعاة مناصحتهم وحقوق الرعية لزوم جماعتهم فإن مصلحتهم لا تتم إلا بإجتماعهم وهم لا يجتمعون على ضلالة بل مصلحة

دينهم وديناهم في إجتماعهم وإعتصامهم بحبل الله جميعا فهذه الخصال تجمع أصول الدين وقد جاءت مفسرة في الحديث الذي رواه مسلم عن تميم الدارى قال قال رسول الله الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال الله و لكتابه و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم فالنصيحة لله و لكتابه و لرسوله تدخل في حق الله و عبادته وحده لا شريك له و النصيحة لأئمة المسلمين و عامتهم هي مناصحة و لالة الأمر و لزوم جماعتهم فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة و أما النصيحة الخاصة لكل واحد واحد منهم بعينه فهذه يمكن بعضها و يتعذر إستيعابها على سبيل التعيين¹

الله سبحانه وتعالى فرض طاعة رسوله على كل أحد في كل حال

و الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نطيع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} النساء 80 و أمرنا أن نتبعه فقال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 و أمرنا أن نعززه و نوقره و ننصره قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} {8} لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} {9} الفتح 8-9 فهذا في حق الرسول ثم قال في حق الله تعالى {وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} الفتح 9 و جعل له من الحقوق ما بينه في كتابه و سنة رسوله حتى أوجب علينا أن يكون أحب الناس إلينا من أنفسنا و أهليتنا فقال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} الأحزاب 6 و قال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} التوبة 24 و قال صلى الله عليه وآله وسلم و الذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده و والده و الناس أجمعين و قال له عمر رضى الله عنه يا رسول الله لانت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال فلانت أحب إلى من نفسى قال الآن يا عمر و قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما و من كان يحب المرء لا يحبه إلا الله و من كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار²

و اجب على كل أحد إذا تبين له حكم الله ورسوله في أمر إن لا يعدل عنه ولا يتبع أحدا في مخالفة الله ورسوله فان الله فرض طاعة رسوله على كل أحد في كل حال و قال تعالى {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} النساء 65 و قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} آل عمران 31 و قال

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 19-4

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 104 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 68

تعالى { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا } الأحزاب 36 وقد صنف الامام أحمد كتابا فى طاعة الرسول وهذا متفق عليه بين أئمة المسلمين فطاعة الله ورسوله وتحليل ما حله الله ورسوله وتحريم ما حرمه الله ورسوله وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله واجب على جميع الثقلين الانس والجن واجب على كل أحد فى كل حال سرا وعلانية لكن لما كان من الأحكام مالا يعرفه كثير من الناس رجعت الناس فى ذلك الى من يعلمهم ذلك لأنه أعلم بما قاله الرسول وأعلم بمراده فأئمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول يبلغونهم ما قاله ويفهمونهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم وقد يخص الله هذا العالم من العلم والفهم ما ليس عند الآخر وقد يكون عند ذلك فى مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ } {78} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } {79} الانبياء 78-79 فهذان نبيان كريمان حكما فى قضية واحدة فخص الله أحدهما بالفهم وأثنى على كل منهما والعلماء ورثة الأنبياء واجتهاد العلماء فى الأحكام كاجتهاد المستدلين على جهة الكعبة فاذا صلى أربعة أنفس كل واحد منهم بطائفة الى أربع جهات لاعتقادهم أن القبلة هناك فان صلاة الأربعة صحيحة والذي صلى الى جهة الكعبة واحد وهو المصيب الذي له أجران كما فى الصحيح عن النبى أنه قال إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر وأكثر الناس إنما التزموا المذاهب بل الأديان بحكم ما تبين لهم فان الانسان ينشأ على دين أبيه أو سيده أو أهل بلده كما يتبع الطفل فى الدين أبويه وسابيه وأهل بلده ثم إذا بلغ الرجل فعليه أن يقصد طاعة الله ورسوله حيث كانت ولا يكون ممن { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } البقرة 170 فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله والرسول الى عادته وعادة أبيه وقومه فهو من أهل الجاهلية المستحقين للوعيد وكذلك من تبين له فى مسألة من مسائل الحق الذي بعث الله به رسوله ثم عدل عنه الى عادته فهو من أهل الذم والعقاب وأما من كان عاجزا عن معرفة حكم الله ورسوله وقد اتبع فيها من هو من أهل العلم والدين ولم يتبين له أن قول غيره أرجح من قوله فهو محمود يثاب لا يذم على ذلك ولا يعاقب وإن كان قادرا على الاستدلال ومعرفة ما هو الراجح وتوقى بعض المسائل فعدل عن ذلك الى التقليد فهو قد اختلف فى مذهب أحمد المنصوص عنه والذي عليه أصحابه أن هذا أثم أيضا وهو مذهب الشافعي وأصحابه وحكى عن محمد بن الحسن وغيره أنه يجوز له التقليد مطلقا وقيل يجوز تقليد الأعم وحكى بعضهم هذا عن أحمد كما ذكره أبو إسحق فى اللمع وهو غلط على أحمد فان أحمد إنما يقول هذا فى أصحابه فقط على اختلاف عنه فى ذلك وأما مثل مالك والشافعي وسفيان ومثل إسحاق بن راهويه وأبى عبيد فقد نص فى غير موضع على أنه لا يجوز للعالم القادر على الاستدلال أن يقلدهم وقال لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكا ولا الشافعي ولا الثورى وكان يحب الشافعي ويثنى عليه ويحب إسحاق ويثنى عليه ويثنى على مالك والثورى وغيرهما من الأئمة ويأمر العامي أن يستقتى إسحاق وأبا عبيد وأبا ثور وأبا مصعب وينهى

العلماء من أصحابه كأبى داود و عثمان بن سعيد وإبراهيم الحربي وأبى بكر الأثرم وأبى زرعة وأبى حاتم السجستاني ومسلم وغيرهم أن يقلدوا أحدا من العلماء ويقول عليكم بالأصل بالكتاب والسنة¹

قد ذم الله تعالى فى القرآن من عدل عن اتباع الرسل الى ما نشأ عليه من دين آبائه وهذا هو التقليد الذى حرمه الله ورسوله وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق والرسول طاعته فرض على كل أحد من الخاصة والعامة فى كل وقت وكل مكان فى سره وعلانيته وفى جميع أحواله وهذا من الايمان قال الله تعالى {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} النساء 65 وقال {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} النور 51 وقال {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} الأحزاب 36 وقال {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} النور 63 وقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 وقد أوجب الله طاعة الرسول على

جميع الناس فى قريب من أربعين موضعا من القرآن وطاعته طاعة الله وهى عبادة الله وحده لا شريك له وذلك هو دين الله وهو الاسلام وكل من أمر الله بطاعته من عالم وأمير ووالد وزوج فلان طاعته طاعة الله وإلا فاذا أمر بخلاف طاعة الله فانه لا طاعة له وقد يأمر الوالد والزوج بمباح فيطاع وكذلك الامير إذا أمر عالما يعلم أنه معصية الله والعالم إذا أفتى المستفتى بما لم يعلم المستفتى أنه مخالف لأمر الله فلا يكون المطيع لهؤلاء عاصيا واما إذا علم أنه مخالف لأمر الله فطاعته فى ذلك معصية لله ولهذا نقل غير واحد الاجماع على أنه لا يجوز للعالم أن يقلد غيره إذا كان قد اجتهد واستدل وتبين له الحق الذى جاء به الرسول فهنا لا يجوز له تقليد من قال خلاف ذلك بلا نزاع ولكن هل يجوز مع قدرته على الاستدلال أنه يقلد هذا فيه قولان فمذهب الشافعى وأحمد وغيرهما لا يجوز وحكى عن محمد بن الحسن جوازه والمسألة معروفة وحكى بعض الناس ذلك عن أحمد ولم يعرف هذا الناقل قول أحمد كما هو مذكور فى غير هذا الموضع وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور وفى صفة من يجوز له التقليد تفصيل ونزاع ليس هذا موضعه والمقصود هنا ان التقليد المحرم بالنص والاجماع أن يعارض قول الله ورسوله بما يخالف ذلك كائنا من كان المخالف لذلك قال الله تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} {27} يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} {28} لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} {29} وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} {30} الفرقان 27-30 وقال تعالى {يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 223-226

وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ {66} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا {68} الأحزاب 66- 67 وقال تعالى {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} البقرة 166 إلى قوله {وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} البقرة 171 فذكر براءة المتبوعين من اتباعهم في خلاف طاعة الله ذكر هذا بعد قوله {وَالِهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} البقرة 163 فالإله الواحد هو المعبود والمطاع فمن أطاع متبوعا في خلاف ذلك فله نصيب من هذا الذم قال تعالى {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ} لقمان 14 إلى قوله {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} لقمان 15 ثم خاطب الناس بأكل ما في الأرض حلالا طيبا وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان في خلاف ذلك فإنه إنما يأمر بالسوء والفحشاء وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون فيقولوا هذا حرام وهذا حلال أو غير ذلك مما يقولونه على الله في الأمور الخبرية والعملية بلا علم كما قال تعالى {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ} النحل 116 ثم إن هؤلاء الذين يقولون على الله بغير علم إذا قيل لهم {اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْتَبِعُ مَا أَفِينَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا} البقرة 170 فليس عندهم علم بل عندهم اتباع سلفهم وهو الذي اعتادوه وتربوا عليه ثم خاطب المؤمنين خصوصا فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} {172} إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ {173} البقرة 172-173 فأمرهم بأكل الطيبات مما رزقهم لأنهم هم المقصودون بالرزق ولم يشترط الحل هنا لأنه إنما حرم ما ذكر فما سواه حلال لهم والناس إنما أمرهم بأكل ما في الأرض حلالا طيبا وهو إنما أحل للمؤمنين والكفار لم يحل لهم شيئا فالحل مشروط بالايمان ومن لم يستعن برزقه على عبادته لم يحل له شيئا وإن كان أيضا لم يحرمه فلا يقال إن الله أحله لهم ولا حرمه وإنما حرم على الذين هادوا ما ذكره في سورة الأنعام ولهذا أنكر في سورة الأنعام وغيرها على من حرم ما لم يحرمه كقوله {قُلِ الَّذِينَ حَرَّمَ آمُ الْمُؤْمِنِينَ} الأنعام 143 ثم قال {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرِ} الأنعام 146 ثم قال تعالى {قُلِ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} الأنعام 151 الآيات وقال في سورة النحل {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} النحل 118 الآية وأخبر أنه حرم ذلك ببيغهم فقال {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} النساء 160 وقال {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِغْيِهِمْ} الأنعام 146 وهذا كله يدل على أصح قولى العلماء وهو أن هذا التحريم باق عليهم بعد مبعث محمد لا يزول إلا بمتابعته لأنه تحريم عقوبة على ظلمهم وبيغهم وهذا لم يزل بل زاد وتغلظ فكانوا أحق بالعقوبة وايضا فان الله تعالى أخبر بهذا التحريم بعد مبعث محمد ليبين أنه لم يحرم إلا هذا وهذا فلو كان ذلك التحريم قد زال لم يستثنه وايضا فان التحريم لا يزول الا بتحليل منه وهو انما أحل أكل الطيبات للمؤمنين بقوله {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} المائدة 93 الآية وقوله {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}

غَيْرَ مُحَلِّي الصَّبْدِ { المائدة 1 وقوله { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ { المائدة 4 الى قوله { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلُّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلُّ لَهُمْ { المائدة 5 وهذا خطاب للمؤمنين ولهذا قال { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلُّ لَكُمْ { المائدة 5 ثم قال { وَطَعَامُكُمْ حَلُّ لَهُمْ { المائدة 5 فلو كان ما أحل لنا حلالا لهم لم يحتج الى هذا وقوله { وَطَعَامُكُمْ حَلُّ لَهُمْ { المائدة 5 لا يدخل فيه ما حرم عليهم كما أن قوله { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلُّ لَكُمْ { المائدة 5 لا يدخل فيه ما حرم علينا مما يستحلونه هم كصيد الحرم وما أهل به لغير الله وهل يدخل في طعامهم الذي أحل لنا ما حرم عليهم ولم يحرم علينا مثل ما اذا ذكوا الابل هذا فيه نزاع معروف فالمشهور من مذهب مالك هو أحد القولين في مذهب أحمد تحريمه ومذهب ابي حنيفة والشافعي والقول الآخر في مذهب أحمد حله وهل العلة انهم لم يقصدوا ذكاته أو العلة انه ليس من طعامهم فيه نزاع وإذا ذبحوا للمسلم فهل هو كما اذا ذبحوا لأنفسهم فيه نزاع وفي جواز ذبحهم النسك اذا كانوا ممن يحل ذبحهم قولان هما روايتان عن أحمد فالمنع مذهب مالك والجواز مذهب ابي حنيفة والشافعي فاذا كان الذابح يهوديا صار في الذبح علتان وليس هذا موضع هذه المسائل ثم إنه سبحانه لما ذكر حال من يقول على الله بلا علم بل تقليدا لسلفه ذكر حال من يكتم ما أنزل الله من البيّنات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب فقال { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ { البقرة 174 فهذا حال من كتم علم الرسول وذاك حال من عدل عنها الى خلافها والعاقل عنها الى خلافها يدخل فيه من قلد أحدا من الأولين والآخرين فيما يعلم أنه خلاف قول الرسول سواء كان صاحبها أو تابعا أو أحد الفقهاء المشهورين الأربعة أو غيرهم وأما من ظن أن الذين قلدوه موافقون للرسول فيما قالوه فان كان قد سلك في ذلك طريقا علميا فهو مجتهد له حكم أمثاله وإن كان متكلمًا بلا علم فهو من المذمومين ومن إدعى إجماعا يخالف نص الرسول من غير نص يكون موافقا لما يدعيه واعتقد جواز مخالفة أهل الاجماع للرسول برأيهم وأن الاجماع ينسخ النص كما تقوله طائفة من أهل الكلام والرأى فهذا من جنس هؤلاء وأما إن كان يعتقد أن الاجماع يدل على نص لم يبلغنا يكون ناسخا للأول فهذا وإن كان لم يقل قولاً سديدا فهو مجتهد في ذلك يبين له فساد ما قاله كمن عارض حديثا صحيحا بحديث ضعيف اعتقد صحته فان قوله وإن لم يكن حقا لكن يبين له ضعفه وذلك بان يبين له عدم الاجماع المخالف للنص او يبين له انه لم تجتمع الأمة على مخالفة نص إلا ومعها نص معلوم يعلمون أنه الناسخ للأول فدعوى تعارض النص والاجماع باطلة ويبين له أن مثل هذا لا يجوز فان النصوص معلومة محفوظة والأمة مأمورة بتبعتها واتباعها وأما ثبوت الاجماع على خلافها بغير نص فهذا لا يمكن العلم بان كل واحد من علماء المسلمين خالف ذلك النص والاجماع نوعان قطعي فهذا لا سبيل الى أن يعلم اجماع قطعي على خلاف النص واما الظني فهو الاجماع الاقراى والاستقرائى بأن يستقرى أقوال العلماء فلا يجد في ذلك خلافا او يشتهر القول في القرآن ولا يعلم احدا أنكره فهذا الاجماع وإن جاز الاحتجاج به فلا يجوز أن تدفع النصوص المعلومة به لأن هذا

حجة ظنية لا يجزم الانسان بصحتها فانه لا يجزم بانتفاء المخالف وحيث قطع بانتفاء المخالف فالاجماع قطعى وأما إذا كان يظن عدمه ولا يقطع به فهو حجة ظنية والظنى لا يدفع به النص المعلوم لكن يحتج به ويقدم على ما هو دونه بالظن ويقدم عليه الظن الذى هو أقوى منه فمتى كان ظنه لدلالة النص أقوى من ظنه بثبوت الاجماع قدم دلالة النص ومتى كان ظنه للإجماع أقوى قدم هذا والمصيب فى نفس الأمر واحد وإن كان قد نقل له فى المسألة فروع ولم يتعين صحته فهذا يوجب له أن لا يظن الاجماع إن لم يظن بطلان ذلك النقل وإلا فمتى جوز ان يكون ناقل النزاع صادقا وجوز أن يكون كاذبا يبقى شاكا فى ثبوت الاجماع ومع الشك لا يكون معه علم ولا ظن بالاجماع ولا تدفع الأدلة الشرعية بهذا المشتبه مع أن هذا لا يكون فلا يكون قط إجماع يجب اتباعه مع معارضته لنص آخر لا مخالف له ولا يكون قط نص يجب اتباعه وليس فى الأمة قائل به بل قد يخفى القائل به على كثير من الناس قال الترمذى كل حديث فى كتابى قد عمل به بعض أهل العلم إلا حديثين حديث الجمع وقتل الشارب ومع هذا فكلا الحديثين قد عمل به طائفة وحديث الجمع قد عمل به أحمد وغيره ولكن من ثبت عنده نص ولم يعلم قائلًا به وهو لا يدري أجمع على نقيضه أم لا فهو بمنزلة من رأى دليلا عارضه آخر وهو بعد لم يعلم رجحان أحدهما فهذا يقف الى ان يتبين له رجحان هذا أو هذا فلا يقول قولًا بلا علم ولا يتبع نصًا مع ظن نسخه وعدم نسخه عنده سواء لما عارضه عنده من نص آخر أو ظن اجماع ولا عاما ظن تخصيصه وعدم تخصيصه عنده سواء فلا بد أن يكون الدليل سالما عن المعارض المقاوم فيغلب على ظنه نفى المعارض المقاوم وإلا وقف وأيضا فمن ظن أن مثل هذا الاجماع يحتج به فى خلاف النص إن لم يترجح عنده ثبوت الاجماع أو يكون معه نص آخر ينسخ الأول وما يظنه من الاجماع معه وأكثر مسائل أهل المدينة التى يحتجون فيها بالعمل يكون معهم فيها نص فالنص الذى معه العمل مقدم على الآخر وهذا هو الصحيح فى مذهب أحمد وغيره كتقديم حديث عثمان لا ينكح المحرم على حديث ابن عباس وأمثال ذلك وأما رد النص بمجرد العمل فهذا باطل عند جماهير العلماء وقد تنازع الناس فى مخالف الاجماع هل يكفر على قولين والتحقيق أن الاجماع المعلوم يكفر مخالفه كما يكفر مخالف النص بتركه لكن هذا لا يكون إلا فيما علم ثبوت النص به وأما العلم بثبوت الاجماع فى مسألة لا نص فيها فهذا لا يقع وأما غير المعلوم فيمتنع تكفيره وحينئذ فالاجماع مع النص دليلان كالكتاب والسنة وتنازعا فى الاجماع هل هو حجة قطعية أو ظنية والتحقيق أن قطعية قطعية وظنية ظنى والله أعلم وقد ذكر نظير هذه الآية فى سورة المائدة وذكر فى سورة الزخرف قوله {أَوَلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ} الزخرف 24 وهذا يتناول من بين له أن القول الآخر هو أهدى من القول الذى نشأ عليه فعليه أن يتبعه كما قال {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ} الزمر 55 وقال {فَخَذُّهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا} الأعراف 145 وقال {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} الزمر 18 والواجب فى الاعتقاد أن يتبع أحسن القولين ليس لأحد أن يعتقد قولًا وهو يعتقد أن القول المخالف له أحسن منه وما خير فيه بين فعلين وأحدهما أفضل فهو أفضل وإن جاز له فعل

المفضول فعليه أن يعتقد أن ذلك أفضل ويكون ذاك أحب إليه من هذا وهذا اتباع للأحسن وإذا نقل عالم الاجماع ونقل آخر النزاع إما نقلا سمي قائله وإما نقلا بخلاف مطلقا ولم يسم قائله فليس لقائل أن يقول نقلا لخلاف لم يثبت فانه مقابل بأن يقال ولا يثبت نقل الاجماع بل ناقل الاجماع ناف للخلاف وهذا مثبت له والمثبت مقدم على النافى وإذا قيل يجوز فى ناقل النزاع أن يكون قد غلط فيما أثبتته من الخلاف إما لضعف الاسناد أو لعدم الدلالة قيل له ونافى النزاع غلظه أجوز فانه قد يكون فى المسألة أقوال لم تبلغه أو بلغته وظن ضعف اسنادها وكانت صحيحة عند غيره أو ظن عدم الدلالة وكانت دالة فكلما يجوز على المثبت من الغلط يجوز على النافى مع زيادة عدم العلم بالخلاف وهذا يشترك فيه عامة الخلاف فان عدم العلم ليس علما بالعدم لا سيما فى أقوال علماء أمة محمد التى لا يحصيها الا رب العالمين ولهذا قال أحمد وغيره من العلماء من ادعى الاجماع فقد كذب هذه دعوى المريسي والأصم ولكن يقول لا أعلم نزاعا والذين كانوا يذكرون الاجماع كالشافعى وأبى ثور وغيرهما يفسرون مرادهم بأننا لا نعلم نزاعا ويقولون هذا هو الاجماع الذى ندعيه فنتبين أن مثل هذا الاجماع الذى قوبل بنقل نزاع ولم يثبت واحد منهما لا يجوز أن يحتج به ومن لم يترجح عنده نقل مثبت النزاع على نافية ولا نافية على مثبتة فليس له أيضا أن يقدمه على النص ولا يقدم النص عليه بل يقف لعدم رجحان أحدهما عنده فان ترجح عنده المثبت غلب على ظنه ان النص لم يعارضه إجماع يعمل به وينظر فى ذلك الى مثبت الاجماع والنزاع فمن عرف منه كثرة ما يدعيه من الاجماع والأمر بخلافه ليس بمنزله من لم يعلم منه اثبات اجماع علم انتفاؤه وكذلك من علم منه فى نقل النزاع أنه لا يغلط الا نادرا ليس بمنزلة من علم منه كثرة الغلط وإذا تظافر على نقل النزاع اثنان لم يأخذ احدهما عن صاحبه فهذا يثبت به النزاع بخلاف دعوى الاجماع فانه لو تظافر عليه عدد لم يستفد بذلك إلا عدم علمهم بالنزاع وهذا لمن أثبت النزاع فى جمع الثلاث ومن نفى النزاع مع أن عامة من أثبت النزاع يذكر نقلا صحيحا لا يمكن دفعه وليس مع النافى ما يبطله وكثير من الفقهاء المتأخرين أو أكثرهم يقولون انهم عاجزون عن تلقى جميع الأحكام الشرعية من جهة الرسول فيجعلون نصوص أئمتهم بمنزلة نص الرسول ويقلدونهم ولا ريب ان كثيرا من الناس يحتاج الى تقليد العلماء فى الأمور العارضة التى لا يستقل هو بمعرفتها ومن سالكى طريق الارادة والعبادة والفقير والتصوف من يجعل شيخه كذلك بل قد يجعله كالمعصوم ولا يتلقى سلوكه الا عنه ولا يتلقى عن الرسول سلوكه مع أن تلقى السلوك عن الرسول أسهل من تلقى الفروع المتنازع فيها فان السلوك هو بالطريق التى أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق وهذا كله مبين فى الكتاب والسنة فان هذا بمنزلة الغذاء الذى لا بد للمؤمن منه ولهذا كان جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول لا يحتاجون فى ذلك الى فقهاء الصحابة ولم يحصل بين الصحابة نزاع فى ذلك كما تنازعوا فى بعض مسائل الفقه التى خفيت معرفتها على أكثر الصحابة وكانوا يتكلمون فى الفتيا والاحكام طائفة منهم يستفتون فى ذلك وأما ما يفعله من يريد التقرب الى الله من واجب ومستحب فكلهم يأخذة عن الكتاب والسنة فان القرآن والحديث مملوء من

هذا وإن تكلم أحدهم فى ذلك بكلام لم يسنده هو يكون هو أو معناه مسندا عن الله ورسوله وقد ينطق أحدهم بالكلمة من الحكمة فتجدها مأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وهذا كما قيل فى تفسير قوله نور على نور ولكن كثير من أهل العبادة والزهادة أعرض عن طلب العلم النبوى الذى يعرف به طريق الله ورسوله فأحتاج لذلك الى تقليد شيخ

وفى السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ لكن يوجد فى الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب فى ذلك ما يفهمه غالب السالكين فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة فى الكتاب والسنة وانما إختلف أهل الكلام لما أعرضوا عن الكتاب والسنة فلما دخلوا فى البدع وقع الاختلاف وهكذا طريق العبادة عامة ما يقع فيه من الاختلاف انما هو بسبب الاعراض عن الطريق المشروع فيقع فيهم الخلاف وهكذا الفقه انما وقع فيه الاختلاف لما خفى عليهم بيان صاحب الشرع ولكن هذا انما يقع النزاع فى الدقيق منه وأما الجليل فلا يتنازعون فيه والصحابة أنفسهم تنازعوا فى بعض ذلك ولم يتنازعوا فى العقائد ولا فى الطريق الى الله التى يصير بها الرجل من أولياء الله الأبرار المقربين ولهذا كان عامة المشايخ اذا احتاجوا فى مسائل الشرع مثل مسائل النكاح والفرائض والطهارة وسجود السهو ونحو ذلك قلدوا الفقهاء لصعوبة أخذ ذلك عليهم من النصوص وأما مسائل التوكل والاخلاص والزهد ونحو ذلك فهم يجتهدون فيها فمن كان منهم متبعا للرسول أصاب ومن خالفه أخطأ ولا ريب أن البدع كثرت فى باب العبادة والارادة اعظم مما كثرت فى باب الاعتقاد والقول لأن الارادة يشترك الناس فيها اكثر مما يشتركون فى القول فان القول لا يكون الا بعقل والنطق من خصائص الانسان وأما جنس الارادة فهو مما يتصف به كل الحيوان فما من حيوان الا وله ارادة وهؤلاء اشتركوا فى ارادة التأله لكن اختلفوا فى المعبود وفى عبادته ولهذا وصف الله فى القرآن رهبانية النصارى بأنهم ابتدعوها وذب المشركين فى القرآن على ما ابتدعوه من العبادات والتحريمات وذلك اكثر مما ابتدعوه من الاعتقادات فان الاعتقادات كانوا فيها جهالا فى الغالب فكانت بدعهم فيها أقل ولهذا كلما قرب الناس من الرسول كانت بدعهم أخف فكانت فى الأقوال ولم يكن فى التابعين وتابعيهم من تعبد بالرقص والسماع كما كان فيهم خوارج ومعتزلة وشيعة وكان فيهم من يكذب بالقدر ولم يكن فيهم من يحتج بالقدر فالبدع الكثيرة التى حصلت فى المتأخرين من العباد والزهاد والفقراء والصوفية لم يكن عامتها فى زمن التابعين وتابعيهم بخلاف أقوال اهل البدع القولية فانها ظهرت فى عصر الصحابة والتابعين فعلم أن الشبهة فيها أقوى وأهلها أعقل وأما بدع هؤلاء فاهلها اجهل وهم أبعد عن متابعة الرسول ولهذا يوجد فى هؤلاء من يدعى الالهية والحلول والاتحاد ومن يدعى أنه أفضل من الرسول وأنه مستغن عن الرسول وأن لهم الى الله طريقا غير طريق الرسول وهذا ليس من جنس بدع المسلمين بل من جنس بدع الملاحدة من المتفلسفة ونحوهم وأولئك قد عرف الناس أنهم ليسوا مسلمين وهؤلاء يدعون أنهم أولياء الله مع هذه الأقوال التى لا يقولها الا من هو أكفر من اليهود والنصارى وكثير منهم أو أكثرهم لا يعرف ان ذلك مخالفة للرسول بل عند طائفة منهم أن أهل الصفة قاتلوا الرسول وأقرهم على ذلك وعند آخرين أن

الرسول أمر أن يذهب ليسلم عليهم ويطلب الدعاء منهم وانهم لم يأذنوا له وقالوا اذهب الى من ارسلت اليهم وانه رجع الى ربه فأمره ان يتواضع ويقول خويدمكم جاء ليسلم عليكم فجبروا قلبه وأذنوا له بالدخول فمع اعتقادهم هذا الكفر العظيم الذى لا يعتقده يهودى ولا نصرانى يقر بانه رسول الله الى الأميين يقولون ان الرسول أقرهم على ذلك واعترف به واعترف انهم خواص الله وأن الله يخاطبهم بدون الرسول لم يحوجهم اليه كبعض خواص الملك مع وزرائه ويحتجون بقصة الخضر مع موسى وهى حجة عليهم لا لهم من وجوه كثيرة قد بسطت فى موضع آخر والضلال والجهل فى جنس العباد والمبتدعة أكثر منه فى جنس اهل الأقوال لكن فيهم من الزهد والعبادة والأخلاق مالا يوجد فى أولئك وفى أولئك من الكبر والبخل والقسوة ما ليس فيهم فهؤلاء فيهم شبه من النصارى وهؤلاء فيهم شبه من اليهود والله تعالى أمرنا ان نقول {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 ولهذا آل الأمر بكثير من اكابر مشايخهم الى انهم شهدوا توحيد الربوبية والايمان بالقدر وذلك شامل لجميع الكائنات فعدوا الفناء فى هذا بزوال الفرق بين الحسنات والسيئات غاية المقامات وليس بعده الا ما سموه توحيدا وهو من جنس الحلول والاتحاد الذى تقوله النصارى ولكنهم يهابون الافصاح عن ذلك ويجعلونه من الأسرار المكتومة ومنهم من يقول ان الحلاج هذا كان مشهده وانما قتل لأنه باح بالسر الذى ما ينبغى البوح به واذا انضم الى ذلك ان يكون أحدهم قد أخذ عن يتكلم فى إثبات القدر من أهل الكلام أو غيرهم ويجعل الجميع صادرا عن ارادة واحدة وليس هنا حب ولا بغض ولا رضا ولا سخط ولا فرح ولكن المرادات متنوعة فما كان ثوبا سمي تعلق الارادة به رضا وما كان عقابا سمي سخطا فيجنئذ مع هذا المشهد لا يبقى عنده تمييز ويسمون هذا الجمع والاصطلام وكان الجنيد قدس الله روحه لما وصل أصحابه كالثورى وأمثاله الى هذا المقام امرهم بالفرق الثانى وهو ان يفرقوا بين المأمور والمحظور ومحبوب الله ومرضيه ومسخوطه ومكروهه وهو مشهد الالهية الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وهو حقيقة قول لا اله الا الله فمنهم من انكر على الجنيد ومنهم من توقف ومنهم من وافق والصواب ما قاله الجنيد من ذكر هذه الكلمة فى الفرق بين المأمور والمحظور والكلمة الاخرى فى الفرق بين الرب والعبد وهو قوله التوحيد أفراد الحدوث عن القدم فهذا رد على الاتحادية والحلولية منهم وتلك رد على من يقف عند الحقيقة الكونية منهم وما اكثر من ابتلى بهذين منهم ثم من الناس من يقوم بهذا الفرق لكن لنفسه وهواه لا عبادة وطاعة لله فهذا مثل من يجاهد ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لهواه كالمقاتل شجاعة وحمية ورياء وذاك بمنزلة من لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ولا يجاهد هذا شبيه بالراهب وذاك شبيه بمن لم يطلب الا الدنيا ذاك مبتدع وهذا فاجر وقد كثر فى المتزهدة والمتفكرة البدع وفى المعرضين عن ذلك طلب الدنيا وطلاب الدنيا لا يعارضون تاركها الا لأغراضهم وإن كانوا مبتدعة وأولئك لا يعارضون ابناء الدنيا الا لأغراضهم فتبقى المنازعات للدنيا لا لتكون كلمة الله هى العليا ولا ليكون الدين لله بخلاف طريقة السلف رضى الله عنهم أجمعين وكلاهما خارج عن الصراط المستقيم نسأل الله أن يهدينا الصراط

المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً
آخره والحمد لله رب العالمين¹

صور ممن يدعون محبته وهم خارجون عن شريعته

1- ظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له

أنزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 فلا يكون محبا إلا من يتبع رسوله وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية وكثير ممن ادعى المحبة يخرج عن شريعته وسنته ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضوع لذكره حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته بل قد جعل محبة الله ومحبة رسوله الجهاد في سبيله و الجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به وكمال بغض ما نهى الله عنه ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه {أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} المائدة 54 ولهذا كانت محبة هذه الأمة أكمل من محبة من قبلها وعبوديتهم أكمل من عبودية من قبلهم وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل²

2- يستحبون السماع بالغناء ويرونه قرابة

وهؤلاء (والجهمية والقدرية) يدعون محبة الله في الإبتداء ويعظمون أمر محبته ويستحبون السماع بالغناء والدفوف والشبابات ويرونه قرابة لأن ذلك بزعمهم يحرك محبه الله في قلوبهم وإذا حقق أمرهم وجدت محبتهم تشبه محبة المشركين لا محبة الموحدين فإن محبة الموحدين بمتابعة الرسول والمجاهدة في سبيل الله {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31 وقال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة 24 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} المائدة 54 وهؤلاء لا يحققون متابعة الرسول ولا الجهاد في سبيل الله بل كثير منهم أو أكثرهم يكرهون متابعة الرسول وهم من أبعد الناس عن الجهاد في سبيل الله بل يعاونون أعداءه ويدعون محبته لأن محبتهم من جنس محبة المشركين الذين

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 271- 279

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 395

قال الله فيهم { وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً } الأنفال 35 ولهذا يحبون سماع القصائد أعظم مما يحبون سماع القرآن ويجتهدون في دعاء مشايخهم والإستعانة بهم عند قبورهم وفي حياتهم في مغيبهم أعظم مما يجتهدون في دعاء الله والإستعانة به في المساجد والبيوت وهذا كله من فعل أهل الشرك ليس من فعل المخلصين لله دينهم كالصحابية والتابعين لهم بإحسان فأولئك أنكروا محبته وهؤلاء دخلوا في محبة المشركين والطائفتان خارجتان عن الكتاب والسنة فنفس محبته أصل لعبادته والشرك في محبته أصل الإشراف في عبادته وأولئك فيهم شبه من اليهود وعندهم كبر من جنس كبر اليهود وهؤلاء فيهم شبه من النصارى وفيهم شرك من جنس شرك النصارى¹

3- الزعم بأن كلام الله ومحبته مخلوقات له

وما يزعجه الجهمية والمعتزلة من أن كلامه وإرادته ومحبته وكرهه ورضاه وغضبه وغير ذلك كل ذلك مخلوقات له منفصلة عنه هو مما أنكره السلف عليهم وجمهور الخلف بل قالوا إن هذا من الكفر الذي يتضمن تكذيب الرسول وجود ما يستحقه الله من صفاته وكلام السلف في رد هذا القول بل وإطلاق الكفر عليه كثير منتشر وكذلك لم يقل السلف إن غضبه على فرعون وقومه قديم ولا أن فرحه بتوبة التائب قديم وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الجزاء لعباده على الطاعة والمعصية من رضاه وغضبه لم يقل أحد منهم إنه قديم فإن الجزاء لا يكون قبل العمل والقرآن صريح بأن أعمالهم كانت سببا لذلك كقوله { فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ } الزخرف 55 وقوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } محمد 28 وقوله { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ } فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ { آل عمران 31 } وأمثال ذلك بل قد ثبت في الصحيحين من حديث الشفاعة أن كلا من الرسل يقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وفي الصحيحين عن زيد بن خالد قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح في إثر سماء كانت من الليل فلما انفتل من صلاته قال أتدرون ماذا قال ربكم الليلة قلنا الله ورسوله أعلم قال فإنه قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالكوكب ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بي مؤمن بالكوكب وفي الصحيح الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه وفي القرآن والحديث من هذا ما يطول ذكره وقد بسطنا هذا في كتاب درء تعارض العقل والنقل وغيره²

4- الذي يقول أنه من المرادين لله وهو لا يقصد إتباع الرسول

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 328-329

² منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 422-423

والله تعالى قد جعل محبته موجبة لإتباع رسوله فقال **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}** **{آل عمران 31}** و هذا لأن الرسول هو الذي يدعو الى ما يحبه الله و ليس شيء يحبه الله إلا و الرسول يدعو إليه و ليس شيء يدعو إليه الرسول إلا و الله يحبه فصار محبوب الرب و مدعو الرسول متلازمين بل هذا هو هذا في ذاته و إن تنوعت الصفات فكل من ادعى أنه يحب الله و لم يتبع الرسول فقد كذب ليست محبته لله و حده بل إن كان يحبه فهي محبة شرك فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود و النصارى محبة الله فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين و هكذا أهل البدع فمن قال أنه من المریدين لله المحبين له و هو لا يقصد إتباع الرسول والعمل بما أمر به وترك ما نهى عنه فمحبته فيها شوب من محبة المشركين و اليهود و النصارى بحسب ما فيه من البدعة فإن البدع التي ليست مشروعة و ليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر و أيضا فمن تمام محبة الله و رسوله بغض من حاد الله و رسوله و الجهاد في سبيله لقوله تعالى **{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}** {المجادلة 22} و قال تعالى **{نَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}** {80} **{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}** {81} {المائدة 80-81} و قال تعالى **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ}** {الممتحنة 4} فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم و من معه حيث أبدوا العداوة و البغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله و حده فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة و لا يستقبح سيئة و هؤلاء سلكوا طريق الإرادة و المحبة مجملا من غير إعتصام بالكتاب و السنة كما سلك أهل الكلام و الرأي طريق النظر و البحث من غير إعتصام بالكتاب و السنة فوقع هؤلاء في ضلالات و هؤلاء في ضلالات كما قال تعالى **{فَأِمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}** {123} **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}** {124} **{قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}** {125} **{قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى}** {126} **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}** {الأنعام 153} و قال **{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}** {الإسراء 9} **{قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}** {يونس 108} ومثل هذا كثير في القرآن و قد بسط الكلام على هذا الأصل في غير هذا الموضع¹

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 360-362

الذنوب تنقص من محبة الله تعالى لكن لا تزيل

محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} آل عمران 31 فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى علي عباده وأحبه وهو سبحانه أعظم شيء بغضا لمن لم يتبع رسوله فمن كان صادقا في دعوى محبة الله اتبع رسوله لا محالة وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما الذنوب تنقص من محبة الله والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب حديث حمار الذي كان يشرب الخمر وكان النبي يقيم عليه الحد فلما كثر ذلك منه لعنه رجل فقال النبي لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله وفيه دلالة علي أنا منهيون عن لعنة أحد بعينه وإن كان مذنبا إذا كان يحب الله ورسوله فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات والمعاصي تنقص المحبة وهذا معني قول الشبلي لما سئل عن المحبة فقال ما غنت به جارية فلان تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس شنيع لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع وهذا كقوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حيث يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن¹

أن الله يحب ويحب

والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الامة وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين أن الله يحب ويحب كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله وقوله {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31 بل لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده وهذا من معني كونه معبودا فحيث جاء القرآن بالامر بالعبادة والثناء على أهلها أو على المنيبين الى الله والتوايين اليه أو الأوابين أو المطمئنين بذكره أو المحبين له ونحو ذلك فهذا كله يتضمن محبته وما لا يحب ممتنع كونه معبودا ومألوها ومطمأنا بذكره ومن أطيع لعوض يؤخذ منه أو لدفع ضرره فهذا ليس بمعبود ولا إله بل قد يكون الشخص كافرا وظالما ييغض ويلعن ومع هذا يعمل معه عامل بعوض فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك فلم يثبت الرب إليها معبودا ولا ربا محمودا وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة والله سبحانه وتعالى رغب في عبادته والعمل له بما ذكره من الوعد ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد وهو حق لكنه لم يقل ان العابد لله والعامل له لا يحصل له إلا ما ذكر بل وقد قال تعالى فلا

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 72-73

تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر نخرنا بله ما أطلعتهم عليه اقرءوا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله يا أهل الجنة ان لكم عندي موعدا أريد أن أنجزكموه فيقولون ما هو ألم تنضر وجوهنا وتنقل موازيننا وتدخلنا الجنة وتجربنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر اليه وهي الزيادة وفي الحديث الذي رواه النسائي لما صلى عمار فأوجز وقال دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وقرّة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين وروى نحو هذا من وجه آخر فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لم يعط أهل الجنة أحب إليهم من النظر اليه وسن أن يدعى بلذة النظر الى وجهه الكريم وأهل الجنة قد تتعموا من أنواع النعيم بالمخلوقات بما هو غاية النعيم فلما كان نظرهم إليه أحب اليهم من كل أنواع النعيم علم أن لذة النظر إليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات والجنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين فما لذت أعينهم بأعظم من لذتها بالنظر اليه واللذة تحصل بادراك المحبوب فلو لم يكن أحب اليهم من كل شيء ما كان النظر اليه أحب اليهم من كل شيء وكانت لذته أعظم من كل لذة والعدوان في الارادة والعبادة والعمل حصل من إعراضهم عن العلم الشرعي واتباع الرسول وقد قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31 قال بعضهم ليس الشأن في أن تحبه الشأن في أن يكون هو يحبك وهو إنما يحب من اتبع الرسول وإلا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون أنهم يحبونه وأولئك غلطوا بنفي محبته وهؤلاء أثبتوا محبة شركية لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة وقد قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ} البقرة 165 فالأقسام ثلاثة أولئك معطلة للمحبة وحقيقة قولهم تعطيل العبادة مطلقا وهؤلاء مشركون في المحبة فهم مشركون في العبادة أولئك مستكبرون عن عبادته والكبر لليهود وهؤلاء مشركون في عبادته والشرك للنصارى وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين بل الاسلام هو الاستسلام لله وحده¹

¹النبوات ج: 1 ص: 71-73

قد يكون الرجل عدوا لله ثم يصير وليا لله

وأما الجمهور فيقولون الولاية والعداوة وإن تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه فهو سبحانه يرضى عن الإنسان ويحبه بعد أن يؤمن ويعمل صالحا وانما يسخط عليه ويغضب بعد أن يكفر كما قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} محمد 28 فأخبر أن الأعمال اسخطته وكذلك قال {فَلَمَّا أَسْفُونَا ائْتَمَمْنَا مِنْهُمْ} الزخرف 55 قال المفسرون اغضبونا وكذلك قال الله تعالى {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} الزمر 7 وفى الحديث الصحيح الذي فى البخاري عن ابى هريرة عن النبي أنه قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعاضنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه فأخبر أنه لا يزال يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه ثم قال فإذا أحببته كنت كذا وكذا وهذا يبين أن حبه لبعده إنما يكون بعد أن يأتي بمحابه والقرآن قد دل على مثل ذلك قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 فقله {يُحِبُّكُمْ} آل عمران 31 جواب الأمر فى قوله فاتبعونى وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط ولهذا جزم وهذا ثواب عملهم وهو اتباع الرسول فاتابهم على ذلك بأن أحبهم وجزاء الشرط وثواب العمل ومسبب السبب لا يكون إلا بعده لا قبله وهذا كقوله تعالى {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} غافر 60 ومثل هذا كثير وكذلك قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} 2 {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} 3 {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا} 4 {الصف 2-4} وكانوا قد سأله لو علمنا أى العمل أحب إلى الله لعملناه وقوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} غافر 10 فهذا يدل على أن حبه ومقته جزاء لعملهم وأنه يحبهم إذا التقوا وقاتلوا ولهذا رغبهم فى العمل بذلك كما يرغبهم بسائر ما يعدهم به وجزاء العمل بعد العمل وكذلك قوله {إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} غافر 10 فإنه سبحانه يمقتهم إذ يدعون الى الإيمان فيكفرون ومثل هذا قوله {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} الفتح 18 فقله {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ} الفتح 18 بين أنه رضى عنهم هذا الوقت فإن حرف {إِذْ} الفتح 18 ظرف لما مضى من الزمان فعلم أنه ذاك الوقت رضى عنهم بسبب ذلك العمل وأثابهم عليه والمسبب لا يكون قبل سببه والموقت بوقت لا يكون قبل وقته وإذا كان راضيا عنهم من جهة فهذا الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن إلا حينئذ كما ثبت فى الصحيح أنه يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة هل رضيتم فيقولون يا ربنا ومالنا لا نرضى وقد اعطينتنا ما لم تعط احدا من خلقك فيقول الا اعطيكم ما هو أفضل من ذلك فيقولون يا ربنا واي شىء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا وهذا يدل على أنه

فى ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان الذى لا يتعبه سخط أبداً ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعبه سخط وفي الصحيحين فى حديث الشفاعة يقول كل من الرسل إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وفي الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فلم يطلبها فلم يجدها فإضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ إذا دابته عليها طعامه وشرابه وفي رواية كيف تجدون فرحه بها قالوا عظيماً يارسول الله قال الله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته وكذلك ضحكته إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة وضحكه إلى الذى يدخل الجنة آخر الناس ويقول أتسخر بي وأنت رب العالمين فيقول لا ولكني على ما أشاء قادر وكل هذا فى الصحيح وفى دعاء الفتوت تولني فيمن توليت والقديم لا يتصور طلبه وقد قال تعالى {إِنَّ وَلِيَّيَ اللّٰهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} الأعراف 196 وقال {وَاللّٰهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} الجاثية 19 فهذا التولي لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه فلا يكون متقدماً عليه وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله واحسانه لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين فدل على أن هذا التولي هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين وهكذا الرحمة قال الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء قال الترمذي حديث صحيح وكذلك قوله {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} الزمر 7 علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب والجزاء إنما يكون بعد الشرط¹ فمن يقولون إن حب الله وبعضه ورضاه وسخطه ولايته وعاوته إنما يتعلق بالموافاة فقط فالله يحب من علم أنه يموت مؤمناً ويرضى عنه ويواليه بحب قديم وموالاته قديمة ويقولون إن عمر حال كفره كان ولياً لله وهذا القول معروف عن ابن كلاب ومن تبعه كالأشعري وغيره وأكثر الطوائف يخالفونه فى هذا فيقولون بل قد يكون الرجل عدواً لله ثم يصير ولياً لله ويكون الله يبعضه ثم يحبه وهذا مذهب الفقهاء والعامة وهو قول المعتزلة والكرامية والحنفية قاطبة وقدماء المالكية والشافعية والحنبلية وعلى هذا يدل القرآن كقوله {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ} آل عمران 31 {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} الزمر 7 وقوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا} النساء 137 فوصفهم بكفر بعد إيمان وإيمان بعد كفر وأخبر عن الذين كفروا أنهم كفار وأنهم إن إنتهوا يغفر لهم ما قد سلف وقال {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} الزخرف 55 وقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} محمد 28 وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة تقول الأنبياء إن ربي قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وفى دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس وغيره فإن كنت رضية عنى فأزدد عنى رضا وإلا فمن الآن فارض عنى وبعضهم

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 443-445

حذف فارض عني فظن بعض الفقهاء أنه فمن الآن أنه من المن و هو تصحيف و إنما هو من حروف الجر كما في تمام الكلام و إلا فمن الآن فارض عني فبين أنه يزداد رضا و أنه يرضى في وقت محدود و شواهد هذا كثيرة و هو مبسوط في مواضع¹

محبة التوحيد

فإن الحى لا بد له من ارادة فلا يمكن حيا أن لا تكون له إرادة فإن الإرادة التى يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر إستحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له والله تعالى وصف الأنبياء والصدقيين بهذه الإرادة فقال تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} {الأنعام 52} وقال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {الذاريات 56} ولا عبادة إلا بإرادة الله ولما أمر به وقال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} {البقرة 112} أى أخلص قصده لله وقال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} {البينة 5} وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة وقال تعالى {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} {المائدة 54} وقال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} {البقرة 165} وقال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} {آل عمران 31} وكل محب فهو مرید²

* ومحبة التوحيد إنما تكون لله وحده على متابعة رسوله كما قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} {آل عمران 31} فلهذا يكون أهل الإلتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم يحبون الله ويبغضون له وهم على ملة إبراهيم والذين معه {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ} {الممتحنة 4} وأولئك محبتهم فيها شرك وليسوا متابعين للرسول ولا مجاهدين في سبيل الله فليست هي المحبة الاخلاصية فإنها مقرونة بالتوحيد³

وليس للخلق محبة أعظم ولا اكمل ولا اتم من محبة المؤمنين لربهم وليس فى الوجود ما يستحق ان يحب لذاته من كل وجه الا الله تعالى وكل ما يحب سواه فمحبتته تبع لحبه فان الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله كما قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} {آل عمران 31} وفى الحديث احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 582-583

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 496

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 614 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 49

وأحبوني لحب الله وأحبوا اهل بيتي لحبي وقال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ { التوبة 24 الى قوله {أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة 24 وقال النبي لا يؤمن احدكم حتى اكون احب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وفي حديث الترمذى وغيره من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 فالذين آمنوا اشدا حبا لله من كل محب لمحبو به والمقصود هنا ان اهل الايمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الايمان ما يناسب هذه المحبة ولهذا علق النبي صلى الله عليه وسلم ما يجدونه بالمحبة فقال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وان يحب المرء لا يحبه الا الله وان يكره ان يعود فى الكفر كما يكره ان يقذف فى النار ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص والتوكل والدعاء لله وحده

1

محبة لله موجبة لمتابعة رسوله

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ولهذا كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله و عما مضت عليه جماعة المسلمين فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله وأمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 31²

فإن المرء على دين خليله {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} آل عمران 31³

الرسول هم الوسائط بين الله وبين عباده

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 649-650 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 81

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 368

³مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 94

فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العلى التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسول الذين أرسلهم الله الى عباده فالمؤمنون بالرسول المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة وأما المخالفون للرسول فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ومثل هذا فى القرآن كثير وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهم الرسل الذين بلغوا عن الله أمره وخبره قال تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} الحج 75 ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل والسور التي أنزلها الله بمكة مثل الأنعام والأعراف وذوات الر و حم و طس ونحو ذلك هي متضمنة لأصول الدين كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل وكيف أهلكهم ونصر رسله والذين آمنوا قال تعالى {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {171} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {172} {وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} {173} الصافات 171-173 وقال {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر 51 فهذه الوسائط تطاع وتتبع ويفتدى بها كما قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31¹

أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله فى أمره ونهيه ووعده ووعده فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله فعلىنا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله²

قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} النساء 59 وقد أوجب طاعته وطاعة رسوله فى أى كثير من القرآن وحرم معصيته ومعصية رسوله ووعده برضوانه ومغفرته ورحمته وجنته على طاعته وطاعة رسوله وأوعد بضد ذلك على معصيته ومعصية رسوله فعلى كل أحد من عالم أو أمير أو عابد أو معامل أن يطيع الله ورسوله فيما هو قائم به من علم أو حكم أو أمر أو نهى أو عمل أو عبادة أو غير ذلك³

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 123

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 307

³مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 309

و التوحيد فى العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعا فنقول لا بد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } الحج 70 وفى الصحيح عن النبي أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته من يطع الرسول فقد أطاع الله وقد قال تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 31

1

ومن تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى وأما حق الرسول فعلينا ان نؤمن به ونطيعه ونتبعه ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه وأمثال ذلك قال تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 31²

وقد قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فالله هو الذي يتوكل عليه ويستعان به ويستغاث به ويخاف ويرجى ويعبد وتتنيب القلوب إليه لا حول ولا قوة إلا به ولا منجى منه إلا إليه والقرآن كله يحقق هذا الأصل والرسول صلى الله عليه وسلم يطاع ويحب ويرضى به ويسلم إليه حكمه ويعزر ويوقر ويتبع ويؤمن به وبما جاء به³

بقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه

ان المحبة لله تحقيق عبوديته وانما يغلط من يغلط فى هذه من حيث يتوهمون ان العبودية مجرد ذل وخضوع فقط لا محبة معه او ان المحبة فيها انبساط فى الأهواء او اذلال لا تحتمله الربوبية ولهذا يذكر عن ذى النون انهم تكلموا عنده فى مسألة المحبة فقال امسكوا عن هذه

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 90

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 110

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 449

المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها وكره من كره من اهل المعرفة والعلم مجالسة اقوام يكثر الكلام في المحبة بلا خشية وقال من قال من السلف من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ولهذا وجد في المستأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى اخرج ذلك الى نوع من الرعونة والدعوى التي تنافى العبودية وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلح الا الله ويدعى احدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين او يطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه الا الله لا يصلح للأنبياء والمرسلين وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ وسببه ضعف تحقيق العبودية التي بينتها الرسل وحررها الامر والنهي الذي جاؤا به بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته واذا ضعف العقل وقل العلم بالدين وفي النفس محبة انبسطت النفس بحمقها في ذلك كما ينبسط الانسان في محبة الانسان مع حمقه وجهله ويقول انا محب فلا أوأخذ بما افعله من انواع يكون فيها عدوان وجهل فهذا عين الضلال وهو شبيه بقول اليهود والنصارى {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} المائدة 18 قال الله تعالى {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ} المائدة 18 فان تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضى انهم غير محبوبين ولا منسويين اليه بنسبه البنوة بل يقتضى انهم مربوبون مخلوقون فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ومن فعل الكبائر واصر عليها ولم يتب منها فان الله يبغض منه ذلك كما يحب منه ما يفعله من الخير اذ حبه للعبد بحسب ايمانه وتقواه ومن ظن ان الذنوب لا تضره يكون الله يحبه مع اصراره عليها كان بمنزلة من زعم ان تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه ولو تدبر الاحمق ما قص الله في كتابه من قصص انبيائه وما جرى لهم من التوبة والاستغفار وما اصابوا به من انواع البلاء الذى فيه تمحيص لهم وتطهير بحسب احوالهم على بعض ضرر الذنوب باصحابها ولو كان ارفع الناس مقاما فان المحب للمخلوق اذا لم يكن عارفا بمصلحته ولا مريدا لها بل يعمل بمقتضى الحب وان كان جهلا وظلما كان ذلك سببا لبغض المحبوب له ونفوره عنه بل لعقوبته وكثير من السالكين سلخوا في دعوى حب الله انواعا من أمور الجهل بالدين اما من تعدى حدود الله واما من تضييع حقوق الله واما من ادعاء الدعوى الباطلة التي لا حقيقة لها كقول بعضهم اى مرید لى ترك فى النار انا منه برىء فقال الآخر اى مرید لى ترك احدنا من المؤمنين يدخل النار فانا منه برىء فالأول جعل مریده يخرج كل من فى النار والثانى جعل مریده يمنع اهل الكبائر من دخول النار ويقول بعضهم اذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم حتى لا يدخلها احد وامثال ذلك من الاقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين وهى اما كذب عليهم اما غلط منهم ومثل هذا قد يصدر فى حال سكر وغلبة وفناء يسقط فيها تمييز الانسان او يضعف حتى لا يدري ما قال و السكر هو لذة مع عدم تمييز ولهذا كان بين هؤلاء من اذا صحا استغفر من ذلك الكلام والذين توسعوا من الشيوخ فى سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعدل والغرام كان هذا اصل مقصدهم ولهذا انزل الله

للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 فلا يكون محبا لله الا من يتبع رسوله وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية وكثير ممن يدعى المحبة يخرج عن شريعته وسنته ويدعى من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضوع لذكره حتى قد يظن احدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته بل قد جعل محبة الله ومحبة رسول الجهاد في سبيله و الجهاد يتضمن كمال محبة ما امر الله به وكمال بغض ما نهى الله عنه ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه {أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} المائدة 54 ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله اكمل من محبة من قبلها وعبوديتهم لله اكمل من عبودية من قبلهم واکمل هذه الأمة في ذلك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن كان بهم اشبه كان ذلك فيه اكمل فأين هذا من قوم يدعون المحبة و في كلام بعض الشيوخ المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب و ارادوا ان الكون كله قد اراد الله وجوده فظنوا ان كمال المحبة ان يحب العبد كل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان ولا يمكن احدا ان يحب كل موجود بل يحب ما يلائمه وينفعه و يبغض ما ينافيه ويضره ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع اهوائهم فهم يحبون ما يهونه كالصور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة زاعمين ان هذا من محبة الله ومن محبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله و جهاد اهله بالنفس والمال واصل ضلالهم ان هذا القائل الذي قال ان المحبة نار تحرق ما سوى مراد المحبوب قصد بمراد الله تعالى الارادة الدينية الشرعية التي هي بمعنى محبته ورضاه فكأنه قال تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله وهذا معنى صحيح فان من تمام الحب ان لا يحب الا ما يحبه الله فاذا احببت ما لا يحب كانت المحبة ناقصة واما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه فان لم اوافقه في بغضه وكرهته وسخطه لم اكن محبا له بل محبا لما يبغضه فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد من اعظم الفروق بين اهل محبة الله واوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعى محبة الله ناظرا الى عموم ربوبيته او متبعا لبعض البدع المخالفة لشريعته فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة لله بل قد تكون دعوى هؤلاء شرا من دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق الذين هم به في الدرك الاسفل من النار كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شرا من دعواهم اذا لم يصلوا الى مثل كفرهم وفي التوراة والانجيل من محبة الله ما هم متفقون عليه حتى كذلك عندهم اعظم وصايا الناموس ففي الانجيل ان المسيح قال اعظم وصايا المسيح ان تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك والنصارى يدعون قيامهم بهذه المحبة وان ما هم فيه صل الزهد والعبادة هو من ذلك وهم براء من محبة الله اذ لم يتبعوا ما احبه بل {اتَّبِعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَبُ أَعْمَالَهُمْ} محمد 28 والله يبغض الكافرين ويمقتهم ويلعنهم وهو سبحانه يحب من يحبه لا يمكن ان يكون العبد محبا لله والله تعالى غير محب له بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له وان كان جزاء الله لعبده اعظم كما في الحديث الصحيح الالهي عن الله تعالى انه قال من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن اتانى يمشى اتيته هرولة وقد

اخبر سبحانه انه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ويحب التوابين ويحب التوابين ويحب المتطهرين بل هو يحب من فعل ما امر به من واجب ومستحب كما فى الحديث الصحيح لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احبته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به الحديث وكثير من المخطئين الذين اتبعوا اشياخا فى الزهد والعبادة وقعوا فى بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته وترك المجاهدة فى سبيله ونحو ذلك ويتمسكون فى الدين الذى يتقربون به الى الله بنحو ما تمسك به النصارى من الكلام المتشابه والحكايات التى لا يعرف صدق قائلها معصوما فيجعلون متبوعيهم لهم ديننا كما جعل النصارى قسيسيهم ورهبانهم شارعين لهم ديننا ثم انهم ينتقصون العبودية ويدعون ان الخاصة يتعدونها كما يدعى النصارى فى المسيح ويثبتون للخاصة من المشاركة فى الله من جنس ما تثبته النصارى فى المسيح واما الى انواع اخر يطول شرحها فى هذا الموضوع وانما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك وكل محبة لا تكون لله فهى باطلة وكل عمل لا يراى به وجه الله فهو باطل فالدين ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ولا يكون لله الا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله بل لا يكون لله الا ما جمع الوصفين ان يكون لله وان يكون موافقا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب كما قال {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} الكهف110 فلا بد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ولا بد ان يكون خالصا لوجه الله تعالى كما قال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة112 وقال النبى صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد وقال النبى انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وهذا الأصل هو اصل الدين وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين وبه ارسل الله الرسل وانزل الكتب واليه دعا الرسول وعليه جاهد وبه امر وفيه رغب وهو قطب الدين الذى تدور عليه رحاه¹

*وكلا الطائفتين الذين يسلكون إلى الله محض الإرادة والمحبة والدنو والقرب منه من غير إعتبار بالأمر والنهي المنزلين من عند الله الذين ينتهون إلى الفناء فى توحيد الربوبية يقولون بالجمع والإصطلام فى توحيد الربوبية ولا يصلون الى الفرق الثاني ويقولون أن صاحب الفناء لا يستحسن

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 208-214

حسنة ولا يستقبح سيئة ويجعلون هذا غاية السلوك والذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه ويحبونه ويكرهونه ويأمرون به وينهون عنه ولكن بإرادتهم ومحبتهم وهوامهم لا بالكتاب المنزل من عند الله كلا الطائفتين متبع لهواه بغير هدى من الله وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضى أن لا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله ولا يوالى إلا الله ولا يعادي إلا الله وأن يحب ما يحبه الله ويبغض ما أبغضه ويأمر بما أمر الله به وينهى عما نهى الله عنه وإنك لاترجو إلا الله ولا تخاف إلا الله ولا تسأل إلا الله وهذا ملة إبراهيم وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين والفناء في هذا هو الفناء المأمور به الذي جاءت به الرسل وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه فيكون مع الحق بلا خلق كما قال الشيخ عبد القادر كن مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس وتحقيق الشهادة بأن محمدا رسول الله يوجب أن تكون طاعته طاعة الله وإرضاءه إرضاء الله ودين الله ما أمر به فالحلال ما حله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه ولهذا طالب الله المدعين لمحبتهم بمتابعته فقال **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}** آل عمران 31 وضمن لمن إتبعه أن الله يحبه بقوله **{يُحِبِّكُمْ اللَّهُ}** {آل عمران 31} وصاحب هذه المتابعة لا يبقى مريدا إلا ما أحبه الله ورسوله ولا كارها إلا لما كرهه الله ورسوله وهذا هو الذي يحبه الحق كما قال ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبى يسمع و بى يبصر و بى يبطش و بى يمشي و لئن سألتني لأعطينه و لئن إستعاذنى لأعيذنه و ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت و أكره مساءته و لا بد له منه فهذا محبوب الحق ومن إتبع الرسول فهو محبوب الحق وهو المتقرب إلى الله بما دعا إليه الرسول من فرض و نفل و معلوم أن من كان هكذا فهو يحب طاعة الله و رسوله و يبغض معصية الله و رسوله فإن الفرائض و النوافل كلها من العبادات التي يحبها الله و رسوله ليس فيها كفر و لا فسوق و الرب تعالى أحبه لما قام بمحبوب الحق فإن الجزاء من جنس العمل فلما لم يزل متقربا إلى الحق بما يحبه من النوافل بعد الفرائض أحبه الحق فإنه إستفرغ و سعه في محبوب الحق فصار الحق يحبه المحبة التامة التي لا يصل إليها من هو ذو نه فى التقرب إلى الحق بمحوباته حتى صار يعلم بالحق و يعمل بالحق فصار به يسمع و به يبصر و به يبطش و به يمشي¹

من الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 337-338

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الشورى 11 فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {182} الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31¹

سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} الروم 19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} الروم 19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 10

فوصف نفسه بالمحبة ووصف عبده بالمحبة فقال {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ {آل عمران 31} ومعلوم أن محبة الله ليست مثل محبة العبد¹

والصفات الاختيارية هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثلا كلامه وسمعه وبصره وارا دته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه واحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة والآيات التي تدل على الصفات الاختيارية كثيرة جدا وكذلك في المحبة والرضا قال الله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ {آل عمران 31} فان هذا يدل على أنهم اذا اتبعوه احبهم الله فانه جزم قوله {يُحِبُّكُمْ} آل عمران 31 به فجزمه جوابا للأمر وهو في معنى الشرط فتقديره ان تتبعوني يحببكم الله ومعلوم أن جواب الشرط والأمر انما يكون بعده لا قبله فمحبة الله لهم انما تكون بعد اتباعهم للرسول والمنازعون منهم (بقصد الذين ينكرون اتصاف الله بالصفات الاختيارية) من يقول ما ثم محبة بل المراد ثوابا مخلوقا ومنهم من يقول بل ثم محبة قديمة ازلية اما الإرادة واما غيرها والقرآن يدل على قول السلف ائمة السنة المخالفين للقولين²

العلم والإرادة أصل لطريق الهدى والعبادة

والقصد فإن العلم والإرادة أصل لطريق الهدى والعبادة وقد بعث الله محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بأكمل محبة في أكمل معرفة فاخرج بمحبة الله ورسوله التي هي أصل الأعمال المحبة التي فيها اشراك واجمال كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 وقال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة 24 ولهذا كانت المحبة الإيمانية هي الموجبة للذوق الإيماني والوجد الديني كما في الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان في قلبه من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم وجود حلاوة الايمان معلقا بمحبة الله ورسوله الفاضلة وبالمحبة فيه في الله وبكراهة ضد الايمان وفي صحيح مسلم عن العباس قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد رسولا فجعل ذوق طعم الايمان معلقا بالرضى بهذه الاصول كما جعل الوجد معلقا بالمحبة ليفرق

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 13

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 225

صلى الله تعالى عليه وسلم بين الذوق والوجد الذى هو أصل الأعمال الظاهرة وثمره الأعمال الباطنة وبين ما امر الله به ورسوله وبين غيره كما قال سهل بن عبدالله التستري كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل اذ كان كل من أحب شيئاً فله ذوق بحسب محبته ولهذا طالب الله تعالى مدعى محبته بقوله **{إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** آل عمران 31 قال الحسن البصرى ادعى قوم على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انهم يحبون الله فطالبهم بهذه الآية فجعل محبة العبد لله موجبة لمتابعة رسوله وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الرب عبده وقد ذكر نعت المحبين فى قوله **{فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ}** المائدة 54 فنعت المحبين المحبوبين بوصف الكمال الذى نعت الله به رسوله الجامع بين معنى الجلال والجمال المفرق فى الملتين قبلنا وهو الشدة والعزة على أعداء الله والذلة والرحمة لأولياء الله ورسوله¹

العبادات مبناها على التوقيف

فمعنا أصلاً عظيمان أحدهما أن لا نعبد إلا الله والثانى أن لا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بعبادة مبتدعة وهذان الأصلاً هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كما قال تعالى **{لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُفَّ أَحْسَنُ عَمَلًا}** هود 7 قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا على ما أخلصه وأصوبه قال ان العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص ان يكون لله والصواب أن يكون على السنة وذلك تحقيق قوله تعالى **{فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}** الكهف 110 وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً وقال تعالى **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ}** الشورى 21 وفى الصحيحين عن عائشة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد وفى لفظ فى الصحيح من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد وفى الصحيح وغيره أيضاً يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو كله للذى أشرك ولهذا قال الفقهاء العبادات مبناها على التوقيف كما فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبل الحجر الاسود وقال والله انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك لما قبلتك والله سبحانه امرنا باتباع الرسول وطاعته وموالاته ومحبته وأن يكون الله ورسوله أحب اليينا مما سواهما وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته فقال تعالى **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}** آل عمران 31 وقال تعالى **{وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}** النور 54 وقال تعالى **{تِلْكَ حُدُودُ**

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 454

اللَّهُ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} النساء 13 وأمثال ذلك في القرآن كثير ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة وجاءت به الشريعة¹

لطائف لغوية

1- {إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} **ال عمران 26** فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته و ما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته و مشيئته و ما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة و كذلك بالعكس و مالا فلا و لهذا قال {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 و الشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئاً كمال ينال نيلاً ثم و ضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئاً كما يسمى المنيل نيلاً فقالوا نيل المعدن و كما يسمى المقدر قدرة و المخلوق خلقاً فقله {عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد و منه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء و قوله {عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ} البقرة 20 يتناول ما كان شيئاً في الخارج و العلم أو ما كان شيئاً في العلم فقط بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة و هو الحق تعالى و صفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم و لهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء²

2- قال تعالى {إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} **ال عمران 26** وقوله {وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} **آل**

عمران 29 قدير منزه عن العجز والضعف³

3- يجوز أن يعود الإستثناء إلى الجملة الأولى فقط إذا دل على ذلك دليل ويجوز للمتكلم أن ينوي ذلك ويقصده فإنه لو قال قاتل أهل الكتاب وعادهم وأبغضهم إلا ان يعطوا الجزية كان الإستثناء عائداً إلى الجملة الأولى فقط وقد قال سبحانه {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} **آل عمران 28** وهذا الإستثناء في الظاهر عائداً إلى الجملة الأولى وقال سبحانه {بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {1} فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ {2} التوبة 1-2 إلى قوله

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 334

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 383

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتَتْهُمُ إِلَيْهِمْ
عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ {4} التوبة 3-4 وليس هذا مستثنى مما يليه بل من أول الكلام وقد قال
جماعة من أهل العلم في قوله {لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} النساء 83 إن قليلا عائد
إلى قوله {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَاعُوا بِهِ} النساء 83 إلا قليلا وهذا
الإستثناء عائد إلى جملة بينها وبين الإستثناء جمل أخرى والمقدم في القرآن والمؤخر
باب من العلم وقد صنف فيه العلماء منهم الإمام أحمد وغيره وهو متضمن هذا وشبهه أن
يكون الإستثناء مؤخرا في اللفظ مقدما في النية ثم التقديم والتأخير في لغة العرب
والفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة معترضة وبين غيرهما لا ينكره إلا من لم
يعرف اللغة وقد قال سبحانه {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَىٰ الَّذِينَ
آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {72} وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ {73} آل عمران 73 فقله {أَن يُؤْتَىٰ} آل
عمران 73 من تمام قول أهل الكتاب أى كراهة أن يؤتى فهو مفعول تؤمنوا وقد فصل بينهما
بقوله {قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ} آل عمران 73 وهى جملة أجنبية ليست من كلام أهل الكتاب
فأيا ما أبلغ الفصل بين الفعل والمفعول أو بين المستثنى والمستثنى منه وإذا لم يكن عود
الإستثناء إلى الأخيرة مقطوعا به لم يجب عود الإستثناء إليها بل ربما كان فى سياقه ما
يقتضى أن عوده إلى الأولى أوكد¹

4- أن الله سمي نفسه وصفاته بأسماء وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء هي في حقهم
نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى فسمى نفسه رؤوفا رحيفا بقوله {وَاللَّهُ رُؤُوفٌ
بِالْعِبَادِ} آل عمران 30 وسمى بعض عباده رؤوفا رحيفا بقوله {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} التوبة 128 وليس الرؤوف كالرؤوف²

5- {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} آل عمران 31 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك لفظ
الذنوب إذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما فى قوله {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ
أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} الزمر 53 ثم قد
يقرن بغيره كما فى قوله {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} آل عمران 147 عامة
الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع
الطاعات كقوله {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} الأعراف 3
وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 وقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

¹مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 162

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 423

مُسْتَفِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ {الأنعام 153} وقد يقرب به غيره كقوله
 {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} {الأنعام 155} وقوله {اتَّبِعْ مَا
 أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} {الأنعام 106} وقوله {وَاتَّبِعْ مَا
 يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} {يونس 109} ¹

6- فالذنوب المعصية والمعصية تضييع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي ²

7 - قال تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} {ال عمران 32} قال
 تعالى {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} {15} {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} {16} {الليل 15-16} أى كذب بالخبر
 وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك
 قال فى فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى} {النازعات 21} وقال عن جنس الكافر {فَلَا صَدَقَ وَلَا
 صَلَّى} {31} {وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} {32} {القيامة 31-32} فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما
 الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا
 شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا} {15} {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِئِلَاءَ} {16}
 المزملة 15-16 ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة المذكور فى مواضع من القرآن كقوله
 {سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا
 كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {الفتح 16} وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل
 على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة
 كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} {16} {المزملة 16} ³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166-168

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 362

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

آل عمران 33-63

{33} إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ {33} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {34} إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {35} فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {36} فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {37} هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ {38} فَدَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ {39} قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ {40} قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ {41} وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ {42} يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ {43} ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ {44} إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {45} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ {46} قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {47} وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {48} وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفِخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {49} وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِحُلِّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَإِنِ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {51} فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {52} رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ {53} وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {54} إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَأْفَعِكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {55} فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ {56} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {57} ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ {58} إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {59} الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ {60} فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ {61} إِنَّ هَذَا لَهَوَ الْقَصَصِ الْحَقِّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَوَ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ {62} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ {63}

يجب اجراء الاسم على عمومته الا اذا قام دليل يوجب الخصوص

ما احتج به بعض أصحابنا على تفضيل الأنبياء على الملائكة بقوله {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} آل عمران 33 وقوله {وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} الدخان 32 واسم العالمين يتناول الملائكة والجن والإنس وفيه نظر لان أصناف العالمين قد يراد به جميع اصناف الخلق كما في قوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الفاتحة 2 وقد يراد به الأدميون فقط على اختلاف اصنافهم كما في قوله تعالى {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} الشعراء 165 {وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ} الأعراف 80 وهم كانوا لا يأتون البهائم ولا الجن وقد ويراد بالعالمين أهل زمن واحد كما في قوله {وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} الدخان 32 فقوله {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} آل عمران 33 الآية تحتل جميع اصناف الخلق ويحتمل أن المراد بنوا آدم فقط وللمحتج بها ان يقول اسم العالمين عام لجميع اصناف المخلوقات التي بها يعلم الله وهي آيات له ودلالات عليه لاسيما اولوا العلم منهم مثل الملائكة فيجب اجراء الاسم على عمومته الا اذا قام دليل يوجب الخصوص¹

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 367

الرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر يكون أكمل من غيره

والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم ولهذا يضيف الله الأمر إليها في مثل قوله {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ} الحديد 26 الآية {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ} آل عمران 33 الآية وذلك ان نوحا أول رسول بعث إلى المشركين وكان مبدأ شركهم من تعظيم الموتى الصالحين وقوم إبراهيم مبدأه من عبادة الكواكب ذاك الشرك الأرضي وهذا السماوي ولهذا سد ذريعة هذا وهذا¹

لم يثن الله على أحد بنسبه أصلا

لم يثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلا لا على ولد نبي ولا على أبي نبي وإنما أثنى على الناس بإيمانهم وأعمالهم وإذا ذكر صنفا وأثنى عليهم فلما فيهم من الإيمان والعمل لا لمجرد النسب ولما ذكر الأنبياء ذكرهم في الأنعام وهم ثمانية عشر قال {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الأنعام 87 فهذا حصلت الفضيلة باجتماعه سبحانه وتعالى وهدايته إياهم إلى صراط مستقيم لا بنفس القرابة وقد يوجب النسب حقوقا ويوجب لأجله حقوقا ويعلق فيه أحكاما من الإيجاب والتحریم والإباحة لكن الثواب والعقاب والوعد والوعيد على الأعمال لا على الأنساب ولما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} آل عمران 33 وقال {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} النساء 54 كان هذا مدحا لهذا المعدن الشريف لما فيهم من الإيمان والعمل الصالح ومن لم يتصف بذلك منهم لم يدخل في المدح كما في قوله تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد 26 وقال تعالى {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ} الصافات 113²

ذكر سبحانه قصة مريم والمسيح في سورة مريم المكية وفي سورة ال عمران المدنية

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 31

²منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 223

فَأَعَذَّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ {56} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {57} ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ {58} إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {59} الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ {60} فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ {61} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {62} فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ {63} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {64} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {65} هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {66} مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {67} إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ {68} ال عمران فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين إحداهما مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين وهي سورة كهيعص والثانية مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم كما نزلت في براءة مجاهدتهم فأخبر في السورة المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحه فتمثل لها بشرا سويا فقالت {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا} مريم 18 قال أبو وائل علمت أن المتقي ذو نهيية أي تقواه ينهيه عن الفاحشة وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة فقالت {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا} مريم 18¹

وليس الذكر كالأنثى

وليس الذكر كالأنثى كما قالت امرأة عمران {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي} آل عمران 35 وإني وضعتها أنثى {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} {36} فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ {37} آل عمران 36-37 إلى قوله {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ} آل عمران 44 فهذه مريم احتاجت الى من يكفلها ويحضرها حتى أسرعوا الى كفالتها فكيف غيرها من النساء وهذا أمر معروف بالتجربة أن المرأة تحتاج من الحفظ والصيانة مالا يحتاج اليه الصبي وكل ما كان أستر لها وأصون كان أصلح لها ولهذا كان لباسها المشروع لباسا يسترها ولعن من يلبس لباس الرجال وقال لأم سلمة في عصابتها لية لا ليتين رواه أبو داود وغيره

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 147-151 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 308

وقال فى الحديث الصحيح صنفان من أهل النار من أمتى لم أرهما بعد نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤسهن مثل أسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ورجال معهم سياط مثل أذنان البقر يضربون بها عباد الله و أيضا يأمرن المرأة فى الصلاة أن تجمع ولا تجافى بين أعضائها وتتربع ولا تفترش وفى الاحرام لا ترفع صوتها الا بقدر ما تسمع رفيقتها وأن لا ترقى فوق الصفا والمروة كل ذلك لتحقيق سترها وصيانتها ونهيت أن تسافر إلا مع زوج أو ذى محرم لحاجتها فحفظها إلى الرجال مع كبرها ومعرفتها¹

الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان الى عباده

فالذى شرعه الله ورسوله توحيد و عدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد فى المعاش والمعاد وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد فى المعاش والمعاد فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان الى عباده كما قال تعالى {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ} النساء36 وهذا أمر بمعالى الأخلاق وهو سبحانه يحب معالى الأخلاق ويكره سفاسفها وقد روى عنه أنه قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق رواه الحاكم فى صحيحه وقد ثبت عنه فى الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال اليد العليا خير من اليد السفلى وقال اليد العليا هى المعطية واليد السفلى السائلة وهذا ثابت عنه فى الصحيح فأين الإحسان الى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم وأين التوحيد للخالق بالرغبة اليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراك به بالرغبة الى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله وأين صلاح العبد فى عبودية الله والذل له والافتقار اليه من فساده فى عبودية المخلوق والذل له والافتقار اليه فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التى تصلح أمور أصحابها فى الدنيا والآخرة ونهى عن الأنواع الثلاثة التى تفسد أمور أصحابه ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} {61} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} {62} يس60-62²

{إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} يقتضى التخصيص بهذا السمع

و المقصود هنا أنه على هذا الأصل اذا خلق المخلوقات رآها وسمع اصوات عباده وكان ذلك بمشيئته وقدرته اذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم وقد جاء

¹مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 129-130

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 195-196

فى القرآن والسنة فى غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكّهم ولهم عذاب أليم ملك كذاب وشيخ زان وعائل مستكبر وكذلك فى الاستماع قال تعالى {وَأَذِنْتُ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ} الانشقاق 2 أى استمعت وقال النبى صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشيء كاذنه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به وقال الله أشد أذنا الى صاحب القرآن من صاحب القينة الى قينته فهذا تخصيص بالأذن وهو الاستماع لبعض الاصوات دون بعض وكذلك سمع الاجابة كقوله سمع الله لمن حمده وقول زكريا {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} آل عمران 38 وقول الخليل {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} إبراهيم 39 وقوله {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 يقتضى التخصيص بهذا السمع فهذا التخصيص ثابت فى الكتاب والسنة وهو تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته كما تقدم¹

لفظ الدعاء والدعوة فى القرآن يتناول معنيين

قال الله تعالى {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} آل عمران 38 لفظ الدعاء والدعوة فى القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة قال الله تعالى {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} الشعراء 213 وقال تعالى {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} المؤمنون 117 وقال تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} القصص 88 وقال {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} الجن 19 وقال {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} النساء 117 ولفظ الصلاة فى اللغة اصله الدعاء وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسألة وفى الصحيحين عن النبى انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له فذكر اولا لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعا بعد ذكر الداعى الذى يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} البقرة 186 وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذى يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامثال الامر وان لم يكن فى ذلك صيغ سؤال والعابد الذى يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضا راج خائف راغب راهب يربو فى حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى {إِنَّهُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 133

كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا { الأنبياء 90 وقال تعالى {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا { السجدة 16 ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع ¹

ذكره الله اثباتا لقدرته لا نفيا لحكمته وعدله

أن القدرية المجبرة من جنس المشركين كما ان النافية من جنس المجوس وان المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشية في نفس الأمر والنافية تنفي القدرة العامة والمشية التامة وتزعم انها تثبت الحكمة والعدل وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشية والقدرة كما قد بسط في مواضع لامية وأولئك يتعلقون بقوله { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } الأنبياء 23 { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 وهذا ذكره الله اثباتا لقدرته لا نفيا لحكمته وعدله بل بين سبحانه انه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئا بل هو قادر على فعل ما يشاء بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمني ان شئت فان الله لا مكره له ولكن ليعزم المسألة وذلك انه إنما يقال افعل كذا ان شئت لمن قد يفعله مكرها فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الاكراه عنه والله تعالى لا مكره له فلا يفعل إلا ما يشاء فقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 و { يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ } الفتح 14 { قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } آل عمران 40 ونحو ذلك هو لاثبات قدرته على ما يشاء وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون انه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء إلا الطاعة ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه وليس هو قادرا عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعا ولا عاصيا فهذه الآيات التي تحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة كما أن الآيات التي تحتج بها النفاة التي تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة وانه لم يخلق الخلق عبثا ونحو ذلك تدل على فساد قول المجبرة وليس في هذه الايات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى وكلا القولين باطل وهذا هو الذي نهى عنه النبي في الحديث الذي في المسند وغيره وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي انه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر هذا يقول ألم يقل الله كذا وهذا يقول ألم يقل الله كذا فكأنما فقيه في وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ولهذا قال أحمد في بعض مناظراته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض انا قد نهينا عن هذا فمن دفع نصوصا يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وهذا حال أهل الاهواء هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 239- 240

الكتاب وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الأقوال فصاروا كما قال عن أهل الكتاب {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} المائدة 14 فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه بل {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} المؤمنون 53 وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة كما قال واياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشريعة يجعلون تلك هي الأصول العقلية كالعقدية المجبرة والنفاة فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام فى الاصول وهو الذي يسمونه العقليات أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع¹

الله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة

والله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} الأحزاب 41 {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ} الأعراف 205 وهذا كثير وقال {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنْ إِلَيْهِ تَبَيُّنًا} المزمّل 8 كما قال {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} الأنعام 118 {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} الأنعام 121 {فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} المائدة 4 لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذى هو ألف سين ميم واما فى قوله {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ} المزمّل 8 فيقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله فى الذبيحة {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} الأنعام 118 كقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} العلق 1 وقوله {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا} ومُرْسَاهَا} هود 4 فقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} العلق 1 هو قراءة بسم الله فى أول السور وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضوع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارىء مأمور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هى تابعة لغيرها وهنا يقول {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} النمل 30 كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم فى قوله {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ} الإنسان 25 فانه يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} العلق 1 لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ} الإنسان 25 يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله {وَاذْكُرْ رَبَّكَ} آل عمران 41 فقد يتناول ذكر القلب وقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} العلق 1 هو كقول الأكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله²

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 225-227

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 210-211

الذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين

ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه وهو كذلك وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه اجلسوا بنا ساعة نؤمن قال تعالى {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} {الكهف} 28 وقال تعالى {وَدَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} {الذاريات} 55 وقال تعالى {سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى} {10} {وَيَجْجَبُّهَا الْأَشْقَى} {11} {الأعلى} 10 - 11 ثم كلما تذكر الانسان ما عرفه قبل ذلك وعمل به حصل له معرفة شئ آخر لم يكن عرفه قبل ذلك وعرف من معانى أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك كما فى الأثر من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وهذا أمر يجده فى نفسه كل مؤمن وفى الصحيح عن النبى مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحى والميت قال تعالى {وَإِذَا تُلِّيتُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} {الأنفال} 2 وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه وتزيدهم عملا بذلك العلم وتزيدهم تذكر ما كانوا نسوه وعملا بتلك التذكرة وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم قال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} {فصلت} 53 أى ان القرآن حق ثم قال تعالى {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} {فصلت} 53 فإن الله شهيد فى القرآن بما أخبر به فأمن به المؤمن ثم اراهم فى الآفاق وفى انفسهم من الآيات ما يدل على مثل ما أخبر به فى القرآن فبينت لهم هذه الآيات ان القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك وقال تعالى {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} {6} {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} {7} {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} {8} {ق} 6-8 فالآيات المخلوقة والمثلوة فيها تبصرة وفيها تذكرة تبصرة من العمى وتذكرة من الغفلة فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف ويذكر من عرف ونسى والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له فى أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت فيؤمن بتلك المعانى ويزداد علمه وعمله وهذا موجود فى كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه ثم كلما فعل شيئاً مما أمر به استحضر أنه امر به فصدق الامر فحصل له فى تلك الساعة من التصديق فى قلبه ما كان غافلا عنه وإن لم يكن مكذبا منكرا¹

دلائل نبوة الأنبياء

*والقرآن نفسه قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعا متعددة مع اشتمال كل نوع على عدد من الآيات والبراهين مثال ذلك إخباره لقومه بالغيب الماضي الذي لا يمكن بشرا أن يعلمه إلا أن يكون نبيا أو يكون ممن تلقاه عن نبي وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر ولا من أهل الكتاب ولا غيرهم وهذا نوعان منه ما كان يسأله عنه المشركون وأهل الكتاب لينظر هل هو نبي أم لا وكان قومه يرسلون إلى أهل الكتاب البعيدين عنهم مثل من كان بالمدينة وغيرها من أهل الكتاب يطلبون منهم ما يسألونه عنه فيرسلون إليهم ليسألوه عن ذلك ويمتنحون بذلك هل هو نبي أم لا ومنه ما كان الله يخبره به ابتداء ويجعله علما وآية لنبوته وبرهانا لرسالته مع ما في ذكر هذه القصص من الاعتبار لأمر أخرى فكان كل من هذين النوعين دليلا وعبرة على نبوته من طريقين فكان دليلا وعبرة على نبوته من جهة إخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا نبي وكانت عبرة بما فيها من أحوال المؤمنين والكافرين التي توجب اتباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا مثله وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا مثله وحكم الشيء حكم نظيره فإذا كان من كان مثله ومثل من اتبعه سعيدا وحال من خالف مثله ومثل من اتبعه شقيا كان في هذا دلالة وعبرة توجب اتباعه وتنتهي عن مخالفته وهذا أيضا دليلا على نبوة من قبله من الأنبياء من وجهين من جهة أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأة بينهم وبينه ولا تشاعر لم يأخذوا عنه ولم يأخذ عنهم وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطىء فإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة علم أن كلا من المخبرين صادق وقال تعالى **{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَنَّمْهُمْ أَتَاهُمْ يَكْفُلُ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}** آل عمران 44¹

والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر فنبه بقوله **{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ}** آل عمران 44 على أنه إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك إذ كان معلوما عند كل من عرفه أنه لم يسمع ذلك من بشر وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك وقد قال تعالى **{قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}** يونس 16 بين بذلك أن تلاوته عليهم هذا الكتاب وإدراؤهم أي إعلامهم به هو بمشيئة الله وقدرته لا من تلقاء نفسه²

فإن الذي اتفقت عليه الكتب والرسل هو الذي لا بد للخلق منه في كل زمان ومكان وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كما قال تعالى **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** البقرة 62 وعامة السورة المكية كالأنعام والأعراف وآل حم وآل طس وآل الر هي من

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 323

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 334

الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والصدق والعدل والإخلاص وتحريم الظلم والفواحش والشرك والقول على الله بلا علم وعامة ما عند أهل الكتاب من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والإنجيل والزابور ونبوات الأنبياء توافق المنقول عن محمد شهد هذا لهذا وهذا لهذا وذلك من دلائل نبوة أولئك الأنبياء ومن دلائل نبوة محمد ولهذا يذكر الله ذلك بيانا لإنعامه بمحمد ودلالة لنبوته كقوله تعالى {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} {42} يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} {43} ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} {44} آل عمران 42-44 فذكر الإلاه نعمته وآيته بكونه لم يكن يعلمها هو ولا قومه أيضا كانوا يعلمونها لئلا يظن أنه تعلم ذلك من قومه فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك وقد علم بالنقل المتواتر أن محمدا ولد بمكة وبها نشأ بعد أن كان مسترضعا في بادية سعد بن بكر قريبا من الطائف شرقي مكة وهو صغير ثم حملته مرضعته حليلة السعدية إلى أمه بمكة لا يعلم شيئا من ذلك ولا هناك من يتعلم منه شيء من ذلك وأهل مكة يعلمون حاله وأنه لم يتعلم ذلك من أحد ثم أخبرهم بالغيب الذي لا يعلمه أحد إلا بتعليم الله له فكان هذا من أعلام رسالته ودلائل نبوته عليهم أولا وعلى غيرهم آخرًا فإنهم كانوا مشاهدين له يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من أحد وغيرهم يعلم ذلك بالأخبار المتواترة ويعلم أن قومه المكذبين له مع حرصهم على الطعن فيه ومع علمهم بحاله لو كان قد تعلم من أهل الكتاب لقالوا هذا قد تعلمه منهم قال تعالى {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِئْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {يونس 16} والمقصود أنه نفى علم قومه بما أخبره فيه بيانا لآلاء الله التي هي آياته ونعمه فإن ذلك يدل على أنه لم يتعلم ذلك من قومه وفيه إنعام الله على الخلق بذلك فنفى سبحانه شهادته لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها تنبيها للناس على أنه أخبر بالغيب الذي لم يشهده ولم يعرفه من جهة أخبار الناس فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك ولا عاشر غير قومه وكل من عرف حاله يعلم أنه لم يتعلم شيئا من ذلك لا من أهل الكتاب ولا ممن نقل عن أهل الكتاب فإذا كان محمد أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله في باب أسماء الله وصفاته وتوحيده وملائكته وأوليائه وأعدائه مع العلم بأن في هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ما يمتنع اتفاق اثنين عليه إلا عن مواطاة بينهما ومحمد وموسى صلوات الله عليهما وسلامه لم يتواطأ بل لم يواطىء محمد أحدا من الرسل قبله ولا واطؤه والخبر الكذب إما أن يتعمد صاحبه الكذب وإما أن يغلط فالكاذبان المتعمدان للكذب لا يتفقان في القصص الطويلة والتفاصيل العظيمة وكذلك الغالطان لا يتفق غلطهما في مثل ذلك بل الاثنان من آحاد الناس إذا أخبر كل منهما عن حال بلدة وأخبر الآخر بمثل خبره من غير مواطاة عرف صدقهما فكيف بالأمور الغائبة التي لا يمكن العلم بها إلا من جهة الله تعالى فهذا من دلائل نبوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وأما القدر الذي يخالف ما جاء به محمد مما ينقلونه عن الأنبياء فهو نوعان أحدهما ما وقع فيه النسخ من الشرائع وهذا لا يمنعه لكن لمنسوخ مثل هذا بالنسبة إلى ما لم ينسخ من الكتاب نظير المنسوخ من القرآن والأحاديث النبوية

فإنه قليل جدا بالنسبة إلى ما لم ينسخ وكذلك عامة ما أمر به موسى وداود والمسيح وغيرهم من الأنبياء إذا اعتبر بما أمر به محمد وجد عامة ذلك متققا لم ينسخ منه إلا القليل والثاني الخبريات وهذه قد ادعى بعض أهل الكتاب أن محمدا خالف بعض ما أخبرت به الأنبياء قبله وهذا باطل فإن أخبار الأنبياء لا يجوز أن تتناقض إذ هم كلهم صادقون مصدقون ومن علم أن محمدا رسول الله وأن موسى رسول الله وأن المسيح رسول الله علم أن أخبارهم لا تتناقض لكن قد يخبر هذا بما لم يخبر به هذا فيكون في أخبار أحدهم زيادات على أخبار غيره لا ما يناقض خبر غيره وما يذكره أهل الكتاب مما يناقض خبر محمد فهو عامته مما حرفوا معناه وتأويله وقليل منه حرف لفظه وأهل الكتاب اليهود والنصارى مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها إما عمدا وإما خطأ في ترجمتها وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها وإنما تنازع الناس هل وقع التحريف في بعض ألفاظها¹

فإن القرآن فيه من الأخبار عن الأمم الماضية كقصة آدم وإبليس ونوح وقومه ومخاطبته لهم وقصة عاد وثمود وفرعون وما جرى من الأمم وقومهم من المخاطبات في الأمور الجزئية مما لا يمكن أن تعلم بالحدس وقوى النفس التي تنال بواسطة العلم بالحد الأوسط وكذلك الخبر عن الأمور المستقبلية المفصلة فإن هذه كلها لا يمكن في الجبلة أن تعلم إلا بمخبر يخبر بها الإنسان وأما علمه بها بدون الخبر فممتنع من قوى النفس ولهذا يقول سبحانه وتعالى **{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}** آل عمران 44²

العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب

أن العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب فيها كقوله **{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}** الإسراء 78 و **{وَارْكَعِي مَعَ الرَّكَّعِينَ}** آل عمران 43 **{وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}** الحجر 98³ والموجبون لصلاة الجماعة احتجوا بقوله تعالى **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّكَّعِينَ}** البقرة 43 إما أن يراد به المقارنة بالفعل وهي الصلاة جماعة وإما أن يراد به ما يراد بقوله **{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}** التوبة 119 فإن أريد الثاني لم يكن فرق بين قوله صلوا مع المصلين وصوموا مع الصائمين واركعوا مع الراكعين والسياق يدل على اختصاص الركوع بذلك فإن قيل فالصلاة كلها تفعل في الجماعة قيل خص الركوع بالذكر لأنه تدرك به الصلاة فمن أدرك الركعة فقد أدرك السجدة فأمر بما يدرك به الركعة كما قال لمريم **{أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ**

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 118-123 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 22

²الصفدية ج: 1 ص: 142

³شرح العمدة ج: 3 ص: 543

الرَّاكِعِينَ} آل عمران 43 فإنه لو قيل اقتني مع القانتين لدل على وجوب إدراك القيام ولو قيل اسجدي لم يدل على وجوب إدراك الركوع بخلاف قوله {وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} آل عمران 43 فإنه يدل على الأمر بإدراك الركوع وما بعده دون ما قبله وهو المطلوب¹

قوله {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} البقرة 43 هذا أمر بالركوع وكذلك قوله {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} آل عمران 43 وهذا أمر بالركوع قد قيل ذكر ذلك ليبين أنهم يصلون الجماعة لأن المصلي في الجماعة إنما يكون مدركا للركعة بادراك ركوعها بخلاف الذي لم يدرك إلا السجود فإنه قد فاتته الركعة و أما القيام فلا يشترط فيه الإدراك²

تقرب العبد الى الله وتقريبه له

وقوله من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة فقرب الشيء من الشيء مستلزم لقرب الآخر منه لكن قد يكون قرب الثاني هو اللازم من قرب الاول ويكون منه ايضا قرب بنفسه فالاول كمن تقرب الى مكة أو حائط الكعبة فكما قرب منه قرب الآخر منه من غير أن يكون منه فعل والثاني كقرب الانسان الى من يتقرب هو اليه كما تقدم فى هذا الاثر الالهى فتقرب العبد الى الله وتقريبه له نطق له نصوص متعددة مثل قوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} الإسراء 57 {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ} الواقعة 88 {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} المطففين 28 {وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} النساء 172 {وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} آل عمران 45 وما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه الحديث وفى الحديث اقرب ما يكون العبد من ربه فى جوف الليل الآخر وقد بسطنا الكلام على هذه الاحاديث ومقالات الناس فى هذا المعنى فى جواب الاسئلة المصرية على الفتيا الحموية فهذا قرب الرب نفسه الى عبده وهو مثل نزوله الى السماء الدنيا وفى الحديث الصحيح ان الله يدنو عشية عرفة الحديث فهذا القرب كله خاص وليس فى الكتاب والسنة قط قرب ذاته من جميع المخلوقات فى كل حال فعلم بذلك بطلان قول الحلولية فانهم عمدوا الى الخاص المقيد فجعلوه عاما مطلقا كما جعل اخوانهم الاتحادية ذلك فى مثل قوله كنت سمعه وفى قوله فيأتيهم فى صورة غير صورته وان الله قال على لسان نبيه سمع الله لمن حمده وكل هذه النصوص حجة عليهم فاذا فصل تبين ذلك فالداعى والساجد يوجه روحه الى الله والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب فكون الله عز وجل

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 228 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 440 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 122

²منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 30

منها قريبا قربا يلزم من قربها ويكون منه قرب آخر كقربه عشية عرفة وفي جوف الليل والى من تقرب منه شبرا تقرب منه ذراعا وفي الزهد لأحمد عن عمران القصير ان موسى عليه السلام قال يا رب اين أبغيك قال أبغى عند المنكسرة قلوبهم انى أدنو منهم كل يوم باعا لولا ذلك لانهدموا فقد يشبه هذا قوله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين الى آخره وظاهر قوله {فَإِنِّي قَرِيبٌ} البقرة 186 يدل على أن القرب نعته ليس هو مجرد ما يلزم من قرب الداعى والساجد ودنوه عشية عرفة هو لما يفعله الحاج ليلتئذ من الدعاء والذكر والتوبة والا فلو قدر أن أحدا لم يقف بعرفة لم يحصل منه سبحانه ذلك الدنو اليهم فانه يباهى الملائكة بأهل عرفة فاذا قدر أنه ليس هناك أحد لم يحصل فدل ذلك على قربهم بسبب قربه تقربهم منهم كما دل عليه الحديث الآخر والناس فى آخر الليل يكون فى قلوبهم من التوجه والتقرب والرقعة ما لا يوجد فى غير ذلك الوقت وهذا مناسب لنزوله الى السماء الدنيا وقوله هل من داع هل من سائل هل من تائب ثم ان هذا النزول هل هو كدنوه عشية عرفة معلق بأفعال فان فى بلاد لكفر ليس فيهم من يقوم الليل فلا يحصل لهم هذا النزول كما ان دنوه عشية عرفة لا يحصل لغير الحجاج فى سائر البلاد اذ ليس لها وقوف مشروع ولا مباهاة الملائكة وكما أن تفتيح ابواب الجنة وتغليق ابواب النار وتصفيد الشياطين اذا دخل شهر رمضان انما هو للمسلمين الذين يصومونه لا الكفار الذين لا يرون له حرمة وكذلك اطلاقه يوم بدر وقوله لهم اعملوا ما شئتم كان مختصا بأولئك أم هو عام فيه كلام ليس هذا موضعه والكلام فى هذا القرب من جنس الكلام فى نزوله كل ليلة ودنوه عشية عرفة وتكليمه لموسى من الشجرة وقوله ان بورك من فى النار ومن حولها وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضوع وذكرنا ما قاله السلف فى ذلك كحماد بن زيد واسحاق وغيرهما من أنه ينزل الى السماء الدنيا ولا يخلو منه العرش وبيننا أن هذا هو الصواب وان كان طائفة ممن يدعى السنة يظن خلو العرش منه وقد صنف أبو القاسم عبدالرحمن بن منده فى ذلك مصنفا وزيف قول من قال انه ينزل ولا يخلو منه العرش وضعف ما نقل فى ذلك عن أحمد فى رسالة مسدد وقال انها مكذوبة على أحمد وتكلم على راويها البردعى أحمد بن محمد وقال انه مجهول لا يعرف فى اصحاب أحمد وطائفة تقف لا تقول يخلو ولا لا يخلو وتتكبر على من يقول ذلك منهم الحافظ عبدالغنى المقدسى واما من يتوهم أن السموات تنفرج ثم تلتحم فهذا من أعظم الجهل وان وقع فيه طائفة من الرجال وأما من لا يعتقد أن الله فوق العرش فهو لا يعتقد نزوله لا بخلو ولا بغير خلو وقال بعض أكابرهم لبعض المثبتين ينزل أمره فقال من عند من ينزل أنت ليس عندك هناك أحد أثبت أنه هناك ثم قل ينزل أمره وهذا نظير قول اسحاق بن راهوية بحضرة الامير عبدالله بن طاهر والصواب قول السلف أنه ينزل ولا يخلو منه العرش وروح العبد فى بدنه لا تزال ليلا ونهارا الى أن يموت ووقت النوم تعرج وقد تسجد تحت العرش وهى لم تفارق جسده وكذلك اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وروحه فى بدنه وأحكام الارواح مخالف لأحكام الأبدان فكيف بالملائكة فكيف برب العالمين والليل يختلف فيكون ثلثه بالمشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب ونزوله الذى أخبر به رسوله الى سماء

هؤلاء في ثلاث ليلهم والى سماء هؤلاء في ثلاث ليلهم لا يشغله شأن عن شأن وكذلك قربه من الداعي المتقرب اليه والساجد لكل واحد بحسبه حيث كان واين كان والرجلان يسجدان في موضع واحد ولكل واحد قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر¹

أصل عظيم في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال

قال تعالى {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} الأعراف 54 ان الامر وغيره من الصفات يطلق على الصفة تارة وعلى متعلقها أخرى فالرحمة صفة لله ويسمى ما خلق رحمة والقدرة من صفات الله تعالى ويسمى المقدر قدرة ويسمى متعلقها بالمقدور قدرة والخلق من صفات الله تعالى ويسمى خلقا والعلم من صفات الله ويسمى المعلوم أو المتعلق علما فتارة يراد الصفة وتارة يراد متعلقها وتارة يراد نفس التعلق و الأمر مصدر فالمأمور به يسمى أمرا ومن هذا الباب سمى عيسى صلى الله عليه وسلم كلمة لأنه مفعول بالكلمة وكائن بالكلمة وهذا هو الجواب عن سؤال الجهمية لما قالوا عيسى كلمة الله فهو مخلوق والقرآن اذا كان كلام الله لم يكن الا مخلوقا فان عيسى ليس هو نفس كلمة الله وانما سمي بذلك لأنه خلق بالكلمة على خلاف سنة المخلوقين فخرقت فيه العادة وقيل له كن فكان والقرآن نفس كلام الله فمن تدبر ما ورد في باب أسماء الله تعالى وصفاته وأن دلالة ذلك في بعض المواضع على ذات الله او بعض صفات ذاته لا يوجب ان يكون ذلك هو مدلول اللفظ حيث ورد حتى يكون ذلك طردا للمثبت ونقضا للنافي بل ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والدلالات فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقا ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب وطرد الدليل ونقضه فهو نافع في كل علم خبري او انشائي وفي كل استدلال او معارضة من الكتاب والسنة وفي سائر ادلة الخلق²

ففي الآيات وجوه تبين ان عيسى بن مريم عليه السلام مخلوق

1-المسيح ليس هو صفة الله نفسها بل هو مخلوق بكلمة الله

أن الله تعالى قال {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} {45} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 241-243

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 18-19

الصَّالِحِينَ {46} قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {47} ال عمران 45-47 ففي هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق وليس هو ما يقوله النصارى منها أنه قال بكلمة منه وقوله بكلمة منه نكرة في الإثبات تقتضي أنه كلمة من كلمات الله ليس هو كلامه كله كما يقول النصارى ومنها أنه يبين مراده بقوله بكلمة منه وأنه مخلوق حيث قال **{كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ال عمران 47** كما قال في الآية الأخرى **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59** وقال تعالى في سورة كهيعص **{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} 34** { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } {35} وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {36} {مریم 34-36 فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له كن فيكون وهذا تفسير كونه كلمة منه وقال اسمه المسيح عيسى بن مريم أخبر أنه ابن مريم وأخبر أنه وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين وهذه كلها صفة مخلوق والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك وقالت مريم **{أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ} آل عمران 47** فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم لا ولد الله سبحانه وتعالى وقال في سورة النساء { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } {171} لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا } {172} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } {173} النساء 171-173 فقد نهى النصارى عن الغلو في دينهم وأن يقولوا على الله غير الحق وبين أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله فبين أنه رسوله ونهاهم أن يقولوا ثلاثة وقال انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد وهذا تكذيب لقولهم في المسيح أنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه ثم قال سبحانه أن يكون له ولد فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى ثم قال له ما في السماوات وما في الأرض فأخبر أن ذلك ملك له ليس فيه شيء من ذاته ثم قال لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله تعالى فمع هذا البيان الواضح الجلي هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به وأن قوله وروح منه المراد به أنه حياته أو روحه منفصلة عن ذاته ثم نقول أيضا أما قوله وكلمته فقد بين مراده أنه خلقه بكن وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر فيسمى المخلوق خلقا لقوله هذا خلق الله ويقال درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير ولهذا يسمى المأمور به أمرا والمقدور قدرة وقدرا والمعلوم علما والمرحوم به رحمة كقوله تعالى **{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا} الأحزاب 38**

وقال النبي يقول الله للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ويقول للنار أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي وقال إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق ويتعاطفون وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها الخلق ويقال للمطر هذه قدرة عظيمة ويقال غفر الله لك علمه فيك أي معلومه فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الرد على الجهمية وذكره غيره أن النصارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة فقالت النصارى القرآن كلام الله غير مخلوق والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق وقالت الجهمية المسيح كلمة الله وهو مخلوق والقرآن كلام الله فيكون مخلوقاً وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء وما من عاقل إذا سمع قوله تعالى في المسيح عليه السلام أنه كلمته ألقاها إلى مريم إلا يعلم أنه ليس المراد أن المسيح نفسه كلام الله ولا أنه صفة الله ولا خالق ثم يقال للصارى فلو قدر أن المسيح نفس الكلام فالكلام ليس بخالق فإن القرآن كلام الله وليس بخالق والتوراة كلام الله وليست بخالقة وكلمات الله كثيرة وليس منها شيء خالق فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقا فكيف وليس هو الكلام وإنما خلق بالكلمة وخص باسم الكلمة فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره بل خرج عن العادة فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة في البشر وقوله بروح منه لا يوجب أن يكون منفصلا من ذات الله كقوله تعالى {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} الجاثية 13 وقوله تعالى {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ} النحل 53 وقال تعالى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً} النساء 79 {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} 1 {رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً} 2 {فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ} 3 فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم وهي مخلوقة فالمسيح الذي هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقاً قال تعالى {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} 17 {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا} 18 {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} 19 {مريم 17-19} وقد قال تعالى {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَّقْتِ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا رَبِّهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} التحريم 12¹

والمسيح ليس هو صفة الله نفسها بل هو مخلوق بكلمة الله وسمى كلمة الله لأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فهو مخلوق بالكلمة وقال تعالى {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} 34 {مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 35 {مريم 34} وسماه روحه لأنه خلقه من نفخ روح القدس في أمه لم يخلقه كما خلق غيره من أب آدمي قال الله تعالى {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 63-68 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 324-325 و مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 493-494

الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {45} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَمِنَ الصَّالِحِينَ {46} قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا
قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {47} وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {48} آل
عمران 45-48¹

2-المسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة

فإنه على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة إما كلمات لا نهاية لها ولم تنزل وإما
كلمات لها ابتداء وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها وليس هو
كلمات كثيرة بل إنما خلق بكلمة من كلمات الله كما في الكتب الإلهية القرآن والتوراة إنه يخلق الأشياء
بكلماته قال تعالى في قصة بشارة مريم بالمسيح {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ
قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 47²

3-عيسى هو عبد الله فعل التصوير والنفخ بإذن الله

ووصف نفسه بأنه رب العالمين وبأنه مالك يوم الدين وأنه له الملك وله الحمد وأنه الحي القيوم
لا تأخذه سنة ولا نوم وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم ونحو ذلك من خصائص الربوبية ولم
يصف شيئاً من مخلوقاته لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا بشيء من الخصائص التي يختص بها التي
وصف بها نفسه سبحانه وتعالى وأما المسيح عليه السلام فقال فيه {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي} المائدة 110 وقال المسيح عن نفسه
{أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ} آل عمران 49 فلم يذكر
إلا خلق شيء معين خاص بإذن الله فكيف يكون هذا الخالق هو ذلك الوجه الثاني أنه خلق من
الطين كهيئة الطير والمراد به تصويره بصورة الطير وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس فإنه يمكن
أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير وغير الطير من الحيوانات ولكن هذا التصوير محرم
بخلاف تصوير المسيح فإن الله أذن له فيه والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيراً بإذن الله عز
وجل ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين فإن هذا مشترك وقد لعن النبي المصورين وقال إن أشد
الناس عذاباً يوم القيامة المصورون وأن الله أخبر المسيح أنه إنما فعل التصوير والنفخ بإذنه تعالى
وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله وأخبر الله أن هذا من نعمه التي أنعم بها على المسيح

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 302 و منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 79

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 313

عليه السلام كما قال تعالى {إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} الزخرف 59 وقال تعالى {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} {110} سورة المائدة من الآية 110 وهذا كله صريح في أنه ليس هو الله وإنما هو عبد الله فعل ذلك بإذن الله كما فعل مثل ذلك غيره من الأنبياء وصريح بأن الآذن غير المأذون له والمعلم ليس هو المعلم والمنعم عليه وعلى والدته ليس هو إياه كما ليس هو والدته الوجه الرابع أنهم قالوا أشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت ثم قالوا في قوله بإذن الله أي بإذن الكلمة المتحدة في الناسوت وهذا يبين تناقضهم واقتراءهم على القرآن لأن الله أخبر في القرآن أن المسيح خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ففرق بين المسيح وبين الله وبين أن الله هو الآذن للمسيح وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق وهو الآذن فجعلوا الخالق هو الآذن وهو تفسير للقرآن بما يخالف صريح القرآن الوجه الخامس أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتاج إلى أن يأذن لنفسه فإنهم يقولون هو إله واحد وهو الخالق فكيف يحتاج أن يأذن لنفسه وينعم على نفسه الوجه السادس أن الخالق إما أن يكون هو الذات الموصوفة بالكلام أو الكلام الذي هو صفة للذات فإن كان هو الكلام فالكلام

صفة لا تكون ذاتا قائمة بنفسها خالقة ولو لم تتحد بالناسوت واتحادها بالناسوت دون الموصوف ممتنع لو كان الاتحاد ممكنا فكيف وهو ممتنع فقد تبين امتناع كون الكلمة تكون خالقة من وجوه وإن كان الخالق هو الذات المتصفة بالكلام فذاك هو الله الخالق لكل شيء رب العالمين وعندهم هو الأب والمسيح عندهم ليس هو الأب فلا يكون هو الخالق لكل شيء والقرآن يبين أن الله هو الذي أذن للمسيح حتى خلق من الطين كهيئة الطير فتبين أن الذي خلق من الطين كهيئة الطير ليس هو الله ولا صفة من صفاته فليس المسيح هو الله ولا ابن قديم أزلي لله ولكن عبده فعل بإذنه¹

4-الله سبحانه وتعالى لما ذكر المسيح في القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء

قال تعالى {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} الاخلاص 3 فهذا نفى كونه سبحانه والدا لشيء أو متخذا لشيء ولدا بأى وجه من وجوه الولادة أو اتخاذ الولد أيا كان وأما نفى كونه مولودا فيتضمن نفى كونه متولدا بأى

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 46-48

نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره فهو رد على من قال المسيح هو الله ورد على الدجال الذي يقول انه الله ورد على من قال في بشر أنه الله من غالبية هذه الأمة في على وبعض أهل البيت فقولته سبحانه {وَلَمْ يُوَلَّدْ} الإخلاص³ نفى لهذا كله فان هؤلاء كلهم مولودون والله لم يولد ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء كقوله {إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} آل عمران 45 وفي ذلك فائدتان إحداهما بيان أنه مولود والله لم يولد والثانية نسبتته الى مريم بأنه ابنها ليس هو ابن الله¹

5- لم يشهد للمسيح بأنه الله

(في مجمل رده على مزاعم النصارى) فإنه من المعلوم يقينا عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله بل كفر من قال ذلك ولا يشهد للحواريين بأنهم رسل أرسلهم الله بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا إنا مؤمنون مسلمون وأنهم قالوا نحن أنصار الله كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله بل وأنهم أفضل من الحواريين لكون أمته خير الأمم كما قال تعالى {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 52 والمقصود هنا أن محمدا لم يشهد للمسيح بالألاهية ولا للحواريين بأنهم رسل الله ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم ولا بأنهم معصومون²

6- الرد على تحريف النصارى للقرآن

وأما قولهم (يقصد النصارى) أن محمدا كان يقول أن المراد إذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة في الناسوت فهذا من البهتان الظاهر على محمد وهو من جنس قولهم أن قوله الهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم أراد به النصارى ومن جنس قولهم أن قوله ومن يبتغ غير الإسلام دينا أراد به العرب فهذه المواضع التي فسروا بها القرآن وزعموا أن محمدا الذي بين للناس ما أنزل إليهم كان يريد بما يتلوه من القرآن هذه المعاني التي ذكرها هي من الكذب الظاهر الذي يدل على غاية جهل قائلها أو غاية معاندته ولكن مثل هذا التأويل غير مستنكر من النصارى فإنهم قد فسروا مواضع كثيرة من التوراة والإنجيل والزبور والنبوات بنحو هذه

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 448

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 96 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 349

التفسير التي حرفوا فيها الكلام الذي جاءت به الأنبياء عن مواضع تحريفا ظاهرا فبدلوا بذلك كتب الله ودين الله وضاهوا بذلك اليهود الذين حرفوا وبدلوا وإن اختلفت جهة التحريف والتبديل فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتوراة والإنجيل وهم من الذين يدعون المحكم ويتبعون ما نشأ به منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله لكن في هذه المواضع حرفوا المحكم الذي معناه ظاهر لا يحتمل إلا معنى واحد فكانوا من الجهل والمعاندة أبعد عن الصواب ممن حرف معنى المتشابه وذلك أنه قد علم بالاضطرار من دين محمد أنه كان يقول أن المسيح عبد الله مخلوق كسائر المرسلين وأنه يكفر النصارى الذين يقولون هو الله أو ابن الله قال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} المائدة 17 والرب تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد والنصارى يقولون إنه يلد وأنه يولد وأن له كفوا كما قد بين في موضع آخر وقد أخبر بعبودية المسيح في غير موضع كقوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْإِلَاحَ إِتِمَّا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} النساء 171 فإذا كان قد علم بالاضطرار من دين محمد وبالنقل المتواتر عنه وبإجماع أمته وإجماعا يستندون فيه إلى النقل عنه وبكتابه المنزل عليه وسنته المعروفة عنه أنه كان يقول أن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول وأنه يكفر النصارى الذين يقولون هو الله وهو ابن الله والذين يقولون ثالث ثلاثة وأمثال ذلك كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذي بلغه نبيه محمد {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 49 فيكون طيرا بإذن الله أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتحدة بالناسوت كذبا ظاهرا على محمد وهذا مما يعرف كذبهم فيه على محمد جميع أهل الأرض العالم بحال محمد سواء أقرؤا بنبوته أو أنكروها فالمقصود في هذا المقام أن هؤلاء كذبوا على محمد كذبا ظاهرا معلوما للخلق المؤمنين به والمكذبين له ليس هو كذبا خفيا وإن قدر أن ما قالوه يكون معقولا فكيف إذا كان ممتنعا في صرائح العقول بل هو قول غير معقول أي غير معقول ثبوته في الخارج وإن كان يعقل ما يختلفون ويعلم به فساد عقولهم لمن قال سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التي يمتنع ثبوته في الخارج وذلك كما قد كلمة الله المتحدة في الناسوت باطل من وجوه منها أن تلك الكلمة إما أن تكون هي الله أو صفة لذاته أو لا هي ذاته ولا صفة له أو الذات والصفة جميعا فإن لم تكن هي ذات الله ولا صفته ولا الذات والصفة كانت بانئة عنه مخلوقة له ولم يكن لاهوتا بل ولا خالقه وحينئذ فلم يتحد بالمسيح لاهوت بل إن لم يتحد به إنه كان اتحد به إلا مخلوق وإن كانت الكلمة هي الذات أو الذات والصفة فهي رب العالمين وهي الأب عندهم وهم متفقون على أن

المسيح ليس هو الأب ولم يتحد به الأب بل الابن وإن كانت الكلمة صفة الله عز وجل فصفة الله ليست هي الإله الخالق والمسيح عندهم هو الإله الخالق وأيضا فصفة الله قائمة بذاته لا تفارق ذاته وتحل بغيره وتتحد به وكلمة الله عندهم اتحدت بالمسيح وإن قالوا قولنا هذا كما تقول طائفة من المسلمين إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل حل في القراء أو اتحد بهم وأن القديم حل في المخلوق أو اتحد به ونحو ذلك قيل لو كان قول هؤلاء صوابا لم يكن لهم فيه حجة فإنه على هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وأنتم تدعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصا بذلك دون غيره وأيضا فهؤلاء وجميع الأمم متفقون على أن قراء القرآن وسائر الكتب الإلهية ليس واحد منهم هو الله ولا هو ابن الله ولا أنه خالق للعالم فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله ولا ابن الله ولا ربا للعالم وأيضا فلم نعلم أحدا من هؤلاء قال أن اللاهوت اتحد بالناسوت ولا أن القديم اتحد بالمحدث ولا أن كلام الله صار هو والمخلوق شيئا واحدا فالإتحاد باطل باتفاق هؤلاء وغيرهم ولكن طائفة منهم أطلقت لفظ الحلول وطائفة أنكرت لفظ الحلول وقالوا إنما نقول ظهر القديم في المحدث لا حل فيه لكن قالوا ما يستلزم الحلول وسلف المسلمين وجمهورهم يخطئون هؤلاء ويبينون خطأهم عقلا ونقلا وقولهم ليس هو قول أحد من أئمة المسلمين ولا قول طائفة مشهورة من طوائف المسلمين كالمالكية والشافعية وغيرهم ولا قول طائفة من طوائف المتكلمين من المسلمين لا المنتسبين إلى السنة كالأشعرية والكرامية ولا غيرهم كالمعتزلة والشيعة وأمثالهم وإنما قال ذلك طائفة قليلة انتسبت إلى بعض علماء المسلمين مثل قليل من المالكية والشافعية والحنبلية وهؤلاء غايتهم أن يقولوا بحلول صفة من صفات الله وكذلك من قال بحلول الرب واتحاده في العبد من طوائف الغلاة المنتسبين إلى التشيع والتصوف أو غيرهم فهم ضلال كالنصارى مع أنه لا حجة للنصارى على هؤلاء إذ كان ما يقولونه لا يختص به المسيح بل هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء والصالحين والنصارى تدعي اختصاص المسيح بالاتحاد مع أن المتحد بالناسوت صار هو والناسوت شيئا واحدا ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أو صفة خارج عن الآخر والنصارى يدعون الاتحاد ثم يتناقضون فمنهم من يقول جوهر واحد ومنهم من يقول جوهران ومنهم من يقول مشيئة واحدة ومنهم من يقول مشيئتان كما سيأتي الكلام إن شاء الله تعالى على ذلك¹

7-يجوز أن يضاف الفعل إلى الوسائط تارة وإلى الرب أخرى

فإن النبي قال إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يا رب أذكر أو أنثى فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب رزقه فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزداد على أمر ولا ينقص رواه مسلم من حديث حذيفة بن

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 168-177

أسيد الغفاري وقد يقال من هذا قوله في الزبور في زمور الخليقة ترسل روحك فيخلقون وفي المزمور أيضا هو قال فكانوا وأمر فخلقوا فقد يضاف الخلق إلى الملك ومن هذا الباب قوله تعالى {أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 49 فأخبره أنه يخلق من الطين كهيئة الطير طيرا بإذن الله وكذلك الملك يخلق النطفة في الرحم بإذن الله وهو سبحانه يخلق بواسطة الملائكة فإن الملائكة رسل الله في الخلق فجاز أن يضاف الفعل إلى الوسائط تارة وإلى الرب أخرى وهذا موجود في الكتب الإلهية في غير موضع كما في القرآن {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} الزمر 42 وفي موضع آخر {وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} الأنعام 61 وفي موضع ثالث {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} السجدة 11¹

8- الله سبحانه لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع

فإن الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع مثال ذلك غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب بل أنزل الله ماء السماء وأنبع ماء الأرض كما قال تعالى {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ} {9} فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ} {10} فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ} {11} وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} {12} وَحَمَلْنَا عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُوسِرٍ} {13} تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} {14} وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ} {15} القمر 9-15 و وكل ما وجد في العالم من خوارق العادات آيات الأنبياء وغيرها لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته كآيات موسى من مثل مصير العصى حية كانت بعد أن ألقاها إما عند أمر الله بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة للعادة وإما عند مطالبة فرعون له بالآية وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم وكذلك سائر آياته حتى إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا وكذلك تفجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم في برية لا ماء عندهم وكذلك آيات نبينا صلى الله عليه وسلم مثل تكثير الماء كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع أي تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 251

الأصابع وكذلك البئر كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها وإما بصبه الماء الذي بصق فيه فيها وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله إلى أمثال ذلك¹

لا يشفع عند الله سبحانه أحد الا بإذنه

فأما التوسل بذات محمد صلى الله عليه وسلم فى حضوره أو مغيبه أو بعد موته مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم فليس هذا مشهورا عند الصحابة والتابعين بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ومن بحضرتهم من أصحاب رسول الله والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حيا كالعباس وكيزيد بن الأسود ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا فى هذه الحال بالنبي لا عند قبره ولا غير قبره بل عدلوا الى البديل كالعباس وكيزيد بل كانوا يصلون عليه فى دعائهم وقد قال عمر اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فجعلوا هذا بدلا عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذى كانوا يفعلونه وقد كان من الممكن أن يأتوا الى قبره فيتوسلوا به ويقولوا فى دعائهم فى الصحراء بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التى تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به فيقولون نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاه نبيك ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس وروى بعض الجهال عن النبي أنه قال إذا سألت الله فاسأله بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم وهذا الحديث كذب ليس فى شىء من كتب المسلمين التى يعتمد عليها أهل الحديث ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} الأحزاب 69 وقال تعالى {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} آل عمران 45 فاذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون وصاحب الكوثر والحوض المورود الذى أنيته عدد نجوم السماء وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم وأولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويتقدم هو إليها وهو صاحب اللواء آدم ومن دونه تحت لوائه وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل وهو امام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذ وفدوا ذو الجاه العظيم وعلى آله ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق فانه لا يشفع عنده أحد الا بإذنه {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 404

آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا {93} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {94} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {95} مريم-93-
195

الرد على من يدعي ان القرآن مخلوق

1-أئمة أهل السنة والحديث وهم من أعلم الناس بمقالة الرسول والصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن أتبع الناس لها وهؤلاء وغيرهم كسفيان بن عيينة احتجوا على أن كلام الرب غير مخلوق بأن الله لم يخلق شيئاً إلا بكن فلو كانت كن مخلوقة لزم التسلسل المانع من الخلق وهذا التسلسل فلو كانت كن مخلوقة لزم التسلسل في أصل كونه خالقا وفاعلا فهو تسلسل في أصل التأثير وهو ممتنع باتفاق العقلاء بخلاف التسلسل في الآثار المعينة فإنه إذا لم يكن خالقا إلا بقوله كن امتنع أن يكون القول مخلوقا كما إذا قيل لا يكون خالقا إلا بعلم وقدرة امتنع أن يكون العلم والقدرة مخلوقين لأنه يلزم أن يكون ذلك المخلوق يمتنع وجوده إلا بعد وجوده فإنه لا يكون خالقا إلا به فيجب كونه متقدما على كل مخلوق فلو كان مخلوقا لزم تقدمه على نفسه وهذه حجة صحيحة عقلية شرعية²

2-فالرب تعالى إذا لم يحدث شيئاً إلا بقدرته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس82 فلا بد أن يريد الفعل قبل أن يفعله ولا بد أن يكون الفعل قبل المفعول وإن كانت الإرادة والفعل موجودين عند وجود المفعول كما يقول أهل السنة إن القدرة لا بد أن تكون مع الفعل³

3-قالوا فالكلام القديم هو الحروف والأصوات ومنهم من قال الحروف دون الأصوات فهي قديمة أزلية بأعيانها لا نقول بوجود شيء بعد شيء وأنه ما زال يقول يا آدم يا نوح يا موسى من الأزل إلى الأبد ولا يزال يقول ذلك وقال هؤلاء باقتران الحروف بعضها ببعض في الأزل وأن الياء والسين موجودتان معا في الأزل والترتيب بينهما إنما هو ترتيب في ذاتهما أو في ظهورهما لا في وجودهما وهذا قول طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء حكاها الأشعري في المقالات عن طائفة قالته وقد وافقهم عليه طائفة من الفقهاء من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وغيرهم فأنكر الجمهور هذا القول وقالوا هذا مخالف لصريح المعقول والمنقول فإن الله تعالى يقول {إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران47 وأن تخلص الفعل المضارع للاستقبال والمؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا⁴

القدر يؤمن به ولا يحتج به

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 319 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 143

²منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 216

³منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 224

⁴الصفدية ج: 2 ص: 58

فيقال الأمر الكونى يكون موجودا قبل وجود المكون لا يسمعه العبد وليس امتثاله مقدورا له بل الرب هو الذى يخلق ما كونه بمشيئته وقدرته والله تعالى ليس له شريك فى الخلق والتكوين والعبد وإن كان فاعلا بمشيئته وقدرته والله خالق كل ذلك فتكوين الله للعبد ليس هو أمرا لعبد موجود فى الخارج يمكنه الامتثال وكذلك ما خلقه من أحواله وأعماله خلقه بمشيئته وقدرته و {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس82 فكل ما كان من المكونات فهو داخل فى هذا الامر وأكل آدم من الشجرة وغير ذلك من الحوادث داخل تحت هذا كدخول آدم فنفس أكل آدم هو الداخلى تحت هذا الأمر كما دخل آدم فقول القائل انه قال لآدم فى الباطن كل مثل قوله انه قال للكافر اكفر وللفاسق افسق والله لا يأمر بالفحشاء ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يوجد منه خطاب باطن ولا ظاهر للكفار والفساق والعصاة بفعل الكفر والفسوق والعصيان وان كان ذلك واقعا بمشيئته وقدرته وخلقهم وأمره الكونى فالأمر الكونى ليس هو أمرا للعبد أن يفعل ذلك الأمر بل هو أمر تكوين لذلك الفعل فى العبد أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال فهو سبحانه الذى خلق الإنسان هلوعا {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} {21} المعارج 19-21 وهو الذى جعل المسلمين مسلمين كما قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} البقرة128 فهو سبحانه جعل العباد على الأحوال التى خلقهم عليها وأمره لهم بذلك أمر تكوين بمعنى أنه قال لهم كونوا كذلك فيكونون كذلك كما قال للجماد كن فيكون فأمر التكوين لا فرق فيه بين الجماد والحيوان وهو لا يفتقر الى علم المأمور ولا إرادته ولا قدرته لكن العبد قد يعلم ما جرى به القدر فى أحواله كما يعلم ما جرى به القدر فى أحوال غيره وليس فى ذلك علم منه بأن الله أمره فى الباطن بخلاف ما أمره فى الظاهر بل أمره بالطاعة باطنا وظاهرا ونهاه عن المعصية باطنا وظاهرا وقدر ما يكون فيه من طاعة ومعصية باطنا وظاهرا وخلق العبد وجميع أعماله باطنا وظاهرا وكون ذلك بقوله كن باطنا وظاهرا وليس فى القدر حجة لابن آدم ولا عذر بل القدر يؤمن به ولا يحتج به والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض فإن القدر ان كان حجة وعذرا لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه اذا ظلم فى نفسه وماله وعرضه وحرمة أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه وهذا أمر ممتنع فى الطبيعة لا يمكن أحد أن يفعله فهو ممتنع طبعا محرم شرعا ولو كان القدر حجة وعذرا لم يكن إبليس ملوما ولا معاقبا ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار ولا كان جهاد الكفار جائزا ولا اقامة الحدود جائزا ولا قطع السارق ولا جلد الزانى ولا رجمه ولا قتل القاتل ولا عقوبة معند بوجه من الوجوه ولما كان الإحتجاج بالقدر باطلا فى فطر الخلق وعقولهم لم تذهب اليه أمة من الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا فى دنياه ولا آخرته ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزما مع الآخر نوعا من الشرع فالشرع نور الله فى أرضه وعدله بين عباده لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك ثم المنزلة تارة تبدل وتغير كما غير أهل

الكتاب شرائعهم وتارة لا تغير ولا تبدل وتارة يدخل النسخ في بعضها وتارة لا يدخل وأما القدر فانه لا يحتج به أحد إلا عند اتباع هواه فاذا فعل فعلا محرما بمجرد هواه وذوقه ووجده من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند الى القدر كما قال المشركون {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ} {148} الانعام 148 قال الله تعالى {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَأَفُوا بِأَنفُسِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} {148} قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} {149} الانعام 148-149 فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين وانما يتبعون الظن¹

الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة

قد أخبر الله في القرآن أن عيسى قال لهم {وَلَا جِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} آل عمران 50 فقد نسخ الله على لسان المسيح بعض ما كان حراما في شرع موسى فعلم أنه أحل البعض دون الجميع وأخبر عن المسيح أنه علمه التوراة والإنجيل بقوله {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} آل عمران 48 ومن المعلوم أنه لولا أنه متبع لبعض ما في التوراة لم يكن تعلمها له منة ألا ترى أنا نحن لم نؤمر بحفظ التوراة والإنجيل وإن كان كثير من شرائع الكتابين يوافق شريعة القرآن فهذا وغيره يبين ما ذكره علماء المسلمين من أن الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة وأكثر الأحكام يتبع فيها ما في التوراة وبهذا يحصل التباين بين الشرعتين ولهذا كان النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها كما يحفظون الإنجيل ولهذا لما سمع النجاشي القرآن قال إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك ورقة بن نوفل قال للنبي لما ذكر له النبي صلى الله عليه وسلم ما يأتيه قال هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى وكذلك قالت الجن {إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ فِي الْأَحْقَافِ} 30²

فالقُرآن والتوراة هما كتابان جاء من عند الله لم يأت من عنده كتاب أهدى منهما كل منهما أصل مستقل والذي فيهما دين واحد وكل منهما يتضمن اثبات صفات الله تعالى والأمر بعبادته وحده لا شريك له ففيه التوحيد قولا وعملا كما في سورتي الاخلاص قل يا أيها الكافرون و قل هو الله احد وأما الزبور فان داود لم يأت بغير شريعة التوراة وانما في الزبور ثناء على الله ودعاء وأمر ونهى بدينه وطاعته وعبادته مطلقا واما المسيح فانه قال {وَلَا جِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} آل عمران 50 فاحل لهم بعض المحرمات وهو في الاكثر متبع لشريعة التوراة ولهذا لم يكن بد لمن اتبع المسيح من ان يقرأ التوراة ويتبع ما فيها اذ كان الانجيل تبعا لها وأما القرآن فانه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه الى كتاب آخر بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن وعلى

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 323-324

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 44 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 180

زيادات كثيرة لا توجد في الكتب فهذا كان مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه يقرر ما فيها من الحق ويبطل ما حرف منها وينسخ ما نسخه الله فيقرر الدين الحق وهو جمهور ما فيها ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها والقليل الذي نسخ فيها فان المنسوخ قليل جدا بالنسبة الى المحكم المقرر¹

ملة الإسلام وسط في الملل

في الحديث الصحيح حديث عياض بن حمار عن النبي عن الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين فحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ولهذا كان إبتداع العبادات الباطلة من الشرك ونحوه هو الغالب على النصارى ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة والمتصوفة وإبتداع التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفهمة بل أصل دين اليهود فيه آصار وأغلال من التحريمات ولهذا قال لهم المسيح {وَلَأَجَلٌ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} آل عمران 50²

* أن ملة الإسلام وسط في الملل والمؤمنون وسط في شرائع دين الله من ذلك أمر الحلال والحرام فإن اليهود كما قال الله تعالى {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} النساء 160 فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط ولا شحم الثرب والكليتين ولا الجدي في لبن أمه إلى غير ذلك مما حرم عليهم من الطعام واللبسا وغيرهما حتى قيل إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا والواجب عليهم مئتان وثمانية وأربعون أمرا وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتى لا يؤاكلوا الحائض ولا يجامعوها في البيوت وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات وباشروا جميع النجاسات وإنما قال لهم المسيح {وَلَأَجَلٌ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} آل عمران 50 ولهذا قال تعالى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} التوبة 29 وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به في قوله {وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} {156} الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 185

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 87 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 435

أَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {157} الاعراف
157-156¹

قرر سبحانه معاد الأبدان بأنواع من التقرير

وليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده في الخارج وهذا الذي يسمى الامكان الذهني فان
الامكان على وجهين ذهني وهو ان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا
لا لعلمه بإمكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذلك الشيء قد يكون ممتنعا في الخارج و
خارجي وهو ان يعلم امكان الشيء في الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج او وجود
نظيره او وجوده ما هو ابعد عن الوجود منه فاذا كان الابدع عن قبول الوجود موجودا ممكن الوجود
فالأقرب الى الوجود منه أولى وهذه طريقة القرآن في بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه
الطريقة فتارة يخبر عن اماتهم ثم احياهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى
نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} البقرة 55 قال {فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} {55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {56} البقرة 55-56 وعن {الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} البقرة 243 وعن {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ
أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} البقرة 259 وعن ابراهيم اذ قال {رَبِّ
أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} البقرة 260 القصة وكما اخبر عن المسيح أنه كان يحيى الموتى باذن الله
وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بهد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة
الاولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما في قوله {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن
تُرَابٍ} الحج 5 الآية وقوله {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} يس 79 {قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
{الإسراء 51 {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} الروم 27 وتارة يستدل على
ذلك بخلق السموات والارض فإن خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما في قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} الأحقاف 33 وتارة
يستدل على امكانه بخلق النبات كما في قوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا} الأعراف 57 الى قوله
{كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى} الأعراف 57 فقد تبين ان ما عند أئمة النظار اهل الكلام والفلسفة من الدلائل
العقلية على المطالب الالهية فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو ابلغ واكمل منها على
احس وجه مع تنزهه عن الاغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فان خطاهم فيها كثيرا جدا ولعل
ضلالهم اكثر من هداهم وجهلهم اكثر من علمهم ولهذا قال ابو عبد الله الرازي في آخر عمره في
كتابه اقسام الذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 372-373

تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه5 {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} فاطر10 وقرأ في النفي {أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} الشورى11 {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} طه110 ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي¹

فالذي جاءت به السنة مطابق لما في القرآن في المستقبل أخبر تعالى بالقيامة والحسنات والجنة والنار ولم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى بحيث لا يبقى شيء بل أخبر باستحالة العالم وأنها تستحيل أنواعا من الإستحالة لتعدد الأوقات وكذلك أخبر بإحياء الموتى وقيامهم من قبورهم في غير موضع وقرر سبحانه معاد الأبدان بأنواع من التقرير فتارة يخبر بوقوع إحياء الموتى كما أخبر بذلك في سورة البقرة في عدة مواضع وذكر إحياء المسيح الموتى قال تعالى {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران49 وذكر قصة أصحاب الكهف ونومهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين والنوم أخو الموت فهذه سبع مواضع ومنها إحياء الحيوان البهيم وإبقاء الطعام والشراب مائة سنة لم يتغير وذكر سبحانه إمكان ذلك بخلق الحيوان وهو الخلق الأول وبخلق النبات وهو نظيره وبخلق السموات والأرض وأن القادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم فالأول بيان للوقوع وهذا بيان للإمكان²

توحيد الله وإخلاص الدين له

فإن الدين الذي كان عليه ابراهيم والانبياء عليهم السلام أن لا نعبد الا الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا نشرك معه ملكا ولا شمسا ولا قمرا ولا كوكبا ولا نشرك معه نبيا من الانبياء ولا صالحا {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} مريم93 وأن الأمور التي لا يقدر عليها غير الله لا تطلب من غيره مثل انزال المطر وانبات النبات وتفريج الكربات والهدى من الضلالات وغفران الذنوب فإنه لا يقدر أحد من جميع الخلق على ذلك ولا يقدر عليه إلا الله والانبياء عليهم الصلاة والسلام تؤمن بهم ونعظمهم ونوقرهم وتتبعهم ونصدقهم في جميع ما جاءوا به ونطيعهم كما قال نوح وصالح وهود وشعيب وعيسى {فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} آل عمران50 فجعلوا العبادة والتقوى لله وحده والطاعة لهم فإن طاعتهم من طاعة الله فلو كفر أحد بنبي

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 224-225

²الصفدية ج: 2 ص: 226

من الأنبياء وأمن بالجميع ما ينفعه إيمانه حتى يؤمن بذلك النبي وكذلك لو آمن بجميع الكتب وكفر بكتاب كان كافرا حتى يؤمن بذلك الكتاب وكذلك الملائكة واليوم الآخر¹

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء 25 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا آلَ عِمْرَانَ 50} فجعل العباد والتقوى لله وجعل له أن يطاع وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة 255 فالعبادة والإستعانة وما يدخل فى ذلك من الدعاء والإستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والإستغفار كل هذا لله وحده لا شريك له فالعبادة متعلقة بألوهيته والإستعانة متعلقة بربوبيته والله رب العالمين لا إله إلا هو ولا رب لنا غيره لا ملك ولا نبي ولا غيره بل أكبر الكبائر الإشراف بالله وأن تجعل له ندا وهو خلقك والشرك أن تجعل لغيره شركا أو نصيبا فى عبادتك وتوكلك وإستعانتك وهذا كله تفصيل الشهادتين اللتين هما أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا عبده ورسوله والإله من يستحق أن يأله العباد ويدخل فيه حبه وخوفه فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول ولما كان أصل الدين الشهادتين كانت هذه الأمة الشهداء ولها وصف الشهادة والقسيسون لهم العبادة بلا شهادة ولهذا قالوا {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 53 ولهذا كان المحققون على أن الشهادتين أول واجبات الدين كما عليه خلص أهل السنة²

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 371
²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72-76

لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب

ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعو الله فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا¹

الإسلام دين جميع المرسلين

و حقيقة الدين هي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة دين الاسلام وهو ان يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره فمن استسلم له ولغيره كان مشركا والله {لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} النساء 48 ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر 60 وقوله {أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} الأعراف 29 أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء 48 وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء 25 وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ} الزخرف 45 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} الشورى 13 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} {52} المؤمنون 51- 52 ولهذا ترجم البخارى فى صحيحه باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث الصحيح فى ذلك وهو الإسلام العام الذى إتفق عليه جميع النبيين قال نوح عليه السلام {وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يونس 72 وقال تعالى فى قصة إبراهيم

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 31

{ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {131} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ } {132} البقرة 131-132 { وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 وقال تعالى { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 52 وفي السورة الاخرى { آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } المائدة 111 وقال في قصة بلقيس { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 44 وقال { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ } المائدة 44 فدين الأنبياء واحد وان تنوعت شرائعهم كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال انا معشر الأنبياء ديننا واحد وهذا التوحيد الذى هو اصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجاه فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال لما أنزلت هذه الآية { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } الأنعام 82 شق ذلك على أصحاب النبى وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم قال إن تجعل الله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا } الفرقان 68 الآية وقد جاء عن غير واحد من السلف وروى مرفوعا الظلم ثلاثة دواوين فديوان لا يغفر الله منه شيئا وديوان لا يترك الله منه شيئا وديوان لا يعبأ الله به شيئا فأما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا فهو الشرك فإن الله لا يغفر أن يشرك به وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فهو ظلم العباد بعضهم بعضا فإن الله لا بد أن ينصف المظلوم من الظالم وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه أى مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق فإن شاء عذب وهذا الظالم لنفسه وإن شاء غفر له¹

من أتى الله عليه بالإسلام كانوا مؤمنين

قال الإمام احمد وأما قول من سوى بين الإسلام والإيمان وقال أن الله سمي الإيمان بما سمي به الإسلام وسمى الإسلام بما سمي به الإيمان فليس كذلك فإن الله ورسوله قد فسر الإيمان بأنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبين أيضا أن العمل بما أمر به يدخل فى الإيمان ولم يسم الله الإيمان بملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت إسلاما بل إنما سمي الإسلام بالإستسلام له بقلبه

¹ مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 112 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 160-162 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 220 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 83 و اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 451 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 131

وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصا لوجهه فهذا هو الذي سماه الله إسلاما وجعله ديناً وقال **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85** ولم يدخل فيما خص به الإيمان وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل ولا أعمال القلوب مثل حب الله ورسوله ونحو ذلك فإن هذه جعلها من الإيمان والمسلم المؤمن يتصف بها وليس إذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الإسلام بل هي من الإيمان والإسلام فرض والإيمان فرض والإسلام داخل فيه فمن أتى بالإيمان الذي أمر به فلا بد أن يكون قد أتى بالإسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة ومن أتى بما يسمى إسلاماً لم يلزم أن يكون قد أتى بالإيمان إلا بدليل منفصل كما علم أن من أثنى الله عليه بالإسلام من الأنبياء واتباعهم إلى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين كما كانوا مسلمين كما قال الحواريون **{آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 52** وقال **{وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} المائدة 111** ولهذا أمرنا الله بهذا وبهذا في خطاب واحد كما قال **{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {136}** فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاقٍ فسيكفِكمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {137} البقرة 136-137 وقال في الآية الأخرى **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85** وهذا يقتضي أن كل من دان بغير دين الإسلام فعمله مردود وهو خاسر في الآخرة فيقتضي وجوب دين الإسلام وبطلان ما سواه لا يقتضي أن مسمى الدين هو مسمى الإيمان بل أمرنا أن نقول **{آمَنَّا بِاللَّهِ} البقرة 136** وأمرنا أن نقول **{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136** فأمرنا بإثني فكيف نجعلهما واحداً وإذا جعلوا الإسلام والإيمان شيئاً واحداً فاما أن يقولوا اللفظ مترادف فيكون هذا تكريراً محضاً ثم مدلول هذا اللفظ عين مدلول هذا اللفظ وإما أن يقولوا بل أحد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى كما في أسماء الله وأسماء كتابه لكن هذا لا يقتضي الأمر بهما جميعاً ولكن يقتضي أن يذكر تارة بهذا الوصف وتارة بهذا الوصف فلا يقول قائل قد فرض الله عليك الصلوات الخمس والصلاة المكتوبة وهذا هو هذا والعطف بالصفات يكون إذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح أو الذم كقوله **{سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {1}** الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {3} الأعلى 1-3 لا يقال صل لربك الأعلى ولربك الذي خلق فسوى¹

"الإسلام علانية والإيمان في القلب"

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 410-411

وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والإيمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي وأما اذا أفرد اسم الإيمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للإيمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الإيمان وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 ووصف الله أنبياء بني اسرائيل بالاسلام في قوله {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ} المائدة 44 والانبيا كلهم مؤمنون ووصف الحواريين بالإيمان والاسلام فقال تعالى {وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} المائدة 111 و {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 52 و حقيقة الفرق أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذي إرتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام في الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح وأما الإيمان فاصله تصديق وقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان بإيمان القلب وبخضوعه وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وفسر الإسلام بإستسلام مخصوص هو المباني الخمس وهكذا في سائر كلامه يفسر الإيمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا وذلك النوع أعلى ولهذا قال النبي الاسلام علانية والإيمان في القلب فان الاعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما في القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن لكن له لوازم قد تدل عليه واللازم لا يدل الا اذا كان ملزوما فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق فلا يدل ففي حديث عبدالله بن عمرو وابي هريرة جميعا ان النبي قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة اعلى من تلك فان من كان مأمونا سلم الناس منه وليس كل من سلموا منه يكون مأمونا فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون اليه خوفا ان يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لإيمان في قلبه وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن

عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال للنبي ما الاسلام قال اطعام الطعام ولين الكلام قال فما الايمان قال السماحة والصبر فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة وكذلك لين الكلام وأما السماحة والصبر فخلقان فى النفس قال تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} البلد 17 وهذا أعلى من ذلك وهو أن يكون صبارا شكورا فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره وهذا ضد الذى خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا فان ذلك ليس فيه عند النعمة ولا صبر عند المصيبة وتما الحديث فأى الاسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قال يا رسول الله أى المؤمنين أكمل ايمانا قال أحسنهم خلقا قال يا رسول الله أى القتل اشرف قال من أريق دمه وعقر جواده قال يا رسول الله فأى الجهاد افضل قال الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله قال يا رسول الله فأى الصدقة أفضل قال جهد المقل قال يا رسول الله فأى الصلاة أفضل قال طول القنوت قال يا رسول الله فأى الهجرة افضل قال من هجر السوء وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير تارة يروى مرسلا وتارة يروى مسندا وفى رواية أى الساعات أفضل قال جوف الليل الغابر وقوله افضل الايمان السماحة والصبر يروى من وجه اخر عن جابر عن النبي وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الاعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده أنه قال والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعى هذه أن لا أتيك فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به قال الاسلام قال وما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله وان توجه وجهك إلى الله وان تصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد إسلامه وفى رواية قال أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم وفى لفظ تقول أسلمت نفسى لله وخليت وجهى اليه وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبى هريرة قال قال رسول الله أن للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وان تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتسلم على بنى ادم اذا لقيتهم فان ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكة وان لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتم ان سكت عنهم وتسليمك على أهل بيتك اذا دخلت عليهم فمن إنتقص منهن شيئا فهو سهم فى الاسلام تركه ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره¹

من شهد للرسول بالتصديق فهو من الشهداء

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 259-266

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وهم الشهداء الذين قال فيهم {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} البقرة 143 ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} المائدة 83 قال مع محمد وأمه وكل من شهد للرسول بالتصديق فهو من الشاهدين كما قال الحواريون {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 53¹ قال تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} البقرة 143 وقوله {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} الحج 78 وقال قوم عيسى {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 53 {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} المائدة 83 في آل عمران والمائدة لان لنا الشهادة ولهم العبادة بلا شهادة والامة الوسط العدل الخيار والشهداء على الناس لابد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول ولهذا قال في الجنزة وجبت وجبت وقال أنتم شهداء الله في الارض وقال توشكوا ان تعلموا أهل الجنة من أهل النار بالثناء الحسن والثناء السيء فعلم أن شهادتهم مقبولة فيما يشهدون عليه من الاشخاص والأفعال ولو كانوا قد يشهدون بما ليس بحق لم يكونوا شهداء مطلقا²

ولما كان أصل الدين الشهادتين كانت هذه الأمة الشهداء ولها وصف الشهادة والقسيون لهم العبادة بلا شهادة ولهذا قالوا {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 53³

يقال في الدعاء يارب يارب

فالسؤال كقول السائل لله أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته وليس ذلك إقساما عليه فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم وعفوه من مقتضى اسمه العفو ولهذا لما قالت عائشة للنبي إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول قال قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادي وفي الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلا أن

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 109

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 504

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 76

يقول يا دليل الحيارى دنى على طريق الصادقين واجعلنى من عبادك الصالحين وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ولهذا يقال فى الدعاء يارب يارب¹

" لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته "

أن الكلام معانيه وحروفه تنقسم إلى خبر وإنشاء والإنشاء منه الطلب والطلب ينقسم إلى أمر ونهي وحقيقة الطلب غير حقيقة الخبر فكيف لا تكون هذه أقسام الكلام وأنواعه بل هو موصوف بها كلها وأيضا فالله تعالى يخبر أنه لما أتى موسى الشجرة ناداه فناداه فى ذلك الوقت لم يناده فى الأزل وكذلك قال {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} الأعراف 11 وقال {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59 وقال {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ {البقرة 30 إلى مواضع كثيرة من القرآن تبين أنه تكلم بالكلام المذكور فى ذلك الوقت فكيف يكون أزليا أبديا ما زال ولا يزال وكيف يكون لم يزل ولا يزال قائلا {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا} هود 48 {يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} آل عمران 55 {يَا مُوسَىٰ طه 11 إلى قوله {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} طه 14 {يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ} 1 {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} 2} المزمّل 1- 2²

وقد قال الامام أحمد رضى الله عنه وغيره من الأئمة لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء كما قال تعالى {فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ} طه 11 فناداه حين أنها ولم يناده قبل ذلك وقال تعالى {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءَ آثُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} الأعراف 22 فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك وكذلك قال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} الأعراف 11 بعد أن خلق آدم وصوره ولم يأمرهم قبل ذلك وكذا قوله {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59 فأخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير يخبر انه تكلم فى وقت معين ونادى فى وقت معين وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ} البقرة 158 وقال نبدأ بما بدأ الله به فأخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة³

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 207

²منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 418

³مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 598

الله رفع عيسى بن مريم حيا

قال تعالى { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا } {157} بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } {158} وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا } {159} النساء 157-159 بيان أن الله رفعه حيا وسلمه من القتل وبين أنهم يؤمنون به قبل أن يموت وكذلك قوله { **وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } آل عمران 55 ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره ولفظ التوفي في لغة العرب معناه الاستيفاء والقبض وذلك ثلاثة أنواع أحدها توفي النوم والثاني توفي الموت والثالث توفي الروح والبدن جميعا فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس والنوم ويخرج منهم الغائط والبول والمسح عليه السلام توفاه الله وهو في السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض ليست حاله كحالة أهل الأرض في الأكل والشرب واللباس والنوم والغائط والبول ونحو ذلك قوله تعالى { **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ** } آل عمران 55 فالمتوفى هو المرفوع إلى الله¹

عيسى عليه السلام حتى وقد ثبت في الصحيح عن النبي انه قال ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وثبت في الصحيح عنه انه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق وانه يقتل الدجال ومن فارقت روحه جسده لم ينزل جسده من السماء واذا أحيى فانه يقوم من قبره وأما قوله تعالى { **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ مَعَنَا فِي السَّمَاءِ بِمَا كُنْتَ فِيهَا رَافِعًا** } آل عمران 55 فهذا دليل على انه لم يعن بذلك الموت اذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين فان الله يقبض أرواحهم ويعرج بها الى السماء فعلم أن ليس في ذلك خاصية وكذلك قوله { **وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } آل عمران 55 ولو كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الارض كبदन سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء وقد قال تعالى في الآية الاخرى { **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا** } {157} بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } {158} النساء 157 - 158 فقوله هنا { **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** } {158} النساء 158 يبين انه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح انه ينزل بدنه وروحه إذ لو أريد موته لقال وما قتلوه وما صلبوه بل مات فقوله { **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** } {158} النساء 158 يبين انه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح انه ينزل بدنه وروحه ولهذا قال من قال من العلماء { **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ** } آل عمران 55 أى قابضك أى قابض روحك وبدنك يقال توفيت الحساب واستوفيته ولفظ التوفى لا يقتضى نفسه توفى الروح دون البدن ولا

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 38

توفيها جميعا الا بقرينة منفصلة وقد يراد به توفى النوم كقوله تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} الزمر 42 وقوله {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ} الأنعام 61 وقد ذكروا فى صفة توفى المسيح ما هو مذكور فى موضعه والله تعالى أعلم¹

ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدر فى إيمانه

والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ولم يشهد أحد منهم صلبه فان الذى صلب انما صلبه اليهود ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضرا وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح وقد قيل أنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس والأول هو المشهور وعليه جمهور الناس وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذى جاء بعد أيام وقال أنا المسيح وذاك شيطان وهم يعترفون بأن الشياطين كثيرا ما تجيء ويدعى أحدهم أنه نبي أو صالح ويقول أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطانا وفى ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذى جاءه جاء وقال أنا المسيح جئت لاهديك فعرف أنه الشيطان فقال أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها فان جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى {وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ} النساء 157 وأضاف الخبر عن قتله الى اليهود بقوله {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} النساء 157 فانهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة اذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ومن جوز قتله فهو كمن قتله فهم فى هذا القول كاذبون وهم آثمون وإذا قالوه فخرا لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه وقوله {وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ} النساء 157 قيل هم اليهود وقيل النصارى والآية تعم الطائفتين وقوله {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ} النساء 157 قيل من قتله وقيل منه أى فى شك منه هل صلب أم لا كما اختلفوا فيه فقالت اليهود هو ساحر وقالت النصارى انه اله فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا وهم فى شك من ذلك {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ} النساء 157 فاذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذى جاء بعد الرفع وقال أنه هو المسيح فإن قيل اذا كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا فى إيمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا} آل عمران 55 وقوله {فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 322-323

ظَاهِرِينَ { الصف 14 قيل ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدح في إيمانه إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح بل هو مقر بأنه عبدالله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح في إيمانه فان هذا اعتقاده موته على وجه معين وغاية الصلب أن يكون قتلا له وقتل النبي لا يقدح في نبوته وقد قتل بنو اسرائيل كثيرا من الانبياء وقال تعالى { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ } آل عمران 146 الآية وقال تعالى { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ } آل عمران 144 وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلمهم هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبي جاءهم في اليقظة فانهم لا يكفرون بذلك بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعا للسنة واتباعا له وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله فهذا غلط منه لا يوجب كفره فكذلك ظن من ظن من الحواريين ان ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهم عن الايمان بالمسيح ولا يقدح فيما نقلوه عنه وعمر لما كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت ولكن ذهب الى ربه كما ذهب موسى وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه لم يكن هذا قادحا في إيمانه وإنما كان غلطا ورجع عنه¹

الإيمان بما وصف الله به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون صدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } { 180 } وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } { 181 } وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { 182 } الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 107-108

به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه وقوله **{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}** آل عمران 54 وقوله سبحانه **{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خذى بالقول والى آل عمران 55¹**

بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله على العرش

قال الامام أحمد فى كتابه الذى كتبه فى الرد على الجهمية والزنادقة بيان ما أنكرت الجهمية الضلال أن يكون الله على العرش وقد قال تعالى **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** طه 5 وقال **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}** الأعراف 54 فقالوا هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش فهو على العرش وفى السموات وفى الأرض وفى كل مكان لا يخلو منه مكان ولا يكون فى مكان دون مكان ويتلون آيات من القرآن **{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}** الأنعام 3 قلنا قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظيم الرب شىء فقالوا أى شىء قلنا أحشاءكم واجوافكم واجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظيم الرب شىء وقد أخبرنا أنه فى السماء فقال **{أَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}** الملك 16 وقد قال جل ثناؤه **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}** فاطر 10 وقال تعالى **{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}** آل عمران 55 وقال تعالى **{بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}** النساء 158 وقال تعالى **{وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ}** الأنبياء 19 وقال تعالى **{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ}** النحل 50 وقال تعالى **{ذِي الْمَعَارِجِ}** 3 **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}** 4 {المعارج 3-4 وقال تعالى **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** الأنعام 18 وقال تعالى **{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}** الشورى 4 قال فهذا خبر الله أنه فى السماء ووجدنا كل شىء فى اسفل مذموما يقول جل ثناؤه **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}** النساء 145 وقال تعالى **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ}** فصلت 29 وقلنا لهم أليس تعلمون ان ابليس مكانه مكان والشياطين مكانهم مكان فلم يكن الله ليجتمع هو وابليس فى مكان واحد ولكن معنى قوله عز وجل **{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}** الأنعام 3 يقول هو اله من فى السموات واله من فى الأرض وهو الله على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش لا يخلو من علم الله مكان ولا يكون علم الله فى مكان دون مكان وذلك قوله **{لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}** الطلاق 12 وقال من الاعتبار فى ذلك لو أن رجلا كان فى يده قدح من قوارير صاف وفيه شىء صاف لكان نظر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم فى القدح والله وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون فى شىء من خلقه وخصلة أخرى لو أن رجلا بنى

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130-131 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 12

دارا بجميع مرافقها ثم اغلق بابها وخرج كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت في داره وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار فأنه عز وجل وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع ما خلق وعلم كيف هو وما هو من غير أن يكون في شيء مما خلق¹

وقال الظلمنى أحد أئمة المالكية قبل ابن عبد البر والباجى وطبقتهما فى كتاب الوصول الى معرفة الأصول أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَمَا كُنْتُمْ } الحديد4 ونحو ذلك من القرآن ان ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته مستو على العرش كيف شاء وقال أيضا قال أهل السنة فى قول الله تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه5 ان الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز وقال ابن عبد البر فى التمهيد شرح الموطأ وهو أشرف كتاب صنف فى فنه لما تكلم على حديث النزول قال هذا حديث ثابت لا يختلف أهل الحديث فى صحته وفيه دليل على أن الله فى السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة وهو من حجتهم على المعتزلة فى قولهم انه فى كل مكان وليس على العرش قال والدليل على صحة ما قاله أهل الحق قول الله تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه5 وقال { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } فاطر10 وقال { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج4 وقال { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافُ وَالرَّافِعُكَ إِلَيَّ } آل عمران55 وذكر آيات الى أن قال وهذا أشهر عند العامة والخاصة من أن يحتاج الى أكثر من حكايته لانه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد ولا خالفهم فيه مسلم وهذا مثل ما ذكر محمد بن طاهر عن ابى جعفر الهمدانى أنه حضر مجلس بعض المتكلمين فقال كان الله ولا عرش فقال يا أستاذ دعنا من ذكر العرش أخبرنا عن هذه الضرورات التى نجدها فى قلوبنا ما قال عارف قطيا الله الا وجد فى قلبه ضرورة تطلب العلو لا تلتفت يمنا ولا يسرة فضرب بيده على رأسه وقال حيرنى الهمدانى حيرنى الهمدانى أراد الشيخ أن إقرار الفطر بأن معبودها ومدعوها فوق هو أمر ضرورى عقلى فطرى لم تستفده من مجرد السمع بخلاف الاستواء على العرش بعد خلق السموات والارض فى ستة أيام فان هذا علم من جهة السمع ولهذا لا تعرف أيام الاسبوع الا من جهة المقرين بالنبوات فاما من لا يعرف ذلك كالترك المشركين فليس فى لغتهم أسماء أيام الاسبوع وهذا من حكمة اجتماع أهل كل ملة فى يوم واحد فى الاسبوع كما قال النبى صلى الله عليه وسلم اليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى وقال أيضا الذى عليه أهل السنة وأئمة الفقه والأثر فى هذه المسألة وما أشبهها الإيمان بما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم والتصديق بذلك وترك التحديد والكيفية فى شيء منه قال ابن تيمية ولما اجتمعنا بدمشق وأحضر فيمن أحضر كتب أبى الحسن الأشعري مثل المقالات و الابانة وأئمة أصحابه كالقاضى

" النسخ لا يجوز في الأخبار "

وقال الامام أبو عبدالله الحارث بن اسماعيل بن أسد المحاسبى فى كتابه المسمى فهم القرآن قال فى كلامه على الناسخ والمنسوخ وأن النسخ لا يجوز فى الأخبار قال لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شىء إلى أن قال وكذلك لا يجوز اذا أخبر أن صفاته حسنة عليا أن يخبر بذلك أنها دنية سفلى فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب وأنه لا يبصر ما قد كان ولا يسمع الاصوات ولا قدره له ولا يتكلم ولا كلام كان منه وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك فإذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز فان تلوت آية فى ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض اخباره وكذلك قوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } الأنعام 18 وقوله { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 وقوله { أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ } الملك 16 وقوله { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } فاطر 10 وقال { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } السجدة 5 وقال { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج 4 وقال لعيسى { **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } آل عمران 55 الآية وقال { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } النساء 158 وقال { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } الأعراف 206 وذكر الآلهة أن لو كان آلهة لابتغوا الى ذى العرش سبيلا حيث هو فقال { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 أى طلبه وقال { سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } الأعلى 1 قال أبو عبدالله فلن ينسخ ذلك لهذا أبدا كذلك قوله { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } الزخرف 84 وقوله { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } ق 16 وقوله { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ } الأنعام 3 وقوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } المجادلة 7 الآية فليس هذا بناسخ لهذا ولا هذا ضد لذلك وأعلم أن هذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته فيكون فى أسفل الأشياء أو ينتقل فيها لانتقالها ويتبعض فيها على أقدارها ويزول عنها عند فنائها جل وعز عن ذلك وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال فرعموا أن الله تعالى فى كل مكان بنفسه كائنا كما هو على العرش لا فرقان بين ذلك ثم أحوالوا فى النفى بعد تثبيت ما يجوز عليه فى قولهم ما نفوه لأن كل من يثبت شيئا فى المعنى ثم نفاه بالقول لم يغن عنه نفيه بلسانه واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى فى كل شىء بنفسه كائنا ثم نفوا معنى ما أثبتوه فقالوا لا كالى شىء فى الشىء قال أبو عبدالله لنا قوله { حَتَّى نَعْلَمَ } محمد 31 { وَسَيَرَى اللَّهُ } التوبة 94 { إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } الشعراء 15 فانما معناه حتى يكون الموجود فيعلمه موجودا ويسمعه مسموعا ويبصره مبصرا لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر وأما قوله { وَإِذَا أَرَدْنَا } الإسراء 16 اذا جاء وقت كون المراد فيه وان قوله

{ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } الأنعام 18 الآية { أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ } الملك 16 { إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 فهذا وغيره مثل قوله { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج 4 { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } فاطر 10 هذا منقطع يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء كلها منزله عن الدخول في خلقه لا يخفى عليه منهم خافية لأنه أبان في هذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده لأنه قال { أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ } الملك 16 يعنى فوق العرش والعرش على السماء لأن من قد كان فوق كل شيء على السماء في السماء وقد قال مثل ذلك في قوله { فَسَيُحُوا فِي الْأَرْضِ } التوبة 2 يعنى على الأرض لا يريد الدخول في جوفها وكذلك قوله { يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ } المائدة 26 يعنى على الأرض لا يريد الدخول في جوفها وكذلك قوله { وَلَا أَصْلَبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ } طه 71 يعنى فوقها عليها وقال { أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ } الملك 16 ثم فصل فقال { أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ } الملك 16 ولم يصل فلم يكن لذلك معنى اذا فصل قوله { مِّن فِي السَّمَاءِ } الملك 16 ثم استأنف التخويف بالخسف إلا أنه على عرشه فوق السماء وقال تعالى { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِّنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } السجدة 5 وقال { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج 4 فبين عروج الأمر وعروج الملائكة ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة اليه فقال { فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } المعارج 4 فقال صعودها إليه وفصله من قوله إليه كقول القائل اصعد الى فلان في ليلة أو يوم وذلك أنه في العلو وان صعودك إليه في يوم فاذا صعدوا الى العرش فقد صعدوا الى الله عز وجل وان كانوا لم يروه ولم يساوه في الارتفاع في علوه فإنهم صعدوا من الأرض وعرجوا بالأمر الى العلو قال تعالى { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } النساء 158 ولم يقل عنده¹

كتاب الله وسنة رسوله مملوء بما هو في أن الله سبحانه وتعالى هو العلى

الأعلى

قوله تعالى { أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ } 16 { أَمْ أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ } 17 { الملك 16-17 بمنزلة ما ثبت في الصحيح أن النبي قال لجارية معاوية بن الحكم أين الله قالت في السماء قال من أنا قالت أنت رسول الله قال أعتقها فإنها مؤمنة وليس المراد بذلك أن السماء تحصر الرب وتحويه كما تحوى الشمس والقمر وغيرهما فإن هذا لا يقوله مسلم ولا يعتقد عاقل فقد قال سبحانه وتعالى { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } البقرة 255 والسماوات في الكرسى كحلقة ملقاة في أرض فلاة والكرسى في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة والرب سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وقال تعالى

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 69

{وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ} طه 71 وقال {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ} التوبة 2 وقال {يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ} المائدة 26 وليس المراد أنهم في جوف النخل وجوف الأرض بل معنى ذلك انه فوق السموات وعليها بائن من المخلوقات كما أخبر في كتابه عن نفسه أنه {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} الحديد 4 وقال {يَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ كُنِّي وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} آل عمران 55 وقال تعالى {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} المعارج 4 وقال {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} النساء 158 وأمثال ذلك في الكتاب والسنة¹

وقال النبي ص في الأحاديث المستفيضة إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر والله موصوف في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة بأن المخلوق يكون أمامه وبين يديه في غير موضع فلا يجوز نفي ذلك عنه فهو سبحانه كما قال النبي ص أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء²

فهذا كتاب الله من أوله الى آخره وسنة رسوله من أولها الى آخرها ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو اما نص واما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى وهو فوق كل شيء وهو على كل شيء وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء³

أما علو الله تعالى عن سائر مخلوقاته وأنه كامل الأسماء الحسنى والصفات العلى فالذى يدل عليه منها الكتاب قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وقوله {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} آل عمران 55 والذي يدل عليه من السنة قصة معراج الرسول الى ربه ونزول الملائكة من عند الله وصعودها اليه وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون في الليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم الى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم وفي حديث الخوارج الا تأمنوني وأنا أمين من في السماء وفي حديث الرقية ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك وفي حديث الأوعال والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه وفي حديث قبض الروح حتى يعرج بها الى السماء التى فيها الله وفى سنن أبى داود عن جبير بن مطعم قال أتى رسول الله أعرابى فقال يا رسول الله جهدت الانفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فاننا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فسبح رسول الله حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال ويحك أتدرى ما الله ان الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ان الله على عرشه وان عرشه على سمواته وأرضه كهكذا وقال بأصابعه مثل القبة وفى الصحيح عن جابر بن عبد الله ان رسول الله لما خطب خطبة عظيمة يوم عرفات فى أعظم جمع حضره رسول الله

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 272 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 483

²الاستقامة ج: 1 ص: 131

³مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 12

جعل يقول الا هل بلغت فيقولون نعم فيرفع اصبعه الى السماء وينكبها اليهم ويقول اللهم اشهد غير مرة وحديث الجارية لما سألها أين الله قالت فى السماء فأمر بعنقها وعلل ذلك بايمانها وأمثاله كثيرة وأما الذى يدل عليه من الاجماع ففى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كانت زينب تفتخر على أزواج النبى تقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سماواته وروى عبدالله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له بم نعرف ربنا قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ولا نقول كما قالت الجهمية أنه هاهنا فى الأرض وباسناد صحيح عن سليمان بن حرب الامام سمعت حماد بن زيد وذكر الجهمية فقال انما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء شىء وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن عامر الضبعى امام أهل البصرة علما ودينا أنه ذكر عنده الجهمية فقال هم أشرف قولا من اليهود والنصارى وقد اجتمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله تعالى على العرش وقالوا هم ليس على العرش شىء وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة امام الأئمة من لم يقل ان الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه ثم ألقى على مزبلة لئلا يتأذى به اهل القبلة ولا أهل الذمة وروى الامام أحمد قال أنا شريح بن النعمان قال سمعت عبدالله بن نافع الصائغ قال سمعت مالك بن أنس يقول الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لا يخلو من علمه مكان وحكى الأوزاعى أحد الأئمة الأربعة فى عصر تابعى التابعين الذين هم مالك امام أهل الحجاز والأوزاعى امام أهل الشام والليث امام أهل البصرة والثورى امام أهل العراق حكى شهرة القول فى زمن التابعين بالايمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية وانما قاله بعد ظهور جهم المنكر لكون الله فوق عرشه النافى لصفاته ليعرف الناس أن مذهب السلف خلافه وروى الخلال بأسانيد كلهم أئمة عن سفيان بن عيينة قال سئل ربيعة بن أبى عبدالرحمن عن قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 كيف استوى قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التصديق وهذا مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبى عبدالرحمن أو نحوه وقال الشافعى خلافة أبى بكر حق قضاءه الله تعالى فى سمائه وجمع عليه قلوب عباده ولو يجمع ما قاله الشافعى فى هذا الباب لكان فيه كفاية ومن أصحاب الشافعى عبدالعزيز بن يحيى الكنانى المكى له كتاب الرد على الجهمية وقرر فيه مسألة العلو وأن الله تعالى فوق عرشه والأئمة فى الحديث والفقهاء والسنة والتصوف المائلون الى الشافعى ما من أحد منهم الا له كلام فيما يتعلق بهذا الباب ما هو معروف يطول ذكره وفى كتاب الفقه الأكبر المشهور عن أبى حنيفة يروونه بأسانيد عن أبى مطيع الحكم بن عبدالله قال سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر فقال لا تكفرن أحدا بذنب الى أن قال عمن قال لا أعرف ربي فى السماء أم فى الأرض فقد كفر لأن الله يقول {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} طه 5 وعرشه فوق سبع سموات قلت فان قال أنه على العرش ولكن لا أدري العرش فى السماء أم فى الأرض قال هو كافر وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل وسئل على بن المدينى عن قوله {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} المجادلة 7 قال اقرأ ما قبله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ {المجادلة7 الآية} وروى عن ابن عيسى الترمذى قال هو على العرش كما وصف فى كتابه وعلمه وقدره وسلطانه فى كل مكان وأبو يوسف لما بلغه عن المريسي انه ينكر الصفات الخيرية وان الله فوق عرشه أراد ضربه فهرب فضرب رفيقه ضربا بشعا وعن اصحاب ابى حنيفة فى هذا الباب ما لا يحصى¹

من آيات الأنبياء الإخبار بالمستقبلات

وفى القرآن من الإخبار بالمستقبلات شيء كثير وأخبر أنه قال للمسيح {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} آل عمران55 وكان كما أخبر²
قال تعالى {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} آل عمران112 فاليهود من حين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه³

أن اليهود لما كذبوا المسيح صاروا كفارا كما قال تعالى للمسيح {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} سورة آل عمران الآية 55⁴

أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث وحين المبعث فى حياتهم وبعد موتهم فقبل المبعث مثل إخبار من تقدم من الأنبياء به ومثل الإرهاصات الدالة عليه وأما حين المبعث فظاهر وأما فى حياته فمثل نصره وإنجائه وإهلاك أعدائه وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه وإهلاك أعدائه كما قال تعالى للمسيح {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} آل عمران55⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 136

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 72

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 302

⁴الجواب الصحيح ج: 1 ص: 115

⁵الجواب الصحيح ج: 6 ص: 409

فإن بني إسرائيل كانوا قد خذلوا بسبب تبديلهم فلما بعث المسيح عليه السلام بالحق كان الله مع من اتبع المسيح والمسيح نفسه لم يبق معهم بل رفع إلى السماء ولكن الله كان مع من اتبعه بالنصر والإعانة¹

وأما قوله تعالى {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَحْتُ لَكَ الْقِيَامَةَ بِرَأْسِي وَجَاعِلٌ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} آل عمران 55 فهذا حق كما أخبر الله به فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود وأيضا فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة²

ثم لما بعث الله محمدا بالدين الذي بعث به المسيح وسائر الأنبياء قبله وكان محمد مصدقا لما جاء به المسيح وكان المسيح مبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد صارت أمة محمد أتبع للمسيح عليه السلام من النصارى الذين غيروا شريعته وكذبوه فيما بشر به فجعل الله أمة محمد فوق النصارى إلى يوم القيامة كما جعلهم أيضا فوق اليهود إلى يوم القيامة والنصارى بعد النسخ والتبديل ليسوا متبعين المسيح لكنهم أتبع لهم من اليهود الذين بالغوا في تكذيبه وسبه فإنهم كذبوه أولا وكذبوا محمدا ثانيا فصاروا أبعد عن متابعة المسيح من النصارى فكانوا مجعولين فوق اليهود والمؤمنون أمة محمد هم المتبعون للمسيح عليه السلام ومن سواهم كافر به فأمة محمد فوق اليهود والنصارى إلى يوم القيامة كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي وقال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} الشورى 13 ولهذا لما جاء المسلمون يقاتلون النصارى غلبوهم وأخذوا منهم خيار الأرض المقدسة وما حولها من مصر والجزيرة وأرض المغرب ولم يزل المسلمون منتصرين على النصارى ولا يزالون إلى يوم القيامة لم تنتصر النصارى قط على جميع المسلمين وإنما تنتصر على طائفة من المسلمين بسبب ذنوبهم ثم يؤيد الله المؤمنين عليهم ولو كان النصارى هم المتبعين للمسيح عليه السلام والمسلمون كفارا به لوجب أن ينتصروا على جميع المسلمين لأن جميع المسلمين ينكرون إلهية المسيح ويكفرون النصارى فعلم أن المتبعين للمسيح هم المسلمون دون النصارى³

النصارى غيروا شريعة المسيح قبل مبعث محمد

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 404

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 178 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 311

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 504-506

مقرون بأن كل من كان متبعاً لدين المسيح عليه السلام الذي لم يغير ولم يبدل فإنه اهتدى بالمسيح من الضلالة ومن كفر به من بني إسرائيل فإنه ضال بل كافر¹

فنحن نشهد لمن كان مؤمناً بموسى متبعاً له أنه مؤمن مسلم مستحق للثواب وكذلك من كان مؤمناً بالمسيح متبعاً له ونشهد لمن قامت عليه الحجة بموسى فلم يتبعه كآل فرعون أنهم من أهل النار وكذلك من قامت عليه الحجة بالمسيح الذين قال الله فيهم **{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ فَرِحْ إِلَىَّ مَرْجِعًا فَانصُرْ مَنْ نَاصِرِينَ}** {56} **وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** {57} **ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ}** {58} **آل عمران 55-58**²

*فمن اتبع المسيح كان مؤمناً ومن كفر به كان كافراً الكن النصارى غيروا شريعة المسيح وبدلوها قبل مبعث محمد فصروا كفاراً بتبديل شريعة المسيح وتكذيب شريعة محمد كما كفرت اليهود بتبديل شريعة التوراة وتكذيب شريعة الإنجيل ثم كفروا بتكذيب شريعة محمد وعلى سائر رسل الله أجمعين فإن المسيح لم يسن لهم التثليث والقول بالأقانيم ولا القول بأنه رب العالمين ولا سن لهم استحلال الخنزير وغيره من المحرمات ولا ترك الختان ولا الصلاة إلى المشرق ولا اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ولا الشرك واتخاذ التماثيل والصليب ودعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين وغيرهم وسؤالهم الحوائج ولا الرهبانية وغير ذلك من المنكرات التي أحدثوها ولم يسنها لهم المسيح ولا ما هم عليه هي السنة التي تسلموها من رسل المسيح بل عامة ما هم عليه من السنن أمور محدثة مبتدعة بعد الحواريين كصومكم خمسين يوماً زمن الربيع واتخاذكم عيداً يوم الخميس والجمعة والسبت فإن هذا لم يسنه المسيح ولا أحد من الحواريين وكذلك عيد الميلاد والغطاس وغير ذلك من أعيادكم بل عيد الصليب إنما ابتدعته هيلانة الحرائية القندقانية أم قسطنطين فهم يقولون إنها هي التي أظهرت الصليب وصنعت لوقت ظهوره عيداً وذلك بعد المسيح والحواريين بمدة طويلة زمن الملك قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلثمائة سنة وفي ذلك الزمان أحدثوا الأمانة لنصوص الأنبياء في غير موضع وأظهروا استحلال الخنزير وعقوبة من لم يأكله وابتدعوا في ذلك الزمان تعظيم الصليب وغير ذلك من بدعهم وكذلك كتب القوانين التي عندهم جعلوها سنة وشريعة فيها شيء عن الأنبياء والحواريين وكثير مما فيها ابتدعه من بعدهم لا ينقلونه

¹القواعد النورانية ج: 3 ص: 373

²لجواب الصحيح ج: 2 ص: 301

لا عن المسيح ولا عن الحواريين فكيف يدعون أنهم على السنة والشريعة التي كان عليها المسيح عليه السلام وهذا مما يعلم بالاضطرار والتواتر أنه كذب بين¹

الهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ} التوبة 33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} آل عمران 57²

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الايمان و التحقيق أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الايمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الايمان بالعمل كما في قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 82 فقد يقال إسم الايمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الايمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الايمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه³

أن الايمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الايمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الايمان الذي في القلب فصار الايمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس في مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 437-438

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة 98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الأحزاب 7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} محمد 2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} محمد 2 وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذي لا بد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتقيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنقيحاً ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم¹

لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الإسلام واخباره أنه دينه الذي ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} التوبة 72 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ {الحديد19} فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} آل عمران57¹

أسماء القرآن

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعدة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة المتشابه المثاني {مُتَشَابِهًا مَّثَانِي} الزمر23 {وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} آل عمران58² {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} آل عمران58 وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية³

شبهه المسيح بآدم عليهما السلام

أن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله و لا شيئاً من صفاته بل هو مخلوق بكلمة الله و سمي كلمة لأنه خلق بكن من غير الحبل المعتاد كما قال تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران59 و قال تعالى {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} {34} مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلْدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} {35} مريم34-35⁴

قال تعالى {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} {17} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا} {18} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} {19} مريم17-19 وفي القراءة الأخرى ليهب لك غلاما زكيا فأخبر أنه رسوله وروحه وأنه تمثل لها بشرا وأنه ذكر أنه رسول الله إليها فعلم أن روحه مخلوق مملوك له ليس المراد حياته التي هي صفته سبحانه وتعالى وكذلك قوله (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) التحريم12 وهو مثل قوله في آدم عليه السلام {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} الحجر29 وقد شبه المسيح بآدم في قوله {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران59 والشبهة في هذا نشأت عند بعض الجهال من أن الإنسان إذا قال روجي فروحه في هذا الباب هي الروح التي في البدن وهي عين قائمة بنفسها وإن كان من الناس من يعني بها الحياة والإنسان مؤلف من بدن وروح وهي عين قائمة بنفسها عند سلف المسلمين وأئمتهم و جماهير الأمم

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 347

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 273

⁴مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 281

والرب تعالى منزله عن هذا وأنه ليس مركبا من بدن وروح ولا يجوز أن يراد بروحه ما يريد الإنسان بقوله روعي بل تضاف إليه ملائكته وما ينزله على أنبيائه من الوحي والهدى والتأييد ونحو ذلك¹ فإنه على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة إما كلمات لا نهاية لها ولم تنزل وإما كلمات لها ابتداء وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة بل إنما خلق بكلمة من كلمات الله كما في الكتب الإلهية القرآن والتوراة إنه يخلق الأشياء بكلماته قال تعالى **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** آل عمران 59²

والمسيح خلق بالكلمة فقليل له كن فكان كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفسير ذلك وإنما خص المسيح بتسميته كلمة الله دون سائر البشر لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد في المخلوقات يخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم ينفخ فيه الروح وخلقوا من ماء الأبوين الأب والأم والمسيح عليه السلام لم يخلق من ماء رجل بل لما نفخ روح القدس في أمه حبلت به وقال الله كن فكان ولهذا شبهه الله بآدم في قوله **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** آل عمران 59 فإن آدم عليه السلام خلق من تراب وماء فصار طينا ثم أبيس الطين ثم قال له كن فكان وهو حين نفخ الروح فيه صار بشرا تماما لم يحتج بعد ذلك إلى ما احتاج إليه أولاده بعد نفخ الروح فإن الجنين بعد نفخ الروح يكمل خلق جسده في بطن أمه فيبقى في بطنها نحو خمسة أشهر ثم يخرج طفلا يرتضع ثم يكبر شيئا بعد شيء وادم عليه السلام حين خلق جسده قيل له كن فكان بشرا تماما بنفخ الروح فيه ولكن لم يسم كلمة الله لأن جسده خلق من التراب والماء وبقي مدة طويلة يقال أربعين سنة فلم يكن خلق جسده إبداعيا في وقت واحد بل خلق شيئا فشيئا وخلق الحيوان من الطين معتاد في الجملة وأما المسيح عليه السلام فخلق جسده خلقا إبداعيا بنفس نفخ روح القدس في أمه قيل له كن فكان فكان له من الاختصاص بكونه خلق بكلمة الله ما لم يكن لغيره من البشر ومن الأمر المعتاد في لغة العرب وغيرهم أن الاسم العام إذا كان له نوعان خصت أحد النوعين باسم وأبقت الاسم مختصا بالنوع كلفظ الدابة والحيوان فإنه عام في كل ما يدب وكل حيوان ثم لما كان للأدمي اسم يخصه بقي لفظ الحيوان يختص به البهيم ولفظ الدابة يختص به الخيل أو هي والبغال والحمير ونحو ذلك وكذلك لفظ الجائز والممكن وذوي الأرحام وأمثال ذلك فلما كان لغير المسيح ما يختص به أبقى اسم الكلمة العامة مختصا بالمسيح³

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 277

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 314

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 317-318

الله سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته

فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال تعالى {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} النساء 1 وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح فإن حواء خلقت من ضلع آدم وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم وخلق آدم أعجب من هذا وهذا وهو أصل خلق حواء فلماذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح فإذا كان سبحانه قادراً أن يخلقه من تراب والتراب ليس من جنس بدن الإنسان أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان وهو سبحانه خلق آدم من تراب ثم قال له كن فيكون لما نفخ فيه من روحه فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له كن فيكون ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتا وناسوتا بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى لما قدم على النبي نصارى نجران وناظروه في المسيح وأنزل الله فيه ما أنزل فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى فكذب الله الطائفتين هؤلاء في غلوهم فية وهؤلاء في ذمهم له وقال عقب هذه الآية {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} {61} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {62} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} {63} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {64} سورة آل عمران الآيات 61 64 وقد امتثل النبي قول الله فدعاهم إلى المباحلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ثم كتب النبي إلى هرقل ملك الروم بقوله تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا} {64} آل عمران 64 إلى آخرها وكان أحيانا يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ويقرأ في الأولى بقوله {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 وهذا كله يبين به أن المسيح عبد ليس باله وأنه مخلوق كما خلق آدم وقد أمر أن يباهل من قال إنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونسائه وقريبه المختص به ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين فإن كان النصارى كاذبين في قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذبا حقت اللعنة عليه وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق والنصارى لما لم يعلموا أنهم على الحق نكلوا عن المباحلة وقد قال عقب ذلك {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 62 تكذيباً للنصارى الذين يقولون هو إله حق من إله حق فكيف يقال إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت وأن هذا هو الناسوت فقط

دون اللاهوت وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال في موضع آخر إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله عيسى إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة لأنه لم يذكرها هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط فإنه يقال عيسى هو المسيح بدليل أنه قال {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} المائدة 75 فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولا ليس هو بإله وأنه ابن مريم والذي هو ابن من مريم هو الناسوت وقال {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} {171} لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} {172} النساء 171 سورة النساء من الآيتين 171 172 وقال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} التوبة 30 وقال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} المائدة 17¹

الصفات الاختيارية

والآيات التي تدل على الصفات الاختيارية كثيرة جدا وهذا كقوله تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59 فانما قال له بعد ان خلقه من تراب لا في الأزل والصفات الاختيارية هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثلا كلامه وسمعه وبصره وارادته ومحبهه ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه واحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة²

والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفي الصفات وابن كلاب ومن تبعه كالأشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم أثبتوا الصفات لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية مثل كونه يتكلم بمشيئته ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد ايمانهم ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى {وَقُلْ اعْمَلُوا

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 54-58

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 222

فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ { التوبة 105 فاثبت رؤية مستقبلية وكذلك قوله تعالى {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} يونس 14 ومثل كونه نادى موسى حين أتى لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته فان المعتزلة والجهمية يقولون خلق نداء فى الهواء والكلابية والسالمية يقولون النداء قام بذاته وهو قديم لكن سمعه موسى فاستجدوا سماع موسى والا فما زال عندهم مناديا

والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا وتبين أنه ناداه حين جاء وأنه يتكلم بمشيئته فى وقت بكلام معين كما قال {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} الأعراف 11 وقال تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59 والقرآن فيه مئون من الآيات تدل على هذا الأصل واما الأحاديث فلا تحصى وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء ولهذا قال عبدالله بن المبارك والامام أحمد بن حنبل وغيرهما لم يزل متكلمًا اذا شاء وكيف شاء وهذا قول عامة أهل السنة فلماذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال هو قديم لم يزل والذين قالوا من المتأخرين هو قديم كثير منهم من لم يتصور المراد بل منهم من يقول هو قديم فى علمه ومنهم من يقول قديم أى متقدم الوجود متقدم على ذات زمان المبعث لا أنه أزلى لم يزل ومنهم من يقول بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضوع¹

قالوا فالكلام القديم هو الحروف والأصوات ومنهم من قال الحروف دون الأصوات فهي قديمة أزلية بأعيانها لا نقول بوجود شيء بعد شيء وأنه ما زال يقول يا آدم يا نوح يا موسى من الأزل إلى الأبد ولا يزال يقول ذلك وقال هؤلاء باقتران الحروف بعضها ببعض في الأزل وأن الياء والسين موجودتان معا في الأزل والترتيب بينهما إنما هو ترتيب في ذاتهما أو في ظهورهما لا في وجودهما وهذا قول طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء حكاه الأشعري في المقالات عن طائفة قائلته وقد وافقهم عليه طائفة من الفقهاء من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وغيرهم فأنكر الجمهور هذا القول وقالوا هذا مخالف لصريح المعقول والمنقول فإن الله تعالى يقول {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82 وأن تخلص الفعل المضارع للاستقبال والمؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا وقال تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59²

الرد على دعوى النصارى لقوله تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 131-132

²الصفدية ج: 2 ص: 58

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ} دعوى النصارى في المسيح قالوا وقال أيضا في موضع آخر {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} فأعنى بقوله مثل عيسى إشارة إلى الناسوت المؤخوذ من مريم الطاهرة لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباضعة فكذلك جسد المسيح خلق من غير جماع ولا مباضعة وكما أن جسد آدم ذاق الموت فكذلك جسد المسيح ذاق الموت وقد بئرهن بقوله أيضا قائلا إن الله ألقى كلمته إلى مريم وذلك حسب قولنا معشر النصارى إن كلمة الله الخالقة حلت في مريم وتجسدت بإنسان كامل وعلى هذا المثال نقول في السيد المسيح طبيعتان طبيعة لاهوتية التي هي طبيعة كلمة الله وروحه وطبيعة ناسوتية التي اخذت من مريم العذراء واتحدت به ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي إذ يقول أليس هذا الأب الذي خلقتك وبرأك واقتناك قيل وعلى لسان داود النبي روحك القدس لا تنزع مني وأيضا على لسان داود النبي بكلمة الله تشددت السموات وبروح فاه جميع أفواههن وليس يدل هذا القول على ثلاثة خالقين بل خالق واحد الأب ونطقه أي كلمته وروحه أي حياته الرد عليهم حقيقة القول في عيسى والجواب من وجوه أحدها أن قوله تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال وخلق منها زوجها وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح فإن حواء خلقت من ضلع آدم وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم وخلق آدم أعجب من هذا وهذا وهو أصل خلق حواء فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح فإذا كان سبحانه قادرا أن يخلقه من تراب والتراب ليس من جنس بدن الإنسان أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان وهو سبحانه خلق آدم من تراب ثم قال له كن فيكون لما نفخ فيه من روحه فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له كن فيكون ولم يكن آدم بما نفخ فيه من روحه لاهوتا وناسوتا بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وناظروه في المسيح وأنزل الله فيه ما أنزل فبين قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى فكذب الله الطائفتين هؤلاء في غلوهم فيه وهؤلاء في ذمهم له وقال عقب هذه الآية {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} {61} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصُّ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {62} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} {63} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {64} آل عمران 61-64 وقد امثثل النبي صلى الله عليه وسلم قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرّفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ثم كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم بقوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا} آل عمران 64 إلى آخرها وكان أحيانا يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ويقرأ في الأولى بقوله {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 وهذا كله يبين أن المسيح

عبد ليس بإله وأنه مخلوق كما خلق آدم وقد أمر أن يباهل من قال أنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين فإن كان النصرى كاذبين في قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذبا حقت اللعنة عليه وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق والنصرى لما لم يعلموا أنهم على الحق نكلوا عن المباهلة وقد قال عقب ذلك {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 62 تكذيبا للنصرى الذين يقولون هو إله حق من إله حق فكيف يقال أنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال في موضع آخر إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله عيسى أشار الى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة لأنه لم يذكر الناسوت ها هنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط فإنه يقال عيسى هو المسيح بدليل أنه قال {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} المائدة 75 فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولا ليس هو بإله وأنه ابن مريم والذي هو ابن مريم هو الناسوت وقال {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} النساء 171¹

حديث المباهلة

فإن أهل نجران التي باليمن كانوا نصرى فقدم عليه وفدهم ستون راكبا وناظرهم في مسجده وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران ولما ظهرت حجته عليهم وتبين لهم أنه رسول الله إليهم أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة فقال تعالى {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} آل عمران 61 فلما دعاهم إلى المباهلة طالبوا أن يمهلهم حتى يشتورا فاشتورا فقال بعضهم لبعض تعلمون أنه نبي وأنه ما باهل قوم نبيا إلا نزل بهم العذاب فاستعفوا من المباهلة فصالحوه وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون لما خافوا من دعائه عليهم لعلمهم أنه نبي فدخلوا تحت حكمه كما يدخل أهل الذمة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون وهم أول من أدى الجزية من النصرى واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصاري وكتب له كتابا مشهورا يذكر فيه شرائع الدين فكانوا في ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه وقصتهم مشهورة متواترة نقلها أهل السير وأهل الحديث وأهل الفقه وأصل حديثهم معروف في الصحاح والسنن كما سنذكره إن شاء الله تعالى ووفد نجران لما قدموا أنزل الله تبارك وتعالى بسبب ما جرى صدر سورة آل عمران و كان ذلك في آخر الأمر سنة عشر أو سنة تسع لم يتقدم على ذلك باتفاق الناس²

¹دقائق التفسير ج: 1 ص: 319-321

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 619 و منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 361-362 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 170

ونقل أهل المغازي والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التي هي آية الجزية قال الزهري أهل نجران أول من أدى الجزية وقوله تعالى {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} آل عمران 63 بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} {70} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {71} سورة آل عمران 70 71 فيكون هذا مما تقدم نزوله وتلك مما تأخر نزوله وجمع بينهما للمناسبة كما في نظائره فإن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يضعها في مواضع تناسبها وإن كان ذلك مما تقدم¹

وقد ثبت في الصحاح حديث وفد نجران ففي البخاري ومسلم عن حذيفة وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال لما نزلت هذه الآية {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} {61} آل عمران 61 دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال اللهم هؤلاء أهلي وفي البخاري عن حذيفة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعنا فقال أحدهما لصاحبه لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالوا إنما نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً قال لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين قال فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أمين هذه الأمة وفي سنن أبي داود وغيره قال أبو داود أخبرنا مصرف بن عمرو اليامي حدثنا يونس يعني ابن بكير حدثنا أسباط بن نصر الهمداني عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي عن ابن عباس قال صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل نجران على ألفي حلة النصف في صفر والنصف في رجب يؤدونها إلى المسلمين وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمين كيد ذات غدر على أن لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا الربا قال إسماعيل فقد أكلوا الربا قال أبو داود إذا نقضوا بعض ما شرط عليهم فقد أحدثوه وما ذكره أبو داود وأهل السير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروف عند أهل العلم وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال ذكره من طريقين قال أبو عبيد رحمه الله حدثنا أبو أيوب الدمشقي قال حدثني سعدان بن يحيى عن عبد الله بن أبي حميد عن أبي المليح الهذلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل نجران فكتب لهم كتاباً بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 208-209

كتب محمد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران إذ كان له حكمه عليهم أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرة ورقيق وأفضل عليهم وترك ذلك لهم ألفي حلة في كل صفر ألف حلة وفي كل رجب ألف حلة كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب وما قضاوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بالحساب وعلى أهل نجران مقرى رسلي عشرين ليلة فما دونها وعليهم عارية ثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين درعا إذا كان كيد باليمن ذو مغدرة وما هلك مما أعاروا رسلي فهو ضامن على رسلي حتى يؤديه إليهم ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانهم وأساقفهم وشاهدهم وغائبهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وعلى أن لا يغيروا أسقفا من سقيفاه ولا واقها من وقيهاه ولا راهبا من رهابنه وعلى أن لا يخسروا ولا يعشروا ولا يطأ أرضهم جيش ومن ملك منهم حقا فالنصف بينهم بنجران على أن لا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منهم بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم شهد عثمان بن عفان ومعيقب قال أبو عبيد الواقة ولي العهد في لغة بلحارث بن كعب يقول إذا مات هذا الأسقف قام الآخر مكانه قال أبو عبيد قال أبو أيوب وحدثني عيسى بن يونس عن عبد الله بن أبي حميد عن أبي المليح عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك وزاد في حديثه قال فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا أبا بكر فوفى لهم بذلك وكتب لهم كتابا نحو من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصابوا الربا في زمانه فأجلاهم عمر وكتب لهم أما بعد فمن وقعوا به من أمراء الشام أو العراق فليوسعهم من جريب الأرض وما اعتملوا من شيء فهو لهم لوجه الله وعقبى من أرضهم قال فأتوا العراق فاتخذوا النجرانية قال أبو عبيد وهي قرية بالكوفة¹

أسماء القرآن

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة العلم {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} آل عمران²

" لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير "

قيل إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد و عن كمال الطاعة لأنه عقب آية الدعاء بقوله {فَلْيُسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي} البقرة 186 و الطاعة و العبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته و نجاته و أما إجابة دعائه و إعطاء سؤاله فقد يكون منفعة و قد يكون مضرة قال تعالى {وَيَدْعُ

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 197-202

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

الإنسان بالشرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا {الإسراء 11} و قال تعالى {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} آل عمران 61 و قال النبي صلى الله عليه و سلم لما دخل على أهل جابر فقال لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون¹

الرد على دعوى الرافضي² إن علي بن أبي طالب كان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأما اية الابتهاال ففي الصحيح أنها لما نزلت أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد علي وفاطمة وحسن وحسين ليباهل بهم لكن خصهم بذلك لأنهم كانوا أقرب إليه من غيرهم فإنه لم يكن ولد ذكر إذ ذاك يمشي معه ولكن كان يقول عن الحسن إن ابني هذا سيد فهما ابناه ونساؤه إذ لم يكن قد بقى له بنت إلا فاطمة رضي الله عنها فإن المباهلة كانت لما قدم وفد نجران وهم نصارى وذلك كان بعد فتح مكة بل كان سنة تسع وفيها نزل صدر آل عمران وفيها فرض الحج وهي سنة الوفود فإن مكة لما فتحت سنة ثمان قدمت وفود العرب من كل ناحية فهذه الآية تدل على كمال اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كما دل على ذلك حديث الكساء ولكن هذا لا يقتضي أن يكون الواحد منهم أفضل من سائر المؤمنين ولا أعلم منهم لأن الفضيلة بكمال الإيمان والتقوى لا بقرب النسب كما قال تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} الحجرات 13 وقد ثبت أن الصديق كان أتقى الأمة بالكتاب والسنة وتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً وهذا مبسوط في موضعه فقولته³ إن علي بن أبي طالب كان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوى مجردة ينازع فيها جمهور المسلمين من الأولين والآخرين وقوله جعله الله نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال {وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ} آل عمران 61 وواخاه فيقال أما حديث المؤاخاة فباطل موضوع فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يواخ أحداً ولا أخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ولا بين الأنصار بعضهم مع بعض ولكن أخى بين المهاجرين والأنصار كما أخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف وأخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء كما ثبت ذلك في الصحيح وأما قوله {وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ} آل عمران 61 فهذا مثل قوله {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} النور 12 نزلت في قصة عائشة رضي الله عنها في الإفك فإن الواحد من المؤمنين من أنفس المؤمنين والمؤمنات وكذلك قوله تعالى

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 34

²(الرافضي) (صاحب كتاب منهاج الكرامة في معرفة الإمامة))

³(الرافضي) (صاحب كتاب منهاج الكرامة في معرفة الإمامة))

{فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} البقرة 54 أي يقتل بعضكم بعضا ومنه قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ} البقرة 84 أي لا يخرج بعضكم بعضا فالمراد بالأنفس الإخوان إما في النسب وإما في الدين وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى أنت مني وأنا منك وقال للأشعريين إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو نفذت نفقة عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان معهم في ثوب واحد ثم قسموه بينهم بالسوية هم مني وأنا منهم وهذا في الصحيح والأول أيضا في الصحيح وفي الصحيح أيضا أنه قال لجليبيب وهذا مني وأنا منه هذا مني وأنا منه وهذا مبسوط في موضعه¹

قال الرافضيا المنهج الثاني في الأدلة المأخوذة من القرآن والبراهين الدالة على إمامة علي من الكتاب العزيز كثيرة قوله تعالى {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} آل عمران 61 نقل الجمهور كافة أن أبناءنا إشارة إلى الحسن والحسين ونساءنا إشارة إلى فاطمة و أنفسنا إشارة إلى علي وهذه الآية دليل على ثبوت الإمامة لعلي لأنه تعالى قد جعل نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم والاتحاد محال فيبقى المراد بالمساواة له الولاية وأيضا لو كان غير هؤلاء مساويا لهم وأفضل منهم في استجابة الدعاء لأمره تعالى بأخذهم معه لأنه في موضع الحاجة وإذا كانوا هم الأفضل تعينت الإمامة فيهم وهل تخفى دلالة هذه الآية على المطلوب إلا على من استحوذ الشيطان عليه واخذ بمجامع قلبه وحببت إليه الدنيا التي لا ينالها إلا بمنع أهل الحق من حقهم والجواب أن يقال أما أخذه عليا وفاطمة والحسن والحسين في المباهلة فحديث صحيح رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال في حديث طويل لما نزلت هذه الآية {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ} آل عمران 61 دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال اللهم هؤلاء أهل ولكن لا دلالة في ذلك على الإمامة ولا على الأفضلية وقوله قد جعله الله نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم والاتحاد محال فبقى المساواة له وله الولاية العامة فكذا المساواة قلنا لا نسلم انه لم يبق إلا المساواة ولا دليل على ذلك بل حمله على ذلك ممتنع لان أحدا لا يساوي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عليا ولا غيره وهذا اللفظ في لغة العرب لا يقتضي المساواة قال تعالى في قصة الإفك {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} النور 12 ولم يوجب ذلك أن يكون المؤمنون والمؤمنات متساوين وقد قال الله تعالى في قصة بني إسرائيل {فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ} البقرة 54 أي يقتل بعضكم بعضا ولم يوجب ذلك أن يكونوا متساوين ولا أن يكون من عبد العجل مساويا لمن لم يعبده وكذلك قد قيل في قوله {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} النساء 29 أي لا يقتل بعضكم بعضا وان كانوا غير متساوين وقال تعالى {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} الحجرات 11 أي لا يلزم بعضكم بعضا فيطعن عليه ويعيبه وهذا نهى لجميع

¹ منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 27-34

المؤمنين أن لا يفعل بعضهم ببعض هذا الطعن و العيب مع انهم غير متساوين لا في الأحكام ولا في
الفضيلة ولا الظالم كالمظلوم ولا الإمام كالمأموم ومن هذا الباب قوله تعالى {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ} البقرة 85 أي يقتل بعضهم بعضا وإذا كان اللفظ {وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ} آل عمران 61
كاللفظ في قوله {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} الحجرات 11 وقوله تعالى {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} النور 12 ونحو ذلك مع أن التساوي هنا ليس بواجب بل ممتنع فكذلك
هناك واشد بل هذا اللفظ يدل على المجانسة والمشابهة والتجانس والمشابهة يكون بالاشتراك في
بعض الأمور كالاشتراك في الإيمان فالمؤمنون اخوة في الإيمان وهو المراد بقوله {لَوْلَا إِذْ
سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} النور 12 وقوله {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ
} الحجرات 11 وقد يكون الاشتراك في الدين وان كان فيهم المنافق كاشتراك المسلمين في الإسلام
الظاهر وان كان مع ذلك الاشتراك في النسب فهو أوكد وقوم موسى كانوا أنفسهم بهذا الاعتبار
قوله تعالى {تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ} آل عمران 61 أي رجالنا
ورجالكم أي الرجال الذين هم من جنسنا في الدين والنسب والرجال الذين هم من جنسكم أو المراد
التجانس في القرابة فقط لأنه قال {أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ} آل عمران 61 فذكر الأولاد
وذكر والنساء والرجال فلم انه أراد الأقربين إلينا من الذكور والإناث من الأولاد والعصبة ولهذا
دعا الحسن والحسين من الأبناء ودعا فاطمة من النساء ودعا عليا من رجاله ولم يكن عنده أحد أقرب
إليه نسبا من هؤلاء وهم الذين أدار عليهم الكساء والمباهلة إنما تحصل بالأقربين إليه و إلا فلو بأهلهم
بالأبعدين في النسب وان كانوا أفضل عند الله لم يحصل المقصود فان المراد انهم يدعون الأقربين
كما يدعوا هو الأقرب إليه والنفوس تحنوا على أقاربها مالا تحنوا على غيرهم وكانوا يعلمون انه
رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلمون انهم أن باهلوه نزلت البهلة عليهم وعلى أقاربهم واجتمع
خوفهم على أنفسهم وعلى أقاربهم فكان ذلك أبلغ في امتناعهم و إلا فالإنسان قد يختار أن يهلك ويحيا
ابنه والشيخ الكبير قد يختار الموت إذا بقى أقاربه في نعمة ومال وهذا موجود كثير فطلب منهم
المباهلة بالأبناء والنساء والرجال والأقربين من الجانبين فلماذا دعا هؤلاء وآية المباهلة نزلت سنة
عشر لما قدم وفد نجران ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قد بقي من أعمامه إلا العباس والعباس لم
يكن من السابقين الأولين ولا كان له به اختصاص كعلي و أما بنو عمه فلم يكن فيهم مثل علي وكان
جعفر قد قتل قبل ذلك فان المباهلة كانت لما قدم وفد نجران سنة تسع أو عشر وجعفر قتل بمؤتة سنة
ثمان فتعين علي رضي الله عنه وكونه تعين للمباهلة إذ ليس في الأقارب من يقوم مقامه لا يوجب أن
يكون مساويا للنبي صلى الله عليه وسلم في شيء من الأشياء بل ولا أن يكون أفضل من سائر
الصحابة مطلقا بل له بالمباهلة نوع فضيلة وهي مشتركة بينه وبين فاطمة وحسن وحسين ليست من
خصائص الإمامة فان خصائص الإمامة لا تثبت للنساء ولا يقتضي أن يكون من بأهل به أفضل من
جميع الصحابة كما لم يوجب أن تكون فاطمة وحسن وحسين أفضل من جميع الصحابة و أما
قول الرافضي لو كان غير هؤلاء مساويا لهم أو أفضل منهم في استجابة الدعاء لأمره تعالى بأخذهم

معه لأنه في موضع الحاجة فيقال في الجواب لم يكن المقصود إجابة الدعاء فان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وحده كاف ولو كان المراد بمن يدعو معه أن يستجاب دعوؤه لدعا المؤمنين كلهم ودعا بهم كما كان يستسقى بهم وكما كان يستفتح بصعاليك المهاجرين وكان يقول وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم ومن المعلوم أن هؤلاء وان كانوا مجابين فكثرة الدعاء ابلغ في الإجابة لكن لم يكن المقصود دعوة من دعاه لإجابة دعائه بل لأجل المقابلة بين الأهل والأهل ونحن نعلم بالاضطرار أن النبي صلى الله عليه وسلم لو دعا أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وغيرهم للمباهلة لكانوا من اعظم الناس استجابة لأمره وكان دعاء هؤلاء وغيرهم ابلغ في إجابة الدعاء لكن لم يأمره الله سبحانه بأخذهم معه لان ذلك لا يحصل به المقصود فان المقصود أن أولئك يأتون بمن يشفقون عليه طبعاً كأبنائهم ونسائهم ورجالهم الذين هم أقرب الناس إليهم فلو دعا النبي صلى الله عليه وسلم قوماً أجانب لآتى أولئك بأجانب ولم يكن يشتد عليه نزول البهلة بأولئك الأجانب كما يشتد عليهم نزولها بالأقربين إليهم فان طبع البشر يخاف على أقربيه مالا يخاف على الأجانب فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوا قرابته وأن يدعوا أولئك قرابتهم و الناس عند المقابلة تقوا كل طائفة للأخرى ارهنوا عندنا أبناءكم و نساءكم فلو رهنتم إحدى الطائفتين أجنبياً لم يرض أولئك كما أنه لو دعا النبي الأجانب لم يرض أولئك المقابلون له و لا يلزم أن يكون أهل الرجل أفضل عند الله إذا قابل بهم لمن يقابله بأهله فقد تبين أن الآية لا دلالة فيها أصلاً على مطلوب الرافضيلكنه و أمثاله ممن في قلبه زيغ كالنصارى الذين يتعلقون بالألفاظ المجملة و يدعون النصوص الصريحة ثم قدحه في خيار الأمة بزعمه الكاذب حيث زعم أن المراد بالأنفس المساوون و هو خلاف المستعمل في لغة العرب و مما يبين ذلك أن قوله نساءنا لا يختص بفاطمة بل من دعاه من بناته كانت بمنزلتها في ذلك لكن لم يكن عنده إذ ذاك إلا فاطمة فإن رقية و أم كلثوم و زينب كن قد توفين قبل ذلك فكذلك أنفسنا ليس مختصاً بعلي بل هذه صيغة جمع كما انه صيغة جمع و كذلك أبناءنا صيغة جمع و إنما دعا حسناً و حسناً لأنه لم يكن ممن ينسب إليه بالبنوة سواهما فان إبراهيم أن كان موجوداً إذ ذاك فهو طفل لا يدعى فان إبراهيم هو ابن مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب مصر و أهدى له البغلة و مارية و سيرين فأعطى سيرين لحسان بن ثابت و تسرى مارية فولدت له إبراهيم و عاش بضعة عشر شهراً و مات فقال النبي صلى الله عليه وسلم أن له مرضعاً في الجنة تتم إرضاعه و كان إهداء المقوقس بعد الحديبية بل بعد حنين¹

القرآن المنزل الى الأرض فيه علم الله

¹ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 122-130

قال تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} {1} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} {2} {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} {3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} {4} {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} {5} العلق 1-5 أطلق الخلق ثم خص الإنسان وأطلق التعليم ثم خص التعليم بالقلم والخلق يتضمن فعله والتعليم يتضمن قوله فإنه يعلم بتكليمه وتكليمه بالإيحاء وبالتكليم من وراء حجاب وبارسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء قال تعالى {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} النساء 113 وقال تعالى {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} آل عمران 61 وقال تعالى {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} طه 114 وقال تعالى {الرَّحْمَنُ} {1} {عَلَّمَ الْقُرْآنَ} {2} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ} {3} {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} {4} {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} {5} الرحمن 1-5¹

تضمن أن القرآن المنزل الى الأرض فيه علم الله كما قال {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} آل عمران 61²

لطائف لغوية

1- لفظ آل فلان إذا أطلق في الكتاب والسنة دخل فيه فلان كما في قوله {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} آل عمران 33 وقوله {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ} القمر 34 فإن لوطا دخل فيهم وقوله {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} غافر 46 وقوله {سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} الصافات 130 فقد دخل ياسين في السلام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى وكذلك لفظ أهل البيت كقوله تعالى {رَحِمْتُ اللَّهُ بِبِرْكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} هود 73 فإن إبراهيم داخل فيهم دخل في ذلك أبو أوفى وكذلك قوله لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود وكذلك قوله من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل اللهم صل على محمد النبي الحديث وسبب ذلك أن لفظ الآل أصله أول تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا فقليل آل ومثله باب وناب وفي الأفعال قال وعاد ونحو ذلك ومن قال أصله أهل فلبت الهاء ألفا فقد غلط فإنه قال ما لا دليل عليه وادعى القلب الشاذ بغير حجة مع مخالفته للأصل وأيضا فإن لفظ الأهل يضيفونه إلى الجماد وإلى غير المعظم كما يقولون أهل البيت وأهل المدينة وأهل الفقير وأهل المسكين وأما الآل فإنما يضاف إلى معظم من شأنه أن يؤول غيره أو يسوسه فيكون مآله إليه ومنه الإيالة وهي السياسة فالشخص هم من يؤوله ويؤول إليه ويرجع إليه ونفسه هي أول وأولى من يسوسه ويؤول إليه فلماذا كان لفظ آل فلان متناولا له ولا يقال هو مختص به بل يتناوله ويتناول من يؤوله فلماذا جاء في أكثر

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 229

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 199

الألفاظ كما صليت على آل إبراهيم وكما باركت على آل إبراهيم وجاء في بعضها إبراهيم نفسه لأنه هو الأصل في الصلاة والزكاة وسائر أهل بيته إنما يحصل لهم ذلك تبعاً وجاء في بعضها ذكر هذا وهذا تنبيهاً على هذين¹

2- محمد صلى الله عليه وسلم هو من آل إبراهيم كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله **{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}** آل عمران 33 قال ابن عباس محمد من آل إبراهيم وهذا بين فإنه إذا دخل غيره من الأنبياء في آل إبراهيم فهو أحق بالدخول فيهم²

3- **{وَاللَّهُ سَمِعُ عَلِيمٌ}** آل عمران 34 **{إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** آل عمران 35 و آل عمران 38 سميع منزه عن الصم عليم منزه عن الجهل³

4- **{وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}** آل عمران 39 **{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ}** آل عمران 46 ولفظ الصالح و الشهيد و الصديق يذكر مفرداً فيتناول النبيين قال تعالى في حق الخليل **{وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}** العنكبوت 27 وقال **{وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}** النحل 122 وقال الخليل **{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}** الشعراء 83 وقال يوسف **{تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}** يوسف 101 وقال سليمان **{وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}** النمل 19 وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم السلام على الله قبل عباده السلام على فلان فقال لنا رسول الله ذات يوم ان الله هو السلام فاذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فاذا قالها أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض الحديث وقد يذكر الصالح مع غيره كقوله تعالى **{فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** النساء 69 قال الزجاج وغيره الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده ولفظ الصالح خلاف الفاسد فاذا أطلق فهو الذي أصلح جميع امره فلم يكن فيه شيء من الفساد فاستوت سريرته وعلانيته وأقواله وأعماله على ما يرضى ربه وهذا يتناول النبيين ومن دونهم⁴

5- فإن أن المفتوحة وما في خبرها بمنزلة المصدر فإذا قال حدثني أنه قال فهو في التقدير حدثني بقوله ولهذا إتفق النحاة على أن إن المكسورة تكون في موضع الجمل والمفتوحة في

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 196-197 و منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 241 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 463

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 197 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 466

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 57

موضع المفردات فقولهُ **{فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ} آل عمران 39** على قراءة الفتح فى تقدير قوله فنادته ببشارته وهو ذكر لمعنى ما نادته به وليس فيه ذكر اللفظ ومن قرأ إن الله فقد حكى لفظه وكذلك الفرق بين قوله أول ما أقول أحمد الله وأول ما أقول إنى أحمد الله¹

6- السيد أصله سيود إجتمعت ياء و واو و سبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء و أدغمت كما قيل ميت و أصله ميوت و المادة فى السواد و السوداء تدل على الجمع و اللون الأسود هو الجامع للبصر و قد قال تعالى **{وَسَيِّدًا وَحَصُورًا} آل عمران 39** قال أكثر السلف سيذا حليما و كذلك يروى عن الحسن و سعيد بن جبير و عكرمة و عطاء و أبى الشعثاء و الربيع بن أنس و مقاتل و قال أبو روق عن الضحاك أنه الحسن الخلق و روى سالم عن سعيد بن جبير أنه إتقى و لا يسود الرجل الناس حتى يكون فى نفسه مجتمع الخلق ثابتا وقال عبدالله بن عمر ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم أسود من معاوية فقيل له و لا أبو بكر و لا عمر قال كان أبو بكر و عمر خيرا منه و ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم أسود من معاوية قال أحمد بن حنبل يعنى به الحليم أو قال الكريم و لهذا قيل إذا شئت يوما أن تسود قبيلة فبالحلم سد لا بالتسرع و الشتم ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بأنه سيد قومه فى الدين و قال ابن زيد هو الشريف و قال الزجاج الذى يفوق قومه فى الخير و قال ابن الأنباري السيد هنا الرئيس و الإمام فى الخير و عن ابن عباس و مجاهد هو الكريم على ربه و عن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم²

7- **{وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} آل عمران 41** و الأمر بتسبيحه يقتضى أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضى التنزيه و التعظيم و التعليل يستلزم إثبات المحامد التى يحمد عليها فيقتضى ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده³

8- و قد دل كتاب الله على أن اسم الوحى و الكلام فى كتاب الله فيهما عموم و خصوص فإذا كان أحدهما عاما اندرج فيه الآخر كما اندرج الوحى فى التكليم العام فى هذه الآية و اندرج التكليم فى الوحى العام حيث قال تعالى **{فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} طه 13** و اما التكليم الخاص الكامل فلا يدخل فيه الوحى الخاص الخفى الذى يشترك فيه الأنبياء و غيرهم كما أن الوحى المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل كما قال تعالى لذكريا **{أَيُّكَ أَلا تَكَلَّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} مريم 10** ثم قال تعالى **{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ} مريم 11** فالإيحاء ليس بتكليم و لا يناقض الكلام و قوله تعالى فى الآية الأخرى **{أَلَّا تَكَلَّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا} آل عمران 41** أن

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 32

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 226-227

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

جعل معنى الاستثناء منقطعا اتفق معنى التكليم فى الآيتين وان جعل متصلا كان التكليم مثل التكليم فى سورة الشورى وهو التكليم العام وقد تبين أنه إنما كلم موسى تكليما خاصا كاملا بقوله {مَنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} البقرة¹253

9- وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية فقال لما ذكر خبر مريم {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} آل عمران²44

10- قال وروى عن قتادة والسدي وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم مثل ذلك وروى بإسناده عن أبي العالية في قوله {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ} آل عمران 43 قال اركدي لربك وعن الأوزاعي قال ركدت في محرابها قائمة وراكعة وساجدة حتى نزل ماء الأصفر في قدميها وعن الحسن أنه سئل عن قوله {اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي} آل عمران 43 قال يقول اعبدي لربك وعن ليث عن مجاهد قال كانت تقوم حتى تتورم قدميها³

11- قلنا القنوت هو دوام الطاعة و الثبات عليه و ذلك واجب في جميع الصلوات كما قال تعالى {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي} آل عمران⁴43

12- {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} آل عمران⁵48 الحكمة فى القرآن فهى معرفة الحق وقوله والعمل به⁵

13- {فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرِيءُ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَأَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ} آل

عمران⁶49 فإن الإذن نوعان إذن لمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى الإباحة والإجازة⁶

14- {وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ} آل عمران⁷49 ولفظ الإنباء يتضمن معنى

الإعلام والإخبار لكنه فى عامة موارد استعماله أخص من مطلق الأخبار فهو يستعمل فى الإخبار بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة كما قال وأنبيئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم⁷

15- {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران⁸49 قال سعيد بن جبیر عن ابن عباس

ان فى ذلك لآية للمؤمنين قال العلامة تكون بين الرجل وأهله رواه ابن المنذر حدثنا موسى بن

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 402-403

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 274

³رسالة فى قنوت الأشياء ج: 1 ص: 8

⁴شرح العمدة ج: 4 ص: 157 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 224

⁵مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 45

⁶الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 132

⁷النبوات ج: 1 ص: 236

هارون حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع عن سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان حدثنا أبو اسامة حدثني سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان في ذلك لآية قال علامة ألم تر إلى الرجل إذا أراد أن يرسل إلى أهله في حاجة أرسل بخاتمه أو ثبوتة فعرفوا أنه حق فتارة يرسل خاتمه معه فيعلمون أنه أرسله ليعلموا أنه أرسله إذ كانوا قد علموا أن الخاتم معه وأنه ليس في إرساله مع ذلك الشخص الذي لا يعرفونه مقصود له إلا أن يكون علامة على أنه أرسله اليهم فيصدقونه فيما أخبر عنه¹

16- وقال تعالى **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** آل عمران 49 فالآيات التي هي دلائل النبوة وبراهينها هي آيات من الله وعلامات منه أنه أرسل الرسول وكما أن الآيات التي هي كلامه تتضمن إخباره لعباده وأمره ففيها²

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد كثيرة متنوعة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميتها من يسميها من النظار معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن كما قال المسيح **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** آل عمران 49³

17- **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا** آل عمران 50 أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد⁴

18- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى إذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}** {54} **فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}** {55} القمر 54-55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً}** {2} **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّكِلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}** {3} الطلاق 2-3 وقوله **{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ}** يوسف 90 وقوله **{وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ}** النساء 5⁵

¹النبوات ج: 1 ص: 200

²النبوات ج: 1 ص: 169

³الجواب الصحيح ج: 5 ص: 415

⁴الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 90

⁵مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

19- وكان صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئاً وجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وتقواه وخشيته وإلى طاعتهم كما قال نوح عليه السلام {أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا نوحاً} وقال تعالى {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} النور 52 وقال كل من نوح والنبیین {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} الشعراء 108¹

20- {إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} آل عمران 51 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فإذا أمر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 وفي قوله {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} النساء 36 وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} البقرة 21 وقوله {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ} الزمر 2 {قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي} الزمر 14 وقوله {أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} الزمر 64 ثم قد يقرب بها اسم آخر كما في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وقول نوح {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا} نوح 3²

21- {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 52 ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} الزمر 29 فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر 60 وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جرده ودفعه وغمط الناس ازدرأؤهم واحتقارهم³

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 324

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

22- {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ} آل عمران 53 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} الأعراف 3 وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 وقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} الأنعام 153 وقد يقرن به غيره كقوله {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} الأنعام 155 وقوله {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} الأنعام 106 وقوله {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} يونس 109¹ 23- وقال تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59 وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان وأن الفعل المضارع للاستقبال²

24- فهذا يقتضي أنه إذا أراد شيئاً فإنما أمره أن يقول له كن فيكون وقوله إذا أراد فافتضى هذا انه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له كن³

25- فالحجة اسم لما يحتج به من حق وباطل كقوله {لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} البقرة 150 فإن الظالمين يحتجون عليكم بحجة باطلة كقول المشركين لما حولت القبلة إلى الكعبة قد عاد إلى قبلكم فسوف يعود إلى ملتكم فهذه حجة داحضة من الظالمين ومما يبين ذلك قوله {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} الشورى 16 فسامها حجة وجعلها داحضة وهؤلاء الذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له هم الكفار من المشركين وأهل الكتاب فهم يحاجون المؤمنين ليردوهم عن دينهم⁴

26- و قال تعالى {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} الروم 28 أي كخيفة بعضكم بعضا وقوله تعالى {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} النور 12 وقوله {فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِكِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ} البقرة 54 وقوله {نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ} آل عمران 61⁵

{وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزه عن السفه⁶

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 64

³الصفدية ج: 2 ص: 71

⁴الجواب الصحيح ج: 3 ص: 70

⁵مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 458

⁶الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

27- تدخل من (من تكون لبيان الجنس) هذه في النفي لتحقيق نفي الجنس كما في قوله تعالى {وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ} الطور 21 وقوله {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 62 وقوله {فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} الحاقة 47 ولهذا إذا دخلت في النفي تحقيقاً أو تقديراً أفادت نفي الجنس قطعاً فالتحقيق ما ذكر والتقدير كقوله تعالى لا إله إلا الله سورة آل عمران 62 وقوله {لَا رَيْبَ فِيهِ} البقرة 2 ونحو ذلك بخلاف ما إذا لم تكن من موجودة كقولك ما رأيت رجلاً فإنها ظاهرة لنفي الجنس ولكن قد يجوز أن ينفي بها الواحد من الجنس كما قال سيبويه يجوز أن يقال ما رأيت رجلاً بل رجلين فتبين أنه يجوز إرادة الواحد وإن كان الظاهر نفي الجنس بخلاف ما إذا دخلت من فإنها تنفي نفي الجنس قطعاً ولهذا لو قال لعبيده من أعطاني منكم ألفاً فهو حر فأعطاه كل واحد ألفاً عتقوا كلهم وكذلك لو قال لنسائه من أبرأنتي منكن من صداقها فهي طالق فأبرأه كلهن طلقن كلهن فإن المقصود بقوله منكم بيان جنس المعطى والمبرئ لا إثبات هذا الحكم لبعض العبيد والأزواج فإن قيل فهذا كما لا يمنع أن يكون كل المذكور متصفاً بهذه الصفة¹

28- {فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} آل عمران 63 عليم منزّه عن الجهل²

29- {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} آل عمران 63 وقال تعالى {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} {15} {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} {16} {الليل 15-16} أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى} {النازعات 21} وقال عن جنس الكافر {فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى} {31} {وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} {32} {القيامة 31-32} فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما اخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا} {15} {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً} {16} {المزمل 15-16} ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله {سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {الفتح 16} وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} {16} {المزمل 16}³

30- {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} آل عمران 63 لفظ الصلاح و الفساد فاذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر وكذلك اسم المصلح والمفسد قال

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 40

² الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

³ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

تعالى فى قصة موسى {أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي
الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ} القصص 19 {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي
قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} الأعراف 142 وقال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} {11} أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} {12} البقرة 11-
12 والضمير عائد على المنافقين فى قوله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا
هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} {8} البقرة 8 وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبى ومن سيكون بعدهم ولهذا
قال سلمان الفارسى أنه عنى بهذه الآية قوما لم يكونوا خلقوا حين نزولها وكذا قال السدى عن أشياخه
الفساد الكفر والمعاصى وعن مجاهد ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهى والقولان معناهما واحد
وعن ابن عباس الكفر وهذا معنى قول من قال النفاق الذى صافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار
المؤمنين وعن أبى العالية ومقاتل العمل بالمعاصى وهذا أيضا عام كالأولين¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 83

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {64} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {65} هَآأَنْتُمْ هُوَآءَ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {66} مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {67} إِن أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} {68} وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} {69} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} {70} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {71} وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {72} وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {73} يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} {74} وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأْمَنَهُ بَقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {75} بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بَعْدَهُ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} {76} إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {77} وَإِن مِّنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {78} مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَآئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ} {80} وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ

رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ
 إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ {81} فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ
 ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {82} أَفَغَيِّرُ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {83} قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
 عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ
 مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
 مُسْلِمُونَ {84} وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ {85}

التوحيد أعظم العدل

و أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله كما قال تعالى
 {فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّكَ أَجْمَعِينَ} {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {93} الحجر 92-93 قال أبو العالية خلتان تسأل
 العباد يوم القيامة عنهما عما كانوا يعملون وعما اجابوا الرسل قال تعالى {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا
 أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} القصص 65 و {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} القصص 62 هو الشرك في
 العبادة ولهذا يقرر الله هذين الأصليين في غير موضع من القرآن بل يقدمهما على كل ما سواهما
 لأنهما أصل الأصول وهذان هما الإيمان والإسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ تارة في
 ركعتي الفجر سورتي الإخلاص وتارة بآيتي الإيمان والإسلام فيقرأ قوله {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
 إِلَيْنَا} البقرة 136 الآية فأولها الإيمان وآخرها الإسلام ويقرأ في الثانية {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا
 إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ} آل عمران 64 فأولها إخلاص العباد لله وآخرها الإسلام
 له فإن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام وفيهما الإيمان القولى والعملى فأعظم نعمة أنعمها الله على
 عباده الإسلام والإيمان وهما في هاتين الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم وقال {وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ
 الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُ
 وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} العنكبوت 46 ففيها الإيمان والإسلام في آخرها وقال {الَّذِينَ
 آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} {69} ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون {70} {الزخرف 69-70 وهذا
 باب واسع لأن الناس مضطرون إلى هذين الأصليين فلا ينجون من العذاب ولا يسعدون إلا بهما
 فعليهم أن يؤمنوا بالأنبياء وما جاؤا به وأصل ما جاؤا به أن لا يعبدوا إلا الله وحده كما قال {وَمَا
 أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء 25 وقال تعالى
 {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف 45 وقال
 تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 والأنبياء
 صلوات الله عليهم وسلامه هم وسائط بين الله وبين خلقه فى تبليغ كلامه وأمره ونهيه ووعده ووعيده

وأنبأه التى أنبأ بها عن أسمائه وصفاته وملائكته وعرشه وما كان وما يكون وليسوا وسائط فى خلقه لعباده ولا فى رزقهم وإحيائهم وإماتتهم ولا جزائهم بالأعمال وثوابهم وعقابهم ولا فى إجابة دعواتهم وإعطاء سؤالهم بل هو وحده خالق كل شىء وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه وهو الذى يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن وهو الذى {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} الرحمن 29¹

وقسم من الناس غلوا فى الأنبياء والصالحين وفى الملائكة أيضا فجعلوهم وسائط فى العبادة فعبدوهم ليقربوهم إلى الله زلفى وصوروا تماثيلهم وعكفوا على قبورهم وهذا كثير فى النصارى ومن ضاهاهم من ضلال أهل القبلة ولهذا ذكر الله هذا الصنف فى القرآن فى آل عمران وفى براءة فى ضمن الكلام على النصارى وهذا الذى أمره الله أن يقوله لهم هو الذى كتب إلى هرقل ملك الروم وهؤلاء قد يظنون أنهم إذا إستشفعوا بهم شفَعُوا لهم وإن من قصد معظما من الملائكة والأنبياء فاستشفع به شفَع له عند الله كما يشفع خواص الملوك عندهم وقد أبطل الله هذه الشفاعة فى غير موضع من القرآن وبين الفرق بينه وبين خلقه فإن المخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه ويقبل الشفاعة لرغبة أو رهبة أو محبة أو نحو ذلك فيكون الشفيع شريكا للمشفوع إليه وهذه الشفاعة منتفية فى حق الله قال تعالى {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة 255 وقال تعالى {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى} الأنبياء 28²

*فالقِيَامِ والقعود والركوع والسجود حق للواحد المعبود خالق السموات والأرض وما كان حقا خالصا لله لم يكن لغيره فيه نصيب مثل الحلف بغير الله عز وجل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت متفق عليه وقال أيضا من حلف بغير الله فقد أشرك فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} البينة 5 وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وإن تعصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وإن تناصحوا من ولأه الله أمركم وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشرك دقه وجله وحقيره وكبيره حتى أنه قد تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها بألفاظ متنوعة تارة يقول لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها وتارة ينهى عن الصلاة بعد طلوع الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس وتارة يذكر ان الشمس إذا طلعت طلعت بين قرنى شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 279 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 172 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 104 و مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 368 و الصفدية ج: 2 ص: 312 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 368 و النبوات ج: 1 ص: 86

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 283

ونهى عن الصلاة فى هذا الوقت لما فيه من مشابهة المشركين فى كونهم يسجدون للشمس فى هذا الوقت وإن الشيطان يقارن الشمس حينئذ ليكون السجود له فكيف بما هو أظهر شركا ومشابهة للمشركين من هذا وقد قال الله تعالى فيما امر رسوله أن يخاطب به اهل الكتاب **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** آل عمران 64 وذلك لما فيه من مشابهة أهل الكتاب من إتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ونحن منهيون عن مثل هذا ومن عدل عن هدى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وهدى أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى ما هو من جنس هدى النصارى فقد ترك ما أمر الله به ورسوله

وأما قول القائل انقضت حاجتي ببركة الله وبركتك فمنكر من القول فإنه لا يقرب بالله في مثل هذا غيره حتى أن قائلا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله وشئت فقال **أجعلتني لله ندا ما شاء الله وحده** وقال لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء محمد¹ وإذا كان التوحيد أصل صلاح الناس والإشراك أصل فسادهم والقسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل وإرادة العلو مقرونة بالفساد إذ هو أصل الظلم فهذا مع هذا وهذا مع هذا كالمزوزين في قرن فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بالواجبات وهو البر وهو العدل والذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق عباده وهي فساد وظلم ولهذا سمي قطاع الطريق مفسدين وكانت عقوبتهم حقا لله تعالى لاجتماع الوصفين والذي يريد العلو على غيره من أبناء جنسه هو ظالم له باغ إذ ليس كونك عاليا عليه بأولى من كونه عاليا عليك وكلاهما من جنس واحد فالقسط والعدل أن يكونوا إخوة كما وصف الله المؤمنين بذلك والتوحيد وإن كان أصل الصلاح فهو أعظم العدل ولهذا قال تعالى **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** آل عمران 64²

توحد الدين الملى دون الشرعى

فى توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعى وما فى ذلك من اقرار ونسخ وجريان ذلك فى اهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعتبار قال الله تعالى **{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}** البقرة 124 فهذا نص فى انه امام الناس كلهم وقال

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 95 وزيارة القبور ج: 1 ص: 59

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 419

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} النحل120 وهو القدوة الذى يؤتم به وهو معلم الخير وقال تعالى فى آل عمران بعد ان قص امر المسيح ويحيى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران64 وهى التى كتبها النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم لما دعاهم الى الاسلام وقال {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {65} هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {66} مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {67} إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} {68} آل عمران65-68 الى قوله {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران81 الى قوله {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} آل عمران83 فانكر على من يبغى غير دين الله كما قال فى اول السورة {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} {19} آل عمران18-19 فاخبر ان الدين عند الله الاسلام وان الذين اختلفوا من اهل الكتاب وصاروا على ملل شتى ما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم وفيه بيان ان الدين واحد لا اختلاف فيه وهذا فى القرآن مذكور فى مواضع كثيرة وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مثل ما ترجم عليه البخارى فقال باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة عن النبى قال انا معاشر الأنبياء اخوة لعلات ومثل صفته فى التوراة لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا ولهذا وحد الصراط والسبيل فى مثل قوله تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة6-7 والاسلام دين جميع المرسلين¹

هدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه

فلما اختلف الاحزاب من بينهم هدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فبعث النبى الذى بشر به المسيح ومن قبله من الأنبياء داعيا الى ملة ابراهيم ودين المرسلين قبله وبعده وهو عبادة الله وحده لا شريك له واخلاص الدين كله لله وطهر الأرض من عبادة الأوثان ونزه الدين عن الشرك دقه وجله بعد ما كانت الاصنام تعبد فى ارض الشام وغيرها فى دولة بنى إسرائيل ودولة

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 108-110

الذين قالوا انا نصارى وأمر بالايمان بجميع كتب الله المنزلة كالتوراة والانجيل والزيور والفرقان
وبجميع أنبياء الله من آدم الى محمد قال الله تعالى { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {135} قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } {136} فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي
شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {137} صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ

عَابِدُونَ } {138} البقرة 135-138 وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيدده بالعدل فقال تعالى
{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 64¹

فإن القرآن مملوء بدعوة اهل الكتاب وأمره لهم بالإيمان به واتباعه بل وعموم رسالته إلى جميع الناس بل
والى الجن والإنس وليس فيه قط أنه لم يرسل إلى أهل الكتاب بل فيه التصريح بدعوة أهل الكتاب في غير موضع
كقوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 64²

العبادة المأمور بها

الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان أى ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين الله
أى يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له و العبادة اصل
معناها الذل ايضا يقال طريق معبد اذا كان مذلا قد وطئته الاقدام لكن العبادة المأمور بها تتضمن
معنى الذل ومعنى الحب فهى تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هو التتيم
واوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصبابة لا نصاب القلب اليه ثم الغرام
وهو الحب اللازم للقلب ثم العشق وأخرها التتيم يقال تيم الله أى عبد الله فالمتيم المعبد
لمحبوبه ومن خضع لانسان مع بغضه له لا يكون عابدا له ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن
عابدا له كما قد يحب ولده وصديقه ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى بل يجب أن يكون الله
أحب إلى العبد من كل شئ وأن يكون الله أعظم عنده من كل شئ بل لا يستحق المحبة والذل التام
إلا الله وكل ما أحب لغير الله فمحبتة فاسدة وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلا قال الله تعالى
{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 613

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 151

كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
 {التوبة 24} فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة فإن الطاعة لله ورسوله والارضاء لله ورسوله
 {والله ورسوله أحق أن يرضوه} {التوبة 62} والايطاء لله ورسوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ} {التوبة 59} وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك فلا يكون إلا لله
 وحده كما قال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
 شَيْئًا} آل عمران 64 الى قوله {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64
 قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ
 إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} {التوبة 59} فالإيطاء لله والرسول كقوله {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ
 عَنْهُ فَانْتَهُوا} {الحشر 7} وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده كما قال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ
 إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 وقال
 تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} {الأنفال 64} أي حسبك وحسب من اتبعك الله
 ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطا فاحشا كما قد بسطناه في غير هذا
 الموضع وقال تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} {الزمر 36}

فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال
 والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها
 ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله
 أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده
 من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله
 ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا
 يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا²

اليهود موصوفون بالكبر والنصاري بالشرك

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ولا
 يستعين إلا به ولا يتوكل إلا عليه ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ولا يكره إلا ما يبغضه الرب
 ويكرهه ولا يوالي إلا من والاه الله ولا يعادى إلا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئا إلا الله
 ولا يعطى إلا الله ولا يمنع إلا الله فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 154 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 364

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 31

المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك والشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود قال الله تعالى في نعت اليهود {أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَتَّقُونَ} البقرة 87 وقال في نعت النصارى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 ولهذا قال تعالى في سياق الكلام مع النصارى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64 وقال تعالى {سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَّكِبُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْعُغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} الأعراف 146 ولما كان الكبر مستلزما للشرك والشرك ضد الاسلام وهو الذنب الذي لا يغفره الله {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} النساء 48 وقال {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} النساء 116 كان الانبياء جميعهم مبعوثين بدين الاسلام فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الاولين ولا من الآخرين قال في حق ابراهيم {وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {131} البقرة 130-131 الى قوله {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} البقرة 132 وقال {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85 وقال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} آل عمران 83 فذكر اسلام الكائنات طوعا وكرها لان المخلوقات جميعها متعبدة له التبعد العام سواء اقر المقر بذلك او انكره وهم مدينون مدبرون فهم مسلمون له طوعا وكرها ليس لاحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره ولا حول ولا قوة الا به وهو رب العالمين ومليكمهم يصرفهم كيف يشاء وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم وكل من سواه فهو مربوب مصنوع ومفطور فقير محتاج معبد مقهور وهو الواحد القهار الخالق البارى المصور وهو ان كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدر له وهو مفترق اليه كافتقار هذا وليس فى المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر بل كل ما هو سبب فهو محتاج الى سبب اخر يعاونه والى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه وهو سبحانه وحده الغنى عن كل ما سواه ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه قال تعالى وقال تعالى {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} الزمر 38 وقال تعالى {وَإِن يَمَسُّنِكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّنِكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الأنعام 17 وقال تعالى عن الخليل {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} {78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {79} وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} {80} الانعام 78-80 الى قوله تعالى

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} {82} الانعام 82 وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه ان هذه الاية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبي وقالوا يا رسول الله اينما لم يلبس ايمانا بظلم فقال انما هو الشرك الم تسمعوا الى قول العبد الصالح {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} لقمان 13 و ابراهيم الخليل امام الحنفاء المخلصين حيث بعث وقد طبق الارض دين المشركين قال الله تعالى {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} البقرة 124 فبين ان عهده بالامامة لا يتناول الظالم فلم يأمر الله سبحانه ان يكون الظالم اماما واعظم الظلم الشرك وقال تعالى {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل 120 و الامة هو معلم الخير الذي يؤتم به كما ان القدوة الذي يقتدى به والله تعالى جعل فى ذريته النبوة والكتاب وانما بعث الانبياء بعده بملته قال تعالى {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل 123 وقال تعالى {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} آل عمران 68 وقال تعالى {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} آل عمران 67 وقال تعالى {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {135} فُولُوا أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {136} البقرة 135-136 وقد ثبت فى الصحيح عن النبي ان ابراهيم خير البرية فهو افضل الانبياء بعد النبي وهو خليل الله تعالى وقد ثبت فى الصحيح عن النبي من غير وجه انه قال ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا¹

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}

قال تعالى {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهَذَا وَالْهَؤُلَاءِ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} العنكبوت 46 فهو أمر للمؤمنين أن يقولوا الحق الذي أوجبه الله عليهم وعلى جميع الخلق ليرضوا به الله وتقوم به الحجة على المخالفين فإن هذا من الجدل بالتي هي أحسن وهو إن تقول كلاما حقا يلزمك ويلزم المنازع لك أن يقوله فإن وافقك وإلا ظهر عناده وظلمه ويشبه ذلك قوله تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64 فأمره لهم أن يقولوا اشهدوا بأنا مسلمون يتضمن

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 455 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 198-202

إقامة الحجة عليهم كما كان المسيح عليه السلام يقول وامتنزنا نحن بأنا مخلصون له وأنتم لستم مخلصين له فأوجب هذا أن الحق معنا دونكم وأن أعمالنا صالحة مقبولة وأعمالكم مردودة¹

فقد دعاهم أولاً إلى الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله كما قال تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 ثم قال تعالى {فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64 وهذه الآية هي التي كتب بها النبي إلى قيصر ملك الروم لما دعاه إلى الإسلام وقال في كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم أسلم يؤتكَ أجرُكَ مرتين وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين و {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64 فدعاه النبي إلى الإسلام في كتابه الذي أرسله إليه²

إن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يضعها في مواضع تناسبها

قال أبو عبيد حدثني سعيد بن عفير عن يحيى بن أيوب عن يونس بن يزيد الأيلي عن ابن شهاب قال أول من أعطى الجزية أهل نجران وكانوا نصارى فإن قيل قوله تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64 وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى هرقل مع دحية الكلبي مدة هدنته للمشركين وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يسلم وقد حضر عند هرقل وسأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان أسلم عام الفتح فدل ذلك على أن هذا الكتاب كان قبل الفتح ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع فدل ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة وآية المباهلة قد علم يقيناً أنها نزلت في قصة قدوم وفد نجران والمفسرون وأهل السير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتصل ونقل أهل المغازي والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 83

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 78-79

فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التي هي آية الجزية قال الزهري أهل نجران أول من أدى الجزية وقوله تعالى {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} {63} سورة آل عمران 63 بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} {70} {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {71} سورة آل عمران 70 71 فيكون هذا مما تقدم نزوله وتلك مما تأخر نزوله وجمع بينهما للمناسبة كما في نظائره فإن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يضعها في مواضع تناسبها وإن كان ذلك مما تقدم ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهي قوله تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} آل عمران 64 لفظها يعم اليهود والنصارى وكذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء لطائفتين وأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بها لليهود فدل ذلك على أن نزولها متقدم فإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية ولهذا لم يضرب الجزية على أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز ولكن لما بعث معاذاً إلى اليمن وكان كثيراً من أهلها يهود أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافراً وهذا كان متأخراً بعد غزوة تبوك وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ باليمن قال ابن أبي حاتم للمناسبة كما في نظائره فإن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يضعها في مواضع تناسبها وإن كان ذلك مما تقدم ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهي قوله تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} آل عمران 64 لفظها يعم اليهود والنصارى وكذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء لطائفتين وأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بها لليهود فدل ذلك على أن نزولها متقدم فإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية ولهذا لم يضرب الجزية على أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز ولكن لما بعث معاذاً إلى اليمن وكان كثيراً من أهلها يهود أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافراً وهذا كان متأخراً بعد غزوة تبوك وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ باليمن قال ابن أبي حاتم عليه وسلم سورة آل عمران الآية 64 وروى بإسناده عن ابن جريج في قوله تعالى تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم قال بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل الكتاب فأبوا عليه فجاهدهم وكذلك سائر الآيات التي فيها خطاب للطائفتين كقوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {65} هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {66} مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {67} آل عمران 65- 67 ومما ينبغي أن يعلم أن أهل نجران كان منهم نصارى أهل ذمة وكان منهم مسلمون وهم الأكثرون والنبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة لهؤلاء وهؤلاء واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء كما أخرجنا في

الصحيحين عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل أمة أميناً وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح¹

إبراهيم الخليل إمام الحنفاء حيث بعث

أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كnoch وإبراهيم ويعقوب وأتباعهم إلى الحواريين وهذا تحقيق لقوله تعالى **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** آل عمران 85 وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان وقد قال الله تعالى عن الخليل فقال تعالى **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** {67} **{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}** {68} آل عمران 67-68²

وقال تعالى عن الخليل **{إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}** {78} **{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** {79} **{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}** {80} **{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا}** {81} الأنعام 78-81 إلى قوله تعالى **{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}** {الأنعام 82} وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله أينما لم يلبس إيمانه بظلم فقال إنما هو الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح **{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** لقمان 13 وإبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين قال الله تعالى **{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** البقرة 124 فبين أن عهده بالإمامة لا يتناول الظالم فلم يأمر الله سبحانه أن يكون الظالم إماماً وأعظم الظلم الشرك وقال تعالى **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** {النحل 120} و الأمة هو معلم الخير الذي يؤتم به كما أن القدوة الذي يقتدي به و الله تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب وإنما بعث الأنبياء بعده بملته قال تعالى **{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** {النحل 123} وقال تعالى **{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}** آل عمران 68 وقال تعالى **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** آل عمران 67 وقال تعالى **{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** {135} **{فُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ**

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 206-208

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 129

إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ {136} البقرة 135-136 إلى قوله {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم إن إبراهيم خير البرية فهو أفضل الأنبياء بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو خليل الله تعالى وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً¹

قالت اليهود كان ابراهيم يهودياً وقالت النصارى كان نصرانياً وكلاهما كان من الإختلاف المذموم {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} آل عمران² 67

لفظ العقل في القرآن

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذي ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة³

قال تعالى {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} آل عمران 65 ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} الحج 46 وقوله {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} آل عمران 118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} الملك 10 وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} الحج 46 والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 391

²منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 260

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي
الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء¹

قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى } طه 54 أى العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ
فَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ } الفجر 5 أى لذي عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } البقرة 197 وقال
{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الأنفال 22 وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده
ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا
فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا
يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ
هُمُ الْعَافُونَ } الأعراف 179 وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44²

{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}

قال تعالى {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا} الإسراء 36 وهذا نهي عن التكلم بلا علم وهو عام في جميع أنواع الأخبار وقد يتناول ما
اخبر به الإنسان وما قد يعتقده بغير الأخبار من الدلائل والآيات والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم
فلا ينفي شيئا إلا بعلم ولا يثبتته إلا بعلم ولهذا كان عامة العلماء على أن النافي للشيء عليه الدليل
على ما ينفيه كما أن المثبت للشيء عليه الدليل على ثبوته وحكي عن بعض الناس أنه قال النافي ليس
عليه دليل وفرق بعضهم بين العقليات والشرعيات فأوجبه في العقليات دون الشرعيات وهؤلاء اشتبه
عليهم النافي بالممانع المطالب فإن من أثبت شيئا فقال له آخر أنا لا أعلم هذا ولا أوافقك عليه ولا
أسلمه لك حتى تأتي بالدليل كان هذا مصيبا ولم يكن على هذا الممانع المطالب بالدليل دليل وإنما الدليل
على المثبت بخلاف من نفي ما أثبتته غيره فقال له قولك خطأ والصواب في نفي قولك ولم يكن هذا
كذا فإن هذا عليه الدليل على نفيه كما على ذلك المثبت الدليل على إثباته وإذا لم يأت واحد منهما
بدليل كان كلاهما بلا حجة ولهذا كان من أثبت شيئا أو نفاه وطلب منه الحجة فلم يأت بها كان منقطعا
في المناظرة وإذا اعترض المعارض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعارض عليه
وثبت قول الأول وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذ كان الدليل الذي يجب اتباعه هو
الدليل السالم عن المعارض المقاوم ولو أقام دليلا قطعيا فعورض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول ما

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

ذكرته يفيد العلم والعلم لا يعارضه الظن والبيانات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام السوفسطائية فهو سبحانه نهى عن الكلام بلا علم

مطلقا وخص الكلام على الله بقوله تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ} الأعراف 33 ونهى عن اتباع خطوات الشيطان وأخبر أنه يأمر بالقول على الله بلا علم
فقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ} {168} إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {169} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانُوا كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ} {170} البقرة 168- 170 وكذلك ذم من يجادل ويحاج بلا علم بقوله تعالى {هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} آل عمران 66¹

والله يحرم الكذب لا سيما عليه ويحرمه لكون المتكلم به يتكلم بلا علم كما قال تعالى
{هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ} آل عمران 66 فحينئذ فالدليل الشرعي لا يجوز أن يعارضه دليل غير شرعي ويكون مقدما
عليه بل هذا بمنزلة من يقول إن البدعة التي لم يشرعها الله تعالى تكون مقدمة على الشرعة التي أمر
الله بها أو يقول الكذب مقدم على الصدق أو يقول خبر غير النبي صلى الله عليه وسلم يكون مقدما
على خبر النبي أو يقول ما نهى الله عنه يكون خيرا مما أمر الله به ونحو ذلك وهذا كله ممتنع وأما
الدليل الذي يكون عقليا أو سمعيا من غير أن يكون شرعيا فقد يكون راجحا تارة ومرجوحا أخرى
كما أنه قد يكون دليلا صحيحا تارة ويكون شبهة فاسدة أخرى فما جاءت به الرسل عن الله تعالى
إخبارا أو أمرا لا يجوز أن يعارض بشيء من الأشياء وأما ما يقوله الناس فقد يعارض بنظيره إذ قد
يكون حقا تارة وباطلا أخرى وهذا مما لا ريب فيه لكن من الناس من يدخل في الأدلة الشرعية ما ليس
منها كما أن منهم من يخرج منها ما هو داخل فيها والكلام هنا على جنس الأدلة لا على أعيانه²

أن القول بلا علم حرام بالنص والإجماع قال تعالى {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ} الإسراء 36 وقال {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} الأعراف 33 وقال
{هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} آل عمران 66 وقال
{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} الحج 3 وقال {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} غافر 35 والسلطان الذي أتاهم هو الحجة الآتية من عند

¹ مؤلفات ابن تيمية ج: 6 ص: 458-461

² درء التعارض ج: 1 ص: 200

الله كما قال { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } الروم 35 و قال { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ } {156} فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {157} الصافات 156- 157 و قال { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى } النجم 23 فما جاءت به الرسل عن الله فهو سلطان فالقرآن سلطان و السنة سلطان لكن لا يعرف أن النبي صلى الله عليه و سلم جاء به إلا بالنقل الصادق عن الله فكل من احتج بشيء منقول عن النبي صلى الله عليه و سلم فعليه أن يعلم صحته قبل أن يعتقد موجبه و يستدل به و إذا احتج به على غيره فعليه بيان صحته و إلا كان قائلاً بلا علم¹

و الله تعالى قد حرم القول بغير علم فكيف إذا كان المعروف ضد ما قاله²

النهي عن الجدل بغير علم

ما في القرآن من ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها فهذا كثير جدا فإنه يجادلهم تارة في التوحيد وتارة في النبوات وتارة في المعاد وتارة في الشرائع بأحسن الحجج وأكملها كما أخبر الله تبارك وتعالى عن أولي العزم من الرسل بمجادلة الكفار وأمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بالمجادلة بالتي هي أحسن وذم سبحانه من جادل بغير علم أو في الحق بعدما تبين ومن جادل بالباطل³

* فالذي جاء به الكتاب والسنة النهي عن أمور منها الجدل بغير علم كقوله { هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } آل عمران 66 ومنها الجدل في الحق بعد ظهوره كقوله { يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ } الأنفال 6 ومنها الجدل في الباطل كقوله { وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } غافر 5 ومنهم الجدل في آياته كقوله { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } غافر 4 وقوله { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا } غافر 35 وقوله { إِنْ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مِمَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ } غافر 56 وقوله { وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ } الشورى 35 ونحو ذلك قوله { وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } الشورى 16 وقوله { وَهُمْ يُجَادِلُونَ }

¹ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 60-61

² منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 76

³ الجواب الصحيح ج: 1 ص: 230 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 469 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 309 و درء التعارض ج:

فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ {الرعد 13} وقوله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} الحج 8¹

والظالم يكون ظالماً بترك ما تبين له من الحق واتباع ما تبين له أنه باطل والكلام بلا علم فإذا ظهر له الحق فعند عنه كان ظالماً وذلك مثل الألد في الخصام قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} البقرة 204²

* إن كان الرجل مقلدا فليكن مقلدا لمن يترجح عنده أنه أولى بالحق فإن كان مجتهدا اجتهد واتبع ما يترجح عنده أنه الحق ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها وقد قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن 16 لكن عليه أن لا يتبع هواه ولا يتكلم بغير علم قال تعالى {هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} آل عمران 66 وقال تعالى {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ} الأنفال 6³

امتناع تماثل العلمين

ومما يبين امتناع تماثل العلمين أن الرب بكل شيء عليم سواء قيل إنه عالم بعلم واحد أو بعلم غير متناهية وليس علم العبد لا هكذا ولا هكذا بل هذا ممتنع فيه ولو قال القائل علم الرب بالشيء المعين كعلم العبد به كان ممتنعا فإن الرب يعلمه علم إحاطة به والعبد لا يحيط به وأيضا فإننا نعلم بالضرورة أن الله أعلم وأقدر من خلقه كما قال تعالى {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} آل عمران 66 وهذا أوضح في المنقول والمعقول وأعظم من أن يحتاج إلى شواهد فكيف يجوز أن يظن التماثل مع ثبوت التفاضل⁴

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}

فإن هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره وقال تعالى عن إبراهيم {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} آل عمران 67⁵

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 453

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 73

³مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 293

⁴الصفدية ج: 2 ص: 15

⁵الصفدية ج: 2 ص: 302

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة الا فى محبة الله والتقرب اليه بما يحبه ولا تمكن محبته الا بالاعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهى ملة ابراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين وكان النبى يقول لأصحابه قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين والحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات قال محمد ابن كعب مستقيما وقال عطاء مخلصا وقال آخرون متبعا فهو مستقيم القلب الى الله دون ما سواه قال الله تعالى {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} فصلت6 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} الأحقاف13 قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فلم يلتفتوا عنه يمنه ولا يسرة فلم يلتفتوا بقلوبهم الى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالسؤال ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون الا الله ولا يحبون معه أندادا ولا يحبون الا اياه لا لطلب منفعة ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائنا من كان ولا يسألون غيره ولا يتشرفون بقلوبهم الى غيره¹

شرع من قبلنا شرع لنا

وشرع من قبلنا شرع لنا لا سيما شرع ابراهيم فإننا مأمورون باتباع ملته بقوله تعالى {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل123 وقوله تعالى {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} آل عمران68² قال تعالى {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} البقرة135 الى قوله {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} البقرة137 فقوله {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} البقرة135 يبين أن ما عليه اليهود و النصارى ينافي ملة ابراهيم وهذا بعد مبعث محمد مما لا ريب فيه فإنه هو الذي بعث بملة ابراهيم والطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهم من التبديل قال تعالى {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا} آل عمران68 وقال {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} الأنعام161 الآية وقال {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} النحل123 وقوله {وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} البقرة130 يبين أن كل من رغب عن ملة ابراهيم فهو سفیه قال أبو العالية رغبتم الى اليهود و النصارى عن ملة ابراهيم و ابتدعوا اليهودية و النصرانية و ليست من الله و تركوا دين ابراهيم و كذلك قال قتادة بدلوا دين الأنبياء و اتبعوا المنسوخ فأما موسى و المسيح و من إتبعهما فهم على ملة

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 33

²شرح العمدة ج: 2 ص: 201

إبراهيم متبعون له و هو إمامهم و هذا معنى قوله **{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا}** آل عمران 68 فهو يتناول الذين إتبعوه قبل مبعث محمد و بعد مبعثه و قيل إنه عام قال الحسن البصري كل مؤمن و لي إبراهيم ممن مضى و ممن بقى و قال الربيع بن أنس هم المؤمنون الذين صدقوا نبى الله و إتبعوه و كان محمد و الذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم و هذا و غيره مما يبين أن اليهود و النصارى لا يعبدون الله و ليسوا على ملة إبراهيم¹

أهل البدع بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل

فهؤلاء أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب وتصديق ما ذكره أنك لا تجد طائفة منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم بل لكل طائفة أصول دين لهم فهي أصول دينهم الذي هم عليه ليس هي أصول الدين الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وما هم عليه من الدين ليس كله موافقا للرسول ولا كله مخالفا له بل بعضه موافق وبعضه مخالف بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل كما قال تعالى **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** آل عمران 71²

وعطف الشيء على الشيء فى القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم الذى ذكر لهما والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزأه ولا يعرف لزومه له كقوله **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}** الفرقان 59 ونحو ذلك وقوله **{وَ جِبْرِيْلَ وَ مِيكَالَ}** البقرة 98 وقوله **{وَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ}** {3} من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان آل عمران 3-4 وهذا هو الغالب ويليهِ أن يكون بينهما لزوم كقوله **{لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ}** آل عمران 71 وقوله **{وَ مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}** النساء 115 وقوله **{وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ}** النساء 136 فان من كفر بالله فقد كفر بهذا كله فالمعطوف لازم للمعطوف عليه وفى الآية التى قبلها المعطوف عليه لازم فانه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وفى الثانى نزاع وقوله **{لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ}** آل عمران 71 هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا وهكذا أهل البدع لا تجد أحدا ترك بعض السنة التى يجب التصديق بها والعمل الا وقع فى

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 570-569

²النبوات ج: 1 ص: 138

بدعة ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئاً من السنة كما جاء في الحديث ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها رواه الامام أحمد¹

من لبس الحق بالباطل لزم أن يكتم الحق

قوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَتَلَبَّسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} آل عمران 71 ذمهم على الوصفين وكل منهما مقتض للذم وهما متلازمان ولهذا نهى عنهما جميعاً في قوله {وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} البقرة 42 فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به لزم أن يكتم الحق الذي تبين أنه باطل إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق²

التقديم والتأخير والفصل بين المعطوف والمعطوف لا ينكره إلا من لم يعرف اللغة

يجوز أن يعود الإستثناء إلى الجملة الأولى فقط إذا دل على ذلك دليل ويجوز للمتكلم أن ينوي ذلك ويقصده فإنه لو قال قاتل أهل الكتاب وعادهم وأبغضهم إلا ان يعطوا الجزية كان الإستثناء عائداً إلى الجملة الأولى فقط وقد قال سبحانه {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} آل عمران 28 وهذا الإستثناء في الظاهر عائد إلى الجملة الأولى وقال سبحانه {بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {1} فسيحوا في الأرض أربعة أشهر {2} التوبة 1-2 إلى قوله {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ} {4} التوبة 3-4 وليس هذا مستثنى مما يليه بل من أول الكلام وقد قال جماعة من أهل العلم في قوله {لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} النساء 83 إن قليلاً عائد إلى قوله {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ} {النساء 83} إلا قليلاً وهذا الإستثناء عائد إلى جملة بينها وبين الإستثناء جمل أخرى والمقدم في القرآن والمؤخر باب من العلم وقد صنف فيه العلماء منهم الإمام أحمد وغيره وهو متضمن هذا وشبهه أن يكون الإستثناء مؤخراً في اللفظ مقدماً في النية ثم التقديم والتأخير في لغة العرب والفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة معترضة وبين غيرهما لا ينكره إلا من لم يعرف اللغة وقد قال سبحانه {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيْنَا آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {72} وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 173

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 192

مَثَلٌ مَا أُوتِيْتُمْ {73} آل عمران 72-73 فقله {أَنْ يُؤْتَى} آل عمران 73 من تمام قول أهل الكتاب أى كراهة أن يؤتى فهو مفعول تؤمنوا وقد فصل بينهما بقوله {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ} آل عمران 73 وهى جملة أجنبية ليست من كلام أهل الكتاب فأبغ الفصل بين الفعل والمفعول أو بين المستثنى والمستثنى منه وإذا لم يكن عود الاستثناء إلى الأخيرة مقطوعا به لم يجب عود الإستثناء إليها بل ربما كان فى سياقه ما يقتضى أن عوده إلى الأولى أوكد¹

تخصيصه سبحانه لمن هداه تخصيص بفضله

تخصيصه سبحانه لمن هداه بأن إستعمله إبتداء فيما خلق له تخصيص بفضله و هذا منه لا يوجب الظلم و لا يمنع العدل و لهذا يقول تعالى {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} آل عمران 74 وقوله {وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} البقرة 105 و لذلك حكمة و رحمة هو أعلم بها و كذلك الفضل هو أعلم به كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد فى غيرها و بسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض و جودية و غير ذلك من حكمته²

وقد قال النبى لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وهذا كثير فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدورا لمن دونه فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس بل ولا أكثرهم فهؤلاء يدخلون الجنة وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التى فضل الله بها غيرهم ولا تركوا واجبا عليهم وان كان واجبا على غيرهم ولهذا كان من الايمان ما هو من المواهب والفضل من الله فانه من جنس العلم والاسلام الظاهر من جنس العمل وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} محمد 17 وقال {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} مريم 76 وقال {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} الفتح 4 ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ولكن الله يجعل ذلك فى قلبه فضلا منه وجزاء على عمل سابق كما قال {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا} {66} وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا} {67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} {68} النساء 66- 68 كما قال {اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} الحديد 28 وكما قال {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ} المجادلة 22 ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم وهذا الجنس غير مقدور للعباد وان كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضا بفضل الله وإعانتة واقداره لهم لكن الأمور قسمان منه ما جنسه مقدور لهم لاعانة الله لهم كالقيام والقعود ومنه ما جنسه غير مقدور لهم اذا قيل ان الله يعطى من اطاعه قوة فى قلبه وبدنه يكون بها قادرا على ما لا يقدر عليه غيره فهذا أيضا حق وهو من جنس هذا المعنى قال تعالى {إِذْ يُوحى

¹مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 163

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 224 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 96 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 337

رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ آمَنُوا { الأنفال 12 وقد قال { إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا { الأنفال 45 فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحى إلى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين والمقصود أنه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ويفضل الله ذاك بهذا الايمان وان لم يكن المفضول ترك واجبا فيقال وكذلك فى الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل اذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ولكن بدنه عاجز كما قال النبي فى الحديث الصحيح إن بالمدينة لرجالا ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وكما قال تعالى {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً { النساء 95 فاستثنى أولى الضرر وفى الصحيحين عن النبي أنه قال من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا وفى حديث أبى كبشة الأنمارى هما فى الأجر سواء وهما فى الوزر سواء رواه الترمذى وصححه ولفظه إنما الدنيا لأربعة رجل آتاه الله علما ومالا فهو يتقى فى ذلك المال ربه ويصل فيه رحمه ويعلم الله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو ان لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم الله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء ولفظ ابن ماجه مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل قال رسول الله فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يختبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ورجل لم يؤته علما ولا مالا وهو يقول لو كان لى مثل مال هذا عملت مثل الذى يعمل فهما فى الوزر سواء كالشخصين إذا تماثلا فى ايمان القلوب معرفة وتصديقا وحبا وقوة وحالا ومقاما فقد يتماثلان وإن كان لأحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر كما جاء فى الأثر أن المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه والمنافق قوته فى جسمه وضعفه فى قلبه ولهذا قال النبي فى الحديث الصحيح ليس الشديد نوح الصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب وقد قال رأيت كائى أنزع على قليب فأخذها ابن أبى قحافة فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له فأخذها ابن الخطاب فاستحالت فى يده غربا فلم أر عبقرىا يفري فريه حتى صدر الناس بعطن فذكر أن أبا بكر أضعف وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل قوة عمر فلا ريب أن أبا بكر أقوى ايمانا من عمر وعمر أقوى عملا منه كما قال ابن مسعود ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر وقوة الايمان أقوى وأكمل من قوة العمل وصاحب الايمان يكتب له اجر عمل

غيره وما فعله عمر في سيرته مكتوب مثله لأبي بكر فانه هو الذي استخلفه وفي المسند من وجهين عن النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي وزن بالامة فرجح ثم وزن أبو بكر بالامة فرجح ثم وزن عمر بالامة فرجح وكان في حياة النبي وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبي بكر من الإيمان والعلم ما لم يكن عنده فهو قد دعاه الى فعله من خير واعانه عليه بجهد والمعين على الفعل اذا كان يريد ارادة جازمة كان كفاعله كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا وقال من دل على خير فله مثل أجر فاعله وقال من فطر صائما فله مثل أجره وقد روى الترمذى من عزى مصابا فله مثل أجره وهذا وغيره مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان في الأعمال الظاهرة بل يتفاضلان ويكون المفضل فيها أفضل عند الله من الآخر لأنه أفضل في الإيمان الذي في القلب وأما إذا تفاضلا في إيمان القلوب فلا يكون المفضل فيها أفضل عند الله ألبتة وإن كان المفضل لم يهبه الله من الايمان ما وهبه للفاضل ولا أعطى قلبه من الأسباب التي بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما أعطى المفضل ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض وان كان الفاضل أقل عملا من المفضل كما فضل الله نبينا ومدة نبوته بضع وعشرون سنة على نوح وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من أول النهار إلى صلاة الظهر وعلى من عمل من صلاة الظهر الى العصر فأعطى الله أمة محمد أجرين وأعطى كلا من أولئك اجرا لأن الايمان الذي في قلوبهم كان أكمل وأفضل وكان أولئك أكثر عملا وهؤلاء أعظم اجرا وهو فضله يؤتية من يشاء بالأسباب التي تفضل بها عليهم وخصهم بها وهكذا سائر من يفضله الله تعالى فانه يفضله بالأسباب التي يستحق بها التفضيل بالجزاء كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص وغير ذلك مما يفضله الله به وانما فضله في الجزاء بما فضل به من الايمان كما قال تعالى {وَقَالَتْ طَافِقَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {72} وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} آل عمران 72-73 وقال في الآية الأخرى {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} الأنعام 124 وقال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} {الحج 75} وقال {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} البقرة 284 وقد بين في مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 339-344

يدا الله صفتان من صفات ذاته

{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ} آل عمران 73 فإن الناس في يدي الله على ثلاثة اقوال

أما أهل السنة فيقولون يدا الله صفتان من صفات ذاته حكمها حكم جميع صفاته من حياته وعلمه وقدرته و ارادته وكلامه فيثبتون جميع صفاته التي وصف بها نفسه ووصفه بها أنبيأؤه وان شاركت أسماء صفاته أسماء صفات غيره كما ان له أسماء قد يسمى بها غيره مثل رؤوف رحيم عليم سميع بصير حلیم صبور شكور قدير مؤمن على عظيم كبير مع نفي المشابهة في الحقيقة والمماثلة كما في قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الشورى 11 جمعت هذه الآية بين الاثبات والتنزيه ونسبة صفاته اليه كنسبة خلقه اليه والنسبة والاضافة تشابه النسبة والاضافة ومن هذا الوجه جاء الاشتراك في أسمائه وأسماء صفاته ما شبهت الرؤية برؤية الشمس والقمر تشبيها للرؤية لا للمرئي كما ضرب مثله مع عباده المملوكين كمثل بعض خلقه مع مملوكيهم وله المثل الاعلى في السموات فتدبر هذا فانه مجلاة شبهة ومصفاة كدر فجميع ما نسمعه وينسب اليه ويضاف من الاسماء والصفات هو كما يليق بالله ويصلح لذاته والفريقان الآخران اهل التشبيه والتمثيل منهم من يقول يد كيدي تعالى الله عن ذلك واهل النفي والتعطيل يقولون اليدان هما نعمتان والقدرتان والله اكبر كبير¹

الانتفاع بآثار الكفار والمنافقين في أمور الدنيا جائز

فإن ذكر ما عند قديما ما لا يتعلق بالدين مثل مسائل الطب والحساب المحض التي يذكرون فيها ذلك وكتب من أخذ عنهم مثل محمد بن زكريا الرازي وابن سينا ونحوهم من الزنادقة الأطباء ما غايته انتفاع بآثار الكفار والمنافقين في أمور الدنيا فهذا جائز كما يجوز السكنى في ديارهم ولبس ثيابهم وسلاحهم وكما تجوز معاملتهم على الأرض كما عامل النبي يهود خيبر وكما استأجر النبي هو وأبو بكر لما خرجا من مكة مهاجرين ابن أريقط رجلا من بني الديل هاديا خريتا والخريت الماهر بالهداية وائتمناه على انفسهما ودوابهما ووعدها غار ثور صبح ثالثة وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله مسلمهم وكافرهم وكان يقبل نصحهم وكل هذا في الصحيحين وكان أبو طالب ينصر النبي ويذب عنه مع شركه وهذا كثير فإن المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤمن كما قال تعالى {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} آل عمران 75 ولهذا جاز ائتمان أحدهم على المال وجاز أن يستطب المسلم الكافر إذا كان ثقة نص على ذلك الأئمة كأحمد وغيره إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا وائتمان لهم

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 366

على ذلك وهو جائز إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة مثل ولايته على المسلمين وعلوه عليهم ونحو ذلك فأخذ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطابه بل هذا أحسن لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة وليس هناك حاجة إلى احد منهم بالخيانة بل هي مجرد انتفاع بآثارهم كالملابس والمسكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك وإن ذكروا ما يتعلق بالدين فإن نقوله عن الأنبياء كانوا فيه كأهل الكتاب وأسوأ حالا وإن أحالوا معرفته على القياس العقلي فإن وافق ما في القرآن فهو حق وإن خالفه ففي القرآن بيان بطلانه بالأمثال المضروبة كما قال تعالى {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} الفرقان 33 ففي القرآن الحق والقياس البين الذي يبين بطلان ما جاءوا به من القياس وإن كان ما يذكرونه مجملا فيه الحق وهو الغالب على الصابئة المبدلين مثل أرسطو وأتباعه وعلى من اتبعهم من الآخرين قبل الحق ورد الباطل والحق من ذلك لا يكون بيان صفة الحق فيه كبيان صفة الحق في القرآن فالأمر في هذا موقوف على معرفة القرآن ومعانيه وتفسيره وترجمته والترجمة والتفسير ثلاث طبقات أحدها ترجمة مجرد اللفظ مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء فهذا علم نافع إذ كثير من الناس يقيد المعنى باللفظ فلا يجرده عن اللفظين جميعا والثاني ترجمة المعنى وبيانه بأن يصور المعنى للمخاطب فتصوير المعنى له وتفهمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ كما يشرح للعربي كتابا عربيا قد سمع ألفاظه العربية لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أن نظيره إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركب صور ذلك المعنى إما تحديدا وإما تقريبا الدرجة الثالثة بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يحقق ذلك المعنى إما بدليل مجرد وإما بدليل يبين علة وجوده وهنا قد يحتاج إلى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذلك المعنى كما يحتاج في الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور له ذلك المعنى وقد يكون نفس تصوره مفيدا للعلم بصدقة وإذا كفى تصور معناه في التصديق به لم يحتج إلى قياس ومثل ودليل آخر فإذا عرف القرآن هذه المعرفة للكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصابئين والمشركين لا بد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضا وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل شيء كما قال تعالى {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} يوسف 111 وقال {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} النحل 89 ومعلوم أن الأمة مأمور بتبليغ القرآن لفظه ومعناه كما أمر بذلك الرسول ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم فيترجم لهم بحسب الإمكان والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة وإذا كان من المعلوم أن أكثر المسلمين بل أكثر المنتسبين منهم إلى العلم لا يقومون بترجمة القرآن وتفسيره وبيانه فلأن يعجز غيرهم عن ترجمة ما عنده وبيانه أولى بذلك لأن عقل المسلمين أكمل وكتابهم أقوم قليلا وأحسن حديثا ولغتهم أوسع لا سيما

إذا كانت تلك المعاني غير محققة بل فيها باطل كثير فإن ترجمة المعاني الباطلة وتصويرها صعب لأنه ليس لها نظير من الحق من كل وجه¹

" على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة والكذب "

قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} المائدة 1 و العقود هي العهود و قال تعالى {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا} الأنعام 152 و قال تعالى {وَإَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} الإسراء 34 و قال تعالى {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْاَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} الأحزاب 15 فقد أمر سبحانه بالوفاء بالعقود و هذا عام و كذلك أمر بالوفاء بعهد الله و بالعهد و قد دخل في ذلك ما عقده المرء على نفسه بدليل قوله {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ} الأحزاب 15 فدل على ان عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه و ان لم يكن الله قد أمر بنفس ذلك المعهود عليه قبل العهد كالنذر و البيع إنما أمر بالوفاء به و لهذا قرنه بالصدق في قوله {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا} الأنعام 152 لأن العدل في القول خبر يتعلق بالماضي و الحاضر و الوفاء بالعهد يكون في القول المتعلق بالمستقبل كما قال تعالى {وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} 75 {فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ} 76 {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} 77 {التوبة 75- 77 فأما من كان عهده موقتا فلم يبيح له نقضه بدليل قوله {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} التوبة 4 و قال {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ} الأنفال 58 فانما أباح النبذ عند ظهور أمارات الخيانة لأن المحذور من جهتهم و قال تعالى {وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} المؤمنون 8 {وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} المعارج 32 في سورتي المؤمنون و المعارج و هذا من صفة المستنئين من الهلع المذموم بقوله {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} 19 {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} 20 {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} 21 {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} 22 {المعارج 19- 22 الى قوله {وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} 32 {المعارج 32 و هذا يقتضى و جوب ذلك لأنه لم يستثن من المذموم إلا من اتصف بجميع ذلك و لهذا لم يذكر فيها إلا ما هو واجب و كذلك في سورة المؤمنين قال في أولها {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} 10 {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 11 {المؤمنون 10- 11 فمن لم يتصف بهذه الصفات لم يكن من الوارثين لأن ظاهر الآية الحصر فان إدخال الفصل بين المبتدأ و الخبر يشعر بالحصر و من لم يكن

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 114-117

من وارثي الجنة كان معرضاً للعقوبة الا ان يعفو الله عنه و إذا كانت رعاية العهد واجبة فرعايته هي الوفاء به و لما جمع الله بين العهد و الأمانة جعل النبي صلى الله عليه و سلم ضد ذلك صفة المنافق في قوله إذا حدث كذب و إذا و عد أخلف و إذا عاهد غدر و إذا خاصم فجر و عنه على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة و الكذب و ما زالوا يوصون بصدق الحديث و أداء الأمانة و هذا عام و قال تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } {26} الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ { البقرة 26-27 فذمهم على نقض عهد الله و قطع ما أمر الله بصلته لأن الواجب إما بالشرع و إما بالشرط الذي عقده المرء باختياره و قال تعالى { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَأ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } {75} بلى من أوفى بعهدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } {76} آل عمران 75- 76 و قال { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } آل عمران 77¹

اداء الامانة هو الوفاء بموجب العقود

وقد كتبت في قاعدة العهود و العقود القاعدة في العهود الدينية في القواعد المطلقة و القاعدة في العقود الدنيوية في القواعد الفقهية و في كتاب النذر أيضا أن ما وجب بالشرع إن نذره العبد أو عاهد الله عليه أو بايع عليه الرسول أو الامام أو تحالف عليه جماعة فان هذه العهود و المواثيق تقتضي له وجوبا ثانيا غير الوجوب الثابت بمجرد الأمر الأول فتكون واجبة من وجهين بحيث يستحق تاركها من العقوبة ما يستحقه ناقض العهد و الميثاق و ما يستحقه عاصي الله و رسوله هذا هو التحقيق و من قال من أصحاب احمد انه إذا نذر واجبا فهو بعد النذر كما كان قبل النذر بخلاف نذر المستحب فليس كما قال بل النذر إذا كان يوجب فعل المستحب فإيجابه لفعل الواجب اولى و ليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل هما وجوبان من نوعين لكل نوع حكم غير حكم الآخر مثل الجدة إذا كانت أم أم وأم أم أب فان فيها شيئين كل منهما تستحق به السدس و كذلك من قال من أصحاب أحمد ان الشروط التي هي من مقتضى العقد لا يصح اشتراطها أو قد تفسده حتى قال بعض أصحاب الشافعي إذا قال زوجتك على ما أمر الله به من امساك بمعروف أو تسريح باحسان كان النكاح فاسدا لأنه شرط فيه الطلاق فهذا كلام فاسد جدا فان العقود إنما وجبت موجباتها لايجاب المتعاقدين لها على أنفسهما و مطلق العقد له معنى مفهوم فاذا اطلق كانا قد اوجبا ما هو المفهوم منه

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 138-144

فان موجب العقد هو واجب بالعقد كموجب النذر لم يوجب الشارع ابتداء وإنما اوجب الوفاء بالعقود كما اوجب الوفاء بالنذر فاذا كان له موجب معلوم بلفظ مطلق أو يعرف المتعاقدان إيجابه بلفظ خاص كان هذا من باب عطف الخاص على العام فيكون قد أوجبه مرتين أو جعل له إيجابا خاصا يستغنى به عن الإيجاب العام وفي القرآن من هذا نظائر مثل قوله {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} البقرة 98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} الأحزاب 7 ومثل قوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 وقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَازُ وَاجِحًا وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ} الأحزاب 59 وقوله {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} النحل 90 وقوله {الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} البقرة 27 فان الله أعلن عهد الله الذي امرهم به من بعد ما أخذ عليهم الميثاق بالوفاء به فاجتمع فيه الوجهان العهدي والميثاقي وفي القرآن من العهود والمواثيق على ما اوجب بامر الله شيء كثير فمن ذلك وقوله {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِنِظَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِنِظَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ} آل عمران 75 الآية الى قوله {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} {76} {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ} {77} آل عمران 76-77 فان قوله {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ} آل عمران 76 بعد ذكره للايمان يقتضى انه الوفاء بموجب العقود فى المعاملات ونحوها كما قال فى آية البيع {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أُوتِيَ أَمَانَتَهُ} البقرة 283 فاداء الامانة هو الوفاء بموجب العقود فى المعاملات من القبض والتسليم فان ذلك واجب بعقده فقط ثم قال بعده {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ} آل عمران 77 فعهد الله ما عهده اليهم وايمانهم ما عقده من الايمان وسبب نزولها قصة الاشعث بن قيس التى فى الصحيحين فى محاكمته مع اليهودى حين قال النبى من حلف على يمين فاجرة ليقطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان وأنزل الله هذه الآية فان ذلك المال كان يجب تسليمه الى مستحقه بموجب عهده فاذا حلف بعد هذا على استحقاقه دون مستحقه فقد صار عاصيا من وجهين نظير قوله {يَتَّقُوا اللَّهَ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} البقرة 27 و ضد هم الذين يوفون بعهد الله ولا ينفذون الميثاق وقوله {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا} آل عمران 81 الآية قال ابن عباس ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وامر أن يأخذ الميثاق على أمته ان بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه ومعلوم أن محمدا اذا بعثه الله برسالة عامة وجب الايمان به ونصرته على كل من بلغته دعوته وان لم يكن قد أخذ عليه ميثاق بذلك وقد أخذ عليهم الميثاق بما هو واجب بامر الله بلا ميثاق وقوله تعالى {فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ} النساء 153 الى قوله {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} {154} فِيمَا نَقَضِهِمْ

لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشائخ الدين المتبعون وأئمة التصوف إن الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقة بل هي أكمل محبة فإنها كما قال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا} البقرة 165 وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية وانكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين زعما منهم إن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة وكان أول من ابتدع هذا في الاسم هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسطة خطب الناس يوم الأضحى فقال أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم أنه زعم إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلم موسى تكليماً ثم نزل فذبحه وكان قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه واليه اضيف قول الجهمية فقتله سلم بن احوز أمير خراسان بها ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة اتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم اثناء خلافة المأمون حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم على ذلك واصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون إن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلاً وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها وهم ينكرون في الحقيقة إن يكون إبراهيم خليلًا وموسى كليماً لأن الخلقة هي المحبة المستغرقة للمحب كما قيل قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلًا ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي أنه قال لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن صاحبكم خليل الله يعني نفسه وفي رواية أني أبرأ إلى كل خليل من خلتي ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا وفي رواية إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا فبين أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلًا وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع أنه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً كما قال لمعاذ والله أني لأحبك وكذلك قوله للانصار وكان زيد بن حارثة حب رسول الله عليه وسلم وكذلك ابنه اسامة حبه وأمثال ذلك وقال له عمرو بن العاص أي الناس أحب إليك قال عائشة قال فمن الرجال قال أبوها وقال لفاطمة ابنته رضي الله عنها ألا تحبين ما أحب قالت بلى قال فأحبي عائشة¹

والصفات الاختيارية هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثلاً كلامه وسمعه وبصره وإرادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه وإحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة والآيات التي تدل على الصفات الاختيارية كثيرة جداً وكذلك في المحبة والرضا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 66-69 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 68 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 68 و النبوات ج: 1 ص: 76

وكذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } البقرة 222 { فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } آل عمران 76 { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } المائدة 42 { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا } الصف 4 ونحو ذلك فإنه يدل على ان المحبة بسبب هذه الاعمال وهي جزاء لها والجزاء انما يكون بعد العمل والمسبب¹

اليمين الغموس من الكبائر الموجبة للنار

انه اذا حلف بالله او بغير الله مما يعظمه بالحلف فانما حلف به ليعقد به المحلوف عليه ويربطه به لانه يعظمه في قلبه اذا ربط به شيئاً لم يحله فاذا حل ما ربطه به فقد انتقصت عظمته من قلبه وقطع السبب الذي بينه وبينه وكما قال بعضهم اليمين العقد على نفسه لحق من له حق ولهذا اذا كانت اليمين غموسا كانت من الكبائر الموجبة للنار كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } آل عمران 77 وذكرها النبي عهد في الكبائر وذلك أنه إذا تعمد أن يعقد بالله ما ليس منعقداً به فقد نقص الصلة التي بينه وبين ربه بمنزلة من أخبر عن الله بما هو منزله عنه أو تبرأ من الله بخلاف ما إذا حلف على المستقبل فإنه عقد بالله فعلاً قاصداً لعقده على وجه التعظيم لله لكن الله أباح له حل هذا العقد الذي عقده كما يبيح له ترك بعض الواجبات لحاجة أو يزيل عنه وجوبها ولهذا قال أكثر أهل العلم إذا قال هو يهودي أو نصراني إن لم يفعل ذلك فهي يمين بمنزلة قوله والله لأفعلن لأنه ربط عدم الفعل بكفره الذي هو براءته من الله فيكون قد ربط الفعل بإيمانه بالله وهذا هو حقيقة الحلف بالله فربط الفعل بأحكام الله من الإيجاب أو التحريم أدنى حالاً من ربطه بالله يوضح ذلك أنه إذا عقد اليمين بالله فهو عقد لها بإيمانه بالله وهو ما في قلبه من جلال الله وإكرامه الذي هو جد الله ومثله الأعلى في السموات والأرض كما أنه إذا سبح الله وذكره فهو مسبح لله وذاكر له بقدر ما في قلبه من معرفته وعبادته ولذلك جاء التسبيح تارة لإسم الله كما في قوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } الإنسان 25 مع قوله { ادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } الأحزاب 41 فحيث عظم العبد ربه بتسبيح إسمه أو الحلف به أو الإستعاذة به فهو مسبح له بتوسط المثل الأعلى الذي في قلبه من معرفته وعبادته وعظمته ومحبته علماً وفضلاً وإجلالاً وإكراماً وحكم الإيمان والكفر إنما يعود إلى ما كسبه قلبه من ذلك كما قال سبحانه { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ فُلُوبُكُمْ } البقرة 225 وكما في موضع آخر { وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ } المائدة 89 فلو إعتبر الشارع ما في لفظ القسم من إنعقاده بالإيمان وإرتباطه به دون قصد الحلف لكان موجه أنه إذا حنث بغير إيمانه تزول حقيقته كما قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وكما أنه إذا حلف

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 226

على ذلك يمينا فاجرة كانت من الكبائر وإذا إشتري بها مالا معصوما فلا خلاق له فى الآخرة ولا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكّيه وله عذاب أليم¹

نفى الايمان والجنة لا يكون إلا عن كبيرة

فان هذه الذنوب وأمثالها فيها وعيد خاص وكذلك كل ذنب توعد صاحبه بأنه لا يدخل الجنة ولا يشم رائحة الجنة وقيل فيه من فعله فليس منا وأن صاحبه آثم فهذه كلها من الكبائر كقوله لا يدخل الجنة قاطع وقوله لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر وقوله من غشنا فليس منا وقوله من حمل علينا السلاح فليس منا وقوله لا يزنى الزان حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن وذلك لأن نفى الايمان وكونه ليس من المؤمنين ليس المراد به ما يقوله المرجئة انه ليس من خيارنا فانه لو ترك ذلك لم يلزم أن يكون من خيارهم وليس المراد به ما يقوله الخوارج انه صار كافرا ولا ما يقوله المعتزلة من أنه لم يبق معه من الايمان شيء بل هو مستحق للخلود فى النار لا يخرج منها فهذه كلها أقوال باطلة وقد بسطنا الكلام عليها فى غير هذا الموضع ولكن المؤمن المطلق فى باب الوعد والوعيد وهو المستحق لدخول الجنة بلا عقاب وهو المؤدى للفرائض المجتنب المحارم وهؤلاء هم المؤمنون عند الاطلاق فمن فعل هذه الكبائر لم يكن من هؤلاء المؤمنين اذ هو متعرض للعقوبة على تلك الكبيرة وهذا معنى قول من قال أراد به نفى حقيقة الايمان أو نفى كمال الايمان فانهم لم يريدوا نفى الكمال المستحب فان ترك الكمال المستحب لا يوجب الذم والوعيد والفقهاء يقولون الغسل ينقسم إلى كامل ومجزىء ثم من عدل عن الغسل الكامل إلى المجزىء لم يكن مذموما فمن أراد بقوله نفى كمال الايمان انه نفى الكمال المستحب فقد غلط وهو يشبه قول المرجئة ولكن يقتضى نفى الكمال الواجب وهذا مطرد فى سائر ما نفاه الله ورسوله مثل قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} الأنفال 2 ومثل الحديث المأثور لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ومثل قوله صلى الله عليه وسلم لا صلاة إلا بأمر القرآن وأمثال ذلك فانه لا ينفى مسمى الاسم إلا لانتفاء بعض ما يجب فى ذلك لا لانتفاء بعض مستحباته فيفيد هذا الكلام أن من فعل ذلك فقد ترك الواجب الذى لا يتم الايمان الواجب الا به وان كان معه بعض الايمان فان الايمان يتبعض ويتفاضل كما قال يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان و المقصود هنا أن نفى الايمان والجنة أو كونه من المؤمنين لا يكون إلا

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 274-275

عن كبيرة أما الصغائر فلا تنفى هذا الاسم والحكم عن صاحبها بمجرد ما فيعرف أن هذا النفى لا يكون لترك مستحب ولا لفعل صغيرة بل لفعل كبيرة¹

التحريف قد فسر بتحريف التنزيل وبتحريف التأويل

وقال تعالى في صفة المغضوب عليهم {مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} النساء 46 ووصفهم بأنهم {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ} آل عمران 78 والتحريف قد فسر بتحريف التنزيل وبتحريف التأويل فأما تحريف التأويل فكثير جدا وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمة وأما تحريف التنزيل فقد وقع فيه كثير من الناس يحرفون ألفاظ الرسول ويروون أحاديث بروايات منكورة وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك وربما تناول بعضهم إلى تحريف التنزيل وإن لم يمكنه ذلك كما قرأ بعضهم {وَكَلامَ اللَّهِ مُوسَى تَكْلِيمًا} النساء 164²

الدين الذي بعث الله به رسله

ومما ذكره البترك سعيد بن البطريق المعظم عندهم (النصارى) من أخبارهم أنه كان يأتي البترك العظيم منهم إلى كنيسة مبنية لصنم من الأصنام يعبده المشركون فيحتال حتى يجعلهم يعبدون مكان الصنم مخلوقا أعظم منه كملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء كما كان بالاسكندرية للمشركين كنيسة فيها صنم اسمه ميكائيل فجعلها النصارى كنيسة باسم ميكائيل الملك وصاروا يعبدون الملك بعد أن كانوا يعبدون الصنم ويذبحون له وهذا نقل لهم من الشرك بمخلوق إلى الشرك بمخلوق أعلى منه أولئك كانوا يبنون الهياكل ويجعلون فيها الأصنام بأسماء الكواكب كالشمس والزهرة وغير ذلك فنقلهم المبتدعون من النصارى إلى عبادة بعض الملائكة أو بعض الأنبياء ولهذا قال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {79} آل عمران 79-80³

وقسم من الناس غلوا في الأنبياء والصالحين وفي الملائكة أيضا فجعلوهم وسائط في العبادة فعبدوهم ليقربوهم إلى الله زلفى وصوروا تماثيلهم وعكفوا على قبورهم وهذا كثير في النصارى ومن

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 652-654

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 7-8

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 382

ضاهاهم من ضلال أهل القبلة ولهذا ذكر الله هذا الصنف في القرآن في آل عمران وفي براءة في ضمن الكلام على النصارى¹

فمن اعتقد أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجون اليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذى كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار فالذين الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو عبادة الله وحده لا شريك له وإستعانتة والتوكل عليه ودعاؤه لجلب المنافع ودفع المضار كما قال تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } {1} إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } {2} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } {3} الزمر 1-3 وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الاسراء 56-57 قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة قال الله تعالى هؤلاء الذين تدعونهم عبادى كما أنتم عبادى ويرجون رحمتى كما ترجون رحمتى ويخافون عذابى كما تخافون عذابى ويتقربون إلى كما تتقربون إلى بل قد ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارح من نار وخلق آدم مما وصف لكم فإذا كان هذا حال من يدعو الأنبياء والملائكة فكيف بمن دونهم وقال تعالى { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } {الكهف 102} وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِنَّ مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٍ } {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } {23} سبأ 22-23 فبين سبحانه أن من دعى من دون الله من جميع المخلوقات من الملائكة والبشر وغيرهم أنهم لا يملكون مثقال ذرة في ملكه وأنه ليس له شريك في ملكه بل هو سبحانه له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وأنه ليس له عون يعاونه كما يكون للملك أعوان وظهراء وإن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن إرتضى فنفى بذلك وجوه الشرك وذلك أن من يدعون من دونه إما أن يكون مالكا وإما أن لا يكون مالكا وإذا لم يكن مالكا فأما أن يكون شريكا وإما أن لا يكون شريكا وإذا لم يكن شريكا فأما يكون معاونا وأما أن يكون سائلا طالبا فالأقسام الأول الثلاثة وهى الملك والشركة والمعاونة منتفية وأما الرابع فلا يكون إلا من بعد إذنه كما قال تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 وقال تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 283

كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ {80} آل عمران 79-80 فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب وهداية القلوب وتفريج الكرب وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين فإذا جعل من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا كافرا فكيف من اتخذ من دونهم من المشايخ وغيرهم أربابا¹ فهو الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ولا يهدي الخلق إلا هو ولا ينصرهم إلا هو ولا يرزقهم إلا هو ولا يغنيهم إلا هو ولا يغفر ذنوبهم إلا هو قال تعالى {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ} {51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} {52} وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} {53} ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} {54} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} {55} النحل 51-55 وهو سبحانه وتعالى عليم بأحوال عباده رحيم بهم كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى امرأة من السبي إذا رأت ولدا ألصقته ببطنها فقال أترون هذه واضعة ولدها في النار قالوا لا يا رسول الله قال الله أرحم بعباده من هذه بولدها وهو سبحانه سميع قريب قال الله تعالى {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 وهو تعالى رحيم ودود والود اللطف والمحبة فهو يود عباده المؤمنين ويجعل لهم الود في القلوب كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} مريم 96 قال ابن عباس وغيره يحبهم ويحببهم إلى عباده وهو سبحانه لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلظه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحدين بل يحب من يدعوه ويتضرع إليه ويبغض من لا يدعوه قال النبي من لا يسأل الله يغضب عليه وقال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر 60 وقال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} البقرة 186 قال بعض الصحابة يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أو بعيد فنناديه فأنزل الله هذه الآية وهو سبحانه وتعالى ليس كالمخلوقين الذين ترفع إليهم الحوائج بالحجاب بل في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى فإذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى على عبدى فإذا قال مالك يوم الدين

¹ مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 67 وزيارة القبور ج: 1 ص: 8-9 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 124 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 331 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 66 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 124 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 178 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 302 و الصفدية ج: 2 ص: 287 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 427 و مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 368-370 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 153

قال الله مجدى عبدي فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال الله هذه الآية وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل¹

من اتخذ الملائكة والنبين أرباباً فهو كافر

وأما انكار الباطل فقد نزه الله نفسه عن الوالد والولد وكفر من جعل له ولداً أو والداً أو شريكاً فقال تعالى فى السورة التى تعدل ثلث القرآن التى هى صفة الرحمن ولم يصح عن النبى فى فضل سورة من القرآن ما صح فى فضلها قال فيها (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ {4} } الاخلاص 1-4 وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة فى التوحيد كالإمام أحمد والفضيل بن عياض وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء وهى جماع ما ينسب اليه المخلوق من الأدميين والبهائم والملائكة والجن بل والنبات ونحو ذلك فإنه ما من شىء من المخلوقات الا ولا بد أن يكون له شىء يناسبه اما أصل واما فرع واما نظير أو اثنان من ذلك أو ثلاثة وهذا فى الأدميين والجن والبهائم ظاهر وأما الملائكة فانهم وان لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الامثال والاشباه فإن قوله {لَمْ يَلِدْ {3} } الاخلاص 3 رد لقول من يقول ان له بنين وبنات من الملائكة أو البشر مثل من يقول الملائكة بنات الله أو يقول المسيح أو عزير ابن الله كما قال تعالى عنهم {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ} الأنعام 100 وقال تعالى {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ} {19} الزخرف 19 وهذا القدر الذى عابه الله على من جعل الملائكة بناته من العرب مع كراهتهم أن يكون لهم بنات فنظيره فى النصارى فانهم يجعلون لله ولداً وينزهون اكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولداً فيجعلون لله ما يكرهونه لأكابر دينهم وقال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} {171} {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} {172} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} {173} النساء 171-173 فهى أهل الكتاب عن الغلو فى الدين وعن أن يقولوا على الله إلا الحق وذكر القول الحق فى المسيح ثم قال لهم {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} {171}

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 368-370

النساء 171 لأنهم كفروا بالله بنتليتهم وكفروا برسله بالاتحاد والحلول فكفروا بأصلى الاسلام العام التى هى الشهادة لله بالواحدانية فى الألوهية والشهادة للرسول بالرسالة وذكر أن المسيح والملائكة لا يستنكفون عن عبادته لأن من الناس من جعل الملائكة أولاده كالمسيح وعبدوا الملائكة والمسيح¹ والقرآن ينفي أن تكون الملائكة أربابا أو أن تكون آلهة ويكون لها غير ما للرسول الذي لا يفعل إلا بعد أمر مرسله ولا يشفع إلا بعد أن يؤذن له فى الشفاعة وقد رد الله ذلك على من زعمه من العرب والروم وغيرهم من الأمم فقال تعالى {وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 80 فذكر الملائكة والنبيين جميعا²

من يتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون

أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلها آخر مساويا له فى الصفات والأفعال بل ولا كانوا يقولون إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم ولا أن الأصنام تخلق شيئا من العالم ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين أو أن الخليل عليه السلام لما قال هذا ربي أراد به رب العالمين فقد غلط غلطا بينا بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين كما قال تعالى {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ} {79} الأنعام الآية 79 ولم يقل من المعطلين فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين فلم يكونوا جاحدين للصانع بل عدلوا به وجعلوا له أندادا فى العبادة والمحبة والدعاء وهكذا عند النصارى عن المسيح عليه السلام فى كتاب سر بطرس الذي يسمى بشمعون وسمعان والصفاء وبترس والأربعة لمسمى واحد عندهم عنه كتاب عن المسيح فيه أسرار العلوم وهذا فيه عندهم عن المسيح فالذي تفعله النصارى اصل عبادة الأوثان وهكذا قال عالمهم الكبير الذي يسمونه فم الذهب وهو من أكبر علمائهم لما ذكر تولد الذنوب الكبار عن الصغار قال وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لما أكرم الناس أشخاصا يعظم بعضهم بعضا فوق المقدر الذي ينبغي الأحياء منهم والأموات³

كانت العرب تحج إلى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وهم مع ذلك يحجون إلى البيت ويطوفون به ويقفون بعرفات ولهذا كانوا تارة يعبدون الله وتارة يعبدون غيره وكانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ولهذا قال تعالى {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 442-438

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 132

³الجواب الصحيح ج: 1 ص: 359

أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {الروم 28} يقول الله تعالى إذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكا له مثل نفسه فكيف تجعلون مملوكي شريكا لي وكل ما سوى الله من الملائكة والنبیین والصالحين وسائر المخلوقات هو مملوك له وهو سبحانه لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ولهذا جعل الشرك بالملائكة والأنبياء كفرا فقال تعالى **{وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 80**¹

وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا وهو نزاع لفظي فإن الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء ورأس الإسلام مطلقا شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل وقد قال سبحانه **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} النساء 116** ذكر ذلك في موضعين من كتابه وقد بين في كتابه الشرك بالملائكة والشرك بالأنبياء والشرك بالكواكب والشرك بالأصنام وأصل الشرك الشرك بالشیطان وقال تعالى **{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} آل عمران 79** وقال تعالى **{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79- 80** فبين ان اتخاذ الملائكة والنبیین أربابا كفر ومعلوم أن أحدا من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والاحبار والرهبان والمسيح بن مريم شاركوا الله في خلق السموات والارض بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال بل ولا أثبت أحد من بنى آدم الها مساويا لله في جميع صفاته بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم يقرون ان الشريك مملوك له سواء كان ملكا أو نبيا أو كوكبا أو صنما كما كان مشركوا العرب يقولون في تلبيتهم **لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك** فأهل رسول الله بالتوحيد وقال **لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك** وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات ولا مماثل له في جميع الصفات بل من أعظم أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين **النور و الظلمة**

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 354

وان النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين أحدهما أنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له والثانى أنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر فكانت ناقصة فى ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور¹

الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله

وأصل دين الإسلام أن نعبد الله وحده ولا نجعل له من خلقه ندا ولا كفوا ولا سميا قال تعالى {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} مريم 65 وقال تعالى {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} الإخلاص 4 وقال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الشورى 11 وقال تعالى {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} البقرة 22 وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن ترانى بحليلة جارك فأنزل الله تصديق رسوله {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} الفرقان 68 الآية وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 فمن سوى بين الخالق والمخلوق فى الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك والنبي نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة حتى قال من حلف بغير الله فقد أشرك رواه أبو داود وغيره وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد و جاء معاذ بن جبل مرة فسجد له فقال ما هذا يا معاذ فقال يا رسول الله رأيتهم فى الشام يسجدون لأساقفتهم يا معاذ إنه لا يصلح السجود إلا لله ولو كنت أمرا أحدا ان يسجد لأحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها فلهذا فرق النبي بين زيارة أهل التوحيد وبين زيارة أهل الشرك فزيارة أهل التوحيد لقبور المسلمين تتضمن السلام عليهم والدعاء لهم وهى مثل الصلاة على جنائزهم وزيارة أهل الشرك تتضمن أنهم يشبهون المخلوق بالخالق ينذرون له ويسجدون له ويدعون له ويحبونه مثل ما يحبون الخالق فيكونون قد جعلوه لله ندا وسووه برب العالمين وقد نهى الله ان يشرك به الملائكة والأنبياء وغيرهم²

فمحبة الله ورسوله وعباده المتقين تقتضى فعل محبوباته وترك مكروهاته والناس يتفاضلون فى هذا تفضلا عظيما فمن كان اعظم نصيبا من ذلك كان اعظم درجة عند الله واما من احب شخصا لهواه مثل ان يحبه لدنيا يصيبها منه او لحاجة يقوم له بها او لمال يتاكله به او بعصبية فيه ونحو ذلك

من الاشياء فهذه ليست محبة لله بل هذه محبة لهوى النفس وهذه المحبة هي التي توقع اصحابها فى الكفر والفسوق والعصيان وما اكثر من يدعى حب مشائخ الله ولو كان يحبهم الله لاطاع الله الذى احبهم لاجله فان المحبوب لاجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير وكيف يحب شخصا الله من لا يكون محبا لله وكيف يكون محبا لله من يكون معرضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبيل الله وما أكثر من يحب شيوخا أو ملوكا وغيرهم فيتخذهم اندادا يحبهم كحب الله والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهرة فاهل الشرك يتخذون اندادا يحبونهم كحب الله والذين امنوا اشد حبا لله واهل الايمان يحبون وذلك ان اهل الايمان اصل حبهم هو حب الله ومن احب الله احب من يحبه الله ومن احبه الله احب الله فمحبوب المحبوب محبب الله يحب الله فمن احب الله احبه الله فيحب من احب الله واما اهل الشرك فيتخذون اندادا وشفعاء يدعونهم من دون الله قال الله تعالى {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} الأنعام 94 وقال الله تعالى {وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {22} {أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُون} {23} {إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {24} {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون} {25} يس 22-25 وقال الله تعالى {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الأنعام 51 وقال الله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79-80 والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله وقال النبي فى الحديث الصحيح انا معشر الأنبياء وديننا واحد فالدين واحد وان تفرقت الشرعة والمنهاج قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء 25 وقال الله تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف 45¹

المسلمون وسط

أن ملة الإسلام وسط في الملل فالمسلمون وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباب من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا فريفا بل المؤمنون آمنوا برسول الله وعزروه ونصروه ووقروهم

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 317 و مؤلفات ابن تيمية ج: 11 ص: 522

وأحبوهم وأطاعوهم ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابا كما قال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79 ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح فلم يقولوا هو الله ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة كما تقوله النصارى ولا كفروا به وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود بل قالوا هذا عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه¹

قال تعالى {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 وقد صح عن النبي أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكتاب الله يدل على ذلك في مواضع مثل قوله تعالى {وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ} آل عمران 112 وقال في النصارى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79-80²

النهي عن اتخاذ المساجد على القبور

فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالإضطرار من دين الإسلام أن العبد لا يجوز له أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله وأن من عبد ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا أو دعاه أو استغاث به فهو مشرك فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل يا جبرائيل أو يا ميكائيل أو يا إبراهيم أو يا موسى أو يا رسول الله اغفر لي أو ارحمني أو ارزقني أو انصرني أو اغثنني أو أجرني من عدوي أو نحو ذلك بل هذا كله من خصائص الإلهية وهذه مسائل شريفة معروفة قد بينها العلماء وذكروا الفرق بين حقوق الله التي يختص بها الرسل والحقوق التي له ولرسله كما يميز سبحانه بين ذلك في مثل قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79-80 فمن اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فقد كفر بعد إسلامه باتفاق المسلمين ولأجل هذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ المساجد على القبور وعن أن يجعل الله ندا في خصائص الربوبية ففي الصحيحين عنه أنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا وفي

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 370

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 64-65

الصحيح عنه أنه قال إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك وفي السنن عنه أنه قال لا تتخذوا قبوري عيدا وروى عنه أنه قال اللهم لا تجعل قبوري وثنا يعبد وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا قل ما شاء الله وحده ولهذا قال العلماء من زار قبر النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لا يستلمه ولا يقبله ولا يشبهه بيت المخلوق ببيت الخالق الذي يستلم ويقبل منه الركن الأسود ويستلم الركن اليماني ولهذا اتفق العلماء على أنه لا يشرع تقبيل شيء من الأحجار ولا استلامه إلا الركنان اليمانيان حتى مقام إبراهيم الذي بمكة لا يقبل ولا يتمسح به فكيف بما سواه من المقامات والمشاهد قال تعالى {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} المؤمنون 88 وحديث معاذ لما رجع من الشام فسجد للنبي فقال ما هذا يا معاذ فقال رأيتهم في الشام يسجدون لأسافتهم ويذكرون ذلك عن أنبيائهم فقال يا معاذ رأيت لو مررت بقبري أكنت ساجدا له قال لا قال فلا تسجد لي فلو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها فمن لا ينهى الضالين عن مثل هذا الشرك المحرم بإجماع المسلمين كيف ينهى عما هو أقل منه ومن دعى رجلا أو امرأة من دون الله فهو مضاه لمن اتخذ المسيح وأمه الهين من دون الله وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله بل من سوغ أن يدعى المخلوق ومنع من دعاء الخالق الذي فيه تحقيق صمديته وإلهيته فقد ناقض الإسلام في النفي والإثبات وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأما حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي مثل تقديم محبته على النفس والأهل والمال وتعزيره وتوقيره وإجلاله وطاعته واتباع سنته وغير ذلك فعظيمة جدا وكذلك مما يشرع التوسل به في الدعاء كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه أن النبي علم شخصا أن يقول اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد يا رسول الله إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها اللهم فشفعه في فهذا التوسل به حسن وأما دعاؤه والإستغاثة به فحرام والفرق بين هذين متفق عليه بين المسلمين المتوسل إنما يدعو الله ويخاطبه ويطلب منه لا يدعو غيره إلا على سبيل استحضاره لا على سبيل الطلب منه وأما الداعي والمستغيث فهو الذي يسأل المدعو ويطلب منه ويستغيثه ويتوكل عليه والله هو رب العالمين ومالك الملك وخالق كل شيء وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه وهو القريب الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه وهو سميع الدعاء سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا¹

وإن قال قائل بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات إما الأنبياء دون غيرهم أو نبي دون غيره كما جوز بعضهم الحلف بذلك أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم قيل له بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها ندا لله تعالى فلا

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 273-276 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 178-179

يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ولا يقسم بمخلوق كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا إلا بالله وفي السنن عنه أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها وإن كانت معظمة قال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79-80¹

وأما قول القائل إذا عثر يا جاه محمد يا للست نفيسة أو يا سيدي الشيخ فلان أو نحو ذلك مما فيه استغاثته وسؤاله فهو من المحرمات وهو من جنس الشرك فإن الميت سواء كان نبياً أو غير نبي لا يدعى ولا يسأل ولا يستغاث به لا عند قبره ولا مع البعد من قبره بل هذا من جنس دين النصارى الذين {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 ومن جنس الذين قال فيهم {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} الإسراء 56-57 وقد قال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79-80²

*قال تعالى {وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 80 وقال يوسف الصديق {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} {40} يوسف 39-40 وكل من عبد شيئاً من دون الله فإنما يعبد أسماء ما أنزل الله بها من سلطان وأيضاً فالذين يعبدون الملائكة أو الأنبياء لا يرونهم وإنما يعبدون تماثيل صورها على مثال صورهم وهي من تراب وحجر وخشب فهم يعبدون الموات وفي الصحيح صحيح مسلم عن أبي الهياج

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 292

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 146

الأسدی قال قال لی بن علی طالب رضی الله عنه ألا أبعثک علی ما بعثتني علیه رسول الله بعثتني أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته¹

الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام

والله سبحانه لم يجعل له أحدا من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيء من الربوبية والألوهية مثل ما يفرد به من الخلق والرزق وإجابة الدعاء والنصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات بل غاية ما يكون العبد سبباً مثل أن يدعو أو يشفع والله تعالى يقول {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة 255 ويقول {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى} الأنبياء 28 ويقول {وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن بَعَدَ} أن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} النجم 26 وقال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} الإسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فنهاهم الله عن ذلك في قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79-80 فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر ولهذا كان الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام فالمشركون أثبتوا الشفاعة التي هي شرك كشفاعة المخلوق عند المخلوق كما يشفع عند الملوك خواصهم لحاجة الملوك إلى ذلك فيسألونهم بغير إذنهم وتجبب الملوك سؤالهم لحاجتهم إليهم فالذين أثبتوا مثل هذه الشفاعة عند الله تعالى مشركون كفار لأن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بأذنه ولا يحتاج إلى أحد من خلقه بل من رحمته وإحسانه إجابة دعاء الشافعين وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها ولهذا قال تعالى {مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} السجدة 4 وقال {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الأنعام 51 وقال تعالى {أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَؤُكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ} {43} قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً} {44} الزمر 43-44 وقال تعالى عن صاحب يس {أَتَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدَّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ} {23} إِنْ يَإْتِي ضَلَالٌ مُّبِينٌ} {24} إِنْ يَأْمُرُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُوا} {25} يس 23-25 وأما الخوارج والمعتزلة فانهم أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمته وهؤلاء مبتدعة ضلال مخالفون للسنة المستفيضة عن النبي وإجماع خير القرون والقسم الثالث هم أهل السنة والجماعة وهم سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان أثبتوا ما أثبتته الله في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ونفوا ما نفاه الله في كتابه وسنة رسوله

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 362

فالشفاعة التي أثبتوها هي التي جاءت بها الأحاديث كشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إذا جاء الناس إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم يأتونه عليه السلام قال فأذهب إلى ربي فإذا رأيت ربي خررت له ساجدا فأحمد ربي بمحامد يفتحها على لا احسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع فهو يأتي ربه سبحانه فيبدأ بالسجود والثناء عليه فإذا اذن له في الشفاعة شفع بأبي هو وامي وأما الشفاعة التي نفاها القرآن كما عليه المشركون والنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة فينفيها أهل العلم والإيمان مثل انهم يطلبون من الأنبياء والصالحين الغائبين والميتين قضاء حوائجهم ويقولون إنهم إذا أرادوا ذلك قضاها ويقولون إنهم عند الله تعالى كخواص الملوك عند الملوك يشفعون بغير إذن الملوك ولهم على الملوك أدلال يقضون به حوائجهم فيجعلونهم لله تعالى بمنزلة شركاء الملك وبمنزلة أولاده والله تعالى قد نزه نفسه المقدسة عن ذلك كما قال تعالى {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَاوِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا} الإسراء 111 ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله¹

شرك الفلاسفة شر من شرك مشركي العرب

لما صنف طائفة في تقدير الشرك على أصولهم وأثبتوا الشفاعة التي يثبتها المشركون كان شرك هؤلاء (الفلاسفة) شرا من شرك مشركي العرب وغيرهم فان مشركي العرب وغيرهم ممن يقر بأن الرب فاعل بمشيئته وقدرته وأنه خالق كل شيء وأن السموات والأرض مخلوقة لله ليست مقارنة له في الوجود دائمة بدوامه كانوا يعبدون غير الله ليقربوهم إليه زلفى ويتخذونهم شفعاء يشفعون لهم عند الله بمعنى أنهم يدعون الله لهم فيجيب الله دعاءهم له وهؤلاء المشركون الذين بين القرآن كفرهم وجاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على شركهم قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} يونس 18 وقال تعالى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} الزمر 3 وقال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} الإسراء 56-57 قالت طائفة من السلف كان اقوام يدعون الملائكة والانبيا فقال تعالى هؤلاء الذين تدعونهم يتوسلون الى كما تتوسلون الى ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي وقال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 340-342 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 129

الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {80} آل عمران 79-80 وقال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ {23} سبأ 22-23 وقال تعالى {وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنِ بَعْدَ أَنْ يُأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} النجم 26 وقال تعالى {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ} الأنبياء 28 ومثل هذا في القران كثير والعرب كانوا مع شركهم وكفرهم يقولون ان الملائكة مخلوقون وكان من يقول منهم ان الملائكة بنات يقولون ايضا انهم محدثون ويقولون انه صاهر إلى الجن فولدت له الملائكة وقولهم من جنس قول النصارى في أن المسيح ابن الله مع ان مريم امه ولهذا قرن سبحانه بين هؤلاء وهؤلاء وقول هؤلاء الفلاسفة شر من قول هؤلاء كلهم فان الملائكة عند من آمن بالنبوات منهم هي العقول العشرة وتلك عندهم قديمة ازلية والعقل رب كل ما سوى الرب عندهم وهذا لم يقل مثله احد من اليهود والنصارى ومشركي العرب لم يقل احد ان ملكا من الملائكة رب العالم كله ويقولون ان العقل الفعال مبدع لما تحت فلك القمر وهذا ايضا كفر لم يصل اليه احد من كفار اهل الكتاب ومشركي العرب وهؤلاء يقولون ما ذكره ابن سينا واتباعه كصاحب الكتب المضمون بها على غير اهلها ومن وافقهم من القرامطة والباطنية من الملاحدة والجهال الذين دخلوا في الصوفية واهل الكلام كأهل وحدة الوجود وغيرهم يجعلون الشفاعة مبنية على ما يعتقدونه من ان الرب لا يفعل بمشيئته وقدرته وليس عالما بالجزئيات ولا يقدر ان يغير العالم بل العالم فيض فاض عنه بغير مشيئته وقدرته وعلمه فيقولون اذا توجه المستشفع الى من يعظمه من الجواهر العالية كالعقول والنفوس والكواكب والشمس والقمر او الى النفوس المفارقة مثل بعض الصالحين فانه يتصل بذلك المعظم المستشفع به فاذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب فاض على هذا المستشفع من جهة شفيعة ويمثلونه بالشمس اذا طلعت على مرآة فانعكس الشعاع الذي على المرآة على موضع اخر فأشرق بذلك الشعاع فذلك الشعاع حصل له بمقابلة المرآة وحصل للمرآة بمقابلة الشمس فهذا الداعي المستشفع اذا توجه الى شفيعه اشرق عليه من جهته مقصود الشفاعة وذلك الشفيع يشرق عليه من جهة الحق ولهذا يرى هؤلاء دعاء الموتى عند القبور وغير القبور ويتوجهون اليهم ويستعينون بهم ويقولون ان ارواحنا اذا توجهت الى روح المقبور في القبور اتصلت به ففاضت عليها المقاصد من جهته وكثير منهم ومن غيرهم من الجهال يرون الصلوة والدعاء عند قبور الانبياء والصالحين من اهل البيت وغيرهم افضل من الصلوات الخمس والدعاء في المساجد وافضل من حج البيت العتيق ومعلوم ان كفر هؤلاء بما يقولونه في الشفاعة اعظم من كفر مشركي العرب بما قالوه فيهم لان كلتي الطائفتين عبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله لكن العرب اقرؤا بأن الله عالم بهم قادر عليهم يخلق بمشيئته وقدرته وقالوا ان هؤلاء ينفعونا بدعائهم لنا وأما مشركوا الفلاسفة كما ذكره ابن سينا ومن اتبعه فيقولون ان من يستشفع به لا يدعو الله لنا بشئ والله لا يعلم دعاءنا ولا دعاءه ولا

يسمع نداءنا ولا نداءه بل ولا يعرف بنا ولا نراه ولا يعرف به فاننا نحن من الجزئيات والله لا يعلم الجزئيات عندهم ولا يقدر على تغيير شئ من العالم ولا يفعل بمشيئته لكن قالوا لكن نحن إذا توجهنا الى هؤلاء بالدعاء لهم والسؤال منهم بل وبالعبادة لهم فاض علينا ما يفيض منهم وفاض عليهم ما يفيض من جهة الله ثم إن طائفة من أهل الكلام يردون عليهم باطلهم بقول باطل فيردون فاسدا بفاسد وإن كان أحدهما أكثر فسادا مثل إنكار كثير منهم لكثير من الامور الرياضية كاستدارة الفلك وغير ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة وآثار السلف مع دلالة العقل أو يفعلون كما فعله الشهرستاني في الملل والنحل حيث اخذ يذكر المفاضلة بين الارواح العلوية وبين الانبياء ويجعل إثبات هذه وسائط أولى من تلك تفضيلا لأقوال الحنفاء على أقوال الصابئة وهذا غلط عظيم فان الحنفاء لا يثبتون بين الله وبين مخلوقاته واسطة في عبادته وسؤاله وإنما يثبتون الوسائط في تبليغ رسالاته فأصل الحنفاء شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا وغيره من الرسل رسل الله وأما الوسائط التي يثبتها المشركون فيجعلون الملائكة معبودين وهذا كفر وضلال وتوسط الملائكة بمعنى تبليغ رسالات الله أو بمعنى أنهم يفعلون ما يفعلونه باذن الله مما اتفق عليه الحنفاء ومعلوم أن المشركين من عباد الاصنام وغيرهم كانت الشياطين تضلمهم فتكلمهم وتقضى لهم بعض حوائجهم وتخبرهم بأمر غائبة عنهم وكان للكهان شياطين تخبرهم وتأمروهم وإن كان الكذب فيما يقولونه اكثر من الصدق وهكذا المشركون في زماننا الذين يدعون غير الله كالشيوخ الغائبين والموتى تتصور لهم الشياطين في صور الشيوخ حتى يظنوا ان الشيخ حضر وأن الله صور على صورته ملكا وأن ذلك من بركة دعائه وإنما يكون الذي تصور لهم شيطان من الشياطين وهذا مما نعرف أنه ابتلى في زماننا وغير زماننا خلق كثير أعرف منهم عددا وأعرف من ذلك وقائع متعددة والشياطين ايضا تضل عباد القبور كما كانت تضل المشركين من العرب وغيرهم وكانت اليونان من المشركين يعبدون الاوثان ويعانون السحر كما ذكروا ذلك عن أرسطو وغيره وكانت الشياطين تضلمهم وبهم يتم سحرهم وقد لا يعرفونهم أن ذلك من الشياطين بل قد لا يقرون بالشياطين بل يظنون ذلك كله من قوة النفس او من أمور طبيعية او من قوى فلكية فان هذه الثلاثة هي اسباب عجائب العالم عند ابن سينا وموافقيه وهم جاهلون بما سوى ذلك من أفعال الشياطين الذين هم أعظم تأثيرا في العالم في الشر من هذا كله وجاهلون بملائكة الله الذين يجرى بسببهم كل خير في السماء والارض وما يدعونه من جعل الملائكة هي العقول العشرة او هي القوى الصالحة في النفس وأن الشياطين هي القوى الخبيثة مما قد عرف فساده بالدلائل العقلية بل بالضرورة من دين الرسول فاذا كان شرك هؤلاء وكفرهم في نفس التوحيد وعبادة الله وحده أعظم من شرك مشركى العرب وكفرهم فأى كمال للنفس في هذه الجهالات¹

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 101-106

الرافضة يدعون من لا ينفع دعاؤه

ومن حماقتهم (الرافضة) أيضا أنهم يجعلون للمنتظر عدة مشاهد ينتظرونه فيها كالسرادب الذي بسامرا الذي يزعمون أنه غاب فيه ومشاهد آخر وقد يقيمون هناك دابة إما بغلة وإما فرسا وإما غير ذلك ليركبها إذا خرج ويقيمون هناك إما في طرفي النهار وإما في أوقات آخر من ينادي عليه بالخروج يا مولانا أخرج يا مولانا أخرج ويشهرون السلاح ولا أحد هناك يقاتلهم وفيهم من يقول في أوقات الصلاة دائما لا يصلح خشية أن يخرج وهو في الصلاة فيشتغل بها عن خروجه وخدمته وهم في أماكن بعيدة عن مشهده كمدينة النبي صلى الله عليه وسلم إما في العشر الأواخر من شهر رمضان وإما في خير ذلك يتوجهون إلى المشرق وينادونه بأصوات عالية يطلبون خروجه ومن المعلوم أنه لو كان موجودا وقد أمره الله بالخروج فإنه يخرج سواء نادوه أو لم ينادوه وإن لم يؤذن له فهو لا يقبل منهم وأنه إذا خرج فإن الله يؤيده ويأتيه بما يركبه وبمن يعينه وينصره لا يحتاج إلى أن يوقف له دائما من الأدميين من ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا والله سبحانه قد عاب في كتابه من يدعو من لا يستجيب له دعاءه فقال تعالى {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} {13} {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} {14} فاطر 13-14 هذا مع أن الأصنام موجودة وكان يكون فيها أحيانا شياطين تتراءى لهم وتخاطبهم ومن خاطب معدوما كانت حالته أسوأ من حال من خاطب موجودا وإن كان جمادا فمن دعاء المنتظر الذي لم يخلقه الله كان ضلاله أعظم من ضلال هؤلاء وإذا قال أنا اعتقد وجوده كان بمنزلة قول أولئك نحن نعتقد أن هذه الأصنام لها شفاعة عند الله فيعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله والمقصود أن كليهما يدعو من لا ينفع دعاؤه وإن كان أولئك اتخذوهم شفعا آلهة وهؤلاء يقولون هو إمام معصوم فهم يوالون عليه ويعادون عليه كموالاة المشركين على آلهتهم ويجعلونه ركنا في الإيمان لا يتم الدين إلا به كما يجعل بعض المشركين آلهتهم كذلك وقد قال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} ال عمران 79-80 فإذا كان من يتخذ الملائكة والنبيين أربابا بهذه الحال فكيف بمن يتخذ إماما معدوما لا وجود له وقد قال تعالى {اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 وقد ثبت في الترمذي وغيره من حديث عدي بن حاتم أنه قال يا رسول الله ما عبدوهم فقال إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم إياهم فهؤلاء اتخذوا أناسا موجودين أربابا وهؤلاء يجعلون الحلال والحرام معلقا بالإمام المعدوم الذي لا حقيقة له ثم يعملون الكل ما يقول المنتسبون إليه إنه يحلله ويحرمه وإن خالف الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة حتى أن طائفتهم إذا اختلفت على قولين قالوا القول الذي لا يعرف قائله

هو الحق لأنه قول هذا الإمام المعصوم فيجعلون الحلال ما حله والحرام ما حرمه هذا الذي لا يوجد وعند من يقول إنه موجود لا يعرفه أحد ولا يمكن أحد أن ينقل عنه كلمة واحدة¹

وأصل هذه المقالة وهو دعوى العصمة في المؤمنين وما يشبه ذلك هو من أقوال الغالية من النصارى وغالية هذه الأمة وابتدعها في الملتين منافقوها وهذا الغلو الذي في النصارى حتى اتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله²

و إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله ربا ولم يبيع ربا سوى الله ولم يتخذ ربا سواه كما قال تعالى {قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} {الأنعام 164} وقال تعالى {أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} {الأنعام 14} وقال {وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {آل عمران 80} وهو أيضا في نفسه هو الاله الحق لا اله غيره فاذا عبده الانسان فقد وحده من لم يجعل معه الها آخر ولا اتخذ الها غيره قال تعالى {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} {الشعراء 213} وقال تعالى {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} {الإسراء 22} وقال ابراهيم لأبيه آزر {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {الأنعام 74} فالمخلوق ليس باله في نفسه لكن عابده اتخذها وجعله الها وسماه الها وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره كما أن الجاهل اذا اتخذ اماما ومفتيا وقاضيا كان ذلك باطلا فانه لا يصلح أن يؤم ولا يفتى ولا يقضى وغير الله لا يصلح ان يتخذ الها يعبد ويدعى فانه لا يخلق ولا يرزق وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع خولا يستجيب له فدعائه باطل وضلال كل من سوى الله اما أنه لا يسمع دعاء الداعي أو يسمع ولكن لا يستجيب له فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء البتة وقد قال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ} {22} {وَلَا تَتَّبِعِ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} {23} سبأ 22-23 فغير الله لا مالك لشيء ولا شريك في شيء ولا هو معاون للرب في شيء بل قد يكون له شفاعاة ان كان من الملائكة والانبيا والصالحين ولكن لا تنفع الشفاعاة عنده الا لمن أذن له فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع وان يأذن للمشفوع له أن يشفع له ومن دونه لا يملكون الشفاعاة البتة فلا يصلح من سواه لان يكون الها معبودا كما لا يصلح أن يكون خالقا رازقا لا اله الا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير³

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 44-49

² رسالة في التوبة ج: 1 ص: 259-260

³ مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 204-205

الرباني لفظة عربية

قيل إن الرباني منسوب الى الرب فزيادة الألف والنون كالحيانى وقيل الى تربيته الناس وقيل الى ربان السفينة وهذا أصح فإن الأصل عدم الزيادة فى النسبة لأنهم منسوبون الى التربية وهذه تختص بهم وأما نسبتهم الى الرب فلا إختصاص لهم بذلك بل كل عبد له فهو منسوب اليه إما نسبة عموم أ و خصوص ولم يسم الله أوليائه المتقين ربانيين ولا سمي به رسله وأنبياءه فإن الرباني من يرب الناس كما يرب الرباني السفينة ولهذا كان الربانيون يذمون تارة ويمدحون أخرى ولو كانوا منسوبين الى الرب لم يذموا قطو أنها إن جعلت مدحا فقد ذموا فى مواضع وإن لم تكن مدحا لم يكن لهم خاصة يمتازون بها من جهة المدح وإذا كان منسوباً الى رباني السفينة بطل قول من يجعل الرباني منسوباً الى الرب وأنه إذا قدر أنهم منسوبون الى الرب فلا تدل النسبة على أنهم علماء نعم تدل على إيمان وعبادة وتآله وهذا يعم جميع المؤمنين فكل من عبد الله وحده لا يشرك به شيئاً فهو متآله عارف بالله والصحابة كلهم كذلك ولم يسموا ربانيين ولا ربيون وإنما جاء أن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس اليوم مات رباني هذه الأمة وذلك لكونه يؤدبهم بما آتاه الله من العلم والخلفاء أفضل منهم ولم يسموا ربانيين وإن كانوا هم الربانيين وقال ابراهيم كان علقمة من الربانيين ولهذا قال مجاهد هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره فهم أهل الأمر والنهى والأخبار يدخل فيه من أخبر بالعلم ورواه عن غيره وحدث به وإن لم يأمر أو ينه وذلك هو المنقول عن السلف فى الرباني نقل عن علي قال هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها وعن ابن عباس قال هم الفقهاء المعلمون قلت أهل الأمر والنهى هم الفقهاء المعلمون وقال قتادة وعطاء هم الفقهاء العلماء الحكماء قال ابن قتيبة واحدهم رباني وهم العلماء المعلمون قال أبو عبيد أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين قلت اللفظة عربية منسوبة الى ربان السفينة الذى ينزلها ويقوم لمصلحتها ولكن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز وجل¹

"ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به"

يذم دين النصارى الذى ابتدعوه وغيروا به دين المسيح ولبسوا الحق الذى بعث به المسيح بالباطل الذى ابتدعوه حتى صار دينهم مركبا من حق وباطل واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره والمسيح قرر أكثر شرع التوراة وغير

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 61-63

المعنى وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبیین أربابا فهو كافر فمن اتخذ من دونهم أربابا كان أولى بالكفر وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أربابا بقوله تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 ثم قال تعالى في سورة آل عمران {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 81¹

فان الرسل ليس منهم أحد يأخذ من آخر الا من كان مأمورا باتباع شريعته كانبياى بنى اسرائيل والرسل الذين بعثوا فيهم الذين امروا باتباع التوراة كما قال تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} المائدة 44 وأما ابراهيم فلم يأخذ عن موسى وعيسى ونوح لم يأخذ عن ابراهيم ونوح و ابراهيم وموسى وعيسى لم يأخذوا عن محمد وان بشروا به وآمنوا به كما قال تعالى و {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 81 وقوله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ} آل عمران 81 يتناول جميع النبیین

و عن علي بن ابى طالب انه قال لم يبعث الله نبيا ادم و من بعده الا اخذ عليه العهد فى محمد و امره و اخذ العهد على قومه ليؤمنن به و لئن بعث و هم احياء لينصرنه و كذلك عن ابن عباس انه قال ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به و امره ان ياخذ الميثاق على أمته ان بعث محمد و هم احياء ليؤمنن به و لينصرنه و قال بعض العلماء اخذ الميثاق على النبیین و امتهم فاجتزا بذكر الانبياء عن ذكر الامم لان فى اخذ الميثاق على المتبوع دلالة على اخذه على التابع و حقيقة الامر ان الميثاق اذا اخذ على الانبياء دخل فيه غيرهم لكونه تابعا لهم و لانه اذا وجب على الانبياء الايمان به و نصره فوجب ذلك على من اتبعهم اولى و اخرى و لهذا ذكر عن الانبياء فقط و قد قيل ان المراد باخذ الميثاق على الأنبياء هو اخذه على قومهم فإنهم هم الذين يدركون النبي الآتي وقالوا هي في قراءة ابن مسعود و ابي بن كعب واذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب وزعم بعضهم ان هذه القراءة هي الصواب والأولى غلط من الكتاب وهذا قول باطل ولولا انه ذكر لما حكيتة فإن ما بين لוחي المصحف متواتر والقرآن صريح في ان الله اخذ الميثاق على النبیین فلا يلتفت الى من قال إنما اخذ على امهم لكن الأنبياء امروا ان يلتزموا هذا الميثاق مع علم الله وعلم من اعلمه منهم انهم لا يدركونه كما نؤمن نحن بما تقدمنا من الأنبياء والكتب وإن لم ندرکهم وأمر الجميع بتقدير إدراكه ان يؤمنوا به وينصروه كما ان النبي صلى الله عليه وسلم اخبرنا بنزول عيسى

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 119-120

ابن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرقي دمشق واخبر انه يقتل المسيح الدجال فنحن مأمورون بالايمان بالمسيح ابن مريم وطاعته إن ادركناه وإن كان لا يأمرنا إلا بشريعة محمد و مأمورون بتكذيب المسيح الدجال و اكثر المسلمين لا يدركون ذلك بل انما يدركه بعضهم قال طاموس اخذ الله ميثاق النبيين بعضهم على بعض ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه فقال هذه الآية لاهل الكتاب اخذ الله ميثاقهم ان يؤمنوا بمحمد و يصدقوه يعني بذلك ان من ادرك نبوة محمد منهم يعنى هم الذين ادركهم العمل بالآية و الا فذكر ان الميثاق اخذ على النبيين بعضهم على بعض لكن ذلك عهد و اقرار مع العلم بانهم لا يدركونه و كذلك عن السدى لم يبعث الله نبيا قط من لدن نوح الا اخذ ميثاقه ليؤمنن بمحمد و لينصرنه ان خرج و هو حى و الا اخذ على قومه ان يؤمنوا به و ينصروه ان خرج و هم احياء و قال محمد بن اسحق ثم ذكر ما اخذ عليهم و على انبيائهم الميثاق بتصديقه اذا هو جاءهم و اقرارهم به على انفسهم فقال **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ} آل عمران 81** وقوله **{رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ} آل عمران 81** رسول مصدق لما معكم متناول لمحمد بالاتفاق فان رسالته كانت عامة وقد قال الله له **{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} المائدة 48** فكتابه مهيمن على ما بين يديه من كتب السماء وقد اوجب الله على اهل الكتابيين وسائر اهل الارض الايمان به وهذا مذكور في غير موضع من القران والحديث وهو مع انه اجماع من المسلمين فهو معلوم بالاضطرار من دينه متواتر عنه كما تواتر عنه غزوه اليهود والنصارى و هل يدخل في ذلك غيره من الرسل فيه قولان قيل ان الله اخذ ميثاق الاول من الانبياء ان يصدق الثاني وينصره وامره ان يأخذ الميثاق على قومه بذلك وقيل بل هذا الرسول هو محمد خاصة وهذا قول الجمهور وهو الصواب لان الانبياء قبله انما كانت دعوتهم خاصة لم يكونوا مبعوثين الى كل احد فاذا لم يدخل في دعوته جميع اهل زمنهم ومن بعدهم كيف يدخل فيها من ادركهم من الانبياء قبلهم والله تعالى قد بعث في كل قوم نبيا كما قال تعالى **{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} فاطر 24** وقال **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36** وكذلك قوله **{لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} آل عمران 81** والنصرة مع الايمان به هو الجهاد ونوح وهود ونحوهم من الرسل لم يؤمروا بجهاد ولكن موسى وبنوا اسرائيل امروا بالجهاد وقوله لما هذه اللام تسمى الموطئة للقسم فان الكلام اذا كان فيه شرط متقدم وقسم كان جواب القسم يسد مسد جواب الشرط والقسم جميعا وادخلت اللام الموطئة على اداة الشرط وما هنا شرطية واللام في قوله **{لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ} آل عمران 81** هي جواب القسم ونظير اللام الموطئة في قوله **{وَلَيْنِ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ} البقرة 145** ونظير هذه الآية قوله **{وَلَيْنِ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} العنكبوت 10** وقوله **{وَلَيْنِ سَبَّحْنَا لِلَّذِي بِالْذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} الإسراء 86** **{وَلَيْنِ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ} هود 8** ولهذا قال النحاة كالمبرد والزجاج هذه لام التحقيق دخلت على ما الجزاء أي الشرطية كما تدخل على ان ومعناه لمهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول

مصدق لما معكم لتؤمنن به واللام في **{لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ}** آل عمران 81 جواب الجزاء وكذلك قال الفراء من فتح اللام جعلها لاما زائدة بمنزلة اليمين اذا وقعت على جزاء صرف بعد ذلك الجزاء على جهة فعل وحرف جوابه كجواب اليمين والمعنى أي كتاب اتيتكم ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به وجواب الجزاء في قوله لتؤمنن به ومعنى قولهم جواب الجزاء في هذا أي جواب القسم تضمن ايضا جواب الجزاء فهو جواب لهما في المعنى ثم قال **{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ}** ال عمران 83 وهذا هو دين الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه فمن ابتغى غيره فقد ابتغى دين الله وهو دين الإسلام الذي قال فيه **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** ال عمران 85 والمقصود ان ما عليه جميع الامم من حكمة علمية وعملية اذا لم يكونوا ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحا فان الله لا يمدحهم ولا يثني عليهم وهؤلاء الفلاسفة ارسطو وقومه كانوا مشركين يعبدون الاوثان ويبنون الهياكل للكواكب فليست حكمتهم من الحكمة التي اثنى الله عليها وعلى اهلها ومن كان من الفلاسفة الصابئة المشركين فهو من جنسهم الصابئة وصواب التحقيق عنهم¹

" اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا "

ان الدين مبني على اصلين ان لا يعبد الا الله وحده لا شريك له ولا يعبد الا بما شرع لا نعبد بالبدع كما قال تعالى **{فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}** الكهف 110 ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا لأحد شيئا وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى **{لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** هود 7 قال أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وقد قال الله تعالى **{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ}** الشورى 21 والمقصود بجميع العبادات ان يكون الدين كله لله وحده فالله هو المعبود والمسئول الذي يخاف ويرجى ويسأل ويعبد فله الدين خالصا **{وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}** آل عمران 83 والقرآن مملوء من هذا كما قال تعالى **{مَا كَانَ لِيُشْرِكَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا**

1

الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 450-454 و مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 237 و منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 168 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 119-120 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 333-334 و الصفدية ج: 2 ص: 337 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 81-80

و مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 18 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 212 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 10

رَبَّانِيَيْنِ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {80} آل عمران 79-80¹

الإيمان والعمل قرينان

قال ابو عمر بن عبد البر فى التمهيد الايمان والاسلام احدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد لا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان له إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح اسلامه ولا يخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الايمان واشترط للايمان الأعمال الصالحة فقال فى تحقيق ذلك {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ} الأنبياء 94 وقال فى تحقيق الايمان بالعمل {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} طه 75 فمن كان ظاهره أعمال الاسلام ولا يرجع إلى عقود الايمان بالغيب فهو منافق نفاقا ينقل عن الملة ومن كان عقده الايمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الاسلام فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد ومن كان مؤمنا بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملا بما أمر الله فهو مؤمن مسلم ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلما ولجاز أن المسلم لا يسمى مؤمنا بالله وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه قال ومثل الايمان فى الأعمال كمثل القلب فى الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر لا يكون ذو جسم حى لا قلب له ولا ذو قلب بغير جسم فهما شيئان منفردان وهما فى الحكم والمعنى منفصلان ومثلهما أيضا مثل حبة لها ظاهر وباطن وهى واحدة لا يقال حبتان لتفاوت صفتيهما فكذلك أعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الايمان وهو من أعمال الجوارح والايمن باطن الإسلام وهو من أعمال القلوب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الاسلام علانية والايمن فى القلب وفى لفظ الايمان سر فالاسلام أعمال الايمان والايمن عقود الاسلام فلا ايمان الا بعمل ولا عمل الا بعقد ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح ومثله قول رسول الله انما الأعمال بالنيات أى لا عمل الا بعقد وقصد لأن إنما تحقيق للشيء ونفى لما سواه فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات فمثل العمل من الإيمن كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام الا بهما لأن الشفتين تجمع الحروف واللسان يظهر الكلام وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام وكذلك فى سقوط العمل ذهاب الايمان ولذلك حين عدد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ} {8} وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} {9} البلد 8-9 بمعنى ألم نجعله ناظرا متكلم فعبّر عن الكلام باللسان

¹مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 152

والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين لأن الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم الا بهما ومثل الإيمان و الإسلام أيضا كفسطاط قائم فى الأرض له ظاهر

وأطناب وله عمود فى باطنه فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهو الأطناب التى تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذى فى وسط الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط الا به فقد احتاج الفسطاط اليها اذ لا قوام له ولا قوة إلا بهما كذلك الاسلام فى أعمال الجوارح لا قوام له إلا بالإيمان والايمن من أعمال القلوب لا نفع له الا بالاسلام وهو صالح الأعمال و أيضا فإن الله قد جعل ضد الاسلام والايمن واحدا فلو لا أنهما كشيء واحد فى الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحدا فقال **{كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ} آل عمران 86** وقال **{أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 80** فجعل ضدهما الكفر قال وعلى مثل هذا أخبر رسول الله عن الإيمان والإسلام من صنف واحد فقال فى حديث ابن عمر بنى الإسلام على خمس وقال فى حديث ابن عباس عن وفد عبدالقيس أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف فدل بذلك على أنه لا ايمن باطن الا باسلام ظاهر ولا اسلام ظاهر علانية الا بايمن سر وان الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بدون صاحبه¹

الكتب الإلهية نزهت الله عن صفات النقص

أن الذى يغلو فى الأنبياء والرسلى يكون غلوه عيبا وعضا بالألوهية والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة كما نزهته عن صفات النقص وفى الصحيحين عنه أنه قال لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله وفى الصحيح عن النبي أنه قال يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك وشتمني ابن آدم وما ينبغى له ذلك فأما تكذيبه إياي فقله أنى يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقله أنى اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وفى الصحيح عن النبي أنه قال ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليجعلون له ولدا وشريكا وهو يرزقهم ويعافيهـ ولهذا كان معاذ بن جبل يقول لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية وحرمت أن يتكلم فى حق الله باسم ابن أو ولد سدا للذريعة كما منعت أن يسجد أحد لغير الله وإن كان على وجه التحية كما منعت أن يصلي أحد عند طلوع الشمس وغروبها لئلا يشبهه عباد الشمس والقمر فكانت بسدها للأبواب التى تجعل الله فيها الشريك والولد أكمل من غيرها من الشرائع كما سدت غير ذلك من الذرائع مثل تحريمها قليل المسكر لأنه يجر إلى كثيره فإن أصول المحرمات التى قال الله فيها **{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي**

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 333-335

الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {الأعراف 33¹

على جميع الخلق إتباع محمد صلى الله عليه وسلم

فالميثاق المأخوذ على أنهم يؤمنون به وينصرونه وقد أمروا بهذا وليس هذا الإقرار تصديقا فإن الله تعالى يخبرهم بخبر بل أوجب عليهم إذا جاءهم ذلك الرسول أن يؤمنوا به وينصروه فصدقوا بهذا الإقرار والتزموه فهذا هو إقرارهم²

فالحكم لله وحده ورسله يبلغون عنه فحكمهم حكمه وأمرهم أمره وطاعتهم طاعته فما حكم به الرسول وأمرهم به وشرعه من الدين وجب على جميع الخلق إتباعه وطاعته فإن ذلك هو حكم الله على خلقه والرسول يبلغ عن الله قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } {64} فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } {65} النساء 64-65 فعلى جميع الخلق أن يحكموا رسول الله خاتم النبيين وأفضل المرسلين وأكرم الخلق على الله ليس لأحد أن يخرج عن حكمه فى شيء سواء كان من العلماء أو الملوك أو الشيوخ أو غيرهم ولو أدركه موسى أو عيسى وغيرهما من الرسل كان عليهم إتباعه كما قال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } آل عمران 81 وروى عن غير واحد من السلف على وابن عباس وغيرهما قالوا لم يبعث عهد نوح إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وهو سبحانه أخذ الميثاق على النبي المتقدم أن يصدق من يأتى بعده وعلى النبي المتأخر أن يصدق من كان قبله ولهذا لم تختلف الأنبياء بل دينهم واحد كما قال النبي فى الحديث الصحيح إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } {52} المؤمنون 51-52 أى ملتكم ملة واحدة كقولهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ } {الزخرف 23} أى ملة وقال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } {الشورى 13} فدين الأنبياء واحد وهو دين الإسلام كلهم مسلمون مؤمنون كما قد بين الله فى

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 154 و بغية المرتاد ج: 1 ص: 502-503

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 396

غير موضع من القرآن لكن بعض الشرائع تتنوع فقد يشرع فى وقت أمرا لحكمه ثم يشرع فى وقت آخر أمرا آخر لحكمه كما شرع فى أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة فتنوعت الشريعة والدين واحد وكان إستقبال الشام ذلك الوقت من دين الإسلام وكذلك السبب لموسى من دين الإسلام ثم لما نسخ صار دين الإسلام هو الناسخ وهو الصلاة إلى الكعبة فمن تمسك بالمنسوخ دون الناسخ فليس هو على دين الإسلام ولا هو متبع لأحد من الأنبياء ومن بدل شرع الأنبياء وإبتدع شرعا فشرعه باطل لايجوز إتباعه كما قال { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } الشورى 21 ولهذا كفر اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع مبدل منسوخ والله أوجب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ومحمد خاتم الرسل فعلى جميع الخلق إتباعه وإتباع ما شرعه من الدين وهو ما أتى به من الكتاب والسنة فما جاء به الكتاب والسنة وهو الشرع الذى يجب على جميع الخلق إتباعه وليس لأحد الخروج عنه وهو الشرع الذى يقاتل عليه المجاهدون وهو الكتاب والسنة¹

فإنه قد علم بالاضطرار من دين الاسلام ان رسالة محمد بن عبد الله لجميع الناس عربهم وعجمهم وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم وانها باقية دائمة إلى يوم القيامة بل عامة الثققلين الجن والانس وانه ليس لاحد من الخلائق الخروج عن متابعتة وطاعته وملازمة ما يشرعه لامته من الدين وما سنه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله احياء لوجب عليهم متابعتة ومطاوعته وقال الله تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا } وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ { آل عمران 81 قال ابن عباس ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وامره بأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وفى سنن النسائى عن جابر ان النبى رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال امتهوكون يا ابن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعى هذا أو نحوه ورواه أحمد فى المسند ولفظه ولو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم وفى مراسيل ابى داود قال كفى بقوم ضلالة ان يبتغوا كتابا غير كتابكم أنزل على نبى غير نبيهم وانزل الله تعالى { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ } العنكبوت 51 الآية بل قد ثبت بالاحاديث الصحيحة ان المسيح عيسى بن مريم إذا نزل من السماء فإنه يكون متبعا لشريعة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فإذا كان يجب اتباعه ونصره على من يدركه من الانبياء فكيف بمن دونهم بل مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام انه لا يجوز لمن بلغته دعوته ان يتبع شريعة رسول غيره كموسى وعيسى فاذا لم يجز الخروج عن

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 363-365

شريعته إلى شريعة رسول فكيف بالخروج عنه والرسول كما قال تعالى {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {136} فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {137} البقرة 136-137 وقال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} البقرة 285

ولهذا لما كان قد دخل فيما ينقله أهل الكتاب عن الأنبياء تحريف وتبديل كان ما علمنا أنه صدق عنهم آما به وما علمنا أنه كذب رددناه وما لم نعلم حاله لم نصدقه ولم نكذبه كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى قال اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فاما ان يحدثونكم بباطل فتصدقوهم واما ان يحدثوكم بحق فتكذبوهم وقولوا آما بما أنزل إلينا وما أنزل اليكم

1

والاسلام دين جميع المرسلين قال نوح عليه السلام {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَآمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يونس 72 وقال الله عن ابراهيم وبنيه ما تقدم وقال يوسف الصديق {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} يوسف 101 وقال موسى {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} يونس 84 وقال فى التوراة {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} المائدة 44 قال شيخ الاسلام وقد قررت فى غير هذا الموضع الاسلام العام والخاص والايمان العام والخاص كقوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة 62 وأما تنوع الشرائع وتعددتها فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله {قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} البقرة 144 الى قوله {وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} البقرة 148 فأخبر أن لكل أمة وجهة ولم يقل جعلنا لكل أمة وجهة بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصارى وجهة المشرق بخلاف ما ذكره فى الشرع والمناهج فانه قال {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِينَا هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذُرُوا} المائدة 41 الى قوله {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} المائدة 50 وهذه الآيات نزلت بسبب الحكم فى الحدود والقصاص والديات أخبر أن التوراة {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا} المائدة 44 وهذا عام فى النبيين جميعهم والربانين والاحبار ثم لما ذكر الانجيل قال {وَأَيُّكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ} المائدة 47

فامر هؤلاء بالحكم لأن الانجيل بعض ما فى التوراة وافر الاكثر والحكم بما انزل الله فيه حكم بما فى التوراة أيضا ثم قال {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} المائدة 48 فأمره أن يحكم بما أنزل الله على من قبله لكل جعلنا من الرسولين والكتابين شرعة ومنهاجا أى سنة وسبيلا فالشرعة الشريعة وهى السنة والمنهاج الطريق والسبيل وكان هذا بيان وجه تركه لما جعل لغيره من السنة والمنهاج الى ما جعل له ثم أمره أن يحكم بينهم بما أنزل الله اليه فالأول نهى له أن يأخذ بمنهاج غيره وشرعته والثانى وان كان حكما غير الحكم الذى أنزل نهى له ان يترك شيئا مما انزل فيها اتباع محمد الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل فمن لم يتبعه لم يحكم بما أنزل الله وان لم يكن من أهل الكتاب الذين أمروا أن يحكموا بما فيها مما يخالف حكمه وقال تعالى فى الحج {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} الحج 34 {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ} الحج 67 وذكر فى أثناء السورة {لَهَدَمْتَ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} الحج 40 فبين انه هو جعل المناسك وذكر مواضع العبادات كما ذكر فى البقرة الوجهة التى يتوجهون اليها وقال فى سورة الجاثية بعد أن ذكر بنى اسرائيل {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} الجاثية 18 الآية وقال فى النسخ ووجوب اتباعهم للرسول {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 81 وقال {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} {156} الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {157} الأعراف 156-157 وقد تقدم ما فى البقرة وآل عمران من أمرهم بالايامن بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك فى سورة النساء وهو كثير فى القرآن¹

روى فى أثر لا يحضرنى إسناده أنه ما من عذاب فى النار إلا يبدأ فيه بابليس ثم يصعد بعد ذلك إلى غيره وما من نعيم فى الجنة إلا يبدأ فيه بالنبي ثم ينتقل إلى غيره فإنه هو الإمام المطلق فى الهدى لأول بنى آدم وآخرهم كما قال أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة ولا فخر وهو شفيع الأولين والآخرين فى الحساب بينهم وهو أول من يستفتح باب الجنة وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيامن به كما أخذ على كل نبي أن يؤمن بمن قبله من

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 112-114

الأنبياء ويصدق بمن بعده قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 81 الآية فافتتح الكلام باللام الموطئة للقسم التي يوتى بها إذا إشتمل الكلام على قسم وشرط وأدخل اللام على ما الشرطية ليبين العموم ويكون المعنى مهما أتاكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبي المصدق الإيمان به ونصره كما قال ابن عباس ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه والله تعالى قد نوه بذكره وأعلمه في الملائكة الأعلى ما بين خلق جسد آدم ونفخ الروح فيه كما في حديث ميسرة الفجر قال قلت يا رسول الله متى كنت نبيا وفي رواية متى كتبت نبيا فقال وأدم بين الروح والجسد رواه أحمد وكذلك في حديث العرباض بن سارية الذي رواه أحمد وهو حديث حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنى عند الله لخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل في طينته الحديث فكتب الله وقدر في ذلك الوقت وفي تلك الحال أمر إمام الذرية كما كتب حال المولود من ذرية آدم بين خلق جسده ونفخ الروح فيه كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث ابن مسعود فمن آمن به من الأولين والآخرين أثيب على ذلك وإن كان ثواب من آمن به وأطاعه في الشرائع المفصلة أعظم من ثواب من لم يأت إلا بالإيمان المجمل على أنه إمام مطلق لجميع الذرية وأن له نصيبا من إيمان كل مؤمن من الأولين والآخرين كما أن كل ضلال وغواية في الجن والانس لابليس منه نصيب فهذا يحقق الأثر المروي ويؤيد ما في نسخة شعيب بن أبي حمزة عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا اما من مراسيل الزهري واما من مراسيل من فوقه من التابعين قال بعثت داعيا وليس الي من الهداية شيء وبعث ابليس مزينا ومغويا وليس اليه من الضلالة شيء¹

الإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله ديناً غيره

و التوحيد في العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعا فنقول لا بد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ} الحج 70 وفي الصحيح عن النبي أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته من يطع الرسول فقد أطاع الله وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 728 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 157

أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ {52} المؤمنون 51-52 فأمر الرسل بإقامة الدين وأن لا يتفرقوا فيه ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح انا معاشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء أخوة لعلات وان أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي وهذا الدين هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره لا من الأولين ولا من الآخرين فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام فالإسلام يتضمن الإستسلام لله وحده فمن إستسلم له ولغيره كان مشركاً ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته والمشارك به والمستكبر عن عبادته كافر والإستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت فإذا أمر في أول الأمر بإستقبال الصخرة ثم أمرنا ثانياً بإستقبال الكعبة كان كل من الفعلين حين امر به داخلاً في الإسلام فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين وإنما تنوع بعض صور الفعل وهو وجه المصلى فكذلك الرسل دينهم واحد وإن تنوعت الشريعة والمنهاج والوجه والمنسك فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد والله تعالى جعل من دين الرسل أن أولهم يبشر بأخبرهم ويؤمن به وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به قال الله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 81 قال ابن عباس لم يبعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمة لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال تعالى {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} المائدة 48 وجعل الإيمان متلازماً وكفر من قال أنه آمن ببعض وكفر ببعض قال الله تعالى {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} البقرة 137 فأمرنا ان نقول أمنا بهذا كله ونحن له مسلمون فمن بلغته رسالة محمد فلم يقر بما جاء به لم يكن مسلماً ولا مؤمناً بل يكون كافراً وإن زعم أنه مسلم أو مؤمن كما ذكروا أنه لما أنزل الله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 قالت اليهود والنصارى فنحن مسلمون فأنزل الله {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران 97 فقالوا لا نحج فقال تعالى {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران 97 فإن الإستسلام لله لا يتم إلا بالإقرار بماله على عباده من حج البيت كما قال صلى الله عليه وسلم بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ولهذا لما وقف النبي بعرفة أنزل الله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} المائدة 3 وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا وهو نزاع لفظي فإن الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد صلى الله

عليه وسلم والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء ورأس الإسلام مطلقا شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل¹

{لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} آل عمران 81 هي ما الشرطية والتقدير أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعتة بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا يغنيكم ما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله فدل ذلك على انه من أدرك محمدا من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَقَدْ أَقْرَبْنَا بِهَذَا الْآيَاتِ الْغَائِبَاتِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {81} ثم قال تعالى {قَالَ أَقْرَبْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} {81} ثم قال تعالى {فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} {82} ثم قال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} {83} ثم قال تعالى {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {84} ثم قال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} {85} كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {86} قالت طائفة من السلف لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون فقال تعالى {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران 97 فقالوا لا نحج فقال تعالى {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران 97 فكل من لم ير حج البيت واجبا عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن واليهود والنصارى لا يرونه واجبا عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى في حديث مرفوع إلى النبي من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد اتفق المسلمون على أن من جدد وجوب مباني الإسلام الخمس الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت فإنه كافر وأيضا فقد قال تعالى في أول السورة {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 92-94

الْحِسَابِ {19} فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
 أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {20} إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {21}
 ال عمران 18-21 فقد أمره تعالى بعد قوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} {19} أن يقول
 {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} {20} وأن يقول للذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى والأميين
 وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أسلمتم فالعرب الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق
 الناس وأما من سواهم فإما أن يشملهم هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه
 أرسل إلى جميع الناس قال تعالى {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ
 بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} {20} فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين وإن لم
 يسلموا فقد قال إنما عليك البلاغ أي تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم فدل هذا كله
 على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين وأن الله يحاسبهم على
 ترك الإسلام كما يحاسب الأميين¹

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ولا
 يستعين إلا به ولا يتوكل إلا عليه ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ولا يكره إلا ما يبغضه الرب
 ويكرهه ولا يوالي إلا من والاه الله ولا يعادى إلا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئاً إلا الله
 ولا يعطى إلا الله ولا يمنع إلا الله فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن
 المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك والشرك غالب على النصارى والكبر
 غالب على اليهود قال تعالى في النصارى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ
 ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 وقال في
 اليهود {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} البقرة 87
 وقال تعالى {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا
 بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} الأعراف 146 ولما
 كان الكبر مستلزماً للشرك والشرك ضد الإسلام وهو الذنب الذي لا يغفره الله {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ
 يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} النساء 48 وقال {إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} النساء 116
 كان الانبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الأولين ولا من
 الآخرين قال في حق إبراهيم {وَمَنْ يَرْعُبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي
 الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {130} إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربِّ

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 123-127 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 336

العالمين {131} البقرة 130-131 الى قوله {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} البقرة 132 وقال {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85 وقال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} آل عمران 83 فذكر اسلام الكائنات طوعا وكرها لان المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام سواء اقر المقر بذلك او انكره وهم مدينون مدبرون فهم مسلمون له طوعا وكرها ليس لاحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره ولا حول ولا قوة الا به وهو رب العالمين ومليكمهم يصرفهم كيف يشاء وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم وكل من سواه فهو مربوب مصنوع ومفطور فقير محتاج معبد مقهور وهو الواحد القهار الخالق الباري المصور وهو ان كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدر له وهو مفنق اليه كافتقار هذا وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر بل كل ما هو سبب فهو محتاج الى سبب اخر يعاونه والى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه وهو سبحانه وحده الغنى عن كل ما سواه ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه وقال تعالى {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} الزمر 38 وقال تعالى {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الأنعام 17¹

الصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فأخبر النبي أن الصدق يستلزم البر وأن الكذب يستلزم الفجور ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفر ويتعب قلبه أمره بالصدق ولهذا يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمة ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون قل لمن لا يصدق لا يتبعني ويقولون الصدق سيف الله في الأرض ما وضع على شيء إلا قطعه ويقول يوسف بن اسباط وغيره ما صدق الله عبد إلا صنع له وأمثال هذا كثير والصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان والإسلام فإن المظهرين الإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق فالفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق كما في قوله {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحشر 8 فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم به وجاهدوا في سبيله بأموالهم

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 200-201 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 390

وأنفسهم وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 81
قال ابن عباس ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ليؤمنن به ولينصرنه وطاعة الرسول واجبة على الخلق بإيجاب الله بمعاقدتهم على ذلك معاقدة على طاعة الله¹

قال تعالى {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة 177 فلما قال في آية البر
{أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة 177 دل على أن المراد صدقوا في قولهم آما فان
هذا هو القول الذي أمروا به وكانوا يقولونه ولم يؤمروا أن يلفظوا بألسنتهم ويقولوا نحن أبرار أو
بررة بل اذا قال الرجل أنا بر فهذا مزك لنفسه ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها برة فقيل تزكى
نفسها فسمها النبي زينب بخلاف انشاء الايمان بقولهم {آمنا} فان هذا قد فرض عليهم أن
يقولوه قال تعالى {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ} البقرة 136 وكذلك في أول آل عمران {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} آل عمران 84 وقال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} البقرة 285 فقلوه
{لَا نُفَرِّقُ} البقرة 285 دليل على أنهم قالوا آما ولا نفرق ولهذا قال {وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا} البقرة 285 فجمعوا بين قولهم آما وبين قولهم سمعنا وأطعنا²

المعرفة بالحق مع الاستكبار يكون عذابا على صاحبه

الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان اي ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين الله
أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له و العباداة اصل
معناها الذل ايضا يقال طريق معبد اذا كان مذلا قد وطنته الاقدام لكن العباداة المأمور تتضمن

¹ أمراض القلوب ج: 1 ص: 40 وقاعدة في المحبة ج: 1 ص: 129 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 40

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 184

معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هو التتيم واوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصباية لا نصاب القلب اليه ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب ثم العشق و آخرها التتيم يقال تيم الله أى عبد الله فالمتيم المعبد لمحوبه ومن خضع لانسان مع بعضه له لا يكون عابدا له ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له كما قد يحب ولده وصديقه ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شئ وأن يكون الله أعظم عنده من كل شئ بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلا قال الله تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} التوبة 24 فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة فإن الطاعة لله ورسوله والارضاء لله ورسوله {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} التوبة 62 والايثاء لله ورسوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} التوبة 59 وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك فلا يكون إلا لله وحده كما قال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} آل عمران 64 الى قوله {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64 وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} التوبة 59 فالايثاء لله والرسول كقوله {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ} الحشر 7 وأما الحسب وهو الكافى فهو الله وحده كما قال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} الأنفال 64 اى حسبك وحسب من اتبعك الله ومن ظن ان المعنى حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطا فاحشا كما قد بسطناه فى غير هذا الموضوع وقال تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} الزمر 36 تحرير ذلك ان العبد يراد به المعبد الذى عبده الله فذلله ودبره وصرفه وبهذا الاعتبار المخلوقون كلهم عباد الله من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار إذ هو ربهم كلهم ومليكمهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر فما شاء كان وإن لم يشاؤوا وما شاؤوا إن لم يشأه لم يكن كما قال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران 83 فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحبيهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو سواء اعترفوا بذلك أنكروه وسواء علموا ذلك أو جهلوه لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به بخلاف من كان جاهلا بذلك أو جاحدا له مستكبرا على ربه ولا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجدد له كان عذابا على صاحبه كما قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} النمل 14 وقال

تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} البقرة 146 وقال تعالى {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} الأنعام 33 فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبد مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار ولا يصير بها الرجل مؤمناً كما قال تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ} يوسف 106 فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} لقمان 25 وقال تعالى {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} {85} المؤمنون 84-85 إلى قوله {قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ} المؤمنون 89 وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر البر والفاجر وإبليس معترف بهذه الحقيقة وكذلك أهل النار قال إبليس {أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} الأعراف 14 وقال {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} الحجر 39 وقال {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لِأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} ص 82 وقال {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ} الإسراء 62 وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره وكذلك أهل النار {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ} المؤمنون 106 وقال تعالى {وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} الأنعام 30 فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بالهيته وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان كان من أشد أهل الكفر والإلحاد¹

أن العبد و كل مخلوق فقير إلى الله محتاج إليه ليس فقيراً إلى سواه فليس هو مستغنيا بنفسه و لا بغير ربه فإن ذلك الغير فقير أيضاً محتاج إلى الله و من المأثور عن أبي يزيد رحمه الله أنه قال استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق و عن الشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون و هذا تقريب و إلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة و حولا و إلا فليس له من نفسه شيء قال سبحانه {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة 255 و قال تعالى {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} البقرة 102 و اسم العبد يتناول معنيين أحدهما بمعنى العابد كرها كما قال {إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} مريم 93 و قال {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 364-365 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 155

وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران 83 و قال {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} البقرة 117 {كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ} البقرة 116 و قال {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً} الرعد 15 و الثاني بمعنى العابد طوعاً و هو الذي يعبده و يستعينه و هذا هو المذكور في قوله {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} الفرقان 63 و قوله {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} الإنسان 6 و قوله {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} الحجر 42 و قوله {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} ص 83 و قوله {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} الزخرف 68 و قوله {وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} ص 45 و قوله {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} النجم 10 و قوله {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} ص 30 و قوله {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} الإسراء 1 و قوله {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} الجن 19 و هذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة و أما الأولى فوصف لازم إذا أريد بها جريان القدر عليه و تصريف الخالق له قال تعالى {أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران 83 و عامة السلف على أن المراد بالاستسلام إستسلامهم له بالخضوع و الذل لا مجرد تصريف الرب لهم كما في قوله {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً} الرعد 15 و هذا الخضوع و الذل هو أيضا لازم لكل عبد لا بد له من ذلك و إن كان قد يعرض له أحيانا الاعراض عن ربه و الاستكبار فلا بد له عند التحقيق من الخضوع و الذل له لكن المؤمن يسلم له طوعاً فيحبه و يطيع أمره و الكافر إنما يخضع له عند رغبة و رهبة فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه كما قال {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ} يونس 12 و قال {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} الإسراء 67 و فقر المخلوق و عبوديته أمر ذاتي له لا وجود له بدون ذلك و الحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات و بذلك هي أنها لخالقها و فاطرها إذ لا قيام لها بدونه و إنما يفترق الناس في شهود هذا الفقر و الاضطرار و عزوبه عن قلوبهم و أيضا فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال و تعظيم فهو غاية مطلوبه و مراده و منتهى همته و لا صلاح له إلا بهذا و أصل الحركات الحب و الذي يستحق المحبة لذاته هو الله فكل من أحب مع الله شيئا فهو مشرك و حبه فساد و إنما الحب الصالح النافع حب الله و الحب لله و الانسان فقير إلى الله من جهة عبادته له و من جهة استعانتة به للاستسلام و الانقياد لمن أنت إليه فقير و هو ربك و إلهك و هذا العلم و العمل أمر فطري ضروري فإن النفوس تعلم فقرها إلى خالقها و تدل لمن افتقرت إليه و غناه من الصمدية التي انفرد بها فإنه {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الرحمن 29 و هو شهود الربوبية بالاستعانة و التوكل و الدعاء و السؤال ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم و العمل و ذلك هو عبادته و الإنابة إليه فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه فصلاحه و كماله و لذته و فرحه و سروره في أن يعبد ربه و ينيب إليه و ذلك قدر زائد على مسألته و الافتقار إليه فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئته قائمة بقدرته و كلمته محتاجة إليه فقيرة

إليه مسلمة له طوعا وكرها فإذا شهد العبد ذلك و أسلم له و خضع فقد آمن بربوبيته أى حاجته و فقره إليه صار سائلا له متوكلا عليه مستعينا به إما بحاله أو بقاله بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسأله¹

فقر المخلوقات الى الخالق وشهادتها له أمر فطرى

وهو مثل قوله **{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران 83** فهو سبحانه يدعوهم إلي دين الإسلام ويبين أن كل ما في السماوات والأرض مسلم لله إما طوعا وإما كرها وإذا كان لا بد من أحدهما فالإسلام له طوعا هو الذي ينفع العبد فلا يجوز أن يتخذ غير هذا الدين دينا فإنه ذكر هذا في تقرير أن كل دين سوى الإسلام باطل فقال **{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ} آل عمران 83** وذكر بعد ذلك ما يصير به العبد مسلما مؤمنا فقال **{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {84} وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} {85} آل عمران 84-85²**

ففي تفسير ابن أبي طلحة المضاف إلى ابن عباس إلا ليقروا بالعبودية طوعا وكرها و هذه العبودية كقوله **{وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً} آل عمران 83** وقوله **{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً} الرعد 15** و فسرت طائفة الكره بأنه جريان حكم القدر فيكون كالقول قبله و الصحيح أنه إنقيادهم لحكمه القدرى بغير إختيارهم كاستسلامهم عند المصائب و إنقيادهم لما يكرهون من أحكامه الشرعية فكل أحد لابد له من إنقياده لحكمه القدرى و الشرعى فهذا معنى صحيح قد بسط فى غير هذا الموضوع لكن ليس هو العبادة³ قال تعالى **{وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً} آل عمران 83** **{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً} الرعد 15** الآية وقال **{بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِثُونَ} البقرة 116** فليس المراد بذلك مجرد كونهم مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة فإن هذا لا يقال طوعا وكرها فإن الطوع والكره إنما يكون لما يفعله الفاعل طوعا وكرها فأما ما لا فعل له فيه فلا يقال له ساجد أو قانت بل ولا مسلم بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم وهم خاضعون مستسلمون قانتون مضطرون من وجوه منها علمهم بحاجتهم و ضرورتهم اليه ومنها دعاؤهم إياه عند الإضطرار ومنها خضوعهم واستسلامهم لما يجرى عليهم

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 31-32

²رسالة في فنون الأشياء ج: 1 ص: 23-24

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 58

من أقداره ومشينته ومنها انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء فإن سائر البشر لا يمكنون العبد من مراده بل يقهرونه ويلزمونهم بالعدل الذي يكرهه وهو مما أمر الله به وعصيانهم له في بعض ما أمر به وإن كان هو التوحيد لا يمنع كونهم قانتين خاضعين مستسلمين كرها كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذمة وغيرهم فإنهم خاضعون للدين الذي بعث به رسوله وإن كانوا يعصونه في أمور والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعا وكذلك لما يقدره من المصائب فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعا فهو مسلم لله طوعا خاضع له طوعا والسجود مقصوده الخضوع وسجود كل شيء بحسبه سجودا يناسبها ويتضمن الخضوع للرب وأما فقر المخلوقات الى الله بمعنى حاجتها كلها اليه وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلا به فهذا أول درجات الإفتقار وهو إفتقارها الى ربوبيته لها وخلقه وإتقانه وبهذا الإعتبار كانت مملوكة له وله سبحانه الملك والحمد وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسوله الإيمان الواجب فالحدوث دليل إفتقار الأشياء الى محدثها وكذلك حاجاتها الى محدثها بعد احداثه لها دليل إفتقارها فإن الحاجة الى الرزق دليل إفتقار المرزوق الى الخالق الرازق والصواب أن الأشياء مفتقرة الى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه بل فقرها لازم لها لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه كما أن غناء الرب وصف لازم له لا يمكن أن يكون غير غنى فهو غنى بنفسه لا بوصف جعله غنيا وفقر الأشياء الى الخالق وصف لها وهي معدومة وهي موجودة فاذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله وهو مفتقر الى الخالق كان معناه أنه لا يوجد الا بالخالق هذا قول الجمهور من نظار المسلمين وغيرهم وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل وما أثبتته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها أمر زائد على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف ولكن طائفة تدعى أن افتقارها وخضوعها وخلقها وجريان المشيئة عليها هو تسبيحها وقنوتها وان كان ذلك بلسان الحال وكونها دلالة شاهدة للخالق جل جلاله وقل للأرض من فجر أنهارها وغرس أشجارها وأخرج نباتها وثمارها فان لم تجبك حوارا والا أجابتك اعتبارا وهذا يقوله الغزالي وغيره وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري في قوله {كُلُّ لَهْ قَانِتُونَ} البقرة 116 قال كل مخلوق قانت له باشر صنعته فيه وجرى أحكامه عليه فذلك دليل على ذله لربه وهو الذي ذكره الزجاج في قوله {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} آل عمران 83 قال اسلام الكل خضوعهم لنفاد أمره في جبلهم لا يقدر أحد يمتنع من جبلة جبله الله عليها وهذا المعنى صحيح لكن الصواب الذي عليه جمهور علماء السلف والخلف أن القنوت والاستسلام والتسبيح أمر زائد على ذلك وهذا كقول بعضهم ان سجود الكاره وذله وانقياده لما يريد الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر وكما قال بعضهم في قوله وإن من شيء الا يسبح بحمده قال تسبيحه دلالة على صانعه فتوجب بذلك تسبيحا من غيره والصواب أن لها تسبيحا وسجودا بحسبها والمقصود أن

فقر المخلوقات الى الخالق ودلالاتها عليه وشهادتها له أمر فطرى فطر الله عليه عباده كما فطرهم على الإقرار به بدون هذه الآيات كما قد بسط الكلام على هذا فى مواضع¹

الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

الدين هو التعاهد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاهد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعتهم وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} {1} لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ} {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} {6} {الكافرون 1-6} وقال تعالى {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} {يوسف 76} وقال تعالى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} {التوبة 29} الدين الحق هو طاعة الله وعبادته والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبيننا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لا ينفذ صاحبه وقد قال سبحانه {وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} {البينة 5} وقال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} {البقرة 193} وقال تعالى {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} {التوبة 36} وقال تعالى {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {الأنعام 161} وقال تعالى {فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} {التوبة 122} وفي الصحيحين عن النبي انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالى {وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتِطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {البقرة 217} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 44-46

يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ { المائدة 54 وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته واطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره كما قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران 19 وقال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 وقال تعالى { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 وقال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } الشورى 13 وقال تعالى { إِنَّ الدِّينَ فَرَاقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام 159 كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته واطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالى { وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا } المائدة 3 وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به ¹

أن دين الله الذي أنزل به كتبه وبعث به رسله ما تقدم من إرادة الله وحده بالعمل الصالح وهذا هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد غيره قال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 وقال تعالى { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } آل عمران 18 { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } { 18 } إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ { 19 } آل عمران 18-19 والإسلام يجمع معنيين أحدهما الاستسلام والانقياد فلا يكون متكبرا والثاني

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36-40

الاخلاص من قوله تعالى {وَرَجُلًا سَلَمًا لَّرَجُلٍ} {الزمر 29} فلا يكون مشركا وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين كما قال تعالى {وَمَنْ يَرْعَبْ عَن مَّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {131} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {132} البقرة 130-132 وقال تعالى {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {161} قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {162} لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} {163} الاتعام 161-163 والاسلام يستعمل لا زما معدى بحرف اللام مثل ما ذكر في هذه الآيات ومثل قوله تعالى {وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} {الزمر 54} ومثل قوله تعالى {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {النمل 44} ومثل قوله {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} {آل عمران 83} ومثل قوله {قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَبِهْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا لِنَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {71} وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} {72} الأنعام 71-72 ويستعمل متعديا مقرونا بالاحسان كقوله تعالى {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {111} بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {112} البقرة 111-112 وقوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} {النساء 125} فقد انكر أن يكون دين أحسن من هذا الدين وهو اسلام الوجه لله مع الاحسان وأخبر ان كل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يخزنون أثبتت هذه الكلمة الجامعة والقضية العامة ردا لم زعم من زعمه أن لا يدخل الجنة الا متهود او منتصر وهذان الوصفان وهما اسلام الوجه لله والاحسان هما الأصلان المتقدمان وهما كون العمل خالصا لله صوابا موافقا للسنة والشريعة وذلك ان اسلام الوجه لله هو متضمن للقصد ونية الله¹ و حقيقة الدين هي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة دين الاسلام وهو ان يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره فمن استسلم له ولغيره كان مشركا والله {لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} {النساء 48} ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} {غافر 60} ودين الاسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ولهذا قال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} {النساء 125} وقوله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 173-175

{ آل عمران 85 لان { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران 19 عام فى كل زمان ومكان فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الاسلام الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له وكان النبى يقول فى خطبته للجمعة ان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكان يقول فى خطبة الحاجة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فانه لا يضر الا نفسه ولن يضر الله شيئاً وقد بعث الله رسوله محمداً بأفضل المناهج والشرائع وأنزل عليه أفضل الكتب فأرسله الى خير أمة أخرجت للناس وأكمل له ولأمتة الدين وأتم عليهم النعمة وحرم الجنة الا على من آمن به وبما جاء به ولم يقبل من أحد الا الاسلام الذى جاء به فمن ابتغى غيره ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين¹

الله هو المعبود والمسئول الذى يخاف ويرجى

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحاً وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران 83²

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 219 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 131 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 544 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 69 و مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 64 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 15 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 376

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

وقد قال الله تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } الشورى 21
 والمقصود بجميع العبادات ان يكون الدين كله لله وحده فانه هو المعبود والمسئول الذى يخاف
 ويرجى ويسأل ويعبد فله الدين خالصا {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً} آل
 عمران 83¹

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ
 اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ} الزمر 29 فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة
 قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له
 فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
 عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر 60 وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال
 لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له
 يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب
 الجمال الكبر بطن الحق وغمط الناس بطن الحق جده ودفعه وغمط الناس ازدرأؤهم واحتقارهم²

ليست عبادة المخلوقات لله قبولها لتدبيره وخلقه

ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون
 أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلا فأعمال الثقلين
 الجن والإنس منقسمة منهم من يعبد الله ومنهم من لا يعبد بل قد يجعل معه إلهاً آخر وأما الملائكة
 فهم عابدون لله وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل
 الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله
 متضمنة لمحبه وإرادته وقصده وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين وليست
 عبادتها إياه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقه فإن هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم فلا
 يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيذ بها فيقول أعوذ بكلمات
 الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهذا من عموم ربوبيته وملكوته وهذا الوجه هو الذي
 أدركه كثير من أهل النظر والكلام حتى فسروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها
 وتسبيحها بذلك وهم غالطون في هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا فإن المعقول الذي لهم يعرفهم
 أن كل شيء وكل متحرك وأن كان له مبدأ فلا بد له من غاية ومنتهى كما يقولون لها علتان فاعلية

¹مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 152

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

وغائية والذي ذكره إنما هو من جهة العلة الفاعلية وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية وهذا غلط فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات كما قد بينا هذا في غير هذا الموضوع وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان أحدهما أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة لا فاعلية ولا غائية والثاني أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه وهو رب العالمين لا رب لشيء من الأشياء إلا هو وهو إله كل شيء وهو في السماء إله وفي الأرض إله وهو الله في السموات وفي الأرض لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدنا وما من إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى وهو الغاية المقصودة منها ولها وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا فقال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه وكثير من الناس الذين لا يفعلونه طوعا وهم الذين حق عليهم العذاب ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبيه الله تعالى إياهم وتدبيرهم وكذلك فصل بين الصنفين في قوله تعالى { أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 وكذلك في قوله { وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظُلْماًهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } الرعد 15 وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس لأنه ذكر الطوع فقط كما ذكر في التي قبلها أديان الناس فقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن فإنهم لم يذكرها باللفظ الخاص لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين فإنهم كما قالوا { وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا } الجن 11 وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضا وقال سبحانه { أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } 48 { وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } 49 { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } 50 { النحل 48-50 وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا غابت وقال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } النور 41 وقال تعالى { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الحديد 1 { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الحشر 1 { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {الصف 1} {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ
الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ {الجمعة 1} {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {التغابن 1¹

ضلالات المبتدعة الايمان ببعض النصوص دون بعض

التفريق والتبويض قد يكون في القدر تارة وقد يكون في الوصف إما في الكم وإما في الكيف كما
قد يكون في التنزيل تارة وفي التأويل أخرى فإن الموجود له حقيقة موصوفة وله مقدار محدود فما
أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبويض في قدره وقد يقع في وصفه فالأول مثل قول اليهود
نؤمن بما أنزل على موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد وهكذا النصارى في إيمانهم بالمسيح
دون محمد فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل في هذا فإنه لم يؤمن بجميع المنزل
وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمن

ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض فإن البدع مشتقة من الكفر واما الوصف فمثل
اختلاف اليهود والنصارى في المسيح هؤلاء قالوا إنه عبد مخلوق لكن جحدوا نبوته وقدحوا في نسبه
وهؤلاء أقرروا بنبوته ورسالته ولكن قالوا هو الله فاختلف الطائفتان في وصفه وصفته كل طائفة بحق
وباطل ومثل الصابئة الفلاسفة الذين يصفون إنزال الله على رسله بوصف بعضه حق وبعضه
باطل مثل أن يقولوا ان الرسل تجب طاعتهم ويجوز أن يسمى ما أتوا به كلام الله لكنه إنما أنزل على
قلوبهم من الروح الذي هو العقل الفعال في السماء الدنيا لا من عند الله وهكذا ما ينزل على قلوب
غيرهم أيضا كذلك وليس بكلام الله في الحقيقة وإنما هذا في الحقيقة كلام النبي وانه سمي كلام الله
مجازا فهؤلاء أيضا مبعضين مفرقين حيث صدقوا ببعض صفات ما أنزل الله وبعض صفات رسله
دون بعض وربما كان ما كفروا به من الصفات أكثر مما آمنوا به كما ان ما كفر به اليهود من الكتاب
أكثر وأعظم مما آمنوا به لكن هؤلاء اكفر من اليهود من وجه وان كان اليهود أكفر منهم من وجه
آخر فإن من كان من هؤلاء يهوديا أو نصرانيا فهو كافر من الجهتين ومن كان منهم لا يوجب
اتباع خاتم الرسل بل يجوز التدين باليهودية والنصرانية فهو أيضا كافر من الجهتين فقد يكون أحدهم
أكفر من اليهود والنصارى الكافرين بمحمد والقرآن وقد يكون اليهود والنصارى أكفر ممن آمن منهم
بأكثر صفات ما بعث الله به محمدا لكنهم في الأصل أكفر من جنس اليهود والنصارى فان أولئك
مقرون في الأصل بكمال الرسالة والنبوة وهؤلاء ليسوا مقرين بكمال الرسالة والنبوة كما أن من كان
قديما مؤمنا من اليهود والنصارى صالحا فهو أفضل ممن كان منهم مؤمنا صالحا وكذلك من كان من

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 25-26

المنتسبين إلى الإسلام مؤمنا ببعض صفات القرآن وكلام الله وتنزيله على رسله وصفات رسله دون بعض فنسبته إلى هؤلاء كنسبة من آمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض إلى اليهود والنصارى ومن هنا تتبين الضلالات المبتدعة في هذه الأمة حيث هي من الايمان ببعض ما جاء به الرسول دون بعض وإما ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض وكلاهما إما في التنزيل وإما في التأويل والسبب الذي أوقع هؤلاء في الكفر ببعض ما أنزله هو من جنس ما أوقع الأولين في الكفر بجميع ما أنزل الله في كثير من المواضع فإن من تأمل وجد شبه اليهود والنصارى ومن تبعهم من الصابئين في الكفر بما أنزل الله على محمد هي من جنس شبه المشركين والمجوس ومن معهم من الصابئين في الكفر بجنس الكتاب وبما أنزل الله على رسله في كثير من المواضع فإنهم يعترضون على آياته وعلى الكتاب الذي أنزل معه وعلى الشريعة التي بعث بها وعلى سيرته بنحو مما اعترض به على سائر الرسل مثل موسى وعيسى كما قال الله تعالى في جميعهم {4} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ {5} غافر 4-5 إلى قوله {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} {34} الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ {35} غافر 34-35 كما قال الله تعالى في جميعهم {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرِزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} {4} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ {5} غافر 4-5 إلى قوله {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} {34} الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ {35} غافر 34-35 وفي الآية الأخرى {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} غافر 56 إلى قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ} {69} الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} {70} غافر 69-70 هذا مع أن السلطان الذي أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات وأنواع القدر الباهرات أعظم مما أيد به غيره ونبوته هي التي طبق نورها مشارق الأرض ومغاربها وبه ثبتت نبوات من تقدمه وتبين الحق من الباطل والا فلولا رسالته لكان الناس في ظلمات بعضها فوق بعض وأمر مريج يوفك عنه من أفك الكتابيون منهم والأميون وجماع شبه هؤلاء الكفار أنهم قاسوا الرسول على من فرق الله بينه وبينه وكفروا بفضل الله الذي اختص به رسله فأتوا من جهة القياس الفاسد ولا بد في القياس من قدر مشترك بين المشبه والمشبه به مثل جنس الوحي والتنزيل فان الشياطين ينزلون على أوليائهم ويوحون إليهم كقوله {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} الأنعام 121 وقال سبحانه {هَلْ أَنْبَأُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ} {221} تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ} {222} يُفُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ} {223} الشعراء 221-223¹

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 14-19

الانبياء معصومون

وأما الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فناطقة بأن الله لا يقبل من أحد دينا سوى الحنيفية وهي الإسلام العام عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان بكتبه ورسوله واليوم الآخر كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة 62 والإسلام دين الرسل كلهم أولهم وآخرهم وكلهم بعثوا بالإسلام كما قال نوح عليه السلام {يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ} {71} فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} {72} يونس 71- 72 وقال تعالى {وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مَّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {131} وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} {132} البقرة 130- 132 وقال تعالى {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ} يونس 84 وقال تعالى {وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} المائدة 111 وقال {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} المائدة 44 وقالت بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} النمل 44 وقال في الحواريين {وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} المائدة 111 وقد قال مطلقا {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ} {19} آل عمران 18-19 وقال {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد فدين الرسل كلهم دين واحد وهو دين الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما امر به وشرعه كما قال {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} الشورى 13 وإنما يتنوع في هذا الدين الشريعة والمنهاج كما قال {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} المائدة 48 كما تتنوع شريعة الرسول الواحد فقد كان الله أمر محمدا صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام أن يصلى إلى بيت المقدس ثم أمره في السنة الثانية من الهجرة أن يصلى إلى الكعبة البيت الحرام وهذا في وقته كان من دين الإسلام وكذلك شريعة التوراة في وقتها كانت من دين الإسلام وشريعة الإنجيل في وقته

كانت من دين الإسلام ومن آمن بالتوراة ثم بالكذب بالإنجيل خرج من دين الإسلام وكان كافرا وكذلك من آمن بالكتابين المتقدمين وكذب بالقرآن كان كافرا خارجا من دين الإسلام فإن دين الإسلام يتضمن الإيمان بجميع الكتب وجميع الرسل كما قال تعالى {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 الآية¹

الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر الا بطاعة الله فنبى الله الذي ينبئه الله لا غيره ولهذا أوجب الله الايمان بما أوتيته النبيون فقال تعالى {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} آل عمران 84²

وقد أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الأنبياء مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض أما تصديق خاتم الرسل محمد رسول الله لما أنزل الله قبله من الكتب ولما جاء قبله من الأنبياء فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواترا تواترا ظاهرا كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان³

أمرنا الله ان نؤمن بكل ما جاؤا به الانبياء فإنهم معصومون لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ ولهذا أوجب الله الإيمان بهم ومن كفر بواحد منهم فهو كافر ومن يسب واحدا منهم وجب قتله في شرع الإسلام كما قال تعالى {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} آل عمران 84 وما علم المسلمون أن نبيا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف وما لم يعلموا أن النبي أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمدا أخبر به صلى الله عليهم أجمعين ولكن لا يكذبون إلا بما علموا أنه كذب كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد وبهذا أمرهم المسيح عليه السلام فقال الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 189 و مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 150 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 400

²النبوات ج: 1 ص: 178 و الجواب الصحيح ج: 5 ص: 242

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 370

⁴الجواب الصحيح ج: 2 ص: 84 و الصفية ج: 2 ص: 311 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 482 و الجواب الصحيح ج: 2

ص: 371

فإن أولياء الله من الصحابة والتابعين بعدهم بإحسان وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه وليس فيهم معصوم يجب قبول كل ما يقول بل يجوز الغلط على كل واحد منهم وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيته الأنبياء ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل ولي لله ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم ومن كذب نبيا واحدا تعلم نبوته فهو كافر باتفاق المسلمين ومن سبه وجب قتله كذلك بخلاف من ليس بنبي فإنه لا يكفر أحد بمخالفته ولا يقتل بمجرد سبه إلا أن يفترن بالسب ما يكون مبيحا للدم والذي عليه سلف الأمة كالصحابه والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين وجماهير المسلمين أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر وليس بعد الأنبياء أفضل منهما وهذه الأمة أفضل الأمم وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر والمحدث الملهم المخاطب وكان عمر قد جعل الله الحق على قلبه ولسانه وما كان يقول لشيء إني لأراه كذا وكذا إلا كان كما يقول وكانت السكينة تنطق على لسانه ومع هذا فلم يكن لا هو ولا غيره ممن ليس بنبي معصوما من الغلط ولا يجب على المسلم قبول ما يقوله إن لم يدل عليه الكتاب والسنة ولا كان يجوز له العمل بما يلقي في قلبه إن لم يعرضه على الكتاب والسنة فإن وافق ذلك قبله وإن خالف ذلك رده وعند المسلمين أنه ليس في أتباع المسيح عليه السلام مثل أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما فإذا قالوا عن الحواريين أنهم ليسوا معصومين فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من الحواريين كما أنهم إذا قالوا عن المسيح أنه عبد مخلوق ليس بإله فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من المسيح كمحمد وإبراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام¹

ذكر عبادة الله وحده والإيمان برسله كلهم كما ذكر في سورة البقرة قال أبو العالية قوله {فَوَرَبَّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {92} {عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {93} الحجر 92 93 قال خصلتان يسأل عنهما كل أحد ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين وكذلك ذكر سجود من في السماوات والأرض له طوعا وكرها والسجود هو الخضوع وهو القنوت وأيضا فإذا كانت الصيغة عامة لم يجز أن يراد بها الخصوص إلا مع ما يبين ذلك فأما إذا جردت عن المخصصات فإنها لا تكون إلا عامة والآية عامة عموما مجردا بل مؤكدا بما يدل على العموم وأما تخصيص المؤمنين فهذا يكون إذا مدحوا بذلك أو ذكر جزاء الآخرة وليس المقصود هنا مدح المؤمنين بطاعته وإنما المقصود بيان قدرته وملكه وخضوع كل شيء له وأنه مع هذا وهذا يتمتع أن يكون له ولد مع خضوع كل شيء له وقنوته له ويقال في الركوع من التسبيح المأثور فيه سبحان من تواضع كل شيء لعظمته سبحان من ذل كل شيء لعزته سبحان من استسلم كل شيء لقدرته²

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 401 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 344 و الصفدية ج: 1 ص: 255 و الجواب الصحيح ج: 6 ص:

²رسالة في قنوت الأشياء ج: 1 ص: 24

"الاسلام علانية والايمان فى القلب"

وقد صار الناس فى مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيـمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبى صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايـمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايـمان بالإيمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايـمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبى وأما اذا أفرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للإيمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذى فى القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الايمان وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به فى القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذى لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85** ووصف الله أنبياء بنى اسرائيل بالاسلام فى قوله **{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ} المائدة 44** والانبيا كلهم مؤمنون ووصف الحواريين بالايـمان والاسلام فقال تعالى **{وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} المائدة 111** و **{قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 52** وحقيقة الفرق أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذى إرضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح وأما الايمان فاصله تصديق وقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الايمان بايمان القلب وبخضوعه وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وفسر الإسلام بإستسلام مخصوص هو المبانى الخمس وهكذا فى سائر كلامه يفسر الايمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا وذلك النوع أعلى ولهذا قال النبى الإسلام علانية والايـمان فى القلب فان الاعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما فى القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن لكن له لوازم قد تدل عليه واللازم لا يدل الا اذا كان ملزوما فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق فلا يدل فى حديث عبدالله بن عمرو وابى هريرة جميعا ان النبى قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دمايهم وأموالهم ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمايهم وأموالهم وهذه الصفة اعلى من تلك فان كان

مأمونا سلم الناس منه وليس كل من سلموا منه يكون مأمونا فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون اليه خوفا ان يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لايمان فى قلبه وفى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال للنبي ما الإسلام قال اطعام الطعام ولين الكلام قال فما الايمان قال السماحة والصبر فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة وكذلك لين الكلام وأما السماحة والصبر فخلقان فى النفس قال تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} البلد 17 وهذا أعلى من ذلك وهو أن يكون صبارا شكورا فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره وهذا ضد الذى خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا فان ذلك ليس فيه عند النعمة ولا صبر عند المصيبة وتام الحديث فأى الإسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قال يا رسول الله أى المؤمنين أكمل ايمانا قال أحسنهم خلقا قال يا رسول الله أى القتل اشرف قال من أريق دمه وعقر جواده قال يا رسول الله فأى الجهاد افضل قال الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله قال يا رسول الله فأى الصدقة أفضل قال جهد المقل قال يا رسول الله فأى الصلاة أفضل قال طول القنوت قال يا رسول الله فأى الهجرة افضل قال من هجر السوء وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير تارة يروى مرسلا وتارة يروى مسندا وفى رواية أى الساعات أفضل قال جوف الليل الغابر وقوله افضل الايمان السماحة والصبر يروى من وجه اخر عن جابر عن النبي وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الإسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الاعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده أنه قال والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعى هذه أن لا أتيك فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به قال الإسلام قال وما الإسلام قال أن تسلم قلبك لله وان توجه وجهك إلى الله وان تصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد إسلامه وفى رواية قال أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم وفى لفظ تقول أسلمت نفسى لله وخليت وجهى اليه وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبى هريرة قال قال رسول الله أن للإسلام صوى ومنارا كمنار الطريق من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وان تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتسلم على بنى ادم اذا لقيتهم فان ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكة وان لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتهم ان سكت عنهم وتسليمك على أهل بيتك اذا دخلت عليهم فمن إنتقص منهن شيئا فهو سهم فى الإسلام تركه ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره¹

قال الأمام احمد وأما قول من سوى بين الإسلام والإيمان وقال أن الله سمي الإيمان بما سمي به الإسلام وسمى الإسلام بما سمي به الإيمان فليس كذلك فإن الله ورسوله قد فسر الإيمان بأنه الإيمان

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 262-269

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبين أيضا أن العمل بما أمر به يدخل في الإيمان ولم يسم الله الإيمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت إسلاما بل إنما سمي الإسلام الإستسلام له بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصا لوجهه فهذا هو الذي سماه الله إسلاما وجعله ديننا وقال {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85 ولم يدخل فيما خص به الإيمان وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بل ولا أعمال القلوب مثل حب الله ورسوله ونحو ذلك فإن هذه جعلها من الإيمان والمسلم المؤمن يتصف بها وليس إذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الإسلام بل هي من الإيمان والإسلام فرض والإيمان فرض والإسلام داخل فيه فمن أتى بالإيمان الذي أمر به فلا بد أن يكون قد أتى بالإسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة ومن أتى بما يسمي إسلاما لم يلزم أن يكون قد أتى بالإيمان إلا بدليل منفصل كما علم أن من أتى الله عليه بالإسلام من الأنبياء واتباعهم إلى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين كما كانوا مسلمين كما قال الحواريون {آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 52 وقال {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} المائدة 111 ولهذا أمرنا الله بهذا وبهذا في خطاب واحد كما قال {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {136} فإن آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {137} البقرة 136-137 وقال في الآية الأخرى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 وهذا يقتضي أن كل من دان بغير دين الإسلام فعمله مردود وهو خاسر في الآخرة فيقتضي وجوب دين الإسلام وبطلان ما سواه لا يقتضي أن مسمى الدين هو مسمى الإيمان بل أمرنا أن نقول {آمَنَّا بِاللَّهِ} البقرة 136 وأمرنا أن نقول {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 فأمرنا بإثني فكيف نجعلهما واحدا وإذا جعلوا الإسلام والإيمان شيئا واحدا فاما أن يقولوا اللفظ مترادف فيكون هذا تكريرا محضا ثم مدلول هذا اللفظ عين مدلول هذا اللفظ وإما أن يقولوا بل أحد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى كما في أسماء الله وأسماء كتابه لكن هذا لا يقتضي الأمر بهما جميعا ولكن يقتضي أن يذكر تارة بهذا الوصف وتارة بهذا الوصف فلا يقول قائل قد فرض الله عليك الصلوات الخمس والصلاة المكتوبة وهذا هو هذا والعطف بالصفات يكون إذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح أو الذم كقوله {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} {3} الأعلى 1-3 لا يقال صل لربك الأعلى ولربك الذي خلق فسوى¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 410-411

إذا علم أن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد وأنه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه زالت الشبهة العلمية في هذه المسألة ولم يبق إلا نزاع لفظي في أن موجب الإيمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مسماه فيكون لفظ الإيمان دالا عليه بالتضمن والعموم أو هو لازم للإيمان ومعلول له وثمره له فتكون دلالة الإيمان عليه بطريق اللزوم و حقيقة الأمر أن إسم الإيمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا كما قد تقدم فإذا قرن إسم الإيمان بالإسلام أو العمل كان دالا على الباطن فقط وأن افراد إسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظاهر وبهذا تأتلف النصوص فقوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان أفرد لفظ الإيمان فدخل فيه الباطن والظاهر وقوله في حديث جبريل الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ذكره مع قوله الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت فلما أفردته عن إسم الإسلام ذكر ما يخصه الإسم في ذلك الحديث مجردا عن الإقتران وفي هذا الحديث مقرون بإسم الإسلام وقوله تعالى **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85** دخل فيه الباطن فلو أتى بالعمل الظاهر دون الباطن لم يكن ممن أتى بالدين الذي هو عند الله الإسلام وأما إذا قرن الإسلام بالإيمان كما في قوله تعالى **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} الحجرات 14** وقوله **{فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} 35** **{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ} 36** الذاريات 35-36 وقوله تعالى **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} الأحزاب 35** فقد يراد بالإسلام الأعمال الظاهرة كما في حديث أنس الذي في المسند عن النبي أنه قال الإسلام علانية والإيمان في القلب ومن علم أن دلالة اللفظ تختلف بالافراد والإقتران كما في إسم الفقير والمسكين والمعروف والمنكر والبغي وغير ذلك من الأسماء وكما في لغات سائر الأمم عربها وعجمها زاحت عنه الشبهة في هذا الباب والله أعلم فإن قال قائل إسم الإيمان إنما يتناول الأعمال مجازا قيل أولا ليس هذا بأولى ممن قال إنما تخرج عنه الأعمال مجازا بل هذا أقوى لأن خروج العمل عنه إنما هو إذا كان مقرونا بإسم الإسلام والعمل وأما دخول العمل فيه فإذا أفرد كما في قوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان فإنما يدل مع الإقتران أولى بإسم المجاز مما يدل عند التجريد والإطلاق وقيل له ثانيا لا نزاع في أن العمل الظاهر هو فرع عن الباطن وموجب له ومقتضاه لكن هل هو داخل في مسمى الإسم وجزء منه أو هو لازم للمسمى كالشرط المفارق والموجب التابع ومن المعلوم أن

الأسماء الشرعية والدينية كإسم الصلاة و الزكاة و الحج ونحو ذلك هي بإتفاق الفقهاء إسم لمجموع الصلاة الشرعية والحج الشرعي¹

الرد على تفسير النصارى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} بآن مراده قومه

وروى أحمد عن عكرمة قال لما نزلت **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** آل عمران 85 قالت اليهود فنحن المسلمون فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}** آل عمران 97 فحجوا فأبوا فأنزل الله **{وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** آل عمران 97 من أهل الملل وفي رواية لما نزلت **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}** آل عمران 85 قالت الملل فنحن المسلمون فأنزل الله تعالى **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** آل عمران 97 فحج المسلمون وقعد الكفار ولا يجب على الكافر سواء كان أصليا أو مرتدا في أقوى الروايتين²

وأما تفسيرهم لقوله تعالى **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** آل عمران 85 بأن مراده قومه كما قالوا وأما قوله تعالى **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** آل عمران 85 يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه فيقال لهم من فسر مراد متكلم أي متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه وإن كان المتكلم من آحاد العامة ولو كان المتكلم من المنتبئين الكذابين فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه فيقال أراد كذا وكذا فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقا أو كاذبا فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علما ضروريا أنه لم يرد ذلك بل يعلم علما ضروريا أنه أراد العموم فإن قوله تعالى **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا}** آل عمران 85 صيغة عامة وصيغة من الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}** {7} **{وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** {8} الزلزلة 7-8 ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم فإن هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى فإنها نزلت لما قدم على النبي وفد نجران النصارى وروى أنهم كانوا ستين راكبا وفيهم السيد والأيهم والعاقب وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها وقد قال قبل هذا الكلام بدم دين النصارى الذي ابتدعوه وغيروا به دين

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 575-577

²شرح العمدة ج: 2 ص: 115

المسيح ولبسوا الحق الذي بعث به المسيح بالباطل الذي ابتدعه حتى صار دينهم مركبا من حق وباطل واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره والمسيح قرر أكثر شرع التوراة وغير المعنى وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح قال تعالى **{ مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } 79** وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ **{ 80 } آل عمران 79- 80** فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر فمن اتخذ من دونهم أربابا كان أولى بالكفر وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أربابا بقوله تعالى **{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31** ثم قال تعالى في سورة آل عمران **{ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } آل عمران 81** قال ابن عباس وغيره من السلف ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه والآية تدل على ما قالوا فإن قوله تعالى **{ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ } آل عمران 81** يتناول جميع النبيين وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم كقوله تعالى **{ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون } الحشر 12** ومنه قوله تعالى **{ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين } التوبة 75** وقوله **{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها } الأنعام 109** وقوله **{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا } النور 53** وقوله **{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم } فاطر 42** ومنه قوله **{ وَلئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب } التوبة 65** وقوله **{ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين } الأعراف 149** وقوله **{ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم } الأحزاب 60** وقوله **{ وَلئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك } الإسراء 86** وقوله **{ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } المائدة 73** وقوله **{ وَلئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونن من الصاغرين } يوسف 32** وقوله **{ وَلئن جنتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون } الروم 58** وقوله **{ وَلئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم } العنكبوت 10** وقوله **{ وَلئن أخرجنا عنهم العذاب**

إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ {هود 8} ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام والله لئن أخرجوا لا يخرجون معهم والله ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل المذكور عليه إختصارا وإيجازا لا سيما فيما يكثر إستعماله كالقسم وقوله {لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ {آل عمران 81} هي ما الشرطية والتقدير أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعتة بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا يغنيكم ما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله فدل ذلك على انه من أدرك محمدا من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال {لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ {آل عمران 81} وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى {أَفَرَأَيْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ {آل عمران 81} ثم قال تعالى {فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {آل عمران 82} ثم قال تعالى {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {آل عمران 83} ثم قال تعالى {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {آل عمران 84} ثم قال تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {آل عمران 85} قالت طائفة من السلف لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون فقال تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا {آل عمران 97} فقالوا لا نحج فقال تعالى {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ {آل عمران 97} فكل من لم ير حج البيت واجبا عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن واليهود والنصارى لا يرونه واجبا عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى في حديث مرفوع إلى النبي من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت فإنه كافر وأيضا فقد قال تعالى في أول السورة {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {18} إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {19} فَإِن حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِن أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {20} آل عمران 18- 20} فقد أمره تعالى بعد قوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} {آل عمران 19} أن يقول {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} {آل عمران 20} وأن يقول للذين أتوا الكتاب وهم اليهود

والنصارى والأميين وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم {أَسْلَمْتُمْ} آل عمران 20 فالعرب
الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس وأما من سواهم فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل
في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس قال تعالى {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ
اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} آل عمران 20 فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام
كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين وإن لم يسلموا فقد قال إنما عليك البلاغ أي تبلغهم
رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم فدل هذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به
من الإسلام كما يبلغ الأميين وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين وفي
الصحيحين عن النبي في الكتاب الذي كتبه إلى هرقل ملك النصارى من محمد رسول الله إلى هرقل
عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله
أجرًا مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا
وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا
اشهدوا بأنا مسلمون وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح
وإبراهيم ويعقوب وأتباعهم إلى الحواريين وهذا تحقيق لقوله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا
فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85 وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان قال تعالى عن
نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ
عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَاعْلَمُوا أَنِّي لَأَكْفَرُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} وقال تعالى {وَأْتَيْنَا
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {127} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا
مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ} {128}
البقرة 127-128 قال تعالى {وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي
الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {131}
وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {132}
البقرة 130-132 فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن
إبراهيم وصى بنيه ويعقوب وصى بنيه أن لا يموتن إلا وهم مسلمون وقال تعالى {مَا
كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {67} إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ
بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} {68} آل عمران 67-68 وقال تعالى
عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ
{يوسف 101} وقال تعالى عن موسى {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ
مُسْلِمِينَ} {يونس 84} وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى {قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ

{50} إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ {51} الشعراء 50- 51 وقالوا أيضا {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفَرُعْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ {الأعراف 126 وقال تعالى في قصة سليمان {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {30} أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ {31} النمل 30-31 وقال {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ {النمل 38 وقال {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ {النمل 42 وقال عن بلقيس التي آمنت بسليمان {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {النمل 44 وقال عن أنبياء بني إسرائيل {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا {المائدة 44 وقال تعالى عن الحواريين {وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ {المائدة 111 وقال تعالى {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ {آل عمران 53 فهو لاء الأنبياء وأتباعهم كلهم يذكر تعالى أنهم كانوا مسلمين وهذا مما يبين أن قوله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ {آل عمران 85 وقوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ {آل عمران 19 لا يختص بمن بعث إليه محمد بل هو حكم عام في الأولين والآخرين ولهذا قال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا {النساء 125 وقال تعالى {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {111} بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {112} البقرة 111-112¹

ارادة الله وحده بالعمل الصالح هو الاسلام العام

وإذا كانت جميع الحسنات لا بد فيها من شيتين ان يراد بها وجه الله وان تكون موافقة للشريعة فهذا في الاقوال والافعال في الكلم الطيب والعمل الصالح في الامور العلمية والامور العملية العبادية ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ان اول ثلاثة تسجر بهم جهنم رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن وأقرأه ليقول الناس هو عالم وقارئ ورجل قاتل وجاهد ليقول الناس هو شجاع وجرئ ورجل تصدق واعطى ليقول الناس هو جواد وسخي فإن هؤلاء الثلاثة الذين يريدون الرياء والسمعة هم بإزاء الثلاثة الذين بعد النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين فإن من تعلم العلم الذي بعث الله به رسله وعلمه لوجه الله كان صديقا ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وقتل كان شهيدا ومن تصدق يبتغي بذلك وجه الله كان صالحا ولهذا يسأل المفرط في ماله الرجعة وقت الموت كما قال ابن عباس رضي الله عنهما من اعطي مالا فلم يحج منه ولم يترك سأل الرجعة وقت الموت وقرأ

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 117-132 و اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 450 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 313 دقائق التفسير ج: 1 ص: 333 و الصغدية ج: 2 ص: 308

قوله تعالى {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} {المنافقون 10} ففي هذه الامور العلمية الكلامية يحتاج المخبر بها ان يكون ما يخبر به عن الله واليوم الاخر وما كان وما يكون حقا وصوابا وما يأمر به وما ينهي عنه كما جاءت به الرسل عن الله فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة المتبع لكتاب الله وسنة رسوله كما ان العبادات التي يتعبد العباد بها اذا كانت مما شرعة الله وامر الله به ورسوله كانت حقا صوابا موافقا لما بعث الله به رسله وما لم يكن كذلك من القسمين كان من الباطل والبدع المضلة والجهل وان كان يسميه من يسميه علوما ومعقولات وعبادات ومجاهدات واذواقا ومقامات ويحتاج ايضا ان يؤمر بذلك لأمر الله به وينهى عنه لنهي الله عنه ويخبر بما اخبر الله به لأنه حق وايمان وهدى كما أخبرت به الرسول كما تحتاج العبادة إلى أن يقصد بها وجه الله فاذا قيل ذلك لاتباع الهوى والحمية او لإظهار العلم والفضيلة او لطلب السمعة والرياء كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء ومن هنا يتبين لك ما وقع فيه كثير من اهل العلم والمقال واهل العبادة والحال واهل الحرب والقتال من لبس الحق بالباطل في كثير من الاصول فكثيرا ما يقول هؤلاء من الاقوال ما هو خلاف الكتاب والسنة او ما يتضمن خلاف السنة ووافقها وكثيرا ما يتعبد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها بل قد نهى عنها او ما يتضمن مشروعا ومحظورا وكثيرا ما يقاتل هؤلاء قتالا مخالفا للقتال المأمور به او متضمنا لمأمور به ومحظور ثم كل من الاقسام الثلاثة المأمور به والمحظور والمشتمل على الامرين قد يكون لصاحبه نية حسنة وقد يكون متبعا لهواه وقد يجتمع له وهذا وهذا فهذه تسعة اقسام في هذه الامور في الاموال المنفقة عليها من الاموال السلطانية الفئ وغيره والاموال الموقوفة والاموال الموصى بها والاموال المنذورة وانواع العطايا والصدقات والصلات وهذا كله من لبس الحق بالباطل وخلط عمل صالح واخر شيء والسيء من ذلك قد يكون صاحبه مخطئا او ناسيا مغفورا له كالمجتهد المخطيء الذي له اجر وخطؤه مغفور له وقد يكون صغيرا مكفرا باجتناب الكبائر وقد يكون مغفورا بتوبة او بحسنات تمحو السيئات او مكفرا بمصائب الدنيا ونحو ذلك الا ان دين الله الذي انزل به كتبه وبعث به رسله ما تقدم من ارادة الله وحده بالعمل الصالح وهذا هو الاسلام العام الذي لا يقبل الله من احد غيره قال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85¹

وقد قال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 والاسلام هو دين جميع الانبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الامم كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه فأخبر عن نوح وابراهيم واسرائيل انهم كانوا مسلمين وكذلك عن اتباع موسى وعيسى وغيرهم والاسلام هو أن يستسلم لله لا لغيره فيعبد الله ولا يشرك به شيئا ويتوكل عليه

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 302

وحده ويرجوه ويخافه وحده ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقا كحبه الله ويبغض الله ويوالي الله ويعادي الله فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً ومن عبد مع الله غيره لم يكن مسلماً وإنما تكون عبادته بطاعته وطاعة رسله من يطع الرسول فقد أطاع الله فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الاسلام وأما ما بدل منها فليس من دين الاسلام وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الاسلام كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهراً ثم الامر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الاسلام فبعد النسخ لم يبق دين الاسلام إلا أن يولي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة لم يكن على دين الاسلام لأنه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره وهكذا كل بدعة تخالف أمر الرسول إما أن تكون من الدين المبدل الذي ما شرعه الله قط أو من المنسوخ الذي نسخه الله بعد شرعه كالتوجه الى بيت المقدس فهذا كانت السنة في الاسلام كالاسلام في الدين هو الوسط¹

أصل الدين هو الأمور الباطنة

والإسلام ضد الشرك والكبر وذلك في القرآن كثير ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً سواه كما قال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85²

الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره فمن لم يستسلم له فقد استكبر ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام والإسلام ضد الشرك والكبر وذلك في القرآن كثير ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً سواه كما قال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 وهذا الذي ذكرنا مما يبين أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده الإسلام علانية والإيمان في القلب ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لك ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر

¹النبوات ج: 1 ص: 94 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 190

²التحفة العراقية ج: 1 ص: 41

الجسد وهي القلب وعن أبي هريرة قال القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث خبثت جنوده فصل وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال واحد وإن ارتقى مقامه¹

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }

ولما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه من توحيده وعبادته وحده لا شريك له وانه إنما يعبد بما شرعه من واجب ومستحب لا يعبد بما نهى عنه ولم يشرعه والله سبحانه بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا فبعثه بدين الإسلام الذي بعث به جميع الأنبياء فإن الدين عند الله الإسلام {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85 لا من الأولين ولا من الآخرين وجميع الأنبياء كانوا على دين الإسلام كما في الصحيحين عن النبي أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد الأنبياء إخوة لعلات وقد أخبر تعالى في القرآن عن نوح وإبراهيم وإسرائيل وأتباع موسى والمسيح وغيرهم أنهم كانوا مسلمين متفقين على عبادة الله وحده لا شريك له وأن يعبد بما أمر هو سبحانه وتعالى فلا يعبد غيره ولا يعبد هو بدين لم يشرعه فلما أمر أن يصلى فى أول الإسلام إلى بيت المقدس كان ذلك من دين الإسلام ثم لما نسخ ذلك وأمر باستقبال البيت الحرام كان هذا من دين الإسلام وذلك المنسوخ ليس من دين الإسلام وقد قال تعالى {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا} المائدة 48 فالتوراة شرعة وللإنجيل شرعة وللقرآن شرعة فمن كان متبعا لشرع التوراة أو الإنجيل الذى لم يبدل ولم ينسخ فهو على دين الإسلام كالذين كانوا على شريعة التوراة بلا تغيير قبل مبعث المسيح عليه السلام والذين كانوا على شريعة الإنجيل بلا تغيير قبل مبعث محمد وأما من إتبع ديننا مبدلا ما شرعه الله أو ديننا منسوخا فهذا قد خرج عن دين الإسلام كاليهود الذين بدلوا التوراة وكذبوا المسيح عليه السلام ثم كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم والنصارى الذين بدلوا الإنجيل وكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فهؤلاء ليسوا على دين الإسلام الذى كان عليه الأنبياء بل هم مخالفون لهم فيما كذبوا به من الحق وإبتدعوه من الباطل وكذلك كل مبتدع خالف سنة رسول الله وكذب ببعض ما جاء به من الحق وإبتدع من الباطل ما لم تشرعه الرسل فالرسول برىء مما إبتدعه وخالفه فيه وقال تعالى {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} الشعراء 216 وقال تعالى {إِنَّ

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 40-41

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَأَسْتَمِنْهُمْ فِي شَيْءٍ { الأنعام 159 } فالحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله وقد ذم الله المشركين على انهم حللوا وحرموا وشرعوا ديناً لم يأذن به الله فقال تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } { الشورى 21 } والسور المكية أنزلها الله تبارك وتعالى في الدين العام الذي بعث به جميع الرسل كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ومحمد خاتم المرسلين لا نبي بعده وأمه خير أمة أخرجت للناس وقد بعثه الله بأفضل الكتب وأفضل الشرائع وأكمل له ولأمة الدين وأتم عليه النعمة ورضى لهم الإسلام ديناً وهو قد دعا إلى الصراط المستقيم كما قال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } { 52 } صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } { 53 } الشورى 52-53 وقد أمرنا الله أن نتبع هذا الصراط المستقيم ولا نعدل عنه إلى السبل المبتدعة فقال تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } { الأنعام 153 } وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه خط لنا رسول الله خطأ وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } { الأنعام 153 } ولهذا أمرنا الله ان نقول في صلاتنا { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } { 6 } صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } { 7 } الفاتحة 6-7 وقال النبي اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وهو لم يمت حتى بين الدين وأوضح السبيل وقال تركتكم على البيضاء النقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك وقال ما تركت من شيء يقربكم من الجنة إلا وقد حدثتكم به ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به وقال أنه من يعش منكم بعدى فسيرى إختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة قال الترمذى حديث صحيح¹

الغاية التي فيها صلاح للنفس

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } { آل عمران 85 } وقد قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } { الذاريات 56 } فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتركو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محباً للإله المعبود كمال

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 369-371 و مؤلفات ابن تيمية ج: 1 ص: 336-337

الحب ولا بد أن يكون ذليلاً له كمال الذل فمن أحب شيئاً ولم يذل له لم يعبد له ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعو الله فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفاً في طعامه ونكاحه وكان حكيماً شجاعاً¹

لطائف لغوية

1- ولفظ الحرف والكلمة له في لغة العرب التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بها معنى وله في اصطلاح النحاة معنى فالكلمة في لغتهم هي الجملة التامة والجملة الاسمية أو الفعلية كما قال النبي في الحديث المتفق على صحته كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وقال إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل وقوله في النساء أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله وقال إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة وقال لأم المؤمنين لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله عدد خلقه سبحان الله رضا نفسه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته ومنه قوله تعالى { وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } 4 { مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا } 5 { الكهف 4-5 } وقوله { وَاللَّزِمَهُمْ كَلِمَةَ النَّفْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا } الفتح 26 وقوله تعالى **{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا } آل عمران 64** وقوله { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } الزخرف 28 وقوله { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا } التوبة 40 وقول النبي من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ونظائره كثيرة ولا يوجد قط في الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا والمراد به الجملة التامة فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك بل يظنون أن اصطلاحهم في مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

والفاضل منهم يقول وكلمة بها كلام قد يؤم ويقولون العرب قد تستعمل الكلمة في الجملة التامة وتستعملها في المفرد وهذا غلط لا يوجد قط في كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة¹ فليس في الكلام الذى يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد سواء كانت الجملة اسمية أو فعلية ولهذا كان لفظ الكلام و الكلمة في لغة العرب بل وفي لغة غيرهم لا تستعمل الا في المقيد وهو الجملة التامة اسمية كانت أو فعلية أو ندائية ان قيل انها قسم ثالث فأما مجرد الاسم أو الفعل أو الحرف الذى جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فهذا لا يسمى في كلام العرب قط كلمة وانما تسمية هذا كلمة اصطلاح نحوى كما سموا بعض الألفاظ فعلا وقسموه الى فعل ماض ومضارع وأمر والعرب لم تسم قط اللفظ فعلا بل النحاة اصطلاحوا على هذا فسموا اللفظ باسم مدلوله فاللفظ الدال على حدوث فعل فى زمن ماض سموه فعلا ماضيا وكذلك سائرهما وكذلك حيث وجد فى الكتاب والسنة بل وفى كلام العرب نظمه ونثره لفظ كلمة فانما يراد به المفيد التى تسميها النحاة جملة تامة كقوله تعالى **{تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} آل عمران 64**²

والكلمة في لغة العرب هي الجملة المفيدة سواء كانت جملة اسمية أو فعلية وهي القول التام وكذلك الكلام عندهم هو الجملة التامة قال سيبويه واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلاما ولا يحكون به ما كان قولا ولكن النحاة اصطلاحوا على أن يسموا ما تسميه العرب حرفا يسمونه كلمة مثل زيد وعمرو ومثل قعد وذهب وكل حرف جاء لمعنى ليس باسم و لا فعل مثل إن وثم وهل ولعل³

2- قال تعالى **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} 2** **{وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} 3** {الاعلى 2-3} و التسوية جعل الشيين سواء كما قال **{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} فاطر 19** و قوله تعالى **{تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} آل عمران 64** و سواء و سوا لأنه معتدل بين الجوانب⁴

3- **{أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا} آل عمران 64** عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد ومن هذا الباب لفظ العبادة فاذا أمر بعبادة الله مطلقا دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك فى مثل قوله **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56** وفى قوله **{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} النساء 36** وقوله **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} البقرة 21** وقوله **{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} الزمر 2** **{قُلِ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} الزمر 14** وقوله **{أَفَعَبِّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} الزمر 64** ثم قد يقرن بها اسم آخر كما فى قوله **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 103 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 130 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 246

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 101

³الجواب الصحيح ج: 3 ص: 266

⁴مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 136

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ { الفاتحة 5 وقوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 وقول نوح { اَعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقَرُوا وَأَطِيعُونَ { نوح 3¹

4- { وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ { آل عمران 80 أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذى إرتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح²

5- ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ { الزمر 29 فلا بد فى الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ { غافر 60 وثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جرده ودفعه وغمط الناس ازدرأؤهم واحتقارهم³

6- { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ { آل عمران 64 قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى { 15 } الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى { 16 } } الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَى { النازعات 21 وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى { 31 } } وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى { 32 } } القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا { 15 } } فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلاً { 16 } } المزملة 15-16 ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله { سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

عَدَاباً أَلِيماً {الفتح16} وذمه في غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ {16} {المزملة16¹

7- والحنيف المستقيم الى ربه دون ما سواه²

8- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد و لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ {الأعراف3} وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {طه123} وقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ {الأنعام153} وقوله {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا {آل عمران68} وقد يقرب به غيره كقوله {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {الأنعام155} وقوله {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ {الأنعام106} وقوله {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {يونس109³

9- {وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ {69} فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ {71} الصافات69-71} وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا {68} الأحزاب67-68} وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {طه123} ثم يقرب بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى {النجم2} وفى قوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ {الفتح7} وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {القمر47⁴

10- قوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ {آل

عمران71} الواو هي الواو العاطفة المشتركة بين المعطوف والمعطوف عليه فيكون قد نهى عن الفعلين من غير اشتراط اجتماعهما كما إذا قيل لا تكفر وتسرق وتزن⁵

11- أن الكتاب اسم جنس يتناول التوراة والإنجيل فهذا خبر عن طائفة من اليهود قالوا ذلك¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 240

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168

⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168

⁵دبرء التعارض ج: 1 ص: 210

12- {قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ} آل عمران 73 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ} البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الأنعام 87 وكما في قوله {شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاءً وَهَدَاهُ} النحل 121 {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ} الشورى 13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ} التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا²

13- {وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} آل عمران 73 عليم منزه عن الجهل³

14- والرب تعالى واسع عليم وسع سمعه الاصوات كلها وعطاؤه الحاجات كلها⁴

15- {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} آل عمران 74 ورحمته اسم جامع لكل خير⁵

16- {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} آل عمران 75 وانما الامى هو فى الاصل منسوب الى الامة التى هى جنس الاميين وهو من لم يتميز عن الجنس بالعلم المختص من قراءة او كتابة كما يقال عامي لمن كان من العامة غير متميز عنهم بما يختص به غيرهم من علوم وقد قيل انه نسبة الى الام أي هو الباقي على ما عودته أمه من المعرفة والعلم ونحو ذلك⁶

17- {بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} آل عمران 76 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 355

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 246

⁵مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

⁶مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 169

وَنَهَرَ {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ {55} القمر 54- 55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} {3} الطلاق 2- 3 وقوله {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ} يوسف 90 وقوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ} النساء 1¹

18- {أَوْلَيْكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ} آل عمران 77 قال أهل اللغة الخلاق هو النصيب والحظ كأنه ما خلق للانسان أي ما قدر له كما يقال القسم لما قسم له والنصيب لما نصب له أي أثبت ومنه قوله تعالى {وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ} البقرة 200 و {مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ} البقرة 102 أي من نصيب وقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما يلبس الحرير من لا خلاق له في الآخرة²

19- فيقال لاريب أن تسمية هذه أربابا هو كلام اليونانيين وأمثالهم من المشركين فأنهم يصرحون في كتبهم بتسمية هذه المجرديات التي يقولون أنها الملائكة أربابا وآلهة ويقولون هي الأرباب الصغرى والآلهة الصغرى وهؤلاء المنقلبة الصابئة يعبدون الملائكة والكواكب وأما الرسل وأتباعهم الموحدون فقد قال الله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرْكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} آل عمران 79- 80³

20- فإن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة كما أن لفظ الإقرار مأخوذ من قريقر وهو قريب من آمن يأمن لكن الصادق يطمئن إلى خبره والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة فالمؤمن دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقرار ولفظ الإقرار يتضمن الإلتزام ثم أنه يكون على وجهين أحدهما الاخبار وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق والشهادة ونحوهما وهذا معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار والثاني إنشاء الإلتزام كما في قوله تعالى {أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَوَشَّهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران 81 وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فإنه سبحانه قال {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 24

³بغية المرتاد ج: 1 ص: 376

مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي { آل عمران 81 } فهذا الإلتزام للإيمان والنصر للرسول¹

21- { قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا { آل عمران 81 } و الاقرار فيطابق الخبر والامر²

22- قال تعالى { فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } آل عمران 82 { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى { 15 } الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى { 16 } } الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَى { النازعات 21 } وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى { 31 } } وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى { 32 } } القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا { 15 } } فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً { 16 } } المزمّل 15-16 ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله { سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا { الفتح 16 } } ودمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله { فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ { 16 } } المزمّل 16³

23- والاسلام يجمع معنيين احدهما الاستسلام والانقياد فلا يكون متكبّرا والثاني الاخلاص والاسلام يستعمل لازما معدي بحرف اللام مثل ما ذكر فى هذه الايات أغير دين الله يبعون { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83⁴

24- و الكره فالكره هو الشيء المكروه كقوله { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ { البقرة 216 } } و الكره المصدر كقوله { طَوْعًا وَكَرْهًا } آل عمران 83 } و الشيء الذي فى نفسه مكروه أقوى من نفس كراهة الكاره⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 530-531

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 637

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 59-60

⁴الاستقامة ج: 2 ص: 304

⁵مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 541

25- وكذلك فى المبنيات مثل ما يقولون فى أين وكيف بنيت على الفتح طلبا للتخيف لأجل الياء وكذلك فى حركات الالفاظ المبينة الأقوى له الضم وما دونه له الفتح فيقولون كره الشيء والكراهية يقولون فيها كرها بالفتح كما قال تعالى **{وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} آل عمران 83** وقال **{إِنِّيآ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً} فصلت 11**¹

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 421

ال عمران 86-92

{كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 86 {أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} 87 {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ} 88 {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 89
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الضَّالُّونَ} 90 {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأُ
الْأَرْضَ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مَنْ نَاصِرِينَ} 91 {لَنْ
تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} 92

القرآن بين توبة الكافر

فإن قيل فقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الضَّالُّونَ} آل عمران 90 و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا
لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} النساء 137 قيل إن القرآن قد بين توبة الكافر و إن كان قد
إرتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع كقوله تعالى {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 86 {أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} 87 {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} 88
{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 89 {ال عمران 86-89} وقوله {كَيْفَ
يَهْدِي اللَّهُ} آل عمران 86 أى أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين و لهذا قال {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} آل عمران 86 فمن إرتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضاللا لا يحصل له الهدى إلى
أى دين إرتد و المقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله و لا يغفر لهم إلا أن يتوبوا و كذلك قال
في قوله {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ} النحل 106 و من كفر بالله من بعد إيمانه من
غير إكراه فهو مرتد قال {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ
مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل 110 و هو سبحانه فى آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين
منهم ثم ذكر من لا تقبل توبته و من مات كافرا فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ
نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} 90 {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأُ
الْأَرْضَ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مَنْ نَاصِرِينَ} 91 {ال عمران 90-91} و
هؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا قيل لنفاقهم و قيل لأنهم تابوا مما دون الشرك و لم
يتوبوا منه و قيل لن تقبل توبتهم بعد الموت و قال الأكثرون كالحسن و قتادة و عطاء الخراساني و

وإن لم يكن تائباً و هذا كقتل الذى ينغمس فى العدو هو مما يرفع الله به درجته كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له و هل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله و قد قيل فى ما عز إنه رجع عن الإقرار و هذا هو أحد القولين فيه فى مذهب أحمد و غيره و هو ضعيف و الأول أجود و هؤلاء يقولون سقط الحد لكونه رجع عن الإقرار و يقولون رجوعه عن الإقرار مقبول و هو ضعيف بل فرق بين من أقر تائباً و من أقر غير تائب فإسقاط العقوبة بالتوبة كما دلت عليه النصوص أولى من إسقاطها بالرجوع عن الإقرار و الإقرار شهادة منه على نفسه و لو قبل الرجوع لما قام حد بإقرار فإذا لم تقبل التوبة بعد الإقرار مع أنه قد يكون صادقاً فالرجوع الذى هو فيه كاذب أولى¹

{ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ }

إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو الذى يعطى و يمنح و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقاً كأنما يصعد فى السماء و هو يقرب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذى جعل المسلم مسلماً و المصلي مصلياً قال الخليل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } البقرة 128 و قال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } إبراهيم 40 و قال تعالى { وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة 24 و قال عن آل فرعون { وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص 41 و قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً } 19 { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً } 20 { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً } 21 { الماعراج 19-21 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } هود 37 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ } هود 38 و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42 و قال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } النحل 80 الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } 95 { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } 96 { الصافات 95-96 } فما بمعنى الذى و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } الكهف 17 و قال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 28-32

يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا { الأنعام 125 } و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ { النمل 88 } و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا { البقرة 164 } و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ { الأعراف 57 } و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ { المائدة 16 }¹

الإيمان والعمل لا ينفع أحدهما بدون صاحبه

قال ابو عمر بن عبد البر فى التمهيد الايمان والاسلام احدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد لا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان له إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح اسلامه ولا يخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الايمان واشترط للايمان الأعمال الصالحة فقال فى تحقيق ذلك { فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ { الأنبياء 94 } وقال فى تحقيق الايمان بالعمل { وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى { طه 75 } فمن كان ظاهره أعمال الاسلام ولا يرجع إلى عقود الايمان بالغيب فهو منافق نفاقا ينقل عن الملة ومن كان عقده الايمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الاسلام فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد ومن كان مؤمنا بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملا بما أمر الله فهو مؤمن مسلم ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلما ولجاز أن المسلم لا يسمى مؤمنا بالله وقد أجمع أهل القبله على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه قال ومثل الايمان فى الأعمال كمثل القلب فى الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر لا يكون ذو جسم حى لا قلب له ولا ذو قلب بغير جسم فهما شيئان منفردان وهما فى الحكم والمعنى منفصلان ومثلهما أيضا مثل حبة لها ظاهر وباطن وهى واحدة لا يقال حبتان لتفاوت صفتيهما فكذلك أعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الايمان وهو من أعمال الجوارح والايمان باطن الإسلام وهو من أعمال القلوب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الاسلام علانية والايمان فى القلب وفى لفظ الايمان سر فالاسلام أعمال الايمان والايمان عقود الاسلام فلا ايمان الا بعمل ولا عمل إلا بعقد ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح ومثله قول رسول الله إنما الأعمال بالنيات أى لا عمل الا بعقد وقصد لأن إنما تحقيق للشيء ونفى لما سواه فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 80-78

من النيات فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام الا بهما لأن الشفتين تجمع الحروف واللسان يظهر الكلام وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام وكذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان ولذلك حين عدد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان في قوله {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ} {8} وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} {9} البلد 8-9 بمعنى ألم نجعله ناظرا متكلمًا فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين لأن الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم الا بهما ومثل الإيمان و الإسلام أيضا كفسطاط قائم في الأرض له ظاهر وأطناب وله عمود في باطنه فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهو الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذي في وسط الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط الا به فقد احتاج الفسطاط اليها اذ لا قوام له ولا قوة إلا بهما كذلك الإسلام في أعمال الجوارح لا قوام له إلا بالإيمان والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له الا بالإسلام وهو صالح الأعمال و أيضا فإن الله قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحدا فلولا أنهما كشيء واحد في الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحدا فقال {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعَدَ إِيمَانِهِمْ} {آل عمران 86} وقال {أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {آل عمران 80} فجعل ضدهما الكفر قال وعلى مثل هذا أخبر رسول الله عن الإيمان والإسلام من صنف واحد فقال في حديث ابن عمر بنى الإسلام على خمس وقال في حديث ابن عباس عن وفد عبدالقيس أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن الا بإسلام ظاهر ولا إسلام ظاهر علانية الا بإيمان سر وان الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بدون صاحبه¹

تقبل توبة المرتد في الجملة

فنتكلم اولاً في قبول توبة المرتد والذي عليه عامة اهل العلم من الصحابة والتابعين انه تقبل توبة المرتد في الجملة وروي عن الحسن البصري انه يقتل وان اسلم جعله كالزاني والسارق وذكر عن اهل الظاهر نحو ذلك ان توبته تنفعه عند الله ولكن لا تدرأ القتل عنه وروي عن احمد ان من ولد في الإسلام قتل ومن كان مشركا فاسلم استتيب وكذلك روي عن عطاء وهو قول اسحاق بن راهوية والمشهور عن عطاء واحمد الاستتابة مطلقا وهو الصواب ووجه عدم قبول التوبة قوله من بدل دينه فاقتلوه رواه البخاري

ولم يستثن ما اذا تاب وقال لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة متفق عليه فاذا كان القاتل والزاني لا يسقط عنهما القتل بالتوبة فكذلك التارك لدينه المفارق للجماعة وعن حكيم بن معاوية عن

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 333-335

ابيه ان رسول الله قال لا يقبل الله توبة عبد كفر بعد اسلامه رواه الامام احمد ولانه لا يقتل لمجرد الكفر والمحاربة لانه لو كان كذلك لما قتل المترهب والشيخ الكبير الاعمى والمقعد والمرأة ونحوهم فلما قتل هؤلاء علم ان الردة حد من الحدود والحدود لا تسقط بالتوبة والصواب ما عليه الجماعة لان الله سبحانه وتعالى قال في كتابه **{ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } آل عمران 86** الى قوله تعالى **{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 89** فاخبر الله انه غفور رحيم لمن تاب بعد الردة وذلك يقتضى مغفرته له في الدنيا والاخرة ومن هذه حاله لم يعاقب بالقتل يبين ذلك ما رواه احمد قال حدثنا على بن عاصم عن داود بن ابي هند عن عكرمة عن ابن عباس ان رجلا من الانصار ارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين فانزل الله تعالى **{ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } آل عمران 86** الى اخر الاية فبعث بها قومه اليه فرجع تائبا فقبل النبي ذلك منه وخلقى عنه ورواه النسائي من حديث داود مثله وقال الامام احمد حدثنا علي بن خالد عن عكرمة بمعناه وقال والله ما كذبتني قومي على رسول الله ولا كذب رسول الله على الله والله اصدق الثلاثة فرجع تائبا فقبل رسول الله ذلك منه وخلقى عنه وقد حدثنا حجاج عن ابن جريح حدثت عن عكرمة مولى ابن عباس في قول الله تعالى **{ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ } آل عمران 86** في ابي عامر بن النعمان ووحوح بن الاسلت والحارث بن سويد بن الصامت في اثني عشر رجلا رجعوا عن الاسلام ولحقوا بقريش ثم كتبوا الى اهليهم هل لنا من توبة فنزلت **{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 89** في الحارث بن سويد بن الصامت وقال حدثنا عبد الرزاق اخبرنا جعفر عن حميد عن مجاهد قال جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ثم كفر الحارث فرجع الى قومه فأنزل الله فيه القران **{ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } آل عمران 86** الى قوله **{ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 89** قال فحملها اليه رجل من قومه فقراها عليه فقال الحارث والله انك ما علمت لصادق وان رسول الله لأصدق منك وان الله لأصدق الثلاثة قال فرجع الحارث فأسلم فحسن اسلامه وكذلك ذكر غير واحد من اهل العلم انها نزلت في الحارث بن سويد وجماعة معه ارتدوا عن الاسلام وخرجوا من المدينة كهيئة البدأ ولحقوا بمكة كفارا فأنزل الله فيهم هذه الاية فندم الحارث وارسل الى قومه ان سلوا رسول الله هل لي توبة ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى **{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 89** فحملها اليه رجل من قومه فقراها عليه فقال الحارث انك والله ما علمت لصادق وان رسول الله لأصدق منك وان الله عز وجل لاصدق الثلاثة فرجع الحارث الى المدينة واسلم وحسن اسلامه فهذا رجل قد ارتد ولم يقتله النبي بعد عوده الى الاسلام ولان الله سبحانه قال في اخباره عن المنافقين **{ أَيْبَاءُ وَيَأْتِيهِمْ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } {65}** لا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً {66} التوبة 65-66 فدل على ان الكافر بعد ايمانه قد يعفى عنه وقد يعذب وانما يعفى عنه اذا تاب فعلم ان توبته مقبولة وذكر اهل التفسير انهم كانوا جماعة وان الذي تاب منهم رجل واحد يقال له

مخشي بن حمير وقال بعضهم كان قد انكر عليهم بعض ما سمع ولم يمالئهم عليه وجعل يسير مجانبا لهم فلما نزلت هذه الايات بريء من نفاقه وقال اللهم اني لا ازال اسمع اية تقرر عيني بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك وذكروا القصة وفي الاستدلال بهذا نظر ولان الله تعالى قال { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } التوبة 73 الى قوله { يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } التوبة 74 وذلك دليل على قبول توبة من كفر بعد اسلامه وانهم لا يعذبون في الدنيا ولا في الاخرة عذابا اليما بمفهوم الشرط ومن جهة التعليل ولسياق الكلام والقتل عذاب اليم فعلم ان من تاب منهم لم يعذب بالقتل لان الله سبحانه قال { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {106} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {107} أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافُونَ } {108} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } {109} ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ } {110} النحل 106- 110 فتبين ان الذين هاجروا الى دار الاسلام بعد ان فتنوا عن دينهم بالكفر بعد الاسلام وجاهدوا وصبروا فان الله يغفر لهم ويرحمهم ومن غفر له ذنبه مطلقا لم يعاقبه عليه في الدنيا ولا في الاخرة وقال سفيان بن عيينه عن عمرو بن دينار عن عكرمه خرج ناس من المسلمين يعني مهاجرين فأدركهم المشركون ففتنواهم فاعطوهم الفتنة فنزلت فيهم { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ } العنكبوت 10 ونزل فيهم { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ } النحل 106 الاية ثم انهم خرجوا مرة اخرى فانقلبوا حتى اتوا المدينة فانزل الله فيهم { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ } النحل 110 الى اخر الاية ولأنه سبحانه قال { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ } البقرة 217 فعلم ان من لم يميت وهو كافر من المرتدين لا يكون خالدا في النار وذلك دليل على قبول التوبة وصحة الاسلام فلا يكون تاركا لدينه فلا يقتل ولعموم قوله تعالى { فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } التوبة 5 الى قوله { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } التوبة 5 فان هذا الخطاب عام في قتال كل مشرك وتولية سبيله اذا تاب من شركه واقام الصلاة واتى الزكاة سواء كان مشركا اصليا او مشركا مرتدا وايضا فان عبد الله بن سعد بن ابي سرح كان قد ارتد على عهد النبي ولحق بمكة وافترى على الله ورسوله ثم انه بعد ذلك بايعه النبي وحقق دمه وكذلك الحارث بن سويد اخو الجلاس بن سويد وكذلك جماعة من اهل مكة اسلموا ثم ارتدوا ثم عادوا الى الاسلام فحققت دماؤهم وقصص هؤلاء وغيرهم مشهورة عند اهل العلم بالحديث والسيره وايضا فالاجماع من الصحابة رضي الله عنهم ظاهر على ذلك فان النبي لما توفى ارتد اكثر العرب الا اهل مكة والمدينة والطائف واتبع قوم منهم من تنبا فيهم مثل

مسيلمة والعنسي وطليحة الاسدي فقاتلهم الصديق وسائر الصحابة رضي الله عنهم حتى رجع اكثرهم الى الاسلام فأقروهم على ذلك ولم يقتلوا واحدا ممن رجع الى الاسلام ومن رؤوس من كان قد ارتد ورجع طليحة الاسدي المتنبى والاشعث بن قيس وخلق كثير لا يحصون والعلم بذلك ظاهر لاخفاء به على احد وهذه الرواية عن الحسن فيها نظر فان مثل هذا لا يخفى عليه ولعله اراد نوعا من الردة كظهور الزندقة ونحوها او قال ذلك في المرتد الذي ولد مسلما ونحو ذلك مما قد شاع فيه الخلاف وأما قوله من بدل دينه فاقتلوه فنقول بموجبه فانما يكون مبدلا اذا دام على ذلك واستمر عليه فاما اذا رجع الى الدين الحق فليس بمبدل وكذلك اذا رجع الى المسلمين فليس بتارك لدينه مفارق للجماعة بل هو متمسك لدينه ملازم للجماعة وهذا بخلاف القتل والزنى فانه فعل صدر عنه لا يمكن دوامه عليه بحيث اذا تركه يقال انه ليس بزاني ولا سارق ولا قاتل فمتى وجد منه ترتب حده عليه وان عزم على ان لا يعود اليه لان العزم على ترك العود لا يقطع مفسدة ما مضى من الفعل على ان قوله التارك لدينه المفارق للجماعة قد يفسر بالمحارب قاطع الطريق كذلك رواه ابو داود في سننه مفسرا عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله الا باحدى ثلاث رجل زنى بعد إحصان فانه يرحم ورجل خرج محاربا لله ورسوله فانه يقتل او يصلب او ينفى من الارض أو يقتل نفسا فيقتل بها فهذا المستثنى هنا هو المذكور في قوله التارك لدينه المفارق للجماعة ولهذا وصفه بفراق الجماعة وانما يكون هذا بالمحاربة يؤيد ذلك ان الحديثين تضمننا انه لا يحل دم من يشهد ان لا اله الا الله و أن محمدا رسول الله والمراد لم يدخل في هذا العموم فلا حاجة الى استثنائه وعلى هذا فيكون ترك دينه عبارة عن خروجه عن موجب الدين ويفرق بين ترك الدين وتبديله او يكون المراد به من ارتد وحارب كالعربيين ومقيس بن صبابه ممن ارتد وقتل واخذ المال فان هذا يقتل بكل حال وان تاب بعد القدرة عليه ولهذا والله اعلم استثنى هؤلاء الثلاثة الذين يقتلون بكل حال وان اظهروا التوبة بعد القدرة ولو كان اريد المرتد المجرد لما احتيج الى قوله المفارق للجماعة فان مجرد الخروج عن الدين يوجب القتل وان لم يفارق جماعة الناس فهذا وجه يحتمله الحديث وهو والله اعلم مقصود هذا الحديث واما قوله لا يقبل الله توبة عبد اشرك بعد اسلامه فقد رواه ابن ماجه من هذا الوجه ولفظه لا يقبل الله من مشرك اشرك بعد اسلامه عملا حتى يفارق المشركين الى المسلمين وهذا دليل على قبول اسلامه اذا رجع الى المسلمين وبيان ان معنى الحديث ان توبته لا تقبل ما دام مقيما بين ظهراني المشركين مكثرا لسوادهم كحال اللذين قتلوا ببدر ومعناه ان من اظهر الاسلام ثم فتن عن دينه حتى ارتد فانه لا تقبل توبته وعمله حتى يهاجر الى المسلمين وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 97 وايضا فان ترك الدين وتبديله وفراق الجماعة يدوم ويستمر لانه تابع للاعتقاد والاعتقاد دائم فمتى قطعه وتركه عاد كما كان ولم يبق لما مضى حكم اصلا ولا فيه فساد ولا يجوز ان يطلق عليه القول بانه مبدل للدين ولا انه تاركك لدينه كما يطلق على الزاني والقاتل بان

هذا زان وقاتل فان الكافر بعد اسلامه لايجوز ان يسمى كافرا عند الاطلاق ولان تبديل الدين وتركه في كونه موجبا للقتل بمنزلة الكفر الاصلي والحراب في كونهما كذلك فاذا كان زوال الكفر بالاسلام او زوال المحاربة بالعهد يقطع حكم الكفر فكذلك اذا زال تبديل الدين وتركه بالعود الى الدين واخذه انقطع حكم ذلك التبديل والترك¹

المرتد يستتاب

فصل اذا تقرر ذلك فان الذي عليه جماهير اهل العلم ان المرتد يستتاب ومذهب مالك واحمد انه يستتاب ويؤجل بعد الاستتابة ثلاثة ايام وهل ذلك واجب او مستحب على روايتين عنهما اشهرهما عنهما ان الاستتابة واجبة وهو قول اسحاق بن راهوية وكذلك مذهب الشافعي هل الاستتابة واجبة او مستحبة على قولين لكن عنده في احد القولين يستتاب فان تاب في الحال والا قتل وهو قول ابن المنذر والمزني وفي القول الاخر يستتاب ثلاثا كمذهب مالك واحمد وقال الزهري وابن القاسم في رواية يستتاب ثلاث مرات ومذهب ابي حنيفة انه يستتاب ايضا فان لم يتب والا قتل والمشهور عندهم ان الاستتابة مستحبة وذكر الطحاوي عنهم لا يقتل المرتد حتى يستتاب وعندهم يعرض عليه الاسلام فان اسلم والا قتل مكانه الا ان يطلب ان يؤجل فانه يؤجل ثلاثة ايام وقال الثوري يؤجل ما رجيت توبته وكذلك معنى قول النخعي وذهب عبيد بن عمير وطاوس الى انه يقتل ولا يستتاب لانه امر بقتل المبدل دينه والتارك لدينه المفارق للجماعة ولم يأمر باستتابة كما امر الله سبحانه بقتال المشركين من غير استتابة مع انهم لو تابوا لكفنا عنهم يؤيد ذلك ان المرتد اغلظ كفرا من الكافر الاصلي فاذا جاز قتل الاسير الحربي من غير استتابة فقتل المرتد الاولي وسر ذلك انا لانجز قتل كافر حتى نستتيبه بان يكون قد بلغته دعوة محمد الى الاسلام فان قتل من لم تبلغه الدعوة غير جائز والمرتد قد بلغته الدعوة فجاز قتله كالكافر الاصلي الذي بلغته وهذا هو علمه من راي الاستتابة مستحبة فان الكفار يستحب ان ندعوهم الى الاسلام عند كل حرب وان كانت الدعوة قد بلغتهم فكذلك المرتد ولا يجب ذلك فيهما نعم لو فرض المرتد من يخفى عليه جواز الرجوع الى الاسلام فان الاستتابة هنا لا بد منها ويدل على ذلك ايضا ان النبي اهدر يوم الفتح مكة دم عبد الله بن سعد بن ابي سرح ودم مقيس بن صبابه ودم عبد الله بن خطل وكانوا مرتدين ولم يستتبه بل قتل ذانك الرجلان وتوقف عن مبايعة بن ابي سرح لعل بعض المسلمين يقتله فعلم ان قتل المرتد جائز ما لم يسلم وانه لا يستتاب وايضا فان النبي عاقب العرنيين الذين كانوا في اللقاح ثم ارتدوا عن الاسلام بما اوجب موتهم ولم يستتبهم ولانه فعل شيئا من الاسباب المبيحة للدم فقتل قبل استتابة كالكافر الاصلي وكالزاني وكقاطع الطريق ونحوهم فان كل هؤلاء من قبلت توبته ومن لم تقبل يقتل قبل الاستتابة ولان المرتد لو امتنع بان يلحق بدار الحرب او بان يكون المرتدون ذوي شوكة يمتنعون بها

¹الصارم المسلول ج: 3 ص: 578-595 و الصارم المسلول ج: 3 ص: 613

عن حكم الاسلام فانه يقتل قبل الاستتابة بلا تردد فكذلك اذا كان في ايدينا وحجة من رأى الاستتابة اما واجبة او مستحبة قوله سبحانه وتعالى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَأَفَ } الأنفال38 امر الله ورسوله ان يخبر جميع الذين كفروا انهم ان انتهوا غفر لهم ما سلف وهذا معنى الاستتابة والمرتد من الذين كفروا والامر للوجوب فعلم ان استتابة المرتد واجبة ولا يقال فقد بلغهم عموم الدعوة الى الاسلام لان هذا الكفر اخص من ذلك الكفر فانه يوجب قتل كل من فعله ولا يجوز استبقاؤه وهو لم يستتب من هذا الكفر وايضا فان النبي بعث بالتوبة الى الحارث بن سويد ومن كان قد ارتد معه الى مكة كما قدمناه بعد ان كانت قد نزلت فيهم اية التوبة فتكون استتابته مشروعة ثم ان هذا الفعل منه خرج امتثالا للأمر بالدعوة الى الاسلام والابلاغ لدينه فيكون واجبا وعن جابر رضى الله عنه ان امرأة يقال لها ام مروان ارتدت عن الاسلام فامر النبي ان يعرض عليها الاسلام فان رجعت والا قتلت وعن عائشة رضى الله عنها قالت ارتدت امرأة يوم احد فامر النبي ان تستتاب فان تابت والا قتلت رواهما الدارقطني وهذا ان صح امر بالاستتابة والامر للوجوب والعمدة فيه¹

الردة على قسمين

فان الردة على قسمين ردة مجردة وردة مغلظة شرع القتل على خصوصها وكلاهما قد قام الدليل على وجوب قتل صاحبها والادلة الدالة على سقوط القتل بالتوبة لا تعم القسمين بل انما تدل على القسم الاول كما يظهر لمن ذلك تأمل الادلة على قبول توبة المرتد فيبقى القسم الثاني وقد قام الدليل على وجوب قتل صاحبه ولم يات نص ولا اجماع بسقوط القتل عنه والقياس متعذر مع وجود الفرق الجلي فانقطع اللاحق والذي يحقق هذه الطريقة انه لم يات في كتاب ولا سنة ولا اجماع ان كل من ارتد باي قول او اي فعل كان فانه يسقط عنه القتل اذا تاب بعد القدرة عليه بل الكتاب والسنة والاجماع قد فرق بين انواع المرتدين كما سنذكره وانما بعض الناس يجعل برأيه الردة جنسا واحدا على تباين انواعه ويقيس بعضها ببعض فاذا لم يكن معه عموم نطقي يعم انواع المرتدين لم يبق الا القياس وهو فاسد اذا فارق الفرع الاصل بوصف له تأثير في الحكم وقد دل على تأثيره نص الشارع وتنبيهه والمناسبة المشتملة على المصلحة المعتبرة وتقرير هذا من ثلاثة اوجه احدها ان دلائل قبول توبة المرتد مثل قوله تعالى {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} آل عمران86 الى قوله {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا} آل عمران89 وقوله تعالى {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ} النحل106 ونحوها ليس فيها الا توبة من كفر بعد الايمان فقط دون من انضم الى كفره مزيد اذى واضرار وكذلك سنة رسول الله انما فيها قبول توبة من جرد الردة فقط وكذلك سنة الخلفاء

¹الصارم المسلول ج: 3 ص: 596-602

الراشدين انما تضمنت قبول توبة من جرد الردة وحارب بعد ارتداده كمحاربة الكافر الاصلي على كفره فمن عزم ان في الاصول ما يعم توبة كل مرتد سواء جرد الردة او غلظها باي شئ كان فقد ابطل وحينئذ فقد قامت الادلة على وجوب قتل الساب وانه مرتد ولم تدل الاصول على ان مثله يسقط عنه القتل فيجب قتله بالدليل السالم عن المعارض الثاني ان الله سبحانه قال **{كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** {86} **أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** {87} **خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}** {88} **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** {89} **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}** {90} **ال عمران 86-90** فاخبر سبحانه ان من ازداد كفرا بعد ايمانه لن تقبل توبته وفرق بين الكفر المزيد كفرا والكفر المجرد في قبول التوبة من الثاني دون الاول فمن زعم ان كل كفر بعد الايمان تقبل منه التوبة فقد خالف نص القران وهذه الاية ان كان قد قيل فيها ان ازدياد الكفر المقام عليه الى حين الموت وان التوبة المنفية هي توبته عند الغرغرة او يوم القيامة فالاية اعم من ذلك وقد راينا سنة رسول الله فرقت بين النوعين فقبل توبة جماعة من المرتدين ثم انه امر بقتل مقيس بن صبابه يوم الفتح من غير استنابة لما ضم الى رده قتل المسلم واخذ المال ولم يتب قبل القدرة عليه وامر بقتل العرنيين لما ضموا ردتهم نحوا من ذلك وكذلك امر بقتل ابن خطل لما ضم الى رده السب وقتل المسلم وامر بقتل ابن ابي سرح لما ضم الى رده الطعن عليه والافتراء واذا كان الكتاب والسنة قد حكما في المرتدين بحكمين وراينا ان من ضر واذى بالردة اذى يوجب القتل لم يسقط عنه القتل اذا تاب بعد القدرة عليه وان تاب مطلقا دون من بدل دينه فقط لم يصح القول بقبول توبة المرتد مطلقا وكان الساب من القسم الذي لا يجب ان تقبل توبته كما دلت عليه السنة في قصة ابن ابي سرح ولان السب اizard عظيم للمسلمين اعظم عليهم من المحاربة باليد كما تقدم تقريره فيجب ان يتحتم عقوبة فاعله ولان المرتد المجرد انما نقتله لمقامه على التبديل للدين فاذا عاود الدين الحق زال المبيح لدمه كما يزول المبيح لدم الكافر الاصلي باسلامه وهذا الساب اتى من الاذى لله ورسوله بعد المعاهدة على ترك ذلك بما اتى به وهو لا يقتل لمقامه عليه فان ذلك ممتنع فصار قتله كقتل المحارب باليد وبالجملة فمن كانت رده محاربة لله ورسوله بيد او لسان فقد دلت السنة المفسرة للكتاب انه ممن كفر كفرا مزيدا لا تقبل توبته منه الوجه الثالث ان الردة قد تتجرد عن السب فلا تتضمنه ولا تستلزمه كما تتجرد عن قتل المسلمين واخذ اموالهم اذ السب والشتم افراط في العداوة وابلغ في المحادة مصدره شدة سفه الكافر وحرصه على فساد الدين واضرار اهله ولربما صدر عن يعتقد النبوة والرسالة لكن لم يات بموجب هذا الاعتقاد من التوقير والانقياد فصار بمنزلة ابليس حيث اعتقد ربوبية الله سبحانه وتعالى بقوله رب وقد ايقن ان الله امره بالسجود ثم لم يات بموجب هذا الاعتقاد من الاستسلام والانقياد بل استكبر وعاند معاندة معارض طاعن في حكمة الامر ولا فرق بين من يعتقد ان الله ربه وان الله امره بهذا الامر ثم يقول انه لا يطيعه لأنه امره ليس بصواب ولا سداد وبين من يعتقد ان محمدا رسول الله وانه صادق واجب

الاتباع في خبره وامره ثم يسبه او يعيب امره اوشيناً من احواله او ينتقصه انتقاصا لايجوز ان يستحقه الرسول وذلك ان الايمان قول وعمل فمن اعتقد الوجدانية في الالهية لله سبحانه وتعالى والرسالة لعبده ورسوله ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الاجلال والاكرام والذي هو حال في القلب يظهر اثره على الجوارح بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول او بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه وكان ذلك موجبا لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلا لما فيه من المنفعة والصلاح إذا الاعتقادات الايمانية تزكي النفوس وتصلحها فمتى لم توجب زكاة النفس ولا صلاحا فما ذاك الا لانها لم ترسخ في القلب ولم تصل صفة ونعتا للنفس واذا لم يكن علم الايمان المفروض صفة لقلب الانسان لازمة لم ينفعه فانه يكون بمنزلة حديث النفس وخاطر القلب والنجاة لا تحصل الا بيقين في القلب ولو انه مثقال ذرة هذا فيما بينه وبين الله واما في الظاهر فتجري الاحكام على ما يظهره من القول والفعل والغرض بهذا التنبيه على ان الاستهزاء بالقلب والانتقاص ينافي الايمان الذي في القلب منافاة الضد ضده والاستهزاء باللسان ينافي الايمان الظاهر باللسان كذلك والغرض بهذا التنبيه على ان السب الصادر عن القلب يوجب الكفر ظاهرا وباطنا¹

دلت الآية على قبول توبة من كفر بعد ايمانه

والاية إنما دلت على قبول توبة من كفر بعد ايمانه اذا لم يزدد كفرا اما من كفر وزاد على الكفر فلم تدل الآية على قبول توبته بل قوله **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ اذْأَوْ كُفَرُوا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ** **{آل عمران 90}** قد يتمسك بها في خلاف ذلك على انه انما استثنى من تاب واصلح وهذا لا يكون فيمن تاب بعد اخذه وانما استفدنا سقوط القتل عن التائب لمجرد توبته من السنة وهي انما دلت على من جرد الردة مثل الحارث بن سويد ودلت على ان من غلظها كابن ابي سرح يجوز قتله بعد التوبة والاسلام واما الآية فنقول انما تدل على ان من كفر بعد ايمانه ثم تاب واصلح فان الله غفور رحيم له ونحن نقول بموجب ذلك اما من ضم الى الكفر انتهاك عرض الرسول والافتراء عليه أو قتله أو قتل واحد من المسلمين او انتهك عرضه فلا تدل الآية على سقوط العقوبة عن هذا على ذلك والدليل على ذلك قوله سبحانه **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا}** **{آل عمران 89}** فان التوبة عائدة الى الذنب المذكور والذنب المذكور هو الكفر بعد الايمان وهذا اتى بزيادة على الكفر توجب عقوبة بخصوصها كما تقدم والاية لم تتعرض من للتوبة من غير الكفر ومن قال هو زنديق قال انا لا اعلم ان هذا تاب ثم ان الآية انما استثنى فيها من تاب واصلح وهذا الذي يرفع الى الامام لم يصلح وانا لا ادخر العقوبة الواجبة عليه الى ان يظهر صلاحه نعم الآية قد تعم من فعل ذلك ثم تاب واصلح قبل ان يرفع الى الامام وهنا قد يقول كثير من الفقهاء بسقوط العقوبة على ان الآية التي بعدها قد تشعر بان

¹الصارم المسلول ج: 3 ص: 697-701

المرتد قسماً تقبل توبته وهو من كفر فقط وقسم لا تقبل توبته وهو من كفر ثم ازداد كفراً قال سبحانه وتعالى **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ } آل عمران 90** وهذه الآية وان كان قد تاولها اقوام على من ازداد كفراً الى ان عاين الموت فقد يستدل بعمومها على هذه المسألة فيقال من كفر بعد ايمانه وازداد كفراً بسبب الرسول ونحوه لم تقبل توبته خصوصاً من استمر به ازدياد الكفر الى ان ثبت عليه الحد واراد السلطان قتله فهذا قد يقال انه ازداد كفراً الى ان رأى اسباب الموت وقد يقال فيه **{فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ } غافر 84** الى قوله **{فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا } غافر 85** واما قوله سبحانه وتعالى **{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ } الأنفال 38** فانه يغفر لهم ما قد سلف من الاثام اما من الحدود الواجبة على مسلم مرتد او معاهد فانه يجب استيفاؤها بلا تردد على ان سياق الكلام يدل انها في الحربي ثم نقول الانتهاء انما هو الترك قبل القدرة كما في قوله تعالى **{لَنْ لَمْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } الأحزاب 60** الى قوله **{مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا } الأحزاب 61** فمن لم يتب حتى اخذ فلم ينته ويقال ايضاً انما تدل الآية على انه يغفر لهم وهذا مسلم وليس كل من غفر له سقطت العقوبة عنه في الدنيا فان الزاني او السارق لو تاب توبة نصوحاً غفر الله له ولا بد من اقامة الحدود عليه وقوله الاسلام يجب ما قبله كقوله التوبة تجب ما قبلها ومعلوم ان التوبة بعد القدرة لا تسقط الحد كما دل عليه القران وذلك ان الحديث خرج جواباً لعمر بن العاص لما قال للنبي اباعك على ان يغفر لي ما تقدم من ذنبي فقال يا عمر اما علمت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وان التوبة تهدم ما كان قبلها وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله فعلم انه عنى بذلك انه يهدم اثم الذنوب التي سأل عمرو مغفرتها ولم يجر للحدود ذكر وهي لا تسقط بهذه الاشياء بالاتفاق وقد بين في حديث ابن ابي سرح ان ذنبه سقط بالاسلام وان القتل انما سقط عنه يعفو النبي كما تقدم ولو فرض انه عام فلا خلاف ان الحدود لا تسقط عن الذمي باسلامه وهذا منها كما تقدم ¹

التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله

فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته قال الله تعالى **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران 89** في التائب من الردة و قال في كاتم العلم **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَيَبِينُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } البقرة 160** و قال **{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بَـجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } الأنعام 54** و قال في القذف **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النور 5** و قال **{إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } 70** وَمَنْ

¹الصارم المسلول ج: 3 ص: 867-873

تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً {71} الفرقان 70-71 و قال {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى} طه 82 و لما تاب كعب بن مالك و صاحباہ امر رسول اله صلى الله عليه و سلم المسلمين بهجرهم حتى نسائهم ثمانين ليلة و قال النبي صلى الله عليه و سلم فى الغامدية لما رجمها لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له و هل و جدت أفضل من أن جادت بنفسها لله و قد أخبر الله عن توبته على بنى إسرائيل حيث قال لهم موسى {يَا قَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَرِّكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ} البقرة 54 و إذا كان الله تعالى قد يبتلى العبد من الحسنات و السيئات و السراء و الضراء بما يحصل معه شكره و صبره أم كفره و جزعه و طاعته أم معصيته فالتائب أحق بالإبتلاء فآدم أهبط إلى الأرض إبتلاء له و وفقه الله فى هبوطه لطاعته فكان حاله بعد الهبوط خيراً من حاله قبل الهبوط¹

النفاق يتبعض والكفر يتبعض

النفاق يتبعض والكفر يتبعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبعض ويزيد وينقص قال الله تعالى {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} التوبة 37 و قال {وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً مِنْهُمْ مِّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وَهُمْ يَسْتَنْبِشُونَ} {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} {125} التوبة 124-125 و قال {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} المائدة 68²

غالب الاستثناءات التي تعقبت جملاً عائدة الى الجميع

قال تعالى {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} الفرقان 68 الى قوله {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} {68} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} {69} إِلَّا مَن تَابَ} {70} الفرقان 68-70 وهو عائد الى قوله يلق و يضاعف و يخلد و قال سبحانه {أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} {159} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا} {160} البقرة 159-160 و قال تعالى {أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمَ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} {87} خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} {88} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {89} ال عمران 87-89 و قال تعالى {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا} {المائدة 33} إلى قوله {ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {33} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 322-323

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 188

قَبْلَ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ {34} المائدة 33-34 فهذا استثناء قد تعقب عدة جمل وقد ثبت بما روى عن الصحابة أن قوله {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} {النور 5} فى آية القذف عائد الى الجملتين وقال النبى لا يؤمن الرجل الرجل فى سلطانه ولا يجلس على تكرمته الا باذنه وقال النبى لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى وهذا كثير فى الكتاب والسنة بل من تأمل غالب الاستثناءات الموجودة فى الكتاب والسنة التى تعقبت جملا وجدها عائدة الى الجميع هذا فى الاستثناء فاما فى الشروط والصفات فلا يكاد يحصيها الا الله¹

إبدال الواجب بخير منه جائز بل يستحب فيما وجب

قال أبو داود ثنا محمد بن منصور ثنا يعقوب بن إبراهيم ثنا أبى عن ابن إسحاق حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عمارة بن عمرو بن حزم عن أبى بن كعب قال بعثنى النبى مصدقا فمررت برجل فلما جمع لى ماله لم أجد عليه فيه إلا بنت مخاض فقلت له أد بنت مخاض فانها صدقتك فقال ذاك مالا لبين فيه ولا ظهر ولكن هذه ناقة فتية عظيمة سمينه فخذها فقلت له ما أنا بأخذ ما لم أؤمر به وهذا رسول الله منك قريب فان أحببت أن تأتية فتعرض عليه ما عرضت على فأفعل فإن قبله منك قبلته وإن رده عليك رددته قال فإنى فاعل فخرج معى وخرج بالناقة التى عرض على حتى قدمنا على رسول الله فقال يا نبى الله أتانى رسولك ليأخذ من صدقة مالى وأيم الله ما قام فى مالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رسوله قط قبله فجمعت له مالى فزعم أن ما على الا بنت مخاض وذلك ما لا لبين فيه ولا ظهر وقد عرضت عليه ناقة فتية عظيمة ليأخذها فأبى على وها هى هذه قد جئتك بها يا رسول الله خذها فقال له رسول الله ذلك الذى عليك فإن تطوعت بخير أجرك الله فيه وقبلناه منك قال فما هى ذه يا رسول الله قد جئتك بها فخذها قال فأمر رسول الله بقبضها ودعا له فى ماله بالبركة وما فى هذا الحديث من أجزاء سن أعلام من الواجب مذهب عامة أهل العلم الفقهاء المشهورين وغيرهم فقد ثبت أن إبدال الواجب بخير منه جائز بل يستحب فيما وجب بايجاب الشرع وبايجاب العبد ولا فرق بين الواجب فى الذمة وما أوجبه معيناً فإنما وجب فى الذمة وإن كان مطلقاً من وجه فانه مخصوص متميز عن غيره ولهذا لم يكن له إبدال بدونه بلا ريب وعلى هذا فلو نذر أن يقف شيئاً فوقف خيراً منه كان أفضل فلو نذر أن يبني لله مسجداً وصفه أو يقف وقفاً وصفه فبنى مسجداً خيراً منه ووقف وقفاً خيراً منه كان أفضل ولو عينه فقال الله على أن أبني هذه الدار مسجداً أو وقفها على الفقراء والمساكين فبنى خيراً منها ووقف خيراً منها كان أفضل كالذى نذر الصلاة بالمسجد الأقصى وصلى فى المسجد الحرام أو كانت عليه بنت مخاض فأدى خيراً منها وقد تنازع الفقهاء فى الواجب المقدر إذا زاده

¹مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 167

كصدقة الفطر إذا أخرج أكثر من صاع فجوزه أكثرهم وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وقد تنازع الفقهاء في الواجب المقدر إذا زاده كصدقة الفطر إذا أخرج أكثر من صاع فجوزه أكثرهم وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم وروى عن مالك كراهة ذلك وأما الزيادة في الصفة فاتفقوا عليها والصحيح جواز الأمرين لقوله تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} البقرة 184 وقد ثبت باتفاق أهل العلم وهو في كتب الحديث الصحاح وغيرها وكتب التفسير والفقهاء إن الله لما أوجب رمضان كان المقيم مخيراً بين الصوم وبين أن يطعم كل يوم مسكيناً فكان الواجب هو إطعام المسكين وندب سبحانه إلى إطعام أكثر من ذلك فقال تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ} البقرة 184 ثم قال {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ} البقرة 184 فلما كانوا مخيرين كانوا على ثلاث درجات أعلاها الصوم ويليه أن يطعم في كل يوم أكثر من مسكين وأدناها أن يقتصر على إطعام مسكين ثم إن الله حتم الصوم بعد ذلك وأسقط التخيير في الثلاثة فإن قيل ففي سنن أبي داود ثنا عبد الله بن محمد العقيلي ثنا محمد بن سلمة عن أبي عبد الرحيم عن جهم بن الجارود عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال أهدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه نجبية فأعطى بها ثلاثمائة دينار فأتى النبي فقال يا رسول الله إنى أهديت نجبية فأعطيت بها ثلاثمائة دينار فأبيعتها وأشتري بثلثها بدنا قال لا انحرها إياها فقد نهاه عن بيعها وإن يشتري بثلثها بدنا قيل هذه القضية بتقدير صحتها قضية معينة ليس فيها لفظ عام يقتضى النهى عن الإبدال مطلقاً ونحن لم نجوز الإبدال مطلقاً ولا يجوز أحد من أهل العلم بدون الأصل وليس في هذا الحديث أن البديل كان خيراً من الأصل بل ظاهره أنها كانت أفضل فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أى الرقاب أفضل فقال أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها وقد قال تعالى {ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} الحج 32 وقد قيل من تعظيمها استحسانها واستسمانها والمغالات في أثمانها وهذه النجبية كانت نفيسة ولهذا بذل فيها ثمن كثير فكان أهواها إلى الله أفضل من أن يهدى بثلثها عدد دونها والملك العظيم قد يهدى له فرس نفيسة فتكون أحب إليه من عدة أفراس بثلثها فالفضل ليس بكثرة العدد فقط بل قد قال الله تعالى {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} آل عمران 92 فما كان أحب إلى المرء إذا تقرب به إلى الله تعالى كان أفضل له من غيره وإن استويا في القيمة فإن الهدية والأضحية عبادة بدنية ومالية ليست كالصدقة المحضة بل إذا ذبح النفيس من ماله لله تعالى كان أحب إلى الله تعالى قال بعض السلف لا يهدى أحدكم لله تعالى ما يستحي أن يهديه لكريمه وقد قال تعالى {وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ} البقرة 267 وقد قرب ابني آدم قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر وقد ذكر أن سبب ذلك أن أحدهما قرب نفيس ماله والآخر قرب الدون من ماله والله أعلم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 248-250

إذا وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى

التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وقد قال تعالى في اكير سورة في القرآن {الم} {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ {3} البقرة 1-3 الى اخرها فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من اقام الصلاة وابتاء الزكاة وقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} البقرة 21 وقال {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة 177 وهذه الآية عظيمة جليله القدر من أعظم آي القرآن واجمعه لامر الدين وقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن خصال الايمان فنزلت وفي الترمذي عن فاطمة بنت قيس عنه أنه قال ان في المال حقا سوى الزكاة وقرأ هذه الآية وقد دلت على امور أحدها انه اخبر ان الفاعلين لهذه الامور هم المتقون وعامة هذه الامور فعل مأمور به الثاني انه اخبر ان هذه الامور هي البر واهلها هم الصادقون يعنى في قوله آمنة وعامتها امور وجودية هي افعال مأمور بها فعلم أن المأمور به أدخل في البر والتقوى والايمان من عدم المنهى عنه وبهذه الاسماء الثلاثة استحقت الجنة كما قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} {14} الانفطار 13-14 وقال {أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} ص 28 {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} القمر 54 وقال {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ} السجدة 18 وهذه الخصال المذكورة في الآية قد دلت على وجوبها لأنه اخبر ان اهلها هم الذين صدقوا في قولهم وهم الْمُتَّقُونَ والصدق واجب والايمان واجب ايجاب حقوق سوى الزكاة وقوله {فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} المزملة 20 وقوله لبنى اسرائيل {لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} المائدة 12 وقوله {أَنْ تَتَّالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} آل عمران 92 وقوله {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} النساء 36 وقوله {وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} الإسراء 26 في سبحان والروم {فَاتِ

ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ { الروم 38 فاتيان ذى القربى حقه صله الرحم والمسكين اطعام الجائع وابن السبيل قرى الضيف وفي الرقاب فكاك العانى واليتيم نوع من اطعام الفقير وفى البخارى عن النبى عودوا المريض واطعموا الجائع وفكرو العانى وفى الحديث الذى أفتى به أحمد لو صدق السائل ما أفلح من رده ¹

لطائف لغوية

1- { كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } آل عمران 86 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هدهم بأن أهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما فى قوله { وَاجْتَنِبْنَا هُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما فى قوله { شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَنِبَاهُ وَهَذَا } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمن المطلق يدخل فيه هذا وهذا ²

2- { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } آل عمران 92 عليم منزه عن الجهل ³

3- { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } آل عمران 92 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ البر اذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به كما فى قوله { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } { 13 } { وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } { 14 } { الانفطار 13- 14 } وقوله { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى } البقرة 189 وقوله { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة 177 فالبر اذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى والتقوى اذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ثم قد يجمع بينهما كما فى قوله تعالى { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى } المائدة ⁴

¹ مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 132-134

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³ الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 165

آل عمران 93-97

{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {93} {فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} {94} {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {95} {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} {96} {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} {97}

ليس لأحد أن يحرم بيمينه ما أحله الله

فكل عقد وجب الوفاء به بدون اليمين اذا حلف عليه كانت اليمين مؤكدة له ولو لم يجز فسخ مثل هذا العقد بل قد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا ائتمن خان واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وما كان مباحا قبل اليمين اذا حلف الرجل عليه لم يصح حراما بل له أن يفعلها ويكفر عن يمينه وما لم يكن واجبا فعليه اذا حلف عليه لم يصح واجبا عليه بل له أن يكفر بيمينه ولا يفعلها ولو غلط في اليمين بأى شيء غلطها فايما الحالفين لا تغير شرائع الدين وليس لأحد أن يحرم بيمينه ما أحله الله ولا يوجب بيمينه ما لم يوجبه الله هذا هو شرع محمد صلى الله عليه وسلم وأما شرع من قبله فكان في شرع بنى اسرائيل اذا حرم الرجل شيئا حرم عليه واذا حلف ليفعلن شيئا وجب عليه ولم يكن في شرعهم كفارة فقال تعالى {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ} {آل عمران 93} فاسرائيل حرم على نفسه شيئا فحرم عليه وقال الله تعالى لنبينا {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {1} {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} {2} {التحرير 1-2} وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} {87} {وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} {88} {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا

أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {89} المائدة 87- 89 ولهذا لما لم يكن في شرع من قبلنا كفارة بل كانت اليمين توجب عليهم فعل المحلوف عليه أمر الله أيوب أن يأخذ بيده ضغثا فيضرب به ولا يحنث لأنه لم يكن في شرعه كفارة يمين ولو كان في شرعه كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرأته ولو بضغث فان أيوب كان قد رد الله عليه أهله ومثلهم معهم لكن لما كان ما يوجبونه باليمين بمنزلة ما يجب بالشرع كانت اليمين عندهم كالنذر والواجب بالشرع قد يرخص فيه عند الحاجة كما يرخص في الجلد الواجب في الحد إذا كان المضروب لا يحتمل التفريق بخلاف ما التزمه الإنسان بيمينه في شرعنا فانه لا يلزمه بالشرع فيلزمه ما التزمه وله مخرج من ذلك في شرعنا بالكفارة¹

النبي أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود

فإذا أراد المجادل منهم أن يذكر ما يطعن في القرآن بنقل أو عقل مثل أن ينقل عما في كتبهم عن الأنبياء ما يخالف ما جاء به محمد أو خلاف ما ذكره الله في كتبهم كزعمهم للنبي أن الله أمرهم بتحميم الزاني دون رجمه أمكن للنبي والمؤمنين أن يطلبوا التوراة ومن يقرأها بالعربية ويترجمها من ثقات الترجمة كعبدالله ابن سلام ونحوه لما قال لحبرهم ارفع يدك عن آية الرجم فإذا هي تلوح ورجم النبي صلى الله عليه وسلم الزانيين منهما بعد أن قام عليهم الحجة من كتابهم وذلك أنه موافق لما أنزل الله عليه من الرجم وقال اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ولهذا قال ابن عباس في قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا } المائدة 44 قال محمد من النبيين الذين أسلموا وهو لم يحكم إلا بما أنزل الله عليه كما قال { وَأَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } المائدة 49 وكذلك يمكن أن يقرأ من نسخة مترجمة بالعربية قد ترجمها الثقات بالخط واللفظ العربيين يعلم بهما ما عندهم بواسطة المترجمين الثقات من المسلمين أو ممن يعلم خطهم منا كزيد بن ثابت ونحوه لما أمره النبي أن يتعلم ذلك والحديث معروف في السنن وقد احتج به البخاري في باب ترجمة الحاكم وهل يجوز ترجمان قال وقال خارجة ابن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت أن النبي أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبت للنبي كتبه وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه والمكاتبة بخطهم والمخاطبة بلغتهم من جنس واحد وإن كانا قد يجتمعان وقد ينفرد أحدهما عن الآخر مثل كتابة اللفظ العربي بالخط العبري وغيره من خطوط الأعاجم وكتابة اللفظ العجمي بالخط العربي وقيل يكفي بذلك ولهذا قال سبحانه { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ جَلَاءً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {93} ال عمران 93 فأمرنا أن نطلب منهم إحضار التوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين في نقل ما يخالف ذلك فإنهم كانوا { يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ

¹مجموع الفتاوى ج: 33 ص: 147-148

وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ { آل عمران 78 } و { يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } البقرة 79 ويكذبون في كلامهم وكتابتهم فهذا لا تقبل الترجمة إلا من ثقة فإذا احتج أحدهم على خلاف القرآن برواية عن الرسل المتقدمين مثل الذي يروي عن موسى أنه قال تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض أمكننا أن نقول لهم في أي كتاب هذا أحضروه وقد علمنا أن هذا ليس في كتبهم وإنما هو مفترى مكذوب وعندهم النبوات التي هي مئتان وعشرون وكتاب المثنوي الذي معناه المثناة وهي التي جعلها عبدالله بن عمرو فينا من أشراط الساعة فقال لا تقوم الساعة حتى يقرأ فيهم بالمثناة ليس أحد يغيرها قيل وما المثناة قال ما استكتب من غير كتاب الله وكذلك إذا سئلوا عما في الكتاب من ذكر أسماء الله وصفاته لتقام الحجة عليهم وعلى غيرهم بموافقة الأنبياء المتقدمين لمحمد صلى الله عليه وسلم فحرفوا الكلم عن مواضعه امكن معرفة ذلك كما تقدم وإن ذكروا حجة عقلية فهتت أيضا مما في القرآن بردها إليه مثل إنكارهم للنسخ بالعقل حتى قالوا لا ينسخ ما حرمه ولا ينهى عما أمر به فقال تعالى { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا } البقرة 142 قال البراء بن عازب كما في الصحيحين هم اليهود فقال سبحانه { اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة 142 فذكر ما في النسخ من تعليق الأمر بالمشيئة الإلهية ومن كون الأمر الثاني قد يكون أصلح وأنفع فقوله { يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة 142 بيان للأصلح الأنفع وقوله { مَنْ يَشَاءُ } البقرة 142 رد للأمر إلى المشيئة وعلى بعض ما في الآية اعتماد جميع المتكلمين حيث قالوا التكليف أما تابع لمحض المشيئة كما يقوله قوم أو تابع للمصلحة كما يقوله قوم وعلى التقديرين فهو جائز ثم أنه سبحانه بين وقوع النسخ بتحريم الحلال في التوراة بأنه أحل لإسرائيل أشياء ثم حرمها في التوراة وأن هذا كان تحليلا شرعيا بخطاب لم يكونوا استباحوه بمجرد البقاء على الأصل حتى لا يكون رفعه نسخا كما يدعيه قوم منهم وأمر بطلب التوراة في ذلك وهكذا وجدناه فيها كما حدثنا بذلك مسلمة أهل الكتاب في غير موضع وهكذا مناظرة الصابئة الفلاسفة والمشركين ونحوهم فإن الصابئة الفيلسوف إذا ذكر ما عند قدماء الصابئة الفلاسفة من الكلام الذي عرب وترجم بالعربية وذكره إما صرفا وإما على وجه الذي تصرف فيه متأخروهم بزيادة أو نقصان وبسط واختصار ورد بعضه وإتيان بمعان أخر ليست فيه ونحو ذلك فإن ذكر ما لا يتعلق بالدين مثل مسائل الطب والحساب المحض التي يذكرون فيها ذلك وكتب من أخذ عنهم مثل محمد بن زكريا الرازي وابن سينا ونحوهم من الزنادقة الأطباء ما غايته انتفاع بآثار الكفار والمنافقين في أمور الدنيا فهذا جائز كما يجوز السكنى في ديارهم ولبس ثيابهم وسلاحهم وكما تجوز معاملتهم على الأرض كما عامل النبي يهود خيبر وكما استأجر النبي هو وأبو بكر لما خرجا من مكة مهاجرين ابن أريقط رجلا من بني الديل هاديا خريتا والخريت الماهر بالهداية وانتمناه على أنفسهما ودوابهما ووعدها غار ثور صبح ثالثة وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله مسلمهم وكافرهم وكان يقبل نصحهم وكل هذا في الصحيحين وكان أبو طالب ينصر النبي ويذب عنه مع شركه وهذا كثير فإن المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤمن كما قال تعالى ومن أهل

الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ولهذا جاز انتمان أحدهم على المال وجاز أن يستطب المسلم الكافر إذا كان ثقة نص على ذلك الأئمة كأحمد وغيره إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا وانتمان لهم على ذلك وهو جائز إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة مثل ولايته على المسلمين وعلوه عليهم ونحو ذلك فأخذ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطابه بل هذا أحسن لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة وليس هناك حاجة إلى احد منهم بالخيانة بل هي مجرد انتفاع بآثارهم كالملابس والمسكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك وإن ذكروا ما يتعلق بالدين فإن نقوله عن الأنبياء كانوا فيه كأهل الكتاب وأسوأ حالا وإن أحوالوا معرفته على القياس العقلي فإن وافق ما في القرآن فهو حق وإن خالفه ففي القرآن بيان بطلانه بالأمثال المضروبة كما قال تعالى {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} {الفرقان 33} ففي القرآن الحق والقياس البين الذي يبين بطلان ما جاءوا به من القياس وإن كان ما يذكرونه مجملاً فيه الحق وهو الغالب على الصائبة المبدلين مثل أرسطو وأتباعه وعلى من اتبعهم من الآخرين قبل الحق ورد الباطل والحق من ذلك لا يكون بيان صفة الحق فيه كبيان صفة الحق في القرآن فالأمر في هذا موقف على معرفة القرآن ومعانيه وتفسيره وترجمته والترجمة والتفسير ثلاث طبقات أحدها ترجمة مجرد اللفظ مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء فهذا علم نافع إذ كثير من الناس يقيد المعنى باللفظ فلا يجرده عن اللفظين جميعاً والثاني ترجمة المعنى وبيانه بأن يصور المعنى للمخاطب فتصوير المعنى له وتفهمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ كما يشرح للعربي كتابا عربيا قد سمع ألفاظه العربية لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أن نظيره إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركب صور ذلك المعنى إما تحديدا وإما تقريبا الدرجة الثالثة بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يحقق ذلك المعنى إما بدليل مجرد وإما بدليل يبين علة وجوده وهنا قد يحتاج إلى ضرب أمثلة ومقاييس تفيد التصديق بذلك المعنى كما يحتاج في الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور له ذلك المعنى وقد يكون نفس تصور مفيدا للعلم بصدقة وإذا كفى تصور معناه في التصديق به لم يحتاج إلى قياس ومثل ودليل آخر فإذا عرف القرآن هذه المعرفة فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصائبين والمشركين لا بد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضا وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل شيء كما قال تعالى {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} {يوسف 111} وقال {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} {النحل 89} ومعلوم أن الأمة مأمور بتبليغ القرآن لفظه ومعناه كما أمر بذلك الرسول ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج

إلى ترجمة لهم فيترجم لهم بحسب الإمكان والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة¹

" فلم يلتفتوا عنه يمينه ولا يسرة "

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة الا فى محبة الله والتقرب اليه بما يحبه ولا تمكن محبته الا بالاعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهى ملة ابراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين وكان النبي يقول لأصحابه قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين والحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات قال محمد ابن كعب مستقيما وقال عطاء مخلصا وقال آخرون متبعا فهو مستقيم القلب الى الله دون ما سواه قال الله تعالى {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} فصلت 6 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} الأحقاف 13 قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فلم يلتفتوا عنه يمينه ولا يسرة فلم يلتفتوا بقلوبهم الى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالسؤال ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون الا الله ولا يحبون معه أندادا ولا يحبون الا اياه لا لطلب منفعة ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائنا من كان ولا يسألون غيره ولا يتشرفون بقلوبهم الى غيره²

" إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس "

قال تعالى {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} آل عمران 97 فهذا من باب البيت كما قال تعالى {أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} العنكبوت 67 وقال تعالى {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ} 3 {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ} 4 {قريش 3-4} وقال تعالى {أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ نَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ} القصص 57 فكانوا فى الجاهلية يقتل بعضهم بعضا خارج الحرم فإذا دخلوا الحرم أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجه وكان هذا من الآيات التى جعلها الله فيه كما قال {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} آل عمران 97 والإسلام زاد حرمة فمذهب أكثر الفقهاء أن من أصاب حدا خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم لم يقم عليه الحد حتى يخرج منه كما قال ابن عمر وابن عباس وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد وغيرهما لما ثبت فى الصحيح أن النبي قال إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 110-117

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 33

دما ولا يعضد بها شجرا وأنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار ثم قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ومن ظن أن من دخل الحرم كان آمنا من عذاب الآخرة مع ترك الفرائض من الصلاة وغيرها ومع ارتكاب المحارم فقد خالف إجماع المسلمين فقد دخل البيت من الكفار والمنافقين والفاسقين من هو من أهل النار بإجماع المسلمين والله أعلم¹

أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدا آمنا

ومكة وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه وهو الذي جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم خلقا وأمرا قدرا وشرعا فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال تعالى {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} {125} وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} {126} سورة البقرة الآيتان 125 و 126 فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدا آمنا واستجاب الله دعاء إبراهيم وذكر ذلك في غير موضع وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} {96} فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَبِاللَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} {97} آل عمران 96-97²

عتق المسجد مما يحمده ليه

و عتق المسجد مما يحمده ليه و لهذا قال {ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} {الحج 33} وقال {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} {آل عمران 96} فإن قدمه يقتضي كثرة العبادة فيه أيضا و ذلك يقتضي زيادة فضله³

فالحج الواجب ليس إلا إلى أفضل بيوته وأقدمها وهو المسجد الحرام والسفر المستحب ليس إلا إلى مسجدين لكونهما بناهما نبيان فالمسجد النبوي مسجد المدينة أسسه على التقوى خاتم المرسلين ومسجد إيليا قد كان مسجدا قبل سليمان ففي الصحيحين عن أبي ذر رضى الله عنه قلت يا رسول

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 343-344

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 206

³مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 469

الله أى مسجد وضع أولا قال المسجد الحرام قال قلت ثم أى قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما قال أربعون سنة ثم حيث ما أدركتك الصلاة فصل فإنه لك مسجد وفى لفظ البخارى فإن فيه الفضل وهذه سنة رسول الله كان يصلى حيث أدركته الصلاة فالمسجد الأقصى كان من عهد إبراهيم عليه السلام لكن سليمان عليه السلام بناه بناء عظيما فكل من المساجد الثلاثة بناه نبي كريم ليصلى فيه هو والناس فلما كانت الأنبياء عليهم السلام تقصد الصلاة فى هذين المسجدين شرع السفر إليهما للصلاة فيهما والعبادة إقتداء بالأنبياء عليهم السلام وتأسيا بهم كما أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما بنى البيت وأمره الله تعالى أن يؤذن فى الناس بحجه فكانوا يسافرون إليه من زمن إبراهيم عليه السلام ولم يكن ذلك فرضا على الناس فى اصح القولين¹

أن الله فرض فى كتابه حج البيت

أن مسجد الرسول وغيره من المساجد فضيلتها بكونها بيوت الله التى بنيت لعبادته والمساجد الثلاثة لها فضل على ما سواها فإنها بناها انبياء ودعوا الناس إلى السفر إليها فالخليل دعا إلى المسجد الحرام وسليمان دعا إلى بيت المقدس ونبينا دعا إلى الثلاثة إلى مسجده والمسجدين ولكن جعل السفر إلى المسجد الحرام فرضا والآخريين تطوعا وإبراهيم وسليمان لم يوجبا شيئا ولا اوجب الخليل الحج ولهذا لم يكن بنوا إسرائيل يحجون ولكن حج موسى ويونس وغيرهما فإن إبراهيم الخليل بنى البيت ودعا الناس إلى حجه بأمره تعالى ولم يوجبه على الناس ولهذا لم يكن الحج فرضا فى أول الإسلام وإنما فرض فى آخر الأمر والصحيح أنه إنما فرض سنة نزلت آل عمران لما وفد أهل نجران سنة تسع أو عشر ومن قال فى سنة ست فإنما إستدل بقوله تعالى {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} البقرة 196 فإن هذه نزلت عام الحديبية باتفاق الناس لكن هذه الآية فيها الأمر بإتمامه بعد الشروع فيه ليس فيها إيجاب إبتداء به فالبيت الحرام كان له فضيلة بناء إبراهيم الخليل ودعاء الناس إلى حجه وصارت له فضيلة ثانية فإن محمدا هو الذى أنقذه من أيدي المشركين ومنعه منهم وهو الذى أوجب حجه على كل مستطيع وقد حجه الناس من مشارق الأرض ومغاربها فعبد الله فيه بسبب محمد أضعاف ما كان يعبد الله فيه قبل ذلك وأعظم مما كان يعبد فإن محمدا سيد ولد آدم²

أن العمرة أيضا واجبة نص عليه أحمد فى مواضع فقال فى رواية الأثرم وبكر بن محمد وإسحق بن إبراهيم وأبي طالب وحرب والفضل العمرة واجبة والعمرة فريضة وذكر بعض أصحابنا عنه رواية أخرى أنها سنة لأن الله سبحانه وتعالى قال {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 ولم يذكر العمرة ولو كانت واجبة لذكرها كما ذكرنا لما أمر بإتمامها وبالسعي

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 351-352

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 265 و ص: 326

فيها في قوله {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} البقرة 196 وقوله سبحانه {فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} البقرة 158 وكذلك أمر خليله عليه السلام بدعاء الناس إلى الحج بقوله تعالى {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا} الحج 27 إلى قوله {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} {28} الحج 28 والاختصاص بأيام معلومات هو للحج فقط دون العمرة فعلم أنه لم يأمرهم بالعمرة وإن كانت حسنة مستحبة لأنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر معاني الإسلام قال حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وقال في حديث جبريل الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ولم يذكر العمرة وسأله ضمام بن ثعلبة عن فرائض الإسلام إلى أن قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا قال صدق ثم ولى ثم قال والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن صدق ليدخلن الجنة ولو كانت العمرة واجبة لانكر قوله لا أزيد عليهن ولم يضمن له الجنة مع ترك أحد فرائض الإسلام ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لما حج حجة الوداع كان معه من المسلمين مالا يحصيهم إلا الله تعالى وكل قد جاء يؤدي فرض الله تعالى عليه فلما قضى أيام منى بات بالمحصب بعد النفر وخرج من الغد قافلا إلى المدينة ولم يعتمر بعد ذلك ولم يأمر من معه بالعمرة ولا بأن يسافروا لها سفرة أخرى وقد كان فيهم المفرد والقارن وهم لا يرون أنه قد بقي عليهم فريضة أخرى بل قد سمعوا منه أن الحج لا يجب إلا في عام واحد وقد فعلوه فلو كانت العمرة واجبة كالحج لبين لهم ذلك أو لأقام ريثما أن يعتمر من لم يكن إعتمر وعن الحجاج بن ارطاة ع محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال أخبرني عن العمرة أواجبة هي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا وإن تعتمر خير لك رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح ورواه الدارقطني من غير طريق الحجاج²¹

وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة فانه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي بل قد ثبت في الصحيح أن أول ما أنزل عليه {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} {1} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} {2} العلق 1-2 إلى قوله {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} {5} العلق 5 ثم أنزل عليه بعد ذلك {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} {1} {قُمْ فَأَنْذِرْ} {2} المدثر 1-2 فهذا الخطاب إرسال له إلى الناس والإرسال بعد الانبياء فإن الخطاب الأول ليس فيه إرسال وآخر سورة اقرأ {وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} العلق 19 فأول السورة أمر بالقراءة وآخرها أمر بالسجود والصلاة مؤلفة من أقوال وأعمال فأفضل أقوالها القراءة وأفضل

¹¹ شرح العمدة ج: 2 ص: 90-92 و مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 7-8 و مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 5

² ملاحظة هامة تبقى مثبتة في آخر هذا التفسير (باقي الأدلة بالنسبة هل العمرة سنة أم فرض موجود في تفسير البقرة 196 أو البقرة 158 نفس المرجع هذا)

أعمالها السجود والقراءة أول أقوالها المقصودة وما بعده تبع له وقد روى أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ثم فرضت الخمس ليلة المعراج وكانت ركعتين ركعتين فلما هاجر أقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر وكانت الصلاة تكمل شيئاً بعد شيء فكانوا أولاً يتكلمون في الصلاة ولم يكن فيها تشهد ثم أمروا بالتشهد وحرم عليهم الكلام وكذلك لم يكن بمكة لهم اذان وإنما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة وكذلك صلاة الجمعة والعيد والكسوف والاستسقاء وقيام رمضان وغير ذلك إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة وأمروا بالزكاة والإحسان في مكة أيضاً ولكن فرائض الزكاة ونصبها إنما شرعت بالمدينة وأما صوم شهر رمضان فهو إنما فرض في السنة الثانية من الهجرة وأدرك النبي تسع رمضانات وأما الحج فقد تنازع الناس في وجوبه فقالت طائفة فرض سنة ست من الهجرة عام الحديبية بإتفاق الناس قالوا وهذه الآية تدل على وجوب الحج ووجوب العمرة أيضاً لأن الأمر بالإتمام يتضمن الأمر بإبتداء الفعل وإتمامه وقال الأكثرون إنما وجب الحج متأخراً قيل سنة تسع وقيل سنة عشر وهذا هو الصحيح فإن آية الإيجاب إنما هي قوله تعالى **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}** {آل عمران 97} وهذه الآية في آل عمران في سياق مخاطبته لأهل الكتاب وصدر آل عمران وما فيها من مخاطبة أهل الكتاب نزل لما قدم على النبي وفد نجران النصارى وناظروه في امر المسيح وهم اول من أدى الجزية من أهل الكتاب وكان ذلك بعد إنزال سورة براءة التي شرع فيها الجزية وأمر فيها بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وغزا النبي غزوة تبوك التي غزا فيها النصارى لما امر الله بذلك في قوله **{فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** {التوبة 29} ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الأحاديث وإنما جاء في الأحاديث المتأخرة وقد قدم على النبي وفد عبدالقيس وكان قدومهم قبل فتح مكة على الصحيح كما قد بيناه وقالوا يا رسول الله ان بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر يعنون بذلك أهل نجد من تميم واسد وغطفان لأنهم بين البحرين وبين المدينة وعبدالقيس هم من ربيعة ليسوا من مضر ولما فتحت مكة زال هذا الخوف ولما قدم عليه وفد عبدالقيس أمرهم بالصلاة والزكاة وصيام رمضان وخمس المغنم ولم يأمرهم بالحج وحديث ضمام قد تقدم أن البخارى لم يذكر فيه الحج كما لم يذكره في حديث طلحة وأبي هريرة وغيرهما مع قولهم إن هذه الأحاديث هي من قصة ضمام وهذا ممكن مع أن تاريخ قدوم ضمام هذا ليس متيقناً وأما قوله **{وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}** {البقرة 196} فليس في هذه الآية إلا الأمر بإتمام ذلك وذلك يوجب اتمام ذلك على من دخل فيه فنزل الامر بذلك لما أحرموا بالعمرة عام الحديبية ثم أحصروا فأمروا بالإتمام وبين لهم حكم الإحصار ولم يكن حينئذ قد وجب عليهم لا عمرة ولا حج¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 605-607 و مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 197

وذكر تعالى فرض الحج بقوله **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}** آل عمران 97 وهذا نزل إما سنة تسع وإما سنة عشر كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء منهم القاضي أبو يعلى وغيره قالوا وجوب الحج ثبت بقوله **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}** آل عمران 97 وروي أنه نزل في سنة عشر وروي أنه نزل في سنة تسع وهذا قول جمهور العلماء قالوا إن فرض الحج إنما ثبت بهذه الآية وقال بعضهم بل ثبت ذلك بقوله تعالى **{وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}** البقرة 196 وهذه الآية نزلت سنة ست عام الحديبية لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت وصالحهم ذلك العام وباع المسلمون تحت الشجرة وأنزل الله فيها سورة الفتح ثم رجع إلى المدينة وفتح الله عليهم خيبر سنة سبع وفيها قدم عليه جعفر بن أبي طالب مع وفد الحبشة ثم أرسل جعفرا وزيدا وعبد الله بن رواحة لغزو النصارى لمؤتة ثم فتح مكة سنة ثمان في رمضان ثم في أثناء سنة تسع غزا النصارى إلى تبوك وفيها حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأمر أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وأردفه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لنبذ العهود وأنزل الله آية السيف المطلقة بجهاد المشركين وجهاد أهل الكتاب¹

" من ملك زاد أو راحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا "

قالت طائفة من السلف لما أنزل الله هذه الآية **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** {85} قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون فقال تعالى **{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** آل عمران 97 فقالوا لا نحج فقال تعالى **{وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** آل عمران 97 فكل من لم ير حج البيت واجبا عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن واليهود والنصارى لا يرونه واجبا عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى في حديث مرفوع إلى النبي من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت فإنه كافر وأيضا فقد قال تعالى في أول السورة **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** {18} **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** {19} **{فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ}**

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 171-174

أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ {20} إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {21}
ال عمران 18-21¹

الحج شعار الحنيفية

والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله تحقيقاً لقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} {البينة 5
فالصلاة لله وحده والصدقة لله وحده والصيام لله وحده والحج لله وحده إلى بيت الله وحده فالمقصود
من الحج عبادة الله وحده في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها ولهذا كان الحج شعار الحنيفية حتى قال
طائفة من السلف حنفاء لله أي حجاجاً فإن اليهود والنصارى لا يحجون البيت قال طائفة من
السلف لما أنزل الله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} {آل عمران 85} قالت
اليهود والنصارى نحن مسلمون فأنزل الله تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا
{آل عمران 97} فقالوا ألا نحج فقال تعالى {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} {آل عمران 97}²
فإن اليهود والنصارى لما أعرضوا عن تعظيم الكعبة قال الله {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ} {آل عمران 97} وأوجب حجها على البيت ولما كانت مناسك الحج عبادة محضة وانقيادا
صرفاً وذلاً للنفوس وخروجاً عن العز والأمر المعتادة وليس فيها حظ للنفوس فربما قبحها الشيطان
في عين الانسان ونهاه عنها ولهذا قال {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} {الأعراف 16} قال رجل
من أهل العلم هو طريق الحج وقال بعد أن فرض {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} {آل
عمران 97} لعلمه أن من الناس من قد يكفر بهذه العبادة وإن لم يكفر بالصلاة والزكاة والصيام فلا
يرى حجه برا ولا تركه اثماً³

فعلم بذلك أن في إسماعيل وذريته معظمون عند الله ممدوحون وأن إسماعيل معظم جدا جدا كما
عظم الله نوحاً وإبراهيم وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل لكن المقصود أن هذا التعظيم له
ولذريته إنما يكون إذا كانت ذريته معظمة على دين حق وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت ولا يحج إليه
بعد مجيء محمد غيرهم ولهذا لما قال الله تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} {آل عمران 97}
فقالوا لا نحج فقال {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} {آل عمران 97}⁴

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 125-126

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 450

³شرح العمدة ج: 3 ص: 632-633

⁴الجواب الصحيح ج: 5 ص: 221

المناسك التي أمر الله بها هي التي فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأما طواف القدوم فالمشهور في المذهب أنه ليس بواجب بل سنة ونقل عنه محمد بن أبي حرب الجرجرائي الطواف ثلاثة واجبة طواف القدوم وطواف الزيارة وطواف الصدر أما طواف الزيارة فلا بد منه فإن تركه رجع معتمرا وطواف الصدر إذا تباعد بعث بدم وهذه رواية قوية لأن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه من بعده لم يزلوا إذا قدموا مكة طافوا قبل التعريف ولم ينقل أن أحدا منهم ترك ذلك لغير عذر وهذا خرج منه إمتثالا لقوله تعالى **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} آل عمران 97** وقوله **{وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}** {البقرة 196} وبيانا لما أمر الله به من حج بيته كما بين الطواف الواجب بسبعة أشواط فيجب أن تكون أفعاله في حجه كلها واجبة إلا أن يقوم دليل على بعضها أنه ليس بواجب وقد قال صلى الله عليه وسلم لتأخذوا عني مناسككم ولم يرد أن نأخذها عنه علما بل علما وعملا كما قال **{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}** {الحشر 7} فتكون المناسك التي أمر الله بها هي التي فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم¹

الناس متنازعون في مسمى الإستطاعة والقدرة

لفظ القدرة يتناول نوعين أحدهما القدرة الشرعية المصححة للفعل التي هي مناط الأمر والنهي والثاني القدرة القدرية الموجبة للفعل التي هي مقارنة للمقدور لا يتأخر عنها فالأولى هي المذكورة في قوله تعالى **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97** فإن هذه الإستطاعة لو كانت هي المقارنة للفعل لم يجب حج البيت إلا على من حج فلا يكون من لم يحجج عاصيا بترك الحج سواء كان له زاد وراحلة وهو قادر على الحج أو لم يكن وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وكذا قوله تعالى **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** {التغابن 16} وقوله إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم لو أراد إستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لكان قد قال فافعلوا منه ما تفعلون فلا يكون من لم يفعل شيئا عاصيا له وهذه الأستطاعة المذكورة في كتب الفقه ولسان العموم والناس متنازعون في مسمى الإستطاعة والقدرة فمنهم من لا يثبت إستطاعة إلا هذه ويقولون الإستطاعة لا بد أن تكون قبل الفعل ومنهم من لا يثبت أستطاعة إلا ما قارن الفعل وتجد كثيرا من الفقهاء يتناقضون فإذا خاضوا مع من يقول من المتكلمين المثبتين للقدر أن الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل وافقوهم على ذلك وإذ خاضوا في الفقه أثبتوا الإستطاعة المتقدمة التي هي مناط الأمر والنهي

¹شرح العمدة ج: 3 ص: 653

وعلى هذا تتفرع مسألة تكليف مالا يطاق فإن الطاقة هي الإستطاعة وهي لفظ مجمل فالإستطاعة الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي لم يكلف الله أحد شيئاً بدونها فلا يكلف مالا يطاق بهذا التفسير وأما الطاقة التي لا تكون إلمقارنة للفعال فجميع الأمر والنهي تكليف مالا يطاق بهذا الإعتبار فإن هذه ليست مشروطة فى شيء من الأمر والنهي بإتفاق المسلمين وكذا تنازعهم فى العبد هل هو قادر على خلاف المعلوم فإذا أريد بالقدرة القدرة الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي كالإستطاعة المذكورة فى قوله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن 16 فكل من أمره الله ونهاه فهو مستطيع بهذا الإعتبار وإن علم أنه لا يطيعه وإن أريد بالقدرة القدريّة التي لا تكون إلا مقارنة للمفعول فمن علم أنه لا يفعل الفعل لم تكن هذه القدرة ثابتة له¹

جمهور أهل السنة يثبتون للعبد قدرة

جمهور أهل السنة يثبتون للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي وهذه قد تكون قبله لا يجب أن تكون معه ويقولون أيضا إن القدرة التي يكون بها الفعل لا بد ان تكون مع الفعل لا يجوزون أن يوجد الفعل بقدرة معدومة ولا بإرادة معدومة كما لا يوجد بفاعل معدوم وأما القدريّة فيزعمون أن القدرة لا تكون إلا قبل الفعل ومن قابلهم من المثبتة يقولون لا تكون إلا مع الفعل وقول الأئمة والجمهور هو الوسط أنها لا بد أن تكون معه وقد تكون مع ذلك قبله كقدرة المأمور العاصي فإن تلك القدرة تكون متقدمة على الفعل بحيث تكون لمن لم يطع كما قال تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 فأوجب الحج على المستطيع فلو لم يستطيع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج ولم يعاقب أحد على ترك الحج وهذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام وكذلك قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن 16 فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة فلو كان من لم يتق الله لم يستطيع التقوى لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى ولا يعاقب من لم يتق وهذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهؤلاء إنما قالوا هذا لأن القدريّة والمعتزلة والشيعة وغيرهم قالوا القدرة لا تكون إلا قبل الفعل لتكون صالحة للضدين الفعل والترك وأما حين الفعل فلا يكون إلا الفعل فزعموا أو من زعم منهم أنه حينئذ لا يكون قادرا لأن القادر لا بد أن يقدر على الفعل والترك وحين الفعل لا يكون قادرا على الترك فلا يكون قادرا وأما أهل السنة فإنهم يقولون لا بد أن يكون قادرا حين الفعل ثم أنتمهم قالوا ويكون أيضا قادرا قبل الفعل وقالت طائفة منهم لا يكون قادرا إلا حين الفعل وهؤلاء يقولون إن القدرة لا تصلح للضدين عندهم فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل وهي مستلزمة له لا توجد بدونها إذ لو صلحت للضدين على وجه البديل أمكن وجودها مع عدم أحد الضدين والمقارن للشيء مستلزم له لا يوجد مع عدمه فإن وجود الملزوم بدون اللازم ممتنع وما قالتها القدريّة فهو بناء على أصلهم الفاسد وهو أن

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 129-130

إقدار الله المؤمن والكافر والبر والفاجر سواء فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان بل يقولون إن إعانته للمطيع والعاصي سواء ولكن هذا بنفسه رجح الطاعة وهذا بنفسه رجح المعصية كالوالد الذي أعطى كل واحد من ابنيه سيفاً فهذا جاهد به في سبيل الله وهذا قطع به الطريق أو أعطاهما مالا فهذا أنفق في سبيل الله وهذا أنفق في سبيل الشيطان وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر فإنهم متفقون على أن الله على عبده المطيع المؤمن نعمة دينية خصه بها دون

الكافر وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر كما قال تعالى {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} {الحجرات 7} فبين أنه حبيب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم فالقدرية تقول هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق أو هو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمنين ولهذا قال أولئك هم الراشدون والكفار ليسوا راشدين وقال تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} {الأنعام 125} ¹

الإستطاعة نوعان

والصواب الذي دل عليه الكتاب و السنة أن الإستطاعة متقدمة على الفعل و مقارنة له أيضا و تقارنه أيضا إستطاعة أخرى لا تصلح لغيره فالإستطاعة نوعان متقدمة صالحة للضدين و مقارنة لا تكون إلا مع الفعل فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له و هذه هي الموجبة للفعل المحققة له قال الله تعالى فى الأولى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 و لو كانت هذه الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما و جب الحج إلا على من حج و لما عصى أحد بترك الحج و لا كان الحج و اجبا على أحد قبل الإحرام به بل قبل فراغه و قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن 16} فأمر بالتقوى بمقدار الإستطاعة و لو أراد الإستطاعة المقارنة لما و جب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط إذ هو الذي قارنته تلك الإستطاعة و قال تعالى {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} البقرة 286 و الوسع الموسوع و هو الذي تسعه و تطبيقه فلو أريد به المقارن لما كلف أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط دون ما تركه من الواجبات و قال تعالى {فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّمَاسَا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} {المجادلة 4} و المراد به الإستطاعة المتقدمة و إلا كان المعنى فمن لم يفعل الصيام فإطعام ستين فيجوز حينئذ الإطعام لكل من لم يصم و لا يكون الصوم و اجبا على أحد حتى يفعله و قال النبي صلى الله عليه و سلم إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم و لو أريد به المقارنة فقط لكان المعنى فاتوا منه ما

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 41-44 و منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 408

فعلتم فلا يكونون مأمورين إلا بما فعلوه و كذلك قال النبي صلى الله عليه و سلم لعمران بن حصين صل قائماً فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب و لو أريد المقارن لكان المعنى فإن لم تفعل فتكون مخيراً و نظائر هذا متعددة فإن كل أمر علق في الكتاب و السنة و جوبه بالإستطاعة و عدمه بعدمها لم يرد به المقارنة و إلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها و قد أسقطها عن من يفعلها فلا يَأْتُمُّ أحد بترك الواجب المذكور و أما الإستطاعة المقارنة الموجبة فمثل قوله تعالى { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } هود 20 و قوله { الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف 101 فهذه الإستطاعة هي المقارنة الموجبة إذ الأخرى لا بد منها في التكليف فالأولى هي الشرعية التي هي مناط الأمر و النهي و الثواب و العقاب و عليها يتكلم الفقهاء و هي الغالبة في عرف الناس و الثانية هي الكونية التي هي مناط القضاء و القدر و بها يتحقق وجود الفعل فالأولى للكلمات الأمرية الشرعية و الثانية للكلمات الخلقية الكونية كما قال { وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ } التحريم 12 و قد اختلف الناس في قدره العبد على خلاف معلوم الحق أو مراده و التحقيق أنه قد يكون قادراً بالقدرة الأولى الشرعية المتقدمة على الفعل فإن الله قادراً أيضاً على خلاف المعلوم و المراد و إلا لم يكن قادراً إلا على ما فعله و ليس العبد قادراً على ذلك بالقدرة المقارنة للفعل فإنه لا يكون إلا ما علم الله كونه و أراد كونه فإنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و كذلك قول الحواريين { هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ } المائدة 112 إنما إستفهموا عن هذه القدرة و كذلك ظن يونس { أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ } الأنبياء 87 أي فسر بالقدرة كما يقال للرجل هل تقدر أن تفعل كذا أي هل تفعله و هو مشهور في كلام الناس و لما إعتقدت القدرية أن الأولى كافية في حصول الفعل و أن العبد يحدث مشيئته جعله مستغنياً عن الله حين الفعل كما أن الجبرية لما إعتقدت أن الثانية موجبة للفعل و هي من غيره راوه مجبوراً على الفعل و كلاهما خطأ قبيح فإن العبد له مشيئة و هي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك في عدة مواضع من كتابه { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ } 55 { وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفْرِ } 56 { المذثر 55-56 } { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } 29 { وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } 30 { الانسان 29-30 } { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } 28 { وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } 29 { التكوير 28-29 } فإذا كان الله قد جعل العبد مريداً مختاراً شائياً إمتنع أن يقال هو مجبور مقهور مع كونه قد جعل مريداً و إمتنع أن يكون هو الذي إبتدع لنفسه المشيئة فإذا قيل هو مجبور على أن يختار مضطراً إلى أن يشاء فهذا لا نظير له و ليس هو المفهوم من الجبر بالإضطرار و لا يقدر على ذلك إلا الله و لهذا إفترق القدرية و الجبرية على طرفي نقيض و كلاهما مصيب فيما أثبتته دون ما نفاه فأبو الحسين البصري و من وافقه من القدرية يزعمون أن العلم بأن العبد يحدث أفعاله و تصرفاته علم ضروري و إن جحد ذلك سفسطة وابن الخطيب و نحوه من الجبرية يزعمون أن العلم بإفتقار رجحان فعل العبد على تركه إلى مرجح من غير العبد ضروري لأن الممكن المتساوي الطرفين لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح و

كلا القولين صحيح لكن دعوى إستلزام أحدهما نفي الآخر ليس بصحيح فإن العبد محدث لأفعاله كاسب لها و هذا الإحداث مفتقر الى محدث فالعبد فاعل صانع محدث و كونه فاعلا صانعا محدثا بعد أن لم يكن لابد له من فاعل كما قال {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} التكوير 28 فإذا شاء الإستقامة صار مستقيما ثم قال {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} التكوير 29 فما علم بالإضطرار و ما دلت عليه الأدلة السمعية و العقلية كله حق و لهذا كان لا حول و لا قوة إلا بالله و العبد فقير إلى الله فقرا ذاتيا له في ذاته و صفاته و أفعاله مع أن له ذاتا و صفات و أفعالا فنفي أفعاله كنفي صفاته و ذاته و هو جدد للحق شبيهه بغلو غالية الصوفية الذين يجعلونه هو الحق أو جعل شيء منه مستغنيا عن الله أو كائنا بدونه جدد للحق شبيهه بغلو الذي قال {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} النازعات 24 و قال إنه خلق نفسه و إنما الحق ما عليه أهل السنة و الجماعة و إنما الغلط في إعتقاد تناقضه بطريق التلازم و أن ثبوت أحدهما مستلزم لنفي الآخر فهذا ليس بحق و سببه كون العقل يزيد على المعلوم المدلول عليه ما ليس كذلك و تلك الزيادة تناقض ما علم و دل عليه ¹

الإستطاعة المنفية ليست هي الإستطاعة المشروطة

أن الإستطاعة جاءت في كتاب الله على نوعين الإستطاعة المشترطة للفعل و هي مناط الأمر و النهي كقوله تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 و قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن 16 و قوله {وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} النساء 25 الآية {فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} المجادلة 4 و قوله {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} البقرة 184 و قول النبي صلى الله عليه و سلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب فإن الإستطاعة في هذه النصوص لو كانت لا توجد إلا مع الفعل لوجب ألا يجب الحج إلا على من حج و لا يجب صيام شهرين إلا على من صام و لا القيام في الصلاة إلا على من قام و كان المعنى على الذين يصومون الشهر طعام مسكين و الآية إنما أنزلت لما كانوا مخيرين بين الصيام و الإطعام في شهر رمضان و الإستطاعة التي يكون معها الفعل قد يقال هي المقترنة بالفعل الموجبة له و هي النوع الثاني و قد ذكروا فيها قوله تعالى {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} الكهف 101 و قوله تعالى {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} هود 20 و نحو ذلك قوله {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ} 8 {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} 9 يس 8 فإن الإستطاعة المنفية هنا سواء كان نفيها خبرا أو إبتداء ليست هي الإستطاعة المشروطة في الأمر و النهي فإن تلك إذا إنتفت إنتفى الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و الحمد و الذم و الثواب و العقاب و معلوم أن هؤلاء في هذه الحال مأمورون منهيون موعودون

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 376-372

متوعدون فعلم أن المنفية هنا ليست المشروطة في الأمر و النهي المذكورة في قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن 16} لكن قد يقال الإستطاعة هنا كالإستطاعة المنفية في قول الخضر لموسى {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} {الكهف 67} فإن هذه الإستطاعة المنفية لو كان المراد بها مجرد المقارنة في الفاعل و التارك لم يكن فرق بين هؤلاء المذمومين و بين المؤمنين ولا بين الخضر و موسى فإن كل أحد فعل أو لم يفعل لا تكون المقارنة موجودة قبل فعله و القرآن يدل على أن هذه الإستطاعة إنما نفيت عن التارك لا عن الفاعل فعلم أنها مضادة لما يقوم بالعبد من الموانع التي تصد قلبه عن إرادة الفعل و عمله و بكل حال فهذه الإستطاعة منتفية في حق من كتب عليه أنه لا يفعل بل و قضى عليه بذلك و إذا عرف هذا التقسيم أن إطلاق القول بأن العبد لا يستطيع غير ما فعل و لا يستطيع خلاف المعلوم المقدر و إطلاق القول بأن إستطاعة الفاعل و التارك سواء و أن الفاعل لا يختص عن التارك بإستطاعة خاصة عرف أن كلا الإطلاقين خطأ و بدعة و لهذا إتفق سلف الأمة و أئمتها و جمهور طوائف أهل الكلام على أن الله قادر على ما علم و أخبر أنه لا يكون و على ما يمتنع صدوره عنه لعدم إرادته لا لعدم قدرته عليه¹

فمما تنازع المتكلمين من مثبتة القدر ونفاته في استطاعة العبد وهي قدرته وطاقته هل يجب أن تكون مع الفعل لا قبله أو يجب أن تكون متقدمة على الفعل أو يجب أن تكون معه وإن كانت متقدمة عليه فمن قال بالأول لزمه أن يكون كل عبد لم يفعل ما أمر به قد كلف ما لا يطيقه إذا لم يكن عنده قدرة إلا مع الفعل ولهذا كان الصواب الذي عليه محققوا المتكلمين وأهل الفقه والحديث والتصوف وغيرهم ما دل عليه القرآن وهو أن الاستطاعة التي هي مناط الأمر والنهي وهي المصححة للفعل لا يجب أن تقارن الفعل وأما الإستطاعة التي يجب معها وجود الفعل فهي مقارنة له فالأولى كقوله {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ النَّبِيِّ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 و قول النبي لعمران بن حصين صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب و معلوم أن الحج والصلاة تجب على المستطيع سواء فعل أو لم يفعل فعلم أن هذه الاستطاعة لا تجب أن تكون مع الفعل والثانية كقوله تعالى {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} هود 20 وقوله تعالى {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا} {100} الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} {الكهف 101} على قول من يفسر الاستطاعة بهذه وأما على تفسير السلف والجمهور فالمراد بعدم الاستطاعة مشقة ذلك عليهم وصعوبته على نفوسهم فنفسهم لا تستطيع إرادته وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه وهذه حال من صده هواه ورأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزلة واتباعها فقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك وهذه الاستطاعة هي المقارنة للفعل الموجبة له وأما الأولى فلولا وجودها لم يثبت التكليف بقوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن 16} وقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 290-292 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 173

الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا {الأعراف 42} وأمثال ذلك فهؤلاء المفرطون والمعتدون في أصول الدين إذا لم يستطيعوا سمع ما أنزل إلى الرسول فهم من هذا القسم¹

الأفعال المأمور بها مشروطة بالإستطاعة و القدرة

قد أمر الله ورسوله بأفعال واجبة ومستحبة وإن كان الواجب مستحباً وزيادة ونهى عن أفعال محرمة أو مكروهة والدين هو طاعته وطاعة رسوله وهو الدين والتقوى والبر والعمل الصالح والشرعة والمناهج وإن كان بين هذه الأسماء فروق وكذلك حمد أفعالاً هي الحسنات ووعد عليها وذم أفعالاً هي السيئات وأوعد عليها وقيد الأمور بالقدرة والاستطاعة و الوسع والطاقة فقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ {التغابن 16} وقال تعالى {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ {البقرة 286} وقال تعالى {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا {الطلاق 7} وكل من الآيتين وإن كانت عامه فسبب الأولى المحاسبه على ما فى النفوس وهو من جنس أعمال القلوب وسبب الثانية الاعطاء الواجب وقال {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا {آل عمران 97} ²

و الشريعة طافحة بأن الأفعال المأمور بها مشروطة بالإستطاعة و القدرة كما قال النبي صلى الله عليه و سلم لعمران ابن حصين صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب وقد إتفق المسلمون على أن المصلي إذا عجز عن بعض واجباتها كالقيام أو القراءة أو الركوع أو السجود أو ستر العورة أو استقبال القبلة أو غير ذلك سقط عنه ما عجز عنه و إنما يجب عليه ما إذا أراد فعل إرادة جازمة أمكنه فعله و كذلك الصيام إتفقوا على أنه يسقط بالعجز عن مثل الشيخ الكبير و العجوز الكبير الذين يعجزون عن أداء و قضاء و إنما تنازعوا هل على مثل ذلك الفدية بالإطعام فأوجبها الجمهور كأبى حنيفة و الشافعي و أحمد و لم يوجبها مالك وكذلك الحج فإنهم أجمعوا على أنه لا يجب على العاجز عنه و قد قال تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا {آل عمران 97} و قد تنازعوا هل الإستطاعة مجرد و جود المال كما هو مذهب الشافعي و أحمد أو مجرد القدرة و لو بالبدن كما هو مذهب مالك أو لا بد منهما كمذهب أبى حنيفة و الأولون يوجبون على المغصوب أن يستتیب بماله بخلاف الآخرين بل مما ينبغي أن يعرف أن الإستطاعة الشرعية المشروطة فى الأمر و النهي لم يكتف الشارع فيها بمجرد المكنة و لو مع الضرر بل متى كان العبد قادراً على الفعل مع ضرر يلحقه جعل كالعاجز فى مواضع كثيرة من الشريعة كالتطهر بالماء و

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 318-320 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 460 و درء التعارض ج: 1 ص: 61

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 49

الصيام فى المرض و القيام فى الصلاة و غير ذلك تحقيقا لقوله تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} البقرة 185 و لقوله تعالى {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} الحج 78 و لقوله تعالى {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} المائدة 6 و فى الصحيح عن أنس عن النبى صلى الله عليه و سلم أن الأعرابى لما بال فى المسجد قال لا تزرموه أى لا تقطعوا عليه بوله وإنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين و كذلك فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لمعاذ و أبى موسى حين بعثهما الى اليمن يسرا و لا تعسرا و بشرا و لا تنفرا و تطوعا و لا تختلفا و هذا و أمثاله فى الشريعة أكثر من أن يحصر فمن قال أن الله أمر العباد بما يعجزون عنه إذا أرادوه إرادة جازمة فقد كذب على الله و رسوله و هو من المفترين الذين قال الله فيهم {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} الأعراف 152 قال أبو قلابة هذا لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة لكن مع قوله ذلك فيجب أن تعلم أنه لا حول و لا قوة إلا بالله و أنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و أن الله خالق كل شيء فهو خالق العباد و قدرتهم و إرادتهم و أفعالهم فهو رب كل شيء و مليكه لا يكون شيء إلا بمشيئته و إذنه و قضائه و قدره و قدرته و فعله و قد جاءت الإرادة فى كتاب الله على نوعين أحدهما الإرادة الدينية كما قال تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} البقرة 185 {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ} النساء 26 إلى قوله تعالى {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} 27 {النساء 27} و قال تعالى {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} المائدة 6 و الثانى الإرادة الكونية كما قال تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ} الأنعام 125 و قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} البقرة 253 و قال نوح {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} هود 34 و قال {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82 و هذا التقسيم تقسيم شريف و هو أيضا و أورد فى كتاب الله فى الاذن و الأمر و الكلمات و التحريم و الحكم و القضاء كما قد بيناه فى غير هذا الموضوع و بمعرفته تندفع شبهات عظيمة و من مواقع الشبهة و مثارات الغلط تنازع الناس فى القدرة هل يجب أن تكون مقارنة للفعل أو يجب أن تكون متقدمة عليه و التحقيق الذى عليه أئمة الفقهاء أن الإستطاعة المشروطة فى الأمر و النهي و هي التى تقدم الكلام فيها لا يجب أن تقارن الفعل فإن الله إنما أوجب الحج على من إستطاعه فمن لم يحج من هؤلاء كان عاصيا باتفاق المسلمين و لم يوجد فى حقه إستطاعة مقارنة و كذلك سائر من عصى الله من المأمورين المنهيين و جد فى حقه الإستطاعة المشروطة فى الأمر و النهي و أما المقارنة وإنما توجد فى حق من فعل و الفاعل لا بد أن يريد الفعل إرادة جازمة و أن يكون قادرا عليه و إذا وجد ذلك فى حقه و جب و جود الفعل فمن قال الإستطاعة هي المقارنة فهي مجموع ما يجب من الفعل و يدخل فى ذلك الإرادة و غيرها و على هذا الإصطلاح يقال إذا لم يرد الفعل فليس بقادر عليه و قد تبين أن النزاع لفظي فمن فسر عدم القدرة بذلك ظهر مقصوده فإذا حقق الأمر و قيل هل يكون العبد إذا أراد ما أمر به إرادة

جازمة عاجزا عنه تبين الحق و ظهر لكل أحد أنه إذا أراد ما أمر به لم يكن عاجز بل قادرا عليه و أن ما كان عاجزا عنه إذا أرادَه فإن الله لم يكلفه إياه فإن الله لا يكلف نفسا إلا و سعتها أي ماوسعته النفس و يجب أن يعلم العبد أن عمله من الحسنات هو بفضل الله و رحمته و من نعمته كما قال أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} {الأعراف 43¹

كيف يكون العبد مختارا لأفعاله وهو مجبور عليها ؟ ؟ ؟

اما قول القائل كيف يكون العبد مختارا لأفعاله وهو مجبور عليها انما يتوجه على الجهمية الذين يقولون باطلاق الجبر ونفى قدرة العبد واختياره وتأثير قدرته فى الفعل وقد بينا ان اطلاق الجبر مما انكره السنة كالاوزاعي والزبيدي وعبد الرحمن بن مهدي واحمد بن حنبل وغيرهم وما علمت احدا من الائمة اطلقه بل ما علمت احدا من الصحابة والتابعين لهم باحسان اطلقوه فى مسائل القدرة والجبر ولا قال احد من ائمة المسلمين لا الائمة الاربعة ولا غيرهم لا مالك ولا ابو حنيفة ولا الشافعي ولا احمد بن حنبل ولا الاوزاعي ولا الثورى ولا الليث ولا امثال هؤلاء ان الله يكلف العباد ما لا يطيقونه ولا قال احد منهم ان العبد ليس بفاعل لفعله حقيقة بل هو فاعل مجازا ولا قال احد منهم ان قدرة العبد لا تأثير لها فى فعله او لا تأثير لها فى كسبه ولا قال احد منهم ان العبد لا يكون قادرا الا حين الفعل وان الاستطاعة على الفعل لا تكون الا معه وان العبد لا استطاعة له على الفعل قبل ان يفعله بل نصوصهم مستفيضة بما دل عليه الكتاب والسنة من اثبات استطاعة لغير الفاعل كقوله تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 وقوله تعالى {فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتْنَيْنِ مِسْكِينًا} {المجادلة 4} وقول النبی صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فان لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب واتفقوا على ان العبادات لا تجب الا على مستطيع وان المستطيع يكون مستطيعا مع معصيته وعدم فعله كمن استطاع ما امر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج ولم يفعله فانه مستطيع باتفاق سلف الامة وائمتها وهو مستحق للعقاب على ترك الأمور الذى استطاعه ولم يفعله لا على ترك ما لم يستطعه وصرحوا بما صرح به ابو حنيفة وابو العباس بن سريج وغيرهما من ان الاستطاعة المتقدمة على الفعل تصلح للضدين وان كان العبد حين الفعل مستطيعا ايضا عندهم فهو مستطيع عندهم قبل الفعل ومع الفعل وهو حين الفعل لا يمكنه ان يكون فاعلا تاركا فلا يقولون ان الاستطاعة لا تكون الا قبل الفعل كقوله المعتزلة ولا بأنها لا تكون الا مع الفعل كقوله المجبرة بل يكون مستطيعا قبل الفعل وحين الفعل وأما قوله العلماء قد صرحوا بأن العبد يفعلها قسرا يقال له لم يصرح بهذا احد من علماء السلف وائمة الاسلام المشهورين ولا احد من اكابر اتباع الائمة الأربعة وإنما يصرح بهذا

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 438-442

بعض المتأخرين الذين سلكوا مسلك جهم ومن وافقه وليس هو لاهل علماء السنة بل ولا جمهورهم ولا ائمتهم بل هم عند ائمة السلف من اهل البدع المنكرة¹

قوله تعالى {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} هل المراد به أمنه عند الموت من الكفر عند عرض الأديان أم المراد به إذا أحدث حدثا لا يقتص منه ما دام في الحرم

؟

التفسير المعروف في أن الله جعل الحرم بلدا آمنا قدرا و شرعا فكانوا في الجاهلية يسفك بعضهم دماء بعض خارج الحرم فاذا دخلوا الحرم أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجروا حرمة ففي الاسلام كذلك و أشد لكن لو أصاب الرجل حدا خارج الحرم ثم لجأ اليه فهل يكون آمنا لا يقام عليه الحد فيه أم لا فيه نزاع و اكثر السلف على أنه يكون آمنا كما نقل عن ابن عمر و ابن عباس و غيرهما و هو مذهب أبي حنيفة و الامام أحمد بن حنبل و غيرهما وقد استدلوا بهذه الآية و بقول النبي صلى الله عليه و سلم ان الله حرم مكة يوم خلق الله السموات و الأرض و انها لم تحل لأحد قبلي و لا تحل لأحد بعدي و إنما أحلت لي ساعة من نهار و قد عادت حرمتها فان أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه و سلم فقولوا إنما أحلها الله لرسوله و لم يحلها لك و معلوم أن الرسول إنما أبيع له فيها دم من كان مباحا في الحل و قد بين ان ذلك أبيع له دون غيره و المراد بقوله {وَمَنْ دَخَلَهُ} آل عمران 97 الحرم كله و أما عرض الأديان وقت الموت فيبتلى به بعض الناس دون بعض و من لم يحج خيف عليه الموت على غير الاسلام كما جاء في الحديث من ملك زادا و راحلة تبلغه الى بيت الله ثم لم يحج فليمت ان شاء يهوديا أو نصرانيا و الله أعلم²

" الأعمال بخواتيمها "

أما عرض الأديان على العبد وقت الموت فليس هو أمرا عاما لكل أحد ولا هو أيضا منتفيا عن كل أحد بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته ومنهم من لا تعرض عليه وقد وقع لأقوام وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ منها في صلاتنا منها ما في الحديث الصحيح أمرنا النبي أن نستعيذ في صلاتنا من أربع من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال ولكن وقت الموت أحرص ما يكون الشيطان على إغواء بني آدم لأنه وقت الحاجة وقد قال النبي في الحديث الصحيح الأعمال بخواتيمها وقال إن

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 479-480

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 201-202

العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ولهذا روى أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت يقول لأعوانه دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبداً وحكاية عبدالله بن أحمد بن حنبل مع أبيه وهو يقول لا بعد لا بعد مشهورة ولهذا يقال إن من لم يحج يخاف عليه من ذلك لما روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ملك زاد أو راحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا قال الله تعالى **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** آل عمران 97 قال عكرمة لما نزلت هذه الآية **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** آل عمران 85 قالت اليهود والنصارى نحن مسلمون فقال الله لهم **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}** آل عمران 97 فقالوا لا نحجه فقال الله تعالى **{وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** آل عمران 97¹

الواجب بأصل الشرع الحج مرة واحدة

أنهما إنما يجبان مرة في العمر بإيجاب الشرع فأما إيجاب المرء على نفسه فيجب في الذمة بالندى ويجب القضاء لما لم يتمه كما يذكر إن شاء الله تعالى ويجب إتمامها بعد الشروع وقد أجمعت الأمة على أن الواجب بأصل الشرع مرة واحدة والأصل في ذلك ما روى أبو هريرة رضى الله عنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يأيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل أكل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم رواه أحمد ومسلم والنسائي وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس كتب عليكم الحج فقام الأقرع بن حابس فقال أفي كل عام يا رسول الله فقال لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها الحج مرة فمن زاد فهو تطوع رواه أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجه ولفظهما أن الأقرع ابن حابس سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الحج في كل سنة أو مرة واحدة قال بل مرة واحدة فمن زاد فهو تطوع وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال لما نزلت **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}** آل عمران 97 قال المؤمنون يا رسول الله أفي كل عام مرتين فسكت ثم قالوا يا رسول الله أفي كل عام مرتين فقال لا ولو قلت نعم لوجبت فأنزل الله عز وجل **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ}** المائدة 101 رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال غريب من هذا الوجه سمعت محمدا يقول أبو البخترى لم يدرك عليا وقد احتج به أحمد وعن قتادة قال

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 256

ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فقال رجل من أهل البادية يا نبي الله أكل عام فسكت عنه نبي الله صلى الله عليه وسلم ثم قال يا نبي الله أكل عام فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لكفرتم ولما استطعتم فإذا أمرتكم بأمر فاتبعوه وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه فإنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم على أنبيائهم وكثرة سؤالهم ألا وإنما هي حجة وعمرة فمن قضاها فقد قضى الفريضة فما أصاب بعد ذلك فهو تطوع رواه سعيد بن أبي عروبة في مناسكه عنه 1هـ

لا يجب الحج على الكافر

وقد منع الله سبحانه المشركين من اليهود والنصارى وغيرهم من سكني جزيرة العرب مبالغة في نفيهم عن مجاورة البيت ومن عرف بالكفر ثم حج بحكم بإسلامه في أصح الوجهين فأما وجوبه عليهم بمعنى أنهم يؤمرون به بشرطه وأن الله يعاقبهم على تركه فهو ظاهر المذهب عندنا لأن الله تعالى قال {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 فهم ولم يخص وروى أحمد عن عكرمة قال لما نزلت {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 قالت اليهود فنحن المسلمون فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 فحجوا فأبو فأنزل الله {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران 97 من أهل الملل وفي رواية لما نزلت {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} آل عمران 85 قالت الملل فنحن المسلمون فأنزل الله تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران 97 فحج المسلمون وقعد الكفار ولا يجب على الكافر سواء كان أصلياً أو مرتداً في أقوى الروايتين فلو ملك في حال كفره زادا وراحلة ثم أسلم وهو معدم فلا شيء عليه لقوله تعالى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} الأنفال 38 وأما إذا وجب على المسلم فلم يفعله حتى ارتد ثم أسلم فهو باق في ذمته سواء كان قادراً أو عاجزاً في المشهور من المذهب وإن حج ثم ارتد ثم أسلم فهل عليه أن يحج على روايتين إحداهما عليه أن يحج نص عليه في رواية ابن منصور وهذا اختيار القاضي والثانية لا حج عليه ولا يصح الحج من كافر فلو أحرم وهو كافر لم ينعقد إحرامه ولو ارتد بعد الإحرام بطل إحرامه²

الوجوب يعتمد كمال الفاعل

¹شرح العمدة ج: 2 ص: 109-112

²شرح العمدة ج: 2 ص: 114-117

أن الحج لا يجب إلا على حر كامل الحرية فأما العبد القن والمعتق بعضه والمكاتب والمدبر وأم الولد فلا يجب عليهم الحج لأنها عبادة يتعلق وجوبها بملك المال والعبد لا مال له فلم يجب عليه شيء كالزكاة ولأنها عبادة تفنقر إلى قطع المسافة البعيدة فلم تجب على العبد كالجهد وهذا لأن الحج عبادة تطول مدتها وتتعلق بقطع مسافة وتحتاج إلى مال والعبد مشغول بحقوق سيده ففي الإيجاب عليه إبطال لحق سيده وهذه الطريقة مستقيمة إذا لم يأذن له السيد وفيها نظر ولأن العبد ناقص بالرق وقد أجمع عليه حق الله تعالى وحق لسيده فلو وجب عليه ما يجب على الحر لشق عليه أو عجز عنه والحج كمال الدين وآخر الفرائض ولهذا قال تعالى لما وقف النبي صلى الله عليه وسلم بعرفة {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} المائدة: 3 فلا يجب إلا على كامل مطلق والعبد ناقص الأحكام أسير لغيره أن الحج إنما يجب على من استطاع إليه سبيلاً بنص القران والسنة المستفيضة وإجماع المسلمين ومعنى قوله {استطاع إليه سبيلاً} آل عمران: 97 واستطاعة السبيل عند أبي عبد الله وأصحابه ملك الزاد والراحلة فمناط الوجوب وجود المال فمن وجد المال وجب عليه الحج بنفسه أو بنائبه ومن لم يجد المال لم يجب عليه الحج وإن كان قادراً ببذنه قال في رواية صالح إذا وجد الرجل الزاد والراحلة وجب الحج وسئل أيضاً في رواية أبي داود على من يجب الحج فقال إذا وجد زادا وراحلة وقال في رواية حنبل وليس على الرجل الحج إلا أن يجد الزاد والراحلة فإن حج راجلاً تجزيه من حجة الإسلام ويكون قد تطوع بنفسه وذلك لما روى إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما يوجب الحج قال الزاد والراحلة قال يا رسول الله فما الحاج قال الشعث التفل وقام آخر فقال يا رسول الله ما الحج قال العج والشج قال وكيع يعني بالعج العجيج بالتلبية والشج نحر البدن رواه ابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن وإبراهيم بن يزيد قد تكلم فيه بعض أهل الحديث من قبل حفظه وعن ابن جريج قال وأخبرني أن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الزاد والراحلة يعني قوله {مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران: 97 سبيلاً رواه ابن ماجة وعن أنس قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم ما السبيل إليه قال الزاد والراحلة رواه ابن مردويه والدارقطني من طرق متعددة لا بأس ببعضها وروى هذا المعنى من حديث ابن مسعود وعائشة وجابر وغيرهم وعن الحسن قال لما نزلت {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران: 97 قال قيل يا رسول الله ما السبيل قال الزاد والراحلة رواه أحمد وأبو داود في مراسيلة وغيرهما وهو صحيح عن الحسن وقد أفتى به وهذا يدل على ثوبته عنده واحتج به أحمد وعن ابن عباس قال من ملك ثلاثمائة درهم وجب عليه الحج وحرم عليه نكاح الإماء رواه أحمد وإيضاً قوله من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً فهذه الأحاديث مسندة من طرق حسان ومرسلة وموقوفة تدل على أن مناط الوجوب وجود الزاد والراحلة مع علم النبي صلى الله عليه وسلم بأن كثيراً من الناس يقدر على المشي وأيضاً فإن قول الله سبحانه في الحج {مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران: 97 إما أ

يعني به القدرة المعتبرة في جميع العبادات وهو مطلق المكنة أو قدرا زائدا على ذلك فإن كان المعترف هو الأول لم يحتج إلى هذا التقييد كما لم يحتج إليه في آية الصوم والصلاة فعلم أن المعترف قدر زائد على ذلك وليس هو إلا المال وأيضا فإن الحج عبادة تفتقر إلى مسافة فافتقر وجوبها إلى ملك الزاد والراحلة كالجهد ودليل الأصل قوله تعالى {وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ} التوبة 91 إلى قوله تعالى {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ} التوبة 92 الآية وأيضا فإن المشي في المسافة البعيدة مظنة المشقة العظيمة الثاني إنه لا يجب عليه فيما ذكره أصحابنا حتى يملك الزاد والراحلة أو ثمنهما فأما إن كان قادرا على تحصيله بصنعة أو قبول هبة أو وصية أو مسألة أو أخذ من صدقة أو بيت المال لم يجب عليه ذلك سواء قدر على ذلك في مصره أو في طريق مكة لما تقدم من قوله يوجب الحج الزاد والراحلة يعني وجودهما وقوله من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله فعلق الوعيد بملك الزاد والراحلة ولأن الزاد والراحلة شرط الوجوب وما كان شرطا للوجوب لم يجب على الكلف تحصيله لأن الوجوب منتف عند عدمه ولأن كل عبادة اعتبر فيها المال فإن المعترف ملكه لا القدرة على ملكه أصله العتق والهدي في الكفارات وثمان الماء والسترة في الصلاة وينبني على ذلك أنه إذا بذل له ابنه أو غيره مالا يحج به أو بذل له ابنه أو غيره طاعته في الحج عنه وكان المبذول له معضوبا أو غير معضوب لم يلزمه عند أكثر أصحابنا مثل ابن حامد والقاضي وأصحابه وهو مقتضى كلام أحمد فإنه علق الوجوب بوجود الزاد والراحلة وقال القاضي أبو يعلى الصغير ابن القاضي أبي حازم بن القاضي أبي يعلى قياس المذهب أن الاستطاعة تثبت ببذل الابن الطاعة أو المال ولا تثبت ببذل غيره المال وهل تثبت ببذل غيره الطاعة خرجها على وجهين لأن من أصلنا أن الاستطاعة على ضربين تارة بنفسه وتارة بنائبه والمال الذي يأخذه النائب ليس أجرة عندنا في أشهر الروايتين وإنما هو نفقة فيكون قد بذل عمله للمستتيب وقد قال أحمد في رواية حنبل لا يعجبني أن يأخذ دراهم فيحج بها إلا أن يكون الرجل مبرعا بحج عن أبيه عن أمه عن أخيه قال النبي صلى الله عليه وسلم للذي سأله إن أبي شيخ كبير لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه قال نعم والذي يأخذ دراهم الحج لا يمشي ولا يقتر ولا يسرف إنما الحج عن من له زاد وراحلة ولا يسرف ولا يقتر ولا يمشي إذا كان ورثته صغارا وقال في رواية أبي طالب إذا كان شيخ كبير لا يستمسك على الراحلة يحج عنه وليه فقد بين أن النائب متبرع بعمله عن الميت مع أن الحج واجب على الميت وأيضا من أصلنا أن مال الابن مباح لأبن مباح للأب يأخذ منه ما شاء مع عدم الحاجة فإذا بذل له الابن فقد يؤكد الأخذ وقول أحمد إذا وجد الزاد والراحلة يجوز أن يراد بالموجود المملوك والمباح لقوله تعالى {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً} النساء 43 ولعل كلامه فيمن يجب عليه الحج بنفسه قال القاضي أبو يعلى وأصله هذا أن الاستطاعة تحصل بالمال المباح كما تحصل بالمال المملوك قال ولو بذل له الرقبة في الكفارة لم يجز له الصيام فعلى هذا لو وجد كنزا عاديا ونحوه وجب عليه أن يأخذ منه ما يحج به ولو عرض عليه السلطان حقه من بيت المال ولو لم يبذل له الابن فهل يجب عليه أن يأخذ من ماله ما يحج فإن الجواز لا شك فيه عندنا وذلك لما روى

عبد الله بن عباس عن الفضل بن عباس أن امرأة من خثعم قالت يا رسول الله إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم فحجي عنه رواه الجماعة إلا أبا داود والترمذي وهو وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال وقف النبي صلى الله عليه وسلم بعرفة وذكر الحديث إلى أن قال ثم أتته امرأة شابهة من خثعم فقالت إن أبي شيخ كبير قد أفند وقد أدركته فريضة الله في الحج فهل يجزى أن أحج عنه قال نعم فأدى عن أبيك قال ولوى عنق الفضل فقال له العباس يا رسول الله مالك لويت عنق ابن عمك قال رأيت شابا وشابة فخفت الشيطان عليهما وفي لفظ فهل يجزى عنه أن أودى عنه قال نعم فأدى عن أبيك وفي لفظ إن أبي كبير وقد أفند وأدركته فريضة الله في الحج ولا يستطيع أداءها فيجزي عنه أن أوديتها قال نعم رواه في حديث طويل أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح لا نعرفه من حديث علي إلا من هذا الوجه وقد روى بعض الحديث الطويل أبو داود وابن ماجه وقد تقدم أيضا حديث أبي رزين العقيلي لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الطعن فقال حج عن أبيك واعتمر رواه الخمسة وصححه الترمذي وقد احتج به أحمد وغيره على وجوب العمرة وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال جاء رجل من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل والحج مكتوب عليه فأحج عنه قال أنت أكبر ولده قال نعم قال رأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه أكان ذلك يجزى عنه قال نعم قال فحج عنه رواه أحمد والنسائي فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء السؤال على أن المعضوب عليه فريضة الله في الحج وأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بفعلها عنه وشبهها بالدين ولم يستفصل هل له مال يحج به أو ليس له مال وترك الإستفصال دليل على عموم الجواب لاسيما والأصل عدم المال بل أوجب الحج بمجرد بذل الولد أن يحج فدل ذلك على أن بذل الابن موجب وإنما أقرها النبي صلى الله عليه وسلم على الأخبار بفرض الحج على المعضوب لما رأى الولد قد بذل الحج وأيضا فإن الإستطاعة تحصل بالمباح كما تحصل بالمملوك ويحصل به الوجوب كما يحصل بالمملوك بدليل أن الوضوء يجب بالماء المبدول والمباح والصلاة تجب في السترة المعارة فيجب أن يحصل الحج أيضا بالاستطاعة المبدولة من مال أو عمل نعم ما عليه فيه منه لا يبذل بذلا مطلقا لكن الغالب أنه لا بد أن يطلب منه باذله نوع عوض ولو بالثناء أو الدعاء ويحصل عليه به منة فلا يجب عليه قبوله كما لو بذلت السترة ملكا أو بذل له أجنبي ما لا يحج به أو يكفر به وبذل الابن ليس فيه منة ولا عوض بل هو من كسبه وعمله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه وقال أنت ومالك لأبيك وكذلك دعاء الابن بعد موته من جملة عمله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له فكيف لا يجب عليه أن يحج مع بذل الابن له ذلك ولا مؤنة عليه فيه أصلا وطرده هذا أنه يجب على الأب أن يقبل من مال ابنه ما يؤدي به دينه بل ينبغي أن يكون هذا مسلما بلا خلاف لأن النبي صلى الله عليه وسلم شبهه بالدين فعلى هذا يشترط في البازل ووجه

الأول أن الله سبحانه قال { وَنَبَّأَهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 وقد
فسر النبي صلى الله عليه وسلم السبيل بأنه الزاد والراحلة وفي لفظ سئل ما يوجب الحج قال الزاد
والراحلة وفي لفظ من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله تعالى ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن
شاء نصرانيا فعلم بذلك أن الحج لا يوجبه إلا ملك الزاد والراحلة فإن قيل قوله ما يوجب الحج يعني
حج المرء بنفسه ولم يتعرض لحج غيره عنه ولم يفرق في الزاد والراحلة بين أن تكون مملوكة أو
مباحة وإنما قال الزاد والراحلة أي وجود ذلك يعم ما وجد مباحا ومملوكا بدليل قوله في آية الوضوء
{ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً } النساء 43 وأيضا فإن الإستطاعة صفة المستطيع فلا بد أن يكون قادرا على
الحج وهو لا يصير قادرا ببذل غيره لجواز أن يرجع البازل وذلك أن شرط وجوب العبادة لا بد أن
يستمر إلى حين انقضائها فإن أوجب على البازل التزام ما بذل صار الوعد فرضا وإن لم يجب فكيف
يجب فرع لم يجب أصله وأيضا فإن في إيجاب قبول بذل الغير عليه ضررا عليه لأن ذلك قد
يفضي إلى المنة عليه وطلب العوض منه وإن كا البازل ولدا فإنه قد يقول الولد أنا لا يجب علي أن
أحج عنك ولا أن أعطيك ما تحج به ومن فعل مع غيره من الإحسان مالا يجب عليه فإنه في مظنة أن
يمن به عليه وايضا وأما حديث الخثعمية وأبي رزين ونحوهما فهو صريح بأن الوجوب كان قد
ثبت واستقر قبل استفتاء النبي صلى الله عليه وسلم واستفتاؤه متقدم على بذل الولد الطاعة في الحج
لأنهم لم يكونوا يعلمون أن الحج يجزىء عن العاجز حتى استفتوا النبي صلى الله عليه وسلم فكيف
يبذلون الحج عن الغير وهم لا يعلمون جواز ذلك فإذا كانوا إنما بذلوا الحج عن الوالد بعد الفتوى
والوجوب متقدم على الفتوى علم أن هذا البذل لم يكن هو الموجب للحج ولا شرط في وجوبه لأن
الشرط لا يتأخر عن حكمه وصار هذا كما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة
جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها
قال نعم حجي عنها أرايت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته اقضوا الله فالله أحق بالوفاء رواه
البخاري وكذلك حديث بريدة في التي قالت للنبي صلى الله عليه وسلم إن أمي كان عليها صوم شهر
أفأصوم عنها قال صومي عنها قالت إنها لم تحج قط أفأحج عنها قال حجي عنها رواه مسلم إلى غير
ذلك وشبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالدين ولم يكن البذل هو المقرر للوجوب وأيضا فإن القوم
إنما سألوه عن أجزاء الحج عن المعضوب وعنه وقع الجواب ولم يتعرض للوجوب بنفي ولا إثبات
وباتفاق لا يجب على البازل أن يحج ونحن إنما استدللنا بحديث أبي رزين على وجوب العمرة لأنه
استفتى النبي صلى الله عليه وسلم عن أداء ما وجب على أبيه لتبراً ذمة الأب فأمره أن يحج عنه
ويعتمر فعلم أن كلاهما كان واجبا على الأب وإلا لم يحتج أن يأمره به كما لم يأمره بتكرار الحج
والطواف فعند هذا يكون قول السائل عليه فريضة الله في الحج إذا أدركته فريضة الله ونحو ذلك كان
لملكه الزاد والراحلة وقد بلغ هؤلاء أن من ملك الزاد والراحلة فعليه فريضة الله في الحج ولم يعلموا
حكم العاجز عن الركوب أيسقط عنه أم يتجشم المشاق وإن أضر به وهلك في الطريق أم يستخلف من
يحج عنه ولهذا جازمت السائلة فقالت إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وقال الآخر أدركه

الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرجل والحج مكتوب عليه ولن يقول هذا إلا من قد علم أنه مكتوب عليه وواجب فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالحج عن الآباء ولم يستفصلهم هل ملكوا مالا أم لا لوجهين أحدهما أنهم إنما سألوه عن جواز النيابة وأسقاطها فرض حجة الإسلام وهذا لا يختلف الحال فيه بين الواحد والمعدم فلم يكن للإستفصال وجه وكل معضوب إذا حج عنه غيره بإذنه أسقط عنه الفرض حتى لو ملك بعد هذا مالا لم يجب عليه حجة أخرى وشبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالدين في جواز الأداء عن الغير فإن من عليه دين وهو قادر على وفائه من ماله أو عاجز عنه إذا أداه غيره عنه بإذنه جاز كذلك الحج والثاني أن يكون قد علم أن الحج وجب على الآباء بملك المال إما بعلمه صلى الله عليه وسلم بأن أماكن أولئك السؤال قريبة وأن غالب العرب لا يعدم أحدهم بعيرا يركبه وزادا يبلغه أو لأنه رأى جزم السائلين بالوجوب مخصصين لهؤلاء من دون غيرهم من المسلمين فعلم أنهم إنما جزموا لوجود المال الذي تقدم بيانه أنه هو السبيل أو لغير ذلك من الأسباب ويجوز أن يكون السؤال عنوا بقوله أدركته فريضة الله في الحج وعليه فريضة الله في الحج والحج مكتوب عليه الوجوب العام وهو أن الحج أحد أركان الإسلام وقد أوجب الله سبحانه على كل مسلم حر عاقل بالغ وهو مخاطب به سواء كان قادرا أو عاجزا ولهذا لو فعله أو فعل عنه أجزاء ذلك من حجة الإسلام وإنما سقط عن غير المستطيع السير للعدر لا لكونه ليس من أهل الوجوب بخلاف الصبي والعبد والمجنون فإنهم ليسوا من أهل الوجوب ولهذا يفرق في الجمعه والحج وغيرهما بين أهل الأعدار في كونهم من أهل وجوب هذه العبادة وإنما سقط عنهم السعي إليها للمشقة والعدر ولهذا إذا حضروا وجبت عليهم وانعدت بهم وبين العبد والمسافر والمرأة ونحوهم في كونهم ليسوا من أهل الوجوب ولهذا إذا حضروا لم تجب عليهم ولا تنعقد بهم وسبب الفرق بين القسمين أن الوجوب يعتمد كمال الفاعل الذي به يستعد لحمل الأمانة ويعتمد إمكان الفعل الذي به يمكن أدائها فإذا لم يكن الإنسان من أهل الكمال لنقص عقله أو سنه أو حرته ونحو ذلك لم يخاطب بذلك الوجوب أصلا وليس عليه أن ينظر هل يفعل أو لا يفعل ولو فعل لم يحصل به المقصود وإذا كان كاملا تأهل للخطاب وكان عليه أن يعزم على الأداء إذا قدر وأن ينظر في نفسه هل هو قادر أو عاجز ولو تجشم وفعل لحصل المقصود فالمعضوب من هذا القسم فقول السائل أدركته فريضة الله في الحج يجوز أن يعني به أنه حر عاقل بالغ من أهل الوجوب لكن هو عاجز عن الأداء فإن إستتاب فهل يقوم فعل النائب مقام فعله بحيث يكون بمنزلة من فعل أم لا يصح ذلك فيبقى غير فاعل وهذه طريقة مشهورة في الكلام¹

وكذلك ذكر ابن أبي موسى السبيل في الطريق السالكه والزاد والراحلة المبلغان إلى مكة وإلى العود إلى منزله مع نفقة عياله لمدة سفره ولم يعتبر وجود ما ينفقه بعد الرجوع وهذا محمول على من له قوة على الكسب لأن أحمد وابن أبي موسى صرحا بأنه لا يلزمه بيع المنازل التي يؤجرها

¹ شرح العمدة ج: 2 ص: 123-143

لكفايته وكفاية عياله وإنما يبيع ما يفضل عن كفايته وكفاية عياله ولا بد أن يترك لعائلته الذين تجب عليه نفقتهم ما يكفيهم مدة ذهابه ورجوعه لأن وجوب النفقة أكد ولهذا يتعلق بالكسب بخلاف الحج ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت رواه أبو داود¹

" تعجلوا إلى الحج يعني الفريضة فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له "

ومتى ملك الزاد والراحلة وجب عليه أن يحج على الفور فإن أخره بعد ذلك عصى بذلك هذا هو المشهور في المذهب الذي عليه جمهور أصحابنا مثل أبي بكر وابن حامد وغيرهم وقد نص أحمد في رواية عبد الله وابن إبراهيم فيمن استطاع الحج وكان مؤسراً ولم يحبسه علة ولا سبب لم تجز شهادته وقال إنه لا تقبل شهادة من كان مؤسراً قد وجب عليه الحج ولم يحج إلا أن يكون به زمانة أو أمر يحبسه ولم يفرق بين أن يكون عازماً على فعله أو غير عازم ولم يأمر الحاكم بالإستفصال وقال ابن أبي موسى اختلف أصحابنا في الحج هل هو على الفور أو على التراخي على وجهين أصحهما أنه على الفور على من وجد السبيل إليه وهو بين في كلام أحمد رضي الله عنه ولأن أحمد أوجب أن نخرج عن الميت من حيث يجب عليه وإن مات أبعد منه أو أقرب ولو كان الوجوب في غير وطنه وذكر القاضي أبو الحسين في المسألة روايتين إحداهما أنه على التراخي ذكرها ابن حامد وكذلك ذكر ابن أخيه لأنه قال وإذا وجد الزاد والراحلة وجب الحج عليه وقال ولا تقبل شهادة من كان مؤسراً قد وجب الحج عليه ولم يحج إلا أن يكون به زمانة أو أمر يحبسه وهو قياس على سائر العبادات المؤقتة وذكر القاضي أبو يعلى الصغير في المسألة روايتين إحداهما أن وجوبه على التراخي واختار ذلك لأن فريضة الحج نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة خمس أو ست لأن ذكر الحج في حديث ضمام بن ثعلبة وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة خمس ولأن الله تعالى قال {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} البقرة 196 فأمر بإتمامهما وذلك يقتضي وجوب فعلهما تامين ووجوب إتمامهما بعد الشروع فيهما كما أن قوله تعالى {ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} البقرة 187 يقتضي ذلك لأن حقيقة الإتمام فعل الشيء تاماً وذلك أعم من أن يبدأ ثم يتم أو أن يعمل بعد الإبتداء ولو لم يكن الأمر بإتمامهما إلا للدخل فيهما فإنما يجب الإتمام لما كان واجبا بأصل الشرع أما أن يكون إتمام العبادة واجبا أو جنسها ليس واجبا بالشرع بل العبادات اللواتي يجب جنسهن في الشرع لا يجب إتمامهن فهذا بعيد وهذه الآية نزلت عام الحديبية سنة ست من الهجرة بإجماع أهل التفسير وإيضاً فإن الله فرض الحج على لسان إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} الحج 27 وشرع من قبلنا شرع لنا لا سيما شرع إبراهيم فإننا مأمورون باتباع ملته بقوله تعالى

¹ شرح العمدة ج: 2 ص: 153-154

{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل 123 وبقوله {وَمَنْ يَرْغَبْ
عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
{البقرة 130 وقوله {وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ} البقرة 135 وقد فسر جماعة من السلف الحنيف بالحاج وقوله {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} آل عمران 95 وبقوله {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
فَاتَّمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً} البقرة 124 وبقوله تعالى {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً
وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل 120 وبقوله تعالى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا
جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} الحج 78 في اخر سورة الحج والمناسك وقوله
تعالى {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} آل
عمران 68 خصوصا حرمة الكعبة وحجها فإن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث بتغيير ذلك وإنما
بعث بتقريره وتثبيتته وإحياء مشاعر إبراهيم عليه السلام وقد اقتصر الله علينا أمر الكعبة وذكر بنائها
وحجها واستقبالها وملة إبراهيم في أثناء سورة البقرة وذكر أيضا ملة إبراهيم والبيت وأمره وثالث
ذلك في أثناء سورة آل عمران وذكر الحج وأمره وسننه وملة إبراهيم والمناسك والحض عليها
وتثبيت أمرها في سورة الحج وسورة الحج بعضها مكي بلا شك وأكثرها أو باقيها مدني متقدم فلم
بذلك أن إيجاب الحج وفرضه من الأمور المحكمة من ملة إبراهيم فيكون وجوبه من أول الإسلام
وإذا كان وجوبه متقدما وهو صلى الله عليه وسلم فتح مكة في رمضان سنة ثمان وأقام الحج للناس
تلك السنة عتاب بن أسيد أمير رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه
في سنة تسع فأقام للناس الموسم ومعه علي بن أبي طالب بسورة براءة ورجال من المسلمين فلو كان
الحج واجبا على الفور لبادر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فعله وإيضا فإن الله تعالى أوجبه
إيجابا مطلقا وأمر به ولم يخص به زمانا دون زمان فيجب أن يجوز فعله في جميع العمر ومن
قال من أصحابنا قال إن الأمر المطلق لا يقتضي فعل المأمور به على الفور لا سميا والحج هو عبادة
العمر فيجب أن يكون جميع العمر وقتا له كما أن الصلاة لما كانت عبادة وقت مخصوص وقضاء
رمضان لما كان عبادة سنة مخصوصة كان جميع ذلك الزمن وقتا له وإيضا فإنه لو وجب على
الفور لكان فعله بعد ذلك الوقت قضاء كما لو فعل الصلاة بعد خروج الوقت وليس كذلك وإيضا
فإنه إذا أجره وفعله فقد برئت ذمته والأصل براءة الذمة من إثم التأخير فمن ادعاه فعله الدليل
فعلى هذا هل يجب العزم على الفعل لجواز تأخيره وإنما يجوز تأخيره إلى أن تظهر أمارات
العجز ودلائل الموت بحيث يغلب على ظنه أنه إن لم يحج ذلك العام فاته فإن أخره بعد ذلك أثم ومات
عاصيا وإن مات قبل ذلك فهل يكون أثما ذكر أبو يعلى فيه وجهين واختار أنه لا يكون أثما كما لو
مات من عليه الصلاة وقضاء رمضان في أثناء وقتها والأول هو المذهب المعروف لمسلكين
عام وخاص أما العام فهو أن الأمر المطلق يقتضي فعل المأمور به على الفور بل عند أكثر
أصحابنا ليس في الشريعة إلا واجب مؤقت أو واجب على الفور أما واجب يجوز تأخيره مطلقا

فلا يجوز لأنه إن جاز التأخير إلى غير غاية موصوفة بحيث لو مات مات غير عاص بطل معنى الوجوب وإن جاز إلى أن يغلب على ظنه الفوت إن لم يفعل لم يجز لوجهين أحدهما أن هذا القدر غير معلوم ولا مظنون فإن الموت إنما يعلم بأسبابه وإذا نزلت أسباب الموت من المرض الشديد ونحوه تعذر فعل المأمور به وقبل حصول أسبابه فإنه لا يغلب على ظن أحد أنه يموت في هذا العام ولو بلغ تسعين سنة الثاني إنه إن مات قبل هذا الظن غير عاص لزم أن لا يجب الفعل على أكثر الخلق لأن أكثرهم يموتون قبل هذا الظن وإن عصى بذلك فبأي ذنب يعاقب وإنما فعل ما جاز له وما الفرق بينه وبين من مات في أثناء وقت الصلاة وكيف يجوز أن يقال إنما جاز له التأخير بشرط سلامة العاقبة {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّأَدَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} لقمان 34 وأما المسلك الخاص فمن وجوه أحدهما ما روى ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تعجلوا إلى الحج يعني الفريضة فإن أحكم لا يدري ما يعرض له رواه أحمد فأمر بالتعجيل والأمر يقتضي الإيجاب لا سيما واستحباب التعجيل معلوم الضرورة من نفس الأمر بالحج فلم يبق لهذا الأمر الثاني فائدة إلا الإيجاب وتوكيد مضمون الأمر الأول وعن مهرا ن أبي صفوان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد الحج فليتعجل رواه أبو داود وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن الفضل أو أحدهما عن الآخر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد الحج فليتعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتعرض الحاجة رواه أحمد وابن ماجه وفيه أبو إسرائيل الملائي فأمر بالتعجيل كما أمر به في الحديث الأول وأمره بالتعجيل من أراده لا يمنع الوجوب فإن إرادة الواجب واجبة كما قال تعالى {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} التكوير 28 ويجب عليه أن يريده ويعزم عليه حين وجوبه عليه وإنما ذكره والله أعلم وبالإرادة ليبين أنه في الحين الذي يعزم عليه ينبغي أن يفعله لا يؤخره ولا يتأخر فعله عن حين إرادته فإن هذه الإرادة هي التي يخرج بها من حيز الساهي والغافل لا إرادة التخيير بين الفعل والترك لقوله من أراد الجمعة فليغتسل وايضا فإن فعل القضاء من الحج يجب على الفور فإنه لو أفسد الحج أو فاته لزمه الحج من قابل بدليل قوله عليه السلام من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من قابل وهذا لاختلاف فيه فإذا كان القضاء يجب على الفور فإن تجب حجة الإسلام الأداء بطريق الأولى والأحرى وايضا فإن تأخيره إلى العام الثاني تفويت له لأن الحج ليس كغيره من العبادات يفعل في كل وقت وإنما يختص بيوم من السنة فإذا أخره عن ذلك اليوم جاز أن يدرك العام الثاني وجاز أن لا يدركه وأن يموت أو يفتقر أو يمرض أن يعجز أو يحبس أو يقطع عليه الطريق إلى غير ذلك من العوائق والموانع فلا يجوز التأخير إليه وإلى هذا أشار بقوله صلى الله عليه وسلم فإنه قد يمرض المريض وتضل الضالة وتعرض الحاجة وقوله في حديث آخر ينتظر أحكم إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا وايضا فإن من مات قبل الحج فقد لحقه الوعيد وهو ما روى هلال بن عبد الله مولى ربيعة بن عمرو ثنا أبو اسحق الهمداني عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا رواه الترمذي ورواه ابن

بطة وزاد فيه { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } آل عمران 97 وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي إسناده مقال وهلال مجهول والحارث مضعف عضده ما روى شريك عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من لم يحبس مرض أو حاجة ظاهرة أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا رواه ابن المقرئ أبو عروبة ورواه أحمد ثنا وكيع عن سفيان عن ليث عن ابن سابط قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات ولم يحج ولم يمنع من ذلك مرض حابس أو سلطان ظالم أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ورواه سعيد هكذا مرسلا عن أبي الأحوص عن ليث وعن عمر رضي الله عنه قال من كان ذا ميسرة ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا وعن الضحاك بن عزم قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من مات وهو مؤسر لم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا وعن عدي بن عدي قال قال عمر بن الخطاب رحمة الله عليه من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ولولا ما أرى من سرعة الناس في الحج لجبرتهم عليه ولكن إذا وضعت الرحال فشدوا السروج وإذا وضعت السروج فشدوا الرحال وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال من وجد إلى الحج سبيلا سنة ثم سنة ثم سنة ثم مات ولم يحج لم يصل عليه لا ندري مات يهوديا أو نصرانيا وعن إبراهيم قال كان للأسود بن يزيد جار مؤسر لم يحج فقال له لو مت لم أصل عليك رواه سعيد والمرسل إذا اعتضد بقول الصحابي صار حجة بالإتفاق وهذا التخليط يعم من مات قبل أن يغلب على ظنه الفوات وهم أكثر الناس ومن غلب على ظنه ففي تأخيرته تعرض لمثل هذا الوعيد وهذا لا يجوز وإنما لحقه هذا لأن سائر أهل الملل من اليهود والنصارى لا يحجون وإن كانوا قد يصلون وإنما يحج المسلمون خاصة وايضا فإنه إجماع السلف رواه أحمد وسعيد عن هشيم ثنا منصور عن الحسن قال قال عمر بن الخطاب لقد هممت أن أبعث رجلا إلى هذه الأمصار فينظروا كل رجل ذا جدة لم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين وهذا قاله عمر ولم يخالفه مخالف من الصحابة وإنما عزم على ذلك وإن كان تارك الحج إذا كان مسلما لا يضرب عليه الجزية لأنه كان في أول الإسلام الغالب على أهل الأمصار الكفر إلا من أسلم فمن لم يحج أبقاها على الكفر الأصلي فضرب عليه الجزية ولولا أن وجوبه على الفور لم يجعل تركه شعارا للكفر وقد روي عن الحسن بن محمد قال أبصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوما يعرفه من أهل البحرين عليهم القمص والعمائم فأمر أن تعاد عليهم الجزية رواه سعيد وعن أبي هارون العبدي قال قال عمر حجوا العام فإن تستطيعوا فقابل مرتين أو ثلاثا فمن لم يستطع فقابل فمن لم يفعل فاذنوني أضرب عليهم الجزية رواه سفيان بن عيينة عنه وهذا صريح بأنه على الفور وقد خاطب به عمر الناس ولم يخالفه مخالف وايضا فإن الحج تمام الإسلام لأن الإسلام بني على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ولهذا لما حج النبي صلى الله عليه وسلم أنزل الله قوله تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

{المائدة 3} وكانت شرائع الإسلام تنزل شيئاً فشيئاً فصار الحج كمال الدين وتمام النعمة فإذا لم يحج الرجل لم يكن إسلامه ودينه كاملاً بل يكون ناقصاً ولا يجوز للمسلم أن يترك دينه ناقصاً كما لا يجوز أن يخل بالصلاة والصوم والزكاة بعد وجوبها وأما ما ذكره من أن الحج فرض متقدماً وأخره النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فعنه أجوبة أحدها أنه لا يجوز لمسلم أن يعتقد أن الله أوجب الحج وكتبه ومكث النبي صلى الله عليه وسلم وعامة أصحابه مؤخرين له من غير عائق أصلاً خمس سنين ولا سنة واحدة فإن القوم رضوان الله عليهم كانوا مسارعين في الخيرات وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار يبادرون إلى فعل الصلاة في أول الوقت طلب الفضل والثواب لعلمهم بما في المسابقة من الأجر فكيف يؤخرون الحج بعد وجوبه من غير عذر أصلاً وتأخيره إن لم يكن محرماً فإنه مكروه أو هو خلاف الأحسن والأفضل وتأخر عن مقامات السبق ودرجات المقربين فكيف تطبق الأمة مع نبيها على ترك الأحسن والأفضل لغير عذر أصلاً وأيضاً فقد مات منهم في تلك السنوات خلق كثير لم يحجوا أفترى أولئك لقوا الله عاصين بترك أحد مباني الإسلام ولم ينبههم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ولا قال لهم احذروا تفويته مع أنه من لم يحج خير بين أن يموت يهودياً أو نصرانياً وقد علم بغير ريب أن قبل الفتح لم يحج مسلم وبعد الفتح إنما حج عتاب ابن أسيد على عادة الكفار وهديهم وإنما حج بعض أهل مكة ثم في السنة الثانية أمر النبي صلى الله عليه وسلم بنفي المشركين عن البيت وبأن لا يطوف بالبيت عار وإنما حج من المسلمين نفر قليل ثم إن حج البيت من فروض الكفايات وقد قال ابن عباس لو أن الناس تركوا الحج عاماً واحداً لا يحج أحد ما نظروه بعده رواه سعيد فكيف يتركون المسلمون الحج بعد وجوبه سنة في سنة فإن حج الكفار غير مسقط لهذا الإيجاب وأما قولهم إنه فرض سنة خمس أو ست فقد اختلف الناس في ذلك اختلافاً مشهوراً فقيل سنة خمس وقيل سنة ست وقيل سنة سبع وقيل سنة تسع وقيل سنة عشر فإله أعلم متى فرض غير أنه يجب أن يعلم إما أنه فرض متأخر أو فرض متقدم وكان هناك مانع عام يمنع من فعله وإلا لما أطبق المسلمون على تركه وتأخيره الجواب الثاني أن الأشبه والله أعلم أنه إنما فرض متأخر يدل على ذلك وجوه أحدها أن آية وجوب الحج التي أجمع المسلمون على دلالتها على وجوبه قوله **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}** آل عمران 97 وقد قيل إن هذه الآية إنما نزلت متأخرة سنة تسع أو عشر ويدل على ذلك أنها في سياق مخاطبة أهل الكتاب وتقرير ملة إبراهيم وتنزيهه من اليهودية والنصرانية وصدر سورة آل عمران إنما نزلت لما جاء وفد نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم وناظروه في أمر عيسى بن مريم عليه السلام ووفد نجران إنما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم باخراً وأما قوله **{وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}** البقرة 196 فإنه نزل عام الحديبية سنة ست من الهجرة لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إتمام عمرته التي قد كان أهل بها وفيها بايع المسلمون بيعة الرضوان وفيها قاضي المشركين على الصلح على أن يعتمر من قابل فإنما يتضمن الأمر بالإتمام وليس ذلك مقتضياً للأمر بالابتداء فإن كل شارع في الحج والعمرة مأمور بإتمامها وليس مأموراً بإبتدائها ولا يلزم من وجوب إتمام العبادة وجوب ابتدائها كما

لا يلزم من تأكيد استحباب الإتمام تأكيد استحباب الشروع وأما كون الحج والعمرة من دين إبراهيم عليه السلام فهذا لا شك فيه ولم يزل ذلك قرينة وطاعة من أول الإسلام وجميع آيات القرآن تدل على حسن ذلك واستحبابه وأما وجوبه فلا يعلم أنه كان واجبا في شريعة إبراهيم البتة ولم يكن لإبراهيم عليه السلام شريعة يجب فيها على الناس ويوضح ذلك أنه لم يقل أحد أن الحج كان واجبا من أول الإسلام الوجه الثاني أن أكثر الأحاديث الصحيحة في دعائم الإسلام ليس فيها ذكر الحج مثل حديث وفد عبد القيس لما أمرهم بأمرهم فصل يعملون به ويدعون إليه من وراءهم ويدخلون به الجنة أمرهم بالإيمان بالله وحده وفسره لهم أنه الصلاة والزكاة وصوم رمضان وأن يعطوا من المغنم الخمس ومعلوم أنه لو كان الحج واجبا لم يضمن لهم الجنة إلا به وكذلك الأعرابي الذي جاء من أهل نجر ثائر الرأس الذي قال لا أزيد على هذا ولا أنقص منه إنما ذكر له النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة والزكاة والصوم وكذلك الذي أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم بعمل يدخله الجنة أمره بالتوحيد والصلاة والزكاة وصوم رمضان وقد تقدمت هذه الأحاديث في أول الصيام مع أنه قد ذكر ابن عبد البر أن قدوم وفد عبد القيس كان سنة تسع وأظنه وهما ولعله سنة سبع لأنهم قالوا أن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وهذا إنما يكون قبل فتح مكة وأما ذكر الحج في حديث ضمام بن ثعلبة في بعض طرقه وقد تقدم اختلاف الناس في وفود ضمام وبيننا أن الصواب أنه إنما وفد سنة تسع فيكون الحج إنما فرض سنة تسع وهذا يطابق نزول الآية في تلك السنة وهذا شبيهه بالحق فإن سنة ثمان وما قبلها كانت مكة في أيدي الكفار وقد غيروا شرائع الحج وبدلوا دين إبراهيم عليه السلام ولا يمكن مسلما أن يفعل الحج إلا على الوجه الذي يفعلونه فكيف يفرض الله على عباده المسلمين مالا يمكنهم فعله وإنما كانت الشرائع تنزل شيئا فشيئا كلما قدروا وتيسر عليهم أمروا به الوجه الثالث أن الناس قد اختلفوا في وجوبه والأصل عدم وجوبه في الزمان الذي اختلفوا فيه حتى يجتمعوا عليه لاسيما والذين ذكروا وجوبه إنما تأولوا عليه آية من القرآن أكثر الناس يخالفونهم في تأويلها وليس هناك نقل صحيح عن من يوثق به أنه واجب سنة خمس أو سنة ست الجواب الثالث أنه وإن كان فرض متقدما لكن كانت هناك عوائق تمنع من فعله بل من صحته بالكلية سواء كان واجبا أو غير واجب أظهرها منعا أن الحج قبل حجة الوداع كان يقع في غير حينه لأن أهل الجاهلية كانوا ينسئون النسيء الذي ذكره الله في القرآن حيث يقول {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطُّوْا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} التوبة 37 فكان حجهم قبل حجة الوداع في تلك السنين يقع في غير ذي الحجة روى أحمد بإسناده عن مجاهد في قوله {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} التوبة 37 قال حجوا في ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين فكانوا يحجون في كل سنة في كل شهر عامين حتى وافقت حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة قبل حجة النبي صلى الله عليه وسلم بسنة ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم من قابل في ذي الحجة فلذلك حين يقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض وروى عبد

الرازق عن معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} التوبة 37 قال فرض الله الحج في ذي الحجة وكان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة والمحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذا القعدة وذا الحجة ثم يحجون فيه مرة أخرى ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه فيسمون أحسبه قال المحرم صفر ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ورمضان شوال ثم يسمون ذا القعدة شوالا ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم عادوا لمثل هذه القصة قال فكانوا يحجون في كل شهر عامين حتى وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم حجته التي حج فوافق ذلك ذا الحجة فلذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وكذلك في رواية أخرى عن مجاهد قال هذا في شأن النسبيء لأنه كان ينقص من السنة شهرا وروى سفيان بن عمرو عن طاوس قال الشهر الذي نزع الله من الشيطان المحرم وروى أبو يعلى الموصلي عن إبراهيم في قوله تعالى {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} التوبة 37 قال النسبيء المحرم وروى أحمد عن أبي وائل في قوله عز وجل {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُطَاوُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} التوبة 37 الآية قال كان رجل ينسأ النسبيء من كنانة وكان يجعل المحرم صفر يستحل فيه الغنائم فنزلت {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} التوبة 37 وهذا مما أجمع عليه أهل العلم بالأخبار والتفسير والحديث وفي ذلك نزل قوله {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} التوبة 36 والتي بعدها وعن أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان وذكر الحديث متفق عليه وإذا كان الحج قبل حجة الوداع في تلك السنين باطلا واقعا في غير ميقاته امتنع أن يؤدي فرض الله سبحانه قبل تلك السنة وعلم أن حجة عتاب بن أسيد وحجة أبي بكر إنما كانتا إقامة للموسم الذي يجتمع فيه وفود العرب والناس لينبذ العهود وينفي المشركون ويمنعون من الطواف عراة تأسيسا وتوطئة للحجة التي أكمل الله بها الدين وأتم بها النعمة وأدى بها فرض الله وأقيمت فيها مناسك إبراهيم عليه السلام ولا يجوز أن يقال فقد كان يمكن المسلم أن يحج في غير وقت حج المشركين أما قبل الفتح فلو فعل ذلك أحد لأريق دمه ولمنه من ذلك وصد وكذلك بعد الفتح لأن القوم حديثوا عهد لجاهلية وفي استعطافهم تأليف قلوبهم وتبليغ الرسالة في الموسم ما فيه والذي يبين ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتمر عمرة الحديبية ثم عمرة القضية من العام المقبل ثم عمرة الجعرانة من العام الذي يليه ومعه خلق كثير من المسلمين فقد كان يمكنه أن يحج بدل العمرة فإنه أكمل وأفضل أن يجعل بدل هذه العمرة حجة أو يأمر

أحدا من أصحابه بذلك ولو أنها حجة مستحبة كما أن العمرة مستحبة فلما لم يفعل علم تعذر الحج الذي أذن الله لاختصاصه بوقت دون العمرة وقد ذكروا أيضا من جملة أذاره إختلاط المسلمين بالمشركين وطوافهم بالبيت عراة واستلامهم الأوثان في حجهم وإهلالهم بالشرك حيث يقولون لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكة وما ملك وإفاضتهم من عرفات قبل غروب الشمس ومن جمع بعد طلوعها ووقوف الحمس عشية عرفة بمزدلفة إلى غير ذلك من المنكرات التي لا يمكن الحج معها ولم يمكن تغييرها بعد الفتح إلا في سنة أبي بكر حج من العام المقبل لما زالت ومن الأذار أيضا اشتغاله بأمر الجهاد وغلبة الكفار على أكثر الأرض والحاجة والخوف على نفسه وعلى المدينة من الكفار والمنافقين وأن الله أعلمه أنه لا بد أن يحج قبل الموت وفي بعض هذه الأمور نظر وإن صحت فهي عذر في خصوصه ليست عذرا لجميع المسلمين وأما قولهم وجوب الحج مطلقا قلنا الأمر المطلق عندنا يوجب فعل المأمور به على الفور ولو لم يكن الأمر المطلق يقتضي ذلك فقد بينا من جهة السنة وغيرها ما يقتضي وجوب المبادرة إلى فعل الحج فيكون الأمر به مقيدا وأيضا فإن تأخير الحج تفويت لأنه لا يتمكن من فعله إلا في وقت واحد فيصير كالعبادة المؤقتة من بعض الوجوه وإنما لم يكن فعله بعد ذلك قضاء لأن القضاء هو فعل العبادة بعد خروج وقتها المحدود شرعا حدا يعم المكلفين والحج ليس كذلك وكونه قضاء أو أداء يغير وجوب التقديم ولا جواز التأخير بدليل أن النائم والناسي والحائض والمسافر يأتون بالعبادة بعد خروج الوقت العام المحدود فيكون قضاء مع جواز التأخير أو وجوبه والمزكى يجب عليه أداء الزكاة عقيب الحول ولو أخرها لم يكن قضاء وكذلك القاضي شهر رمضان لو أخر إلى عام ثان أو أخر قضاء الحج إلى عام ثان لم يقل له قضاء القضاء وكذلك من غلب على ظنه تضايق الصلاة أو الحج في وقته فأخره وأخلف ظنه أثم بذلك ولا يكون ما يفعله قضاء وكذلك لو صرح بوجوب الفعل على الفور أو أقام عليه دليل وأخره إلى الوقت الثاني لم يكن قضاء فالحج من هذا الباب¹

القدرة الشرعية

ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم فإنه إذا كان يعمل في الصحة والإقامة عملا ثم لم يتركه إلا لمرض أو سفر ثبت أنه إنما ترك لوجود العجز والمشقة لا لضعف النية وقتورها فكان له من الإرادة الجازمة التي لم يتخلف عنها الفعل إلا لضعف القدرة ما للعامل والمسافر وإن كان قادرا مع مشقة كذلك بعض المرض إلا أن القدرة الشرعية هي التي يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة كما في قوله تعالى {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَنَحْنُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِّنْ

¹ شرح العمدة ج: 2 ص: 198-229

النفس الذي يجب عليه القصاص جعله أخا وقد قال الله فيه {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ} البقرة 178 فسماه أخا وهو قاتل وقد ثبت في الصحيحين حديث أبي ذر لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وان زنا وان سرق وان شرب الخمر على رغم انف أبي ذر وثبت في الصحاح حديث أبي سعيد وغيره في الشفاعة في أهل الكبائر وقوله اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال برة من ايمان مثقال حبة من ايمان مثقال ذرة من ايمان فهذه النصوص كما دلت على أن ذا الكبيرة لا يكفر مع الايمان وانه يخرج من النار بالشفاعة خلافا للمبتدعة من الخوارج في الاولى ولهم وللمعتزلة في الثانية نزاع فقد دلت على أن الايمان الذي خرجوا به من النار هو حسنة مأمور بها وأنه لا يقاومها شيء من الذنوب¹

" من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله "

وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهي فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن كما في قوله آل عمران والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا وقوله صلى الله عليه وسلم لعمر أن صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه على أربعة أقسام قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لألوهيته سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه ولا ينظروا إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة وهو حال كثير من المتفهمة المتعبدة فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمان الله وشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان والاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التي تقوى العبد وتيسر عليه الأمور ولهذا قال بعض السلف من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله²

عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غني عن الخلق

ان الذي علم بالعقل والسمع أنه يمتنع ان يكون الرب تعالى فقيرا الى خلقه بل هو الغنى عن العالمين وقد علم أنه حي قيوم بنفسه وان نفسه المقدسة قائمة بنفسه وموجودة بذاته وأنه أحد صمد غنى بنفسه ليس ثبوته وغناه مستفادا من غيره وانما هو بنفسه لم يزل ولا يزال حقا صمدا قيوما³ أن الله تعالى ليس محتاجا إلى عمل العباد كما يحتاج المخلوق إلى عمل من يستأجره بل هو سبحانه كما قال في الحديث الصحيح إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفَعوني ولن تبلغوا ضري فتضرروني والعباد إنما يعملون لأنفسهم كما قال تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران 97⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 91-93

²التحفة العراقية ج: 1 ص: 50

³مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 348

⁴رسالة في دخول الجنة ج: 1 ص: 148

أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه ألم أفعل كذا يمن عليه بما يفعله معه وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه وتخييل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غني عن الخلق كما قال تعالى **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** {آل عمران 97¹}

فقد بين أن العصاة لا يضررونه ولا يظلمونه كعصاة المخلوقين فإن ممالك السيد وجند الملك وأعوان الرجل وشركاءه إذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه أو ماله أو عرضه أو غير ذلك وقد يكون ذلك ظلماً له والله تعالى لا يقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه وإن كان الكافر على ربه ظهيرا فمظاهرتة على ربه ومعاداته له ومشاقته ومحاربتة عادت عليه بضرره وظلمه لنفسه وعقوبته في الدنيا والآخرة وأما النفع فهو سبحانه غني عن الخلق لا يستطيعون نفعه فينفعوه فما أمرهم به إذا لم يفعلوه لم يضره بذلك كما قال تعالى **{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** {آل عمران 97²}

لطائف لغوية

- 1- **{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** {آل عمران 95} والحنيف المستقيم الى ربه دون ما سواه³
- 2- **{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** {آل عمران 95} عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله **{اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}** {الأعراف 3} وقوله **{فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}** طه 123 وقوله **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}** {الأنعام 153} وقد يقرن به غيره كقوله **{وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** {الأنعام 155} وقوله **{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}** {الأنعام 106} وقوله **{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}** {يونس 109⁴}

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 215

²النبوات ج: 1 ص: 100

³مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 240

⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168

3- {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} آل عمران 96 عامة الأسماء

يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله {وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الأنعام 87 وكما في قوله {شَاكِرًا لِّلْأَنْعَمِ اجْتِنَابًا وَهَذَا} النحل 121 {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ} الشورى 13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا اطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا¹

4- أن القدرة الشرعية هي التي يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة كما في قوله تعالى

{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران 97 وقوله {فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} المجادلة 4 ونحو ذلك²

5- {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل

عمران 97 ان الذى علم بالعقل والسمع أنه يمتنع ان يكون الرب تعالى فقيرا الى خلقه بل هو الغنى عن العالمين وقد علم أنه حى قيوم بنفسه وان نفسه المقدسة قائمة بنفسه وموجودة بذاته وأنه أحد صمد غنى بنفسه ليس ثبوته وغناه مستفادا من غيره وانما هو بنفسه لم يزل ولا يزال حقا صمدا قيوما³

6- وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع

عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى اسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها كقوله تعالى {وَلِلَّهِ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 732

³مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 348

عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ { آل عمران 97 فذكر حجا خاصا وهو حج البيت وكذلك قوله { فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ { البقرة 158 فلم يكن لفظ الحج متناولا لكل قصد بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة والشاعر إذا قال وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا كان متكلما باللغة وقد قيد لفظه بحج سب الزبرقان المزعفرا ومعلوم أن ذلك الحج المخصوص دلت عليه الإضافة فكذلك الحج المخصوص الذي أمر الله به دلت عليه الإضافة أو التعريف باللام فاذا قيل الحج فرض عليك كانت لام العهد تبين أنه حج البيت¹

7- جماع معنى الحج في أصل اللغة قصد الشيء وإتيانه ومنه سمي الطريق محجة لأنه موضع الذهاب والمجيء ويسمى ما يقصد الخصم حجة لأنه يأتىه وينتحيه ومنه في الاشتقاق الأكبر الحاجة وهو ما يقصد ويطلب للمنفعة به سواء قصده القاصد لمصلحته أو لمصلحة غيره ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه وقول في حاجة الله وحاجة رسوله ومعلوم أنه إنما يقصد ويؤتى ما يعظم ويعتقد الانتفاع به وإذا كان كذلك فلا بد أن يكثر اختلاف الناس إليه فكذلك يقول بعض أهل اللغة الحج القصد ويقول بعضهم هو القصد إلى من يعظم ويقول بعضهم كثرة القصد إلى من يعظمه ورجل محجوج ومكا محجوج أي مقصود مأتني ومنه قوله وأشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا قال ابن السكيت يقول يكثر اختلاف إليه وقوله قالت تغيرتم بعدي فقلت لها لا والذي بيته يا سلم محجوج ثم غلب في الاستعمال الشرعي والعراقي على حج بيت الله سبحانه وتعالى وإتيانه فلا يفهم عند الإطلاق إلا هذا النوع الخاص من القصد لأنه هو المشروع الموجود كثيرا وذلك كقوله تعالى { وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ { البقرة 196 وقال تعالى { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ { الحج 27 وقال سبحانه { فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ { البقرة 196 وقد بين المحجوج في قوله تعالى { وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ { آل عمران 97 وقوله تعالى { فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا { البقرة 158 فإن اللام في قوله البيت لتعريف الذي تقدم ذكره في أحد الموضوعين وعلمه المخاطبون في الموضوع الآخر وفيه لغتان قد قرىء بهما الحج والحج والحجة بفتح الحاء وكسرها ثم حج البيت له صفة معلومة في الشرع من الوقوف بعرفة والطواف بالبيت وما يتبع ذلك فإن ذلك كله من تمام قصد البيت فإذا أطلق الإسم في الشرع انصرف إلى الأفعال المشروعة إما في الحج الأكبر أو الأصغر وأن الحج واجب في الجملة وهو أحد مباني الإسلام الخمس وهو من العلم المستفيض الذي توارثته الأمة وتناقلته خلفا عن سلف والأصل فيه قوله تعالى { وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا { آل عمران 97 وحرف على للإيجاب لاسيما إذا ذكر المستحق فقيل لفلان على فلان وقد أتبعه بقوله { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ { آل

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 299

عمران 97 ليبين أن من لم يعتقد وجوبه فهو كافر وأنه إنما وضع البيت وأوجب حجة ليشهدوا منافع لهم لا لحاجة إلى الحجاج كما يحتاج المخلوق إلى من يقصده ويعظمه لأن الله غني عن العالمين وكذلك قوله {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} البقرة 196 على أحد التأويلين وقوله {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا} الحج 27 فأذن فيهم إن لربكم بيتا فحجوه وأما السنة فما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت متفق عليه وفي حديث جبريل في رواية عمر رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما الإسلام قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا

رواه مسلم وليس الحج في حديث أبي هريرة المتفق عليه وسيأتي إن شاء الله تعالى قوله إن الله فرض عليكم الحج فحجوا رواه مسلم وغيره وأحاديث كثيرة في هذا المعنى¹

8- {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران 97 ان أصناف العالمين يراد به جميع اصناف الخلق كما في قوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الفاتحة²

¹شرح العمدة ج: 2 ص: 75-78

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 367

ال عمران 98-108

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ} {98} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} {99} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} {100} وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} {101} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} {102} وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {103} وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {104} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} {106} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {107} تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ} {108}

الله شهيد على العباد بأعمالهم

{وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ} آل عمران 98 فشهد الله على عباده يقصد به انه هو شهيد على

العباد بأعمالهم¹

سبب نزول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ }

وقد وقع نزاع بين الأنصار مرة بسبب يهودي كان يذكرهم حروبهم في الجاهلية التي كانت بين الأوس والخزرج حتى أختصموا وهموا بالقتال حتى أنزل الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا

¹القواعد النورانية ج: 3 ص: 376

فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ {100} وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ
 آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {101} آل عمران 100 101

1

" تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة "

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه
 الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة
 والجماعة قال الله تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ
 هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا
 وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} طه 123-126 قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه
 أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية ومثل هذا كثير من الكتاب والسنة وهذا
 مما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ {100} وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ
 رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {101} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا
 تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {102} وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا {103} آل عمران 100-103 فأمر
 بالاعتصام بحبل الله وهو كتابه كما قال النبي إن هذا القرآن حبل ممدود طرفه بيد الله وطرفه
 بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ما تمسكتم به وفي الحديث الآخر وهو حبل الله المتين ثم
 قال تعالى { وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
 إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } آل
 عمران 103 الآيات 2

كلما كان القلب أتم حياة كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى أتم

إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك وأمر ظاهرة
 من أقوال وأفعال قد تكون عبادات وقد تكون أيضا عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن
 والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما
 ولا بد ارتباط ومناسبة فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورا ظاهرة وما يقوم بالظاهر

¹ منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 312

² مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 80 ومنهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 553

من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورا وأحوالا وقد بعث الله عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحكمة التي هي سنته وهي الشريعة والمنهاج الذي شرعه له فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم والضالين وأمر بمخالفتهم في الهدى الظاهر وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمر منها أن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسبا وتشاكلا بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس فإن اللابس لثياب أهل العلم مثلا يجد من نفسه نوع انضمام إليهم واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلا يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ويصير طبعه مقتضيا لذلك إلا أن يمنعه من ذلك مانع ومنها أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام الذي هو الإسلام لست أعني مجرد التوسم به ظاهرا أو باطنا بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنا أو ظاهرا أتم وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد ومنها أن مشاركتهم في الهدى الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهرا بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكيمة هذا إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر إلا مباحا محضا لو تجرد عن مشابهم فإما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالهم ومعاصيهم فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له والله أعلم¹

أصل العلم والهدى

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله إليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 وتقرير الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء 165 ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التي هي القرآن وما جاءت به الرسل

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 12

كثيرا جدا كقوله {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} آل عمران 101 فيعلم أن آيات الله والرسل تمنع الكفر وهذا كثير¹

ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذي هو مبدأ كل كفر وفسق

أن الأنبياء عليهم السلام دعوا الناس إلى عبادة الله أولا بالقلب واللسان وعبادته متضمنة لمعرفته وذكره فأصل علمهم وعملهم هو العلم بالله والعمل لله وذلك فطرى كما قد قررته في غير هذا الموضوع في موضعين أو ثلاثة وبينت أن أصل العلم الإلهي فطرى ضرورى وأنه أشد رسوخا فى النفوس من مبدأ العلم الرياضى كقولنا ان الواحد نصف الاثنين ومبدأ العلم الطبيعى كقولنا ان الجسم لا يكون فى مكانين لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر وأما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة وبسط هذا له موضع غير هذا وانما الغرض هنا أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذى خلق الكائنات والآخر الذى إليه تصير الحادثات فهو الأصل الجامع فالعلم به أصل كل علم وجامعه وذكره أصل كل كلام وجامعه والعمل له أصل كل عمل وجامعه وليس للخلق صلاح إلا فى معرفة ربهم وعبادته وإذا حصل لهم ذلك فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافعة وإما أمر مضر ثم من العلم به تنتشعب أنواع العلوم ومن عبادته وقصده تنتشعب وجوه المقاصد الصالحة والقلب بعبادته والإستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق واعتصم بالدليل الهادى والبرهان الوثيق فلا يزال إما فى زيادة العلم والإيمان وإما فى السلامة عن الجهل والكفر وبهذا جاءت النصوص الإلهية فى أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات الى النور وضرب مثل المؤمن وهو المقر بربه علما وعملا بالحقى والبصير والسميع والنور والظل وضرب مثل الكافر بالميت والأعمى والأصم والظلمة والحرور وقالوا فى الوسواس الخناس هو الذى اذا ذكر الله خنس واذا غفل عن ذكر الله وسوس فتبين بذلك أن ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذى هو مبدأ كل كفر وجهل وفسق وظلم وقال الله تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} الحجر 42 وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} النحل 99 وقال {وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} آل عمران 101 ونحو ذلك من النصوص²

فمن لم يهتد بما جاءت به الانبياء فهو أبعد الناس عن الهدى {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} آل عمران 101³

المعاني المستفادة من قوله تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ}

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 5

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 16-17

³النبوات ج: 1 ص: 257

1-حق ثقاته التي أمركم بها

قال تعالى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} {الحج78} وقال {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} {آل عمران102} والمصدر هنا مضاف الى المفعول والفاعل مراد أى حق جهاده الذى أمركم به وحق ثقاته التي أمركم بها واقدره قدره الذى بينه لكم وأمركم به فصدقوا الرسول فيما أخبر وأطيعوه فيما أوجب وأمر وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه قالت عائشة فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو¹

2-قوله تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} و{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} ليس بين الآيتين تناقض

أن لفظ النسخ مجمل فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه من عموم أو اطلاق أو غير ذلك كما قال من قال ان قوله {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} {آل عمران102} و {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} {الحج78} نسخ بقوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن16} و ليس بين الآيتين تناقض لكن قد يفهم بعض الناس من قوله {حَقَّ تَقَاتِهِ} {آل عمران102} {حَقَّ جِهَادِهِ} {الحج78} الأمر بما لا يستطيعه العبد فينسخ ما فهمه هذا كما ينسخ الله ما يلقي الشيطان و يحكم الله آياته و ان لم يكن نسخ ذلك نسخ ما انزله بل نسخ ما القاه الشيطان اما من الانفس أو من الاسماع أو من اللسان وكذلك ينسخ الله ما يقع فى النفوس من فهم معنى و ان كانت الآية لم تدل عليه لكنه محتمل²

3-الواجب تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

فان مدار الشريعة على قوله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن16} المفسر لقوله {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} {آل عمران102} وعلى قول النبي إذا امرتكم فاتوا منه ما استطعتم اخرجاه فى الصحيحين وعلى ان الواجب تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فاذا تعارضت كان تحصيل اعظم المصلحتين بتفويت ادناهما ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال ادناهما هو المشروع والمعين على الأثم والعدوان من أعان الظالم على ظلمه أما من أعان المظلوم على تخفيف الظلم عنه او على اداء المظلمة فهو وكيل المظلوم لا وكيل الظالم بمنزلة الذى يقرضه او الذى يتوكل فى حمل المال له الى الظالم مثال ذلك ولي اليتيم والوقف اذا طلب ظالم منه ما لا فاجتهد فى دفع ذلك بمال اقل منه اليه او الى غيره بعد الاجتهاد التام فى الدفع لا فهو محسن وما على المحسنين من سبيل³

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 161

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 139-140

³مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 284-285 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 43

4- "ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا"

ان الله سبحانه أمرنا بالمعروف وهو طاعته وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر ونهى عن المنكر وهو معصيته ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور وقيده الايجاب بالاستطاعة والوسع وابعح مما حرم ما يضطر المرء اليه غير باغ ولا عاد فقال تعالى { **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** } آل عمران 102 وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم فأوجب مما امر به ما يستطاع وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث آخر انكم لن تحصوا او تستطيعوا كل ما امرتكم به ولكن وقال ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا¹

5- قال ابن مسعود حق تقاته ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر

وقد اتفق سلف الامة وأئمتها على ان كل احد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم فان الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الايمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به بخلاف الاولياء فانهم لا تجب طاعتهم فى كل ما يأمرون به ولا الايمان بجميع ما يخبرون به بل يعرض امرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله وماخالف الكتاب والسنة كان مردودا وان كان صاحبه من اولياء الله وكان مجتهدا معذورا فيما قاله له اجر على اجتهاده لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئا وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع فان الله تعالى يقول { **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** } التغابن 16 وهذا تفسير قوله تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** } آل عمران 102 قال ابن مسعود وغيره حق تقاته ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر أى بحسب استطاعتكم فان الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها كما قال تعالى { **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** } البقرة 286 وقال تعالى { **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } الأعراف 42²

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 311

² مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 208

أمرنا الله سبحانه وتعالى ان لا نكون {كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ }

وأمرنا الله سبحانه وتعالى ان لا نكون {كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } آل عمران 105 واخبر رسوله {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَأَسْتَمِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام 159 وذكر انه جعله على شريعة من الامر وامره ان يتبعها ولا يتبع سبيل الذين لا يعلمون وقال تعالى {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } 48 { وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ } 49 {المائدة 48-49 فأمره ان لا يتبع اهواءهم عما جاءه من الحق وان كان ذلك شرعا او طريقا لغيره من الانبياء انه قد جعل لكل نبي سنة وسيلا وحذره ان يفتنوه عن بعض ما انزل الله اليه فاذا كان هذا فيما جاءت به شريعة غيره فكيف بما لا يعلم انه جاءت به شريعة بل هو طريقة من لا كتاب له وأمره وايانا في غير موضع ان نتبع ما انزل الينا دون ما خالفه فقال {المص {1} كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } 2 { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } 3 {الاعراف 1-3 وبين حال الذين ورثوا الكتاب فخالفوه والذين استمسكوا به فقال {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَصَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا } الأعراف 169 الى قوله {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } الأعراف 170 وقال {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } 155 { أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا } 156 {الأنعام 155- 156 الآيات وقال {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } 1 { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } 2 {الأحزاب 1-2 وقال {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا } آل عمران 103 وحبل الله كتابه كما فسره النبي وقال {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ } يونس 109 الى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة التي اجمع المسلمون على اتباعها وهذا مما لم يختلف المسلمون فيه جملة ولكن قد يقع التنازع في تفصيله فتارة يكون بين العلماء المعبرين في مسائل الاجتهاد وتارة يتنازع فيه قوم جهال بالدين او منافقون او سماعون للمنافقين فقد اخبر الله سبحانه ان فينا قوما سماعين للمنافقين يقبلون منهم كما قال {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ } التوبة 47¹

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 127-129

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {102} { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا } {103} { آل عمران 102-103 الى قوله تعالى { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } { آل عمران 105 الى قوله { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } { آل عمران 110 فامرنا بملازمة الاسلام الى الممات كما أمر الأنبياء جميعهم بالاسلام وان نعتصم بحبله جميعا ولا نتفرق ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيئات وذكر أنه تبيض وجوه وتسود وجوه قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وذكر انه يقال لهم { أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ } { آل عمران 106 وهذا عائد الى قوله { وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } { آل عمران 102 فامر بملازمة الاسلام وبين ان المسودة وجوههم أهل التفرق والاختلاف يقال لهم أكفرتم بعد ايمانكم وهذا دليل على كفرهم وارتدادهم وقد تأولها الصحابة فى الخوارج وهذا نظير قوله للرسول { أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } { الشورى 13 وقد قال فى البقرة { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } { البقرة 213 الآية وقال ايضا { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَأَسْتَمِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } { الأنعام 159 وقال تعالى { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } { المؤمنون 53 وقال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} { الروم 30-32 وقال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ } { آل عمران 19 الآية } { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ } { البينة 4 الآية ونظيرها فى الجاثية { وَأَتَيْنَاهُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } { الجاثية 17 وقال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } { النساء 59 وقال تعالى { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيْمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } { الحشر 10 اذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الامر منا وامرنا عند التنازع فى شىء أن نرده الى الله والى الرسول وامرنا بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالايمان وسمانا المسلمين وأمرنا ان ندوم عليه الى الممات فهذه النصوص وما كان فى معناها توجب علينا الاجتماع فى الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا فى الدين وولاية الأمور فينا هم خلفاء الرسول قال النبى فى الحديث الصحيح إن بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى قام نبى و إنه لا نبى بعدى

وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال اوفوا ببيعة الأول فالأول وأدوا لهم الذى لهم فان الله سائلهم عما استرعاهم وقال ايضا العلماء ورثة الأنبياء وروى عنه أنه قال وددت أنى قد رأيت خلفائى قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتى يعلمونها الناس فهؤلاء هم ولاة الأمر بعده وهم الأمراء والعلماء وبذلك فسرها السلف ومن تبعهم من الأئمة كالامام احمد وغيره وهو ظاهر قد قررناه فى غير هذا الموضع فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والاجماع هى بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الاسلام المحض وهم أهل السنة والجماعة¹

أعظم أصول الإسلام

أن الواجب على المسلمين الإعتصام بالكتاب والسنة كما أمرهم الله تعالى بذلك فى قوله **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103** وقوله تعالى **{المص 1} كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} 2** **{اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} 3** الأعراف 1- 3²

ان الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب وكان قد بعث إلى ذوى أهواء متفرقة وقلوب متشتة وآراء متباينة فجمع به الشمل وألف به بين القلوب وعصم به من كيد الشيطان ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن هذا الأصل هو الجماعة عماد لدينه فقال سبحانه **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} 102** **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 103** **{وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 104** **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} 105** **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} 106** آل عمران 102-106 قال ابن عباس رضى الله عنهما تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة فانظروا رحمكم الله كيف دعا الله إلى الجماعة ونهى عن الفرقة وقال فى الآية الأخرى **{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}** الأنعام 159 فبرأ نبيه من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كما نهانا عن التفرق والاختلاف بقوله **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} آل عمران 105**

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 115-117

²منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 553

وقد كره النبي من المجادلة ما يفضي إلى الاختلاف والتفرق فخرج على قوم من أصحابه وهم يتجادلون في القدر فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان وقال أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فما اغبط نفسي كما غبطتها ألا أكون في ذلك المجلس روى هذا الحديث أبو داود في سننه وغيره وأصله في الصحيحين والحديث المشهور عنه صلى الله عليه وسلم في السنن وغيرها انه قال تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة قيل يا رسول الله ومن هي قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي وفي رواية هي الجماعة وفي رواية يد الله على الجماعة فوصف الفرقة الناجية بأنهم المستمسكون بسنته وأنهم هم الجماعة وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء 59 وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة واخوة الدين نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة في أن محمدا رأى ربه وقالت من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية وجمهور الأمة على قول ابن عباس مع أنهم لا يبدعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها وكذلك أنكرت ان يكون الأموات يسمعون دعاء الحي لما قيل لها أن النبي قال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم فقالت إنما قال أنهم ليعلمون الآن أن ما قلت لهم حق ومع هذا فلا ريب أن الموتى يسمعون خفق النعال كما ثبت عن رسول الله وما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام صح ذلك عن النبي إلى غير ذلك من الأحاديث وأم المؤمنين تأولت والله يرضى عنها وكذلك معاوية نقل عنه في أمر المعراج أنه قال إنما كان بروحه والناس على خلاف معاوية رضي الله عنه ومثل هذا كثير وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولو كان كل ما اختلفت مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة ولقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما سيذا المسلمين يتنازعان في أشياء لا يقصدان الا الخير وقد قال النبي لأصحابه يوم بنى قريظة لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة فأدركتهم العصر في الطريق فقال قوم لا نصلى الا في بنى قريظة وفاتتهم العصر وقال قوم لم يرد منا تأخير الصلاة فصلوا في الطريق فلم يعب واحدا من الطائفتين أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن عمر وهذا وإن كان في الأحكام فما لم يكن من الأصول المهمة فهو ملحق بالأحكام وقد قال ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين رواه أبو داود من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه وصح عنه

أنه قال لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام نعم صح عنه أنه هجر كعب بن مالك وصاحبيه رضى الله عنهم لما تخلفوا عن غزوة تبوك وظهرت معصيتهم وخيف عليهم النفاق فهجرهم وأمر المسلمين بهجرهم حتى أمرهم باعتزال أزواجهم من غير طلاق خمسين ليلة إلى أن نزلت توبتهم من السماء وكذلك أمر عمر رضى الله عنه المسلمين بهجر صبيغ بن عسل التميمي لما رآه من الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب إلى أن مضى عليه حول وتبين صدقه في التوبة فأمر المسلمين بمراجعته فبهذا ونحوه رأى المسلمون أن يهجروا من ظهرت عليه علامات الزيغ من المظهرين للبدع الداعين إليها والمظهرين للكبائر فأما من كان مستترا بمعصية أو مسرا لبدعة غير مكفرة فإن هذا لا يهجر وإنما يهجر الداعي إلى البدعة إذ الهجر نوع من العقوبة وإنما يعاقب من أظهر المعصية قولاً أو عملاً وأما من أظهر لنا خيراً فإننا نقبل علانيته ونكل سريرته إلى الله تعالى فإن غايته أن يكون بمنزلة المنافقين الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله لما جاءوا إليه عام تبوك يحلفون ويعتذرون ولهذا كان الإمام أحمد وأكثر من قبله وبعده من الأئمة كمالك وغيره لا يقبلون رواية الداعي إلى بدعة ولا يجالسونه بخلاف الساكت وقد أخرج أصحاب الصحيح عن جماعات ممن رمي ببدعة من الساكتين ولم يخرجوا عن الدعاة إلى البدع¹

امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب بالسنة والجماعة

ففي صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين الأمة في الرواية والرأى مثل الأذان والجهر بالسلمة والقنوت في الفجر والتسليم في الصلاة ورفع الأيدي فيها ووضع الأكف فوق الأكف ومثل التمتع والإفراد والقران في الحج ونحو ذلك فإن التنازع في هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعاً من الفساد الذي يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون أحدها التفرق والإختلاف المخالف للإجتماع والإنتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضاً ويعاديه ويحب بعضاً ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضى الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز وبعضهم إلى الإقتتال بالأيدي والسلاح وبعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلى بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الأمور التي حرّمها الله ورسوله والإجتماع والأنتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {102} **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا** {103} **آل عمران 102-103** إلى قوله { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {105} **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** {106} **آل عمران 105-106** قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السنة التي شرعها

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 170-175

رسول الله لأمته ومن أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَأَسْتَأْذِنُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } { الأنعام 159 } وقال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ } { الأنفال 1 } وقال { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } { الحجرات 10 } وقال { إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ } { النساء 114 } وهذا الأصل العظيم وهو الإعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي في مواطن عامة وخاصة مثل قوله عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة وقوله فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد وقوله من رأى من أمره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وقوله ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين وقوله من جاءكم وامرهم على رجل واحد منكم يريد أن يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كأننا من كان وقوله يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم وقوله ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية وإثنتان وسبعون في النار وقيل ومن الفرقة الناجية قال هي الجماعة يد الله على الجماعة و باب الفساد الذي وقع في هذه الأمة بل وفي غيرها هو التفرق والإختلاف فإنه وقع بين امرائها و علمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وإن كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لإجتهاده الذي يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام ولهذا كان إمتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقديم العمل به هو الإجماع فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة¹

" تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة "

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاجتماع والإئتلاف ونهاهم عن الإفتراق والإختلاف فقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } { 102 } { وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } { 103 } { آل عمران 102-103 } إلى قوله { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } { آل عمران 102 } إلى قوله { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } { آل عمران 106 } وقد ذم الله سبحانه أهل التفرق والاختلاف في الكتاب الذين يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض قال ابن عباس رضي الله عنهما تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة فأئمة الدين هم على منهاج الصحابة رضوان الله عليهم

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 358-360 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 369

أجمعين والصحابة كانوا مؤتلفين متفقين وإن تنازعا في بعض فروع الشريعة في الطهارة أو الصلاة أو الحج أو الطلاق أو الفرائض أو غير ذلك فإجماعهم حجة قاطعة ومن تعصب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقيين فهو بمنزلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقيين كالرافضي الذي يتعصب لعلي دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة وكالخارجي الذي يقدر في عثمان وعلي رضي الله عنهما فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم فمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه ففيه شبه من هؤلاء سواء تعصب لمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة أو أحمد أو غيرهم ثم غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلاً بقدره في العلم والدين وبقدر الآخرين فيكون جاهلاً ظالماً والله يأمر بالعلم والعدل وينهى عن الجهل والظلم قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {73} الأحزاب 72-73 وهذا أبو يوسف ومحمد أتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله وهما قد خالفاه في مسائل لا تكاد تحصى لما تبين لهما من السنة والحجة ما وجب عليهما اتباعه وهما مع ذلك معظمان لإمامهما لا يقال فيهما مذبذبان بل أبو حنيفة وغيره من الأئمة يقول القول ثم تتبين له الحجة في خلافه فيقول بها ولا يقال له مذبذب¹

قال الله سبحانه وتعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {102} وَعَاتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } {103} وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {104} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } {106} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } {107}

ال عمران 102-107 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدع والفرقة فما دخل في هذا الباب مما نهى الله عنه ورسوله من التعصب والتفرق والاختلاف والتكلم بغير علم فإنه يجب النهي عنه فليس لأحد أن يدخل فيما نهى الله عنه ورسوله وأما من ترجح عنده فضل امام على امام أو شيخ على شيخ بحسب إجهاده كما تنازع المسلمون أيما أفضل الترجيع في الأذان أو تركه أو أفراد الإقامة أو إثنائها وصلاة الفجر بغسل أو الاسفار بها والقنوت في الفجر أو تركه والجهر بالتسمية أو المخافتة بها أو ترك قراءتها ونحو ذلك فهذه مسائل الاجتهاد التي تنازع فيها السلف والأئمة فكل منهم أقر الآخر على اجتهاده من كان فيها أصاب الحق فله أجران ومن كان قد اجتهد فأخطأ فله أجر وخطؤه مغفور له فمن ترجح عنده تقليد الشافعي لم ينكر على من ترجح

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 451 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 341

عنده تقليد مالك ومن ترجح عنده تقليد أحمد لم ينكر على من ترجح عنده تقليد الشافعي ونحو ذلك ولا أحد في الاسلام يجيب المسلمين كلهم بجواب عام أن فلانا أفضل من فلان فيقبل منه هذا الجواب لأنه من المعلوم أن كل طائفة ترجح متبوعها فلا تقبل جواب من يجيب بما يخالفها فيه كما أن من يرجح قولاً أو عملاً لا يقبل قول من يفتى بخلاف ذلك لكن إن كان الرجل مقلداً فليكن مقلداً لمن يترجح عنده أنه أولى بالحق فإن كان مجتهداً اجتهد واتبع ما يترجح عنده أنه الحق ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها وقد قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن 16} لكن عليه أن لا يتبع هواه ولا يتكلم بغير علم قال تعالى {هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} آل عمران 66 وقال تعالى {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ} {الأنفال 6} وما من إمام إلا له مسائل يترجح فيها قوله على قول غيره ولا يعرف هذا التفاضل إلا من خاض في تفاصيل العلم والله أعلم¹

فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله وسنة خلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والاجماع وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً فان مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى

والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والاجماع ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف فان الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله²

الجماعة رحمة والفرقة عذاب

والتفريق الذي حصل من الأئمة علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} {المائدة 14} فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب وجماع ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {102} {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} {آل عمران 102-103} إلى قوله {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {104} آل عمران 104 فمن الأمر بالمعروف والأمر بالالتلاف

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 292-293

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 237

والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى¹

"لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"

هذه الفتن (التي تقع من أهل البر وأمثالها فيقتل بعضهم بعضا ويستبيح بعضهم حرمة بعض) وأمثالها من أعظم المحرمات وأكبر المنكرات قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ } {102} { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } {103} { وَلَتَكُنَّ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {104} { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {105} { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } {106} { ال عمران 102-106 } وهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا حتى صار عنهم من الكفر ما صار وقد قال النبي لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فهذا من الكفر وإن كان المسلم لا يكفر بالذنب قال تعالى { وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {9} { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } {10} { الحجرات 9-10 } فهذا حكم الله بين المقتتلين من المؤمنين أخبر أنهم إخوة وأمر أولا بالإصلاح بينهم إذا اختلفوا { فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى } { الحجرات 9 } ولم يقبلوا الإصلاح { فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ } { الحجرات 9 } فأمر بالإصلاح بينهم بالعدل بعد أن { تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ } { الحجرات 9 } أى ترجع إلى أمر الله فمن رجع إلى أمر الله وجب أن يعدل بينه وبين خصمه ويقسط بينهما فقبل أن نقاتل الطائفة الباغية وبعد ائقتالهما أمرنا بالإصلاح بينهما مطلقا لأنه لم تقهر إحدى الطائفتين بقتال وإذا كان كذلك فالواجب أن يسعى بين هاتين الطائفتين بالصلح الذي أمر الله به ورسوله ويقال لهذه ما تنقم من هذه ولهذه ما تنقم من هذه فإن ثبت على إحدى الطائفتين أنها اعتدت على الأخرى بإتلاف شيء من الأنفس والأموال كان عليها ضمان ما أتلفته وإن كان هؤلاء أتلفوا لهؤلاء وهؤلاء أتلفوا لهؤلاء تقاصوا بينهم كما قال الله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ } { البقرة 178 } وقد ذكرت طائفة من السلف أنها أنزلت فى مثل ذلك فى طائفتين ائقتلتا فأمرهم الله بالمقاصة قال { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } { البقرة 178 } والعفو الفضل فإذا فضل لواحدة من الطائفتين شيء على الأخرى { فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ } { البقرة 178 } والذي

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 421-422

عليه الحق يؤديه بإحسان وإن تعذر أن تضمن واحدة للأخرى فيجوز أن يتحمل الرجل حمالة يؤديها لصالح ذات البين وله أن يأخذها بعد ذلك من زكاة المسلمين ويسأل الناس في إعانتة على هذه الحالة وإن كان غنيا قال النبي صلى الله عليه وسلم لقبیصة بن مخارق الهلالي يا قبیصة ان المسئلة لا تحل الا لثلاثة رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فيسأل حتى يجد سدادا من عيش ثم يمسك ورجل أصابته فاقة فانه يقوم ثلاثة من ذوى الحجى من قومه فيقولون قد اصاب فلانا فاقة فيسأل حتى يجد قواما من عيش وسدادا من عيش ثم يمسك ورجل يحمل حمالة فيسأل حتى يجد حمالته ثم يمسك والواجب على كل مسلم قادر ان يسعى فى الإصلاح بينهم ويأمرهم بما أمر الله به مهما أمكن

ومن كان من الطائفتين يظن انه مظلوم مبعى عليه فاذا صبر وعفى اعزه الله ونصره كما ثبت فى الصحيح عن النبي انه قال ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع احد لله الا رفعه الله ولا نقصت صدقة من مال وقال تعالى {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} {الشورى 40} وقال تعالى {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {42} {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} {43} {الشورى 42-43} فالباغى الظالم ينتقم الله منه فى الدنيا والآخرة فان البغى مصرعه قال ابن مسعود ولو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغى منهما دكا ومن حكمة الشعر قضى الله ان البغى يصرع اهله وان الباغى تدور الدوائر ويشهد لهذا قوله تعالى {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} {يونس 23} الآية وفى الحديث ما من ذنب أحرى أن يعجل لصاحبه العقوبة فى الدنيا من البغى وما حسنة أحرى أن يعجل لصاحبها الثواب من صلة الرحم فمن كان من احدى الطائفتين باغيا ظالما فليتق الله وليتب ومن كان مظلوما مبعيا عليه وصبر كان له البشرى من الله قال تعالى {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} {البقرة 155} قال عمرو بن اوس هم الذين لا يظلمون اذا ظلموا وقد قال تعالى للمؤمنين فى حق عدوهم {وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120

شيئا وقال يوسف عليه السلام لما فعل به اخوته ما فعلوا فصبر واتقى حتى نصره الله ودخلوا عليه وهو فى عزه {قَالُوا أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 فمن إتقى الله من هؤلاء وغيرهم بصدق وعدل ولم يتعد حدود الله وصبر على اذى الآخر وظلمه لم يضره كيد الآخر بل ينصره الله عليه وهذه الفتن سببها الذنوب والخطايا فعلى كل من الطائفتين ان يستغفر الله ويتوب إليه فان ذلك يرفع العذاب وينزل الرحمة قال الله تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} {الأنفال 33} وفى الحديث عن النبي من اكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب قال الله تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ حَبِيرٍ} {1} {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ كَبِيرٍ {3} هود 1-3¹

قال صلى الله عليه وسلم إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله
هذا القاتل فما بال المقتول قال أنه أراد قتل صاحبه وقال لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب
بعضكم رقاب بعض وقال إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في
شهركم هذا إلا ليليل الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع²

"من قتل تحت راية عمية يغضب لعصبيه ويدعو لعصبيه فهو في النار"

وكذلك من اراد ان يكفر الله عنه سيئاته في دعوى الجاهلية وحميتها فعليه بالجهاد فان الذين
يتعصبون للقبائل وغير القبائل مثل قيس ويمن وهلال واسد ونحو ذلك كل هؤلاء اذا قتلوا فان القاتل
والمقتول في النار كذلك صح عن النبي انه قال اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في
النار وقيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل اخيه اخرجاه في
الصحيحين وقال من قتل تحت راية عمية يغضب لعصبيه ويدعو لعصبيه فهو في النار رواه
مسلم وقال من تعزى بعزاء اهل الجاهلية فاعضوه هن ابية ولا تكنوا فسمع ابي بن كعب رجلا
يقول يا لفلان فقال اعضض اير ابيك فقال يا أبا المنذر ما كنت فاحشا فقال بهذا امرنا رسول الله رواه
احمد في مسنده ومعنى قوله من تعزى بعزاء الجاهلية يعنى يعتزى بعزواتهم وهي الانتساب
اليهم في الدعوة مثل قوله ياالقيس ياليمين ويالهلال ويالاسد فمن تعصب لأهل بلدته او مذهبه او
طريقتة او قرابته او لأصدقائه دون غيرهم كانت فيه شعبة من الجاهلية حتى يكون المؤمنون كما
امرهم الله تعالى معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله فان كتابهم واحد ودينهم واحد ونبينهم واحد
وربهم اله واحد لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون قال الله تعالى
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {102} {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا
وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {103} {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ
أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {104} {وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ النَّبِيُّاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} {يَوْمَ تَبْيَضُّ
وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ} {106} ال عمران 102-106 قال ابن عباس رضى الله عنهما تبيض وجوه اهل السنة
والجماعة وتسود وجوه اهل الفرقة والبدعة فالله الله عليكم بالجماعة والائتلاف على طاعة الله

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 80-83

²مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 85

ورسوله والجهاد فى سبيله يجمع الله قلوبكم ويكفر عنكم سيئاتكم ويحصل لكم خير الدنيا والآخرة اعاننا الله واياكم على طاعته وعبادته وصرف عنا وعنكم سبيل معصيته واتانا واياكم فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقانا عذاب النار وجعلنا واياكم ممن رضى الله عنه واعد له جنات النعيم انه على كل شيء قدير وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم¹

" إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابهه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم "

ومن الأمور التي نهى الله عنها في كتابه الفرق والاختلاف كقوله {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103 إلى قوله {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} {106} آل عمران 105-106 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} {الأنعام 159} وقال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} {الروم 30} إلى قوله تعالى {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} {32} {الروم 30-32} وقد ذم أهل التفرق والاختلاف في مثل قوله {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ} {البينة 4} وفي مثل قوله {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} {إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} {119} {هود 118-119} وفي مثل قوله {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} {البقرة 176} وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم توافقت كتاب الله كالحديث المشهور عنه الذي رواه مسلم بعضه عن عبد الله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول ألم يقل الله كذا ورجل يقول ألم يقل الله كذا فكانما فقيء في وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه بعضا انظروا ما أمرتم به فا فعلوه وما نهيتهم عنه فاجتنبوه هذا الحديث أو نحوه وكذلك قوله المراء في القرآن كفر وكذلك ما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ قوله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ} {آل عمران 7} إلى قوله {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 422-423

{ آل عمران 7 فقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم ¹

" ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل "

فان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم فانهم يكونوا أضل كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ قوله { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } الزخرف 58 إذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه إلا كتاب منزل ونبي مرسل كما قال تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة 213 ولهذا قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء 59 وقد أنزل مع رسله الكتاب والميزان كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحديد 25 وقال { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } الشورى 17 والميزان قال كثير من المفسرين هو العدل وقال بعضهم هو ما به توزن الامور وهو ما به يعرف العدل وكذلك قالوا في قوله { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } الرحمن 7 الامثال المضروبة والاقبسة العقلية التي تجمع بين المتماثلات وتفرق بين المختلفات وقد امر الله بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } آل عمران 103 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام 159 وقال { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } آل عمران 105 وقد اخبر ان اهل الرحمة لا يختلفون فقال تعالى { وَلَا يَزَالُ لُونٌ مُخْتَلِفِينَ } { 118 } { إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ } { 119 } { هود 118-119 } ولهذا يوجد اتباع الناس للرسول اقلهم اختلافا كأهل الحديث والسنة فانهم اقل اختلافا من جميع الطوائف ²

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 453 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 341 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 310 و درء التعارض ج: 1 ص: 48 و منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 467 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 181

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 332-333

فالاخلاف المنقول عن فلاسفة اليونان والهند وأمثالهم أمر لا يحصيه إلا الله وبعده الخلاف عن أعظم الملل ابتداء كالأرضة فينا وبعد ذلك الخلاف الذي بين المعتزلة ونحوهم وبعد ذلك خلاف الفرق المنتسبة إلى الجماعة كالكلابية والكرامية والأشعرية ونحوهم ثم بعد ذلك اختلاف أهل الحديث وهم أقل الطوائف اختلافا في أصولهم لأن ميراثهم من النبوة أعظم من ميراث غيرهم فعصمهم حبل الله الذي اعتصموا به فقال **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً} آل عمران 103**¹

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا

وقال تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِنُفُوسِ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} الممتحنة 1** الآية وقال تعالى **{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ} المجادلة 22** وقال تعالى **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} الحجرات 10** وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالإجماع والإئتلاف ونهاهم عن الإفتراق والإختلاف فقال تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} 102} {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} 103} آل عمران 102-103** إلى قوله **{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} آل عمران 103** إلى قوله **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} آل عمران 106** قال ابن عباس رضي الله عنهما تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وقال **{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ} الأنعام 159** الآية²

فان الله ورسوله امرا بالجماعة والائتلاف ونهيا عن التفرقة والاختلاف وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان وفي الصحيحين عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحى والسهر وفي الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه وفي الصحيح عنه انه قال المسلم اخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله وفي الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال انصر أخاك ظالما أو مظلوما قيل يا رسول الله انصره مظلوما فكيف انصره ظالما قال تمنعه من الظلم فذلك نصرك اياه وفي الصحيح عنه أنه قال خمس تجب للمسلم على المسلم يسلم عليه إذا لقيه ويعوده إذا مرض ويشمته إذا عطس ويجيبه إذا دعاه ويشيعه إذا مات وفي الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لآخيه من الخير ما يحب لنفسه وقال والذي نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا

¹ منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 311

² مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 252

أخبركم بشئ إذا فعلتوه تحاببتهم أفشوا السلام بينكم فهذه الأحاديث وأمثالها فيها أمر الله ورسوله بما أمر به من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض وفي الصحيحين عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا وفي الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال ان الله يرضى لكم ثلاثا ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وان تناصحوا من ولاه الله امركم وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشرك دقه وجله وحقيقه وفي السنن عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال الا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال صلاح ذات البين فان فساد ذات البين هي الحالقة لا اقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين فهذه الأمور مما نهى الله ورسوله عنها وأمثال هذه النصوص في الكتاب والسنة كثيرة وقد جعل الله فيها عباده المؤمنين بعضهم أولياء بعض وجعلهم إخوة وجعلهم متناصرين متراحمين متعاطفين فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد أن تفترق وتختلف حتى يوالي الرجل طائفة ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى بلا برهان من الله تعالى وقد برأ الله نبيه ممن كان هكذا¹

هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة

فعن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة وقال إنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو عن الأزهر بن عبد الله الحراري وعن أبي عامر عبد الله بن يحيى عن معاوية ورواه عنه غير واحد منهم أبو اليمان وبقية وأبو المغيرة رواه أحمد وأبو داود في سننه وقد روى ابن ماجه هذا المعنى من حديث صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد عن عوف بن مالك

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 92-94 وزيارة القبور ج: 1 ص: 58 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 419-420

الأشجعي ويروى من وجوه أخر فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة واثنان وسبعون لا ريب أنهم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم ثم هذا الاختلاف الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم إما في الدين فقط وإما في الدين والدنيا ثم قد يؤول إلى الدنيا وقد يكون الاختلاف في الدنيا فقط وهذا الاختلاف الذي دلت عليه هذه الأحاديث هو مما نهى الله عنه في قوله سبحانه **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 105** وقوله **{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} الأنعام 159** وقوله **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الأنعام 153** وهو موافق لما رواه مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه أقبل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها وروى أيضا في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغارها وإن أمتي سيبلى ملكها ما روى منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا ورواه البرقاني في صحيحه وزاد وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى يعبد فئام من أمتي الأوثان وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وهذا المعنى محفوظ عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه يشير إلى أن الفرقة والاختلاف لا بد من وقوعهما في الأمة وكان يحذر أمته منه لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة كما روى النزال بن سيرة عن عبد الله بن مسعود قال سمعت رجلا قرأ آية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلفها فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فعرفت في وجهه الكراهية وقال كلا كما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا رواه مسلم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين مامع الآخر من الحق لأن كلا القارئین كان محسنا فيما قرأه وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا ولهذا قال حذيفة لعثمان أدرك هذه الأمة لا تختلف في الكتاب كما اختلفت فيه الأمم قبلهم لما رأى أهل الشام وأهل العراق يختلفون في حروف القرآن الاختلاف الذي نهى عنه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاد ذلك شيئين أحدهما تحريم الاختلاف في مثل هذا والثاني الاعتبار بمن كان قبلنا والحذر من مشابهتهم¹

الواجب رد التنازع الى الكتاب و السنة

قال الامام أحمد في خطبته في الرد على الجهمية و الزنادقة الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى و يصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى و يبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد احيوه و كم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس و أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين و إنتحال المبطلين و تأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة و أطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله و فى الله و فى الكتاب بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام و يخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعود بالله من فتن المضلين و الثانية طريقة هشام و أتباعه يحكى عنهم أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من إتصافه بالنقائص و مماثلته للمخلوقات فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء و اتباعهم و هو الإعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {102}** **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } {103} آل عمران 102- 103** و قال **{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة 213** وقال تعالى **{ المص {1} كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } {2}** **{ أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } {3}** الاعراف 1-3 و قال تعالى **{ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123}** **{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124}** **{ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125}** **{ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126}** طه 123-126 و قال تعالى **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّيعُوا اللَّهَ وَاطِّيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء 59** و قال تعالى **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } {1}** **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } {2}** الحجرات 1-2 و قال تعالى **{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ**

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 32-34

وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً {60} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً {61} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقاً {62} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً {63} وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً {64} فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً {65} النساء 60-65 و قوله تعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} {الأنعام 153} و قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً أَلَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} {الأنعام 159} و قوله تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} {مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} {الروم 30-32} و قوله {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} {الشورى 13} فهذه النصوص و غيرها تبين أن الله أرسل الرسل و أنزل الكتب لبيان الحق من الباطل و بيان ما اختلف فيه الناس و أن الواجب على الناس اتباع ما أنزل اليهم من ربهم و رد ما تنازعوا فيه الى الكتاب و السنة و ان من لم يتبع ذلك كان منافقا و ان من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل و لا يشقى و من أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالاً شقياً معذبا و أن الذين فرقوا دينهم قد برىء الله و رسوله منهم فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة و الجماعة المعتصمين بالكتاب و السنة المتبعين ما أنزل الله اليهم من ربهم و ذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبتة لنفسه فى كتابه أثبتناه و ما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفينا و كل لفظ و جد فى الكتاب و السنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ و كل لفظ و جد منفياً نفي ذلك اللفظ و أما الألفاظ التى لا توجد فى الكتاب و السنة بل و لا فى كلام الصحابة و التابعين لهم باحسان و سائر أئمة المسلممين لا إثباتها و لا نفيها و قد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لا تثبت و لا تنفى إلا بعد الإستفسار عن معانيها فان وجدت معانيها مما أثبتته الرب لنفسه أثبتت و ان وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت و ان وجدنا اللفظ أثبتت به حق و باطل أو نفي به حق و باطل أو كان مجملاً يراد به حق و باطل و صاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد و غير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق اثباتها و لا نفيها كلفظ الجوهر و الجسم و التحيز و الجهة و نحو ذلك من الألفاظ التى تدخل فى هذا المعنى فقل من تكلم بها نفياً أو إثباتاً إلا و أدخل فيها باطلاً و أن أراد بها حقاً و السلف و الأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل و كذب و قول على الله بلا علم و كذلك ذكر أحمد فى رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه و يقولون عليه بغير علم و كل ذلك مما حرمه الله و رسوله و لم يكره السلف هذه

لمجرد كونها اصطلاحية و لا كرهوا الإستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب و السنة و لا يخالف الكتاب و السنة إلا ما هو باطل لا يصح بعقل و لا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين و قال و أما توحيد أهل الباطل فهو الخوض فى الجواهر و الأعراض و إنما بعث الله النبي صلى الله عليه و سلم بانكار ذلك و لم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين فإنهما لم يكونا قد أحدثا فى زمنه و إنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة فإن أول من أحدثهما الجهمية و المعتزلة و قصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به و أنكرت الجهمية أسماءه أيضا و أول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسط و قال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا و لم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه و كلام السلف و الأئمة فى ذم هذا الكلام و أهله مبسوط فى غير هذا الموضع¹

"من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة"

فإن الربوبية العامة قد أقر بها المشركون الذين قال فيهم { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } يوسف 106 و إنما يصير الرجل مسلما حنيفا موحدا إذا شهد أن لا إله إلا الله فعبد الله و حده بحيث لا يشرك معه أحدا فى تأله و محبته له و عبوديته و إنابته إليه و إسلامه له و دعائه له و التوكل عليه و موالائه فيه و معاداته فيه و محبته ما يحب و بغضه ما يبغض و يفنى بحق التوحيد عن باطل الشرك و هذا فناء يقارنه البقاء فيفنى عن تأله ماسوى الله بتأله الله تحقيقا لقوله لا إله إلا الله فيفنى من قلبه تأله ما سواه و يثبت و يبقى فى قلبه تأله الله و حده و قد قال النبي صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح من مات و هو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة و فى الحديث الآخر من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة و قال فى الصحيح لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنها حقيقة دين الإسلام فمن مات عليها مات مسلما و الله تعالى قد أمرنا ألا نموت إلا على الإسلام فى غير موضع كقوله تعالى { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } آل عمران 102 و قال الصديق { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 و الصحيح من القولين أنه لم يسأل الموت و لم يتمنه و إنما سأل أنه إذا مات يموت على الإسلام فسأل الصفة لا الموصوف كما أمر الله بذلك و أمر به خليله إبراهيم و إسرائيل و هكذا قال غير واحد من العلماء منهم ابن عقيل و غيره و الله تعالى أعلم²

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 300-305

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 370

" أن للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق "

وقد صار الناس فى مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبى صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والإيمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبى وأما اذا أفرد اسم الإيمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للإيمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذى فى القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الإيمان وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به فى القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذى لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 ووصف الله أنبياء بنى اسرائيل بالاسلام فى قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } المائدة 44 والأنبياء كلهم مؤمنون ووصف الحواريين بالإيمان والاسلام فقال تعالى { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } المائدة 111 و { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 52 وحقيقة الفرق أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذى إرضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح وأما الإيمان فاصله تصديق وقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الإيمان بإيمان القلب وبخضوعه وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وفسر الإسلام بإستسلام مخصوص هو المبانى الخمس وهكذا فى سائر كلامه يفسر الإيمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا وذلك النوع أعلى ولهذا قال النبى الإسلام علانية والإيمان فى القلب فان الاعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما فى القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن لكن له لوازم قد تدل عليه واللازم لا يدل الا اذا كان ملزوما فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق فلا يدل فى حديث عبدالله بن عمرو وابى هريرة جميعا ان النبى قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة اعلى من تلك فان من كان

مأمونا سلم الناس منه وليس كل من سلموا منه يكون مأمونا فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون اليه خوفا ان يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لايمان فى قلبه وفى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال للنبي ما الاسلام قال اطعام الطعام ولين الكلام قال فما الايمان قال السماحة والصبر فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة وكذلك لين الكلام وأما السماحة والصبر فخلقان فى النفس قال تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} البلد 17 وهذا أعلى من ذلك وهو أن يكون صبارا شكورا فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره وهذا ضد الذى خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا فان ذلك ليس فيه عند النعمة ولا صبر عند المصيبة وتام الحديث فأى الاسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قال يا رسول الله أى المؤمنين أكمل ايمانا قال أحسنهم خلقا قال يا رسول الله أى القتل اشرف قال من أريق دمه وعقر جواده قال يا رسول الله فأى الجهاد افضل قال الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله قال يا رسول الله فأى الصدقة أفضل قال جهد المقل قال يا رسول الله فأى الصلاة أفضل قال طول القنوت قال يا رسول الله فأى الهجرة افضل قال من هجر السوء وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير تارة يروى مرسلا وتارة يروى مسندا وفى رواية أى الساعات أفضل قال جوف الليل الغابر وقوله افضل الايمان السماحة والصبر يروى من وجه اخر عن جابر عن النبي وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الاعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده أنه قال والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعى هذه أن لا أتيك فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به قال الاسلام قال وما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله وان توجه وجهك إلى الله وان تصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد إسلامه وفى رواية قال أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم وفى لفظ تقول أسلمت نفسى لله وخليت وجهى اليه وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبى هريرة قال قال رسول الله أن للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وان تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتسلم على بنى ادم اذا لقيتهم فان ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكة وان لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتهم ان سكت عنهم وتسليمك على أهل بيتك اذا دخلت عليهم فمن إنتقص منهم شيئا فهو سهم فى الاسلام تركه ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره¹

ونحن علينا أن نتبع ما أنزل الينا من ربنا من الكتاب والحكمة ونلزم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ونعتصم بحبل الله جميعا ولا نتفرق

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 260-266

ونأمر بما أمر الله به وهو المعروف وننهي عما نهى عنه وهو المنكر وأن نتحرى الاخلاص لله فى أعمالنا فان هذا هو دين الإسلام قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 102 الى قوله {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} آل عمران 106 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه البدعة والفرقة¹

قلب الإيمان

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} الزخرف 63 فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 102²

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} الزمر 29 فلا بد فى الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر 60 وثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 515

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جرده ودفعه وغمط الناس ازدراؤهم واحتقارهم¹

أهل البدع يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {102} **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } {103} **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {104} **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {105} **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } {106} **ال عمران 102-106 قال ابن عباس وغيره تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } {106} **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } {107} **ال عمران 106-107 وفي الترمذي عن أبي أمامة الباهلي عن النبي في الخوارج أنهم كلاب أهل النار وقرأ هذه الآية يوم تبيض وجوه وتسود وجوه قال الإمام أحمد بن حنبل صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وقد خرجها مسلم في صحيحه وخرج البخاري طائفة منها قال النبي يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقرآته مع قرآتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية وفي رواية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان والخوارج هم أول من كفر المسلمين يكفرون بالذنوب ويكفرون من خالفهم في بدعتهم ويستحلون دمه وما له وهذه حال أهل البدع يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة ويطيعون الله ورسوله فيتبعون الحق ويرحمون الخلق وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فعاقب الطائفتين أما الخوارج فقاتلوه فقتلهم وأما الشيعة فحرق غاليتهم بالنار وطلب قتل عبدالله بن سبأ فهرب منه وأمر بجلد من يفضله على أبي بكر وعمر وروى عنه من وجوه كثيرة أنه قال خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ورواه عنه البخاري في صحيحه²**************

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

² مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 278-279

والرافضة سلخوا في الصحابة مسلك التفرق فوالوا بعضهم وغلوا فيه وعادوا بعضهم وغلوا في معاداته وقد يسلك كثير من الناس ما يشبه هذا في أمرائهم وملوكهم وعلمائهم وشيوخهم فيحصل بينهم رفض في غير الصحابة تجد أحد الحزبين يتولى فلانا ومحبيه ويبغض فلانا ومحبيه وقد يسب ذلك بغير حق وهذا كله من التفرق والتشيع الذي نهى الله عنه ورسوله فقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} {الأنعام 159} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {102} {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} {103} آل عمران 102-103 وقال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} {106} {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {107} آل عمران 105-107 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة ولهذا كان أبو أمامة الباهلي وغيره يتأولها في الخوارج فأنه تعالى قد أمر المؤمنين كلهم أن يعتصموا بحبله جميعا ولا يتفرقوا وقد فسر حبله بكتابه وبيده وبالإسلام وبالإخلاص وبأمره وبعهده وبطاعته وبالجماعة وهذه كلها منقولة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وكلها صحيحة فإن القرآن يأمر بدين الإسلام وذلك هو عهده وأمره وطاعته والإعتصام به جميعا إنما يكون في الجماعة ودين الإسلام حقيقته الإخلاص لله وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم¹

محركات القلوب الى الله عز وجل ثلاثة

ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب الى الله عز وجل فتعتصم به فتقل آفاتنا أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته فنقول إعلم أن محركات القلوب الى الله عز وجل ثلاثة المحبة والخوف والرجاء وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {الأحقاف 13} والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق فالمحبة تلقى العبد في السير الى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 133-134

محبته تبعته على طلب محبوبه فأى شىء يحرك القلوب قلنا يحركها شيئان أحدهما كثرة الذكر للمحبيب لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} {41} وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا {42} {الأحزاب 41- 42 الآية والثانى مطالعة آياته ونعمائه قال الله تعالى {فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {الأعراف 69 وقال تعالى {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ} {النحل 53 وقال تعالى {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} {لقمان 20 وقال تعالى {وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} {النحل 18 فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثاً وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء والكلام فى التوحيد واسع وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الإستغناء بأدنى إشارة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم¹

{32} وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا {32}

وهذه الأصول الثلاثة وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر والعمل الصالح هي الموجبة للسعادة في كل ملة كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {البقرة 62} والشرع ما جاءت به الرسل وهو الأصل الرابع ذم الله التفرق والاختلاف في الكتاب والسنة فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة والتفرق في ذلك بالأمر في بعضه والنهي عن بعض هو من التفرق والاختلاف الذي ذمه الكتاب والسنة من المختلفين وقال تعالى {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} {البقرة 176} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَأَسْتَأْتِيَهُمْ فِي شَيْءٍ} {الأنعام 159} وقال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} {آل عمران 105} ولهذا غضب النبي لما اختلفوا في القراءة وقال كلاهما محسن وقال إن القرآن نزل علي سبعة أحرف فافروا منه ما تيسر وكذلك غضب لما تنازعوا في القدر وأخذوا يعارضون بين الآيات معارضة تفضي إلي الإيمان ببعض دون بعض وهذا التفرق والاختلاف يوجب الشرك وينافي حقيقة التوحيد الذي هو إخلاص الدين كله لله كما قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} {31} {الروم 30-31} فإقامة وجهة الدين حنيفاً وعبادة الله وحده لا شريك له وذلك يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به أن يكون الدين كله لله ثم قال الله تعالى {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا} {32}

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 95-96

الروم 31-32 وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل ما أنزله وأرسل به رسله وهذا يجمع كل حق ويجمع عليه كل حق وإذا لم يكن كذلك فلا بد أن يكون لكل قول ما يمتازون به مثل معظم مطاع أو معبود لم يأمر الله بعبادته وطاعته ومثل قول ودين ابتدعه لم يأذن الله به ولم يشرعه فيكون كل من الفريقين مشركا من هذا الوجه وأيضا ففي قلوب بني آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه وبذلك تصلح حياتهم ويدوم شملهم وحاجتهم إلي التآله أعظم من حاجتهم إلى الغذاء فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم وبفقد التآله تفسد النفس ولن يصلحهم إلا تآله الله وعبادته وحده لا شريك له وهي الفطرة التي فطروا عليها كما قال النبي في الحديث المتفق عليه كل مولود يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي فيما يروي عن ربه أنه قال إنني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا لكن أكثر الشرك في بني آدم بإيجاد إله آخر مع الله ودان بذلك كثير منهم في أنواع كثيرة¹

من جماع الدين تأليف القلوب

ان من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين فان الله تعالى يقول {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {الأنفال} 1 ويقول {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103 ويقول {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ النَّبِيُّاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 105 وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهاى عن الفرقة والاختلاف وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة وجماع السنة طاعة الرسول ولهذا قال النبي صلى الله عليه

وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أموركم وفي السنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود فقيهي الصحابة عن النبي أنه قال نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الامر ولزوم جماعة

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 42-44

المسلمين فان دعوتهم تحيط من رواءهم وقوله لا يغفل أى لا يحقد عليهن فلا يبغض هذه الخصال قلب المسلم بل يحبهن ويرضاهن¹

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ

فالأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ} {الأعراف 3} وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا} {الأنعام 155} واما السلف مثل قوله {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ} {النساء 83} ومنها قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال {فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا} {النساء 69} الآية وفيها الدلالة ومنها قوله {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ} {النساء 115} ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم ومنها قوله {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} {التوبة 100} والرضوان لا يكون مع اتفاقهم واصرارهم على ذنب او خطأ فان ذلك مقتضاه العفو فانه يدل على انه هدى فى كل شىء وقوله {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} {البقرة 257} فانه يقتضى اخراجهم من كل ظلمة ومنها قوله {هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} {الأحزاب 43} وقوله {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} {الحديد 9} ومنها قوله {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} {آل عمران 103} وما كان نحوها من الامر بالجماعة والنهى عن الفرقة²

إذا نظر إلى ما فعله ربه شكر و إذا نظر إلى نفسه إستغفر

في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه و سلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له أتفعل هذا و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا و قال صلى الله عليه و سلم لا يتمنين أحدكم الموت إما محسن فيزداد إحسنا و إما مسيئا فلعله أن يستعجب فالمؤمن دائما فى نعمة من ربه تقتضى شكرا و فى ذنب يحتاج إلى إستغفار و هو فى سيد الإستغفار يقول أبوء

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 51

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 502-503

لك بنعمتك علي و أبوء بذنبي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت و قد علم تحقيق قوله {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} النساء79 فما أصابه من الحسنات هي نعم الله فتقتضي شكرا و ما أصابه من المصائب فبذنوبه تقتضي تذكرا لذنوبه يوجب توبة و إستغفارا و قد جعل الله {اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ خِلفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ} الفرقان62 فيتوب و يستغفر من ذنوبه {أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} الفرقان62 لربه على نعمه و كل ما يفعله الله بالعبد من نعمة و كل ما يخلفه الله فهو نعمة الله عليه فكلما نظر إلى ما فعله ربه شكر و إذا نظر إلى نفسه إستغفر و التذكر قد يكون تذكر ذنوبه و عقاب ربه و قد يدخل فيه تذكر آلائه و نعمه فإن ذلك يدعو إلى الشكر قال تعالى {اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} الأحزاب9 في غير موضع فقد أمر بذكر نعمه فالتذكر يتذكر نعم ربه و يتذكر ذنوبه و أيضا فهو ذكر الشكور لأنه مقصود لنفسه فإن الشكر ثابت في الدنيا و الآخرة و ذكر التذكر لأنه أصل للإستغفار و الشكر و غير ذلك فذكر المبدأ و ذكر النهاية و هذا المعنى يجمع ما قيل و الله سبحانه أعلم و التذكر إسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره كما قال {أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} فاطر37 أي قامت الحجة عليكم بالندير الذي جاءكم و بتعميركم عمرا يتسع للتذكر و قد أمر سبحانه بذكر نعمه في غير موضع كقوله {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ} البقرة231 و المطلوب بذكرها شكرها كما قال {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 150} كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} 151} فَادْكُرُونِي أذكركم و اشكروا لي وَلا تَكْفُرُونِ} 152} البقرة150-152¹

الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة

قال تعالى {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} الأنعام135 و المكان والمكانة قد يراد به ما يستقر الشيء عليه وإن لم يكن محيطا به كالسقف مثلا قد يراد به ما يحيط به فالمهتدون لما كانوا على هدى من ربهم ونور وبينة وبصيرة صار مكانة لهم استقروا عليها وقد تحيط بهم بخلاف الذين قال فيهم {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ} الحج11 فإن هذا ليس ثابتا مستقرا مطمئنا بل هو كالواقف على حرف الوادي وهو جانبه فقد يطمئن إذا أصابه خير وقد ينقلب على وجهه ساقطا في الوادي وكذلك فرق بين من {أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ} التوبة109 وبين {مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} التوبة109

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 187-190

وكذلك الذين كانوا {عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ} آل عمران 103 فأنفذهم منها وشواهد هذا كثير فقد تبين أن الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة وهدى ونور وهو الإيمان الذي فى قلوبهم والعلم والعمل الصالح¹

قوله تعالى {وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا} آل عمران 103 فلولا انقاذه لسقطوا ومن كان واقفا على شفير فهلك فهلكه موقوف على سقوطه بخلاف ما اذا بان وبعد عن ذلك فقد بعد عن الهلاك فأصحابها كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب²

وصف الواجب بصفات متلازمة

ومن جهة أنه اذا وصف الواجب بصفات متلازمة دل على أن كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها وهذا مثل الصراط المستقيم الذى أمرنا الله بسؤال هدايته فانه قد وصف بأنه الاسلام ووصف بأنه اتباع القرآن ووصف بأنه طاعة الله ورسوله ووصف بأنه طريق العبودية ومعلوم أن كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه ومسامها كلها واحد وان تنوعت صفاته فأى صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها فانه مدلول الأخرى وكذلك أسماء الله تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله هى مثل أسماء دينه وكذلك قوله تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103 قيل حبل الله هو دين الاسلام وقيل القرآن وقيل عهده وقيل طاعته وأمره وقيل جماعة المسلمين وكل هذا حق وكذلك اذا قلنا الكتاب والسنة والاجماع فمدلول الثلاثة واحد فان كل ما فى الكتاب فالرسول موافق له والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة فليس فى المؤمنين الا من يوجب اتباع الكتاب وكذلك كل ما سنه الرسول فالقرآن يأمر باتباعه فيه والمؤمنون مجتمعون على ذلك وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون فانه لا يكون الا حقا موافقا لما فى الكتاب والسنة لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول وأما الرسول فينزل عليه وحى القرآن ووحى آخر هو الحكمة كما قال ألا انى أوتيت الكتاب ومثله معه وقال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة فيعلمه اياها كما يعلمه القرآن فليس كل ما جاءت به السنة يجب أن يكون مفسرا فى القرآن بخلاف ما يقوله أهل الاجماع فانه لا بد أن يدل عليه الكتاب والسنة فان الرسول هو الوساطة بينهم وبين الله فى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه³

العى على القلب لا عى اللسان

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 63-64

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 687

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 39 و النبوات ج: 1 ص: 235

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} آل عمران 105 ان الله علم

الانسان البيان كما قال تعالى {الرَّحْمَنُ} {1} {عَلَّمَ الْقُرْآنَ} {2} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ} {3} {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} {4} {الرحمن 1-4} وقال تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} البقرة 31 وقال {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} {العلق 5} والبيان بيان القلب واللسان كما أن العمى والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى {صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} البقرة 18 وقال {صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} البقرة 171 وقال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال وفي الاثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب وكان مسعود يقول إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباههم عليه كما قال الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات الحديث وقد قرىء قوله {وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} الأنعام 55 بالرفع والنصب أي ولتتبين أنت سبيلهم فالانسان يستبين الأشياء وهم يقولون قد بان الشيء وبينته وتبين الشيء وتبينته واستبان الشيء واستبينته كل هذا يستعمل لازما ومتعديا ومنه قوله تعالى {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} الحجرات 6 هو هنا معتمد ومنه قوله {بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ} النساء 19 أي متبينة فهنا هو لازم والبيان كالكلام يكون مصدر بان الشيء بيانا ويكون اسم مصدر لبين كالكلام والسلام لسلم وبين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء ويكون بمعنى بينت الشيء أي اوضحته وهذا هو الغالب عليه ومنه قوله ان من البيان لسحرا والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع حتى يتبين له الشيء ويستبين كما قال تعالى {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} آل عمران 138 الآية ومع هذا فالذي لا يستبين له كما قال تعالى {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ} فصلت 44 وقال {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} النحل 44 وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} إبراهيم 4 وقال {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} النور 54 وقال {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} التوبة 115 وقال {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} النساء 176 وقال {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي} الأنعام 57 الآية وقال {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} هود 17 وقال {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} البقرة 99 وقال {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} النور 61¹

الإجماع دليل على النص

ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص فالإجماع دليل على نص موجود معلوم عند الأئمة ليس مما درس علمه والناس قد اختلفوا في جواز الإجماع عن اجتهاد ونحن نجوز أن

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 63

يكون بعض المجمعين قال عن اجتهاد لكن لا يكون النص خافيا على جميع المجتهدين وما من حكم يعلم أن فيه إجماعا إلا وفي الأمة من يعلم أن فيه نصا وحينئذ فالإجماع دليل على النص ولهذا قال تعالى { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 115 فعلق الوعيد بمشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين مع العلم بأن مجرد مشاقة الرسول توجد الوعيد ولكن هما متلازمان فهذا علقه بهما كما علقه بمعصية الله ورسوله وهما متلازمان أيضا فنحن نذكر بعض ما يستدل به على الإجماع مطلقا ويستدل به على من يقول قد لا يكون معه نص كقوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 110 فهذا يقتضي أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ومن المعلوم أن إيجاب ما أوجبه الله وتحريم ما حرمه الله هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل هو نفسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجب أن يوجبوا كل ما أوجبه الله ورسوله ويحرموا كل ما حرمه الله ورسوله وحينئذ فيمتنع أن يوجبوا حراما ويحرموا واجبا بالضرورة فإنه لا يجوز عليهم السكوت عن الحق في ذلك فكيف يجوز السكوت عن الحق والتكلم بنقيضه من الباطل ولو فعلوا ذلك لكانوا قد أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف وهو خلاف النصر وأيضا فقوله تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 والاستدلال به كما تقدم وأيضا فقوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } البقرة 143 وقوله { هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } الحج 78 ومن جعلهم الرب شهداء على الناس فلا بد أن يكونوا عالمين بما يشهدون به ذوي عدل في شهادتهم فلو كانوا يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويوجبون ما عفا الله عنه ويسقطون ما أوجبه الله لم يكونوا كذلك وكذلك إذا كانوا يجرحون الممدوح ويمدحون المجروح فإذا شهدوا أن أبا بكر أحق بالإمامة وجب أن يكونوا صادقين في هذه الشهادة عالمين بما شهدوا به وكذلك إذا شهدوا أن هذا مطيع لله وهذا عاص لله وهذا فعل ما يستحق عليه الثواب وهذا فعل ما يستحق عليه العقاب وجب قبول شهادتهم فإن الشهادة على الناس تتناول الشهادة بما فعلوه من مذموم ومحمود والشهادة بأن هذا مطيع وهذا عاص هي تتضمن الشهادة بأفعالهم وأحكام أفعالهم وصفاتهم وهو المطلوب وفي الصحيحين عن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنائز فأتوا عليها خيرا فقال وجبت ومر عليه بجنائز فأتوا عليها شرا فقال وجبت فقيل يا رسول الله ما قولك وجبت قال هذه الجنائز أتيتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنائز أتيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض وأيضا فقوله { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 115 فإنه توعده على المشاقة للرسول واتباع غير سبيل المؤمنين وذلك يقتضي أن كلا منهما مذموم فإن مشاقة الرسول وحدها مذمومة بالإجماع فلو لم يكن الآخر مذموما لكان قد رتب الوعيد على وصفين مذموم وغير مذموم

وهذا لا يجوز ونظير هذا قوله تعالى {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} {68} يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا} {69} الفرقان 68-69 فإنه يقتضي أن كل واحد من الخصال الثلاثة مذموم شرعا وحينئذ إذا كان المؤمنون قد أوجبوا أشياء وحرموا أشياء فخالفهم مخالف وقال إن ما أوجبه ليس بواجب وما حرّمه ليس بحرام فقد اتبع غير سبيلهم لأن المراد بسبيلهم اعتقاداتهم وأفعالهم وإذا كان كذلك كان مذموما ولو لم يكن سبيلهم صوابا وحقا لم يكن المخالف لهم مذموما وأيضا فقوله تعالى {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} النساء 59 فجعل وجوب الرد إلى الله والرسل معلقا بالتنازع والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدمه فعلم أنه عند انتفاء التنازع لا يجب الرد إلى الله ورسوله فدل على أن إجماعهم إنما يكون على حق وصواب فإنه لو كان على باطل وخطأ لم يسقط عنهم وجوب الرد إلى الكتاب والسنة لأجل باطلهم وخطئهم ولأن أمر الله ورسوله حق حال إجماعهم ونزاعهم فإذا لم يجب الرد عليه عند الإجماع دل على أن الإجماع موافق له لا مخالف له فلما كان المستدل بالإجماع متبعاً له في نفس الأمر لم يحتج إلى الرد إليه وأيضا قوله تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103 أمرهم بالاجتماع ونهاهم عن الافتراق فلو كان في حال الاجتماع قد يكونون مطيعين لله تارة وعاصين له أخرى لم يجز أن يأمر به إلا إذا كان اجتماعا على طاعة والله أمر به مطلقا ولأنه لو كان كذلك لم يكن فرق بين الاجتماع والافتراق لأن الافتراق إذا كان معه طاعة كان مأمورا به مثل أن يكون الناس نوعين نوع يطيع الله ورسوله ونوع يعصيه فإنه يجب أن يكون مع المطيعين وإن كان في ذلك فرقة فلما أمرهم بالاجتماع دل على أنه مستلزم لطاعة الله¹

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ولهذا كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله واما مضت عليه جماعة المسلمين فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله وأمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103²

{إِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 345-349

² مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 368

كان شيطان الخوارج مقموعا لما كان المسلمون مجتمعين في عهد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان فلما إفتقرت الأمة في خلافة علي رضي الله عنه وجد شيطان الخوارج موضع الخروج فخرجوا وكفروا عليا ومعاوية ومن والاهما فقاتلهم أولى الطائفتين بالحق علي بن أبي طالب كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال تمرق مارقة علي حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق ولهذا لما ناظرهم من ناظرهم كابين عباس وعمر بن عبد العزيز وغيرهما بينوا لهم بطلان قولهم بالكتاب والميزان كما بين لهم ابن عباس حيث أنكروا علي بن أبي طالب قتاله لأهل الجمل ونهيه عن اتباع مدبرهم والاجهاز على جريحهم وغنيمة أموالهم وذراريهم وكانت حجة الخوارج أنه ليس في كتاب الله الا مؤمن أو كافر فإن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم وإن كانوا كفارا أبيحت دماؤهم وأموالهم وذراريهم فأجابهم ابن عباس بأن القرآن يدل على أن عائشة أم المؤمنين وبين أن أمهات المؤمنين حرام فمن أنكر أمومتها فقد خالف كتاب الله ومن استحل فرج أمه فقد خالف كتاب الله وموضع غلظهم ظنهم ان من كان مؤمنا لم يبيح قتاله بحال وهذا مما ضل به من ضل من الشيعة حيث ظنوا أن من قاتل عليا كافرا فإن هذا خلاف القرآن قال تعالى {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } 9 { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } 10 { الحجرات 9- 10 فأخبر سبحانه أنهم مؤمنون مقتتلون وأمر إن بغت احدهما على الأخرى ان تقاتل التي تبغى فانه لم يكن امر بقتال أحدهما ابتداء ثم أمر إذا فاءت إحداهما بالاصلاح بينهما بالعدل وقال { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } الحجرات 10 فدل القرآن على إيمانهم واخوتهم مع وجود الأقتتال والبغى وأنه يأمر بقتال الباغية حيث أمر الله به وكذلك عمر بن عبدالعزيز لما ناظرهم وأقروا بوجوب الرجوع الى ما نقله الصحابة عن الرسول من فرائض الصلاة بين لهم عمر أنه كذلك يجب الرجوع الى ما نقلوه عنه من فريضة الرجم ونصاب الزكاة وان الفرق بينهما فرق بين المتماثلين فرجعوا الى ذلك وكذلك ابن عباس ناظرهم لما أنكروا تحكيم الرجال بأن الله قال في الزوجين إذا خيف شقاق بينهما أن يبعث حكما من أهله وحكما من أهلها وقال {إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا } النساء 35 وأمر ايضا أن يحكم في الصيد يجزاء {مَثَلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ } المائدة 95 فمن أنكر التحكيم مطلقا فقد خالف كتاب الله تعالى وذكر ابن عباس ان التحكيم في أمر أميرين لأجل دماء الأمة أولى من التحكيم في أمر الزوجين والتحكيم لأجل دم الصيد وهذا استدلال من ابن عباس بالاعتبار وقياس الأولى وهو من الميزان فاستدل عليهم بالكتاب والميزان قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء 59 أمر سبحانه بطاعته وطاعه رسوله وأولي الأمر منا وأمر إن تنازعنا في شيء أن نرده الى الله والرسول فدل هذا على ان كل ما تنازع المؤمنون فيه من شيء فعليهم ان يردوه الى الله والرسول والمعلق بالشرط يعدم عند عدم الشرط فدل ذلك على أنهم اذا لم يتنازعوا لم يكن هذا الأمر

ثابتاً وكذلك إنما يكون لأنهم إذا لم يتنازعوا كانوا على هدى وطاعة لله ورسوله فلا يحتاجوا حينئذ ان يأمرؤا بما هم فاعلون من طاعة الله والرسول ودل ذلك على أنهم إذا لم يتنازعوا بل اجتمعوا فانهم لا يجتمعون على ضلالة ولو كانوا قد يجتمعون على ضلالة لكانوا حينئذ أولى بوجوب الرد الى الله والرسول منهم اذا تنازعوا فقد يكون احد الفريقين مطيعا لله والرسول فإذا كانوا مأمورين في هذا الحال بالرد الى الله والرسول ليرجع الى ذلك فريق منهم خرج عن ذلك فلأن يؤمروا بذلك إذا قدر خروجهم كلهم عنه بطريق الأولى والأحرى أيضا فقد قال لهم **{وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا } آل عمران 103** فلما نهاهم عن التفرق مطلقا دل ذلك على أنهم لا يجتمعون على باطل إذ لو اجتمعوا على باطل لوجب اتباع الحق المتضمن لتفرقهم وبين أنه ألفت بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا كما قال **{ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } 62** { وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ } 63 { الانفال 62-63 فإذا كانت قلوبهم متألفة غير مختلفة على أمر من الأمور كان ذلك من تمام نعمة الله عليهم ومما من به عليهم فلم يكن ذلك اجتماعا على باطل لأن الله تعالى أعلم بجميع الأمور¹

حاجة العبد الى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض الى الطب

فان الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وبعثوا جميعا بالدعوة الى الله وتعريف الطريق الموصل اليه وبيان حالهم بعد الوصول اليه فالأصل الأول يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر وذكر أيام الله في أوليائه واعدائه وهى القصص التى قصها على عباده والأمثال التى ضربها لهم والأصل الثانى يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهى والاباحة وبيان ما يحبه الله وما يكرهه والأصل الثالث يتضمن الايمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر والسعادة والفلاح موقوفة عليها ولا سبيل الى معرفتها إلا من جهة الرسل فان العقل لا يهتدى الى تفاصيلها ومعرفة حقائقها وإن كان قد يدرك وجه الضرورة اليها من حيث الجملة كالمريض الذى يدرك وجه الحاجة الى الطب ومن يداويه ولا يهتدى الى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه وحاجة العبد الى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض الى الطب فان آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان وأما اذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا أو شقى شقاوة لا سعادة معها أبدا فلا فلاح إلا باتباع الرسول فان الله خص بالفلاح اتباعه المؤمنين وأنصاره كما قال تعالى **{ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الأعراف 157** أى لا مفلح إلا هم كما قال تعالى **{ وَلَتَكُنَّ مِّنكُمْ أُمَّةٌ**

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 89-92

يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ { آل عمران 104
 فخص هؤلاء بالفلاح كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويطيعون الصلاة وينفقون مما رزقهم
 ويؤمنون بما أنزل الى رسوله وما أنزل من قبله ويوقنون بالآخرة وبالهدى والفلاح فعلم بذلك ان
 الهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجودا وعمدا وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء
 وبعث به جميع الرسل¹

ان المعصية اذا خفيت لم تضر الا صاحبها ولكن اذا ظهرت فلم تنكر ضرت العامة

ان صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله
 ورسوله ولا يتم ذلك الا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبه صارت هذه الأمة خير أمة
 أخرجت للناس قال الله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 { آل عمران 110 وقال تعالى { وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
 الْمُنْكَرِ { آل عمران 104 وقال تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ { التوبة 71 وقال تعالى عن بنى اسرائيل { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرِ
 فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ { المائدة 79 وقال تعالى { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ
 يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ { الأعراف 165 فأخبر الله
 تعالى ان العذاب لما نزل نجى الذين ينهون عن السوء وأخذ الظالمين بالعذاب الشديد وفى
 الحديث الثابت ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه خطب الناس على منبر رسول الله فقال ايها
 الناس انكم تفرعون هذه الآية وتضعونها فى غير موضعها { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا
 يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ { المائدة 105 وانى سمعت رسول الله يقول ان الناس إذا رأوا المنكر
 فلم يغيروه أوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده وفى حديث آخر ان المعصية اذا خفيت لم تضر
 الا صاحبها ولكن اذا ظهرت فلم تنكر ضرت العامة فالأمر بالمعروف مثل الصلاة والزكاة
 والصيام والجج والصدق والأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن العشرة مع الأهل والجيران
 ونحو ذلك فالواجب على ولي الأمر أن يامر بالصلوات المكتوبات جميع من يقدر على أمره ويعاقب
 التارك بإجماع المسلمين فإن كان التاركون طائفة ممتنعة قوتلوا على تركها بإجماع المسلمين وكذلك
 يقاتلون على ترك الزكاة والصيام وغيرهما وعلى استحلال ما كان من المحرمات الظاهرة المجمع
 عليها ككناح ذوات المحارم والفساد في الأرض ونحو ذلك فكل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من
 شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة يجب جهادها حتى يكون الدين كله لله باتفاق العلماء وإن كان

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 95-97

التارك للصلاة واحدا فقد قيل إنه يعاقب بالضرب والحبس حتى يصلي وجمهور العلماء على أنه يجب قتله إذا امتنع من الصلاة بعد ان يستتاب فإن تاب وصلى وإلا قتل وهل يقتل كافرا أو مسلما فاسقا فيه قولان وأكثر السلف على انه يقتل كافرا وهذا كله مع الاقرار بوجوبها أما إذا جحد وجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين وكذلك من جحد سائر الوجبات المذكورة والمحرمات التي يجب القتال عليها فالعقوبة على ترك الواجبات وفعل المحرمات هو مقصود الجهاد في سبيل الله وهو واجب على الأمة بالتفاق كما دل عليه الكتاب والسنة وهو من أفضل الأعمال قال رجل يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد في سبيل الله قال لا تستطيعه أو لا تطيقه قال أخبرني به قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تقتر قال ومن يستطيع ذلك قال فذلك الذي يعدل الجهاد في سبيل الله وقال إن في الجنة لمئة درجة بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله كلاهما في الصحيحين وقال النبي صلى الله عليه وسلم رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذورة سنامه الجهاد في سبيل الله¹

و يكون الكتاب أو السنة نهى عن معرفة المسائل التي تدخل فيما يستحق أن يكون من أصول دين الله فهذا لا يكون اللهم إلا أن نهى عن بعض ذلك في بعض الأحوال مثل مخاطبة شخص بما يعجز عنه فهمه فيفضل كقول عبد الله بن مسعود ما من رجل يحدث قوما حديثا لا يبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم وكقول علي عليه السلام حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله أو مثل قول حق يستلزم فساد أعظم من تركه فيدخل في قوله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان رواه مسلم²

مناط الوجوب هو القدرة

وإذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهى فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر وهذا نعت النبي والمؤمنين كما قال تعالى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 وهذا واجب على كل مسلم قادر وهو فرض على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقدّم به غيره والقدرة هو السلطان والولاية فذووا السلطان أقدر من غيرهم وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم فان مناط الوجوب هو القدرة فيجب على كل انسان بحسب قدرته قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن 16³

¹السياسة الشرعية ج: 1 ص: 63-65 و مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 306-307

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 455

³مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 66

" كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الاقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة "

”

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله من الدين فان رساله الله اما إخبار وإما انشاء فالأخبار عن نفسه وعن خلقه مثل التوحيد والقصص الذي يندرج فيه الوعد والوعيد والانشاء والأمر والنهي والاباحة وهذا كما ذكر في أن قل هو الله احد تعدل ثلث القرآن لتضمنها ثلث التوحيد اذ هو قصص وتوحيد وأمر وقوله سبحانه في صفة نبينا {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} الأعراف 157 هو بيان لكمال رسالته فانه هو الذي امر الله على لسانه بكل معروف ونهى عن كل منكر وأحل كل طيب وحرم كل خبيث ولهذا روى عنه أنه قال انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق وقال في الحديث المتفق عليه مثلى ومثل الانبياء كمثلى رجل بنى دارا فاتهمها وأكملها الا موضع لبنة فكان الناس يطيفون بها ويعجبون من حسننها ويقولون لولا موضع اللبنة فأنا تلك اللبنة فبه كمل دين الله المتضمن للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر واحلال كل طيب وتحريم كل خبيث وأما من قبله من الرسل فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات كما قال {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} النساء 160 وربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث كما قال تعالى {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ} آل عمران 93 وتحريم الخبائث يندرج في معنى النهي عن المنكر كما ان احلال الطيبات يندرج في الامر بالمعروف لأن تحريم الطيبات مما نهى الله عنه وكذلك الأمر بجميع المعروف والنهي عن كل منكر مما لم يتم الا للرسول الذي تم الله به مكاروم الاخلاق المندرجة في المعروف وقد قال الله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} المائدة 3 فقد أكمل الله لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضى لنا الاسلام ديننا وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها حيث قال {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} آل عمران 110 وقال تعالى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 ولهذا قال أبو هريرة كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الاقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة فبين سبحانه أن هذه الامة خير الأمم للناس فهم أنفعهم لهم وأعظمهم احسانا اليهم لأنهم كملوا أمر الناس بالمعروف ونهيههم عن المنكر من جهة الصفة والقدر حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهذا كمال النفع للخلق وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف ولا نهوا كل أحد عن كل منكر ولا جاهدوا على ذلك بل منهم من لم يجاهد والذين جاهدوا كبنى اسرئيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم كما يقاتل الصائل الظالم لا لدعوة المجاهدين وأمرهم بالمعروف ونهيههم عن المنكر كما قال موسى لقومه {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} {21} قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا

جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ {22} المائدة 21-22 الى قوله {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} المائدة 24 وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ائْبَعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} البقرة 246 فعللوا القتال بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ومع هذا فكانوا ناكلين عما أمروا به من ذلك ولهذا لم تحل لهم الغنائم ولم يكونوا يطؤون بملك اليمين ومعلوم أن أعظم الأمم المؤمنين قبلنا بنوا اسرائيل كما جاء في الحديث المتفق على صحته في الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خرج علينا النبي يوما فقال عرضت على الامم فجعل يمر النبي ومعه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي معه الرهط والنبي ليس معه أحد ورأيت سوادا كثيرا سد الافق فرجوت ان يكون امتى فقيل هذا موسى وقومه ثم قيل لى أنظر فرأيت سوادا كثيرا سد الافق فقيل لى انظر هكذا وهكذا فرأيت سواد كثيرا سد الأفق فقيل هؤلاء امتك ومع هؤلاء سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم بين لهم فتذاكر اصحاب النبي فقالوا أما نحن فولدنا فى الشرك ولكنا آمنة بالله ورسوله ولكن هؤلاء ابناؤنا فبلغ النبي فقال هم الذين لا يتطيرون ولا يكتونون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال أمنهم أنا يا رسول الله قال نعم فقام آخر فقال أمنهم أنا فقال سبقك بها عكاشة ولهذا كان اجماع هذه الامة حجة لأن الله تعالى أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر فلو اتفقوا على إباحة محرم أو اسقاط واجب أو تحريم حلال أو اخبار عن الله تعالى او خلقه بباطل لكانوا متصفين بالأمر بالمنكر والنهى عن معروف من الكلم الطيب والعمل الصالح بل الآية تقتضى أن مالم تأمر به الامة فليس من المعروف ومالم تنه عنه فليس من المنكر وإذا كانت أمره بكل معروف ناهية عن كل منكر فكيف يجوز ان تأمر كلها بمنكر او تنهى كلها عن معروف والله تعالى كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله {وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} آل عمران 104 وإذا أخبر بوقوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها لم يكن من شرط ذلك أن يصل امر الأمر ونهى الناهى منها الى كل مكلف فى العالم اذا ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة فكيف يشترط فيما هو من توابعها بل الشرط ان يتمكن المكلفون من وصول ذلك اليهم ثم إذا فرطوا فلم يسعوا فى وصوله اليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التقريط منهم لا منه وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد ايضا كذلك فاذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته اذ هو واجب على كل انسان بحسب قدرته كما قال النبي من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وإذا كان كذلك فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واتمامه بالجهاد هو من اعظم المعروف الذى أمرنا

به ولهذا قيل ليكن امرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر واذا كان هو من اعظم الواجبات والمستحبات فالواجبات والمستحبات لا بد ان تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة اذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب والله لا يحب الفساد بل كل ما أمر الله به فهو صلاح وقد أثنى الله على الصالح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذم المفسدين في غير موضع فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به وان كان قد ترك واجب وفعل محرم إذ المؤمن عليه أن يتقى الله في عبادته وليس عليه هداهم وهذا معنى قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } المائدة 105 والاهتداء انما يتم باداء الواجب فاذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال وذلك يكون تارة بالقلب وتارة باللسان وتارة باليد فأما القلب فيجب بكل حال اذ لا ضرر في فعله ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النبي وذلك أدنى أو أضعف الايمان وقال ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل وقيل لابن مسعود من ميت الاحياء فقال الذى لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان وهنا يغلط فريقان من الناس فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تاويلا لهذه الآية كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه في خطبته انكم تقرأون هذه الآية { عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } المائدة 105 وانكم تضعونها في غير موضعها وانى سمعت النبي يقول ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك ان يعمهم الله بعقاب منه والفريق الثانى من يريد ان يأمر وينهى إما بلسانه واما بيده مطلقا من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح وما يقدر عليه وما لا يقدر كما في حديث أبى ثعلبة الخشنى سألت عنها رسول الله قال بل أنتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه ورأيت أمرا لا يدان لك به فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام فان من ورائك أيام الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر للعامل فيهن كاجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله فيأتى بالأمر والنهى معتقدا انه مطيع فى ذلك لله ورسوله وهو معتد فى حدوده كما انتصب كثير من أهل البدع والاهواء كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهى والجهاد على ذلك وكان فساده أعظم من صلاحه ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال أدوا اليهم حقوقهم ولسوا الله حقوقكم وقد بسطنا القول فى ذلك فى غير هذا الموضوع ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة وترك القتال فى الفتنة واما أهل الأهواء كالمعتزلة فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة التوحيد الذى هو سلب الصفات و العدل الذى هو التكذيب بالتقدر و المنزلة بين المنزلتين و انفاذ الوعيد و الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى منه قتال الأئمة وقد تكلمت على قتال الأئمة فى غير هذا الموضوع وجماع ذلك داخل فى القاعدة العامة فيما اذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات او تزامت فانه يجب

ترجيح الراجح منها فيما اذا ازدهمت والمصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد فان الأمر والنهي وان كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له فان كان الذي يفوت من المصالح او يحصل من المفاسد اكثر لم يكن مأمورا به بل يكون محرما اذا كانت مفسدته اكثر من مصلحته لكن اعتبار مقادير والمصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة فمتى قدر الانسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها والا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر وقل ان تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالاتها على الأحكام وعلى هذا اذا كان الشخص او الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما بل اما أن يفعلوهما جميعا أو يتركوهما جميعا لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر بل ينظر فان كان المعروف اكثر أمر به وان استلزم ما هو دونه من المنكر ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات وان كان المنكر أغلب نهى عنه وان استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرا بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله وان تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما فتارة يصلح الأمر وتارة يصلح النهي وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهى حيث كان المعروف والمنكر متلازمين وذلك في الأمور المعينة الواقعة وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقا وينهى عن المنكر مطلقا وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بالمعروف وينهى عن منكرها ويحمد محمودها ويذم مذمومها بحيث لا يتضمن الأمر بالمعروف فوات اكثر منه أو حصول منكر فوقه ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه أو فوات معروف أرجح منه واذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق فلا يقدم على الطاعة الا بعلم ونية واذا تركها كان عاصيا فترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية وهذا باب واسع ولا حول ولا قوة الا بالله ومن هذا الباب اقرار النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي وامثاله من أنمة النفاق والفجور لما لهم من اعون فازالة منكره بنوع من عقابه مستلزمه ازالة معروف اكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم وبنفور الناس اذا سمعوا أن محمدا يقتل أصحابه ولهذا لما خاطب الناس في قصة الافك بما خاطبهم به واعتذر منه وقال له سعد بن معاذ قوله الذي أحسن فيه حمى له سعد بن عباد مع حسن إيمانه وأصل هذا أن تكون محبة الانسان للمعروف وبغضه للمنكر واراادته لهذا وكراهته لهذا موافقة لحب الله وبغضه واراادته وكراهته الشرعيين وأن يكون فعله للمحبيب ودفعه للمكروه بحسب قوته وقدرته فان الله لا يكلف نفسا الا وسعها وقد قال {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} {التغابن} 16 فأما حب القلب وبغضه واراادته وكراهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا يوجب نقص ذلك الا نقص الايمان وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ومتى كانت ارادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فانه يعطى ثواب الفاعل الكامل كما قد بيناه في غير هذا الموضع فان من الناس من يكون حبه وبغضه واراادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله وهذا من نوع الهوى فان اتبعه الانسان فقد اتبع

هواه { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ } القصص 50 فان أصل الهوى محبة النفس ويتبع ذلك بغضها ونفس الهوى وهو الحب والبغض الذى فبالنفس لا يلام عليه فان ذلك قد لا يملك وإنما يلام على اتباعه كما قال تعالى يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وقال تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ } القصص 50 وقال النبى ثلاث منجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الفقر والغنى وكلمة الحق فى الغضب والرضا وثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه والحب والبغض بتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض ووجد واردة وغير ذلك فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله بل قد يصعد به الأمر الى أن يتخذ الهه هواه واتباع الأهواء فى الديانات أعظم من اتباع الأهواء فى الشهوات فان الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين كما قال تعالى { فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } القصص 50 وقال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 الآية الى ان قال { بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } الروم 29 وقال تعالى { وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَّا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } الأنعام 119 الآية وقال تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } المائدة 77 وقال تعالى { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } البقرة 120 وقال تعالى فى الآية الأخرى { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ } البقرة 145 وقال { وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ } المائدة 49 ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء كما كان السلف سمونهم أهل الأهواء وذلك ان كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه والعلم بالدين لا يكون الا بهدى الله الذى بعث به رسوله ولهذا قال تعالى فى موضع { وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } الأنعام 119 وقال فى موضع آخر { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ } القصص 50 فالواجب على العبد أن ينظر فى نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه هل هو موافق لأمر الله ورسوله وهو هدى الله الذى أنزله على رسوله بحيث يكون مأمورا بذلك الحب والبغض لا يكون متقدما فيه بين يدي الله ورسوله فانه قد قال { لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } الحجرات 1 ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله ومجرد الحب والبغض هوى لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله ولهذا قال { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } ص 26 فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله وهو هداه الذى بعث به رسوله وهو السبيل اليه وتحقيق ذلك

أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها وقد قال تعالى {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} هود7 وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله أخلصه وأصوبه فان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فالعمل الصالح لا بد أن يراد به وجه الله تعالى فان الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما أريد به وجهه وحده كما في الصحيح عن النبي قال يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غير فأننا برئ منه وهو كله للذي أشرك وهذا هو التوحيد الذي هو أصل الاسلام وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله وله خلق الخلق وهو حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ولا بد مع ذلك أن يكون العمل صالحا وهو ما أمر الله به ورسوله وهو الطاعة فكل طاعة عمل صالح وكل عمل صالح طاعة وهو العمل المشروع المسنون اذ المشروع المسنون هو المأمور به أمر ايجاب أو استحباب وهو العمل الصالح وهو الحسن وهو البر وهو الخير وضده المعصية والعمل الفاسد والسينة والفجور والظلم ولما كان العمل لا بد فيه من شيئين النية والحركة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أصدق الأسماء حارث وهمام فكل أحد حارث وهمام له عمل ونية لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله ويثيب عليها أن يراد الله بذلك العمل والعمل المحمود الصالح وهو المأمور به ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وإذا كان هذا حد كل عمل صالح فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون هكذا فى حق نفسه ولا يكون عمله صالحا ان لم يكن بعلم وفقه وكما قال عمر بن عبد العزيز من عبد الله بغير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح وكما فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه العلم امام العمل والعمل تابعه وهذا ظاهر فان القصد والعمل ان لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا واتباعا للهوى كما تقدم وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الاسلام فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولا بد من العلم بحال المأمور والمنهى ومن الصلاح ان يأتى بالأمر والنهى بالصرط المستقيم وهو اقرب الطرق الى حصول المقصود ولا بد فى ذلك من الرفق كما قال النبي ما كان الرفق فى شئ الا زانه ولا كان العنف فى شئ الا شاناه وقال إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف ولا بد أيضا أن يكون حليما صبورا على الأذى فانه لا بد ان يحصل له أذى فان لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح كما قال لقمان لابنه {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} لقمان17 ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر كقوله لخاتم الرسل بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة فانه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة يا أيها المدثر بعد ان أنزلت عليه سورة اقرأ التى بها نبئ فقال { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {1} فُمْ فَأَنْذِرْ {2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ {3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ {5} وَلَا تَمُنْ بِتَسْكِينِ {6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ {7} المدثر1-7 فافتتح آيات الارسال الى الخلق بالأمر بالندارة وختمها بالأمر بالصبر ونفس الانذار أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فعلم انه يجب

بعد ذلك الصبر وقال {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور 48 وقال تعالى {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} المزمّل 10 {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ الْأَحْقَافِ 35} {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخْتِ} القلم 48 {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} النحل 127 {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} هود 115 فلا بد من هذه الثلاثة العلم والرفق والصبر العلم قبل الأمر والنهي والرفق معه والصبر بعده وان كان كل من الثلاثة مستصحباً في هذه الأحوال وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعاً ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهى عنه رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب صعوبة على كثير من النفوس فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل فإن ترك الأمر الواجب معصية فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل وقد يكون الثاني شراً من الأول وقد يكون دونه وقد يكونان سواء فهكذا تجد المقصر في الأمر والنهي والمعتدى فيه قد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكونان سواء¹

{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ}

قال تعالى {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ} يوسف 108 الآية فالدعوة والعبادة اسم جامع لغاية الحب لله وغاية الذل له فمن ذل له من غير حب لم يكن عبداً بل يكون هو المحبوب المطلق فلا يحب شيئاً إلا له ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يجعل له حقيقة الحب فهو مشرك وإشراكه يوجب نقص الحقيقة كقوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} البقرة 165 الآية والحب يوجب الذل والطاعة والاسلام أن يستسلم لله لا لغيره فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك ومن لم يستسلم له فهو متكبر وكلاهما ضد الاسلام والقلب لا يصلح إلا بعبادة الله وحده وتحقيق هذا تحقيق الدعوة النبوية ومن المحبة الدعوة إلى الله وهي الدعوة إلى الايمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم بما أمروا به فالدعوة إليه من الدعوة إلى الله تعالى وما أبغضه الله ورسوله فمن الدعوة إلى الله النهي عنه ومن الدعوة إلى الله أن يفعل العبد ما أحبه الله ورسوله ويترك ما أبغضه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته ومن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما والدعوة إلى الله واجبة على من اتبع الرسول وهم أمته

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 121-138

وقد وصفهم الله بذلك كقوله تعالى {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الأعراف 157 فهذه في حقه وفي حقهم قوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} آل عمران 110 الآية وقوله {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 الآية وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة وهو فرض كفاية يسقط عن البعض بالبعض كقوله {وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} آل عمران 104 الآية فجميع الأمة تقوم مقامه في الدعوة فبهذا إجماعهم حجة وإذا تنازعا في شيء رده إلى الله ورسوله فاذا تقرر هذا الواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله ورسوله وأن يبغض ما أبغضه الله ورسوله مما دل عليه في كتابه فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لقول إلا لكتاب الله عز وجل ومن نصب شخصا كائنا من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} الروم 32 الآية وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل إتباع الأئمة والمشايخ فليس له أن يجعل قوته وأصحابه هم العيار فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم فينبغي للانسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به فهذا زاجر وكما أن القلوب تظهر عند المحن وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة او يعتقد لها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها بل لأجل أنها أمر الله به ورسوله أو أخبر الله به ورسوله لكون ذلك طاعة لله ورسوله وينبغي للداعي أن يقدم فيما استدلوا به من القرآن فانه نور وهدى ثم يجعل إمام الأئمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كلام الأئمة ولا يخلو أمر الداعي من أمرين الأول أن يكون مجتهدا او مقلدا فالمجتهد ينظر في تصانيف المتقدمين من القرون الثلاثة ثم يرجح ما ينبغي ترجيحه الثاني المقلد يفقد السلف إذ القرون المتقدمة أفضل مما بعدها فاذا تبين هذا فنقول كما أمرنا ربنا {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ} البقرة 136 إلى قوله {مُسْلِمُونَ} البقرة 136 ونأمر بما أمرنا به وننهى عما نهانا عنه في نص كتابه وعلى لسان نبيه كما قال تعالى {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} الحشر 7 الآية فمبنى أحكام هذا الدين على ثلاثة أقسام الكتاب والسنة والاجماع¹

والواجب على الجميع ان يكونوا يدا واحدة مع الحقى على المبطل فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله والمقدم عندهم من قدمه الله ورسوله والمحبوب عندهم من أحبه الله ورسوله والمهان عندهم من أهانه الله بحسب ما يرضى الله ورسوله لا بحسب الأهواء فانه من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فانه لا يضر إلا نفسه فهذا هو الأصل الذى عليهم اعتماده وحينئذ فلا حاجة الى تفرقهم وتشيعهم فان الله تعالى يقول {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 6-9

مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ { الأنعام 159 وقال تعالى { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ { آل عمران 105¹

ان الله لم يأمر بأمر الا وقد خلق سببه ومقتضيه

والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به ومعرفة الباطل
والتكذيب به ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة فما كان
حقا موجودا صدقت به الفطرة وما كان حقا نافعا عرفته الفطرة فأحبته واطمأنت إليه وذلك هو
المعروف وما كان باطلا معدوما كذبت به الفطرة فأبغضته الفطرة فانكرته قال تعالى {يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ { الأعراف 157²

كل من عصى النهي فقد عصى الأمر لأن الأمر استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء
والناهي مستدع من النهي فعلا اما بطريق القصد أو بطريق اللزوم فان كان نوعا منه فالأمر اعم
والأعم أفضل وان لم يكن نوعا منه فهو أشرف القسمين ولهذا اتفق العلماء على تقديمه على النهي
وبذلك جاء الكتاب والسنة قال تعالى {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
{ الأعراف 157 وقال { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَالْبَغْيِ { النحل 90 ان الله لم يأمر بأمر الا وقد خلق سببه ومقتضيه في جبلة العبد وجعله محتاجا اليه
وفيه صلاحه وكماله فانه أمر بالايمان به وكل مولود يولد على الفطرة فالقلوب فيها اقوى الاسباب
لمعرفة باريها والاقرار به وأمر بالعلم والصدق والعدل وصلة الارحام واداء الأمانة وغير ذلك من
الامور التي في القلوب معرفتها ومحبتها ولهذا سميت معروفا ونهى عن الكفر الذي هو أصل الجهل
والظلم وعن الكذب والظلم والبخل والجبن وغير ذلك من الامور التي تتكرها القلوب وانما يفعل
الآدمي الشر المنهى عنه لجهله به أو لحاجته اليه بمعنى انه يشتهي ويلتذ بوجوده أو يستنصر بعدمه
والجهل عدم العلم³

حزب الله المفلحون

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 17

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 32

³مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 120-121

والحق المبين أن كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا كما امره ربه وهؤلاء هم عباد الله وهم المؤمنون والمسلمون وهم اولياء الله المتقون وحزب الله المفلحون وجند الله الغالبون وهم اهل العلم النافع والعمل الصالح وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها كملوا القوة النظرية العلمية والقوة الارادية العملية كما قال تعالى **{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** آل عمران 104¹

والأمر بالمعروف وهو الحق الذي بعث الله به رسوله والنهي عن المنكر وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور بل هو من أعظم الواجبات وأفضل الطاعات بل هو طريق أئمة الدين ومشائخ الدين يقتدى بهم فيه قال الله تعالى **{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** آل عمران 104 وهذه الآية بها استدلال المستدلون على أن شيوخ الدين يقتدى بهم في الدين فمن لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ولا ممن يقتدى به²

فاذا كان بنو اسرائيل الذين فضلهم على العالمين في تلك الازمان وكانت هذه الامة خيرا منهم كانوا خيرا من غيرهم بطريق الاولى فكان مما خصهم الله به أنه لا يعذبهم بعذاب عام لا من السماء ولا بأيدي الخلق فلا يهلكهم بسنة عامة ولا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم كما كان يسلط على بني اسرائيل عدوا يجتاحهم حتى لا يبقى لهم دين قائم منصور ومن لا يقتل منهم يبقى مقهورا تحت حكم غيرهم بل لا تزال في هذه الامة طائفة ظاهرة على الحق الى يوم القيامة ولا يجتمعون على ضلالة فلا تزال فيهم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها وهذا البأس نوعان أحدهما الفتن التي تجري عليهم والفتنة ترد على القلوب فلا تعرف الحق ولا تقصده فيؤدي بعضهم بعضا بالاقوال والاعمال والثاني أن يعتدي أهل الباطل منهم على اهل الحق منهم فيكون ذلك محنة في حقهم يكفر الله بها سيئاتهم ويرفع بالصبر عليها درجاتهم وبصبرهم وتقواهم لا يضرهم كيد الظالمين لهم بل تكون العاقبة للتقوى ويكونون من اولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين إذا كانوا من أهل الصبر واليقين فانه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين والمتعدي منهم إما أن يتوب الله عليه كما تاب على إخوة يوسف بعد عدوانهم عليه وآثره الله عليهم بصبره وتقواه كما قال لما **{قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن**

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 97
²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 510

يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {90} قَالُوا تَأْتِيهِ لَقَدْ أَتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ {91} قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {92} يوسف 90-92
وكما فعل سبحانه بقادة الاحزاب الذين كانوا عدوا لله وللمؤمنين وقال فيهم { لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ } {المتحنة} ثم قال { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {المتحنة} 7 وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكون عدوا لله ثم يصير وليا لله مواليا لله ورسوله والمؤمنين فهو سبحانه يتوب على من تاب ومن لم يتب فالى الله إيباه وعليه حسابه وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ما أمر الله به ورسوله من قصد نصيحتهم وإخراجهم من الظلمات الى النور وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كما أمر الله ورسوله لا اتباعا للظن وما تهوى الأنفس حتى يكون من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونه ويرحمون الخلق وهم أهل صدق وعدل أعمالهم خالصة لله صواب موافقة لأمر الله كما قال تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7¹

كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة فإن ذلك من المنكر

كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة فإن ذلك من المنكر الذي أمر الله بالنهي عنه كما قال تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 104 وهو من الأثم الذي قال الله فيه {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَكُلُّ مَنْ أَثِمَ} المائدة 63 وكل من أثبت لله ما نفاه عن نفسه أو نفى عن الله ما أثبتته لنفسه من العطلية والممثلة فإنه قال على الله غير الحق وذلك مما زجر الله عنه بقوله للنصارى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } النساء 171 وبقوله {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } المائدة 77²

عامية الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد مثال ذلك اسم المعروف و المنكر اذا أطلق كما فى قوله تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 104 وقوله {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ } الأعراف 157 وقوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 110 وقوله {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 114 وقوله {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 يدخل فى المعروف كل خير وفى

¹النبوات ج: 1 ص: 91-93

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 464

المنكر كل شر ثم قد يقرن بما هو أخص منه كقوله {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} النساء 114 فغاير بين المعروف وبين الصدقة والإصلاح بين الناس كما غاير بين اسم الايمان والعمل واسم الايمان والاسلام وكذلك قوله تعالى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} العنكبوت 45 غاير بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله {وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} النحل 90 جعل البغى هنا مغايرا لهما وقد دخل في المنكر في ذلك الموضوعين هذه الأسماء التي تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الايمان و المعروف مع العمل ومع الصدق و المنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين في العموم والخصوص كلفظ الايمان و البر و التقوى و لفظ الفقير و المسكين فأیها أطلق تناول ما يتناوله الآخر¹ وفي قوله تعالى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} العنكبوت 45 جعل الفحشاء غير المنكر وقوله {وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} النحل 90 جعل الفحشاء والبغى غير المنكر وإذا قيل هذا من باب عطف الخاص على العام والعام على الخاص فللناس هنا قولان منهم من يقول الخاص دخل في العام وخص بالذكر فقد ذكر مرتين ومنهم من يقول تخصيصه بالذكر يقتضى أنه لم يدخل في العام وقد يعطف الخاص على العام كما في قوله {وَمَلَأْنَاهُ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ} البقرة 98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ} الأحزاب 7 الآية وقد يعطف العام على الخاص كما في قوله تعالى {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطُورُوهَا} الأحزاب 27²

القيام بالواجبات من الدعوة الواجبة

وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله النهى عنه لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ويترك ما أبغضه الله سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة كالتصديق بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته والمعاد وتفصيل ذلك وما أخبر به عن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء وأمهم وأعدائهم وكإخلاص الدين لله وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواها وكالتوكل عليه والرجاء لرحمته وخشيته عذابه والصبر لحكمه وأمثال ذلك وكصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وصلة الأرحام وحسن الجوار وكالجهد في سبيله بالقلب واليد واللسان إذا تبين ذلك فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه وهم أمتة يدعون إلى الله كما دعا إلى الله وكذلك يتضمن أمرهم به ونهيهم عما ينهى عنه وأخبارهم بما

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 162-164 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 117

²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 275-276

أخبر به إذ الدعوة تتضمن الأمر وذلك يتناول الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر وقد وصف أمته بذلك في غير موضع كما وصفه بذلك فقال تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 110 وقال تعالى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 الآية كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقيين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقيين قال تعالى {وَلَتَكُنَّ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} آل عمران 104 فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة فأتمته لا تجتمع على ضلالة وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره فما قام به غيره سقط عنه وما عجز لم يطلب به وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا وقد تقسّطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى فقد يدعو هذا إلى إعتقاد الواجب وهذا إلى عمل ظاهر واجب وهذا إلى عمل باطن واجب فتتوعد الدعوة يكون في الوجوب تارة وفي الوقوع أخرى وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم لكنها فرض على الكفاية وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقيم به غيره وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول والجهاد في سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعى إليه وذلك هو الأمر به إذ الأمر طلب الفعل المأمور به واستدعاء له ودعاء إليه فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله وسبيله تصديقه فيا أخبر وطاعته فيما أمر وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين وجوب فرض الكفاية لا وجوب فرض الأعيان كالصلوات الخمس بل كوجوب الجهاد والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود والحلم بعد الأمر ليصير على أذى المأمور المنهى فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ولهذا قال تعالى {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ} لقمان 17 وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة كما قال تعالى في أول المدثر {فَمَنْ أَنْذَرْتُ} {2} وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ} {3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرُ} {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ} {5} وَلَا تَمُنْ بِتَسْتَكْبِرُ} {6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ} {7} المدثر 2-7 وقال تعالى {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور 48 وقال {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} المزمع 10¹

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 164-168

اجماع هذه الامة حجة

كان اجماع هذه الامة حجة لأن الله قد اخبر انهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر فلو اتفقوا على اباحة محرم او اسقاط واجب او تحريم حلال او اخبار عن الله او خلقه بباطل لكانوا متصفين بالامر بالمنكر والنهي عن معروف والامر بالمنكر والنهي عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح بل الاية تقتضي ان ما لم تأمر به الأمة فليس من المعروف وما لم تنه عنه فليس من المنكر واذا كانت امرة بكل معروف ناهية عن كل منكر فكيف يجوز ان تأمر كلها بمنكر او تنهي كلها عن معروف والله سبحانه وتعالى كما اخبر بأنها تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر فقد اوجب ذلك على الكفاية منها بقوله **{وَأَتَىٰكُمْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** آل عمران 104 واذا اخبر بوقوع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر منها لم يكن من شرط ذلك ان يصل امر لامر ونهي النهي الناهي منها الى كل مكلف في العالم اذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة فكيف يشترط فيما هو من توابعها بل الشرط ان يتمكن المكلفون من وصول ذلك اليهم ثم اذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله اليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التفريط منهم لا منه وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل احد بعينه بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد ايضا كذلك فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه اثم كل قادر بحسب قدرته اذ هو واجب على كل انسان بحسب قدرته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من رأى من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان واذا كان كذلك فمعلوم ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واتمامه بالجهاد هو من اعظم المعروف الذي امرنا به ومن النهي عن المنكر اقامة الحدود على من خرج من شريعة الله ويجب على اولى الامر وهم علماء كل طائفة وامراؤها ومشايخها ان يقوموا على عامتهم ويأمرهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فيأمرهم بما امر الله به ورسوله مثل شرائع الاسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها وكذلك الصدقات المشروعة والصوم المشروع وحج البيت الحرام ومثل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والايمان بالفقر خيره وشره ومثل الاحسان وهو ان تبعد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك ومثل ما امر الله به ورسوله من الامور الباطنة والظاهرة ومثل اخلاص الدين لله والتوكل على الله وان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه والصبر لحكم الله والتسليم لأمر الله ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود واداء الامانات الى اهلها وبر الوالدين وصلة الارحام والتعاون على البر والتقوى والاحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك والعدل في المقال والفعال ثم الندب الى مكارم الاخلاق مثل ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عن ظلمك ومن الامر بالمعروف كذلك الامر بالانتلاف والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة وغير ذلك واما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله وهو ان يدعو مع

الله الها اخر كالشمس والقمر والكواكب او كملك من الملائكة او نبي من الانبياء او رجل من الصالحين او احد من الجن او تماثيل هؤلاء او قبورهم او غير ذلك مما يدعى من دون الله تعالى او يستغاث به او يسجد له فكل هذا واشباهه من الشرك الذي حرمه الله على لسان جميع رسله ومن المنكر كل ما حرمه الله كقتل النفس بغير الحق واكل اموال الناس بالباطل بالغصب او بالربا او الميسر والبيوع والمعاملات التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وتطيف المكيال والميزان والاثم والبغي وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك والرفق سبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولهذا قيل ليكن امرك بالمعروف بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر¹

"فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم"

أن الخلاف ما زال بين بني آدم من زمن نوح واختلاف الناس قبل المسلمين أعظم بكثير من اختلاف المسلمين وقد قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} البقرة 213 قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم اختلفوا بعد ذلك وقال تعالى {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} يونس 19 وقال تعالى {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} {119} هود 118-119 وقالت المائكة لما قال تعالى {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 30 وقد أخبر الله تعالى أن ابني آدم قتل أحدهما أخاه وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها فإنه أول من سن القتل وقال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَّنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} البقرة 253 وقد قال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} آل عمران 105 فهذه نصوص القرآن تخبر بالاختلاف والتفرق الذي كان في الأمم قبلنا وقال صلى الله عليه وسلم افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافتقرت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وقد أخبر الله من تكذيب قوم عاد وثمود وفرعون لأنبيائهم ما فيه عبرة وفي الصحيحين عن النبي

¹الاستقامة ج: 2 ص: 210-207

صلى الله عليه وسلم أنه قال ذروني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم¹

فإن أهل الكتاب تفرقوا و اختلفوا قبل إرسال محمد إليهم كما أخبر الله بذلك في غير موضع فقال تعالى و قال تعالى {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} {76} وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} {77} النمل 76-77 و قال لأمة محمد {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 105 فهذا بين أنهم تفرقوا و اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات قبل محمد و قد نهى الله أمته أن يكونوا مثلهم و قد جاءت الأحاديث في السنن و المسند من و جوه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال تفرقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة و ستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة و إن كان بعض الناس كابن حزم يضعف هذه الأحاديث فأكثر أهل العلم قبلوها و صدقوها و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه و إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم و في الصحيحين عنه أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له الناس لنا فيه تبع غدا لليهود و بعد غد للنصارى و هذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب اختلفوا و تفرقوا قبل إرسال محمد صلى الله عليه و سلم بل اليهود اختلفوا قبل مجيء المسيح ثم لما جاء المسيح اختلفوا فيه ثم اختلف النصارى اختلفا آخر²

في قصة موسى و من أرسل إليه فإن الله لم يدع فرعون و قومه حتى أرسل إليهم موسى و لم يعذبهم إلا بعد إقامة الحجة ثم لما آمن بنو إسرائيل بالكتب و الرسل لم يتفرقوا و اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة فلم يكونوا معذورين في ذلك و لهذا نهيت أمة محمد عن التشبه بهم فقيل {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} آل عمران 105³

الاختلاف في كتاب الله نوعان

و الاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان أحدهما أنه يذم الطائفتين جميعا كما في قوله {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ} {119} هود 118-119 فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وكذلك قوله {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} البقرة 176 وكذلك قوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا

¹ منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 308-310

² مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 490-493

³ مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 510

الْكِتَابِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ { آل عمران 19 } وقوله **عَدَابٌ عَظِيمٌ { آل عمران 105 }** وقوله { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ { الأنعام 159 } وكذلك وصف اختلاف النصارى بقوله { وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ { المائدة 14 } ووصف اختلاف اليهود بقوله { وَالَّذِينَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ { المائدة 64 } وقال { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ { المؤمنون 53 } وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة قال كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة وفي الرواية الأخرى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي فبين أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة وهم أهل السنة والجماعة وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه تارة فساد النية لما في النفوس من البغي والحسد وإرادة العلو في الأرض بالفساد ونحو ذلك فيجب لذلك ذم قول غيره أو فعله أو غلبته لتمييز عليه أو يحب قول من يوافق في نسب أو مذهب أو بلد أو صداقة ونحو ذلك لما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة له وما أكثر هذا في بني آدم وهذا ظلم ويكون سببه تارة أخرى جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو في الدليل وإن كان عالما بما مع نفسه من الحق حكما ودليلا والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال سبحانه { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا { الأحزاب 72 } أما أنواع الاختلاف فهي في الأصل قسمان اختلاف تنوع واختلاف تضاد واختلاف التنوع على وجوه منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقا مشروعا كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف وقال كلاهما محسن ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح والتشهدات وصلاة الخوف وتكبيرات العيد وتكبيرات الجنائز إلى غير ذلك مما شرع جميعه وإن كان قد يقال إن بعض أنواعه أفضل ثم نجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم كاختلافهم على شفع الإقامة وإيثارها ونحو ذلك وهذا عين المحرم ومن لم يبلغ هذا المبلغ فتجد كثيرا منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع والإعراض عن الآخر أو النهي عنه ما دخل به فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ومنه ما يكون كل من القولين هو في الواقع في معنى قول الآخر لكن العبارتان مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود والتعريفات وصيغ الأدلة والتعبير عن المسميات وتقسيم الأحكام وغير ذلك ثم الجهل أو الظلم هو الذي يحمل على حمد إحدى المقالتين ودم الأخرى ومنه ما يكون المعنيين غيرين لكن لا يتنافيان فهذا قول صحيح وذلك قول صحيح وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر وهذا كثير في المنازعات جدا

ومنه ما يكون طريقتان مشروعتان ولكن قد سلك رجل أو قوم هذه الطريقة وآخرون قد سلكوا الأخرى وكلاهما حسن في الدين ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم أحدهما أو تفضيله بلا قصد صالح أو بلا علم أو بلا نية وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان إما في الأصول وإما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون المصيب واحد وإلا فمن قال كل مجتهد مصيب فعنده هو من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد فهذا الخطب فيه أشد لأن القولين يتنافيان لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما أو معه دليل يقتضي حقا ما فيرد الحق في هذا الأصل كله حتى يبقى هذا مبطلا في البعض كما كان الأول مبطلا في الأصل كما رأيت لكثير من أهل السنة في مسائل القدر والصفات والصحابة وغيرهم وأما أهل البدعة فالأمر فيهم ظاهر وكما رأيت لكثير من الفقهاء أو لأكثر المتأخرين في مسائل الفقه وكذلك رأيت منه كثيرا بين بعض المتفهمة وبعض المتصوفة وبين فرق المتصوفة ونظائره كثيرة ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من هذا ما يتبين له به منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا ابتداء لكن نور على نور ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وهذا القسم الذي سميناه اختلاف التنوع كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه وقد دل القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين في مثل هذا إذا لم يحصل من أحدهما بغى كما في قوله { مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } {الحشر 5} وقد كان الصحابة في حصار بني النضير اختلفوا في قطع الأشجار والنخيل فقطع قوم وترك آخرون وكما في قوله { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ عَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ } {78} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ } {79} الأنبياء 78-79 فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالعلم والحكم وكما في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم يوم بني قريظة وقد كان أمر المنادي ينادي لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة من صلى العصر في وقتها ومن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة وكما في قوله صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد ولم يصب فله أجر ونظائره كثيرة وإذا جعلت هذا قسما آخر صار الاختلاف ثلاثة أقسام وأما القسم الثاني من الاختلاف المذكور في كتاب الله فهو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وهم المؤمنون ودم فيه الأخرى كما في قوله تعالى { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } {البقرة 253} فقوله (وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ) حمد لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون ودم للأخرى و قوله { هَذَانِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ } {الحج 19} إلى قوله { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } {الحج 23} و قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {الحج 17} وإذا كان كذلك فالذي ذمه من تفرق أهل الكتاب و
إختلافهم ذم فيه الجميع و نهى عن التشبه بهم فقال {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ { آل عمران 105 }¹

"إنما هلك من كان قبلكم بهذا أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض"

ومن الأصول الكلية أن يعلم أن الألفاظ نوعان نوع جاء به الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك فيثبت ما أثبتته الله ورسوله وينفى ما نفاه الله ورسوله فاللفظ الذي أثبتته الله أو نفاه حق فان الله يقول الحق وهو يهdy السبيل والألفاظ الشرعية لها حرمة ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبتته وينفى ما نفاه من المعاني فانه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر ونطيعه في كل ما أوجب وأمر ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والايمن وقد قال تعالى {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ {المجادلة 1} وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده فان أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به وان أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره ثم التعبير عن تلك المعاني ان كان في ألفاظه اشتباه او اجمال عبر بغيرها او بين مراده بها بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرع فان كثيرا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على اطلاق ألفاظ ونفيها ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلا عن أن يعرف دليله ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئا بل يكون في قوله نوع من الصواب وقد يكون هذا مصيبا من وجه وهذا مصيبا من وجه وقد يكون الصواب في قول ثالث وكثيرا من الكتب المصنفة في أصول علوم الدين وغيرها تجد الرجل المصنف فيها في المسألة العظيمة كمسألة القرآن والرؤية والصفات والمعاد وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالا متعددة والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس في تلك الكتب بل ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة وهو مما نهيت الأمة عنه كما في قوله تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ {106} ال عمران 105-106 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ {الأنعام 159} وقال تعالى {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ {البقرة 176} وقد

¹اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 33-35 و مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 514

خرج النبي على أصحابه وهم يتنازعون في القدر وهذا يقول ألم يقل الله كذا وهذا يقول ألم يقل الله كذا فقال أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه ومما أمر الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن ويؤمنوا بمتشابهه¹

تفرق أهل الكتاب في النبي صلى الله عليه وسلم

أنه تفرق أهل الكتاب في النبي صلى الله عليه وسلم كل يقول فيه قولاً هو نظير تفرق سائر الكفار فإن الكفار بالأنبياء من عاداتهم أن تقول كل طائفة فيه قولاً يناقض قول الطائفة الأخرى وكذلك قولهم في الكتاب الذي أنزل عليه وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة وهذا هو الاختلاف المذموم الذي ذكره الله تعالى في قوله {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} {106} آل عمران 105-106²

وأما دين الله وهداه الذي أنزل به كتابه وبعث به رسوله فهو اتباع كتابه وسنته في جميع الأمور وترك اتباع ما يخالف ذلك في جميع الأمور والإجماع على ذلك كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {102} وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {103} وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {104} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} {106} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {107} آل عمران 102-107³

سبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به والبغى بينهم

قال تعالى {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} {الشورى 14} فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم الذي بين لهم ما يتقون فإن الله ما كان ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغياً والبغى مجاوزة الحد كما قال ابن عمر الكبر والحسد وهذا بخلاف التفرق عن إجتهد ليس فيه علم ولا قصد به البغى كتنازع العلماء السائغ والبغى إما تضييع

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 114-115

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 155

³الاستقامة ج: 1 ص: 270

للحق وإما تعد للحد فهو إما ترك واجب وإما فعل محرم فعلم أن موجب التفرق هو ذلك وهذا كما قال عن أهل الكتاب {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} المائدة 14 فأخبر أن نسيانهم حظا مما ذكروا به وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به كان سببا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم وهكذا هو الواقع في أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها وكثير من فروعها من أهل الأصول والفروع ومثلما نجده بين العلماء وبين العباد ممن يغلب عليه الموسوية أو العيسوية حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة ليست الأخرى على شيء كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة كل منهما ينفى طريقة الآخر ويدعى أنه ليس من أهل الدين أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين فتقع بينهما العداوة والبغضاء وذلك أن الله أمر بطهارة القلب وأمر بطهارة البدن وكلا الطهارتين الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجبه قال تعالى {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيَنبِئَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} التوبة 6 وقال {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ كُنُوزًا لِلدُّنْيَا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} التوبة 108 وقال {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} البقرة 222 وقال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} التوبة 103 وقال {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرَهُمْ} المائدة 41 وقال {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} التوبة 28 وقال {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} الأحزاب 33 فنجد كثيرا من المتفقهة والمتعبدة إنما همته طهارة البدن فقط ويزيد فيها على المشروع اهتماما وعملا ويترك من طهارة القلب ما أمر به إيجابا أو استحبابا ولا يفهم من الطهارة الا ذلك ونجد كثيرا من المتصوفة والمتفكرة إنما همته طهارة القلب فقط حتى يريد فيها على المشروع اهتماما وعملا ويترك من طهارة البدن ما أمر به إيجابا أو استحبابا فالأولون يخرجون الى الوسوسة المذمومة في كثرة صلب الماء وتنجيس ما ليس بنجس واجتناب ما لا يشرع اجتنابه مع اشتغال قلوبهم على أنواع منى الحسد والكبر والغل لإخوانهم وفي ذلك مشابهة بينة لليهود وآخرون يخرجون الى الغفلة المذمومة فيبالغون في سلامة الباطن حتى يجعلون الجهل بما تجب معرفته من الشر الذي يجب اتقائه من سلامة الباطن ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعرفة المأمور بها ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات ويقيمون الطهارة الواجبة مضاهات للنصارى وتقع العداوة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به والبغى الذي هو مجاوزة الحد إما تفريط وتضييعا للحق وإما عدوانا وفعلا للظلم والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض وتارة يكون في حقوق الله وهما متلازمان ولهذا قال بغيا بينهم فإن كل طائفة بغت على الأخرى فلم تعرف حقها الذي بأيديها ولم تكف عن العدوان عليها وقال تعالى {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} البينة 4 وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ

فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
{البقرة 213} وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} {الجاثية 16} الآية وقال
تعالى في موسى بن عمران مثل ذلك وقال {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
**الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {آل عمران 105} وقال {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا
لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} {الأنعام 159} وقال {فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ} {30} {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} {الرُّومَ 30-32} لأن المشركين كل منهم يعبد إلها
يهواه كما قال في الآية الأولى {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} {الشورى 13} وقال {يَا أَيُّهَا
الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} {51} {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا
رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} {52} {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {53} {المؤمنون 51-53}
فظهر أن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين والعمل به كله و هو عبادة الله وحده لا شريك له كما أمر
به باطنا وظاهرا وسبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به والبغى بينهم ونتيجة الجماعة
رحمة الله ورضوانه وصلواته وسعادته الدنيا والآخرة وبياض الوجوه ونتيجة الفرقة عذاب الله
ولعنته وسواد الوجوه وبرائة الرسول منهم وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة فإنهم اذا
اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين فلا تكون طاعة الله ورحمته بفعل لم يأمر الله به من إعتقاد
أو قول أو عمل فلو كان القول أو العمل الذى إجتمعوا عليه لم يأمر الله به لم يكن ذلك طاعة لله ولا
سببا لرحمته وقد إحتج بذلك أبو بكر عبد العزيز فى أول التنبيه نبه على هذه النكته وقال قال
فى الحديث المشهور فى السنن من رواية فقيهى الصحابة عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ثلاث
لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة وولات الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن
دعوتهم تحيط من ورائهم وفى حديث أبى هريرة المحفوظ إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا
تشرکوا به شيئا وأن تعتموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمرکم فقد
جمع فى هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث إخلاص العمل لله ومناصحة أولى الأمر ولزوم جماعة
المسلمين وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التى لله ولعباده وتنتظم مصالح
الدنيا والآخرة وبيان ذلك أن الحقوق قسمان حق لله وحق لعباده فحق الله أن نعبده ولا نشرك به
شيئا كما جاء لفظه فى أحد الحديثين وهذا معنى إخلاص العمل لله كما جاء فى الحديث الآخر وحقوق
العباد قسمان خاص و عام أما الخاص فمثل بر كل إنسان والديه وحق زوجته وجاره فهذه من فروع
الدين لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه ولأن مصلحتها خاصة فردية وأما الحقوق العامة
فالناس نوعان رعاة ورعية فحقوق الرعاة مناصحتهم وحقوق الرعية لزوم جماعتهم فإن مصلحتهم
لا تتم إلا بإجتماعهم وهم لا يجتمعون على ضلالة بل مصلحة دينهم ودنياهم فى إجتماعهم
وإعتصامهم بحبل الله جميعا فهذه الخصال تجمع أصول الدين وقد جاءت مفسرة فى الحديث الذى**

رواه مسلم عن تميم الدارى قال قال رسول الله الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال الله و لكتابه و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم فالنصيحة لله و لكتابه و لرسوله تدخل فى حق الله و عبادته و حده لا شريك له و النصيحة لأئمة المسلمين و عامتهم هى مناصحة و لاة الأمر و لزوم جماعتهم فإن لزوم جماعتهم هى نصيحتهم العامة و أما النصيحة الخاصة لكل واحد واحد منهم بعينه فهذه يمكن بعضها و يتعذر إستيعابها على سبيل التعيين¹

من أعظم أصول الإسلام الذي هو معرفة الجماعة و حكم الفرقة و التقاتل و التكفير و التلاعن و التباغض و غير ذلك فنقول هذا الباب أصله المحرم فيه من البغي فإن الإنسان ظلوم جهول قال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 105 في غير موضع و قد ثبت في الصحيحين عن النبي ص أنه قال لتسلكن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله فمن قال اليهود و النصرى²

الأمر بمخالفة الكفار والنهي عن مشابهتهم

و معلوم أن الكفار فرقوا دينهم و كانوا شيعا³

لما كان الكلام في المسألة الخاصة قد يكون مندرجا في قاعدة عامة بدأنا بذكر بعض ما دل من الكتاب و السنة و الإجماع على الأمر بمخالفة الكفار و النهي عن مشابهتهم في الجملة سواء كان ذلك عاما في جميع الأنواع المخالفة أو خاصا ببعضها و سواء كان أمر إيجاب أو أمر استحباب ثم أتبعنا ذلك بما يدل على النهي عن مشابهتهم في أعيادهم خصوصا و هنا نكتة قد نبهت عليها في هذا الكتاب و هي أن الأمر بموافقة قوم أو بمخالفتهم قد يكون لأن نفس قصد موافقتهم أو نفس موافقتهم مصلحة و كذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة بمعنى أن ذلك الفعل يتضمن مصلحة للعبد أو مفسدة و إن كان ذلك الفعل الذي حصلت به الموافقة أو المخالفة لو تجرد عن الموافقة و المخالفة لم يكن فيه تلك المصلحة أو المفسدة ولهذا نحن ننتفع بنفس متابعتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم و السابقين من المهاجرين و الأنصار في أعمال لولا أنهم فعلوها لربما قد كان لا يكون لنا فيها مصلحة لما يورث ذلك من محبتهم و ائتلاف قلوبنا بقلوبهم و إن كان ذلك يدعونا إلى موافقتهم في

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 14-19

²الاستقامة ج: 1 ص: 25

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 46

أمور أخرى إلى غير ذلك من الفوائد كذلك قد نتضرر بموافقتنا الكافرين في أعمال لولا أنهم يفعلونها لم نتضرر بفعلها وقد يكون الأمر بالموافقة والمخالفة لأن ذلك الفعل الذي يوافق العبد فيه أو يخالف متضمن للمصلحة والمفسدة ولو لم يفعلوه لكن عبر عنه بالموافقة والمخالفة على سبيل الدلالة والتعريف فتكون موافقتهم دليلاً على المفسدة ومخالفتهم دليلاً على المصلحة واعتبار الموافقة والمخالفة على هذا التقدير من باب قياس الدلالة وعلى الأول من باب قياس العلة وقد يجتمع الأمران أعني الحكمة الناشئة من نفس الفعل الذي وافقناهم أو خالفناهم فيه ومن نفس مشاركتهم فيه وهذا هو الغالب على الموافقة والمخالفة المأمور بهما والمنهي عنهما فلا بد من التفطن لهذا المعنى فإن به يعرف معنى نهي الله لنا عن اتباعهم وموافقهم مطلقاً ومقيداً واعلم أن دلالة الكتاب على خصوص الأعمال وتفصيلها إنما يقع بطريق الإجمال والعموم أو الاستلزام وإنما السنة هي التي تفسر الكتاب وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه فنحن نذكر من آيات الكتاب ما يدل على أصل هذه القاعدة في الجملة ثم نتبع ذلك الأحاديث المفسرة لمعاني ومقاصد الآيات بعدها ومن هذا الباب قوله سبحانه وقال سبحانه **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 105** وهم اليهود والنصارى الذين افترقوا على أكثر من سبعين فرقة ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن متابعتهم في نفس التفرق والاختلاف مع أنه صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة مع أن قوله لا تكن مثل فلان قد يعم مماثلته بطريق اللفظ أو المعنى وإن لم يعم دل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابهتهم أمر مشروع ودل على أنه كلما بعد الرجل عن مشابهتهم فيما لم يشرع لنا كان أبعد عن الوقوع في نفس المشابهة المنهي عنها وهذه مصلحة جلية¹

لا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ بل مع نوع بغى

ثم إنه من مسائل الخلاف ما يتضمن أن اعتقاد أحدهما يوجب عليه بغض الآخر ولعنه أو تفسيقه أو تكفيره أو قتاله فإذا فعل ذلك مجتهداً مخطئاً كان خطؤه مغفوراً له وكان ذلك في حق الآخر محنة في حقه وفتنة وبلاء ابتلاه به وهذه حال البغاة المتأولين مع أهل العدل سواء كان ذلك بين أهل اليد والقتال من الأمراء ونحوهم أو بين أهل اللسان والعمل من العلماء والعباد ونحوهم وبين من يجمع الأمرين ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغى لا لمجرد الاجتهاد كما قال تعالى **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** سورة آل عمران 105 فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ بل مع نوع بغى ولهذا نهى النبي ص عن القتال في الفتنة وكان ذلك من أصول السنة وهذا مذهب أهل السنة والحديث وأئمة أهل المدينة من فقهاءهم وغيرهم ومن الفقهاء من ذهب إلى أن ذلك يكون مع وجود العلم التام من أحدهما والبغى من

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 16

الأخر فيجب القتال مع العادل حينئذ وعلى هذا الفتنة الكبرى بين أهل الشام والعراق هل كان الأصوب حال القاعدين أو حال المقاتلين من أهل العراق والنصوص دلت على الأول وقالوا كان ترك قتال أهل العراق أصوب وإن كانوا أقرب إلى الحق وأولى به من الشام إذ ذاك كما بسطنا الكلام في هذا في غير هذا الموضوع وتكلمنا على الآيات والاحاديث في ذلك ومن أصول هذا الموضوع أن مجرد وجود البغي من إمام أو طائفة لا يوجب قتالهم بل لا يبيحه بل من الأصول التي دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم يؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ولا يقاتلونه كما أمر النبي ص بذلك في غير حديث فلم يأذن في دفع البغي مطلقا بالقتال بل إذا كانت فيه فتنة نهى عن دفع البغي به وأمر بالصبر¹

"إن للحسنة لنورا في القلب وإن للسيئة لظلمة في القلب"

الرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه وبهجة وجهه سيما يعرف بها وكذلك الكاذب الفاجر وكلما طال عمر الإنسان ظهر هذا الأثر فيه حتى إن الرجل يكون في صغره جميل الوجه فإذا كان من أهل الفجور مصرا على ذلك يظهر عليه في آخر عمره من قبح الوجه ما أثره باطنه وبالعكس وقد روى عن ابن عباس أنه قال إن للحسنة لنورا في القلب وضياء في الوجه وقوة في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن وبغضة في قلوب الخلق وقد يكون الرجل ممن لا يتعمد الكذب لكن يعتقد اعتقادات باطلة كاذبة في الله أو في رسله أو في دينه أو عباده الصالحين وتكون له زهادة وعبادة واجتهاد في ذلك فيؤثر ذلك الكذب الذي ظنه صدقا وتوابعه في باطنه ويظهر ذلك على وجهه فيعلوه من القترة والسواد ما يناسب حاله كما قال بعض السلف لو أدهن صاحب البدعة كل يوم بدهان إن سواد البدعة لفي وجهه وهذه الأمور تظهر يوم القيامة ظهورا تاما قال تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} {106} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {107} تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ} {108} آل عمران 106-108 قال ابن عباس وغيره تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة والمقصود أن ما في القلوب من قصد الصدق والمحبة والبر ونحو ذلك قد يظهر على الوجه حتى يعلم ذلك علما ضروريا من أبلغ العلوم الضرورية وكذلك ما فيها من قصد الكذب والبغض والفجور وغير ذلك والإنسان يرافق في سفره من لم يره قط إلا تلك الساعة فلا يلبث إذا رآه حدة وسمع كلامه أن يعرف هل هو مأمون يطمئن إليه أو ليس كذلك وقد يشتبه عليه في أول الأمر وربما غلط لكن العادة الغالبة أنه يتبين ذلك بعد لعامة الناس وكذلك الجار يعرف جاره

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 31

والمعامل يعرف معاملته ولهذا لما شهد عند عمر بن الخطاب رجل فزكاه آخر قال هل أنت جاره الأدنى تعرف مساءه وصباحه قال لا قال هل عاملته في الدرهم والدينار الذين تمتحن بهما أمانات الناس قال لا قال هل رافقته في السفر الذي ينكشف فيه أخلاق الناس قال لا قال فلست تعرفه وروي أنه قال لعلك رأيته يركع ركعات في المسجد¹

{ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ }

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله يقول سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الاسنان سفهاء الاحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز ايمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فاينما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم اجرا لمن قتلهم يوم القيامة وروى النسائي عن ابي برزة قال اتى رسول الله بمال فقسمه فاعطى من عن يمينه ومن عن شماله ولم يعط من ورائه شيئا فقام رجل من ورائه فقال يا محمد ما عدلت في القسمة رجل اسود مطموم الشعر عليه ثوبان ابيضان فغضب رسول الله غضبا شديدا وقال والله لا تجدون بعدي رجلا هو اعدل مني ثم قال يخرج في آخر الزمان قوم كان هذا منهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق لا يزالون يخرجون حتى يخرج اخرهم مع المسيح الدجال فاذا لقيتموهم فاقتلوهم هم شر الخلق والخليقة فهذه الاحاديث كلها دليل على ان النبي امر بقتل طائفة هذا الرجل العائب عليه واخبر ان في قتلهم اجرا لمن قتلهم وقال لئن ادركتم لاقتلهم قتل عاد وذكر انهم شر الخلق والخليقة وفيما رواه الترميذي وغيره عن ابي امامة انه قال قال هم شر قتلى تحت اديم السماء خير قتلى من قتلوه وذكر انه سمع النبي يقول ذلك مرات متعددة وتلا فيهم قوله تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ} {آل عمران 106} وقال هؤلاء الذين كفروا بعد ايمانهم وتلا فيهم قوله تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} {آل عمران 7} وقال زاغوا فزيغ بهم ولا يجوز ان يكون امر بقتلهم لمجرد قتالهم الناس كما يقاتل الصائل من قاطع الطريق ونحوه وكما يقاتل البغاة لان اولئك انما يشرع قتالهم حتى تنكسر شوكتهم وكفوا عن الفساد ويدخلوا في الطاعة ولا يقتلون اينما لقوا ولا يقتلون قتل عاد وليسوا شر قتلى تحت اديم السماء ولا يؤمر بقتلهم وانما يؤمر في آخر الامر بقتالهم فعلم ان هؤلاء اوجب قتلهم مروقهم من الدين لما غلوا فيه حتى مروقوا منه كما دل عليه قوله في حديث علي يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فاينما لقيتموهم فاقتلوهم فرتب الامر بالقتل على مروقهم فعلم انه الموجب له ولهذا وصف النبي الطائفة الخارجة وقال ولو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضي لهم علي لسان محمد لنكلوا عن العمل واية ذلك ان فيهم رجلا له عضد ليس له ذراع على راس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعيرات بيض وقال انهم يخرجون علي خير فرقة من

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 490-492 و الاستقامة ج: 1 ص: 351

الناس يقتلهم ادنى الطائفتين الى الحق وهذا كله في الصحيح فثبت ان قتلهم لخصوص صفتهم لا لعموم كونهم بغاة او محاربين وهذا القدر موجود في الواحد منهم كوجوده في العدد منهم وانما لم يقتلهم علي رضي الله عنه اول ما ظهروا لانه لم يتبين له انهم الطائفة المنعوتة حتى سفكوا دم ابن خباب واغاروا على سرح الناس فظهر فيهم قوله يقتلون اهل الاسلام ويدعون اهل الاوثان فعلم انهم المارقون ولانه لو قتلهم قبل المحاربة له لربما غضبت لهم قبائلهم وتفرقوا على علي رضي الله عنه وقد كان حاله في حاجته الى مداراة عسكره واستئلافهم كحال النبي في حاجته في اول الامر الى استئلاف المنافقين وايضا فان القوم لم يعترضوا لرسول الله بل كانوا يعظمونه ويعظمون ابا بكر وعمر ولكن غلوا في الدين غلوا جازوا به حده لنقص عقولهم وعملهم فصاروا كما تاوله علي فيهم من قوله عز وجل {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} {103} الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} {104} الكهف 103-104 ووجب ذلك لهم عقائد فاسدة ترتب عليها افعال منكرة كفرهم بها كثير من الامة وتوقف فيها اخرون فلما راي النبي الرجل الطاعن عليه في القسمة المناسب له عدم العدل بجهله وغلوه وظنه ان العدل هو ما يعتقد من التسوية بين جميع الناس دون النظر الى ما في تخصيص بعض الناس وتفضيله من مصلحة التاليف وغيرها من المصالح علم ان هذا اول اولئك فانه اذا طعن عليه في وجهه فهو على سنته بعد موته وعلى خلفائه اشد طعنا وقد حكى ارباب المقالات عن الخوارج انهم يجوزون على الانبياء الكبار ولهذا لا يلتفتون الى السنة المخالفة في رايهم لظاهر القران وان كانت متواترة فلا يرجمون الزاني ويقطعون يد السارق فيما قل او كثر زعما منهم على ما قيل ان لاحجة الا القران وان السنة الصادرة عن الرسول ليست حجة بناء على ذلك الاصل الفاسد قال من حكى ذلك عنهم انهم لا يطعنون في النقل لتواتر ذلك وانما بينونه على هذا الاصل ولهذا قال النبي في صفتهم انهم يقرؤون القران لا يجاوز حناجرهم يتاولونه برايهم من غير استدلال على معانيه بالسنة وهم لا يفهمونه بقلوبهم انما يتلونه بالسنتهم والتحقيق انهم اصناف مختلفة فهذا راي طائفة منهم وطائفة قد يكذبون النقلة وطائفة لم يسمعوا ذلك ولم يطلبوا علمه وطائفة يزعمون ان ما ليس له ذكر في القران بصريحه ليس حجة على الخلق اما لكونه منسوخا او مخصوصا بالرسول او غير ذلك وكذلك ما ذكر من تجويزهم الكبار فاظنه والله اعلم قول طائفة منهم وعلى كل حال فمن كان يعتقد ان النبي جائر في قسمه يقول انه يفعلها بامر الله فهو مكذب له ومن زعم ان يجوز في حكمه او قسمه فقد زعم انه خائن وان اتباعه لا يجب وهو مناقض لما تضمنه الرسالة من امانته ووجوب طاعته وزوال الحرج عن النفس من قضائه بقوله وفعله فانه قد بلغ عن الله انه اوجب طاعته والانقياد لحكمه ولانه لا يحيف على احد فم طعن في هذا فقد طعن في صحة تبليغه وذلك طعن في نفس الرسالة وبهذا يتبين صحة رواية من روى الحديث ومن يعدل اذا لم يعدل لقد خبت وخسرت ان لم اكن اعدل لان هذا الطاعن يقول انه رسول الله وانه يجب عليه تصديقه وطاعته فاذا قال انه لم يعدل فقد لزم انه صدق غير عدل ولا امين ومن اتبع مثل ذلك فهو خائب خاسر كما وصفهم الله تعالى بانهم من الاخسرين اعمالا وان حسبوا انهم يحسنون صنعا ولانه من لم

يؤمن على المال يؤتمن على ما هو اعظم منه ولهذا قال الا تامنون وانا امين من في السماء ياتيني خبر السماء صباحا ومساء وقال لما قال له اتق الله اولست احق اهل الارض ان يتق الله وذلك لان الله قال فيما بلغه اليهم الرسول { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } الحشر 7 بعد قوله { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } الحشر 7 الاية فبين سبحانه انه ما نهى عنه من مال الفياء فعلينا ان ننتهي عنه فيجب ان يكون احق اهل الارض ان يتق الله اذ لولا ذلك لكانت الطاعة له ولغيره ان تساويا او لغيره دونه ان كان دونه وهذا كفر بما جاء به وهذا ظاهر وقوله شر الخلق والخليقة وقوله شر قتلى تحت اديم السماء نص في انهم من المنافقين لان المنافقين اسوا حالا من الكفار كما ذكر ان قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ } التوبة 58 نزلت فيهم وكذلك في حديث ابي امامة ان قوله تعالى { أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } آل عمران 106 نزلت فيهم وهذا مما لاخلاف فيه اذا صرحوا بالطعن في الرسول والعيب عليه كفعل اولئك اللامزيين له ¹

حرم الله الظلم على نفسه

فالنصوص قد اخبرت بالميزان بالقسط وأن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما فدل هذا على أن مثقال ذرة إذا زيد في السيئات أو نقص من الحسنات كان ظلما ينزه الله عنه ودل على أنه يزن الأعمال بالقسط الذي هو العدل فدل على أن خلاف ذلك ليس قسطا بل ظلم تنزه الله عنه ولو لم يكن هنا عدل لم يحتج إلى الموازنة فإنه إذا كان التعذيب والتنعيم بلا قانون عدلي بل بمحض المشيئة لم يحتج إلى الموازنة وقال تعالى { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نُنَلِّهِهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ } آل عمران 108 قال الزجاج وغيره قد أعلمنا أنه يعذب من عذبه لاستحقاقه وقال آخر معناه أنه لا يعاقبهم بلا جرم فسمى هذا ظلما ²

حرم الله الظلم على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } هود 101 وقوله { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } الكهف 49 وقوله { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } فصلت 46 وقوله { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا } النساء 40 وقوله { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا } النساء 77 ونفى إرادته بقوله { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ } آل عمران 108 وقوله { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ } غافر 31 ونفى خوف العباد له بقوله { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 فإن الناس تنازعوا في معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخيار الأمور أوسطها وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 345-353

² منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 1

للشرع إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن التنازع فيه فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم إلا أن الظلم منه هو نظير الظلم من الأدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثله في الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال وضربوا الله الأمثال ولم يجعلوا له المثل الأعلى بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد وإثبات الحكم في الأصل بالرأي وقالوا عن هذا إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالماً له والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالاً كما قالوا إنه لا يقدر أن يضل مهتدياً وقالوا عن هذا إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانتة على فعل المأمور كان ظالماً إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظالماً وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدرًا ظلم له ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمه أخرى عامة أو خاصة وهذا الموضوع زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدوراً ولا يقال إنه هو تارك له باختياره ومشيتته وإنما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثاً والمحدث قديماً وإلا فمهما قدر في الذهن وكان وجوده ممكناً والله قادر عليه فليس بظلم منه سواء فعله أولم يفعله وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الإثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ومن شراح الحديث ونحوهم وفسروا هذا الحديث بما ينبني على هذا القول وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما رويناها عن إياس بن معاوية أنه قال ما ناظرت بعقلي كله أحداً إلا القدرية قلت لهم ما الظلم قالوا أن تأخذ ما ليس لك أو أن تتصرف فيما ليس لك قلت فله كل شيء وليس هذا من إياس إلا ليبين أن التصرفات الواقعة هي في ملكه فلا يكون ظالماً بموجب حدهم وهذا مما لا نزاع بين أهل الإثبات فيه فإنهم متفقون مع أهل الإيمان بالقدر على أن كل ما فعله الله هو عدل وفي حديث الكرب الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضايتك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لمن سمعن أن يتعلمهن فقد بين أن كل قضائه في عبده عدل ولهذا يقال كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ويقال أطعتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتى إلا ما غفرت لي وهذه المناظرة من إياس كما قاله ربيعة بن أبي عبد الرحمن لغيلان حين قال له غيلان نشدتك الله أترى الله يحب أن

يعصى فقال نشدتك الله أترى يعصى قسرا يعني قهرا فكأنما ألقمه حجرا فإن قوله يحب أن يعصى لفظ فيه إجمال وقد لا يتأتى في المناظرة تفسير المجملات خوفا من لدد الخصم فيؤتى بالواضحات فقال أفتراه يعصى قسرا فإن هذا إلزام له بالعجز الذي لازم للقدرية ولمن هو شر منهم من الدهرية الفلاسفية وغيرهم وكذلك إياس رأى أن هذا الجواب المطابق لخدمهم خاصم لهم ولم يدخل معهم في التفصيل الذي يطول وبالجملته فقوله تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قال أهل التفسير من السلف لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا إنه غير مقدور وأراد كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلا أن يتصور خوفه حتى ينفي خوفه ثم أي فائدة في نفي خوف هذا وقد علم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا للعامل المحسن لا يجزى على إحسانه بالظلم والهضم فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير وأن الله لا يجزيه إلا بعمله ولهذا كان الصواب الذي دلت عليه النصوص إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من أذنب كما قال {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص 85 فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلئ منهم ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وأنس أن النار تمتلئ ممن كان ألقى فيها حتى ينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط بعد قولها هل من مزيد وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها خلقا آخر ولهذا كان الصواب الذي عليه الأئمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ما صح به الحديث وهو أن الله أعلم بما كانوا عاملين فلا نحكم لكل منهم بالجنة ولا لكل منهم بالنار بل هم ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم فهم إذا كلفوا يوم القيامة في العرصات كما جاءت بذلك الآثار وكذلك قوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} فصلت 46 يدل الكلام على أنه لا يظلم محسنا فينقصه من إحسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله {أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى} {36} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} {37} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} {38} وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} {39} النجم 36-39 فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعه وكلا القولين حق على ظاهره فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعه وكلا القولين حق على ظاهره وإن ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه ينافي الأول فليس كذلك إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزاء الكسب والعذاب أعم من العقاب كما قال صلى الله عليه وسلم السفر قطعة من العذاب وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} النجم 39 فليس الأمر كذلك فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية ومن

ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة وقد بينا في غير هذا الموضوع نحواً من ثلاثين دليلاً شرعياً يبين انتفاع الإنسان بسعي غيره إذ الآية إنما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكة ومستحقه بما ينتفع به منه فهذا نوع وهذا نوع وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدينية وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء وأنه لا يبخس عامل عمله وكذلك قوله فيمن عاقبهم {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} {هود 101} وقوله {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} {الزخرف 76} بين أن عقاب المجرمين عدلاً لذنوبهم لا لأننا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذي في السنن لو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبتهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين أن من الظلم المنفي عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} {30} مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} {31} غافر 30-31 يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلماً لاستحقاقهم ذلك وأن الله لا يريد الظلم والأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادراً عليها فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله¹

لم يجيء في أسماء الله الحسنى المأثورة المتكلم والمريد

والله تعالى يوصف بأنه يأمر بالخير وينهى عن الشر فهو سبحانه لا يأمر بالفحشاء وكذلك الإرادة قد نزه نفسه عن بعض أنواعها بقوله تعالى {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ} **ال عمران 108** وقوله {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} البقرة 185 فلهذا لم يجيء في أسمائه الحسنى المأثورة المتكلم والمريد²

لطائف لغوية

1- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} **آل عمران 100** أن الكتاب اسم جنس يتناول التوراة والإنجيل وسبب نزولها أنه أراد طائفة من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين فهم داخلون قطعاً وإن كان الخطاب مطلقاً يتناول الطائفتين³

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 405-402

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 20

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 356

2- اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ { آل عمران 102 أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجاباً واستحباباً وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد¹

3- { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } آل عمران 102 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى إذا أفرد دخل فيه فعل كل أمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ {55} القمر 54-55 وقد يقرب بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ {3} الطلاق 2-3 وقوله { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف 90 وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء²

4- فإن المؤلف في اللغة ما ألفه مؤلف وبالتأليف التوفيق بين القلوب ونحو ذلك ومنه قوله تعالى { وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ } التوبة 60 وقوله { وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } الأنفال 63 وقوله { إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } آل عمران 103³

5- { وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } آل عمران 104 المعروف طاعة الله وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر والمنكر معصية الله ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور⁴

6- والمعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح والمنكر اسم جامع لكل ما كرهه الله ونهى عنه⁵

7- { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } آل عمران 105 ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله { وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً } النساء 82

¹الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 90

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

³منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 201

⁴الاستقامة ج: 2 ص: 311

⁵اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 36

وقوله {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ} {8} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} {9} الذاريات 8-9 وقوله {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} البقرة 253¹

8- قال تعالى {فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} النحل 112 فان من الناس من يقول الذوق حقيقة في الذوق بالفم واللباس بما يلبس على البدن وانما استعير هذا وهذا وليس كذلك بل قال الخليل الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء والاستعمال يدل على ذلك قال تعالى {وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ} السجدة 21 وقال {وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ} فصلت 50 وقال {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} الدخان 49 وقال {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا} الطلاق 9 وقال {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} آل عمران 106 وقال النبي ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا وفي بعض الادعية أدقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه لكن ذاك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملاً فيما يحسه الانسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه فالشراب اذا كان بارداً أو حاراً يقال ذقت حره وبرده ولفظ ذوق الجوع والخوف فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم واذا أضيف الى المذذد على الاحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً فان قيل فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق قيل لأن الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق بل استعمال لفظ الذوق في النفي كما قال عن أهل النار {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} النبأ 24 أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق وقال عن أهل الجنة {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} الدخان 256

9- ولفظ الذوق وان كان قد يظن انه في الاصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل في الاحساس بالملائم والمنافر كما ان لفظ الاحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن واما في اللغة فأصلة الرؤية كما قال {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ} مريم 98 و المقصود لفظ الذوق قال تعالى {فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} النحل 112 فجعل الجوع والخوف مذوقاً واذاف اليهما اللباس ليشعر انه لبس الجائع والخائف فشمله واحاط به احاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الالم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى {إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ} الصافات 38 وقال تعالى {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} الدخان 49 وقال تعالى {ذُوقُوا مَسَّ

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 19

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 108-111

سَقَرَ {القمر 48} وقال {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ} {الدخان 56} وقال تعالى {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} {24} {إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا} {25} {النبا 24-25} وقال {وَلَنُنذِرَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ} {السجدة 21} وقد قال النبي ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديننا وبمحمد نبيا فاستعمال لفظ الذوق في ادراك الملائم والمنافر كثير¹

10- {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} آل عمران 107 ورحمته

اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة²

11- قال تعالى {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ} آل عمران 108

أنها آية من آيات الله أي علامة من علاماته ودلالة من أدلة الله وبيان من بيانه فان كل آية قد بين فيها من أمره وخبره ما هي دليل عليه وعلامة عليه فهي آية من آياته وهي أيضا دالة على كلام الله المبين لكلام المخلوقين فهي دلالة على الله سبحانه وعلى ما أرسل بها رسوله³

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334-335 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

³النبوات ج: 1 ص: 189

ال عمران 109-115

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} {109} {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} {110} {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ} {111} {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} {112} {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} {113} {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} {114} {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} {115}

"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم

القيامة"

ومن استقرأ أخبار العالم في جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقا على الهدى والرشد وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك إذ يقول تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} {آل عمران 110} كما لم يكن في الأمم أعظم اجتماعا على الهدى وأبعد عن التفرق والاختلاف من هذه الأمة لأنهم أكمل اعتصاما بحبل الله الذي هو كتابه المنزل وما جاء به من نبيه المرسل وكل من كان أقرب إلى الإعتصام بحبل الله وهو اتباع الكتاب والسنة كان أولى بالهدى والاجتماع والرشد والصلاح وأبعد عن الضلال والافتراق والفتنة واعتبر ذلك بالأمم فأهل الكتاب أكثر اتفاقا وعلما وخيرا من الخارجين عن الكتب والمسلمون أكثر اتفاقا وهدى ورحمة وخيرا من اليهود والنصارى فإن أهل الكتابيين قبلنا تفرقوا وبدلوا ما جاءت به الرسل وأظهروا الباطل وعادوا الحق وأهله وإنه وإن كان يوجد في أمتنا نظير ما يوجد في الأمم قبلنا كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن الناس وفي الصحيحين

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع قالوا فارس والروم قال فمن الناس إلا أولئك لكن أمتنا لا تزال فيها طائفة ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة ولهذا لا يسلط الله عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم كما ثبت هذا وهذا في الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة وأخبر أنه سأل ربه أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطاه ذلك وسأله أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطاه ذلك وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم شديدا فمعه ذلك ومن قبلنا كان الحق يغلب فيهم حتى لا تقوم به طائفة ظاهرة منصوره ولهذا كان العدو يسلط عليهم فيجتاحهم كما سلط على بني إسرائيل وخرّب بيت المقدس مرتين فلم يبق لهم ملك ونحن والله الحمد لم يزل لأمتنا سيف منصور يقاتلون على الحق فيكونون على الهدى ودين الحق الذي بعث الله به الرسول فلماذا لم نزل ولا نزال وأبعد الناس عن هذه الطائفة المهدية المنصورة هم الرافضة لأنهم أجهل وأظلم طوائف أهل الأهواء المنتسبين إلى القبلة وخيار هذه الأمة هم الصحابة فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعا على الهدى ودين الحق ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلا من كثير وإذا قيس ما يوجد في الأمة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلا من كثير وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذي فيه بياض وهذا من الجهل والظلم بل يوزن هؤلاء بنظرائهم فيظهر الفضل والرجحان¹

ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص

ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص فالإجماع دليل على نص موجود معلوم عند الأئمة ليس مما درس علمه والناس قد اختلفوا في جواز الإجماع عن اجتهاد ونحن نجوز أن يكون بعض المجمعين قال عن اجتهاد لكن لا يكون النص خافيا على جميع المجتهدين وما من حكم يعلم أن فيه إجماعا إلا وفي الأمة من يعلم أن فيه نصا وحينئذ فالإجماع دليل على النص ولهذا قال تعالى { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 115 فعلق الوعيد بمشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين مع العلم بأن مجرد مشاقة الرسول توجد الوعيد ولكن هما متلازمان فلماذا علقه بهما كما يعلقه بمعصية الله ورسوله وهما متلازمان أيضا فنحن نذكر بعض ما يستدل به على الإجماع مطلقا ويستدل به على من يقول قد لا يكون معه نص كقوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

¹ منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 364-366

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ { آل عمران 110} فهذا يقتضي أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ومن المعلوم أن إيجاب ما أوجبه الله وتحريم ما حرمه الله هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل هو نفسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجب أن يوجبوا كل ما أوجبه الله ورسوله ويحرموا كل ما حرمه الله ورسوله وحينئذ فيمتنع أن يوجبوا حراما ويحرموا واجبا بالضرورة فإنه لا يجوز عليهم السكوت عن الحق في ذلك فكيف يجوز السكوت عن الحق والتكلم بنقيضه من الباطل ولو فعلوا ذلك لكانوا قد أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف وهو خلاف النصر¹

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }

نعت الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }** **عمران 110** قال أبو هريرة كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة فيجاهدون بينلون أنفسهم و أموالهم لمنفعة الخلق و صلاحهم وهم يكرهون ذلك لجهلهم كما قال أحمد في خطبته الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى و يصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى و يبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه و كم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس و أقبح أثر الناس عليهم إلى آخر كلامه فهذا هذا و الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه و هو سبحانه يجزي الناس بأعمالهم و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه²

* والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم بلاء كما قيل للنبي أي الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل علي حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي علي الأرض وليس عليه خطيئة ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفار بعد نزول التوراة بأيدي المؤمنين في الجهاد ما لم يكن قبل ذلك حتى إنه قيل لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم كما قال تعالى **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }** القصص 43 فإنه قبل ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب لوط وعاد وثمود وغيرهم ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين ولما كان موسى أفضل من هؤلاء وكذلك محمد وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين كما قال تعالى **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا }**

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 345-346

² مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 316

{المزمّل 15 وقال تعالى {قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوْتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوْتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ {القصص 48 إلى قوله {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ {القصص 49 وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين وشريعة محمد أكمل فلهذا كان الجهاد في أمته أعظم منه في غيرهم قال تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {البقرة 216 وقال تعالى {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ {محمد 4 وقال تعالى للمنافقين {وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبِكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ {التوبة 52

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه أحدها أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله الثاني أن ذلك أنفع للكفار أيضا فإنهم قد يؤمنون من الخوف ومن أسر منهم وسيم من الصغار يسلم أيضا وهذا من معنى قوله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ {آل عمران 110 قال أبو هريرة وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس وأفلح بذلك المقاتلون وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا من معنى كون محمد ما أرسل إلا رحمة للعالمين فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال لا استأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له¹

إن مجموع الأمة الإسلامية خير للناس مجتمعين ومنفردين

والاحكام المرتبة على الأسماء العامة نوعان أحدهما ما يثبت لكل فرد من أفراد ذلك العام سواء قدر وجود الفرد الآخر أو عدمه والثاني ما يثبت لمجموع تلك الأفراد فيكون وجود كل منها شرطا في ثبوت الحكم للآخر مثال الأول قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ {البقرة 21 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ {المائدة 6 ومثال الثاني قوله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ {آل عمران 110 {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا {البقرة 143 فإن الخلق ثابت لكل واحد من الناس وكلا منهم مخاطب بالعبادة والطهارة وليس كل واحد من الأمة أمة وسطا ولا خير ثم العموم المقابل بعموم آخر قد يقابل كل فرد من هذا بكل فرد من هذا كما في قوله {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 150-152

{البقرة 285 فإن كل واحد من المؤمنين آمن بكل واحد من الملائكة والكتب والرسول وقد يقابل المجموع بالمجموع بشرط الاجتماع منهما كما فى قوله {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا} آل عمران 13 فإن الالتقاء ثبت لكل منهما حال اجتماعهما وقد يقابل شرط الاجتماع من أحدهما كقوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} آل عمران 110 فإن مجموع الأمة خير للناس مجتمعين ومنفردين وقد يقابل المجموع بتوزيع الأفراد على الأفراد فيكون لكل واحد من العموميين واحد من العموم الآخر كما يقال لبس الناس ثيابهم وركب الناس دوابهم فان كل واحد منهم ركب دابته ولبس ثوبه وكذلك إذا قيل الناس يحبون أولادهم أى كل واحد يحب ولده ومن هذا قوله سبحانه {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ} البقرة 233 أى كل والدة ترضع ولدها بخلاف ما لو قلت الناس يعظمون الأنبياء فان كل واحد منهم يعظم كل واحد من الأنبياء¹

العزة مشروطة بالايان

فالأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} الأعراف 3 {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا} الأنعام 155 واما السلف مثل قوله {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ} النساء 83 وقوله {فَإِن تَنَازَعْتُمْ} النساء 59 وقوله {وَلِلْمُؤْمِنِينَ} المنافقون 8 وقوله {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} المنافقون 8 ولو خرج المؤمنون عن الحق والهدى لما كانت لهم العزة اذ ذاك من تلك الجهة لأن الباطل والضلال ليس من الايمان الذى يستحق به العزة والعزة مشروطة بالايان لقوله {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 ومنها قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} 6 {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} 7 {الفاتحة 6-7 أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال {فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} النساء 69 الآية وفيها الدلالة ومنها قوله {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ} النساء 115 ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم ومنها قوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} آل عمران 110 وفيها أدلة مثل قوله {خَيْرَ أُمَّةٍ} آل عمران 110 ومثل قوله {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 110 فلا بد ان يامروا بكل معروف وينهوا عن كل منكر والصواب فى الاحكام معروف والخطأ منكر²

المقصود بالجهد هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد

¹مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 127-128

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 500-501

قال الله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} آل عمران 110 قال ابو هريرة كنتم خير الناس للناس تاتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الاسلام فالمقصود بالجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الامكان فمن هداه الله سعد في الدنيا والاخرة ومن لم يهتد كف الله ضرره عن غيره ومعلوم ان الجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر هو افضل الاعمال كما قال رأس الامر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله تعالى وفي الصحيح عنه انه قال ان في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء الى الارض أعدها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله وقال رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطا مات مجاهدا وجرى عليه عمله واجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتنة والجهاد افضل من الحج والعمرة كما قال تعالى {أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {19} الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} {20} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ} {21} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {22} التوبة 19- 22 والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين¹

" سن رسول الله وولاية الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله ليس لأحد تغييرها "

والله أمر نبيه أن يحكم بما أنزل وأمره أن يحكم بالعدل فهو أنزل الكتاب وانما أنزل الكتاب بالعدل قال تعالى {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} المائدة 49 {وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ} المائدة 42 واما اجماع الأمة فهو حق لا تجتمع الأمة والله الحمد على ضلالة كما وصفها الله بذلك في الكتاب والسنة فقال تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} آل عمران 110 وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر كما وصف نبيهم بذلك في قوله {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} الأعراف 157 وبذلك وصف المؤمنين في قوله {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 فلو قالت الامة في الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك ولم تنه عن المنكر فيه وقال تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} البقرة 143 والوسط العدل الخيار وقد جعلهم الله شهداء على الناس وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول وقد ثبت في الصحيح أن النبي مر عليه بجنزة فاثنوا عليها خيرا فقال وجبت وجبت ثم مر عليه بجنزة فاثنوا عليها

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 160

شرا فقال وجبت وجبت وقالوا يارسول الله ما قولك وجبت وجبت قال هذه الجنازة أثنيتم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل فإذا شهدوا ان الله أمر بشيء فقد أمر به وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء الله في الأرض بل زكاهم الله في شهادتهم كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا بالحق وقال تعالى {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} لقمان 15 والأمة منيبة الى الله فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} التوبة 100 فرضي عن اتباع السابقين الى يوم القيامة فدل على ان متابعتهم عامل بما يرضى الله والله لا يرضى الا بالحق لا بالباطل وقال تعالى {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} النساء 115 وكان عمر بن عبد العزيز يقول كلمات كان مالك يأثرها عنه كثيرا قال سن رسول الله وولاية الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال لطاعة الله ومعونة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا النظر في رأى من خالفها فمن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاة الله تعالى ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيرا والشافعي رضى الله عنه لما جرد الكلام فى أصول الفقه احتج بهذه الآية على الاجماع كما كان هو وغيره ومالك ذكر عن عمر ابن عبد العزيز¹

أفضل الامم امة محمد وأفضل أمة محمد القرن الأول

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على ان الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالى {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا} النساء 69 وفى الحديث ما طلعت الشمس ولا غربت على احد بعد النبيين والمرسلين افضل من أبى بكر وأفضل الامم امة محمد قال تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} آل عمران 110 وقال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} فاطر 32 وقال النبى فى الحديث الذى فى المسند انتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وكرمها على الله وأفضل أمة محمد القرن الأول وقد ثبت عن النبى من غير وجه انه قال خير القرون القرن الذى بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهذا ثابت فى الصحيحين من غير وجه وفى الصحيحين ايضا عنه انه قال لا تسبوا اصحابى فو الذى نفسى بيده لو انفق احدكم مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار أفضل من سائر الصحابة قال

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 176-178

تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا } الحديد 10 وقال تعالى { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } التوبة 100 والسابقون الأولون الذين انفقوا من قبل الفتح وقاتلوا والمراد بالفتح صلح الحديبية فانه كان أول فتح مكة وفيه انزل الله تعالى { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا } {1} { لِيُعْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } {2} الفتح 1-2 فقالوا يا رسول الله أو فتح هو قال نعم وافضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة وافضلهم أبو بكر ثم عمر وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الأمة وجماهيرها وقد دلت على ذلك دلائل بسطانها في منهاج أهل السنة النبوية في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة وأفضل اولياء الله تعالى اعظمهم معرفة بما جاء به الرسول واتباعا له كالصحابه الذين هم أكمل الامة في معرفة دينه واتباعه وأبو بكر الصديق اكمل معرفة بما جاء به وعملا به فهو أفضل اولياء الله إذ كانت أمة محمد أفضل الامم وافضلها اصحاب محمد صلى الله عليه و سلم وافضلهم أبو بكر رضى الله عنه ¹

الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

الشريعة التي بعث الله بها محمدا أفضل الشرائع إذ كان محمد أفضل الأنبياء والمرسلين وامته خير أمة أخرجت للناس قال أبو هريرة في قوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } آل عمران 110 كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس فهم خير الأمم للخلق والخلق عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله وأما غير الأنبياء فمنهم من يكون ذلك شرعة لاتباعه لذلك النبي وأما من كان من أهل شريعة محمد ومنهاجه فإن كان ما تركه و اجبا عليه وما فعله محرما عليه كان مستحقا للذم والعقاب إلا أن يكون متأولا مخطئا فالله قد وضع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وذنوب أحدهم قد يعفو الله عنه باسباب متعددة ومن أسباب هذا الإنحراف أن من الناس من تغلب عليه طريقة الزهد في إرادة نفسه فيزهد في موجب الشهوة والغضب كما يفعل ذلك من يفعله من عباد المشركين وأهل الكتاب كالرهبان وأشباههم وهؤلاء يرون الجهاد نقصا لما فيه من قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الأموال ويرون أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود لأنه جرى على يديه سفك الدماء ومنهم من لا يرى ذبح شيء من الحيوان كما عليه البراهمة ومنهم من لا يحرم ذلك لكنه هو يتقرب إلى الله

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 221-223

بأنه لا يذبح حيوانا ولا يأكل لحمه ولا ينجس النساء ويقول مادحه فلان ما نكح ولا ذبح وقد أنكر النبي على هؤلاء كما في الصحيحين عن أنس أن نفرا من أصحاب النبي سألوا أزواج النبي عن عمله في السر فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا أكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش فبلغ ذلك النبي فحمد الله وأثنى عليه وقال ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام واصوم وأفطر وأتزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني وقد قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} المائدة 87 نزلت في عثمان بن مظعون وطائفة معه كانوا قد عزموا على التبتل ونوع من الترهيب وفي الصحيحين عن سعد قال رد رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لا إختصينا و الزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة فاما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر أو زهد فيما لا ينفع فاما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله وكلما صدق عن ذلك فإنه ضار لا نافع ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له وان أدى الفرائض وفعل مباحا لا يعينه على الطاعة فقد فعل ما ينفعه وما لا ينفعه ولا يضره وكذلك الورع المشروع هو الورع عما قد تخاف عاقبته وهو ما يعلم تحريمه وما يشك في تحريمه وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله مثل محرم معين مثل من يترك أخذ الشبهة ورعا مع حاجته إليها ويأخذ بدل ذلك محرما بينا تحريمه أو يترك واجبا تركه أعظم فسادا من فعله مع الشبهة كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة فيتورع عنها ويدع ذمته أو ذمة أبيه مرتهة وكذلك من الورع الإحتياط بفعل ما يشك في وجوبه لكن على هذا الوجه وتمام الورع أن يعم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعا ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع وكذلك الزهد والرغبة من لم يراع ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد وما يكرهه من ذلك وإلا فقد يدع واجبات ويفعل محرمات مثل من يدع ما يحتاج إليه من الأكل أو أكل الدسم حتى يفسد عقله أو تضعف قوته عما يجب عليه من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده أو يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله لما في فعل ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منهم حتى يستولى الكفار والفجار على الصالحين الأبرار فلا ينظر المصلحة الراجحة في ذلك وقد قال تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ قِتَالٌ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} البقرة 217

يقول سبحانه وتعالى وإن كان قتل النفوس فيه شر فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور أهله أعظم من ذلك فيدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما وكذلك الذي يدع ذبح الحيوان أو يرى أن ذبحه ظلما له هو جاهل فإن هذا الحيوان لا بد أن يموت فإذا قتل لمنفعة الأدميين وحاجتهم كان خيرا من أن يموت موتا لا ينتفع به أحد والآدمى أكمل منه ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان فى الأكل والركوب ونحو ذلك لكن ما لا يحتاج إليه من تعذيبه نهى الله عنه كصبر البهائم وذبحها فى غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك وأوجب الله الإحسان بحسب الإمكان فيما أباحه من القتل والذبح كما فى صحيح مسلم عن شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته وهؤلاء الذين زهدوا فى الإرادات حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات بازائهم طائفتان طائفة رغبت فيما كره الله ورسوله الرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان و طائفة رغبت فيما أمر الله ورسوله لكن لهواء أنفسهم لا لعبادة الله تعالى وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قيل له يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} النساء 142 وهؤلاء أهل إرادات فاسدة مذمومة فهم مع تركهم الواجب فعلوا المحرمات وهم يشبهون اليهود كما يشبه أولئك النصارى¹

الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ولم يعصم أحادها

وأهل السنة يتبعون الحق من ربهم الذي جاء به الرسول ولا يكفرون من خالفهم فيه بل هم أعلم بالحق وأرحم بالخلق كما وصف الله به المسلمين بقوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} آل عمران 110 قال أبو هريرة كنتم خير الناس للناس وأهل السنة نقاوة المسلمين فهم خير الناس للناس²

وهنا أصل يجب اعتماده وذلك أن الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ولم يعصم أحادها من الخطأ لا صديقا ولا غير صديق لكن إذا وقع بعضها فى خطأ فلا بد أن يقيم الله فيها من

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 509-515

²منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 158

يكون على الصواب في ذلك الخطأ لأن هذه الأمة شهداء على الناس وهم شهداء الله في الارض وهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلا بد أن تأمر بكل معروف وتنهى عن كل منكر فإذا كان فيها من يأمر بمنكر متأولاً فلا بد أن يكون فيها من يأمر بذلك المعروف فأما الاحتجاج بفعل طائفة من الصديقين في مسألة نازعهم فيها أعدائهم فباطل بل لو كان المنازع لهم أقل منهم عدداً وأدنى منزلة لم تكن الحجة مع أحدهما إلا بكتاب الله وسنة رسوله فإنه بذلك أمرت الأمة¹

إن العقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله بعباده

فإن العقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله بعباده فهي صادرة عن رحمة الله وإرادة الإحسان إليهم ولهذا ينبغي لمن يعاقب الناس على الذنوب أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والرحمة لهم كما يقصد الوالد تأديب ولده وكما يقصد الطبيب معالجة المريض فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما أنا لكم بمنزلة الوالد وقد قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} الأحزاب6 وفي قراءة أبي وهو أب لهم والقراءة المشهورة تدل على ذلك فإن نساءه إنما كن أمهات المؤمنين تبعاً له فلو لا أنه كالأب لم يكن نساؤه كالأمهات والأنبياء أطباء الدين والقرآن أنزله الله شفاء لما في الصدور فالذي يعاقب الناس عقوبة شرعية إنما هو نائب عنه وخليفة له فعليه أن يفعل كما يفعل على الوجه الذي فعل ولهذا قال تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران110 قال أبو هريرة كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل تدخلونهم الجنة أخبر أن هذه الأمة خير الأمم لبني آدم فإنهم يعاقبونهم بالقتل والأسر ومقصودهم بذلك الإحسان إليهم وسوقهم إلى كرامة

الله ورضوانه وإلى دخول الجنة وهكذا الرد على أهل البدع من الرافضة وغيرهم إن لم يقصد فيه بيان الحق وهدى الخلق ورحمتهم والإحسان إليهم لم يكن عمله صالحاً وإذا غلظ في ذم بدعة و معصية كان قصده بيان ما فيها من الفساد ليحذرها العباد كما في نصوص الوعيد وغيرها وقد يهجر الرجل عقوبة وتعزيراً والمقصود بذلك ردعه وردع أمثاله للرحمة والإحسان لا للتشفي والانتقام كما هجر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه الثلاثة الذي خلفوا لما جاء المتخلفون عن الغزاة يعتذرون ويحلفون وكانوا يكذبون وهؤلاء الثلاثة صدقوا وعوقبوا بالهجر ثم تاب الله عليهم ببركة الصدق وهذا مبني على مسألتين إحداهما أن الذنب لا يوجب كفر صاحبه كما تقوله الخوارج بل ولا تخليده في النار ومنع الشفاعة فيه كما يقوله المعتزلة الثاني أن المتأول الذي قصده متابعة الرسول لا يكفر بل ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ وهذا مشهور عند الناس في المسائل

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 300

العملية وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفر المخطئين فيها وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا عن أحد من أئمة المسلمين وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم كالخوارج والمعتزلة والجهمية ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم

وقد يسلكون في التكفير ذلك فمنهم من يكفر أهل البدع مطلقا ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع وهذا بعينه قول الخوارج والمعتزلة الجهمية وهذا القول أيضا يوجد في طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة وليس هو قول الأئمة الأربعة ولا غيرهم وليس فيهم من كفر كل مبتدع بل المنقولات الصريحة عنهم تناقض ذلك ولكن قد ينقل عن أحدهم أنه كفر من قال بعض الأقوال ويكون مقصوده أن هذا القول كفر ليحذر ولا يلزم إذا كان القول كفرا أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه وذلك له شروط وموانع كما بسطناه في موضعه وإذا لم يكونوا في نفس الأمر كفارا لم يكونوا منافقين فيكونون من المؤمنين فيستغفر لهم ويترحم عليهم وإذا قال المؤمن { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ } { الحشر 10 يقصد كل من سبقه من قرون الأمة بالإيمان وإن كان قد أخطأ في تأويل تأوله فخالف السنة أو أذنب ذنبا فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان فيدخل في العموم وإن كان من الثنتين والسبعين فرقة فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا بل مؤمنين فيهم ضلال وذنوب يستحقون به الوعيد كما يستحقه عصاة المؤمنين والنبى صلى الله عليه وسلم لم يخرجهم من الإسلام بل جعلهم من أمته ولم يقل إنهم يخلدون في النار فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته فإن كثيرا من المنتسبين إلى السنة فيهم بدعة من جنس بدع الرافضة والخوارج¹

الله سبحانه خلق عباده على الفطرة

والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به ومعرفة الباطل والتكذيب به ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة فما كان حقا موجودا صدقت به الفطرة وما كان حقا نافعا عرفته الفطرة فأحبته واطمأنت إليه وذلك هو المعروف وما كان باطلا معدوما كذبت به الفطرة فأبغضته الفطرة فانكرته قال تعالى {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ } {الأعراف 157²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 238-241

² مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 32

وقال تعالى عن نبيه {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} الأعراف 157 وقال عن أمته {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 114 وذكر مثل ذلك في مواضع كثيرة فتارة يخص إسم المنكر بالنهي وتارة يقرنه بالفحشاء وتارة يقرن معهما البغى وكذلك المعروف تارة يخصه بالأمر وتارة يقرن به غيره كما في قوله تعالى {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} النساء 114 وذلك لأن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها بحسب الأفراد والتركيب كلفظ الفقير والمسكين فإن أحدهما إذا أفرد كان عاما لما يدلان عليه عند الإقتران بخلاف إقترانهما فإنه يكون معنى كل منهما هو معنى الآخر بل أخصه من معناه عند الأفراد وأيضا فقد يعطف على الإسم العام بعض أنواعه على سبيل التخصيص ثم قد قيل إن ذلك المخصص يكون مذكورا بالمعنى العام والخاص فإذا عرف هذا فإسم المنكر يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه وهو المبغض وإسم المعروف يعم كل ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به فحيث أفراد بالذكر فإنهما يعمان كل محبوب في الدين ومكروه وإذا قرن المنكر بالفحشاء فإن الفحشاء مبناها على المحبة والشهوة و المنكر هو الذى تنكره القلوب فقد يظن أن ما فى الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول فى المنكر وإن كانت مما تنكرها القلوب فإنها تشتهىها النفوس و المنكر قد يقال أنه يعم معنى الفحشاء وقد يقال خصت لقوة المقتضى لما فيها من الشهوة وقد يقال قصد بالمنكر ما ينكر مطلقا والفحشاء لكونها تشتهى وتحب وكذلك البغى قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس ولهذا كان جنس عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء ومنشؤها من قوة الغضب كما أن الفحشاء منشؤها عن قوة الشهوة ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها فالفواحش والبغى مقرونان بالمنكر وأما الإشرار والقول على الله بلا علم فإنه منكر محض ليس فى النفوس ميل إليهما بل إنما يكونان عن عناد وظلم فهما منكر وظلم محض بالفطرة فهذه الخصال فساد فى القوة العلمية والعملية¹

"إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك ان يعمهم الله بعقاب منه"

وولي الأمر إنما نصب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهذا هو مقصود الولاية فإذا كان الوالي يمكن من المنكر بما يأخذ كان قد أتى بصد المقصود مثل من نصبته ليعينك على عدوك فأعان عدوك عليك وبمنزلة من أخذ مالا ليجاهد به في سبيل الله فقاتل به المسلمون يوضح ذلك أن صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 347-349

قال الله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ { آل عمران 110 } وفي الحديث الثابت أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه وفي حديث آخر إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا ظهرت فلم تنكر أضرت العامة فالأمر بالمعروف مثل الصلاة والزكاة والصيام والحبس والصدق والأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن العشرة مع الأهل والجار ونحو ذلك فالواجب على ولي الأمر أن يامر بالصلوات المكتوبات جميع من يقدر على أمره ويعاقب التارك بإجماع المسلمين فإن كان التاركون طائفة ممتنعة قوتلوا على تركها بإجماع المسلمين وكذلك يقاتلون على ترك الزكاة والصيام وغيرهما وعلى استحلال ما كان من المحرمات الظاهرة المجمع عليها ككنكاح ذوات المحارم والفساد في الأرض ونحو ذلك فكل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة يجب جهادها حتى يكون الدين كله لله باتفاق العلماء وإن كان التارك للصلاة واحدا فقد قيل إنه يعاقب بالضرب والحبس حتى يصلي وجمهور العلماء على أنه يجب قتله إذا امتنع من الصلاة بعد أن يستتاب فإن تاب وصلى وإلا قتل وهل يقتل كافرا أو مسلما فاسقا فيه قولان وأكثر السلف على أنه يقتل كافرا وهذا كله مع الإقرار بوجوبها أما إذا جحد وجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين وكذلك من جحد سائر الوجبات المذكورة والمحرمات التي يجب القتال عليها فالعقوبة على ترك الواجبات وفعل المحرمات هو مقصود الجهاد في سبيل الله وهو واجب على الأمة بالاتفاق كما دل عليه الكتاب والسنة وهو من أفضل الأعمال قال رجل يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد في سبيل الله قال لا تستطيعه أو لا تطيقه قال أخبرني به قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر قال ومن يستطيع ذلك قال فذلك الذي يعدل الجهاد في سبيل الله وقال إن في الجنة لمئة درجة بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله كلاهما في الصحيحين وقال النبي صلى الله عليه وسلم رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذوره سنامه الجهاد في سبيل الله¹

المسلمون هم الوسط في التوحيد والأنبياء والشرايع والحلال والحرام والأخلاق

ولقد وصف الله أمة محمد بأنهم أنفع الأمم للخلق فقال { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ

¹السياسة الشرعية ج: 1 ص: 63-65

وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ { آل عمران 110} ففي أمة محمد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد ما لم يوجد مثله في الأمتين ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين وجد اليهود والنصارى متقابلين هؤلاء في طرف ضلال وهؤلاء في طرف يقابله والمسلمون هم الوسط وذلك في التوحيد والأنبياء والشرائع والحلال والحرام والأخلاق وغير ذلك فاليهود يشبهون الخالق بالمخلوق في صفات النقص المختصة بالمخلوق التي يجب تنزيه الرب سبحانه عنها كقول من قال منهم إنه فقير وإنه بخيل وإنه تعب لما خلق السماوات والأرض والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق في صفات الكمال المختصة بالخالق التي ليس له فيها مثل كقولهم إن المسيح هو الله وابن الله وكل من القولين يستلزم الآخر والنصارى أيضا يصفون اللاهوت بصفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها ويسبون الله سباً ما سبه إياه أحد من البشر كما كان معاذ بن جبل يقول لا ترحمهم فإنهم قد سبوا الله سباً ما سبه إياها أحد من البشر واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ ما شرعه كما يمتنع ما لا يدخل في القدرة أو ينافي العلم والحكمة والنصارى يجوزون لأكابره أن ينسخوا شرع الله الذي بعث به رسله فيحللوا ما حرم كما حللوا الخنزير وغيره من الخبائث بل لم يحرّموا شيئاً ويحرّمون ما حلل كما يحرّمون في رهبانيتهم التي ابتدعوها وحرّموا فيها من الطيبات ما أحله الله ويسقطون ما أوجب كما أسقطوا الختان وغيره وأسقطوا أنواع الطهارة من الغسل وإزالة النجاسة وغير ذلك ويوجبون ما أسقط كما أوجبوا من القوانين ما لم يوجبه الله وأنبيأؤه والمسلمون وصفوا الرب بما يستحقه من صفات الكمال ونزهوه عن النقص وأن يكون له مثل فوصفوه بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل مع علمهم أنه ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وقالوا ألا له الخلق والأمر فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره بل الدين كله له هو المعبود المطاع الذي لا يستحق العبادة إلا هو ولا طاعة لأحد إلا طاعته وهو ينسخ ما ينسخه من شرعه وليس لغيره أن ينسخ شرعه واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات وتحريم الطيبات والنصارى استحلوا الخبائث وملابسة النجاسات والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافا لليهود وحرّم عليهم الخبائث خلافا للنصارى واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم والنصارى يدعون أنهم يطهرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم والمسلمون يطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعاً والنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ومعرفة ولا ذكاء واليهود لهم ذكاء وعلم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة والمسلمون جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح بين الزكا والذكاء فإن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فالهدى يتضمن العلم النافع ودين الحق يتضمن العمل الصالح ليظهره على الدين كله والظهور يكون بالعلم واللسان ليبين أنه حق وهدى ويكون باليد والسلاح ليكون منصوراً مؤيداً والله أظهره هذا الظهور فهم أهل الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً غير المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يعملون به كاليهود ولا الضالين الذين يعملون ويعبدون ويزهدون بلا علم كالنصارى واليهود

قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم والمسلمون اعتدلوا فأمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ولم يفرقوا بين أحد من رسله وآمنوا بجميع النبيين وبكل كتاب أنزله الله فلم يكذبوا الأنبياء ولا سبوهم ولا غلوا فيهم ولا عبدوهم وكذلك أهل العلم والدين لا يبخسونهم حقهم ولا غلوا فيهم واليهود يغضبون لأنفسهم وينتقمون والنصارى لا يغضبون لربهم ولا ينتقمون والمسلمون المعتدلون المتبعون لنبيهم يغضبون لربهم ويعفون عن حظوظهم كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما ضرب رسول الله بيده خادما له ولا امرأة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا ينيل منه شيء قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله لم لم تفعله وكان بعض أهله إذا عاتبني على شيء يقول دعوه فلو قضي شيء لكان هذا في حق نفسه وأما في حدود الله ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله فقالوا من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله فكلمه فيها أسامة فقال يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدود والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها¹

الجهاد تمام الايمان وسنام العمل

والجهاد تمام الايمان وسنام العمل كما قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات 15 وقال { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } آل عمران 110 الآية وقال { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ } التوبة 19 الآية فكذاك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين كما قال تعالى { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } العنكبوت 69 فهذا في العلم والنور وقال { وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } النساء 66 الى قوله { وَلَهْدِيَنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } النساء 68 فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضا وهو من الجهاد والخروج من ديارهم هو الهجرة ثم اخبر أنهم اذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيرا لهم واشد تثبيتا ففي الآية أربعة امور الخير المطلق والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة والاجر العظيم وهداية الصراط المستقيم وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } محمد 7 وقال { وَلا يَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ } الحج 40 الى قوله { وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج 41 وقال { يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } المائدة 54²

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 100-105

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 401-402

" انزل الله عز وجل براءة فاتى الله بامرہ وقضائه "

فكل ما لا يجوز للامام ان يعاهدهم مع كونه يفعلونه فهو مناف للعقد كما ان ما لا يجوز للمتبايعين والمتناكحين ان يتعاقدا مع وجوده فهو مناف للعقد واطهار الطعن في الدين لايجوز للامام ان يعاهدهم مع وجوده منهم اعني مع كونهم ممكنين من فعله اذا ارادوا وهذا مما اجمع المسلمون عليه ولهذا بعضهم يعاقبون على فعله بالتعزير واكثرهم يعاقبون عليه بالقتل وهو مما لايشك فيه المسلم ومن شك فيه فقد خلع رقية الاسلام من عنقه واذا كان العقد لايجوز عليه كان منافيا للعقد ومن خالف شرطا مخالفة تنافي ابتداء العقد فان عقده يفسخ بذلك بلا ريب فاحداث اهل الذمة الطعن في الدين مخالفة بموجب العقد مخالفة تنافي ابتداءه فيجب انفساخ عقدهم بها وهذا بين لما تامله وهو يوجب انفساخ العقد بما ذكرناه عند جميع الفقهاء ويتبين ان ذلك هو مقتضى قياس الاصول فان قيل فقد قال تعالى {الْتُبُلُونَّ فِيْ اَمْوَالِكُمْ وَاَنْفُسِكُمْ وَاَنْتُمْ سَمِعْتُمْ مِّنَ الَّذِيْنَ اُوْتُوا الْكِتَابَ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِيْنَ اَشْرَكُوا اَدَى كَثِيْرًا وَاِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا فَاِنَّ ذٰلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْاُمُوْرِ} آل عمران 186 فاخبر ان نسمع منهم الاذى الكثير ودعانا الى الصبر على اذاهم وانما يؤذينا اذى عاما الطعن في كتاب الله ودينه ورسوله وقوله تعالى {لَنْ يَضُرُّوْكُمْ اِلَّا اَدَى} آل عمران 111 من هذا الباب قلنا اولا ليس في الاية بيان ان ذلك مسموع من اهل الذمة والعهد وانما هو مسموع في الجملة من الكفار وثانيا ان الامر بالصبر على اذاهم ويتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكنة واقامة حد الله عليهم عند القدرة فانه لا خلاف بين المسلمين ان اذا سمعنا مشركا او كتابيا يؤذي الله ورسوله ولا عهد بيننا وبينه وجب علينا ان نقاتله ونجاهده اذا امكن ذلك وثالثا ان هذه الاية وما شابهها منسوخ من بعض الوجوه وذلك ان رسول الله لما قدم المدينة كان بها يهود كثير ومشركون وكان اهل الارض اذ ذاك صنفين مشركا او صاحب كتاب فهادن رسول الله من بها من اليهود وغيرهم وامرهم الله اذ ذاك بالعفو والصفح كما في قوله تعالى {وَدَّ كَثِيْرٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ اِيْمَانِكُمْ كُفٰرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاَعْفُوْا وَاَصْفَحُوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِاَمْرِهٖ} البقرة 109 فامرہ الله بالعفو والصفح عنهم الى ان يظهر الله دينه ويعز جنده فكان اول العز وقعة بدر فانها ادلت رقاب اكثر الكفار الذين بالمدينة وارهبت سائر الكفار وقد اخرجنا في الصحيحين عن عروة عن اسامة بن زيد ان رسول الله ركب حمارا على اكاف على قطيفة فديكية واردف اسامة بن زيد يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر فسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن ابي بن سلول وذلك قبل ان يسلم عبد الله بي ابي واذا في المجلس اخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الاوثان واليهود وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن ابي انفه بردائه ثم قال لا تغبروا علينا فسلم رسول الله ثم وقف فنزل فدعاهم الى الله وقرا عليهم القران فقال عبد الله بن ابي بن سلول ايها المرء انه لا احسن مما تقول ان كان حقا فلا تؤذنا به

في مجالسنا ارجع الى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه فقال عبد الله بن رواحة بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا فانا نحب ذلك فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثارون فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب رسول الله دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له رسول الله ياسعد الم تسمع ما قال ابو حباب يريد عبد الله بن ابي قال كذا وكذا قال سعد بن عبادة يارسول الله اعف عنه واصفح فوالذي نزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي انزل عليك ولقد اصطلح اهل هذه البصرة على ان يتوجوه فيعصبوه بالعصاة فلما رد الله ذلك بالحق الذي اعطاك شرق بذلك فذلك الذي فعل به ما رايت فعفا عنه رسول الله

وكان رسول الله واصحابه يعفون عن المشركين واهل الكتاب كما امرهم الله تعالى ويصبرون على الاذى قال الله تعالى {وَلْتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال الله عز وجل {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 109 وكان رسول الله يتاول في العفو ما امره الله عز وجل حتى اذن الله عز وجل فيهم فلما غزا رسول الله بدرًا فقتل الله تعالى به من قتل من صناديد كفار قريش وقفل رسول الله واصحابه منصورين غانمين معهم اسارى من صناديد الكفار وسادة قريش فقال ابن ابي بن سلول ومن معه من المشركين عبده الاوثان هذا امر قد توجه فبايعوا رسول الله على الاسلام فاسلموا اللفظ للبخاري وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} الحجر 94 {أَسْتَعْلِيهِمْ بِمُصَيِّرِ {الغاشية 22} فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ {المائدة 13} {وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا} التغابن 14 {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} البقرة 109 {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} {الجاثية 14} ونحو هذا في القران مما امر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فانه نسخ ذلك كله قوله تعالى {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} التوبة 5 وقوله تعالى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} التوبة 29

الى قوله {وَهُمْ صَاغِرُونَ} التوبة 29 فنسخ هذا عفو عن المشركين وكذلك روى الامام احمد وغيره عن قتادة قال امر الله نبيه ان يعفوا عنهم ويصفح حتى ياتي الله بامرهم وقضائه ثم انزل الله عز وجل براءة فاتي الله بامرهم وقضائه فقال تعالى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} التوبة 29 الاية قال فنسخت هذه الاية ما كان قبلها وامر الله فيها بقتال اهل الكتاب حتى يسلموا او يقرؤا بالجزية صغارا ونقمة لهم وكذلك ذكر موسى بن عقبة عن الزهري ان النبي لم يكن يقاتل من كف عن قتاله لقوله تعالى {فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا} النساء 90 الى ان نزلت براءة وجملة ذلك انه لما نزلت براءة امر ان يبتدي جميع الكفار بالقتال وثنيتهم وكتابتهم سواء كفوا عنه او لم يكفوا وان ينبذ اليهم

تلك العهود المطلقة التي كانت بينه وبينهم وقيل له فيها { جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ } التوبة 73 بعد ان كان قد قيل له { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ } الأحزاب 48 ولهذا قال زيد بن اسلم نسخت هذه الآية ما كان قبلها فاما قبل براءة وقبل بدر فقد كان مأمورا بالصبر على اذاهم والعفو عنهم واما بعد بدر وقبل براءة فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عن سالمه كما فعل بابن الاشرف وغيره ممن كان يؤذيه فبدر كانت اساس عز الدين وفتح مكة كانت كمال عز الدين فكانوا قبل بدر يسمعون الاذى الظاهر ويؤمنون بالصبر عليه وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمنون بالصبر عليه وفي تبوك امروا بالاغلاظ للكفار والمنافقين فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من اذاهم في مجلس خاص ولا عام بل مات بغيظه لعلمه بانه يقتل اذا تكلم وقد كان بعد بدر لليهود استطالة واذى للمسلمين الى ان قتل كعب بن الاشرف قال محمد بن اسحاق في حديثه عن محمد بن مسلمة قال فاصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودي الا وهو يخاف على نفسه وروى باسناده عن محيصة ان رسول الله قال من ظفرت به من رجال يهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على ابن سليمة رجل من تجار يهود كان يلبسهم ويبايعهم فقتله وكان حويصة ابن مسعود اذ ذاك لم يسلم وكان اسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول اي عدو الله قتلته اما والله لرب شحم في بطنك من ماله فوالله ان كان اسلام حويصة فقال محيصة فقلت له والله لقد امرني بقتله من لو امرني بقتلك لضربت عنقك فقال لو امرك محمد بقتلي لقتلتني فقال محيصة نعم والله فقال حويصة والله ان ديننا بلغ هذا منك لعجب وذكر غير ابن اسحاق ان اليهود حذرت وذلت وخافت من يوم قتل ابن الاشرف فلما اتى الله بامر الذي وعده من ظهور الدين وعز المؤمنين امر رسوله بالبراءة الى المعاهدين وبقتال المشركين كافة وبقتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى الذين امر الله بهما في اول الامر وكان اذ ذاك لا يؤخذ من احد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيرهم جزية وصارت تلك الايات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه وصارت اية الصغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده او لسانه وبهذه الآية ونحوها كان المسلمون يعملون في اخر عمر رسول الله وعلى عهده خلفائه الراشدين وكذلك هو الى قيام الساعة لاتزال طائفة من هذه الامة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام فمن كان من المؤمنين بارض هو فيها مستضعف او في وقت هو فيه مستضعف فليعمل باية الصبر والصفح عن يؤذي الله ورسوله من الذين اتوا الكتاب والمشركين واما اهل القوة فانما يعملون باية قتال ائمة الكفر الذين يطعنون في الدين وباية قتال الذين اتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون¹

التقصير والاعتداء هو الذي استحق به اهل الكتاب العقوبة

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 405-411

فاتخاذ ما ليس بمشروع ديناً أو تحريم ما لم يحرم دين الجاهلية والنصارى الذي عابه الله عليهم كما قال تعالى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ} {الأنعام 148} وقال تعالى فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحلت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وقال في حق النصارى {وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ} {التوبة 29} ومثل ذلك أن يحصل من بعضهم تقصير في الأمور أو اعتداء في المنهي إما من جنس الشبهات وإما من جنس الشهوات فيقابل ذلك بعضهم بالاعتداء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بالتقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقصير والاعتداء إما في الأمور به والمنهي عنه شرعاً وإما في نفس أمر الناس ونهيهم هو الذي استحق به أهل الكتاب العقوبة حيث قال {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} {آل عمران 112} فجعل ذلك بالمعصية والاعتداء والمعصية مخالفة الأمر وهو التقصير والاعتداء مجاوزة الحد وكذلك يضمن كل مؤتمن على مال إذا قصر وفرط في ما أمر به وهو المعصية إذا اعتدى بخيانة أو غيرها ولهذا قال {وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} {المائدة 2} فالإثم هو المعصية والله أعلم وقال النبي إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها فالمعصية تضييع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي والاعتداء مجاوزة حدود المباحات وقال تعالى {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} {الأعراف 157} فالمعصية مخالفة أمره ونهيه والاعتداء مجاوزة ما أحله إلى ما حرمه وكذلك قوله والله أعلم {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} {آل عمران 147} فالذنوب المعصية والإسراف الاعتداء ومجاوزة الحد وأعلم أن مجاوزة الحد هي نوع من مخالفة النهي لأن اعتداء الحد محرم منهى عنه فيدخل في قسم المنهي عنه لكن المنهي عنه قسمان منهى عنه مطلقاً كالكفر فهذا فعله إثم ومنهى عنه وقسم أبيح منه أنواع ومقادير وحرم الزيادة على تلك الأنواع والمقادير فهذا فعله عدوان وكذلك قد يحصل العدوان في الأمور به كما يحصل في المباح فإن الزيادة على الأمور به قد يكون عدواناً وقد يكون مباحاً مطلقاً وقد يكون مباحاً إلى غاية فالزيادة عليها عدوان ولهذا التقسيم قيل في الشريعة هي الأمر والنهي والحلال والحرام والفرائض والحدود والسنن والأحكام فالفرائض هي المقادير في الأمور به والحدود النهايات لما يجوز من المباح الأمور به وغير الأمور به¹

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 361-363

يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله

فان الله تعالى سمي نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمي نفسه حيا عليما حكيمًا قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيمًا الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى **{وَبَأْوُوا بِغَضَبِ مَنْ أَلَّهِ}** آل عمران 112 وامثال ذلك فالقول في بعض هذه الصفات كالقول في بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** الشورى 11 ليس كمثل شئ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعي من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات فقله تعالى **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** الشورى 11 رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله **{ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }** الشورى 11 رد على أهل النفي والتعطيل فالممثل اعشى والمعتل أعمى الممثل يعبد صنما والمعتل يعبد عدما وقد اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مرید حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا ان الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين ان الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشى الى أن هذه الاسماء حقيقة لله مجاز للخلق واما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الاشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الائمة الاربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون ان هذه الاسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وان كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون ان له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة¹

السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى

أن من كذب بالحق عوقب بان يطبع على قلبه فلا يفهم العلم أو لا يفهم المراد منه و أنه يسلط عليه عدوه و يجد ذلا كما قال تعالى عن اليهود **{ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ }** البقرة 61 الى قوله **{ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}** البقرة 61 وقال **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مَنْ أَلَّهِ وَحَبْلِ مَنْ النَّاسِ وَبَأْوُوا بِغَضَبِ مَنْ أَلَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ أَلَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}** آل عمران 112²

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 197

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 162

والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدوقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى وقال تعالى **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْقَهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}** آل عمران 112¹

وقد جعل الله عامة ما اصاب بني اسرائيل من الذلة والمسكنة والغضب حتى سفك منهم من الدماء ما شاء الله ونهبت الاموال وزال الملك عنهم وسبيت الذرية وصاروا تحت ايدي غيرهم الى يوم القيامة انما هو بأنهم كانوا يكفرون بايات الله ويقتلون النبيين بغير الحق وكل من قتل نبيا فهذا حاله²

"من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى"

قال تعالى {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 وقد صح عن النبي أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكتاب الله يدل على ذلك في مواضع مثل قوله تعالى {وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ} آل عمران 112³

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد فقال القوم هذا عدي بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب فلما دفعت إليه أخذ بيدي وقد قال قبل ذلك إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي قال فقام بي فلقيته امرأة وصبي معها فقالا إن لنا إليك حاجة فقام معها حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 28 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 243

²الصارم المسلول ج: 3 ص: 859

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 64

وجلست بين يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما يفرك أيفرك أن تقول لا إله إلا الله فهل تعلم من إله سوى الله قال قلت لا ثم تكلم ساعة ثم قال إنما يفرك أن تقول الله أكبر أو تعلم شيئاً أكبر من الله قال قلت لا قال فإن اليهود مغضوب عليه والنصارى ضلال قال فقلت فإني حنيف مسلم قال فرأيت وجهه ينبسط فرحا وذكر حديثاً طويلاً رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث قال الله سبحانه **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبِأُورٍا بَعْضِبِ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}** آل عمران 112 وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم واليهود مقصرون عن الحق والنصارى غالون فيه فأما وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال فله أسباب ظاهرة وباطنة ليس هذا موضعها وجماع ذلك أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولاً أو عملاً أو قولاً ولا عملاً وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله ويقولون على الله مالا يعلمون ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى¹

اليهود فيهم كبر والمستكبر معاقب بالذل

ولما كان أصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا}** آل عمران 112 ولما كان أصل دين النصارى الإشراف لتعديد الطرق إلى الله أضلهم عنه فعوقب كل من الأمتين على ما إجترمه بنقيض قصده **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}** فصلت 46 كما جاء في الحديث يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر يطوهم الناس بأرجلهم وكما في الحديث عن عمر بن الخطاب موقوفاً ومرفوعاً ما من أحد إلا في رأسه حكمة فإن تواضع قيل له انتعش نعشك الله وإن رفع رأسه قيل له انتكس نكسك الله²

واليهود فيهم كبر والمستكبر معاقب بالذل قال تعالى **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبِأُورٍا بَعْضِبِ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}** آل عمران 112 وقال تعالى **{أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}** البقرة 87 فتكذيبهم وقتلهم للأنبياء كان استكباراً³

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 4-5

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 628

³ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 211

اليهود من اسوء الكفار عند الله

يوبخ الله بنى إسرائيل على تكذيبهم بمحمد ما لا يوبخه غيرهم من أهل الكتاب لأنه تعالى أنعم على أجدادهم نعماً عظيمة في الدين والدنيا فكفروا نعمته وكذبوا رسله وبدلوا كتابه وغيروا دينه {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} آل عمران 112 فهم مع شرف آبائهم وحق دين اجدادهم من اسوء الكفار عند الله وهو اشد غضبا عليهم من غيرهم لأن في كفرهم من الاستكبار والحسد والمعاندة والقسوة وكتمان العلم وتحريف الكتاب وتبديل النص وغير ذلك ما ليس في كفر هؤلاء¹

فإن اليهود بدلوا شريعة التوراة قبل أن يأتيهم المسيح ابن مريم فلما اتاهم كفروا به وكذبوه فلما بعث محمد كذبوه فباءوا بغضب على غضب فغضب عليهم أولاً بتكذيب المسيح وثانياً بتكذيب محمد فتبين أن اليهود لعنهم الله وأنهم عبدوا الطاغوت وأنه جعل منهم القردة والخنازير²

اليهود من حين ضربت عليهم الذلة إلا بحبل لم يكونوا بمجردهم ينتصرون

قال تعالى {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} آل عمران 112 فاليهود من حين ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه قال تعالى {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَاعِكُ إِلَيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} آل عمران 55 وكانوا قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى {وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} آل عمران 112³

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} {20} كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} {21} {المجادلة 20-21} والاذل ابلغ من الذليل ولا يكون اذل حتى يخاف على نفسه

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 229

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 89

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 301

وماله ان اظهر المحادة لانه ان كان دمه وماله معصوما لا يستباح فليس باذل يدل عليه قوله تعالى {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ} آل عمران 112 فبين سبحانه انهم اينما ثقفوا فعليهم الذلة الا مع العهد فعلم ان من له عهد وحبل لا ذلة عليه وان كانت عليه المسكنة فان المسكنة قد تكون مع عدم الذلة وقد جعل المحادين في الاذلين فلا يكون لهم عهد اذ العهد ينافي الذلة كما دلت عليه الاية وهذا ظاهر فان الاذل هو الذي ليس له قوة يمتنع بها ممن ارداه بسوء فاذا كان له من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس باذل فثبت ان المحاد لله ولرسوله لا يكون له عهد يعصمه والمؤذي للنبي محاد فالمؤذي للنبي ليس له عهد يعصم دمه وهو المقصود وقوله تعالى {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ} آل عمران 112 يقتضي ان الذلة تلزمه فلا تزول الا بحبل من الله وحبل من الناس وحبل المسلمين معه على ان لا يظهر المحادة بالاتفاق فليس معه حبل مطلق بل حبل مقيد فهذا الحبل لا يمنعه ان يكون اذل اذا فعل ما لم يعاهد عليه او يقول صاحب هذا المسلك الذلة لازمة لهم بكل حال كما اطلقت في سورة البقرة وقوله {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ} آل عمران 112 يجوز ان يكون تفسيراً للذلة اي ضربت عليهم انهم اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا الا بحبل من الله وحبل من الناس فالحبل لا يرفع الذلة وانما يرفع بعض موجباتها وهو القتل فان من كان لا يعصم دمه الا بعهد فهو ذليل وان عصم دمه بالعهد لكن على هذا التقدير تضعف الدلالة الاولى من المحادة والطريقة الاولى اجود كما تقدم وفي زيادة تقريرها طول¹

الله تعالى إنما أتى على من آمن من أهل الكتاب

اما قوله تعالى {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَانِمَةٌ تَنْتَوْنُ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} {113} {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} {114} وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} {115} آل عمران 113-115 فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى بل هي مذكورة بعد قوله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} {110} {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ} {111} ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} {112} آل عمران 110-112 ثم قال {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 55-56

أُمَّةً قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ { آل عمران 113 ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله { ذَلِكَ بَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } آل عمران 112 صفة اليهود وكذلك قوله { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ } آل عمران 112 فقوله عقب ذلك { مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ } آل عمران 113 لا بد أن يكون متناولاً لليهود ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد ليس فيهم مؤمن وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود والله تعالى إنما أثنى على من آمن من أهل الكتاب كما قال تعالى { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } آل عمران 199 وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام وقد قيل أن النبي إنما صلى عليه لما مات لأجل هذا فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة كما يصلي المسلمون على جنائزهم ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي بمنزلة من يؤمن بالنبي في بلاد الحرب ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه كما قال تعالى { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٌ } النساء 92 فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار وهو في الباطن مؤمن وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملاً و { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } البقرة 286 وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام كعجز النجاشي وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم في الظاهر مسلمون وفيهم من هو منافق كافر في الباطن إما يهودي وإما نصراني وإما مشرك وإما معطل كذلك في أهل الكتاب والمشركين من هو في الظاهر منهم ومن هو في الباطن من أهل الإيمان بمحمد يفعل ما يقدر على علمه وعمله ويسقط ما يعجز عنه في ذلك وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال لما مات النجاشي قال النبي استغفروا لأخيكم فقال بعض القوم تأمرنا أن نستغفر لهذا العليج يموت بأرض الحبشة فنزلت { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } آل عمران 199 ذكره ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم وذكره حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصري أن رسول الله قال استغفروا لأخيكم النجاشي فذكر مثله وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر بن عبد الله وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبي في اليوم الذي مات فيه فقال رسول الله لأصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم قالوا من هو قال النجاشي فخرج رسول الله إلى البقيع وزاد بعضهم وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه وكبر أربع

تكبيرات واستغفر له وقال لأصحابه استغفروا له فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على عرج حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله تعالى {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} آل عمران 199 وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث محمد فأمن به كما نقل ذلك عن عطاء وذهبت طائفة إلى أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم والقول الأول أجود فإن من آمن بمحمد وأظهر الإيمان به وهو من أهل دار الإسلام يعمل ما يعمل المسلمون ظاهرا وباطنا فهذا من المؤمنين وإن كان قبل ذلك مشركا بعبد الأوثان فكيف إذا كان كتابيا وهذا مثل عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهما وهؤلاء لا يقال إنهم من أهل الكتاب كما لا يقال في المهاجرين والأنصار إنهم من المشركين وعباد الأوثان ولا يمكن أحد من المنافقين ولا من غيرهم من أن يصلي على واحد منهم بخلاف من هو في الظاهر منهم وفي الباطن من المؤمنين وفي بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير يكتمون إيمانهم إما مطلقا وإما يكتُمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ} آل عمران 199 الآية فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه كما يفعل كثير من الأحرار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله فيمنعونهم الإيمان بمحمد وأما قوله تعالى {مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} {113} {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} {114} آل عمران 113-114 فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى ونظيرها قوله تعالى {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} {الأعراف 159} وهذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح ولا فيها مدح لمن كذب محمدا وهذا الكلام يفسره سياق الكلام فإنه قال تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} آل عمران 110 ثم قال تعالى {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} آل عمران 110 فقد جعلهم نوعين نوعا مؤمنين ونوعا فاسقين وهم أكثرهم وقوله تعالى {مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ} آل عمران 110 يتناول من كان منهم مؤمنا قبل مبعث محمد كما يتناولهم قوله تعالى {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً} {الحديد 27} إلى قوله {وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} {الحديد 27} وكذلك قوله تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} {الحديد 26} وقوله عن إبراهيم الخليل {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ} {الصافات 113} ثم لما قال {وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} آل عمران 110 قال {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} {111} {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقَفُّوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ {112} آل عمران 111 وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤهم بغضب الله وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتداؤهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد كما قال تعالى في سورة البقرة {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَرْتَابِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ذَلِكَ بِنَانِهِمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ {البقرة 61} ثم قال بعد ذلك {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {البقرة 62} فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه الملل الأربع متمسكا بها قبل النسخ بغير تبديل كذلك آية آل عمران لما وصف أهل كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفا به أكثرهم قبل محمد من الكفر قال {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ {113} يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ {114} آل عمران 113-114} وهذا يتناول من كان متصفا منهم بهذا قبل النسخ فإنهم كانوا على الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ كما قال في الأعراف {وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ {الأعراف 159} وقوله {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {168} فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {169} وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ {170} الأعراف 168-170} وقد قال تعالى {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ {الأعراف 181} فهذا خبر من الله عن من كان متصفا بهذا الوصف قبل مبعث محمد ومن أدرك من هؤلاء محمدا فأمن به كان له أجره مرتين¹

من كان في دار الكفر لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها

وقد قال بعض المفسرين ان هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه كما نقل عن ابن جريج ومقاتل وابن زيد يعنى قوله {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} آل عمران 199 وبعضهم قال انها في مؤمنى أهل الكتاب فهو كالقول الأول وإن أراد

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 201-213 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 314-317 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 301

العموم فهو كالثانى وهذا قول مجاهد ورواه أبو صالح عن ابن عباس وقول من ادخل فيها ابن سلام وأمثاله ضعيف فان هؤلاء من المؤمنين ظاهرا وباطنا من كل وجه لا يجوز أن يقال {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} آل عمران 199 أما أولا فان ابن سلام أسلم فى أول ما قدم النبى المدينة وقال فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وسورة آل عمران إنما نزل ذكر أهل الكتاب فيها لما قدم وفد نجران سنة تسع أو عشر وثانيا أن ابن سلام وأمثاله هو واحد من جملة الصحابة والمؤمنين وهو من أفضلهم وكذلك سلمان الفارسى فلا يقال فيه إنه من أهل الكتاب وهؤلاء لهم أجور مثل أجور سائر المؤمنين بل يؤتون أجرهم مرتين وهم ملتزمون جميع شرائع الاسلام فأجرهم أعظم من أن يقال فيه {أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ} آل عمران 199 وأيضا فان أمر هؤلاء كان ظاهرا معروفا ولم يكن أحد يشك فيهم فأى فائدة فى الاخبار بهم وما هذا الا كما يقال الاسلام دخل فيه من كان مشركا أو كان كتابيا وهذا معلوم لكل أحد بأنه دين لم يعرف قبل محمد فكل من دخل فيه كان قبل ذلك إما مشركا وإما من أهل الكتاب إما كتابيا وإما أميا فأى فائدة فى الاخبار بهذا بخلاف أمر النجاشى وأصحابه ممن كانوا متظاهرين بكثير مما عليه النصارى فان أمرهم قد يشتبه ولهذا ذكروا فى سبب نزول هذه الآية انه لما مات النجاشى صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال قائل تصلى على هذا العلج النصرانى وهو فى أرضه فنزلت هذه الآية هذا منقول عن جابر وأنس بن مالك وابن عباس وهم من الصحابة الذين باشروا الصلاة على النجاشى وهذا بخلاف ابن سلام وسلمان الفارسى فانه اذا صلى على واحد من هؤلاء لم ينكر ذلك أحد وهذا مما يبين أن المظهرين للإسلام فيهم منافق لا يصلى عليه كما نزل فى حق ابن أبى وأمثاله وان من هو فى أرض الكفر يكون مؤمنا يصلى عليه كالنجاشى ويشبه هذه الآية انه لما ذكر تعالى اهل الكتاب فقال {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} 110 { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} 111 { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} 112 { لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} 113 { يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} 114 { وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} 115 { ال عمران 110- 115 وهذه الآية قيل انها نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل أن قوله {مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} ال عمران 110 هو عبد الله بن سلام واصحابه وهذا والله اعلم من نمط الذى قبله فان هؤلاء ما بقوا من أهل الكتاب وإنما المقصود من هو منهم فى الظاهر وهو مؤمن لكن لا يقدر على ما يقدر عليه المؤمنون المهاجرون المجاهدون كمؤمن آل فرعون هو من آل فرعون وهو مؤمن ولهذا قال تعالى {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ

{ غافر 28 فهو من آل فرعون وهو مؤمن وكذلك هؤلاء منهم المؤمنون ولهذا قال { وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } { آل عمران 110 وقد قال قبل هذا { وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } { آل عمران 110 ثم قال { لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ } { آل عمران 111 وهذا عائد اليهم جميعهم لا الى أكثرهم ولهذا قال { وَإِنْ يَقَاتِلْكُمْ يَتْلُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ } { آل عمران 111 وقد يقاتلون وفيهم مؤمن يكتف إيمانه يشهد القتال معهم ولا يمكنه الهجرة وهو مكره على القتال ويبعث يوم القيامة على نيته كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يغزو جيش هذا البيت فبينما هم بببداء من الأرض إذ خسف بهم فليل يارسول الله وفيهم المكره قال يبعثون على نياتهم وهذا في ظاهر الأمر وان قتل وحكم عليه بما يحكم على الكفار بالله يبعثه على نيته كما ان المنافقين منا يحكم لهم في الظاهر بحكم الاسلام ويبعثون على نياتهم والجزاء يوم القيامة على ما في القلوب لا على مجرد الظواهر ولهذا روى ان العباس قال يارسول الله كنت مكرها قال اما ظاهرك فكان علينا واما سريرتك فالى الله وبالجملة لا خلاف بين المسلمين أن من كان في دار الكفر وقد آمن وهو عاجز عن الهجرة لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها بل الوجوب بحسب الإمكان وكذلك ما لم يعلم حكمه فلو لم يعلم أن الصلاة واجبة عليه وبقي مدة لم يصل لم يجب عليه القضاء في أظهر قولي العلماء وهذا مذهب أبي حنيفة وأهل الظاهر وهو أحد الوجهين في مذهب أحمد وكذلك سائر الواجبات من صوم شهر رمضان وأداء الزكاة وغير ذلك ولو لم يعلم تحريم الخمر فشربها لم يحد باتفاق المسلمين وإنما اختلفوا في قضاء الصلاة وكذلك لو عامل بما يستحله من ربا أو ميسر ثم تبين له تحريم ذلك بعد القبض هل يفسخ العقد أم لا كما لا يفسخه لو فعل ذلك قبل الإسلام وكذلك لو تزوج نكاحا يعتقد صحته على عاداتهم ثم لما بلغه شرائع الإسلام رأى أنه قد أخل ببعض شروطه كما لو تزوج في عدة وقد انقضت فهل يكون هذا فاسدا أو يقر عليه كما لو عقده قبل الإسلام ثم أسلم وأصل هذا كله أن الشرائع هل تلزم من لم يعلمها أم لا تلزم أحدا إلا بعد العلم أو يفرق بين الشرائع الناسخة والمبتدأة هذا فيه ثلاثة أقوال هي ثلاثة أوجه في مذهب أحمد ذكر القاضي أبو يعلى الوجهين المطلقين في كتاب له وذكر هو وغيره الوجه المفرق في أصول الفقه وهو أن النسخ لا يثبت في حق المكلف حتى يبلغه النسخ وخرج أبو الخطاب وجها بثبوتها ومن هذا الباب من ترك الطهارة الواجبة ولم يكن علمه بوجوبها أو صلى في الموضع المنهى عنه قبل علمه بالنهي هل يعيد الصلاة فيه روايتان منصوستان عن أحمد والصواب في هذا الباب كله أن الحكم لا يثبت إلا مع التمكن من العلم وأنه لا يقضى ما لم يعلم وجوبه فقد ثبت في الصحيح أن من الصحابة من أكل بعد طلوع الفجر في رمضان حتى تبين له الحبل الأبيض من الأسود ولم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالقضاء ومنهم من كان يمكث جنبا مدة لا يصلي ولم يكن يعلم جواز الصلاة بالتيمم كأبي ذر وكعمر بن الخطاب وعمار لما أجنبا ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أحدا منهم بالقضاء ولا شك أن خلقا من المسلمين بمكة والبوادي صاروا يصلون إلى بيت المقدس حتى بلغهم النسخ ولم يؤمروا بالإعادة ومثل هذا كثير وهذا يطابق الأصل الذي عليه السلف والجمهور أن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا

وسعها فالوجوب مشروط بالقدرة والعقوبة لا تكون إلا على ترك مأمور أو فعل محظور بعد قيام
الحجة¹

{إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}

ومن سنة الله ان من لم يمكن المؤمنين ان يعذبه من الذين يؤذون الله ورسوله فان الله سبحانه
ينتقم منه لرسوله ويكفيه اياه كما قدمنا بعض ذلك في قصة الكتاب المفترى وكما قال سبحانه
{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} {94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ {95} الحجر 94-95
والقصة في اهلاك الله واحدا واحدا من هؤلاء المستهزئين معروفة قد ذكرها اهل السير والتفسير وهم
على ما قيل نفر من رؤوس قريش منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسودان بن المطلب
وابن عبد يغوث والحارث بن قيس وقد كتب النبي الى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم لكن قيصر
اكرم كتاب رسول الله واكرم رسوله فثبت ملكه فيقال ان الملك باق في ذريته الى اليوم وكسرى مزق
كتاب رسول الله واستهزا برسول الله فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للاكاسرة ملك
وهذا والله اعلم تحقيق قوله تعالى {إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} {الكوثر} 3 فكل من شناه او ابغضه وعاداه
فان الله تعالى يقطع دابره ويمحق عينه واثره وقد قيل انها نزلت في العاص بن وائل او في عقبة بن
ابي معيط او في كعب بن الاشرف وقد رايت صنيع الله بهم ومن الكلام السائر لحوم العلماء
مسمومة فكيف بلحوم الانبياء عليهم السلام وفي الصحيح عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى
لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فكيف بمن عادى الانبياء ومن حارب الله حارب الله واذا استقرت
قصص الانبياء المذكورة في القران تجد اممهم انما اهلكوا حين ادوا الانبياء وقابلوهم بقبيح القول او
العمل وهكذا بنو اسرائيل انما ضربت عليهم الذلة وباؤوا بغضب من الله ولم يكن لهم نصير لقتلهم
الانبياء بغير حق مضموما الى كفرهم كما ذكر الله ذلك في كتابه ولعلك لاتجد احدا اذى نبيا من
الانبياء ثم لم يتب الا ولا بد ان يصيبه الله بقارعة وقد ذكرنا ما جربه المسلمون من تعجيل الانتقام
من الكفار اذا تعرضوا لسب رسول الله وبلغنا مثل ذلك في وقائع متعددة وهذا باب واسع لا يحاط به
ولم نقصد قصده هنا وانما قصدنا بيان الحكم الشرعي وكان سبحانه يحميه ويصرف عنه اذى
الناس وشتمهم بكل طريق حتى في اللفظ ففي الصحيحين عن ابي هريرة قال قال رسول الله الاترون
كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وانا محمد فنزه الله اسمه
ونعته عن الاذى وصرف ذلك الى من هو مذموم وان كان المؤذي انما قصد عينه²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 115-125 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 222-225

² الصارم المسلول ج: 2 ص: 316-319

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّاماً مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ }

وكان قبل نزول التوراة يهلك الله المكذبين للرسول بعذاب الاستئصال عذابا عاجلا يهلك الله به جميع المكذبين كما أهلك قوم نوح وكما أهلك عادا و ثمود وأهل مدين وقوم لوط وكما أهلك قوم فرعون وأظهر آيات كثيرة لما أرسل موسى ليبقى ذكرها وخبرها في الأرض إذ كان بعد نزول التوراة لم يهلك أمة بعذاب الاستئصال بل قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } {القصص 43 بل كان بنو إسرائيل لما يفعلون ما يفعلون من الكفر والمعاصي يعذب بعضهم ويبقى بعضهم إذ كانوا لم ينتفخوا على الكفر ولهذا لم يزل في الأرض أمة من بني إسرائيل باقية قال تعالى لما ذكر بني إسرائيل {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّاماً مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } {الأعراف 168 وقد قال تعالى {مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } {113} {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ } {114} وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } {115} آل عمران 113- 115¹

{كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ } {17} {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } {18}

قد ذكر الله قيام الليل في عدة آيات تارة بالمدح وتارة بالأمر أمر ايجاب ثم نسخه بأمر الاستحباب اذا لم تدخل صلاة العشاء فيه بل أريد القيام بعد النوم فانه قد قال سعيد بن المسيب وغيره من صلي العشاء في جماعة فقد أخذ بنصيبه من قيام ليلة القدر فقد جعل ذلك من القيام وقد روى عن عبيدة السلماني أن قيام الليل واجب لم ينسخ ولو كحلب شاة وهذا اذا أريد به ما يتناول صلاة الوتر فهو قول كثير من العلماء والدليل عليه أن في حديث ابن مسعود لما قال اوتروا يا اهل القرآن قال اعرابي ما يقول رسول الله فقال انها ليست لك ولا لأصحابك فقد خاطب أهل القرآن من قيام الليل بما لم يخاطب به غيرهم وعلى هذا قوله {فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ } {المزمل 20} فسر بقراءته بالليل لئلا ينساه وقال نظرت في سيئات امتي فوجدت فيها الرجل يؤتية الله آية فينام عنها حتى ينساها وفي الصحيح عن النبي أنه قال من صلي العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلي الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله أي الصبح مع العشاء فهذا يدل على أنهما ليسا من قيام الليل ولكن فاعلهما كمن قام الليل قال تعالى {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } {15}

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 442

أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ {16} كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ {17} وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ {18} {الذاريات 15-18} وقال {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} آل عمران 17 وهذا على أصح الأقوال معناه كانوا يهجعون قليلا ف قليلا منصوب ب يهجعون و ما مؤكدة وهذا مثل قوله {بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} البقرة 88 وقوله {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} الذاريات 17 هو مفسر في سورة المزمل بقوله {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} {2} {نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا} {3} {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} {4} {المزمل 2-4} فهذا المستثنى من الأمر هو القليل المذكور في تلك السورة وهو قليل بالنسبة الى مجموع الليل والنهار فانهم اذا هجعوا ثلثه أو نصفه أو ثلثاه فهذا قليل بالنسبة الى ما لم يهجعوه من الليل والنهار وسواء ناموا بالنهار أو لم يناموا وقد قيل لم يأت عليهم ليلة الا قاموا فيها فالمراد هجوع جميع الليلة وهذا ضعيف لأن هجوع الليل محرم فان صلاة العشاء فرض وقال تعالى {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} {15} تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {16} {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {17} {السجدة 15-17} وفي حديث معاذ الذي قال فيه يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل ثم تلى {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {السجدة 16} حتى بلغ {يَعْمَلُونَ} {السجدة 17} ثم قال لا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ثم قال الا اخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى قال فأخذ بلسانه فقال اكفف عليك هذا فقلت يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال تكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم الا حصائد السنتهم وقال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} {الزمر 9} وقال تعالى {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} {آل عمران 113} وقال تعالى بعد قوله {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} {78} {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} {79} {الإسراء 78-79} وقال في سورة المزمل {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} {المزمل 2} الى قوله {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيْلًا} {المزمل 6} واذا نسخ الوجوب بقى الاستحباب قال أحمد وغيره و الناشئة لا تكون الا بعد نوم يقال نشأ اذا قام وقال تعالى {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} {63} {وَالَّذِينَ يَبِيئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} {64} {الفرقان 63-63} وقوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} {23} {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} {24} {وَاذْكُرْ اسْمَ

رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا {25} وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا {26} {الإنسان 23-26} فان هذا يتناول صلاة العشاء والوتر وقيام الليل لقوله {وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} {الإنسان 26} وقوله تعالى {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} {97} {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} {98} الحجر 97-98 مطلق لم يخصه بوقت آخر والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وأصحابه وسلم تسليما¹

"لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم إن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه"

و عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم إن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه رواه احمد و ابن ماجة و الترمذي و قال حديث حسن صحيح و لأن في تأخيرها فوائد علمنا منها إن تصلى في جوف الليل و يقرب من آخره و هو الوقت الذي ينزل الله فيه إلى سماء الدنيا فيقول من يدعوني فاستجب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له و قد روى عبد الله بن مسعود قال آخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما أنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم فأنزلت هذه الآية {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} آل عمران 113 حتى بلغ {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} آل عمران 115 رواه احمد و الترمذي و لذلك استحب تأخير الوتر إلى آخره قال سبحانه {أَقِمِ الصَّلَاةَ} الإسراء 78 و معلوم أنه إذا اشتدت الظلمة و بعد عن النهار كان هذا المعنى ابلغ و إنما لم يشرع و الله اعلم تأخيرها إلى النصف الثاني لأنه مضاف إلى اليوم الذي يليه فالتأخير إليه تأخير لما يقرب منه النهار و لأن فيه تغريرا بها إذ كانت السنة إن يصلي قبل النوم لئلا يستمر النوم إلى الفجر ولان الجمع بين استحباب تأخيرها إلى النصف الثاني و بين كراهة النوم قبلها متعذر فانه يقتضي سهر اكثر الليل و ذلك مفض إلى غلبة النعاس و تقويت مقصود الصلاة و منها أنه إذا انتظرها فان العبد في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه و إلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله أنكم لتنتظرون صلاة ما ينتظرها أهل دين غيركم فان أهل الكتاب ليست لهم صلاة في جوف الليل و إنما يصلون قبل طلوع الشمس و بعد زوالها و بعد غروبها و هذا المعنى لا يحتاج إليه في غيرها فانه يقدر إن يصليها في أول الوقت و يجلس ينتظر التي بعدها فان انتظار الصلاة قبل وقتها لا سيما بعد صلاة أخرى يستحب بخلاف العشاء فانه لا صلاة بعدها تنتظر و منها أنه إذا آخرها ختم عمله بالصلاة و نام عليها و لم يتحدث بعدها فختم عمله بخير و أمن من كراهة السمر بعدها و منها إن الأصوات تكون قد هدأت و العيون قد رقدت و ذلك اقرب إلى نزول السكينة و اجتماع الهم على الصلاة و الخشوع فيها و بعدها عن الشواغل و ما يلهي المصلي و منها إن يبعد العهد

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 84-88

بأعمال النهار و حركاته و الأفكار و الوسوس الحاصلة بسبب ذلك و يستحب تأخيرها بكل حال في إحدى الروايتين على ظاهر الحديث المتقدم عن أبي برزة و جابر بن سمرة و لأن قوله في حديث ابن عباس و أبي هريرة لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم إن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه إنما نفي به امر الإيجاب فان السنة إنما تحصل بالإيجاب دون الاستحباب و هو يقتضي قوة استحباب التأخير إذ كان المقتضي للوجوب قائما لولا وجود المانع و سواء شق عليهم التأخير أو لم يشق فان ذلك لا يمنع الاستحباب كما في قوله عليه السلام لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة و قوله لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم بالوضوء عند كل صلاة و الرواية الثانية إن المستحب التأخير الذي لا يشق على المأمومين غالبا فان آخرها تأخيرا يشق عليهم غالبا كره لما روى زيد بن خالد الجهني إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لولا إن اشق على أمتي لأخرت صلاة العشاء إلى ثلث الليل رواه احمد و الترمذي و قال حديث حسن صحيح و كذلك في حديث ابن عمر لولا إن تثقل على أمتي لصليت بهم هذه الساعة و قوله في حديث أبي سعيد لولا سقم السقيم و ضعف الضعيف و حاجة ذي الحاجة لأخرت هذه الصلاة إلى شطر الليل و قد تقدم و كذلك قوله في حديث عائشة أنه لوقتها لولا إن اشق على أمتي فان هذه الأحاديث تدل على إن وجوه المشقة على المأمومين يمنع استحباب التأخير و شرعه و على هذا بنيت قاعدة الصلاة فان الإمام يكره إن يطول على المأمومين تطويلا يفتنهم به و إن كان التطويل عبادة محضة فالتأخير الذي يفتنهم و تفوتهم الصلاة جماعة أو توجب إن يصلوها أكثرهين متضجرين أولى إن يكره و ما في التأخير من الفضيلة إنما يقصد لو لم يفت ما هو افضل منه و إن افضل منه لكثرة الجماعة و تحصيل الجماعة للمصلين و نشاط القلوب للصلاة و تحبيب الله إلى عباده و لأن المشقة قسمان أحدهما في خاصة الإنسان فله إن يحتمل هو المشقة لتحصل فضيلة التأخير و هذه المشقة هي المانعة من الإيجاب و الثاني يتعدى إلى المأمومين و ليس للإمام إن يحمل الناس مشقة لم تجب عليهم و هذه هي المانعة من استحباب التأخير قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كان نبي الله صلى الله عليه و سلم يصلي الظهر بالهاجرة و العصر و الشمس نقية و المغرب إذا وجبت و العشاء أحيانا و أحيانا إذا رآهم اجتمعوا عجل و إذا رآهم قد ابطئوا آخر و الصبح كان يصليها بغسل متفق عليه¹

المسارعة إلى الخيرات مأمور بها

إن الأصل في الصلاة في أول الوقت افضل من آخره ألا لمعنى يقتضي استحباب التأخير لأن الله تعالى قال {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} البقرة 148 و قال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} آل عمران 133 و قال تعالى {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} الحديد 21 و قال تعالى {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 213-215

الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ { آل عمران } آل عمران 114 وقال تعالى { أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } المؤمنون 61 وقال { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } الواقعة 10 أي إلى الأعمال الصالحة في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الجنة وقال تعالى { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } فاطر 32 وقال تعالى { وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ } التوبة 100 وقال عن نبيه موسى { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } طه 84 وهذه الآيات تقتضي إن المسارعة إلى الخيرات مأمور بها وإن فاعلها مستوجب لثناء الله ورضوانه ولذلك يقتضي الاستباق إلى الخيرات وإلى أسباب المغفرة أمرا بها وثناء على أهلها وتفضيلا لهم على غيرهم والصلاة من أفضل الخيرات وأكبر أسباب المغفرة وعن محمد ابن عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث يا علي لا تؤخرهن الصلاة إذا أتت و الجنابة إذا حضرت و الايم إذا وجدت لها كفؤا رواه احمد و الترمذي و قال حديث حسن غريب و ما أرى إسناده بمتصل لكن هذا الانقطاع هو من رواية ولده و مثل ذلك يكون من أقوى المراسيل فانهم اعلم بحديثهم¹

الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده

وكذلك لفظ الصالح و الشهيد و الصديق يذكر مفردا فيتناول النبيين قال تعالى في حق الخليل { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } العنكبوت 27 وقال { وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } النحل 122 وقال الخليل { رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } الشعراء 83 وقال يوسف { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 وقال سليمان { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } النمل 19 وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم السلام على الله قبل عباده السلام على فلان فقال لنا رسول الله ذات يوم ان الله هو السلام فاذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فاذا قالها أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض الحديث وقد يذكر الصالح مع غيره كقوله تعالى { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } النساء 69 قال تعالى { يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ } آل عمران 114 قال الزجاج وغيره الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده ولفظ الصالح خلاف الفاسد فاذا أطلق فهو الذي أصلح جميع امره فلم يكن فيه شيء من الفساد فاستوت سريرته وعلانيته وأقواله وأعماله على ما يرضى ربه وهذا يتناول النبيين ومن دونهم²

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 191-192

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 57

لطائف لغوية

1- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد مثال ذلك اسم المعروف و المنكر اذا أطلق كما في قوله تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 104 وقوله {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} الأعراف 157 وقوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 110 وقوله {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 114 وقوله {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 يدخل في المعروف كل خير وفي المنكر كل شر ثم قد يقرن بما هو أخص منه كقوله {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} النساء 114 فغاير بين المعروف وبين الصدقة والاصلاح بين الناس وكذلك قوله تعالى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} العنكبوت 45 غاير بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} التوبة 71 ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} النحل 90 جعل البغى هنا مغايرا لهما وقد دخل في المنكر في ذلك الموضوعين¹

2- {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 110

المعروف طاعة الله وطاعة رسوله وهو الصلاح والحسنات والخير والبر و المنكر معصية الله ومعصية رسوله وهو الفساد والسيئات والشر والفجور²

3- ان اللفظ الواحد تتنوع دلالاته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد ما لا يدخل فيه

عند الإقتران بغيره كلفظ المعروف والمنكر في قوله تعالى {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران 110 فإنه هنا يتناول جميع ما أمر الله به فإنه معروف وجميع ما نهى عنه فإنه منكر

والمعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح والمنكر اسم جامع لكل ما كرهه الله ونهى عنه³

4- ان لفظ الاذى في اللغة هو لما خف امره وضعف اثره من الشر والمكروه ذكره الخطابي

وغيره وهو كمال قال واستقراء موارد يبدل على ذلك مثل قوله تعالى {أَنْ يَضُرُّوَكُمْ إِلَّا أَدَى} آل

¹ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 275 و مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 162 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 326

² الاستقامة ج: 2 ص: 311

³ الجواب الصحيح ج: 3 ص: 117 و اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 36

عمران 111 وقوله { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ } البقرة 222
وفيما يؤثر عن النبي انه قال القر بؤس والحر اذى وقيل لبعض النسوة العربيات القر اشد ام الحر
فقال من يجعل البؤس كالاذى والبؤس خلاف النعيم وهو ما يشقى البدن ويضره بخلاف الاذى فانه
لا يبلغ ذلك¹

5- والاذى المطلق هو باللسان كما قال سبحانه { وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا } آل عمران 186 وان الاذى اسم لقليل الشر وخفيف المكروه لخلاف الضر
فلذلك اطلق على القول لانه لا يضر المؤذي في الحقيقة وقال النبي فيما يروي عن ربه تبارك
وتعالى يؤذيني ابن ادم يسب الدهر وانا الدهر وهذا كثير²

6- ولفظ الاذى يستعمل فى الأقوال كثيرا كقوله { لَنْ يَضُرُّوَكُمْ إِلَّا أَذَى } آل عمران 111
وقوله { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } الأحزاب 57 { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا
اكتسبوا } الأحزاب 58 { وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ } التوبة 61 وقول النبي لا أحد أصبر على
أذى سمعه من الله ونظائر ذلك كثيرة ذكرناها فى كتاب الصارم المسلول وهذا كما قال النبي
فى شارب الخمر عاقبه وآذوه³

7- وكذلك لفظ المعصية و الفسوق و الكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله
دخل فيها الكفر و الفسوق كقوله { وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ
عَذَابٌ مُهِينٌ } النساء 14⁴

8- { لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ } آل عمران 113 و التسوية جعل الشيين سواء⁵

9- { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } آل عمران 115 عليم منزه عن الجهل⁶

10- { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } آل عمران 115 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد
وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى
طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن
حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور
من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } { 54 } فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ

¹الصارم المسلول ج: 2 ص: 118

²الصارم المسلول ج: 2 ص: 155

³مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 313

⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 59

⁵مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 133

⁶الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ {55} القمر 54- 55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا
{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} {3} الطلاق 2- 3 وقوله {إِنَّهُ
مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ {يوسف 90 وقوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ {النساء 1¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

ال عمران 116-129

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {116} مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {117} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} {118} هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْعِظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} {119} إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} {120} وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {121} إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {122} وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {123} إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ} {124} بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} {125} وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {126} لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} {127} لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} {128} وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {129}

أن الله لم يهلك أحدا ولم يعذبه إلا بذنب

و القرآن يبين في غير موضع أن الله لم يهلك أحدا ولم يعذبه إلا بذنب فقال هنا {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ} النساء 79 و قال لهم في شأن احد {أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} آل عمران 165 و قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} الشورى 30 و قال تعالى في سورة الشورى أيضا {وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} الشورى 48 و قال تعالى {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ { آل عمران 117¹

الأمثال و التشبيهات لا توجب التماثل من كل وجه

الأمثال و التشبيهات كثيرة جدا و هي لا توجب التماثل من كل وجه بل فيما سيق الكلام له و لا يقتضي اختصاص المشبه بالتشبيه بل يمكن أن يشاركه غيره له في ذلك قال تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ} البقرة 261 و قال تعالى {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ {يس 13 و قال {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ} آل عمران 117 و قد قيل أن في القرآن اثنين و أربعين مثلا²

الأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له سبحانه

فالله سبحانه وتعالى حرم على نفسه الظلم و الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى باتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا³ أن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول إن الله تعالى ليس بعدل و لا من يقول إنه ليس بحكيم و لا فيهم من يقول إنه يجوز أن يترك واجبا و لا أن يفعل قبيحا فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذي أطلقه و من أطلقه كان كافرا مباح الدم باتفاق المسلمين و لكن هذه مسألة القدر و النزاع فيها معروف بين المسلمين فأما نفاة القدر كالمعتزلة و نحوهم فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخرو الإمامية و أما المثبتون للقدر و هو جمهور الأمة و أئمتها كالصحابية و التابعين لهم بإحسان و أهل البيت و غيرهم فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله و حكمته و الظلم الذي يجب تنزيهه عنه و في تعليل أفعاله و أحكامه و نحو ذلك فقالت طائفة إن الظلم ممتنع منه غير مقدور و هو محال لذاته كالجمع بين النقيضين و إن كل ممكن مقدور فليس هو ظلما و هؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم و هؤلاء يقولون إنه لو عذب المطيعين و نعم العصاة لم يكن ظلما و قالوا الظلم التصرف فيما ليس له و الله تعالى له كل شيء أو هو مخالفة الأمر و الله لا أمر له و هذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر و من وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة و قال طائفة بل الظلم مقدور ممكن و الله تعالى منزّه لا يفعله لعدله و لهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئا و المدح إنما

¹ مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 425 و الحسنة و السيئة ج: 1 ص: 161

² منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 334

³ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع قالوا وقد قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم حسناته وقال تعالى {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} 100 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } 101 { هود 100- 101 فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكهم بذنوبهم وقال تعالى { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } الزمر 69 فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزه عنه وقال تعالى { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } الأنبياء 47 أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها فدل على أن ذلك ظلم ينزه الله عنه وقال تعالى { قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ بِالْوَعِيدِ } 28 { مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } 29 { ق 28- 29 وإنما نزه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزه الله عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره وقال تعالى { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164 فإن ذلك ينزه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا فقد حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 وفي الحديث الصحيح لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له سبحانه فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه ولا يحرمه على نفسه وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر من أهل الحديث والتفسير والفقهاء والكلام والتصوف من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم¹

النعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء

أن الانسان هو فاعل السيئات و انه يستحق عليها العقاب و الله ينعم عليه بالحسنات عملها و جزائها فانه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء و إذا كانت جزاء و هي من الله فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد و إلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه و الله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب و السنة كما في الحديث الصحيح الالهي عن الله يا عبادي إنما هي

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 135-137

أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه و قد أمروا أن يقولوا فى الصلاة {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7¹

كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ {3} البقرة 1-3 ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا وقال تعالى (وَالْعَصْرِ {1} إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ {3} العصر 1-3 فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما شائعا متواترا اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته وربط السعادة مع إصلاح العمل به فى مثل قوله {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} {الإسراء 19} وأحبط الأعمال الصالحة بزواله فى مثل قوله {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} آل عمران 117²

والمنفعة المطلقة هى الخالصة أو الراجحة واما ما يفوت ارجح منها او يعقب ضررا ليس هو دونها فانها باطل فى الاعتبار والمضرة احق باسم الباطل من المنفعة واما ما يظن فيه منفعة وليس كذلك أو يحصل به لذة فاسدة فهذا لا منفعة فيه بحال فهذه الأمور التى يشرع الزهد فيها وتركها وهى باطل ولذلك ما نهى الله عنه ورسوله باطل ممتنع ان يكون مشتملا على منفعة خالصة أو راجحة ولهذا صارت أعمال الكفار والمنافقين باطلة لقوله {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} البقرة 264 الآية اخبر ان صدقة المرائى والمنان باطلة لم يبق فيها منفعة له وكذلك قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} {محمد 33} وكذلك الاحباط فى مثل قوله {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} {المائدة 5} ولهذا تسميه الفقهاء العقود والعبادات بعضها صحيح

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 247- 248

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 6

وبعضها باطل وهو ما لم يحصل به مقصوده ولم يترتب عليه اثره فلم يكن فيه المنفعة المطلوبة منه ومن هذا قوله {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً} النور 39 الآية وقوله {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَّتِ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} آل عمران 117 وقوله {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً} الفرقان 23 ولذلك وصف الاعتقادات والمقالات بانها باطلة ليست مطابقة ولا حقا كما أن الأعمال ليست نافعة وقد توصف الاعتقادات والمقالات بانها باطلة إذا كانت غير مطابقة ان لم يكن فيها منفعة كقوله اللهم انى أعود بك من علم لا ينفع فيعود الحق فيما يتعلق بالانسان إلى ما ينفعه من علم وقول وعمل وحال وقد توصف الاعتقادات والمقالات بانها باطلة إذا كانت غير مطابقة ان لم يكن فيها منفعة كقوله اللهم انى أعود بك من علم لا ينفع فيعود الحق فيما يتعلق بالانسان إلى ما ينفعه من علم وقول وعمل وحال قال الله تعالى {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} الرعد 17 وقال تعالى {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} 1 {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ} 2-1 إلى قوله {كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} محمد 3 وإذا كان كذلك وقد علم ان كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل حابط لا ينفع صاحبه وقت الحاجة إليه فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل لأن ما لم يرد به وجهه إما أن لا ينفع بحال وإما أن ينفع في الدنيا أو في الآخرة فالأول ظاهر وكذلك منفعته في الآخرة بعد الموت فانه قد ثبت بنصوص المرسلين أنه بعد الموت لا ينفع الانسان من العمل إلا ما أراد به وجه الله وأما في الدنيا فقد يحصل له لذات وسرور وقد يجزى بأعماله في الدنيا لكن تلك اللذات إذا كانت تعقب ضررا أعظم منها وتفوت أنفع منها وابقى فهي باطلة أيضا فثبت أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل وان كان فيه لذة ما¹

ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

قال تعالى {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَّتِ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} آل عمران 117 والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفي الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال قل اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم وفى صحيح مسلم وغيره أن النبى كان يقول فى استفتاحه اللهم أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبي فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 348-350

واهدنى لأحسن الأخلاق فانه لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فانه لا يصرف عنى سيئها إلا أنت وقد قال أبو البشر وزوجته {قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الأعراف 23 وقال موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} القصص 16 وقال ذوالنون يونس {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} الأنبياء 87 وقالت بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} النمل 44 وفى الصحيحين عن إبي هريرة رضى الله عنه عن النبي وقد قال عن أهل القرى المعذيين {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} هود 101¹

"من احب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان"

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء فى الحديث الذى فى الترمذى من احب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر فى بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} البقرة 165 ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعازنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما استعاز منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى {وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} البقرة 93 وذم من إتخذ

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 692-693

الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى ودم في كتابه في غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 وقال {لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} {118} هَأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ} آل عمران 118-119 ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله وإتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب واعمالها مثل قوله في الحديث الصحيح المتفق عليه لا تباغضوا ولا تحاسدوا بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح ودم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقتصر به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل¹

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}

قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} {13} وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} {14} الانفطار 13-14 و وعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ولكن تذكر هنا نكتة نافعة وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرا من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب وما يصيب كثيرا من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما ينتعمون به إلا قليلا وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين علي المؤمنين وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين وأن العاقبة للتقوى وقول الله تعالى {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ} الصافات 173 وهو ممن يصدق بالقرآن حمل هذه الآيات علي الدار الآخرة فقط وقال أما الدنيا فما نري بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرن ويغلبون المؤمنين ولهم العزة والنصرة والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس ويعتمد علي هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى فيرى أن صاحب الباطل قد علا

على صاحب الحق فيقول أنا علي الحق وأنا مغلوب وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين قال هذا في الآخرة فقط وإذا قيل له كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور قال يفعل ما يشاء وربما قال بقلبه أو لسانه أو كان حاله يقتضى أن هذا نوع من الظلم وربما ذكر قول بعضهم ما

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 754-755 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 185

علي الخلق أضر من الخالق لكن يقول يفعل الله ما يشاء وإذا ذكر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور مؤيد بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء وهذه الأقوال مبنية علي مقدمتين إحداهما حسن ظنه بدين نفسه نوعا أو شخصا واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه وتارك ما نهى عنه في الدين الحق واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك أن دينه باطل نوعا أو شخصا لأنه ترك المأمور وفعل المحذور والمقدمة الثانية أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا فلا ينبغي الاعتراض بهذا المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن عاقبة الدنيا فقد يطلب ما لا بد منه من دفع الضرر وجلب المنفعة وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافي ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدين الحق وفي حال السابقين والمقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدین أصحاب اليمين فيدخل مع الظالمين بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه كما قال النبي يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لا بد له من المنفعة وهذه الفتنة التي صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعيم الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلا بد فيه من إرادة به لطلب ما ينعم فهناك عمل يطلب به النعيم ولا بد أن يكون المرء عارفا بالعمل الذي يعمل به وبالنعيم الذي يطلبه ثم إذا علم هذين الأصلين فلا بد أن تكون فيه إرادة جازمة علي العمل بذلك وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ولهذا قال سبحانه وتعالى {وَالْعَصْرِ} 1 {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ} 2 {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ} 3 {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} 1-3 وقال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} {السجدة} 24 فاليقين هو العلم الثابت المستقر والصبر لا بد منه لتحقيق الإرادة الجازمة والمقدمتان اللتان التي بنيت عليهما هذه البلية مبناهما علي الجهل بأمر الله ونهيه وبوعده ووعيده فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور تارك للمحذور وهو على العكس من ذلك وهذا يكون من جهله بالدين الحق وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ولأهل الفجور علي أهل البر فهذا من جهله بوعده الله تعالى من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين أما الأول فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه وأنه خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ولا يكون الأمر كذلك بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ومع خصمه نوع من الحق والعدل وحبك الشيء يعمي ويصم والإنسان مجبول على محبة نفسه

فهو لا يرى إلا محاسنها ومبغض لخصمه فلا يرى إلا مساوئه وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم فإن الإنسان ظلوم جهول وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب والحب والبغض والموالاة والمعاداة كما قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ} لقمان 21 وقال تعالى {يَوْمَ نُفَلِّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ} {66} {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا} {67} الأحزاب 66- 67 وقال تعالى {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} {الشورى 14} وأما الثاني فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه بخلاف من فارقهم إلي طاعة أخري وسبيل آخر ويكذب بوعدهم الله بنصرهم والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} {غافر 51} وقال تعالى في كتابه {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {171} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {172} {وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} {173} {الصافات 171- 173} وقال تعالى في كتابه {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} {المجادلة 5} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} {20} {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} {21} {المجادلة 20- 21} وقال تعالى في كتابه {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} {55} {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} {56} {المائدة 55- 56} ودم من يطلب النصر بولاء غير هؤلاء فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {51} {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ نُصِيبَنا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} {52} {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} {53} {المائدة 51- 53} وقال تعالى في كتابه {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {138} {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَتُّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} {139} {النساء 138- 139} وقال تعالى في كتابه {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} {المنافقون 8} وقال تعالى في كتابه {مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} {فاطر 10} وقال في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا} {الفتح 28} وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} {9} {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} {10} {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {11}

يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {12} وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ {13} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ {14} {الصف 9-14} وقال تعالى في كتابه {يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} آل عمران 55 وقال تعالى في كتابه {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} {22} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} {23} {الفتح 22-23} وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} {الحشر 2} إلي قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {الحشر 4} وقال تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 وقال تعالى لما قص قصة نوح وهي نصرته علي قومه في الدنيا فقال تعالى {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} {هود 49} وقال تعالى {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} طه 132 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} آل عمران 118 إلي قوله {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} آل عمران 120 وقال تعالى {بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} آل عمران 125 وقال يوسف وقد نصره الله في الدنيا لما دخل عليه إخوته {قَالُوا أَيْنَكَ لِأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 وقال تعالى في كتابه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} {الأنفال 29} وقال تعالى {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {2} {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} {3} {الطلاق 2-3} وقد روي عن أبي ذر عن النبي أنه قال لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم²¹

" لا تعزوهم بعد أن أذلهم الله ولا تأمنوهم بعد ان خونهم الله "

دخل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعرض عليه حساب العراق فأعجبه ذلك قال ادع كاتبك يقرؤه علي فقال انه لا يدخل المسجد قال ولم قال لأنه نصراني فضربه عمر رضي الله عنه بالدرة فلو أصابته لأوجعته ثم قال لا

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 138-142

²ملاحظة (تكملة الموضوع موجود في تفسير غافر 51 وتفسير الصافات 171-173 نفس المرجع))

تعزروهم بعد أن أدلهم الله ولا تأمنوهم بعد أن خونهم الله ولا تصدقوهم بعد أن كذبهم الله والمسلمون في مشارق الارض ومغاربها قلوبهم واحدة موالية لله ولرسوله ولعباده المؤمنين معادية لأعداء الله ورسوله وأعداء عباده المؤمنين وقلوبهم الصادقة وأدعيتهم الصالحة هي العسكر الذي لا يغلب والجند الذي لا يخذل فانهم هم الطائفة المنصورة الى يوم القيامة كما أخبر رسول الله وقال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } {118} هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } {119} إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } {120} آل عمران 118-120 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } {المائدة 51} { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } {51} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } {52} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ } {53} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } {54} إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } {55} وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } {56} المائدة 50-56 وهذه الآيات العريضة فيها عبرة لأولى الألباب فان الله تعالى انزلها بسبب انه كان بالمدينة النبوية من أهل الذمة من كان له عز ومنعة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكان أقوام من المسلمين عندهم ضعف يقين وايمان وفيهم منافقون يظهرن الاسلام ويبطنون الكفر مثل عبد الله ابن ابي رأس المنافقين وأمثاله وكانوا يخافون ان تكون للكفار دولة فكانوا يوالونهم ويباطنونهم قال الله تعالى { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } المائدة 52 أي نفاق وضعف إيمان { يُسَارِعُونَ فِيهِمْ } المائدة 52 أي في معاونتهم { يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ } المائدة 52 فقال الله تعالى { فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُحُوا } المائدة 52 اي هؤلاء المنافقون الذين يوالون أهل الذمة { عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } {52} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ } {53} المائدة 52-53 فقد عرف أهل الخبرة ان أهل الذمة من اليهود والنصارى والمنافقين يكتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين وبما يطلعون على ذلك من اسرارهم حتى اخذ جماعة من المسلمين في بلاد النتر وسبي وغير ذلك بمطالعة اهل الذمة لأهل دينهم ومن الأبيات المشهورة قول بعضهم كل العداوات ترجى مودتها الا عداوة من عاداك في الدين

ولهذا وغيره منعوا ان يكونوا على ولاية المسلمين او على مصلحة من يقويهم او يفضل عليهم في الخبرة والأمانة من المسلمين بل استعمال من هو دونهم في الكفاية انفع للمسلمين في دينهم ودنياهم والقليل من الحلال يبارك فيه والحرام الكثير يذهب ويمحقه الله تعالى والله اعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم¹

مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم

وفي الصحيح عن النبي أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر فكلما كان إتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبرا على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى **{بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}** آل عمران 125²

قال تعالى **{إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}** يوسف 90 فالتقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور و الصبر يتضمن الصبر على المقدور وقد قال تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا}** آل عمران 118 إلى قوله **{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}** آل عمران 120 فبين سبحانه انه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين وقال تعالى **{بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}** آل عمران 125 فبين أنه مع الصبر والتقوى يمددهم بالملائكة وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلوهم وقال تعالى **{لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُور}** آل عمران 186 فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بالسنتهم وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة المؤذنين بالسنتهم والمؤذنين بأيديهم وشر العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون وقد قال

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 644-646

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 675-676 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 35 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 108

يوسف {أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف¹90

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسوله وبتصديقهم فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا واتباع ما يرضاه الله ويحبه دون ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ولكن يرضى بما أصابه من المصائب لا بما فعله من المعائب فهو من الذنوب يستغفر وعلى المصائب يصبر فهو كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب كما قال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120 وقال تعالى {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} آل عمران 125 وقال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال يوسف {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف²90

لفظ العقل يتضمن ما يجلب به المنفعة

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذي ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة³

ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمك تعقلون وقوله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} الحج 46 وقوله {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} آل عمران 118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} الملك 10 وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} الحج 46 والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 507-508 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 667-668 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 100

الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 241 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 686 و الاستقامة ج: 2 ص: 80 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 118

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء¹

عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين

والقرآن يذكر المؤمنين والمنافقين في غير موضع كما ذكرهم في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وسورة العنكبوت والأحزاب وكان هؤلاء في اهل المدينة والبادية كما قال تعالى {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} التوبة 101 وكان في المنافقين من هو في الأصل من المشركين وفيهم من هو في الأصل من اهل الكتاب وسورة الفتح والقتال والحديد والمجادلة والحشر والمنافقين بل عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين قال تعالى في سورة آل عمران {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوًّا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} آل عمران 118 إلى قوله {وَإِذَا لُفُّوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَضْوًا عَلَيْنُكَ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} {119} إن تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} {120} آل عمران 119-120²

الحسنات والسيئات في الآية المراد بها المسار والمضار

فقوله تعالى {وَإِن تُصِيبْكُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} {78} مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ} {79} النساء 78-79 ليس المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعة والمعاصي وذلك أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها المسار والمضار دون الطاعات والمعاصي أي ما أصابك من نعم تحبها كالنصر والرزق فإله أنعم بذلك عليك وما أصابك من نقم تكرهها فبذنوبك وخطاياك فالحسنات والسيئات هنا أراد بها النعم والمصائب كما في قوله تعالى {وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} الأعراف 168 وهو الشر والخير في قوله {وَنَبَّلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْأَخْيَرِ فَنَتَّهَتْ} {الأنبياء 35} وكذلك قوله {إِن تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا}

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 464

{آل عمران 120} وقوله تعالى {وَلَيْنُ أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَنَّةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ} {هود 10} وقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ} {94} ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} {95} الأعراف 94-95 وكما قال تعالى {إِن تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ} {التوبة 150}

إذا وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى

التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله²

ان اكثر بنى آدم قد يفعل بعض المأمور به ولا يترك المنهى عنه الا الصديقون كما قال سهل لان المأمور به له مقتضى فى النفس واما ترك المنهى عنه الى خلاف الهوى ومجاهدة النفس فهو أصعب وأشق فقل أهله ولا يمكن أحدا أن يفعله الا مع فعل المأمور به لا تتصور تقوى وهى فعل ترك قط فان من ترك الشرك واتباع الهوى المضل واتباع الشهوات المحرمات فلا بد أن يفعل من المأمور به أمورا كثيرة تصده عن ذلك فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التى امروا بها وتمنعهم من السيئات التى تضرهم بخلاف من فعل ما أمر به وما نهى عنه مثلا فان وجود المنهى عنه يفسد عليه من المأمور به ما يفسد فلا يسلم له ولهذا كانت العاقبة للتقوى كما قال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} طه 132 {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} الأعراف 128 {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120 وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الاطعمة المؤذية فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة وغير المتقى بمنزلة من خلط من الاطعمة فانه وان اغتذى بها لكن تلك التخاليط قد تورثه أمراضا اما مؤذية واما مهلكة³

لم يعذر الله أحدا قط بالقدر

قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} {التغابن 11} قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} {الحديد 22-23} وفى الصحيحين عن النبى أنه قال

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 442 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 208 و منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 140 مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 163 و الحسنه والسيئة ج: 1 ص: 20 وأمراض القلوب ج: 1 ص: 57

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 135

³مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 137

احتج آدم وموسى فقال انت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته و علمك اسماء كل شئ فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه فهل وجدت ذلك مكتوبا على قبل ان أخلق قال نعم قال فحج آدم موسى وأدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر فان هذا لايقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لابليس وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فان آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لامة لأجله المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فأجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدار وما قدر من المصائب يجب لاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا واما الذنوب فليس للعبد ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر وفتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 وقال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120 وقال {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال يوسف {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ويجاهد فى سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي اولياء الله ويعادي اعداء الله ويحب فى الله ويبغض فى الله¹ ولم يعذر الله أحدا قط بالقدر و لو عذر به لكان أنبيأؤه و أوليأؤه أحق بذلك و آدم إنما حج موسى لأنه لامة على المصيبة التى أصابت الذرية فقال له لماذا أخرجتنا و نفسك من الجنة و ما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله و يعلم أنها مقدورة عليه كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} التغابن 11 قال علقمة و قد روى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم فالعبد مأمور بالتقوى و الصبر فالتقوى فعل ما أمر به و من الصبر على ما أصابه و هذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 وقال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120 وقال {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} آل عمران 125 لابد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة و الإستغفار و يبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر و الإستغفار كما قيل لأفضل الخلق {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} غافر 55 و قد بسط الكلام فى غير هذا الموضوع على مناظرة آدم و موسى فإن كثيرا من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب و السنة و إجماع الأمة و منهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له و

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 159-160 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 368

الحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه أو غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة كما جرى لأدم صلوات الله عليه قال تعالى {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} {121} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى {122} طه 121-122 و قال {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} البقرة 37 و كان آدم و موسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر و يوافقه الآخر و لو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة و لا أهبط من الجنة و موسى هو القائل {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} {القصص 16} و هو القائل {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} {الأعراف 151} و هو القائل {أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} {الأعراف 155} و هو القائل لقومه {فَتَوْبُوا إِلَى بَارِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِكُمْ} {البقرة 54} فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا بل كان الاحتجاج بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله و قدرها و من الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالمؤمن يصبر على المصائب و يستغفر من الذنوب و المعائب و الجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه و سيئاته و لا يعذر بالقدر من أساء إليه و لا يذكر القدر عند ما يبسره الله له من الخير فعكس القضية بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها و تفضل بها فلا يعجب بها و لا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها و إذا عمل سيئة إستغفر و تاب منها و إذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدره مقضية عليه¹

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}

وما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال و الذي نفسى بيده لا يقتضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له قال تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} {إبراهيم 5} وذكرهما في اربعة مواضع من كتابه فأما من لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم ان يكون القضاء خيرا له ولهذا اجيب من اورد هذا على ما يقضى على المؤمن من المعاصي بجوابين احدهما ان هذا انما يتناول ما اصاب العبد لا ما فعله العبد كما في قوله تعالى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} {النساء 79} اي من سراء {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ} {النساء 79} اي من ضراء وكقوله تعالى {وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {الأعراف 168} اي بالسراء والضراء كما قال تعالى {وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} {الأنبياء 35} وقال تعالى {إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 96-98 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 120

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً {آل عمران 120} فالحسنات والسيئات يراد بها المسار والمضار ويراد بها الطاعات والمعاصي والجواب الثانى ان هذا فى حق المؤمن الصبار الشكور والذنوب تنقض الايمان فاذا تاب العبد أحبه الله وقد ترتفع درجته بالتوبة قال بعض السلف كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير أن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة وذلك انه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب اليه منها وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاعمال بالخواتيم والمؤمن اذا فعل سيئة فان عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب أن يتوب فيتوب الله عليه فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له او يستغفر فيغفر له او يعمل حسنات تمحوها فان الحسنات يذهبن السيئات او يدعو له اخوانه المؤمنون ويستغفرون له حيا وميتا او يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به او يشفع فيه نبيه محمد او يبتليه الله تعالى فى الدنيا بمصائب تكفر عنه او يبتليه فى البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه او يبتليه فى عرصات القيامة من اهلها بما يكفر عنه او يرحمه ارحم الراحمين¹

السلوك سلوكان

قال الشيخ أبو محمد عبدالقادر فى كتاب فتوح الغيب لابد لكل مؤمن فى سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتنله ونهى يجتنبه وقدر يرضى به فاقبل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة فينبغى له ان يلزم بها قلبه ويحدث بها نفسه وياخذ بها الجوارح فى كل أحواله قلت هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهى مطابقة لقوله تعالى {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {يوسف 90} ولقوله تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور والصبر يتضمن الصبر على المقذور فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين والثلاثة فى الحقيقة ترجع إلى إمتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله فحقيقة الأمر أن كل عبد فإنه محتاج فى كل وقت إلى طاعة الله ورسوله وهو أن يفعل فى ذلك الوقت ما أمر به فى ذلك الوقت وطاعة الله ورسوله هى عبادة الله التى خلق لها الجن والإنس كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {الذاريات 56} وقال تعالى {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} {الحجر 99} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} {البقرة 21} لكن هذه الثلاثة وإن دخلت فى إمتثال الأمر عند الإطلاق فعند التفصيل والإقتران أما أن تخص بالذكر وأما أن يقال يراد بهذا ما لا يراد بهذا كما فى قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 45 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 57

{هود 123} وقوله {فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} طه 14 فإن هذا داخل في العبادة إذا أطلق اسم العبادة وعند الإقتران إما أن يقال ذكره عموماً وخصوصاً وأما أن يقال ذكره خصوصاً يغنى عن دخوله في العام ومثل هذا قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وقوله {وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} {9} {وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} {10} المزمّل 8-10 وقد ويقال لفظ التبتيل لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة و بالجملة فرق ما بين ما يؤمر به الإنسان إبتداءً وبين ما يؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرّة أو عند حب الشيء وبعضه وكلام الشيخ قدس الله روحه يدور على هذا القطب وهو أن يفعل المأمور ويترك المحظور ويخلو فيما سواهما عن إرادة لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به وما لم يؤمر وما لم يؤمر به العبد بل فعله الرب عز وجل بلا واسطة العبد أو فعله بالعبد بلا هوى من العبد فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به وسيأتى في كلام الشيخ ما يبين مراده وأن العبد في كل حال عليه أن يفعل ما أمر به ويترك ما نهى عنه وأما إذا لم يكن هو أمر العبد بشيء من ذلك فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله وهذه هي الحقيقة في كلام الشيخ وأمثاله وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام أن هذا نوعان أحدهما أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب إما بحب له وإعانة عليه وأما بيبغض له ودفع له والثاني أن لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما فالأول مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره فهو مأمور بحبه وإعانتة عليه كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان وبمحبّة ذلك والرضا به وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير إما بنصر مظلوم وإما بتعزية مصاب وإما بإغناء فقير ونحو ذلك وأما ما هو مأمور بيبغضه ودفعه فمثل ما إذا أظهر الكفر والفسوق والعصيان فهو مأمور بيبغض ذلك ودفعه وإنكاره بحسب الإمكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لم يتبين له أنه يستعان بها على طاعة ولا معصية فهذه لا يؤمر بحبها ولا بيبغضها وكذلك مباحات نفسه المحضة التي لم يقصد الإستعانة بها على طاعة ولا معصية مع أن هذا نقص منه فإن الذي ينبغي أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ويقصد الإستعانة بها على الطاعة فهذا سبيل المقربين السابقين الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبه فكان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها وأما من فعل المباحات مع الغفلة أو فعل فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة مع أداء الفرائض وإجتتاب المحارم باطنا وظاهراً فهذا من المقتصدین أصحاب اليمين و بالجملة الأفعال التي يمكن دخولها تحت الأمر والنهي لا تكون مستوية من كل وجه بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيراً للعبد وإلا كان تركها خيراً له وإن لم

يعاقب عليها ففضول المباح التي لا تعين على الطاعة عدتها خير من وجودها إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله فإنها تكون شاغلة له عن ذلك وأما إذا قدر أنها تشغله عما دونها فهي خير له مما دونها وإن شغلته عن معصية الله كانت رحمة في حقه وإن كان إشتغاله بطاعة الله خيرا له من هذا وهذا وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التي يمكن الإستعانة بها على الطاعة كالنوم الذي يقصد به الإستعانة على العبادة والأكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الإستعانة به على العبادة إذا لم يقصد به ذلك كان ذلك نقصا من العبد وفوات حسنة وخير يحبه الله ففي الصحيحين عن النبي أنه قال لسعد أنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا إزددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في إمرأتك وقال في الصحيح نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة فما لا يحتاج إليه من المباحات أو يحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة فعدمه خير من وجوده إذا كان عدمه يشتغل بما هو خير منه وقد قال النبي في بضع أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر قال أرأيتم لو وضعها في الحرام إما كان عليه وزر قالوا بلى قال فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عما حرمه الله إلى ما أباحه الله ويقصد فعل المباح معتقدا أن الله أباحه والله يحب أن يأخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته كما رواه الإمام أحمد في المسند ورواه غيره ولهذا أحب القصر والفطر فعول المؤمن عن الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التي يثيبه الله عليها وإن فعل مباحا لما إقترن به من الإعتقاد والقصد الذين كلاهما طاعة لله ورسوله فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى و أيضا فالعبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات هو مأمور بالأكل عند الجوع والشرب عند العطش ولهذا يجب على المضطر إلى الميتة أن يأكل منها ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجبا للوعيد كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم وكذلك هو مأمور بالوطء عند حاجته إليه بل وهو مأمور بنفس عقد النكاح إذا إحتاج إليه وقدر عليه فقول النبي في بضع أحدكم صدقة فإن المباحة مأمور بها لحاجته ولحاجة المرأة إلى ذلك فإن قضاء حاجتها التي لا تنقضى إلا به بالوجه المباح صدقة و السلوك سلوكان سلوك الأبرار أهل اليمين وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطنا وظاهرا و الثاني سلوك المقربين السابقين وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان وترك المكروه والمحرم كما قال النبي إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما إستطعتم¹

{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 456-461

وكان نبينا صلى الله عليه و سلم متبعا ما أمر به من الصبر على أذى الخلق ففي الصحيحين عن عائشة قالت ما ضرب رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده خادما له و لا دابة و لا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله و لا ينيل منه شيء قط فإنتم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا إنتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله و قال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه و سلم عشر سنين فما قال لشيء فعلته لم فعلته و لا لشيء لم أفعله لم لا فعلته و كان بعض أهله إذا عتبنى على شيء يقول دعوه دعوه فلو قضى شيء لكان و فى السنن عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه ذكر للنبي صلى الله عليه و سلم قول بعض من آذاه فقال دعنا منك فقد أؤذي موسى بأكثر من هذا فصبر فكان يصبر على أذى الناس له من الكفار و المنافقين و أذى بعض المؤمنين كما قال تعالى {إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ} الأحزاب 53 و كان يذكر أن هذا مقدر و المؤمن مأمور بأن يصبر على المقدور و لذلك قال {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120 فالتقوى فعل المأمور و ترك المحذور و الصبر على أذاهم ثم أنه حيث أباح المعاقبة قال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} {126} {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} {127} {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} {128} النحل 126-128 فأخبر أن صبره بالله فالله هو الذي يعينه عليه فإن الصبر على المكاره بترك الإنتقام من الظالم ثقيل على الأنفس لكن صبره بالله كما أمره أن يكون لله فى قوله {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} المدثر 7 لكن هناك ذكره فى الجملة الطلية الأمرية لأنه مأمور أن يصبر لله لا لغيره و هنا ذكره فى الخبرية فقال {وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} {127} النحل 127 فإن الصبر و سائر الحوادث لا تقع إلا بالله ثم قد يكون ذلك و قد لا يكون فما لا يكون بالله لا يكون و ما لا يكون لله لا ينفع و لا يدوم و لا يقال و اصبر بالله فإن الصبر لا يكون إلا بالله لكن يقال إستعينوا بالله و اصبروا فنستعين بالله على الصبر و كما أن الإنسان مأمور بشهود القدر و توحيد الربوبية عند المصائب فهو مأمور بذلك عند ما ينعم الله عليه من فعل الطاعات فيشهد قبل فعلها حاجته و فقره إلى إعانة الله له و تحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 و يدعو بالأدعية التى فيها طلب اعانة الله له على فعل الطاعات كقوله أعني على ذكرك و شكرك و حسن عبادتك و قوله يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك و يا مصرف القلوب أصرف قلبى إلى طاعتك و طاعة رسولك و قوله ربنا لا تزع قلوبنا بعد إذ هديتنا و حب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب و قوله ربنا آتنا من لدنك رحمة و هبىء لنا من أمرنا رشداً و مثل قوله اللهم الهمني رشدي و اكفني شر نفسي ورأس هذه الأدعية و أفضلها قوله إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين فهذا الدعاء أفضل الأدعية و أوجبها على الخلق فإنه يجمع صلاح العبد فى الدين و الدنيا و الآخرة¹

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 329-330

والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} {8} الشرح 7-8 وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس اذا سألت فاسأل الله واذا استغنت فاستعن بالله ولا بد للانسان من شيئين طاعته بفعل المأمور وترك المحظور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدر فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر قال تعالى {بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} آل عمران 125¹

انزل الله في غزوة احد قوله {وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ}

ان الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرع له الجهاد إباحة له اولا ثم ايجابا له ثانيا لما هاجر الى المدينة وصار له فيها انصار ينصرون الله ورسوله فغزا بنفسه مدة مقامة بدار الهجرة وهو نحو عشر سنين بضعا وعشرين غزوة اولها غزوة بدر وآخرها غزوة تبوك انزل الله في اول مغازيه سورة الانفال وفي آخرها سورة براءة وجمع بينهما في المصحف لتشابه اول الأمر وآخره كما قال امير المؤمنين عثمان لما سئل عن القرآن بين السورتين من غير فصل بالبسملة وكان القتال منها في تسع غزوات فأول غزوات القتال بدر وآخرها حنين والطائف وانزل الله فيها ملائكته كما اخبر به القرآن ولهذا صار الناس يجمعون بينهما في القول وان تباعد ما بين الغزوتين مكانا وزمانا فان بدرا كانت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة ما بين المدينة ومكة شامى مكة وغزوة حنين في آخر شوال من السنة الثامنة وحنين واد قريب من الطائف شرقي مكة ثم قسم النبي غنائمها بالجعرانة واعتمر من الجعرانة ثم حاصر الطائف فلم يقاتله اهل الطائف زحفا وصفوفا وانما قاتلوه من وراء جدار فأخر غزوة كان فيها القتال زحفا واصطفافا هي غزوة حنين وكانت غزوة بدر اول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار وقتل الله اشرفهم واسر رءوسهم مع قلة المسلمين وضعفهم فانهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ليس معهم الا فرسان وكان يعتقب الاثنان والثلاثة على البعير الواحد وكان عدوهم بقدرهم اكثر من ثلاث مرات في قوة وعدة وهيئة وخيلاء فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة وفيها النبي واصحابه فخرج اليهم النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه في نحو من ربع الكفار وتركوا عيالهم بالمدينة لم ينقلوهم الى موضع آخر وكانت اولا الكرة للمسلمين عليهم ثم صارت للكفار فانهزم عامة عسكر المسلمين الا نفرا قليلا حول النبي صلى الله عليه وسلم منهم من قتل ومنهم من جرح وحرصوا على قتل النبي حتى كسروا رباعيته وشجوا جبينه وهشموا البيضة على رأسه وانزل الله فيها شطرا من سورة آل عمران من قوله {وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ

¹الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 101 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 120

لِلْقِتَالِ وَاللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ { آل عمران 121} وقال فيها { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ { آل عمران 155} وقال فيها { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ { آل عمران 152} وقال فيها { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { آل عمران 165} وكان الشيطان قد نطق في الناس ان محمدا قد قتل فمنهم من تزلزل لذلك فهرب ومنهم من ثبت فقاتل فقال الله تعالى { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ { آل عمران 144} ¹

أمر سبحانه بالجهاد وذم المثبطين

قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ { النساء 79} وأما القرآن فالمراد منه هذا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب ليس المراد الطاعات والمعاصي وهذا كقوله تعالى { **إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً { آل عمران 120}** وكقوله { **إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ { 50}** قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ { 51} التوبة 50- 51 الآية ومنه قوله تعالى { **وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ { الأعراف 168}** كما قال تعالى { **وَنَبَلُّوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَنِنَّهُ { الأنبياء 35}** اي بالنعم والمصائب وهذا بخلاف قوله { **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا { الأنعام 160}** وأمثال ذلك فان المراد بها الطاعة والمعصية وفي كل موضع ما يبين المراد باللفظ فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى اشكال بل هو مبين وذلك انه اذا قال ما اصابك وما مسك ونحو ذلك كان من فعل غيرك بك كما قال { **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ { النساء 79}** وكما قال تعالى { **إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ { 50} التوبة 50}** وقال تعالى { **وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ { الشورى 48}** وإذا قال { **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ { الأنعام 160}** كانت من فعله لانه هو الجائي بها فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به وسياق الآية يبين ذلك فانه ذكر هذا في سياق الحض على الجهاد وذم المتخلفين عنه فقال تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً { 71}** } وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً { 72} } وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 430-431

كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً {73} النساء 71-73 فأمر سبحانه بالجهاد ودم المثبطين وذكر ما يصيب المؤمنين تارة من المصيبة فيه وتارة من فضل الله فيه كما اصابهم يوم احد مصيبة فقال {أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} آل عمران 165 واصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتأييده كما قال تعالى {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} آل عمران 123 ثم انه سبحانه قال {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} {74} وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ {75} النساء 74-75 الى قوله {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} {78} النساء 78 فهذا من كلام الكفار والمنافقين اذا اصابهم نصر وغيره من النعم قالوا هذا من عند الله وان اصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا هذا من عند محمد بسبب الذي جاء به فإن الكفار يضيفون ما اصابهم من المصائب الى فعل اهل الايمان وقد ذكر نظير ذلك فى قصة موسى وفرعون قال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} {130} فَاِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطْفِرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَافَرُوهُمُ عِنْدَ اللَّهِ} {131} الأعراف 130-131 ونظيره قوله تعالى فى سورة يس {قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} {16} وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} {17} قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} {18} يس 16-18 فاخبر الله تعالى ان الكفار كانوا يتطيرون بالمؤمنين فاذا اصابهم بلاء جعلوه بسبب اهل الايمان وما اصابهم من الخير جعلوه لهم من الله عز وجل فقال تعالى {فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} {78} النساء 78 والله تعالى نزل احسن الحديث فلو فهموا القرآن لعلموا ان الله امرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر امر بالخير ونهى عن الشر فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سببا للشر بل الشر حصل بذنوب العباد فقال تعالى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} {79} النساء 79 اى ما اصابك من نصر ورزق وعافية فمن الله نعمة انعم بها عليك وان كانت بسبب اعمالك الصالحة فهو الذى هداك واعانك ويسرك لليسرى ومن عليك بالايمان وزينه فى قلبك وكره اليك الكفر والفسوق والعصيان وفى اخر الحديث الصحيح الالهى حديث ابى ذر عن النبى فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى يا عبادى انما هى اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه وفى الحديث الصحيح سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم انت ربي لا اله الا انت خلقتنى وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا انت من قالها اذا اصبح موقنا بها فمات من يومه ذلك دخل الجنة ومن قالها اذا امسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة ثم قال تعالى {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ} {79} النساء 79 من ذل و خوف و هزيمة كما اصابهم يوم أحد {فَمِنْ نَفْسِكَ} {79} النساء 79 أى بذنوبك و خطاياك و أن كان ذلك مكتوبا مقدرًا عليك فإن القدر ليس حجة لأحد لا على الله و لا

على خلقه و لو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم و لم يقاتل مشرك و لم يقم حد و لم يكف أحد عن ظلم أحد و هذا من الفساد في الدين و الدنيا المعلوم ضرورة فساده للعالم بصريح المقول المطابق لما جاء به الرسول فالقدر يؤمن به و لا يحتج به فمن لم يؤمن بالقدر ضارح المجوس و من احتج به ضارح المشركين و من أقر بالأمر و القدر و طعن في عدل الله و حكمته كان شبيهاً إبليس فإن الله ذكر عنه أنه طعن في حكمته و عارضه برأيه و هواه و أنه قال {بِمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ} الحجر 39¹

نزول الملائكة لنصر الانبياء وتأييدهم

من آياته صلى الله عليه وسلم تأييد الله له بملائكته²

واما نزول الملائكة لنصر الانبياء وتأييدهم فقد ذكره الله في غير موضع من كتابه في قصة بدر {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ} {9} وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {10} الانفال 9-10 الى قوله {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا} { الانفال 12} وقوله {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} {الأنفال 50} وقوله تعالى في يوم احد {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ} {124} بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} {125} وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {126} **ال عمران 124-126** وقال تعالى في يوم الخندق {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} {الأحزاب 9} وقال تعالى {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} {25} ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} {26} ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ} {27} التوبة 25-27 وقال عند خروجه للهجرة {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِنَّهُنَّ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {التوبة 40}³

قال سبحانه في قصة بدر {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ} {9} وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} {10} الانفال 9-10 فوعدهم بالإمداد

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 111-114

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 263

³الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 496 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 238

بألف وعدا مطلقا وأخبر أنه جعل إمداد الألف بشرى ولم يقيده وقال فى قصة أحد { **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ** } {124} **بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** } {125} آل عمران 124-125 فإن هذا أظن فيه قولين أحدهما أنه متعلق بأحد لقوله بعد ذلك { **لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ** } آل عمران 127 الآية ولأنه وعد مقيد وقوله فيه { **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ** } آل عمران 126 يقتضى خصوص البشرى بهم وأما قصة بدر فإن البشرى بها عامة فيكون هذا كالدليل على ما روى من أن ألف بدر باقية فى الأمة فإنه أطلق الأمداد والبشرى { **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ** } الانفال 10 وقدم به على لكم عناية بالألف وفى أحد كانت العناية بهم لو صبروا فلم يوجد الشرط¹

وأن الله أنزل فى غزوة بدر الملائكة وأيد بها نبيه والمؤمنين حتى غلبوا عدوهم مع قوة العدو فى بدر وأمتن الله بذلك فى كتابه فى قوله { **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } آل عمران 123²

فهذه النصوص وأمثالها صريحة بإثبات الملائكة وأفعالها وكلامها وتأثيرها فى العالم بالقول والفعل وهذا يبطل قولهم (قول الفلاسفة) إن المؤثر فى العالم هو القوى النفسانية أو القوى الطبيعية فإن الملائكة خارجة عن هذا وهذا وحينئذ فما يحصل من خوارق العادات بأفعال الملائكة أعظم مما يحصل بمجرد القوى النفسانية والأنبياء أحق الناس بمعاونة الملائكة لهم وتأيد الله تعالى لهم³ فقد أخبر أنه أمدهم بجنود من الملائكة تنصرهم فى آيات أخبر بنزول الملائكة بالعلم والوحي وفى هذه الآيات أخبر بنزولها بالنصر والقدرة وهذا يبين أن ما كان يحصل للرسول من العلم والقدرة من المكاشفة والتأثير فى العالم حاصل بما هو خارج عن قوى نفسه من العلم الذى تنزل به الملائكة والنصر الذى تنزل به الملائكة⁴

التوكل فله وحده لا شريك له

فالتوكل فله وحده لا شريك له كما قال { **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } آل عمران 122⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 37-38

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 336

³الصفدية ج: 1 ص: 205

⁴الصفدية ج: 1 ص: 206

⁵مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

ومن تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى كما قال تعالى في التوكل **{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** آل عمران فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه

122¹

وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله قال تعالى **{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}** هود 123 وقال تعالى **{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** آل عمران 122 وأما قوله **{الَّذِينَ إِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** {2} الانفال 2 فيقال من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه بحيث اذا كان الانسان مؤمنا لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له²

"الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع"

القسم المحمود وهو حال الذين حققوا **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** الفاتحة 5 وقوله **{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}** هود 123 فاستعانوا به على طاعته وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه وطاعة رسوله وأنه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع وأنه **{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكٍ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** فاطر 2 ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع وإنما التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع فقد بين أن من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا وإن كان من أعيان المشايخ كصاحب علل المقامات وهو من أجل المشايخ وأخذ ذلك عنه صاحب محاسن المجالس وأظهر ضعف حجته فمن قال ذلك قال إن المطلوب به حظ العامة فقط وظنه أنه لا فائدة له في تحصيل المقصود وهذه حال من جعل الدعاء كذلك وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عما يجب عليه من الأسباب التي هي عبادة الله وطاعة مأمور بها فإن غلط هذا من ترك الأسباب المأمور بها التي هي داخلية في قوله هود فاعبده وتوكل عليه كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله فاعبده وتوكل عليه لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة وإن كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما أن من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ومن أعرض عن التوكل

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 107

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 16

فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الإيمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى {إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} آل عمران 122¹

إن نفس التقوى والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة

أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبيا للأمر مقصودا له كما في قوله {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} آل عمران 122 وفي قوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ} البقرة 189 وفي قوله {وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} المائدة 93 وفي قوله {فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} التغابن 8 وفي قوله {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا} نوح 3 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به²

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} الزخرف 63 فجعل العباداة والتقوى لله وجعل له أن يطاع

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 52

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله {فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ} آل عمران 123¹

{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}

فإن الله هو الناصر وحده وما النصر إلا من عند الله وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم قال تعالى لما أنزل الملائكة {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} آل عمران 126²

يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى إلا الله قال تعالى لما أنزل الملائكة {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} آل عمران 126³

فمن فهم معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {5} الفاتحة 5 عرف أنه لا يعين على العبادة إلا عانة المطلقة الا الله وحده وأنه يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه وكذلك الاستغاثة لا تكون الا بالله والتوكل لا يكون الا عليه {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} آل عمران 126 فالنصر المطلق وهو خلق ما يغلب به العدو لا يقدر عليه إلا الله⁴

شهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار يغلق باب الشر

فان الخير لا موجب له الا مشيئة الله فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجاً عن قدرة العبد فهو من الله وان كانت افعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحذور سبباً للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغي للعبد ان لا يعلق رجاءه الا بالله ولا يخاف من الله ان يظلمه فان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون بل يخاف ان يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روى عن على رضى الله عنه انه قال لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه وفى الحديث المرفوع الى النبى انه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال ارجو الله واخاف ذنوبى فقال ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا اعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف فالرجاء ينبغى ان يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك وان كان

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 125

³الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

⁴مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 357

بالكتاب والسنة يجب إثباتها والمعاني المنفية بالكتاب والسنة يجب نفيها والعبارة الدالة على المعاني نفيًا وإثباتًا إن وجدت في كلام الله ورسوله وجب إقرارها¹

دعوى أن القطب الفرد الغوث الجامع ينطبق علمه وقدرته على علم و قدرة الله تعالى كفر صريح

إذا كان في الزمان رجل هو أفضل أهل الزمان فتسميته بالقطب الغوث الجامع بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا تكلم بهذا أحد من سلف الأمة وأئمتها وما زال السلف يظنون في بعض الناس أفضل أو من أفضل أهل زمانه ولا يطلقون عليه هذه الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان لا سيما أن من المنتحلين لهذا الإسم من يدعى أن أول الأقطاب هو الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ثم يتسلل الأمر إلى ما دونه إلى بعض مشايخ المتأخرين وهذا لا يصح على مذهب أهل السنة ولا على مذهب الرافضة فأين ابو بكر وعمر وعثمان وعلي والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والحسن عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد قارب سن التمييز والإحتلام وقد حكى عن بعض الأكابر من الشيوخ المنتحلين لهذا أن القطب الفرد الغوث الجامع ينطبق علمه على علم الله تعالى وقدرته على قدرة الله تعالى فيعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه الله وزعم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان كذلك وإن هذا إنتقل عنه إلى الحسن وتسلسل إلى شيخه فبينت أن هذا كفر صريح وجهل قبيح وإن دعوى هذا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفر دع ما سواه وقد قال الله تعالى {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ} {الأنعام 50} وقال تعالى {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} {127} لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} {128} آل عمران 127-128²

وقد قال الله تعالى له {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {الأعراف 188} وقال تعالى {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} {يونس 49} وقال تعالى {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} {القصص 56} وقال تعالى {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} {آل عمران 128} وهذا تحقيق التوحيد مع أنه أكرم الخلق على الله وأعلام منزلة عند الله قال صلى الله عليه وسلم لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله متفق عليه وقال لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد بل ما شاء الله ثم شاء محمد

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 110

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 103 وزيارة القبور ج: 1 ص: 76

وقال له بعض الأعراب ما شاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا بل ما شاء الله وحده وقد روى الطبرانى فى معجمه الكبير أن منافقا كان يؤذى المؤمنين فقال أبو بكر قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق فقال له النبى إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله وفى صحيح مسلم فى آخره أنه قال قبل أن يموت بخمس إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك وفى صحيح مسلم أيضا وغيره أنه قال لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة وله طرق متعددة عن غيرهما أنه قال لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتى قبر النبى فقال مالك ان كان أراد القبر فلا يأتى وان أراد المسجد فليأته ثم ذكر الحديث لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد ذكره القاضى إسماعيل فى مبسوطه¹

الدعاء من العبادات فلا يعبد الله إلا بمأمور به واجب أو مستحب

فى الصحيحين عن ابن عمر أنه سمع رسول الله إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} آل عمران 128 فان هذا انما يدل على ترك اللعنة لهم لكونه ليس له من الأمر شيء لجواز توبتهم²

والدعاء على الجنس الظالمين الكفار مشروع مأمور به وشرع القنوت والدعاء للمؤمنين والدعاء على الكافرين وأما الدعاء على معينين كما كان النبى يلعن فلانا وفلانا فهذا قد روى أنه منسوخ بقوله {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} آل عمران 128 كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضوع فيما كتبتة فى قلعة مصر وذلك لأن المعين لا يعلم أن رضى الله عنه أن يهلك بل قد يكون ممن يتوب الله عليه بخلاف الجنس فإنه إذا دعي عليهم بما فيه عز الدين وذل عدوه وقمعهم كان هذا دعاء بما يحبه الله ويرضاه فإن الله يحب الإيمان وأهل الإيمان وعلو أهل الإيمان وذل الكفار فهذا دعاء بما يحبه الله وأما الدعاء على المعين بما لا يعلم أن الله يرضاه فغير مأمور به وقد كان يفعل ثم نهى عنه لأن الله قد يتوب عليه أو يعذبه ودعاء نوح على أهل الأرض بالهلاك كان بعد أن أعلمه الله أنه لا يؤمن من قومك إلا من قد آمن ومع هذا فقد ثبت فى حديث الشفاعة فى الصحيح أنه يقول أنى دعوت على أهل الأرض دعوة لم أؤمر بها فإنه وإن لم يمه عنها فلم يؤمر بها فكان الأولى أن لا يدعو إلا بدعاء مأمور به واجب أو مستحب فإن الدعاء من العبادات فلا يعبد الله إلا بمأمور به

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 303

²مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 156

واجب أو مستحب وهذا لو كان مأمورا به لكان شرعا لنوح ثم ننظر في شرعنا هل نسخه أم لا وكذلك دعاء موسى بقوله { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } يونس 88 إذا كان دعاء مأمورا به بقي النظر في موافقة شرعنا له والقاعدة الكلية في شرعنا أن الدعاء إن كان واجبا أو مستحبا فهو حسن يثاب عليه الداعي وإن كان محرما كالعدوان في الدماء فهو ذنب ومعصية وإن كان مكروها فهو ينقص مرتبة صاحبه وإن كان مباحا مستوي الطرفين فلا له ولا عليه فهذا هذا والله سبحانه أعلم¹

الأمر كله لله

والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فالأمر كله إليه وحده فلا شريك له بوجه ولهذا ذكر سبحانه نفي ذلك في آية الكرسي التي فيها تقرير التوحيد فقال له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إذا سجد وحمد ربه يقال له ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فيجد له حدا فيدخلهم الجنة فالأمر كله لله كما قال لرسوله { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } آل عمران 128²

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه محجة الواثقين ومدرجة الوامقين تأليفه قال النبي وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفا صفا كما قال تعالى { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } الفجر 22 وزاد النبي صلى الله عليه وسلم وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده فيغفر لمن يشاء من مذنبى الموحدين ويعذب من يشاء كما قال تعالى { يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ } آل عمران 129³

إذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء

أن القدرية المجبرة من جنس المشركين كما ان النافية من جنس المجوس وان المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشيئة في نفس الأمر والنافية تنفي القدرة العامة والمشيئة التامة وتزعم انها تثبت الحكمة والعدل وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشيئة والقدرة كما قد بسط في مواضع لامية وأولئك يتعلقون بقوله { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } الأنبياء 23 { إِنَّ

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 336

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 130 و الجواب الصحيح ج: 5 ص: 307

³مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 61

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ { الحج 18 } وهذا ذكره الله اثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله بل بين سبحانه انه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً بل هو قادر على فعل ما يشاء بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمني ان شئت فان الله لا مكره له ولكن ليعزم المسألة وذلك انه إنما يقال افعل كذا ان شئت لمن قد يفعله مكرها فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الاكراه عنه والله تعالى لا مكره له فلا يفعل إلا ما يشاء فقله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } { الحج 18 } و { يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ } { الفتح 14 } ونحو ذلك هو لاثبات قدرته على ما يشاء وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون انه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء إلا الطاعة ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه وليس هو قادرا عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعا ولا عاصيا فهذه الآيات التي تحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة كما أن الآيات التي يحتج بها النفاة التي تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة وانه لم يخلق الخلق عبثاً ونحو ذلك تدل على فساد قول المجبرة وليس في هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى وكلا القولين باطل وهذا هو الذي نهى عنه النبي في الحديث الذي في المسند وغيره وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي انه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر هذا يقول ألم يقل الله كذا وهذا يقول ألم يقل الله كذا فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ولهذا قال أحمد في بعض مناظراته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض انا قد نهينا عن هذا فمن دفع نصوصا يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وهذا حال أهل الأهواء هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الاقوال فصاروا كما قال عن أهل الكتاب { وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } { المائدة 14 } فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه بل { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } { المؤمنون 53 } وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة كما قال واياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة يجعلون تلك هي الأصول العقلية كالقدرية المجبرة والنفاة فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام في الاصول وهو الذي يسمونه العقليات أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع¹

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 225-227

لطائف لغوية

1- ظلم النفس فانه اذا اطلق تناول جميع الذنوب فانها ظلم العبد نفسه قال تعالى { كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } آل عمران 117¹

2- { كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ } آل عمران 117 سمي الأرض المزروعة حرثاً²

3- قال تعالى { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } آل عمران 118 قال تعالى { إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى } طه 54 أى العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ } الفجر 5 أى لذي عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَٰ أُولِيَ الْأَلْبَابِ } البقرة 197 وقال { إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الأنفال 22 وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف 179 وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44³

4- وأما لفظ الذات فانها فى اللغة تأنىث ذو وهذا اللفظ يستعمل مضافا الى اسماء الاجناس يتوصلون به الى الوصف بذلك فيقال شخص ذو علم وذو مال وشرف ويعنى حقيقته أو عين أو نفس ذات علم وقدرة وسلطان ونحو ذلك وقد يضاف الى الاعلام كقولهم ذو عمرو وذو الكلاع وقول عمر الغنى بلال وذووه وفى الصحيح عن النبى قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلهن فى ذات الله وعن أبى ذر كلنا أحقق فى ذات الله وفى قول بعضهم اصبنا فى ذات الله والمعنى فى جهة الله وناحيته أى لأجل الله ولابتغاء وجهه ليس المراد بذلك النفس ونحوه فى القرآن { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ } الأنفال 1 وقوله { عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } آل عمران 119 أى الخصلة والجهة التى هى صاحبة بينكم وعلیم بالخواطر ونحوها التى هى صاحبة الصدور فاسم الذات فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والعربية المحضة بهذا المعنى⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 62

²مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 124

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 334 و الصفدية ج: 1 ص: 109 و مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 341

- 5- وحيث جاء في القرآن او لغة العرب لفظ نو ولفظ ذات لم يجيء الا مقرونا بالاضافة كقوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} الأنفال1 وقوله {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} آل عمران119 وقول خبيب رضى الله عنه وذلك في ذات الاله¹
- 6- {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} آل عمران119 عليم منزه عن الجهل²
- 7- والذي عليه عامة المفسرين أن الحسنة و السيئة يراد بهما النعم و المصائب ليس المراد مجرد ما يفعله الانسان باختياره باعتباره من الحسنات أو السيئات ولفظ الحسنات و السيئات في كتاب الله يتناول هذا و هذا قال الله تعالى عن المنافقين {إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَنَفَّوْا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران120 و قال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى و من معه {فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} الأعراف131 ذكر هذا بعد قوله {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ النَّمْرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} الأعراف130 وأما الأعمال المأمور بها و المنهى عنها ففي مثل قوله تعالى {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} الأنعام160³
- 8- {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} آل عمران121 سميع منزه عن الصم عليم منزه عن الجهل⁴
- 9- {فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ} آل عمران123 أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به ايجابا و استحبابا و ما نهى عنه تحريما و تنزيها و هذا يجمع حقوق الله و حقوق العباد⁵
- 10- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق و التقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به و كانت طاعة الرسول داخله في طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به و ترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله و أن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله و هذا كما في قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} {55} القمر54-55 و قد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً} {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 98

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 237 و مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 470 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 26

⁴الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁵الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 90

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ {3} {الطلاق} 2-3 وقوله {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ} {يوسف} 90 وقوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ} {النساء} 1¹

11- فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ

رُسُلًا} فاطر 1 فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} {الحج} 75 وملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا وقوله تعالى {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ} {124} {بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} {125} آل عمران 124-125²

12- {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} آل عمران 126 عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزه عن السفه³

13- قال الله تعالى {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ} آل عمران 126 والحركة والسكون والطمأنينة التي توصف بها النفس ليست مماثلة لما يوصف به الجسم قال تعالى {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} {الرعد} 28 والاطمئنان هو السكون قال الجوهري اطمأن الرجل اطمئنانا وطمأنينة أى سكن قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {27} ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً} {28} {الفجر} 27-28 وكذلك للقلوب سكونة تناسبها قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ} {الفتح} 4 وكذلك الريب حركة النفس للشك ومنه الحديث أن النبي مر بطبي خائف فقال لا يريبه أحد ويقال رابنى منه ريب و دع ما يريبك الى ما لا يريبك وقال الكذب ريبية والصدق طمأنينة فجعل الطمأنينة ضد الريبية وكذلك اليقين ضد الريب واليقين يتضمن معنى الطمأنينة والسكون ومنه ماء يقن وكذلك يقال انزعج وازعجه فانزعج أى أقلقه ويقال ذلك لمن قلقت نفسه ولمن قلق بنفسه وبدنه حتى فارق مكانه وكذلك يقال قلقت نفسه واضطربت نفسه ونحو ذلك من أنواع الحركة ويسمى ما يألفه جنس الانسان ويحبه سكنا لأنه يسكن اليه ويقال فلان يسكن الى فلان ويطمئن اليه ويقال القلب يسكن الى فلان ويطمئن اليه اذا كان مأمونا معروفا بالصدق فان الصدق يورث الطمأنينة والسكون وقد سميت الزوجة سكونا قال تعالى {خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} {الروم} 21 وقال {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 122

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

لَيْسُ كُنَّ إِلَيْهَا { الأعراف 189 فيسكن الرجل الى المرأة بقلبه وبدنه جميعا وقد يكون بدن الشخص ساكنا ونفسه متحركة حركة قوية وبالعكس قد يسكن قلبه وبدنه متحرك والمحب للشئ المشتاق اليه يوصف بأنه متحرك اليه ولهذا يقال العشق حركة نفس فارغة فالقلوب تتحرك الى الله تعالى بالمحبة والانابة والتوجه وغير ذلك من أعمال القلوب وان كان البدن لا يتحرك الى فوق فقد قال النبي أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ومع هذا فبدنه أسفل ما يكون فينبغي أن يعرف ان الحركة جنس تحته أنواع مختلفة باختلاف الموصوفات بذلك وما يوصف به نفس الانسان من ارادة ومحبة وكراهة وميل ونحو ذلك¹

14- وحرف أو إذا جاءت في سياق الأمر والطلب فإنها تفيد التخيير بين المعطوف المعطوف عليه أو إباحة كل منهما على الاجتماع والإفراد كما يقال جالس الحسن أو ابن سيرين وتعلم الفقه أو النحو هذا هو الذي ذكره أهل المعرفة بلغة العرب في كتبهم قالوا وإذا كانت في الخبر فقد تكون للإبهام وقد تكون للتقسيم وقد تكون للشك وعلى ما ذكره نخرج معانيها في كلام الله فان قوله {فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} البقرة 196 وقوله {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ} المائدة 89 وقوله {فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ} المائدة 95 وإن كان مخرجه مخرج الخبر فإن معناه معنى الأمر فيكون الله قد أمر بواحدة من هذه الخصال فيفيد التخيير وقوله {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} سبأ 24 وقوله {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلٍ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} الفتح 16 وقوله {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ} آل عمران 127 وقوله {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ} آل عمران 128²

15- قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} المجادلة 5 والكبت الاذلال والخزي والصرع قال الخليل الكبت هو الصرع على الوجه وقال النضر بن شميل وابن قتيبة هو الغيظ والحزن وهو في الاشتقاق الاكبر من كبده كأن الغيظ والحزن اصاب كبده كما يقال احرق الحزن والعداوة كبده وقال اهل التفسير كبتوا اهلكوا واخزوا فنبت ان المحاد مكبوت مخزي ممثل غيظا وحزنا هالك وهذا انما يتم اذا خاف ان اظهر المحادة ان يقتل والا فمن امكنه اظهار المحادة وهو امن على دمه وماله فليس بمكبوت بل مسرور جذلان ولانه قال {كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} المجادلة 5 والذين من قبلهم ممن حاد الرسل وحاد رسول الله انما كبتة الله بان اهلكه بعذاب من عنده او بايدي المؤمنين والكبت وان كان يحصل منه نصيب لكل من لم ينل غرضه كما قال سبحانه {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ} آل عمران 127³

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 570

²شرح العمدة ج: 3 ص: 320

³الصارم المسلول ج: 2 ص: 50-52

آل عمران 130- 136

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {130} وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ {131} وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} {132} وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا مِن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136}

المراباة حرام بالكتاب و السنة و الاجماع

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} آل

عمران 130 المراباة حرام بالكتاب و السنة و الاجماع و قد لعن رسول الله صلى الله عليه و سلم أكل الربا و موكله و كاتبه و شاهديه و لعن المحلل و المحلل له قال الترمذي حديث صحيح فالاثنتان ملعونان و ان كان أصل الربا في الجاهلية أن الرجل يكون له على الرجل المال المؤجل فاذا حل الأجل قال له أتقضى أم تربي فان وفاه و إلا زاد هذا في الأجل وزاد هذا في المال فيتضاعف المال و الأصل و احد و هذا الربا حرام باجماع المسلمين و أما اذا كان هذا هو المقصود و لكن توسلوا بمعاملة أخرى فهذا تنازع فيه المتأخرون من المسلمين و أما الصحابة فلم يكن بينهم نزاع أن هذا محرم فانما الأعمال بالنيات و الآثار عنهم بذلك كثيرة مشهورة و الله تعالى حرم الربا لما فيه من ضرر المحتاجين و أكل المال بالباطل و هو موجود في المعاملات الربوية و أما اذا حل الدين و كان الغريم معسرا لم يجز باجماع المسلمين أن يقلب بالقلب لا بمعاملة و لا غيرها بل يجب إنظاره و إن كان موسرا كان عليه الوفاء فلا حاجة الى القلب لا مع يساره و لا مع إعساره و الواجب على و لاة الأمور بعد تعزيز المتعاملين بالمعاملة الربوية بأن يأمرؤا المدين أن يؤدي رأس المال و يسقطوا الزيادة الربوية فان كان معسرا و له مغلات يوفي منها و في دينه منها بحسب الامكان و الله أعلم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 418-419

تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} آل

عمران 130 أن الله حرم في كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل و ذم الأحرار و الرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل و ذم اليهود على أخذهم الربا و قد نهوا عنه و أكلهم أموال الناس بالباطل و هذا يعم كل ما يؤكل بالباطل في المعاوضات و التبرعات و ما يؤخذ بغير رضا المستحق و الاستحقاق و أكل المال بالباطل في المعاوضة نوعان ذكرهما الله في كتابه هما الربا و الميسر فذكر تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة في آخر سورة البقرة و سورة آل عمران و الروم و المدثر و ذم اليهود عليه في سورة النساء و ذكر تحريم الميسر في سورة المائدة و أما الربا فتحريمه في القرآن أشد و لهذا قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {278} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ {279} البقرة 278-279 و ذكره النبي صلى الله عليه و سلم في الكباير كما خرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه و ذكر الله أنه حرم على الذين هادوا طيبات أحلت لهم بظلمهم و صدهم عن سبيل الله و أخذهم الربا و اكلهم أموال الناس بالباطل و أخبر سبحانه أنه يحق الربا كما يربى الصدقات و كلاهما أمر مجرب عند الناس و ذلك أن الربا أصله إنما يتعامل به المحتاج و إلا فالموسر لا يأخذ ألفا حالة بألف و مائتين مؤجلة إذا لم يكن له حاجة لتلك الألف و إنما يأخذ المال بمثله و زيادة الى أجل من هو محتاج إليه فتقع تلك الزيادة ظلما للمحتاج بخلاف الميسر فإن المظلوم فيه غير مفقر و لا هو محتاج الى العقد و قد تخلو بعض صورته عن الظلم إذا وجد في المستقبل المبيع على الصفة التي ظناها و الربا فيه ظلم محقق للمحتاج و لهذا كان ضد الصدقة فإن الله لم يدع الأغنياء حتى أوجب عليهم إعطاء الفقراء فإن مصلحة الغنى و الفقير في الدين و الدنيا لا تتم إلا بذلك فاذا أربى معه فهو بمنزلة من له على رجل دين فمنعه دينه و ظلّمه زيادة أخرى و الغريم محتاج الى دينه فهذا من أشد أنواع الظلم و لعظمته لعن النبي صلى الله عليه و سلم آكله و هو الآخذ و موكله و هو المحتاج المعطى للزيادة و شاهده و كاتبه لا عانتهم عليه ثم إن النبي صلى الله عليه و سلم حرم أشياء مما يخفى فيها الفساد لافضائها الى الفساد المحقق كما حرم قليل الخمر لأنه يدعو الى كثيرها مثل ربا الفضل فإن الحكمة فيه قد تخفى اذ العاقل لا يبيع درهما بدرهمين إلا لاختلاف الصفات مثل كون الدرهم صحيحا و الدرهمين مكسورين أو كون الدرهم مصوغا أو من نقد نافق و نحو ذلك و لذلك خفيت حكمة تحريمه على ابن عباس و معاوية و غيرهما فلم يروا به بأسا حتى أخبرهم الصحابة الأكابر كعبادة بن الصامت و أبي سعيد و غيرهما بتحريم النبي صلى الله عليه و سلم لربا الفضل¹

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 22-25

الإمام مالك والإمام أحمد يحرمان الربا و يمنعان الاحتيال عليه

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } قال

عمران 130 فأصول مالك في البيوع أجود من أصول غيره فإنه أخذ ذلك عن سعيد بن المسيب الذي كان يقال هو أفقه الناس في البيوع كما كان يقال عطاء أفقه الناس في المناسك و ابراهيم أفقههم في الصلاة و الحسن أجمعهم لذلك كله و لهذا و افق أحمد كل و احد من التابعين في أغلب ما فضل فيه لمن إستقرأ ذلك من أجوبته و الإمام أحمد موافق لمالك في ذلك في الأغلب فإنهما يحرمان الربا و يشددان فيه حق التشديد لما تقدم من شدة تحريمه و عظم مفسدته و يمنعان الاحتيال عليه بكل طريق حتى يمنعا الذريعة المفضية إليه و إن لم تكن حيلة و إن كان مالك يبالي في سد الذرائع ما لا يختلف قول أحمد فيه أو لا يقوله لكنه يوافق بلا خلاف عنه على منع الحيل كلها و جماع الحيل نوعان إما أن يضموا الى أحد العوضين ما ليس بمقصود أو يضموا الى العقد عقدا ليس بمقصود فالأول مسألة مد عجوة و ضابطها أن يبيع ربويا بجنسه و معهما أو مع أحدهما ما ليس من جنسه مثل أن يكون غرضهما بيع فضة بفضة متفاضلا و نحو ذلك فيضم الى الفضة القليلة عوضا آخر حتى يبيع ألف دينار في منديل بألفي دينار فمتى كان المقصود بيع الربوي بجنسه متفاضلا حرمت مسألة مد عجوة بلا خلاف عند مالك و أحمد و غيرهما و إنما يسوغ مثل هذا من جوز الحيل من الكوفيين و إن كان قدماء الكوفيين يحرمون هذا و أما إن كان كلاهما مقصودا كمد عجوة و درهم بمد عجوة و درهم أو مدين أو درهمين ففيه روايتان عن أحمد و المنع قول مالك و الشافعي و الجواز قول أبي حنيفة و هي مسألة اجتهاد و أما إن كان المقصود من أحد الطرفين غير الجنس الربوي كبيع شاة ذات صوف أو لبن بصوف أو لبن فأشهر الروايتين عن أحمد الجواز و النوع الثاني من الحيل أن يضموا الى العقد المحرم عقدا غير مقصود مثل أن يتواطأ على أن يبيعه الذهب بخرزه ثم يبتاع الخرز منه بأكثر من ذلك الذهب أو يواطئا ثالثا على أن يبيع احدهما عرضا ثم يبيعه المبتاع لمعامله المرابي ثم يبيعه المرابي لصاحبه و هي الحيلة المثلثة أو يقرن بالقرض محاباة في بيع أو إجارة أو مساقاة و نحو ذلك مثل أن يقرضه ألفا و يبيعه سلعة تساوي عشرة بمائتين أو يكريه دارا تساوي ثلاثين بخمسة و نحو ذلك فهذا و نحوه من الحيل لا تزول به المفسدة التي حرم الله من أجلها الربا و قد ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم من حديث عبدالله بن عمرو أنه قال لا يحل سلف و بيع و لا شرطان في بيع و لا ربح ما لم يضمن و لا بيع ما ليس عندك قال الترمذي حديث حسن صحيح و هو من جنس حيل اليهود فإنهم إنما استحلوا الربا بالحيل و يسمونه المشكند و قد لعنهم الله على ذلك و قد روي ابن بطة بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل و في الصحيحين عنه أنه قال لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجمعوها فباعوها و أكلوا ثمنها و في السنن عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال من أدخل

فرسا بين فرسين و هو لا يأمن أن يسبق فليس قمارا و من أدخل فرسا بين فرسين و قد أمن ان يسبق فهو قمار و قال صلى الله عليه و سلم فيما رواه أهل السنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده البيعان بالخيار ما لم يتفرقا و لا يحل له أن يفارقه خشية أن يستقبله و دلائل تحريم الحيل من الكتاب و السنة و الاجماع و الاعتبار كثيرة ذكرنا منها نحو من ثلاثين دليلا فيما كتبناه في ذلك و ذكرنا ما يحتج به من يجوزها كيمين أيوب و حديث تمر خبير و معارض السلف و ذكرنا جواب ذلك و من ذرائع ذلك مسألة العينة و هو أن يبيعه سلعة الى أجل ثم يبتاعها منه بأقل من ذلك فهذا مع التواطؤ يبطل البيعين لأنها حيلة و قد روي أحمد و ابو داود باسنادين جيدين عن ابن عمر قال قال رسول الله عليه و سلم إذا تبايعتم بالعينة و اتبعتم أذناب البقر و تركتم الجهاد في سبيل الله أرسل الله عليكم ذلا لا يرفعه عنكم حتى تراجعوا دينكم و إن لم يتواطأ فانهما يبطلان البيع الثاني سدا للذريعة و لو كانت عكس مسألة العينة من غير تواطؤ ففيه روايتان عن أحمد و هو أن يبيعه حالا ثم يبتاع منه بأكثر مؤجلا و أما مع التواطؤ فربما محتال عليه و لو كان مقصود المشتري الدرهم و ابتاع السلعة الى أجل ليبيعهها و يأخذ ثمنها فهذا يسمى التورق ففي كراهته عن احمد روايتان و الكراهة قول عمر بن عبدالعزيز و مالك فيما أظن بخلاف المشتري الذي غرضه التجارة أو غرضه الانتفاع أو القنية فهذا يجوز شراؤه الى أجل بالاتفاق ففي الجملة أهل المدينة و فقهاء الحديث مانعون من أنواع الربا منعاً محكماً مراعين لمقصود الشريعة و أصولها و قولهم في ذلك هو الذي يؤثر مثله عن الصحابة و تدل عليه معاني الكتاب و السنة¹

رجل اشترى قمحا بثمن معلوم الى و قت معلوم ثم إنه ما حصل لصاحب القمح شيء ثم داره عقدا و ارتهن عليه ملكا و أنه أخذ ذلك بيعا و شراء بذلك العقد فهل البيع جائز ؟

فأجاب اذا اشترى قمحا بثمن الى أجل ثم عوض البائع عن ذلك الثمن سلعة الى أجل لم يجز فان هذا بيع دين بدين و كذلك ان احتال على أن يزيده في الثمن و يزيده ذلك في الأجل بصورة يظهر رباها لم يجز ذلك و لم يكن له عنده الا الدين الأول فان هذا هو الربا الذي أنزل الله فيه القرآن فان الرجل يقول لغريمه عند محل الأجل تقضى أو تربي فان قضاؤه و الا زاده هذا في الدين و زاده هذا في الأجل فحرم الله و رسوله ذلك و أمر بقتال من لم ينته و الله أعلم و سئل رحمه الله عن رجل اضطر الى قرصة دراهم فلم يجد من يقرضه الا رجل يأخذ الفائدة فيأتي السوق يشتري له بضاعة بخمسين و يبيعهها له بربح معين الى مدة معينة فهل هي قنطرة الربا فأجاب اذا اشترى له بضاعة و باعها له فاشترها منه أو باعها للثالث صاحبها الذي اشترها المقرض منه فهذا ربا و

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 27-30

الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم و الصحابة و التابعين في تحريم ذلك كثيرة مثل حديث عائشة لأُم و لد زيد بن أرقم قالت لها يا أم المؤمنين انى ابتعت من زيد بن أرقم غلاما الى العطاء بثمانمائة درهم نسيئة ثم ابتعته منه بستمائة نقدا فقالت عائشة بئس ما شريت و بئس ما اشتريت أخبرى زيدا أنه قد ابطال جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يتوب فقالت يا أم المؤمنين أرأيت أن لم أجد الا رأس مالي فقالت عائشة {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} البقرة 275 و عن أنس بن مالك أنه سئل عن مثل ذلك فقال هذا ما حرم الله و أما الذي لم يعد الى البائع بحال بل باعها المشتري من مكان آخر لجاره فهذا يسمى التورق و قد تتوزع في كراهته فكرهه عمر بن عبدالعزيز و الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في احدي الروايتين و قال عمر بن عبدالعزيز التورق أخية الربا أي أصل الربا و هذا القول أقوى و سئل عن رجل طلب من انسان ألف درهم الى سنة بألف و مائتى درهم فباعه فرسا أو قماشاً بألف درهم و اشتراه منه بألف و مائتى درهم الى أجل معلوم فهل يجوز ذلك فأجاب لا يحل له ذلك بل هو ربا باتفاق الصحابة و جمهور العلماء كما دلت على ذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل ابن عباس رضي الله عنه عن رجل باع حريرة ثم ابتاعها لأجل زيادة درهم فقال دراهم بدراهم دخلت بينهما حريرة و سئل عن ذلك أنس بن مالك فقال هذا مما حرم الله و رسوله و قالت عائشة لأُم و لد زيد بن أرقم فى نحو ذلك بئس ما شريت و بئس ما اشتريت أخبرى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يتوب فمتى كان مقصود المتعامل دراهم بدراهم الى أجل فانما الأعمال بالنيات و انما لكل امرئ ما نوي فسواء باع المعطى الأجل أو باع الأجل المعطى ثم استعاد السلعة و فى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من باع بيعتين فى بيعة فله أو كسهما أو الربا و فيه ايضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال و سلم أنه قال اذا تبايعتم بالعينة و اتبعتم اذئاب البقر و تركتم الجهاد فى سبيل الله أرسل الله عليكم ذلا لا يرفعه عنكم حتى ترجعوا الى دينكم و هذا كله فى بيع العينة و هو بيعتان فى بيعة و قال صلى الله عليه وسلم لا يحل سلف و بيع و لا شرطان فى بيع و لا ربح ما لم يضمن و لا بيع ما ليس عندك قال الترمذي حديث صحيح فحرم النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيع الرجل شيئا و يقرضه مع ذلك فانه يحابيه فى البيع لأجل القرض حتى ينفعه فهو ربا و هذه الأحاديث و غيرها تبين أن ما تواطأ عليه الرجلان بما يقصدان به دراهم بدراهم أكثر منها الى أجل فانه ربا سواء كان يبيع ثم يبتاع أو يبيع و يقرض و ما أشبه ذلك و الله أعلم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 430-433

رجل يداين الناس كل مائة بمائة و أربعين و يجعل سلفا على حرير فاذا جاء الأجل وأعسر المديون عن وفائه قال له عاملنى فياخذ رب الحرير من عنده ويقول للمديون اشتريت منى هذا الحرير بمائة و تسعين إلا أنه يأتيه على حساب كل مائة بمائة و أربعين واذا قبضه المديون منه قال أوفنى هذا الحرير عن السلف الذى لى عندك و اذا جاءت السنة الثانية طالبه بالدراهم المذكورة فأعسرت عليه أو بعضها قال عاملنى فيحسب المتبقى و الأصل و يجعل ذلك سلفا على حرير فما يجب على هذا الرجل

فأجاب هذا هو عين الربا الذي أنزل فيه القرآن فانه كان يكون للرجل على الرجل الدين فيأتى اليه عند محل الأجل فيقول اما أن تقضى و أما ان تربى فان و فاه و الا زاده المدين فى الدين و زاده الغريم فى الأجل حتى يتضاعف المال فأنزل الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {278} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسَ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} {279} وَإِن كَانَ ثُو عُسْرَةً فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ {280} البقرة 278-280 و هذه المعاملة التى يفعلها مثل هذا المربى مقصودها مقصود أولئك المشركين المرابين لكن هذا أظهر صورة المعاملة و هذا لا ينفعه باتفاق أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم فان هذا المربى يبيعه ذلك الحرير الى أجل ليوفيه اياه عن دينه فهو بمنزله أن يبيعه اياه الى أجل ليشتريه بأقل من ذلك و قد سئل ابن عباس عن مثل هذا فقال هذا حرام حرمه الله و رسوله و سألت أم و لد زيد بن ارقم عائشة أم المؤمنين عن مثل هذا فقالت انى بعت من زيد غلاما الى العطاء بثمانمائة درهم ثم ابتعته بستمائة فقالت لها عائشة بئس ما اشتريت و بئس ما بعت أخبري زيدا أنه أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه و سلم الا أن يتوب قالت يا أم المؤمنين أرأيت ان لم أجد الا رأس مالي فقالت عائشة {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ} البقرة 275 و فى السنن عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال من باع بيعتين فى بيعة فله أوكسهما أو الربا و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم لا يحل سلف و بيع فهى أن يبيع و يقرض ليحابيه فى البيع لأجل القرض و ثبت عنه فى الصحيح أنه قال انما الأعمال بالنيات فهذان المتعاملان ان كان قصدهما أخذ دراهم بدراهم الى أجل فبأي طريق توصل الى ذلك كان حراما لأن المقصود حرام لا يحل قصده بل قد نهى السلف عن كثير من ذلك سدا للذرائع لئلا يفضي الى هذا المقصود و هذا المربى لا يستحق فى ذم الناس إلا ما أعطاهم أو نظيره فأما الزيادات فلا يستحق شيئا منها لكن ما قبضه قبل ذلك بتأويل فانه يعفى عنه و أما ما بقى له فى الذم فهو ساقط لقوله و ذروا ما بقى من الربا و الله أعلم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 435-437

لفظ الربا يتناول كل ما نهى عنه من ربا النساء و ربا الفضل والقرض الذى يجر منفعة

الصواب الذى عليه جمهور أئمة المسلمين ان النصوص وافية بجمهور احكام أفعال العباد ومنهم من يقول انها وافية بجميع ذلك وإنما انكر ذلك من انكره لأنه لم يفهم معانى النصوص العامة التى هى أقوال الله ورسوله وشمولها لأحكام أفعال العباد وذلك أن الله بعث محمدا بجوامع الكلم فيتكلم بالكلمة الجامعة العامة التى هى قضية كليه وقاعدة عامة تتناول أنواعا كثيرة وتلك الأنواع تتناول أعيانا لا تحصى فبهذا الوجه تكون النصوص محيطية بأحكام أفعال العباد ومن هذا الباب لفظ الربا فانه يتناول كل ما نهى عنه من ربا النساء و ربا الفضل والقرض الذى يجر منفعة وغير ذلك فالنص متناول لهذا كله لكن يحتاج فى معرفة دخول الأنواع والأعيان فى النص الى ما يستدل به على ذلك وهذا الذى يسمى تحقيق المناط¹

وتوحيد الله وإخلاص الدين له هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} الزخرف 63 فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله **{وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} آل عمران 130**²

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 283

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

القرآن جمع بين العدل والفضل على غاية الكمال

والقرآن جمع بين العدل والفضل على غاية الكمال فالقرآن بين أن السعداء أهل الجنة وهم أولياء الله نوعان أبرار مقتصدون ومقربون سابقون فالدرجة الأولى تحصل بالعدل وهي أداء الواجبات وترك المحرمات والثانية لا تحصل إلا بالفضل وهو أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل كقوله تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** {130} **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** {131} **ال عمران 130-131** فهذا عدل واجب من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة ثم قال **{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** {134} **ال عمران 134** فهذا فضل مستحب مندوب إليه من فعله أثابه الله ورفع درجته ومن تركه لم يعاقبه¹

العذاب إنما أعد للكافرين فإن جهنم لهم خلقت

والعذاب إنما أعد للكافرين فإن جهنم لهم خلقت لأنهم لا بد أن يدخلوها وما هم منها بمخرجين وأهل الكبائر من المؤمنين يجوز أن يدخلوها إذا غفر الله لهم وإذا دخلوها فإنهم يخرجون منها ولو بعد حين قال سبحانه **{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** آل عمران 131 فأمر سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا وأن يتقوا الله وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا وفعلوا المعاصي مع أنها معدة للكافرين لا لهم ولذلك جاء في الحديث أما أهل النار هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأما أقوام لهم ذنوب فيصيبيهم سفع من النار ثم يخرجهم الله منها وهذا كما أن الجنة **{أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** {133} **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ}** {134} **آل عمران 133-134** وإن كان لا يدخلها الأبناء بعمل آبائهم ويدخلها قوم بالشفاعة وقوم بالرحمة وينشئ الله لما فضل منها خلقا آخر في الدار الآخرة فيدخلهم إياها وذلك لأن الشيء إنما يعد لمن يستوجبه ويستحقه ولمن هو أولى الناس به ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبعية أو لسبب آخر والله أعلم²

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 106

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 368 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 460 و الصارم المسلول ج: 2 ص: 111-112

التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله

التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله أن التقوى اما تقوى الله واما تقوى عذابه كما قال {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} البقرة 24 {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} آل عمران 131 فالتقوى اتقاء المحذور بفعل المأمور به وبترك المنهى عنه وهو بالأول اكثر وانما سمي ذلك تقوى لأن ترك المنهى عنه وفعل المأمور به سبب الأمن من ذم الله وسخط الله وعذاب الله فالباعث عليه خوف الاثم بخلاف ما فيه منفعة وليس في تركه مضرة فان هذا هو المستحب الذي له ان يفعله وله ان لا يفعله فذكر ذلك باسم التقوى ليبين وجوب ذلك وان صاحبه متعرض للعذاب بترك التقوى ونقول ثانيا انه حيث عبر بالتقوى عن ترك المنهى ان قيل ذلك كما في قوله {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} المائدة 2 قال بعض السلف البر ما امرت به والتقوى ما نهيت عنه فلا يكون ذلك الا مقرونا بفعل المأمور به كما ذكر معها البر وكما في قول نوح {أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا} نوح 3 وذلك لان هذه التقوى مستلزمة لفعل المأمور به ونقول ثالثا ان اكثر بنى آدم قد يفعل بعض المأمور به ولا يترك المنهى عنه الا الصديقون كما قال سهل لان المأمور به له مقتضى في النفس واما ترك المنهى عنه الى خلاف الهوى ومجاهدة النفس فهو أصعب وأشق فقل أهله ولا يمكن أحدا أن يفعله الا مع فعل المأمور به لا تتصور تقوى وهي فعل ترك قط فان من ترك الشرك واتباع الهوى المضل واتباع الشهوات المحرمات فلا بد أن يفعل من المأمور به أمور كثيرة تصده عن ذلك فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التي امروا بها وتمنعهم من السيئات التي تضرهم بخلاف من فعل ما أمر به وما نهى عنه مثلا فان وجود المنهى عنه يفسد عليه من المأمور به ما يفسد فلا يسلم له ولهذا كانت العاقبة للتقوى كما قال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} طه 132 {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} الأعراف 128 {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120 وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الاطعمة المؤذية فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة وغير المتقى بمنزلة من خلط من الاطعمة فانه وان اغتذى بها لكن تلك التخاليط قد تورثه أمراضا اما مؤذية واما مهلكة ومع هذا فلا يقول عاقل ان حاجته وانتفاعه بترك المضر من الاغذية اكثر من حاجته وانتفاعه بالأغذية النافعة بل حاجته وانتفاعه بالأغذية التي تناولها اعظم من انتفاعه بما تركه منها بحيث لو لم يتناول غذاء قط لهلك قطعا واما اذا تناول النافع والضار فقد يرجي له السلامة وقد يخاف عليه العطب واذا تناول النافع دون الضار حصلت له الصحة والسلامة فالاول نظير من ترك المأمور به والثاني نظير من فعل المأمور به والمنهى عنه وهو المخلط الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا والثالث نظير المتقى الذي فعل ما امر به واجتنب ما نهى عنه فعظم امر التقوى لتضمنها السلامة مع الكرامة لا لأجل السلامة فقط فانه ليس في الآخرة دارا الا الجنة او النار فمن سلم من النار دخل الجنة ومن لم ينعم عذب فليس في الآدميين من يسلم من العذاب والنعيم

جميعا فتدبر هذا فكل خصلة قد أمر الله بها أو أثنى عليها ففيها فعل المأمور به ولا بد
تضمنا أو استلزاما وحمدها لنيل الخير عن الشر والثواب عن العقاب¹

لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {13} وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} {14} النساء 13- 14 فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {الذاريات 56} وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله فلا عبادة الا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أخرجاه في الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن ساريه الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي أنه من يعيش منكم بعدي فسيري اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثان الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن كقوله تعالى {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} {النساء 80} وقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} {64} فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} {65} {النساء 64- 65} وقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} {آل عمران 32} وقال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {آل عمران 31} فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده وقد قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {الشورى 52} فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده كما أنه بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} {سبأ 50} وقال تعالى {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} {15} {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {المائدة 15- 16} فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدي من

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 135-137

الضلال والنجاة من الوبال والغي من الرشاد والزيغ من السداد وأهل الجنة من أهل النار والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين فالنفوس أحوج الى معرفة ما جاء به واتباعه منها الى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا وذلك إذا مات حصل العذاب فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم والطريق الى ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى الا مع ظهور نور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي الا إذا طلعت عليه شمس الرسالة فهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الاسلام وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة وبهما أتم على أمته الأمة قال تعالى {وَلَا تُتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {150} كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} {151} فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} {152} البقرة 150-152 وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} آل عمران 164 قال تعالى {وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ} البقرة 231 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} الجمعة 2 وقال تعالى عن الخليل {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ} البقرة 129 وقال تعالى {وَادْكُرْنَا مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} الأحزاب 34 وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم الحكمة هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والكتاب القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة وأبي ثعلبة وغيرهما أنه قال لا أفين أحدكم متكا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وفي رواية ألا وإنه مثل الكتاب ولما كان القرآن متميزا بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى {قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} الإسراء 88 وكان منقولا بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدى والسداد فدحروا حزب الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث وكان من ذلك الظاهر الجلي الذي لا يسوغ عنه العدول ومنه الخفي الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعلماء العدول وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والاسناد فسافروا في

ذلك الى البلاد وهجروا فيه لذيذ الرقاد وفارقوا الأموال والأولاد وأنفقوا فيه الطارف والتلاد وصبروا فيه على النوائب وقنعوا من الدنيا بزازد الراكب ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصاص الماثورة ما هو عند أهله معلوم ولمن طلب معرفته معروف مرسوم بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيق الطعام والشراب وترك معاشره الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الإغتراب ومقاساة الأهوال الصعاب أمر حببه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا يقصدونه من كل فج عميق ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق وكما حبيب الى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ويظهر به الهدي ودين الحق الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون فمن كان مخلصا في أعمال الدين يعملها لله كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم كما قال تعالى {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} {63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {64} يونس 62-64 وقد فسر النبي البشري في الدنيا بنوعين أحدهما ثناء المثنين عليه الثاني الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له فقيل يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشري المؤمن وقال البراء بن عازب سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشري في الحياة الدنيا فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الربان الحافظون له من الزيادة والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} {المجادلة 11} قال ابن عباس يرفع الله وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد وجعله سلما الى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد له يأترون به المنقولات وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الاسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأترونها بغير إسناد وعليها من دينهم الإعتقاد وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ولا الحالي من العاطل وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين فظهر لهم الصدق من المين كما يظهر الصبح لذي عينين عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء 59 فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقا ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي والله تعالى يليهم الصواب في هذه القضية كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية فإن الله كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه لما صدقوا في موالاته الله

ورسوله وماداة من عدل عنه قال تعالى { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ } المجادلة 22 وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظم الناس قياما به الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصددهم عن سبيل الله العظام بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } النساء 135 وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } المائدة 8 ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيانتها عن إحداث المفترين وهم في ذلك على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه وقد أمر النبي الأمة أن يبلغ عنه من شهد لم غاب ودعا للمبلغين بالدعاء المتجاب فقال في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بين اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي منعدا فليتبوأ مقعده من النار وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع الا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال أيضا نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من روائهم وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيهها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ لما أعطى المبلغون من النضرة ولهذا قال سفيان بن عيينة لا تجد أحد من أهل الحديث الا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي يقال نضر ونضر والفتح أفصح ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعطون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأنني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإنما قال الشافعي هذا لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي وقال الشافعي أيضا أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا أه¹

الله تعالى جعل طاعة الله ورسوله شيئا واحدا

أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله في أمره ونهيه ووعده ووعيده فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله²

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 11-4

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 307

ان الله تعالى جعل محبة الله ورسوله وارضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئاً واحداً كما قرن طاعته بطاعته فقال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ {التوبة 24} وقال {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} آل عمران 132 في مواضع متعددة وقال أيضا {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ {التوبة 62} فوحد الضمير وقال ايضا {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ {الفتح 10} وقال ايضا {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {الأنفال 1} وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله واذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئاً واحداً فقال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {الحشر 4} وقال {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ {المجادلة 5} و {المجادلة 20} وقال تعالى {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ {التوبة 63} وقال {وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ خُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ {النساء 14} وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقيين وان جهة حرمة الله ورسوله جهة واحدة فمن اذى الرسول فقد اذى الله ومن اطاعه فقد اطاع الله لان الامة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم الا بواسطة الرسول ليس لاحد منهم طريق غيره ولا سبب سواه وقد اقامه الله مقام نفسه في امره ونهيه واخباره وبيانه فلا يجوز ان يفرق بين الله ورسوله في شئ من هذه الامور¹

قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ {النساء 59} وقد اوجب طاعته وطاعة رسوله في آي كثير من القرآن وحرمة معصيته ومعصية رسوله ووعد برضوانه ومغفرته ورحمته وجنته على طاعته وطاعة رسوله وأوعد بصد ذلك على معصيته ومعصية رسوله فعلى كل أحد من عالم أو أمير أو عابد أو معامل أن يطيع الله ورسوله فيما هو قائم به من علم أو حكم أو أمر أو نهى أو عمل أو عبادة أو غير ذلك²

من رحمة الله بعباده لا يجعلهم مصرين على الباطل

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} {132} {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} {آل عمران 135-132} من رحمة الله بعباده الصالحين حيث يردهم في آخر أمرهم إلى الحق الذي بعثه به رسوله

¹الصارم المسلول ج: 2 ص: 86

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 309

ولا يجعلهم مصرين على ما يخالف الدين المشروع كما قال تعالى في صفة المتقين الذين أعد لهم الجنة¹

الجنة أعدت للمتقين

وهذا كما أن الجنة أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء وإن كان يدخلها الأبناء بعمل آبائهم ويدخلها قوم بالشفاعة وقوم بالرحمة وينشئ الله لما فضل منها خلقا آخر في الدار الآخرة فيدخلهم إياها وذلك لأن الشيء إنما يعد لمن يستوجبه ويستحقه ولمن أولى الناس به ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبعية أو لسبب آخر والله أعلم²

{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ }

إن الأصل في الصلاة في أول الوقت افضل من آخره ألا لمعنى يقتضي استحباب التأخير لأن الله تعالى قال {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} البقرة 148 و قال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} آل عمران 133 و قال تعالى {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} الحديد 21 و قال تعالى {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} المؤمنون 61 و قال {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} الواقعة 10 أي إلى الأعمال الصالحة في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الجنة و قال تعالى {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} فاطر 32 و قال تعالى {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} التوبة 100 و قال عن نبيه موسى {وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} طه 84 و هذه الآيات تقتضي إن المسارعة إلى الخيرات مأمور بها و إن فاعلها مستوجب لثناء الله و رضوانه و لذلك يقتضي الاستباق إلى الخيرات و إلى أسباب المغفرة أمرا بها و ثناء على أهلها و تفضيلا لهم على غيرهم و الصلاة من افضل الخيرات و اعظم أسباب المغفرة و عن محمد ابن عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إن النبي صلى الله عليه و سلم قال ثلاث يا علي لا تؤخرهن الصلاة إذا أتت و الجنابة إذا حضرت و الايم إذا وجدت لها كفوا³

وقوع الذنب مع تعقبه بالتوبة والإستغفار لا يقدر في كون الرجل من المقربين السابقين ولا الأبرار ولا يلحقه بذلك و عيد في الآخرة فضلا عن أن يجعله من الفجار⁴

العافی عن الناس قد أحسن إلى نفسه وإلى الناس

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 405

² دقائق التفسير ج: 2 ص: 460

³ شرح العمدة ج: 4 ص: 191

⁴ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 422

لا يكون العفو عن الظالم ولا قليله مقسطا لأجر المظلوم عند الله ولا منقصا له بل العفو عن الظالم يصير أجره على الله تعالى فإنه إذا لم يعف كان حقه على الظالم فله أن يقتص منه بقدر مظلمته وإذا عفا وأصلح فأجره على الله وأجره الذى هو على الله خير وأبقى قال تعالى {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} الشورى 40 فقد أخبر أن جزاء السيئة سيئة مثلها بلا عدوان وهذا هو القصاص فى الدماء والأموال والأعراض ونحو ذلك ثم قال {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} الشورى 40 وقد ذكر عن الإمام أحمد لما ظلم فى محنته المشهورة أنه لم يخرج حتى حلل من ظلمه وقال ذكرت حديثا ذكر عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقيم من وجب أجره على فلا يقوم إلا من عفا وأصلح وقد قال تعالى {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} النحل 126 وأباح لهم سبحانه وتعالى إذا عاقبوا الظالم أن يعاقبوه بمثل ما عاقب به ثم قال {وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} النحل 126 فعلم أن الصبر عن عقوبته بالمثل خير من عقوبته فكيف يكون مسقطا للأجر أو منقصا له وقد قال تعالى {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} المائدة 45 فجعل الصدقة بالقصاص الواجب على الظالم وهو العفو عن القصاص كفارة للعافى والإقتصاص ليس بكفارة له فعلم أن العفو خير له من الإقتصاص وهذا لأن ما أصابه من المصائب مكفر الذنوب ويؤجر العبد على صبره عليها و ويرفع درجته برضاه بما يقضيه الله عليه منها قال الله تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} التغابن 11 قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وفى الصحيحين عن النبى أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها وفى المسند أنه لما نزل قوله تعالى {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} النساء 123 قال أبو بكر يا رسول الله نزلت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر أأنت تنصب أأنت تحزن أأنت تصيبك اللأواء فذلك ما تجزون به وفيه أيضا المصائب حطة تحط الخطايا عن صاحبها كما تحط الشجرة القائمة ورقها والدلائل على أن المصائب كفارات كثيرة إذا صبر عليها أثيب على صبره فالثواب والجزاء إنما يكون على العمل وهو الصبر وأما نفس المصيبة فهي من فعل الله لا من فعل العبد وهي من جزاء الله للعبد على ذنبه وتكفيره ذنبه بها وفى المسند أنهم دخلوا على أبى عبيدة بن الجراح وهو مريض فذكروا أنه يؤجر على مرضه فقال مالى من الأجر ولا مثل هذه ولكن المصائب حطة فبين لهم أبو عبيدة رضى الله عنه أن نفس المرض لا يؤجر عليه بل يكفر به عن خطاياها وكثيرا ما يفهم من الأجر غفران الذنوب فيكون فيه أجر بهذا الاعتبار ومن الناس من يقول لا بد فيه من التعويض والأجر والإمتنان وقد يحصل له ثواب بغير عمل كما يفعل عنه من أعمال البر وأما الصبر على المصائب ففيها أجر عظيم قال تعالى {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} 155 {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} 156 {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} 157 {البقرة 155-157 فالرجل إذا ظلم

بجرح ونحوه فتصدق به كان الجرح مصيبة يكفر بها عنه ويؤجر على صبره وعلى إحسانه إلى الظالم بالعفو عنه فإن الإحسان يكون بجلب منفعة وبدفع مضرة ولهذا سماه الله صدقة وقد قال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} آل عمران 133-134 فذكر أنه يحب المحسنين والعافين عن الناس وتبين بهذا أن هذا من الإحسان والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازماً لصاحبه أو متعدياً إلى الغير ومنه قوله {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {القصص 84} وقال {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} {الأنعام 160} فالكاظم للغيظ والعافى عن الناس قد أحسن إلى نفسه وإلى الناس فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه كما يروى عن بعض السلف أنه قال ما أحسنت إلى أحد وما أسأت إلى أحد وإنما أحسنت إلى نفسي وأسأت إلى نفسي قال تعالى {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} {الإسراء 7} وقال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} {فصلت 46} ولو لم يكن الإحسان إلى الخلق إحساناً إلى المحسن يعود نفعه عليه لكان فاعلاً إثماً أو ضرراً فإن العمل الذي لا يعود نفعه على فاعله إما حيث لم يكن فيه فائدة وإما شر من العيب إذا ضر فاعله والعفو عن الظالم أحد نوعي الصدقة المعروف والإحسان إلى الناس وجماع ذلك الزكاة والله سبحانه دائماً يأمر بالصلاة والزكاة وهي الصدقة وقد ثبت في الصحيح عن النبي من غير وجه أنه قال كل معروف صدقة وذلك نوعان أحدهما اتصال نفع إليه الثاني دفع ضرر عنه فإذا كان المظلوم يستحق عقوبة الظلم ونفسه تدعوه إليه فكف نفسه عن ذلك ودفع عنه ما يدعوه إليه من إضراره فهذا إحسان منه إليه وصدقة عليه والله تعالى {يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} {يوسف 88} و{لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {التوبة 120} فكيف يسقط أجر العافى وهذا عام في سائر ما للعبد من الحقوق على الناس ولهذا إذا ذكر الله في كتابه حقوق العباد وذكر فيه العدل ندب فيها إلى الإحسان فإنه سبحانه يأمر بالعدل والإحسان كما قال تعالى {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {البقرة 280} فجعل الصدقة على المدين المعسر بإسقاط الدين عنه خيراً للمتصدق من مجرد إنظاره وقال تعالى {وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا} {النساء 92} فسمى إسقاط الدية صدقة وقال تعالى {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} {البقرة 237} فجعل العفو عن نصف الصداق الواجب على الزوج بالطلاق قبل الدخول أقرب للتقوى من إستيفائه وعفو المرأة إسقاط نصف الصداق باتفاق الأمة وأما عفو الذي بيده عقدة النكاح فقيل هو عفو الزوج وأنه تكميل للصداق للمرأة وعلى هذا يكون هذا العفو من جنس ذلك العفو فهذا العفو إعطاء الجميع وذلك العفو إسقاط الجميع والذي حمل من قال هذا القول عليه انهم رأوا أن غير المرأة لا تملك إسقاط حقها الواجب كما لا تملك إسقاط سائر

ديونها وقيل الذى بيده عقدة النكاح هو ولى المرأة المستقل بالعقد بدون استئذنانها كالأب للبكر الصغيرة وكالسيد للأمة وعلى هذا يكون العفوان من جنس واحد ولهذا لم يقل إلا أن يعفون أو يعفوهم والخطاب فى الآية للأزواج وقال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } لقمان 17 وقال تعالى { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ } {41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {42} وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } {43} الشورى 41-43 فهناك فى قول لقمان ذكر الصبر على المصيبة فقال { إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } لقمان 17 وهنا ذكر الصبر والعفو فقال { إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } الشورى 43 وذكر ذلك بعد قوله { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ } {41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } {42} الشورى 41-42 فذكر سبحانه الأصناف الثلاثة فى باب الظلم الذى يكون بغير اختيار المظلوم وهم العادل والظالم والمحسن فالعادل من انتصر بعد ظلمه وهذا جزاؤه انه ما عليه من سبيل فلم يكن بذلك ممدوحا ولكن لم يكن بذلك مذموما وذكر الظالم بقوله { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } الشورى 42 فهو لاء عليهم السبيل للعقوبة والإقتصاص وذكر المحسنين فقال { وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } الشورى 43 والقرآن فيه جوامع الكلم وهذا كما ذكر فى آخر البقرة أصناف الناس فى المعاملات التى تكون باختيار المتعاملين وهم ثلاثة محسن وظالم وعادل فالمحسن هو المتصدق والظالم هو المربى والعادل هو البائع فذكر هنا حكم الصدقات وحكم الربا وحكم المبيعات والمداينات وكما أن من توهم أنه بالعفو يسقط حقه أو ينقص غلط جاهل ضال بل بالعفو يكون أجره أعظم فكذلك من توهم أنه بالعفو يحصل له ذل ويحصل للظالم عز واستطالة عليه فهو غلط فى ذلك كما ثبت فى الصحيح وغيره عن النبى أنه قال ثلاث إن كنت لحالفا عليهن ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما نقصت صدقة من مال وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله فبين الصادق المصدق إن الله لا يزيد العبد بالعفو إلا عزا وأنه لا تنقص صدقة من مال وأنه ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله وهذا رد لما يظنه من يتبع الظن وما تهوى الأنفس من أن العفو يذله والصدقة تنقص ماله والتواضع يخفضه وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت ما ضرب رسول الله خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ولا نيل منه قط شيء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا إنتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله وخلق رسول الله القرآن أكمل الأخلاق وقد كان من خلقه أنه لا ينتقم لنفسه وإذا إنتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله فيعفو عن حقه ويستوفى حق ربه والناس فى الباب أربعة أقسام منهم من ينتصر لنفسه ولربه وهو الذى يكون فيه دين وغضب ومنهم من لا ينتصر لا لنفسه ولا لربه وهو الذى فيه جهل وضعف دين ومنهم من ينتقم لنفسه لا لربه وهم شر الأقسام وأما الكامل فهو الذى ينتصر لحق الله ويعفو عن حقه كما قال أنس ابن مالك خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط وما قال لى

لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته وكان بعض أهله إذا عتني على شيء يقول دعوه لو قضي شيء لكان فهذا في العفو عما يتعلق بحقوقه وأما في حدود الله فلما شفع عنده أسامة بن زيد وهو الحب ابن الحب وكان هو أحب إليه من أنس وأعز عنده في امرأة سرقت شريفة أن يعفو عن قطع يدها غضب وقال يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله إنما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها فغضب على أسامة لما شفع في حد الله وعفا عن أنس في حقه وكذلك لما أخبره أسامة أنه قتل رجلاً بعد أن قال لا إله إلا الله قال أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله فما زال يكررها حتى قلت ليته سكت والأحاديث والآثار في إستحباب العفو عن الظالم وأن أجره بذلك أعظم كثيرة جداً وهذا من العلم المستقر في فطر آدميين وقد قال تعالى لنبيه {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} الأعراف 199 فأمره أن يأخذ بالعفو في أخلاق الناس وهو ما يقر من ذلك قال ابن الزبير أمر الله نبيه أن يأخذ بالعفو من أخلاق الناس وهذا كقوله {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} البقرة 219 من أموالهم هذا من العفو ويأمر بالمعروف ويعرض عن الجاهلين وهذه الآية فيها جماع الأخلاق الكريمة فإن الإنسان مع الناس إما أن يفعلوا معه غير ما يحب أو ما يكره فأمر أن يأخذ منهم ما يحب ما سمحوا به ولا يطالبهم بزيادة وإذا فعلوا معه ما يكره أعرض عنهم وأما هو فيأمرهم بالمعروف وهذا باب واسع¹

الصبر يصلح حال الراعي والرعية

{فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}

وأعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الاخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثانى الاحسان الى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} البقرة 45 وكقوله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} {114} {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {115} {هُود} 114-115 وقوله تعالى {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} طه 130 وكذلك فى سورة ق {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} ق 39 وقال تعالى {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ

¹مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 361-366

يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ {97} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ {98} الحجر 97-98 وأما قرنه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدا فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الانسان ما يدخل في هذه الاسماء الجامعة يدخل في الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوه كتابه واخلاص الدين له والتوكل عليه وفي الزكاة الاحسان الى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبي انه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما منكم من احد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم ان يتقى النار ولو بشق تمره فليفعل فان لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو ان تلقى أخاك ووجهك اليه منبسط ولو ان تفرغ من دلوك في إناء المستفى وفي السنن عن النبي ان أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن وروى عنه انه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر كما قال تعالى {وَلْيُنْزِلْنَا مِنَ الْإِنْسَانِ مَنًّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكُفُورٌ} {9} وَلْيُنْزِلْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ} {10} إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} {11} هود 9-11 وقال لنبية {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} الأعراف 199 وقال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} آل عمران 133-134 وقال تعالى {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} {35} وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {36} فصلت 34-36 وقال تعالى {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} الشورى 40 قال الحسن البصرى رحمة الله عليه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ألا ليقم من وجب أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا وأصلح

1

لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع إستغفار

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 364-366 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 111-113

قال سبحانه في وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136} ال عمران 133-136 فوصفهم بالكرم و الحلم و بالإنفاق و كظم الغيظ و العفو عن الناس ثم لما جاءت الشهوات المحرمات و صفهم بالتوبة منها فقال {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} {آل عمران 135} فوصفهم بالتوبة منها وترك الإصرار عليها لا بترك ذلك بالكلية فإن النبي قال في الحديث الصحيح كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واللسان يزني وزناه المنطق واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه وفي الحديث كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فلا بد للإنسان من مقدمات الكبيرة وكثير منهم يقع في الكبيرة فيؤمر بالتوبة و يؤمرون أن لا يصروا على صغيرة فإنه لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع إستغفار¹

وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لن يدخل الجنة احد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل وهذا لا ينافي قوله {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} {الحاقة 24} فان الرسول نفي بآء المقابلة والمعادلة والقرآن اثبت بآء السبب وقول من قال إذا احب الله عبدا لم تضره الذنوب معناه انه إذا احب عبدا الهمة التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب ومن ظن ان الذنوب لا تضر من اصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف والأئمة بل {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} {7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} {8} الزلزلة 7 وانما عباده الممدوحين هم المذكورون في قوله تعالى {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136} آل عمران 133-136²

لا يخلد في النار احد من أهل التوحيد

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 31

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 256

وقد ذكر الله تعالى اوليائه المقتصدين والسابقين فى سورة فاطر فى قوله تعالى {ثُمَّ أُورَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} {32} جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} {33} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} {34} الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} {35} فاطر 32- 35 لكن هذه الاصناف الثلاثة فى هذه الآية هم أمة محمد خاصة كما قال تعالى {ثُمَّ أُورَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} {32} فاطر 32 وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين اورثوا الكتاب بعد الامم المتقدمة وليس ذلك مختصا بحفاظ القرآن بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء وقسمهم الى ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بخلاف الآيات التى فى الواقعة والمطففين والانفطار فانه دخل فيها جميع الامم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم وهذا التقسيم لامة محمد ف الظالم لنفسه اصحاب الذنوب المصرور عليها ومن تاب من ذنبه اى ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين و المقتصد المؤدى للفرائض المجتنب للمحارم و السابق للخيرات هو المؤدى للفرائض والنوافل كما فى تلك الآيات ومن تاب من ذنبه اى ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين كما فى قوله تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُنْتَفِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَن رَّبَّهُمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136} ال عمران 133-136 و المقتصد المؤدى للفرائض المجتنب للمحارم و السابق بالخيرات هو المؤدى للفرائض والنوافل كما فى تلك الآيات وقوله {جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا} فاطر 33 مما يستدل به أهل السنة على انه لا يخلد فى النار احد من أهل التوحيد واما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى اهل الكبائر واخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا وشفاعة غيره فمن قال ان أهل الكبائر مخلدون فى النار وتأول الآية على ان السابقين هم الذين يدخلونها وان المقتصد او الظالم لنفسه لا يدخلها كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول احد من أهل الكبائر النار ويزعمون انه اهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبي ولاجماع سلف الأمة وأئمتها وقد دل على فساد قول الطائفتين قول الله تعالى فى آيتين من كتابه وهو قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء 48 فأخبر تعالى انه لا يغفر الشرك واخبر انه يغفر ما دونه لمن يشاء ولا يجوز ان يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من المعتزلة لان الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشرك يغفره الله ايضا للتائب

فلا تعلق بالمشيئة ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {الزمر 53} فهنا عمم المغفرة واطلقها فان الله يغفر للعبد اى ذنب تاب منه فمن تاب من الشرك غفر الله له ومن تاب من الكبائر غفر الله له و اى ذنب تاب العبد منه غفر الله له ففى آية التوبة عمم واطلق وفى تلك الآية خصص وعلق فخص الشرك بأنه لا يغفره وعلق ما سواه على المشيئة ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب ونبه بالشرك على ما هو اعظم منه كتعطيل الخالق أو يجوز ان لا يعذب بذنب فانه لو كان كذلك لما ذكر انه يغفر البعض دون البعض ولو كان كل ظالم لنفسه مغفورا له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة وقوله تعالى {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} النساء 48 دليل على انه يغفر البعض دون البعض فبطل النفي والوقف العام

1

مثل المؤمن كمثل الفرس فى آخيته يجول ثم يرجع الى آخيته

عن النبي صلى اله عليه وسلم مثل المؤمن كمثل الفرس فى آخيته يجول ثم يرجع الى آخيته كذلك المؤمن يجول ثم يرجع الى ربه قال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الى قوله {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136} فلم يقل لا يظلمون ولا يذنبون بل قال {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} أى بذنب آخر غير الفاحشة فعطف العام على الخاص كما قال موسى رب انى ظلمت نفسي وقالت بلقيس رب انى ظلمت نفسي وقال تعالى عموما عن أهل القرى المهلكة {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} {هود 101} فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه وبعضيانهم لأنبيائهم وبتركهم التوبة الى ربهم وقوله تعالى ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ولهذا قال والله يريد أن يتوب عليكم ثم قال يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا²

قال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {آل عمران 133} الى قوله {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136} آل عمران 136 فلم يقل لا يظلمون ولا يذنبون بل قال {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} {135} آل عمران 135 أى بذنب آخر غير الفاحشة فعطف العام على الخاص كما قال موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي} {القصص 16} وقالت بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي} {النمل 44} وقال تعالى عموما عن أهل القرى المهلكة {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} {هود 101} فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه وبعضيانهم

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 182-185

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 13

لأنبيائهم وبتركهم التوبة إلى ربهم وقوله تعالى {ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} {135} آل عمران 135¹

محبة الرب لعبده

وأما محبة الرب لعبده قال تعالى {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} آل عمران 134 وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله محبوب لذاته محبة حقيقة بل هي أكمل محبة فإنها كما قال تعالى البقرة والذين آمنوا أشد حبا لله وكذلك هو سبحانه يحب ما يحب عباده المؤمنون وما هو في الله محبة حقيقة²

افضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة

كان النبي وغيره من الانبياء عليهم السلام يعفون ويصفحون عن من قاله امثالاً لقوله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} الأعراف 199 ولقوله تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ} المؤمنون 96 وقوله {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} {35} فصلت 34- 35 ولقوله تعالى {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} آل عمران 159 ولقوله تعالى {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ} الأحزاب 48 ذلك لان درجة الحلم والصبر على الاذى والعفو عن الظلم افضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة يبلغ الرجل بها ما لا يبلغه بالصيام والقيام قال تعالى {وَالْكَافِرِينَ} العنكبوت والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} آل عمران 134 وقال تعالى {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} الشورى 40 وقال تعالى {إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا} النساء 149 وقال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} النحل 126 والاحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة ثم الانبياء احق الناس بهذه الدرجة لفضلهم واحوج الناس اليها لما ابتلوا به من دعوة الناس ومعالجتهم وتغيير ما كانوا عليه من العادات هو امر لم يات به احد الا عودي فالكلام الذي يؤذيهم يكفر به الرجل فيصير

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 572

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 68

به محاربا ان كان ذا عهد ومرندا او منافقا ان كان ممن يظهر الاسلام ولهم فيه ايضا حق الادمي
فجعل الله لهم ان يعفوا عن مثل هذا النوع ووسع عليهم ذلك لما فيه من حق الادمي تغلبا لحق الادمي
على حق الله كما جعل لمستحق القود وحد القذف ان يعفو عن القاتل والقاذف واولى لما في جواز
عفو الانبياء ونحوهم من المصالح العظيمة المتعلقة بالنبي والامة وبالدين وهذا معنى قول عائشة
رضي الله عنها ما ضرب رسول الله بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط الا ان يجاهد في
سبيل الله ولا انتقم لنفسه قط وفي لفظ ما نيل منه شيء فانتقم من صاحبه الا ان تنتهك محارم الله فاذا
انتهكت محارم الله لم يقم لغضبة شيء حتى ينتقم الله متفق عليه ومعلوم ان النيل منه اعظم من
انتهاك المحارم لكن لما دخل فيها حقه كان الامر اليه في العفو او الانتقام فكان يختار العفو وربما
امر بالقتل اذا راي المصلحة في ذلك بخلاف ما لاحق له فيه من زنى او سرقة او ظلم لغيره فانه
يجب عليه القيام به وقد كان اصحابه اذا راوا من يؤذيه ارادوا قتله لعلمهم بانه يستحق القتل
فيعفو هو عنه ويبين لهم ان عفوه اصلح مع اقراره لهم على جواز قتله ولو قتله قاتل قبل عفو النبي لم
يعرض له النبي لعلمه بانه قد انتصر لله ورسوله بل يحمده على ذلك ويثني عليه كما قتل عمر رضي
الله عنه الرجل الذي لم يرضى بحكمه وكما قتل رجل بنت مروان واخر اليهودية السابيه فاذا تعذر
عفوه بموته بقي حقا محضا لله ولرسوله وللمؤمنين لم يعف عنه مستحقة فتجب اقامته ويبين ذلك
ما روى ابراهيم بن الحكم بن ابان حدثني ابي عن عكرمه عن ابي هريرة رضي الله عنه ان اعرابيا
جاء الى النبي يستعينه في شيء فاعطاه شيئا ثم قال احسنت اليك قال الاعرابي لا ولا اجملت قال
فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم ان كفوا ثم قام فدخل منزله ثم ارسل الى الاعرابي فدعاه
الى البيت يعني فاعطاه فرضي فقال انك جئتنا فسالتنا فاعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس المسلمين
شيء من ذلك فان احببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال
نعم فلما كان الغد او العشي جاء قال رسول الله ان صاحبكم هذا جاء فسالنا فاعطيناه فقال ما قال وانا
دعونه الى البيت فاعطيناه فزعم انه قد رضي اكدلك قال الاعرابي نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة
خيرا فقال النبي الا ان مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس
فلم يزيدها الا نفورا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها فتوجه لها صاحب
الناقة بين يديها فاخذ لها من قمام الارض فجاءت فاستناحت فشد عليها رحلها واستوى عليها واني
لو تركتكم حين قال ارجل ما قال فقتلتموه دخل النار ورواه ابو احمد العسكري بهذا الاسناد قال
جاء اعرابي الى النبي فقال يا محمد اعطني فانك لا تعطي من مالك ولا من مال ابيك فاغظ للنبي
فوثب اليه اصحابه فقالوا يا عدو الله تقول هذا لرسول الله وذكره فهذا يبين لك ان قتل ذلك الرجل
لاجل قوله ما قال كان جائزا قبل الاستتابة وانه صار كافرا بتلك الكلمة ولولا ذلك لما كان يدخل النار
اذا قتل على مجرد تلك الكلمة بل كان يدخل الجنة لانه مظلوم شهيد وكان قاتله يدخل النار لانه
قتل مؤمنا متعمدا ولكن النبي يبين ان قتله لم يحل لان سفك الدم بغير حق من اكبر الكبائر وهذا
الاعرابي كان مسلما ولهذا قال صاحبكم ولهذا جاءه الاعرابي يستعينه ولو كان كافرا محاربا له لما

جاء يستعينه في شئ ولو كان النبي اعطاه ليسلم لذكر في الحديث انه اسلم فلما لم يجر للاسلام ذكر دل على انه كان ممن دخل الاسلام وفيه جفاء الاعراب وممن دخل في قوله تعالى {فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} التوبة 58 ومما يوضح ذلك انه كان يعفو عن المنافقين الذين لا يشك في نفاقهم حتى قال لو اعلم اني لو زدت على السبعين غفر له لزدت حتى نهاه الله عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وامره بالاغلاظ عليهم فكثير مما كان يحتمله من المنافقين من الكلام وما يعاملهم من الصفح والعفو والاستغفار كان قبل نزول براءة لما قيل له {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ} الأحزاب 48 لاحتياجه اذ ذلك الى استعطافهم وخشية نفور العرب عنه اذا قتل احدا منهم وقد صرح لما قال ابن ابي {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} المنافقون 8 ولما قال ذو الخويصرة عدل فانك لم تعدل وعند غير هذه القضية انه انما لم يقتلهم لئلا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه فان الناس ينظرون الى ظاهر الامر فيرون واحدا من الصحابة قد قتل فيظن الظان انه يقتل بعض اصحابه على غرض او حقد او نحو ذلك فينفر الناس عن الدخول في الاسلام واذا كان من شريعته ان يتألف الناس على الاسلام بالاموال العظيمة ليقوم دين الله وتعلو كلمته فلان يتألفهم بالعفو اولى واحرى فلما انزل الله براءة ونهاه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم وامره ان يجاهد الكفار والمنافقين ويغلب عليهم نسخ جميع ما كان المنافقون يعاملون به من العفو كما نسخ ما كان الكفار يعاملون به من الكف عن سالم ولم يبق الا اقامة الحدود واعلاء كلمة الله في حق الانسان¹

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} الصافات 159 وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 434-441

والصالحين وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} آل عمران 134¹

الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن

وأما الإحسان فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة 112 وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} النساء 125 فذكر إحسان الدين أولاً ثم ذكر الإحسان ثانياً²

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} آل عمران 134 قال محبة وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم وهذه الآيات وأشباهاها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال³

"من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة وان زنا وان سرق"

قد حرم الله سبحانه وتعالى الفواحش ما ظهر منها وما بطن وان اتى هذه الفواحش معتقداً تحريمها فهو من المسلمين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابي ذر من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة وان زنا وان سرق فإن المسلم الذي يأتي بفاحشة اما ان يتوب الى الله ويستغفره فيدخل في قوله {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ لَأَسْفِرُوا عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} أُولَئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136} آل عمران 135 - 136 والمسلم اذا اتى الفاحشة لا يكفر وان كان كمال الايمان الواجب قد زال عنه كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن فأصل الايمان معه وهو قد يعود الى المعصية ولكنه يكون مؤمناً اذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر ان رجلاً كان يدعي حماراً وكان يشرب الخمر وكان كلما

¹العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 10

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

³النبوات ج: 1 ص: 76

اتي به الى النبي صلى الله عليه وسلم امر بجلده فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الاخر الصحيح وان زنا وان سرق وذلك ان معه اصل الاعتقاد ان الله حرم ذلك ومعه خشية عقاب الله ورجاء رحمة الله وايمانه بأن الله يغفر الذنب ويأخذ به فيغفر الله له به كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال اذنب عبد ذنبا فقال أي رب اني اذنبت ذنبا فاغفر لي فقال ربه علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم اذنب ذنبا اخر فقال أي رب اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال ربه علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم اذنب ذنبا آخر فقال أي رب قد اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء وكذلك في الصحاح من غير وجه حديث الذي لم يعمل خيرا قط وقال لأهله اذا انا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم ريح الحديث فقال الله له ما حملك على ما فعلت قال خشيتك يا رب فغفر الله له بتلك الخشية وكذلك من افضل اعمال المؤمن التوبة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للغامرية التي اقرت بالزنا حتى رجمها لقد ابت توبة لو تابها مكس لغفر له وهل وجدت توبة افضل من ان جادت بنفسها لله وحديث صلاة التوبة محفوظ في السنن عن علي عن ابي بكر الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله الا غفر له وقرأ هذه الآية {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ} آل عمران 135 وهذا باب واسع فان الذنوب التي يبئلى بها العباد يسقط عنهم وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن فأصل الايمان معه وهو قد يعود الى المعصية ولكنه يكون مؤمنا اذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر ان رجلا كان يدعي حمارا وكان يشرب الخمر وكان كلما اتي به الى النبي صلى الله عليه وسلم امر بجلده فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الاخر الصحيح وان زنا وان سرق وذلك ان معه اصل الاعتقاد ان الله حرم ذلك ومعه خشية عقاب الله ورجاء رحمة الله وايمانه بأن الله يغفر الذنب ويأخذ به فيغفر الله له به كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم الذنب كما يقوله الخوارج ولا انه يخرج من الايمان بالكلية كما يقوله المعتزلة لكن ينقص الايمان ويمنع كماله الواجب وان كانت المرجئة تزعم ان الايمان لا ينقص ايضا فمذهب اهل السنة المتبعون للسلف الصالح ان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فأما استحلال ما حرم الله ورسوله من الفواحش وغيرها فهو كفر وبمثلها اهلك الله قوم لوط الذين استحلوا الفاحشة وفعلوها معلنين بها مستحلين لها قال تعالى {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ

مَنْضُودٍ {82} مُسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ {83} هود 82-83 وقد روى عن قتادة من الظالمين من هذه الامة وقد روى انه يكون فيها خسف وقذف ومسح¹

رجل أذنب ذنبا يجب عليه حد من الحدود مثل جلد أو حصب ثم تاب من ذلك الذنب وأقلع واستغفر ونوى أن لا يعود فهل يجزئه ذلك أو يحتاج مع ذلك إلى أن يأتي إلى ولي الأمر ويعرفه بذنبه ليقيم عليه الحد أم لا وهل ستره على نفسه وتوبته أفضل أم لا ؟

فأجاب إذا تاب توبة صحيحة تاب الله عليه من غير حاجة إلى أن يقر بذنبه حتى يقام عليه الحد وفى الحديث من ابتلى بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فانه من يبد لنا صفحته تقم عليه كتاب الله وفى الأثر أيضا من أذنب سرا فليتب سرا ومن أذنب علانية فليتب علانية وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} آل عمران 135 الآية²

"كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"

فى قوله فى آخر الآية {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} النور 31 فوائد جليلة منها ان امره لجميع المؤمنين بالتوبة فى هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التى هى ترك غض البصر وحفظ الفرج وترك إبداء الزينة وما يتبع ذلك فمستقبل ومستكثر كما فى الحديث ما من أحد من بنى آدم إلا أخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا وذلك لا يكون إلا عن نظر وفى السنن عن النبى أنه قال كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون وفى الصحيح عن ابى ذر عن النبى يقول الله تعالى يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبالى فاستغفرونى أغفر لكم وفى الصحيحين عن ابن عباس قال ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة إن النبى قال إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق الحديث إلى آخره وفيه والنفس تنمى ذلك وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه أخرجه البخارى تعليقا من حديث طاووس عن أبى هريرة ورواه مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى قال كتب

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 180-186

² مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 180

على ابن آدم نصيبه من الزنا يدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الإستماع واللسان زناه الكلام واليدان زناهما البطش والرجلان زناهما الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه وقد روى الترمذى حديثاً واستغربه عن ابن عباس فى قوله {إِلَّا اللَّمَمَ} {النجم 32} قال رسول الله إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبدك لا ألما ومنها أن أهل الفواحش الذين لم يعضوا أبصارهم ولم يحفظوا فروجهم مأمورون بالتوبة وإنما أمروا بها لتقبل منهم فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين كما قال تعالى {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ} {التوبة 104} وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} {الشورى 25} وسواء كانت الفواحش مغلظة أشدتها وكثرتها كاتيان ذوات المحارم وعمل قوم لوط أو غير ذلك وسواء تاب الفاعل أو المفعول به فمن تاب تاب الله عليه بخلاف ما عليه طائفة من الناس فانهم اذا رأوا من عمل من هذه الفواحش شيئاً أيسوه من رحمة الله حتى يقول أحدهم من عمل من ذلك شيئاً لا يفلح أبداً ولا يرجون له قبول توبة ويروى عن علي أنه قال منا كذا ومنا كذا والمعفوج ليس منا ويقولون إن هذا لا يعود صالحاً ولو تاب مع كونه مسلماً مقراً بتحريم ما فعل ويدخلون فى ذلك من استكره على فعل شىء من هذه الفواحش ويقولون لو كان لهذا عند الله خير ما سلط عليه من فعل به مثل هذا واستكرهه كما يفعل بكثير من المماليك طوعاً وكرهاً وكما يفعل بأجراء أهل الصناعات طوعاً وكرهاً وكذلك من فى معنهم من صبيان الكناكيب وغيرهم ونسوا قوله تعالى {وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لْتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {النور 33} وهؤلاء قد لا يعلمون صورة التوبة وقد يكون هذا حالاً وعملاً لأحدهم وقد يكون اعتقاداً فهذا من أعظم الضلال والغي فان القنوط من رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى وحالهم مقابل لحال مستحلى الفواحش فان هذا أمن مكر الله بأهلها وذاك قنط أهلها من رحمة الله والفقير كل الفقير هو الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله وهذا فى أصل الذنوب الارادية نظير ما عليه أهل الأهواء والبدع فإن أحدهم يعتقد تلك السيئات حسناً فيأمن مكر الله وكثير من الناس يعتقد أن توبة المبتدع لا تقبل وقد قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَعْفُرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} {الزمر 53} وفى الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال كان رسول الله يسمى لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد وأنا أحمد والمقفي والحاشر ونبي الملحمة ونبي الرحمة وفى حديث آخر أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة وذلك أنه بعث بالمحمة وهى المقتلة لمن عصاه وبالتوبة لمن أطاعه وبالرحمة لمن صدقه واتبعه وهو رحمة للعالمين وكان من قبله من الأنبياء لا يؤمر بقتال وكان الواحد من أممهم إذا أصاب بعض الذنوب يحتاج مع التوبة إلى عقوبات شديدة كما قال تعالى {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} {البقرة 54} وقد روى عن أبى العالية وغيره أن أحدهم كان إذا أصاب ذنباً اصبحت الخطيئة والكفارة مكتوبة على بابه فأنزل الله فى حق هذه الأمة {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} {آل

عمران 135 إلى قوله {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} آل عمران 136 فخص الفاحشة بالذكر مع قوله {أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} آل عمران 135 والظلم يتناول الفاحشة وغيرها تحقيقا لما ذكرناه من قبول التوبة من الفواحش مطلقا من اللذين يأتيانها من الرجال والنساء جميعا وفي الصحيح عن النبي قال أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وفي الصحيح عنه انه قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه وفي السنن عنه أيضا أنه قال لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها وعنه قال قال الشيطان وعزتكم يا رب لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الرب تعالى وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزل أغفر لهم ما استغفروني وعن أبي ذر قال قال رسول الله يقول الله يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا ابالي ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا ابالي ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطيئة ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لا تبتك بقرابها مغفرة والذي يمنع توبة أحد هؤلاء أما بحاله وأما بقاله ولا يخلو من احد امرين أن يقول إذا تاب أحدهم لم تقبل توبته وأما أن يقول أحدهم لا يتوب الله على أبدا أما الاول فباطل بكتاب الله وسنة نبيه واجماع المسلمين وإن كان قد تكلم بعض العلماء فى توبة القاتل وتوبة الداعى إلى البدع وفي نزاع فى مذهب أحمد وفي مذهب مالك أيضا نزاع ذكره صاحب التمثيل والبيان فى الجامع وغيره وتكلموا أيضا فى توبة الزنديق ونحو ذلك فهم قد يتنازعون فى كون التوبة فى الظاهر تدفع العقوبة إما لعدم العلم بصحتها وإما لكونها لا تمنع ما وجب من الحد ولم يقل أحد من الفقهاء إن الزنديق ونحوه اذا تاب فيما بينه وبين الله توبة صحيحة لم يتقبلها الله منه وأما القاتل والمكضل فذاك لاجل تعلق حق الغير به والتوبة من حقوق العباد لها حال آخر وليس هذا موضع الكلام فيها وفى تفصيلها وإنما الغرض إن الله يقبل التوبة من كل ذنب كما دل عليه الكتاب والسنة والفواحش خصوصا ما علمت أحدا نازع فى التوبة منها والزانى والمزنى به مشسركان فى ذلك أن تابا تاب الله عليهما ويبين التوبة خصوصا من عمل قوم لوط من الجانبين ما ذكره الله فى قصة قوم لوط فإنهم كانوا يفعلون الفاحشة بعضهم ببعض ومع هذا فقد دعاهم جميعهم إلى تقوى الله والتوبة منها فلو كانت توبة المفعول به أو غيره لا تقبل لم يأمرهم بما لا يقبل قال تعالى {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} {160} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} {161} الشعراء 160- 161 {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} {160} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} {161} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} {162} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} {163} الشعراء 160-163 فأمرهم بتقوى الله المتضمنة لتوبتهم من هذه الفاحشة والخطاب وإن كان للفاعل فإنه إنما يخص به لأنه صاحب الشهوة والطلب فى العادة بخلاف المفعول

به فإنه لم تخلق فيه شهوة لذلك فى الأصل وإن كانت قد تعرض له لمرض طارىء أو أجر يأخذه من الفاعل أو لغرض آخر والله سبحانه وتعالى اعلم¹

{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}

توبة الانسان من حسناته على أوجه احدهما أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها و الثانى أن يتوب مما كان يظنه حسنات ولم يكن كحال أهل البدع و الثالث يتوب من اعجابه ورؤيته أنه فعلها وانها حصلت بقوته وينسى فضل الله واحسانه وانه هو المنعم بها وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور ولهذا قيل تخلص الأعمال مما يفسدها اشد على العالمين من طول الاجتهاد وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائماً ولهذا قيل هى مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره ولا بد منه لجميع الخلق فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وان يستديموا التوبة قال تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} {72} {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} {73} الاحزاب 72-73 فغاية كل مؤمن التوبة وقد قال الله لأفضل الأنبياء وأفضل الخلق بعد الأنبياء وهم السابقون الأولون {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} {التوبة} 117 ومن اواخر ما انزل الله قوله {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} {1} {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} {2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} {3} {النصر} 1-3 وقد ثبت فى الصحيحين انه كان يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن وفى لفظ لمسلم عن عائشة قالت كان رسول الله يكثر أن يقول قبل أن يموت سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك قالت فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قولك سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك فقال أخبرنى ربي أنى سأرى علامة فى أمتى فاذا رأيتها أكثرت من قول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك فقد رأيتها {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} {1} {النصر} فتح مكة {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} {2} {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} {3} {النصر} 2-3 وأمره سبحانه له بالتسبيح بحمده والاستغفار فى هذه الحال لا يقتضى انه لا يشرع فى غيرها أو لا يؤمر به غيره بل يقتضى أن هذا سبب لما أمر به وان كان مأمورا به فى مواضع أخر كما يؤمر الانسان بالحمد والشكر على نعمه وإن كان مأمورا بالشكر عليها وكما يؤمر بالتوبة من ذنب وان كان مأمورا بالتوبة من غيره لكن هو أمر أن يختم عمله بهذا فغيره أحوج إلى هذا منه وقد يحتاج العبد إلى هذا فى غير هذه الحال كما يحتاج إلى التوبة فهو محتاج إلى التوبة والاستغفار مطلقا كما ثبت فى الصحيح أن

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 403-409

النبى كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثا قال تعالى {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} آل عمران 17 قاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون وقد ختم الله سورة المزمل وفيها قيام الليل بقوله {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} الزمل 20 كما ختم بذلك سورة المدثر قال تعالى {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} المدثر 56 فهو سبحانه أهل التقوى ولم يقل سبحانه أهل للتقوى بل قال {أَهْلُ التَّقْوَى} المدثر 56 فهو وحده أهل ان يتقى فيعبد دون ما سواه ولا يستحق غيره أن يتقى كما قال {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} النحل 52 وقال {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} النور 52 وهو أهل المغفرة ولا يغفر الذنوب غيره كما قال تعالى {وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 135 وفى غير حديث يقول النبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فهو سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار فى غير موضع كقوله سبحانه {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد 19 فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الاسلام من توحيد الله وعبادته وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد كما تقدم والرسول يستغفر من ترك مما كان تاركه كما قال فيه {مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} الشورى 52 وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب والمؤمن إذا تبين له أنه ضيع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك وتاب وكذلك إذا تبين له أن بعض ما يفعله هو مذموم¹

ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

و أيضا فمما يستغفر ويتاب منه ما فى النفس من الأمور التى لو قالها أو فعلها عذب قال تعالى {وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 284 فهو يغفر لمن يرجع عما فى نفسه فلم يتكلم به ولم يعمل كالذى هم بالسيئة ولم يعملها وإن تركها الله كتبت له حسنة وهذا مما يستغفر منه ويتوب فان الاستغفار والتوبة من كل ما كان سببا للذم والعقاب وإن كان لم يحصل العقاب ولا الذم فانه يفضى إليه فيتوب من ذلك أى يرجع عنه حتى لا يفضى إلى شر فيستغفر الله منه أى يطلب منه أن يغفر له فلا يشقيه به فانه وإن لم يعاقب عليه فقد ينقص به فالذى يهيم بالسيئات وإن كان لا يكتب عليه سيئة لكن اشتغل بها عما كان ينفعه فينقص بها عن لم يفعلها واشتغل بما ينفعه عنها وقد بسطنا فى غير هذا الموضوع أن فعل الانسان وقوله إما له وإما عليه لا يخلو من هذا أو هذا فهو يستغفر الله ويتوب مما عليه وقد يظن ظنون سوء باطلة وإن لم يتكلم بها فاذا تبين له فيها استغفر الله وتاب وظلمه لنفسه يكون بترك واجب كما يكون بفعل محرم فقوله تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ} النساء 110

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 688-690

من عطف العام على الخاص وكذلك قوله **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّاهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** آل عمران 135 وقد قيل في قوله تعالى **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}** آل عمران 135 قيل الفاحشة الزنا وقيل كل كبيرة وظلم النفس المذكور معها قيل هو فاحشة أيضا وقيل هي الصغائر وهذا يوافق قول من قال الفاحشة هي الكبيرة فيكون الكلام قد تناول الكبيرة والصغيرة ومن قال الفاحشة الزنا يقول ظلم النفس يدخل فيه سائر المحرمات وقيل الفاحشة الزنا وظلم النفس ما دونه من اللبس والقبلة والمعانقة وقيل هذا هو الفاحشة وظلم النفس المعاصي وقيل الفاحشة فعل وظلم النفس قول والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفي الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي فقال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي كان يقول في استفتاحه اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت وقد قال أبو البشر وزوجته **{قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** الأعراف 23 وقال موسى **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي}** القصص 16 وقال ذوالنون يونس **{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** الأنبياء 87 وقالت بلقيس **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** النمل 44 وفي الصحيحين عن إبي هريرة رضى الله عنه عن النبي وقد قال عن أهل القرى المعذيين **{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}** هود 101¹

{تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}

و المراد الاستغفار بالقلب مع اللسان فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له كما في الحديث الآخر لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار فإذا أصر على الصغيرة صارت كبيرة وإذا تاب منها غفرت قال تعالى **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}** آل عمران 135 الآية وإذا تاب توبة صحيحة غفرت ذنوبه فان عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضا وإذا تاب قبل الله توبته أيضا وقد تنازع العلماء في التائب من الكفر إذا ارتد بعد إسلامه ثم تاب بعد الردة واسلم هل يعود عمله الأول على قولين مبناهما أن الردة هل تحبط العمل مطلقا أو تحبطه بشرط الموت عليها فمذهب أبي حنيفة ومالك أنها تحبطه مطلقا ومذهب الشافعي أنها تحبطه بشرط الموت عليها والردة ضد التوبة وليس من السيئات ما يمحو جميع الحسنات إلا

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 691-693

الردة وقد قال تعالى {تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً} {التحرير} 8 قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه توبة نصوحا أن يتوب ثم لا يعود فهذه التوبة الواجبة التامة ومن تاب من شرب الخمر ولبس الحرير فإنه يلبس ذلك فى الآخرة كما جاء فى الحديث الصحيح من شرب الخمر ثم لم يتب منها حرمها وقد ذهب بعض الناس كـبعض أصحاب أحمد إلى أنه لا يشربها مطلقا وقد أخطئوا الصواب الذى عليه جمهور المسلمين¹

خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب

خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} {غافر} 55 وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {22} {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} {الحديد} 22-23 وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} {التغابن} 11 قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم قال تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {آل عمران} 135 وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه السلام انه لما فعل من فعل قال {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} {الأعراف} 23 وعن ابلis انه قال {بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُرِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ} {الحجر} 39 فمن تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابلis²

الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله لا تطلب إلا منه

فلا يدعى إلا الله وأن الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله لا تطلب إلا منه مثل غفران الذنوب وهداية القلوب وإنزال المطر وإنبات النبات ونحو ذلك كما قال الله تعالى {وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} {آل عمران} 135 فالمعاني الثابتة بالكتاب والسنة يجب إثباتها والمعاني المنفية بالكتاب والسنة يجب نفيها والعبارة الدالة على المعاني نفيًا وإثباتًا إن وجدت فى كلام الله ورسوله يجب إقرارها وإن وجدت فى كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه والا رجع فيه اليه³

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 699-700

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 107-108

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 110

الظلم ثلاثة أنواع

الظلم ثلاثة أنواع فالظلم الذى هو شرك لا شفاعه فيه وظلم الناس بعضهم بعضا لا بد فيه من اعطاء المظلوم حقه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة فالظالم المطلق ما له من شفيح مطاع وأما الموحد فلم يكن ظالما مطلقا بل هو موحد مع ظلمه لنفسه وهذا انما نفعه فى الحقيقة اخلاصه لله فيه صار من أهل الشفاعه وأما الظلم المقيد فقد يختص بظلم الانسان نفسه وظلم الناس بعضهم بعضا كقول آدم عليه السلام وحواء {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} الأعراف 23 وقول موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي} القصص 16 وقوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِرَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} آل عمران 135 لكن قول آدم وموسى إخبار عن واقع لا عموم فيه وذلك قد عرف والله الحمد أنه ليس كفرا واما قوله {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِرَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} آل عمران 135 فهو نكرة فى سياق الشرط يعم كل ما فيه ظلم الانسان نفسه وهو اذا أشرك ثم تاب تاب الله عليه وقد تقدم ان ظلم الانسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الاطلاق وقال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} فاطر 32 فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره فلا يدخل فيه الشرك الأكبر وفى الصحيحين عن ابن مسعود أنه لما أنزلت هذه الآية {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} الأنعام 82 شق ذلك على أصحاب النبي وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال النبي انما هو الشرك ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح {إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} لقمان 13 والذين شق ذلك عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه وأنه لا يكون الأمن والاهتداء الا لمن يظلم نفسه فشق ذلك عليهم فبين النبي لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله تعالى وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء الا لمن لم يلبس ايمانه بهذا الظلم ومن لم يلبس ايمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} فاطر 32 الى قوله {جَنَاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} 33} فاطر 33 وهذا لا ينفى أن يؤخذ أحدهم بظلم نفسه اذا لم يتب كما قال تعالى {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} 7} {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 8} الزلزلة 7-8 وقال تعالى {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} النساء 123 وقد سأل أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر أأنت تنصب أأنت تحزن أأنت تصيبك اللأواء فذلك ما تجزون به فبين أن المؤمن الذى اذا تاب دخل الجنة قد يجزى بسينئاته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة وفى الصحيحين عنه أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياها وفى حديث سعد بن أبى وقاص قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى

الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه وان كان فى دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة رواه أحمد والترمذى وغيرهما وقال المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها والأحاديث فى هذا الباب كثيرة فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام والاهتداء التام ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقا بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخرى وقد هداه الى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه الى الجنة ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من ايمانه بظلمه نفسه وليس مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله انما هو الشرك ان من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الامن التام ولا الاهتداء التام الذى يكونون به مهتدين الى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة وقول النبى صلى الله عليه وسلم انما هو الشرك ان أراد به الشرك الأكبر فمقصوده ان من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد الى ذلك وان كان مراده جنس الشرك فيقال ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر وحب ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار¹

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ }

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور كما قال تعالى فى قصة يوسف {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لا بد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبى فى الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى ربكم فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطيئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 81-79

وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبه أباه ومن أشبه أباه فما ظلم ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والإستغفار فى غير آية كما قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد¹19

لطائف لغوية

1- {وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} **ال عمران 130** أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به ايجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العبادتحریم الربا الذي هو ضد الصدقة²

2- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته وكذا اسم التقوى إذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما فى قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ {55} القمر 54- 55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ {3} الطلاق 2- 3} وقوله {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ} يوسف 90 وقوله {وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ} النساء³1

3- أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للأمر مقصودا له كما فى قوله {وَأَتَّقُوا اللَّهَ} البقرة 282 وفي قوله {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} البقرة 195 وفي قوله {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} الحديد 7 وفي قوله {اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} المائدة 72 وفي قوله {فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا} يونس 84 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 121

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 90

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

⁴اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

4- ظلم النفس فانه اذا اطلق تناول جميع الذنوب فانها ظلم العبد نفسه قال آدم عليه السلام
{قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الأعراف 23 ثم قد يقرن
ببعض الذنوب كقوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} آل عمران 135¹

5- قال تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 135 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الذنوب
اذا اطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ
أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} الزمر 53 ثم قد يقرن بغيره كما في
قوله {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} آل عمران 147²

6- إنه من باب عطف الخاص على العام الذي يخص بالذكر لامتيازه وتخصيصه يقتضي ذلك
ومثل هذا يقال إنه داخل في العام ثم ذكر بخصوصه ويقال بل ذكره خاصا يمنع دخوله في العام وهذا
يجيء في العطف بأو وأما بالواو فمثل قوله تعالى {وَمَلَأْنِيكَ بِهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة 98
وأما في أو ففي مثل قوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ} آل عمران 135 وقوله {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا} النساء 110 وقوله {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا
النساء 112³

7- قوله تعالى {وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} آل عمران 136 فيقال النهر كالقرية
والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان في مثل قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
{يوسف 82 وتارة في المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به
المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 62

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 387-388

⁴مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ} {137} هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} {138} وَلَا تَهْنُوا وَلَا
 تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {139} إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ
 قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
 شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {140} وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ
 الْكَافِرِينَ} {141} أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
 وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} {142} وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ
 وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} {143} وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ
 قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي
 اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} {144} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ
 ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي
 الشَّاكِرِينَ} {145} وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {146} وَمَا كَانَ
 قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
 وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {148} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ
 عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} {149} بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} {150}
 سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا
 وَمَا وَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ} {151} وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ
 بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ
 مِنْكُمْ مِمَّنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مِمَّنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا
 عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} {152} إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ
 وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمْتُمْ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا
 أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {153} ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا
 يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
 الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي
 أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ

كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {154} إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {155} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {156} وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ {157} وَلَئِن مُتْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ {158}

سنة الله وعادته

وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 13 وإنما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الاصابع هن سواء واعتبروها بدية الاسنان فإذا عرفت قصص الانبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة ولمكذبيهم الهلاك واليوار جعل الامر في المستقبل مثلما كان في الماضي فعلم أن من صدقهم كان سعيدا ومن كذبهم كان شقيا وهذه سنة الله وعادته ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته وأنه لا ينقضها ولا يبطلها قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ } {10} كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } {11} آل عمران 10-11 قال ابن قتيبة وغيره الدأب العادة ومعناه كعادة آل فرعون يريد كفر اليهود كل فريق بنبيهم وقال الزجاج هو الاجتهاد أي دأب هؤلاء وهو اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي كتظاهر آل فرعون على موسى وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة كسنة آل فرعون وقال النضر بن شميل كعادة آل فرعون يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون وقال طائفة نظم الآية أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النعمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الامم الخالية أخذناهم مثل آل فرعون وكفار الامم الخالية أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم وفي تفسير أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس كدأب فرعون قال كصنيع آل فرعون قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد والضحاك وأبي مالك وعكرمة نحو ذلك قال وروى عن الربيع بن أنس كشيبة آل فرعون وعن السدي قال نكر الذين كفروا كمثل الذين من قبلهم في التكذيب والجحود قلت فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل فإن لفظ الدأب يدل عليه قال الجوهري دأب فلان في عمله أي جد وتعب دأبا ودعوبا فهو دئب وأدأبته أنا والدائبان الليل والنهار قال والدأب يعني بالتسكين العادة والشأن وقد يحرك قال الفراء أصله من دأبت إلا أن العرب حولت معناه إلى الشأن قلت الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب الذي هو الاجتهاد والصواب ما قاله الجمهور أن الدأب بالتسكين هو العادة وهو غير الدأب بالتحريك إذا زاد اللفظ زاد المعنى والذي في القرآن مسكن ما علمنا أحدا قرأه

بالتحريك وهذا معروف في اللغة يقال فلان دأبه كذا وكذا أي هذا عادته وعمله الملازم له وإن لم يكن في ذلك تعب واجتهاد ومنه قوله تعالى {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ} إبراهيم 33 والدائب نظير الدائم والباء والميم متقاربان ومنه اللازب واللازم قال ابن عطية دائبين أي متماديين ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه ان هذا الجمل شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه أي تديمه في العمل له والخدمة قال وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثرة قال وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفعه الى ابن عباس أنه قال معناه دائبين في طاعة الله قال وهذا قول ان كان يراد به أن الطاعة انقيادهما للتسخير فذلك موجود في طاعة قوله وسخر وإن كان يراد أنها طاعة مقدورة كطاعة العبادة من البشر فهذا بعيد قلت ليس هذا بعيد بل عليه دلت الأدلة الكثيرة كما هو مذكور في مواضع وقالت طائفة منهم البغوي وهذا لفظه دائبين يجريان فيما يعود الى مصالح عباد الله لا يفتران قال ابن عباس دعوبهما في طاعة الله ولفظ أبي الفرج داعبين في اصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتران قال ومعنى الدعوب مرور الشيء على عادة جارية فيه قلت واذا كان دأبهم هو عادتهم وعملهم الذي كانوا مصرين عليه فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل فيشبهونهم في الجزاء فيحقيق بهم ما حاق بأولئك هذا هو المقصود ليس المقصود التشبيه في الجزاء كقوله { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ } {10} كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } {11} آل عمران 10-11 أي هؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله اذا جاءهم كذاب آل فرعون فهذا كله يقتضي التشبيه في العذاب وأما الطائفة الأخرى فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم وعقوبته لهم قال مكي بن أبي طالب الكاف في كذاب في موضع نصب نعت لمحذوف تقديره غيرناهم كما غيروا تغييرا مثل عادتنا في آل فرعون ومثلها الآية الأولى الا أن الأولى العادة في العذاب تقديره فعلنا بهم ذلك فعلا مثل عادتنا في آل فرعون وقد جمع بعضهم بين المعنيين فقال أبو الفرج كذاب آل فرعون أي كعادتهم والمعنى كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك قلت الدأب العادة وهو مصدر يضاف الى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى فاذا أضيف الى الفاعل كان المعنى كفعل آل فرعون وإذا أضيف إلى المفعول كان المعنى كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم يقال هذه عادة هؤلاء لما فعلوه ولما يصيبهم وهي عادة الرب وسنته فيهم والتحقيق أن اللفظ يتناول الأمرين جميعا وقد تقدم عن الفراء والجوهري أن الدأب العادة والشأن وهذا كقوله {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} آل عمران 137 روى ابن أبي حاتم بالاسناد المعروف عن مجاهد قد خلت من قبلكم سنن من الكفار والمؤمنين في الخير والشر وعن أبي اسحاق أي قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين فرأوا مثلات قد مضت مني فيهم فقد فسرت السنن بأعمالهم وجزائهم قال البغوي معنى الآية قد مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم من الامم الماضية الكافرة بامهالي واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لاهلاكهم وأدالة أنبيائي فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين أي آخرة المكذبين منهم قال وهذا في حزب واحد يقول فانا أمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلت من نصرة النبي وأوليائه¹

¹النبوات ج: 1 ص: 265-268

تعريف عقوبة الظالمين بالعيان

قال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} آل عمران 137 فإنه قال بعدها {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} آل عمران 137 فإنه أراد تعريف عقوبة الظالمين بالعيان

فإنه أراد تعريف عقوبة الظالمين بالعيان¹

قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسول وما صارت اليه عاقبتهم وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة وكذلك مسخ من مسخ قرده وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذه بأنواع العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسول واعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاءوا به واتبع غير سبيلهم ولهذا أبقى الله سبحانه آثار المكذبين لنعبر بها ونتعظ لئلا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم كما قال تعالى {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} {34} وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {35} العنكبوت 34- 35 وقال تعالى {ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ} {136} وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ} {137} وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {138} الصافات 136-138 أي تمرّون عليهم نهاراً بالصباح وبالليل ثم قال {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} الصافات 138 وقال تعالى في مدائن قوم لوط {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} {74} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُنْتَوِسِّمِينَ} {75} وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ} {76} الحجر 74-76 يعني مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} يوسف 109 وهذا كثير في الكتاب العزيز يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة اتباع المرسلين ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم ثم يختم القصة بقوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ} {190} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} {191} الشعراء 190-191 فختم القصة باسمين من اسمائه تقتضيها تلك الصفة وهو العزيز الرحيم فانتم من أعدائه بعزته وانجى رسله واتباعهم برحمته²

وقال تعالى {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} {النور 34} وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية التي يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلية كما قال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 فمن كان من أهل الايمان قيس بهم وعلم أن الله يسعده في الدنيا والآخرة ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعلم أن الله يشقيه في الدنيا والآخرة كما قال في حق هؤلاء {أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} القمر 43 وقد قال {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} آل عمران 137 وقال في حق المؤمنين {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} النور 55 وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 573 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 21

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 97-98

تتحول في غير موضع و السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الاول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال { فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } الحشر 2 وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} آل عمران 137¹ ومن هذا سنة الله في الفرق بين الانبياء واتباعهم وبين مكذبهم قال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} آل عمران 137 فان هذه العجائب والآيات التي للانبياء تارة تعلم بمجرد الاخبار المتواترة وان لم نشاهد شيئا من آثارها وتارة تشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث²

من اتبع الرسول كان مهديا منصورا

ومن اتبع ما بعث الله به رسوله كان مهديا منصورا بنصرة الله في الدنيا والآخرة كما قال تعالى {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر 51 وقال تعالى {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {171} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {172} {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} {173} الصافات 171-173 واذا اصاب العبد مصيبة كانت بذنبه لا باتباعه للرسول بل باتباعه للرسول صلى الله عليه وسلم يرحم وينصر وبنوبه يعذب ويخذل قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} الشورى 30 ولهذا لما انهزم المسلمون يوم احد وكانوا مع النبي واستظهر عليهم العدو بين الله لهم أن ذلك بذنوبهم قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} آل عمران 155 وقال تعالى {أَوَلَمْ آصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} آل عمران 165 وبين سبحانه حكمة ابتلائهم فقال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} {137} {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} {138} {وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ} {139} {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {140} {وَلِيَمْحَسَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} {141} آل عمران 137-141 وقال تعالى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ} النساء 79 والله قدرها وقدر كل شيء لكن ما أصاب العبد من عافية ونصر ورزق فهو من انعام الله عليه واحسانه اليه فالخير كله من الله وليس للعبد من نفسه شيء بل هو فقير لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 17-20

²النبوات ج: 1 ص: 120

ولاحياة ولا نشورا وما اصابه من مصيبة فبذنبه والله تعالى يكفر ذنوب المؤمنين بتلك المصائب ويؤجرهم على الصبر عليها ويغفر لمن استغفر ويتوب على من تاب قال النبي ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياها ولما انزل الله تعالى قوله { مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } النساء 123 قال ابو بكر يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر وانا لم يعمل سوءا قال با ابا بكر الست تنصب الست تحزن الست تصيبك اللاء فذلك ما تجزون به وقد قص الله علينا في القرآن اخبار الانبياء وما اصابهم وما اصاب اتباعهم المؤمنين من الاذى في الله ثم انه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم وقص علينا ذلك لنعتر به قال تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111¹

فانه قد عرف من سنة الله في عباده وإكرامه لأهل الخير وإهانته لأهل الشر ما فيه عبرة لأولى الأبصار فإن الناس قد عرفوا بالآثار الموجودة المعاينة في الأرض والأخبار المتواترة عاقبة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأتباعهم وعاقبة من كذب هؤلاء وعلموا إكرام الله لهؤلاء ونصره لهم وعقوبته لهؤلاء وإهانته لهم وعلموا أيضا عاقبة أهل العدل والإحسان من الولاة والرعايا وعاقبة أهل الظلم والشر من هؤلاء وهؤلاء وهذا أمر موجود في جميع الأمم عربهم وعجمهم على اختلاف أصناف العجم من الفرس والروم والترك والهند والحبشة والبربر وغيرهم وقد قال تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } عمران 137²

السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى

والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدوقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى قال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران 138³

الطريق الشرعي

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 375

²الصفدية ج: 1 ص: 227

³الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 26 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 243

والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي فالطريق الشرعي هو النظر فيما جاء به الرسول والإستدلال بأدلته والعمل بموجبها فلا بد من علم بما جاء به وعمل به لا يكفي أحدهما وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية فإن الرسول بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه والرسول بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها كما ضرب الله في القرآن من كل مثل وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته وأما الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي فإن هذا فيه باطل كثير وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة والثاني طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة بل مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول وكثير ما يقع من هؤلاء وهؤلاء وتقدح كل طائفة في الأخرى وينتحل كل منهم اتباع الرسول والرسول ليس ما جاء به موافقا لما قال هؤلاء ولا هؤلاء { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } آل عمران 67 وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة وكثير من أهل النظر يزعمون أنه بمجرد النظر يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريق الرياضة بمجرد حصول المعارف بلا تعلم ولا نظر ولا تدبر للقرآن والحديث

وكلا الفريقين غالط بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم إن لم يعرف ذلك من جهته وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلا بالتعلم من جهته ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلا مع العمل به وإلا فقد قال الله تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } الصف 5 وقال { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } { 109 } وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ { 110 } الأنعام 109-110 وقال { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران 138¹

" تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في

الآخرة "

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى { قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 428-430

يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا
 وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} طه 123-126 قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه
 أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى {الم {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا
 رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {2} البقرة 1-2 وقال { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل
 عمران 138 وقال { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } {201}
 وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ } {202} وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أُنْتَبِخُ مَا
 يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {203} الاعراف 201-203
 وقال تعالى { وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا }
 {الإسراء 82} ¹

سماع فقه و قبول

أصل السماع الذي أمر الله به هو سماع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم سماع فقه و قبول و لهذا إنقسم الناس فيه أربعة أصناف صنف معرض ممتنع عن سماعه و صنف سمع الصوت و لم يفقه المعنى و صنف فقهه و لكنه لم يقبله و الرابع الذي سمعه سماع فقه و قبول و الصنف الرابع الذين سمعوا سماع فقه و قبول فهذا هو السماع المأمور به كما قال تعالى { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } {المائدة 83} و قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {الأنفال 2} و قال تعالى { وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } {الإسراء 82} و كذلك قوله { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى } {فصلت 44} و مثله قوله { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } {آل عمران 138} فالبيان يعم كل من فقهه و الهدى و الموعظة للمتقين و قوله { هَذَا بَصَائِرٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } {الجاثية 20} و قوله {الم {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {البقرة 1-2} و هنا لطيفة تزيل إشكالا يفهم هنا و هو أنه ليس من شرط هذا المتقى المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن فإن هذا أولا ممتنع إذ لا يكون مؤمنا متقيا من لم يسمع شيئا من القرآن و ثانيا أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط لا يجب أن يتقدمه تقدما زمانيا كاستقبال القبلة في الصلاة و ثالثا أن المقصود أن يبين شيئا أحدهما أن الإنتفاع به بالإهداء و الإعطاء و الرحمة هو و إن كان موجبا له لكن لا بد مع الفاعل من القابل إذ الكلام لا يؤثر فيمن لا يكون قابلا له و إن كان من شأنه أن يهدى و يعط و يرحم و هذا حال كل كلام الثانى أن يبين أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون و يستدل بعدم الإهداء به على عدم الإيمان و التقوى كما يقال المتعلمون لكتاب بقراط هم الأطباء و إن لم يكونوا أطباء قبل تعلمه بل بتعلمه و كما

¹ مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 80

يقال كتاب سيبويه كتاب عظيم المنفعة للنحاة و إن كانوا إنما صاروا نحاة بتعلمه و كما يقال هذا مكان موافق للرماء و الركاب¹

طريق أهل الهدى و السنة

أن معرفة ما جاء به الرسول و ما أراده بألفاظ القرآن و الحديث هو أصل العلم و الإيمان و السعادة و النجاة ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول و المعاني المخالفة لها و الألفاظ نوعان نوع يوجد في كلام الله و رسوله و نوع لا يوجد في كلام الله و رسوله فيعرف معنى الأول و يجعل ذلك المعنى هو الأصل و يعرف ما يعنيه الناس بالثاني و يرد إلى الأول هذا طريق أهل الهدى و السنة و طريق أهل الضلال و البدع بالعكس يجعلون الألفاظ التي أحدثوها و معانيها هي الأصل و يجعلون ما قاله الله و رسوله تبعاً لهم فيردونها بالتأويل و التحريف إلى معانيهم و يقولون نحن نفسر القرآن بالعقل و اللغة يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم و رأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات و التفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه و لهذا قال الإمام أحمد أكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل و القياس و قال يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل و القياس و هذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار و الصغار فهي طريق الجهمية و المعتزلة و من دخل في التأويل من الفلاسفة و الباطنية الملاحدة و أما حذاق الفلاسفة فيقولون ان المراد بخطاب الرسول صلى الله عليه و سلم إنما هو أن يخيل إلى الجمهور ما ينتفعون به في مصالح دنياهم و ان لم يكن ذلك مطابقاً للحق قالوا و ليس مقصود الرسول صلى الله عليه و سلم بيان الحق و تعريفه بل مقصوده أن يخيل إليهم ما يعتقدونه و يجعلون خاصة النبوة قوة التخيل فهم يقولون أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يبين و لم يفهم بل و لم يقصد ذلك و هم منتازعون هل كان يعلم الأمور على ما هي عليه على قولين منهم من قال كان يعلمها لكن ما كان يمكنه بيانها و هؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف و منهم من يقول بل ما كان يعرفها أو ما كان حاذقاً في معرفتها و انما كان يعرف الأمور العملية و هؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبي صلى الله عليه و سلم لأن الأمور العملية أكمل من العلمية فهؤلاء يجعلون خبر الله و خبر الرسول صلى الله عليه و سلم إنما فيه التخيل و أولئك يقولون لم يقصد به التخيل و لكن قصد معنى يعرف بالتأويل و كثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق في باب التوحيد فخاطب الجمهور بما يخيل لهم كما يقولون إنه لو قال إن ربكم ليس بداخل العالم و لا خارجه و لا يشار إليه و لا هو فوق العالم و لا كذا و لا كذا لنفرت قلوبهم عنه و قالوا هذا لا يعرف قالوا فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم ربا يعبدونه و ان كان يعرف أن التجسيم باطل و هذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح و إحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم من الإثبات كما يوجد في كلام غير واحد و تارة يقولون إنما عدل الرسول صلى الله عليه و سلم عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 14-15

غير تعريفه و يجتهدوا فى تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك و هم إجتهادهم فى عقلياتهم و تأويلاتهم و لا يقولون إنه قصد به إفهام العامة الباطل كما يقول أولئك المتفلسفة و هذا قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية و المعتزلة و من سلك مسلكهم حتى ابن عقيل و أمثاله و أبو حامد و ابن رشد الحفيد و أمثالهما يوجد فى كلامهم المعنى الأول و أبو حامد إنما ذم التأويل فى آخر عمره و صنف الجاهل العوام عن علم الكلام محافظة على هذا الأصل لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإبقاء الظواهر على ما هي عليه و إن كان هو يرى ما ذكره فى كتبه المضمون بها أن النفي هو الثابت فى نفس الأمر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان و الهدي كما و صف الله به كتابه و نبيه حيث قال { هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 و قال { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ } آل عمران 138 و قال { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 و قال { وَمَا عَلَي الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } العنكبوت 18 و قال { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } إبراهيم 1 و أمثال ذلك و قال النبي صلى الله عليه و سلم تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك و قال تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 و قال { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } 15 { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } 16 { المائدة 15-16 و قال { مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الشورى 52 و قال { فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الأعراف 157¹

المقصود ببيان الكلام

ان الله علم الانسان البيان كما قال تعالى { الرَّحْمَنُ } 1 { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } 2 { خَلَقَ الْإِنْسَانَ } 3 { عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } 4 { الرحمن 1-4 و قال تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } البقرة 31 و قال { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } العلق 5 و البيان بيان القلب و اللسان كما أن العمى والبكم يكون فى القلب و اللسان كما قال تعالى { صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } البقرة 18 و قال { صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } البقرة 171 و قال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال و فى الاثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب و كان مسعود يقول إنكم فى زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه و سيايى عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه و تبين الأشياء للقلب ضد اشتباههم عليه كما قال الحلال بين و الحرام بين و بينهما أمور مشتهيات الحديث و قد قرىء قوله { وَكَذَٰلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ } وَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } الأنعام 55 بالرفع و النصب أى و لتبين أنت سبيلهم فالانسان يستبين الأشياء و هم يقولون قد بان الشيء و بينته و تبين الشيء و تبينته و استبان الشيء و استبينته كل هذا يستعمل لازما و متعديا و منه قوله تعالى { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا } الحجرات 6 هو هنا معتد و منه قوله { بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ } النساء 19 أى متبينة فهنا هو لازم و البيان كالكلام يكون مصدر بان الشيء بيانا و يكون اسم مصدر لبيان كالكلام و السلام لسلم و بين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء و يكون بمعنى بينت الشيء أى اوضحته و هذا هو الغالب عليه و منه قوله ان من البيان لسحرا

¹ مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 355-358

والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع حتى يتبين له الشيء ويستبين كما قال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ } آل عمران 138 الآية ومع هذا فالذي لا يستبين له كما قال تعالى { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } فصلت 44 وقال { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } النحل 44 وقال { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } إبراهيم 4 وقال { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النور 54 وقال { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ } التوبة 115 وقال { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } النساء 176 وقال { قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي } الأنعام 57 الآية وقال { أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ } هود 17 وقال { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } البقرة 99 وقال { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } النور 61 فأما الأشياء المعلومة التي ليس في زيادة وصفها إلا كثرة كلام وتفهيق وتشدق وتكبر والافصاح بذكر الأشياء التي يستقبح ذكرها فهذا مما ينهى عنه كما جاء في الحديث أن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها وفي الحديث الحياء والعبي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ولهذا قال إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته منته من فقهه وفي حديث سعد لما سمع ابنه أو لما وجد ابنه يدعو وهو يقول اللهم أني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها واغلالها وكذا وكذا قال يا بني إني سمعت رسول الله يقول سيكون قوم يعتدون في الدعاء فايك ان تكون منهم إنك إن أعطيت الجنة اعطيتها وما فيها من الخير وان اعذت من النار اعذت منها وما فيها من الشر¹

النظر المفيد للعلم فهو ما كان في دليل هاد

فإذا كان النظر في دليل هاد كالقرآن وسلم من معارضات الشيطان تضمن ذلك النظر العلم والهدى ولهذا أمر العبد بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند القراءة وإذا كان النظر في دليل مضل والناظر يعتقد صحته بأن تكون مقدمته أو إحداهما متضمنة للباطل أو تكون المقدمات صحيحة لكن التأليف ليس بمستقيم فإنه يصير في القلب بذلك اعتقاد فاسد وهو غالب شبهات أهل الباطل المخالفين للكتاب والسنة من المتفلسفة والمتكلمين ونحوهم فإذا كان الناظر لا بد له من منظور فيه والنظر في نفس المتصور المطلوب حكمه لا يفيد علما بل ربما خطر له بسبب ذلك النظر أنواع من الشبهات يحسبها أدلة لفرط تعطش القلب إلى معرفة حكم تلك المسألة وتصديق ذلك التصور وأما النظر المفيد للعلم فهو ما كان في دليل هاد والدليل الهادي على العموم والإطلاق هو كتاب الله وسنة نبيه فإن الذي جاءت به الشريعة من نوعي النظر هو ما يفيد وينفع ويحصل الهدى وهو بذكر الله وما نزل من الحق فإذا أراد النظر والاعتبار في الأدلة المطلقة من غير تعيين مطلوب فذلك النظر في كتاب الله وتدبره كما قال تعالى { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } {15} { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {16} { المائدة 15-16 } و قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {52} { صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي

¹ مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 63-65

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ {53} الشورى 52-53 وأما النظر في مسألة معينة وقضية معينة لطلب حكمها والتصديق بالحق فيها والعبد لا يعرف ما يدلّه على هذا أو هذا فمجرد هذا النظر لا يفيد بل قد يقع له تصديقات يحسبها حقا وهي باطل وذلك من إلقاء الشيطان وقد يقع له تصديقات تكون حقا وذلك من إلقاء الملك وكذلك إذا كان النظر في الدليل الهادي وهو القرآن فقد يضع الكلم مواضعه ويفهم مقصود الدليل فيهندي بالقرآن وقد لا يفهمه أو يحرف الكلم عن مواضعه فيضل به ويكون ذلك من الشيطان كما قال تعالى {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} الإسراء 82 وقال {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} البقرة 26 وقال {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَزَدْتُهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ {125} التوبة 124-125 وقال {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} فصلت 44 وقال {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} آل عمران 138 فالناظر في الدليل بمنزلة المترائي للهِلال قد يراه وقد لا يراه لعشي في بصره وكذلك أعمى القلب وأما الناظر في المسألة فهذا يحتاج إلى شيئين إلى أن يظفر بالدليل الهادي وإلى أن يهندي به وينتفع فأمره الشرع بما يوجب أن ينزل على قلبه الأسباب الهادية ويصرف عنه الأسباب المعوقة وهو ذكر الله تعالى والغفلة عنه فإن الشيطان وسواس خناس فإذا ذكر العبد ربه خنس وإذا غفل عن ذكر الله وسوس وذكر الله يعطي الإيمان وهو أصل الإيمان والله سبحانه هو رب كل شيء ومليكه وهو معلم كل علم وواهبه فكما أن نفسه أصل لكل شيء موجود فذكره والعلم به أصل لكل علم وذكره في القلب والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان كما قال جندب بن عبدالله البجلي وغيره من الصحابة تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازدنا إيمانا ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه (اقرأ باسم ربك الذي خلق {1} فأمره أن يقرأ باسم الله فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق وقال (باسم ربك الذي خلق {1} خلق الإنسان من علق {2} اقرأ وربك الأكرم {3} الذي علم بالقلم {4} علم الإنسان ما لم يعلم {5} فذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عموما وخصوصا وهو الإنسان وأنه المعلم للعلم عموما وخصوصا للإنسان وذكر التعليم بالقلم الذي هو آخر المراتب ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذي في القلب وحقيقة الأمر أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى طالب سائل فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويدله كما قال يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ومما يوضح ذلك أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال والتفكير والتدبر لا يحصل له ذلك إن لم ينظر في دليل يفيد العلم بالمدلول عليه ومتى كان العلم مستفادا بالنظر فلا بد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت في قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر فيكون ذلك المعلوم أصلا وسببا للتفكير الذي يطلب به معلوما آخر ولهذا كان الذكر متعلقا بالله لأنه سبحانه هو الحق المعلوم وكان التفكير في مخلوقاته كما قال الله تعالى {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} آل عمران 191 وقد جاء الأثر تفكروا في المخلوق ولا تتفكروا في الخالق لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات وأما الخالق جل جلاله سبحانه وتعالى فليس له شبيه ولا نظير فالتفكير الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه وإنما هو معلوم بالفطرة فيذكره العبد وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة لا تتال بمجرد التفكير والتقدير أعني من العلم به نفسه فإنه الذي لا تفكير فيه فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك فيدخل فيها التفكير

والتقدير كما جاء به الكتاب والسنة ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمررون بملازمة الذكر ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك وكثير من أرباب النظر والكلام يأمررون بالتفكير والنظر ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق والنظر صحيح إذا كان في حق ودليل كما تقدم فكل من الطريقتين فيها حق لكن يحتاج إلى الحق الذي في الأخرى ويجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل وذلك كله باتباع ما جاء به المرسلون وقد بسطنا الكلام في هذا غير هذا الموضوع وبيننا طرق أهل العبادة والرياضة والذكر وطريق أهل النظر والاستدلال وما في كل منهما من مقبول ومردود وبيننا ما جاءت به الرسالة من الطريق الكاملة الجامعة لكل حق وليس هذا موضع بسط ذلك¹

أصل العلم والهدى

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله إليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 وتقرير الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء 165 ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التي هي القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا كقوله {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} آل عمران 138

أئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب

وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أهدنا ليجد في نفسه ما لنن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الإيمان وفي رواية ما يتعاضم أن يتكلم به قال الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة أي حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الإيمان كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وإنما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الإيمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيئها فصيير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين فإما أن

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 36-38

يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسوس في الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامه ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسوس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهجه بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } فاطر6 ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء82 وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران138 وقال تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة2 وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا } التوبة124 وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل98-100 فان المستعيذ بالله مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا لِمَن حَظٌّ عَظِيمٌ } {35} وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {36} فصلت34-36 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال انى لأعلم كلمة لو

قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنة وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة في العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته في ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علمائها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماءهم فعلماءهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماءهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضروا على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نعمة في العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسوس التي تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما

قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون على أهل الأرض¹

الحزن لم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال أحد وإن ارتقى مقامه واما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وان تعلق بامر الدين كقوله تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 وقوله { وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } النحل 127 وقوله { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 وقوله { وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ } يونس 65 وقوله { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } الحديد 23 وامثال ذلك كثير وذلك لانه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا يَأثم صاحبه اذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي ان الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا او يرحم و اشار بيده الى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضي الرب ومنه قوله تعالى { وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } يوسف 84 وقد تبين بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك اذا افضى الى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه والا كان حسب صاحبه رفع الاثم عنه من جهة الحزن واما ان افضى الى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما امر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وان كان محمودا من جهة اخرى واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل احد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تكون للعلماء دون الخاصة فقد غلط في ذلك ان اراد خروج الخاصة عنها فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وانما يخرج عنها كافر او منافق وقد تكلم بعضهم في ذلك بكلام بينا غلطه فيه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه²

انه أمر أن يطمئن ويثبت لأن الخوف يحصل بغير اختيار العبد إذا لم يكن له ما يوجب الأمان فإذا حصل ما يوجب الأمان زال الخوف فقوله تعالى لموسى { وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } طه 21 هو أمر مقرون بخبره بما يزيل الخوف وكذلك قوله { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } {67} قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى {68} طه 67- 68 هو نهى عن الخوف مقرون بما يوجب زواله وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لصديقه { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 نهى

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 282-285

² مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 16 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 42 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 16- 17 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 42-43

عن الحزن مقرون بما يوجب زواله وهو قوله { إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 وإذا حصل الخبر بما يوجب زوال الحزن والخوف زال وإلا فهو تهجم على الإنسان بغير اختياره وهكذا قول صاحب مدين لموسى لما قص عليه القصص { لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } القصص 25 وكذلك قوله **{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139** قرن النهي عن ذلك بما يزيله من إخباره أنهم هم الأعلى إن كانوا مؤمنين وكذلك قوله { وَلَا تَحْزَنُوا عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفِ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } النحل 127¹

وأما قول القائل الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم فهذا باطل أما أولاً فلأن الضعف والخور مذموم من الأدميين والرحمة ممدوحة وقد قال تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } البلد 17 وقد نهى الله عباده عن الوهن والحزن فقال تعالى **{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139** وندبهم إلى الرحمة وقال النبي في الحديث الصحيح لا تنزع إلا من شقى وقال من لا يرحم لا يرحم وقال الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ومحال ان يقول لا ينزع الضعف والخور إلا من شقى ولكن لما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور كما في رحمة النساء ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقاً²

الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله

وفي الأثر الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله ولهذا يوجد في المتبع لهواه من الذل ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه فإن الله جعل العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه قال تعالى { يَقُولُونَ لَنْ نرْجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } المنافقون 8 وقال تعالى **{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139** ولهذا كان في كلام الشيوخ الناس يطلبون العز من أبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله وكان الحسن البصري يقول وإن هملجت بهم البراذين وطققت بهم البغال فإن ذل المعصية في رقابهم يأبى الله إلا أن يذل من عصاه ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه وفي دعاء القنوت إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت³

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 464

² مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 117

³ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 66 و مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 258 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 427

تقوية الإرادة الصالحة وتضعيف الإرادة الفاسدة بحسب الإمكان

وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أمر الله به من البر والتقوى دون ما نهى عنه من الإثم والعدوان ثم أولئك الذين لم يتصفوا بحقيقة الإيمان بل فيهم من الفجور كفر أو نفاق أو فسوق ما فيهم إذا كانوا عاجزين عن إرادتهم لا يقدرّون علي أهوائهم بنوع من أنواع القدرة تجدهم أذل الناس وأطوع الناس لمن يستعملهم في أغراضهم وأجزع الناس لما أصابهم ذلك أنه ليس في قلوبهم من الإيمان ما يعتاضون به وتستغني به نفوسهم ويصبرون به عما لا يصلح لهم وهذه حال الأمم البعيدة عن العلم والإيمان كالترك التتار والعرب في جاهليتهم فإنهم أعز الناس إذا قدروا وأذل الناس إذا قهروا وأما المؤمنون فكما قال تعالى لهم وقد غلبوا {وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {آل عمران 139} فهم الأعلون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا وقال كعب بن زهير في صفة الصحابة ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم يوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا ولهذا كان المشروع في حق كل ذي إرادة فاسدة من الفواحش والظلم والشرك والقول بلا علم أحد أمرين إما إصلاح إرادته وإما منع قدرته فإنه إذا اجتمعت القدرة مع إرادته الفاسدة حصل الشر وأما ذو الإرادة الصالحة فتؤيد قدرته حتى يتمكن من فعل الصالحات وذو القدرة الذي لا يمكن سلب قدرته يسعى في إصلاح إرادته بحسب الإمكان فالمقصود تقوية الإرادة الصالحة والقدرة عليها بحسب الإمكان وتضعيف الإرادة الفاسدة والقدرة معها بحسب الإمكان ولا حول ولا قوة إلا بالله¹

والخالق جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا اله غيره إذا اشتكى إليه المخلوق وانزل حاجته به واستغفره من ذنوبه أيده وقواه وهداه وسد فاقته وأغناه وقربه وأقناه وحبه واصطفاه قال تعالى {وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {آل عمران 139}²

بالاستغفار تتم الطاعة وبالصبر يتم اليقين بالوعد

قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } {13} { وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } {14} الانفطار 13-14 ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ولكن تذكر هنا نكتة نافعة وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرا من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب وما يصيب كثيرا من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما ينتعمون به إلا قليلا وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين علي المؤمنين وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين وأن العاقبة للتقوى وقول الله تعالى {وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} {الصفوات 173} وهو ممن يصدق بالقرآن حمل هذه الآيات علي الدار الآخرة فقط وقال أما الدنيا فما نري بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 174-175

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 41

يظهرون ويغلبون والمؤمنين ولهم العزة والنصرة والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس ويعتمد علي هذا فيما إذا أدل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق فيقول أنا علي الحق وأنا مغلوب وإذا ذكره إنسان بما وعدة الله من حسن العاقبة للمتقين قال هذا في الآخرة فقط وإذا قيل له كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور قال يفعل ما يشاء وربما قال بقلبه أو لسانه أو كان حاله يقتضى أن هذا نوع من الظلم وربما ذكر قول بعضهم ما علي الخلق أضر من الخالق لكن يقول يفعل الله ما يشاء وإذا ذكر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور مؤيد بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء وهذه الأقوال مبنية علي مقدمتين إحداها حسن ظنه بدين نفسه نوعا أو شخصا واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه وتارك ما نهى عنه في الدين الحق واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك أن دينه باطل نوعا أو شخصا لأنه ترك المأمور وفعل المحظور والمقدمة الثانية أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا فلا ينبغي الاغترار بهذا المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن عاقبة الدنيا فقد يطلب ما لا بد منه من دفع الضرر وجلب المنفعة وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافي ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدين الحق وفي حال السابقين والمقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين فيدخل مع الظالمين بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعننين بالكفر وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه كما قال النبي يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لا بد له من المنفعة وهذه الفتنة التي صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعيم الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلا بد فيه من إرادة به لطلب ما ينعم فهناك عمل يطلب به النعيم ولا بد أن يكون المرء عارفا بالعمل الذي يعمل به وبالنعيم الذي يطلبه ثم إذا علم هذين الأصلين فلا بد أن تكون فيه إرادة جازمة علي العمل بذلك وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ولهذا قال سبحانه وتعالى { وَالْعَصْرُ {1} إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ {3} العصر 1-3 وقال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } السجدة 24 فاليقين هو العلم الثابت المستقر والصبر لا بد منه لتحقيق الإرادة الجازمة والمقدمتان اللتان التي بنيت عليهما هذه البلية مبناهما علي الجهل بأمر الله ونهيه وبوعده ووعيده فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور تارك للمحظور وهو على العكس من ذلك وهذا يكون من جهله بالدين الحق وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ولأهل الفجور علي أهل البر فهذا من جهله بوعده الله تعالى من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين أما الأول فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه وأنه خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ولا يكون الأمر كذلك بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ومع خصمه نوع من الحق والعدل وحبك الشيء يعمي ويصم والإنسان مجبول على محبة نفسه فهو لا يرى إلا محاسنها ومبغض لخصمه فلا يرى إلا مساوئه وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم فإن الإنسان ظلوم جهول وأكثر ديانات

الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب والحب والبغض والموالاة والمعادة كما قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ} لقمان 21 وقال تعالى {يَوْمَ نُفَلِّبُ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ} {66} وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأصلونا السبيلاً {67} الأحزاب 66-67 وقال تعالى {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُّريبٍ} الشورى 14 وأما الثاني فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه بخلاف من فارقههم إلى طاعة أخري وسبيل آخر ويكذب بوعد الله بنصرهم والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر 51 وقال تعالى في كتابه {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {171} إنهم لهم المنصورون {172} وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِبُونَ} {173} الصافات 171-173 وقال تعالى في كتابه {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} المجادلة 5 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} {20} كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} {21} المجادلة 20-21 وقال تعالى في كتابه {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} {55} وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِبُونَ} {56} المائدة 55-56 ودم من يطلب النصر بولاء غير هؤلاء فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {51} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} {52} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} {53} المائدة 51-53 وقال تعالى في كتابه {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {138} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أِيْتَتُغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} {139} النساء 138-139 وقال تعالى في كتابه {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَكَرَنَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} المنافقون 8 وقال تعالى في كتابه {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} فاطر 10 وقال في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا} الفتح 28 وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} {9} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} {10} تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {11} يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {12} وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ} {13} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} {14} الصف 9-14 وقال تعالى في كتابه {يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفَيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} آل عمران 55 وقال تعالى في كتابه {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَنْبَارَ ثُمَّ لَا يجدُونَ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} {22} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} {23} الفتح 22-23 وقال تعالى في كتابه

{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ { الْحَشْرِ 2 } إِي قَوْلِهِ تَعَالَى
{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ { الْحَشْرِ 4 } وَقَالَ تَعَالَى { وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ { آل عمران 139 } وَقَالَ تَعَالَى لَمَّا قَصَّ قِصَّةَ نُوحٍ
وَهُى نَصْرَةٌ عَلَي قَوْمِهِ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ تَعَالَى { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ { هُودٍ 49 } وَقَالَ تَعَالَى { وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ
عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى { طه 132 } وَقَالَ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا { آل عمران 118 } إِي قَوْلِهِ { وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ { آل عمران 120 } وَقَالَ تَعَالَى { بَلَى إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ
مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ { آل عمران 125 } وَقَالَ يُوسُفُ وَقَدْ
نَصَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ إِخْوَتُهُ { قَالُوا أَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ
اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ { يُوسُفُ 90 } وَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ { يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
{ الْأَنْفَالِ 29 } وَقَالَ تَعَالَى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا { 2 } وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ
يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا { 3 } الطَّلَاق 2-3 } وَقَدْ رَوَى
عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ لَوْ عَمِلَ النَّاسُ كُلَّهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَوْسَعَتْهُمْ وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ
وَالْمُؤْمِنِينَ بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ طَاعَتُهُ وَهُوَ الْمَقْدَمَةُ الْأُولَى وَأَمْرُهُمْ بِالنَّظَرِ وَعَدَهُ وَهُوَ الْمَقْدَمَةُ
الثَّانِيَّةُ وَأَمْرُنَا بِالِاسْتِغْفَارِ وَالصَّبْرِ لِأَنَّهُمْ لَا يَبْدُونَ أَن يَحْصُلَ لَهُمْ تَقْصِيرٌ وَذُنُوبٌ فَيُزِيلُهُ الْإِسْتِغْفَارُ وَلَا يَبْدُونَ
النَّظَرُ الْوَعْدُ مِنَ الصَّبْرِ فَبِالِاسْتِغْفَارِ تَتِمُّ الطَّاعَةُ وَبِالصَّبْرِ يَتِمُّ الْيَقِينُ بِالْوَعْدِ إِنْ كَانَ هَذَا كُلُّهُ يَدْخُلُ فِي
مَسْمَى الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ قَالَ تَعَالَى { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ { يُونُسُ 109 } وَقَالَ تَعَالَى { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ
أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَاِ الْمُرْسَلِينَ { الْأَنْعَامُ 34 } وَقَالَ تَعَالَى { فَاصْبِرْ
إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ { هُودٍ 49 } وَأَمْرُهُمْ أَيْضًا بِالصَّبْرِ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مِصِيبَةٌ بِذُنُوبِهِمْ مِثْلَ ظُهُورِ الْعَدُوِّ
وَكَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَحَدٍ { وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ { 139 } إِنْ
يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ { 140 } وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ { 141 } آل
عمران 139-141 } وَأَيْضًا فَقَدْ قَصَّ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ نَصْرَهُ لِرَسُولِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكُفَّارِ فِي
قِصَّةِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ وَلُوطٍ وَفِرْعَوْنَ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَالَ تَعَالَى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ { يُوسُفُ 111 } وَقَالَ تَعَالَى { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن
قَبْلِكُمْ { النُّورُ 34 } 1 2

¹ قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 138-148

² ملاحظة (تكملة الموضوع موجود في تفسير غافر 51 وتفسير الصافات 171-173 نفس المرجع)

العزة مشروطة بالايمن

وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة اذ كان هذا يوصف به من ليس بنبي بل يوصف بأنه الأعلى كما قال **{وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139**¹

قال تعالى **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}** المنافقون 8 ولو خرج المؤمنون عن الحق والهدى لما كانت لهم العزة اذ ذلك من تلك الجهة لأن الباطل والضلال ليس من الايمان الذى يستحق به العزة والعزة مشروطة بالايمن لقوله **{وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139**²

وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله فى مواضع كثيرة كقوله فى سورة هود **{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ}** هود 52 وقوله **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}** المنافقون 8 **{وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139** وإذا كان الذى قد يهجر السيئات يغض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله فما ظنك بالذى لم يحلم حول السيئات ولم يعرها طرفه قط ولم تحدثه نفسه بها بل هو يجاهد فى سبيل الله أهلها ليتركوا السيئات فهل هذا وذلك سواء بل هذا له النور والايمن والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة فى الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذلك وحاله أعظم وأعلى ونوره اتم واقوى فان السيئات تهواها النفوس ويزنها الشيطان فتجتمع فيها الشبهات والشهوات فإذا كان المؤمن قد حبيب الله اليه الايمان وزينه فى قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يعوض عن شهوات الغى بحب الله ورسوله وما يتبع ذلك وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيد به حيث دفع بالعلم الجهل وبارادة الحسنات ارادة السيئات وبالقوة على الخير القوة على الشر فى نفسه فقط والمجاهد فى سبيل الله يطلب فعل ذلك فى نفسه وغيره أيضا حتى يدفع جهله بالظلم وارادته السيئات بارادة الحسنات ونحو ذلك والجهاد تمام الايمان وسنام العمل كما قال تعالى **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** الحجرات 15 وقال **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** آل عمران 110 الآية وقال **{أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ التَّوْبَةَ} 19** الآية فكذلك يكون هذا الجزاء فى حق المجاهدين كما قال تعالى **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}** العنكبوت 69 فهذا فى العلم والنور³

¹النبوات ج: 1 ص: 237

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 504

³مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 400-401

قال تعالى لنبيه واصحابه **{وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** آل عمران 139
 فاخبر انهم هم الاعلون وهم مع ذلك لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا وقال تعالى **{فَلَا تَهْنُوا
 وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ}** محمد 35 **{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ
 الْجَنَّةُ}** التوبة 111 وقال **{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا}** النساء 5 فالشرف
 والمال لا يحمد مطلقا ولا يذم مطلقا بل يحمد منه ما أعان على طاعة الله وقد يكون ذلك واجبا وهو
 ما لا بد منه في فعل الواجبات وقد يكون مستحبا وانما يحمد اذا كان بهذه النية ويذم ما استعين به على
 معصية الله أو صد عن الواجبات فهذا محرم وينتقص منه ما شغل عن المستحبات ووقع في
 المكروهات والله اعلم كما جاء في الحديث من طلب هذا المال استغناء عن الناس واستعافا عن
 المسألة وعودا على جاره الضعيف والارملة والمسكين لقي الله تعالى ووجهه كالقمر ليلة البدر ومن
 طلبه مرائيا مفاخرا مكاثرا لقي الله وهو عليه غضبان وقال التاجر الامين الصدوق مع النبيين
 والصديقين والشهداء والصالحين وقال نعم المال الصالح للرجل الصالح¹

الذين يخرجون عن الدين يأخذون بعضه ويدعون بعضه

أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطنا وهذا مما استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث
 والتفسير والسير أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجري ذلك لأسباب منها لما انهزم
 المسلمون يوم أحد وشج وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته ارتد طائفة نافقوا قال تعالى
{وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {139} **{إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ
 مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ}** {140} **{وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}** {141} آل عمران 139-141 وقال تعالى
{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} {166} **{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ
 تَعَالَوْا فَاتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ
 يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}** {167} آل عمران 166-167 ف قوله
{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} {167} آل عمران 167 ظاهر فيمن أحدث نفاقا وهو يتناول من لم ينافق
 قبل ومن نافق ثم جدد نفاقا ثانيا وقوله **{هُمُ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ}** {167} آل عمران 167
 يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم بل اما أن يتساويا واما أن يكونوا للإيمان أقرب وكذلك كان
 فإن ابن ابي لما انخزل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد انخزل معه ثلث الناس قيل كانوا نحو
 ثلاثمائة وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن اذ لم يكن لهم داع الى النفاق فإن ابن ابي
 كان مظهرا لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم والايمان به وكان كل يوم جمعة يقوم خطيبا في المسجد
 يأمر باتباع النبي ولم يكن ما في قلبه يظهر الا لقليل من الناس ان ظهر وكان معظما في قومه كانوا
 قد عزموا على أن يتوجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم فلما جاءت النبوة بطل ذلك فحمله الحسد على
 النفاق والا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو اليه وانما كان هذا في اليهود فلما جاء النبي بدينه وقد أظهر

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 144-145

الله حسنه ونوره مالت إليه القلوب لا سيما لما نصره الله يوم بدر ونصره على يهود بنى قينقاع صار معه الدين والدنيا فكان المقتضى للايمان فى عامة الانصار قائما وكان كثير منهم يعظم ابن أبي تعظيما كثيرا ويواليه ولم يكن ابن أبي أظهر مخالفة توجب الامتياز فلما انخزل يوم أحد وقال يدع رأى ورأيه ويأخذ برأى الصبيان أو كما قال إنخزل معه خلق كثير منهم من لم يوافق قبل ذلك

* فان الله عز وجل بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وجعله خاتم النبيين وسيد ولد آدم من الناس اجمعين وجعل كتابه الذي انزله عليه مهيمنا على ما بين يديه من الكتب ومصدقا لها وجعل امته خير امة اخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فهم يوفون سبعين فرقة هم خيرها وأكرمها على الله وقد اكمل لهم دينهم واتم عليهم نعمته ورضي لهم الاسلام ديننا فليس دين افضل من دينهم الذي جاء به رسولهم ولا كتاب افضل من كتابهم ولا امة خير من امتهم بل كتابنا وديننا وامتنا افضل من كل كتاب ودين ونبي وامة فاشكروا الله على ما انعم به عليكم { وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ } النمل 40 واحفظوا هذه التى بها تتالون نعيم الدنيا والآخرة واحذروا ان تكونوا ممن بدل نعمة الله كفرا فتعرضون عن حفظ هذه النعمة ورعايتها فيحقيق بكم ما حاق بمن انقلب على عقبيه واشتغل بما لا ينفعه من أمر الدنيا عما لا بد له منه من مصلحة دينه ودينياه فخرس الدنيا والآخرة فقد سمعتم ما نعت الله به الشاكرين والمنقلبين حيث يقول { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } آل عمران 144 انزل الله سبحانه هذه الآية وما قبلها وما بعدها فى غزوة احد لما انكسر المسلمون مع النبى وقتل جماعة من خيار الأمة وثبت رسول الله مع طائفة يسيرة حتى خلص اليه العدو فكسروا رباعيته وشجوا وجهه وهشموا البيضة على رأسه وقتل وجرح دونه طائفة من خيار اصحابه لذ بهم عنه ونعق الشيطان فيهم ان محمدا قد قتل فزلزل ذلك قلوب بعضهم حتى انهزم طائفة وثبت الله آخرين حتى ثبتوا وكذلك لما قبض النبى فزلزلت القلوب واضطرب حبل الدين وغشيت الذلة من شاء الله من الناس حتى خرج عليهم الصديق رضى الله تعالى عنه فقال من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت وقرأ قوله { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } آل عمران 144 فكان الناس لم يسمعوها حتى تلاها الصديق رضى الله عنه فلا يوجد من الناس الا من يتلوها وارتد بسبب موت الرسول صلى الله عليه وسلم ولما حصل لهم من الضعف جماعات من الناس قوم ارتدوا عن الدين بالكلية وقوم ارتدوا عن بعضه فقالوا نصلى ولا نركى وقوم ارتدوا عن اخلاص الدين الذي جاء به محمد فأمنوا مع محمد بقوم من النبيين الكذابين كمسيلمة الكذاب وطلحة الأسدى وغيرهما فقام الى جهادهم الشاكرون الذين ثبتوا على الدين اصحاب رسول الله من المهاجرين والانصار والطلقاء والأعراب ومن اتبعهم باحسان الذين قال الله عز وجل فيهم { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } المائدة 54 هم اولئك الذين جاهدوا المنقلبين على اعقابهم الذين لم يضرروا الله شيئا وما انزل الله فى القرآن من آية الا وقد عمل بها قوم وسيعمل بها آخرون فمن كان من الشاكرين الثابتين على الدين

الذين يحبهم الله عز وجل ورسوله فإنه يجاهد المنقلبين على أعقابهم الذين يخرجون عن الدين
ويأخذون بعضه ويدعون بعضه¹

من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس

ان كل شيء فى موضعه حسن وحيث أمر الله ورسوله بالاغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة فحن مأمورون بمقابلته لم نكن مأمورين أن نخاطبه بالتي هى أحسن ومن المعلوم أن الله تعالى يقول **{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** آل عمران 139 فمن كان مؤمنا فإنه الأعلى بنص القرآن وقال **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** المنافقون 8 وقال **{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ}** {20} كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ {21} المجادلة 20- 21 والله محقق وعده لمن هو كذلك كائنا من كان ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ فى العقل ولا الدين طلب رضى المخلوقين لوجهين أحدهما أن هذا غير ممكن كما قال الشافعى رضائه عنه الناس غاية لا تدرك فعليك بالأمر الذى يصلحك فالزمه ودع ما سواه ولا تعانه والثانى أنا مأمورون بأن نتحرى رضى الله ورسوله كما قال تعالى **{وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ}** {التوبة 62} وعلينا أن نخاف الله فلا نخاف أحدا إلا الله كما قال تعالى **{فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** آل عمران 175 وقال **{فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ}** المائدة 44 وقال **{وَأَيَّايَ فَارْهَبُونَ}** البقرة 40 **{وَأَيَّايَ فَاتَّقُونَ}** البقرة 41 فعلىنا أن نخاف الله ونتقيه فى الناس فلا نظلمهم بقلوبنا ولا جوارحنا ونؤدى اليهم حقوقهم بقلوبنا وجوارحنا ولا نخافهم فى الله فنترك ما أمر الله به ورسوله خيفة منهم ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له كما كتبت عائشة الى معاوية أما بعد فإنه من التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس وعاد حامده من الناس ذاما ومن التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس فالمؤمن لا تكون فكرته وقصده إلا رضى ربه وإجتنا بسخطه والعاقبة له ولا حول ولا قوة إلا بالله²

والله تعالى يقول **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}** {العنكبوت 46} فمتى ظلم المخاطب لم نكن مأمورين أن نجيبه بالتي هى أحسن بل قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعروة بن مسعود بحضرة النبي لما قال إنى لأرى أوباشا من الناس خليقا أن يفرؤا ويدعوك امصص بضر اللات نحن نفر عنه وندعه ومعلوم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من كانوا وقد قال تعالى **{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** آل عمران 139 فمن كان مؤمنا فهو الأعلى كائنا من كان ومن حاد الله ورسوله فقد قال تعالى **{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ}** {المجادلة 20}³

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 412-413

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 233

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 252

{تَلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ}

وقد قال في الحديث اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد { وقال تعالى { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } العلق 19 والمراد القرب من الداعي في سجوده كما قال وأما السجود فأكثرها فيه من الدعاء ففمن أن يستجاب لكم فأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود مع قرب العبد من ربه وهو ساجد وقد أمر المصلي أن يقول في سجوده سبحان ربى الأعلى رواه اهل السنن وكذلك حديث ابن مسعود إذا سجد العبد فقال في سجوده سبحان ربى الأعلى ثلاثاً ثم سجوده وذلك أدناه رواه أبو داود وفي حديث حذيفة الذى رواه مسلم أنه صلى بالليل صلاة قرأ فيها بالبقرة والنساء وآل عمران ثم ركع ثم سجد نحو قراءته يقول فى ركوعه سبحان ربى العظيم وفى سجوده سبحان ربى الأعلى وذلك أن السجود غاية الخضوع والذل من العبد وغاية تسفيله وتواضعه بأشرف شىء فيه لله وهو وجهه بأن يضعه على التراب فناسب فى غاية سفوله ان يصف ربه بأنه الاعلى والاعلى أبلغ من العلى فان العبد ليس له من نفسه شىء هو باعتبار نفسه عدم محض وليس له من الكبرياء والعظمة نصيب وكذلك فى والعلو فى الأرض ليس للعبد فيه حق {تَلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ} القصص 83 فانه سبحانه ذم من يريد العلو فى الأرض كفرعون وابلوس وأما المؤمن فيحصل له العلو بالايمان لا بارادته له كما قال تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 فلما كان السجود غاية سفول العبد وخضوعه سبح اسم ربه الأعلى فهو سبحانه الأعلى والعبد الأسفل كما أنه الرب والعبد العبد وهو الغنى والعبد الفقير وليس بين الرب والعبد الا محض العبودية فكلما كملها قرب العبد اليه لأنه سبحانه بر جواد محسن يعطى العبد ما يناسبه فكلما عظم فقره اليه كان أغنى وكلما عظم ذله له كان أعز فان النفس لما فيها من أهوائها المتنوعة وتسويل الشيطان لها تبعد عن الله حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة واللعنة هى البعد ومن أعظم ذنوبها ارادة العلو فى الأرض والسجود فيه غاية سفولها قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر 60 وفى الصحيح لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر وقال لابلوس { فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } الأعراف 13 وقال { وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا } التوبة 40 فهذا وصف لها ثابت لكن من اراد أن يعلى غيرها جوهد وقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله و كلمة الله هى خبره وأمره فيكون أمره مطاعا مقدما على أمر غيره وخبره مصدق مقدم على خبر غيره وقال { وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } الأنفال 39 والدين هو العبادة والطاعة والذل ونحو ذلك يقال دنته فدان أى ذلته فذل كما قيل هو دان الرباب اذكر هو الدين دراكا بغزوة وصيال ثم دانته بعد الرباب وكانت كعذاب عقوبة الاقوال فاذا كانت العبادة والطاعة والذل له تحقق أنه اعلى فى نفوس العباد عندهم كما هو الأعلى فى ذاته كما تصير كلمته هى العليا فى نفوسهم كما هى العليا فى نفسها وكذلك التكبير يراد به أن يكون عند العبد أكبر من كل شىء كما قال لعدى بن حاتم يا عدى ما يفرك أيفرك أن يقال لا اله الا الله فهل تعلم من اله الا الله يا عدى ما يفرك ايفرك ان يقال الله أكبر فهل من شىء أكبر من الله وهذا يبطل قول من جعل أكبر بمعنى كبير وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم انا معاشر

الانبياء ديننا واحد وهو الاسلام وهو الاستسلام لله لا لغيره بأن تكون العبادة والطاعة له والذل وهو حقيقة لا اله الا الله ولا ريب أن ما سوى هذا لا يقبل وهو سبحانه يطاع في كل زمان بما امر به في ذلك الزمان فلا اسلام بعد مبعث محمد الا فيما جاء به وطاعته وهي ملة ابراهيم التي لا يرغب عنها الا من سفه نفسه وهو الأمة الذي يؤتم به كما أن القدوة هو الذي يقتدى به وهو الامام كما في قوله { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } البقرة 124 وهو القانت والقنوت دوام الطاعة وهو الذي يطيع الله دائماً والحنيف المستقيم الى ربه دون ما سواه وقوله من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة¹

قال تعالى { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } القمر 45 أخبر بهزيمتهم وهو بمكة في قلة من الأتباع وضعف منهم ولا يظن أحد بالعادة المعروفة أن أمره يظهر ويعلو قبل أن يهاجر إلى المدينة وقبل أن يقاتلهم وكان كما أخبر فإنهم يوم بدر وغيرها هزم جمعهم وولوا الأدبار وتلك سنة الله في المؤمنين والكافرين قال تعالى { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } {22} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } {23} الفتح 22- 23 وحيث ظهر الكفار فإنما ذلك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله كما قال تعالى { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139 وقال { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } آل عمران 165²

الحكمة من الابتلاء

1- يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر

فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال تعالى { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } {139} { إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } {140} { وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } {141} آل عمران 139- 141 فمن الحكم تمييز المؤمن عن غيره فإنهم إذا كانوا دائما منصورين لم يظهر لهم وليهم وعدوهم إذا الجميع يظهرون الموالاته فإذا غلبوا ظهر عدوهم ومن الحكم أن يتخذ منكم شهداء فإن منزلة الشهادة منزلة

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 236-240

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 450

عليه في الجنة ولا بد من الموت فموت العبد شهيدا أكمل له وأعظم لأجره وثوابه ويكفر عنه بالشهادة ذنوبه وظلمه لنفسه والله لا يجب الظالمين ومن ذلك أن يمحص الله الذين آمنوا فيخلصهم من الذنوب فإنهم إذا انتصروا دائما حصل للنفس من الطغيان وضعف الإيمان ما يوجب لها العقوبة والهوان وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تقيمها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجفافها مرة واحدة وسئل صلى الله عليه وسلم أي الناس أشد بلاء فقال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمتل فالأمتل يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه رقة خفف عنه وإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ولا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وأهله وماله حتى يلقي الله وليس عليه خطيئة¹

وقد أودى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وغيرهما بأنواع من الأذى بالضرب وغيره وصبروا على ذلك ولم ينطق أحد منهم بكلمة كفر بل قد سعوا في قتل النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع مما قدروا عليه من السعي وهو صابر لأمر الله كما أمره الله تعالى وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر في أثناء الأمر بأن الله يعصمه من الناس فلم يكن قد أخبر أولا بأنه يعصم من أنواع الأذى وأما السابقون فلم يخبروا بذلك وكذلك خبيب بن عدي الذي صلبه المشركون حين أخرجوه من الحرم ولم يتكلم بكلمة الكفر وقصته في الصحيح لكن قد يقال إن هذا لم يكن قصدهم منه إن يعود إلى دينهم فإنه كان من الانصار وكانوا يقتلونه بمن قتل منهم يوم بدر بخلاف أقاربهم وحلفائهم ومواليهم فإنهم كانوا يحبونهم ويكرمونهم ولم يكونوا يريدون منهم إلا الكفر بعد الإيمان وقد ذم الله في كتابه من يرتد ويفتن ولو أكره وهذا هو الذي ذم الله بقوله { وَلكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل 106 وكذلك يذم من يترك الواجب الظاهر ويفعل المحرم الظاهر عندما يصيبه من الأذى والفتن كما قال تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } آل عمران 142²

2- الامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه

أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس سببا لشيء من المصائب ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سببا لمصيبة بل طاعة الله ورسوله لا تقتضى إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم لا بما اطاعوا فيه الله ورسوله كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلال ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم لكن امتحنوا به ليتخلصوا مما فيهم من الشر وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليميز طيبه من خبيثه و النفوس فيها شر و الامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه قال تعالى { وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } {140} وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 128-130

²الاستقامة ج: 2 ص: 338

وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ {141} آل عمران 140-141 وقال تعالى { وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ } آل عمران 154 و لهذا قال صالح عليه السلام لقومه { طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْتَنُونَ } النمل 47 و لهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين و بالصبر عليها ترتفع درجاتهم و ما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو فانه يعظم أجرهم بالصبر عليها و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم قال ما من غازبة يغزون في سبيل الله فيسلمون و يغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم و إن أصيبوا و أخفقوا تم لهم أجرهم و أما ما يلحقهم من الجوع و العطش و التعب فذاك يكتب لهم به عمل صالح كما قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } التوبة 120 و شواهد هذا كثيرة¹

3-ولا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وأهله وماله حتى يلقي الله وليس عليه خطيئة

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تقيمها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجفافها مرة واحدة و سئل صلى الله عليه وسلم أي الناس أشد بلاء فقال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه رقة خفف عنه وإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ولا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وأهله وماله حتى يلقي الله وليس عليه خطيئة وقد قال تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين وفي الأثر فيما روي عن الله تعالى يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك وفي الأثر أيضا إنهم إذا قالوا للمريض اللهم ارحمه يقول الله كيف أرحمه من شيء به أرحمه وقد شهدنا أن العسكر إذا انكسر خشع لله وذل وتاب إلى الله من الذنوب وطلب النصر من الله وبرىء من حوله وقوته متوكلا على الله ولهذا ذكرهم الله بحالهم يوم بدر وبحالهم يوم حنين فقال ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون²

4-يخلص الله به أهل الصدق والايمن من أهل النفاق والبهتان

فما اقتضته حكمته ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان الذي يخلص الله به أهل الصدق والايمن من أهل النفاق والبهتان اذ قد دل كتابه على أنه لا بد من الفتنة لكل من الداعي الى الايمان والعقوبة لذوى السيئات والطغيان قال الله تعالى {الم} {1} أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {2} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ {3} أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ {4} العنكبوت 1-4 فأنكر سبحانه على من يظن أن

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 255 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 36

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 130

أهل السيئات يفوتون الطالب وأن مدعى الايمان يتركون بلا فتنة تميز بين الصادق والكاذب وأخبر في كتابه أن الصدق في الإيمان لا يكون إلا بالجهد في سبيله فقال تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} الحجرات 14 الى قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات 15 وأخبر في كتابه بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة الذي يعبد الله فيها على حرف وهو الجانب والطرف الذي لا يستقر من هو عليه بل لا يثبت الايمان الا عند وجود ما يهواه من خير الدنيا قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} الحج 11 وقال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ} آل عمران 142 وقال تعالى {وَلَنْبَلُوَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ} محمد 31 وأخبر سبحانه أنه عند وجود المرتدين فلا بد من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} المائدة 54 وهؤلاء هم الشاكرون لنعمة الإيمان الصابرون علنا لامتحان كما قال تعالى {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران 144 الى قوله تعالى {وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {146} وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {148} آل عمران 146-148 فإذا أنعم الله على الإنسان بالصبر والشكر كان جميع ما يقضى الله له من القضاء خيرا له كما قال النبي لا يقضى الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له والصابر الشكور هو المؤمن الذي ذكره الله في غير موضع من كتابه ومن لم ينعم الله عليه بالصبر والشكر فهو بشر حال وكل واحد من السراء والضراء في حقه يفضى الى قبيح المال فكيف اذا كان ذلك في الأمور العظيمة التي هي من محن الأنبياء والصديقين وفيها تثبيت أصول الدين وحفظ الإيمان والقرآن من كيد أهل النفاق والإلحاد والبهتان¹

5- {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}

ثم ذكر حكمة أخرى فقال {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} آل عمران 141 وذلك أن الله سبحانه إنما يعاقب الناس بأعمالهم والكافر إذا كانت له حسنات أطعمه الله بحسناته في الدنيا فإذا لم تبقى له حسنة عاقبه بكفره والكفار إذا أديلوا يحصل لهم من الطغيان والعدوان وشدة الكفر والتكذيب ما يستحقون به المحق ففي إداآتهم ما يحققهم الله به²

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 212

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 131

6- وفي ذلك حكم أخرى

وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبتة¹

معنى قوله لنعلم

وعامة من يستشكل الآيات الواردة في هذا المعنى كقوله {إِلَّا لِنَعْلَمَ} البقرة 143 {حَتَّى نَعْلَمَ} محمد 31 يتوهم ان هذا ينفي علمه السابق بأن سيكون وهذا جهل فان القرآن قد اخبر بأنه يعلم ما سيكون في غير موضع بل ابلغ من ذلك انه قدر مقادير الخلائق كلها وكتب ذلك قبل ان يخلقها فقد علم ما سيخلقه علما مفصلا وكتب ذلك واخبر بما اخبر به من ذلك قبل ان يكون وقد اخبر بعلمه المتقدم على وجوده ثم لما خلقه علمه كائنا مع علمه الذي تقدم انه سيكون فهذا هو الكمال وبذلك جاء القرآن في غير موضع بل وبإثبات رؤية الرب له بعد وجوده كما قال تعالى {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} التوبة 105 فأخبر انه سيرى اعمالهم وقد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الامة ودلائل العقل على انه سميع بصير والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم فاذا خلق الاشياء راها سبحانه واذا دعاه عباده سمع دعاءهم وسمع نجواهم كما قال تعالى {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} المجادلة 1 أي تشتكي اليه وهو يسمع التناحر والتناحر تراجع الكلام بينها وبين الرسول قالت عائشة سبحان الذي وسع سمعه الاصوات لقد كانت المجادلة تشتكي الى النبي صلى الله عليه وسلم في جانب البيت وانه ليخفي على بعض كلامها فأنزل الله {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} المجادلة 1 وكما قال تعالى لموسى وهارون {لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} طه 46 وقال {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} الزخرف 80 وقد ذكر الله علمه بما سيكون بعد ان يكون في بضعة عشر موضعا في القرآن مع اخباره في مواضع اكثر من ذلك انه يعلم ما يكون قبل ان يكون وقد اخبر في القرآن من المستقبلات التي لم تكن بعد بما شاء الله بل اخبر بذلك نبيه وغير نبيه ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء بل هو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف كان يكون كقوله {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} الأنعام 28 بل وقد يعلم بعض عباده بما شاء ان يعلمه من هذا وهذا وهذا ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء قال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ} البقرة 143 وقال {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ} آل عمران 142 وقوله {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} آل عمران 140 وقوله {165} وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النُّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ {166}

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 439

وَالْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا {167} ال عمران 166-167 وقوله {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ} التوبة 16 وقوله {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا} الكهف 12 وقوله {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} العنكبوت 3 الى قوله {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} العنكبوت 11 وقوله {وَلَنَبِّئَنَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبِّئَ أَرْكَمَ} محمد 31 وغير ذلك من المواضع روى عن ابن عباس في قوله الا لنعلم أي لنرى وروى لنميز وهكذا قال عامة المفسرين الا لنرى ونميز وكذلك قال جماعة من اهل العلم قالوا لنعلمه موجودا واقعا بعد ان كان قد علم انه سيكون ولفظ بعضهم قال العلم على منزلتين علم بالشيء قبل وجوده وعلم به بعد وجوده والحكم للعلم به بعد وجوده لانه يوجب الثواب والعقاب قال فمعنى قوله لنعلم أي لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب ولا ريب انه كان عالما سبحانه بأنه سيكون لكن لم يكن المعلوم قد وجد وهذا كقوله {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} يونس 18 أي بما لم يوجد فانه لو وجد لعلمه فعلمه بأنه موجود ووجوده متلازمان يلزم من ثبوت احدهما ثبوت الآخر ومن انتفائه انتفائه¹

فأما إثبات علمه وتقديره للحوادث قبل كونها ففي القرآن والحديث والآثار ما لا يكاد يحصر بل كل ما أخبر الله به قبل كونه فقد علمه قبل كونه وهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وقد أخبر بذلك والنزاع في هذا مع غلاة القدرية ونحوهم وأما المستقبل فمثل قوله {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ} آل عمران 142²

"لا تتمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا"

وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} {2} كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} {3} إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا} {4} الصف 2-4 نزلت هذه الآية لما قالوا لو علمنا أي الاعمال احب الى الله لعملناه فانزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه ولهذا كرهه للمرء ان يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك او يطلب ولاية او يقدم على بلد فيه طاعون كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي انه نهى عن النذر وقال انه لا ياتي بخير وانما يستخرج به من البخيل وثبت عن في الصحيحين انه قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 465-467

²رسالة في تحقيق مسألة علم الله ج: 1 ص: 183

مسألة وكلت اليها وان اعطيتها من غير مسألة اعنت عليها اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك وثبت عنه في الصحيحين انه قال في الطاعون اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه والرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة للرضا ولهذا كان طائفة من الناس يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء فإذا وقع انفسحت عزائمهم كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره كما قال تعالى **{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمْوَهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}** آل عمران 143 وثبت عنه في الصحيحين انه قال لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن اذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف وامثال ذلك مما يقتضى ان الإنسان لا ينبغي ان يسعى فيما يوجب عليه اشياء ويحرم عليه اشياء فيدخل بالوفاء كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهدا على امور وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود ويقتضى ان الانسان إذا ابتلى فعليه ان يصبر ويثبت ولا يكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه وقد ذكر الله الصبر في كتابه في اكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة في قوله تعالى **{وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}** البقرة 45 **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}** البقرة 153

1

قال تعالى **{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمْوَهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}** آل عمران 143 وقال تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} 2** **{كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} 3** **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا} 4** الصف 2-4 وفي الترمذي أن بعض الصحابة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد قال تعالى **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}** النساء 77 فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه فلما ابتلوا به كرهوه وفروا منه وأين ألم الجهاد من ألم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به ²

وكم ممن يتشوق الى الدرجات العالية التي لا يقدر ان يقوم بحقوقها فيكون وصوله اليها وبالا في حقه وهذا في امر الدنيا كما قال تعالى **وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} 75** **{فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ} 76** **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} 77** التوبة 75-77 وغالب من يتعرض للمحن والابتلاء ليرتفع بها ينخفض بها لعدم ثباته في المحن بخلاف من ابتلاه الحق ابتداء كما قال تعالى **{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمْوَهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}** آل

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 37-39 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 52-53 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 53

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 243

عمران 143 وقال النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها وان اعطيتها عن غير مسألة اعنت عليها وقال اذا سمعتم بالطاعون ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منها¹

العزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق

فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ وما أكثر إفساخ العزائم خصوصا عزائم الصوفية ولهذا قيل لبعضهم بماذا عرفت ربك قال بفسخ العزائم ونقض الهمم وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشائخ {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفُوهَ ففَدَّرَ رَأَيْتُمْوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} آل عمران 143 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} 2 {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} 3 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} 2 {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} 3 {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ} 4 {الصف 2-4 وفي الترمذي أن بعض الصحابة قالوا للنبي لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} النساء 77 الآية فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما إبتلوا به كرهوه وفرروا منه وأين ألم الجهاد من ألم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به ومثل هذا ما يذكرونه عن سمنون المحب أنه كان يقول وليس في سواك حظ فكيفما شئت فإختبرني فأخذ العسر من ساعته أي حصر بوله فكان يدور على المكاتب ويفرق الجوز على الصبيان ويقول أدعوا لعكمم الكذاب وحكى أبو نعيم الأصبهاني عن أبي بكر الواسطي انه قال سمنون يارب قد رضيت بكل ما تقضيه على فإحتبس بوله أربعة عشر يوما فكان يتلوى كما تتلوى الحية يتلوى يمينا وشمالا فلما أطلق بوله قال رب قد تبت إليك قال أبو نعيم فهذا الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلظه فيه بأدنى بلوى مع أن سمنونا هذا كان يضرب به المثل وله في المحبة مقام مشهور حتى روى عن إبراهيم ابن فاتك أنه قال رأيت سمنونا يتكلم على الناس في المسجد الحرام فجاء طائر صغير فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يده ثم لم يزل يضرب بمنقاره الأرض حتى سقط منه دم ومات الطائر وقال رأيتته يوما يتكلم في المحبة فإصطفقت قناديل المسجد وكسر بعضها بعضا وقد ذكر القشيري في باب الرضا عن رويم المقرئ رفيق سمنون حكاية تناسب هذا حيث قال قال رويم إن الراضي لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره فهذا يشبه قول سمنون فكيف ما شئت فإمتحنى وإذا لم يطق الصبر على عسر البول أفيطيق أن تكون النار عن يمينه والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وإبتلى بعسر البول فغلبه الألم حتى قال بحبي لك إلا فرجت عنى ففرج عنه و رويم وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة بل الصوفية يقولون أنه رجع

¹الاستقامة ج: 2 ص: 56

إلى الدنيا وترك التصوف حتى روى عن جعفر الخدي صاحب الجنيد أنه قال من أراد أن يستكنم سرا فليعمل كما فعل رويم كتم حب الدنيا أربعين سنة فقيل وكيف يتصور ذلك قال ولى إسماعيل بن إسحق القاضي قضاء بغداد وكان بينهما مودة أكيدة فجذبته إليه وجعله وكيلا على بابه فترك لبس التصوف ولبس الخز والقصب والديبقي وأكل الطيبات وبنى الدور وإذا هو كان يكتنم حب الدنيا ما لم يجدها فلما أظهر ما كان يكتنم من حبها هذا مع أنه رحمه الله كان له من العبادات ما هو معروف وكان على مذهب داود وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر فى لوازم أقواله وعواقبها لا تجعل طريقة ولا تتخذ سبيلا ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك وما معه من التقصير فى معرفة حقوق الطريق وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر والرسول صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصا مخطئا محروما وإن لم يكن عاصيا أو فاسقا أو كافرا ويشبه هذا الأعرابي الذى دخل عليه النبي وهو مريض كالفرخ فقال هل كنت تدعو الله بشيء قال كنت أقول اللهم ما كنت معذبني به فى الآخرة فأجعله فى الدنيا فقال سبحان الله لا تستطيعه ولا تطيقه هلا قلت ربنا أتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فهذا أيضا حمله خوفا من عذاب النار ومحبهه لسلامة عاقبته على أن يطلب تعجيل ذلك فى الدنيا وكان مخطئا فى ذلك غالطا والغلط مع حسن القصد وسلامته وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثيرا جدا جدا فليس من شرط ولى الله أن يكون معصوما من الخطأ والغلط بل ولا من الذنوب وأفضل اولياء الله بعد الرسول أبوبكر الصديق رضى الله عنه وقد ثبت عن النبي أنه قال له لما عبر الرؤيا أصيب بعضا وأخطأت بعضا¹

"لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم"

قال تعالى { قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا } {21} قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدًّا } {22} إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا } {23} الجن 21-23 وهذا ونحوه يتضمن اعترافه بأنه عبد الله ورسول من الله لا يتعدى حد الرسالة ولا يدعي المشاركة فى الألوهية فتبين أنه لا يتعدى حد الرسالة ولهذا قال وفي الحديث المتفق على صحته لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله²

ان الرسول في حياته شاهد على الأمة مأمور بسياستها بنفسه أو نائبه وبعد موته انقطع عنه التكليف كما قال المسيح { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ } المائدة 117 الآية لم يقل كان خليفتي الشهيد

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 689-693 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 241 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 122 و الاستقامة ج: 2 ص: 87

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 158

عليهم وهذا دليل على أن المسيح لم يستخلف فدل على أن الأنبياء لا يجب عليهم الاستخلاف بعد الموت وكذلك ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فأقول كما قال العبد الصالح { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ } المائدة 117 وقد قال تعالى { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } آل عمران 144 فالرسول بموته انقطع عنه التكليف وهو لو استخلف خليفة في حياته لم يجب إن يكون معصوما بل كان يولي الرجل ولاية ثم يتبين كذبه فيعزله كما ولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو لو استخلف رجلا لم يجب إن يكون معصوما وليس هو بعد موته شهيدا عليه ولا مكلفا برده عما يفعله بخلاف الاستخلاف في الحياة¹

"من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات"

قوله صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات) لفظه إنما للحصر عند جماهير العلماء وهذا مما يعرف بالإضطرار من لغة العرب كما تعرف معانى حروف النفي والإستفهام والشرط وغير ذلك لكن تنازع الناس هل دلالتها على الحصر بطريق المنطوق او المفهوم على قولين والجمهور على أنه بطريق المنطوق والقول الآخر قول بعض مثبتى المفهوم كالقاضى أبى يعلى فى أحد قولييه وبعض الغلاة من نفاته وهؤلاء زعموا أنها تفيد الحصر واحتجوا بمثل قوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ } الحجرات 10 وقد احتج طائفة من الأصوليين على أنها للحصر بأن حرف إن للإثبات وحرف ما للنفي فإذا إجتمعا حصل النفي والإثبات جميعا وهذا خطأ عند العلماء بالعربية فإن ما هنا هو ما الكافة ليست ما النافية وهذه الكافة تدخل على إن وأخواتها فتكفها عن العمل وذلك لأن الحروف العاملة اصلها ان تكون للإختصاص فإذا إختصت بالإسم أو بالفعل ولم تكن كالجزء منه عملت فيه فإن وأخواتها إختصت بالإسم فعملت فيه وتسمى الحروف المشبهة للأفعال لأنها عملت نصبا ورفعا وكثرت حروفها وحروف الجر إختصت بالإسم فعملت فيه وحروف الشرط إختصت بالفعل فعملت فيه بخلاف أدوات الإستفهام فإنها تدخل على الجملتين ولم تعمل وكذلك ما المصدرية ولهذا القياس فى ما النافية أن لا تعمل أيضا على لغة تميم ولكن تعمل على اللغة الحجازية التى نزل بها القرآن فى مثل قوله تعالى { مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ } المجادلة 2 و { مَا هَذَا بَشَرًا } يوسف 31 إستحسانا لمشابهتها ليس هنا لما دخلت ما الكافة على أن أزالته إختصاصها فصارت تدخل على الجملة الإسمية والجملة والفعلية فبطل عملها كقوله { إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ } الرعد 7 وقوله { إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } الطور 16 وقد تكون ما التى بعد أن إسمها لا حرفا كقوله { إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ } طه 69 بالرفع أى ان الذى صنعوه كيد ساحر خلاف قوله { إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } طه 72 فإن القراءة بالنصب لا تستقيم إذا كانت ما بمعنى الذى وفى كلا المعنيين الحصر موجود لكن إذا كانت ما بمعنى الذى فالحصر جاء من جهة أن المعارف هى من صيغ العموم فإن

¹ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 343

الأسماء أما معارف وإما نكرات والمعارف من صيغ العموم والنكرة في غير الموجب كالنفي وغيره من صيغ العموم فقوله { **إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا** } طه 69 تقديره أن الذي صنعه كيد ساحر وأما الحصر في إنما فهو من جنس الحصر بالنفي والإستثناء كقوله تعالى { **مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا** } الشعراء 154 { **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ** } آل عمران 144 والحصر قد يعبر عنه بأن الأول محصور في الثاني وقد يعبر عنه بالعكس والمعنى واحد وهو أن الثاني أثبت الأول ولم يثبت له غيره مما يتوهم أنه ثابت له وليس المراد أنك تنفى عن الأول كل ما سوى الثاني فقوله { **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ** } الرعد 7 أى أنك لست ربا لهم ولا محاسبا ولا مجازيا ولا وكيفا عليهم كما قال { **لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ** } الغاشية 22 وكما قال { **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ** } آل عمران 20 { **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** } المائدة 75 ليس هو إلهها ولا أمة الهة بل غايته أن يكون رسولا كما غاية محمد أن يكون رسولا وغاية مريم أن تكون صديقة وهذا مما إستدل به على بطلان قول بعض المتأخرين أنها نبية وقد حكى الإجماع على عدم نبوة أحد من النساء القاضى ابوبكر ابن الطيب والقاضى أبويعلى والأستاذ ابوالمعالى الجوينى وغيرهم وكذلك قوله تعالى { **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** } آل عمران 144 أى ليس مخلدا في الدنيا لا يموت ولا يقتل بل يجوز عليه ما جاز على اخوانه المرسلين من الموت أو القتل { **أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** } آل عمران 144 نزلت يوم أحد لما قيل أن محمدا قد قتل وتلاها الصديق يوم مات رسول الله فقال من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وتلى هذه الآية فكان الناس لم يسمعوها حتى تلاها ابوبكر رضى الله تعالى عنه فكان لا يوجد احد إلا يتلوها¹

وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل فقال الله لهم { **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ** } النحل 43 يعنى أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون هل أرسل اليهم رجالا أو ملائكة ولهذا قال { **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** } آل عمران 144 بين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم في أمور الأنبياء هل هو من جنس ما جاء به محمد أو هو مخالف له ليتبين بإخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبياء وحينئذ فيعرف قطعا أن محمدا نبي بل هو أحق بالنبوة من غيره والمقصود أن الله قال { **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** } آل عمران 144 فبين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال فهو معتاد في الأدميين وان كان قليلا فيهم وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولا كقوم نوح فهذا بمنزلة ما يبتدئه الله من الأمور وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله فهذا يدل على النوع والشخص وان كانت آيات غيره تدل على الشخص إذ النوع قد عرف قبل هذا فالمقصود أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصا بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع ولا يجوز أن يوجد لغير النوع وقد قلنا إن ما يأتي به أتباع الانبياء من ذلك هو مختص بالنوع فأنا نقول هذا لا يكون إلا لمن اتبع الأنبياء

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 265-266

فصار مختصا بهم وأما ما يوجد لغير الانبياء وأتباعهم فهذا هو الذي لا يدل على النبوة كخوارق
السحرة والكهان¹

بين سبحانه وتعالى أنه ليس بموته ولا قتله ينتقض حكم رسالته

ان الله أرسله إلى الناس وفرض عليهم طاعته لا لأجل كونه إماما له شوكة وأعوان أو لأجل أن
غيره عهد إليه بالإمامة أو غير ذلك فطاعته لا تقف على ما تقف عليه طاعة الأئمة من عهد من قبله
أو موافقة ذوي الشوكة أو غير ذلك بل تجب طاعته صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن معه أحد وإن
كذبه جميع الناس وكانت طاعته واجبة بمكة قبل أن يصير له أنصار وأعوان يقاتلون معه فهو كما
قال سبحانه فيه { **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** } آل عمران 144 بين سبحانه
وتعالى أنه ليس بموته ولا قتله ينتقض حكم رسالته كما ينتقض حكم الإمامة بموت الأئمة وقتلهم وأنه
ليس من شرطه أن يكون خالدا لا يموت فإنه ليس هو ربا وإنما هو رسول الله قد خلت من قبله الرسل
وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده وعبداً حتى أتاه اليقين من ربه
فطاعته واجبة بعد مماته وجوبها في حياته وأؤكد لأن الدين كمل واستقر بموته فلم يبق فيه نسخ ولهذا
جمع القرآن بعد موته لكماله واستقراره بموته²

أن أبا بكر كان أشجع الناس

أن أبا بكر كان أشجع الناس ولم يكن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أشجع منه ولهذا لما مات
النبي صلى الله عليه وسلم ونزلت بالمسلمين أعظم نازلة نزلت بهم حتى أو هنت العقول وطيشت
الألباب واضطربوا اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة القعر فهذا ينكر موته وهذا قد أقعد وهذا قد
دهش فلا يعرف من يمر عليه ومن يسلم عليه وهؤلاء يضحون بالبكاء وقد وقعوا في نسخه القيامة
وكانها قيامة صغرى مأخوذة من القيامة الكبرى وأكثر البوادي قد ارتدوا عن الدين وذلت كماتة فقام
الصديق رضي الله عنه بقلب ثابت وفؤاد شجاع فلم يجزع ولم ينكل قد جمع له بين الصبر واليقين
فأخبرهم بموت النبي صلى الله عليه وسلم وأن الله اختار له ما عنده وقال لهم من كان يعبد محمداً فإن
محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت { **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ** } آل عمران 144 فكان الناس لم يسمعوا هذه الآية حتى تلاها الصديق فلا تجد أحداً إلا وهو
يتلوها ثم خطبهم فثبتهم وشجعهم قال أنس خطبنا أبو بكر رضي الله عنه وكنا كالثعالب فما زال
يشجعنا حتى صرنا كالأسود³

¹النبوات ج: 1 ص: 19-20

²منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 82-83

³منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 83

المعروف من حالهم دائما وحاله أنهم وقت المخاوف يكون الصديق أكمل منهم كلهم يقينا وصبرا وعند وجود أسباب الريب يكون الصديق أعظم يقينا وطمأنينة وعند ما يتأذى منه النبي صلى الله عليه وسلم يكون الصديق أتبعهم لمرضاته وأبعدهم عما يؤذيه هذا هو المعلوم لكل من استقرأ أحوالهم في محيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته حتى أنه لما مات وموته كان أعظم المصائب التي تزلزل بها الإيمان حتى ارتد أكثر الأعراب واضطرب لها عمر الذي كان أقواهم إيمانا وأعظمهم يقينا كان مع هذا تثبيت الله تعالى للصديق بالقول الثابت أكمل وأتم من غيره وكان في يقينه وطمأنينته وعلمه وغير ذلك أكمل من عمر وغيره فقال الصديق رضي الله عنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم قرأ **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران 144** وفي البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسنح فقام عمر يقول والله ما مات رسول الله قالت وقال عمر والله ما كان يقع في نفسي إلا ذلك وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم فجاء أبو بكر فكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله وقال بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتين أبدا ثم خرج فقال أيها الحالف على رسلك فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال ألا من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وقال **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} الزمر 30** وقال **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران 144** قال فنشج الناس بيبكون وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سمع خطبة عمر الأخيرة حين جلس على المنبر وذلك وذلك الغد من يوم توفى رسول الله عليه وسلم فتشهد وأبو بكر صامت لا يتكلم قال كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدبرنا يريد بذلك أن يكون آخرهم فإن بك محمد قد مات فإن الله قد جعل بين أظهركم نورا وسلم الله عليه وسلم ثاني اثنين وإنه أولى المسلمين بأمرهم فقوموا فبايعوه وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة وكانت بيعة العامة على المنبر وفي طريق آخر في البخاري أما بعد فاختر الله لرسوله الذي عنده على الذي عندكم وهذا الذي هدى به رسوله فخذوا به تهتدوا وإنما هدى الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ذكره البخاري في كتاب الاعتصام بالسنة¹

في الصحيحين عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال اجلس يا عمر فأبي أن يجلس فأقبل الناس إليه وتركوا عمر فقال أبو بكر أما بعد فمن كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله تعالى **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران 144** قال والله لكان الناس لم يعلموا أن الله قد أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها الناس كلهم فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها فأخبرني ابن المسيب أن عمر قال والله ما هو إلا أن سمعت

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 452-454 و منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 479

أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات¹

القسم الممدوح هم أهل الصبر و الشكر

والقسم الممدوح هم الذين يدعونه و يتوبون اليه و يثبتون على عبادته و التوبة اليه في حال السراء فيعبدونه و يطيعونه في السراء و الضراء و هم أهل الصبر و الشكر كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام فقال تعالى {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} {87} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} {88} الأنبياء 87- 88 وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {146} وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {148} آل عمران 146-148 وقوله { قَاتَلْ } آل عمران 146 أي النبي قتل هذا أصح القولين وقوله { مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ } آل عمران 146 جملة في موضع الخبر صفة للنبي صفة بعد صفة أي كم من نبي معه ربيون كثير قتل و لم يقتلوا معه فانه كان يكون المعنى أنه قتل و هم معه و المقصود أنه كان معه ربيون كثير و قتل في الجملة و أولئك الربيون {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} آل عمران 146 و الربيون الجموع الكثيرة و هم الألواف الكثيرة وهذا المعنى هو الذي يناسب سبب النزول و هو ما أصابهم يوم أحد لما قيل إن محمدا قد قتل و قد قال قبل ذلك {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران 144 و هي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم و قال من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات و من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت فانه عند قتل النبي و موته تحصل فتنة عظيمة للناس المؤمنين و الكافرين و تحصل ردة و نفاق لضعف قلوب أتباعه لموته و لما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين إن هذا قد انقضى أمره و ما بقى يقول دينه و انه لو كان نبيا لما قتل و غلب و نحو ذلك فأخبر الله تعالى أنه كم من نبي قتل فان بنى اسرائيل كثيرا من الأنبياء و النبي معه ربيون كثير أتباع له و قد يكون قتله في غير حرب و لا قتال بل يقتل و قد اتبعه ربيون كثير فما و هن المؤمنون لما أصابهم بقتله و ما ضعفوا و ما استكانوا و الله يحب الصابرين و لكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم و سألوا الله أن يغفر لهم و أن يثبت أقدامهم فيثبتهم على الايمان و الجهاد لئلا يرتابوا و لا يهلكوا عن الجهاد قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات 15 و سألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من التثبيت و ما يعطيهم من عنده من النصر فانه هو الناصر و حده و ما النصر إلا من عند الله و كذا أنزل الملائكة عونا لهم قال تعالى لما أنزل

¹ منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 323 و مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 363

الملائكة {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
 {الأنفال: 10} وقال تعالى {فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} آل
 عمران 148 و هذا مبسوط في موضع آخر¹

الأمور العامة التي يفعلها الله عز وجل تكون لحكمة عامة

الأمور العامة التي يفعلها الله عز وجل تكون لحكمة عامة ورحمة عامة كإرسال محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} {الأنبياء: 107} فإن إرساله كان من أعظم النعمة على الخلق و فية أعظم حكمة للخالق و رحمة منه لعباده كما قال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران 164 و قال تعالى {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} {الأنعام: 53} و قال {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} آل عمران 144 و قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا} إبراهيم 28 قالوا هو محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قال قائل فقد تضرر برسالته طائفة من الناس كالذين كذبوه من المشركين و أهل الكتاب كان عن هذا جوابان أحدهما أنه نفعهم بحسب المكان فإنه أضعف شرهم الذي كانوا يفعلونه لولا الرسالة بإظهار الحجج و الآيات التي زلزلت ما في قلوبهم و بالجهاد و الجزية التي أخافتهم و أدلتهم حتى قل شرهم و من قتله منهم مات قبل أن يطول عمره في الكفر فيعظم كفره فكان ذلك تقليلاً لشره و الرسل صلوات الله عليهم بعثوا بتحصيل المصالح و تكميلها و تعطيل المفساد و تقليلها بحسب الإمكان و الجواب الثاني أن ما حصل من الضرر أمر مغمور في جنب ما حصل من النفع كالمطر الذي عم نفعه إذا خرب به بعض البيوت أو إحتبس به بعض المسافرين و المكتسبين كالقصارين و نحوهم و ما كان نفعه و مصلحته عامه كان خيراً مقصوداً و رحمة محبوبة و إن تضرر به بعض الناس و هذا الجواب أجاب به طوائف من المسلمين و أهل الكلام و الفقه و غيرهم من الحنفية و الحنبلية و غيرهم و من الكرامية و الصوفية و هو جواب كثير من المتفلسفة²

أعظم نعمة إرسال محمد صلى الله عليه وسلم

إن نعم الله على عباده تتضمن نفعهم و الإحسان إليهم و ذلك نوعان أحدهما أن يدفع بذلك مضرتهم و يزيل حاجتهم و فاقتهم مثل رزقهم الذي لولا هو لماتوا جوعاً و نصرهم الذي لولا هو لأهلكهم عدوهم

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 373-375

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 93

ومثل هداهم الذي لولا هو لضلوا ضلالا يضرهم في آخرتهم وهذا النوع من النعمة لا بد لهم منه وإن فقدوه حصل لهم ضرر إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما ولهذا كان في سورة النحل وهي سورة النعم في أولها أصول النعم وفي أثنائها كمال النعم والنوع الثاني النعم التي تحصل بها من كمال النعم وعلو الدرجة ما لا يحصل بدونها كما أنهم في الآخرة نوعان أبرار أصحاب يمين ومقربون سابقون ومن خرج عن هذين كان من أصحاب الجحيم وإذا كانت النعمة نوعين فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد من هذين الوجهين وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة فإن الناس بدونهم كانوا جهالا ضالين أميين وأهل الكتاب منهم ولم يكن قد بقي من أهل الكتاب أتباع المسيح من هو قائم بالدين الذي يوجب السعادة عند الله في الآخرة بل كانوا قد بدلوا وغيروا وأيضا فلو قدر أنهم لم يبدلوا شيئا ففي إرساله من كمال النعم وتواصلها وعلو الدرجات في السعادة ما لم يكن حاصلًا بالكتاب الأول فكان إرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض من نوعي النعيم ومن استقرأ أحوال العالم تبين له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرساله وإن الذين ردوا رسالته هم من قال الله فيهم { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ { إبراهيم 28 ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ { آل عمران 144¹

" الربيون هم الفقهاء المعلمون "

قال تعالى { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ { 144 } وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ { 145 } وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ { 146 } وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ { 147 } آل عمران 144-147

الآيات والأكثرين يقرؤون قاتل والربيون الكثير عند جماهير السلف والخلف هم الجماعات الكثيرة قال ابن مسعود وابن عباس في رواية عنه والفراء ألوف كثيرة وقال ابن عباس في أخرى ومجاهد وقيادة جماعات كثيرة وقرىء بالحركات الثلاث في الرء فعلى هذه القراءة فالربيون الذين قاتلوا معه الذين ما وهنوا وما ضعفوا وأما على قراءة أبي عمرو وغيره ففيها وجهان أحدهما يوافق الأول أي الربيون يقتلون فما وهنوا أيما ما وهن من بقي منهم لقتل كثير منهم أي ما ضعفوا لذلك ولا دخلهم خور ولا ذلوا لعدوهم بل قاموا بأمر الله في القتال حتى أدلهم الله عليهم وصارت كلمة الله هي العليا والثاني أن النبي قتل معه ربيون كثير فما وهن من بقي منهم لقتل النبي وهذا يناسب صرخ الشيطان أن محمدا قد قتل لكن هذا لا يناسب لفظ الآية فالمناسب أنهم مع كثرة المصيبة ما وهنوا ولو أريد أن النبي قتل ومعه ناس لم يخافوا لم يحتج الى تكثيرهم بل تقليلهم هو المناسب لها فإذا كثروا لم يكن في

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 86-88

مدحهم بذلك عبرة وأيضا لم يكن فيه حجة على الصحابة فإنهم يوم أحد قليلون والعدو أضعافهم فيقولون ولم يهنوا لأنهم ألوف ونحن قليلون وأيضا فقوله { **وَكَأَيِّنْ مِّنْ نَّبِيٍّ { آل عمران 146** يقتضى كثرة ذلك وهذا لا يعرف أن أنبياء كثيرين قتلوا فى الجهاد وأيضا فيقتضى أن المقتولين مع كل واحد منهم ربيون كثير وهذا لم يوجد فإن من قبل موسى من الأنبياء لم يكونوا يقاتلون وموسى وأنبياء بنى إسرائيل لم يقتلوا فى الغزو بل ولا يعرف نبي قتل فى جهاد فكيف يكون هذا كثيرا ويكون جيشه كثيرا والله سبحانه أنكر على من ينقلب سواء كان النبي مقتولا أو ميتا فلم يذمهم إذا مات أو قتل على الخوف بل على الانقلاب على الأعقاب ولهذا تلاها الصديق رضى الله عنه بعد موته صلى الله عليه وسلم فكأن لم يسمعوها قبل ذلك ثم ذكر بعدها معنى آخر وهو أن من كان قبلكم كانوا يقاتلون فيقتل منهم خلق كثير وهم لا يهنون فيكون ذكر الكثرة مناسبا لأن من قتل مع الأنبياء كثير وقتل الكثير من الجنس يقتضى الوهن فما وهنوا وإن كانوا كثيرين ولو وهنوا دل على ضعف إيمانهم ولم يقل هنا ولم ينقلبوا على أعقابهم فلو كان المراد أن نبيهم قتل لقال فإنقلبوا على أعقابهم لأنه هو الذى أنكره إذا مات النبي أو قتل فأنكر سبحانه شئيين الإرتداد إذا مات أو قتل والوهن والضعف والإستكانة لما أصابهم فى سبيل الله من إستيلاء العدو ولهذا قال { **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ { آل عمران 146** الخ ولم يقل فما وهنوا لقتل النبي ولو قتل وهم أحياء لذكر ما يناسب ذلك ولم يقل { **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ { آل عمران 146** ومعلوم إنما يصيب فى سبيل الله فى عامة الغزوات لا يكون قتل نبي وأيضا فكون النبي قاتل معه أو قتل معه ربيون كثير لا يستلزم أن يكون النبي معهم فى الغزاة بل كل من اتبع النبي وقاتل على دينه فقد قاتل معه وكذلك كل من قتل على دينه فقد قتل معه وهذا الذى فهم الصحابة فإن أعظم قتالهم كان بعد وفاته صلى الله عليه وسلم حتى فتحوا البلاد شاما ومصر وعرافا ويمنا وعربا وعجما وروما ومغربا ومشرقا وحينئذ فظهر كثرة من قتل معه فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرين ويكون فى هذه الآية عبرة لكل المؤمنين الى يوم القيامة فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي صلى الله عليه وسلم على دينه وإن كان قد مات والصحابة الذين يغزون فى السرايا والنبي ليس معهم كانوا معه يقاتلون وهم داخلون فى قوله { **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ {الفتح 29** الآية وفى قوله { **وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ { الأنفال 75** الآية ليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون مشاهدا للمطاع ناظرا اليه وقد قيل فى { **رَبِّيُونَ { آل عمران 146** هنا أنهم العلماء فلما جعل هؤلاء هذا كلفظ الربانى وعن ابن زيد هم الأتباع كأنه جعلهم المرئيين والأول أصح من وجوه أحدها أن الربانيين عين الأبحار وهم الذين يربون الناس وهم أئمتهم فى دينهم ولا يكون هؤلاء إلا قليلا الثانى أن الأمر بالجهاد والصبر لا يختص بهم وأصحاب الأنبياء لم يكونوا كلهم ربانيين وإن كانوا قد أعطوا علما ومعهم الخوف من الله عز وجل الثالث أن إستعمال لفظ الربانى فى هذا ليس معروفا فى اللغة الرابع أن إستعمال لفظ الربى فى هذا ليس معروفا فى اللغة بل المعروف فيها هو الأول والذين قالوه قالوا هو نسبة للرب بلا نون والقراءة المشهورة ربي بالكسر وما قالوه إنما يتوجه على من قرأه بنصب الراء وقد قرئ بالضم فعلم أنها لغات الخامس أن الله تعالى يأمر بالصبر والثبات كل من يأمره بالجهاد سواء كان من الربانيين أو لم يكن السادس أنه لا مناسبة فى تخصيص هؤلاء بالذكر وإنما المناسب ذكرهم فى مثل قوله { **لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ { المائدة 63** الآية وفى قوله { **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ { آل عمران 79** فهناك ذكرهم به مناسبا السابع قيل إن الربانى منسوب الى الرب فزيادة الألف والنون كاللحيانى وقيل الى تربيته الناس وقيل الى ربان السفينة وهذا أصح فإن الأصل عدم الزيادة فى النسبة لأنهم منسوبون الى

التربية وهذه تختص بهم وأما نسبتهم الى الرب فلا إختصاص لهم بذلك بل كل عبد له فهو منسوب اليه إما نسبة عموم أو خصوص ولم يسم الله أولياءه المتقين ربانيين ولا سمي به رسله وأنبياءه فإن الرباني من يرب الناس كما يرب الرباني السفينة ولهذا كان الربانيون يذمون تارة ويمدحون أخرى ولو كانوا منسوبين الى الرب لم يذموا قط وهذا هو الوجه الثامن أنها إن جعلت مدحا فقد ذموا في مواضع وإن لم تكن مدحا لم يكن لهم خاصة يمتازون بها من جهة المدح وإذا كان منسوباً الى رباني السفينة بطل قول من يجعل الرباني منسوباً الى الرب فنسبة الربيون الى الرب أولى بالبطلان التاسع أنه إذا قدر أنهم منسوبون الى الرب فلا تدل النسبة على أنهم علماء نعم تدل على إيمان وعبادة وتآله وهذا يعم جميع المؤمنين فكل من عبد الله وحده لا يشرك به شيئاً فهو متأله عارف بالله والصحابة كلهم كذلك ولم يسموا ربانيين ولا ربيون وإنما جاء أن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس اليوم مات رباني هذه الأمة وذلك لكونه يؤدبهم بما آتاه الله من العلم والخلفاء أفضل منهم ولم يسموا ربانيين وإن كانوا هم الربانيين وقال ابراهيم كان علقمة من الربانيين ولهذا قال مجاهد هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره فهم أهل الأمر والنهي والأخبار يدخل فيه من أخبر بالعلم ورواه عن غيره وحدث به وإن لم يأمر أو ينه وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني نقل عن علي قال هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها وعن ابن عباس قال هم الفقهاء المعلمون قلت أهل الأمر والنهي هم الفقهاء المعلمون وقال قتادة وعطاء هم الفقهاء العلماء قال ابن قتيبة واحدهم رباني وهم العلماء المعلمون قال أبو عبيد أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين قلت اللفظة عربية منسوبة الى ربان السفينة الذي ينزلها ويقوم لمصلحتها ولكن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز وجل¹

الحسنة من إحسان الله تعالى والمصائب من نفس الإنسان

وقوله قتل أي النبي قتل هذا أصح القولين وقوله معه ربيون كثير جملة في موضع الخبر صفة للنبي صفة بعد صفة أي كم من نبي معه ربيون كثير قتل ولم يقتلوا معه فإنه كان يكون المعنى أنه قتل وهم معه والمقصود أنه كان معه ربيون كثير وقتل في الجملة وأولئك الربيون ما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والربيون الجموع الكثيرة وهم الألوف الكثيرة وهذا المعنى هو الذي يناسب سبب النزول وهو ما أصابهم يوم أحد لما قيل إن محمداً قد قتل وقد قال قيل ذلك { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } آل عمران 144 وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم وقال من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ما يحدث عند موت النبي فإنه عند قتل النبي أو موته تحصل فتنة عظيمة للناس المؤمنين والكافرين وتحصل ردة ونفاق لضعف قلوب أتباعه لموته ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين إن هذا قد انقضى أمره وما بقي يقوم دينه وأنه لو كان نبياً لما قتل و غلب ونحو ذلك فأخبر الله تعالى أنه كم من نبي قتل فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء والنبي معه ربيون كثير أتباع له وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال بل يقتل وقد اتبعه

¹ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 58-62

ربيون كثير فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم وسألوا الله أن يغفر لهم وأن يثبت أقدامهم فيثبتهم على الإيمان والجهاد لنلا يرتابوا ولا ينكلوا عن الجهاد قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات 15 وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من التثبيت وما يعطيهم من عنده من النصر فإنه هو الناصر وحده وما النصر إلا من عند الله وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم قال تعالى لما أنزل الملائكة { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } آل عمران 126 وقال تعالى { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } آل عمران 148 والمقصود هنا أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى والمصائب من نفس الإنسان وإن كانت بقضاء الله وقدره وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه وأن يستغفره من ذنوبه وأن لا يتوكل إلا عليه وحده فلا يأتي بالحسنات إلا هو فأوجب ذلك للعبد توحيدة والتوكل عليه وحده والشكر له وحده والاستغفار من الذنوب ¹

محبة الرب لعبده حق

وأما محبة الرب لعبده قال تعالى { وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } آل عمران 146 وقوله { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } آل عمران 148 وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله محبوب لذاته محبة حقيقة بل هي أكمل محبة فإنها كما قال تعالى البقرة { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 وكذلك هو سبحانه يحب ما يحب عباده المؤمنون وما هو في الله محبة حقيقية ²

قال تعالى { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } آل عمران 148 قال محبة وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم وهذه الآيات وأشباهاها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال ³

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 123-125

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 68 و النبوات ج: 1 ص: 76

³النبوات ج: 1 ص: 76

ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفي الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال قل اللهم إنني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي كان يقول في استفتاحه اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت وقد قال أبو البشر وزوجته {قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الأعراف 23 وقال موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} القصص 16 وقال ذوالنون يونس {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} الأنبياء 87 وقالت بلقيس {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} النمل 44 وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي وقد قال عن أهل القرى المعذبين {وَمَا ظَلَمْنَا هُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} هود 101 وأما قوله {اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} آل عمران 147 فقد قيل إن الذنوب هي الصغائر والاسراف هو الكبائر والتحقيق أن الذنوب اسم جنس والاسراف تعدى الحد ومجازة القصد كما في لفظ الاثم والعدوان فالذنوب كالاثم والاسراف كالعدوان كما في قوله {غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ} البقرة 173 ومجازة قدر الحاجة فالذنوب مثل اتباع الهوى بغير هدى من الله فهذا كله ذنب كالذى يرضى لنفسه ويغضب لنفسه فهو متبع لهواه والاسراف كالذى يغضب الله فيعاقب بأكثر مما أمر الله والآية في سياق قتال المشركين وما أصابهم يوم أحد وقد أخبر عن قبلهم بقوله {وَكَايُنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} آل عمران 146 وقد قيل على الصحيح المراد به النبي صلى الله عليه وسلم وإن لم يقتل في معركة فقد قتل أنبياء كثيرون {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {146} وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} {147} آل عمران 146-147 الآية فجمعوا بين الصبر والاستغفار وهذا هو المأمور به في المصائب الصبر عليها والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها والقتال كثيراً ما يقاتل الانسان فيه لغير الله كالذى يقاتل شجاعة ويقاوم حمية ويقاوم رياء فهذا كله ذنوب والذى يقاتل الله قد يسرف فيقتل من لا يستحق القتل ويعاقب الكفار بأشد مما أمر به قال الله تعالى {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً} الإسراء 33 وقال {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} الفرقان 67 وقال {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا} الأعراف 31 فالاسراف مجازة الحد هذا آخر ما كتبتة هنا والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله رب العالمين¹

مدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجوداً وعلماً

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 693-695

وقد أخبر سبحانه أن كثيرا من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أي ألوف كثيرة وانهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو وأن الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة فإذا كان هذا قتلى المؤمنين فما الظن بقتلى الأنبياء ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح وظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد فإن تابوا وانتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها فإن النبي إذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له فإذا ضيعوا عهده ظهر أولئك عليهم فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر موجب للعلم بأن المدار علة للدائر وقولنا من غير مزاحمة وصف آخر يزيل النقوض الواردة فهذا الاستقرار والتتابع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه وأن يجعل لهم السعادة ولمن خالفهم الشقاء وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ومن خالفه كان شقيا ومن هذا ظهور بخت نصر على بني إسرائيل فإنه من دلائل نبوة موسى إذ كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهود موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما¹

آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة

أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث وحين المبعث في حياتهم وبعد موتهم فقبل المبعث مثل إخبار من تقدم من الأنبياء به ومثل الإرهاصات الدالة عليه وأما حين المبعث فظاهر وأما في حياته فمثل نصره وإنجائه وإهلاك أعدائه وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه وإهلاك أعدائه كما قال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر 51 فإن قيل ففي الأنبياء من قد قتل كما أخبر الله أن بني إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق وفي أهل الفجور من يؤتية الله ملكا وسلطانا ويسلطه على مذنبين كما سلط بخت نصر على بني إسرائيل وكما يسلم كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين قيل أما من قتل من الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين في الجهاد شهيدا قال تعالى { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } {146} وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } {148} آل عمران 146-148 ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيدا في القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه قال تعالى { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياء عند ربهم يُرزقون } آل عمران 169 ولهذا قال تعالى { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ } التوبة 52 أي إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة ثم الدين الذي قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر فيكون لطائفته السعادة في الدنيا والآخرة من قتل منهم كان شهيدا ومن عاش منهم كان منصورا سعيدا وهذا غاية ما يكون من النصر إذ كان الموت لا بد منه

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 415-416

فالموت على الوجه الذي يحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم وفعلوا الأسباب التي بها قتلوا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم اختاروا هذا الموت إما أنهم قصدوا الشهادة وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء عالمين بأن لهم السعادة في الآخرة وفي الدنيا بانتصار طائفتهم وببقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء بخلاف من هلك من الكفار فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكاً لا يرجون معه سعادة الآخرة ولم يحصل لهم ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا بل اتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين وقيل فيهم¹

الذنوب المعصية والإسراف الاعتداء

وقال النبي إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها فالمعصية تضييع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي والاعتداء مجاوزة حدود المباحات إلى ما حرمه وقال تعالى { يَاْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } الأعراف 157 فالمعصية مخالفة أمره ونهيه والاعتداء مجاوزة ما احله إلى ما حرمه وكذلك قوله والله أعلم **{ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا }** آل عمران 147 فالذنوب المعصية والإسراف الاعتداء ومجاوزة الحد واعلم أن مجاوزة الحد هي نوع من مخالفة النهي لأن اعتداء الحد محرم منهى عنه فيدخل في قسم المنهي عنه لكن المنهي عنه قسمان منهى عنه مطلقا كالكفر فهذا فعله إثم ومنهي عنه وقسم أبيض منه أنواع ومقادير وحرم الزيادة على تلك الأنواع والمقادير فهذا فعله عدوان وكذلك قد يحصل العدوان في الأمور به كما يحصل في المباح فإن الزيادة على المأمور به قد يكون عدوانا وقد يكون مباحا مطلقا وقد يكون مباحا إلى غاية فالزيادة عليها عدوان ولهذا التقسيم قيل في الشريعة هي الأمر والنهي والحلال والحرام والفروض والحدود والسنن والأحكام فالفرائض هي المقادير في المأمور به والحدود النهايات لما يجوز من المباح المأمور به وغير المأمور به²

الشیطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره

والشیطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها فإنه أن رآه مائلا إلى الرحمة زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ولا يغار لما يغار الله منه وأن رآه مائلا إلى الشدة زين له له الشدة في غير ذات الله حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ويتعدى في الشدة فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والإحسان وهو مذموم مذنب في ذلك ويسرف فيما أمر الله به ورسوله من الشدة حتى يتعدى الحدود وهو من إسرافه في أمره فالأول مذنب والثاني مسرف والله لا يحب المسرفين

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 413-414

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 362-363 و مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 114

فليقولا جميعا {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
{آل عمران 147} ¹

قد يبغى بعض المستنثة اما على بعضهم و إما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به و هو الاسراف المذكور فى قولهم {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} {آل عمران 147} وبازاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فى هذه الأمور كلها فما أحسن ما قال بعض السلف ما أمر الله بأمر الا اعترض الشيطان فيه بأمرين لايبالي بأيهما ظفر غلوا أو تقصير فالمعين على الاثم و العدوان بازائه تارك الاعانة على البر و التقوى و فاعل المأمور به و زيادة منهى عنها بازائه تارك المنهى عنه و بعض المأمور به و الله يهدينا الصراط المستقيم و لا حول و لا قوة إلا بالله ²

جميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب

فالسؤال كقول السائل لله أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض إذا الجلال والإكرام وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته وليس ذلك إقساما عليه فإن أفعاله هى مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم وعفوه من مقتضى اسمه العفو ولهذا لما قالت عائشة للنبي إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول قال قولى اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادى وفى الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلا أن يقول يا دليل الحيارى دلنى على طريق الصادقين واجعلنى من عبادك الصالحين وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ولهذا يقال فى الدعاء يارب يارب ³

فالنور والمعرفة الذى هو أصل المحبة والإرادة ما تتميز به المحبة الإيمانية المحمدية المفصلة عن المجملة المشتركة وكما يقع هذا الإجمال فى المحبة يقع أيضا فى التوحيد قال الله تعالى فى أم الكتاب التى هى مفروضة على العبد وواجبة فى كل صلاة أن يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {5} وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن الله يقول قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {2} قال الله حمدنى عبدى وإذا قال {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} {3} قال الله أثنى على عبدى وإذا قال {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} {4} قال حمدنى عبدى أو قال فوض الى عبدى وإذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {5} قال فهذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 313

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 484

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 207

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ {7} قال فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل ولهذا روى أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع معانيها فى القرآن ومعانى القرآن فى المفصل ومعانى المفصل فى أم الكتاب ومعانى أم الكتاب فى هاتين الكلمتين { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} وهذا المعنى قد ثناه الله فى مثل قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } {هود 123} وفى مثل قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب } {الرعد 30} وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } {الشورى 10} وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى نسكه اللهم هذا منك ولك فهو سبحانه مستحق التوحيد الذى هو دعاؤه واخلص الدين له دعاء العبادة بالمحبة والإنابة والطاعة والإجلال والإكرام والخشية والرجاء ونحو ذلك من معانى تألهه وعبادته ودعاء المسئلة والاستعانة بالتوكل عليه والإلتجاء اليه والسؤال له ونحو ذلك مما يفعل سبحانه بمقتضى ربوبيته وهو سبحانه الاول والآخر والباطن والظاهر ولهذا جاءت الشريعة الكاملة فى العبادة باسم الله وفى السؤال باسم الرب فيقول المصلى والذاكر الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وكلمات الأذان الله أكبر الله أكبر الى آخرها ونحو ذلك وفى السؤال { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا } {الأعراف 23} { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي } {الأعراف 151} { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ } {القصص 17} { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } {القصص 16} { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } { آل عمران 147} { رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } {المؤمنون 118} ونحو ذلك¹

المعاصى سبب المصائب و الطاعة سبب النعمة

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته فى الآفاق وفى انفسنا وبما شهد به فى كتابه أن المعاصى سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } {النساء 79} وقال { وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } {الشورى 48} وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون فى الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به فى الآخرة ولهذا قال مؤمن آل فرعون { يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ } {30} مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ } {31} { يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ } {32} { يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } {33} { غافر 30-33} وقال تعالى { كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } {القلم 33} وقال { سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ } {التوبة 101} ولهذا يذكر الله فى عامة سور الانذار ما عاقب به أهل السيئات فى الدنيا وما أعده لهم فى الآخرة وقد يذكر فى السورة وعد الآخرة فقط اذ عذاب الآخرة أعظم وثوابها أعظم وهى دار القرار وانما يذكر ما يذكره من الثواب والعذاب فى الدنيا تبعا كقوله فى قصة يوسف { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } {56} { وَالْأَجْرُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ

¹ مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 455-456

لَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {57} يوسف 56-57 وقال {فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ
{آل عمران 148} ¹

فقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} البقرة 103 فاخبر أن أولياءه الذين آمنوا وكانوا يتقون ينبتهم على أن في ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه في الدنيا لو كانوا يعلمون فيحصل لهم في الآخرة من الخير الذي هو المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مما يحصلوه بذلك من خير الدنيا كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 56 ثم قال {وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} يوسف 57 وقال تعالى {وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {147} فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين {148} آل عمران 148 وقال عن إبراهيم {وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} النحل 122 ²

{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}

وأما الإحسان فقله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة 112 وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} النساء 125 فذكر إحسان الدين أولاً ثم ذكر الإحسان ثانياً ³

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلدنون في أسماء الله وآياته ولا يكييفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قبيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال {سُبْحَانَ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 140 و الاستقامة ج: 2 ص: 237

²قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 185-186

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ { الصافات 159 وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه { فَآتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ تَوَابَ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } آل عمران 148¹

الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين

الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين قال تعالى { لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ } الحشر 13 وقال { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ } الأنفال 12 وقال { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ } آل عمران 151 و في حديث قرطبة أن جبريل قال اني ذاهب اليهم فمززل بهم الحصن فتخويف الكفار و المنافقين و ارعابهم هو من الله نصره للمؤمنين²

الخوف الذي يحصل في قلوب الناس هو الشرك الذي في قلوبهم

والعبد اذا انعم الله عليه بالتوحيد فشهد ان لا اله الا الله مخلصا من قلبه والاله هو المعبود الذي يستحق غاية الحب والعبودية بالأجلال والاکرام والخوف والرجاء يفنى القلب بحب الله تعالى عن حب ما سواه ودعائه والتوكل عليه وسؤاله عما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه حلاه الله بالأمن والسرور والحبور والرحمة للخلق والجهاد في سبيل الله فهو يجاهد ويرحم له الصبر والرحمة قال الله تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } البلد 17 وكلما قوى التوحيد في قلب العبد قوى ايمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه والخوف الذي يحصل في قلوب الناس هو الشرك الذي في قلوبهم قال الله تعالى { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ } آل عمران 151 وكما قال الله جل جلاله في قصة الخليل عليه السلام { أَتَحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } الأنعام 80 الى قوله { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } الأنعام 82 وفي الحديث الصحيح تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش فمن كان في قلبه رياسة لمخلوق فيه من عبوديته بحسب ذلك فلما خوفوا خليله بما يعبدونه ويشركون به الشرك الأكبر كالعبادة قال الخليل { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } الأنعام 81 يقول ان تطيعوا غير الله وتعبدون غيره وتكلمون في دينه مالم ينزل به سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون أى تشركون بالله ولا تخافونه وتخوفوني انا بغير

¹العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 10

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 206 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 57

الله فمن ذا الذى يستحق الامن الى قوله { أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } الأنعام 82 أى هؤلاء الموحدون المخلصون ولهذا قال الامام احمد لبعض الناس لو صححت لم تخف أحدا¹

سيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال

والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى الى البر و البر يهدى الى الجنة و لا يزال الرجل يصدق و يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا و إياكم و الكذب فان الكذب يهدى الى الفجور و الفجور يهدى الى النار و لا يزال الرجل يكذب و يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا و قد ذكر فى غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى و كذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى و قال تعالى فى النوعين { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } {12} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ {13} { الأنفال 12-13 } وقال تعالى { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } آل عمران 151 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } آل عمران 155²

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته فى الآفاق وفى انفسنا وبما شهد به فى كتابه أن المعاصى سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } الشورى 30 وقال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } النساء 79 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ } آل عمران 155 وقال { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } آل عمران 165 وقال { أَوْ يُوبِقُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ } الشورى 34³

"الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح فى الشرع"

أن الضر لا يكشفه الا الله كما قال تعالى { وَإِنْ يَمَسُّنَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } يونس 107 والذنوب سبب للضر والاستغفار يزيل اسبابه كما قال تعالى

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 35-36

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 243 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 27

³مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 138 و الاستقامة ج: 2 ص: 234

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } { الأنفال 33 } فأخبر انه سبحانه لا يعذب مستغفرا وفي الحديث من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب وقال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } { الشورى 30 } فقله { إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } { الأنبياء 87 } اعتراف بالذنب وهو استغفار فإن هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة وقوله { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ س } { الأنبياء 87 } تحقيق لتوحيد الالهية فان الخير لا موجب له الا مشيئة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله وان كانت افعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحذور سببا للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغي للعبد ان لا يعلق رجاءه الا بالله ولا يخاف من الله ان يظلمه فان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون بل يخاف ان يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روى عن على رضى الله عنه انه قال لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه وفى الحديث المرفوع الى النبى انه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال ارجو الله واخاف ذنوبى فقال ما اجتماعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا اعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف فالرجاء ينبغى ان يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك وان كان الله قد جعل لها اسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لابد له من معاون ولا بد ان يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى الا بمشيئة الله تعالى ولهذا قيل الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والاعراض عن الاسباب الكلية قدح فى الشرع ولهذا قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } { 7 } { وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } { 8 } الشرح 7-8 فامر بأن تكون الرغبة اليه وحده وقال { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } { المائدة 23 } فالقلب لا يتوكل الا على من يرجوه فمن رجا قوته او عمله او علمه او حاله او صديقه او قرابته او شيخة او ملكة او ماله غير ناظر الى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا احد مخلوقا او توكل عليه الا خاب ظنه فيه فانه مشرك { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } { الحج 31 } وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا } { آل عمران 151 } والخالص من الشرك يحصل له الامن كما قال تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ } { الأنعام 82 } وقد فسر النبى الظلم هنا بالشرك ففى الصحيح عن ابن مسعود ان هذه الآية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا اينما لم يظلم نفسه فقال النبى انما هذا الشرك الم تسمعوا الى قول العبد الصالح { إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } { لقمان 13 }¹

من أحب شيئا كما يحب الله فقد أشرك

فمن أحب شيئا لذاته أو عظمه لذاته غير الله فذاك شرك به وإن أحبه ليتوصل به إلي محبوب آخر وتعظيم آخر سوي الله فهو من فروع هذا والله سبحانه لم يشرع أن يعبد الإنسان شيئا من دونه أو

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 255

يتخذ إليها ليتوصل بعبادته كما قال تعالى {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ} {الزخرف 45} وقال تعالى {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} {آل عمران 151} من أحب شيئاً كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد أشرك فمن أحب شيئاً كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندا وإن كان يقول إنما نعبدكم ليقربونا إلي الله زلفي وأنهم شفعاؤنا عند الله¹

قال الله تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} {7} {وَالِي رَبِّكَ فَارْغَبْ} {8} الشرح 7- 8 فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده وقال {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {المائدة 23} القلب لا يتوكل إلا على من يرجوه فمن رجا قوته أو عمله أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} {الحج 31} وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا} {آل عمران 151} والخالص من الشرك يحصل له الأمن قال تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} {الأنعام 82} وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم هنا بالشرك ففي الصحيح عن ابن مسعود أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما هذا الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح {إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} لقمان² 13

أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسُلطان

وقد بين في غير موضع أن السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل كما قال تعالى {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} {آل عمران 151} وإذا كان كذلك ففي هذا بيان أنه لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير كتاب فمن عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان هذه حال الكفار الذين قال فيهم {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} {غافر 4} فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقاً ومن المعلوم أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسُلطان³

هذه الآية في اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه بأحد وهم

افضل الخلق

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 104

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

³الاستقامة ج: 1 ص: 22

قال تعالى {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَنَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} آل عمران 152 وهذه الآية في اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه بأحد وهم افضل الخلق¹

طلب الجنة والاستعادة من النار طريق انبياء الله

أن هؤلاء المتجهمة من المعتزلة ومن وافقهم الذين ينكرون حقيقة المحبة يلزمهم أن ينكروا التلذذ بالنظر إليه ولهذا ليس في الحقيقة عندهم إلا التمتع بالأكل والشرب ونحو ذلك وهذا القول باطل بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومشايخها فهذا أحد الحزبين الغالطين والحزب الثاني طوائف من المتصوفة والمتفكرة والمنتبلة وافقوا هؤلاء على أن المحبة ليست إلا هذه الأمور التي يتتعم فيها المخلوق ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتتعم بالنظر إليه وأضافوا من ذلك وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسمو إليه همتهم ويخافون فوته وصار أحدهم يقول ما عبدتك شوقا إلى جنتك أو خوفا من نارك ولكن لأنظر إليك وإجلالا لك وأمثال هذه الكلمات مقصودهم بذلك هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة وقد يغلطون أيضا في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب ومن سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبة ومعبوده تفنيه عن نفسه حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها فيظن أنه يفعل لغير مراده والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبة وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم لكن ليس له عبارة تبين كلامه فيقع في كلامه غلط وسوء أدب مع صحة مقصوده وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك لكن أخطأوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجا عن الجنة فأسقطوا حرمة اسم الجنة ولزم من ذلك أمور منكورة نظير ما ذكره عن الشبلي رحمه الله أنه سمع قارنا يقرأ { **مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ** } آل عمران 152 فصرخ وقال أين مريد الله فيحمد منه كونه أراد الله ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله وهذه الآية في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه بأحد وهم أفضل الخلق فإن لم يريدوا الله أفيريد الله من هو دونهم كالشبلي وأمثاله ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشايخ أنه سئل مرة عن قوله تعالى { **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** } التوبة 111 قال فإذا كان الأنفس والأموال في ثمن الجنة فالرؤية بم تنال فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال والواجب أن يعلم أن كل ما أعده الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك هو في الجنة كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار وقد قال تعالى { **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } السجدة 17 وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه وإذا علم

¹الاستقامة ج: 2 ص: 107

أن جميع ذلك داخل في الجنة فالناس في الجنة على درجات متفاوتة كما قال تعالى {انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً} الإسراء 21 وكل مطلوب للعبد عبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسوله وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين كما في السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل بعض أصحابه كيف تقول في دعائك قال أقول اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال حولهما ندندن فقد أخبر أنه هو صلى الله عليه وسلم ومعاذ وهو أفضل الأئمة الراشدين بالمدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إنما يدندنون حول الجنة أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار ولو طلب هذا العبد ما طلب كان في الجنة¹

الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله

وإذا كانت المحبة اصل كل عمل ديني فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها فان الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب قال تعالى {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا} الإسراء 57 وقال {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمته الله والله غفور رحيم} البقرة 218 و رحمته اسم جامع لكل خير وعذابه اسم جامع لكل شر ودار الرحمة الخالصة هي الجنة ودار العذاب الخالص هي النار واما الدنيا فدار امتزاج فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم واعلاه النظر الى وجه الله كما في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن ابي ليلي عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد ان ينجزكموه فيقولون ما هو الم ببيض وجوهنا الم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينحينا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما اعطاهم شيئا احب اليهم من النظر اليه وهو الزيادة ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال ما عبدتك شوقا الى جنتك ولا خوفا من نارك وانما عبدتك شوقا الى رؤيتك فان هذا القائل ظن هو ومن تابعه ان الجنة لا يدخل في مسماها الا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماح ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات كما يوافق على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية او من يقربها ويزعم انه لا يتمتع بنفس رؤية الله كما يقوله طائفة من المتفهمة فهؤلاء متفقون على ان مسمى الجنة والآخرة لا يدخل فيه الا التمتع بالمخلوقات ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله { **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** } آل عمران 152 قال فأين من يريد الله وقال آخر في قوله تعالى { **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** } التوبة 111 قال اذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر اليه وكل هذا لظنهم ان الجنة لا يدخل فيها النظر و التحقيق ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم وأعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار مع ان قائل هذا القول اذا كان عارفا بما يقول فانما قصده انك لو لم تخلق نارا او لو لم تخلق

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 248-250 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 132

جنة لكان يجب ان تعبد ويجب التقرب اليك والنظر اليك ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق واما عمل الحى بغير حب ولا ارادة اصلا فهذا ممتنع وان تخيله بعض الغالطين من النساك وظن ان كمال العبد ان لا تبقى له ارادة اصلا فذاك لانه تكلم فى حال الفناء والفانى الذى يشتغل بمحبوبه له ارادة ومحبة ولكن لا يشعر بها فوجود المحبة شىء والارادة شىء والشعور بها شىء آخر فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها وهو غلط فالعبد لا يتصور ان يتحرك قط الا عن حب وبغض و ارادة ولهذا قال النبى صلواته عليه وسلم اصدق الاسماء حارث وهمام فكل انسان له حرث وهو العمل وله هم وهو اصل الارادة ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعوه الى طاعته ومن اجلاله والحياء منه ما ينهيه عن معصيته كما قال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيبي لو لم يخف الله لم يعصه اى هو لم يعصه ولو لم يخفه فكيف اذا خافه فان اجلاله وكرامه الله يمنعه من معصيته فالراعى الخائف اذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعيم بتجليه له فمعلوم ان هذا من توابع محبته له فالمحبة هى التى اوجبت محبة التجلى والخوف من الاحتجاب وان تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعيم به فهذا انما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة محبته ثم اذا وجد حلاوة محبة الله وجدها احلى من كل محبة ولهذا يكون اشتغال اهل الجنة بذلك اعظم من كل شىء كما فى الحديث ان اهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه الى محبة الله التى هى الأصل وهذا كله ينبى على اصل المحبة فيقال قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين كما فى قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 وقوله تعالى { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } المائدة 54 وقوله تعالى { أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ } التوبة 24 وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وأن يجب المرء لا يحبه الا الله وان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار¹

الله وصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية

فان الله وصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية فى مثل قوله { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ } ص 71 وقوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } النساء 164 وقوله { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ } آل عمران 152 ونحو ذلك مما وصف به نفسه فى كتابه وما صح عن رسوله فان القول فى جميع ذلك من جنس واحد ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فى النفى والاثبات والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} 1 { اللَّهُ الصَّمَدُ } 2 { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } 3 { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } 4 { فبين أنه لم يكن أحد كفوا له وقال تعالى { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } مريم 65 فأنكر أن يكون له سمي وقال تعالى { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } البقرة 22 وقال تعالى { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } النحل 74 وقال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 فبيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفو والسمى والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له فى صفاته ولا أفعاله²

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 63-64 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 66

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 324

انتصار العدو إنما هو بذنوب المسلمين

قال تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } {3} {الطلاق 2-3} وقد روي عن أبي ذر عن النبي أنه قال لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم رواه ابن ماجه وغيره وأخبر أن ما يحصل له من مصيبة انتصار العدو وغيرها إنما هو بذنوبهم فقال تعالى في يوم أحد { **أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** } آل عمران 165 وقال تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ** } آل عمران 155 وقال تعالى { **وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** } الشورى 30 وقال تعالى { **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ** } النساء 79 وقال تعالى { **وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ** } الشورى 48 وقال تعالى { **أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا** } الشورى 34 ودم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين فقال تعالى { **إِذْ جَاءُواكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** } {10} { **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا** } {11} { **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** } {12} { **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا** } {13} { **وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا** } {14} { **الاحزاب 10-14** } وقال تعالى { **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** } {البقرة 214} وقال تعالى { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْفُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ** } {109} { **حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** } {110} { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } {111} { يوسف 109-111 }¹

أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم ليس سببا لشيء من المصائب و لا تكون طاعة الله و رسوله قط سببا لمصيبة بل طاعة الله و الرسول لا تقتضى إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا و الآخرة و لكن قد تصيب المؤمنين بالله و رسوله مصائب بسبب ذنوبهم لا بما اطاعوا فيه الله و الرسول كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله و رسوله صلى الله عليه و سلم و كذلك ما ابتلوا به فى السراء و الضراء و الزلزال ليس هو بسبب نفس إيمانهم و طاعتهم لكن امتحنوا به ليتخلصوا مما فيهم من الشر و فتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليميز طيبه من خبيثه و النفوس فيها شر و الامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذى فى نفسه قال تعالى { **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** }

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 157

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {140} وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ {141} آل عمران 140-141 وقال تعالى { وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ } آل عمران 154 و لهذا قال صالح عليه السلام لقومه { طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } النمل 47 و لهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين و بالصبر عليها ترتفع درجاتهم و ما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو فانه يعظم أجرهم بالصبر عليها و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم قال ما من غازية يغزون في سبيل الله فيسلمون و يغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم و إن أصيبوا و أخفقوا تم لهم أجرهم و أما ما يلحقهم من الجوع و العطش و التعب فذاك يكتب لهم به عمل صالح كما قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } التوبة 120 و شواهد هذا كثيرة¹

وقال تعالى { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } طه 121 فهي معصية خاصة وقال تعالى { وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ } آل عمران 152 فأخبر عن معصية واقعة معينة وهي معصية الرماة للنبي حيث أمرهم بلزوم ثغرهم و إن رأوا المسلمين قد انتصروا فعصى من عصى منهم هذا الأمر وجعل أميرهم يأمرهم لما رأوا الكفار منهزمين وأقبل من أقبل منهم على المغانم²

و أما الغلبة فان الله تعالى قد يدل الكافرين على المؤمنين تارة كما يدل المؤمنين على الكافرين كما كان يكون لأصحاب النبي مع عدوهم لكن العاقبة للمتقين فان الله يقول { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر 51 وإذا كان من المسلمين ضعفا وكان عدوهم مستظفرا عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم إما لتفريطهم في اداء الواجبات باطنا و ظاهرا و إما لعدوانهم بتعدى الحدود باطنا و ظاهرا قال الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَمِيمِ الضَّعْفَاءِ الْمَقْتُلِينَ } آل عمران 155 وقال تعالى { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } آل عمران 165 وقال تعالى { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } 40 { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج 40-41³

فاذا صدق العبد بقوله تعالى { وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } النساء 79 علم أن الله لا يعذبه و يعاقبه إلا بذنوبه حتى المصائب التي تصيب العبد كلها بذنوبه و قد تقدم قوم السلف ابن عباس و غيره أن ما أصابهم يوم أحد من الغم و الفشل إنما كان بذنوبهم لم يستثن من ذلك أحد و هذا من فوائد تخصيص الخطاب لثلاث يظن أنه عام مخصوص و في الصحيحين أن النبي صلى

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 37 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 255

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 645

الله عليه و سلم أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب و لا نصب و لا هم و لا حزن و لا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها¹

" هو ذنب هممت به فى سرك و لم تفعله فجزيت هما به "

وقد تقدم قول السلف ابن عباس وغيره أن ما أصابهم يوم أحد من الغم والفشل إنما كان بذنوبهم لم يستثن من ذلك أحد وهذا من فوائد تخصيص الخطاب لنألا يظن أنه عام مخصوص وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب و لا نصب و لا هم و لا حزن و لا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها²

سئل سفيان بن عيينة عن غم لا يعرف سببه قال هو ذنب هممت به فى سرك و لم تفعله فجزيت هما به فالذنوب لها عقوبات السر بالسر و العلانية بالعلانية و روى عنها مرفوعا قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ} البقرة 284 فقال يا عائشة هذه مبايعة الله العبد مما يصيبه من النكبة و الحمى حتى الشوكة و البضاعة يضعها في كفه فيفقدها فيروع لها فيجدها فى جيبه حتى أن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الاحمر من الكير قلت هذا المرفوع هو و الله أعلم بيان ما يعاقب به المؤمن فى الدنيا و ليس فيه أن كلما أخفاه يعاقب به بل فيه أنه إذا عوقب على ما أخفاه عوقب بمثل ذلك و على هذا دلت الأحاديث الصحيحة وقد روى الرويانى فى مسنده من طريق الليث عن يزيد بن ابى حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا أراد الله بعبد الخير عجل له العقوبة فى الدنيا و اذا اراد بعبد الشر أمسك عنه العقوبة بذنبه حتى يوافيه بها يوم القيامة و قد قال تعالى {فَأْتَابَكُمْ عَمَّا بَعِمَ لَكَيْلًا تَحَزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {153} ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْعَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} {154} آل عمران 153-154 فهؤلاء كانوا فى ظنهم ظن الجاهلية ظنا ينافى اليقين بالقدر و ظنا ينافى بأن الله ينصر رسوله فكان عقابهم على ترك اليقين و وجود الشك و ظن الجاهلية و مثل هذا كثير³

الحنن لم يأمر به بل قد نهى عنه وإن تعلق بأمر الدين

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 342

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 100

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 111-112

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال أحد وإن ارتقى مقامه وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين كقوله تعالى { **وَلَا تَهْنُؤَا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } آل عمران 139 وقوله { **وَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** } النمل 70 وقوله { **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** } التوبة 40 وقوله { **وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ** } يونس 65 وقوله { **لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ** } المائدة 41 وقوله { **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** } الحديد 23 وأمثال ذلك كثير وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا يَأْتُمُّ صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا أو يرحم وأشار بيده إلى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب ومنه قوله تعالى { **وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** } يوسف 84 وقد تبين بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك إذا افضى الى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه والا كان حسب صاحبه رفع الاثم عنه من جهة الحزن واما ان افضى الى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما امر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وان كان محمودا من جهة اخرى وأما المحبة لله والتوكل والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وإنما يخرج عنها كافر ومنافق¹

{ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ }

والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فالأمر كله إليه وحده فلا شريك له بوجه ولهذا ذكر سبحانه نفي ذلك في آية الكرسي التي فيها تقرير التوحيد فقال له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إذا سجد وحمد ربه يقال له ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فيحد له حدا فيدخلهم الجنة فالأمر كله لله كما قال { **قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** } آل عمران 154²

إذا كان في الزمان رجل هو أفضل أهل الزمان فتسميته بالقطب الغوث الجامع بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا تكلم بهذا أحد من سلف الأمة وأئمتها وما زال السلف يظنون في بعض الناس

¹مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 16 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 17 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 42

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 130

أفضل أو من أفضل أهل زمانه ولا يطلقون عليه هذه الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان لا سيما أن من المنتحلين لهذا الإسم من يدعى أن أول الأقطاب هو الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ثم يتسلل الأمر إلى ما دونه إلى بعض مشايخ المتأخرين وهذا لا يصح على مذهب أهل السنة ولا على مذهب الرافضة فأين ابو بكر وعمر وعثمان وعلى والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والحسن عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد قارب سن التمييز والإحتلام وقد حكى عن بعض الأكابر من الشيوخ المنتحلين لهذا أن القطب الفرد الغوث الجامع ينطبق علمه على علم الله تعالى وقدرته على قدرة الله تعالى فيعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه الله وزعم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان كذلك وإن هذا إنتقل عنه إلى الحسن وتسلسل إلى شيخه فبينت أن هذا كفر صريح وجهل قبيح وإن دعوى هذا فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفر دع ما سواه وقد قال الله تعالى { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ } الأنعام 50 وقال تعالى { قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } آل عمران 154¹

"كل من عمل سوءا فهو جاهل"

قال تعالى { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } آل عمران 154

ولفظ الجاهلية قد يكون اسما للحال وهو الغالب في الكتاب والسنة وقد يكون اسما لذي الحال فمن الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضى الله عنه إنك امرؤ فيك جاهلية وقول عمر إنني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة وقول عائشة كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء وقولهم يا رسول الله كنا في جاهلية وشر أي في حال جاهلية أو طريقة جاهلية أو عادة جاهلية ونحو ذلك فإن لفظ الجاهلية وإن كان في الأصل صفة لكنه غلب عليه الاستعمال حتى صار اسما ومعناه قريب من معنى المصدر وأما الثاني فتقول طائفة جاهلية وشاعر جاهلي وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلا مركبا فإن قال خلاف الحق عالما بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضا كما قال تعالى { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } الفرقان 63 وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل ومن هذا قول بعض الشعراء ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا وهذا كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق كما قال سبحانه { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } النساء 17 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 103

جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلاً بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازاً وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً أو خارجاً عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعمياً وصماً وبكماً وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون فإذا تبين ذلك فالناس قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جهال وإنما يفعله جاهل وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهي جاهلية وتلك كانت الجاهلية العامة فأما بعد ما بعث الله الرسول صلى الله عليه وسلم فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر كما هي في دار الكفار وقد تكون في شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام¹

قد عفا الله عن جميع المتولين يوم أحد

وأما التولي يوم أحد فقد قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} آل عمران 155 فقد عفا الله عن جميع المتولين يوم أحد فدخل في العفو من هو دون عثمان فكيف لا يدخل هو فيه مع فضله وكثرة حسناته² ان العفو المطلق انما هو ترك المؤاخذة بالذنب وان لم يتب صاحبه كقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} آل عمران 155³

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }

في قوله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } الأنفال 33 والكلام عليها من وجهين أحدهما في الاستغفار الدافع للعذاب والثاني في العذاب المدفوع بالاستغفار أما الأول فإن العذاب إنما يكون على الذنوب والاستغفار يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب العذاب فيندفع العذاب كما قال تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 77-78

² منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 298

³ الصارم المسلول ج: 3 ص: 877

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3} هود 1-3 فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤتي كل ذي فضل فضله فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ثم إن كان لهم فضل اوتوا الفضل وقال تعالى {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} هود 52 وذلك أنه قد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا} آل عمران 155¹

المنايا محتومة

قال الله تعالى {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} الأحزاب 16 فأخبر الله ان الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون ولذلك قال النبي إذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه والفرار من القتل كالفرار من الجهاد وحرف لن ينفي الفعل في الزمن المستقبل والفعل نكرة والنكرة في سياق النفي تعم جميع افرادها فاقتضى ذلك ان الفرار من الموت او القتل ليس فيه منفعة ابدًا وهذا خبر الله الصادق فمن اعتقد ان ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره ثم قال تعالى {وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} الأحزاب 16 يقول لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون فإن الموت لا بد منه وقد حكى عن بعض الحمقى أنه قال فنحن نريد ذلك القليل وهذا جهل منه بمعنى الآية فإن الله لم يقل إنهم يمتعون بالفرار قليلا لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه ابدًا ثم ذكر جوابا ثانيا أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل ثم ذكر جوابا ثالثا وهو أن الفار يأتيه ما قضى له من المصرة ويأتي الثابت ما قضى له من المسرة فقال {قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} الأحزاب 17 ونظيره قوله في سياق آيات الجهاد {أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} النساء 78 الآية وقول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} آل عمران 156 فمضمون الأمر أن المنايا محتومة فكم ممن حضر الصفوف فسلم وكم ممن فر من المنية فصادفته كما قال خالد بن الوليد لما احتضر لقد حضرت كذا وكذا صفا وإن ببدي بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم وهانذا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء²

عامه السور المدنية يذكر فيها المنافقين

والقرآن يذكر المؤمنين والمنافقين في غير موضع كما ذكرهم في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وسورة العنكبوت والأحزاب وكان هؤلاء في أهل المدينة والبادية كما قال تعالى {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ

¹ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 41-42

² مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 454-455

{ التوبة 101 وكان في المنافقين من هو في الأصل من المشركين وفيهم من هو في الأصل من اهل الكتاب وسورة الفتح والقتال والحديد والمجادلة والحشر والمنافقين بل عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين قال تعالى في سورة آل عمران { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا } آل عمران 156 إلى قوله { وَلْيَعْلَمِ الْمُؤْمِنِينَ {166} وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا {167} آل عمران 166-167¹

لطائف لغوية

- 1- { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } آل عمران 137 فإن السنة هي العادة وهي الطريق التي تتكرر لتتسع لأنواع الناس مما يعبدونه عبادة أو لا يعبدونه عبادة²
- 2- قال تعالى { فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } آل عمران 137 المراد عليها ويقال فلان في الجبل وفي السطح وإن كان على أعلى شيء فيه³
- 3- قال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران 138 البينة من البيان و البينة هي السبيل البينة وهي الطريق البينة الواضحة وهي أيضا ما تبين بها الحق فهي بينة في نفسها مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد فتكون كالهدى كما يقال فلان على هدى وعلى علم فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل ومنه قوله { أَوْلَمْ تَأْتِيهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } طه 133 أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها أو الأمر البين فيها وقد سمي الرسول بينة كما قال { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } {1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ {2} البينة 1- 2 فإنه يبين الحق والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه⁴
- 4- قال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران 138 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما في قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا }

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 464

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 77

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 53

⁴مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75

لأنعمه اجتنابه وهداه { النحل 121 } { الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من يئيب } الشورى 13
وكذلك قوله تعالى { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق } التوبة 33 والهدى هنا هو
الايمن ودين الحق هو الاسلام واذا اطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا¹

5- قال تعالى { هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين } آل عمران 138 والوعظ في القرآن
مرادا به الأمر والنهي بترغيب وترهيب وقوله { وموعظة للمتقين } أى يتعظون بها فينتبهون²
وينزجرون

6- قال تعالى { ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا } النساء 69 وكذلك الشهيد قد جعل هنا قرين
الصديق والصالح وقد قال { وحيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق } الزمر 69 ولما قيدت
الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها فى قوله { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على
الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا } البقرة 143 فهذه شهادة مقيدة بالشهادة على الناس كالشهادة
المذكورة فى قوله { لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء } النور 13 وقوله { واستشهدوا شهيدين من
رجالكم } البقرة 282 وليست هذه الشهادة المطلقة فى الآيتين بل ذلك كقوله { ويتخذ منكم شهداء
والله لا يحب الظالمين } آل عمران 140³

7- هذه واو الجمع التى يسميها الكوفيون واو الصرف و تجيء اذا ظهر الفرق كقوله { ولما يعلم
الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين } آل عمران 142 وقوله { أو يؤبفهن بما كسبوا ويعف عن
كثير } 34 { ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص } الشورى 34⁴

8- ولفظ { لَمَا } ينفى به ما يقرب حصوله ويحصل غالبا كقوله { أم حسبتم أن تتركوا ولما
يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة } التوبة 16⁵

9- ولما انما ينفى بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقبا⁶

10- { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة } آل عمران 142 ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى
ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل
النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار¹

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 45

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 59

⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 176

⁵مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 246

⁶مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 252

11- ويستعمل اللقاء في لقاء العدو ولقاء الولي ولقاء الممكروه وقد يستعمل فيما يتضمن مباشرة الملقى ومماسته مع اللذة والالم ومن نحو هذا قوله {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} الجمعة 8 وقوله {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} الفرقان 75 ويقال فلان لقي خيرا ولقى شرا وقد قال النبي انكم ستلقون بعدى اثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض وقد يقال ان اللقاء في مثل هذا يتضمن معنى المشاهدة كما قال تعالى {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} آل عمران 143 لأن الانسان يشاهد بنفسه هذه الامور وقد قيل أن الموت نفسه يشهد ويرى ظاهرا وقيل المرئى اسبابه²

12- قال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} الأنبياء 34 ففي قوله {أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} الأنبياء 34 تقدم الاستفهام في أول الجملة في الجملة الشرطية {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ} الأنبياء 34 فلم يحتج إلى ذكره ثانية بل ذكره بفسد الكلام ومثله قوله {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} آل عمران 144 وقوله {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ} البقرة 87 وقوله {أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ} البقرة 100 و هذا من فصيح الكلام و بليغه³

13- قوله {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} آل عمران 145 فإن الإذن نوعان إذن لمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى الإباحة والإجازة⁴

14- قوله تعالى {وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} آل عمران 147 فهذا ليس من التكرار في شيء فإن قولهم خبر كان قدم على إسمها و أن قالوا في تأويل المصدر وهو الإسم فهما إسم كان وخبرها والمعنى وما كان لهم قول إلا قول {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} آل عمران 147 ونظير هذا قوله تعالى {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا} الأعراف 82 والجواب قول وتقول ما لفلان قول إلا قول لا حول ولا قوة إلا بالله فلا تكرار أصلا⁵

15- الرب هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي و هذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة ولهذا يقال {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} نوح 28 {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الأعراف 23 {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} القصص 16

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 465

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 422-423

⁴الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 132

⁵مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 279

{ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } آل عمران 147 { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } البقرة 286 فعامة المسألة و الاستعانة المشروعة باسم الرب¹

16- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الذنوب اذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } الزمر 53 ثم قد يقرن بغيره كما في قوله { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } آل عمران 147²

17- قال تعالى { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } آل عمران 148 والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازماً لصاحبه أو متعدياً إلى الغير³

18- قال تعالى { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا } آل عمران 151 والسلطان هو الحجة المنزلة من عند الله⁴

والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك في غير موضع كقوله { أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } الروم 35 وقوله { مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ } الأعراف 71 وقال ابن عباس كل سلطان في القرآن فهو الحجة ذكره البخاري في صحيحه⁵

19- قال تعالى { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ } آل عمران 152 فإن الإذن نوعان إذن لمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى الإباحة والإجازة⁶

20- وليس في القرآن من حروف الهجاء التي هي أسماء الحروف إلا نصفها وهي أربعة عشر حرفاً وهي نصف أجناس الحروف نصف المجهورة والمهموسة والمستعلية والمطبقة والشديدة والرخوة وغير ذلك من أجناس الحروف وهو أشرف النصفين والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ضمن الأسماء أو الأفعال أو حروف المعاني التي ليست باسم ولا فعل فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة في القرآن لكن نفس حروف المعجم التي هي أبعاض الكلام موجودة في القرآن بل قد اجتمعت في آيتين إحداهما في آل عمران و الثانية في سورة

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 1

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 316

⁵مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 42

⁶الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 132

الفتح {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً} آل عمران 154 الآية و {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} الفتح 29 الآية¹

21- وذكر تعالى انزال النعاس في قوله {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ} آل عمران 154 هذا يوم أحد وقال في يوم بدر {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنهُ} الأنفال 11 والنعاس ينزل في الرأس بسبب نزول الأبخرة التي تدخل في الدماغ فتتعدد فيحصل منها النعاس وطائفة من أهل الكلام منهم أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد جعلوا النزول والأتیان والمجىء حدثا يحدثه منفصلا عنه فذاك هو أتياهه واستواؤه على العرش فقالوا استواؤه فعل يفعله في العرش يصير به مستويا عليه من غير فعل يقوم بالرب لكن أكثر الناس خالفوه وقالوا المعروف أنه لا يجىء شيء من الصفات والأعراض إلا بمجىء شيء فإذا قالوا جاء البرد أو جاء الحر فقد جاء الهواء الذي يحمل الحر والبرد وهو عين قائمة بنفسها وإذا قالوا جاءت الحمى فالحمى حر أو برد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال إلى حال فيحدث الحر والبرد بذلك وهذا بخلاف العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل مثل لون الفاكهة فإنه لا يقال في هذا جاءت الحمرة والصفرة والخضرة بل يقال أحمر وأصفر وأخضر وإذا كان كذلك فإنزاله تعالى العدل والسكينة والنعاس والامانة وهذه صفات تقوم بالعباد إنما تكون إذا افضى بها اليهم فالأعيان القائمة توصف بالنزول كما توصف الملائكة بالنزول بالوحي والقرآن فإذا نزل بها الملائكة قيل انها نزلت وكذلك لو نزل غير الملائكة كالهواء الذي نزل بالأسباب فيحدث الله منه البخار الذي يكون منه النعاس فكان قد انزل النعاس سبحانه بانزال ما يحمله²

22- قال تعالى {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} آل عمران 154 عليم منزه عن الجهل قدير منزه عن العجز والضعف³

23- {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} آل عمران 154 فإن ذات تأنيث ذو وهو يستعمل مضافا يتوصل به إلى الوصف بالأجناس فإذا كان الموصوف مذكرا قيل ذو كذا وإن كان مؤنثا قيل ذات كذا كما يقال ذات سوار⁴

24- وأما لفظ الذات فإنها في اللغة تأنيث ذو وهذا اللفظ يستعمل مضافا إلى أسماء الأجناس يتوصلون به إلى الوصف بذلك فيقال شخص ذو علم وذو مال وشرف ويعنى حقيقته أو عين أو نفس ذات علم وقدرة وسلطان ونحو ذلك وقد يضاف إلى الأعلام كقولهم ذو عمرو وذو الكلاع وقول عمر الغنى بلال وذووه قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} الأنفال 1 وقوله {عَلِيمٌ بِذَاتِ

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 449

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 250

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 334 و الصفدية ج: 1 ص: 109

الصُّدُورِ { آل عمران 154 } أى الخصلة والجهة التى هى صاحبة بينكم وعلیم بالخواطر ونحوها التى هى صاحبة الصدور¹

25- وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ { آل عمران 154 } فسرہ ابن عباس وغيره بأنهم ظنوا أن الله لم يقدر ما جرى وأنه لا ينصر رسوله فكما أن القدر يجب الايمان به ويعلم أن كل ما كان فقد سبق به علم الرب فكذلك يعلم أنه لا بد أن ينصر رسله والذين آمنوا وكما انه لا يجوز أن يقع خلاف المقدر فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا²

26- قال تعالى { وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ { آل عمران 155 } حلیم منزہ عن السفه³

27- قال تعالى { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ { آل عمران 156 } بصير منزہ عن العمى⁴

28- سئل ابن تيمية رحمه الله عن سمع رجلا يقول لو كنت فعلت كذا لم يجر عليك شيء من هذا فقال له رجل آخر سمعه هذه الكلمة قد نهى النبي عنها وهى كلمة تؤدى قائلها إلى الكفر فقال رجل آخر قال النبي فى قصة موسى مع الخضر يرحم الله موسى وددنا لو كان صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما وإستدل الآخر بقوله المؤمن القوى خير و احب إلى الله من المؤمن الضعيف إلى أن قال فإن كلمة لو تفتح عمل الشيطان فهل هذا ناسخ لهذا أم لا فأجاب الحمد لله جميع ما قاله الله ورسوله حق و لو تستعمل على وجهين أحدهما على وجه الحزن على الماضى والجزع من المقدور فهذا هو الذى نهى عنه كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ { آل عمران 156 } وهذا هو الذى نهى عنه النبي حيث قال وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان أى تفتح عليك الحزن والجزع وذلك يضر ولا ينفع بل أعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأما اخطاك لم يكن ليصيبك كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ { التغابن 11 } قالوا هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم والوجه الثانى أن يقال لو لبيان علم نافع كقوله تعالى { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا { الأنبياء 22 } و لبيان محبة الخير وإرادته كقوله لو أن لى مثل ما لفلان لعملت مثل ما يعمل

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 341

²النبوات ج: 1 ص: 249

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

ونحوه جائز وقول النبي صلى الله عليه وسلم وددت لو ان موسى صبر ليقص الله علينا من خبرهما هو من هذا الباب كقوله {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} القلم 9 فإن نبينا أحب ان يقص الله خبرهما فذكرهما لبيان محبته للصبر المترتب عليه فعرفه ما يكون لما فى ذلك من المنفعة ولم يكن فى ذلك جزع ولا حزن ولا ترك لما يحب من الصبر على المقدور وقوله وددت لو أن موسى صبر قال النحاة تقديره وددت أن موسى صبر وكذلك قوله {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} القلم 9 تقديره ودوا أن تدهن وقال بعضهم بل هي لو شرطية وجوابها محذوف والمعنى على التقديرين معلوم وهو محبة ذلك الفعل وإرادته ومحبة الخير وإرادته محمود والحزن والجزع وترك الصبر مذموم والله أعلم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 347-348 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 350

ال عمران 159-164

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنت لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {159} إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {160} وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {161} أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {162} هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {163} لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {164}

"لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم"

لاغنى لولى الأمر عن المشاورة فان الله تعالى امر بها نبيه فقال تعالى { فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين } آل عمران 159 وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لم يكن احد اكثر مشاورة لأصحابه من رسول وقد قيل ان الله امر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه وليقتدى به من بعده وليستخرج بها منهم الرأى فيما لم ينزل فيه وحى من امر الحروب والأمر الجزئية وغير ذلك فغيره اولى بالمشورة وقد اتنى الله على المؤمنين بذلك فى قوله {وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون } 36 {والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون } 37 {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون } 38 {الشورى 36-37 وإذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله او سنة رسوله او إجماع المسلمين فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد فى خلاف ذلك وإن كان عظيما فى الدين والدنيا قال الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } النساء 59 وإن كان أمرا قد تنازع فيه المسلمون فينبغى ان يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه فأى الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به كما قال تعالى { فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول } النساء 59 { فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً } النساء 59 وأولو الأمر صنفان الأمراء والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح لناس فعلى كل منهما أن يتحرى بما يقوله ويفعله طاعة لله ورسوله واتباع كتاب الله ومتى امكن فى الحوادث المشكله معرفه ما دل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب وان لم يمكن ذلك لضيق الوقت او عجز الطالب او تكافؤ الأدلة عنده او غير ذلك فله أن يقلد من يرتضى علمه ودينه هذا أقوى الأقوال وقد قيل ليس له التقليد بكل حال

وقيل له التقليد بكل حال والأقوال الثلاثة في مذهب احمد غيره وكذلك ما يشترط في القضاة والولاية من الشروط يجب فعله بحسب الامكان¹

الحكمة من الأمر بالعفو

كان النبي وغيره من الانبياء عليهم السلام يعفون ويصفحون عن قائله امتثالاً لقوله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} الأعراف 199 ولقوله تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ} المؤمنون 96 وقوله {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} {35} فصلت 34- 35 ولقوله تعالى {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} آل عمران 159 ولقوله تعالى {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ} الأحزاب 48 ذلك لان درجة الحلم والصبر على الاذى والعفو عن الظلم افضل اخلاق اهل الدنيا والاخرة يبلغ الرجل بها ما لا يبلغه بالصيام والقيام قال تعالى {وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} آل عمران 134 وقال تعالى {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} الشورى 40 وقال تعالى {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا} النساء 149 وقال {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} النحل 126 والاحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة ثم الانبياء احق الناس بهذه الدرجة لفضلهم واحوج الناس اليها لما ابتلوا به من دعوة الناس ومعالجتهم وتغيير ما كانوا عليه من العادات هو امر لم يات به احد الا عودي فالكلام الذي يؤذيهم يكفر به الرجل فيصير به محاربا ان كان ذا عهد ومرتدا او منافقا ان كان ممن يظهر الاسلام ولهم فيه ايضا حق الادمي فجعل الله لهم ان يعفوا عن مثل هذا النوع ووسع عليهم ذلك لما فيه من حق الادمي تغليبا لحق الادمي على حق الله كما جعل لمستحق القود وحد القذف ان يعفو عن القاتل والقاذف واولى لما في جواز عفو الانبياء ونحوهم من المصالح العظيمة المتعلقة بالنبي والامة وبالدين وهذا معنى قول عائشة رضي الله عنها ما ضرب رسول الله بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط الا ان يجاهد في سبيل الله ولا انتقم لنفسه قط وفي لفظ ما نيل منه شئ فانتقم من صاحبه الا ان تنتهك محارم الله فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبة شئ حتى ينتقم الله متفق عليه ومعلوم ان النيل منه اعظم من انتهاك المحارم لكن لما دخل فيها حقه كان الامر اليه في العفو او الانتقام فكان يختار العفو وربما امر بالقتل اذا راي المصلحة في ذلك بخلاف ما لاحق له فيه من زنى او سرقة او ظلم لغيره فانه يجب عليه القيام به وقد كان اصحابه اذا راوا من يؤذيه ارادوا قتله لعلمهم بانه يستحق القتل فيعفو هو عنه ويبين لهم ان عفوهم اصلح مع اقراره لهم على جواز قتله ولو قتله قاتل قبل عفو النبي لم يعرض له النبي لعلمه بانه قد انتصر لله ورسوله بل يحمده على ذلك ويثني عليه كما قتل عمر رضي الله عنه الرجل الذي لم يرضى بحكمه وكما قتل رجل بنت مروان واخر اليهودية السابيه فاذا تعذر

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 387 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 133-134

عفوه بموته بقي حقا محضا لله ولرسوله وللمؤمنين لم يعف عنه مستحقه فتجب اقامته وبيين ذلك ما روى ابراهيم بن الحكم بن ابان حدثني ابي عن عكرمه عن ابي هريرة رضي الله عنه ان اعرابيا جاء الى النبي يستعينه في شئ فاعطاه شيئا ثم قال احسنت اليك قال الاعرابي لا ولا اجملت قال فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم ان كفوا ثم قام فدخل منزله ثم ارسل الى الاعرابي فدعاه الى البيت يعني فاعطاه فرضي فقال انك جئتنا فسالتنا فاعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس المسلمين شئ من ذلك فان احببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال نعم فلما كان الغد او العشي جاء قال رسول الله ان صاحبكم هذا جاء فسالنا فاعطيناه فقال ما قال وانا دعوناه الى البيت فاعطيناه فزعم انه قد رضي اكدلك قال الاعرابي نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة خيرا فقال النبي الا ان مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها الا نفورا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فاخذ لها من قمام الارض فجاءت فاستناحت فشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حين قال ارجل ما قال فقتلتموه دخل النار ورواه ابو احمد العسكري بهذا الاسناد قال جاء اعرابي الى النبي فقال يا محمد اعطني فانك لا تعطي من مالك ولا من مال ابيك فاغظ للنبي فوثب اليه اصحابه فقالوا يا عدو الله تقول هذا لرسول الله وذكره فهذا يبين لك ان قتل ذلك الرجل لاجل قوله ما قال كان جائزا قبل الاستتابة وانه صار كافرا بتلك الكلمة ولولا ذلك لما كان يدخل النار اذا قتل على مجرد تلك الكلمة بل كان يدخل الجنة لانه مظلوم شهيد وكان قاتله يدخل النار لانه قتل مؤمنا متعمدا ولكن النبي يبين ان قتله لم يحل لان سفك الدم بغير حق من اكبر الكبائر وهذا الاعرابي كان مسلما ولهذا قال صاحبكم ولهذا جاءه الاعرابي يستعينه ولو كان كافرا محاربا له لما جاء يستعينه في شئ ولو كان النبي اعطاه ليسلم لذكر في الحديث انه اسلم فلما لم يجر للاسلام ذكر دل على انه كان ممن دخل الاسلام وفيه جفاء الاعراب وممن دخل في قوله تعالى {فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} التوبة 58 ومما يوضح ذلك انه كان يعفو عن المنافقين الذين لا يشك في نفاقهم حتى قال لو اعلم اني لو زدت على السبعين غفر له لزدت حتى نهاه الله عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وامره بالاغلاظ عليهم فكثير مما كان يحتمله من المنافقين من الكلام وما يعاملهم من الصفح والعفو والاستغفار كان قبل نزول براءة لما قيل له {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ} الأحزاب 48 لاحتياجه اذ ذلك الى استعطافهم وخشية نفور العرب عنه اذا قتل احدا منهم وقد صرح لما قال ابن ابي {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} المنافقون 8 ولما قال ذو الخويصرة اعدل فانك لم تعدل وعند غير هذه القضية انه انما لم يقتلهم لئلا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه فان الناس ينظرون الى ظاهر الامر فيرون واحدا من الصحابة قد قتل فيظن الظان انه يقتل بعض اصحابه على غرض او حقد او نحو ذلك فينفر الناس عن الدخول في الاسلام واذا كان من شريعته ان يتألف الناس على الاسلام بالاموال العظيمة ليقوم دين الله وتعلو كلمته فلان يتألفهم بالعفو اولى واحرى فلما انزل الله براءة ونهاه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم وامره ان يجاهد الكفار والمنافقين ويغلب عليهم نسخ جميع ما كان المنافقون يعاملون به من العفو كما نسخ ما كان الكفار يعاملون به من الكف عن سالم ولم يبق الا اقامة الحدود واعلاء كلمة الله في حق الانسان¹

¹الصارم المسلول ج: 2 ص: 435- 441

كان الامر في حياة رسول الله مفوضا اليه فيمن سبه ان احب عفا عنه وان احب عاقبه وان كان في سبه حق الله ولجميع المؤمنين لان الله سبحانه يجعل حقه في العقوبة تبعا لحق العبد كما ذكرناه في القصاص وحقوق الادميين تابعة لحق الرسول فانه اولى بهم من انفسهم ولان في ذلك تمكينه من اخذ العفو والامر بالعرف والاعراض عن الجاهلين الذي امره الله تعالى به في كتابه وتمكينه من العفو والاصلاح الذي يستحق به ان يكون أجره على الله وتمكينه من ان يدفع بالتي هي احسن السيئة كما امر الله وتمكينه من استعطاف النفوس وتاليف القلوب على الايمان واجتماع الخلق عليه وتمكينه من ترك التنفير عن الايمان وما يحصل بذلك من المصلحة يغمر ما يحصل باستيقاء ساب من المفسدة كما دل عليه قوله تعالى **{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}** آل عمران 159 وقد بين النبي نفس هذه الحكمة حيث قال اكره ان يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه وقال فيما عامل به ابن ابي من الكرامة رجوت ان يؤمن بذلك الف من قومه فحقق الله رجاءه ولو عاقب كل من اذاه بالقتل لخامر القلوب عقدا او وسوسة ان ذلك لما في النفس من حب الشرف وانه من باب غضب الملوك وقتلهم على ذلك ولو لم يبيح له عقوبته لانتهك العرض واستبيحت الحرمة وانحل رباط الدين وضعت العقيدة في حرمة النبوة فجعل الله له الامرين فلما انقلب الى رضوان الله وكرامته لم يبق واحدا مخصوص من الخلق اليه استيفاء هذه العقوبة والعفو عنها والحق فيها ثابت لله سبحانه ولرسول الله ولعباده المؤمنين وعلم كل ذي عقل ان المسلمين انما يقتلون ل حفظ الدين وحفظ حمى الرسول ووقاية عرضه فقط كما يقتلون قاطع الطريق في لأمن الطرقات من المفسدين وكما يقطعون السارق لحفظ الاموال وكما يقتلون المرتد صونا للداخلين في الدين عن الخروج عنه ولم يبق هنا توهم مقصود جزوي كما قد كان يتوهم في زمانه ان قتل الساب كذلك وتقرير ذلك بالساب له من المسلمين فانه قد كان له ان يعفوا عنه مع انه لا يحل للامة الا اراقة دمه فحاصله انه في حياته قد غلب في هذه الجناية حقه ليتمكن من الاستيفاء والعفو وبعد موته فهي جناية على الدين مطلقا ليس لها من يمكنه العفو عنها فوجب استيفائها وهذا مسلك جيد لمن تدبر غوره¹

"امروا بالاستغفار لاصحاب محمد فسبوهم"

وقال سبحانه وتعالى **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** الحشر 10 فجعل سبحانه ما افاء الله على رسوله من اهل القرى للمهاجرين والانصار والذين جاءوا من بعدهم مستغفرين للسابقين وداعين الله ان لا يجعل في قلوبهم غلا لهم فعلم ان الاستغفار لهم وطهارة القلب من الغل لهم امر يحبه الله ويرضاه ويثني على فاعله كما انه قد امر بذلك رسوله في قوله تعالى **{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}** محمد 19 وقال تعالى **{ فَاغْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ }** آل عمران 159 ومحبة الشيء كراهة لاضده فيكون الله سبحانه وتعالى يكره السب لهم الذي هو

¹الصارم المسلول ج: 3 ص: 828-829

ضد الاستغفار والبغض لهم الذي هو ضد الطهارة وهذا معنى قوله عائشة رضي الله عنها امروا بالاستغفار لاصحاب محمد فسبوهم رواه مسلم¹

الأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع

منهم (الرافضة) يتركون الأسباب الدنيوية ويجعلون وجود السبب كعدمه ومنهم قوم يتركون الأسباب الأخروية فيقولون إن سبق العلم والحكم أنا سعادة فنحن سعداء وإن سبق أنا أشقياء فنحن أشقياء فلا فائدة في العمل ومنهم من يترك الدعاء بناء على هذا الأصل الفاسد ولا ريب أن هذا الأصل الفاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين ومخالف لصريح المعقول ومخالف للحس والمشاهدة وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن إسقاط الأسباب نظرا إلى القدر فرد ذلك كما ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي الصحيح أيضا أنه قيل له يا رسول الله أرأيت ما يكدر الناس فيه اليوم ويعملون أشياء قضى عليهم ومضى أم فيما يستقبلون مما أتاهم فيه الحجة فقال بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا فقال لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل له أرأيت أدوية تتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وقد قال تعالى في كتابه {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَتَ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الأعراف 57 وقال تعالى {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِّنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} فاطر 9 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد عسى أن تخلف فينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون فكيف يمكن أن يشهد أن الله لم ينصب على توحيده دليلا ولا جعل للنجاة من عذابه وسيلة ولا جعل لما يفعله المتوكل من عباده سببا وهو مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه لكن الأسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهما الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع فالموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها فإنه ليس في الوجود سبب يستقل بحكم بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم إليه وله موانع وعوائق تمنع مجبه وما ثم سبب مستقل بالإحداث إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وما شاء خلقه بالأسباب التي يحدثها ويصرف عنه الموانع فلا يجوز التوكل إلا عليه كما قال تعالى {إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} آل عمران 160 وما سبق من علمه وحكمه فهو حق وقد علم وحكم بأن الشيء الفلاني يحدثه هو سبحانه بالسبب الفلاني فمن نظر إلى

¹الصارم المسلول ج: 3 ص: 1070-1071

علمه وحكمه فليشهد الحدوث بما أحدثه وإذا نظر إلى الحدوث بلا سبب منه لم يكن شهوده مطابقاً لعلمه وحكمه فمن شهد أن الله تعالى خلق الولد لا من أبوين لسبق علمه وحكمه فهذا شهوده عمى بل يشهد أن الله تبارك وتعالى سبق علمه وحكمه بأن يخلق الولد من الأبوين والأبوان سبب في وجوده فكيف يجوز أن يقال إنه سبق علمه وحكمه بحدوثه بلا سبب وإذا كان علمه وحكمه قد أثبت السبب فكيف أشهد الأمور بخلاف ما هي عليه في علمه وحكمه والعلل التي تنفي نوعان أحدهما أن تعتمد على الأسباب وتتوكل عليها وهذا شرك محرم والثاني أن تترك ما أمرت به من الأسباب وهذا أيضاً محرم بل عليك أن تعبد به فعل ما أمرك به من الأسباب وعليك أن تتوكل عليه في أن يعينك على ما أمرك به وأن يفعل هو ما لا تقدر أنت عليه بدون سبب منك فليست العلة إلا ترك ما أمرك به الرب أمر إيجاب أو استحباب ومن فعل ما أمر به كما أمر به فليس عنده علة ولكن قد يجهل حقيقة ما أمر به كما أمر به فيكون منه علة¹

فان الخير لا موجب له الا مشيئة الله فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجاً عن قدرة العبد فهو من الله وان كانت افعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحذور سبباً للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغي للعبد ان لا يعلق رجاءه الا بالله ولا يخاف من الله ان يظلمه فان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون بل يخاف ان يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روى عن على رضى الله عنه انه قال لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه وفي الحديث المرفوع الى النبي انه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال ارجو الله واخاف ذنوبى فقال ما اجتمعاً في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا اعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف فالرجاء ينبغي ان يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك وان كان الله قد جعل لها اسباباً فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد ان يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى الا بمشيئة الله تعالى ولهذا قيل الالتفات الى الاسباب شرك في التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسباباً نقص في العقل والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع ولهذا قال الله تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} {8} الشرح 7-8 فامر بأن تكون الرغبة اليه وحده وقال {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} المائدة 23 فالقلب لا يتوكل الا على من يرجوه فمن رجا قوته او عمله او علمه او حاله او صديقه او قرابته او شيخة او ملكة او ماله غير ناظر الى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا احد مخلوقاً او توكل عليه الا خاب ظنه فيه فانه مشرك {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} الحج 31 وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى {سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا} آل عمران 151 والخالص من الشرك يحصل له الا من كما قال تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} الأنعام 82 وقد فسر النبي الظلم هنا بالشرك ففي الصحيح عن ابن مسعود ان هذه الآية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا اينما لم يظلم نفسه فقال النبي انما هذا الشرك الم تسمعوا الى قول العبد الصالح {إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} لقمان 13 وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 365-368

يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ {165} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا
وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ {166} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا
مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ {167} البقرة 165-167
وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا {56} أُولَئِكَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
كَانَ مَحْذُورًا {57} الإسراء 56-57 ولهذا يذكر الله الاسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجي الا
الله قال تعالى لما انزل الملائكة { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } آل عمران 126 وقال { **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا
الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } آل عمران 160 وقد قدمنا ان الدعاء نوعان
دعاء عبادة ودعاء مسألة وكلاهما لا يصلح الا الله فمن جعل مع الله الها آخر قعد مذموما مخذولا
والراجي سائل طالب فلا يصلح ان يرجو الا الله ولا يسأل غيره¹

و هو سبحانه يقدر الأشياء و يكتبها ثم بعد ذلك يخلقها فهو إذا قدرها علم ما سيفعله و أراد فعله في
الوقت المستقبل لكن لم يرد فعله في تلك الحال فإذا جاء وقته أراد فعله فالأول عزم و الثاني قصد
و هل يجوز و صفه بالعزم فيه قولان أحدهما المنع كقول القاضي أبي بكر و القاضي أبي يعلى
و الثاني الجواز و هو أصح فقد قرأ جماعة من السلف { **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** } آل
عمران 159 بالضم و في الحديث الصحيح من حديث أم سلمة ثم عزم الله لي و كذلك في خطبة مسلم
فعزم لي و سواء سمي عزمًا أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها و
أراد أن يفعلها في وقتها فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعين و نفس الفعل و لا بد من علمه
بما يفعله²

الله محبوب لذاته محبة حقيقة

وأما محبة الرب لعبده قال تعالى { **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** } آل عمران 159
عمران 159 وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة
وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة
والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله
محبوب لذاته محبة حقيقة بل هي أكمل محبة فإنها كما قال تعالى البقرة { **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**
{ البقرة 165 وكذلك هو سبحانه يحب ما يحب عباده المؤمنون وما هو في الله محبة حقيقة³

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 256-258

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 303-304

³أمراض القلوب ج: 1 ص: 68

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } آل عمران 159 قال محبة وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم وهذه الآيات وأشباهاها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال¹

{ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ }

قال تعالى { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } {159} {إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {160} آل عمران 159-160 فأمره إذا عزم أن يتوكل على الله فلو كان المتوكل لا يعينه على مثل ما عزم عليه لم يكن به عند العزم فائدة يبين سبحانه أنه هو الناصر دون غيره فقال وعلى الله فليتوكل المؤمنون فنهى عن التوكل على غيره وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غيره وإلا فالمتوكل على غيره يطلب منه النصر فإن كان ذلك المطلوب لا يحصل منه لم يكن لذكر انفراده بالنصر معنى فإنه على هذا القول نصره لمن توكل عليه كنصره لمن لم يتوكل عليه وهذا يناقض مقصود الآية بل عند هؤلاء قد ينصر من يتوكل على غيره ولا ينصر من توكل عليه فكيف يأمر بالتوكل عليه دون غيره مقرونا بقوله {إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} آل عمران² 160

يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها

فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحذور سببا للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله ولا يخاف من الله أن يظلمه فإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون بل يخاف أن يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وفي الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى ولهذا قيل الالتفات إلى الأسباب شرك في

¹النوبات ج: 1 ص: 76

²رسالة في تحقيق التوكل ج: 1 ص: 94-95

التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ولهذا قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7- 8 فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده وقال { وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } المائدة 23 فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } {الحج 31} وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا } {آل عمران 151} والخالص من الشرك يحصل له الأمن قال تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } {الأنعام 82} وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم هنا بالشرك ففي الصحيح عن ابن مسعود أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما هذا الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } لقمان 13 وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } {165} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } {166} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّوْا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } {البقرة 165-167} وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {الإسراء 56-57} ولهذا يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجي إلا الله قال تعالى لما أنزل الملائكة { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } {آل عمران 126} وقال { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِّن بَعْدِهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } {آل عمران 160} ¹

فكل من دعا غير الله فهو مشرك

قال تعالى { يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفَعُ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } {الحج 12} أى يدعو المخلوقين يخافهم ويرجوهم وهم لا يملكون له ضرا ولا نفعا بل ضرهم أقرب من نفعهم وإن كان سبب نزولها فى شخص معين أسلم وكان مشركا فحكمها عام فى كل من تناوله لفظها ومعناها الى يوم القيامة فكل من دعا غير الله فهو مشرك والعيان يصدق هذا فان المخلوقين اذا اشتكى اليهم الانسان فضررهم أقرب من نفعهم والخالق جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا اله غيره اذا اشتكى اليه المخلوق وانزل حاجته به واستغفره من ذنوبه أيده وقواه وهداه وسد فاقته وأغناه وقربه وأقناه وحبه واصطفاه والمخلوق اذا انزل العبد به حاجته استرذله وازدراه ثم أعرض عنه خسر الدنيا والآخرة وان قضى له ببعض مطلبه لأن عنده من بعض رعاياه يستعبده بما يهواه قال الخليل عليه أفضل

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 315-316

الصلاة والسلام { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } العنكبوت 17 وقال تعالى { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } آل عمران 160 وقال تعالى { وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139 وهذا باب واسع قد كتبت فيه شيئا كثيرا وعرفته علما وذوقا وتجربة¹

انقسم الناس في موضوع التوكل الى اربعة اقسام

ففي موضوع التوكل قد انقسم الناس فيه الى اربعة اقسام قوم ينظرون الى جانب الامر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لالهية الرب سبحانه الذي امروا ان يعبدوه ولا ينظرون الى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة وهو حال كثير من المتفكحة والمتعبدة فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمانات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لان الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ اليه والدعاء له هي التي تقوى العبد وتيسر عليه الامور ولهذا قال بعض السلف من سره ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صفة في التوراة انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدى ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن اقبضه حتى اقيم به الملة العوجاء فأفتح به اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا بان يقولوا لا اله الا الله ولهذا روى ان حملة العرش انما اطاقوا حمل العرش بقولهم لا حول ولا قوة الا بالله وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انها كنز من كنوز الجنة قال تعالى { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } الطلاق 3 وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 الى قوله { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 175 وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 قالها ابراهيم الخليل حين القى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم و قسم ثان يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم اليه ويستعينون به لكن على اهوائهم واذواقهم غير ناظرين الى حقيقة امره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته وهذا حال كثير من المنفكرة والمتصوفة ولهذا كثيرا ما يعملون على الاحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه وكثيرا ما يغلطون فيظنون ان معصيته هي مرضاته فيعودون الى تعطيل الامر والنهي ويسمون هذا حقيقة ويظنون ان هذه الحقيقة القدريية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التى هي تحوى مرضاة الرب ومحبته وامره ونهيه ظاهرا وباطنا وهؤلاء كثيرا ما يسلبون احوالهم وقد يعودون الى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يرتد عن الاسلام لان العاقبة للتقوى ومن لم يقف عند امر الله ونهيه فليس من المتقين فهم يقعون فى بعض ما وقع المشركون فيه تارة بدعة يظنونها شرعة وتارة فى الاحتجاج بالقدر على الامر والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين فى سورة الانعام والاعراف ذكر ما ابتدعه من الدين وجعلوه شرعه كما قال تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 41

مَا لَا تَعْلَمُونَ { الأعراف 28 } وقد ذمهم على ان حرموا مالم يحرمه الله وان شرعوا مالم يشرعه الله وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ { الأنعام 148 } ونظيرها في النحل وبيس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبهة من هذا وهذا واما القسم الثالث وهو من اعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الاقسام والقسم الرابع هو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا { اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ { الفاتحة 5 } وقوله { فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 } فاستعانوا به على طاعته وشهدوا انه الههم الذي لا يجوز ان يعبد الا اياه بطاعته وطاعة رسوله وانه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع وانه { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ { فاطر 2 } وَاِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ اِلَّا هُوَ وَاِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ { يونس 107 } قُلْ اَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ اِنْ اَرَادْنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ اَوْ اَرَادْنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ { الزمر 38 } ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات الى الاسباب شرك في التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص في العقل والاعراض عن الاسباب بالكلية قبح في الشرع وانما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع فقد تبين ان من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا وان كان من اعيان المشائخ كصاحب علل المقامات وهو من اجل المشائخ واخذ ذلك عنه صاحب محاسن المجالس وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه ان المطلوب به حظ العامة فقط وظنه انه لا فائدة له في تحصيل المقصود وهذه حال من جعل الدعاء كذلك وذلك بمنزلة من جعل الاعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الاسباب التي هي عبادة وطاعة مأمور بها فان غلط هذا في ترك الاسباب المأمور بها التي هي داخلية في قوله تعالى { فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 } كغلط الاول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله تعالى { فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 } لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة وان كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما ان من دعاه وتوكل عليه في حصول محرقات فهو ظالم لنفسه ومن اعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الايمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى { وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ اِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا اِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ { يونس 84 } وقال تعالى { اِنْ يَنْصُرْكُمُ اللّٰهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَاِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ { آل عمران 160 } وقال تعالى { وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ { المائدة 11 } وقال تعالى { قُلْ اَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ اِنْ اَرَادْنِي اللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ } الزمر 38 الى قوله { قُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ { الزمر 38 } وقد ذكر الله هذه الكلمة { حَسْبِيَ اللّٰهُ { الزمر 38 } في جلب المنفعة تارة وفي دفع المضرة اخرى فالأولى في قوله تعالى { وَلَوْ اَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِينَا اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ اِنَّا اِلَى اللّٰهِ رَاغِبُونَ { التوبة 59 الآية } و الثانية في قوله { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ اِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ اِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ { آل عمران 173 } وفي قوله تعالى { وَاِنْ يُرِيدُوا اَنْ يَخْذَعُوكَ فَاِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِي اٰتٰكَ بِنَصْرِهِ وَاِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُونَ { الأنفال 62 } وقوله { وَلَوْ اَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِينَا اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ { التوبة 59 } يتضمن الامر بالرضا والتوكل والرضا والتوكل يكتنفان المقذور فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه ولهذا كان النبي يقول في الصلاة اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم اني اسألك خشيتك في الغيب والشهادة واسألك كلمة الحق في الغضب والرضا واسألك القصد في الفقر

والغنى واسألك نعيماً لا ينفد واسألك قرة عين لا تنقطع اللهم انى اسألك قرة عين لا تنقطع اللهم انى اسألك الرضا بعد القضاء واسألك برد العيش بعد الموت واسألك لذة النظر الى وجهك واسألك الشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين رواه احمد والنسائي من حيث عمار بن ياسر¹

القسم المحمود وهو حال الذين حققوا إياك نعبد وإياك نستعين وقوله هود فاعبده وتوكل عليه فاستعانوا به على طاعته وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه وطاعة رسوله وأنه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع وأنه { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فاطر² ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع وإنما التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع فقد بين أن من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقد غلط غلطا شديداً وإن كان من أعيان المشايخ كصاحب علل المقامات وهو من أجل المشايخ وأخذ ذلك عنه صاحب محاسن المجالس وأظهر ضعف حجته فمن قال ذلك قال إن المطلوب به حظ العامة فقط وظنه أنه لا فائدة له في تحصيل المقصود وهذه حال من جعل الدعاء كذلك وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عما يجب عليه من الأسباب التي هي عبادة الله وطاعة مأمور بها فإن غلط هذا من ترك الأسباب المأمور بها التي هي داخلة في قوله هود فاعبده وتوكل عليه كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله فاعبده وتوكل عليه لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة وإن كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما أن من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الإيمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى { إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } آل عمران² 160

أمر الله بالتوكل أعظم مما أمر بالوضوء

وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله قال تعالى { فاعبده وتوكل عليه } هود³ 123 وقال تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } آل عمران² 160 وأما قوله { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {2} الانفال² فيقال من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه بحيث إذا كان الانسان مؤمناً لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له³

¹ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 33-37

² أمراض القلوب ج: 1 ص: 52 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 52

³ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 16

ومن تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى كما قال تعالى في التوكل { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } آل عمران 160¹

"لا يخافن عبد إلا ذنبه"

قال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } {173} {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} {174} {إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {175} آل عمران 173-175

فنهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان وأمرهم بخوفه وخوفه يوجب فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والإستغفار من الذنوب وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداء فلهذا قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يخافن عبد إلا ذنبه وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر يقول الله أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسب الملوك وأطيعوني أعطف قلوبهم عليكم وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله {وَإِن يَمَسَّسْكَ اللَّهُ بُضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} {يونس 107} {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} {فاطر 2} والرجاء مقرون بالتوكل فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة والتوكل لا يجوز إلا على الله كما قال تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } {المائدة 23} وقال { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } إبراهيم 12 وقال تعالى { إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } آل عمران 160 وقال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } {التوبة 59} وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } {الانفال 173} فهؤلاء قالوا حسبنا الله أى كافينا الله فى دفع البلاء وأولئك أمروا أن يقولوا حسبنا فى جلب النعماء فهو سبحانه كاف عبده فى إزالة الشر وفى إنالة الخير أليس الله بكاف عبده ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } {العنكبوت 41} { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } {81} { كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } {82} { مريم 81-82 } { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } {الحج 31} { لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا } {الإسراء 22} وقال الخليل { فَأَتَّبَعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {العنكبوت 17} فمن عمل لغير الله رجاه أن ينتفع بما عمل له كانت صفته خاسرة قال الله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 107

فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {النور 39} وقال تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ {إبراهيم 18}

1

"إذا سألت فاسئلي الله وإذا استعنت فاستعن بالله"

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ {النحل 36} وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئلي الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {نوح 10} والإسترزاق والإستنصار كما في صلاة الإستسقاء والقنوت على الأعداء قال {إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {آل عمران 160} 2

وفي الأثر فيما روي عن الله تعالى يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك وفي الأثر أيضا إنهم إذا قالوا للمريض اللهم ارحمه يقول الله كيف أرحمه من شيء به أرحمه وقد شهدنا أن العسكر إذا انكسر خضع لله وذلل وتاب إلى الله من الذنوب وطلب النصر من الله وبريء من حوله وقوته متوكلا على الله ولهذا نكرهم الله بحالهم يوم بدر وبحالهم يوم حنين فقال {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {آل عمران 123} 3

حكمة الله أنه لا يبعث نبيا كاذبا ولا فاجرا

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 165

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 73

³العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 130

الجمهور الذين يثبتون الحكمة والأسباب فيقولون نحن نعلم بما علمناه من حكمة الله أنه لا يبعث نبيا فاجرا وأن ما ينزل على البر الصادق لا يكون إلا ملائكة لا تكون شياطين كما قال تعالى { وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ {193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ {194} الشعراء 192-194 إلى قوله { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ {221} تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ {222} يُلْفُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ {223} وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ {224} أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ {225} وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ {226} الشعراء 221-226 فهذا مما بين الله به الفرق بين الكاهن والنبى وبين الشاعر والنبى لما زعم المفتررون أن محمدا صلى الله عليه وسلم شاعر وكاهن وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أتاه الوحي في أول الأمر وخاف على نفسه قبل أن يستيقن أنه ملك قال لخديجة لقد خشيت على نفسي قالت كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق فاستدللت رضي الله عنها بحسن عقلها على أن من يكون الله قد خلقه بهذه الأخلاق الكريمة التي هي من أعظم صفات الأبرار الممدوحين أنه لا يجزيه فيفسد الشيطان عقله ودينه ولم يكن معها قبل ذلك وحي تعلم به انتفاء ذلك بل علمته بمجرد عقلها الراجح وكذلك لما ادعى النبوة من ادعاها من الكذابين مثل مسيلمة الكذاب والعنسى وغيرهما مع ما كان يشتهر من أمرهم لما كان ينزل عليهم من الشياطين ويوحون إليهم حتى يظن الجاهل أن هذا من جنس ما ينزل على الأنبياء ويوحى إليهم فكان ما يبلغ العقلاء وما يروونه من سيرتهم والكذب الفاحش والظلم ونحو ذلك يبين لهم أنه ليس بنبي إذ قد علموا أن النبى لا يكون كاذبا ولا فاجرا وفي الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم لما قال له نو الخويصرة اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لقد خبت وخسرت إن لم أعدل ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء والرواية الصحيحة بالفتح أي أنت خاسر خائب إن لم أعدل إن ظننت أنني ظالم مع اعتقادك أنني نبي فإنك تجوز أن يكون الرسول الذي آمنت به ظالما وهذا خيبة وخسران فإن ذلك ينافى النبوة ويقدم فيها وقال أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني يقول إذا كان الله قد ائتمنى على تبليغ كلامه أفلا تأمنوني على أن أؤدي الأمانة إلى الله قال تعالى { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ } آل عمران 161 وفي الجملة فالقرآن يوجب طاعته في حكمه وفي قسمه ويذم من يعدل عنه في هذا أو هذا كما قال تعالى في حكمه { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } النساء 65 وقد قال تعالى { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } آل عمران 161 وفيه قراءتان يغل ويغلب أي ينسب إلى الغلول بين سبحانه أنه ما لأحد أن ينسبه إلى الغلول كما أنه ليس له أن يغلب فدل على أن النبى لا يكون غاللا ودلائل هذا الأصل عظيمة لكن مع وقوع الذنب الذي هو بالنسبة إليه ذنب وقد لا يكون ذنبا من غيره مع تعفبه بالتوبة والإستغفار لا يقدم في كون الرجل من المقربين السابقين ولا الأبرار ولا يلحقه بذلك وعيد في الآخرة فضلا عن أن يجعله من الفجار¹

"درجات الجنة تذهب علوا ودرجات النار تذهب سفولا"

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 419-421 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 92

وقال حسان فشر كما لخير كما الفداء فالخير ما كان خيرا من غيره والشر ما كان شرا من غيره والخير والشر درجات ولهذا قال تعالى لما ذكر أهل الجنة وأهل النار قال { أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ } {162} هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ } {163} آل عمران 162-163 وكذلك ذكر تعالى في الأنعام والأحقاف بعد ذكر الطائفتين ولهذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم درجات الجنة تذهب علوا ودرجات النار تذهب سفولا فدرجات الجنة كلها فيها النعيم وبعضها خير من بعض ودرجات النار كلها فيها العذاب وبعضها شر من بعض¹

أن الكفر والفسوق والعصيان درجات كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات { هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ } آل عمران 163 وقد قال تعالى { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } التوبة 37 وقال تعالى { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } {125} التوبة 124-125 وقال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } الصف 5 كما قال تعالى { يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ } إبراهيم 27 وقال { وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا } المائدة 64 كما قال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ } الرعد 36²

الرسالة ضرورية في اصلاح العبد في معاشه ومعاده

والرسالة ضرورية في اصلاح العبد في معاشه ومعاده فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة فكذلك لا صلاح له في معاشه ودينه إلا باتباع الرسالة فان الانسان مضطر الى الشرع فانه بين حركتين حركة يجلب بها ما ينفعه وحركة يدفع بها ما يضره والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره والشرع نور والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده وحصنه الذي من دخله كان آمنا وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس فان ذلك يحصل للحيوانات العجم فان الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده كنعق الايمان والتوحيد والعدل والبر والتصدق والاحسان والأمانة والعفة والشجاعة والحلم والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام وبر الوالدين والاحسان الى المماليك والجار واداء الحقوق وإخلاص العمل لله والتوكل عليه والإستعانة به والرضا بمواقع القدر به والتسليم لحكمه والانقياد لأمره وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه وخشيته في الغيب والشهادة والتقوى اليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه واحتساب الثواب عنده وتصديقه وتصديق رسله في كل ما اخبروا به وطاعته في كل ما أمروا به مما هو نفع وصلاح للعبد في دينه وآخرته وفي ضد ذلك شقاوته ومضرتة في دينه وآخرته ولولا الرسالة لم يهتد العقل الى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم أن أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم

¹رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: 1 ص: 133

²قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 118

كتبه وبين لهم الصراط المستقيم ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الانعام والبهائم بل أشد حالا منها فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية وأسوأ حالا من الكلب والخنزير والحيوان البهيم وفي الصحيح من حديث أبي موسى رضى الله عنه عن النبي قال مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبئت الكلاً والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشرّبوا منها وانتفعوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به متفق على صحته فالحمد لله الذي أرسل إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آيات الله ويذكّرنا ويعلمنا الكتاب والحكمة وإن كنا من قبل لفي ضلال مبين وقال اهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } {الأعراف 43} والدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة وأسس بنيانه عليها ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسل موجودة فيهم فاذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرب الله العالم العلوى والسفلى وأقام القيامة وليست حاجة أهل الأرض الى الرسول كحاجتهم الى الشمس والقمر والرياح والمطر ولا كحاجة الانسان الى حياته ولا كحاجة العين الى ضوءها والجسم الى الطعام والشراب بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه وهم السفراء بينه وبين عبادته وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمد بن عبد الله يقول يا ايها الناس إنما أنا رحمة مهداة وقال الله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } {الأنبياء 107} وقال صلوات الله وسلامه عليه إن الله نظر الى اهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وهذا المقت كان لعدم هدايتهم بالرسل فرفع الله عنهم هذا المقت برسول الله فبعثه رحمة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على الخلائق أجمعين وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بأداء حقوقه وسد اليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه وأخذ العهود والمواثيق بالايمان به واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا فختم به الرسالة وهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة وفتح برسالته أعينا عميا وأذنا صما وقلوبا غلغا فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألقت بها القلوب بعد شتاتها فأقام بها الملة العوجاء وأوضح بها المحجة البيضاء وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع ذكره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره أرسله على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب حين حرف الكلم وبدلت الشرائع واستند كل قوم الى أظلم آرائهم وحكموا على الله وبين عبادته بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم فهدى الله به الخلائق وأوضح به الطريق وأخرج به الناس من الظلمات الى النور وأبصر به من العمى وأرشد به من الغي وجعله قسيم الجنة والنار وفرق ما بين الأبرار والفجار وجعل الهدى والفلاح في إتياعه وموافقته والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته وإمتحن به الخلائق في قبورهم فهم في القبور عنه مسؤولون وبه ممتحنون يؤتى العبد في قبره فيقال ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله جاءنا بالبينات والهدى فأمننا به واتبعناه فيقال له صدقت على هذا حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله نم نومة العروس لا يوقظه إلا أحب أهله اليه ثم يفسح له في قبره وينور له فيه ويفتح له باب الى الجنة فيزداد غبطة وسرورا وأما الكافر والمنافق فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته فيقال له قد كنا نعلم ذلك وعلى ذلك حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله ثم يضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعا كل شيء إلا الانسان وقد أمر الله بطاعة

رسوله فى أكثر من ثلاثين موضعا من القرآن وقرن طاعته بطاعته وقرن بين مخالفته ومخالفته كما قرن بين اسمه واسمه فلا يذكر الله إلا ذكر معه قال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} الشرح 4 قال لا أذكر إلا ذكرت معى وهذا كالتشهد والخطب والأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فلا يصح الإسلام إلا بذكره والشهادة له بالرسالة وكذلك لا يصح الأذان إلا بذكره والشهادة له ولا تصح الصلاة إلا بذكره والشهادة له ولا تصح الخطبة إلا بذكره والشهادة له وحذر الله سبحانه وتعالى من العذاب والكفر لمن خالفه قال تعالى {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} النور 63 قال الامام أحمد رحمه الله تعالى أى فتنه هى إنما هى الكفر وكذلك ألبس الله سبحانه الذلة والصغار لمن خالف أمره كما فى مسند الامام أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم وكما ان من خالفه وشاقه وعاداه هو الشقى الهالك فكذلك من أعرض عنه واما جاء به واطمان الى غيره ورضى به بدلا منه هو هالك أيضا فالشقاء والضلال فى الاعراض عنه وفى تكذيبه والهدى والفلاح فى الاقبال على ما جاء به وتقديمه على كل ما سواه فالأقسام ثلاثة المؤمن به وهو المتبع له المحب له المقدم له على غيره والمعادى له والمنابذ له والمعرض عما جاء به فالأول هو السعيد والآخران هما الهالكان فنسأل الله العظيم أن يجعلنا من المتبعين له المؤمنين به وأن يحيينا على سنته ويتوفانا عليها لا يفرق بيننا وبينها إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين¹

الأمر باتباع الكتاب يوجب الأمر باتباع الحكمة

وذكر الرحمن هو الذى أنزله وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما {وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ} البقرة 231 وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} آل عمران 164 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} الجمعة 2 وهو الذكر الذى قال الله فيه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} الحجر 9²

قد أمرنا الله تعالى باتباع ما أنزل إلينا من ربنا وباتباع ما يأتى منه من الهدى وقد أنزل علينا الكتاب والحكمة كما قال تعالى {وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ} البقرة 231 والحكمة من الهدى قال تعالى {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} النور 54 والأمر

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 101-105

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 452

باتباع الكتاب والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التي بعث بها الرسول واتباعه وطاعته مطلقا وقال تعالى وانكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة وقال تعالى {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} البقرة 129 وقال تعالى {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} البقرة 151 وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران 164 وقال تعالى

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {2} {وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {3} الجمعة 2-3 وقد أمر بطاعة الرسول في نحو أربعين موضعا كقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} آل عمران 32 وقوله تعالى {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولُنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} المائدة 92 وقوله تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} {27} {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} {28} لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا {29} الفرقان 27-29 فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه في الكتاب كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما في الكتاب منصوصا بعينه في حديث عن الرسول غير الكتاب فعلينا ان نتبع الكتاب وعلينا أن نتبع الرسول واتباع أحدهما هو اتباع الآخر فإن الرسول بلغ الكتاب والكتاب أمر بطاعة الرسول ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضا قال تعالى {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء 82 والأحاديث كثيرة عن النبي في وجوب اتباع الكتاب وفي وجوب اتباع سنته كقوله لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال حللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه ألا واني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا وانه مثل القرآن أو أعظم هذا الحديث في السنن والمسانيد مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة جهات من حديث أبي ثعلبة وأبي رافع وأبي هريرة وغيرهم وفي صحيح مسلم عنه من حديث جابر أنه قال في خطبة الوداع وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده كتاب الله تعالى وسنة نبيه وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قيل له هل أوصى رسول الله قال لا قيل فكيف كتبه على الناس الوصية قال أوصى بكتاب الله وسنة رسول الله تفسر القرآن كما فسرت أعداد الصلوات وقدر القراءة فيها والجهر والمخافتة وكما فسرت فرائض الزكاة ونصبها وكما فسرت المناسك وقدر الطواف بالبيت والسعي ورمي الجمار ونحو ذلك وهذه السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب

اتباعها وقد يكون من سنته ما يظن أنه مخالف لظاهر القرآن وزيادة عليه كالسنة المفسرة لنصاب السرقة والموجبة لرجم الزاني المحصن فهذه السنة أيضا مما يجب اتباعه عند الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر طوائف المسلمين إلا من نازع في ذلك من الخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قاتلهم يوم القيامة وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة في وصفهم وذمهم والأمر بقتالهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أحمد بن حنبل صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وقد روى مسلم في صحيحه حديثهم من عشرة أوجه كأنها هي التي أشار إليها أحمد بن حنبل فإن مسلما أخذ عن أحمد وقد روى البخاري حديثهم من عدة أوجه وهؤلاء أولهم قال للنبي يا محمد

اعدل فانك لم تعدل فمن جوز عليه أن يظلمه فلا يعدل كمن يوجب طاعته فيما ظلم فيه لكنهم يوجبون اتباع ما بلغه عن الله وهذا من جهلهم وتناقضهم ولهذا قال النبي ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل وقال لقد خبت وخسرت إن لم أعدل أي إن اتبعت من هو غير عادل فأنت خائب خاسر وقال أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني يقول إذا كان الله قد ائتمنى على تبليغ كلامه أفلا تأمنوني على أن أؤدي الأمانة إلى الله قال تعالى { وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَىٰ آلَ عِمْرَانَ 161 } وفي الجملة فالقرآن يوجب طاعته في حكمه وفي قسمه ويذم من يعدل عنه في هذا أو هذا كما قال تعالى في حكمه { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } النساء 65¹

المسلمون عندهم منقولاً عن نبيهم نقلًا متواتراً ثلاثة أمور

فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعاً ظاهراً معروفاً عندهم فهو منقول عن الرسول نقلًا متواتراً بل معلوماً بالاضطرار من دينه فإن الصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت العتيق ووجوب العدل والصدق وتحريم الشرك والفواحش والظلم بل وتحريم الخمر والميسر والربا وغير ذلك منقول عن النبي نقلًا متواتراً كنقل ألفاظ القرآن الدالة على ذلك ومن هذا الباب عموم رسالته وأنه مبعوث إلى جميع الناس أهل الكتاب وغير أهل الكتاب بل إلى الثقيلين الإنس والجن وأنه كان يكفر اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا ما أنزل الله عليه كما كان يكفر غيرهم ممن لم يؤمن بذلك وأنه جاهدهم وأمر بجهادهم فالمسلمون عندهم منقولاً عن نبيهم نقلًا متواتراً ثلاثة أمور لفظ القرآن ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها والسنة المتواترة وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن قال تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } آل عمران 164 وقال ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتفق عليها وبالسنة المتواترة عنه مثل كون الظهر والعصر والعشاء أربعاً وكون المغرب ثلاث ركعات وكون الصبح ركعتين ومثل الجهر في العشائين والفجر والمخافتة في الظهر والعصر ومثل كون الركعة فيها سجدتين وكون الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة سبعا ورمي الجمرات كل واحدة سبع حصيات وأمثال ذلك وأيضاً فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظاً يستغنون به عن المصاحف كما ثبت في الصحيح الذي رواه مسلم عن النبي أنه قال إن ربي قال لي إني منزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظاناً يقول ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب كالكتب القديمة فإنه لو عدت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلًا متواتراً محفوظة في الصدور والقرآن ما زال محفوظاً في الصدور نقلًا متواتراً²

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 82-87

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 11-13

وليس من شرط المنقول المتواتر أن يكون في القرآن بل كما تواتر عنه في شريعته ما ليس في القرآن وهو من الحكمة التي أنزلها الله عليه كذلك وتواتر عنه من دلائل نبوته ما ليس في القرآن وهو من براهينه وآياته وقد قال تعالى في غير موضع { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } النساء 113 فالحكمة نزلت عليه وهي منقولة في غير القرآن وقد تواتر عنه كون الصلوات خمسا والفجر ركعتين المغرب ثلاثا والباقي اربعا اربعا والرابعة في السفر ركعتان وتواتر عنه سجود السهو كذلك متواتر عنه أنواع من المعجزات والأخبار المتواترة في أصناف آياته وبراهينه كثيرة جدا لا يمكن إحصاؤها وهي مشتملة على جنسي العلم والقدرة على أنواع من الإخبار بالغيوب المستقبلية مفصلة كأنما رآها بعينه لم يأت منها خبر إلا كما أخبر به وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبي¹

النبي سمعه من جبريل وهو الذي نزل عليه به

ولم يقل السلف أن النبي سمعه من الله تعالى كما يقول ذلك بعض المتأخرين قال الله تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } آل عمران 164 وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قال لي النبي اقرأ على القرآن قلت اقرأ عليك وعليك أنزل قال اني أحب أن أسمع من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت الى هذه الآية { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } النساء 41 قال حسبك فنظرت فإذا عيناه تذرفان من البكاء والنبي سمعه من جبريل وهو الذي نزل عليه به وجبريل سمعه من الله تعالى كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة قال تعالى { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 97 وقال تعالى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } { 193 } عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ } { 194 } { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ } { 195 } { الشُّعْرَاءِ } 193-195 وقال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } { 101 } قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } { 102 } { النحل 101-102 فأخبر سبحانه أنه نزله روح القدس وهو الروح الأمين وهو جبريل من الله بالحق ولم يقل أحد من السلف أن النبي سمعه من الله وإنما قال ذلك بعض المتأخرين²

أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف أن محمدا كان يقول إنه كلام الله لا كلامه وأنه مبلغ له عن الله وكان يفرق بين القرآن وبين ما يتكلم به من السنة وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقا وعملا فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلم أمته الكتاب والحكمة كما قال تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } آل عمران 164 أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف أن محمدا كان يقول إنه كلام الله لا كلامه وأنه مبلغ له عن الله وكان يفرق بين القرآن وبين ما يتكلم به من السنة وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه

¹ الجواب الصحيح ج: 6 ص: 68

² مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 298

تصديقاً وعملاً فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلم أمته الكتاب والحكمة كما قال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران 164¹

كل ما يحتاج الناس إليه من أصول الدين فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا

أن الرسول بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران 164 فأخبر في غير موضع عن الرسول أنه يتلو عليهم آياته ويزكئهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فالتلاوة والتركية عامة لجميع المؤمنين فتلاوة الآيات يحصل بها العلم فإن الآيات هي العلامات والدلالات فاذا سمعوا دلتهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر والإقرار بوجوب طاعته وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته فالتزكية تكون بطاعة مرة كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم وسميت آيات القرآن آيات وقيل إنها آيات الله كقوله {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} آل عمران 108 لأنها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد فهي تدل على ما أخبر به وعلى ما أمر به ونهى عنه وتدل أيضا على أن الرسول صادق إذ كانت مما لا يستطيع الانس والجن أن يأتوا بمثلها وقد تحداهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع وأيضا فهي نفسها فيها من بينات الأدلة والبراهين ما يبين الحق فهي آيات من وجوه متعددة ثم قال {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} آل عمران 164 وهذا لمن يعلم ذلك منهم وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة فالكتاب هو الكلام المنزل الذي يكتب والحكمة هي السنة وهي معرفة الدين والعمل به وقد قال تعالى {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ} يونس 101 وقال تعالى {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزْوَا} الكهف 56 ففرق بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل أنها دلالة للرب وبين النذر وهو الإخبار عن المخوف كإخبار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب فهذا يعلم بالخبر والنذر ولهذا قال {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} الإسراء 15 وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل والأنبياء جاءوا بالآيات والنذر وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ {44} النحل 43-44 وقال تعالى {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ {آل عمران 184} ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الأنبياء جاءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جاء به الرسول قد أخرجوا ما تعلم دلالاته بالعقل عن مسمى الشرع تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده وأصول الدين هل يجب ويحصل بالشرع أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل أو يجب ويحصل بالعقل على ثلاثة أقوال مشهورة لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة فطائفة يقولون يجب بالشرع ويحصل به وهو قول السالمية وغيرهم مثل الشيخ أبي الفرج المقدسي وهذا هو الذي حكاه عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم وكذلك من شابههم مثل ابن درباس وابن شكر وغيرهما من أصحاب الشافعي وهو المشهور عن أهل الحديث والفقهاء الذين يذمون الكلام وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة بن الحسين

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 19

الحنبلي المتكلم وبين طائفة من أصحاب أحمد وكذلك بين أبي الفرج بن الجوزي وطائفة منهم أولئك يقولون الوجوب والحصول بالشرع وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل والوجوب بالشرع وقد ذكر الأمدى ثلاثة أقوال في طرق العلم قيل بالعقل فقط والسمع لا يحصل به كقول الرازي وقيل بالسمع فقط وهو الكتاب والسنة وقيل بكل منهما ورجح هذا وهو الصحيح والقول الثاني أنها لا تجب إلا بالشرع لكن يحصل بالعقل وهو قول الأشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل وغيرهم والقول الثالث أنها تحصل بالعقل وتجب به وهو قول من يوجب بالعقل كالمعتزلة والكرامية وغيرهم من أتباع الأئمة كأبي الحسن الأمدى وأبي الخطاب وغيرهم وهو قول طائفة من المالكية والشافعية وعليه أكثر الحنفية ونقلوه عن أبي حنيفة نفسه¹

فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من أصول الدين كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعدو إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب والحمد لله الذي بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل الكتاب الذين قالوا { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفهمة والمتصوفة²

{ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ }

والناس مأمورون بطاعة الله ورسوله واتباع دينه وسبيله واقتفاء هداه ودليله وعليهم ان يشكروا الله على ما عظمت به النعمة حيث { بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } آل عمران 164 وقد قال النبي في الحديث الصحيح ان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الامور محدثاتها وكل بدعة ضلالة³

قال تعالى { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } النساء 59 وهو الرد الى كتاب الله أو الى سنة الرسول بعد موته وقوله { فَإِن تَنَازَعْتُمْ } النساء 59 شرط والفعل نكرة في سياق

¹النبوات ج: 1 ص: 172-174

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 445 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 295-296

³مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 314

الشرط فإى شىء تنازعوا فيه ردوه الى الله والرسول ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلا للنزاع لم يؤمروا بالرد اليه والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك فى غير موضع وقد علم أمته الكتاب والحكمة كما قال {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} البقرة 129 وكان يذكر فى بيته الكتاب والحكمة وأمر أزواج نبيه بذلك فقال {وَأَذْكُرَنَّ مَا يُنْتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} الأحزاب 34 فأيات الله هى القرآن اذ كان نفس القرآن يدل على انه منزل من الله فهو علامة ودلالة على منزله والحكمة قال غير واحد من السلف هى السنة وقال أيضا طائفة كمالك وغيره هى معرفة الدين والعمل به وقيل غير ذلك وكل ذلك حق فهى تتضمن التمييز بين المأمور والمحذور والحق والباطل وتعليم الحق دون الباطل وهذه السنة التى فرق بها بين الحق والباطل وبين الأعمال الحسنة من القبيحة والخير من الشر وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم انه قال تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي الا هالك وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هذا وهذا كثير فى الحديث والآثار يذكرونه فى الكتب التى تذكر فيها هذه الآثار كما يذكر مثل ذلك غير واحد فيما يصفونه فى السنة مثل ابن بطة واللالكائى والظلمنكى وقبلهم المصنفون فى السنة كاصحاب احمد مثل عبد الله والاثرم وحرب الكرمانى وغيرهم ومثل الخلال وغيره¹

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}

فان الله تعالى ليس كمثله شىء وليس امره لنا كامر الواحد منا لعبده وخدمه وذلك ان الواحد منا إذا أمر عبده فاما ان يأمره لحاجته اليه او إلى المأمور به أو لحاجته إلى الأمر فقط فالاول كأمير السلطان جنده بما فيه حفظ ملكه ومنافعهم له فان هداية الخلق وارشادهم بالأمر والنهى هى من باب الاحسان اليهم والمحسن من العباد يحتاج إلى احسانه قال الله تعالى {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} الإسراء 7 وقال {مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} الجاثية 15 والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم ولا هو محتاج إلى أمرهم وإنما أمرهم احسانا منه ونعمة أنعم بها عليهم فامرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم وارسال الرسل وانزال الكتب من أعظم نعمه على خلقه كما قال {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} الأنبياء 107 وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ} آل عمران 164 وقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} {57} قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} {58} يونس 57-58 فمن أنعم الله عليه مع الأمر بالامتنال فقد تمت النعمة فى حقه كما قال {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} المائدة 3 وهؤلاء هم المؤمنون ومن لم ينعم عليه بالامتنال بل خذله حتى كفر وعصى فقد شقى لما بدل نعمة الله كفرا كما قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ} إبراهيم 28²

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 174

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 356-357

الأمر العامة التي يفعلها تكون لحكمة عامة و رحمة عامة كإرسال محمد صلى الله عليه و سلم فإنه كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } الأنبياء 107 فإن إرساله كان من أعظم النعمة على الخلق و فية أعظم حكمة للخالق و رحمة منه لعباده كما قال تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } آل عمران 164 و قال تعالى { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } الأنعام 53 و قال { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } آل عمران 144 و قال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا } إبراهيم 28 قالوا هو محمد صلى الله عليه و سلم فإذا قال قائل فقد تضرر برسالته طائفة من الناس كالذين كذبوه من المشركين و أهل الكتاب كان عن هذا جوابان أحدهما أنه نفعهم بحسب المكان فإنه أضعف شرهم الذي كانوا يفعلونه لولا الرسالة بإظهار الحجج و الآيات التي زلزلت ما فى قلوبهم و بالجهاد و الجزية التي أخافتهم و أذلتهم حتى قل شرهم و من قتلته منهم مات قبل أن يطول عمره فى الكفر فيعظم كفره فكان ذلك تقليلا لشره و الرسل صلوات الله عليهم بعثوا بتحصيل المصالح و تكميلها و تعطيل المفساد و تقليلها بحسب الإمكان و الجواب الثاني أن ما حصل من الضرر أمر مغمور فى جنب ما حصل من النفع كالمطر الذي عم نفعه إذا خرب به بعض البيوت أو إحتبس به بعض المسافرين و المكتسبين كالقصارين و نحوهم و ما كان نفعه و مصلحته عامه كان خيرا مقصودا و رحمة محبوبة و إن تضرر به بعض الناس و هذا الجواب أجاب به طوائف من المسلمين و أهل الكلام و الفقه و غيرهم من الحنفية و الحنبلية و غيرهم و من الكرامية و الصوفية و هو جواب كثير من المتفلسفة¹

المنة على جميع المؤمنين عربهم و عجمهم

و قوله { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ } البقرة 151 يتناول كل من خطب بالقرآن و كذلك قوله { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } التوبة 128 فالرسول من أنفس من خطب بهذا الكلام إذ هي كاف الخطاب و لما خطب به أولا قريش ثم العرب ثم سائر الأمم صار يخص و يعم بحسب ذلك و فيه ما يخص قريشا كقوله { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ } { 1 } { إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ } { 2 } قريش 1-2 و قوله { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ } الزخرف 44 و فيه ما يعم العرب و يخصهم كقوله { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } الجمعة 2 و الأميون يتناول العرب قاطبة دون أهل الكتاب ثم قال { وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ } الجمعة 3 فهذا يتناول كل من دخل فى الإسلام بعد دخول العرب فيه إلى يوم القيامة كما قال ذلك مقاتل بن حيان و عبد الرحمن بن زيد و غيرهما فإن قوله { وَآخَرِينَ مِنْهُمْ } الجمعة 3 أي فى الدين دون النسب إذ لو كانوا فى النسب لكانوا من الأميين و هذا كقوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ } الأنفال 75 و قد ثبت فى الصحيح أن هذه الآية لما نزلت سئل النبي صلى الله عليه و سلم عنهم فقال لو كان الإيمان معلقا

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 93

بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس فهذا يدل على دخول هؤلاء لا يمنع دخول غيرهم من الأمم
و إذا كانوا هم منهم فقد دخلوا في قوله {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
{آل عمران 164} فالمنة على جميع المؤمنين عربهم و عجمهم سابقهم و لاحقهم و الرسول منهم
لأنه إنسى مؤمن و هو من العرب أخص لكونه عربيا جاء بلسانهم و هو من قريش أخص
والخصوص يوجب قيام الحجة لا يوجب الفضل إلا بالإيمان و التقوى لقوله {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ} الحجرات 13 و لهذا كان الأنصار أفضل من الطلقاء من قريش و هم ليسوا من ربيعة و لا
مضر بل من قحطان و أكثر الناس على أنهم من ولد هود ليسوا من ولد إبراهيم و قيل إنهم
من ولد إسماعيل لحديث أسلم لما قال إرموا فإن أباكم كان راميا و أسلم من خزاعة و خزاعة
من ولد إبراهيم و في هذا كلام ليس هذا موضعه إذ المقصود أن الأنصار أبعد نسبا من كل ربيعة
و مضر مع كثرة هذه القبائل و مع هذا هم أفضل من جمهور قريش إلا من السابقين الأولين من
المهاجرين و فيهم قرشي و غير قرشي و مجموع السابقين ألف و أربعمائة غير مهاجري الحبشة
فقوله {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ} التوبة 128 يخص قريشا و العرب ثم يعم سائر البشر لأن
القرآن خطاب لهم و الرسول من أنفسهم و المعنى ليس بملك لا يطيقون الأخذ منه و لا جنى ثم
يعم الجن لأن الرسول أرسل إلى الإنس و الجن و القرآن خطاب للتقلين و الرسول منهم جميعا كما
قال {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} الأنعام 130 فجعل الرسل التي أرسلها من
النوعين مع أنهم من الإنس فإن الإنس و الجن مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين مأمورين
منهيين فإنهم يأكلون و يشربون و ينكحون و ينسلون و يغتذون و ينامون بالأكل و الشرب و هذه
الأمر مشتركة بينهم و هم يتميزون بها عن الملائكة فإن الملائكة لا تأكل و لا تشرب و لا تتكح و لا
تنسل فصار الرسول من أنفس الثقلين بإعتبار القدر المشترك بينهم الذي تميزوا به عن الملائكة
حتى كان الرسول مبعوثا إلى الثقلين دون الملائكة و كذلك قوله {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ} آل عمران 164 هو كقوله {وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ
عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةَ يَعِظُكُمْ بِهِ} البقرة 231 و قوله {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ
آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} البقرة 151 ثم
قال {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} البقرة 152 و المقصود أنه أمر بذكر النعم و
شكرها وقال {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} البقرة 47 في غير موضع
و قال للمؤمنين {وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ} الأعراف 86 فذكر النعم من الذكر الذي أمروا به
و مما أمروا به تذكرة قصص الأنبياء المتقدمين كما قال {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ} مريم 41
{وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى} مريم 51 {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ} مريم 54 {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ
إِدْرِيْسَ} مريم 56 و قال {وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ} ص 17 {وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ} ص 45 {وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ} ص 48 و مما أمروا به تذكرة ما و عدوا به من
الثواب و العقاب قال تعالى {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} {46} وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ
الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ {47} وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ {48} هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ
لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ {49} جَنَّاتٍ عِدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ {50} ص 46-50¹

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 190-192

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن على الإنس و الجن فقد قرأ على الجن القرآن و كان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام و يقرأ عليهم القرآن و يقرأه على الناس فى الصلاة و غير الصلاة قال تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } {20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ } {21} الانشقاق 20-21 و قال تعالى { إِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } {مريم} 58 و قال تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } آل عمران 164 و ذكر مثل هذا فى غير موضع فهو يتلو على المؤمنين آيات الله¹

إمتن سبحانه على العباد بإرساله

وقال تعالى عن إبراهيم { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ } البقرة 129 وقال { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } آل عمران 164 الآية وقال { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } الجمعة 2 الآية فإمتن سبحانه على العباد بإرساله فى عدة مواضع فهذه أربعة أمور أرسله بها تلاوة آياته عليهم وتركيتهم وتعليمهم الكتاب والحكمة وقد أفرد تعليمه الكتاب والحكمة بالذكر مثل قوله { وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَاقِبَ إِلَّا الْقُرْآنَ وَالْحِكْمَةَ وَالْإِيمَانَ } البقرة 231 وقوله { وَادْكُرْنَا مَا يَتْلُو فِي بَيْوتِكُمْ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ } الأحزاب 34 وذلك أن التلاوة عليهم وتركيتهم أمر عام لجميع المؤمنين فإن التلاوة هى تبليغ كلامه تعالى إليهم وهذا لا بد منه لكل مؤمن وتركيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التى سمعوها وتليت عليهم فالأول سمعهم والثانى طاعتهم والمؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا الأول علمهم والثانى عملهم والإيمان قول وعمل فإذا آيات الله وعوها بقلوبهم وأحبوها وعملوا بها ولم يكونوا كمن قال فيهم { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يِعْقِلُونَ } البقرة 171 وإذا عملوا بها زكوا بذلك وكانوا من المفلحين المؤمنين والله قال { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } المجادلة 11 وقال فى ضدهم { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ } التوبة 97 فأخبر أنهم أعظم كفرا ونفاقا وجهلا وذلك ضد الإيمان والعلم فإستماع آيات الله والتزكى بها أمر واجب على كل احد فإنه لا بد لكل عبد من سماع رسالة سيده التى أرسل بها رسوله إليه وهذا هو السماع الواجب الذى هو أصل الإيمان ولا بد من التزكى بفعل المأمور وترك المحظور فهذا لا بد منهما وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالما بالكتاب لفظه ومعناه عالما بالحكمة جميعا بل المؤمنون كلهم مخاطبون بذلك وهو واجب عليهم كما هم مخاطبون بالجهاد بل وجوب ذلك أسبق وأؤكد من وجوب الجهاد فإنه أصل الجهاد ولولا له لم يعرفوا علام يقاتلون ولهذا كان قيام الرسول والمؤمنين بذلك قبل قيامهم بالجهاد فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه وهذا أصله واساسه وعموده ورأسه ومقصود الرسالة فعل الواجبات والمستحبات جميعا ولا ريب أن إستماع كتاب الله والإيمان به وتحريم حرامه وتحليل حلاله والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه واجب على واحد وهذا هو التلاوة المذكورة فى { الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَتْلُونَهُ حَقًّا

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 483

تِلَاوَتِهِ أَوْلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ { البقرة 121 فأخبر عن الذين يتلونه حق تلاوته أنهم يؤمنون به وبه قال سلف الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم وقوله { حَقَّ تِلَاوَتِهِ { البقرة 121 كقوله { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ { الحج 78 { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ { آل عمران 102 وأما حفظ جميع القرآن وفهم جميع معانيه ومعرفة جميع السنة فلا يجب على كل أحد لكن يجب على العبد أن يحفظ من القرآن ويعلم معانيه ويعرف من السنة ما يحتاج إليه وهل يجب عليه أن يسمع جميع القرآن فيه خلاف ولكن هذه المعرفة الحكمية التي تجب على كل عبد ليس هو علم الكتاب والحكمة التي علمها النبي أصحابه وامته بل ذلك لا يكون إلا بمعرفة حدود ما انزل الله على رسوله من الألفاظ والمعاني والأفعال والمقاصد ولا يجب هذا على كل أحد وقوله تعالى { فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى { النجم 32 دليل على أن الزكاة هي التقوى والتقوى تنتظم الأمرين جميعاً بل ترك السيئات مستلزم لفعل الحسنات إذ الإنسان حارث همام ولا يدع إرادة السيئات وفعلها إلا بإرادة الحسنات وفعلها إذ النفس لا تخلو عن الإرادتين جميعاً بل الإنسان بالطبع مريد فعال وهذا دليل على أن يكون سببه الزكاة والتقوى التي بها يستحق الإنسان الجنة كما في صحيح البخارى عن النبي أنه قال من تكفل لى بحفظ ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة ومن تزكى فقد أفلح فيدخل الجنة والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر فإذا حصل الخير زال الشر من العلم والعمل حصل له نور وهدى ومعرفة غير ذلك والعمل يحصل له محبة وإنابة وخشية وغير ذلك هذا لمن ترك هذه المحظورات وأتى بالمأمورات ويحصل له ذلك أيضاً قدرة وسلطاناً وهذه صفات الكمال العلم والعمل والقدرة وحسن الإرادة¹

"إلا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه"

فإن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً وأنزل عليه الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة وجعلهم خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله وجعلهم أمة وسطاً أي عدلاً خياراً ولذلك جعلهم شهداء على الناس هداهم لما بعث به رسوله جميعهم من الدين الذي شرعه لجميع خلقه ثم خصهم بعد ذلك بما ميزهم به وفضلهم من الشريعة والمنهاج الذي جعله لهم فما أنزله الله في السور المدنية من شرائع دينه وما سنه الرسول لأمته فإن الله سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة وأمتن على المؤمنين بذلك وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ { آل عمران 164 و قال تعالى { وَادْكُرُنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبيراً { الأحزاب 34 قال غير واحد من السلف الحكمة هي السنة لأن الذي كان يتلى في بيوت أزواجه رضي الله عنهن سوى القرآن هو سننه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم إلا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه وقال حسان بن عطية كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي بالسنة كما ينزل بالقرآن فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن²

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 389-392

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 366 و العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 216

يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبي وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فان هذا حقيقة الشهادة بالرسالة اذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ {44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ {45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ {46} } الحاقة 44-46 و بالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج الى تقريره هنا وهو الاقرار بما جاء به النبي وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } آل عمران 164 وقال تعالى { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } البقرة 151¹

المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لأبى موسى يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون وهذا هو السماع الذى كان النبي يشهده مع أصحابه ويستدعيه منهم كما فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قال النبي إقرأ على القرآن قلت أقرأه عليك وعليك أنزل فقال إني أحب أن أسمع من غيرى فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } النساء 41 قال حسبك فنظرت فاذا عيناه تدرقان وهذا هو الذى كان النبي يسمعه هو وأصحابه كما قال تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } آل عمران 164 و الحكمة هي السنة وقال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } 91 { وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ } النمل 91-92 وكذلك غيره من الرسل قال تعالى { يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } الأعراف 35 وبذلك يحتج عليهم يوم القيامة كما قال تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } الأنعام 130 وقال تعالى { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } الزمر 71 وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح والمعرض عنه ضال شقى قال تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } 123 { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } 124 { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } 125 { قَالَ كَذَلِكَ

¹ مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 154

أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} طه 123-126 وقال تعالى {وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} الزخرف 36¹

أصحاب محمد أبر هذه الأمة

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة أن خيرها القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم وقال غيره عليكم بأثار من سلف فإنهم جاءوا بما يكفي وما يشفي ولم يحدث بعدهم خير كما لم يعلموه هذا وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم فكيف يحدث لنا زمان في الخير في أعظم المعلومات وهو معرفة الله تعالى هذا لا يكون أبدا وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا فغاية ما عند السلف أن يكونوا موافقين لرسول الله فإن عامة ما عند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيهم الذي أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وهداهم به إلى صراط العزيز الحميد الذي قال الله فيه {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران 164²

ذكر الله طاعة الرسول في نحو من أربعين موضعا من القرآن

فإنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد الا باتباع رسوله {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {13} {وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} {14} النساء 13-14 طاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 وإنما تعبدتهم بطاعته وطاعة رسوله فلا عبادة الا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال عن سبيله ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أخرجاه في الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم في حديث

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 560-561

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 159

العرباض بن ساريه الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي أنه من يعيش منكم بعدي فسيري اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثان الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن كقوله تعالى {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} النساء 80 وقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} 64 {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} 65 {النساء 64- 65} وقوله تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} آل عمران 32 وقال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31 فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده وقد قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الشورى 52 فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده كما أنه بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 وقال تعالى {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} 15 {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} المائدة 15-16 فبمحمد تبين الكفر من الايمان والربح من الخسران والهدى من الضلال والنجاة من الوبال والغي من الرشاد والزيغ من السداد وأهل الجنة من أهل النار والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المغضوب عليهم والضالين فالنفوس أحوج الى معرفة ما جاء به واتباعه منها الى الطعام والشراب فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا وذلك إذا مات حصل العذاب فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم والطريق الى ذلك الرواية والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى الا مع ظهور نور قدامه فكذلك نور العقل لا يهتدي الا إذا طلعت عليه شمس الرسالة فهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الاسلام وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة وبهما أتم على أمته الأمة قال تعالى {وَلَا تَمَنَّيْ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 150 {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} 151 {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} 152 {البقرة 150-152} وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} آل عمران 164 قال تعالى {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ فِيكُمْ بِهِ} البقرة 231 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} الجمعة 2 وقال تعالى عن الخليل {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ} البقرة 129 وقال تعالى {وَاذْكُرْنَا مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} الأحزاب 34 وقد قال غير واحد من العلماء منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم الحكمة هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والكتاب القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة وأبي ثعلبة وغيرهما أنه قال لا أفين أحدكم متكا على أريكته يأتيه

الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول بيننا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه إلا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه وفي رواية ألا وإنه مثل الكتاب ولما كان القرآن متميزاً بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} الإسراء 88 وكان منقولاً بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد أهل الهدى والسداد فدحروا حزب الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث وكان من ذلك الظاهر الجلي الذي لا يسوغ عنه العدول ومنه الخفى الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعلماء العدول وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والاسناد فسافروا في ذلك الى البلاد وهجروا فيه لذيق الرقاد وفارقوا الأموال والأولاد وأنفقوا فيه الطارف والتلاد وصبروا فيه على النوائب وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصص المأثورة ما هو عند أهله معلوم ولمن طلب معرفته معروف مرسوم بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيق الطعام والشراب وترك معاشره الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الإغتراب ومقاساة الأهوال الصعاب أمر حبيبه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا يقصدونه من كل فج عميق ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق وكما حبيب الى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ويظهر به الهدى ودين الحق الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون فمن كان مخلصاً في أعمال الدين يعملها لله كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم كما قال تعالى {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} {63} لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {64} يونس 62-64 وقد فسر النبي البشري في الدنيا بنوعين أحدهما ثناء المثنيين عليه الثاني الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له فقيل يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشري المؤمن وقال البراء بن عازب سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشري في الحياة الدنيا فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله الربان الحافظون له من الزيادة والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين بل لهم مزية على غيرهم من أهل الايمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} {المجادلة 11} قال ابن عباس يرفع الله وعلم الاسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد وجعله سلماً الى الدراية فأهل الكتاب لا إسناد له يأترون به المنقولات وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات وإنما الاسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الاسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأترونها بغير إسناد وعليها من دينهم الإعتقاد وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ولا الحالي من العاطل وأما هذه الأمة المرحومة وأصحاب هذه الأمة المعصومة فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين فظهر لهم الصدق من المين كما يظهر الصبح لذي عينين عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} النساء 59 فإذا اجتمع أهل

الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقا ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي والله تعالى يليهم الصواب في هذه القضية كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية فإن الله كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه لما صدقوا في موالة الله ورسوله ومادة من عدل عنه قال تعالى { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ } {المجادلة} 22 وأهل العلم المأثور عن الرسول أعظم الناس قياما بهه الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ولا يصددهم عن سبيل الله العظام بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ويتكلم في أحب الناس إليه عملا بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُونَّ أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } النساء 135 وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } المائدة 8 ولهم من التعديل والتجريح والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين وصيانتها عن إحداث المفترين وهم في ذلك على درجات منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ومنهم أهل الفقه فيه والمعرفة بمعانيه وقد أمر النبي الأمة أن يبلغ عنه من شهد لم غاب ودعا للمبلغين بالدعاء المتجاب فقال في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بين اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي منعدا فليتبوأ مقعده من النار وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع الا ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع وقال أيضا نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من روائهم وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيهها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ لما أعطى المبلغون من النضرة ولهذا قال سفيان بن عيينة لا تجد أحد من أهل الحديث الا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي يقال نضر ونضر والفتح أفصح ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأنني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإنما قال الشافعي هذا لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي وقال الشافعي أيضا أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا أه¹

زكاة النفس

قال تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } آل عمران 164 وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } {التوبة} 103 وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 11-4

وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا {النور 21} وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله قال تعالى { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } {6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ {7} فصلت 6-7 وهي عند المفسرين التوحيد هو لغة الشارع بل الشارع فرق بين تيمم الصعيد وبين المسح الذي يكون بعده ¹

اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه

سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} {البقرة 255} وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} {الروم 19} وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي اسم لله مختص به وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} {الروم 19} اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه بالتعليم ووصف عبده بالتعليم فقال (الرَّحْمَنُ } {1} {عَلَّمَ الْقُرْآنَ} {2} خَلَقَ الْإِنْسَانَ } {3} {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} {4} {الرَّحْمَنُ 1-4} وقال { تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ } {المائدة 4} وقال {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {آل عمران 164} وليس التعليم كالتعليم فلا بد من اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه ²

الرد على احتجاج النصارى بقوله تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ }

وأما احتجاجهم (يقصد النصارى بقولهم ان محمد صلى الله عليه وسلم ارسل الى قومه والعرب فقط ولم يرسل اليهم) بقوله تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } سورة آل عمران الآية

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 299-300

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 15-16

164 وهذا في عمومه نزاع فإنه إما أن يكون خطاباً لجميع الناس ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولا من البشر إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولا بشريا { قَالَ تَعَالَى } وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ {8} { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ } {9} سورة الأنعام الآيتان 8 و9 وأما أن يكون الخطاب للعرب وعلى التقديرين فإن ما تضمن ذكر أنعامه على المخاطبين بإرساله رسولا من جنسهم وليس في هذا ما يمنع أن يكون مرسلا إلى غيرهم فإنه إن كان خطابا للإنس كلهم فهو أيضا مرسل إلى الجن وليس من جنسهم فكيف يمتنع إذا كان خطابا للعرب بما امتن به عليهم أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس وقد أخبر في الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به { قَالَ تَعَالَى } وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ {29} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {30} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ {31} وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {32} سورة الأحقاق الآيات 29 32¹

الرد على منكري النبوات

وأما منكروا النبوات وقولهم ليس الخلق اهلا ان يرسل الله اليهم رسولا كما ان اطراف الناس ليسوا اهلا ان يرسل السلطان اليهم رسولا فهذا جهل واضح في حق المخلوق والخالق فان من أعظم ما تحمد به الملوك خطابهم بأنفسهم لضعفاء الرعية فكيف بارسال رسول اليهم وأما في حق الخالق فهو سبحانه ارحم بعباده من الوالدة بولدها وهو قادر مع كمال رحمته فاذا كان كامل القدرة كامل الرحمة فما المانع ان يرسل اليهم رسولا رحمة منه كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } الأنبياء 107 وقال النبي انما انا رحمة مهداة ولان هذا من جملة احسانه الى الخلق بالتعليم والهداية وبيان ما ينفعهم وما يضرهم كما قال تعالى { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } آل عمران 164 فبين تعالى ان هذا من مننه على عباده المؤمنين فان كان المنكر ينكر قدرته على ذلك فهذا قدح في كمال قدرته وان كان ينكر احسانه بذلك فهذا قدح في كمال رحمته واحسانه فعلم ان ارسال الرسول من اعظم الدلالة على كمال قدرته واحسانه والقدرة والاحسان من صفات الكمال لا النقص²

لطائف لغوية

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 441

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 131-132

1- قال تعالى { **وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمَ لَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** } آل عمران 157 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة¹

2- ما يقوله بعضهم إنه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ كقوله فألقى قولها كذبا و مينا فليس في القرآن من هذا شيء و لا يذكر فيه لفظ زائدا إلا لمعنى زائد و إن كان في ضمن ذلك التوكيد و ما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله { **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ** } آل عمران 159 و قوله { **عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَنَّا نَادِمِينَ** } المؤمنون 40 و قوله { **قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** } الأعراف 3 فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه فزيادة اللفظ لزيادة المعنى و قوة اللفظ لقوة المعنى²

3- أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للأمر مقصودا له كما في قوله { **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** } آل عمران 159 وفي قوله { **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } البقرة 189 وفي قوله { **وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } المائدة 93 وفي قوله { **فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } التغابن 8 وفي قوله { **أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا** } نوح 3 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس الأمور به³

فالتوكل فله وحده لا شريك له كما قال { **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** } آل عمران 159⁴

4- قال تعالى { **وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلْ مِمْسَاةً بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** } آل عمران 161 والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى بإتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا قال تعالى { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** } طه 112 قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته⁵

5- قال تعالى { **ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** } آل عمران 161 أن الكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله بنفع أو ضرر كما قال تعالى { **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** } البقرة 286

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 541

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

⁴مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

⁵مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

فبين سبحانه أن كسب النفس لها أو عليها و الناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك¹

6- قال تعالى {هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ} آل عمران 163 بصير منزه عن العمى²

7- قال تعالى { وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } آل عمران 164 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} {71} الصافات 69- 71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {68} الأحزاب 67- 68 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} النجم 2 وفى قوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ} القمر 47³

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 387

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

آل عمران 165-175

{أَوْلَمَا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {165} وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانَ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} {166} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} {167} الَّذِينَ قَالُوا لِأَحْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {168} وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} {169} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {170} يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مَنِ اللَّهُ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} {171} الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ} {172} الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} {173} فَاثْقَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} {174} إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {175}

{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}

قال تعالى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} النساء 79 فهذه الآية بيان أن الإنسان هو فاعل السيئات وأنه يستحق عليها العقاب والله ينعم عليه بالحسنات عملها وجزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء وإذا كانت جزاء وهي من الله فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتابة والسنة كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد

غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقال تعالى { **أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } آل عمران 165¹

وقال تعالى { **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ** } النساء 79 مع قوله فيما تقدم { **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ** } النساء 78 فالحسنات والسيئات المراد بها هنا النعم والمصائب ولهذا قال ما أصابك ولم يقل ما أصبت كما في قوله { **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا** } آل عمران 120 وقوله { **إِن تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ** } التوبة 50 فبين أن النعم والمصائب من عند الله فالنعمة من الله ابتداء والمصيبة بسبب من نفس الإنسان وهي معاصيه كما قال في الآية الأخرى { **وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** } الشورى 30 وقال في الآية الأخرى { **أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** } آل عمران 165 وهذا لأن الله محسن عدل كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل فهو محسن إلى العبد بلا سبب منه تفضلا وإحسانا ولا يعاقبه إلا بذنبه وإن كان قد خلق الأفعال كلها لحكمة له في ذلك فإنه حكيم عادل يضع الأشياء مواضعها ولا يظلم ربك أحدا وإذا كان غير الله يعاقب عبده على ظلمه وإن كان مقرا بأن الله خالق أفعال العباد وليس ذلك ظلما منه فإله أولى أن لا يكون ذلك ظلما منه وإذا كان الإنسان قد يفعل مصلحة اقتضتها حكمته لا تحصل إلا بتعذيب حيوان ولا يكون ذلك ظلما منه فإله أولى أن لا يكون ذلك ظلما منه²

حيث ظهر الكفار وإنما ذاك لذنوب المسلمين

وأما الغلبة فإن الله تعالى قد يديل الكافرين على المؤمنين تارة كما يديل المؤمنين على الكافرين كما كان يكون لأصحاب النبي مع عدوهم لكن العاقبة للمتقين فإن الله يقول { **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** } غافر 51 وإذا كان من المسلمين ضعفا وكان عدوهم مستظهدا عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنا وظاهرا وإما لعدوانهم بتعدى الحدود باطنا وظاهرا قال الله تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا** } آل عمران 155 وقال تعالى { **أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** } آل عمران 165 وقال تعالى { **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** } {40} الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } {41} الحج 40-41³

قال تعالى { **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** } {45} القمر 45 أخبر بهزيمتهم وهو بمكة في قلة من الأتباع وضعف منهم ولا يظن أحد بالعادة المعروفة أن أمره يظهر ويعلو قبل أن يهاجر إلى المدينة وقبل أن يقاتلهم وكان كما أخبر فإنهم يوم بدر وغيرها هزم جمعهم وولوا الأدبار وتلك سنة الله في

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 31 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 247

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 147-148 والحسنة والسيئة ج: 1 ص: 161 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 425

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 645

المؤمنين والكافرين قال تعالى {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} {22} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} {23} الفتح 22- 23 وحيث ظهر الكفار فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله كما قال تعالى {وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 وقال {أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} آل عمران 165¹

ومن المعلوم بما ارانا الله من آياته في الافاق وفي انفسنا وبما شهد به في كتابه ان المعاصي سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء هي من سيئات الاعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العبد العمل سبب لاحسان الله وقال تعالى { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} آل عمران 165²

فلا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد فإنه لا بد له منه وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرا محتاجا معذبا في طلب ما لم يحصل له والله تعالى { لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } النساء 48 وإذا حصل مع التوحيد الإستغفار حصل له غناه وسعادته وزال عنه ما يعذبه ولا حول ولا قوة إلا بالله والعبد مفقر دائما الى التوكل على الله والإستعانة به كما هو مفقر الى عبادته فلا بد أن يشهد دائما فقره الى الله وحاجته في أن يكون معبودا له وأن يكون معينا له فلا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا اليه قال تعالى {إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} آل عمران 175 فدللت الآية على أن الشيطان يجعل أوليائه مخوفين ويجعل ناسا خائفين منهم ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أوليائه الشيطان ولا يخاف الناس كما قال { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوُا اللَّهَ } المائدة 44 فخوف الله أمر به وخوف أوليائه الشيطان نهى عنه قال تعالى { لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي } البقرة 150 فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته وقال { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } الأحزاب 39 وقال { إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ } فاطر 18 وقال { فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } النحل 51 وبعض الناس يقول يارب إنى أخافك وأخاف من لا يخافك فهذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدا فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف فإنه ظالم وهو من أوليائه الشيطان فالخوف منه قد نهى الله عنه وإذا قيل قد يؤذيني قيل إنما يؤذيك بتسليط الله له وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله وإنما يسلط على العبد بذنوبه وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر ولم يسلطه عليك فإنه قال { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } الطلاق 3 وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرت له لم يسلط عليك كما قال { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } الأنفال 33 وفى الآثار يقول الله أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدي فمن أطاعنى جعلت قلوب الملوك عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا الى وأطيعون أعطفهم عليكم ولما سلط الله العدو على

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 450

²الاستقامة ج: 2 ص: 235

الصحابة يوم احد قال {أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} آل عمران 165¹

الذنوب ترفع عقوبتها بالتوبة والاستغفار

ولما انهزم المسلمون يوم أحد هزمهم الكفار قال الله تعالى {أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} آل عمران 165² والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة²

في قوله تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} الأنفال 33 والكلام عليها من وجهين أحدهما في الاستغفار الدافع للعذاب والثاني في العذاب المدفوع بالاستغفار أما الأول فإن العذاب إنما يكون على الذنوب والاستغفار يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب العذاب فيندفع العذاب كما قال تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {1} {أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} {3} {هود 1-3} فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤتي كل ذي فضل فضله فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ثم إن كان لهم فضل اوتوا الفضل وقال تعالى {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} {هود 52} وذلك أنه قد قال تعالى {أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} آل عمران 165³

الشر عدم و هو من لوازم النفس

وذلك أن الانسان بل و جميع المخلوقات عباد لله تعالى فقراء إليه مماليك له و هو ربهم و مليكهم و إلههم لا إله إلا هو فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلا بل نفسه و صفاته و أفعاله و ما ينتفع به أو يستحقه و غير ذلك إنما هو من خلق الله و الله عزوجل رب ذلك كله و مليكه و بارئه و خالقه و مصوره وإذا قلنا ليس له من نفسه إلا العدم فالعدم ليس هو شيئا يفتقر إلى فاعل موجود بل العدم ليس بشيء و بقاؤه مشروط بعدم فعل الفاعل لا أن عدم الفاعل يوجبه و يقتضيه كما يوجب الفاعل المفعول الموجود بل قد يضاف عدم المفعول الى عدم العلة و بينهما فرق و ذلك أن المفعول الموجود إنما خلقه و أبدعه الفاعل و ليس المعدوم أبدعه عدم الفاعل فإنه بقضي الى التسلسل و الدور ولأنه

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 57

²منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 547

ليس اقتضاء أحد العدمين للآخر بأولى من العكس فإنه ليس أحد العدمين مميزا لحقيقة استوجب بها أن يكون فاعلا وان كان يعقل أن عدم المقتضى أولى بعدم الأثر من العكس فهذا لأنه لما كان وجود المقتضى هو المفيد لوجود المقتضى صار العقل يضيف عدمه الى عدمه إضافة لزومية لأن عدم الشيء إما ان يكون لعدم المقتضى أو لوجود المانع و بعد قيام المقتضى لا يتصور أن يكون العدم إلا لأجل هاتين الصورتين أو لحالتين فلما كان الشيء الذي انعقد سبب وجوده يعوقه و يمنع المانع المناق و هو أمر موجود و تارة لا يكون سببه قد انعقد صار عدمه تارة ينسب إلى عدم مقتضيه و تارة الى وجود مانعه و منافيه و هذا معنى قول المسلمين ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن إذ مشيئته هي الموجبة وحدها لا غيرها فيلزم من انتفائها انتفاؤه لا يكون شيء حتى تكون مشيئته لا يكون شيء بدونها بحال فليس لنا سبب يقتضى وجود شيء حتى تكون مشيئته مانعة من وجوده بل مشيئته هي السبب الكامل فمع وجودها لا مانع و مع عدمها لا مقتضى {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} فاطر 2 {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} يونس 107 {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} الزمر 38 وإذا عرف أن العبد ليس له من نفسه خير أصلا بل ما بنا من نعمة فمن الله و إذا مسنا الضر فإليه نجأ والخير كله بيديه كما قال {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ} النساء 79 و قال {أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} آل عمران 165 و قال النبي صلى الله عليه و سلم فى سيد الاستغفار الذى فى صحيح البخارى اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعودك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على و أبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت و قال فى دعاء الاستفتاح الذى فى صحيح مسلم لبيك و سعديك والخبر بيديك و الشر ليس إليك تباركت ربنا و تعاليت و ذلك أن الشر إما أن يكون موجودا أو معدوما فالمعدوم سواء كان ذات عدم أو عدم صفة من صفات كمالها أو فعل من أفعالها مثل عدم الحياة أو العلم أو السمع أو البصر أو الكلام أو العقل أو العمل الصالح على تنوع أصنافه مثل معرفة الله و محبته و عبادته و التوكل عليه و الإنابة إليه و رجائه و خشيته و إمتثال أو امره و إجتنا نواهيه و غير ذلك من الأمور المحمودة الباطنة و الظاهرة من الأقوال و الأفعال فإن هذه الأمور كلها خيرات و حسنات و عدمها شر و سيئات لكن هذا العدم ليس بشيء أصلا حتى يكون له بارىء و فاعل فيضاف إلى الله و إنما هو من لوازم النفس التى هى حقيقة الإنسان قبل أن تخلق و بعد أن خلقت فإنها قبل أن تخلق عدم مستلزم لهذا العدم و بعد أن خلقت و قد خلقت ضعيفة ناقصة فيها النقص و الضعف و العجز فإن هذه الأمور عدمية فأضيف إلى النفس من باب إضافة عدم المعلول إلى عدم علته و عدم مقتضيه و قد تكون من باب إضافته إلى وجود منافيه من و جه آخر سنيبه إن شاء الله تعالى و نكتة الأمر أن هذا الشر و السيئات العدمية ليست موجودة حتى يكون الله خالقها فإن الله خالق كل شيء

والمعدومات تنسب تارة إلى عدم فاعلها و تارة إلى وجود مانعها فلا تنسب إليه هذه الشرور العدمية على الوجهين أما الأول فلأنه الحق المبين فلا يقال عدمت لعدم فاعلها و مقتضيتها و أما الثانى وهو وجود المانع فلأن المانع إنما يحتاج إليه إذا وجد المقتضى و لو شاء فعلها لما منعه مانع وهو سبحانه لا يمنع نفسه ما شاء فعله بل هو فعال لما يشاء و لكن الله قد يخلق هذا سببا و مقتضيا و مانعا فإن جعل السبب تاما لم يمنع شيء و إن لم يجعله تاما منعه المانع لضعف السبب و عدم إعانة الله له فلا يعدم أمر إلا لأنه لم يشأه كما لا يوجد أمر إلا لأنه يشأه و إنما تضاف هذه

السيئات العدمية إلى العبد لعدم السبب منه تارة و لوجود المانع منه أخرى أما عدم السبب فظاهر فإنه ليس منه قوة و لا حول و لا خير و لا سبب خير أصالة و لو كان منه شيء لكان سببا فأضيف إليه لعدم السبب و لأنه قد صدرت منه أفعال كان سببا لها بإعانة الله له فما لم يصدر منه كان لعدم السبب و أما وجود المانع المضاد له المنافي فلأن نفسه قد تضيق و تضعيف و تعجز أن تجمع بين أفعال ممكنة في نفسها متنافية في حقه فإذا اشتغل بسمع شيء أو بصره أو الكلام في شيء أو النظر فيه أو إرادته أو اشتغلت جوارحه بعمل كثير اشتغلت عن عمل آخر و إن كان ذلك خيرا لضيقه و عجزه فصار قيام إحدى الصفات والأفعال به مانعا و صاددا عن آخر و الضيق و العجز يعود إلى عدم قدرته فعاد إلى العدم الذي هو منه و العدم المحض ليس بشيء حتى يضاف إلى الله تعالى و أما إن كان الشيء موجودا كالألم و سبب الألم فينبغي أن يعرف أن الشر الموجود ليس شرا على الإطلاق و لا شرا محضا و إنما هو شر في حق من تألم به و قد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ولهذا جاء في الحديث الذي رواه مسلسلا أنت بالفقر خير و شره و حلوه و مره و في الحديث الذي رواه أبو داود لو أنفقت ملء الأرض ذهبا لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خير و شره و تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك و ما أخطأك لم يكن ليصيبك فالخير و الشر هما بحسب العبد المضاف إليه كالحلو و المر سواء و ذلك ان من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شرا و من تنعم به فهو في حقه خير كما كان النبي صلى الله عليه و سلم يعلم من قص عليه أخوه رؤيا أن يقول خيرا تلقاه و شرا توقاه خيرا لنا و شرا لأعدائنا فإنه إذا أصاب العبد شر سر قلب عدوه فهو خير لهذا و شر لهذا و من لم يكن له وليا و لا عدوا فليس في حقه لا خيرا و لا شرا و ليس في مخلوقات الله ما يؤلم الخلق كلهم دائما و لا ما يؤلم جمهورهم دائما بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم في أغلب الأوقات كالشمس و العافية فلم يكن في الموجودات التي خلقها الله ما هو شر مطلقا عاما فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص و فيه وجه آخر هو به خير و حسن و هو أغلب وجهيه كما قال تعالى { أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } السجدة 7 و قال تعالى { صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ } النمل 88 و قال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } الحجر 85 و قال { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا } آل عمران 191 و قد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئا ما إلا لحكمة فتلك الحكمة وجه حسنه و خيره و لا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه و لا فائدة فيه بوجه من الوجوه و بهذا يظهر معنى قوله و الشر ليس إليك و كون الشر لم يضاف إلى الله وحده بل إما بطريق العموم أو يضاف إلى السبب أو يحذف فاعله فهذا الشر الموجود الخاص المقيد سببه إما عدم و إما وجود فالعدم مثل عدم شرط أو جزء سبب إذ لا يكون سببه عدما محضا فإن العدم المحض لا يكون سببا تاما لوجود و لكن يكون سبب الخير و اللذة قد انعقد و لا يحصل الشرط فيقع الألم و ذلك مثل عدم فعل الواجبات الذي هو سبب الذم و العقاب و مثل عدم العلم الذي هو سبب ألم الجهل و عدم السمع و البصر و النطق الذي هو سبب الألم بالعمى و الصمم و البكم و عدم الصحة و القوة الذي هو سبب الألم و المرض و الضعف فهذه المواضع ونحوها يكون الشر أيضا مضافا إلى العدم المضاف إلى العبد حتى يتحقق قول الخليل { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } الشعراء 80 فإن المرض و إن كان ألما موجودا فسببه ضعف القوة و انتفاء الصحة الموجودة و ذلك عدم هو من الإنسان المعدوم بنفسه و لا يتحقق قول الحق { وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } النساء 79 و قوله { قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } آل عمران 165 و نحو ذلك فيما كان سببه عدم فعل الواجب و كذلك قول الصحابي و إن يكن خطأ فمني و من الشيطان يبين ذلك أن المحرمات جميعها من الكفر و الفسوق و العصيان إنما يفعلها العبد لجهله أو لحاجته فإنه إذا كان عالما بمضرتها و هو غني عنها امتنع أن يفعلها و الجهل أصله عدم و الحاجة أصلها العدم

فأصل وقوع السيئات منه عدم العلم و الغنى و لهذا يقول في القرآن { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ } هود 20 { أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } يس 62 { إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } 69 { فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } 70 { الصافات 69-70 إلى نحو هذه المعاني و أما الموجود الذي هو سبب الشر الموجود الذي هو خاص كالآلام مثل الأفعال المحرمة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار و الفسوق الذي هو فعل المحرمات و نحو ذلك فإن ذلك سبب الذم و العقاب و كذلك تناول الأغذية الضارة و كذلك الحركات الشديدة المورثة للألم فهذا الوجود لا يكون و جودا تاما محضا إذ الوجود التام المحض لا يورث إلا خيرا كما قلنا إن العدم المحض لا يقتضي و جودا بل يكون و جودا ناقصا إما في السبب و إما في المحل كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق و الاقرار به و سبب عدم هذا العلم و القول عدم أسبابه من النظر التام و الاستماع التام لآيات الحق و أعلامه و سبب عدم النظر و الاستماع إما عدم المقتضى فيكون عدما محضا و إما وجود مانع من الكبر أو الحسد في النفس { وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } الحديد 23 و هو تصور باطل و سببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل و الحسد أيضا سببه عدم النعمة التي يصير بها مثل المحسود أو أفضل منه فإن ذلك يوجب كراهة الحاسد لأن يكافئه المحسود أو يتفضل عليه وكذلك الفسوق كالقتل و الزنا و سائر القبائح إنما سببها حاجة النفس إلى الاشتفاء بالقتل و الالتذاذ بالزنا و إلا فمن حصل عرضه بلا قتل أو نال اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك و الحاجة مصدرها العدم و هذا يبين إذا تدبره الانسان ان الشر الموجود إذا أضيف الى عدم أو وجود فلا بد أن يكون و جودا ناقصا فتارة يضاف إلى عدم كمال السبب أو فوات الشرط و تارة يضاف إلى وجود و يعبر عنه تارة بالسبب الناقص و المحل الناقص و سبب ذلك إما عدم شرط أو وجود مانع و المانع لا يكون مانعا إلا لضعف المقتضى و كل ما ذكرته واضح بين إلا هذا الموضوع ففيه غموض بتبين عند التأمل و له طرفان أحدهما أن الموجود لا يكون سببه عدما محضا و الثاني أن الموجود لا يكون سببا للعدم المحض و هذا معلوم بالبدئية أن الكائنات الموجودة لا تصدر إلا عن حق موجود ولهذا كان معلوما بالفطرة أنه لا بد لكل مصنوع من صانع كما قال تعالى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } الطور 35 يقول أخلقوا من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم و من المتكلمين من استدل على هذا المطلوب بالقياس و ضرب المثال والاستدلال عليه ممكن ودلائله كثيرة و الفطرة عند صحتها أشد إقرارا به و هو لها أبده و هي إليه أشد اضطرارا من المثال الذي يقاس به و قد اختلف أهل الأصول في العلة الشرعية هل يجوز تعليل الحكم الوجودي بالوصف العدمي فيها مع قولهم إن العدمي يعطل بالعدمي فمنهم من قال يعطل به و منهم من أنكر ذلك و منهم من فصل بين مالا يجوز أن يكون علة للوجود في قياس العلة و يجوز أن تكون علته له في قياس الدلالة فلا يضاف إليه في قياس الدلالة و هذا فصل الخطاب و هو أن قياس الدلالة يجوز أن يكون العدم فيه علة و جزءا من علة لأن عدم الوصف قد يكون دليلا على و صف و جودي يقتضي الحكم و أما قياس العلة فلا يكون العدم فيه علة تامة لكن يكون جزءا من العلة التامة و شرطا للعلة المقتضية التي ليست بتامة و قلنا جزءا من العلة التامة و هو معنى كونه شرطا في اقتضاء العلة الوجودية و هذا نزاع لفظي فإذا حقت المعاني ارتفع فهذا في بيان أحد الطرفين و هو أن الموجود لا يكون سببه عدما محضا و أما الطرف الثاني و هو أن الموجود لا يكون سببا لوجود يستلزم عدما فلأن العدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود بل يكفي فيه عدم السبب الموجود ولأن السبب الموجود إذا أثر فلا بد أن يؤثر شيئا و العدم المحض ليس بشيء فالأثر الذي هو عدم محض بمنزلة عدم الأثر بل إذا أثر الاعدام فالاعدام أمر و جودي فيه عدم فإن جعل الموجود معدوما و المعدوم موجودا أمر معقول أما جعل المعدوم معدوما فلا يعقل إلا بمعنى الإبقاء على العدم و الإبقاء على العدم يكفي فيه عدم الفاعل و

الفرق معلوم بين عدم الفاعل و عدم الموجب في عدم العلة و بين فاعل العدم و موجب العدم و علة العدم و العدم لا يفتقر إلى الثاني بل يكفي فيه الأول فتبين بذلك الطرفان و هو أن العدم المحض الذي ليس فيه شوب وجود لا يكون وجودا ما لاسباب و لا مسببا و لا فاعلا و لا مفعولا أصلا فالوجود المحض التام الذي ليس فيه شوب عدم لا يكون سببا لعدم أصلا و لا مسببا عنه و لا فاعلا له و لا مفعولا أما كونه ليس مسببا عنه و لا مفعولا له فظاهر و أما كونه ليس سببا له فإن كان سببا لعدم محض فالعدم المحض لا يفتقر الى سبب موجود و إن كان لعدم فيه وجود فذاك الوجود لا بد له من سبب و لو كان سببه تاما و هو قابل لما دخل فيه عدم فإنه إذا كان السبب تاما والمحل قابلا وجب وجود المسبب فحيث كان فيه عدم فلعدم ما في السبب أو في المحل فلا يكون وجودا محضا فظهر أن السبب حيث تخلف حكمه إن كان لفوات شرط فهو عدم و إن كان لوجود مانع فإنما صار مانعا لضعف السبب و هو أيضا عدم قوته و كماله فظهر أن الوجود ليس سبب العدم المحض و ظهر بذلك القسمة الرباعية و هي أن الوجود المحض لا يكون إلا خيرا يبين ذلك أن كل شرفى العالم لا يخرج عن قسمين إما ألم و إما سبب الألم وسبب الألم مثل الأفعال السيئة المقتضية للعذاب والألم الموجود لا يكون إلا لنوع عدم فكما يكون سببه تفرق الاتصال و تفرق الاتصال هو عدم التأليف والاتصال الذى بينهما و هو الشر و السفاد و أما سبب الألم فقد قررت في قاعدة كبيرة أن أصل الذنوب هو عدم الواجبات لا فعل المحرمات و أن فعل المحرمات إنما وقع لعدم الواجبات فصار أصل الذنوب عدم الواجبات و أصل الألم عدم الصحة و لهذا كان النبي صلى الله عليه و سلم يعلمهم في خطبة الحاجة أن يقولوا و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا فيستعيذ من شر النفس الذي نشأ عنها من ذنوبها و خطاياها و يستعيذ من سيئات الأعمال التي هي عقوباتها و آلامها فإن قوله و من سيئات أعمالنا قد يراد به السيئات في الأعمال و قد يراد به العقوبات فإن لفظ السيئات في كتاب الله يراد به ما يسوء الإنسان من الشر و قد يراد به الأعمال السيئة قال تعالى {إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا} آل عمران 120 وقال تعالى {وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} الشورى 48 و معلوم أن شر النفس هو الأعمال السيئة فتكون سيئات الأعمال هي الشر و العقوبات الحاصلة بها فيكون مستعيذا من نوعي السيئات الأعمال السيئة و عقوباتها كما في الاستعاذة بالمأمور بها في الصلاة أعوذ بك من عذاب جهنم و من عذاب القبر و من فتنة المحيا و الممات و من فتنة المسيح الدجال فأمرنا بالاستعاذة من العذاب عذاب الآخرة و عذاب البرزخ و من سبب العذاب و من فتنة المحيا و الممات و فتنة المسيح الدجال و ذكر الفتنة الخاصة بعد الفتنة العامة فتنة المسيح الدجال فإنها أعظم الفتن كما في الحديث الصحيح مامن خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة المسيح الدجال¹

لا يذكر الشر إلا على أحد و جوه ثلاثة

قالت طوائف من المسلمين و أهل الكلام و الفقه و غيرهم من الحنفية و الحنبلية و غيرهم و من الكرامية و الصوفية و كثير من المتفلسفة جميع ما يحدثه الله عز وجل في الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال الله تعالى {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ} النمل 88 و قال {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 16-28

خَلَقَهُ { السجدة 7 و الضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقا و إن كان شرا بالنسبة إلى من تضرر به و لهذا لايجيء في كلام الله تعالى و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم إضافة الشر و حده إلى الله بل لا يذكر الشر إلا على أحد و جوه ثلاثة إما أن يدخل في عموم المخلوقات فإنه إذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة و المشيئة و الخلق و تضمن ما إشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم و إما أن يضاف إلى السبب الفاعل و إما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } { الزمر 62 و نحو ذلك و من هذا الباب أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع و الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع فلا يفرد الإسم المانع عن قرينه و لا الضار عن قرينه لأن إقترانهما يدل على العموم و كل مافى الوجود من رحمة و نفع و مصلحة فهو من فضله تعالى و ما فى الوجود من غير ذلك فهو من عدله فكل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل و النهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض فإنه لم يغيض ما فى يمينه و بيده الأخرى القسط يخفض و يرفع فأخبر أن يده اليمنى فيها الإحسان إلى الخلق و يده الأخرى فيها العدل و الميزان الذى به يخفض و يرفع فحفضه و رفعه من عدله و إحسانه إلى خلقه من فضله و أما حذف الفاعل فمثل قول الجن { وَأَنَا لَا نُدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا } { الجن 10 و قوله تعالى في سورة الفاتحة { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } { الفاتحة 7 و نحو ذلك و إضافته إلى السبب كقوله { مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } { الفلق 2 و قوله { فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } { الكهف 79 مع قوله { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا } { الكهف 82 و قوله تعالى { مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } { النساء 79 و قوله { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا } { الأعراف 23 و قوله تعالى { **أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِهَا فَلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } { آل عمران 165 و أمثال ذلك** ¹

على العبد أن يؤمن بالقدر و ليس له أن يحتج به على الله

أن الله رب كل شيء و خالقه و مليكه لارب غيره و لا خالق سواه و إنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن لا حول و لا قوة إلا به و لا ملجأ منه إلا إليه و أنه على كل شيء قدير فجميع ما فى السموات و الأرض من الأعيان و صفاتها و حركاتها فهي مخلوقة له مقدورة له مصرفة بمشيئته لا يخرج شيء منها عن قدرته و ملكه و لا يشركه فى شيء من ذلك غيره بل هو سبحانه لا إله إلا هو و حده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير فالعبد فقير الى الله فى كل شيء يحتاج إليه فى كل شيء لا يستغنى عن الله طرفة عين فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له فنقول إذا ألهم العبد أن يسأل الله الهداية و يستعينه على طاعته أعانه و هداه و كان ذلك سبب سعادته فى الدنيا و الآخرة و إذا خذل العبد فلم يعبد الله و لم يستعن به و لم يتوكل عليه و كل الى حوله و قوته فيوليه الشيطان و صد عن السبيل و و شقى فى الدنيا و الآخرة و كل ما يكون فى الوجود هو

¹ مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 94-95

بقضاء الله و قدره لا يخرج أحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المحفوظ ليس لأحد على الله حجة بل { فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } الأنعام 149 كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و على العبد أن يؤمن بالقدر و ليس له أن يحتج به على الله فالإيمان به هدى و الإحتجاج به على الله ضلال و غي بل الإيمان بالقدر يوجب أن يكون العبد صبارا شكورا صبورا على البلاء شكورا على الرخاء إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره سواء كانت النعمة حسنة فعلها أو كانت خيرا حصل بسبب سعيها فإن الله هو الذي يسر عمل الحسنات و هو الذي تفضل بالثواب عليها فله الحمد فى ذلك كله و إذا أصابته مصيبة صبر عليها و إن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره فالله هو الذي سلب ذلك الشخص و هو الذي خلق أفعاله و كانت مكتوبة على العبد كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } {23} الحديد 22-23 و قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } التغابن 11 قالوا هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و عليه إذا أذنب أن يستغفر و يتوب و لا يحتج على الله بالقدر و لا يقول أي ذنب لي و قد قدر علي هذا الذنب بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب و إن كان ذلك كله بقضاء الله و قدره و مشيئته إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته و قدرته و خلقه لكن العبد هو الذي أكل الحرام و فعل الفاحشة

و هو الذي ظلم نفسه كما أنه هو الذي صلى و صام و حج و جاهد فهو الموصوف بهذه الأفعال و هو المتحرك بهذه الحركات و هو الكاسب بهذه المحدثات له ما كسب و عليه ما إكتسب و الله خالق ذلك و غيره من الأشياء لما له فى ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة و مشيئته النافذة قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 فعلى العبد أن يصبر على المصائب و أن يستغفر من المعائب و الله تعالى لا يأمر بالفحشاء و لا يرضى لعباده الكفر و لا يحب الفساد و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له و مشيئة العبد للخير و الشر موجودة فإن العبد له مشيئة للخير و الشر وله قدرة على هذا و هذا و هو العامل لهذا و هذا و الله خالق ذلك كله و ربه و مليكه لا خالق غيره و لا رب سواه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و قد أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب و مشيئة العبد و بين أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب فى قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } {29} وَمَا تَشَاوُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } {30} الانسان 29-30 و قال تعالى { إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } {27} لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } {28} وَمَا تَشَاوُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } {29} التكوير 27-29 و قد قال تعالى { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } {78} مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا } {79} النساء 78-79 وبعض الناس يظن أن المراد هنا بالحسنات و السيئات الطاعات و المعاصي فيتنازعون هذا يقول قل كل من عند الله و هذا يقول الحسنه من الله و السيئة من نفسك و كلاهما أخطأ فى فهم الآية فإن المراد هنا بالحسنات و السيئات النعم و المصائب كما فى قوله { وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ } الأعراف 168 أي إمتحناهم و إختبرناهم بالسراء و الضراء و معنى الآية فى المنافقين كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل النصر و الرزق و العافية قالوا هذا من الله و إذا أصابتهم سيئة مثل ضرب و مرض و خوف من العدو قالوا هذا من عندك يا محمد أنت الذي جنبت بهذا الدين الذي عادانا لأجله

الناس و إبتلينا لأجله بهذه المصائب فقال الله تعالى { فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } النساء 78 أنت إنما أمرتهم بالمعروف و نهيتهم عن المنكر و ما أصابك من نعمه نصر و عافية و رزق فمن الله نعمة أنعم الله بها عليك و ما أصابك من سيئة فقر و ذل و خوف و مرض و غير ذلك فمن نفسك و ذنوبك و خطاياك كما قال في الآية الأخرى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } الشورى 30 وقال تعالى { **أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** } آل عمران 165 و قال تعالى { وَإِن تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } الشورى 48 فالإنسان إذا أصابته المصائب بذنوبه و خطاياها كان هو الظالم لنفسه فإذا تاب و استغفر جعل الله له من كل هم فرجا و من كل ضيق مخرجا و رزقه من حيث لا يحتسب و الذنوب مثل أكل السم فهو إذا أكل السم مرض أو مات فهو الذي يمرض و يتألم و يتعذب و يموت و الله خالق ذلك كله و إنما مرض بسبب أكله و هو الذي ظلم نفسه بأكل السم فإن شرب الترياق النافع عافاه الله فالذنوب كأكل السم و الترياق النافع كالتوبة النافعة و العبد فقير الى الله تعالى فى كل حال فهو بفضله و رحمته يلهمه التوبة فإذا تاب عليه فإذا سأله العبد و دعاه إستجاب دعاه كما قال { **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** } البقرة 186 ومن قال لا مشيئة له فى الخير و لا فى الشر فقد كذب و من قال أنه يشاء شيئاً من الخير أو الشر بدون مشيئة الله فقد كذب بل له مشيئة لكل ما يفعله بإختياره من خير و شر و كل ذلك إنما يكون بمشيئة الله و قدرته فلا بد من الإيمان بهذا و هذا ليحصل الإيمان بالأمر و النهي و الوعد و الوعيد و الإيمان بالقدر خيره و شره و إنما أصاب العبد لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه

ومن إحتج بالقدر على المعاصي فحجته داحضة و من إعتذر به فعذره غير مقبول بل هؤلاء الضالون كما قال فيهم بعض العلماء أنت عند الطاعة قدي و عند المعصية جبري أي مذهب و افق هوك تمذهبت به فإن هؤلاء إذا ظلمهم ظالم بل لو فعل الإنسان ما يكرهونه و إن كان حقا لم يعذروه بالقدر بل يقابلوه بالحق و الباطل فإن كان القدر حجة لهم فهو حجة لهؤلاء و إن لم يكن حجة لهؤلاء لم يكن حجة لهم و إنما يحتج أحدهم بالقدر عند هواه و معصية مولاه لا عند ما يؤذيه الناس و يظلمونه و أما المؤمن فهو بالعكس فى ذلك إذا آذاه الناس نظر الى القدر فصبر و احتسب وإذا أساء هو تاب و استغفر كما قال تعالى { **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** } غافر 55 فالمؤمن يصبر على المصائب و يستغفر من الذنوب و المعاييب و المنافق بالعكس لا يستغفر من ذنبه بل يحتج بالقدر و لا يصبر على ما أصابه فهذا يكون شقيا فى الدنيا و الآخرة و المؤمن سعيدا فى الدنيا و الآخرة و الله سبحانه أعلم¹

الأعمال بخواتيمها

أن الحسنات وهي المسار الظاهرة التي يبتلي بها العبد تكون عن طاعات فعلها العبد فكذلك السيئات وهي المكاره التي يبتلي بها العبد تكون عن معاصي فعلها العبد كما قال تعالى { **مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ** } النساء 79 وقال تعالى { **أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ**

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 237- 241

مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ { آل عمران 165 وقال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } الشورى 30 وقال تعالى { فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ { النساء 62 وقال تعالى { وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } الشورى 48 ثم تلك المسار التي هي من ثواب طاعته إذا عصي الله فيها كانت سببا لعذابه والمكارة التي هي عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا لسعادته فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب وما ظاهره عذاب وهو ألم عاجل قد يكون سببا للنعيم وما هو طاعه فيما يري الناس قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة إذا ابتلي في هذه الطاعة وما هو معصية فيما يري الناس قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه وتصبره على المصيبة التي هي عقوبة ذلك الذنب فالأمر والنهي يتعلق بالشيء الحاصل فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا وينهي عن المعصية مطلقا ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به وأما القضاء والقدر وهو علم الله وكتابه وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه فهو باعتبار الحقيقة الأجلة فالأعمال بخواتيمها والمنعم عليهم في الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان¹

{ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قال تعالى { **أَوَلَمَّْا أَصَابْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } آل عمران 165 اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا و قد بسطت الكلام فى الرد على من أنكر قدرة الرب فى غير موضع كما قد كتبناه على الأربعين والمحصل وفى شرح الأصبهانية وغير ذلك و تكلمنا على ما ذكره الرازى وغيره فى مسألة كون الرب قادرا مختارا وما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه والمقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون ن الرسل فنقول هنا مسائل المسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير والناس فى هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين و كذلك دخل فى المقذور كما قال ذلك طائفة منهم إبن حزم وطائفة تقول هذا عام مخصوص يخص منه الممتنع لذاته فإنه وإن كان شيئا فإنه لا يدخل فى المقذور كما ذكر ذلك إبن عطية وغيره وكلا القولين خطأ والصواب هو القول الثالث الذى عليه عامة النظار وهو أن الممتنع لذاته ليس شيئا ألبيته و أن كانوا متنازعين فى المعدوم فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه فى الخارج ولا يتصوره الذهن ثابتا فى الخارج ولكن يقدر إجتماعهما فى الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع فى الخارج إذ كان يمتنع تحققه فى الأعيان و تصوره فى الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة و السكون فى الشيء فهل يمكن فى الخارج أن يجتمع السواد و البياض فى محل واحد كما تجتمع الحركة و السكون فيقال هذا غير ممكن فيقدر إجتماع نظير الممكن ثم يحكم بإمتناعه و أما نفس إجتماع البياض و السواد فى محل واحد فلا يمكن ولا يعقل فليس بشيء لا فى الأعيان ولا فى الأذهان فلم يدخل فى قوله وهو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدوم ليس بشيء فى الخارج عند الجمهور وهو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا

¹قاعدة فى المحبة ج: 1 ص: 168-169

فيلزم أن لا يكون وقادرا إلا على موجود وما لم يخلقه لا يكون قادرا عليه وهذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادرا إلا على ما أراده دون ما لم يرده ويحكي هذا عن تلميذ النظام والذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبتة كالأشعري ومن وافقه من أتباع الأئمة أحمد وغير أحمد كالقاضي أبي يعلى و ابن الزاغوني وغيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود و هؤلاء قالوا هو قادر على الموجود والمعدوم والتحقيق أن الشيء إسم لما يوجد في الأعيان و لما يتصور في الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء في التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئا في الخارج ومنه قوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 و لفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد وكل ماتصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّي بِنَانُهُ } القيامة 4 و قال { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } الأنعام 65 و قد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك فلما نزل { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } الأنعام 65 الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما و قال { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ } المؤمنون 18 قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيك ومعلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ } الواقعة 68 إلى قوله { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } الواقعة 82 و هذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا } السجدة 13 { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ } يونس 99 { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ } البقرة 253 فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد وأكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه وقد نطقت النصوص بهذا وهذا كقوله تعالى { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } يس 81 { أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } القيامة 40 { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّي بِنَانُهُ } القيامة 4 و نظائره كثيرة والقدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ } المؤمنون 12 { أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ } البلد 5 و جاءت منصوصا عليها في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله { فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ } الزخرف 41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة وقوله { وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ } ق 45 و { أَلَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ } الغاشية 22 و نحو ذلك و هو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر وذلك يستلزم قدرته عليهم وقوله { فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } الأنبياء 87 على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله وكذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى و قال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له وهو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث و أن الله قدر عليه لكن لخشيته و إيمانه غفر الله له هذا الجهل و الخطأ الذي وقع منه وقد يستدل بقوله { أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ } المرسلات 20 الى وله { فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ } المرسلات 23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين و إن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه و القدرة عليه قدرة على خلقه و جاء أيضا الحديث منصوصا في مثل قول النبي صلى الله

عليه و سلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده الله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد و أنه أقدر عليه منه على عبده وفيه إثبات قدرة العبد¹

الاذن نوعان

فان الاذن نوعان إذن بمعنى المشيئة و الخلق و إذن بمعنى الاباحة و الاجازة فمن الأول قوله فى السحر { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 102 فان ذلك بمشيئة الله و قدرته و إلا فهو لم يبيح السحر و القدرية تنكر هذا الاذن و حقيقة قولهم إن السحر يضر بدون إذن الله وكذلك قوله { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ } آل عمران 166 فان الذي أصابهم من القتل و الجراح و التمثيل و الهزيمة إذا كان باذنه فهو خالق لأفعال الكفار و لأفعال المؤمنين و النوع الثاني قوله { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } {45} و دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } {46} الاحزاب 45-46 و قوله { مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ } الحشر 5 فان هذا يتضمن اباحته لذلك و اجازته له و رفع الجناح و الحرج عن فاعله مع كونه بمشيئته و قضائه فقوله { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ } البقرة 255 هو هذا الاذن الكائن بقدره و شرعه و لم يرد بمجرد المشيئة و القدر فان السحر و انتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الاذن فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقها و قادرا عليها و مشيئا لها فعنده كل شافع و داع قد فعل ما فعل بدون خلق الله و قدرته و ان كان قد أباح الشفاعة و أما الكفر و السحر و قتال الكفار فهو عندهم بغير اذنه لا هذا الاذن و لا هذا الاذن فانه لم يبيح ذلك باتفاق المسلمين و عندهم أنه لم يشأه و لم يخلقه بل كان بدون مشيئته و خلقه و المشركون المقرون بالقدر يقولون ان الشفعاء يشفعون بالاذن القدرى و ان لم يأذن لهم أباحة و جوازا و من كان مكذبا بالقدر مثل كثير من النصارى يقولون ان شفاعة الشفعاء بغير اذن لا قدرى و لا شرعى و القدرية من المسلمين يقولون يشفعون بغير اذن قدرى و من سأل الله بغير اذنه الشرعى فقد شفع عنده بغير اذن قدرى و لا شرعى فالداعي المأذون له فى الدعاء مؤثر فى الله عندهم لكن باباحته و الداعي غير المأذون له إذا أجاب دعاءه فقد أثر فيه عندهم لا بهذا الاذن و لا بهذا الاذن كدعاء بلعام بن باعوراء و غيره و الله تعالى يقول { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 فان قيل فمن الشفعاء من يشفع بدون اذن الله الشرعى و ان كان خالقا لفعله كشفاعة نوح لابنه و شفاعة ابراهيم لأبيه و شفاعة النبي صلى الله عليه و سلم لعبد الله بن ابي بن سلول حين صلى عليه بعد موته و قوله { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 قد قلتم أنه يعم النوعين فانه لو أراد الاذن القدرى لكان كل شفاعة داخله فى ذلك كما يدخل فى ذلك كل كفر و سحر و لم يكن فرق بين ما يكون باذنه و ما لا يكون باذنه و لو اراد الاذن الشرعى فقط لزم قول القدرية و هؤلاء قد شفَعُوا بغير اذن شرعى قيل المنفى من الشفاعة بلا اذن هي الشفاعة التامة و هي المقبولة كما فى قول المصلى سمع الله لمن حمده اي استجاب له و كما فى قوله تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 و قوله { إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّن يَخْشَاهَا } النازعات 45 و قوله { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ } {45} و نحو ذلك فان الهدى و الانذار و التذكير و التعليم لا بد فيه من قبول المتعلم فاذا تعلم حصل له التعليم

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 7-12

المقصود و الا قيل علمته فلم يتعلم كما قيل {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى
فصلت 17¹

من حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق

وقال حدثنا اسحاق حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن عبدالكريم الجزري عن مجاهد أن أبا ذر سأل
النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ عليه {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ} البقرة 177
الى آخر الآية وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال قلت لسالم الأبطس رجل أطاع الله فلم
يعصه ورجل عصى الله فلم يطعه فصار المطيع الى الله فأدخله الجنة و صار العاصي الى الله فأدخله
النار هل يتفاضلان في الايمان قال لا قال فذكرت ذلك لعطاء فقال سلهم الايمان طيب أو خبيث فان
الله قال {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي
جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الأنفال 37 فسألتهم فلم يجيبوني فقال بعضهم ان الايمان يبطن ليس معه
عمل فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله أما يقرؤون الآية التي في البقرة {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا
وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
} البقرة 177 قال ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ
ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ } البقرة 177 الى
قوله { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة 177 فقال سلهم هل دخل هذا العمل في هذا الاسم وقال { وَمَنْ
أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ } الإسراء 19 فالزم الاسم العمل والعمل الاسم
والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل فاذا عرف أن
الذم والعقاب واقع في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه بل يكون نزاعا لفظيا مع أنهم
مخطئون في اللفظ مخالفون للكتاب والسنة وان قالوا انه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح
وبعض الناس يحكى هذا عنهم وأنهم يقولون ان الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن
يعملوها ولا يضرهم تركها وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد
أحد لكن ما علمت معينا أحكى عنه هذا القول وانما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله وقد
يكون قول من لا خلاق له فان كثيرا من الفساق والمنافقين يقولون لا يضر مع الايمان ذنب أو مع
التوحيد وبعض كلام الراديين على المرجئة وصفهم بهذا ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية
{ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة 177 فقوله صدقوا أى في قولهم آمنوا كقوله
{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } الحجرات 14
الى قوله { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات 15 أى هم الصادقون في قولهم آمنوا بالله بخلاف الكاذبين الذين
قال الله فيهم { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } المنافقون 1 وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا
هُم بِمُؤْمِنِينَ } 8 { يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } 9 { فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } 10 { البقرة 8-10 وفي }

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 384-386

يَكْذِبُونَ {10} البقرة قراءتان مشهورتان فانهم كذبوا في قولهم آمنا بالله واليوم الآخر وكذبوا الرسول في الباطن وان صدقوه في الظاهر وقال تعالى {الم {1} أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {2} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ {3} العنكبوت 1-3 فبين أنه لا بد أن يفتن الناس أى يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم يقال فتنت الذهب اذا أدخلته النار لتمييزه مما اختلط به ومنه قول موسى { إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ } الأعراف 155 أى محتتك واختبارك وابتلاؤك كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره وابتليتهم بارسال الرسل وانزال الكتاب ليتبين المؤمن من الكافر والصادق من الكاذب والمنافق من المخلص فتجعل ذلك سببا لضلالة قوم وهدى آخرين والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق والمنافقين بالكذب لأن الطائفتين قالتا بألسنتهما آمنا فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ما ليس فى قلبه فهو كاذب منافق

قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } {166} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } {167} آل عمران 166-167 فلما قال فى آية البر { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة 177 دل على أن المراد صدقوا فى قولهم آمنا فان هذا هو القول الذى أمروا به وكانوا يقولونه¹

فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين وهذا لا يسمى قولاً الا بالتقيد كقوله تعالى { يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } الفتح 11 وقوله تعالى { يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } { آل عمران 167 } وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هى من أعمال المنافقين التى لا يتقبلها الله²

كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجرى ذلك لأسباب

أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطنا وهذا مما استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والتفسير والسير أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجرى ذلك لأسباب منها لما إنهمز المسلمون يوم أحد وشج وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت ربايته ارتد طائفة نافقوا قال تعالى { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } {139} إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } {140} وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } {141} آل عمران 139-141 وقال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } {166} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 181-184

مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 181-184

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 506

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ {167} آل عمران 166- 167 فقولهُ
 { وَأَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا } آل عمران 167 ظاهر فيمن أحدث نفاقا وهو يتناول من لم ينافق قبل ومن
 نافق ثم جدد نفاقا ثانيا وقوله { هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ } آل عمران 167 يبين أنهم
 لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم بل أما أن يتساويا وأما أن يكونوا للإيمان أقرب وكذلك كان فإن ابن
 ابى لما انخزل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد انخزل معه ثلث الناس قيل كانوا نحو ثلاثمائة
 وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين فى الباطن اذ لم يكن لهم داع الى النفاق فإن ابن أبى كان
 مظهرا لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم والايمان به وكان كل يوم جمعة يقوم خطيبا فى المسجد
 يأمر باتباع النبي ولم يكن ما فى قلبه يظهر الا لقليل من الناس ان ظهر وكان معظما فى قومه كانوا
 قد عزموا على أن يتوجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم فلما جاءت النبوة بطل ذلك فحمله الحسد على
 النفاق والا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو اليه وانما كان هذا فى اليهود فلما جاء النبي بدينه وقد أظهر
 الله حسنه ونوره مالت إليه القلوب لا سيما لما نصره الله يوم بدر ونصره على يهود بنى قينقاع صار
 معه الدين والدنيا فكان المقتضى للإيمان فى عامة الانصار قائما وكان كثير منهم يعظم ابن أبى
 تعظيما كثيرا ويواليه ولم يكن ابن أبى أظهر مخالفة توجب الامتياز فلما انخزل يوم أحد وقال يدع
 رأى ورأيه ويأخذ برأى الصبيان أو كما قال انخزل معه خلق كثير منهم من لم ينافق قبل ذلك¹

أن القلب قد يكون فيه ايمان ونفاق

قال أبو داود السجستاني حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن أبى المقدام
 عن أبى يحيى قال سئل حذيفة عن المنافق قال الذي يعرف الاسلام ولا يعمل به وقال أبو داود حدثنا
 عثمان بن أبى شيبه حدثنا جرير عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن ابى البخترى عن حذيفة قال
 القلوب أربعة قلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب مصفح وذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه سراج
 يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل شجرة يمدّها ماء طيب ومثل
 النفاق مثل قرحة يمدّها قيح ودم فأيهما غلب عليه غلب وقد روى مرفوعا وهو فى المسند
 مرفوعا وهذا الذى قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى { هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ } آل
 عمران 167 فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا الى الكفر أقرب
 وروى عبدالله بن المبارك عن عوف بن أبى جميلة عن عبدالله بن عمرو بن هند عن على بن أبى
 طالب قال ان الايمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب فكلما ازداد العبد ايمانا ازداد القلب بياضا حتى اذا
 استكمل الايمان أبيض القلب كله وان النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب فكلما ازداد العبد نفاقا ازداد
 القلب سوادا حتى اذا استكمل العبد النفاق اسود القلب وأيم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه
 أبيض ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود وقال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق فى
 القلب كما ينبت الماء البقل رواه أحمد وغيره وهذا كثير فى كلام السلف يبينون أن القلب قد يكون فيه
 ايمان ونفاق والكتاب والسنة يدلان على ذلك فان النبي ذكر شعب الايمان وذكر شعب النفاق وقال
 من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها وتلك الشعبة قد يكون معها كثير
 من شعب الايمان ولهذا قال ويخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان فعلم أن من

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 279-280

كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار وان من كان معه كثير من النفاق فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ثم يخرج من النار¹

ومن الناس من يكون فيه إيمان وفيه شعبة من نفاق كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي انه قال اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر وفي الصحيحين أيضا عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي أنه قال الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن من كان فيه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها وقد ثبت في الصحيحين أنه قال لأبي ذر وهو من خيار المؤمنين انك امرؤ فيك جاهلية فقال يا رسول الله اعلى كبر سنى قال نعم وثبت في الصحيح عنه انه قال اربع في امتى من أمر الجاهلية الفخر في الاحساب والطعن في الانساب والنياحة على الميت والاستسقاء بالنجوم وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وفي صحيح مسلم وان صام وصلى وزعم انه مسلم وذكر البخارى عن ابن ابي مليكة قال ادركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه وقد قال الله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ فَبِأَنِّ اللَّهِ وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } {166} وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ } {167} آل عمران 166-167 فقد جعل هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان فعلم انهم مخلطون وكفرهم اقوى وغيرهم يكون مخلطا وإيمانه اقوى وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقين فبحسب ايمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى فمن كان اكمل ايمانا وتقوى كان اكمل ولاية لله فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الايمان والتقوى وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق قال الله تعالى { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون } {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرين } {125} التوبة 124-125 فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الايمان والتقوى وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق قال الله تعالى { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } التوبة 37 وقال تعالى { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } محمد 17 وقال تعالى في المنافقين { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزادهم الله مرضا } البقرة 10 فبين سبحانه وتعالى ان الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب ايمانه وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه وقال تعالى { وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا } المدثر 31 وقال تعالى { لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ } الفتح 4²

أن خير المؤمنين في أعلى درجات الجنة والمنافقون في الدرك الأسفل من النار وان كانوا في الدنيا مسلمين ظاهرا تجرى عليهم أحكام الاسلام الظاهرة فمن كان فيه إيمان ونفاق يسمى مسلما اذ ليس

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 304

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 174-175

هو دون المنافق المحض وإذا كان نفاقه أغلب لم يستحق اسم الإيمان بل اسم المنافق أحق به فان ما فيه بياض وسواد وسوداه أكثر من بياضه هو بإسم الأسود أحق منه بإسم الأبيض كما قال تعالى { هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ } آل عمران 167 وأما اذا كان ايمانه أغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد لم يكن أيضا من المؤمنين الموعودين بالجنة¹

شعار دين الرافضة التقية

فان الله قد ذكر في سورة التوبة و غيرها من علامات المنافقين و صفاتهم أمورا متعددة كقوله { وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا } التوبة 49 و قوله { وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَاِنْ اَعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا اِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ } التوبة 58 و قوله { وَمِنْهُمْ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ اذْنٌ قُلْ اذْنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ } التوبة 61 { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللّٰهُ لَئِنْ اَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ } التوبة 75 إلى قوله { فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ اِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْفَوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ } التوبة 77 إلى أمثال ذلك من الصفات التي يصف بها المنافقين وذكر علاماتهم وذكر الأسباب الموجبة للنفاق وكل ما كان موجبا للنفاق فهو دليل عليه و علامة له وقد كان من علامتهم التخلف عن الجماعة كما في الصحيح عن ابن مسعود انه قال أيها الناس حافظوا على هؤلاء الصلوات الخمس حيث ينادى بهن فإنهن من سنن الهدى وان الله شرع لنبيه سنن الهدى وانكم لو صليتم في بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف و عامة علامات النفاق وأسبابه ليست في أحد من أصناف الأمة اظهر منها في الرافضة حتى يوجد فيهم من النفاق الغليظ الظاهر ما لا يوجد في غيرهم وشعار دينهم التقية التي هي أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه وهذا علامة النفاق كما قال الله تعالى { وَمَا اَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ اَلْجَمْعَانِ فَبِاِذْنِ اللّٰهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِيْنَ } 166 { وَلِيَعْلَمَ اَلَّذِيْنَ نَافَقُوْا وَقِيْلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَاتَّلَوْا فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ اَوْ اَدْفَعُوْا قَالُوْا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا اَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُوْنَ بِاَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُوْنَ } 167 { آل عمران 166- 167 وقال تعالى { يَخْلِفُوْنَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوْا وَلَقَدْ قَالُوْا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوْا بَعْدَ اِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوْا بِمَا لَمْ يَنَالُوْا } التوبة 74 وقال تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ } البقرة 10 وفيها قراءتان يكذبون و يكذبون وفي الجملة فعلامات النفاق مثل الكذب والخيانة و إخلاف الوعد والغدر لا يوجد في طائفة أكثر منها في الرافضة وهذا من صفاتهم القديمة حتى انهم كانوا يغدرون بعلي والحسن والحسين وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب و إذا وعد اخلف و إذا عاهد غدر و إذا خاصم فجر وهذا لبسطه موضوع آخر كتاب دقائق التفسير²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 352

²منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 150-153

والنفاق والزندقة في الرفضة أكثر منه في سائر الطوائف بل لا بد لكل منهم من شعبة نفاق فإن أساس النفاق الذي بنى عليه الكذب وأن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه كما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم والرفضة تجعل هذا من أصول دينها وتسميه التقية وتحكى هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله عن ذلك حتى يحكوا عن جعفر الصادق أنه قال التقية ديني ودين آبائي وقد نزه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك بل كانوا من أعظم الناس صدقا وتحقيقا للإيمان وكان دينهم التقوى لا التقية وقول الله تعالى {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} آل عمران 28 إنما هو الأمر بالإتقاء من الكفار لا الأمر بالنفاق والكذب والله تعالى قد أباح لمن أكرهه على كلمة الكفر أن يتكلم بها إذا كان قلبه مطمئنا بالإيمان لكن لم يكره أحد من أهل البيت على شيء من ذلك حتى أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكره أحدا لا منهم ولا من غيرهم على مبايعته فضلا أن يكرههم على مدحه والثناء عليه بل كان علي وغيره من أهل البيت يظهرهم ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم والترحم عليهم والدعاء لهم ولم يكن أحد يكرههم على شيء منه باتفاق الناس¹

سنة الله أنه يبتيلى المؤمنين بالسراء والضراء

قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبَادَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} 166
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ
قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ {167} الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ} 168} آل عمران 166-168 فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين
أنه يبتيليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر كما في الصحيح عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن
قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر
فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له فمن الحكم تمييز
المؤمن عن غيره فإنهم إذا كانوا دائما منصورين لم يظهر لهم وليهم وعدوهم
إذا الجميع يظهرهم الموالاتة فإذا غلبوا ظهر عدوهم وفي الصحيحين عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تقيمها

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 46-47

الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجفافها مرة واحدة وسئل صلى الله عليه وسلم أي الناس أشد بلاء فقال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمتل فالأمتل يبتل الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه رقة خفف عنه وإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ولا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وأهله وماله حتى يلقي الله وليس عليه خطيئة¹

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }

قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } {الحج 11} فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول و فعل ما بعث به مسببا لشر أصابه إما من السماء و إما من آدمي و هؤلاء كثيرون و كانوا تارة يقدحون فيما جاء به و يقولون ليس هذا مما أمر الله به و لو كان مما أمر الله به لما جرى على أهله هذا البلاء و تارة لا يقدحون في الأصل لكن يقدحون في القضية المعينة فيقولون هذا بسوء تدبير الرسول كما قال عبدالله بن أبي بن سلول يوم أحد إذ كان رأيهم مع رأي النبي صلى الله عليه و سلم أن لا يخرجوا من المدينة فسأله صلى الله عليه و سلم ناس ممن كان لهم رغبة في الجهاد أن يخرج فوافقهم و دخل بيته و ليس لأمته فلما لبس لأمته ندموا و قالوا للنبي صلى الله عليه و سلم أنت أعلم فان شئت أن لانخرج فلا نخرج فقال ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتى يحكم الله بينه و بين عدوه يعني أن الجهاد يلزم بالشروع كما يلزم الحج لا يجوز ترك ما شرع فيه منه الا عند العجز بالاحصار في الحج و المفسرون ذكروا في قوله { وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ } النساء 78 هذا و هذا فعن ابن عباس و السدى و غيرهما أنهم يقولون هذا تشاؤما بدينه و عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال بسوء تدبيرك يعني كما قاله عبدالله بن أبي و غيره يوم أحد و هم كالذين { قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } آل عمران 168 فبكل حال قولهم { مِنْ عِنْدِكَ } النساء 78 هو طعن فيما أمر الله به و رسوله من الايمان و الجهاد و جعل ذلك هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين المطيعين كما أصابتهم يوم أحد و تارة تصيب عدوهم فيقول الكافرون هذا بشؤم هؤلاء كما قال أصحاب القرية للمرسلين { إِنَّا نَطِيرِنَا بِكُمْ } يس 18 و كما قال تعالى عن آل فرعون { فَأَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } الأعراف 131²

¹ العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 129-130

² مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 250-252

مدار النصر والظهور مع متابعة النبي من غير سبب يزاحم ذلك

أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث وحين المبعث في حياتهم وبعد موتهم فقبل المبعث مثل إخبار من تقدم من الأنبياء به ومثل الإرهاصات الدالة عليه وأما حين المبعث فظاهر وأما في حياته فمثل نصره وإنجائه وإهلاك أعدائه وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه وإهلاك أعدائه كما قال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر 51 فإن قيل ففي الأنبياء من قد قتل كما أخبر الله أن بني إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق وفي أهل الفجور من يؤتاه الله ملكا وسلطانا ويسلطه على مذنبين كما سلط بخت نصر على بني إسرائيل وكما يسלט كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين قيل أما من قتل من الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين في الجهاد شهيدا قال تعالى { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } {146} وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } {148} آل عمران 146-148 ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيدا في القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه قال تعالى { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ } آل عمران 169 ولهذا قال تعالى { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ } التوبة 52 أي إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة ثم الدين الذي قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر فيكون لطائفته السعادة في الدنيا والآخرة من قتل منهم كان شهيدا ومن عاش منهم كان منصورا سعيدا وهذا غاية ما يكون من النصر إذ كان الموت لا بد منه فالموت على الوجه الذي يحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم وفعّلوا الأسباب التي بها قتلوا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم اختاروا هذا الموت إما أنهم قصدوا الشهادة وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء عالمين بأن لهم السعادة في الآخرة وفي الدنيا بانتصار طائفتهم وبقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء بخلاف من هلك من الكفار فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكا لا يرجون معه سعادة الآخرة ولم يحصل لهم ولا لطائفهم شيء من سعادة الدنيا بل اتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين وقيل فيهم ويوم القيامة هم من المقبورين وقيل فيهم { كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ } {25} وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ } {26} وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاقْبَرِينَ } {27} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ } {28} فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ } {29} الدخان 25-29 وقد أخبر سبحانه أن كثيرا من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أي ألوف كثيرة وانهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو وأن الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة فإذا كان هذا قتلى المؤمنين فما الظن بقتلى الأنبياء ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح وظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد فإن تابوا وانتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها فإن النبي إذا قاموا بعهوده ووصاياهم نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له فإذا ضيعوا عهوده ظهر أولئك عليهم فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر موجب للعلم بأن المدار علة للدائر وقولنا من غير مزاحمة وصف آخر يزيل النقوض الواردة فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو

بسبب اتباع النبي وانه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه وأن يجعل لهم السعادة ولمن خالفهم الشقاء وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ومن خالفه كان شقيا ومن هذا ظهور بخت نصر على بني إسرائيل فإنه من دلائل نبوة موسى إذ كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهد موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك وكانوا إذ كانوا متبعين لعهد موسى منصورين مؤيدين كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما¹

الموت المثبت غير الموت المنفى

فالقلب إذا كان حيا فمات الانسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست في نفسها مية بمعنى زوال حياتها عنها ولهذا قال تعالى {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} البقرة 154 وقال تعالى {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} آل عمران 169 مع انهم موتى داخلون في قوله {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} الأنبياء 35 وفي قوله {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} الزمر 30 وقوله {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} الحج 66 فالموت المثبت غير الموت المنفى المثبت هو فراق الروح البدن والمنفى زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن وهذا كما ان النوم اخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وان كانت الحياة موجودة فيهما قال الله تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} الزمر 42 وكان النبي إذ استيقظ من منامه يقول الحمد لله الذي أحيانا بعد ما اماتنا وإليه النشور وفي حديث آخر الحمد لله الذي رد على روعي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا وإذا أوى إلى فراشه يقول اللهم انت خلقت نفسي وأنت توفاهم لك مماتها ومحياها إن امسكتها فارحمها وان ارسلتها فاحفظها لما تحفظ به عبادك الصالحين ويقول باسمك اللهم اموت واحيا²

دخول الأرواح الجنة ليس مختصا بالشهيد

فإن أرواح المؤمنين تدخل الجنة من حين الموت وقال تعالى {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} آل عمران 169³

وأما ما أخبر الله به من حياة الشهيد ورزقه وما جاء في الحديث الصحيح من دخول أرواحهم الجنة فذهب طوائف إلى أن ذلك مختص بهم دون الصديقين وغيرهم والصحيح الذي عليه الأئمة

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 414-416

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 110-111

³النبوات ج: 1 ص: 183

وجماهير أهل السنة ان الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصا بالشهيد كما دلت على ذلك النصوص الثابتة ويختص الشهيد بالذكر لكون الظان يظن أنه يموت فينكل عن الجهاد فأخبر بذلك ليزول المانع من الإقدام على الجهاد والشهادة كما نهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق لأنه هو الواقع وان كان قتلهم لا يجوز مع عدم خشية الاملاق¹

وقد ثبت أن أرواح المؤمنين والشهداء وغيرهم في الجنة قال الإمام أحمد في رواية حنبل أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة والابدان في الدنيا يعذب الله من يشاء ويرحم بعفوه من يشاء وقال عبد الله بن أحمد سألت أبي عن أرواح الموتى أتكون في أفنية قبورها أم في حواصل طير أم تموت كما تموت الأجساد فقال قد روى عن النبي أنه قال نسمة المؤمن إذا مات طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه وقد روى عن عبد الله بن عمر وأنه قال أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر كالزراير يتعارفون فيها ويرزقون من ثمرها قال بعض الناس أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تأوى إلى قناديل في الجنة معلقة بالعرش وقد روى مسلم في صحيحه عن مسرور قال سألتنا عبد الله يعني ابن مسعود عن هذه الآية {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} آل عمران 169 فقال إنا قد سألتنا عن ذلك رسول الله فقال إن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث تشاء ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلعه فقال هل تشتبهون شيئاً فقالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا²

حياة القلب هي المانعة من القبائح

وأعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته كأبي الحسين البصري قالوا إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهي شرط في العلم والارادة والقدرة على الأفعال الاختيارية وهي أيضا مستلزمة لذلك فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة وكل ماله علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي و الحياء مشتق من الحياة فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم الحياء من الإيمان وقال الحياء والعيا شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق فإن الحي يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحا والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف الرطوبة الحياة فإذا كان وقحا يابساً صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياه وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيه وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضر ولهذا كان

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 332

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 224-226

الحيي يظهر عليه التأثر بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح بخلاف الوقح والذي ليس بحيي فإنه لا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها ولهذا قال تعالى **{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزقُونَ}** آل عمران 169 مع أنهم موتى داخلون في قوله آل عمران **{كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ}** آل عمران 185 فالموت المثبت غير الموت المنفي المثبت هو فراق الروح البدن والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن وهذا كما أن النوم أخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وكانت الحياة موجودة فيهما قال تعالى الزمر **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** الزمر 42 وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من منامه يقول الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور وفي حديث آخر الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا وإذا أوى إلى فراشه يقول اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ويقول باسمك اللهم أموت وأحيا فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله فإذا أحب أن يعطى مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالما معتديا مستحقا للعقوبة إلا أن يتوب وكان المحسود مظلوما مأمورا بالصبر والتقوى فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه كما قال تعالى البقرة **{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** البقرة 109

1

محركات القلوب الى الله عز وجل

ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب الى الله عز وجل فتعتصم به فتقل آفاتنا أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته فنقول إعلم أن محركات القلوب الى الله عز وجل ثلاثة المحبة والخوف والرجاء وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تتراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى **{فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبِشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** آل عمران 170 والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق فالمحبة تلقى العبد في السير الى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنع أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره²

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 13-15

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 95

القرآن قد بين في غير موضع بقاء النفس في البرزخ

أن الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقاً زعموا أنه لم يدل على ذلك القرآن وهو غلط بل القرآن قد بين في غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن وبين النعيم والعذاب في البرزخ وهو سبحانه تعالى في السورة الواحدة يذكر القيامة الكبرى وأن الناس يكونون أزواجاً ثلاثة كما قال تعالى (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ {1} لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كاذِبَةٌ {2} خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ {3} إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا {4} وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا {5} فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا {6} وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً {7} الواقعة 1-7 ثم إنه في آخرها القيامة الصغرى بالموت وأنهم ثلاثة أصناف بعد الموت فقال { فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ {83} وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ {84} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ {85} تُبْصِرُونَ {85} فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ {86} تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {87} فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ {88} فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ {89} وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ {90} فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ {91} وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ {92} فَنَزُلُ مِنْ حَمِيمٍ {93} وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ {94} إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ {95} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ {96} الواقعة 83-96 فهذا فيه أن النفس تبلغ الحلقوم وأنهم لا يمكنهم رجوعها وبين حال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين حينئذ وفي سورة القيامة ذكر أيضاً القيامتين فقال (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ {1} الْقِيَامَةِ 1 ثم قال { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ {2} القيامة 2 وهي نفس الإنسان وقد قيل إن النفس تكون لوامة وغير لوامة وليس كذلك بل نفس كل إنسان لوامة فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وأما في الآخرة فهذا إثبات النفس ثم ذكر معاد البدن فقال { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ {3} بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ {4} بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ {5} يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ {6} القيامة 3-6 ووصف حال القيامة إلى قوله { تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ {25} القيامة 25 ثم ذكر الموت فقال { كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ {26} القيامة 26 وهذا إثبات للنفس وأنها تبلغ التراقي كما قال هناك { بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ { الواقعة 83 والتراقي متصلة بالحلقوم ثم قال { وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ {27} القيامة 27 يرقياها وقيل من صاعد يصعد بها إلى الله والاول أظهر لان هذا قبل الموت فإنه قال { وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ {28} القيامة 28 فدل على أنهم يرجونه ويطلبون له راقيا يرقيه وأيضاً فصعدوا لا يفتقر إلى طلب من يرقى بها فإن الله ملائكة يفعلون ما يؤمرون والرقية أعظم الأدوية فإنها دواء روحاني ولهذا قال النبي في صفة المتوكلين لا يسترقون والمراد أنه يخاف الموت ويرجو الحياة بالراقي ولهذا قال { وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ {28} القيامة 28 ثم قال { وَالنَّفْسُ السَّاقُ بِالسَّاقِ {29} إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ {30} القيامة 29-30 فدل على نفس موجودة قائمة بنفسها تساق إلى ربها والعرض القائم بغيره لا يساق ولا بدن الميت فهذا نص في إثبات نفس تفارق البدن تساق إلى ربها كما نطق بذلك الأحاديث المستفيضة في قبض روح المؤمن وروح الكافر ثم ذكر بعد هذا صفة الكافر بقوله مع هذا الوعيد الذي قدمه { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى {31} القيامة 31 وليس المراد أن كل نفس من هذه النفوس كذلك وكذلك سورة ق هي في ذكر وعيد القيامة ومع هذا قال فيها { وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ {ق19} ثم قال بعد ذلك { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ {ق20} فذكر القيامتين الصغرى والكبرى وقوله { وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ {ق19} أي جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب وهو الحق الذي أخبرت به الرسل ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت فإن هذا مشهور لم ينازع فيه ولم يقل أحد إن الموت باطل حتى يقال جاءت بالحق وقوله { ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ {ق19} فلإنسان وإن كره الموت فهو يعلم أنه تلاقية ملائحته وهذا كقوله { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ {الحجر 99} واليقين ما بعد الموت كما

قال النبي أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه وإلا فنفس الموت مجرد عما بعده أمر مشهور لم ينازع فيه احد حتى يسمى يقينا وذكر عذاب القيامة والبرزخ معا في غير موضع ذكره في قصة آل فرعون فقال {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} {45} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} {46} غافر 45-46 وقال في قصة قوم نوح {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا} {نوح 25} مع إخبار نوح لهم بالقيامة في قوله {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} {17} {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} {18} {نوح 17-18} وقد ذكرنا في غير موضع أن الرسل قبل محمد أُنذروا بالقيامة الكبرى تكذيبا لمن نفى ذلك من المتفلسفة وقال عن المنافقين {سُعَذَّبْنَاهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرْثَوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ} {التوبة 101} قال غير واحد من العلماء المرة الأولى في الدنيا والثانية في البرزخ ثم يردون الى عذاب عظيم في الآخرة وقال تعالى في الأنعام {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} {93} {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ} {94} {الأنعام 93-94} وهذه صفة حال الموت وقوله {أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ} {الأنعام 93} دل على وجود النفس التي تخرج من البدن وقوله {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} {الأنعام 93} دل على وقوع الجزاء عقب الموت وقال تعالى في الأنفال {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} {50} {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} {51} {الأنفال 50-51} وهذا ذوق له بعد الموت وقال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} {محمد 27} وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى المشركين يوم بدر في القلب ناداهم يا فلان يا فلان 1 هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقد وجدت ما وعدني ربي حقا وهذا دليل على وجودهم وسماعهم وإنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب وأما نفس قتلهم فقد علمه الأحياء منهم وقال تعالى في سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} {النساء 97} وهذا خطاب لهم اذا توفتهم الملائكة وهم لا يعاينون الملائكة إلا وقد يسوا من الدنيا ومعلوم أن البدن لم يتكلم لسانه بل هو شاهد يعلم أن الذي يخاطب الملائكة هو النفس والمخاطب لا يكون عرضا وقال تعالى في النحل {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {28} {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} {النحل 28-29} وهذا إلقاء للسلم إلى حين الموت وقول للملائكة {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} {28} {النحل 28} وهذا إنما يكون من النفس وقد قال في النحل {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {32} {النحل 32} وقال في فصلت {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} {30} {نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} {31} {فصلت 30-31} وقد ذكروا أن هذا التنزل عند الموت وقال تعالى في سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} {169} {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {170} يَسْتَنْبِشُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ {171} آل عمران 170-171¹

يوم احد يوم بلاء وفتنة وتمحيص

كان المسلمون قد هزموا العدو (في غزوة احد) أولا وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد وكل بثغرة الجبل الرماة وأمرهم بحفظ ذلك المكان وأن لا يأتوهم سواء غلبوا أو غلبوا فلما انهزم المشركون صاح بعضهم أي قوم الغنيمة فنهاهم أميرهم عبد الله بن جبير ورجع العدو عليهم وأمير المشركين إذ ذاك خالد بن الوليد فأتاهم من ظهورهم فصاح الشيطان قتل محمد واستشهد في ذلك اليوم نحو سبعين ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم إلا اثنا عشر رجلا فيهم أبو بكر وعمر وأشرف أبو سفيان فقال أفي القوم محمد أفي القوم محمد والحديث في الصحيحين وقد تقدم لفظه وكان يوم بلاء وفتنة وتمحيص وانصراف العدو عنهم منتصرا حتى هم بالعود إليهم فندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين للحاقه وقيل إن في هؤلاء نزل قوله تعالى {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} آل عمران 172 وكان في هؤلاء المنتدبين أبو بكر والزبير قالت عائشة لابن الزبير أبوك وجدك ممن قال الله فيهم {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} آل عمران 172 ولم يقتل يومئذ من المشركين إلا نفر قليل وقصد العدو رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهدوا في قتله وكان ممن ذب عنه يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وجعل يرمي عنه والنبي صلى الله عليه وسلم يقول له ارم فذاك أبي وأمي وفي الصحيحين عن سعد قال جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبيه يوم أحد وكان سعد مجاب الدعوة مسدد الرمية وكان فيهم أبو طلحة راميا وكان شديد النزع وطلحة بن عبيد الله وقى النبي صلى الله عليه وسلم بيده فشلت يده وظاهر النبي صلى الله عليه وسلم بين درعين وقتل دونه نفر قال ابن إسحاق في السيرة في نفر الذين قاموا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ترس دون النبي صلى الله عليه وسلم أبو دجانة بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحني عليه متى كثر فيه النبل ورمى سعد بن أبي وقاص دون النبي صلى الله عليه وسلم قال سعد فلقد رأيت يناولني النبل ويقول ارم فذاك أبي وأمي حتى إنه ليناولني السهم ماله نصل فيقول ارم وقال النبي صلى الله عليه وسلم حين غشيه القوم من رجل يشرى لنا نفسه فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار وبعض الناس يقول إنما هو عمارة بن زيد بن السكن فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ثم رجلا يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد أو عمارة فقاتل حتى أثبتته الجراح ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم أدنوه مني فأدنوه منه فوسده قدمه فمات وخده على قدم النبي صلى الله عليه وسلم قال وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى عن قوسه حتى انعرت سيتها فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنيه وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردها بيده وكانت أحسن عينيه وأحدهما ولم يكن علي ولا أبو بكر ولا عمر من الذين كانوا يدفعون عن

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 263-268

دعاء الله والتوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب

فإن الله وحده حسب جميع الخلق كما قال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 أي الله وحده كافينا كلنا و فى البخارى عن ابن عباس فى هذه الكلمة قالها إبراهيم حين القي فى النار و قالها محمد حين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل فكل من النبيين قال حسبى الله فلم يشرك بالله غيره فى كونه حسبه فدل على أن الله وحده حسبه ليس معه غيره و منه قوله تعالى { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } الزمر 36 و قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } التوبة 59 الآية فدعاهم إلى أن يرضوا ما آتاهم الله و رسوله و إلى أن يقولوا حسبنا الله و لا يقولوا حسبنا الله و رسوله لأن الإيتاء يكون بأذن الرسول كما قال { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } الحشر 7 و أما الرغبة فإلى الله كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } 7 { وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ } 8 { الشرح 7-8 و كذلك التحسب الذى هو التوكل على الله وحده فلهذا أمرنا أن يقولوا حسبنا الله و لا يقولوا و رسوله ²

فإن أعظم الخلق قدرا هو رسول الله وآله وسلم وأصحابه أعلم الناس بأمره وقدره وأطوع الناس له ولم يكن يأمر أحدا منهم عند الفزع والخوف أن يقول يا سيدى يا رسول الله لم يكونوا يفعلون ذلك فى حياته ولا بعد مماته بل كان يأمرهم بذكر الله ودعائه والصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } 173 { فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } 174 { آل عمران 173-174 وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الكلمة قالها إبراهيم عليه السلام حين القي فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وآله وسلم يعنى وأصحابه حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول عند الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش الكريم لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم وقد روى أنه علم نحو هذا الدعاء بعض أهل بيته وفى السنن أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا حزبه أمر قال يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث وروى أنه علم ابنته فاطمة أن تقول يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث

¹ منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 100-97

² منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 204-205

اصح لي شأني كله ولا تكني إلى نفسي طرفه عين ولا إلى أحد من خلقك وفي مسند الإمام أحمد وصحيح أبي حاتم البستي عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحا قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال ينبغي لمن سمعن أن يتعلمهن وقال لأمته إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة وذكر الله والإستغفار فأمرهم عند الكسوف بالصلاة والدعاء والذكر والعتق والصدقة ولم يأمرهم أن يدعوا مخلوقا ولا ملكا ولا نبيا ولا غيرهم ومثل هذا كثير في سنته لم يشرع للمسلمين عند الخوف إلا ما أمر الله به من دعاء الله وذكره والإستغفار والصلاة والصدقة

مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 539 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 183

و قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} {8} الشرح 7-8 فأمره أن تكون رغبته الى الله وحده ومن هؤلاء من يجعل دعاء الله و مسألته نقصا و هو مع ذلك يسأل الناس و يكدبهم و سؤال العبد لربه حاجته من أفضل العبادات و هو طريق أنبياء الله و قد أمر العباد بسؤاله فقال {وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} النساء 32 و مدح الذين يدعون ربهم رغبة و رهبة من الدعاء ما هو فرض على كل مسلم كالدعاء المذكور في فاتحة الكتاب و من هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل أنه لما ألقى في النار قال له جبرئيل هل لك من حاجة فقال أما إليك فلا قال حسبي من سؤالي علمه بحالي و أول هذا الحديث معروف و هو قوله أما إليك فلا و قد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه عنهما في قوله حسبنا الله و نعم الوكيل أنه قالها إبراهيم حين ألقى في النار و قالها محمد صلى الله عليه و سلم حين قال له الناس { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ } آل عمران 173 و أما قوله حسبي من سؤالي علمه بحالي فكلام باطل خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل و غيره من الأنبياء من دعائهم لله و مسألتهم إياه و هو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا و الآخرة كقولهم { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } البقرة 201 و دعاء الله و سؤاله و التوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب كما يقدره بها فكيف يكون مجرد العلم مسقطا لما خلقه و أمر به و الله أعلم و صلى الله على محمد و سلم

ومثل هذا كثير في القرآن ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم فإن هذا شرك أو ذريعة الى الشرك بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضى الى ذلك فإن أحدا من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته فإنه ينهى من يفعل ذلك بخلاف دعائهم بعد موتهم فإن ذلك ذريعة الى الشرك بهم وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة الى الشرك فمن رأى نبيا أو ملكا من الملائكة وقال له ادع لي لم يفض ذلك الى الشرك به بخلاف من دعاه في مغيبه فإن ذلك يفضى الى الشرك به كما قد وقع فإن الغائب والميت لا ينهى من يشرك بل إذا تعلق القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك الى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين¹

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 88-89 و زيارة القبور ج: 1 ص: 47

بين الله التوحيد وحسم مواد الإشراف به

وقد بين الله التوحيد في كتابه وحسم مواد الإشراف به حتى لا يخاف أحد غير الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق هذا التوحيد لأمته ويحسم عنهم مواد الشرك إذ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي تألهه القلوب لكامل المحبة والتعظيم والإجلال والإكرام والرجاء والخوف حتى قال لهم لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت وقال من حلف بغير الله فقد أشرك وقال لابن عباس إذا سألت فاسئله وإذا استعنت فاستعن بالله جف القلم بما أنت لاق فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشيء كتبه الله لك ولو جهدت أن تضرك لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك¹

و الله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم وللأنبياء حق وللمؤمنين حق ول بعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ولا يجعلوا لله ندا لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الإستعانة به كما في الصحيحين أنه قال من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار وسئل أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك وقال تعالى {قَلَّا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 175 وروى البخاري عن ابن عباس في قوله {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 قال قالها إبراهيم حين ألقى في النار وقالها محمد حين {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} الأنفال 64 ومعنى ذلك عند جماهير السلف والخلف أن الله وحده حسيبك وحسب من اتبعك من المؤمنين كما بسط ذلك بالأدلة وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله في أمره ونهيه ووعدته ووعيده فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله²

"إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله"

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 136

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 306 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 108

**فلا خالق إلا الله ولا رب إلا الله ولا يجيب المضطرين ويرزق العباد إلا الله فهو
الذي يعطي ويمنع ويخفف ويرفع ويعز ويذل وهو الذي يستحق أن يستعان به
ويتوكل عليه ويستعاذ به ويلتجئ العباد إليه فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطي
لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد كما قال تعالى في فاتحة الكتاب {إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فالعباد لا ينبغي لهم أن يخافوا إلا الله كما قال
تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 الى قوله {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 175¹**

يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء بل لا يستحق
المحبة والذل التام إلا الله وكل ما أحب لغير الله فمحبتة فاسدة وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه
باطلاً قال الله تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا
وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} التوبة 24 فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة فإن الطاعة لله ورسوله
والإرضاء لله ورسوله {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} التوبة 62 والالتقاء لله ورسوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} التوبة 59 وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو
ذلك فلا يكون إلا لله وحده كما قال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ
إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} آل عمران 64 الى قوله {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل
عمران 64²

والاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التي تقوى العبد وتيسر عليه الأمور ولهذا
قال بعض السلف من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله وفي الصحيحين عن عبد الله ابن
عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفته في التوراة يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا وحرزا للأميين أنت عبي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في
الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويغفر ولن أقبضه حتى اقيم به الملة
العوجاء فأفتح بك أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا بأن يقولوا لا إله إلا الله ولهذا روى أن حملة
العرش إنما اطاقوا حمل العرش بقولهم لا حول ولا قوة إلا بالله وفي الصحيحين عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنها كنز من كنوز الجنة³

والله سبحانه له حقوق لا يشركه فيها غيره وللرسل حقوق لا يشركهم فيها غيرهم وللمؤمنين على
المؤمنين حقوق مشتركة ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال كنت رديف النبي

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 489

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 154 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 364 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 498

³أمراض القلوب ج: 1 ص: 51 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 51

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا عليه ويكمله لنا ويميتنا عليه وسائر إخواننا المسلمين والحمد وحده
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم¹

التوكل هو سبب هذا الانقلاب

وقد قال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل لما توكلوا عليه بقولهم
حسبنا الله أي كافينا الله لا يستحق المدح إن لم يجلب لمن توكل عليه منفعة ويدفع عنه مضرة والله
خير من توكل العباد عليه فهو نعم الوكيل يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم كل شر فلو كانت كفايته
للمؤمنين المتبعين للرسول سواء اتبعوه أو لم يتبعوه لم يكن للإيمان واتباع الرسول ثم أثر في هذه
الكفاية ولا كان لتخصصهم بذلك معنى وكان هذا نظير أن يقال هو خالقك وخالق من اتبعك من
المؤمنين ومعلوم أن المراد خلاف ذلك وإذا كان الحسب معنى يختص به بعض الناس علم أن
قول المتوكل حسبي الله وقوله تعالى {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} الطلاق 3 أمر مختص لا
مشترك وأن التوكل سبب ذلك الإختصاص والله تعالى إذا وعد على العمل بوعد أو خص أهله
بكرامة فلا بد أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق في حصول تلك الكرامة وإن كان قد
يحصل نظيرها بسبب آخر فقد يكفي الله بعض من لم يتوكل عليه كالأطفال لكن لا بد أن يكون
للمتوكل أثر في حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلا
مطلقا وإن عدم التوكل وقد قال تعالى {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} 173 {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ
اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} 174 {آل عمران 173-174
فمعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب فدل ذلك على أن ذلك
التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل وأن هذا الجزاء جزء على ذلك العمل وفي
الأثر من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله فلو كان التوكل لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة
لم يكن المتوكل أقوى من غيره²

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}

فلا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد فإنه لا بد له منه وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرا محتاجا معذبا
في طلب ما لم يحصل له والله تعالى {لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} النساء 48 وإذا حصل مع التوحيد
الإستغفار حصل له غناه وسعادته وزال عنه ما يعذبه ولا حول ولا قوة إلا بالله والعبد مفقر
دائما الى التوكل على الله والإستعانة به كما هو مفقر الى عبادته فلا بد أن يشهد دائما فقره الى الله
وحاجته في أن يكون معبودا له وأن يكون معينا له فلا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا اليه

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 234 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 410-411 و مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 105 و مجموع
الفتاوى ج: 26 ص: 158-159 و زيارة القبور ج: 1 ص: 78 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69 و اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 447

²رسالة في تحقيق التوكل ج: 1 ص: 89-90

قال تعالى { **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا رَبَّكَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } آل

عمران 175 هذا هو الصواب الذي عليه جمهور المفسرين كابن عباس و سعيد بن جبير و عكرمة و النخعي و أهل اللغة كالفراء و ابن قتيبة و الزجاج و ابن الأنباري و عبارة الفراء يخوفكم بأوليائه كما قال { **لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ** } الكهف 2 ببأس شديد و قوله { **لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** } غافر 15 و عبارة الزجاج يخوفكم من أوليائه قال ابن الأنباري و الذي نختاره في الآية يخوفكم أوليائه تقول العرب أعطيت الأموال أي أعطيت القوم الأموال فيحذفون المفعول الأول و يقتصرون على ذكر الثاني و هذا لأن الشيطان يخوف الناس أوليائه تخويفا مطلقا ليس له في تخويف ناس بناس ضرورة فحذف الأول ليس مقصودا و هذا يسمى حذف اختصار كما يقال فلان يعطى الأموال و الدراهم وقد قال بعض المفسرين يخوف أوليائه المنافقين و نقل هذا عن الحسن والسدى و هذا له وجه

سنذكره لكن الأول أظهر لأن الآية إنما نزلت بسبب تخويفهم من الكفار كما قال قبلها { **الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا** } آل عمران 173 الآيات ثم قال { **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا رَبَّكَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } آل عمران 175 فهي إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس و قد قال { **يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** } آل عمران 175 ثم قال { **فَلَا تَخَافُوهُمْ** } آل عمران 175 و الضمير عائد الى أولياء الشيطان الذين قال فيهم { **فَاخْشَوْهُمْ** } آل عمران 173 قبلها واما ذلك القول

فالذي قاله فسرهما من جهة المعنى و هو أن الشيطان إنما يخوف أوليائه بالمؤمنين لأن سلطانه على أوليائه بخوف يدخل عليهم المخاوف دائما فالمخاوف منصببة اليهم محيطة بقولهم و ان كانوا ذوي هينات و عدد و عدد { **فَلَا تَخَافُوهُمْ** } آل عمران 175 واما المؤمنون فهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار او انهم أرادوا المفعول الأول أي يخوف المنافقين أوليائه و الا فهو يخوف الكفار كما يخوف المنافقين و لو أنه أريد أنه يخوف أولياء أي يجعلهم خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه و هو قوله { **فَلَا تَخَافُوهُمْ** } آل عمران 175

وأيضا فهذا فيه نظر فان الشيطان يعد أوليائه و يمينهم كما قال تعالى { **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ** } الأنفال 48 و قال تعالى { **يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** } النساء 120 و لكن الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين و الشيطان لا يختار ذلك قال تعالى { **لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ** } الحشر 13 و قال { **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** } الأنفال 12 و قال { **سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ** } آل عمران 151 و في حديث قرطبة أن جبريل قال اني ذاهب اليهم فمززل بهم الحصن فتخويف الكفار و المنافقين و ارعابهم هو من الله نصرة للمؤمنين و لكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الاسلام فهم يوالون العدو فصاروا بذلك منافقين و إنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم كما قال تعالى { **وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** } التوبة 56 و قال تعالى { **أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** } الأحزاب 19 الآيات إلى قوله { **يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ** } الأحزاب 20 فكلا القولين صحيح من حيث المعنى لكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين كما دل عليه سياق الآية و لفظها و الله أعلم و إذا جعلهم الشيطان مخوفين فانما يخافهم من خوفه الشيطان منهم فجعله خائفا فالآية دلت على أن الشيطان يجعل أوليائه مخوفين و يجعل ناسا خائفين منهم و دلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان و لا يخاف الناس كما قال تعالى { **فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ** } و **وَإِخْشَاؤُكُمْ** } المائدة 44 بل يجب عليه أن يخاف الله فخوف الله أمر به و خوف الشيطان و أوليائه نهى عنه و قال تعالى { **لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي** }

{البقرة 150} فنهى عن خشية الظالم و أمر بخشيته {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ} {الأحزاب 39} وقال {فَأَيُّيَ فَرَاهِبُونَ} {النحل 51} و بعض الناس يقول يارب اني أخافك و أخاف من لا يخافك و هذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله و حده و لا يخاف أحدا لا من يخاف الله و لا من لا يخاف الله فان من لا يخاف الله أخس و أدل أن يخاف فانه ظالم و هو من أولياء الشيطان فالخوف منه قد نهى الله عنه و إذا قيل قد يؤذيني قيل إنما يؤذيك بتسليط الله له و إذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله و إنما يسلط على العبد بذنوبه و أنت إذا خفت الله فاتقته و توكلت عليه كفاك شر كل شر و لم يسلطه عليك فإنه قال {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} {الطلاق 3} و تسليطه يكون بسبب ذنوبك و خوفك منه فإذا خفت الله و تبت من ذنوبك و استغفرت له لم يسلط عليك كما قال {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} {الأنفال 33} و في الآثار يقول الله أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك قلوب الملوك و نواصيها بيدي فمن أطاعني جعلت قلوب الملوك عليه رحمة و من عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا الى و أطيعون أعطفهم عليكم¹

أولياء الله هم المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله

وقد بين سبحانه و تعالى في كتابه و سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ان الله أولياء من الناس و للشيطان أولياء ففرق بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان و إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن و أولياء الشيطان فيجب أن يفرق بين هؤلاء و هؤلاء كما فرق الله و رسوله بينهما فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {62} {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} {63} يونس 62-63 و في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري و غيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة أو فقد أذنته بالحرب و ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه و لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التي يبطش بها و رجله التي يمشي بها فبي يسمع و بي يبصر و بي يبطش و بي يمشي و لئن سألتني ل أعطيتنه و لئن استعاذ بي لأعيذنه و ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت و أكره مساءته و لا بد له منه و هذا أصح حديث يروي في الأولياء فبين النبي أنه من عادى وليا فقد بارز الله بالمحاربة و في حديث آخر و إنى لأتأثر لأوليائي كما يتأثر الليث الحرب أي أخذ تأرهم ممن عادهم كما يأخذ الليث الحرب تأره و هذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به و والوه فأحبوا ما يحب و أبغضوا ما يبغض و رضوا بما يرضى و سخطوا بما يسخط و أمروا بما أمر و نهوا عما نهى و أعطوا لمن يحب أن يعطى و منعوا من يحب أن يمنع كما في الترمذي و غيره عن النبي أنه قال أوثق عرى الإيمان الحب في الله و البغض في الله و في حديث آخر رواه أبو داود قال و من أحب الله و أبغض الله و أعطى الله و منع الله فقد استكمل الإيمان و الولاية ضد العداوة و أصل الولاية المحبة و القرب و أصل العداوة البغض و البعد و قد قيل أن الولي سمي وليا من موالاته للطاعات أي متابعتها لها و الأول اصح و الولي القريب فيقال هذا يلي هذا أي يقرب منه و منه قوله صلى الله عليه وسلم ألقوا الفرائض بأهلها فما ابقت الفرائض فلأولى رجل ذكر أي

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 203 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 56-58 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 56-57

لأقرب رجل إلى الميت واكده بلفظ الذكر ليبين انه حكم يختص بالذكور ولا يشترك فيها الذكور والانات كما قال في الزكاة فابن لبون ذكر فاذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه كان المعادى لوليه معاديا له كما قال تعالى { لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لَلَّذِينَ يُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ } الممتحنة 1 فمن عادى اولياء الله فقد عاداه ومن عاداه فقد حاربه فهذا قال ومن عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة¹

قال أهل العلم والدين كأبي يزيد البسطامي وغيره لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشى على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي وقال الشافعي لو رأيتم صاحب بدعة يطير في الهواء فلا تغتروا به فأولياء الله المتقون هم المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله كما قال تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } آل عمران 31 وطريقهم طريق أنبياء الله المرسلين وأولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وأما أهل الشرك والبدع والفجور فأحوالهم من جنس أحوال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي الذين ادعوا النبوة في آخر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وكان لكل منهما شياطين تخبره وتعيه وكان العنسي قد استولى على أرض اليمن في حياة النبي ثم قتله الله على أيدي عباده المؤمنين وكان قد طلب من أبي مسلم الخولاني أن يتابعه فامتنع فألقاه في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما كما جرى لابراهيم الخليل صلوات الله عليه وذلك مع صلاته وذكره ودعائه لله مع سكينه ووقار وهؤلاء أصحاب الأحوال الشيطانية لا تصير النار عليهم بردا وسلاما بل قد يطفونها كما يطفئها الناس وذلك في حال اختلاط عقولهم وهيج شياطينهم وارتفاع أصواتهم وهذا إن كان لأحدهم حال شيطاني وإلا فكثير منهم لا يحصل له ذلك بل يدخل في نوع من المكر والمحال فيتخذ حجر الطلق أو دهن الضفادع وأنواعا من الأدوية كما يصنعون من جنس ما تصنعه المشعبذون إخفاء اللادن والسكر في يد أحدهم فأنهم نوعان خاصتهم أهل حال شيطاني وعامتهم أهل محال بهتاني وهؤلاء لا يعطى أحدهم من الزكاة حتى يتوب ويلتزم ما بعث الله به محمدا من الكتاب والسنة ويكون مع ذلك من مستحقي الزكاة المذكورين في قوله تعالى { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ } التوبة 60 فأما من كان غنيا ليس من هذه الأصناف فلا يعطى من الزكاة لا سيما إذا كان مع غناه من شيوخ الضلال مثل شيوخ المضلين الأغنياء الذين ليسوا من الأصناف الثمانية فان هؤلاء لا يجوز أن يعطوا من الزكاة باجماع المسلمين وهؤلاء إذا قالوا للانسان تعطينا وإلا فاني أنلك في نفسك فانه قد تعينهم شياطين على اضرار بعض الناس بقضاء الله وقدره لكن هذا يكون لمن هو خارج عن شريعة محمد مثل أهل الفجور والبدع الذين لا يصلون الصلوات الخمس ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله فهؤلاء قد تسلط عليهم بعض هؤلاء بذنوبهم وخطاياهم وأما الذين يفعلون ما أمر الله به ورسوله من الصلوات الخمس وغيرها ويخلصون دينهم لله فلا يدعون إلا الله ولا يعبدون غيره ولا يندرون إلا الله ويحرمون ما حرم الله ورسوله فهؤلاء جند الله الغالبون وحزب الله المفلحون فانه يؤيدهم وينصرهم وهؤلاء يهزمون شياطين أولئك الضالين فلا يستطيعون مع شهود هؤلاء واستغاثتهم بالله أن يفعلوا شيئا من تلك الأحوال الشيطانية بل تهرب منهم تلك الشياطين وهؤلاء معترفون بذلك يقولون أحوالنا ما تنفذ قدام أهل الكتاب والسنة وإنما تنفذ قدام من لا يكون كذلك من الأعراب والترك والعمامة وغيرهم فهؤلاء من أهل الضلال والغى الذين

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 158

يجب نهيهم واستتابتهم ومنعهم من طاعة الشيطان والشرك والبدع والفجور وأمرهم بما أمر الله به ورسوله واتباع الكتاب والسنة ولا يجوز للمؤمن أن يخافهم فإن الله تعالى يقول في كتابه **{ الَّذِينَ قَال لَّهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {173}** **{ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ {174}** **{ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ {175}** **{ أَلْ عَمْرَانِ 173-175}** وقال تعالى **{ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولا تمني عليكم ولعلكم تهتدون {150}** كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون {151} فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون {152} البقرة 150- 152¹

" ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة "

قال تعالى **{ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ {79}** النساء 79 فبين الله سبحانه أن الحسنه من الله ينعم بها عليهم وأن السيئه أنا تصيبهم بذنوبهم ولهذا قال تعالى **{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ {الأفال33}** فأخبر أنه لا يعذب مستغفرا لأن الإستغفار يمحو الذنب الذي هو سبب العذاب فيندفع العذاب كما في سنن أبي داود وابن ماجه عن النبي أنه قال من أكثر الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب وقد قال تعالى **{ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2}** **{ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3}** **{هود2-3}** فبين أن من وحده واستغفره متعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى ومن عمل بعد ذلك خيرا زاده من فضله وفي الحديث يقول الشيطان أهلك الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والإستغفار فلما رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم بذنوب ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولهذا قال تعالى **{ فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبِاسِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ {الأنعام42}** أي فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا فحقهم عند مجيء البأس التضرع وقال تعالى **{ وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ {المؤمنون76}** قال عمر بن عبد العزيز ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة ولهذا قال تعالى **{ الَّذِينَ قَال لَّهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {173}** **{ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ {174}** **{ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ {175}** **{ آل عمران 173-175}** فنهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان وأمرهم بخوفه وخوفه بوجب فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والإستغفار من الذنوب وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداد فلماذا قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يخافن عبد إلا ذنبه وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر يقول الله أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسبب الملوك وأطيعوني

¹ مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 666-669

أعطف قلوبهم عليكم وأما قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه فإن
الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله
{وَأِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} {يونس 107} {مَا
يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} {فاطر 2} والرجاء مقرون
بالتوكل فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة والتوكل لا يجوز إلا على الله
كما قال تعالى {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {المائدة 23} وقال {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ} {إبراهيم 12} قال تعالى {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {المائدة 23} وقال
{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} {إبراهيم 12} وقال تعالى {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {آل عمران 160} وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ
{التوبة 59} وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} {173} {الأنفال 173} فهؤلاء قالوا حسبنا الله أي كافينا الله في دفع البلاء
وأولئك أمروا أن يقولوا حسبنا في جلب النعماء فهو سبحانه كاف عبده في إزالة الشر وفي إزالة
الخير أليس الله بكاف عبده ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرّم {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
{العنكبوت 41} {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيُكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} {81} {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدْدًا} {82} {مريم 81-82} {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ
تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} {الحج 31} {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا
{الإسراء 22} وقال الخليل {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
{العنكبوت 17} فمن عمل لغير الله رجاه أن ينفع بما عمل له كانت صفتة خاسرة قال الله تعالى
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ
فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {النور 39} وقال تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ
اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} {إبراهيم 18}

أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن

وفي خطبة النبي الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا
فجمع بين حمده والاستعانة به والإستغفار له فقد تبين أن الإلتفات الى الأسباب شرك في التوحيد وهو
ظلم وجهل وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه وأما قولهم (قول السلف) محو الأسباب أن
تكون أسبابا نقص في العقل فهو كذلك وهو طعن في الشرع أيضا فإن كثيرا من أهل الكلام أنكروا
الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها كما أن أولئك الطبيعيين جعلوها عللا مقتضية وكما أن
المعتزلة فرقوا بين أفعال الحيوان وغيرها والأقول الثلاثة باطلة فإن الله يقول {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ

¹ مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 163-165

كُلُّ الثَّمَرَاتِ { الأعراف 57 وقال تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا { البقرة 164 وقال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ { المائدة 16 وقال تعالى { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا { البقرة 26 وأمثال ذلك فمن قال يفعل عندها لايها فقد خالف لفظ القرآن مع أن الحس والعقل يشهد أنها أسباب ويعلم الفرق بين الجبهة وبين العين في إختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر وبين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر وأما قولهم الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع بل هو أيضا قدح في العقل فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيظ بها فمن جعل الذين أمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أو يجعل المتقين كالفجار فهو من أعظم الناس جهلا وأشدهم كفرا بل ما أمر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب فيما نيظ بها من العبادات وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات ومع هذا فقد قال خير الخلق أنه لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ولما قال لهم ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعدة من النار قالوا يارسول الله أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل قال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له إما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وإما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سببا له فمن قال ما قدر لي فهو يحصل لي دعوت أو لم أدع وتوكلت أو لم أتوكل فهو بمنزلة من يقول ما قسم لي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لي أمنت أو لم أو من وأطعت أم عصيت ومعلوم أن هذا ضلال وكفر وأن كان الأول ليس مثل هذا في الضلال إذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالإيمان لكن لا ريب أن ما جعل الله سببا له بمنزلة ما جعل العمل الصالح سببا له وهو قادر على أن يفعله سبحانه بدون هذا السبب وقد يفعله بسبب آخر وكذلك من ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمر إيجاب أوامر إستحباب من جلب المنافع أو دفع المضار قادح في الشرع خارج عن العقل ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها وظنوا أن هذا من تمام التوكل والتوكل مقرون بالعبادة في قوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 والعبادة فعل المأمور فمن ترك العبادة المأمور بها وتوكل لم يكن أحسن حالا ممن عبده ولم يتوكل عليه بل كلاهما عاص لله تارك لبعض ما أمر به والتوكل يتناول التوكل عليه ليعينه على فعل ما أمر والتوكل عليه ليعطيه مالا يقدر العبد عليه فالإستعانة تكون على الأعمال وأما التوكل فأعم من ذلك ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة قال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ { التوبة 59 وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ { آل عمران 173 فمن لم يفعل ما أمر به لم يكن مستعينا بالله على ذلك فيكون قد ترك العبادة والإستعانة عليها بترك التوكل في هذا الموضع أيضا وآخر يتوكل بلا فعل مأمور وهذا هو العجز المذموم كما في سنن أبي داود أن رجلين إختصما إلى النبي فحكم على أحدهما فقال المقضي عليه عليه حسبى الله ونعم الوكيل فقال النبي إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فإن الإنسان ليس مأمورا أن ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجرى عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها فما أصابك بفعل الأدميين أو بغير فعلهم أصبر عليه وارض و سلم قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ

مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ {التغابن 11} قال بعض السلف إما ابن مسعود و إما
علامة هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم¹

اليقين ينتظم منه أمران

فباليقين ينتظم منه أمران علم القلب وعمل القلب فإن العبد قد يعلم علماً جازماً بأمر ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه ولا خالق غيره وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك إما لغفلة القلب عن هذا العلم والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم يكن ضداً لأصل العلم وأما للخواطر التي تسنح في القلب من الإلتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو بكر عن النبي أنه قال سلوا الله اليقين والعافية فما أعطى أحد بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية فسلوهما الله فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا بخلاف غيرهم فإن الإبتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} {السجدة 24} ألا ترى إلى قوله تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 فهذه حال هؤلاء وأما كيف يحصل اليقين فبثلاثة أشياء أحدها تدبر القرآن والثاني تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق والثالث العمل بموجب العلم²

الايمن يتبع بعض ويزيد وينقص

النفق يتبع بعض والكفر يتبع بعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبع بعض ويزيد وينقص قال الله تعالى {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} التوبة 37 وقال {وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستنبشرون} {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} {125} التوبة 124-125 وقال {وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} {المائدة 68}³

فان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما أخبر الله عن زيادته في مثل قوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا} {173} آل عمران 173 وقوله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} {الفتح 4} قال الله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {الأنفال 2}

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 177-179

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 331

³مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 188

وقال { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات 15 وقال { فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } التوبة 124 وقوله أيكم زادته هذه إيماناً وقال النبي الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق وقال لوفد عبدالقيس أمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله وأن تؤدوا خمس ما غنمتم وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان وعمل الجوارح فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ثم الناس في هذا على أقسام منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل ومنهم من صدق جملة وتفصيلاً ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصديق ومنهم من يغفل عنه ويذهل ومنهم من استبصر فيه بما قذف الله في قلبه من النور والإيمان ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهة أو تقليد جازم وهذا التصديق يتبعه عمل القلب وهو حب الله ورسوله وتعظيم الله ورسوله وتعزيز الرسول وتوقيره وخشية الله والإنابة إليه والاخلاص له والتوكل عليه إلى غير ذلك من الأحوال فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد أوجب العلة المعلول ويتبع الاعتقاد قول اللسان ويتبع عمل القلب الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك¹

والتفاضل في الإيمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه متعددة أحدها الأعمال الظاهرة فإن الناس يتفاضلون فيها وتزيد وتنقص وهذا مما إتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان لكن نزاعهم في دخول ذلك في مسمى الإيمان فالنفاة يقولون هو من ثمرات الإيمان ومقتضاه فأدخل فيه مجازاً بهذا الاعتبار وهذا معنى زيادة الإيمان عندهم ونقصه أي زيادة ثمراته ونقصانها فيقال قد تقدم أن هذا من لوازم الإيمان وموجباته فإنه يمتنع أن يكون إيمان تام في القلب بلا قول ولا عمل ظاهر وأما كونه لازماً أو جزءاً منه فهذا يختلف بحسب حال استعمال لفظ الإيمان مفرداً أو مقروناً بلفظ الإسلام والعمل كما تقدم وأما قولهم الزيادة في العمل الظاهر لا في موجبها ومقتضيه فهذا غلط فإن التفاضل معلول الأشياء ومقتضاها يقتضى تفاضلاً في أنفسها وإلا فإذا تماثلت الأسباب الموجبة لزم تماثل موجبها ومقتضاها فتفاضل الناس في الأعمال الظاهرة يقتضى تفاضلاً في موجب ذلك ومقتضيه ومن هذا يتبين الوجه الثاني في زيادة الإيمان ونقصه وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له وفي سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب ونحو ذلك والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وقال تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ } التوبة 24 إلى قوله { أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } التوبة 24 وقال رسول الله والله إنى لأخشاكم لله وأعلمكم حدوده وقال لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وقال له

¹ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 671 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 565

عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي قال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال فلأنت أحب إلي من نفسي قال الآن يا عمر وهذه الأحاديث ونحوها في الصحاح وفيها بيان تفاضل الحب والخشية وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فإنه قد يكون الشيء الواحد يحبه تارة أكثر مما يحبه تارة ويخافه تارة أكثر مما يخافه تارة ولهذا كان أهل المعرفة من أعظم الناس قولا بدخول الزيادة والنقصان فيه لما يجدون من ذلك في أنفسهم ومن هذا قوله تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا} آل عمران 173 وإنما زادهم طمأنينة وسكونا وقال أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا

وأما الثاني فالقلب إذا كان معتقدا صدق الرسول وأنه رسول الله وكان محبا لرسول الله معظما له امتنع مع هذا أن يلغنه ويسبه فلا يتصور ذلك منه إلا مع نوع من الإستخفاف به وبحرمته فعلم بذلك أن مجرد إعتقاد أنه صادق لا يكون إيمانا إلا مع محبته وتعظيمه بالقلب¹

الرد على من يقول بتخليد أهل الكبائر في النار

فإن قيل فاذا كان الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فمتى ذهب بعض ذلك بطل الإيمان فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم إسم الإيمان بالكلية كما تقوله المعتزلة وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة فإن المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم قيل أولا ينبغي أن يعرف أن القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار فإن هذا القول من البدع المشهورة وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان واتفقوا أيضا على أن نبينا يشفع فيمن ياذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته ففي الصحيحين عنه أنه قال لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة وهذه الأحاديث مذكورة في مواضعها وقد نقل بعض الناس عن الصحابة في ذلك خلافا كما روى عن ابن عباس أن القاتل لا توبة له وهذا غلط على الصحابة فإنه لم يقل أحد منهم أن النبي لا يشفع لأهل الكبائر ولا قال أنهم يخلدون في النار ولكن ابن عباس في إحدى الروايتين عنه قال أن القاتل لا توبة له وعن أحمد بن حنبل في قبول توبة القاتل روايتان أيضا والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد وذلك أن القتل يتعلق به حق آدمي فلهذا حصل فيه النزاع وأما قول القائل ان الإيمان اذا ذهب بعضه ذهب كله فهذا ممنوع وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء ثم قالت الخوارج والمعتزلة هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث قالوا فاذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار وقالت المرجئة على إختلاف فرقهم لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئا من الإيمان اذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئا واحدا يستوى فيه البر والفاجر ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 562

كقوله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك في إحدى الروايتين ومنهم من يقول يتفاضل كعبدالله بن المبارك

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله قال الإيمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه قال إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه وروى اسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء قال الإيمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد حدثنا جرير بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن أبا الدرداء قال إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الإيمان أم ينقص وإن من فقه الرجل أن يعلم نزعات الشيطان أنى تأتيه وروى اسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبدالله بن ربيعة الحضرمي عن أبي هريرة قال الإيمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن زر قال كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه هلموا نردد إيماننا فيذكرون الله عز وجل وقال أبو عبيد في الغريب في حديث على أن الإيمان يبدو لمظة في القلب كما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة يروى ذلك عن عثمان بن عبدالله عن عمرو بن هند الجملي عن علي قال الأصمعي اللمظة مثل النكتة أو نحوها وقال أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن شريك عن هلال عن عبدالله بن عكيم قال سمعت ابن مسعود يقول في دعائه اللهم زدنا إيماننا ويقينا وفقها وروى سفيان الثوري عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال كان معاذ بن جبل يقول لرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى وروى أبو اليمان حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد أن عبدالله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول قم بنا نؤمن ساعة فنحن في مجلس ذكر وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله وصح عن عمار بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان الانصاف من نفسه والانفاق من الاقتار وبذل السلام للعالم ذكره البخاري في صحيحه وقال جندب بن عبدالله وابن عمر وغيرهما تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فإزدادنا إيماننا والآثار في هذا كثيرة رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة قال مالك بن دينار الإيمان يبدو في القلب ضعيفا ضئيلا كالبقلة فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة واماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه أو شك أن ينمو أو يزداد ويصير له أصل وفروع وثمره وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فننتقتها أو صبي فذهب بها وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان وقال خيثمة بن عبدالرحمن الإيمان يسمن في الخصب ويهزل في الجذب فخصبه العمل الصالح وجذبه الذنوب والمعاصي وقيل لبعض السلف يزداد الإيمان وينقص قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال وينقص حتى يصير أمثال الهباء وفي حديث حذيفة الصحيح حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان وفي حديثه الآخر الصحيح تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلوبين أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب هواه وفي حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية فانه من أعظم الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه لانه وصفهم بقوة الإيمان

وزيادته في تلك الخصال التي تدل على قوة ايمانهم وتوكلهم على الله في أمورهم كلها وروى أبو نعيم من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن عبدالله الزيني عن أبي رافع أنه سمع رجلاً حدثه أنه سأل رسول الله عن الإيمان فقال أحب أن أخبرك بصريح الإيمان قال نعم قال إذا أسأت أو ظلمت أحداً عبدك أو أمتك أو احداً من الناس حزنت وساءك ذلك وإذا تصدقت أو أحسنت استبشرت وسرك ذلك ورواه بعضهم عن يزيد عن سمع النبي أنه سأل عن زيادة الإيمان في القلب ونقصانه فذكر نحوه وقال البزار حدثنا محمد بن أبي الحسن البصرى ثنا هانىء بن المتوكل ثنا عبدالله بن سليمان عن اسحاق عن أنس مرفوعاً ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان خلق يعيش به في الناس وورع يحجزه عن معصية الله وحلم يرد به جهل الجاهل و أربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا فالخصال الأولى تدل على زيادة الإيمان وقوته والأربعة الأخر تدل على ضعفه ونقصانه وقال أبو يعلى الموصلى ثنا عبدالله القواريرى ويحيى بن سعيد قال ثنا يزيد بن زريع ويحيى بن سعيد قالوا حدثنا عوف حدثني عقبة بن عبدالله المزنى قال يزيد في حديثه في مسجد البصرة حدثني رجل قد سماه ونسى عوف اسمه قال كنت بالمدينة في مسجد فيه عمر بن الخطاب فقال لبعض جلسائه كيف سمعتم رسول الله يقول في الإسلام فقال سمعته يقول الإسلام بدأ جذعاً ثم ثنياً ثم رابعياً ثم سداسياً ثم بازلاً فقال عمر فما بعد النزول إلا النقصان كذا ذكره أبو يعلى في مسند عمر وفي مسند هذا الصحابي المبهم ذكره أولى قال أبو سليمان من أحسن في ليله كوفى في نهاره ومن أحسن في نهاره كوفى في ليله والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات كقوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {الأنفال} 2 وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أى وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرغبة من الشر ما لم يكن فزاد علمه بالله ومحبه لطاعته وهذه زيادة الإيمان وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقيناً وتوكلاً على الله وثباتاً على الجهاد وتوحيداً بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الخالق وحده وقال تعالى { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } {125} التوبة 124-125 وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيماناً بحسب مقتضاها فان كانت أمراً بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة وان كانت نهياً عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال { وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {124} التوبة 124 والاستبشار غير مجرد التصديق وقال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ } {الرعد} 36 والفرح بذلك من زيادة الإيمان قال تعالى { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } {يونس} 58 وقال تعالى { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ } {4} {5} {الروم} 4-5 وقال تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا } {المدثر} 31 وقال { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ } {الفتح} 4 وهذه نزلت لما رجع النبي وأصحابه من الحديبية فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين { ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا } {التوبة} 26 وقال تعالى { تَأْنِي أُنثِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا }

{ التوبة 40 ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار وانما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديدية ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم دل على أن الايمان المزيد حال للقلب وصفة له وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافي لليقين يكون ريبا في العلم وريبا في طمأنينة القلب ولهذا جاء في الدعاء المأثور اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا وفي حديث الصديق الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن النبي أنه قال سلوا الله العافية واليقين فما أعطى أحد بعد اليقين شيئا خيرا من العافية فسلوها الله تعالى فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينه القلب وطمأنينته وتسليمه وهذا من تمام الايمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } {التغابن 11} قال علقمة ويروى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقوله تعالى { يَهْدِ قَلْبَهُ } {التغابن 11} هداه لقلبه هو زيادة في ايمانه كما قال تعالى { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى } {محمد 17} وقال { إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } {الكهف 13} ولفظ الايمان أكثر ما يذكر في القرآن مقيدا فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما أمر الله به بل يجعل موجبا للوازمه وتمام ما امر به وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى { آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } {7} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } {8} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } {9} {الحديد 7-9} وقال تعالى في آخر السورة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {الحديد 28} وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى أنها خطاب لقريش وفي الثانية أنها خطاب لليهود والنصارى وليس كذلك فإن الله لم يقل قط للكفار يا ايها الذين آمنوا ثم قال بعد ذلك { لِنَبِّأَ يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } {الحديد 29} وهذه السورة مدنية باتفاق لم يخاطب بها المشركين بمكة وقد قال { وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } {الحديد 8} وهذا لا يخاطب به كافر وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم وانما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له فإن كل من كان مسلما مهاجرا كان يبايع النبي كما يبايع الانصار ليلة العقبة وانما دعاهم الى تحقيق الايمان وتكميله بأداء ما يجب من تمامه باطنا وظاهرا كما نسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم في كل صلاة وان كان قد هدى المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة لكن الهداية المفصلة في جميع ما يقولونه ويفعلونه في جميع أمورهم لم تحصل وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هي من الايمان المأمور به وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور¹

انقسام الناس في موضوع التوكل

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 222-231

ففي موضوع التوكل قد انقسم الناس فيه الى اربعة اقسام قوم ينظرون الى جانب الامر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لالهية الرب سبحانه الذي امروا ان يعبدوه ولا ينظرون الى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة وهو حال كثير من المتفكحة والمتعبدة فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمانات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لان الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ اليه والدعاء له هي التي تقوى العبد وتيسر عليه الامور ولهذا قال بعض السلف من سره ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صفة في التوراة انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدى ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن اقبضه حتى اقيم به الملة العوجاء فأفتح به اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا بان يقولوا لا اله الا الله ولهذا روى ان حملة العرش انما اطاقوا حمل العرش بقولهم لا حول ولا قوة الا بالله وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انها كنز من كنوز الجنة قال تعالى { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {الطلاق} 3 وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 الى قوله { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 175 وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 قالها ابراهيم الخليل حين القى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم و قسم ثان يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم اليه ويستعينون به لكن على اهوائهم وادواقهم غير ناظرين الى حقيقة امره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته وهذا حال كثير من المنفكرة والمتصوفة ولهذا كثيرا ما يعملون على الاحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه وكثيرا ما يغلطون فيظنون ان معصيته هي مرضاته فيعودون الى تعطيل الامر والنهي ويسمون هذا حقيقة ويظنون ان هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الامرية الدينية التى هي تحوى مرضاة الرب ومحبته وامره ونهيه ظاهرا وباطنا وهؤلاء كثيرا ما يسلبون احوالهم وقد يعودون الى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يردد عن الاسلام لان العاقبة للتقوى ومن لم يقف عند امر الله ونهيه فليس من المتقين فهم يقعون فى بعض ما وقع المشركون فيه تارة بدعة يظنونها شرعة وتارة فى الاحتجاج بالقدر على الامر والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين فى سورة الانعام والاعراف ذكر ما ابتدعه من الدين وجعلوه شرعه كما قال تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {الاعراف} 28 وقد ذمهم على ان حرموا ما لم يحرمه الله وان شرعوا ما لم يشرع الله وذكر احتجاجهم بالقدر فى قوله تعالى { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } {الأنعام} 148 ونظيرها فى النحل وبيس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا واما القسم الثالث وهو من اعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الاقسام و القسم الرابع هو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {الفتاحة} 5 وقوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } {هود} 123 فاستعانوا به على طاعته وشهدوا انه الههم الذي لا يجوز ان يعبد الا اياه بطاعته وطاعة رسوله وانه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع وانه { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ } {فاطر} 2 { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } {يونس} 107 { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } {الزمر} 38 ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات

الى الاسباب شرك في التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص في العقل والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع وانما التوكل المأمور به ما جعل الاعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الاسباب التي هي عبادة وطاعة مأمور بها فان غلط هذا في ترك الاسباب المأمور بها التي هي داخله في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 كغلط الاول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة وان كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما ان من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ومن اعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الايمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى { وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ اِنَّ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوْا اِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِيْنَ } يونس 84 وقال تعالى { اِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللّٰهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَاِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَاَلَيْ اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ } آل عمران 160 وقال تعالى { وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ } المائدة 11 وقال تعالى { قُلْ اَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ اَرَادَنِي اللّٰهُ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ } الزمر 38 الى قوله { قُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُوْنَ } الزمر 38 وقد ذكر الله هذه الكلمة { حَسْبِيَ اللّٰهُ } الزمر 38 في جلب المنفعة تارة وفي دفع المضرّة اخرى فالأولى في قوله تعالى { وَلَوْ اَنَّهٗمْ رَضُوْا مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِنَا اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ اِنَّا اِلَى اللّٰهِ رَاغِبُوْنَ } التوبة 59 الآية و الثانية في قوله { الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ اِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَآدَهُمْ اِيْمَانًا وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ } آل عمران 173 وفي قوله تعالى { وَاِنْ يُرِيْدُوْا اَنْ يَّخْذَعُوْكَ فَاِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِيْ اٰتٰكَ بِنَصْرِهِ وَاَلْمُؤْمِنِيْنَ } الأنفال 62 وقوله { وَلَوْ اَنَّهٗمْ رَضُوْا مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِنَا اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ } التوبة 59 يتضمن الامر بالرضا والتوكل والرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه ولهذا كان النبي يقول في الصلاة اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم اني اسألك خشيتك في الغيب والشهادة واسألك كلمة الحق في الغضب والرضا واسألك القصد في الفقر والغنى واسألك نعيما لا ينفد واسألك قرة عين لا تنقطع اللهم اني اسألك قرة عين لا تنقطع اللهم اني اسألك الرضا بعد القضاء واسألك برد العيش بعد الموت واسألك لذة النظر الى وجهك واسألك الشوق الى لقائك من غير ضراء مضرّة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين رواه احمد والنسائي من حيث عمار بن ياسر اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع فقد تبين ان من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا وان كان من اعيان المشايخ كصاحب علل المقامات وهو من اجل المشايخ واخذ ذلك عنه صاحب محاسن المجالس وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه ان المطلوب به حظ العامة فقط وظنه انه لا فائدة له في تحصيل المقصود وهذه حال من جعل الدعاء كذلك وذلك بمنزلة من جعل الاعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الاسباب التي هي عبادة وطاعة مأمور بها فان غلط هذا في ترك الاسباب المأمور بها التي هي داخله في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 كغلط الاول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة وان كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما ان من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ومن اعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن

حقيقة الايمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى { وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ اِنْ كُنْتُمْ اٰمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوْا اِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِيْنَ } يونس 84 وقال تعالى { اِنْ يَنْصُرْكُمُ اللّٰهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَاِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ } آل عمران 160 وقال تعالى { وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ } آل عمران 160 وقال تعالى { قُلْ اَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ اَرَادَنِيَ اللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ اَوْ اَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُوْنَ } الزمر 38

وقد ذكر الله هذه الكلمة حسبي الله في جلب المنفعة تارة وفي دفع المضرة اخرى فالأولى في قوله تعالى { وَلَوْ اَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِينَا اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ اِنَّا اِلَى اللّٰهِ رَاغِبُوْنَ } التوبة 59 والثانية في قوله { الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ اِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ اِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ } آل عمران 173 وفي قوله تعالى { وَاِنْ يُرِيْدُوْا اَنْ يَّخْذَعُوْكَ فَاِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِيْ اٰتٰكَ بِالنُّصْرَةِ وَاَلْمُؤْمِنِيْنَ } الأنفال 62 وقوله { وَلَوْ اَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِينَا اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ اِنَّا اِلَى اللّٰهِ رَاغِبُوْنَ } التوبة 59 يتضمن الامر بالرضا والتوكل والرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه ولهذا كان النبي يقول في الصلاة اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم اني اسألك خشيتك في الغيب والشهادة واسألك كلمة الحق في الغضب والرضا واسألك القصد في الفقر والغنى واسألك نعيما لا ينفد واسألك قرة عين لا تنقطع اللهم اني اسألك قرة عين لا تنقطع اللهم اني اسألك الرضا بعد القضاء واسألك برد العيش بعد الموت واسألك لذة النظر الى وجهك واسألك الشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين رواه احمد والنسائي من حيث عمار بن ياسر واما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا ولهذا كان طائفة من المشائخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء فاذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره كما قال تعالى { وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ اَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوْهُ وَاَنْتُمْ تَنْتَضِرُوْنَ } آل عمران 143 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُوْنَ مَا لَا تَفْعَلُوْنَ } 2 { كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّٰهِ اَنْ تَقُولُوْا مَا لَا تَفْعَلُوْنَ } 3 { اِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِهِ صَفًا كَانْتُمْ بُنِيَانًا مَّرْصُوْسًا } 4

الصف 2-4 نزلت هذه الآية لما قالوا لو علمنا أى الاعمال احب الى الله لعملناه فانزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه ولهذا كره للمرء ان يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك او يطلب ولاية او يقدم على بلد فيه طاعون كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي انه نهى عن النذر وقال انه لا ياتي بخير وانما يستخرج به من البخيل وثبت عن في الصحيحين انه قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها وان اعطيتها من غير مسألة اعنت عليها اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك وثبت عنة في الصحيحين انه قال في الطاعون اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وثبت عنة في الصحيحين انه قال لا تتموا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن اذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف وامثال ذلك مما يقتضى ان الإنسان لا ينبغي ان يسعى فيما يوجب عليه اشياء ويحرم عليه اشياء فيدخل بالوفاء كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهدا على امور وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود ويقتضى ان الانسان إذا ابتلى فعليه ان يصبر

ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه¹

قصد المؤمن رضى ربه وإجتنا سخطه

ان كل شىء فى موضعه حسن وحيث أمر الله ورسوله بالاغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة فنحن مأمورون بمقابلته لم نكن مأمورين أن نخاطبه بالتى هى أحسن ومن المعلوم أن الله تعالى يقول {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 فمن كان مؤمنا فإنه الأعلى بنص القرآن وقال {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} المنافقون 8 وقال {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} {20} كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} {21} المجادلة 20- 21 والله محقق وعده لمن هو كذلك كائنا من كان ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ فى العقل ولا الدين طلب رضى المخلوقين لوجهين أحدهما أن هذا غير ممكن كما قال الشافعى رضى الله عنه الناس غاية لا تدرك فعليك بالامر الذى يصلحك فالزمه ودع ما سواه ولا تعانه والثانى أنا مأمورون بأن نتحرى رضى الله ورسوله كما قال تعالى {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ} التوبة 62 وعلينا أن نخاف الله فلا نخاف أحدا إلا الله كما قال تعالى {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 175 وقال {فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ} المائدة 44 وقال {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} البقرة 40 وإياى فاتقون فعلىنا أن نخاف الله ونتقيه فى الناس فلا نظلمهم بقلوبنا ولا جوارحنا ونؤدى اليهم حقوقهم بقلوبنا وجوارحنا ولا نخافهم فى الله فنترك ما أمر الله به ورسوله خيفة منهم ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له كما كتبت عائشة الى معاوية أما بعد فإنه من التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس وعاد حامده من الناس ذاما ومن التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس فالمؤمن لا تكون فكرته وقصده إلا رضى ربه وإجتنا سخطه والعاقبة له ولا حول ولا قوة إلا بالله²

وأما ما فى القرآن من ذكر عبادته وحده ودعائه وحده والإستعانة به وحده والخوف منه وحده فكثير كقوله {وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ} الأحزاب 39 وقوله {فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} النحل 51 و {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} البقرة 41³

أوجب الله على عباده ان لا يخافوا حزب الشيطان

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 32-40

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 233

³منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 447

وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما فى الصدور وقال النبى صلى الله عليه وسلم إنما شفاء العى السؤال وكان يقول فى دعائه اللهم إنى اعوذ بك من منكرات الاخلاق والأهواء والأدواء ولن يخاف الرجل غير الله الا لمرض فى قلبه كما ذكروا ان رجلا شكأ الى احمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف احدا اى خوفك من اجل زوال الصحة من قلبك ولهذا اوجب الله على عباده ان لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافون غيره تعالى فقال { **إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } آل عمران 175 اى يخوفكم اوليائه وقال لعموم بنى اسرائيل تنبيها لنا { **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** } البقرة 40 وقال { **فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخْشَوْنِ** } المائدة 44 وقال { **لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي** } البقرة 150 وقال تعالى { **الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِ** } المائدة 3 وقال { **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ** } التوبة 18 وقال { **الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ** } الأحزاب 39 وقال { **الَّذِينَ يُلَاقُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } التوبة 13 أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التى تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون انها تماثيل الأنبياء والصالحين وأنها وسائل يتقربون بها الى الله وهو من الشرك الذى أنكره الله على النصارى حيث قال { **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَأِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } التوبة 31 وقال تعالى { **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** } الرحمن 29 وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه وحسم مواد الإشراف به حتى لا يخاف أحد غير الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل الا عليه وقال تعالى { **إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** } آل عمران 175 اى يخوفكم اوليائه { **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } آل عمران 175¹

قال ابن مسعود أن للملك لمة و أن الشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير و تصديق بالحق و لمة الشيطان إيعاد بالشر و تكذيب بالحق و قد قال تعالى { **إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** } آل عمران 175 اى يخوفكم اوليائه بما يقذف فى قلوبكم من الوسوسة المرعبة كشيطان الإنس الذى يخوف من العدو فيرجف و يخذل وعكس هذا قوله تعالى { **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ** } الأنفال 12 وقال تعالى { **يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** } إبراهيم 27 وقال تعالى { **وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** } الإسراء 74 و التثبيت جعل الإنسان ثابتا لأمر تابا و ذلك بإلقاء ما يثبتته من التصديق بالحق و الوعد بالخير كما قال ابن مسعود لمة الملك و عد بالخير و تصديق بالحق فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه و إذا علم أن الله قد و عده بالتصديق و ثق بوعد الله فثبت فهذا يثبت بالكلام كما يثبت الإنسان الإنسان فى أمر اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه و يخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت و قد يكون التثبيت بالفعل بأن يمسه القلب حتى يثبت كما يمسه الإنسان الإنسان حتى يثبت²

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 135

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 523

"أن لقلب ابن آدم لمة من الملك ولمة من الشيطان"

والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله فإذا كذب بالحق فلم يصدق به ولم يرج الخير فيقصده ويعمل له كان خاسرا بترك تصديق الحق وطلب الخير فكيف إذا كذب بالحق وكره إرادة الخير فكيف إذا صدق بالباطل وأراد الشر فذكر عبدالله بن مسعود أن لقلب ابن آدم لمة من الملك ولمة من الشيطان فلمة الملك تصديق بالحق وهو ما كان من غير جنس الاعتقاد الفاسد ولمة الشيطان هو تكذيب بالحق وإيعاد بالشر وهو ما كان من جنس إرادة الشر وظن وجوده أما مع رجائه إن كان مع هوى نفس وإما مع خوفه إن كان غير محبوب لها وكل من الرجاء والخوف مستلزم للآخر فمبدأ العلم الحق والإرادة الصالحة من لمة الملك ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة من لمة الشيطان قال الله تعالى {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} البقرة 268 وقال تعالى {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} آل عمران 175 أي يخوفكم أوليائه وقال تعالى {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} الأنفال 48 والشيطان وسواس خناس إذا ذكر العبد ربه خنس فإذا غفل عن ذكره وسوس فلهذا كان ترك ذكر الله سببا ومبدأ لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب ومن ذكر الله تعالى تلاوة كتابه وفهمه ومذاكرة العلم كما قال معاذ بن جبل ومذاكرته تسبيح¹

لطائف لغوية

1- فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته وما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيئته وما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة وكذلك بالعكس وما لا فلا ولهذا قال {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 و الشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئا كمال ينال نيلا ثم وضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئا كما يسمى المنيل نيلا فقالوا نيل المعدن و كما يسمى المقذور قدرة و المخلوق خلقا فقله {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد و منه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء و قوله {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ} البقرة 20 يتناول ما كان شيئا في الخارج و العلم أو ما كان شيئا في العلم فقط بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة و هو الحق تعالى و صفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم و لهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء²

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 34

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 383

2- قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } آل عمران 165 قدير منزه عن العجز والضعف¹

3- فإن الإذن نوعان إذن لمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى الإباحة والإجازة فمن الأول قوله { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } آل عمران 166 فإن الذي أصابهم من القتل والجراح والتمثيل والهزيمة إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين²

*قال تعالى { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا } آل عمران 167 وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وكذلك لفظ الكفر مقيدا ولكن لفظ النفاق قد قيل أنه لم تكن العرب تكلمت به لكنه مأخوذ من كلامهم فان نفق يشبه خرج ومنه نفقت الدابة اذا ماتت ومنه نافقاء اليربوع والنفق فى الأرض قال تعالى { فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ } الأنعام 35 فالمنفاق هو الذى خرج من الايمان باطنا بعد دخوله فيه ظاهرا وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقا عليه لكن النفاق الذى فى القرآن هو النفاق على الرسول فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الاسماء كخطاب الناس بغيرها وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعا³

4- قال الله تعالى { أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } آل عمران 170 فإن انتفاء الخوف علة

تقتضى انتفاء ما يخافه ولهذا قال { وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62 لم يقل لا يخافون فهم لا خوف عليهم وان كانوا يخافون الله ونفى عنهم أن يحزنوا لان الحزن انما يكون على ماض فهم لا يحزنون بحال لا فى القبر ولا فى عرصات القيامة بخلاف الخوف فانه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولا خوف عليهم فى الباطن كما قال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {63} يونس 62-63⁴

5- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 132

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ {54} فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ {55} القمر 54- 55} وقد يقرب بها اسم آخر كقوله {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ {3} الطلاق 2- 3} وقوله {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ {يوسف 90} وقوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ {النساء 1} ¹

6- قال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {آل عمران 173} لم يقل جميع الناس ولا قالوا إن جميع الناس قد جمعوا لكم بل المراد به الجنس وهذا كما قال الطائفة الفلانية تفعل كذا وأهل الفلاني يفعلون كذا وإذا قال بعضهم فسكت الباقون ولم ينكروا ذلك فيشتركون في إثم القول و الله أعلم ²

7- قال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ {التوبة 30} وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ {المائدة 64} لم يقل ذلك كل يهودي بل قاله بعضهم وكذلك قوله تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ {آل عمران 173} المراد به جنس الناس وإلا فمعلوم أن القائل لهم غير الجامع وغير المخاطبين المجموع لهم ³

فالمراد جنس الناس لا كل واحد منهم وكأن جنس الناس قالوا لهم إن جنس الناس قد جمعوا ويمتنع العموم فإن القائل من الناس والمقول له من الناس والمقول عنه من الناس ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس إنه قد جمع لكم جميع الناس ⁴

8- وأما الحسب فهو الكافي والله وحده كاف عبده كما قال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {آل عمران 173} فهو وحده حسبهم كلهم وليس المراد ان الله والمؤمنين حسبك كما يظنه بعض الغالطين اذ هو وحده كاف نبيه وهو حسبه ليس معه من يكون هو واياه حسبا للرسول وهذا في اللغة كقول الشاعر حسبك والضحاك سيف مهذب وتقول العرب حسبك وزيدا درهم أى يكفيك وزيدا جميعا درهم ⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 353 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 47

³منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 36

⁴الجواب الصحيح ج: 3 ص: 110

⁵مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 107-108 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 294

9- وقد ذكر الله هذه الكلمة حسبي الله في جلب المنفعة تارة وفي دفع المضرة أخرى الآية والثانية قوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173¹

10- قال تعالى {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} آل عمران 174 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} الأعراف 3 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 وقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} الأنعام 153 وقد يقرن به غيره كقوله {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} الأنعام 155 وقوله {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} الأنعام 106 وقوله {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} يونس 109²

¹التحفة العراقية ج: 1 ص: 53 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 53

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168

آل عمران 176-188

{وَلَا يَخْزِنَكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {176} {إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {177} {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نُفْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُفْلِي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} {178} {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رَّسُولِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {179} {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّفُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} {180} {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} {181} {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} {182} {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {183} {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} {184} {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} {185} {لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَىٰ كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} {186} {وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} {187} {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {188}

الْحُزْنَ لَا يَجِبُ مَنفَعَةٌ وَلَا يَدْفَعُ مَضْرَةٌ

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال أحد وإن ارتقى مقامه وأما الحزن

فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق أمر الدين به كقوله تعالى {وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 176 وذلك أنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة ولا فائدة فيه ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا يَأْتُمُّ صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا ويرحم وأشار بيده إلى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ومنه قوله تعالى يوسف فتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه ويكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموماً فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك أمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة منهي عنها وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموماً عليه من تلك الجهة وإن كان محموداً من جهة أخرى وأما المحبة لله والتوكل والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وإنما يخرج عنها كافر ومنافق¹

"يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني"

قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني فالله أجل من أن يحتاج إلى عباده لينفعوه أو يخاف منهم أن يضره وإذا كان المخلوق العزيز لا يتمكن غيره من قهره فمن له العزة جميعاً وكل عزة فمن عزته أبعد عن ذلك وكذلك الحكيم المخلوق إذا كان لا يفعل بنفسه ما يضرها فالحق جل جلاله أولى أن لا يفعل ذلك لو كان ممكناً فكيف إذا كان ممتنعاً قال تعالى {وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 176 فقد بين أن العصاة لا يضرونه ولا يظلمونه كعصاة المخلوقين فإن ممالك السيد وجند الملك وأعوان الرجل وشركاءه إذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه أو ماله أو عرضه أو غير ذلك وقد يكون ذلك ظلماً له والله تعالى لا يقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه وإن كان الكافر على ربه ظهيرا فمظاهرتة على ربه ومعاداته له ومشاقته ومحاربتة عادت عليه بضرره وظلمه لنفسه وعقوبته في الدنيا والآخرة وأما النفع فهو سبحانه غني عن الخلق لا يستطيعون نفعه فينفعوه فما أمرهم به إذا لم يفعلوه لم يضره بذلك²

¹ أمراض القلوب ج: 1 ص: 42 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 16-17 و مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 16

² النبوات ج: 1 ص: 99-100

أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه ألم أفعل كذا يمن عليه بما يفعله معه وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه وتخييل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما قال تعالى **{وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً} آل عمران 176**¹

ليس كل من متعه الله برزق ونصر يكون ممن يحبه الله ويواليه

فمن دعاه موقناً أن يجيب دعوة الداعي إذا دعاه أجابه وقد يكون مشركاً وفاسقاً فإنه سبحانه هو القائل **{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} يونس 12** ولكن هؤلاء الذين يستجاب لهم لإقرارهم بربوبيته وأنه يجيب دعاء المضطر إذا دعاه إذا لم يكونوا مخلصين له الدين في عبادته ولا مطيعين له ولرسوله كان ما يعطيهم بدعائهم متاعاً في الحياة الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق وقال تعالى **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً} 18** **{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً} 19** **{كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً} 20** الإسرائاء 18 وقد دعا الخليل عليه الصلاة والسلام بالرزق لأهل الإيمان فقال **{وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} البقرة 126** فقال الله تعالى **{وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلاً ثُمَّ اضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} البقرة 126** فليس كل من متعه الله برزق ونصر إما إجابة لدعائه وإما بدون ذلك يكون ممن يحبه الله ويواليه بل هو سبحانه يرزق المؤمن والكافر والبر والفاجر وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤالهم في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق ومن هذا الباب من قد يدعو دعاء معتدياً فيه إما بطلب مالا يصلح أو بالدعاء الذي فيه معصية الله من شرك أو غيره فإذا حصل بعض غرضه ظن أن ذلك دليل على أن عمله صالح بمنزلة من أملى له وأمهه بالمال والبنين فظن أن ذلك مسارعة له في الخيرات قال تعالى **{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُؤْمِلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُؤْمِلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} آل عمران 178** والإملاء إطالة العمر وما في ضمنه من رزق ونصر²

لم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار

لم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله **{الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً} النساء 37** وقوله **{وَخُذُوا**

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 215

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 414

حَدَّرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا { النساء 102 } وقوله { أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } النساء 151 وقوله { فَبَاؤُوا بَعْضَ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } البقرة 90 { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } آل عمران 178 { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } الحج 57 { وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوعًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } الجاثية 9 { وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } المجادلة 5 { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } المجادلة 16 { وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } النساء 14 فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض وإستخف بها على أنه لم يذكر ان العذاب أعد له وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين في قوله { لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } الأنفال 68 وقوله { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النور 14 وفي المحارب { ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } المائدة 33 وفي القاتل { وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } النساء 93 وقوله { وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل 94 وقد قال سبحانه { وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 وذلك لأن الإهانة اذلال وتحقير وخزي وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان¹

سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم لينالوا درجة الشكر والصبر

فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } {139} { إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } {140} { وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } {141} آل عمران 139-141 فمن الحكم تمييز المؤمن عن غيره فإنهم إذا كانوا دائما منصورين لم يظهر لهم وليهم وعدوهم إذا الجميع يظهرون الموالاتة فإذا غلبوا ظهر عدوهم قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } {166} { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } {167} { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَن أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {168} آل عمران 166-168 وقال تعالى { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } {2} { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } {3} العنكبوت 2-3 إلى قوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ

¹ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 367-368 و الصارم المسلول ج: 2 ص: 109

الْعَالَمِينَ {10} {وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} {11} العنكبوت 10-11 وقال تعالى {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} آل عمران 179 وأمثال ذلك ومن الحكم أن يتخذ منكم شهداء فإن منزلة الشهادة منزلة عليه في الجنة ولا بد من الموت فموت العبد شهيدا أكمل له وأعظم لأجره وثوابه ويكفر عنه بالشهادة ذنوبه وظلمه لنفسه والله لا يجب الظالمين ومن ذلك أن يمحص الله الذين آمنوا فيخلصهم من الذنوب فإنهم إذا انتصروا دائما حصل للنفوس من الطغيان وضعف الإيمان ما يوجب لها العقوبة والهوان قال تعالى {إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُذَادُوا إِثْمًا} آل عمران 178 وقال تعالى {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ} {6} {أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى} {7} {العلق 6-7} وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تقيمها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجفافها مرة واحدة وسئل صلى الله عليه وسلم أي الناس أشد بلاء فقال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه رقة خفف عنه وإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ولا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وأهله وماله حتى يلقي الله وليس عليه خطيئة وقد قال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبُاسَاءَ وَالضَّرَّاءَ وَرُزُلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} البقرة 214 وقال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} آل عمران 142 وفي الأثر فيما روي عن الله تعالى يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك وفي الأثر أيضا إنهم إذا قالوا للمريض اللهم ارحمه يقول الله كيف أرحمه من شيء به أرحمه وقد شهدنا أن العسكر إذا انكسر خشع لله وذل وتاب إلى الله من الذنوب وطلب النصر من الله وبريء من حوله وقوته متوكلا على الله ولهذا ذكرهم الله بحالهم يوم بدر وبحالهم يوم حنين فقال {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} آل عمران 123 وقال تعالى {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} {25} ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} {26} التوبة 25-26 وشواهد هذا الأصل كثيرة وهو أمر يجده الناس بقلوبهم ويخشونه ويعرفونه من أنفسهم ومن غيرهم وهو من المعارف الضرورية الحاصلة بالتجربة لمن جربها والأخبار المتواترة لمن سمعها¹

أن المظهرين للإيمان لا بد أن يمتحنهم

قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} {البقرة 253} ثم أن الذين آمنوا بالرسول لا بد أن يمتحنهم ليميز بين الصادق والكاذب كما قال تعالى {أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} {2} {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 129-130

صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ {3} العنكبوت 2-3 ثم قال {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} العنكبوت 4 فالناس إذا أرسل إليهم أحد رجلين إما رجل آمن بهم في الظاهر فلا بد أن يمتحن حتى يتبين الصادق من الكاذب وإما رجل عمل السيئات ولم يؤمن فلا يفوت الله بل هو آخذه سبحانه وتعالى و لهذا إنقسم الناس في الرسل إلى ثلاثة أقسام مؤمن باطن و ظاهر و كافر مظهر للكفر و منافق مظهر للإيمان مبطن للكفر و من حين هاجر النبي صلى الله عليه و سلم إلى المدينة حصل هذا الإنقسام و أنزل الله تعالى في أول البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين و آيتين في صفة الكافرين و بضع عشرة آية في صفة المنافقين و أما حين كان بمكة و كان المؤمنون مستضعفين فلم يكن أحد يحتاج إلى النفاق بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه من كثير من الناس ومنهم من يتكلم بالكفر مكرها مع طمأنينة قلبه بالإيمان و هذا مؤمن باطنا و ظاهرا فإنه و إن أظهر الكفر لبعض الناس ما أكره عليه أو كتم عنه إيمانه فهو يتكلم بالإيمان في خلوته و مع من يأمنه و يعمل بما يمكنه و ما عجز عنه فقد سقط عنه و لهذا قال العلماء منهم أحمد بن حنبل لم يكن يمكنهم نفاق إنما كان النفاق بالمدينة و لكن كان بمكة من في قلبه مرض كما قال في السورة المكية { وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا } المدثر 31 و هو سبحانه قد ذكر أن المظهرين للإيمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيث من الطيب و يمتحنهم كما قال تعالى { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } آل عمران 179 و قال { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } التوبة 16 و قال تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } البقرة 214 و أمثال ذلك¹

وكل مؤمن لابد أن يكون مسلما فان الايمان يستلزم الاعمال وليس كل مسلم مؤمنا هذا الايمان المطلق لان الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الايمان الخاص وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره فعامة الناس اذا اسلموا بعد كفر أو ولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه وكانوا من اهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون ومعهم ايمان مجمل ولكن دخول حقيقة الايمان الى قلوبهم انما يحصل شيئا فشيئا ان اعطاهم الله ذلك والا فكثير من الناس لا يصلون لا الى اليقين ولا الى الجهاد ولو شككوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفارا ولا منافقين بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال وهؤلاء ان عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة وان ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب والا صاروا مرتابين وانتقلوا الى نوع من النفاق وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد ولهذا لما قدم النبي المدينة أسلم عامة أهلها فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق فلو مات هؤلاء قبل الإمتحان لماتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقا الذين ابتلوا فظهر صدقهم قال تعالى (الم {1} أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {2} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ {3} العنكبوت 1-3 وقال تعالى { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 502 504

حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ { آل عمران 179 } وقال { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ } الحج 11 ولهذا ذم الله المنافقين بأنهم دخلوا في الايمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } {1} اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ {2} {المنافقون 1-2} الى قوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } {3} {المنافقون 3} وقال في الآية الأخرى {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ {التوبة 64} الى قوله { قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } {65} لَا تَعْتَذِرُوا فَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } {66} {التوبة 65-66} ¹

الايمان والنفاق اصله في القلب

فان الله سبحانه وان كان قد علم منهم النفاق لكن لم يعلم نبيه بكل من لم يظهر نفاقه بل قال { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ } {التوبة 101} ثم انه سبحانه ابتلى الناس بامور يميز بين المؤمنين والمنافقين كما قال تعالى { وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } {العنكبوت 11} وقال تعالى { **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ { آل عمران 179 }** وذلك لان الايمان والنفاق اصله في القلب وانما الذي يظهر من القول والفعل فرع له ودليل عليه فاذا ظهر من الرجل شيء من ذلك ترتب الحكم عليه وذلك لان الايمان والنفاق اصله في القلب وانما الذي يظهر من القول والفعل فرع له ودليل عليه فاذا ظهر من الرجل شيء من ذلك ترتب الحكم عليه فلما اخبر سبحانه ان الذين يلزمون النبي والذين يؤذونه من المنافقين ثبت ان ذلك دليل على النفاق وفرع له ومعلوم انه اذا حصل فرع الشيء ودليله حصل اصله المدلول عليه فثبت انه حيثما وجد ذلك كان صاحبه منافقا سواء كان منافقا قبل هذا القول او حدث له النفاق بهذا القول ²

من أعظم أسباب ظهور الدين ظهور المعارضين له

فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ولم يكن بعده رسول ولا من يجدد الدين لم يزل الله سبحانه وتعالى يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضيا لظهوره كما وعد به في الكتاب فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين وبيان حقيقة أبناء المرسلين ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين وذلك أن الحق إذا جحد وعرض بالشبهات أقام الله تعالى له مما يحق به الحق ويبطل به الباطل من الآيات البيّنات بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة فالقرآن لما كذب به المشركون واجتهدوا على ابطاله بكل طريق مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله ثم بالإتيان

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 296-272

²الصارم المسلول ج: 2 ص: 81

بعشر سور ثم بالإتيان بسورة واحدة كان ذلك مما دل ذوي الألباب على عجزهم عن المعارضة مع شدة الاجتهاد وقوة الأسباب ولو اتبعوه من غير معارضة وإصرار على التبطيل لم يظهر عجزهم عن معارضته التي بها يتم الدليل وكذلك السحرة لما عارضوا موسى عليه السلام وأبطل الله ما جاؤا به كان ذلك مما بين الله تبارك وتعالى به صدق ما جاء به موسى عليه السلام وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات وبين ما قد يشتمه بها من خوارق السحرة وما للشيطان من التصرفات فإن بين هذين فروقا متعددة منها ما ذكره الله تعالى في قوله { هَلْ أَنْبَأُكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ } {221} تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ {222} سورة الشعراء الآيتان 221-222 ومنها ما بينه في آيات التحدي من آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تعارض بالمثل فضلا عن الأقوى ولا يمكن أحدا إبطالها بخلاف خوارق السحرة والشياطين فإنه يمكن معارضتها بمثلها وأقوى منها ويمكن إبطالها وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول ويموهون في ذلك بما يلقونه من منقول ومعقول كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذي وعد بظهوره على الدين كله بالبيان والحجة والبرهان ثم بالسيف واليد والسنان قال الله تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } {25} سورة الحديد الآية 25 وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالى من الآيات والدلائل التي يطهر بها الحق من الباطل والخالي من العاطل والهدى من الضلال والصدق من المحال والغي من الرشاد والصلاح من الفساد والخطأ من السداد وهذا كالمحنة للرجال التي تميز بين الخبيث والطيب قال تعالى { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } سورة آل عمران الآية 179¹

ذم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة في سبيله

جاء الكتاب والسنة بدم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة في سبيله دون ما ليس في سبيله فقال النبي شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع وقال من سيدكم يا بني سلمة فقالوا الجد بن قيس على أنه نزنه بالبخل فقال وأي داء أدوا من البخل وفي رواية ان السيد لا يكون بخيلا بل سيدكم أبيض الجعد البراء بن معرور وكذلك في الصحيح قول جابر بن عبد الله لأبي بكر الصديق رضى الله عنهما اما ان تعطيني واما أن تبخل عنى فقال تقول واما أن تبخل عنى وأي داء أدوا من البخل فجعل البخل من أعظم الأمراض وفي صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال قال عمر قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما فقلت يا رسول الله والله لغير هؤلاء أحق به منهم فقال انهم خيرونى بين ان يسألونى بالفحش وبين أن يبخلونى ولست بباخل يقول انهم يسألونى مسألة لا تصلح فان أعطيتهم والا قالوا هو بخيل فقد خيرونى بين أمرين مكرهين لا يتركونى من أحدهما الفاحشة والتبخيل والتبخيل أشد فادفع الأشد باعطائهم والبخل جنس تحته أنواع كبائر وغير كبائر

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 87

قال تعالى {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} آل عمران 180¹

" شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع "

كشف الله فى سورة التوبة احوال المنافقين ووصفهم فيها بالجبن وترك الجهاد ووصفهم بالبخل عن النفقة فى سبيل الله والشح على المال وهذان داءان عظيمان الجبن والبخل قال النبى شح ما فى المرء شح هالع وجبن خالع حديث صحيح ولهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار كما دل عليه قوله {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} آل عمران 180 وقال تعالى {وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَغَدَّ بَاءَ بَعْضِ مَنْ لِّلَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} الأنفال 16²

فقد ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القטיפه تعس عبد الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتكس وثبت عنه فى الصحيح أنه قال ما من صاحب كنز الا جعل له كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع يأخذ بلهزمته انا مالك أنا كنزك وفى لفظ الا مثل يوم القيامة شجاعا أقرع يفر منه وهو يتبعه حتى يطوقه فى عنقه وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} آل عمران 180 وفى حديث آخر مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفر منه هذا مالك الذى كنت تبخل به فاذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده فى فيه فيقضمها كما يقضم الفحل وفى رواية فلا يزال يتبعه فيلقمه يده فيقضمها ثم يلقمه سائر جسده وقد قال تعالى فى الآية الأخرى {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} {34} يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكَوَىٰ بِهَا جَبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} {35} التوبة 34-35 وقد ثبت فى الصحيح وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته الا أحمى عليها فى نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباة حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار وفى حديث أبى ذر بشر الكانزين برضف يحمى عليها فى نار جهنم فتوضع على حلمة تدى أحدهم حتى يخرج من غض كتفيه ويوضع على غض كتفيه حتى يخرج من حلمة تديبه يتزلزل وتكوى الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقى الحر فى أجوافهم وهذا كما فى القرآن ويدل على أنه بعد دخول النار فيكون هذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك أولا فى الموقف فهذا الظالم لما منع الزكاة يحشر مع أشباهه وماله الذى صار عبدا له من دون الله فيعذب به وان لم يكن هذا من أهل الشرك الأكبر الذين يخلدون فى النار ولهذا قال فى آخر الحديث ثم يرى

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 156 و الاستقامة ج: 2 ص: 266

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 435

سبيله اما الى الجنة واما الى النار فهذا بعد تعذيبه خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يدخل الجنة وقد قال النبي الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل قال ابن عباس وأصحابه كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق وكذلك قال أهل السنة كأحمد بن حنبل وغيره كما سنذكره ان شاء الله

فلا يتم رعاية الخلق وسياستهم الا بالجدود

وكثيرا ما يشتبه الورع الفاسد بالجبن والبخل فان كلاهما فيه ترك فيشتبه ترك الفساد لخشية الله تعالى بترك ما يؤمر به من الجهاد والنفقة جبا وبخلا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم شر ما فى المرء شح هالع وجين خالع قال الترمذى حديث صحيح وكذلك قد يترك الانسان العمل ظنا أو إظهارا أنه ورع وإنما هو كبير وإرادة للعلو وقول النبي إنما الأعمال بالنيات كلمة جامعة كاملة فان النية للعمل كالروح للجسد وإلا فكل واحد من الساجد لله والساجد للشمس والقمر قد وضع جبهته على الأرض فصورتها واحدة ثم هذا أقرب الخلق إلى الله تعالى وهذا أبعد الخلق عن الله وقد قال الله تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } {البلد 17} وفى الأثر أفضل الايمان السماحة والصبر فلا تتم رعاية الخلق وسياستهم إلا بالجدود الذى هو العطاء والنجدة التى هى الشجاعة بل لا يصلح الدين والدنيا إلا بذلك ولهذا كان من لا يقوم بهما سلبه الأمر ونقله إلى غيره كما قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ } {38} {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {39} {التوبة 38-39} وقال تعالى { هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } {محمد 38} وقد قال الله تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ } {الحديد 10} فعلق الأمر بالانفاق الذى هو السخاء والقتال الذى هو الشجاعة وكذلك قال الله تعالى فى غير موضع { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } {التوبة 41} وبين أن البخل من الكبائر فى قوله تعالى { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } {آل عمران 180} وفى قوله { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } {التوبة 34} الآية وكذلك الجبن فى مثل قوله تعالى { وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَآهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } {الأنفال 16} وفى قوله تعالى { وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ } {التوبة 56} وهو كثير فى الكتاب والسنة وهو مما اتفق عليه أهل الأرض حتى إنهم يقولون فى الأمثال العامية لا طعنة ولا جفنة ويقولون لا فارس الخيل ولا وجه

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 65-67

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 291-293 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 49

الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {182} الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعييب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } آل عمران 181¹

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة وجدها في غاية الاحكام والاتقان وانها مشتملة على التقديس لله عن كل نقص والاثبات لكل كمال وانه تعالى ليس له كمال ينتظر بحيث يكون قبله ناقصاً بل من الكمال انه يفعل ما يفعله بعد ان لم يكن فاعله وأنه إذا كان كاملاً بذاته وصفاته وافعاله لم يكن كاملاً بغيره ولا مفتقراً إلى سواه بل هو الغنى ونحن الفقراء وقال تعالى { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ } آل عمران 181 وهو سبحانه في محبته ورضاه ومقتته وسخطه وفرحه واسفه وصبره وعفوه ورأفته له الكمال الذي لا تدركه الخلائق وفوق الكمال اذ كل كمال فمن كماله يستفاد وله الثناء الحسن الذي لا تحصيه العباد وإنما هو كمال اثنى على نفسه له الغنى الذي لا يفتقر إلى سواه { إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } {93} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا } {94} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا } {95} مريم 93-95²

ملة الإسلام وسط في الملل

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 133 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 12

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 361-362

أن ملة الإسلام وسط في الملل والمؤمنون وسط في شرائع دين الله فإنهم على الحق والعدل الوسط بين طرفي الباطل وهذا ظاهر في اتباعهم الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى في التوحيد والأنبياء والأخبار والتشريع والنسخ والحلال والحرام والتصديق والتكذيب وغير ذلك أما التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بال مخلوق فيما يختص بالمخلوق وهو صفات النقص الذي يجب تنزيه الرب عنها والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق فيما يختص بالخالق وهو صفات الكمال التي لا يستحقها إلا الله تبارك تعالی فقال من قال من اليهود { إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ } آل عمران 181 وقالوا { يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ } المائدة 64 وقالوا إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت إلى غير ذلك والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به فقالوا إنه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ويثيب ويعاقب والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى ليس له سمي ولا ند ولم يكن له كفوا أحد وليس كمثلته شيء فإنه رب العالمين وخالق كل شيء وكل ما سواه عباد له فقراء إليه { إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } {93} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {94} وَكُلُّهُمْ أَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {95} مريم 93-95¹ ذمهم الله على ما وصفوه به من النقائص²

تمثيل الخالق بالمخلوق في الصفات باطل

فمن أقوال القدرية قياس الرب على خلقه فقيل ما حسن من المخلوق حسن من الخالق و ما قبح من المخلوق قبح من الخالق ترتب على ذلك أقوال القدرية الباطلة و ما ذكروه في التجويز و التعديل و هم مشبهة الأفعال يشبهون الخالق بالمخلوق و المخلوق بالخالق في الأفعال و هذا قول باطل كما أن تمثيل الخالق بالمخلوق و المخلوق بالخالق في الصفات باطل فاليهود وصفوا الله بالنقائص التي ينتزه عنها فشبهوه بالمخلوق كما و صفوه بالفقر و البخل و اللغوب و هذا باطل فإن الرب تعالى منزه عن كل نقص و موصوف بالكمال الذي لا نقص فيه و هو منزه في صفات الكمال أن يماثل شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين فليس له كفواً أحد في شيء من صفاته لا في علمه و لا قدرته و لا إرادته و لا رضاه و لا غضبه و لا خلقه و لا إستوائه و لا إتيانه و لا نزوله و لا غير ذلك مما و صف به نفسه أو و صفه به رسوله بل مذهب السلف أنهم يصفون الله بما و صف به نفسه و ما و صفه به رسوله من غير تحريف و لا تعطيل و من غير تكيف و لا تمثيل فلا ينفون عنه ما أثبتته لنفسه من الصفات و لا يمثلون صفاته بصفات المخلوقين فالنافي معطل و المعطل يعبد عدما و المشبه ممثل و الممثل يعبد صنما و مذهب السلف إثبات بلا تمثيل و تنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 و هذا رد على الممثلة و قوله { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 رد على المعطلة و أفعال الله لا تمثل بأفعال المخلوقين فإن المخلوقين عبيده يظلمون و يأتون الفواحش و هو قادر على منعهم و لو لم يمنعهم لكان ذلك قبيحا منه و كان مذموما على ذلك و الرب تعالى لا يقبح ذلك منه لما له في ذلك من الحكمة البالغة و النعمة السابغة و هذا على قول السلف و

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 372 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 260 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 141

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 418

الفقهاء و الجمهور الذين يثبتون الحكمة في خلق الله و أمره و من قال أنه لا يخلق شيئاً بحكمة و لا يأمر بشيء بحكمة فإنه لا يثبت إلا محض الإرادة التي ترجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح كما هو أصل ابن كلاب و من تابعه و هو أصل قولي القدرية و الجهمية¹

استعمال لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر

ولفظ الذوق وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر كما أن لفظ الإحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن وأما في اللغة فأصله الرؤيا كما قال { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ } مريم 98 والمقصود لفظ الذوق قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } النحل 112 فجعل الخوف والجوع مذوقاً وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه ليس الجائع والخائف فشملة وأحاط به إحاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى { فَذُوقُوا الْعَذَابَ } آل عمران 106 وقال تعالى { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } آل عمران 181 وقال تعالى { ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } الدخان 49 وقال تعالى { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } القمر 48 وقال { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ } الدخان 56 وقال تعالى { إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ } الصافات 38 وقال تعالى { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } { 24 } { إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا } { 25 } { النَّبَأُ 24-25 } وقال { وَلَنَذِيقَنَّهِمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } السجدة 21 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضي ب الله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فاستعمال لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر كثير²

قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } النحل 112 فان من الناس من يقول الذوق حقيقة في الذوق بالفم واللباس بما يلبس على البدن وانما استعير هذا وهذا وليس كذلك بل قال الخليل الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء والاستعمال يدل على ذلك قال تعالى { وَلَنَذِيقَنَّهِمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } السجدة 21 وقال { وَلَنَذِيقَنَّهِمُ مِنَ عَذَابِ غَلِيظٍ } فصلت 50 وقال { ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } الدخان 49 وقال { فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا } الطلاق 9 وقال { فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } فاطر 37 وقال النبي ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا وفي بعض الادعية أدقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه لكن ذلك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملاً فيما يحسه الانسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 431-432

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334

فالشراب اذا كان بارداً أو حاراً يقال ذقت حره وبرده . ولفظ ذوق الجوع والخوف فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم واذا أضيف الى المذذد على الاحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً فان قيل فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق قيل لأن الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق بل استعمل لفظ الذوق في النفي كما قال عن أهل النار { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } النبأ 24 أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق وقال عن أهل الجنة { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى } الدخان 56¹

الرد على الملحدين الذين يجعلون وجود الله سبحانه وتعالى مشروطاً بوجود العالم

ومقتضى كلامه (يقصد ابن حموية (ملحد)) هذا أنه جعل وجوده مشروطاً بوجود العالم وان كان له وجود ما غير العالم كما أن نور العين مشروط بوجود الأجفان وان كان قائماً بالحدقة فعلى هذا يكون الله مفتقراً الى العالم محتاجاً اليه كاحتياج نور العين الى الجفنين وقد قال الله تعالى {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } آل عمران 181 فإذا كان هذا قوله فيمن وصفه بأنه فقير إلى أموالهم ليعطيها الفقراء فكيف قوله فيمن جعل ذاته مفتقرة الى مخلوقاته بحيث لولا مخلوقاته لانتشرت ذاته وتفرقت وهدمت كما ينتشر نور العين ويتفرق ويعدم إذا عدم الجفن وقد قال في كتابه { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ فَسَادًا وَنَحْنُ أَبَدٌ عَلَىٰ آلِهِمْ يُرَاقِبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره { الروم 25 الآية وقال { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } الرعد 2 وقال { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } البقرة 255 لا يؤده لا يثقله ولا يكرهه وقد جاء في الحديث حديث أبي داود ما السموات والارض وما بينهما في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة والكرسي في العرش كذلك الحلقة في الفلاة وقد قال في كتابه { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 وقد ثبت في الصحاح من حديث أبي هريرة وابن عمرو وابن مسعود إن الله يمسك السموات والارض بيده فمن يكون في قبضته السموات والارض وكرسيه قد وسع السموات والارض ولا يؤده حفظهما وبأمره تقوم السماء والارض وهو الذي يمسكهما ان تزولا أكون محتاجاً اليهما مفتقراً اليهما إذا زالا تفرق وانتشر وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول ان السموات تقله او تظله لما في ذلك من احتياجه الى مخلوقاته فمن قال انه في استوائه على العرش محتاج الى العرش كاحتياج المحمول الى حامله فانه كافر لأن الله غنى عن العالمين حتى قيوم هو الغنى المطلق وما سواه فقير اليه مع أن أصل الاستواء على العرش ثابت بالكتاب والسنة واتفاق سلف الامة وأئمة السنة بل هو ثابت في كل كتاب أنزل على كل

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 109- 111

نبي أرسل فكيف بمن يقول أنه مفتقر الى السموات والارض وأنه إذا ارتفعت السموات والارض تفرق وانتشر وعدم فأين حاجته في الحمل إلى العرش من حاجة ذاته إلى ما هو دون العرش¹

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}

وجازى كل قوم بعملهم قال تعالى {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} آل عمران 182
وقال تعالى { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } فصلت 46²

ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيا إلا بأية تبين صدقه

فان آيات الله هي دلالاته و براهينه التي بها يعرف العباد خبره و شهادته كما عرفهم بها أمره و نهيه و هو عليم حكيم فخبره يتضمن أمره و نهيه و فعله يبين حكمته فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية و لابد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه و ذلك قد عرفه بآياته التي أيد بها الأنبياء و دل بها على صدقهم فإنه لم يبعث نبيا إلا بأية تبين صدقه إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز كما قال {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ {الحديد 25 أي بالآيات البينات و قال { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {43} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {44} النحل - 44 و قال { قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ } آل عمران 183 و قال { فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } آل عمران 184 وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ما من نبي من الأنبياء إلا و قد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذي أوتيته و حيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة فالآيات و البراهين التي أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم دل بها العباد و هي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه و الذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به و لهذا قال بعض النظار أن المعجزة تصديق الرسول و هي تجري مجرى المرسل صدقت فهي تصديق بالفعل تجري مجرى التصديق بالقول إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه وتصديقه إخبار بصدق و شهادة له بالصدق و شهادة له بأنه أرسله و شهادة له بأن كلما يبلغه عنه كلامه و هو سبحانه اسمه المؤمن و هو في أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دل بها على صدقه³

ففرق بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل انها دلائل للرب و بين النذر وهو الإخبار عن المخوف كإخبار الانبياء بما يستحقه العصاة من العذاب فهذا يعلم بالخبر والنذر و أما الآيات فتعلم

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 186-188

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 443

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 188-189

دلالتها بالعقل والانباء جاءوا بالآيات والنذر بالبينات والزبر وقال تعالى {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} آل عمران 184¹

ان هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما فى القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية لا يذكرون النظر والدليل والعلم الذى جاء به الرسول والقرآن مملوء من ذلك والقرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهى الدلائل اليقينية وقد قال الله تعالى لرسوله {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} النحل 125²

أهل الكتاب كفروا من وجهين

فإن قيل فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة فلماذا ذم أهل الكتاب على ترك الحكم بما أنزل الله منها قيل النسخ لم يقع إلا فى قليل من الشرائع وإلا فالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر وغير ذلك لا نسخ فيه وكذلك الدين الجامع والشرائع الكلية لا نسخ فيها وهو سبحانه ذمهم على ترك اتباع الكتاب الأول لأن أهل الكتاب كفروا من وجهين من جهة تبديلهم الكتاب الأول وترك الإيمان والعمل ببعضه ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثانى وهو القرآن كما قال تعالى فبين أنهم كفروا قبل مبعته بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء كما كفروا حين مبعته بما أنزل عليه وقال تعالى {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بقرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلَمَّ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 183 {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} 184 {آل عمران 183-184} وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه يذمهم على ترك اتباع ما أنزله فى التوراة والإنجيل وعلى ترك اتباع ما أنزله فى القرآن ويبين كفرهم بالكتاب الأول وبالكتاب الثانى وليس فى شيء من ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول كما ليس فى أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ فى الكتاب الثانى³

تسليّة الرسول وتعزيته لما أصابهم من المكذبين يوم احد

قال تعالى {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِّن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} 9 {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن دُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

¹النبوات ج: 1 ص: 173

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 162

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 452

فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {10} إبراهيم 9-10 الآيات فأخبر سبحانه أن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أنتهم رسلهم بالبينات فعلم أنهم جاءوا بالبينات وقال {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} آل عمران 184 فأخبر أنه سبحانه ضرب الأمثال لجميع هؤلاء الذين أرسل إليهم وأهلكهم فلم يعاقبهم إلا بعد أن أقام عليهم الحجة وقال تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } {24} { وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } {25} { ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } {26} فاطر 24-26 أخبر أنه ليس أمة من الأمم إلا خلا فيها نذير كما قال { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } النحل 36 ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر والكتاب المنير وهذا من عطف الخاص على العام لاخصاصه بوصف يختص به كقوله { وَمَلَأْنِيكَهٗ وَرُسُلِهٖ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 فإن الزبر من البينات والكتاب المنير من الزبر وهو كقوله { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } الحج 8 فإن الهدى من العلم والكتاب المنير من الهدى وبين أنه أخذ الذين كفروا بهم وهذا أنزله ليبين عاقبة المكذبين ولهذا بنى الفعل للفاعل فقال { فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } فاطر 25 وهذه السورة مكية ثم أنزل في آل عمران وهي مدنية في سياق الآيات التي فيها تسلية الرسول والمؤمنين به وتثبيتهم وتعزيتهم لما أصابهم من المكذبين يوم احد وغيره فقال { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ } {172} { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } {173} { فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَّلْنَا لِمَ يَمْسَسُهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } {174} { إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنَّا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } {175} { آل عمران 172-175 } أي يخوفكم أوليائه كما قاله جمهور العلماء ثم قال { وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوكَ اللَّهُ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } آل عمران 176 وسياق الكلام في بيان أن الكفار لا يضررون الله ولا عباده المؤمنين بل ضررهم على أنفسهم وأن ما حصل لهم من نعمة إنما هو استدراج وإملاء إلى أن قال { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُمِبُ مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } {181} { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } {182} { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُّؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بُرْهَانٌ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {183} آل عمران 181-183 بين سبحانه أن هذا القول منهم مع أنه كذب فلم يقولوه إلا دفعا للحق لا ليؤمنوا بمن جاءهم بذلك إذ قد جاءهم رسل من قبله بالآيات البينات والقربان الذي تأكله النار ومع هذا قتلوهم والكلام في مثل هذا الجنس الذي يوالي بعضهم بعضا ويتبع بعضهم بعضا كاليهود الذين هم على دين سلفهم الذين فعلوا ذلك ولهذا يذمهم بصيغة الخطاب كقوله { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } البقرة 50 إلى قوله { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } البقرة 55 فالخطاب لجنس بني إسرائيل وإن كان الذين عاينوا ذلك ماتوا ثم قال { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } {183} آل عمران 183

وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ { آل عمران 184 } فحذف هنا الفاعل وبنى الفعل للمفعول إذ المقصود هنا تسليية الرسول وتعزيتة لا ذكر عقوبة المذكيين فلماذا كانت هذه أخص من تلك ¹

ان إراقة الدم لله أبلغ في الخضوع و العباداة له

ان إراقة الدم لله أبلغ في الخضوع و العباداة له و لهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتي نار من السماء فتأكله و لهذا قال تعالى {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا إِلَّا نُوْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّبِي فَلْتُمْ فَلَمْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } آل عمران 183 وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغنم و يكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم و أمة محمد صلى الله عليه و سلم و سع الله عليهم لكمال يقينهم و إخلاصهم و أنهم يقاتلون لله و لو أكلوا المغنم و يذبحون لله و لو أكلوا القربان و لهذا كان عباد الشياطين و الأصنام يذبحون لها الذبائح أيضا فالذبح للمعبود غاية الذل و الخضوع له و لهذا لم يجز الذبح لغير الله و لا أن يسمى غير الله على الذبائح ²

الرسل تتناول الذين ذكرهم الله في القرآن ومن لم يسمهم

قال تعالى { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ } آل عمران 184 أن الرسل تتناول قطعاً الرسل الذين ذكرهم الله في القرآن لا سيما أولو العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم فإن هؤلاء مع محمد خاتم النبيين صلوات الله عليهم وسلامه خصهم الله وفضلهم بقوله تعالى { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا } {7} لَيْسَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا } {8} الأحزاب 7-8 فالدين دين رسل الله دين واحد كما بينه الله في كتابه وكما ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأن أولى الناس بابن مريم لأننا إنه ليس ببني وبينه نبي ويتناول أيضا اسم الرسل من لم يسمهم بأعيانهم في القرآن قال تعالى { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } {163} وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا } {164} رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } {165} النساء 163-165 والكتاب اسم جنس كما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله تعالى ³

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 382-386

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 484

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 348-350

الموت المثبت هو فراق الروح البدن

فالموت المثبت غير الموت المنفي المثبت هو فراق الروح البدن والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها ولهذا قال تعالى {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ} آل عمران 169 مع أنهم موتى داخلون في قوله آل عمران {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} آل عمران 185 بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا وإذا أوى إلى فراشه يقول اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ويقول باسمك اللهم أموت وأحيا¹

{ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ }

أن هذه الأمر فيها من التنعم باللذة والسرور في الدنيا ما لا نزاع فيه ولهذا قال تعالى {ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بَعِيرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ} غافر 75 وقال تعالى {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} الأحقاف 20 وقال تعالى {وَدَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا} المزمّل 11 وقال تعالى {ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ} الحجر 3 وقال تعالى { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } آل عمران 185 وهذا أمر محسوس²

المؤمن يجمع بين طاعة الامر والصبر على المصائب

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسوله وبتصديقهم فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا واتباع ما يرضاه الله ويحبه دون ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ولكن يرضى بما أصابه من المصائب لا بما فعله من المعائب فهو من الذنوب يستغفر وعلى المصائب يصبر فهو كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب كما قال تعالى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } آل عمران 120 وقال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال يوسف { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 ولهذا كان الشيخ عبد القادر الجيلاني ونحوه من المشايخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحذور والصبر والرضا بالأمر المقذور³

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 13-14

²قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 162

³الاستقامة ج: 2 ص: 80 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 241 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 295 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 368 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 686 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 118

الأمر بالصبر على أذى المشركين ذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين

وكان رسول الله قدم المدينة واهلها اخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الاسلام فيهم اهل الحلقة والحصون ومنهم حلفاء للحيين جميعا الاوس والخزرج فاراد رسول الله حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعتهم وكان الرجل يكون مسلما وابوه مشركا وكان منهم المظهر للاسلام المبطن لخلافه يقول بلسانه ما ليس في قلبه وكان الاسلام والايمن يفسوا في بطون الانصار بطنا بعد بطن حتى لم يبق فيهم مظهر للكفر بل صاروا اما مؤمنا واما منافقا وكان من لم يسلم منهم بمنزلة اليهود موادع مهادن او هو احسن حالا من اليهود لما يرجى فيه من العصبية لقومه وان يهوى هواهم ولا يرى ان يخرج عن جماعتهم وكان النبي يعاملهم من الكف عنهم واحتمال اذاهم باكثر مما يعامل به اليهود لما كان يرجوه منهم ويخاف من تغيير قلوب من اظهر الاسلام من قتالهم لو اوقع بهم وهو في ذلك متبع قوله تعالى **{لَتُبْلَوْنَ فِيْ اَمْوَالِكُمْ وَاَنْفُسِكُمْ وَاَلْتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِيْنَ اُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِيْنَ اَشْرَكُوْا اَذًى كَثِيْرًا وَاِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا فَاِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر}** {آل عمران 186}¹

فأمر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض متأولين كانوا أو غير متأولين²

الامر بالصبر على اذاهم ويتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكنة

فكل ما لا يجوز للامام ان يعاهدهم مع كونه يفعلونه فهو مناف للعقد كما ان ما لا يجوز للمتبايعين والمتناكحين ان يتعاقدا مع وجوده فهو مناف للعقد واطهار الطعن في الدين لايجوز للامام ان يعاهدهم مع وجوده منهم اعني مع كونهم ممكنين من فعله اذا ارادوا وهذا مما اجمع المسلمون عليه ولهذا بعضهم يعاقبون على فعله بالتعزير واكثرهم يعاقبون عليه بالقتل وهو مما لايشك فيه المسلم ومن شك فيه فقد خلع رقبة الاسلام من عنقه واذا كان العقد لايجوز عليه كان منافيا للعقد ومن خالف شرطا مخالفة تنافي ابتداء العقد فان عقده يفسخ بذلك بلا ريب فاحداث اهل الذمة الطعن في الدين مخالفة بموجب العقد مخالفة تنافي ابتداءه فيجب انفساخ عقدهم بها وهذا بين لما تأمله وهو يوجب انفساخ العقد بما ذكرناه عند جميع الفقهاء ويتبين ان ذلك هو مقتضى قياس الاصول فان قيل فقد قال تعالى **{لَتُبْلَوْنَ فِيْ اَمْوَالِكُمْ وَاَنْفُسِكُمْ وَاَلْتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِيْنَ اُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِيْنَ اَشْرَكُوْا اَذًى كَثِيْرًا وَاِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا فَاِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر}** {آل عمران 186} فاخبر ان نسمع منهم الاذى الكثير ودعانا الى الصبر على اذاهم وانما يؤذينا اذى عاما الطعن في كتاب الله ودينه ورسوله وقوله تعالى **{لَنْ يَضُرُّوْكُمْ اِلَّا اَذًى}** {آل عمران 111} من هذا الباب قلنا اولا ليس في الاية بيان ان ذلك مسموع من اهل الذمة والعهد وانما هو مسموع في الجملة من الكفار وثانيا ان الامر بالصبر على اذاهم ويتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكنة واقامة حد الله عليهم عند القدرة فانه

¹الاستقامة ج: 1 ص: 38

²الصارم المسلول ج: 2 ص: 204

لا خلاف بين المسلمين ان اذا سمعنا مشركا او كتابيا يؤذي الله ورسوله ولا عهد بيننا وبينه وجب علينا ان نقاتله ونجاهده اذا امكن ذلك وثالثا ان هذه الآية وما شابهها منسوخ من بعض الوجوه وذلك ان رسول الله لما قدم المدينة كان بها يهود كثير ومشركون وكان اهل الارض اذ ذاك صنفين مشركا او صاحب كتاب فهادن رسول الله من بها من اليهود وغيرهم وامرهم الله اذ ذاك بالعفو والصفح كما في قوله تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } البقرة 109 فامرهم الله بالعفو والصفح عنهم الى ان يظهر الله دينه ويعز جنده فكان اول العز وقعة بدر فانها اذلت رقاب اكثر الكفار الذين بالمدينة وارهبت سائر الكفار وقد اخرجنا في الصحيحين عن عروة عن اسامة بن زيد ان رسول الله ركب حمارا على اكاف على قطيفة فدكية واردف اسامة بن زيد يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر فسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن ابي بن سلول وذلك قبل ان يسلم عبد الله بي ابي واذا في المجلس اخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الاوثان واليهود وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن ابي انفه بردائه ثم قال لا تغبروا علينا فسلم رسول الله ثم وقف فنزل فدعاهم الى الله وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن ابي بن سلول ايها المرء انه لا احسن مما تقول ان كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا ارجع الى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه فقال عبد الله بن رواحة بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا فانا نحب ذلك فاستتب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا ينتأورون فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب رسول الله دابته حتى دخل على سعد بن عباد فقال له رسول الله ياسعد الم تسمع ما قال ابو حباب يريد عبد الله بن ابي قال كذا وكذا قال سعد بن عباد يارسول الله اعف عنه واصفح فوالذي نزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي انزل عليك ولقد اصطلح اهل هذه البحرة على ان يتوجه فيعصبوه بالعصاة فلما رد الله ذلك بالحق الذي اعطاك شرق بذلك الذي فعل به ما رايت فعفا عنه رسول الله وكان رسول الله واصحابه يعفون عن المشركين واهل الكتاب كما امرهم الله تعالى ويصيرون على الاذي قال الله تعالى {وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وقال الله عز وجل {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } البقرة 109 وكان رسول الله يتاول في العفو ما امره الله عز وجل حتى اذن الله عز وجل فيهم فلما غزا رسول الله بدرا فقتل الله تعالى به من قتل من صناديد كفار قريش و قفل رسول الله واصحابه منصورين غانمين معهم اسارى من صناديد الكفار وسادة قريش فقال ابن ابي بن سلول ومن معه من المشركين عبدة الاوثان هذا امر قد توجه فبايعوا رسول الله على الاسلام فاسلموا اللفظ للبخاري وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } الحجر 94 {لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ } الغاشية 22 { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ } المائدة 13 { وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا } التغابن 14 { فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } البقرة 109 { قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ } الجاثية 14 ونحو هذا في القرآن مما امر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فانه نسخ ذلك كله قوله تعالى { فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ } التوبة 5 وقوله تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ } التوبة 29 الى قوله { وَهُمْ صَاغِرُونَ } التوبة 29 فنسخ هذا عفوهم عن المشركين وكذلك روى الامام احمد وغيره عن قتادة قال امر الله نبيه ان يعفو عنهم ويصفح حتى ياتي الله بامرهم وقضائه ثم انزل الله عز وجل براءة فاتى الله بامرهم وقضائه فقال تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
{ التوبة 29 } الآية قال فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وامر الله فيها بقتال اهل الكتاب حتى يسلموا او
يقروا بالجزية صغارا ونقمة لهم وكذلك ذكر موسى بن عقبة عن الزهري ان النبي لم يكن يقاتل
من كف عن قتاله لقوله تعالى { فَإِنْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ لَنُرْغِمَهُمْ بِفِئْتَانٍ مِّنْهُمْ لَا تَحْمِلُ الْعُقُوبَةَ عَلَى الْكُفَّارِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
سبيلاً { النساء 90 } الى ان نزلت براءة وجملة ذلك انه لما نزلت براءة امر ان يبتي جميع الكفار
بالقتال وثنيتهم وكتابتهم سواء كفوا عنه او لم يكفوا وان ينبذ اليهم تلك العهود المطلقة التي كانت بينه
وبينهم وقيل له فيها { جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ } { التوبة 73 } بعد ان كان قد قيل له { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ } { الأحزاب 48 } ولهذا قال زيد بن اسلم نسخت هذه الآية ما كان قبلها فاما قبل
براءة وقبل بدر فقد كان مامورا بالصبر على اذاهم والعفو عنهم واما بعد بدر وقبل براءة فقد كان
يقاتل من يؤذيه ويمسك عن سالمه كما فعل بابن الاشرف وغيره ممن كان يؤذيه فبدر كانت اساس
عز الدين وفتح مكة كانت كمال عز الدين فكانوا قبل بدر يسمعون الاذى الظاهر ويؤمنون بالصبر
عليه وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمنون بالصبر عليه وفي تبوك امروا
بالاغلاظ للكفار والمنافقين فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من اذاهم في مجلس خاص ولا عام بل
مات بغيظه لعلمه بانه يقتل اذا تكلم وقد كان بعد بدر لليهود استطالة واذى للمسلمين الى ان قتل كعب
بن الاشرف قال محمد بن اسحاق في حديثه عن محمد بن مسلمة قال فاصبحنا وقد خافت يهود
لوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودي الا وهو يخاف على نفسه وروى باسناده عن محيصة ان رسول
الله قال من ظفرت به من رجال يهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على ابن سليمة رجل من تجار
يهود كان يلبسهم ويبياعهم فقتله وكان حويصة ابن مسعود اذ ذاك لم يسلم وكان اسن من محيصة
فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول اي عدو الله قتلته اما والله لرب شحم في بطنك من ماله فوالله
ان كان اسلام حويصة فقال محيصة فقلت له والله لقد امرني بقتله من لو امرني بقتلك لضربت عنقك
فقال لو امرك محمد بقتلي لقتلنتي فقال محيصة نعم والله فقال حويصة والله ان ديننا بلغ هذا منك
لعجب وذكر غير ابن اسحاق ان اليهود حذرت وذلت وخافت من يوم قتل ابن الاشرف فلما اتى
الله بامر الذي وعده من ظهور الدين وعز المؤمنين امر رسوله بالبراءة الى المعاهدين وبقتال
المشركين كافة وبقتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فكان ذلك عاقبة
الصبر والتقوى الذين امر الله بهما في اول الامر وكان اذ ذاك لا يؤخذ من احد من اليهود الذين
بالمدينة ولا غيرهم جزية وصارت تلك الايات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله
ورسوله بيده ولا بلسانه فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه وصارت اية الصغار على المعاهدين
في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده او لسانه وبهذه الآية ونحوها كان المسلمون
يعملون في اخر عمر رسول الله وعلى عهده خلفائه الراشدين وكذلك هو الى قيام الساعة لاتزال
طائفة من هذه الامة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام فمن كان من المؤمنين
بارض هو فيها مستضعف او في وقت هو فيه مستضعف فليعمل باية الصبر والصفح عن يؤذي الله
ورسوله من الذين اتوا الكتاب والمشركين واما اهل القوة فانما يعملون باية قتال ائمة الكفر الذين
يطعنون في الدين وباية قتال الذين اتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون¹

¹ الصارم المسلول ج: 2 ص: 405-414

لا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور

ففي هذا توكل على الله وإستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة وهذا كقوله موسى عليه السلام لقومه { اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } الأعراف 128 لما قال فرعون { سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } {127} قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } {128} الأعراف 127-128 وكذلك قوله { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } {41} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {42} النحل 41-42 ومنه قول يوسف عليه السلام { فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وهو نظير قوله { بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 وقوله { **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } آل عمران 186 فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور¹

القيام بالدعوة الواجبة يحتاج إلى شروط يقام بها

والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود والحلم بعد الأمر ليصير على أذى المأمور المنهى فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ولهذا قال تعالى { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ } لقمان 17 وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة كما قال تعالى في أول المدثر { قُمْ فَأَنْذِرْ } {2} وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ } {3} وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ } {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } {5} وَلَا تَمُنْ بِتَسْكِينِكُمْ } {6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } {7} المدثر 2-7 وقال تعالى { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } الطور 48 وقال { وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ } المزملة 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرُنَا } الأنعام 34 وقال { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ } القلم 48 وقد جمع سبحانه بين التقوى والصبر في مثل قوله { لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 والمؤمنون كانوا يدعون إلى إيمان بالله وما أمر به من المعروف وينهون عما نهى الله عنه من المنكر فيؤذيه المشركون وأهل الكتاب وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه وقال لهم { **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } آل عمران 186 وقد قال يوسف عليه السلام { أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فالتقوى تتضمن طاعة الله ومنها الأمر

¹ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 152

بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر يتناول الصبر على المصائب التي منها أذى المأمور المنهي للأمر الناهي لكن للأمر الناهي أن يدفع عن نفسه ما يضره كما يدفع الإنسان عن نفسه الصائل فإذا أراد المأمور المنهي ضربه أو أخذ ماله ونحو ذلك وهو قادر على دفعه فله دفعه عنه بخلاف ما إذا وقع الأذى وتاب منه فإن هذا مقام الصبر والحلم والكمال في هذا الباب حال نبينا كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت ما ضرب رسول الله بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا نيل منه فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله فقد تضمن خلقه العظيم أنه لا ينتقم لنفسه إذا نيل منه وإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله ومعلوم أن أذى الرسول من أعظم المحرمات فإن من آذاه فقد آذى الله وقتل سابه واجب باتفاق الأمة سواء قيل إنه قتل لكونه ردة أو لكونه ردة مغلظة أوجب أن صار قتل الساب حدا من الحدود والمنقول عن النبي في إحتماله وعفوه عن من كان يؤذيه كثير كما قال تعالى { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } البقرة 109 فالأمر الناهي إذا أذى وكان آذاه تعديا لحدود الله وفيه حق لله يجب على كل أحد النهي عنه وصاحبه مستحق للعقوبة لكن لما دخل فيه حق الأدمي كان له العفو عنه كما له أن يعفو عن القاذف والقاتل وغير ذلك وعفوه عنه لا يسقط عن ذلك العقوبة التي وجبت لحق الله لكن يكمل لهذا الأمر الناهي مقام الصبر والعفو الذي شرع الله لمثله حتى يدخل في قوله تعالى { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وفي قوله { فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } البقرة 109 ثم هنا فرق لطيف أما الصبر فإنه مأمور به مطلقا فلا ينسخ وأما العفو والصفح فإنه جعل إلى غاية وهو أن يأتي الله بأمره فلما أتى بأمره بتمكين الرسول ونصره صار قادر على الجهاد لأولئك والزامهم بالمعروف ومنعهم عن المنكر صار يجب عليه العمل باليد في ذلك ما كان عاجزا عنه وهو مأمور بالصبر في ذلك كما كان مأمور بالصبر أولا والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله فمقصوده إقامة دين الله لا إستيفاء الرجل حظه ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله ف { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ } التوبة 111 حتى إن الكفار إذا أسلموا أو عاهدوا لم يضمنوا ما اتلفوه للمسلمين من الدماء والأموال بل لو أسلموا وبأيديهم ما غنموه من أموال المسلمين كان ملكا لهم عند جمهور العلماء كما كمالك وأبي حنيفة وأحمد وهو الذي مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين فالأمر الناهي إذا نيل منه وأوذى ثم إن ذلك المأمور المنهي تاب وقبل الحق منه فلا ينبغي له أن يقتصر منه ويعاقبه على آذاه فإنه قد سقط عنه بالتوبة حق الله كما يسقط عن الكافر إذا أسلم حقوق الله تعالى كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال الإسلام يهدم ما كان قبله والتوبة تهدم ما كان قبلها والكافر إذا أسلم هدم الإسلام ما كان قبله دخل في ذلك ما اعتدى به على المسلمين في نفوسهم وأموالهم لأنه ما كان يعتقد ذلك حراما بل كان يستحلها فلما تاب من ذلك غفر له هذا الاسحلال وغفرت له توابعه

1

الكامل هو من كان لله اطوع وعلى ما يصيبه اصبر

وفى الصحيح عن النبي أنه كان يقول فى خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق والكامل هو من كان لله اطوع وعلى ما يصيبه أصبر فكلما كان إتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبرا على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا فى غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى {بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} آل عمران 125 وقال الله تعالى {لَتُنْبَلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186¹

قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} التغابن 11 قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} {23} الحديد 22-23 وفى الصحيحين عن النبي أنه قال احتج آدم وموسى فقال انت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شئ فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه فهل وجدت ذلك مكتوبا على قبل ان أخلق قال نعم قال فحج آدم موسى وأدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر قان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لابليس وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فان آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لامة لأجله المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فأجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدار وما قدر من المصائب يجب لاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا واما الذنوب فليس للعبد ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر ويتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 وقال تعالى {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} آل عمران 120 وقال {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال يوسف {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ويجاهد فى سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي اولياء الله ويعادي اعداء الله ويحب فى الله ويبغض فى الله²

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 34 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 675-676 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 108

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 159-160

مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين

والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7-8 وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ولا بد للإنسان من شيئين طاعته بفعل المأمور وترك المحذور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقذور فالأول هو التقوى والثانى هو الصبر قال تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فالتقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور و الصبر يتضمن الصبر على المقذور وقد قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا } آل عمران 118 إلى قوله { وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } آل عمران 120 فبين سبحانه انه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين وقال تعالى { بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّن الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلوهم وقال تعالى { **الَّذِينَ أُشْرِكُوا أَدَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } آل عمران 186 فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بالسنتهم وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة المؤذين بالسنتهم والمؤذين بأيديهم وشر العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون ¹

" إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم "

قال الشيخ أبو محمد عبدالقادر فى كتاب فتوح الغيب لابد لكل مؤمن فى سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتثل به ونهى يجتنبه وقدر يرضى به فاقبل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة فينبغى له ان يلزم بها قلبه ويحدث بها نفسه وياخذ بها الجوارح فى كل أحواله قلت هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهى مطابقة لقوله تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 ولقوله تعالى { **وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** } آل عمران 120 ولقوله تعالى { **وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } آل عمران 186 فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور و الصبر يتضمن الصبر على المقذور فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين والثلاثة فى الحقيقة ترجع إلى إمتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله فحقيقة الأمر أن كل عبد فإنه محتاج فى كل وقت إلى طاعة الله ورسوله و هو أن يفعل فى ذلك الوقت ما أمر به فى ذلك الوقت وطاعة الله ورسوله هى عبادة الله التى خلق لها الجن والإنس كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وقال تعالى { **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** } الحجر 99 وقال تعالى { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** }

¹ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 668 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 507-508

{البقرة 21} لكن هذه الثلاثة وإن دخلت في إمتثال الأمر عند الإطلاق فعند التفصيل والإقتران أما أن تخص بالذكر وأما أن يقال يراد بهذا ما لا يراد بهذا كما في قوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ {هود 123} وقوله { فَأَعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {طه 14} فإن هذا داخل في العبادة إذا أطلق إسم العبادة وعند الإقتران إما أن يقال ذكره عموماً وخصوصاً وأما أن يقال ذكره خصوصاً يغني عن دخوله في العام ومثل هذا قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {الفاتحة 5} وقوله {وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا {9} وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا {10} المزمّل 8-10} وقد ويقال لفظ التبتيل لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة و بالجملة فرق ما بين ما يؤمر به الإنسان إبتداء وبين ما يؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة أو عند حب الشيء وبعضه وكلام الشيخ قدس الله روحه يدور على هذا القطب وهو أن يفعل المأمور ويترك المحذور ويخلو فيما سواهما عن إرادة لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به وما لم يؤمر وما لم يؤمر به العبد بل فعله الرب عز وجل بلا واسطة العبد أو فعله بالعبد بلا هوى من العبد فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به وسيأتى في كلام الشيخ ما يبين مراده وأن العبد في كل حال عليه أن يفعل ما أمر به ويترك ما نهى عنه وأما إذا لم يكن هو أمر العبد بشيء من ذلك فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله وهذه هي الحقيقة في كلام الشيخ وأمثاله وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام أن هذا نوعان أحدهما أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب إما بحب له وإعانة عليه وأما بيبغض له ودفع له والثاني أن لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما فالأول مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره فهو مأمور بحبه وإعانتة عليه كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان وبمحببة ذلك والرضا به وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير إما بنصر مظلوم وإما بتعزية مصاب وإما بإغناء فقير ونحو ذلك وأما ما هو مأمور بيبغضه ودفعه فمثل ما إذا أظهر الكفر والفسوق والعصيان فهو مأمور بيبغض ذلك ودفعه وإنكاره بحسب الإمكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لم يتبين له أنه يستعان بها على طاعة ولا معصية فهذه لا يؤمر بحبها ولا بيبغضها وكذلك مباحات نفسه المحضة التي لم يقصد الإستعانة بها على طاعة ولا معصية مع أن هذا نقص منه فإن الذي ينبغى أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ويقصد الإستعانة بها على الطاعة فهذا سبيل المقربين السابقين الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبه فكان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها وأما من فعل المباحات مع الغفلة أو فعل فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة مع أداء الفرائض وإجتتاب المحارم باطنا وظاهراً فهذا من المقتصدین أصحاب اليمين و بالجملة الأفعال التي يمكن دخولها تحت الأمر والنهي لا تكون مستوية من كل وجه بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيراً للعبد وإلا كان تركها خيراً له وإن لم يعاقب عليها ففضول المباح التي لا تعين على الطاعة عدمها خيراً من وجودها إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله فإنها تكون شاغلة له عن ذلك وأما إذا قدر أنها تشغله عما دونها فهي خيراً له مما دونها وإن شغلته عن معصية الله كانت رحمة في حقه وإن كان إشتغاله بطاعة الله خيراً له من هذا وهذا وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التي يمكن الإستعانة بها على الطاعة كالنوم الذي يقصد به الإستعانة على العبادة والأكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الإستعانة به على العبادة إذا لم

يقصد به ذلك كان ذلك نقصا من العبد وفوات حسنة وخير يحبه الله ففي الصحيحين عن النبي أنه قال لسعد أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في إمرأتك وقال في الصحيح نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة فما لا يحتاج إليه من المباحات أو يحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة فعدمه خير من وجوده إذا كان عدمه يشتغل بما هو خير منه وقد قال النبي في بضع أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر قال أرأيتم لو وضعها في الحرام إما كان عليه وزر قالوا بلى قال فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عما حرمه الله إلى ما أباحه الله ويقصد فعل المباح معتقدا أن الله أباحه والله يحب أن يأخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته كما رواه الإمام أحمد في المسند ورواه غيره ولهذا أحب القصر والفطر فعول المؤمن عن الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التي يثيبه الله عليها وإن فعل مباحا لما إقترن به من الإعتقاد والقصد الذين كلاهما طاعة لله ورسوله وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى و أيضا فالعبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات هو مأمور بالأكل عند الجوع والشرب عند العطش ولهذا يجب على المضطر إلى الميتة أن يأكل منها ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجبا للوعيد كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم وكذلك هو مأمور بالوطف عند حاجته إليه بل وهو مأمور بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه فقول النبي في بضع أحدكم صدقة فإن المباحة مأمور بها لحاجته ولحاجة المرأة إلى ذلك فإن قضاء حاجتها التي لا تنقضى إلا به بالوجه المباح صدقة و السلوك السلوك الأبرار أهل اليمين وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطنا وظاهرا و الثاني سلوك المقربين السابقين وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان وترك المكروه والمحرم كما قال النبي إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم¹

"إحرص على ما ينفعك و استعن بالله "

و كل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون و لا ينفع فما لا يكون به لا يكون و ما لا يكون له لا ينفع و لا يدوم فلذلك أمر العبد أن يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة⁵ والعبد له في المقدر حالان حال قبل القدر و حال بعده فعليه قبل المقدر أن يستعين بالله و يتوكل عليه و يدعوه فإذا قدر المقدر بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به و إن كان بفعله و هو نعمة حمد الله على ذلك و إن كان ذنبا إستغفر إليه من ذلك وله في المأمور حالان حال قبل الفعل و هو العزم على الإمتثال و الإستعانة بالله على ذلك و حال بعد الفعل و هو الأستغفار من التقصير و شكر الله على ما أنعم به من الخير و قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 أمره أن يصبر على المصائب المقدره و يستغفر من الذنب و إن كان إستغفار كل عبد بحسبه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين و قال تعالى { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 و قال يوسف { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 456-463

{يوسف 90} فذكر الصبر على المصائب و التقوى بترك المعائب و قال النبي صلى الله عليه و سلم إحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر و لا يتحسر على الماضي بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالنظر إلى القدر عند المصائب و الإستغفار عند المعائب قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} {23} الحديد 22- 23 و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} {التغابن 11} قال علقمة و غيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و الله سبحانه و تعالى أعلم¹

لم يعذر الله أحدا قط بالقدر

و لم يعذر الله أحدا قط بالقدر و لو عذر به لكان أنبيأؤه و أوليأؤه أحق بذلك و آدم إنما حج موسى لأنه لأمه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له لماذا أخرجتنا و نفسك من الجنة و ما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله و يعلم أنها مقدورة عليه كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} {التغابن 11} قال علقمة و قد روى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم فالعبد مأمور بالتقوى و الصبر فالتقوى فعل ما أمر به و من الصبر على ما أصابه و هذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام {إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {يوسف 90} و قال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} {آل عمران 186} و قال {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} {آل عمران 120} و قال {بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُضِدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} {آل عمران 125} لابد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة و الإستغفار و يبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر و الإستغفار كما قيل لأفضل الخلق {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} {غافر 55} و قد بسط الكلام في غير هذا الموضوع على مناظرة آدم و موسى فإن كثيرا من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب و السنة و إجماع الأمة و منهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له و الحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه او غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة كما جرى لآدم صلوات الله عليه قال تعالى {وَ عَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ} {121} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ} {122} طه 121-122

و قال {فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} {البقرة 37} و كان آدم و موسى أعلم بالله من أن يحتاج أحدهما لذنبه بالقدر و يوافقه الآخر و لو كان كذلك لم يحتاج آدم إلى توبة و لا أهبط من الجنة و موسى هو القائل {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} {القصص 16} و هو القائل {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلَاخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} {الأعراف 151} و هو القائل {أَنْتَ وَلِيِّنَا

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 77

فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ {الأعراف155} و هو القائل لقومه { فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ } البقرة54 فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا بل كان الإحتجاج بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله و قدرها و من الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالمؤمن يصبر على المصائب و يستغفر من الذنوب و المعائب و الجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه و سيئاته و لا يعذر بالقدر من أساء إليه و لا يذكر القدر عند ما يبسرره الله له من الخير فعكس القضية بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها و تفضل بها فلا يعجب بها و لا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها و إذا عمل سيئة استغفر و تاب منها و إذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه ¹

أخذ الله على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدق المبين للناس ما نزل اليهم المبلغ لرسالة ربه المخاطب لهم بلسان عربي مبين قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } إبراهيم4 وقال تعالى { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } الزخرف3 وقال تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ } القمر17 فهذا ونحوه مما يبين أن الرسل عليهم أن يبلغوا البلاغ المبين يقال بان الشيء وأبان واستبان وتبين وبين كلها أفعال لازمة وقد يقال أبان غيره وبينه وتبينه واستبانته ومعلوم أن الرسل فعلوا ما عليهم بل قد أخذ الله على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم ولا يكتمونه ودم كاتميته فقال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ } آل عمران187 وقال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } البقرة140 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } البقرة159 فقد لعن كاتمه وأخبر أنه بينه للناس في الكتاب فكيف يكون قد بينه للناس وهو قد كتم الحق وأخفاه وأظهر خلاف ما أبطن فلو سكت عن بيان الحق كان كاتما ومن نسب الانبياء الى الكذب والكتمان مع كونه يقول انهم انبياء فهو من أشر المنافقين وأخبثهم وأبينهم تناقضا ²

من كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا

وقوله { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } البقرة42 هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا ³

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص:96-98

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 264

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 173

"إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم

يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد"

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرْتُمْ أَوْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } النساء 135 واللي هو تغيير الشهادة والإعراض كتمانها والله تعالى قد أمر بالصدق والبيان ونهى عن الكذب والكتمان فيما يحتاج إلى معرفته وإظهاره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلنَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } المائدة 8 ومن أعظم الشهادات ما جعل الله أمة محمد شهداء عليه حيث قال { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } البقرة 143 وقال تعالى { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } الحج 78 والمعنى عند الجمهور أن الله سماهم المسلمين من قبل نزول القرآن وفي القرآن وقال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } البقرة 140 وقال تعالى { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ } آل عمران 187 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } { 159 } الْإِنشَاءُ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } { 160 } البقرة 159- 160 لا سيما الكتمان إذا لعن آخر هذه الأمة أولها كما في الأثر إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد ¹

"لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب

لدخلتموه"

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبرا بشبر وذراعا بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم قال ومن الناس إلا أولئك فأخبر أنه سيكون في أمتة مضاهاة لليهود

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 16- 18

والنصارى وهم أهل الكتاب ومضاهاة لفارس والروم وهم الأعاجم وقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء وليس هذا إخباراً عن جميع الأمة بل قد تواتر عنه أنه قال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة وأن الله لا يزال يغرّس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكين بهديه الذي هو دين الإسلام محضاً وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود أو إلى شعبة من شعب دين النصارى وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف بل وقد لا يفسق أيضاً بل قد يكون الإنحراف كفراً وقد يكون فسقاً وقد يكون سيئة وقد يكون خطأ وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلاً وأنا أشير إلى بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم التي ابتليت بها هذه الأمة ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم أو الضالين قال الله سبحانه {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} البقرة 109 فذم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم وقد يبغض بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم نافع أو عمل صالح وهو خلق مذموم مطلقاً وهو في هذا الموضوع من أخلاق المغضوب عليهم وقال الله سبحانه {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} {36} الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ {37} النساء 36-37 فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم والبخل بالمال وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر فلذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية مثل قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاسْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} آل عمران 187 الآية وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} البقرة 159 الآية وقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} البقرة 174 الآية وقوله تعالى {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} البقرة 14 فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم تارة بخلا به وتارة اعتياضاً عن إظهاره بالدنيا وتارة خوفاً أن يحتج عليهم بما أظهروه منه وهذا قد ابتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم فإنهم تارة يكتمون العلم بخلا به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه وتارة اعتياضاً عنه برياسة أو مال ويخاف من إظهاره انتقاص رياسته أو نقص ماله وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم وليس الغرض تفصيل ما يجب وما يحتسب بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به¹

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 7

قول القلب وعمله هو الأصل

وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والارادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله تعالى { **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } آل عمران 188 ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفق المؤمنون يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل¹

لطائف لغوية

1- أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبيا للأمر مقصودا له كما في قوله { **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } البقرة 189 { **وَأَحْسِنُوا** } وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ { المائدة 93 وفي قوله { **فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } آل عمران 179 وفي قوله { **اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ** } المائدة 72 وفي قوله { **فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا** } يونس 84 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس الأمور به²

2- قال تعالى { **فَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَقَدْ كُذِّبْتُمْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** } آل عمران 184 زبر يقال زبرت الكتاب إذا كتبتة والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب³

3- والزبر جمع زبور وهي الكتب فإن منهم من أنزل عليه كتاب ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذي قبله⁴

ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر والكتاب المنير وهذا من عطف الخاص على العام لاختصاصه بوصف يختص به كقوله { **وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ** } البقرة 98 فإن

¹ الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 184

² اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

³ مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 290

⁴ الجواب الصحيح ج: 6 ص: 383

الزبر من البيئات والكتاب المنير من الزبر وهو كقوله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ} الحج 8 فإن الهدى من العلم والكتاب المنير من الهدى¹

4- {فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} آل عمران 185 ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار²

5-والاذى المطلق هو باللسان كما قال سبحانه {وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا} آل عمران 186 وان الاذى اسم لقليل الشر وخفيف المكروه لخلاف الضرر فلذلك اطلق على القول لانه لا يضر المؤذي في الحقيقة³

6-ان لفظ الاذى في اللغة هو لما خف امره وضعف اثره من الشر والمكروه ذكره الخطابي وغيره وهو كمال قال واستقراء موارده يدل على ذلك مثل قوله تعالى {لَن يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى} آل عمران 111 وقوله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} البقرة 222 وفيما يؤثر عن النبي انه قال القر بؤس والحر اذى وقيل لبعض النسوة العربيات القر اشد ام الحر فقالت من يجعل البؤس كاللاذى والبؤس خلاف النعيم وهو ما يشقى البدن ويضره بخلاف الاذى فانه لا يبلغ ذلك⁴

7-والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور كما قال تعالى {وَإِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه⁵

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 384

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

³الصارم المسلول ج: 2 ص: 155

⁴الصارم المسلول ج: 2 ص: 118

⁵مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 120

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {189} {إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ} {190} {الَّذِينَ
يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} {191} {رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ
فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} {192} {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي
لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ
الْأَبْرَارِ} {193} {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا
تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} {194} {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ
أَوْ أَنشَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي
سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} {195} {لَا يَغْرَنكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ} {196} {مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} {197} {لَكِنَّ
الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِّنْ عِنْدِ
اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} {198} {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {199} {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {200}

{وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

قال تعالى {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ال عمران 189 اتفق
المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أي في مواضع
كثيرة جدا و قد بسطت الكلام في الرد على من أنكر قدرة الرب في غير مواضع كما قد كتبناه على
الأربعين و المحصل و في شرح الأصبهانية و غير ذلك و تكلمنا على ما ذكره
الرازي و غيره في مسألة كون الرب قادرا مختارا و ما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس
هذا موضعه و المقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون الرسل فنقول هنا
مسائل المسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير و الناس في هذا على ثلاثة أقوال
طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين و كذلك دخل في المقدور كما
قال ذلك طائفة منهم ابن حزم و طائفة تقول هذا عام مخصوص يخصص منه الممتنع لذاته فإنه
و إن كان شيئا فإنه لا يدخل في المقدور كما ذكر ذلك ابن عطية و غيره و كلا القولين خطأ و

الصواب هو القول الثالث الذي عليه عامة النظار و هو أن الممتنع لذاته ليس شيئاً ألبتة و أن كانوا متنازعين في المعدو فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج و لا يتصوره الذهن ثابتاً في الخارج و لكن يقدر إجتماعهما في الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع في الخارج إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان و تصوره في الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة و السكون في الشيء فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد و البياض في محل و احد كما تجتمع الحركة و السكون فيقال هذا غير ممكن فيقدر إجتماع نظير الممكن ثم يحكم بإمتناعه و أما نفس إجتماع البياض و السواد في محل و احد فلا يمكن و لا يعقل فليس بشيء لا في الأعيان و لا في الأذهان فلم يدخل في قوله و هو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدو ليس بشيء في الخارج عند الجمهور و هو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون وقادراً إلا على موجود و ما لم يخلقه لا يكون قادراً عليه و هذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادراً إلا على ما أراده دون ما لم يردده و يحكى هذا عن تلميذ النظام و الذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبتة كالأشعري و من وافقه من أتباع الأئمة أحمد و غير أحمد كالقاضي أبي يعلى و ابن الزاغوني و غيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود و هؤلاء قالوا هو قادر على الموجود و المعدوم و التحقيق أن الشيء إسم لما يوجد في الأعيان و لما يتصور في الأذهان فما قدره الله و علم أنه سيكون هو شيء في التقدير و العلم و الكتاب و أن لم يكن شيئاً في الخارج و منه قوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 و لفظ الشيء في الآية يتناول هذا و هذا فهو على كل شيء ما وجد و كل ما تصوره الذهن موجوداً إن تصور أن يكون موجوداً قدير لا يستثنى من ذلك شيء و لا يزداد عليه شيء كما قال تعالى { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّيَ بِنَانُهُ } القيامة 4 و قال { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } الأنعام 65 و قد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه و سلم أعوذ بوجهك فلما نزل { أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } الأنعام 65 الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين و إن لم يفعلهما و قال { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ } المؤمنون 18 قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا و تهلك مواشيكم و تخرب أراضيكم و معلوم أنه لم يذهب به و هذا كقوله { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ } الواقعة 68 إلى قوله و { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } الواقعة 82 و هذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجاً و هو لم يفعله و مثل هذا { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا } السجدة 13 { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ } يونس 99 { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ } البقرة 253 فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء و هو لم يفعلها فلو لم يكن قادراً عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد و غير أفعال العباد و أكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه و قد نطقت النصوص بهذا و هذا كقوله تعالى { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } يس 81 { أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } القيامة 40 { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّيَ بِنَانُهُ } القيامة 4 و نظائره كثيرة و القدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ } المؤمنون 12 { أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ } البلد 5 و جاءت منصوصاً عليها في الكتاب و السنة أما الكتاب فقوله { فَأَمَّا نَدُّهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ } الزخرف 41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم و هذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة و قوله { وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ } ق 45 و { لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ } الغاشية 22 و نحو ذلك و هو يدل

بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر و ذلك يستلزم قدرته عليهم و قوله { فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } الأنبياء 87 على قول الحسن و غيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه و على أمثاله و كذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى و قال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له و هو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث و أن الله قدر عليه لكن لخشيته و إيمانه غفر الله له هذا الجهل و الخطأ الذي وقع منه و قد يستدل بقوله { أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ } المرسلات 20 الى قوله { فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ } المرسلات 23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين و إن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه و القدرة عليه قدرة على خلقه و جاء أيضا الحديث منصوصا في مثل قول النبي صلى الله عليه و سلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده الله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد و أنه أقدر عليه منه على عبده و فيه إثبات قدرة العبد¹

فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان و لا يكون شيء إلا بقدرته و ما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته و مشيئته و ما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة و كذلك بالعكس و مالا فلا و لهذا قال { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } البقرة 20 و الشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئا كمال ينال نيلا ثم و وضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئا كما يسمى المنيل نيلا فقالوا نيل المعدن و كما يسمى المقذور قدرة و المخلوق خلقا فقوله { **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } **ال عمران 189** أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد و منه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء و قوله { **عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } **ال عمران 189** يتناول ما كان شيئا في الخارج و العلم أو ما كان شيئا في العلم فقط بخلاف مالا يجوز أن تتناوله المشيئة و هو الحق تعالى و صفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم و لهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء²

العلم الحقيقي يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه

قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل و سبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه و تلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار و من هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا و إن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل و نحو ذلك من الأسماء و لهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى و عميا و صما و بكما و ضالين و جاهلين و يصفهم بأنهم لا يعقلون و لا يسمعون و يصف المؤمنين بأولي الألباب و النهي و أنهم مهتدون و أن

¹ مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 11-7

² مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 383

لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون قال تعالى { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** } آل عمران 190¹

قال تعالى { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** } طه 54 أى العقول وقال تعالى { **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ** } الفجر 5 أى لدى عقل وقال تعالى { **وَأَتَقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** } البقرة 197 وقال { **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** } الأنفال 22 وقال تعالى { **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** } الملك 10 وقال تعالى { **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } الأعراف 179 وقال { **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** } الفرقان 44²

أخبر سبحانه بخلقه الزمان في غير موضع

وقد أخبر سبحانه بخلقه الزمان في غير موضع كقوله { **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ** } الأنعام 1 وقوله { **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** } الأنبياء 33 وقوله { **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** } الفرقان 62 وقوله { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** } آل عمران 190³

الله هو مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه

منهم (الرافضة) يتركون الأسباب الدنيوية ويجعلون وجود السبب كعدمه ومنهم قوم يتركون الأسباب الأخروية فيقولون إن سبق العلم والحكم أنا سعاد فنحن سعداء وإن سبق أنا أشقياء فنحن أشقياء فلا فائدة في العمل ومنهم من يترك الدعاء بناء على هذا الأصل الفاسد ولا ريب أن هذا الأصل الفاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين ومخالف لصريح المعقول ومخالف للحس والمشاهدة وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن إسقاط الأسباب نظرا إلى القدر فرد ذلك كما ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي الصحيح أيضا أنه قيل له يا رسول الله أرأيت ما يكدر الناس فيه اليوم ويعملون أشياء

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

³ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 344 و مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 492

قضى عليهم ومضى أم فيما يستقبلون مما أتاهم فيه الحجة فقال بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل له أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هي من قدر الله وقد قال تعالى في كتابه { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأعراف 57 وقال تعالى { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } فاطر 9 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد عسى أن تخلف فينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون فكيف يمكن أن يشهد أن الله لم ينصب على توحيدة دليلاً ولا جعل للنجاة من عذابه وسيلة ولا جعل لما يفعله المتوكل من عباده سبباً وهو مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه لكن الأسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهما الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع¹

الله سبحانه في كل ما يخلقه حكمة

أن الله سبحانه حكيم رحيم وقد أخبر أنه لم يخلق المخلوقات إلا بحكمته كما قال في قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا } ص 27 وقال تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } 190 { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } 191 { آل عمران 190-191 } وقال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِبِينَ } 16 { لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ } 17 { الانبياء 16-17 } وقال و هذا يبين أن معنى قوله في سائر الآيات بالحق هو لهذا المعنى الذي يتضمن حكمته كما قال { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ } الأنعام 73 وقوله { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ } الحجر 85 والمراد هنا أنه سبحانه بين أنه إنما خلق المخلوقات لحكمته و هذا معنى قوله بالحق و قد ذم من ظن أنه خلق ذلك باطلا و عبثا فقال { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } المؤمنون 115 وقال { أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } القيامة 36 وقال { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } 190 { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } 191 { آل عمران 190-191 } فلا بد من جزاء العباد على أعمالهم فلهذا قيل { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ } الحجر 85 و الله سبحانه في كل ما يخلقه حكمة يحبها و يرضاها و هو سبحانه أحسن كل شيء خلقه و أتقن كل ما صنع فما وقع من الشر الموجود في المخلوقات فقد وجد لأجل تلك

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 365-366

الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية فهو من الله حسن جميل و هو سبحانه محمود عليه و له الحمد على كل حال و إن كان شرا بالنسبة إلى بعض الأشخاص¹

وقال تعالى عن المؤمنين { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } آل عمران 191 والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة كما نزهته عن صفات النقص وفي الصحيح عن النبي أنه قال يقول الله تعالى كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فأما تكذيبه إياي فقله أني يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقله أني اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وفي الصحيح عن النبي أنه قال ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليجعلون له ولدا وشريكا وهو يرزقهم ويعافيهم ولهذا كان معاذ بن جبل يقول لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية وحرمت أن يتكلم في حق الله باسم ابن أو ولد سدا للذريعة كما منعت أن يسجد أحد لغير الله وإن كان على وجه التحية كما منعت أن يصلي أحد عند طلوع الشمس وغروبها لئلا يشبهه عباد الشمس والقمر فكانت بسدها للأبواب التي تجعل لله فيها الشريك والولد أكمل من غيرها من الشرائع كما سدت غير ذلك من الذرائع مثل تحريمها قليل المسكر لأنه يجر إلى كثيره فإن أصول المحرمات التي قال الله فيها { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33²

الليل والنهار الذي هو حاصل بالشمس هو تبع للسموات والارض

الليل والنهار الذي هو حاصل بالشمس هو تبع للسموات والارض لم يخلق هذا الليل وهذا النهار قبل هذه السموات والارض بل خلق هذا الليل وهذا النهار تبعا لهذه السموات والارض فان الله اذا اطلع الشمس حصل النهار واذا غابت حصل الليل فالنهار بظهورها والليل بغروبها فكيف يكون هذا الليل وهذا النهار قبل الشمس والشمس والقمر مخلوقان مع السموات والارض وقد قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } الأنبياء 33 وقال تعالى { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } يس 40 قال ابن عباس وغيره من السلف في فلكة مثل فلكة المغزل فقد أخبر تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر في الفلك و الفلك هو السموات عند أكثر العلماء بدليل أن الله ذكر في هاتين الآيتين ان الشمس والقمر في الفلك وقال في موضع آخر { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا } 15 { وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا } 16 { نوح 15-16 فأخبر أنه جعل الشمس والقمر في السموات وقال تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } الأنعام 1 بين أنه خلق السموات والارض وأنه خلق

¹ مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 102

² الجواب الصحيح ج: 4 ص: 152

الظلمات والنور لأن الجعل هو التصيير يقال جعل كذا اذا صيره فذكر أنه خلق السموات والأرض وأنه جعل الظلمات والنور لأن الظلمات والنور مجعولة من الشمس والقمر المخلوقة في السموات وليس الظلمات والنور والليل والنهار جسما قائما بنفسه ولكنه صفة وعرض قائم بغيره فالنور هو شعاع الشمس وضوءها الذي ينشره الله في الهواء وعلى الأرض وأما الظلمة في الليل فقد قيل هي كذلك وقيل هي أمر وجودي فهذا الليل وهذا النهار اللذان يختلفان علينا اللذان يولج الله أحدهما في الآخر فيولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخلف أحدهما الآخر يتعاقبان كما قال تعالى { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** } آل عمران 190 وقال تعالى { **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** } 40 يس 40 بين سبحانه أنه جعل لكل شيء قدرا واحدا لا يتعداه فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر وتلحقه بل لها مجرى قدره الله لها وللقمر مجرى قدره الله له كما قال تعالى { **وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ** } 37 { **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } 38 { **وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** } 39 يس 37-39 ثم قال { **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** } 40 يس 40 أى لا يفوته ويتقدم امامه حتى يكون بينهما برزخ بل هو متصل به لا هذا ينفصل عن هذا ولا هذا ينفصل عن هذا { **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** } يس 40 فالمقصود أن هذا الليل وهذا النهار جعلهما الله تبعا لهذه السموات والارض¹

العبادة غاية مقصودة والاستعانة وسيلة إليها

وحال العبد المحض لله الذي يعبده ويستعينه فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } الفاتحة 5 توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وان كانت الإلهية تتضمن الربوبية والربوبية تستلزم الإلهية فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص معناه عند الاقتران كما في قوله { **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** } 1 { **مَلِكِ النَّاسِ** } 2 { **إِلَهِ النَّاسِ** } 3 { **النَّاسِ** } 1-3 وفي قوله { **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } الفاتحة 2 فجمع بين الاسمين اسم الإله واسم الرب فإن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد و الرب هو الذي يرب عبده فيدبره ولهذا كانت العبادة متعلقة باسم الله والسؤال متعلقا باسم الرب فإن العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق والإلهية هي الغاية والربوبية تتضمن خلق الخلق وانشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم والمصلي إذا قال { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } الفاتحة 5 فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية فالعبادة غاية مقصودة والاستعانة وسيلة إليها تلك حكمة وهذا سبب والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف ولهذا يقال أول الفكرة آخر العمل وأول البغية آخر الدرك فالعلة الغائية متقدمة في التصور والارادة وهي متأخرة في الوجود فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانتة فيقول { **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } الفاتحة 2 ولما كانت العبادة متعلقة باسم الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان الله أكبر الله أكبر ومثل الشهادتين أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله ومثل التشهد التحيات لله ومثل التسبيح والتحميد والتلهيل والتكبير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 597-599

الله و الله أكبر وأما السؤال فكثيرا ما يجيء باسم الرب كقول آدم وحواء { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ } هود 47 وقول موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 وقول الخليل { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ } إبراهيم 37 الآية وقوله مع إسماعيل { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } البقرة 127 وكذلك قول الذين قالوا { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } البقرة 201 ومثل هذا كثير وقد نقل عن مالك أنه قال أكره للرجل أن يقول في دعائه يا سيدي يا سيدي يا منان يا منان يا حنان ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء ربنا ربنا نقله عنه العتبي في العتبية وقال تعالى عن أولي الألباب { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } آل عمران 191 الآيات فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب وأن يسأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسنا وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله وإذا قصد الدعاء دعا باسم الرب¹

فالسؤال كقول السائل لله أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض إذا بالجلال والإكرام وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته وليس ذلك إقساما عليه فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم وعفوه من مقتضى اسمه العفو ولهذا لما قالت عائشة للنبي إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول قال قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادي وفي الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلا أن يقول يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين واجعلني من عبادك الصالحين وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ولهذا يقال في الدعاء يا رب يا رب²

الأمر و النهي و الثواب و العقاب و المعاد مما لا بد منه

من كذب بالرسول بعد الإرسال فكفره ظاهر و لكن من ظن أن الله لا يرسل إليه رسولا و أنه يترك سدى مهملًا لا يؤمر و لا ينهى فهذا أيضا مما ذمه الله إذا كان لا بد من إرسال الرسل و إنزال الكتب كما أنه أيضا لا بد من الجزاء على الأعمال بالثواب و العقاب و قيام القيامة و لهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون فقال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } {27} أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } {28} ص 27-28 و قال تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 330-334 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 284-286

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 207

إِنِّي لَأُتْرَجَعُونَ {المؤمنون 115} وقال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ {85} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ {86} الحجر 85 - 86} وقال {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {الجاثية 22} وقال عن أولي الألباب {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ {آل عمران 191} ونحوه في القرآن مما يبين أن الأمر والنهي والثواب والعقاب والمعاد مما لا بد منه وينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك وأنه يمتنع أن لا يقع وهذا متفق عليه بين أهل الملل المصدقين للرسول من المسلمين وغيرهم من جهة تصديق الخبر فإن الله أخبر بذلك وخبره صدق فلا بد من وقوع مخبره وهو واجب بحكم وعده وخبره فإنه إذا علم أن ذلك سيكون وأخبر أنه سيكون فلا بد أن يكون فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما علمه وأخبر به وكتبه وقدره و أيضا فإنه قد شاء ذلك وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا بد أن يقع كل ما شاءه¹

لا يكون شر محض لا خير فيه

و العدم المحض ليس بشيء حتى يضاف إلى الله تعالى و أما إن كان الشيء موجودا كالآلم و سبب الألم فينبغي أن يعرف أن الشر الموجود ليس شرا على الإطلاق و لا شرا محضا و إنما هو شر في حق من تألم به و قد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ولهذا جاء في الحديث الذي رواه مسلسلا أمنت بالقدر خيره و شره و حلوه و مره وفي الحديث الذي رواه أبو داود لو أنفقت ملء الأرض ذهبا لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خيره و شره و تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك و ما أخطأك لم يكن ليصيبك فالخير و الشر هما بحسب العبد المضاف إليه كالحلو و المر سواء و ذلك ان من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شرا و من تنعم به فهو في حقه خير كما كان النبي صلى الله عليه و سلم يعلم من قص عليه أخوه رؤيا أن يقول خيرا تلقاه و شرا توقاه خيرا لنا و شرا لأعدائنا فإنه إذا أصاب العبد شر سر قلب عدوه فهو خير لهذا و شر لهذا و من لم يكن له وليا و لا عدوا فليس في حقه لا خيرا و لا شرا و ليس في مخلوقات الله ما يؤلم الخلق كلهم دائما و لا ما يؤلم جمهورهم دائما بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم في أغلب الأوقات كالشمس و العافية فلم يكن في الموجودات التي خلقها الله ما هو شر مطلقا عاما فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص و فيه وجه آخر هو به خير و حسن و هو أغلب وجهيه كما قال تعالى { أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ {السجدة 7} و قال تعالى { صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَّنَ كُلَّ شَيْءٍ {النمل 88} و قال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ {الحجر 85} و قال { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا {آل عمران 191} وقد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئا ما إلا لحكمة فتلك الحكمة وجه حسنه و خيره و لا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه و لا فائدة فيه بوجه من الوجوه و بهذا يظهر معنى قوله و الشر ليس إليك²

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 496

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 26

العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى

وأما الناظر في المسألة فهذا يحتاج إلى شيئين إلى أن يظفر بالدليل الهادي وإلى أن يهتدي به وينتفع فأمره الشرع بما يوجب أن ينزل على قلبه الأسباب الهادية ويصرف عنه الأسباب المعوقة وهو ذكر الله تعالى والغفلة عنه فإن الشيطان وسواس خناس فإذا ذكر العبد ربه خنس وإذا غفل عن ذكر الله وسوس وذكر الله يعطي الإيمان وهو أصل الإيمان والله سبحانه هو رب كل شيء ومليكه وهو معلم كل علم وواهبه فكما أن نفسه أصل لكل شيء موجود فذكره والعلم به أصل لكل علم وذكره في القلب والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان كما قال جندب بن عبد الله البجلي وغيره من الصحابة تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فزدنا إيماناً ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه (اقرأ باسم ربك الذي خلق }1} فأمره أن يقرأ باسم الله فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق وقال (باسم ربك الذي خلق }1} خلق الإنسان من علق }2} اقرأ وربك الأكرم }3} الذي علم بالقلم }4} علم الإنسان ما لم يعلم }5} فذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عموماً وخصوصاً وهو الإنسان وأنه المعلم للعلم عموماً وخصوصاً للإنسان وذكر التعليم بالقلم الذي هو آخر المراتب ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذي في القلب وحقيقة الأمر أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى طالب سائل فيذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويدله كما قال يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ومما يوضح ذلك أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال والتفكير والتدبر لا يحصل له ذلك إن لم ينظر في دليل يفيد العلم بالمدلول عليه ومتى كان العلم مستفاداً بالنظر فلا بد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت في قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر فيكون ذلك المعلوم أصلاً وسبباً للتفكير الذي يطلب به معلوماً آخر ولهذا كان الذكر متعلقاً بالله لأنه سبحانه هو الحق المعلوم وكان التفكير في مخلوقاته كما قال الله تعالى { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } آل عمران 191 وقد جاء الأثر تفكروا في المخلوق ولا تتفكروا في الخالق لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات

وأما الخالق جل جلاله سبحانه وتعالى فليس له شبيه ولا نظير فالتفكير الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه وإنما هو معلوم بالفطرة فيذكره العبد وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة لا تنال بمجرد التفكير والتقدير أعني من العلم به نفسه فإنه الذي لا تفكير فيه فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك فيدخل فيها التفكير والتقدير كما جاء به الكتاب والسنة ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرؤن بملازمة الذكر ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك وكثير من أرباب النظر والكلام يأمرؤن بالتفكير والنظر ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق والنظر صحيح إذا كان في حق ودليل كما تقدم فكل من الطريقين فيها حق لكن يحتاج إلى الحق الذي في الأخرى ويجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل وذلك كله باتباع ما جاء به المرسلون وقد بسطنا الكلام في هذا

غير هذا الموضع وبيننا طرق أهل العبادة والرياضة والذكر وطريق أهل والنظر والاستدلال وما في كل منهما من مقبول ومرود وبيننا ما جاءت به الرسالة من الطريق الكاملة الجامعة لكل حق وليس هذا موضع بسط ذلك¹

الباطل ضد الحق والله هو الحق المبين

قال الله تعالى {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} آل عمران 191 قال النبي صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل فإن الباطل ضد الحق والله هو الحق المبين والحق له معنيان أحدهما الوجود الثابت والثاني المقصود النافع كقول النبي صلى الله عليه وسلم الوتر حق والباطل نوعان أيضا أحدهما المعدوم وإذا كان معدوما كان اعتقاد وجوده والخير عن وجوده باطلا لأن الاعتقاد والخبر تابع للمعتقد المخبر عنه يصح بصحته ويبطل ببطلانه فإذا كان المعتقد المخبر عنه باطلا كان الاعتقاد والخبر كذلك وهو الكذب الثاني ما ليس بنافع ولا مفيد كقوله تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} ص 27 وكقول النبي كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فإنهن من الحق وقوله عن عمر ان هذا الرجل لا يحب الباطل وما لا منفعة فيه فالأمر به باطل وقصده وعمله باطل اذ العمل به والقصد اليه والامر به باطل²

الصلاة أعظم التسبيح

فصفات المؤمنين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويصلي أحدهم قائما فإن لم يستطع فقاعدا فإن لم يستطع فعلى جنب فلا يتركون ذكر الله في حال بل يذكرونه حتى في هذه الحال ويصلون في البيوت على المضاجع بخلاف أهل الكتاب والصلاة أعظم التسبيح كما في قوله تعالى {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} {17} وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} {18} الروم 17-18 وقوله { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى } طه 130 وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال كنا جلوسا عند رسول الله إذ نظر القمر ليلة البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ثم قرأ قوله تعالى {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى } طه 130 وهذا معنى قول داود سبحوا الله تسبيحا جديدا والتسابيح التي شرعها الله جديدا كالصلوات الخمس التي

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 38-39

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 415-416

شرعها للمسلمين جديدا ولما أقامها جبريل للنبي قال هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك فكان الأنبياء يسبحون في هذه الأوقات¹

السؤال بالأعمال الصالحة

فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول هي الوسيلة التامة الى سعادة الدنيا والآخرة ومثل هذا كقول المؤمنين {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} آل عمران 193 فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء وقد جاء في حديث رواه أحمد في مسنده وابن ماجه عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى أنه علم الخارج الى الصلاة أن يقول فى دعائه وأسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فإن كان هذا صحيحا فحق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين أن يثيبهم وهو حق أحقه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم وبايجابه على نفسه فى أحد أقوالهم كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذى جعله سببا لإجابة الدعاء كما فى قوله تعالى {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ} الشورى 26 وكما يسأل بوعده لأن وعده يقتضى إنجاز ما وعده ومنه قول المؤمنين {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} آل عمران 193 وقوله {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} {109} فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ} {110} إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} {111} المؤمنون 109-111 ويشبه هذا مناقشة النبى يوم بدر حيث يقول اللهم أنجز لى ما وعدتني وكذلك ما فى التوراة أن الله تعالى غضب على بنى إسرائيل فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ما وعد به ابراهيم فإنه سأله بسابق وعده لإبراهيم ومن السؤال بالأعمال الصالحة سؤال الثلاثة الذين أووا الى غار فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه الله لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه محبة تقتضى إجابة صاحبه هذا سأل ببره لوالديه وهذا سأل بعفته التامة وهذا سأل بأمانته وإحسانه²

حديث الثلاثة الذين أوهم المبيت إلى الغار وهو حديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما فإن الصخرة انطبقت عليهم فقالوا ليدعوا كل رجل منكم بأفضل عمله فقال أحدهم اللهم إنه كانت لى ابنة عم فأحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء وأنها طلبت منى مائة دينار فلما أتيتها بها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تقض الخاتم الا بحقه فتركت الذهب وانصرفت فإن كنت إنما فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فأفرجت فانفرجت لهم فرجة رأوا منها السماء وقال الآخر اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغيق³

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 234-235

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 210 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 288 و ص: 309

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 416-417 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 288

قبلهما أهلا ولا مالا فناء بي طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث اللهم إني استأجرت أجرا فأعطيتهم أجرا غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجرته حتى كثرت منها الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجري فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت أنا لا استهزئ بك فأخذته كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون فهؤلاء دعوا الله سبحانه بصالح الأعمال لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله تعالى ويتوجه به إليه ويسأله به لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر 60 وهؤلاء دعوه بعبادته وفعل ما أمر به من العمل الصالح وسؤاله والتضرع إليه ومن هذا ما يذكر عن الفضيل بن عياض أنه أصابه عسر البول فقال بحبي إياك إلا ما فرجت عني ففرج عنه وكذلك دعاء المرأة المهاجرة التي أحيا الله أبنها لما قالت اللهم إني آمنت بك وبرسولك وهاجرت في سبيلك وسألت الله أن يحيي ولدها وأمثال ذلك وهذا كما قال المؤمنون { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ } {193} رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } {194} آل عمران 193-194 فسؤال الله والتوسل إليه بامتنال أمره واجتتاب نهيه وفعل ما يحب من العبودية والطاعة هو من جنس فعل ذلك رجاء لرحمة الله وخوفا من عذابه وسؤال الله بأسمائه وصفاته كقوله أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض وبأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ونحو ذلك يكون من باب التسبب فإن كون المحمود المنان يقتضي منته على عباده وإحسانه الذي يحمد عليه وكونه الأحد الصمد يقتضي توحيده في صمديته فيكون هو السيد المقصود الذي يصمد الناس إليه في كل حوائجهم المستغنى عما سواه وكل ما سواه مقترون إليه لا غنى بهم عنه وهذا سبب لقضاء المطلوبات

الإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله

الإختلاف في تنزيهه بين المؤمنين والكافرين فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسوله { الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلْنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } غافر 70 فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسول من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك والكافرون بجنس الكتاب والرسول من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم فمن آمن بالرسول آمن بما بلغوه عن الله ومن كذب بالرسول كذب بذلك فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده والكفر بذلك هو الكفر بهذا فتدبر هذا الأصل فإنه فرقان هذا الاشتباه ولهذا كان من يكفر بالرسول تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر كما أنه قد يكفر برب العالمين مثل فرعون وقومه قال الله تعالى { أَكَاغِبُ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ } يونس 2 الآية وقال { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ

{ الأنعام 91 إلى آخر الكلام فإن في هذه الآيات تقرير قواعد وقال عن الوحيد { إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ
الْبَشَرِ { المدثر 25 ولهذا كان أصل الإيمان الايمان بما أنزله قال تعالى { الم {1} ذَلِكَ
الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ {3} البقرة 1-3 إلى قوله
{ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ {4} البقرة 4 وفي وسط السورة { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ { البقرة 136 الآية وفي آخرها
{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّن رُّسُلِهِ { البقرة 285 الآيتين وفي السورة التي تليها { الم {1} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ {2}
نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {3} مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ
الْفُرْقَانَ {4} ال عمران 1-4 وذكر في أثناء السورة الايمان بما أنزل وكذلك في آخرها { رَبَّنَا
إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا { آل عمران 193 إلى قوله { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ { آل عمران 199 }¹

لفظ الأبرار اذا اطلق

قال تعالى { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ { آل عمران 193 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
وكذلك لفظ البر اذا اطلق تناول جميع ما أمر الله به كما في قوله { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13}
وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ {14} الانفطار 13-14 وقوله { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ { البقرة 189 وقوله
{ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ
إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ
{ البقرة 177 فالبر اذا اطلق كان مسماها مسمى التقوى والتقوى اذا اطلقت كان مسماها مسمى البر
ثم قد يجمع بينهما كما في قوله تعالى { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ { المائدة 2 وكذلك لفظ
الذنوب اذا اطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ
أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا { الزمر 53 ثم قد يقرن
بغيره كما في قوله { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا { آل عمران 147 وكذلك لفظ
الأبرار اذا اطلق دخل فيه كل تقى من السابقين والمقتصدین واذا قرن بالمقربين كان أخص قال
تعالى في الأول { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13} وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ {14} الانفطار 13-14
وقال في الثاني { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ {18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ {19} كِتَابٌ
مَّرْقُومٌ {20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ {21} المطففين 18-21 }²

¹ مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 7-9

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 165-166

وعد الله من كلماته التي لامبديل لها

و قد تواتر عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه كان يستعيز و يأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات و في بعض الأحاديث التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وقال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {64} يونس 62-64 وقال تعالى { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَامُ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ } {الأنعام 34} فأخبر في هذه الآية أيضا أنه لامبديل لكلمات الله عقب قوله { فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَامُ نَصَرْنَا } {الأنعام 34} و ذلك بيان أن وعد الله الذي وعده رسله من كلماته التي لامبديل لها لما قال في أولياته { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } يونس 64 فانه ذكر أنه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و أن لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة فوعدهم بنفي المخافة و الحزن و بالبشرى في الدارين وقال بعد ذلك { لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } يونس 64 فكان في هذا تحقيق كلام الله الذي هو وعده كما قال { فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ } إبراهيم 47 وقال { وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الروم 6 و قال المؤمنون { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } آل عمران 194 فاخلاف ميعاده تبديل لكلماته و هو سبحانه لا مبديل لكلماته ¹

إيجابه على نفسه سبحانه ما اخبر به من قسمه ليفعلن

أن الخبر المجرد المطابق للعلم لا يبين وجه فعله وتركه إذ العلم يطابق المعلوم فعلمه بأنه يفعل هذا وانه لا يفعل هذا ليس فيه تعرض لأنه كتب هذا على نفسه وحرم هذا على نفسه كما لو أخبر عن كائن من كان أنه يفعل كذا ولا يفعل كذا لم يكن في هذا بيان لكونه محمودا ممدوحا على فعل هذا وترك هذا ولا في ذلك ما يبين قيام المقتضى لهذا والمانع من هذا فإن الخبر المحض كاشف عن المخبر عنه ليس فيه بيان ما يدعو إلى الفعل ولا إلى الترك بخلاف قوله { كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } {الأنعام 12} وحرم على نفسه الظلم فإن التحريم مانع من الفعل وكتابه على نفسه داعية إلى الفعل وهذا بين واضح إذ ليس المراد بذلك مجرد كتابته انه يفعل وهو كتابة التقدير كما قد ثبت في الصحيح انه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء فإنه قال { كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } {الأنعام 12} ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب كما كتب على نفسه الرحمة إذ كان المراد مجرد الخبر عما سيكون ولكان قد حرم على نفسه كل ما لم يفعله من الإحسان كما حرم الظلم وكما أن الفرق ثابت في حقنا بين قوله { كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } {الأنعام 12} وبين قوله { وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ } {القمر 52} وقوله { مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا } {الحديد 22} وقوله فيبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال له أكتب رزقه وأجله وعمله وشقى

¹ مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 497- 498

أو سعيد فهكذا الفرق أيضا ثابت في حق الله ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} الروم 47 وقول النبي في الحديث الصحيح يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله اعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله اعلم قال حقهم عليه ألا يعذبهم ومنه قوله في غير حديث كان حقا على الله أن يفعل به كذا فهذا الحق الذي عليه هو أحقه على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن وكلمته السابقة كقوله {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ} طه 129 وقوله {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ} السجدة 13 و {لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} إبراهيم 13 {فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} آل عمران 195 {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} الأعراف 6 ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب والمعنى بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض ولهذا قال الفقهاء اليمين إما أن توجب حقا أو منعا أو تصديقا أو تكديبا¹

المهاجرون كانوا مؤمنين به باطنا وظاهرا

قال تعالى {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَبُو أُنْتَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} آل عمران 195 الذين آمنوا بحمده واتبعوه أولا من المهاجرين كانوا مؤمنين به باطنا وظاهرا هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال وصبروا على أنواع المكاره والأذى طائفة كبيرة ذهبت إلى الحبشة مهاجرة بدينها لما عذبتها المخالفون له حتى يرجعوا عن دينه وطائفة كانوا بمكة يعذبون هذا يقتل وهذا يخرج به إلى بطحاء مكة في الحر وتوضع الصخرة على بطنه حتى يكفر وهذا يمنع رزقه ويترك جائعا عريانا ثم إنهم هجروا أحب البلاد إليهم وأفضلها عندهم مكة أم القرى إلى مدينة كانوا فيها محتاجين إلى أهلها وتركوا أموالهم بمكة قال تعالى {فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} آل عمران 195 وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعا واختيارا قبل أن يؤمر أحد بقتال فإنه مكث بمكة بضع عشرة سنة لا يقاتل أحدا ولم يؤمر بقتال بل كان لا يكره أحد على الدين كما قال تعالى {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} البقرة 256 وكانوا خلقا كثيرا ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصا قد جاء بدين لا يوافق عليه أحد وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه ويفارقوا دين آبائهم ويصبروا على عداوة الناس وأذاهم ويهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه من الأهل والمال والوطن وهو مع ذلك لم يعط أحدا منهم مالا ولا كان له مال

¹ مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 148-151

يعطيهم إياه ولا ولي أحد ولا إية ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياها ولا أكره أحدا ولا بقرصة في جلده فضلا عن سوط أو عصا أو سيف¹

من فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه

فمن عرف أن دين الاسلام حق وهو بين النصارى فاذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه وهؤلاء كالنجاشي وغيره وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ} آل عمران 199 وقوله {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} الأعراف 159 وقوله {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} المائدة 83²

فإن الله تعالى قد أخبر في غير موضع أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها كقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} الأعراف 42 وقوله {لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} البقرة 233 وقوله {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} الطلاق 7 وأمر بتقواه بقدر الإستطاعة فقال {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن 16 وقد دعاه المؤمنون بقولهم {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} البقرة 286 فقال قد فعلت فدللت هذه النصوص على أنه لا يكلف نفسا ما تعجز عنه خلافا للجهمية المجبرة ودلت على أنه لا يؤاخذ المخطيء والناسي خلافا للقدرية والمعتزلة فالمجتهد المستدل من إمام وحاكم وعالم وناظر ومناظر ومفت وغير ذلك إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع ولا يعاقبه الله البتة خلافا للجهمية المجبرة وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه خلافا للقدرية والمعتزلة في قولهم كل من استفرغ وسعه علم الحق فإن هذا باطل كما تقدم بل كل من استفرغ وسعه استحق الثواب وكذلك الكفار من بلغته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في دار الكفر وعلم أنه رسول الله فأمن به وأمن بما أنزل عليه واتقى الله ما استطاع كما فعل النجاشي وغيره ولم يمكنه الهجرة إلى دار الإسلام ولا التزام جميع شرائع الإسلام لكونه ممنوعا من الهجرة وممنوعا من إظهار دينه وليس عنده من يعلمه جميع شرائع الإسلام فهذا مؤمن من أهل الجنة كما كان مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون وكما كانت امرأة فرعون بل وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل مصر فإنهم كانوا كفارا ولم يكن يمكنه أن يفعل ومهم كل ما يعرفه من دين الإسلام فإنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه قال تعالى عن مؤمن آل فرعون {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا} غافر 34 وكذلك النجاشي هو وإن كان ملك النصارى فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام بل إنما دخل معه نفر منهم ولهذا لما مات لم يكن هناك من يصلي عليه فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة خرج بالمسلمين إلى المصلى

¹ الجواب الصحيح ج: 5 ص: 392-393

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 74

فصفهم صفوفا وصلى عليه وأخبرهم بموته يوم مات وقال إن أبا لكم صالحا من أهل الحبشة مات وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك فلم يهاجر ولم يجاهد ولا حج البيت بل قد روى أنه لم يكن يصلي الصلوات الخمس ولا يصوم شهر رمضان ولا يؤدي الزكاة الشرعية لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم ونحن نعلم قطعا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه وهذا مثل الحكم في الزنا للمحصن بحد الرجم وفي الديات بالعدل والتسوية في الدماء بين الشريف والوضيع النفس بالنفس والعين بالعين وغير ذلك والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن فإن قومه لا يقرونه على ذلك وكثيرا ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضيا بل وإماما وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك بل هناك من يمنعه ذلك ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها وعمر بن عبد العزيز عودي وأوذي على بعض ما أقامه من العدل وقيل إنه سم على ذلك فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة وإن كانوا لم يلتزموا مع شرائع الإسلام ما لا يقدر على التزامه بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب قال تعالى { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } آل عمران 199 وهذه الآية قالت طائفة من السلف إنها نزلت في النجاشي ويروى هذا عن جابر وابن عباس وأنس ومنهم من قال فيه وفي أصحابه كما قال الحسن وقتادة وهذا مراد الصحابة لكن هو المطاع فإن لفظ الآية لفظ الجمع لم يرد بها واحد وعن عطاء قال نزلت في أربعين من أهل نجران وثلاثين من أهل الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى فأمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ولم يذكر هؤلاء من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة مثل عبد الله بن سلام وغيره ممن كان يهوديا وسلمان الفارسي وغيره ممن كان نصرانيا لأن هؤلاء صاروا من المؤمنين فلا يقال فيهم { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ } آل عمران 199 ولا يقول أحد إن اليهود والنصارى بعد إسلامهم وهجرتهم ودخولهم في جملة المسلمين المهاجرين المجاهدين يقال إنهم من أهل الكتاب كما لا يقال عن الصحابة الذين كانوا مشركين وإن من المشركين لمن يؤمن بالله ورسوله فإنهم بعد الإيمان ما بقوا يسمون مشركين فدل على أن هؤلاء قوم من أهل الكتاب أي من جملتهم وقد آمنوا بالرسول كما قال تعالى في المقتول خطأ { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ } النساء 92 فهو من العدو ولكن هو كان قد آمن وما أمكنه الهجرة وإظهار الإيمان والتزام شرائعه فسماه مؤمنا لأنه فعل من الإيمان ما يقدر عليه وهذا كما أنه قد كان بمكة جماعة من المؤمنين يستخفون بإيمانهم وهم عاجزون عن الهجرة قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } { 97 } إلا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا } { 98 } فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا } { 99 } النساء 97- 99 فعذر سبحانه المستضعف العاجز عن الهجرة وقال تعالى { وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أُمَّهَاتُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } { النساء 75 } فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم فقد سقط عنهم ما عجزوا عنه فإذا كان هذا فيمن كان مشركا وآمن فما الظن بمن كان من أهل الكتاب وآمن وقوله { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ } { النساء 92 } قيل هو الذي يكون عليه لباس أهل الحرب مثل أن يكون في صفهم فيعذر القاتل لأنه مأثور بقتاله فتسقط عند الدية

وتجب الكفارة وهو قول الشافعي وأحمد في أحد القولين وقيل بل هو من أسلم ولم يهاجر كما يقوله أبو حنيفة لكن هذا قد أوجب فيه الكفارة وقيل إذا كان من أهل الحرب لم يكن له وارث فلا يعطى أهل الحرب دينه بل تجب الكفارة فقط وسواء عرف أنه مؤمن وقتل خطأ أو ظن أنه كافر وهذا ظاهر الآية وقد قال بعض المفسرين إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه كما نقل عن ابن جريج ومقاتل وابن زيد يعني قوله {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} آل عمران 199 وبعضهم قال إنها في مؤمني أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهذا إن أراد به من كان في الظاهر معدودا من أهل الكتاب فهو كالقول الأول وإن أراد العموم فهو كالثاني وهذا قول مجاهد ورواه أبو صالح عن ابن عباس وقول من أدخل فيها مثل ابن سلام وأمثاله ضعيف فإن هؤلاء من المؤمنين ظاهرا وباطنا من كل وجه لا يجوز أن يقال فيهم {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} آل عمران 199 أما أولا فلأن ابن سلام أسلم في أول ما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وقال فلما رأيت وجهه علمت أنه وجهه ليس بوجه كذاب وسورة آل عمران إنما نزل ذكر أهل الكتاب فيها لما قدم وفد نجران سنة تسع أو عشر وثانيا أن ابن سلام وأمثاله هو واحد من جملة الصحابة والمؤمنين وهو من أفضلهم وكذلك سلمان الفارسي فلا يقال فيه إنه من أهل الكتاب وهؤلاء لهم أجور مثل أجور سائر المؤمنين بل يؤتون أجرهم مرتين وهم ملتزمون بجميع شرائع الإسلام فأجرهم أعظم من أن يقال فيه أولئك لهم أجرهم عند ربهم وأيضا فإن أمر هؤلاء كان ظاهرا معروفا ولم يكن أحد يشك فيهم فأي فائدة في الإخبار بهم وما هذا إلا كما يقال الإسلام دخل فيه من كان مشركا ومن كان كتابيا وهذا معلوم لكل أحد بأنه دين لم يكن يعرف قبل محمد صلى الله عليه وسلم فكل من دخل فيه كان قبل ذلك إما مشركا وإما من أهل الكتاب إما كتابيا وإما أميا فأي فائدة في الإخبار بهذا بخلاف أمر النجاشي وأصحابه ممن كانوا متظاهرين بكثير مما عليه النصارى فإن أمرهم قد يشتبه ولهذا ذكروا في سبب نزول هذه الآية أنه لما مات النجاشي صلى الله عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال قائل نصلي على هذا العالج النصراني وهو في أرضه فنزلت هذه الآية هذا منقول عن جابر وأنس بن مالك وابن عباس وهم من الصحابة الذين باشرُوا الصلاة على النجاشي وهذا بخلاف ابن سلام وسلمان الفارسي فإنه إذا صلى على واحد من هؤلاء لم ينكر ذلك أحد وهذا مما يبين أن المظهرين للإسلام فيهم منافق لا يصلى عليه كما نزل في حق ابن أبي وأمثاله وأن من هو في أرض الكفر قد يكون مؤمنا يصلى عليه كالنجاشي ويشبه هذه الآية أنه لما ذكر تعالى أهل الكتاب فقال {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} {110} لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} {111} ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} {112} لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} {113} يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} {114} وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} {115} آل عمران 110-115 وهذه الآية قيل إنها نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل إن قوله {مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} آل عمران 110 هو عبد الله بن سلام وأصحابه وهذا والله أعلم من نمط الذي قبله فإن هؤلاء ما بقوا من أهل الكتاب وإنما المقصود من هو منهم في الظاهر وهو مؤمن لكن لا يقدر على ما يقدر عليه المؤمنون المهاجرون المجاهدون كمؤمن آل فرعون هو من آل فرعون وهو مؤمن ولهذا قال تعالى {وَقَالَ رَجُلٌ مُُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ} غافر 28

فهو من آل فرعون وهو مؤمن وكذلك هؤلاء منهم المؤمنون ولهذا قال تعالى { وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } آل عمران 110 وقد قال قبل هذا { وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } آل عمران 110 ثم قال { مَنَّهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } آل عمران 110 ثم قال { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَى } آل عمران 111 وهذا عائد إليهم جميعهم لا إلى أكثرهم ولهذا قال { وَإِنْ يُفَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ } آل عمران 111 وقد يقاتلون وفيهم مؤمن يكتفئ إيمانه يشهد القتال معهم ولا يمكنه الهجرة وهو مكره على القتال ويبعث يوم القيامة على نيته كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يغزو جيش هذا البيت فبينما هم بببءاء من الأرض إذ خسف بهم فقبل يا رسول الله وفيهم المكره فقال يبعثون على نياتهم وهذا في ظاهر الأمر وإن قتل وحكم عليه بما يحكم على الكفار فالله يبعثه على نيته كما أن المنافقين منا يحكم لهم في الظاهر بحكم الإسلام ويبعثون على نياتهم فالجزاء يوم القيامة على ما في القلوب لا على مجرد الظواهر ولهذا روي أن العباس قال يا رسول الله كنت مكرها قال أما ظاهره فكان علينا وأما سريرتك فإلى الله وبالجملة لا خلاف بين المسلمين أن من كان في دار الكفر وقد آمن وهو عاجز عن الهجرة لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها بل الوجوب بحسب الإمكان وكذلك ما لم يعلم حكمه فلو لم يعلم أن الصلاة واجبة عليه وبقي مدة لم يصل لم يجب عليه القضاء في أظهر قولي العلماء وهذا مذهب أبي حنيفة وأهل الظاهر وهو أحد الوجهين في مذهب أحمد وكذلك سائر الواجبات من صوم شهر رمضان وأداء الزكاة وغير ذلك ولو لم يعلم تحريم الخمر فشربها لم يحد باتفاق المسلمين وإنما اختلفوا في قضاء الصلاة وكذلك لو عامل بما يستحله من ربا أو ميسر ثم تبين له تحريم ذلك بعد القبض هل يفسخ العقد أم لا كما لا يفسخه لو فعل ذلك قبل الإسلام وكذلك لو تزوج نكاحا يعتقد صحته على عادتهم ثم لما بلغه شرائع الإسلام رأى أنه قد أدخل ببعض شروطه كما لو تزوج في عدة وقد انقضت فهل يكون هذا فاسدا أو يقر عليه كما لو عقده قبل الإسلام ثم أسلم وأصل هذا كله أن الشرائع هل تلزم من لم يعلمها أم لا تلزم أحدا إلا بعد العلم أو يفرق بين الشرائع الناسخة والمبتدأة هذا فيه ثلاثة أقوال هي ثلاثة أوجه في مذهب أحمد ذكر القاضي أبو يعلى الوجهين المطلقين في كتاب له وذكر هو وغيره الوجه المفرق في أصول الفقه وهو أن النسخ لا يثبت في حق المكلف حتى يبلغه النسخ وخرج أبو الخطاب وجهها بثبوتها ومن هذا الباب من ترك الطهارة الواجبة ولم يكن علم بوجوبها أو صلى في الموضوع المنهى عنه قبل علمه بالنهاي هل يعيد الصلاة فيه روايتان منصوصتان عن أحمد والصواب في هذا الباب كله أن الحكم لا يثبت إلا مع التمكن من العلم وأنه لا يقضى ما لم يعلم وجوبه فقد ثبت في الصحيح أن من الصحابة من أكل بعد طلوع الفجر في رمضان حتى تبين له الحبل الأبيض من الأسود ولم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالقضاء ومنهم من كان يمكث جنبا مدة لا يصلي ولم يكن يعلم جواز الصلاة بالتيمة كأبي ذر وكعمر بن الخطاب وعمار لما أجنبوا ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أحدا منهم بالقضاء ولا شك أن خلقا من المسلمين بمكة والبوادي صاروا يصلون إلى بيت المقدس حتى بلغهم النسخ ولم يؤمروا بالإعادة ومثل هذا كثير وهذا يطابق الأصل الذي عليه السلف والجمهور أن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها فالوجوب مشروط بالقدرة والعقوبة لا تكون إلا على ترك مأمور أو فعل محظور بعد قيام الحجة¹

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 111-125 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 217-227 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 314-317 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 202-210

توحيد الله وإخلاص الدين له هو قلب والإيمان

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } الزخرف 63 فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك فى مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} آل عمران 200¹

لطائف لغوية

- 1- {وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} آل عمران 189 قدير منزه عن العجز والضعف²
- 2- وقال تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 190 وقال {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} الفرقان 62 وقال {إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} يونس 6 أي هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا فهما يتعاقبان³

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

³منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 524

3- قال تعالى { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } آل عمران 191 والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده ¹

4- { وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ } آل عمران 191 وجنب الشيء وجانبه قد يراد به منتهاه وحده ويسمى جنب الإنسان (جنب الإنسان المتصل بأضلاعه) جنبا بهذا الاعتبار وقال النبي لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب ²

5- { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ } آل عمران 193 فالذنوب المعصية والمعصية تضييع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي ³

6- قال الله سبحانه { بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ } آل عمران 195 أى أنتم نوع واحد متفقون فى القصد والهدى كالروحين اللتين تتفقان فى صفاتهما وهى الجنود المجندة التى قال النبى الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ⁴

7- فقول القائل أنا من هذا وهذا منى أى أنا من نوعه وهو من نوعي لأن الشخصين لا يتحدان إلا بالنوع كما فى قوله تعالى { بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ } آل عمران 195 وقوله عليه الصلاة والسلام لعلي أنت منى وأنا منك ⁵

8- قوله تعالى { وَلَا تَدْخُلْنَهُمْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } آل عمران 195 فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله { وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } يوسف 82 وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال ⁶

9- قال تعالى { لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ } {198} وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 416

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 362

⁴مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 73

⁵اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 46

⁶مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

إِيَّاهُمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ {199} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {200} ال
 عمران 198-200 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك إذا أفرد اسم طاعة
 الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى
 إذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله
 على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما
 في قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} {54} فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ {55} القمر 54-55
 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
 وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} {3} الطلاق 2-3 وقوله {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ} يوسف 90 وقوله
 { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1 ¹

10- قال تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } آل عمران 200 أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله
 به ايجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد ²

11- أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان
 كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل
 والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايفة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى
 كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبيا للأمر مقصودا له كما في قوله { وَاتَّقُوا
 اللَّهَ } البقرة 282 وفي قوله { وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } البقرة 195 وفي قوله { آمَنُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } الحديد 7 وفي قوله { اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } المائدة 72 وفي قوله { فَعَلَيْهِ
 تَوَكَّلُوا } يونس 84 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل
 هي نفس الأمور به ³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 90

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

رَبِّ

أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي

إِنِّي نُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"

الحمد لله رب العالمين

####